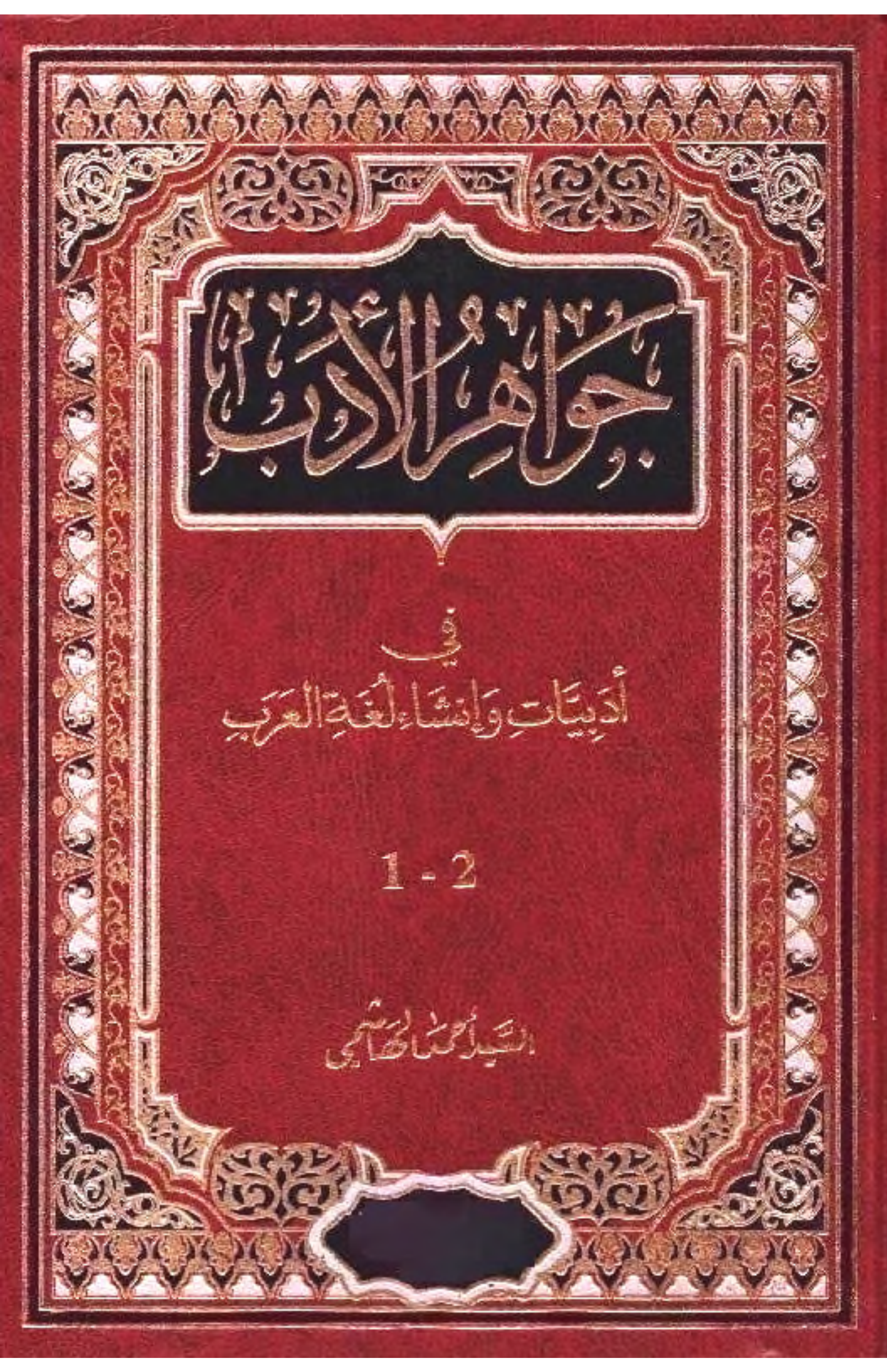


جواهر الأدب
في
أدبيات وإنشاء لغة العرب
1 - 2
السيد أحمد الهاشمي



تأليف
المرحوم السيد أحمد الهاشمي

مدير مدارس فؤاد الأول

ومراقب مدارس فيكتوريا سابقا

يطلب من
المكتبة التجارية الكبرى
بمصر ص ب ٥٧٨



تأليف

المرحوم السيد أحمد الهاشمي

مدير مدارس فؤاد الأول

ومراقب مدارس فيكتوريا سابقا

الجزء الأول

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى

بمصر ص ب ٥٧٨

الطبعة السابعة والعشرون سنة ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م

قرظت على طبعه مشيخة الأزهر الشريف
وقرظه أيضا كثير من فضلاء وزارة التربية والتعليم

بسم الله الرحمن الرحيم

أَحلى ما سجعتْ به بلابلُ الأَقلام ، وأَغلى ما انتظمت فيه عقودُ البلاغة والانْسِجام ، وأَشهى ما ينعت به (جَوَاهر الأَدب) حمدُ مولانا الذى شَرَّف لغة العرب ، وأَرسل لنا نبيًّا عربِيًّا منزهًا عن جميع الرِّيب ، سيدنا محمدًا صلى الله عليه وعلى آله ومَنْ صَحَب .

(أَمَّا بعْدُ) فهذا كتاب سميتُهُ «جَوَاهر الأَدب ، فى أَدبيَّات وإِنشاءِ لغة العرب» أَودعته ما وقع عليه اختيارى ، لا من نثرى وأَشعارى ، فليس لى فى تأْليفه من الافتخار ، أَكثرُ من الاختيار ، واختيار المرءِ قطْعَةٌ من عقله ، تدلُّ على تخلُّقِه وفضله . وفضيلة هذا التأليف هى جمع ما افترق ، مما تَنَاسَبَ وَاتَّسَقَ ، واختيار عيون ، وترتيب فنون ، من أَحاديث نبوية ، ومكاتبات أَدبيَّة ، وحِكم باهِرَة ، وأَبياتٍ نادرة ، وأَمثال شاردة ، وأَخبار واردة ، ووصايا نافعة ، ومَوَاعِظ جامعة ، ومُنَاظَرات مستظرفة ، ومقامات مستطرفة ، وأَوصاف عَلِيّة ، وخُطب اجتماعية ، لينتفع به مُقتنيه ، ويستغنى عن غيره الرَّاغبُ فيه ، إِذ كان أَحسَنَ من الزهر والرياض ، والحدائق والغياض ، والزبرجد والمرجان ، والدُّرّ والعقيان ، والأَكاليل والتيجان ، والنزه والبستان ، إِن دُعِىَ أَسرع ، وإِن تحدث أَمتع ، وإِن سُئلَ أَجاب ، وإِن حكم أَصاب ، جليس لصاحبه فى الحضر وأَنيس له فى السفر ، نديم ظريف ، وسمير حصيف ، بالغتُ فى تهذيبه ، وبذلت مجهودًا فى حسن ترتيبه ، وأَجزلتُ التُّحفة ، وانتقيت الطرفة ؛ وبالله نستعين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

المؤلف

السيد أحمد الهاشمى

تقريظ

وتقدير العلماء والعظماء لكتاب جواهر الأدب

١ ـ كتب إلىَّ صاحب الفضيلة أُستاذى الأَكبر شيخ الأَزهر الشيخ حسونة النواوى :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذى عَلَّم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ، والصلاة والسلام على أَفصح العرب ، وعلى آله وصحبه الذين انتهجوا منهج الأَدب. أَما بعد ، فقد اطلعت على الكتاب المسمَّى «بجواهر الأَدب فى أَدبيات وإنشاء لغة العرب» لمؤلفه الأَلمعى ولدنا الأَستاذ الفاضل السيد أَحمد الهاشمى ، فأَلْفَيْتُه مشتملاً على فن الإنشاءِ والأَمثال وافياً بالمقصود ، واسع المجال ، صحيح العبارة ، واضح الإشارة ، نافعاً فى بابه ، مفيداً لمطالعيه وطلابه ؛ نفع الله به وبمؤلفه ومحبيه بجاه نبيه وآله وصحبه وتابعيه .

٢ ـ وكتب إلىَّ أُستاذى الإمام الحكيم فيلسوف الشرق المرحوم الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن اتبعه فوالاه . وبعد ، فقد اطلعت على مجموع كتاب «جواهر الأَدب» المنتخب من حدائق العرب ، فإذا هو مجموعة لا بأْس بها ، وافياً بما تريده الطلبة من الكتابة ووسائلها :

كما أَزهرت روضات حسن وأَثمرت فأَضحت وعُجْمُ الطير فيها تُغَرِّدُ

فقد جمع لهم من عيون الكلام وروائع اللفظ مايحتذون حذوه ، وينسجون على منواله ، حتى لا تستعصى عليهم الكتابة بل يسلس لهم قيادها ، وبُعَيْدَ أَن يصل من يحاول صناعة الإنشاءِ إلى ما يرضى منه بدون أَن يرد الطرف فى كثير من كلام الفصحاءِ ، ويرد من مناهله كل عذب صاف ، ويحيط بشىءٍ عظيم من

أَساليب الكتاب حتى يتشبَّع من كلامهم ، وتنطبع فيه صورة من مجموع صورهم ولم يكن فيما بين أَيديهم من الكتب ما يفى لهم بهذا الغرض ، حتى وُفِّقَ حضرة ولدنا الأُستاذ الهاشمى لسدِّ هذه الثلمة بما كابده من التعليم زمناً كبيراً . ولا بدع فخير الأَطباء من عرف حقيقة الداءِ ، فيصف له أَنجع الدواءِ ، ولقد عرف هذا الأُستاذ العصامى حاجة العصر وناشئته إلى كتاب موضوع على أُسلوب عصرى يلائم أَذواق بنى العصر من معلمين ومتعلمين ، فإذا حاول أَهل العلم والتعليم أَن يشكروا له صنيعه فقد حاولوا عظيما وطلبوا خطيراً ، وحسب العامل أَن يقوم بشكره عملُه ، فالعمل أَعرف شئٍ بجميل عامله ، وفقنا الله وإياه لما يُحِبُّه ويرضاه ، وأَسأَله أَن ينفع به الطلاب ، ويجزل فيه الثواب .

٣ – وكتب شيخ الإسلام صاحب الفضيلة أُستاذى الأَكبر المرحوم الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأَزهر :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذى أَنشأَ العالم على أَبدع مثال ، ونظم أَحواله بمعارف أَرباب العلوم حتى بلغ حد الكمال ، ونشر عجائب المعارف فى أَرجائه ، وغرائب العوارف فى أَنحائه ، والصلاة والسلام على ينبوع العلم وجواهر الأَدب سيدنا ونبينا محمد أَشرف مخلوق فى العجم والعرب ، وعلى آله وصحبه ذوى المناصب والرتب . أَما بعد ، فقد تناولت كتاب « جواهر الأَدب فى إنشاءِ لغة العرب » كما يتناول الكتاب المرقوم ، وفضضتُه كما يفض الرحيق المختوم ، واطلعت عليه فوجدته حوى من المبانى أَدقها ، ومن المعانى أَرقها ، ومن النثر أَعلاه ، ومن النظم أَحلاه ؛ ارتحت لعيانه ، واهتززت لعنوانه ، إذ قد جمع فيه الأَجناس ومما لا يستحيل الانعكاس ما أَدهش قاطبة الناس ؛ فلو شامه « البهائى » قبل تأْليف « مخلاته وكشكوله » لاعترف لهذا المولف وارعوى من فضوله ، وهو حضرة العالم الهمام اللوذعى ، الإمام ولدنا السيد أَحمد الهاشمى ، أَكثر الله من أَمثاله ، بجاه النبى وآله .

٤ ــ وكتب إلىَّ فضيلة أُستاذى المرحوم الشيخ حمزة فتح الله المفتش الأَول بوزارة المعارف العمومية :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أَى بنىَّ الجهبذ النحرير والفذ العبقرى «السيد أَحمد الهاشمى» قد تصفَّحْت مجموعتك المختارة التى سميتها «جواهر الأَدب فى أَدبيات وإِنشاءِ لغة العرب» فإِذا هى دائرة معارف كبرى لا يستغنى عنها أَديب ، كلها صحاح وعلم صراح :

وما عسى أَن يقال فى وصف صحاح الجوهرى

إِى وربِّى إِنه لكتاب صَرَّح على المخض زبده ، وأَسفر عن الأَدب ، فلم تتلفع بفضل مئزرها دعد ، وانفردت سطوره عن فضل اختيار ، وتعَرَّى ليل عن بياض نهار ، جلاه الفرناس ، على صفحات القرطاس .

اختار فى كتابه هذا من منتخبات الكتَّاب والشعراء ما يشفى الغلة ، ويروى الصدى ، ولقد أَتى فيما انتقاه لكتابه الثمين بيوت الكلام من أَبوابها ، وميّز أَبكارها من أَترابها ، وأَهدى إِلى هولاءِ الشادين كلاماً يلطف كالهواءِ رقة ، ويسيل كالماءِ عذوبة ، يمتزج بالنفوس لنفاسته ، ويشرب بالقلوب لسلاسته :

أَحاديث لو صِيغت لأَلهت بحسنها عن الوشى أَو شُمَّت لأَغنت عن المسك

وبعد ، فإِن سنن مؤلفك العظيم القويم ، ما منى بشين ، فخشيت عليه العين ، وما أَطيب الخزامى فى قول بعض القدامى :

ما كان أَحوج ذا الكمال إِلى عيب يوقيه من العين

كيف لا ، وقد عرفنا هذا المؤلف النابغة كاتباً مجيداً يفلَّ الحزَّ ، ويطبق المفصل ، له حلى من البلاغة يتقلدها فيكاد السحر يحسدها ، يدل عليه بيانه كما يدل على الجواد عنانه ، فمن عرفه فقد اكتفى ، ومن قصر فلينشد :

قد عرفناك باختيارك إِذ كا ن دليلا على اللبيب اختياره

فما أَجدر كتابه أَن يختص بسرعة المجال فى المجالس ، وخفة المدار فى المدارس

بل إن (هذا الكتاب يهدى التى هى أقوم) جزى الله مؤلفه خير الجزاء وأثابه أحسن المثوبة ، وأكثر فى الأمة من أمثاله ، لتبلغ من حسن القول والفعل غاية الكمال .

٥ - وكتب إلىَّ صديقى المرحوم حسن أفندى توفيق العدل المدرس بكلية كمبردج - بانجلترا :

عزيزى حضرة الأستاذ الفاضل السيد أحمد الهاشمى

تشرفت بكتابك المسمى « جواهر الأدب فى أدبيات وإنشاء لغة العرب » فوجدت بين اسمه ومسماه مناسبة اقتضاها طبعك السليم ، واتصالاً قريباً كاتصال الصديق الحميم ؛ فما أنفس فرائده ، وأثمن فوائده ، وأفصح مقاله ، وأفسح مجاله . صدر هذا الكتاب عن علم سابق ، وفكر ثاقب ، وذهن رائق ، ونفس صادق ، ورَوية ملأت تصانيفها المغارب والمشارق ؛ فأكرم به من كتاب « جواهر » تكونت من ألفاظ عذاب ، ومواهب لا تدرك بيد اكتساب ، فسبحان من يرزق من يشاءُ بغير حساب . إذا تدبَّرَه الأديب أغنته تلك الأفانين عن نغمات القوانين ، وإذا تأمله الأريب نزه طرفه رياض البساتين ، قد سوّر على كل فنٍّ من البديع باب ، لا يدخله إلا من خص من البلاغة باللباب ، والله تعالى يؤتيه الحكمة وفصل الخطاب .

حسن توفيق العدل

المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية بنظارة المعارف العمومية

وقال صاحب الدولة المرحوم سعد باشا زغلول مخاطباً لى :

كتابك هذا يا أستاذ « فضل ونعمة » ، « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ والله ذو الفضل العظيم » .

وإنه لدائرة معارف أدبية كبرى ، وأنفس كتاب ألف فى اللغة العربية وتاريخ آدابها ، صدر عن تجربة وحكمة « ومن يُؤت الحكمة فقد أُوتى خيراً كثيراً » .

سعد زغلول

اليكم معشر الكتاب

أَما بعد ـ حفظكم الله ياأَهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأَرشدكم فإِن الله عز وجل جعل الناس بعد الأَنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أَجمعين ومن بعد الملوك المكرمين ، أَصنافاً وإِن كانوا فى الحقيقة سواء ، وصَرَّفهم فى صنوف الصناعات وضُرُوب المحاولات إِلى أَسباب معاشهم وأَبواب أَرزاقهم . فجعلكم معشر الكُتَّاب فى أَشرف الجهات أَهل الأَدب والمروءة والعلم والرواية بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أُمُورُها ، وبنصائحكم يُصْلح الله للخلق سُلطانهم ويَعْمُرُ بُلدانهم . لا يستغنى الملك عنكم ، ولا يُوجد كافٍ إِلا منكم . فموقعكم من الملوك موقعُ أَسماعهم التى بها يَسْمَعُون ، وأَبصارهم التى بها يُبْصِرون ، وأَلسنتهم التى بها يَنْطِقُون ، وأَيديهم التى بها يَبْطشون(١) ، فأَمتعكم(٢) الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما أَضْفَاهُ(٣) من النعمة عليكم ، وليس أَحدٌ من أَهل الصناعات كلها أَحْوَج إِلى اجتماع خِلال الخير المحمودة وخِصال الفضل المذكورة المعدودة منكم .

أَيها الكُتَّاب : إِذا كُنْتم على ما يأْتى فى هذا الكتاب مِنْ صِفَتِكم ، فإِن الكاتبَ يحتاجُ من نفسه ويحتاج مِنْهُ صاحبُه الذى يثقُ به فى مُهمَّاتِ أُمُورِه أَن يكون حليما فى موضع الحلم فَهيماً فى موضع الحُكْم ، مِقْدَاماً فى موضع الإِقدام محجاماً فى موضع الإِحجام(٤) ، مُؤثراً (٥) للعفاف والعدل والإِنصاف ، كَتُوماً للأَسرار ، وفيًّا عند الشدائد ، عالماً بما يأْتى من النَّوَازل ، يضع الأُمور مواضعها

---

(١) يدافعون (٢) أبقاكم (٣) أفاضه

(٤) التأخر (٥) مختارا له

والطَّوَارِق أَماكنها . قد نظر فى كل فن من فنون العلم فأَحكمه فإن لم يُحْكِمه أَخذ منه بمقدار مايكتفى به ، يَعْرف بغريزة عقله وحسن أَدبه وفضل تجربته ما يَرِدُ عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيعدُّ لكل أَمر عُدَّته(١) وعتاده(٢) ويهيِّئ لكل وجه هيئته وعادته .

فتنافسوا يا معشر الكتاب صنوف الآداب ، وتفقَّهُوا فى الدين وابدءُوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية ، فإنها ثِقَاف(٣) أَلسنتكم ، ثم أَجيدوا الخط فإنه حلية كُتبكم ، وارووا الأَشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأَحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم ما تسمو إليه هممكم ، ولا تُضَيِّعوا النظر فى الحساب فإنه قَوَامُ (٤) كُتَّاب الخراج ، وارغبوا بأَنفسكم عن المطامع سَنِيِّهَا(٥) ودنيِّها ، وسفساف(٦) الأُمور ومحاقرها فإنها مذلة للرقاب مفسدة للكتَّاب ، ونزِّهوا صناعتكم عن الدناءة وارْبأُوا(٧) بأَنفسكم عن السِّعاية والنميمة وما فيه أَهل الجهالات . وإياكم والكِبْرَ والصلَفَ والعظمة فإنها عداوة مجتلبة من غير إِحْنَة(٨) وتحابُّوا فى الله عز وجل فى صناعتكم وتواصوا عليه بالذى هو أَليق بأَهل الفضل والعدل والنُّبْل(٩) من سلفكم ، وإن نَبَا (١٠) الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وَوَاسُوه حتى يرجع إليه حاله ، ويَثُوبَ(١١) إليه أَمره ، وإن أَقْعَدَ أَحدًا منكم الكِبَر عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظِّمُوهُ وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه أَحفظ منه على ولده وأَخيه ، فإن عَرَضَت فى الشغل محمدة فلا يصرفها إلا إلى صاحبه ، وإن عرضت مذمة فيحملها هو من دونه ، وليحذر

---

(١) ما أعددته لحوادث الدهر (٢) العدة (٣) تعديلها (٤) نظام (٥) رفعها (٦) الردىء من كل شىء (٧) أعرضوا وفروا (٨) اضمار حقد (٩) الرفعة والسمو (١٠) قصر ونفر (١١) يرجع

السقطة والزلة والملل عند تغير الحال ، فإن العيب إليكم معشر الكُتّاب أَسرعُ منه إلى الفِرَاءِ (١) وهو لكم أَفسد منه لها ، فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبهُ الرجل يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه أَن يعتقد له من وفائه وشكره ، واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سِرِّه وتدبير أَمره ما هو جزاء لحقه ، ويُصْدِقُ ذلك فعله له عند الحاجة إليه والاضطرار إلى ما لديه ، فاستشعروا ذلك وفقكم الله من أَنفسكم فى حالتى الشدة والرخاء والحرمان والمواساة والإحسان والسَّرَّاءِ(٢) والضراءِ ، فنعمت الشيمة هذه لمن وُسم بها من أَهل هذه الصناعة الشريفة المنيفة .

وإذا وَلِىَ الرجل منكم أَو صُيِّرَ إليه من أَمر خلق الله أَمرٌ فليرقب الله عز وجل وليؤثر طاعته وليكن على الضعيف رفيقاً وللمظلوم مُنْصِفاً ، فإن الخلق عِيَالُ الله وأَحبُّهُم إليه أَرفَقُهُم بعياله ، ثم ليكن بالعدل حاكمًا ، وللاشراف مُكْرماً ، وللفَىْءِ(٢) مُوَفِّراً ، وللبلاد عامراً ، وللرعيَّة متألفاً ، وعن أَذاهم مُتخلِّفاً ، وليكن فى مجلسه متواضعاً حليماً ، وفى سجلات خراجه واستقصاءِ حقوقه دقيقاً ، وإذا صحب أَحدكم رجلا فليختبر خلائقه ، فإذا عرف حَسَنها وقبيحها أَعانه على ما يوافقه من الحسن ، واحتال على صرفه عما يهواه من القبيح بأَلطف حيلة وأَجمل وسيلة ، وقد علمتم أَن سائس البهيمة إذا كان بصيرًا بسياستها التمسَ معرفة أَخلاقها ، فإن كانت رَمُوحاً لم يُهِجْها إذا ركبها ، وإن كانت شَبُوباً اتَّقَاها من بين يديها ، وإن خاف منها شُرُوداً تَوَقَّاها من ناحية رأْسها ، وإن كانت حَرُوناً قمع هواها برفق فى طريقها (٣) فإن استمرَّت عطفها يسيراً فَيُسَلس(٤) له قيادها ، وفى هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم.

---

(١) الجلد ، لأنه سريع العطب (٢) الغنيمة والخراج

(٣) فى مرة من المرات (٤) وفى نسخة يسلس أى ينقاد ويسهل

والكاتب بفضل أدبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاول من الناس ويناظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق بصاحبه ، ومداراته وتقويم أَوْدِهِ من سائس البهيمة التى لا تفقه جواباً ولا تعرف صواباً ولا تفهم خطاباً إلا بقدر ما يُصَيرها إليه صاحبها الراكب عليها ؛ ألا فَامْعِنُوا رحمكم الله فى النظر ، واعملوا فيه ما أمكنكم من الرَّوِيَّة والفكر تأْمنوا بإذن الله ممن صحبتُمُوهُ النَّبْوَة(١) والاستثقال والجفوة ويصير منكم إلى الموافقة وتَصِيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة إن شاءَ الله .

ولا يُجَاوِزَنَّ الرجل منكم فى هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمِه ومشربه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه ، فإنكم مع ما فضلكم به الله من شرف صنعتكم خَدَمَةٌ لا تُحْمَلُونَ فى خدمتكم على التقصير ، وحَفَظَة لا تحتمل منكم أفعال التَّضْييع والتبذير . واستعينوا على أفعالكم بالقصد فى كل ما ذكرته لكم وقصصتُهُ عليكم ، واحذروا متالف السَّرَفِ وسوءَ عاقبة الترف(٢) فإنهما يُعْقِبان الفقر ويذلَّان الرقاب ويفضحان أهلهما ولا سِيَّمَا الكُتَّاب وأرباب الآداب وللأُمور أَشباهٌ وبعضها دليلٌ على بعض فاستدلوا على مُؤتَنَفِ(٣) أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها مَحَجَّة وأصدقها حُجّة وأحمدها عاقبة ، واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ علمه ورُؤْيَتِه ، فليقصد الرجل فى مجلسه قصد الكافى من منطقه ، وليوجز فى ابتدائه وجوابه وليأخذ بمجامع حُججه ، فإن ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للشاغل من إكثاره .

وليضرع إلى الله فى صلة توفيقه وإمداده بتسديده مخافة وقوعه فى الغلط المضر ببدنه وعقله وأدبه ، فإنه إن ظن منكم ظانٌّ أو قال قائل إن الذى بَرَزَ من جميل

---

(١) القبح (٢) التنعم (٣) مبدأ

صنعته وقوة حركته إنما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره ، فقد تعرض بظنه أو مقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه فيصيرُ منها إلى غير كاف ، وذلك على من تأمَّلَهُ غيرُ خافٍ .

ولا يقُلْ أحدٌ منكم إنه أبصر بالأمور ، وأحمل لعبء التدبير من مرافقه فى صناعته ومصاحبه فى خدمته ، فإن أعقل الرجلين عند ذوى الألباب من رَمَى بالعجب وراءَ ظهره ، ورأى أن صاحبه أعقلُ منه وأجمل فى طريقته .

وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله عليه جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ولا تكاثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيره . وحمدُ الله واجب على الجميع ، وذلك بالتواضع لعظمته ، والتذلل لعزته ، والتحدث بنعمته .

وأنا أقول فى كتابى هذا ما سبق به المثل «مَنْ تَلْزَمهُ النَّصِيحة يلزمه العَمَل» وهو «جواهر» هذا الكتاب وغُرَّة كلامه بعد الذى فيه من ذكر الله جلَّ جلاله ، فلذلك جعلته آخره وتممته به ، تَوَلَّانا الله وإياكم يامعشر الكتَبَة بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . (عبد الحميد الكاتب المتوفى سنة ١٣٢ هـ[1])

(١) هو عبد الحميد بن يحيى العامرى ، كاتب دولة مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين — قتله السفاح ١٣٢ هـ .

تمهيد فى مبادىء علم الأدب

الأَدب عبارة عن معرفة ما يُحْتَرَز به من جميع أَنواع الخطأ وهو قسمان : طبعى كسبيٌّ ؛ فالطبعى ما فُطِرَ عليه الإنسانُ من الأَخلاق الحسنة والصفات المحمودة كالكرم والحلم . والكَسبيُّ ما اكتسبه بالدرس والحفظ والنظر ، وهو المقصود لنا فى هذا الكتاب ، وحينئذ يعرَّفُ بأَنه علم صناعى تُعْرف به أَساليب الكلام البليغ فى كل حال من أَحواله ، وهو المدعو «علم الأَدب» ،

وموضوعه الكلام المنظوم والمنثور من حيث فصاحته وبلاغته .

وغايته الإجادة فى فنَّىْ المنظوم والمنثور على أَساليب العرب ، وتهذيب العقل وتذكية الْجَنان .

وفائدته : أَنه يعصم صاحبه من زلّة الجهل ، وأَنه يُرَوِّض الأَخلاق ويلين الطبائع ، وأَنه يعين على المروءة ، وينهض بالهمم إلى طلب المعالى والأُمور الشريفة .

وأَركانه أَربعة ، الأَول : قوَى العقل الغريزية ، وهى خمسة : الذكاءُ (١) والخيال (٢) . والحافظة (٣) ، والحس (٤) ، والذَّوْق (٥) .

الثانى : معرفة الأُصول وهى مجموع قوانين الكتابة ، وفيها طرق حسن التأليف وضروب الإنشاء وفنون الخطابة .

---

(١) الاستعداد التام لادراك العلوم والمعارف بالفكر وفى كتب اللغة الذكاء عبارة عن حدة الفؤاد وسرعة الفطنة (٢) باطنة تحفظ صور المحسوسات بعد غيبوبة المادة وهو من أكبر أسباب النجاح فى فن الكتابة (٣) قوة من شأنها حفظ ما يدركه العقل من المعانى فتذكره عند الحاجة ولذلك سميت ذاكرة (٤) قوة يتأثر بها الانسان من صور المدركات كاللذة والالم وهو من شروط الكتابة اذ يعين الكاتب مما يحدث فيه من التأثير على رسم صور المحسوسات رسما محكما فيقتدر اذ ذاك على تحريك العواطف واستمالة القلوب ، الا ترى أن الكلام العذب اذا حل فى القلب أحدث فيه حركة وهزة ؟

(٥) قوة غريزية لها اختصاص بادراك لطائف الكلام ومحاسنه الخفية وتحصل بالمثابرة على الدرس وبالممارسة لكلام البلغاء وتكراره على السمع والتفطن لخواص معانيه وتراكيبه وبتنزيه العقل والقلب عما يفسد الأخلاق والآداب .

وتنقسم هذه الأُصول إلى قسمين : عامَّة ، وخاصَّة . فالعامة : كالتآليف الأدبية من منظوم ومنثور فى أَغراض شتى . والخاصة : كالتآليف المفردة بالرسائل أَو بالأَمثال .

الثالث ـ مطالعة تصانيف البُلغاءِ بالتأَنى والتَّبَصر فيها ، ليدَّخِر الكاتبُ كل لفظ مؤنق شريف وكل معنى بديع بحيث يتصرف بهما عند الضرورة .

وشروطها ثلاثة ، الأَول : أَن يستقلَّ المطالع بعض علماءِ اللغة وأَئمة الأَدب فيقتصر على درسهم حتى ينسجَ على منوالهم . الثانى : أَن يُطيل النظر فى هذه المطالعة ويُرَدِّدُ مراراً ما استحسنه من تصانيفهم كى يروض الذهن فى حلبة(١) سباقهم فيقف على غريب أَسلوبهم وعجيب تراكيبهم . الثالث : أَن ينتقى منها شيئاً مما استجاده(٢) من اللفظ الحر والتراكب الصحيحة والمعانى البليغة ذُخْراً لذاكرته وَمِهْمازاً(٣) لقريحته .

الرابع ـ الارْتِيَاضُ ، وهو التدرب بوجوه الإِنشاءِ بأَن تتوسع فى شرح بعض المعانى فتبينه بأَوجه شتى وتُنَمِّقُهُ بأَشكال البديع ، وبأَن تجتهد فى وضع بعض مواضيع وجيزة فتصوغ تارة وصف مدينة أَو مدحاً أَو تهنئة ، وأُخرى تسرد مثلا أَو تسبك رواية إلى غير ذلك . وأَن تحْذُوَ حذو المتقدمين فى أَوضاعهم باستعمال أَلفاظهم ومعانيهم ، وبأَن تحلَّ النظم فتأتى به نثراً أَنيقاً(٤) وتعقد النثر فتصوغه صوغاً رشيقاً(٥) .

مقدمة فى علم الانشاء

الإِنشاءُ لغة : الشَّرْعُ والإِيجادُ والوضع ، تقول : أَنشأَ الغلام يمشى إذا شَرَعَ فى المشى ، وأَنشأَ الله العالم : أَوجدهم ، وأَنشأَ فلان الحديث : وَضَعَه .

---

(١) الميدان (٢) وجده جيدا (٣) حديدة تكون فى مؤخر خف الرائد للمهر (٤) معجبا (٥) حسنا

واصطلاحاً علم يُعْرف به كيفية استنباط. المعانى وتأْليفها مع التعبير عنها بلفظ. لائق بالمقام . وهو مُسْتمد من جميع العلوم وذلك لأَن الكاتب لا يستثنى صِنْفاً من الكتابة فيخوضُ فى كل المباحث ويتعمَّد الإِنشاء فى كل المعارف البشرية .

وينحصر المقصود منه فى ثلاثة أَبواب وخاتمة وَمُلحق .

الباب الأول : فى أصول الأنشاء

وهى أَربعة : موادُّهُ وخواصُّه وطبقاتُهُ ومحاسِنُهُ .

أَما مواده فثلاث : الأُولى الأَلفاظ الفصيحة(١) الصريحة (٢) الثانية المعانى(٣) الثالثة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ومرجعها إلى الفصاحة وعلمى المعانى والبيان.

---

(١) الالفاظ البينة الظاهرة المتبادرة الى الفهم والمأنوسة الاستعمال لمكان حسنها .

(٢) الألفاظ التى تدل على نفس المطلوب بحيث تكون كقالب لمعناها ويتوصل الى ذلك بمعرفة المترادفات والصفات والابدال .

(٣) بحيث يكون المعنى واضحا ، أى سهل المأخذ خاليا من اللبس والاشكال كقول الأخطل :

واذا افتقرت الى الذخائر لم تجد ذخرا يكون كصالح الأعمال

وأن يكون المعنى سديدا أى أن يكون القول مطابقا للواقع كقول لبيد :

الا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وأن يكون مطابقا لمقتضى الحال كقول أبى العتاهية :

اذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدا ندمت على التفريط فى زمن البذر

ولهذا قال أبو الفتح البستى :

تكلم وسدد ما استطعت فانما كلامك حى والسكوت جماد

فان لم تجد قولا سديدا تقوله فصمتك عن غير السداد سداد

والمراد بمقتضى الحال الأمر الذى يقتضيه الداعى الى التكلم على وجه مخصوص الناشىء عن مراعاة أحوال المتكلم والمخاطب ومقام الكلام ، والمعنى أما أن يكون مبتكرا اى مخترعا كقول ابن النبيه :

الناس للموت كخيل الطراد فالسابق السابق منها الجواد

وكقول آخر فى وصف الشتاء :

والنار فاكهة الشتاء فمن يرد اكل الفواكه شاتيا فليصطل =

. . . .

= أو دقيقا فهو ما لطف مأخذه وبعد مرامه ودل على توقد فهم قائله كقول ابن عنين فى فخر الدين الرازى وكانت قد دخلت الى مجلسه حمامة خلفها صقر يريد صيدها فاستجارب بحجرته :

جاءت سليمان الزمان حمامة والموت يلمح فى جناحى خاطف
من أنبأ الورقاء أن محلكم حرم ، وأنك ملجأ للخائف

أو فطريا وهو ما أورده الطبع السليم بلا تصنع ولا أعمال روية ودل على بعض السذاجة فى قائله ، كقول أحدهم وقد سئل هلا تسافر بحرا؟ فأنشد :

لا أركب البحر أخشى على منه المعاطب
طين أنا ، وهو ماء ، والطين فى الماء ذائب

وكقول الصياد :

سبحان ربى يعطى ذا ويحرم ذا هذا يصيد وهذا يأكل السمكه

أو لينا وهو ما كان لطيف التعبير سلس الالفاظ دالا على أشياء تطرب المسامع وتبهج القلب كقوله :

أن السماء اذا لم تبك مقلتها لم تضحك الأرض عن شىء من الزهر

أو نافذا وهو ما وصل الى الفهم بسرعة البرق وأخذ لحدته ومضائه بمجامع القلب كقول عنترة :

وما دانيت شخص الموت الا كما يدنو الشجاع من الجبان

أو جامعا وهو ما أفاد باللفظ القليل المعنى الكثير كقول أبى تمام فى المعتصم :

تراه اذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله
تعود بسط الكف حتى لو أنه أراد انقباضا لم تطعه أنامله

وكقول المتنبى :

وقد شرف الله أرضا أنت ساكنها وشرف الناس اذ سواك انسانا

أو متينا وهو ما اتسم بالضبط والحزم وتمكن من ذهن سامعه كقول أبى العتاهية :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير الى ذهاب

والموغل أو الايغال هو ما فتن بسموه القلب وسبى العقل وبلغ الغاية القصوى من البلاغة كما قال قائل على لسان ربه : =

وأما خواصّه فَهِى محاسنهُ السبعة ، وهى ؛ أولاً : الوُضُوح(١) بأَن يختارَ المفرَدَات البيِّنة الدالة على المقصود وأَن يَعدل عن كثرة العَوَامل(٢) فى الجملة الواحدة ، وأَن يتحاشى الالتباس فى استعمال الضمائر ، وأَن يَسْبك الجمل سبكا جلياً بدون تعقيد والتباس ، وأَن يتحاشى كثرة الْجُمل الاعتراضية .

وثانيًا : الصَّرَاحة بأَن يكون الإنشاءُ سالماً من ضعف التأْليف وغرابة التَّعبير بحيث يكون الكلام حُرًّا مهذَّباً تناسب أَلفاظُه المعانى المقصودة كما قيل :

تَزِينُ مَعَانيه أَلفَاظُهُ   وأَلفاظُهُ زائِنَاتُ المعانى

ويكون الكلام صريحًا بانتقاءِ الأَلفاظ الفصيحة والمُفردات الْحُرَّة الكريمة وكذا بإِصابة المعانى وتَنقيح العبارات مع جودة مقاطع الكلام وحسن صوغه وتأليفه ، وكذا بمرَاعاة الفصل والوصل وهو العلم بموَاضع العطف والاستئناف والاهتداءِ إلى كَيفية إِيقاف حروف العطف فى مواقعها .

وثالثاً : الضبط وهو حذف فُضُول الكلام وإسقاط مشتركات الأَلفاظ كقول قيس بن الخطيم المتوفى سنة ٦١٢م :

= سألت عبـــدى وانت فى كنفى   وكل ما قلت قـــد ســمعناه
سلنى بلا خشـــية ولا رهب   ولا تخف ، انى أنـــــا الله

واعلم أنه ليس لهذه المعـانى مصدر خاص ، وانما يحصل عليها الاديب من مطالعة كتب البلغاء واعمال الفكرة الطويلة والتبصر فى الموضوع الذى يقصد وصفه ليست منه المعانى اللائقة به ، وانما يلتجىء الأديب الى هذه المعـانى عند مسيس الحاجة وذلك يختلف باختلاف أحوال المتكلم ، ومقام المخاطب ومواقع الكلام .

(١) كقـوله :

ليس الجمال بأثواب تزيننـــا   ان الجمال جمال العـلم والأدب
ليس اليتيم الذى قد مات والده   بل اليتيم يتيم العلم والحسب

(٢) كقول بعضهم :

* أقسم لا أعود أقوم أخطب فيكم *

أَرَى الْمَوْت لا يَرْعَى على ذى قرابةٍ   وإن كان فى الدنيا عزيزًا بمقعَدِ
لَعَمرك ما الأَيام إلَّا مُعارَة   فما اسطعْتَ من معرُوفها فتزَوَّد

ورابعاً : الطبَعيَّة بأَن يَخلو الكلام من التكلُّف والتَّصنُّع كما قال فى رثاءِ ابنِهِ أَبو العتاهية المتوفى سنة ٢١١ هـ :

بكيتك يا بُنَىَّ بدمع عَيْنى   فلم يُغْنَ البكاءُ عليك شيّا
وكانت فى حياتك لى عظات   وأَنت اليوم أَوعظ منك حيَّا

وذلك لأَن من تطبَّع بغيرطبعه نَزَعَتْهُ العادة حتىتردّه إلى طبعه كما أَن الماءَ إذا أَسخنته وتركته عاد إلى طبعه من البرودة وحينئذ فالطبع أَملك .

وخامساً : السهولة بأَن يَخْلُص الكلام منالتعسف فىالسبك وأَن يختار ما لان منها كما قال فى الأَشواق بَهاءُ الدين زهير المتوفى سنة٦٥٦ هـ :

شَوْقى إليك شديدٌ   كما علمتَ وأزيدْ
فكيف تنكرُ حبًّا   بهِ ضميرُك يشهدْ

وأَن تُهذّب الْجُمل وأَن يأْتَلف اللفظ مع مُرَاعاة النظير كما قال الشاعر فى الودَاعِ :

فى كنف الله ظَاعِنٌ ظَعَنَا   أَودَع قلبى ودَاعه حَزَنَا
لا أبصرتْ مُقلتى محاسنه   إن كنتُ أَبصرْتُ بعده حَسَنَا

قال بعض البُلَغَاء : أُحذركم من التقعير والتَّعَمُّق فى القول وعليكم بمحاسن الأَلفاظ والمعانى المُستخفّة المُستملحة فإِن المعنى المليح إذا كُسِىَ لفظًا حسناً وأَعاره البليغ مخرجًا سهلا كان فى قلب السامع أَحلى ولصدره أَملأُ – قال البستى :

إذا انقادَ الكلام فقدْهُ عفوًا   إلى ما تشتهيه من المعانى
ولا تُكْرِهْ بيَانَك إن تأَبَّى   فلا إكراه فى دين البيان

وسادساً : الاتساق بأَن تتناسب المعانى كقول المتنبى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ :

وما زلت حتى قادنى الشوقُ نحوه يُسايرنى فى كلِّ ركب له ذكْر(١)

وأستكبِرُ الأَخبار قبل لِقَائِهِ فلما التقيْنا صغَّرَ الخبر الْخُبْر

وسابعاً : الجزالة وهى إبرازُ المعانى الشريفة فى معارض من الأَلفاظ الأَنيقة(٢) اللطيفة كقول الصّابئ المتوفى سنة ٣٨٤ هـ :

لك فى المحافل منطقٌ يشْفى الْجوَى(٣) ويسوغُ فى أُذُن الأَديب سُلاَفُهُ(٤)

فكأَنَّ لفظكَ لُؤلُؤ متَنَخّلٌ(٥) وكأَنَّمَا آذننا أَصدافه

وأَما عُيوبه فسبعة : الهُجنة بأَن يكون اللفظ سخيفاً والمعنى مُسْتَقْبحًا كقوله :

وإذا أَدنيتَ منه بَصلاً غَلَبَ المسكُ على ريح البَصل

والوحشية : كون الكلام غليظًا تمجه الأَسماع وتنفر منه الطباع كقوله :

وما أَرْضى لِمقْلته بحُلم إذَا انْتبهتْ توَهَّمَه ابتشاكا (٦)

والركاكة أَى ضعف التأليف وسخافة العبارة كقول المتنبي المتوفى سنة ٣٤٥ هـ :

إن كان مِثلك كان أَو هُو كائنٌ فبرئتُ حينئذ من الإِسلام

والسّهوُ عبارة عن ضعف البصر بمواقع الكلام كقول المَتَنَبِّى يُشبِّه ممدوحه بالله تعالى (وهو كفر) :

تتقاصر الأَفهام عن إدراكه مِثلُ الّذى الأَفلاكُ مِنه والدنى(٧)

والإِسهاب أَى الإِطالة الزائدة المُمِلَّة فى شرح المادة والعدول إلى الحشو كقوله :

وأَعنى فتى لم تذر الشمس طالعةً يوماً من الدهر إلا ضَرَّ أَو نفعا

---

(١) خبر زلت يسايرنى ، والركب : جماعة الراكبين ، أى مازلت أسمع ذكره فى كل ركب صحبته حتى قادنى الشوق الى زيارته ، والمتيبى يمدح عليا الأنطاكى ، ومعنى البيت الثانى : انى مازلت أستعظم ما يذكر لى من أخباره حتى لقيته فصغرت عندى تلك الاخبار بالنسبة اليه لأنى وجدته أعظم مما وصفوا

(٢) المعجبة .

(٣) الحرقة . (٤) الخمرة (٥) مصطفى ومختار

(٦) يقول : وان حدثه حلم فى نومه عن شكرى له فلا أرضى به لعله يتوهمه كذبا

(٧) الدنيا .

والجفاف : الإيجاز والاختصار المخل كقول الحارث بن حِلِّزَةَ المتوفى سنة ٢٣٢ه :

والعيش خيرٌ فى ظلال النـوكِ(١) ممن عاش كدًّا (٢)

ووحدَةُ السياقَ التزام أُسلوب واحد من التعبير وطريقة واحِدة من التركيب بحيث تكون للأَذهان كلالا (٣) وللقلوب ملالا (٤) .

وللكلام عيوبٌ كثيرةٌ منها اللَّحنُ ومخالفة القياس الصَّرْفى وضعف التَّأْليف والتعْقيدُ اللفظى وَالمَعنوى والتِّكرار وَتَتَابُعُ الإضافات إلى غير ذلك من الأَشياء التى تكون ثقيلة على اللسان مخالفة للذوق وَالْعُرْف غريبة على السَّمع(٥) .

وأَما طبقاته فثلاث (الأُولى الطبقة السُّفلى) ومَرْجعُها إلى الإنشاءِ الساذج وهُوَ ما عرى عن رقة المعانى وجزالة الأَلفاظ والتأَنق فى التّعبير فهو بالكلام العادى أَشْبه لسُهُولة مأْخذِهِ وقُرْب مورده ، ويُستعمل فى المحافل العمومية ليقَرِّب مثالَ المعانى على جُمْهور السامعين وفى المقالات والتآليف العلمية لينصرف الذهْن إلى أَخذ المعنى وليس دونه حائلٌ من جهة العبارة ، وفى المكاتبات الأَهليَّة والرحلات والأَسفار والأَخبار وما شابه ذلك . (الثانية الطبقة العليا) ومرجعها إلى الإنشاءِ العالى ، وهو ما شُحن بغُرَر الأَلفاظ ، وتعلَّق بأَهداب المجاز ولطائف التَّخيلات وبدائع التشابيه فيفتِنُ ببراعتَه العُقُولَ ويَسْحَرَ الأَلباب ويصلُح فى التَّرَسُّل بين بُلغاءِ الكتَّاب وفى المجالس الأَدبيَّة وديباجة بعض التَّصانيف إلى غير ذلك من المواضع التى من شأْنها الزجر وتحريك العواطف والحماسة .

---

(١) بفتح النون وضمها الحمق (٢) تعبا (٣) سيئة (٤) سآمه . (٥) حكى عن الصفى الحلى أن بعض الفضلاء بلغه أنه طلع على ديوانه وقال لاعيب فيه سوى أنه خال من الالفاظ العربية فأجابه الصفى :

انما الحيزبون والدردبيس والطخا والنقاخ والعلطبيس
لغة تنفر للسامع منها حين تروى وتشمئز النفوس
وقبيح أن يسلك النافر الوحشى منها ويترك المأنوس
ان خير الألفاظ ما طرب السامع منه وطاب فيه الجليس
ولذيذ الألفاظ مغناطيس

(الثالثة الطبقة الوسطى) ومَرْجعها إلى الإنشاء الأَنيق(١) وهو ما توسط بين الإنشاء العالى والساذج فيأْخذ من الأَول رَوْنَقه وَرَشَاقَتَهُ ومن الثانى جلاءه وسلاسته — ويَصْلُح فى مُرَاسَلات ذَوى المراتب ، وفى الروايات المُنمقة والأَوصاف المُسْهبة ، وفى خطب المحافل وما أَشبه ذلك(٢) .

وأَما محاسنه فهى أَساليب وطرائق معلومة وُضِعت لتزيين الكلام وتَنميقه لغرض أَن يتمكَّن البليغُ مِن ذِهن السامع بما يورده من أَساليب الكلام المُستحسنة ، فيحرك أَهواء النفس ويُثير كامن حركاتها . والغرض أَن يكون قوله أَشد اتصالا بالعقل وأَقرب للادراك بتصرفه فى فنون البلاغة .

كيفية الشروع فى عمل مواضيع الانشاء

إِذَا عَنّ(٣) لك أَو اقترح عليك إنشاءُ موضوع فأَنت مَنُوط(٤) إِذًا بأَمرين : التَّفكر أَولا ، والكتابة ثانياً . فإذا أَنْعَمْت الفكر مليًّا(٥) فى أَجزاء الموضوع بعد استيلاء الإحساس بها على قلبك ، وقلَّبتَهَا على جميع الأَوجه المُمكنة فيهَا تولد فى خيالك لكل جزء عدةُ صُور(٦) تتفاوت فى تأْديته كتفاوت صُوَر المنظوم فى الحسن والقبح ؛ فبعضُها يستميل النفوس بتأْثيره فى الحواس، وبعضها

---

(١) المحب .

(٢) الذى اشتهر بالانشاء الساذج السيوطى والماوردى والغزالى وأبو الفرج الاصبهانى وابن الاثير وأبو الفداء . والذى اشتهر بالانشاء الانيق الثعالبى وابن خلكان وابن خلدون والطبرى والفخرى وابن المعتز والبهاء زهير وابن المقفع والمسعودى . والذى اشتهر بالانشاء العالى الحريرى والهمذانى والمعرى والاخطل وجرير وأبو تمام البحترى والمتنبى وابن خاقان والعتبى والفارضى . واعلم أن طبقات الانشاء كثيراً ما تختلط ببعضها فيصعب تعيين طبقتها فربما جاء فى القطعة الواحدة أشياء من الطبقات الثلاث لا يميزها الا المنتقد البصير .

(٣) عرض (٤) ملزم (٥) ساعة طويلة .

(٦) أما اذا تساوت فى حسن تأدية الغرض أخذ احداها فقط ولا يحسن جمعها .

يوجب نُفورَها ، بين بين ، وإذا تَشَخَّصَت الصُّوَرُ فى الخيال يتخيّر العقل منها ماله المكانة الرفيعة فى حُسن تـأْدية الغرض المناسب للمقام ، فإن كان المقامُ للتَّحريض على القتَال مثلا انتخب الصورة المهيِّجَة للاحسَاس ، المشَجِّعة للنفس على اقتحَام الأَخطَار(١) ، وإن كان المقَامُ مَقَامَ فرحٍ وسُرُور انتخب مَا يشرح الصُّدور .

وبعد تشخص الصُّوَر وتخير المُنَاسبة منهَا تعين -أيهَا المنشئ- بحُسن تـأليف وترتيب مَا تخيرتَه أَن تجمع الصور المُنَاسَبة التى يرتبطُ بعضهَا ببعض بدون تكلف بحيث يكون منسجمًا يمَضى وحده مع النَّفس دون علاج وتَعب فى فَهم الغرض منه وحينئذ يُمكنك إظهَارُ هذه الصورة المعقولة فى صورة محسوسةٍ بواسطة القلم.

أركان الكتابة

اعلم أَنَّ للكتَابةِ أَرْكَاناً لابُدّ من إيداعها فى كل كتَاب بلاغِىّ ذى شأْن ؛ أَولهَا : أَنْ يكون مَطلعُ الكتَابِ عليه جِدَّةٌ(٢) وَرَشَاقةٌ ، فإنّ الكاتب مَنْ أَجاد المطلع والمقطعَ ، أَو يكون مبنيًا على مقصد الكتاب . الثانى أَن يكون خرُوجُ الكاتب من معنى إلى معنَى برابطَةٍ لتكونَ رقابُ المعَانى آخذة بعضهَا ببعض

(١) الأحزان . (٢) صار جديدا مبتكرا ، وهو نقيض الخلق الذائب .

تنبيه : يراعى حال المخاطب ومنزلته فان ما يحسن عند الذكى لايحسن عند الغبى ،ومايناسب ذا الجد لايناسب الهزلى، وما يصلح للرئيس لايصلح للمرءوس . فخاطب كلا على قدر أبهته وجـــلالته وعلوه وارتفاعه وفطنته ونباهته ، فزن اللفظة قبل أن تخرجها بميـــزان التصريف اذا عرضت وعاير الكلمة بمعيارها اذا سنحت فكلما احلو لى الكلام وعذب وراق وســـهلت مخارجه كان أسهل ولوجا فى الأســـماع وأشد اتصالا بالقـلوب وأخف على الافواه ، ولا سيما اذا كان المعنى البديع مترجما بلفظ مؤنق شريف ومعايرا بكلام عذب بدون تكلف ولا تعقيد ، فالمعنى الخفى أشـــبه بالروح الخفى واللفظ الظاهر ، والا تضاءل المعنى الحسن تحت اللفظ القبيـــح كتضـــاؤل الحسناء فى الأطمار الرثة .

ولا تكون مقتضبة . الثالث أن تكون ألفاظ الكتاب غير مُخْلَوْلقة بكثرة الاستعمال . ولا أُريد بذلك أن تكون ألفاظاً غريبة فإن ذلك عيبٌ فاحش بل أُريد أن تكون الألفاظ المستعملة مسبوكة سبكاً غريبًا يظن السامع أنها غير ما فى أيدى الناس ، وهى مما فى أيدى الناس ، وهناك مُعْترك الفصاحة التى تظهر فيه الخواطر براعتها والأقلام شجاعتها . وهذا الموضع بعيد المنال كثير الإشكال يحتاج إلى لطف ذوق وشهامة خاطر ، وليس كل خاطر برّاق إلى هذه الدرجة (ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ) . ومع هذا فلا تظن ـ أيها الناظر فى كتابى ـ أنى أردت بهذا القول إهمال جانب المعانى بحيث يؤتى باللفظ الموصوف بصفات الحسن والملاحة ، ولا يكون تحته من المعنى ما يماثله ويساويه ، فإنه إذا كان كذلك كان كصورة حسنة بديعة فى حسنها إلا أن صاحبها بليد أبله . والمراد أن تكون هذه الألفاظ المشار إليها جسما لمعنى شريف ، على أن تحصيل المعانى الشريفة على الوجه الذى أشرت إليه أيسر من تحصيل الألفاظ المشار إليها . ولقد رأيت كثيراً من الْجُهال الذين هم من السُّوقة أرباب الحرف والصنائع ، وما منهم إلا من يقع له المعنى الشريف ويظهر من خاطره المعنى الدقيق ، ولكنه لا يحسن أن يزوّج بين لفظتين . فالعبارة عن المعانى هى التى بها تخلب العقول ، وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون فى استخراج المعانى ، فإنه لا يمنع الجاهل الذى لايعرف علمًا من العلوم أن يكون ذكيًّا بالفطرة .

واستخراج المعانى إنما هو بالذكاء لا يتعلُّم العلم .

فإذا استكملت معرفة هذه الأركان وأتيت بها فى كل كتاب بلاغى ذى شأْن فقد استحققت حينئذ فضيلة التقدم ، ووجب لك أن تسمّى نفسك كاتبًا .

(عن « المثل السائر » باختصار)

كيفية نظم الكلام

إذا أردتَ أن تصنع كلاماً فأَخطِر معَانيه ببالكَ ، وتنقَّ له كرائمَ اللفظ ، واجعلْهَا على ذِكرٍ مِنْكَ ليقرُبَ عليكَ تناوُلُهَا ولا يُتعبك تطلّبُهَا ، واعمله ما دُمْتَ فى شبابِ نشاطك ، فإذا غشِيك الفتورُ وتخوّنكَ الملالُ فأَمسك ، فإن الكثيرَ مع الملالِ قليل ، والنفيسَ مع الضجَرِ خسيسٌ ، والخواطر كالينابيع يُسْتَى منها شىءٌ بعد شىءٍ ، فتجد حاجتكَ من الرّىِّ ، وتنالُ إربكَ من المنفعة ، فإذا أَكثرتَ عليها نضبَ ماؤها ، وقَلَّ عنكَ غَنَاؤها . واعلَمْ أَنَّ ذلك أَجدى عليك مما يُعْطيكَ يومكَ الأَطْوَلُ بالكدِّ والمطالبَةِ والمجاهدةِ والتكلُّف والمُعَاودة . وإيَّاكَ والتوعُّرَ ، فإن التَّوَعُّرَ يسلمكَ إلى التعقيدِ والتعقيدُ هو الذى يَسْتهلك معانيكَ ويشينُ أَلفاظكَ .

ومَنْ أَرَادَ مَعْنًى كريماً فليلتمسْ لَهُ لفظًا كريماً ، فإنَّ مِنْ حقِّ المعنى الشريفِ اللفظَ الشريفَ .

فإذا لم تجِد اللفظة واقعةً مَوْقِعهَا صائرةً إلى مستقرِّها حالَّةً فى مركزها مُتَّصلة بسلكها ، بل وجدتها قلقةً فى مَوْضِعها نافرةً عَنْ مكانها فلا تُكْرِهْهَا على اغتصاب الأَماكن والنزُول فى غَيْرِ أَوْطَانها . فإنكَ إنْ لم تَتَعَاطَ قرِيضَ الشِّعْرِ المنظومِ ولمْ تَتكلفِ اختِيَارَ الكلام المنثورِ ، لم يَعِبْك بذلكَ أَحَدٌ .

وإن تكَلفْتَهُ ولم تكُنْ حاذقاً مطبوعاً ولا مُحْكماً لشأْنك بصيرًا ، عابكَ من أَنتَ أَقل عيبًا منه ، وزرى(١) عليكَ منْ هو دونكَ .

فإن لم تَسْمَح لك الطَّبيعة بنظم الكلام فى أَوَّلِ وَهْلَةٍ ، وتعصَّى عليكَ بعد إجالةِ الفكرةِ ، فلا تعجل ، ودعْه سحابةَ يَوْمِك ولا تضجر ، وأَمهلْهُ سَوَادَ ليْلَتِك وعاودهُ عندَ نشاطكَ ، فإنكَ لَا تعدَمُ الإِجابةَ والمُؤَاتَاةَ . فإن تَمَنَّعَ عليك بعد ذلك – مع تَرْوِيح الخاطرِ وطولِ الإمهالِ – فتحول منْ هذه

(١) زرى : عاب .

الصناعة إلى أشهَى الصّناعات إليك وأخفها عليك ، فإنكَ لم تشتهها إلّا وبينكُمَا نسبٌ .

والشيءُ لا يحنُّ إلّا إلى ما شاكلَهُ .

وينبغى أن تعرفَ أقدارَ المعانى ، فتُوَازِنَ بينها وبينَ أوْزَانِ المستمعينَ وبين أقدَارِ الحالات ، فتجعلَ لِكُلِّ طبقةٍ كلاماً ، ولكلِّ حالٍ مقاماً ، حتّى تقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعينَ على أقدارِ الْحَالاتِ .

(من « كتاب الصناعتين » باختصار)

الطريق الى تعلم الكتابة

إنَّ الطريق إلى تعلُّمِ الكتابة على ثلاثِ شُعَبٍ :

الأُولى : أنْ يَتصفَّح الكاتبُ كتابةَ المتقدمين ، ويطَّلع على أوْضاعهم فى استعمالِ الأَلفاظ والمعانى ، ثمّ يحذوَ حذْوَهم ؛ وهذه أدنى الطبقاتِ عندى .

والثانية : أنْ يمزجَ كتابة المتقدمينَ بما يَستجيدهُ لنفسه من زيادة حسنة ، إمّا فى تحسينِ أَلفاظ ، أو فى تحسين معانٍ . وهذهِ هىَ الطبقة الوُسطى ، وهى أَعلى من التى قبلها .

والثالثة : أنْ لايتصفَّحَ كتابةَ المتقدمينَ ولايطَّلعَ على شىء منها ، بل يصرف همّه إلى حفظ القرآنِ الكريمِ وَعِدّةٍ من دواوينِ فُحُولِ الشعراء مِمّن غلبَ على شعرهِ الإجادة فى المعانى والأَلفاظ . ثم يأْخذُ فى الاقتباس ، فيقومُ ويقعُ ويخطئُ ويصيبُ ويضلُّ ويهتدى حتى يستقيمَ على طريقة يفتتحُها لنفسه ، وأخْلِقْ بتلك الطريق أن تكونَ مبتدعَةً غريبة لا شركة لأَحد من المتقدمين فيها . وهذه الطريقُ هى طريق الاجتهادِ وصاحبُها يُعَدُّ إماماً فى فنِّ الكتابةِ ، إلّا أنها مُستوْعَرَةٌ جدًّا ، ولَا يستطيعُها إلا مَنْ رَزَقَهُ اللهُ لساناً هَجاماً وخاطرًا رقّاماً . ولا أُريدُ بهذه الطَّريق أَن يكونَ الكاتبُ مُرتَبطًا فى كتابتِه بما يستخرجه منَ القرآنِ الكَريمِ

والشِّعر ، بحيثُ أنَّهُ لا يُنشئُ كتاباً إلَّا مِنْ ذَلك ، بلْ أُريدُ أنَّهُ إذا حَفِظَ القُرآنَ وَأَكثَر من حفظ الأَشعارِ ثمَّ نقَّب عنْ ذلكَ تَنقيبَ مُطَّلع على معانيهِ مفتِّشٍ عنْ دفائنهِ وقلَّبهُ ظَهْرًا لبطن عرفَ حينئذ مِنْ أين تؤْكل الكَتفُ فيما يُنشئه مِنْ ذَاتِ نفسهِ ، واستعانَ بالمحفوظ على الغريزة الطَّبيعية .

(عن «المثل السائر» باختصار)

كيفية تهذيب الكلام وأوقات تأليفه

تهذيبُ الكلامِ : عبارة عن تردَادِ النظرِ فيه بعد عملهِ ـ نظمًا كان أَوْ نثرًا ـ وتغييرما يجبُ تغييرُهُ ، وحذف ما ينبغى حذفهُ وإصلاح ما يتعينُ إصلاحُه ، وتحريرِ ما يدقُّ مِنْ معانيه ، واطِّراح ما يتجافى عن مضاجع الرقةِ من غليظ ألفاظه ، لتُشْرق شُموسُ التهذيبِ فى سماءِ بلاغته ، وترشُف الأَسماعُ على الطرب رَقيق سُلافته ، فإن الكلام إذا كانَ مَوْصُوفاً بالمهذَّبِ ، منعوتاً بالمنقَّح ، علتْ رُتْبَتُهُ وإن كانت معانيهِ غير مبتكرة ، وكلُّ كلامٍ قيل فيه : لو كان موْضع هذه الكلمة غيرُها ، ولوْ تقدَّمَ هذا المتأَخِّرُ وتأَخر هذا المتقدِّمُ ، أَو لو تُممَ هذا النقص بكذا ، أَو لو حذفتْ هذه اللفظة ، أَو لو اتضح هذا المقْصد وسُهل هذا المطلبُ لكان الكلام أَحسن والمعنى أَبين ـ كان ذلك الكلام غير منتظمٍ فى نوع التهذيبِ .

وكان زُهيْر بن أَبى سُلمى معروفاً بالتَّنقيحِ والتَّهْذيبِ ، وله قصائدُ تعرفُ بالحوْليَّاتِ ـ قيل : إنه كان ينظِمُ القصيدة فى أَرْبَعةِ أَشهُر ، ويُهذبُها ويُنقِّحُها فى أَربعة أَشهرٍ ، ويعرضها على عُلماءِ قبيلتهِ أَربعة أَشهر ، ولهذا كان الخليفةُ عُمرُ بن الخطاب ـ مع جلالته فى العلمِ ، وتقدمِهِ فى النقد ـ يقدِّمه على سائر الْفُحُولِ من طبقته .

وما أَحسن ما أَشار أَبو تمام إلى التهذيب بقوله :

خُذْهَا ابنةَ الفكْرِ المُهذَّبِ فى الدُّجَى … واللَّيْل أَسْودُ رقْعةِ الجِلباب

فإنه خصّ تهذيبَ الفكر بالدُّجى لكون اللَّيْلِ تهدأُ فيه الأَصوات وتسكُنُ الحركاتُ ، فيكونُ الفكْرُ فيهِ مجتمعًا ومرآة التهذيبِ فيهِ صقيلة ، لخلو الخاطرِ وصفاءِ القريحةِ ، لاسيما وسط الليْل .

قالَ أَبو عُبَادَةَ الْبُحْتُرىُّ : كنتُ فى حداثتى أَروى الشِّعْرَ ، وكُنت أَرجع فيه إلى طبع سَليم ، ولم أَكُنْ وقفت له على تسهيلِ مأْخذٍ ووُجُوهِ اقتضاب حتى قصدت أَبا تَمَّامٍ وانقطعْتُ إليهِ واتَّكلْتُ فى تعريفه عليهِ ، فكان أَوَّلَ ما قال لى : يا أَبا عُبَادَةَ ، تخيَّرِ الأَوقاتَ وأَنتَ قليلُ الهُمومِ ، صِفْرٌ منَ الغُمومِ .

واعلم أَن العادَةَ فى الأَوقاتِ إذا قصدَ الإِنسانُ تأْليفَ شيءٍ أَو حِفْظَهُ أَن يختار وقتَ السحرِ ؛ وذلك أَن النفسَ تكونُ قدْ أَخذَت حظَّها منَ الرَّاحةِ وقسطَهَا منَ النّومِ وخف عليها ثِقَل الغذاءِ ؛ واحذَر المجهول منَ المعانى وإيَّاك أَن تُشينَ شِعْرَك بالأَلفاظ الوحشيةِ وناسب بين الأَلفاظ والمعانى فى تأْليف الكلام ، وكُنْ كأَنكَ خياطٌ تُقدِّرُ الثيابَ على مقَاديرِ الأَجسام ، وإذا عارَضَكَ الضجرُ فأَرِحْ نَفسكَ ولا تعملْ إلا وأَنتَ فارغ القلبِ ولا تنظمْ إلا بشهوةٍ ، فإن الشهوة نعمَ المعين على حُسنِ النَّظم ، وَجُملةُ الحال : أَن تعتبرَ شعرَكَ بما سلف من أَشعارِ الماضينَ ، فما استَحْسَنَ العلماءُ فاقصده وما استقبحُوهُ فاجتنبهُ .

(عن « خزانة الأدب ــ وزهر الآداب » باختصار)

محاسن الانشاء ومعايبه

إنَّ للنثر محاسنَ ومعايبَ ، يجبُ على المنشئ أَنْ يفرّقَ بينهما مُحترزًا استعمال الأَلفاظِ الغريبة ، ولا يخلُّ بِفَهم المرادِ ويوجبُ صعوبتَه ــ ولا بدّ من أَنْ يجعلَ الأَلفاظ تابعةً للمعانى دون العكسِ ، لأَنَّ المعانى إذا تركتْ على

سَجيَّتها طلبتُ لأَنفسها أَلفاظاً تليقُ بها فيحسنُ اللفظُ والمعنى جميعًا ، وأَما جعلُ الأَلفاظِ متكلفة والمعانى تابعةً لها ، فهو شأن من لهم شغفٌ بإيراد شيءٍ من المحسِّنات اللفظية فيصرفون العنايةَ إليها ، ويجعلون الكلامَ كأَنه غير مسبوقٍ لإفادة المعنى ، فلا يُبالون بخفاءِ الدلالات وركاكة المعنى .

ومن أَعظم ما يليق بمن يتعاطى الإنشاءَ أَن يكتب ما يُراد لا ما يُريد ، كما قيل فى الصَّاحب والصَّابئ : إن الصابئَ يكتب ما يُراد ، والصاحبَ يكتبُ ما يُريد .

(عن «آداب المنشئ» ببعض تصرف)

فصاحة الألفاظ ومطابقتها للمعانى

فصاحة الأَلفاظ تكون بثلاثة أَوجه :

الأَول : مجانبةُ الغريب الوحشيِّ حتى لا يمجّه سمعٌ ، ولا ينفر منه طبعٌ .

والثانى : تنكبُ اللفظِ المبتذلِ ، والبعد عن الكلام المستَرذل حتى لا يستسقِطُه خاصىٌّ ، ولا ينبو عنهُ فهمُ عامىّ ، كما قال الجاحظ فى كتاب البيانِ : أَما أَنا فلم أَرَ قوماً أَمثلَ طريقة فى البلاغةِ من الكتَّابِ : وذلك أَنهم قدِ التمسوا منَ الأَلفاظ ما لَمْ يكنْ مُتَوَعِّرًا وحشيًّا ، ولا ساقطًا عاميًّا .

والثالثُ : أَنْ يكونَ بينَ الأَلفاظِ ومعانيها مُناسبةٌ ومُطابقةٌ .

أَما المَطابقَةُ : فهى أَنْ يكونَ بين الأَلفاظ كالقوالب لمعانيها فلا تَزِيد عليها ولا تنقصُ عنها .

وأَمّا المناسبةُ : فهى أَنْ يكونَ المعنى يليقُ ببعض الأَلفاظِ - إما لعُرف مستعمل ، أَو لاتفاقٍ مستحسنٍ - حتى إذا ذُكرَت تلك المعانى بغير تلك

الألفاظِ كانتْ نافرةً عنها ، وإن كانتْ أفصحَ وأوضحَ لاعتياد ماسوَاها .

(عن « أدب الدين والدنيا » باختصار)

حقيقة الفصاحة

اعلم أنَّ هذا موضوع متعذِّرٌ على الوالج ، ومسلكٌ مُتَوَعِّرٌ على الناهجِ ، ولم تزل العلماءُ من قديمِ الوقت وحديثه يكثرون القَوْلَ فيهِ والبحثَ عنهُ ، ولم أَجِدْ من ذلك ما يعوّل عليهِ إلَّا القليلَ ، وغاية ما يقالُ فى هذا البابِ : إنَّ الفصاحةَ هى الظهورُ والبيان فى أَصلِ الوَضعِ اللغوىِّ – يقال : أَفصح الصبحُ إذا ظهرَ ، ثم إنهم يَقِفُونَ عند ذلك ولا يكْشِفُونَ عن السِّرِّ فيهِ ، وبهذا القَوْل لا تتبيَّنُ حقيقة الفصاحةِ ، لأَنَّه يُعْتَرَض عليهِ بوجُوهٍ منَ الاعتراضات .

الوجه الأَول : إذا لم يَكُنْ اللفظُ ظاهرًا بَيِّنًا لم يَكُنْ فصيحاً ثم إذ ظهرَ وتبيَّنَ صارَ فصيحًا .

الوجه الثانى : أَنه إذا كانَ اللَّفظُ الفصيح هو الظاهر البيِّن فقد صارَ ذلك بالنِّسَبِ والإضافات إلى الأَشخاص ؛ فإنّ اللفظَ قد يكون ظاهرًا لزَيْدٍ ولايكون ظاهرًا لِعَمْرٍو ، فهوَ إذًا فصيحٌ عند هذا ، وغير فصيحٍ عند ذاك ؛ وليس كذلك بل الفصيح هو فصيحٌ عند الجميع لاخلاف فيه بحالٍ من الأَحوالِ ولأَنه إذا تحقّقَ حدُّ الفصاحة وعُرف ما هى ، لم يبق فى اللفظ الذى يختصُّ به خلافٌ .

الوجهُ الثالث : أَنه إذا جىءَ بلفظٍ قبيح ينبو عنه السَّمْعُ وهو مع ذلك ظاهر بَيِّن ينبغى أَن يكون فصيحًا ، وليس كذلك لأَنَّ الفصاحةَ وصف حُسْنٍ للفظ لا وصفُ قبح .

ولما وقفتُ على أَقْوَال النّاسِ فى هذا الباب ملكْتنِى الْحَيرة فيها ،

ولم يثبُتْ عندى منها ما أُعَوِّلُ عليه ، ولكثرةِ مُلابستى هذا الفنِّ ومُعاركتى إيَّاهُ ، انكشف لِىَ السِّرُّ فيه . وسَأُوَضِّحُهُ فى كتابى هذا وأُحَقِّقُ القول فيه فأَقولُ :

إنَّ الكلامَ الفصيحَ هو الظاهرُ البَيِّن ، وأَعنى بالظاهر البَيِّن : أَن تكون أَلفاظه مفهومة لا يُحتاجُ فى فهمها إلى استخراج لُغَةٍ .

وإنما كانت بهذه الصفةِ لأَنها تكونُ مأْلوفة الاستعمال بين أَربابِ النظم والنثر دائرةً فى كلامهم ، وإنما كانت مأْلوفة الاستعمالِ دائرة فى الكلام دون غيرها من الأَلفاظ لمكان حُسْنِهَا ، وذلك أَن أَرباب النظم والنثر غَرْبَلوا اللغة باعتبارِ أَلفاظها ، وسَبَرُوا وقَسَّموا ، فاختارُوا الحسن من الأَلفاظِ حتى استعملُوه وعلموا القبيح منها فلم يستعملوه ، فحُسنُ الاستعمال سببُ استعمالها دُونَ غيرها ، واستعمالُها دُونَ غيرها سَبَبُ ظُهورها وبيَانها ؛ فالفَصِيحُ إذًا مِنَ الأَلفاظ هو الحسنُ .

فإن قيل : مِنْ أَىِّ وجه عَلِمَ أَرباب النَّظْم والنَّثر الحسن مِنَ الأَلفاظِ حتى استعملوه ، وعلموا القبيح منها حتى نَفَوْهُ ، ولم يستعملوهُ ؟ قُلتُ فى الجواب : إنَّ هذا من الأُمور المحسُوسة التى شاهدُوها من نفسها ؛ لأَن الأَلفاظَ داخلةٌ فى حيِّز الأَصوات ، فالذى يستلذهُ السَّمعُ منها ويميلُ إليه هو الحَسَنُ والذى يكرهُهُ وَيَنْفِرُ عنه هُوَ القبيحُ . أَلا تَرَى أَن السَّمعَ يستلذُّ صَوْتَ البُلْبلِ من الطيْرِ وصوتَ الشَّحْرُرِ ويميلُ إليهما ، ويكرهُ صوتَ الغرابِ وَيَنْفُرُ عنه ؟ وكذلك يكرَهُ نهيق الحمار ، ولا يجدُ ذلك فى صهيل الفَرَس؟ والأَلفاظُ جاريةٌ هذا المجرى ، فإنه لا خلاف فى أَن لفظَةَ المُزْنة والديمة حسنةٌ يستلذُّها السَّمع ، وأَنَّ لفظة البُعَاق قبيحة يكرهها السمع ، وهذه اللفظات من صفة المطر ، وهى

تدلُّ على معنى واحد ، ومع هذا فإنك ترى لفظَتى المزنةِ والدّيمة وما جرى مجْرَاهُما مألوفتى الاستعمال ، وترى لفظ البعاقِ ، وما جرى مجراه متروكاً لا يُسْتَعْملُ ، وإن اسْتُعْمل فإنما يَسْتَعْمله جاهلٌ بحقيقة الفصاحة ، أَو منْ ذَوْقُه غير ذوْق سليم .

ولا جرَم أنه ذُمَّ وقُدح فيه ولم يُلتفت إليه وكانعربيًّا محضًا من الجاهلية الأَقدمين ؛ فإن حقيقة الشيءِ إذا عُلِمَتُ وجب الوقوفُ عندها ولم يُعَرِّج على ما خرج عنها .

(عن «ابن الأَثير» باختصار)

الانسجام

الانسجامُ لغة : جريان الماءِ ، وعند أَهل البلاغة : هو أَن يأْتى الناظم أَو الناثر بكلام خالٍ من التَّعْقيد اللفظى والتَّعْقِيد المعنوى ، بسيطًا مفهوماً دقيق الأَلفاظِ جليل المعنى ، لا تكلُّف ولا تعَسّفَ فيه ، يتحدّرُ كتحدر الماءِ المنْسَجِمِ ، فيكادُ لسهولة تركيبه ، وعذوبة أَلفاظه ، أَن يسيل رِقةً .

ولا يكون ذلك إلّا فى من هو مطبوعٌ على سلامةِ الذَّوْقِ ، وتوقد الفكرة وبراعة الإِنشاءِ وحُسْن الأَساليبِ .

وإنَّ فحول هذا الميدانِ ما أَثقلوا كاهل سُهُولته بِنَوْعٍ من أَنواع البديعِ ، اللهُمْ إلا أَن يأْتى عفوًا من غير قصد .

وعلى هذا أَجمع علماءُ البديع فى حدّ هذا النوع ، فإنهم قرروا أَن يكون بعيدًا عن التصنع ، خالياً من الأَنواع البديعيَّة إلا أَن يأْتى فى ضمْنِ السُّهولة من غير قصد ، فإن كان الانسجام فى النثر تكون أَغلب فقرَاتِه موزونة من غير

قصدٍ ، وإن كان فى النظم فتكادُ الأَبياتُ أَن تسيلَ رقةً وعذوبة ، ورُبما دخلت فى المُطْرِبِ المُرْقص .

(عن « بديعة العميان وبديعة الحموى »)

حل الشعر

حلُّ الأَبيات الشعرية ينقسم إلى ثلاثة أَقسام :

الأَول منها وهو أَدناها مَرْتَبَةً : أَن يأخذ الناثر بيتاً من الشعر فينثرُه بلفظه من غير زيادة ، وهذا عيبٌ فاحشٌ . ومثاله كمن أَخذ عِقْداً قد أَتقن نظمه وأَحسن تأليفه فَأَوْهَاهُ وَبَدَّدَهُ ، وكان يقوم عذره فى ذلك أَن لو نقله عن كَوْنه عقداً إلى صورة أُخرى مثله أَو أَحسن منه ، وأَيضاً فإنه إذا نُثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهور السَّرِقة ، فيقال : هذا شعرُ فلان بعينه ، لكون أَلفاظه باقيةً لم يتغير منها شيءٌ ؛ وقد سلك هذا المسلك بعض العراقيين فجاءَ مُسْتهجناً ، كقوله فى حل بعض أَبيات الحماسة :

وَأَلَدَّ ذِى حَنَقٍ عَلَىَّ كَأَنَّما تَغْلِى عَدَاوةُ صدرِهِ فى مِرْجَلِ
أَزْجَيْتُهُ عنى فأَبصرَ قَصْدَهُ وَكَوَيْتُهُ فَوْقَ النواظر من عَلِ

إذ قال فى نثر هذين البيتين : « فكم لقى أَلدَّ ذا حَنَق كأَنه ينظر إلى الكواكب من عل ، وتغلى عداوة صدره فى مرجل ، فكَوَاهُ فوق ناظريه وأَكَبَّه لفمه ويديه » . فلم يزد هذا الناثِرُ على أَن أَزال رونق الوزن وطلاوة النظم لا غير .

ومن هذا القسم ضربٌ محمودٌ لا عيب فيه ، وهو أَن يكون البيت من الشعر قد تضمَّن شيئاً لا يُمكن تغيير لفظه فحينئذ يُعذر ناثرُه إذا أَتى بذلك اللفظ ، وكذلك الأَمثال السائرة فإنه لا بد من ذكرها على ماجاءَت فى الشعر .

وأَما القسم الثانى – وهو وَسَطٌ بين الأَول والثالث فى المرتبة – فهو أَن ينثر المعنى المنظوم ببعض أَلفاظه ، ويعبر عن البعض بأَلفاظٍ أُخَر ، وهناك تظهر الصنعة فى المماثلة والمشابهة ، ومؤاخاة الأَلفاظ الباقية بالأَلفاظ المُرْتجلة . فإِنه إذا أَخذ لفظاً لشاعر مجيد ، قد نَقَّحَه وصَحَّحَه فَقَرَنه بما لا يلائمه ، كان كمن جمع بين لُولُؤة وحصاة ، ولا خفاء فى ذلك من الانتصاب للقدح والاستهداف للطعن ، والطريق المسلوك إلى هذا القسم : أَن تأخذ بعض بيت من الأَبيات الشعرية هو أَحسن ما فيه ثم تماثله .

وسأُوردُ هنا مثالا واحداً ، ليكون قدوة للمتعلم ، فأَقول : قد ورد هذا البيت من شعر أَبى تمام فى وصف قصيدة له :

حذاء تملأُ كل أُذْنٍ حِكمةً   وبلاغةً وتُدِرُّ كل وريد

فقوله (تملأُ كلَّ أُذْنٍ حكمة) من الكلام الحسن ، وهو أَحسن مافى البيت فإِذا أَردت أَن تنثر هذا البيت فلا بد من استعمال لفظه بعينه ، لأَنه فى الغاية القُصْوى من الفصاحة والبلاغة ، فعليك حينئذ أَن تُؤاخيه بمثله .

وهذا عَسِرٌ جداً ، وهو عندى أَصعب منالاً من نثر الشعر بغير لفظه ، لأَنه مسلك ضيقٌ لما فيه من التعرض لمماثلة ما هو فى غاية الحسن والجودة . وأَما نثر الشعر بغير لفظه فذلك يتصرف فيه ناثرُهُ على حسب ما يراهُ ، ولا يكون مقيَّداً فيه بمثال يضطر إلى مُؤاخاته ، وقد نثرْتُ هذه الكلمات المشار إليها وأَتيتُ بها فى جملة كتاب فقلتُ : وكلامى قد عرف بين الناس واشتهر ، وفاق مسير الشمس والقمر ، وإذا عُرِف الكلام صارت المعرفة له علامةً وأُمِنَ من سرقته ، إذ لو سُرِقَ لدلَّتْ عليه الوسامة ، ومن خصائص صفاته أَن يملأَ كل أُذْن حكمة ، ويجعل فصاحة كل لسان عجبة ، وإذا جرت نفثاته فى الأَفهام ، قالت : أَهذه بنت فكرة أَم بنت كَرْمة ؟

فانظر كيف فعلت فى هذا الموضع ، فإنى [حين] أَخَذْتُ تلك الكلمات من البيت الشعرى التزمت بأن أُؤاخيها بما هو مثلها أو أحسن منها ، فجئت بهذا الفصل كما تراه ، وكذلك ينبغى أن يُفعل فى ما هذا سبيله .

وأما القسم الثالث — وهو أعلى من القسمين الأَوَّلين — فهو أن يؤخذ المعنى فيصاغ بألفاظٍ غير ألفاظِهِ . ومن ثم يتبينُ حِذْقُ الصائغ فى صياغته ويعلم مقدارُ تَصَرُّفه فى صناعته ، فإن استطاع الزيادة على المعنى فتلك الدَّرَجَة العالية ، وإلَّا أحسن التصرف وأتقن التأليف ليكون أولى بذلك المعنى من صاحبه الأول .

واعلم أن من أبيات الشعر ما يتسع المجال لناثره فَيُورِدُه بضروب من العبارات وذلك عندى شبيهٌ بالمسائل السَّيَّالة فى الحساب التى يُجَاوب عنها بعدة من الأجوبة ومن الأبيات ما يضيق فيه المجالُ حتى ما يكاد الماهر فى هذه الصناعة أن يخرج من ذلك اللفظ ، وإنما يكون هذا لعدم النظير . فأَمَّا ما يتسع المجال فى نثره فكقول المتنبى :

لا تعْذِلُ المشتاق فى أشواقه   حتى يكون حشاك فى أحشائه

وقد نثرت هذا المعنى ، فمن ذلك قولى : لا تعذل المحب فى ما يهواه حتى تطوى القلب على ما طواه . ومن ذلك وجه آخر ، وهو : إذا اختلفت العينان فى النظر فالعذل ضرب من الهذر ، وأما ما يضيق فيه المجال فيعسر على الناثر تبديل ألفاظه كقول أبى تمام :

تردَّى ثياب الموت حُمْراً فما أتى   لها الليلُ إلا وهى من سندس خضر

قصد أبو تمام المؤاخاة فى ذكر لونى الثياب من الأحمر والأخضر ، وجاء ذلك واقعاً على المعنى الذى أرادهُ من لون ثياب القتلى وثياب الجنة . وهذا البيت لا يمكن تبديل ألفاظه ، وهو وأمثالُهُ مما يجبُ على الناثرِ أن يُحْسِن

الصنعة فى فك نظامه لأنه يتصدى لنثره بألفاظه ، فإن كان عنده قُوَّة تصرُّفٍ وبَسْطة عبارة ، فإنه يأتى به حسناً رائقاً .

وقد قلت فى نثره : لم تَكْسه المنايا نسج شفارها حتى كَسَتْهُ الجنة نسج شعارها فَبُدِّلَ أحمر ثوبه بأخضره ، وكأس حمامه بكأْس كَوثره .

وإذا انتهى بنا الكلام إلى هٰهنا فى التنبيه على نثر الشعر ، وكيفية نثره وذكْر ما يسهل منه ، وما يعسُرُ ، فلنتبع ذلك بقولٍ كُلِّىّ فى هذا الباب فنقول :

من أَحبَّ أَن يكون كَاتباً ، أَو كَان عندَهُ طبعٌ مجيبٌ ، فعليه بحفظ الدواوين ذوات العدد ، ولا يقنع بالقليل من ذلك ، ثم يأخذ فى نثر الشعر من محفوظاته .

وطريقه : أَن يبتدى فيأْخذ قصيداً من القصائد ، فينثره بيتاً بيتاً على التوالى .

ولا يستنكف فى الابتداء أَن ينثر الشعر بأَلفاظه أَو بأَغلبها ، فإنه لا يستطيع إلا ذلك .

وإذا مَرِنت نفسه ، وتدرَّب خاطره ، ارتفع عن هذه الدرجة ، وصار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده ، ثم يرتفع عن ذلك فيكسوه ضروباً من العبارات المختلفة ، وحينئذ يحْصُلُ لخاطره بمباشرة المَعانى لِقَاحٌ ، فيستنتج منها معانى غير تلك المعانى .

وسبيله : أَن يكثر الإدمان ليلاً ونهاراً ، ولا يزال على ذلك مدة طويلة حتى تصير له ملكة ، فإذا كَتَبَ كِتاباً أَو خطب خطبة تدفَّقَتِ المعانى فى أثناء كلامه وجاءَت أَلفاظه معسولة ، وكَان عليها جدة حتى تكاد ترقص رقصاً ، وهذا شيء خبرته بالتجربة ، ولا ينبئك مثل خبير .

(عن « المثل السائر » باختصار)

التخلص والاقتضاب فى مواضيع الانشاء

التخلص : هو أن يأْخذَ مؤلف الكلام فى معنًى من المعانى ، فبينما هو فيه إذ أَخذ فى معنى آخر غيره ، وجعل الأَول سبباً إليه ، فيكونُ بعضُه آخذاً برقاب بعض من غير أَن يقطعَ كلامَه ، ويستأْنف كلاماً آخرَ ، بل يكونْ جميع كلامه كأَنما أُفرغ إفراغاً ، وذلك مما يدلُّ على حذق الشاعر وقوة تصرُّفه من أَجل أَن نطاق الكلام يضيق عليه ، ويكون متَّبعاً للوزن والقافية ، تُؤْاتيه الأَلفاظ على حسب إرادته .

وأَما الناثر فإِنه مطلق العنان يمضى حيث شاءَ ، فلذلك يشقُّ التخلُّصُ على الشاعر أَكثر مما يشق على الناثر ، ومما جاءَ من التخلصات الحسنة قول المتنبي المتوفى سنة ٣٤٤ هـ :

خَلِيلَيَّ إنِّى لا أَرى غير شاعرٍ فَلِمْ منهم الدعوى ومنِّى القصائدُ
فلا تعجبا إن السيوف كثيرة ، ولكنَّ سيْف الدولة اليوم واحدٌ

وهذا هو الكلام الآخذ بعضه برقاب بعض ، أَلا ترى أَن الخروج إلى مدح الممدوح فى هذه الأَبيات كأَنه أُفرغ فى قالب واحد ؟

والاقتضاب : أَن يقطع الشاعر كلامه الذى هو فيه ، ويستأْنف كلاماً آخر غيره من مديح أَو هجاءٍ أَو غير ذلك ، ولا يكون للثانى علاقة بالأُول : كقول أَبى نواس – المتوفى سنة ١٩٨ هـ – فى قصيدته النُّونية التى لم يكمِّل حسنها بالتخلص من الغزل إلى المديح ، بل اقتضبه اقتضاباً ؛ فبينما هو يصف الخمر ويقول :

فاسقنى كأْساً على عذلٍ كرِهتْ مسموعه أُذنى
من كُمَيْتٍ اللّون صافية خير ما سَلستَ فى بدنى
ما استقرت فى فؤاد فتًى فَدَرى ما لوعة الحزن

حتى قال :

تَضحكُ الدنيا إلى مَلكٍ قام بالآثار والسُّنَنِ
سَنَّ للنَاس النَّدَى فندَوْا فكأَن البُخلَ لم يكُن

وإذا لم يحسن التخلصُ ، بأَن كَان قبيحاً ممسوخاً فالاقتضابُ أَولى منه .

فينبغى لسالك هذه الطريقة أَن ينظر إلى ما يَصوغُه ، فإن أَتاهُ التخلصُ حَسناً كما ينبغى ، وإلا فليدعه ولا يستكرهْهُ ، حتى يكونَ مثلَ هذا .

واعلم أَن التخلص غيرُ ممكن فى كل الأَحوال ، وهو من مُستصعبات علم البيان فليتدبر الشاعر ذلك .

(عن «المثل السائر» بتصرف)

كيفية افتتاح مواضيع الانشاء وختامها

الافتتاحُ أَن تجعل مَطلع الكلام من الشِّعر أَو الرسائل دالًّا على المعنى المقصود من ذلك الكلام : إن كَان فتحاً ففتحاً ، وإن كَان هناءً فهناءً ، أَو كَان عزاءً فعزاءً وهكذا . وفائدته أَن يُعرف من مبدإِ الكلام ما المراد منه ، فإذا نظم الشاعر قصيدة ـ فإن كانت مديحاً صِرفاً لا يَختصّ بحادثة من الحوادث ؛ فهو مخيرٌ بين أَن يفتتحها بغزل ، وبين أَن يرتجل المديح ارتجالا من أَوَّلها ـ كقول القائل :

إن حارَتِ الأَلبابُ كيف تقولُ فى ذا المَقَامِ فعُذرُها مَقْبولُ
سامِحْ بفَضْلكَ مادِحيك فما لهم أَبداً إلى ما تستحق سبيلُ
إن كان لا يُرضيكَ إلا مُحسنٌ فالمُحسنون إذَنْ لديك قليلُ

وأَما إذا كان القصيدُ فى حادثة من الحوادثِ كفتح مُقْفَل ، أَو هزيمة جيش أَو غير ذلك ، فإنه لا ينبغى أَن يُبدأَ فيه بغزل ، ومن أَدب هذا النوع أَن لا يذكر الشاعر فى افتتاح قصيدة المديح ما يُتطيرُ منه أَو يُستقبحُ ، لا سيما إذا كان فى التهانى

فإنه يكون أشدَّ قبحاً ، وإنما يُسْتَعْمَلُ فى الخطوب النازلة ، والنوائب الحادثة ، ومتى كَان الكلامُ فى المديح مفْتتحاً بشيءٍ من ذلك ، تَطيَّر منه سامعه ، وإنما خُصَّت الابتداءات بالاختيار لأَنها أَول ما يَطرُق السمعَ من الكلام ، فإذا كان الابتداءُ لائقاً بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعى على استعماله . والختامُ : أَن يكون الكلامُ مُؤْذناً بتمامه ، بحيث يكون واقعاً على آخر المعنى ، فلا ينتظرُ السامع شيئاً بعده ؛ فعلى الشاعر والناثر أَن يتأَنَّقا فيه غاية التأَنُّق ، ويُجوِّدا فيه ما استطاعا لأَنه آخر ما ينتهى إلى السمع ، ويتردَّدُ صداهُ فى الأَذن ، ويعلَقُ بحواشى الذِّكْر فهو كمَقْطع الشراب ، يكون آخر ما يَمرُّ بالفَمِ ، ويُعْرَضُ على الذَّوْق ، فَيَشعُرُ منه بما لا يشعُرُ من سِواهُ ، ولذلك ينبغى أَن يكون الختامُ مُميَّزاً عن سائر الكلام قبلَه بنكْتةٍ لطيفةٍ أَو أُسلوبٍ رشيق أَو معنًى بليغ ، ويُختار له من اللفظ الرَّقيقُ الحاشيةِ ، الخفيفُ المحمل على السمع والسهلُ الوُرُودِ على الطَّبع ، ويتجافى به عن الإسهاب والتعقيد والثِّقَل ، وغير ذلك . وحُكْم الختام كما سبق أَن يكون مُؤْذناً بتمام الكلام بحيث يكون واقعاً على آخر المعنى فلا ينتظر السامع شيئاً بعدَهُ ، وإذا لم يكن المعنَى دالاً بنفسه على الختام حَسُن أَن يُدَلَّ عليه بكلام آخرَ ، يُذكر عَقِبَ الفراغ من سِياقه الأَغراض السابقة ، وحكمه أَن يكون مُنتزعاً مما سبقه فيُقْفى به تقريراً لشيءٍ من الأَغراض أَو إجمالاً لِمُفَصَّلها ، مُورداً على وجه من وجُوه البلاغة ، أَو الكلام الجامع ، أَو مخرَج المثل ، أَو الحكمةِ ، أَو ما شا كل ذلك ، مما تعلقُهُ الخواطر وتُقيدهُ الأَذهان ، كقول المتنبى المتوفى سنة ٣٤٤ هـ :

وَمَا أَخُصُّكَ فى بُرْءٍ بِتَهْنِئَةٍ إذا سَلِمْتَ فكلُّ الناس قدسَلِمُوا

وكقول الزمخشرى المتوفى سنة ٥٢٨ هـ فى ختام إحدى مقالاته : « إن الطيش فى الكلام يُترجِمُ عن خِفةِ الأَحلام ، وما دَخَلَ الرِّفْقُ شيئاً إلا زانهُ ، وما زان المتكلم إلا الرَّزانةُ » .

وأما فى غير ذلك ، فالأكثرُ فيه يُضَمَّنُ غرضاً آخر من الدعاء ، أو عَرْضِ النفس على خدمة المكتوب إليه ، أو توقُّع الجوابِ منه ، أو غير ذلك ممَّا تحتَمله مقاماتُ الكلام ، وتقتضيه دواعى الحال .

وأكثر ما يختمونها فى النثر بعد الأَغراض المذكورة بقولهم : « إن شاء الله » أَوْ « بمنِّ الله وفضله » وما أَشبه ذلك .

وكثيرا ما يختمُ الناثر بقوله : « والسلام » أَو « بلَا حَوْل ولا قُوَّة إلا بالله » أَو بقوله : « واللهُ المستعان » أو بقوله : « والحمدُ لِلهِ أَوَّلاً وآخراً ، باطناً وظاهراً » أَو بقوله : « والله أَعلم » أَو غير ذلك .

ورُبما خُتم بِمَثَلٍ ، كَخِتَام الْخوارزْمِىِّ المتوفى سنة ٣٨٣ ﻫ رسالته بقوله : « ولقد سلك الأَمير منَ الكَرمِ طريقاً يستوحش فيها لِقلَّة سالكها ، ويتيه فى قفارها لدروس آثارها ، وانهدام منازلها ، أَعانه الله على صعوبة الطريق ، وقِلَّة الرفيق ، وأَلهمَهُ صبراً يُهوِّن عليه احتمالَ المغارِمَ ، ويقرب عليه مسافة المكارم . فبالصبر تنال العُلَا ، وعند الصَّباح يُحْمَدُ القوم السُّرَى » .

ومن أَمثلَته فى الشِّعر قَول ابن الوَرْدِى المتوفى سنة ٧٤٩ ﻫ :

سلامٌ عَليكم مَا أَحبّ وِصالكم وغايَةُ مجهودِ المُقلِّ سَلَام

تقسيم الانشاء الى فنى النظم والنثر

اعلم أَن لسان العرب وكلامهم يدور على فنين : فن الشعر المنظوم ، وهو الكلام المقفّى الموزون بأَوزان مخصوصة ، وفن النثر ، وهو الكلام غير الموزون . فأَما الشعر فمنهُ المدح والهجاءُ ، والرثاءُ . وأَما النَّثر فمنه ما يؤتى به قِطعاً ويُلْتزم فى كل كلمتين منه قافيةٌ واحدة ويسمى سَجْعاً . وهو ثلاثة أَقسام : القسم الأَول :

أن يكون الفصلان متساويين ، لا يزيد أحدهما على الآخر ، مثل قوله تعالى : (فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلَاتَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَاتَنْهَر) وهو أشرف السجع منزلة للاعتدال الذى بينه .

والقسم الثانى أن يكون الفصل الثانى أطول من الأول ، طولًا لايخرج به عن الاعتدال خروجاً كثيراً ، فإنه يقبح عند ذلك ويُسْتكره ، ويعد عيباً ؛ فمما جاء من ذلك قوله تعالى : (بَلْ كَذَّبُوا بالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لمن كَذَّبَ بالسَّاعَةِ سَعِيرا . إذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً . وإذا أُلْقُوا منها مكاناً ضَيِّقاً دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورا)(١) ، فالفصل الأول ثمان لفظات ، والثانى والثالث تسعٌ تسع ؛ ويستثنى من هذا القسم : ما كان من السجع على ثلاث فِقَر ، فإن الفقرتين الأوليين تحسبان فى عدة واحدة ، ثم تأتى الثالثة فينبغى أن تكون طويلة طولا يزيد عليهما ، وقد تكون الثلاث متساويات ، كقوله تعالى : (فى سِدْرٍ(٢) مَخْضُودٍ(٣) وَطَلْحٍ(٤) مَنْضُودٍ وَظِلٍّ ممدُودٍ(٥)) .

والقسم الثالث : أن يكون الفصل الآخر أقصر من الأول ، وهو عيب فاحش(٦) . وأما النثر المرسل ، فهو ما يؤتى به قطعاً من غير تقيد بقافية ولا غيرها وهو الذى يطلق فيه الكلام إطلاقاً ، ولا يُقَطَّع أجزاءً ، بل يُرْسَلُ إرسالا من غير تقيد بقافية .

(من «المثل السائر» باختصار)

---

(١) ويلا .　　(٢) شجر النبق .

(٣)مقطوع شوكه .　　(٤) الموز .

(٥) متراكم بعضه فوق بعض .

(٦) للسجع أربعة شروط : اختيار المفردات الفصيحة ،واختيارالتأليف الفصيح ، وكون اللفظ تابعا للمعنى لا عكسه ، وكون كل واحدة من الفقرتين أو الفقرة دالة على معنى لئلا يصبح الكلام طويلا معيبا .

كيفية عمل الشعر

اعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطاً :

أولهما : الحفظ (١) من جنسه – أى من جنس شعر العَرَبِ – حتى تنشأ فى النفس ملكة يُنسج على منوالها ، ويُتَخَير المحفوظ من الحر النقى الكثير الأَساليب وهذا المحفوظ المختار أقلُّ ما يكفى فيه شعر شاعر من فحول الإسلام ، مثل : عمر بن أَبى ربيعة ، وكُثَيِّر ، وذِى الرُّمَّة ، وجرير ، وأَبى نواس ، وأَبى تمام ، والبُحْترى ، والشريف الرَّضى ، وأَبى فراس ، وأَكْثَرُهُ شعر «كتاب الأَغانى» لأَنه جمع شعر أَهل الطبقة الإسلامية كله ، والمختار من شعر الجاهلية .

ثم لا بد له من الخلوة واستجادة المكان المنظوم فيه ، باشتماله على مثل المياه والأَزهار ، كما يستحسن استجادة المسموع ، لاستنارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بملاذ السرور . ثم مع هذا كله ، فشرطه أَن يكون على جمام (٢) ونشاط فذلك أَجمع له ، وأَنشط للقريحة أَن تأْتى بمثل ذلك المنوال الذى يساعد فى حفظه ، قالوا : وخير الأَوقات لذلك أَوقات البُكَرِ (٣) عند الهبوب من النوم ، وفراغ المعدة ، ونشاط الفكر ، وربما يكون من بواعثه العشق والإنشاء .

---

(١) ومن كان خاليا من المحفوظ فنظمه قاصر ردىء – ولا يعطيه الرونق والحلاوة الا كثرة المحفوظ فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر وانما هو نظم ساقط . واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ . ثم بعد الامتلاء من الحفظ ، وشحذ القريحة للنسج على المنوال ، يقبل على النظم وبالاكثار منه تستحكم الملكة وترسخ ، وربما يقال : ان من شروطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة ، اذ هى صادرة عن استعمالها بعينها . فاذا نسيها ، وقد تكيفت النفس بها انتقش الاسلوب فيها كأنه منوال يأخذ فى النسيج عليه بمثالها من كلمات أخرى ضرورة .

(٢) الراحة . (٣) جمع بكرة وهو الصباح ووزانه غرفة وغرف

قالوا : فإن استصعب عليه بعد ذلك ، فليتركه إلى وقت آخر ، ولا يُكْره نفسه عليه ، وليكن بناءُ البيت على القافية من أول صوغه ونسجه ، يضعها ويبنى الكلام عليها إلى آخره ، لأنه إن غفل عن بناء البيت على القافية صَعُبَ وضعها فى محلها ، فربما تجىءُ نافرة قلقة . وإذا سمح الخاطر بالبيت ولم يناسب الذى عنده ، فليتركه إلى موضعه الأليق به ، فان كل بيت مستقل بنفسه ، ولم تبق إلا المناسبة ، فليتخير فيها كما يشاءُ ، وليراجع شعره بعد الخلاص منه ، بالتنقيح (١) والنقد ، ولا يضن (٢) به على الترك إذا لم يبلغ الإجادة ، فإن الإنسان مفتون بشعره ، إذ هو بنات فكره واختراع قريحته ، ولا يستعمل فيه إلا الأفصح من التراكيب . والخالص من الضرورات اللسانية فليهجرها فإنها تنزلُ بالكلام عن طبقة البلاغة وقد حظر أئمة اللسان على المولد(٣) ارتكاب الضرورة ، إذ هو فى سعة منها بالعدول عنها إلى الطريقة المثلى من الملكة ، ويجتنب أيضاً المقعد من التراكيب جهده ، بحيث تكون ألفاظه على طِبْق معانيه تسابق ألفاظه إلى الفهم ، ويجتنب أيضاً الوحشى من الألفاظ ، والمقصر ، وكذلك السوقى المبتذل ، فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضاً ، فيصير مبتَذَلاً ، ويقرب من عدم الإفادة ، وفى هذا القدر كفاية لمتعاطى صناعة الإنشاء .

(عن «ابن خلدون» باختصار)

---

(١) بالتهذيب .

(٢) بفتح الضاد وكسرها لا يبخل .

(٣) هو من وجد بعد اختلاط العجم بالعرب كالعباس بن الأحنف ومن بعده .

فنون الانشاء

فنون الإنشاء سبعةٌ وهى : المُكاتباتُ ، والمُناظراتُ ، والأَمثالُ ، والأَوصافُ ، والمقاماتُ ، والرواياتُ ، والتاريخ

الفن الأول

فى المكاتبات والمراسلات

المكاتبة ، وتعرف أيضاً بالمراسلة ، هى مخاطبة الغائب بلسان القلم ؛ وفائدتها أوسع من أن تحصر من حيث أنها تُرْجمان الجنان ، ونائب الغائب فى قضاء أوطاره(١) ، ورباط الوداد مع تباعد البلاد .

وطريقة المكاتبة هى طريقة المخاطبة البليغة مع مُرَاعاة أَحوال الكاتب والمكتوب إليه والنسبة بينهما(٢) ؛ وخواصُّها خمس : السذَاجة ، والجلاء ، والإيجازُ ، والملاءَمَةُ ، والطَّلَاوَة(٣) . فالسَّذَاجة : تجعل الكلام فطريًّا سليماً من شوائب التكلف ، منزَّهاً عن زخرف(٤) القول ، بعيداً عن بَهْرَجَة(٥) الكلام . والجلاء : هو العدول عن الكلام المغلق ، والتشابيه المستبعدة ، والتراكيب الملتبسة إلى الكلام المهَذَّب الصريح . والإيجازُ : تنقيحُ الرسالة من حشو الكلام ، وتطويل الجمل ، فيبرزها وافية الدلالة على المقصود ، مقتصرة على

---

(١) الحاجات . (٢) قال ابراهيم بن محمد الشيبانى : اذا احتجت الى مخاطبة أعيان الناس أو أوساطهم أو سوقتهم فخاطب كلا على قدر أبهته وجلالته وعلو مكانته وانتباهه وفطنته . ولكل طبقة من هذه الطبقات معان ومذاهب يجب عليك أن ترعاها فى مراسلتك . فلا تكتب لمن أصيب فى ماله أو فى عياله كما تكتب لمن فرغ باله ووفر ماله . وقال آخر : ان بلاغة الرسالة تستفاد من ملاحظة مقامات الكلام وأوقاته ومراعاة أحوال المخاطبين بالنسبة الى المتكلم ــ واعلم ان لكل مقام مقالا .

(٣) بتثليث الطاء . (٤) مزوره . (٥) العدول عن الجادة المقصودة .

المُحَسِّنات القريبة المنال(١) . والملاءمة : تنزل الألفاظ والمعانى على قدر الكاتب والمكتوب إليه ، فلا تُعْطِى خسيس الناس رفيع الكلام ، ولا رفيع الناس خسيس الكلام ، على أنها تجعل الرسالة وتعابيرها مُسْتعذبة الأوضاع ، حسنة الارتباط ، يأْخُذُ بعضها بأَزِمَّةِ بعض . والطلاوة : تكسو الكلام رونقاً وإشرافاً بجودة العبارة وسلامة المعانى وسلاسة الألفاظ (٢) . وتجعله بذلك أحسن موقعاً عند سامعه.

أبواب الرسائل

تنقسم الرسائلُ باعتبار موضوعها إلى ثلاثة أقسام : الأول الرسائل الأهلية والثانى الرسائل المتداولة ، والثالث الرسائل العلمية

الكلام على الرسائل الأهلية

الرسائلُ الأهلية ـ وتُعْرَفُ برسائل الأشواق ـ هى ما دارت بين الأقارب والأصدقاء ، وأسفَرَتْ(٣) عن مَكْنُونِ(٤) الوداد ، وسرائر الفؤاد ، ولا حَرَجَ على الكاتب إذا بسط فيها الكلام على سجيته ، وأخفى السؤال فى أحوال أصحابه . وتنفرد هذه الرسائل بأن يُطلق الكاتب فيها العنان للقلم ، ويتجافى عن الكلفة ويعدل عن الانقباض . وقد قيل : « الأُنْسُ يُذْهِبُ المهابة ، والانقباضُ يُضَيِّعُ المَوَدَّة » . هذا ولا بد من مراعاة مقتضى الحال ، والاعتصام بركْنِ الفطنة أخذاً بقول أبى الأسود الدُّؤلى :

لا تُرْسِلَنَّ رِسَالة مشهورَةً لا تستطيعُ إذا مَضَتْ إدراكها

---

(١) ولا يعد مناقضا للايجاز ما يستدعيه المقام من البسط فى الموضوع : أما تعزيزا للمعنى واما حذراً من الابهام ، أو دلالة على عواطف القلب ، أو رغبة فى تفكيه الخواطر . قال الاقدمون : « خير الكلام ما قل ودل ، ولم يطل فيمل » .

(٢) سهولتها . (٣) كشف .

(٤) مستور .

وإلى هذا الباب ترجع مكاتبات الشوق ، والتّعارف قبل اللِّقاء ، والهدايا ، والاستعطاف ، والاعتذار وغير ذلك ولنذكر شذرات من أقوال الكُتّاب(١) :

الفصل الأول : فى الشـــوق

كَتَبَ أبو منصور الثعالبى النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

شوق إليكَ رهينُ قلبى ، وقرينُ صَدْرِي ، والزعيم(٢) بتعليق فكرى ، وتفريق صبرى ، وسميرُ ذِكْرى ، ونديمُ فِكْرى ؛ زادى فى سفرى ، وعِتَادِى(٣) فى حَضَرى ، لا يستقلُّ به صدرى ولا يقوى عليه صبرى ، يكاد يكُونُ لزاماً ويعدُّ غراماً ، لا يرحل مقيمه ، ولا يُصرف غريمه . استخفَّ نفسى واستفزَّها ، وحرَّك جوانحى وهزَّها . شوقى أخذ بسمع خاطرى وبصره ، وحال بين مورد(٤) قلبى ومصدره(٥) شوق قد استنفد جَلَدِى(٦) وملك خَلَدى(٧) . شوق برانى برى الخلال(٨) ، ومحقنى مَحْق الهلال . شوق تركنى حَرَضاً(٩) وأوسعنى مضضاً(١٠) أرانى الصبر حسرة ، والوجد يمنة ويسرة . شوق يزيد الأُيَام(١١) توقداً وتأجُّجا وتضرماً وتوهجاً . نار الشوق حشو ضلوعى ، وماءُ الصبابة ملءُ جُفونى . أنا من لواعج الشوق بين غمائم ، لا تمطر إلا صواعق وسمائم(١٢) . قد قرحت كبدى من الحرقة بهذه الفرقة ، ما يفوت أيسره حد الشكاية ، ويجوز أضعفه كُنْهَ الكتابة . شوق الروض الماحل(١٣) إلى الغيث الهاطل .

---

(١) قد أفردنا للرسائل الأهلية كتابا خاصا أسميناه (انشاء المكاتبات العصرية والمراسلات العربية) وطبعناه عدة طبعات متوالية ، فارجع اليه اذا شئت ، ولهذا نختصر فى هذا الكتاب أبواب الرسـائل ونذكر ما تمس اليه الحاجة فقط . (٢) الرئيس .

(٣) ما أعددته لحوادث الدهر (٤) موضع الورود (٥) الرجـوع (٦) القوة . (٧) القلب (٨) الضعف (٩) مريضا (١٠) وجعا . (١١) بضم الهمزة وكسرها الدخان (١٢) الرياح الحارة (١٣) المجدب .

وكتب فى تشبيه الشوق :

ما الأعرابية حنَّتْ إلى نجد ، وأنّتْ من وَجْد ، بأشدَّ منى كلَفاً(١) ، وأتم منى شغفاً ؛ أنا فى شدة الشوق إليك كالعطشان كُشِفَ له عن ماءٍ عذب ، ومُنع منهُ بمانع ؛ شوق لو فُرِّق على القلوب الخالية لاشتغلت ، ولو قُسِّم على الأَكْبَادِ الباردة لاشتعلت ؛ أنا أشتاقك مع كل صباح طالع ، وضياءٍ شارق ، ونجم طارق(٢) .

وفى أثر الفراق :

وَجْدٌ يتكرر على كَرِّ الجديدين(٣) ، ويستغرق ساعات المَلَوَيْنِ(٤)قد تحملت مع يسير الفُرْقه عظيم الحرقة ، ومع قليل البُعْدِ كثير الوجد ؛ قد انثنيتُ بجسم ناحل وصِرْتُ من صبرى على مراحل ، فأرّقتْنِى (٥) وفرَّقت جميع صبرى ؛ واستصحبت فريقاً من قلبى؛ فرقت بين عينى والرُّقَاد (٦) وجنبى والمهاد (٧) ، ما أُعوِّلُ إلا على العَوِيل(٨) لو كان يُغْنِى ، ولا أستنصرُ غير الوجد لو كان يُجْدِى(٩) يدى لا تُسَاعِدُنى ، وخَطِّى لا يُشْبِهُ فى الدِّقَّة إلا بدنى ، لولا حصانة(١٠) الأَجل لخرجت روحى على عجل ؛ فارقتنى فتفرَّق عنى شمل أُنس منتظم ، وتمكَّن منى بَرَح شوق مضطرم ؛ فارقتنى فتَفَرَّقتَ بين الرُّوح والبدن ، وتركْتنى والنزاع فى قرن(١١) ؛ قد صرتُ حليف وحشة وإن كُنتُ ثَاوِياً(١٢) فى وطن ، وقرين كُرْبة وإن كنتُ بين جِيرةٍ وسَكَن :

عسى الدهرُ يُدْنينا ويُدْنى دِيَارَكمُ ويجمعُ ما بينى وبينكُمُ الشملا

---

(١) كلفا مصدر كلف من باب فرح : التغير (٢) الآتى ليلا (٣) الليل والنهار . (٤) الليل والنهار أيضا (٥) أسهرتنى (٦) النوم (٧) مكان النوم . (٨) رفع الصوت بالبكاء (٩) ينفع (١٠) حفظ وهو مصدر .
(١١) قرن وقرن من باب فرح التقى (١٢) مقيما .

فأَشكُو تباريحَ الغرام إليكُمُو وحَرّ جوى يُبْلِي عظامى وما يَبْلَى

وكتب البسطامى المتوفى سنة ٣٣٢ هـ :

قلبى بِنَارِ الهوى مُعَذَّبْ شوقاً إلى حضرةِ المُهَذبْ
شوقاً إلى ماجدٍ كَريم يخطُرُ لى ذِكْرُهُ فأَطْرَبْ

وبعدُ ، فالعبدُ ينهى من لواقح(٢) شوقه ، ولَوَافح(٢) تَوْقِه(٣) إلى شهود ذاتكم الجميلة ، ومشاهدة صفاتكم الجليلة ، لِيَنْشَق عَرْفكم(٤) الفائح ، وبخورَ عُرْفكم(٥) الفاتح ، مدَّ اللهُ – سبحانه وتعالى ! – ظلكم ، وأَدَرَّ وبلكم(٦) وطلكم(٧) .

أُحِبُّ الوعدَ منك وإن تمادى وأَقنعُ بالخيالِ إذا أَلَمَّا
عسى الأَيامُ تسْمَحُ لى بِوَصْل وتأْخُذُ لى مِنَ الهِجْرَانِ سِلْما

والجنابُ منذُ طوى عنا أَبواب مُلاقاته ، وزوى منا أَطايبَ أَوقاته ، قبض العبدُ عنان مقاله وخفض لسان حاله :

شَكَوْتُ وما الشكْوَى بمثلِىَ عادةٌ ولكن تفيض العين عند امتلائها

فجلس الفراق بعظيم حجابه وأَليم عذابه ، على ذروة(٨) عَرْشه ، وافترس بقوة بطشه ، وصار للسرّ جاراً ، وأَوقد للحرب ناراً جهاراً :

طوعاً لقاضٍ أَتى فى حكمه عجباً أَفتى بِسَفْكِ دمى فى الْحِلِّ والْحَرَم

وهذه حالته المفصح عنها مقالته :

إنَّ الأُمور إذا التَوَتْ وتعقدت جاءَ القضاءُ من الكريم فَحَلَّها

(١) الرياح . (٢) الرياح الحارة . (٣) الشوق الطيب .
(٤) الريح الطيبة . (٥) نبت يقال له التمام طيب الرائحة .
(٦) المطر الكثير . (٧) الندى .
(٨) بضم الذال وكسرها أعلاه .

فلعلَّ يُسْرًا بَعد عُسْرٍ علَّها ولعلَّ مَنْ عَقَدَ العقودَ يحلُّها

فلعلَّ غروس التَّمَنِّى قد أثمرَتْ ، وليالى الحظِّ قد أقمرتْ :

سأَلتُ أَحِبَّتى ما كان ذنبى أَجابونى وأَحشائى تَذُوبُ

إذا كان المُحِبُّ قليل حظٍّ فَمَا حَسَنَاتُه إلا ذُنُوبُ

فَرَعَى اللهُ أَياماً لاحت(١) فيها أَقْمَارُ غُرُوزها(٢) ، وفاحت فيها أطراز طروزها ، من بهاء سمائها ، على منار ضيائها ، من ذات جلالها ، وصفات دلالها ، فى جنَّاتِ عواطفها وجنَّاتِ تعاطفها .

فإن كُنتُ لا أَطْرُقُ(٣) رَحْبَ(٤) فِنَائِكُم(٥) ، فقد أطرقُ بابَ ثنائكم :

لئن غيَّبتنى عن ذُرَاكَ حَوَادِثٌ فليس ثَنَائِى عن فِنَاك بغائِبِ

وكتب عبد الرحمن محمد بن طاهر المتوفى سنة ٩٣١ هـ :

كنت ـ أَعزَّكَ الله ـ عن ضمير انْدَمَج(٦) على سِرِّ اعتقادك دُرُّه ، وتبلج(٧) فى أُفق ودادك بَدْرُه ، وسالَ عَلَى صَفحات ثنائك مسكهُ ، وصار فى راحتىْ سَنائك(٨) ملكهُ . ولما ظفرت بفلان حَمّلته من تحيتى زهرًا جنيًا ، يُوَافيك عَرْفُهُ ذكيًّا ، ويُوَاليك أُنسُهُ نجيًّا(٩) ، ويقضى من حقِّك فرضاً مأْتيًّا(١٠) على أَن شخص جلالك لى ماثلٌ(١١) ، وبين ضلوعى نازلٌ ، لا يملّه خاطر ، ولا يمَسه عرض دائر(١٢) ، إن شاءَ الله عزّ وجلّ .

وكتب أَبو الفضل بن العَميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ :

قد قَرُبَ ـ أَيدكَ الله ـ بمحَلُّكَ على تراخيه ، وتَصاقَبَ مُسْتَقَرُّكَ على تنائيه ،

---

(١) ظهرت (٢) مراده ماتخرجه الأغصان من النوار (٣) آتى ليلا (٤) المتسع (٥) بكسر الفاء متسع البيت (٦) خفى واستتر (٧) أضاء (٨) رفعتك (٩) مناجيا (١٠) آتيا (١١) متمثل (١٢) هالك

لأَن الشوقَ يمثلك ، والذكر يُخَيّلك ، فنحنُ في الظاهر على افتراق ، وفى الباطن على تلاق ، وفى النِّسبة مُتباينون ، وفى المعنى متواصلون ، ولئن تفارقت الأَشباح لقد تعانقت الأَرواحُ .

ويكتب بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

يعزُّ عليَّ - أطال الله بقاءَ مولاى - أن يَنُوبَ فى خدمته قلمى عن قَدَمى ويَسْعَد برؤيته رسولى دون وُصُولى ، وَيَرِدَ مشرعة الأُنس به كتابى قبل ركابى ولكن : ما الحيلة والعوائق جمة ! !

وعليَّ أَن أَسعى وليس عليَّ إدراكُ النجاح

وقد حضرتُ دارَهُ وقَبَّلتُ جِدَاره ، وما بى حُبُّ الحيطان ، ولكن شغفًا بالقُطَّان ، ولا عشقُ الجدران ولكن شوقاً إلى السكان :

أَمرُّ على الديار ديار سَلمى أُقبِّلُ ذا الجدار وذا الجدارا
وما حُبُّ الديار شَغَفْنَ قلبى ولكن حُبُّ من سَكَنَ الديارا

وحين عدت العَوَادى عنه ، أَمليتُ ضمير الشوق على لسان القلم ، معتذراً إلى مولاى على الحقيقة عن تقصير وقع ، وفُتُور فى الخدمة عَرَض ، ولكنى أقول :

إن يكن تركى لقصدك ذنبًا فكَفَى أَن لا أَراك عقابا

وكتب أبو محمد عبد الله البَطْلَيُوسيُّ المتوفى سنة ٦٢٧ هـ :

يا سيدى الأَعلى ، وعمادى الأَسنى ، وحسنَةَ الدهر الحسنى ، الذى جلّ قدره وسار مسير الشمس ذكره ، ومن أَطال الله بقاءه ، لفضل يُعلى منارُهُ ، وعلم يُحيي آثاره . نحن - أعزَّك الله - نَتَدَانى إخلاصاً وإن تناءَينا أَشخاصاً ، ويجمعنا الأَدبُ ، وإن فرَّقنا النسب ، فالأَشكال أَقاربُ ، والآدابُ مناسِب ، وليس يضر تنائى الأَشباح ، إذا تقاربت الأَرواح :

نسيبى فى رأيى وعلمى ومذهبى وإن باعدتنا فى الأُصول المناسبُ

وكتب بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

أَرانى أَذكُرُ « مولاى » إذا طلَعت الشمس ، أَو هبّت الرِّيح ، أَو نَجَمَ النّجم ، أَو لمع البرقُ ، أَو عَرَضَ الغيث ، أَو ذُكِرَ اللَّيثُ ، أَو ضحكَ الرَّوْض ، وأَنّى(١) للشمس مُحَيّاه(٢) ، وللرِّيح ريّاه(٣) ، وللنجم حُلاه وعُلاه ، وللبرق سناؤه(٤) وسناه(٥) ، وللغيث نِدَاه(٦) ونَدَاه(٧) ؛ وفى كلِّ صالحةٍ ذكراه ، وفى كُلِّ حادثة أَراه ، فمتى أَنساه ؟ وَاشِدَّة شوقاه ! عسى الله أَن يجمعنى وإيّاه .

وكتب الشيخ إبراهيم اليازجى المتوفى سنة ١٣٢٤ هـ :

مازلتُ أُدافعُ النفْسَ عمَّا تَتقاضانى من شَكْوَى أَشْوَاقها ، وفى الشَّكْوَى شِفَاءٌ ، واستنزال أَثرٍ من لدنك تتعللُ به مسافة البين(٨) ، إلى أَن يمُنَّ الله باللِّقاءِ ، ومن دون إجابتها مشادة(٩) قد شغلت الذرع(١٠) ، وشواغلُ قد أُفرغ من دونها الوسعُ ؛ إلى أَن غلبَ جيش الوجد على معاقل الصَّبر ، وزَاحم مناكب العَدْوَاءِ حتى ضَرَب أَطنابه(١١) بين الحجاب(١٢) والصّدر ، فاتخذتُ هذه الرّقعة أُزجيها(١٣) إليك ، وفيها من وِقرِ(١٤) الشوق ما ينوءُ(١٥) برسولها ، ومن رِقَّة الصبابة ما يكاد يطيرُ بها ، أَو يخلُفُها فيصافحُ الأَعْتَابَ قبل وصولها رَاجيًا لها أَن تُتَلَقَّى بما عُهِدَ فى سيدى من الطلاقة وَالبِشْر ، وأَن لا يَضِنّ(١٦) عليها بما عَوَّدنى من تمهيد العذر ، وَيَصِلَنى من بعدها بأَنبائه(١٧) الطيِّبة ، عائدة عنه بما يكون للناظر قرَّة ، وللخاطر مَسَرَّة . إن شاءَ الله تعالى بمنِّه وكَرمه .

---

(١) أى من أين (٢) وجهه (٣) رائحة طيبة (٤) الرفعة
(٥) بالقصر الضوء ٦) بضم النون وكسرها أشهر الصوت (٧) العطاء
(٨) البعد (٩) مشاغل (١٠) بسط اليد (١١) الحبل يشد به سرادق البيت .
(١٢) لحمة رقيقة بين الجنبين (١٣) ارفعها (١٤) بكسر الواو الحمل الثقيل . (١٥) يثقل به (١٦) أى لايبخل (١٧) أخباره .

وكتب أيضاً :

وافانى كتابُك العزيز ـ فأَهلاً بأَكرم رسول : جاءَ ببيِّنَات الإخلاصِ والوفاءِ ، مصدقاً لما بين يديه من ذِمَّة الوداد والإخاء ، يتلو علىّ من حديث الشَّوْق ، ما شهد بصحته سقمى ، وهتف مؤذّنه فى مِفْصَل من جسمى ، ويذكّرنى من عهدك ، ما طالما أذكرنِيه البرقُ إذا لمعَ ، والبدرُ إذا طلعَ ، والقمرىُّ(١) إذا سجع ، إنما عدانى عنك : ما أنا فيه من مُجَاذبة الشواغل ، ومساورة(٢) البلابل(٣) :

وفى القلب مافى القلب من شَجَن الهوى تَبَدَّلت الحالاتُ وهو مُقيمُ

وأنا ـ على ما بى من غلِّ البنان(٤) ، وشُغل الجَنَان(٥) ـ ما زالت أَنباؤك(٦) عندى ، لا يخطئنى بريدها ، ولا يَنْقَطِعُ عَنِّى وُرُودها ، أُهنئُ النَّفسَ منها بما تتمنَّى لك من سلامة لا يرثُّ(٧) لها شعارٌ ، وإقبال لا يعترضُهُ بإذن الله إدبارٌ .

وقُصَارى المأمول فى كرمك : أن تُعَامِلَنى بما سبق لك من جميل الصِّلة ، إلى أن يمنّ الله بالاجتماع ، ويُغْنى بالعيان عن السماع ، وما ذلك على اللهِ بعزيزٍ .

وكتب أبو العباس الغَسَّانى المتوفى سنة ٤٩٨ هـ :

سِرْ إلى مجلسٍ يكادُ يسيرُ شوقاً ، ويطيرُ بأَجنحةٍ مِنْ جواء حتى يحلّ بين يديك ، فللهِ دَرُّ(٨) كماله : إنْ طلعت بدرًا بأَعلاه ، وجماله : إن ظهرت غُرَّةً بمُحْياه ؛ فهو أُفُقٌ قد حوى نجوماً تَتَشَوّقُ إلى طلوع بُدُورِها ، وقطْرٌ قد اشتمل عَلَى أَنهارٍ يَتَشَوّقُ إلى بحرها ، لنستمِدّ منها ـ إنْ مننتَ بالحضور ، وإلا فياخيبة السرور .

---

(١) طير من جنس الحمام يقال لأنثاه قمرية ، وللذكر ساق أحمر .
(٢) ملابسة (٣) الاحزان (٤) الاصابع (٥) القلب
(٦) أخبارك (٧) لايبلى (٨) كلمة تعجب

وكتب الصاحب إسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ :

مجلسُنا ياسيدى مُفتقرٌ إليك ، معوِّلٌ فى شوقه عليك ، ولقد توردت خُدود بنفسجه ، وفتقت فَارة(١) نارنجه(٢) ، وانطلقت ألسنُ الأَوتار ، وقامت خطباءُ الأَطيار ، وهبت رياحُ الأَقداح ، ونفقت(٣) سوق الأُنس والأَفراح . وقد أَبتْ راحته أَن تصفوَ إلا أَن تتناوَلها يمناك ، وأَقسم غناؤه لا طيب حتى تعيه أُذناك ، ووجنات أُترجه قد احمرّت خجلاً لإبطائك ، وعيون نرجسه قد حدقت(٤) تأميلاً للقائك ، ونحن لغيبتك كعقد ذَهَبَتْ واسطتُه(٥) ، وشباب قد أُخذت جِدَّته(٦) ، وإذا غابت شمسُ السماءِ عنَّا ، فلا أَن تدنو شمسُ الأَرض منَّا . فإن رأَيت أَن تحضر لتتصل الواسطة بالعقد ، ونحصل بك فى جنَّة الْخُلْد . فكُن إلينا أَسْرَع من السَّهم فى ممرّه ، والماء إلى مقرّه ، لئلا يخبث من يومى ما طابَ ، ويعود من نومى ما طار .

وكتب أَبو بكر الْخُوَارزمى المتوفى سنة ٣٨٣ هـ :

كتابى : وَأَنَا بما يَبْلُغنى من صالح أَخبار « السيد » مُغتبطٌ مسرورٌ ، وبما يعرفه الزمان وأَهله من اعتضادى(٧) به مصون موفور ، والله على الأُولى محمودٌ ، وعلى الأُخرى مشكور ؛ التَّطفل وإن كان محظورًا فى غير مواطنه ، فإنه مباحٌ فى أَماكنه وهو وإن كان فى بعض الأَحوال يجمع عارًا وَوِزْرًا ، فإنه فى بعضها يجمع فخرًا وذخرًا ، وربّ فعل يصاب به وقته فيكون سُنَّةٌ ، وهو فى غير وقته بدعةٌ ، وقد تطفلت على « السيد » بهذه الأَحرف ، أَخطب بها مودّته إليه ، وأَعرض فيها مودّتى عليه وأَسأَله أَن يرسم لى فى لسانى وقلبى رَسْماً ، ويختم عليهما خَتماً .

---

(١) فجآت المسك (٢) تمر معرب باريك (٣) راجت
(٤) تاقت (٥) الجوهرة التى فى وسطه وهى أجوده
(٦) الطريقة (٧) استعانتى

فقد جعلتُهما باسمه وقصرتُهما على حكمه ، وسأضعهما تحت خَتْمه ، وبرئت إليه منهما ، وصِرْتُ وكيله فيهما ، فَهُمَا على غيره حمى (١) لايُقْرَبُ ، وبحيرةٌ (٢) لا تحلبُ ولا تركب . ولمّا نظرتُ إلى آثار السيد على الأحرار ، وَنُشِرَتْ طرازُ محاسنه من أيدى القاصدين والزُّوَّار ، ورأيتُ نفسى غُفْلاً (٣) من سِمَة (٤) مودّته ، وعُطْلاً (٥) من جمال عِشْرته حَمَيْتُها من أن يحمى عليها وِرْدٌ مورود ، ويحسر (٦) عنها ظلٌّ على الجميع ممدود ، وعجبتُ من :

سحابٌ خَطانى جُودُه (٧) وَهوصَيِّبٌ (٨) وبحرٌ عدانى سيلُهُ وهو مُفْعَمُ (٩)
وبدرٌ أضاءَ الأرض شرقاً وغرباً وموضعُ رجلى منْهُ أسودُ مُظلم

وكتب الشيخ حمزة فتح الله المتوفى ١٣٣٦ هـ :

مولاى : أمَّا الشَّوْقُ إلى رويتك فشديدٌ . وسلْ فؤادك عن صديق حميم (١٠) وَوَدّ صميم (١١) وخلة لايزيدُهاتعاقبُ الملوين (١٢) وَتَأَلُّق (١٣) النيرين (١٤) إلا وُثُوقاً فى العرى ، وإحكاماً فى البناءِ ، ونماءً فى الغراس وتشييدًا فى الدّعائم (١٥) ولايظنن سيدي أن عدم ازديارى (١٦) ساحته الشريفة واجتلائى طلعته المنيفة لتقاعُسٍ (١٧) أو تقصير ؛ فإن لى فى ذلك معذرة اقتضت التأخير . والسيد (أطال الله بقاءه) أجدرُ (١٨) مَن قَبِل معذرة صديقه وأغضى عن ريث (١٩) استدعته الضرورةُ .

(وبعدُ) فرجائى من مقامكم السَّامى أن لا تكون معذرتى هذه عائقًا لكم عن زيارتى ، فَلَكُمْ مِنَنًا طَوَّقتمونيها ولكم فيها فضلُ البداءَة ! وعلىَّ دوامُ الشكران . والسلام .

---

(١) محظور (٢) الشاة التى اذا نتجت عشرة أبطن شقوا أذنها فكانت حراما لحمها ولبنها وركوبها (٣) من علامة عليها (٤) العلامة (٥) من لاحلى عليها
(٦) يكشف (٧) المطر الشديد (٨) ذو المطر (٩) الممتلىء
(١٠) القريب الذى يهتم لامره (١١) الخالص (١٢) الليل والنهار
(١٣) اللمعان (١٤) الشمس والقمر (١٥) الأركان
(١٦) زيارتى (١٧) التأخير (١٨) أحق (١٩) البطء

وكتب المرحوم محمد بك دياب المتوفى سنة ١٣٣٩ هـ :

كتابي إليك : وقد طالَ بيَ الانتظار ، وشوقي يجلُّ عن الكيف والانحصار فشخصُكَ دائم المثول(١) أمام إنساني(٢) ، وعن سواك من الأخِلَّاءِ ألهاني وأنساني . فللهِ أيامٌ قضيناها ، وليالٍ من الدهر اختلسناها (٣) ، كان السرُورُ فيها ضارباً خيامَه ، والأُنس ناشرًا أعلامَه ـ طُوى بساطُها ، وكأنَّ الأمر ما كان غيرَ أنها زَرَعَتْ بفؤادي شجرةَ الأَشجان(٤) ، لكن عودُها حليفُ أَوْبتك(٥) وتجدُّدَها رَهينُ إشارتك . فمتى يقربُ المَزارُ ، وتنجلى سُحبُ الأَكْدار ؟ فاضربْ لعَوْدِكَ أَجلاً ، فالعودُ لا شك أَحمدُ ، واكْتُبْ بقُرْبك وصلاً فالوصلُ أَضمنُ للعهد ، وعهدى من خُلقك الوَفاءُ ، وحُسنُ الوَلاءِ ، فلا تجعل صَفْقَةَ(٦) شوقي إليك خُسرًا ، بل هَبْنى بعد العسر يسرًا .

وكتب وفاء أفندى محمد المتوفى سنة ١٣١٩ هـ :

أَما بعدُ سلامى عليك ، فهذا كتابى إليكَ ، يُنبئُك(٧) عنِّى وعن شوقي وعن وُدِّى . ولا أَزيدك عِلمًا أَنى ما كتبتهُ من دواةٍ ، ولا أَجريتُ عليه قلماً ، ولكنها دُموعٌ وشوقٌ سَالت على القرطاس ، وجرَتْ على حركات الخواطر والأَنفاس وَهَبَّتْ عليه حرارة كبدى بالأَشواقِ ، ووجدى بالفراق ؛ فبينما هى عقيقةٌ حمراءُ ، إِذْ صارتْ فحمةً سوداءَ ! أَلَا وإنّ كتابى هو قلبى ولسانى . أَمَا تراهُ على رِقَّته ، ولُطفِ عبارَته ، وصدْق طويّته ، بين يديك مُقبلاً عليكَ ؟ ينْشرُهُ الشوقُ ويطويه لا يُخفى عليك أَمرًا ولايَكتمُ عَنك سِرًا ، وتلك صفاتُ لسانى وقلبى معك . فما الذى ابتغيته بعدُ ؟ ! وقد بعثت إليك بالأَصغرَين(٨)

---

(١) القيام منتصبا (٢) انسان عينى وهو ما يرى فى السواد . (٣) انتهز فرصتها (٤) الاحزان (٥) رجوعك (٦) أصلها لعقد البيع (٧) يخبرك (٨) القلب واللسان .

وما أَنا إِلَّا بهذين ! نعم أَرجو بقاك ، ممتعاً بنعماك ، لأَكونَ على الدَّوام محلَّ نظرك . والسلام .

وكتب مؤلف هذا الكتاب :

كتابي لديك ، يصفُ شوقي إليك ، ولا يخفى عليك ، فمُذ فارقْتني فرَّقْت بينَ أُنسي ونفسي ، بلْ بين رُوحي وجسمي . ولا تعجَب إذا كنتُ أَغدو وأَرُوح فالطيرُ يمشي منَ الأَلَم وهو مذبوح ، وإنِّي أَشكو إليكَ منْ أَلم الوحشة غراماً لا يشعرُ به إلا من ذاقَ أُنسَك وعرَفَ مِقدارَ نفسكَ وشاهَدَ جمال لُطفِكَ ، ورَأَى كمالَ أَدبك وظَرْفك . ولقد أَوْدع الله في شخصك نورًا لعيني ، وفي حديثك سُرورًا لفؤادي ، وفي صفاتك ترويحاً لرُوحي ، وفي كرم خُلُقِكَ تفريحاً لنفسي :

وإذا وَصف الناسُ أَشواقَهُمُ فشوقي لوجهك لا يوصفُ

فعندي لك منَ المحبةِ والشَّوق ، والتَّلَهُّفِ والتوق ، مالا يَصفه الواصفون ولا يُعبّر عن حقيقتِه العارفون :

الشوق فوق الذي أَشكو إليك وهلْ تَخفى عليكَ صبَاباتي وأَشواقي ؟ !

فياشوْقي إلى لُقْياكَ ! ووَالهفي على جَمال مُحيَّاك ! قَيَّدْتَ أَملي عنَ سِواك وبهرْت ناظري بنظرَة سَناك ، وكسرْتَ جيش قراري ، وتركتني لا أُفَرِّق بين ليلي ونهاري :

فؤادي والهَوَى سِلْمٌ وحرب وسُلواني أَقامَ على الحِيادَه
وشوقي كامِلٌ ما فيهِ نقصٌ فَلَسْت عليْهِ أَطمع في الزيادَه

فليت شِعري ، ماذا أَصنع في شوْقٍ أَنا مدفوعٌ إليه من صادقِ حبي ، بعواملَ صادفَتْ منِّي قلباً خالياً ، فتمكَّنت بالتَّعارف ، ولم تدَع للسلوَان سبيلا ؟

عرَفتُ هواه قَبلَ أَنْ أَعرفَ الهوى فصادَفَ قلباً خالياً فتمكَّنا

إِى وربى ، إن شوقى إليك شوقُ الظمآن إلى برْد الشّراب ، وحنينى لك حنينُ الشيخ إلى زمن الشباب ؛ فما الإبلُ وقد حنّت إلى أعطانها ، والغرباءُ وقد أنَّت إلى أوطانها ، بأعدمَ منّى حنينًا ، ولا أكثر أنينًا .

ولكنَّ التّفرُّق طال حتَّى   توقّدَ فى الضُّلوع لهُ حريق

فكلما تخطرُ ببالى ، فى أى وقتٍ من الأوقات ، يمثّلُ لى التذكرُ منك محاسنَ ولطائفَ ، تجذبنى مَيلاً إليك ، وتُطربنى شغفًا واغتباطاً بإخائك ، فلا عجب أن كان شوقى لرُؤيتك عظيمًا ، لأنه كما قيل «من كَرِم الرَّجل حنينهُ إلى أوطانه ، وشوقُه إلى إخوانه» :

يا خلَاص الأسير ياصِحّةَ المُد   نف يا زَوْرَةً على غيرِ وعدِ
يا نَجاةَ الغَريقِ يا فرْحَةَ الأو   بَة ياقفْلَةً أتَتْ بَعد بُعد
إرْض عنّى فَدَتْكَ نفسى إنى   لك عبد أذلُّ من كلِّ عبد

ناشدتُك اللهَ أن ترفُقَ بحالى ، وتعيدَ وصالى ؛ وارْع الودَّ القديم ، وأبدلْ شقاءَ محبّك بالنعيم ؛ وأغمد سيف ظُلمات القطيعة المسلولَ ، وأوْف بالعَهْدِ إنَّ العهد كان مسئولا .

الفصل الثانى : فى التعارف قبل اللقاء

كتب أبو منصور الثعالبى النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

نحن فى الظَّاهرِ على افتراق ، وفى الباطن على تلاق ، نحن نتَناجَى بالضمائر ونتخاطبُ بالسرائر ، إذا حَصَلَ القُرْبُ بالإخلاص ، لم يُضر البُعد بالأشخاص ، أنا أُناجيكَ بخواطرِ قلبى ، وإن كان قد غاب شخصُك عنّى ، إن أخطأتكَ يدى بالمكاتبة ، ناجاك سرّى بالمواصلة ، رُبّ غائبٍ بشخصه حاضرٌ

بخلوص نفسه إن تراخى اللقاءُ ، فإنَّنا نتلاقى على البعاد ، وتتلاقى (١) نظر العين بالفؤاد .

وكتب أيضاً :

أنا أشتاقك كما تُشتاقُ الجنان ، وإن لم تتقدّم لها العينان ، أنا وإن كنت مِمّنْ لا يَسعدُ بلقائك ، فقد اشتَمل علىّ الأُنسُ ببقائك ، والشوق إلى محاسنك التى سارت أخبارها ، ولاحت آثارُها . لازالت الأيّام تكشف لى من فضلك ، والأخبار تعرض علىّ من عقلك ، ما يشوّقنى إليك ، وإن لم أرَك ، ويزيدنى رغبةً فى ودّك وقد سمعتُ خبرَك .

وكتب الشيخ حمزة فتح الله المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ :

كما أن شَغفَ(٢) الْجَنَانِ(٣) بالحسنِ والإحسان ، تكونُ داعيَتُهُ المشاهدة وتسريح الأنظار ، فى مُحيًّا الكمال ، ومُجتلى الجمال ، فَترى العينُ من تلك الغرّة ، ما يملؤها قِرَّة ، فكذلك السماع يَسْتدعى هذا الشَّغفَ ، فيتأثرُ الفؤادُ بما يُشَنِّفُ(٤) الأُذنَ ، مما تهديه إليه طرائف(٥) الأخبار ، حتى كأَنّ حاستى السَّمع والبصر فى ذلك صِنْوان(٦) ، بل أَخوَانِ فى هيكل هذا الجثْمانِ(٧) .

وقد يعلمُ السيدُ (أطال اللهُ بقاءَه وأدام ارتقاءَهُ) أن ذلكَ الأمرَ (أى الشغَف بالسَّماع) ليس بالحديث العهد ، والقريب الجدة(٨) ، بل هو أمرٌ عُرِفَ قديماً أن يهدىَ السَّماع إلى سُويْداءِ القلب لاعجَ(٩) الحب سَعّرَهُ(١٠)من الأنباءِ (١١) عَرْف(١٢) شميم(١٣) فتهيمُ(١٤) بمجرد استنشاق ذلك الشَّميم(١٥) حتى يقولَ الشاعرُ العربى : * والأُذنُ تعشقُ قبل العَيْنِ أحياناً *

---

(١) تتدارك (٢) دخول الحب فى غلاف القلب (٣) القلب
(٤) يزين (٥) المستملحة (٦) هما فرع النخلة (٧) بالثاء والسين الجسم .
(٨) الخطوة (٩) المتردد (١٠) أوقده (١١) الأخبار
(١٢) الريح الطيبة (١٣) مشموم (١٤) تذهب (١٥) المرتفع

أَجَلْ ! (١) والقُدْرَة فى هذا المعنى ، والأُسّ(٢) لذلك المَبْنَى ، قوله صلى الله عليه وسلم : « إنى لأَشمُّ نفسَ(٣) الرَّحمن مِنْ قِبَلِ اليمن » لما أَمْلَته العناية الرَّبَّانِيَّة ، والملكُ الرَّوحانى ، على قلبه الشَّرِيف من نبأْ(٤) القرنى(٥) أُويس(٦) ولم يكن رآه بعدُ .

أَلا وإن محاسن السَّيد الأَجل ، لمَّا سارت بها الركبان ، وأثنى عليها كلّ لسان مابين أَخلاق أَبهى من الرّوض النَّضِير(٧) ، وأَعرَاق أَشْهى من عذيب النمير(٨) قد احتلت من فؤادى ، لا أَقولُ منزلًا رحيبًا ، ولا وادِياً خصيبًا ، بل منزلة شماءً(٩) ، ودارةً(١٠) علْياءَ ، وأَوجًا(١١) بطوالعها السّعيدة يُسْعد ، ويلوح بها من ذكراه كلَّ حين فَرْقد(١٢) فلم أَنْشَبْ(١٣) أَنْ قَدَّمت كتابى هذا لمولاى بين يدي اللِّقَاءِ عَلَّه أَن يسمحَ بهِ الزَّمانُ ، وتُسْفر(١٤) عنه الليالى والأَيام ليُتَاح(١٥) لى رِىّ الفؤاد بما أَرْوِيه من حديث زيد الخيل ، الذى سَمَّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، وقال له : « ما وُصِفَ لى أَحد فرأَيته إلا وجدتُه دونَ ما وصف لى سِوَاك ، وإن فيك خَصْلتين يُحِبُّهمَا الله : الحلم ، والأَناة » . مقتدياً بالإمام « محمود جارِ الله » فى تقديم هذا الحديث الشريف ، على ماأَنشدهُ إياه « الشريفُ بن الشجرَىّ » أَوّل ما لقيه ، وكانا قد تحابّا بالسَّماع :

كانت مُساءَلةُ الرُّكْبَان تخبرنا ... عن جابر بن رَباحٍ أَطيبَ الخَبرِ
حتى اجْتَمَعْنَا فَلَا واللهِ ماسَمِعَت ... أُذْنى بأَحسنَ مما قد رأَى بَصَرِي

---

(١) حرف جواب مثل نعم (٢) الاصل (٣) كناية عن الوحى (٤) الخبر (٥) نسبة الى قرن وهى قبيلة (٦) هو سيد التابعين أويس بن عامر قتل فى واقعة صفين مع على كرم الله وجهه وخبره قوله صلى الله عليه وسلم يأتيكم أويس بن عامر مع أعداد اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرىء منه الا موضع درهم وله والدة هو بها بار ولو أقسم على الله لابره (٧) الحسن (٨) الماء الزاكى (٩) مرتفعة (١٠) دارا (١١) علوا (١٢) النجم (١٣) لم تزل (١٤) تكشف (١٥) يعطى

وكتب حفنى بك ناصف المتوفى سنة ١٩١٩ م :

يعلم الله ماعندى من الشوق إلى لقاءِ السيد ، وإن لم يَرَهُ البصر ، والشوق إلى شهوده ، وإن لم يكتَحِل بإثْمِدِ(١) محاسنه النّظر والشّغفُ بسماع الحديث منه ، كما سمعته عنه ، فقد سَبَقَتْ ذكرى محاسنه إلى السمع ، ووصل خبرُ لطائفه إلى النّفس (وما المرءُ إلَّا ذِكرُه ومآثره) وحَسَدَت العين عليه الأُذُنَ ، وَوَدّتْ لو أنها السابقة إلى اجتلاءِ رقائقه ، وشهود حقائقه .

* فللعَيْنِ عشقٌ مثلُ ما يعشَقُ السمعُ *

لا جَرَمَ أن ما تعارف من الأَرواح ائتلَف ، وما تناكر منها كما قيل اختلف ، ونحن – وإن بَعُدَتْ بيننا الشقةُ (٢) ، ولم يسبق لنا بالإلْتمَاءِ عهد – فلُحْمَةُ (٣) الأَدب تجمعُنَا ، ووحدة الوجهة تضمُّنَا ، ولُحْمة الأَدب أقوى مِنْ لُحْمة النسب ، وجامعة الوجهة فوق اجتماع الوجوه ؛ وقد رأَيت أن أزْدَلف (٤) إليك بالمكاتبة ، وأَتوسّل إلى شرف التعرف بالمراسلة ، حتى لم يبقِ فى الصبْر على الافتراق مسكة (٥) ، ولبى الجسم دَعْوَة الروح ، فاندفع إلى الاجتماع ، أَكُونُ قد مَهَّدْتُ له سبيلاً ، ووطّأت (٦) له طريقًا ، فلا تبهرنى (٧) فرحة اللقيا ، ولا يغرنى (٨) طَرَب الظفر « فمن فرح النَّفس ما يقتُلُ ، ومن نشوَةِ (٩) الراح (١٠) ما يُزْهِقُ الأَرواحَ » .

فإن رأى السيد أَن يكاتِبَ عبده ، ويعتقه من رقّ الفرقة ، عجّل بجواب هذا الكتاب ، ليعلم العبد أَن نميقَتَه صادفت (١١) قبولا ، وأَن وسِيلَتَه اتخذتْ

---

(١) كحل بالحجاز (٢) بالضم والكسر الناحية (٣) قرابته (٤) اتقرب (٥) قوة أو عقد (٦) بالتخفيف والتشديد هيأت (٧) لاتغلبنى (٨) لا يعلونى (٩) بفتح النون وكسرها السكر (١٠) الخمر (١١) وجدت .

إلى سَيِّده سبيلاً ، قَرَّب الله زمن اللِّقاءِ وقَصَّرَ أَمد النَّوَى (١) ، حتى أُنشِدُ فى الختام :

تطابقَ الْخُبْرُ فى علياك والْخَبْرُ　　وصدَّقَ السَّمْع فى أَوْصَافِكَ البَصَرُ

وكتب أَحمد أَفندى سمير المتوفى سنة ١٣٢٩ ھ :

يعلم سيِّدى أَن المودة لاتُبَاع ولاتُشْرى ، وإنما هى نتيجة الاجتماع والتَّعَارُف ، وقد خُلِقَ الإنسان مضطرا إليهما ، لأَن انتظام العُمران عليهما موقوفٌ ، ولهذا شهد العيان بأَنّ المنفرد بأَعماله المستبد بآرائه ، عرضة للخطأ ، مظنة لعدم الثقة ، بخلاف ما إذا كان الاشتراك فى الفكر قاعدة للعمل فلا بد أَن الصواب يتمحّضُ منه ، لضعف التفرُّد وقُوَّة الاجتماع ، إذ لا جَرَمَ أَن المرء كما قيل : « قليل بنفسه كثير بإخوانه » .

وقد سمعت عن السيد ، وقرأت من آثاره المأْثورة ماحبَّبهُ إلى ، وشاقنى للتعرُّف به ، لنشترك فى مَنفعَة تبادل الأَفكار ، فإنى لا أَكتفى بمجرد السماع ولا أَقول : « إن الأُذن تعشق قبل العين » فإنما هى جارحة صغيرة – ولكن كلِّى مَيَّال إليه ، محب لاستجلاءِ مَرْآهُ ، عالم أَنى إذا دخلت إلى مَودّتِهِ من باب التلاقى ، لا أَجد دهرى .

يهرب مِنِّى كل شخصٍ كرهته　　ويبعد عنِّى من إِلَيْهِ أَميلُ

فإن لم يتيسر أَن يَرانى أَو أَراهُ ، فليسعدنى ببضعة أَسطُرٍ تضمن لى رضاه عن هذه المعرفة الترسُّليَّة ؛ لنتراءَى بأَعيُنِ الطروس(٢) ، قبل أَعيُنِ الرؤُوس ، ونتجاذَب أَحاديثَ المراسلة ، إن عَزَّت المقابلة. وقد وقفت عليه خالص وُدّى ، واختَرْتُهُ من بين رجال العصر ، سعيًا لكسب المعالى بمعرفته ، فكلٌّ

---

(١) البعد　　(٢) الصحائف

امرى بما كَسَب رهين(١) ، وأن ليس للانسان إلا ما سعَى .

عن المرءِ لا تسأَلْ وَسلْ عن قَرينه   فكل قرين بالمقارن يقتَدى

وكتب الشيخ أحمد مفتاح المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ :

لم أكن فيما أكتبه لك إلا سارياً فى ليل التعارف على ضياءِ خِلَالك (٢) ، التى أملاها علىّ لسان المدح ، الذى شَرَّق وغَرّب ، وطبق الأَرض صيته ؛ وإنى وإن لم أَكُنْ أُسْعِدتُ من قبل باجتلاءِ طلعتك الزاهرةِ ، واجتناءِ مُفاكهتِك الغضةِ(٣) ، فقد دلنى على الليث زئيرُه (٤) وعلى البحر خَريره (٥) ، وعلى العقل أثره ، وعلى السيف أثره(٦) ولئن لم تجمعنا لُحمة(٧) النسب ، فقد جمعتنا حرْفَةُ الأَدب ، أَو لم يضمنا قبلُ مصيفٌ ومُرْتَبَع ، فالطيور على أَشكالها تقع ، وشبه الشىءِ مُنجذِبٌ إليه ، وأَخو الفضائل هو المُعَوَّل عليه .

وهذه الرُّقعة وَإن وَصَفَت لك بعض ما أَنا مَطْوِىٌّ عليه من التهافتِ على رُؤْيتك ، والميل إلى صداقتك ؛ فقَلَما تَنُوب عن المشافهة ، أَو تقضى حاجات فى النّفْس طالما تردَّد صداها ، وفى ظنِّى أَن (سيدى) يودُّ ما أَوَدُّه ، وعما قليل يُسْفر صبح اللقاءِ ، ونتجاذَبُ أَهداب المعرفة ، وأَرى من (سيِّدى) فَوْقَ ما توسمته وسمعته ، ويرى منى ما يرضيه . والسلام .

وكتب الشيخ طه محمود المتوفى سنة ١٣٢٥ هـ :

أَيها (السيد) العزيز الجناب ، الغزير الآداب :

قد علمت ـ ولا أَزيدك علماً ، زادك الله ولا نقصك ـ أَن الإِنسان كما اشتق اسمه من الأُنس ، كذلك جُبل عليه مسماه ، وأَن المجتمع الإِنسانى عقد

(١) مرهون (٢) مصادقتك واخائك (٣) اللينة (٤) صوته
(٥) صوته أيضا (٦) جوهره (٧) القرابة

يتحلى به صدر الزمان ، نظامه متآلف ، ووساطته (١) التعارف ، فهذان الأَمران هما قطب المدار فى هذه الدار ، لهذا العالم ، من لدن آدم ، وليس إلا بهما يحسُنُ الحال وينعم البال ، وتدر ضروع المنافع ، وتَتفجّرُ عيون الفوائد ، ومن ثم كان أَوفر الناس حظا من مغنم الإنسانية ، من يَألف ويُؤْلف ، ولا خير فيمن لا . . . ولا ، وناهيك بخلق امتن الله به على عباده ، إذ قال عز من قائل : «وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » .

ذلك – أَيها السيد – هو الذى بعثنى أَن أَكتب إليك ، أَستفتح باب مودتك بمفتاح الترسل وأَستصبح فى سبيل صحبتك بمصباح التوسُّل ، لا أُبالى بما ينسب إلىّ ويُنتَقَمُ علىّ ، ممن عسى أَن يقول : مالك ولهذا الفضول ! وكيف تتطفل على مأْدبة أَدبية لم تدع إليها !! وهل هذا منك إلا أَشبه بالتبرج (٢) لغير خاطب ؟

أَيها المنتقد : هون عليك ما تجد ، فلو علمت أَن ظل الآداب شامل ، ودعوة المودة الجفلى (٣) لايذاد (٤) عنها وَاغِلٌ (٥) ، لأَسرعت معى إلى الوغول (٦) ، ولم تر فى التودد إلى أَهل الفضل من فضول . وأَى عيب على النكرة فى التحلى بحلية المعرفة ؟ ومصاحبة الأَعلام ؟ ! أَما سمعت قول القائل :

بصُحْبتك الكرام تعدُّ منهم وتأْمن من مُلمَّات الزمان !

وكيف أَضع نفسى بحيث يقول الأَول :

دع المكارم لا ترحل لبُغْيتها (٧) واقعد فإنك أَنت الطاعم الكاسى !

وشتان ما بين الرجلين : رجل يهوى المكارم وبنيها ، ويبتغى المناقب

(١) الجوهرة التى فى وسط العقد وهى أجوده (٢) اظهار المرأة زينتها للرجال (٣) العامة للجماعة (٤) لايطرد (٥) المتطفل (٦) التطفل (٨) بكسر الباء وبضمها الحاجة .

وذويها ، ويقِفُ نفسه على مسألة يعلمها ، وفضيلة يتحلى بها ، وآخر يبذل وجهه المصون ، فى ملء الحقائب (١) والبطون !

هذا : وقد رجوت أن أكون الرجل الأول بصحبتك - أيها السيد - فكم رُوِى لنا من أحاديث فضائلك الصحاح ، وتلى علينا من آيات فضائلك الحسان ، ما (٢) أشخص إليك القلوب قبل قوالبها ، وأوفد عليك الأرواح قبل أشباحها ، وأعجلنى أن أكتب إليك بهذا الرقيم ، ألتمس بالتعرف إلى جنابك الكريم ، ما التمس الكليم من صحبة ذى الوجه النضر (٣) ، أبي العباس الخضر . وإنى وإن كنت والحمد لله ممن آمنوا بالغيب ، وليس عندى فى صدق هذه الآيات مرية (٤) ولا ريب ، بَيْدَ (٥) أن للصحبة فضلاً لا ينكر ، وللمؤاخاة مزية لا يتمارى (٦) فيها اثنان .

فإذا ورد على السيد كتابى هذا : وانشرح صدره - شرح الله صدره - إلى إجابة سؤلى ، وارتاحت نفسه إلى اصطناعى ، كتب إلى عبده بما يكون آية جلية على ارتياحه ؛ لتحقيق هذه الأُمنية .

حتى أَقولَ لوَجْه آمالى ابتهج لأُوَلِّينَّكَ قِبلَةً تَرْضاها

وكتب المرحوم محمود بك أبو النصر المتوفى سنة ١٩٣٠ م :

إنسان العينِ . وعَيْن الإنسان :

المودة - وصل الله بأجفان الأَشواق أهدابها ، وفتح لنا أبوابها - أمر عزيز المرتقى ، على من يصطفى صديقه ، ويرعى حقوقه . وإنى اصطفيتك على الناس برسالتى هذه ، وعهدى بكرم سجاياك أن تصافحها براحة القبول ، وتتخذها فاتحة ودٍّ طارت به إليك رياح فضلك بعد ما مَثَّلَت آياته لك فى القلوب معنى ظهرت فى مرآة الأَعين صورته .

(١) الزكائب (٢) ما : فاعل روى (٣) الحسن (٤) شك
(٥) غير (٦) لايختلف

فإنْ أَبَيْتَ وِدادى غير مكترثٍ فعنْك ما دُمتُ حيًّا لا أرى بدلا

وحاشاكَ عن مثل ذلك الإباء ، ونحن وإن لم تَحْظَ أشباحنا باللِّقاءِ ، فأَرْواحنَا من قبل جُنودٌ ، وأعيننا شُهود ، فإن أَنت مَنحتنى ولاءً خالصاً ، وإخاءً صادقاً ، (وإلا فهَبْنى أمرءًا هالكاً) ولا إخالُك ترْضاه ، وإن كنتُ المتطفلَ على مائدة مودَّتك ، فلى نفسُ أديب لا ترى العزَّ إلا فى التَّرَامى على ذُرى الكمال ، لا زلتَ على مَرْقَى الجلال ، والسلام .

وكتب الفاضل السيد محمد الببلاوى :

سيّدى : إنَّ مكارمَ الأَخلاق ومعالىَ الهِمَم مما تسترقُّ القلوب ، وتسرقُ العقول ، وتمتلك الأَرواح ، وإن لَمْ تتلاقَ الأَشباحُ ، فإنى مُذْ سرَى إلىّ النسيم بأَخلاقكم الغرَّاءِ ، وابتَسم لى ثَغرُ هذا العَصْرِ عن آثاركم الزَّهرَاءِ ، وتواترتِ الأَخبار بحبكم للفضل وأهلِهِ ، وارتياحِكُمْ للعلم وذَويه ، وأَنا مشغوفُ الفؤاد بالتعرُّف بسيادتكم ، مشغولُ البال بالتَّوَسُّل إلى رِياض مودّتكم . ولِعلمى أَن للصّداقة حقوقاً ، وللمُصاحبة شرُوطاً ، ربما صعُبت على من حاولها ، وعزَّت على من أَراد الوفاءَ بها ، كنتُ أَرى الوَحدة لى أَوْلى ، والانفرادَ بى أَسلَمَ ، ولكن ما زالت تَنْمى(١) إلىَّ أَحاسنُ شمائلكم المشرفةِ ، وتتوَاردُ على مسامعى محاسنُ سيركم المطهرة ، فينُمو الوجد ويزْدَادُ الشَّوْق «والأُذن تَعشقُ قبل العين أَحياناً» وما كنت أَجدُ سبيلا للتعرُّف ولا سبباً للتَّوَدُّد ، ولا تجسرُ نفسى على المراسَلة ابتداءً ، إلى أَن رأَيتُ سيِّدى قد اهتم للأَدب فأَعلى مَنارَه ، ونظرَ للإنشاءِ فرفعَ مقدارَه ، ونَصر دوْلته وأَحيا صَوْلته ، وأَعادَ شبابُه ، وفتح لأُدباءِ هذا العصر بابه ، فعلمت أَنَّ الدّهرَ قد سَاعَدنى ، والفرصةَ قد أَمكنتنى مِن مُصافحةِ ما أَمّلتُ ومُصافاةِ ما أَردت ، من اجتناءِ ثمار مودَّة سيدى ، والتعرُّف به

(١) تزيد

والتمسُّكِ بـأَهداب فضائله والتَّزَوُّد من آدابه ، فإِن الأَدب أَحسنُ ما يُسْتَصْبحُ بـأَنْوَارِهِ (١) ، وأَشرف ما يُتسابقُ لاقتطاف أَثمارِه (٢) ويُحْمَدُ التطفُّلُ على موائده ، ويُمدَح التنافس فى التِقاطِ فوائده ، فجعلت طلبَ الانتظامِ فى سلك أَرباب الأَقلام وسيلةً لوُرُودِ عذْب وِداده ، ونمير(٣) التعرُّف به ، فإِن رَأَى سيدى أَن يَعُدُّ نفسَ حُرّ فى عِدَاد معارفه ، ويُقَابلَ رسالَتَهُ بما اشتهرَ من لطائفِهِ حتى تتمتع بالرؤية الأَبصارُ ، كما تمتعت المسامعُ بطيبِ الأَخبار ، كنتُ مُديمَ الشكر لأَفضالِه ، مُستمرَ الثناءِ على كماله .

وكتب الشيخ عبد الكريم سلمان المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ :

أَما بعد ــ فهذه رسالة أَكتُبُهَا إلى من لم تكُنْ لى به جامعة جسيمة ، ولم تضمنى وإِياهُ حفلةُ تعارف شخصية ، وهى وإِن كانت فى عُرْفِ غيرى تعدُّ هُجُواً ، أَو تُحَسّ فُضولاً ، إلا أَنى أَعتقِدُ أَنها أُوفِدَتْ على كريم يُكرم وِفادتها ويتقَبَّلُ ما تهديه إِليه من زعيم تحية وجليل إِجلال ، ويجتلى من خِلالها إِرادة وُدّ ، ورجاءَ ولاءٍ وبُغْية فضل ورغبة فى إِخاء ، فيُحلها منه محلَّ القبولِ ويدرَأُ (٤) عنها وصمةَ (٥) الفُضُول . إنَّ لسيدى آثارًا شاهدناها ، فاستفدناها ، ومآثر سمعناها ، فرَوَيناها أَو تناقلناها ، ولا مِرْية(٦) فى أَن ما غابَ عنا منها أَكثرُ مما وعينا ، وأَوفى مما سمعنا ، ونحنُ ــ واللهُ يعلم ــ طلابُ كمالٍ ، ومنتجعو أَفضالٍ(٧) ورُاوّد(٨) ما خصب من فيجاءِ العلوم . وقد توسَّمْنا(٩) فى السيد ــ أَطالَ اللهُ بقاءه ــ طلبتَنَا ، ووجدنا لديه ضالتنا ، فحثثنا إِلى رِحابه مطيَّةَ المكاتبة ، ولنا أَملٌ كبيرٌ فى نوال المأْمولِ ، لعَله يجنَح (١٠) إِلى مُقابلة المثل بالمِثْلِ ، فيكتب

---

(١) أضوائه (٢) أزهاره (٣) الزاكى (٤) يدفع (٥) العار
(٦) بضم الميم وكسرها الشك (٧) طالبو معروف (٨) طالبون له
(٩) تفرسنا (١٠) بتثليث النون : يميل

لأَخيه بعضَ كُلَيْمَاتٍ . يعرف منها أنه قَبِلَ الإخاءَ . ومال إلى مقتضى طبعهِ من الوفاءِ . ولا أَظن ذلك إلا وقد كان أَقرب ما يكون من الزمان . فإِنَّ الأَرواح ما تعارَف منها ائتلف . كما برهنه الأَصحاب فى معاشراتهم خلفاً عن خلف .

وكتب مؤلف هذا الكتاب :

لقد سَمِعنَا بأَوصافٍ لكم كَمِلتْ   فَسَرَّنَا ما سَمِعْنَاهُ وأَحيانا

من قبل رُؤيتكم نِلْنَا محبَّتكم   (والأُذْنُ تعشقُ قبل العين أَحيانا)

سيدى ومولاى :

لقد بلغنى عنك فى وفائك وفضلك ، ما يدعونى لخطب ودك ، ويُرغِّبنى فى إخائك ، ويحببنى فى التوسل إلى معرفة جنابك ؛ وإن لم تجمعنا جامعة شخصية ولم تضمَّنَا حفلة تعارف ذاتية . إلا أَن أَحاديث فضائلك الصحاح ، أَوْفدت عليك الأَرواح قبل الأَشباح ، والولاءَ والإخلاص قبل الأَجسام والأَشخاص . ولا غرابة فى ذلك ، فإن من سنةِ اللهِ فى خلقهِ : أَن يُؤَلِّفَ بينَ الأَرواح وأَمثالها ، وإنَّ لله ملائكة يسوقونَ الأَشكال إلى أَشكالها ؛ وشبْه الشيءِ مُنْجذبٌ إليهِ ، وأَخو الفضائل هو المعوّل عليه .

إنَّ القلوب لَأَجنادٌ مُجَنَّدةٌ   للهِ فى الأَرض بالأَهوَاءِ تعترفُ

فما تعارفَ منها فهو مُؤْتلفٌ   وما تناكر منها فهو مُخْتَلفُ

فلذا اصطفيتك لنفسى ، واخْترتك لمَوَدّتى وأُنسى . نَتَنَاجَى بالضمائر ، ونتخاطب بالسَّرَائر . وإن بَعُدَنَا فى الظاهر فَرُبَّ غائبٍ بنفسه . حاضِرٌ بخلوص نفسه .

فإِن أَبَيتَ ودادى غيرَ مكترثٍ   فعنكَ مادُمْت حيًّا لا أَرَى بَدَلا

وحاشاك عن مثل هذا الإِباء ، والهجرِ والجفاء .

لكلِّ امرئٍ شكلٌ من الناسِ وكلُّ امرئٍ يَهْوَى إلى من يشاكله

ناشدتك الله أن تقبلَ مِنِّى الإخاءَ ، وتضمنَ لى الوفاءَ ؛ وأنا أَرْضَى بك من الدنيا نصيباً ، وأَختارك من العالمين حبيباً .

الفصل الثالث : فى رسائل الهدايا

وكتب سعيد بن حميد المتوفى سنة ١٠٥ هـ يوم النيروز إلى بعض أهل السلطان :

أَيها الشريف :

عِشت أطْوَل الأَعمار بزيادة مِنَ العمر ، مَوْصُولةٍ بفرائضها مِنَ الشكر . لا ينقضى حقٌّ نِعْمَةٍ حتى يجدِّدَ لك أُخرى ، ولا يمر بك يوم إلا كان مُقَصِّراً عمَّا بعده ، موفياً عمَّا قبله .

إنى تصفحت أَحوال الأَتباعِ الذين يجب عليهم الهدايا إلى السادة ،والتمست التَّأَسِّى بهم فى الإهداءِ ــ وإن قَصَّرَتْ بى الحال عن الواجب ــ فوجدت أَنى إن أَهديت نفسى فهى مِلْكٌ لك . لاحظ فيها لغيرك . ورميت بطَرْفى إلى كرائم مالى . فوجدتُهَا منك . فإن كُنْتُ أَهديتُ منها شيئاً . فإنى لَمُهدٍ مالك إليك . ونزعتُ إلى مَودتى . فوَجدتها خالصةً لك قديمةً غير مُستحدثَةٍ . فرأَيت إن جعلتُها هديَّتى . أَنى لم أُجدِّد لهذا اليوم الجديد برًّا ولطفاً . ولم أُمَيِّزْ منزلة من شكرى بمنزلةٍ من نعمتك . إلا كان الشكر مُقَصِّراً عن الحقِّ . والنعمة زائدة على ما تبلُغُه الطاقة . فجعلتُ الاعترافَ بالتقصير عن حقك . هدية إليك . والإقرار بالتقصير عما يجبُ لك . برًّا أَتوَسَّلُ به إليك . وقلت فى ذلك :

إن أهد مَالاً فهو وَاهِبُهُ وهوَ الحقيقُ عليه بالشكْرِ

أَو أهْد شكرى فهو مُرْتَهَنٌ بجميل فعلك آخرَ الدهر

والشمس تستغنى إذا طلعت   أَن تستضىء بِسُنَّة (١) الدهر

وكتب حفنى بك ناصف المتوفى سنة ١٣٣٧ هـ – ١٩١٩ م :

الهديَّةُ فى نظر الأَصفياءِ جليلةٌ ، وإِن كانت فى نفسها قليلةً ، ومكانتها خطيرةٌ وإِن كانت يسيرةً ، وسنَّةٌ حَسَنَةٌ اجتمعت على فضلها الأَلسنة .

مضَتِ الدُّهُورُ وأَمرُها مُسْتحسَنٌ   وتعاقبتْ بمديحها الأَيام

اللَّهم إلا إن لَبست جلْباب (٢) الرياءِ ، وَوَلَجَتْ (٣) أَبواب الارتشاءِ ، ولا مِرَاءَ (٤) إن الأَوِدَّاءَ من ذلك براءٌ .

وما زالت الهديَّةُ شِعَار الأَصدقاءِ ، وعنوان تذكار الولاءِ ، وكم جدَّدتْ بين الأَصحاب عهود التَّحَاب .

وتعهدت وُدًّا فعادَ شتِيتهُ   ولشَمْلِهِ بعد البَداد (٥) نظامُ

قد وصلتنى يدُ العصا فحبَّذا الإِهداء ، وأَهلاً بتلك اليد البيضاء ، وليست هذه أَوَّلَ أَياديك علَى ، ولا أَكبر عارِفةٍ جاءَت من ناديك إلى ، أَمِنْت بها النوبَ (٦) واعتضدت بها (٧) على تفريق شمل الكُرَب .

فإِذا طغا (٨) بحرِ الهموم ضربتُهُ   بعصاىَ فاجتازت (٩) به الأَقدام

تنفلق بها الأَيام صخُور ، فتنبجس (١٠) منها عيونُ السُّرُورِ ، وتلقفُ ما يصنع الأَعداءُ ، فتذهبُ البَغْضَاء ، وإِذا اشتدَّ هَجيرُ (١١) الوحشة ، نشرَتْ ظلال أُنسها ، أَو عصى فرْعَوْنُ الدَّهْرَ ، راعته (١٢) ببأْسها (١٣) .

---

(١) الوجه (٢) القميص (٣) دخلت (٤) جدال (٥) التفريق
(٦) جمع نائبة : مصيبة (٧) استعنت (٨) علا (٩) سلكت
(١٠) تنفجر (١١) حرها (١٢) أزعجته (١٣) بشدتها

فكأنما أَوصى الكليم(١) لنا بها حتى يرى آياته الأَقوامُ

وقد فكرتُ ماذا أُقابِلُ به طُرَّفتك(٢) ، وأَتلَقى به تحفَتك ، إلى أَن هدانى الله أَن يد المنعم إنما تقابلُ بالأَفواه ، ليُعزز القَبُول بالقُبل ، ويؤدى الرسم باللَّثم ، فأَرسلت لك فم سيجارة ، وجعلته لهذا المعنى إشارة ، وقلت :

مولاى كم فاضت يمينُك بالندى(٣) حتى غدوْتُ غريقَ بحرِ الأَنْعمِ

والشكرُ أَوْجب أَن أُقبِّل راحها فكنيت عن هذا بإِهداءِ الفم

وقد علمت أَن المنظرَ البهيج ، يتمُّ بالتدبيج (٤) ، فاخترتُ أَن يكون مبدؤهُ كالليل إذا عَسْعَس(٥) ، ومُنتهاه كالصبح إذا تنفس(٦) ، إيذاناً(٧) بزوال الشرور بالسرور ، ورمزاً إلى الخروج من الظلمات إلى النور.

وكتب المرحوم محمود بك أَبو النصر :

يا أَيها المولى الذى عمت أَياديه الجميله

اقبَلْ هدية مَنْ يرى فى حقك الدنيا قليله

غُرَّة وجه السعود وقرة عين الوجود ــ الأَمير الجليل .

يا جليل الفضائل ــ إليك توجه الآمال ، وياجميل الشمائل بساحتك تحط الرحال ، تلك هى الساحة الفيحاءُ(٨) ، والشِّيمة(٩) الحسناءُ ، والهمَّة العلياءُ ، واليد البيضاءُ ، والأَعمال التى تُضرب بها الأَمثال ، كم من نعم أَسديتها(١٠) ، ومكارم أَوليتها وعلوم أَحييتها ، فأَنت المصدَرُ والموْرِدُ ، والمقصد والموعِدُ ، إليك أُقَدِّمُ تلك الهدية المرضية ، وأَرْفعُ ذلك الكتاب المُسْتطابَ ، مشفِّعاً فى قَبوله كرم سجاياك ، وعِظَمَ مزاياك ؛ وإن كنتُ أَعلم أَن مقامك العلىّ ، يجِل عن أَن يرفعَ إليه مثله ، فقد عرفناك مُتواضعاً فى عُلاكَ ، قريباً مع اعتِلاك .

---

(١) سيدنا موسى عليه السلام (٢) احسانك (٣) العطاء
(٤) التزين (٥) أقبل بظلامه (٦) أضاء (٧) اعلاما (٨) الواسعة
(٩) الخلق (١٠) أعطيتها

دنَوْتَ تواضعاً وعلَوْت مجداً فشأْناكَ انخفاضٌ وارتفاعُ

كذاك الشمس يَبْعُد أَن تُسَامى ويدنو الضوءُ منها والشُّعاعُ (١)

وحاشاك أَن أهدى للقمر نوراً ، أَو للشمس ضياءً ، أَو أَبعث ببُنية القطر (٢) إلى ذلك البحر ؛ ولكننى أَحببتُ أَن يحظى بلثم بنانك(٣) ، وينال من كرمك وإحسانك . وقد عهدناك تهتزُّ للمكارم اهتزاز الصارم(٤) ، وترتاح لإسداء الجميل كما يرتاح للكريم النزيلُ ، وللشفاءِ العليل ، وما هو إلا من نور فكرك مقتبس(٥) فعساه يحظى بالقبول ، فأَبلغ غاية المأْمول ، والسلام .

وكتب الأُستاذ عبد الله بك الأَنصارى المتوفى سنة ١٩٣٢ م :

المولى – أَدام الله وجوده ممتعاً بهدايا الأَيام ، وتحف الأَعوام – طالما أَوْفَدَ (٦) من الرِّفد(٧) إلىَّ ، ووجه من الخيرات ما أَفعَمَ(٨) يدىَّ ، حتى أَصبحتُ – وله الفضل والمنَّة – أَجُرُّ ذيول النعْمَاءِ(٩) على غبراءِ(١٠) البأْساءِ(١١) وأَجتلى معارف(١٢) السَّرَّاءِ بعوارفه البيضاءِ ، التى لا يُوَازِيها ثناءٌ وحمد ، ولا يوازنها عطاءٌ ورِفْد ، ولا يطاولهَا سماءٌ وبحر ، ولا يُغالبها بؤس وفقر . وإن لى من آلاءِ(١٣) السيد – حفظه الله وأَدام علاه – ما أَينَعَ وأَزهر وأَورق وَأَثمر حدائق قامت لشكره عيدانها وَسجدت لفضله أَغصانها ، وَترنمت طرباً وَتمايلت عجباً ، بنفحات هى عَرْفُه (١٤) ، وَبركات هى عُرْفه . وَلى أَمل فى جنَابه ، وَأَنا سليل(١٥) نعمته ، وعهدى بأَخلاقه وأَبا ابن مودته ، أَن يمنَّ بقبول ما أَهديته ؛ وهو من نفسه ، وثمرة غرسه (باكورة تُفَّاح) يرفعها إجلال وإعظام .

---

(١) تفاخر (٢) المطر (٣) الاصابع (٤) السيف القاطع (٥) مأخوذ
(٦) أرسل (٧) العطاء والصلة (٨) ملأها (٩) بالفتح النعمة
(١٠) الأرض (١١) الداهية (١٢) أنظر اليها بجلوة (١٣) نعم
(١٤) بالفتح الريح الطيبة (١٥) ابن نعمته

وكتب الشيخ أحمد مفتاح المتوفى سنة ١٣٢٩ ﻫ :

الهدية ـ غمرك الله بالمعروف ـ تبسطُ يد المودَّة ، وتَدُرُّ بها أَخلاف(١) القرب وتغرس بين المتحابين من الائتلاف ، بقدر ما تقطع بينهما من شجر الخلاف ، وما أنا فيما أهديه إليك إلا كمستَبْضع(٢) تمراً إلى أرض خَيْبَرَ(٣) ، أو كالواهب الماءَ للبحر ، والضوءَ للبدر ، والملك لسليمان(٤) ، والمال لقارون(٥) والحلم لأَحنف(٦) والذكاءَ لإياس(٧) ، والتفسير لابن عباس(٨) ؛ وما ذاك إلا كتاب كما تراه ضربَ فى الإحكام بسهم ، ووعى من الأَحكام ، ما خلت منه مُفعماتُ(٩) الأَسفار(١٠) ، وموجزات الرسائل ، فهو كما قيل : « كل الصَّيد فى جَوْفِ الفَرَا »(١١) .

تزينُ معانيه أَلفاظه وأَلفاظه زائنات المعانى

على أنى وإن تطفلت عليك ، وسقتُ لك هذا الكتاب مُزْدَلفاً(١٢) إلى جنابك الرَّحْب ، ومقامك الأَسنى ، فقد أَصبتُ كبد الصَّوَاب ، وَوَضعته حيث يعرفه أَهلوه ، ويتقبله من باذله عالموه ، علماً بأَنك عماد العلوم ، وأَساس الفضائل لا تغادِرُ(١٣) شاردة إلا وعيتها ، ولا نادرة إلا رويتها ، وإلا :

---

(١) جمع خلف بالكسر الضرع (٢) جاعله بضاعة (٣) موضع بالحجاز (٤) ابن داود النبى عليهما الصلاة والسلام (٥) من قوم موسى عليه السلام أعطاه الله من الكنوز ما لم يعطه لغيره (٦) هو أبو بحر صخر بن قيس تابعى كبير يضرب به المثل فى الحلم توفى سنة ٦٧ ﻫ (٧) هو أبو واثلة بن معاوية بن مرة المزنى يضرب به المثل فى الذكاء توفى سنة ١٢٢ ﻫ (٨) هو أبو العباس عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشى الهاشمى ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابى جليل يلقب ترجمان القرآن توفى سنة ٩٨ ﻫ (٩) مملوآت (١٠) الكتب (١١) حمار الوحش ، ومعناه ـ كل ما عداه دونه قاله النبى عليه الصلاة والسلام تطمينا لرجل خرج يصطاد مع أصحابه فلم يصب غير الحمار الوحشى (١٢) متقربا (١٣) لا تترك .

لو كان يُهْدَى على قَدْرِى وقدركُم ... لكُنْتُ أُهْدِى لك الدنيا وما فيها

وكتب مؤلف هذا الكتاب إلى أستاذه الحكيم الشيخ محمد عبده :

سيدى ومولاى . . .

أَطالَ الله بقاءَك ، ورفع فى الدارين عُلَاك – الهدية مفتاح باب المودة ، وعنوان تذكَار المحبَّة ، يتسابق إليه كِرَامُ السَّجَايَا (١) ، ويتسارع إلى إحياء شعائرها عُشَّاق المزايا ، حرصاً على حفظ عهود الوداد والتآلف ، وإذهاباً لوحشة التقاطُعُ والتَّخَالُف :

هدايا الناس بعضهمُ لبعضٍ ... تُوَلِّدُ فى قلوبهمُ الوِصَالا

وتزرعُ فى القلوبِ هَوًى وَوُدًّا ... وتكسوكَ المهابةَ والجلالا

ولقد وجدتك إماماً حكيما ، وفيلسوفاً عليماً ، تقدِّرُ الأَعمال حق قدرها ، وتضعُ الأَشياءَ فى مواضعها ، سَبَّاقاً إلى نشر العلوم والمعارف ، بين أَرجاء المشارق والمغارب :

يبقى الثَّنَاءُ وتَنْفَدُ الأَموال ... ولكلِّ دهر دولةٌ ورجالُ

ما نَالَ مَحمدَةَ الرِّجالِ وشكْرَهُمْ ... إلا الصَّبُور عليهم المفضال

سيدى ومولاى . . .

أُهْديك كتابى « جواهر الأَدب ، فى أَدبيات وإنشاءِ لغة العرب » جمعَ فأَوْعَى من الآداب والحكم ما خلت منه الأَسفار(٢) ، فهو بلا شك ولا مِرَا ، كلُّ الصيدِ فى جوفِ الفرَا .

تزينُ معانيهِ أَلْفاظهُ ... وأَلفاظه زائنات المعانى

---

(١) الاخلاق (٢) الكتب الكبيرة .

على أنى – وإن تَطَفَّلْتُ عليك ، ووضعت كتابى هذا بين يديك – فقد ولجت الأُمورَ من الأبواب وأَصبتُ كبدَ الصواب ، حيثُ يعرف الفضل من الناس ذووه ، ويتقبَّله بِقَبُولٍ حسن عالموه :

شُكْرا وحَمْدا إن قبلتَ هديتى   وجعلت لى فضلاً على أَقْرانى

فبتنازلك بقبوله يكون الإقبالُ جليلا ، ويعجز لسانى عن أَن أَشكرك شكراً جزيلاً ، والسلام .

وكتب مؤلف هذا الكتاب إلى المرحوم سعد باشا زغلول يُهْدِيه كتابه « جواهر الأَدب ، فى أَدبيات وإنشاءِ لغة العرب » :

مولاى ، أَطالَ الله بقاءَك فى أَهنإِ عيشَةٍ وأَرْغَدِها ، وأَتم نعمة وأَسعدها ، وأَعَمِّ عافيةٍ وأَزيدها ، وأَولاكَ من الآلاءِ بأَمدها مزيداً ، ومن السَّلَامةِ بأَسْبَلِها سِتْرا ، ومِنَ السرور بأَوفَرِه حظًّا ، ومن العِزِّ بأَشَدِّه ركناً ، والعمر بأَبْعَدِه مدى ؛ تولاك المَوْلىٰ بحفظه وحِياطته ، وحَرَسَك تحت جناح السلامة بكلاءَتهِ ورعايتهِ .

إن الله تعالى قد خَصَّك بالعِزِّ المنيع ، والشرف الرفيع ، والخُلُقِ السنىّ ، والفخر البهىّ ، والرأْى والحزم ، والبلاغة والفهم ، والبراعة والكمال ، والبَذْل والنَّوَال ، والجود والإِفضال ، والحمد والثناء ، والكرم والوفاءِ ، والمذهب الجميل ، والقدرِ الجليل .

فأَنت – أَدامَ الله كَرامتك ، وأَكْرَمَ حياطتك – معدن الفضائل وَزَيْن المحافل ، غياث اللاجى إليك ، وسَنَد المعَوّلِ عليك ، لا يُجْحَدُ فضلك ولا يُنسى ذِكْرُك ، عَرْفك شائع ، وجودك واسع ، ومعروفك ذائع ، وفضلكَ شاملٌ ، ولُبُّك كامل ، سِلْمٌ لأَوليائك ، حَرْب لأَعدائك ، سحائبُ كفيك تمطِرُ ديم

الإنعام ، وشآبيبُ يَديك تفوق أَفعال الكرام ، زَادَكَ اللهُ أَيُّهَا الرئيسُ عقلاً إلى عقلك ، وفخراً إلى فخرك ، وفضلاً إلى فضلك ، وطَوْلاً إلى طَوْلك ، وَسُؤدَدًا إلى سُؤددك ، إنَّه لطيف كريم .

لمَّا رأَيتُك ـ أَدام الله عُلُوَّكَ ، وأَجزل من كلِّ خير حظك وقسمك ـ تغنى عن التَّوسُّل إليك بكريم أَخلاقك ، وشريف أَعْرَاقك ، جعلتُ كَرَمك ذريعتى إليك ، لما دلَّنى من فضلك عليك ، وكفى به عن اللبيب شَاهِداً ، وإلى الكريم قائداً ، فأَطْمَعنى فيك ما رأَيتُ من جودك وسماحتك ، وَحُسْنِ بِشْرِك وطلاقتك ، ولئن أَمَّلتك عند الشدائد ، ودفعت بك صَوْلة النوائب ورَجَوْتك لكشف الملمَّات ، والحوادث الطَّارِقَات ، واستغثتُ بسَيبك وجدواك على غير شافع ، أَطمعُ فى شفاعته إليك ، أَو مُتوسل فى ما لديك ، فإنى أَقول كما قال الشاعر :

من غير ما سبب يُدْنِى كَفى سبباً   للْحُرِّ أَن يجتَدِى حُرًّا بلا سببِ

ولما كانت الوسيلة إلى السادات ، وأَهل الأَخطار والمُرُوءَات ، إنما هى وكيد حُرْمة أَو قديم خدمة ، وكُنْتُ صفرا من ذلك كُله ، غير داخل فى جملة أَهله ، توسلتُ بكتابى « جواهر الأَدب ، فى أَدبيَّات وإنشاء لُغة العرب » ، إذ كان المتوسِّل بها على ثقة ممن عَرَف قدرها ، لأَن الآداب عند ذوى الكرم ، أَعطفُ من صلة الرَّحم ، وهو سببٌ بين الكرام موصول ينزعون إليه ، وحق يتعاطفون عليه ، وفيه قال الشاعر :

أَدبٌ بَيْننا تَوَلد منه   نسبٌ والأَديبُ صِنْوُ الأَديب

وقال الآخر :

حَقُّ الأَديب وإنْ لَمْ يُدْنِهِ نسبٌ   فَرْض على كلِّ مَنْ أَمْسَى له أَدبُ

وقد ضمنتُ كتابى هذا من الآداب أَظرفها ، ومِنَ الأَشعار أَفضلها وأَجملها

وجعلتُه سبباً أَمُتُّ به إليك ، وهدية أَضَعُها بين يديك . فتنازل دولتكم بشرف القُبُول ، يكون غاية مطلوبى ، ونهاية المأمول .

الفصل الرابع : فى رسائل الاستعطاف والاعتذار

كتب أبو منصور الثعالبى النِّيسابورى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

الكريم إذا قَدَر غفرَ ، وإذا أَوْثَقَ أَطلق ، وإذا أَسرَ أَعتق ، قد هربت منك إليك ، واستعنتُ بعفوك عليك ، فأذِقْنى حلاوة رضاك عنِّى ، كماأَذقتنى مرارة انتقامِكَ منِّى الحرُّ كَريم الظَّفر ، إذا نالَ أَقال(١) ، واللئيمُ إذا نال استطال(٢) ، قد هابك من استتر ، ولم يُذنب إليك من اعتذر ، تكلفُ الاعتذار بلا زَلة(٣) ، كتكلف الدواءِ بلا علة ، مولاى يوجبُ الصفحَ عند الزلة(٤) ، كما يلتزم البذل عند الخلة(٥) ، مولاى يُوليتى صفيحة(٦) صفحه ، ويُؤتينى العفوَ من عفوه ، زَللت وقد يزلُّ العالمُ الذى لا أُساويه ، وعثرتُ وقد يعثر الجوادُ الذى لا أجاريه ، لا تضيقن عنِّى سعة خلُقك ، ولا تكدرن علىّ صفوَ وُدك ، مالى ذَنْبٌ يضيقُ عنه عفوُك ، ولا جُرْمٌ يتجافى تجاوُزك وصفحك . والسلام.

وكتب عبد الله بن معاوية المتوفى سنة ١٣٤ هـ إلى أَبى مسلم :

من الأَسيرِ فى يديه ، بلا ذنب إليه ولا خلاف عليه . (أَما بعد) فقد آتاك الله حفظ الوصية ، ومنحك نصيحة الرَّعِيَّة ، وأَلهمَك عدل القضيَّة فإنك مُسْتودعُ الودائع ، ومولى الصنائع ، فاحفظ ودائعك ، بحسن صنائعك . فالودائع عارية . والصنائع مرعية . وما النِّعم عليك وعلينا فيك بمنزُور نداها . ولا بمبلوغ مداها . فنبه للتفكير قلبك . واتَّقِ ربك وأَعط من نفسك من هو تحتك . ما تحب

---

(١) ترك (٢) تملك وتمسك (٣) بالفتح السقطة (٤) بالفتح الفلظة (٥) بفتح الخاء الحاجة والفقر (٦) صفيحة — عريضة .أى عظيم صفحه .

أَن يعطيك من فوقك من العدل والرَّأْفة ، والأَمْن مِنَ المخافة . فقد أَنعمَ الله عليك ، بأَن فَوَّض أَمرنا إليك . فاعرفْ لنا لِينَ شكر المَوَدَّةِ . واغتفار مَسّ الشدة والرِّضا بما رضيت والقناعة بما هوَيت . فإِن علينا من سمكِ الحديد وثقْله أَذًى شديداً ، مع معالجة الأَغلال ، وقلة رحمة العمال الذين تسهيلهم الغلظة وتيسيرهم الفظاظة ، وإيرادهم علينا الغموم ، وتوجيههم إلينا الهموم ؛ زيارتهم الحراسة ، وبشارتهم الإياسة ! فإِليك ــ بعد الله ــ نرفعُ كربة الشكوى ، ونشكو شدة البلوى . فمتى تمل إلينا طرفاً ، وتولنا منك عطفاً تجد عندنا نصحاً صريحاً ووُدًّا صحيحاً . لا يضيِّع مثلك مثله ، ولا ينفى مثلك أَهله ؛ فارع حُرْمة من أَدركت بحرمته ، واعرف حجة من فلجت بحجته(١) فإِن الناس من حوضك رِوَاءٌ ، ونحن منه ظِمَاءٌ . يمشون فى الأَبراد ، ونحن فى الأَقياد ، بعد الخير والسعة ، والخفض والدعة ؛ والله المستعان ، وعليه التكلان .

وكتب بدر محمد بن حبيب الحلبى المتوفى سنة ٧٩٩ هـ :

رفقاً بمن ملك الوجد قياده . وعطفاً على من أَذاب الشوق فواده . مُتَيَّم(٢) أَقلقه فرط صدودك . ومغرمٌ أَغراه بحبك قول حسودك . وسقيم لا شفاء له دون مزارك . ومقيم على عهدك ولو طالت مدة نفارك . إلَامَ هذا التنائى(٣) والنفور! وعلام ياذا القد العادل تجور ؟! لقد تضاعف الأَسف والأَسى ، وتطاول التعلل بلعلّ ، وعسَى :

هبنى تخطيتُ إلى زَلة ولم أَكُنْ أَذْنبتُ فيا مضى
أَليْسَ لى من بعدها حرمةٌ ؟ تُوجب لى منك جميل الرِّضَا ؟!

ولست أَلوذ إلا بباب نعمك ، ولا أَعتمد فى محو الإساءة إلا على حلمك وكرمك وما جل(٤) ذنب يضاف إلى صفحك ، ولا عظم جُرْمٌ(٥) يسند إلى عفوك .

(١) فلج بحجته ــ أثبتها (٢) مستعبد ذليل (٣) التباعد
(٤) ما عظم (٥) ذنب .

ومثلك من يقيلُ العثرَاتِ ، ويتجاوز عن الهفوات :

وَكُنْت أَظُنُّ أَنَّ جبال رضوَى(١) تزولُ وَأَنَّ وُدَّكَ لا يزول

ولكنَّ القُلوبَ لها انقلابٌ وَحَالاتُ ابن آدم تَسْتحيل

طالما آنَسْتنى بقربك ، وَدَنَوْتَ مِنِّى مفارقاً ظباءَ سِرْبك ، وأَنجزْت وُعُودى ، وأَطعتَ نجومَ سعودى :

وكُنت إذا ما جئت أَدنيت مجلسى ووجهك من ماءِ البشاشةِ يَقْطُرُ

فَمَنْ لِىَ بالعين التى كُنْت مَرَّة إلَىَّ بها فى سالف الدهر تَنْظُرُ

قيدت أَملى عن سواك ، وبَهرْتَ ناظرى بنظرة سَنَاك(٢) ، وكسرت جيش قرارى ، وتركتنى لا أُفَرِّقُ بين ليلى ونهارى ، أَحُوم حَوْلَ الدِّيَار ، وأَعُوم فى بحر الأَفكار ، وأَتمسك بعطف عطفك ، وأَتعلق بـأَذيال مكارمك ولُطفك . أَما علمت أَن الكريم إذا قدر غفر ؟ وإذا صدرت من عبده زَلةٌ أَسْبَلَ عليها رداءَ العفو وستر ؟ وأَن شفيع المذنب إقراره ؟ ورفض خطيئته عند مولاه استغفاره ؟

وَمَنْ كان ذا عُذْرٍ لديك وحجةٍ فعذرى إقرارى بـأَن ليس لى عذر

لهفى على عيش بسلاف(٣) حديثك سَلف ! وأَوقاتٍ حلت ، ثم خلت وأَورثت التَّلف ! وَآهاً لأَيام أُنسك مضت ! وبُرُوقِ ليالٍ لولا قُرْبك ما أَوْمَضت(٤) :

قد كُنْت أَعْرِف فى الهَوَى مقدارَهَا رَحَلَتْ وبالأَسف المبَرِّح عَوَّضَتْ

كيف السبيل إلى إعَادَة مثلها وهى التى بالبعد قلبى أَمْرَضَتْ

فَجُدْ بالتدانى ، واسمح بنيل الأَمانى ، وَأَلِنْ قلبك القاسى ، وعد عن التنائى

---

(١) جبل بالمدينة (٢) ضوئك (٣) الخمر (٤) ما لمعت

والتَّناسى ، وارْعَ الود القديم وأَبدل شقاءَ محبك بالنَّعيم ، ولا تعْدِلْ عن منهاج المَعْدَلة ، وسلم فقد أَخذَتْ حقها المسأَلة ، وأَغْمد سيف حيف(١) صيَّرته مسلولاً ، وأَوْفِ بِالْعَهْد إِنَّ العهدَ كانَ مَسْئولا .

وكتب أَبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ ﻫ :

ليس عندى – أعزك الله – سببٌ ولا أَقدرُ على شفيعٍ ، إلا ما طبعك الله عليه من الكرم والرحمة ، والتأْميل الذى لا يكون إلا من نَتاجِ حُسْن الظن ، وإثبات الفضل بحال المأْمُول . وأَرجو أَن أَكون من الشاكرين ، فتكون خير مُعتب(٢) ، وأَكون أَفضل شاكر ، ولعل الله يجعل هذا الأَمر سبباً لهذا الإنعام ، وهذا الإنعام سبباً للانقطاع إليكم ، والكون تحت أَجنحتكم(٣) ، فيكون لا أَعظم بركة ولا أَنمى بقيةً من ذنب أَصبحتُ فيه ، وبمثلك (جعلت فِدَاك) عَاد الذنبُ وسيلةً والسَّيئةَ حسنةً ، ومثلك من انقلب به الشر خيراً ، والغرم غنما (٥) .

من عاقب فقد أَخذ حظه . وإنما الأَجر فى الآخرة وطيب الذِّكْر فى الدنيا ، على قدر الاحتمال ، وتجرع المرائر . وأَرجو أَن لا أَضيع (وأَهْلَكَ) فيما بين كرمك وعقلك . وما أَكثر من يعفو عمن صغر ذنبه ، وعظم حقه . وإنما الفضل والثناءُ العفو عن عظيم الجرم ضعيف الحرمة . وإن كان العفو العظيم مستطرفاً (٦) من غيركم فهو تلاد(٧) فيكم ، حتى دعا ذلك كثيراً من الناس إلى مخالفة أَمركم ، فلا أَنتم عن ذلك تنكلون(٨) ، ولا على سالف إحسانكم تندمون . ولا مثلكم إلا كمثل عيسى بن مريم ؛ حين كان لا يمر بملإٍ من بنى إسرائيل إلا أَسمعوه شرا ، وأَسمعهم خيراً ، فقال له (شمعون الصفار) (٩) : ما رأَيت

(١) الجور (٢) مسر بعد اساءة (٣) حمايتكم (٤) ما يلزم أداؤه (٥) الغنيمة (٦) مستحدثا (٧) المال القديم (٨) ترجعوا
(٩) شمعون الصفار : هو أحد حوارى عيسى عليه السلام .

كاليوم ! كلما أَسمعوك شرًا ، أَسمعتهم خيراً ؟ ! فقال : « كلُّ امرئ يُنفق مما عنده » وليس عندكم إلا الخير ، ولا فى أَوْعيتكم إلا الرحمة . وكل إناء بالذى فيه ينضح .

وكتب ابن مكرم إلى بعض الرؤساء :

نَبَت(١) بى غرَّةُ الحداثَة ، فردتنى التَّجربة ، وأَفادتنى الضرورة ؛ ثِقةً بإسراعكَ إلى وإن أَبطأَت عنك ، وقبولك لعذرِى وإن قَصَّرت عن واجبك . وإن كانت ذنوبى سدَّت علىَّ مسالك الصفح عَنِّى ، فراجعْ فى مجدك وسُؤدَدك(٢) وإنى لا أَعرفُ موقفاً أَذل من موقفى ، لولا أَن المخاطبة فيه لك ، ولا خطةً أَدنأَ من خطتى ، لولا أَنها فى طلب رضاك — والسلام .

وكتب أَبو بكر الخوارزمى المتوفى سنة ٧٤٠ هـ :

لو بغير الماء حَلقِى شرق كنت كالغصان بالماءِ اعتصارى

كيف يقدر (يقى الله السيد) على الدواءِ ، من لا يهتدى إلى أَوجه الداءِ ؟ وكيف يدارى أَعداءه ، من لا يعرف الأَصدقاء من الأَعداءِ ، وكيف يعالج علة القرحة العمياءِ ؟ أَم كيف يسرى بلا دليل فى الظلماءِ ؟ ! أَم كيف يخرج الهارب من الأَرض والسماءِ ؟ ! الكريم إذا قدر غفر ، وإذا أَوثق أَطلق ، وإذا أَسرَ أَعتق . ولقد هربت من السيد إليه ، وتسلحت(٣) بعفوه عليه ، وأَلقيت ربقة (٤) حياتى ومماتى بيديه . فليذقنى حلاوة رضاه عنى كما أَذاقنى مرارة انتقامه منى ، وَلْتَلح(٥) على حالى غرة عفوه ، كما لاحت عليها مواسِم(٦) غضبه وسطْوِه . وليعلم أَن الحر كريم الظفر إذا نال أَقال ، وأَن اللئيم لَئِيمُ الظفر إذا نال استطال . ولْيغنم التجاوز عن عثرات الأَحرار ، ولْيَنْتهز فُرص الاقتدار .

---

(١) أبعدتنى (٢) السيادة (٣) استعنت (٤) العروة التى يربط بها والمراد بها الزمام (٥) تظهر (٦) العلامات .

وَلْيحْمد اللهَ الذى أَقامهُ مَقَامَ من يُرْتجى ويخشى ، وركَّبَ نصابه فى رُتْبةٍ شابَ الزّمَانُ ومجدها فَتِىٌّ ، وأَخلَقَ العالمُ وَذِكْرُها طرِىّ ، وليعتقد أَنه قد هَابَهُ من استتر ، ولم يذنب إليه من اعتذر ، وأَن من رُدَّ عليه عُذْرُه ، فقد أُخرج إلى الشجاعة بعد الجُبْنِ ، وأُخرجَ ذنبُه إلى صَحن اليقين من سُترة الظنّ . وفق اللهُ السيد لما يحفظ عليه قلوبَ أَوليائه ، وعصمه مّما يزيد به فى عدد جماجم أَعدائه .

وكتب بعضهم إلى رئيسه :

وَجَدْتُ استصغارك لعظيم ذنبى أَعظم بقدر تجَاوُزك عنِّى ، ولعمرى ! ما جل ذَنْبٌ يُقَاسُ إلى فضلك ، ولا عظُمَ جُرْمٌ يُضاف إلى صفحك ، وَيُعَوَّلُ فيه على كَرَم عفوك . وإن كان قد وسعه حلمك ، فأَصبح جليلهُ عندك محتقرًا ، وعظيمه لديك مستصغرًا ، إنه عندى لفى أَقبح صور الذنوب ، وأَعلى رُتب العيوب . غير أَنه لولا بوادر(١) السُّفَهاءِ ، لم تعرف فضائلُ الحلماءِ ولولا ظهور نقص بعض الأَتباع ، لم يَبن جمال الرُّؤساءِ ، ولولا إلمام الملمِّين بالذنب ، لبطل تَطَوُّل المتطوّلين بالصفح . وإنى لأَرجو أَن يمنحك الله السلامة بطلبك لها ، وَيُقيلك العثرات بإِقالتك أَهلها . وما علمت أَنى وقفتُ منك على نعمة أَتدبّرُها ، إلا وجدتها تشتمل على فائدة فضل ، تتبعها عائدة عَقل .

وكتب فقيد اللغة الشيخ إبراهيم اليازجى المتوفى سنة ١٣٠٦ هـ :

بمَ يعتذرُ إليك من لا يرى لنفسه عُذْرًا ؟ ! وكيف يستتر مِنْ عتْبك مَنْ لايستطيعُ لذنبه سترًا ؟ ! بل كفانى من العتب : تعنيف نفسى على ما أَلقيت عليها من تبعة تقصيرى ، وما حُلتُ به من التفريط بينها وبين معاذيرى . واللهُ

(١) جمع بادرة : وهى الحدة عند الغضب .

يعلم ماكان تقصيرى شيئًا أَرَدْته وكان تفريطى أمرًا قصدته ، ولكنها الأَيام ! إن صاحبتها لم تَصْحب ، وإن عاتبتها لم تُعْتب ، فلقد عبرتْ بى هذه البرهة كلُّها وأَنا بين شواغلَ لايشغلها عنِّى شاغِل ، وبَلَابِلَ(١) قد اختلط حابلها بالنابل ، فتنازعتُهَا هذه النُّهزة(٢) اليسيرة ، أُجدِّدُ فيها التذكرة ، إلى أنْ يمنَّ اللهُ بصلة الحبل واجتماع الشمل ، وأَستنزلُ أَحْرُفاً من حَظِّكَ يكتحلُ بها النَّاظر ، ويأْنس إليها الخاطر ، متوقعًا بعد ذلك أن أَبقى بين يدى مودَّتك مذكورًا ، وألا يكون عجزى لديك شيئًا منظورًا ، وأَن تجرى بى على عادة حِلْمِك ، إلى أَن يجمعَ الله الشتيتين ويُغنى العين(٣) عن الأَثر بالعين(٤) إن شاءَ الله تعالى . والسلام .

وكتب أَيضاً :

وافانى كتابك العزيز ، والنفْسُ نازعة(٥) إلى ما يزيلُ نِفَارَها ، والقريحة(٦) تائقةٌ(٧) إلى ما يشحذُ(٨) غرارها(٩) ؛ فكان روضةً باسمةَ(١٠) الكمائم(١١) فاتحة النّسَائم ، وقد ردّت على النفس انبساطها وأحيلت البادرة فاستأْنفت نشاطها ؛ فأَنا منه ما بَينَ وشى(١٢) يُخجلُ طِرَاز العَبقرية(١٣) ، وَزُخْرُفٍ(١٤) دُونهُ نضرةُ(١٥) السابرية(١٦) تُنَاجينى منه رَشَاقة(١٧) أَلفاظٍ تفضحُ قُدُود(١٨) الحسان ، وغضاضَةُ(١٩) أَنفاسٍ يُغَارُ منها وَرْدُ الْجِنَان ، ورقَّة خطاب يَشف(٢٠)

---

(١) هموم ، والحابل : قيل ناصب الحبالة للصيد ، وقيل : سدى الثوب . والنابل : صاحب النبال وقيل : لحمة الثوب ولفظ المثل «اختلط الحابل بالنابل» وهو مثل يضرب فى ارتباك الامر (٢) بضم النون الفرصة (٣) الباصرة (٤) الذات (٥) مشتاقة (٦) الملكة التى يقتدر بها على استنباط العلم بحدة الطبع (٧) مشتاقة (٨) يحد، وأصله السكين (٩) بكسر الغين والمراد أن الملكة مشتاقة الى مايجعلها قوية مصيبة (١٠) ضاحكة (١١) الزهر (١٢) نقش الثوب (١٣) ثياب تبلغ الغاية فى الحسن (١٤) كمال الحسن (١٥) الحسن (١٦) ثياب رقيقة جيدة وأصلها للدروع السابرية نسبة الى سابور كورة بفارس ، بينها وبين شيراز ستة عشر فرسخا (١٧) لطافة (١٨) جمع قد وهو القامة الرشيقة (١٩) الحسن (٢٠) يحكى .

عن ودّ صفىّ ، ولطف خفىّ(١) ، وكَرَم وفىّ ، وعتبٍ أعذبَ من الماءِ القراح(٢) ، وأَرَقّ من نسماتِ الصبا فى الصَّبَاح ؛ حتى لقد حَبَّب إلَىَّ تقصيرى ، وشفعَ عند نفسى فى قبول معاذيرى . على أَنَّ ما عندى من الولاء لا يعتريه – معاذ الله ! – وهن(٣) ، ولا يخلفه(٤) تمادى زمن أو ترامى وطن . ولكن صُرُفَ الأَحداث(٥) قد قصَّرَت الجهد(٦) ، وصرفت جواد العزيمة عن القصد . والله يعلم أَنى لو نزلت على حكم نوازل الدَّهْر ، ولم أُدافع طلائعها بما بقى من ساقة(٧) الصبر ، لما كان فى هِمَّتِى إلا كَسْرُ اليرَاع(٨) وهجرُ المحابرِ والرِّقاع(٩) . وحسبى من العذر ما أعرفه من حلمك المأْلوف ، وما أَلفتهُ من كَرَمِكَ المعروف .

والله أَسأَل أَن يبقيك لى من الدَّهْرِ نصيبًا ، ويمتعنى بلقائك قريبًا ، بمنّه وكرمه .

وكتب أَبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ ھ :

أَما بعدُ : فنعمَ البديلُ من الزلة الاعتذار ، وَبِئْسَ العِوَضُ من التوبة الإِصْرَارُ ؛ فإنه لا عِوَضَ من إخائك ولا خلف من حُسْن رأْيك . وقد انتقمت منِّى فى زلَّتى بجفائك ، فأَطلق أَسيرَ تَشَوُّقى إلى لقائك . فإننى بمعرفتى بمبلغ حلمك وغاية عفوك ، ضَمِنْتُ لنفسى العَفْوَ مِنْ زلتها عندك . وقد مسنى من الأَلَمِ مَا لَمْ يشفِهِ غير مواصلتك .

وكتبت زبيدة زوجة الرشيد المتوفاة سنة ٢١٦ ھ إلى المأْمون :

كلُّ ذنبٍ – يا أَمير المؤمنين – وإن عظم صغير فى جنب عفوك . وكل

---

(١) ظاهر فهو من الاضداد (٢) بفتح القاف الخالص (٣) ضعف (٤) لا يبليه (٥) كلاهما مصائب الدهر (٦) بفتح الجيم وضمها أى الطاقة (٧) آخره (٨) الاقلام (٩) الرقاع بكسر الراء مفردة رقعة وبضمها القطعة من الورق التى تكتب .

إساءة وإن جلت يسيرة لدى حلمك ، وذلك الذى عَوَّدكه الله أطال مدّتك ، وتمم نعمتك ، وأدام بك الخير ، وَدَفَعَ عنك الشر والضير .

وبعد : فهذه رُقعة الوَلهى — التى ترجوك فى الحياة لنوائب الدهر ، وفى الممات لجميل الذكر — فإن رأيت أن ترحم ضعفى واستكانتى وقلة حيلتى ، وأن تصل رحمى ، وتحتسبَ فيما جعلك اللهُ له طالباً ، وفيه راعياً — فافعل — وتذكر من لو كان حيًّا لكان شفيعى إليك .

وكتب إليها المأمون جواب المواساة الآتى :

وصلت رقعتك يا أُماه — أحاطك الله وتولاك بالرعاية(١) — ووقفتُ عليها ، وساءنى — شهد الله !(٢) — جميع ما أَوْضَحت فيها ، لكن الأَقدار نافذةٌ(٣) ، والأَحكام جارية ، والأُمور متصَرِّفَةٌ ، والمخلوقُونَ فى قبضتها ، لا يقدرون على دفاعها(٤) ، والدنيا كلها إلى شتات(٥) ، وكل حَىٍّ إلى ممات ، والغدر والبغى حنف الإنسان(٦) ، والمكرُ راجع إلى صاحبه .

وقد أَمَرْتُ برد جميع ما أُخذ لك ، ولم تفقدى ممّن مضى إلى رحمة الله إلا وجهه ، وأنا بعد ذلك على أكثر مما تختارين(٧) . والسلام .

وكتب بعضهم :

إنِّى وإن جنيتُ على نفسى ، وخرجتُ عن حد الأَدب ، فيما يجب على العبد لسيِّده — فإنِّى عبدُ نعمتك وصنيع إحسانك ، وَذَنبى وإن عظم وضاقَ باب التوبة عن قبول المعذرة ، فالعفوُ عنه بعضُ حسناتك التى فُطِرْتَ عليها ، والإغضاءُ عنِّى سرٌّ من أسرارك التى تميل إليها . فاجعل العفوَ عنِّى

---

(١) يعنى حفظك الله وصانك برعايته (٢) جملة معترضة يقصد بها تأكيد ما يقول (٣) يعنى ما قدره الله لابد أن يكون (٤) يعنى أن المخلوقات مستسلمة لاحكام الله وأقداره (٥) مآلها التفرق (٦) يعنى أن البغى فيه هلاك الباغى (٧) يعنى أقوم لك بجميع ما تحبين وزيادة

قُرْبَةً إلى مولى الموالى ، واترك العبد عتيق مكارم الأَخلاق ، وإلا فَضعْ سيفَ نقمتك ، فى نحر عبد نعمتِك ، وأَنْتَ حِلٌّ من دم أَرَاقه أَهله ، أَو آل أَمرُه إلى وارث لايسعهُ إلا النزولُ عن المطالبةِ به ، أَلا وهو مقامُ جلالتكم السامى .

وحاشاك أَن تَعدمَ الصادق فى خدمتك بهفوة لم يقصدها ، وذنب أَقلعَ عنهُ .

وعلى كل فالعبدُ بين يديك ، وأَمرُه منك وإليك ، فقد أَلقى إليك مقاليد الأَجل ، فافعل ما تشاءُ ، وَاتقِ الله عزَّ وجلَّ .

استعطاف أم جعفر(١) بن يحيى الرشيد

لأَجل يحيى زوجها

قال سهل بن هارون :

كانت أُم جعفر بن يحيى أَرضعت الرشيد مع جعفر(٢) وربته فى حجرها وغذته برِسْلها(٣) وكان الرشيد يشاورها مظهراً لإكرامها ، والتبرك برأيها . وكان آلى وهو فى كفالتها أَلا يحْجُبُهَا ولا استشفعته لأَحد إلا شفعها . وآلت أُم جعفر أَن لا دخلت عليه إلا مأذوناً لها ، ولا شَفَعت لأَحد مقترف ذنبًا ؛ فكم أسير فكتْ ، ومُبهم عنده فتحت ، ومُسْتغلق(٤) منه فرجت . فلما قَتل ابنها جعفرًا وحبس يحيى زوجها وسائر أَهل بيته طلبت الإذن عليه ، ومَتت(٥) بوسائلها إليه ، فلم يأْذن لها ولا أَمر بشىءٍ فيها ؛ فلما طال بها خرجت كاشفة وجهها ، واضعة لِثَامَها محتفية فى مشيَتها ، حتى

(١) ذكر صاحب العقد أن اسمها فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة ، وذكر الطبرى أن اسمها زينب بنت منير ، وذكر ابن خلكان أن اسمها عنابة وكذا صاحب نجباء الابناء . وذكر بعضهم أن اسمها عادة والله أعلم (٢) كذا ذكر صاحب العقد وقال الطبرى انها أرضعته مع الفضل ويؤيده قول سليمان الاعمى يرثى جعفرا ويستعطف الرشيد للفضل :

أمين الله فى الفضل بن يحيى رضيعك ، والرضيع له ذمام

(٣) الرسل : اللبن (٤) المستغلق : العسير فتحه (٥) مت اليه : توسل بقربة أو نحوها .

صارت بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب ، فقال : ظئر(١) أمير المؤمنين بالباب ، فى حالة تقلب شماتة الحاسد ، إلى شفقة أم الواحد ، فقال الرشيد : ويحك ياعبد الملك أوَساعية ؟ قال نعم ياأمير المؤمنين ، حافية ، قال : أدخلها ياعبد الملك فرب كَبِدٍ غذتها ، وكُرْبة فرجتها ، وعورة سترتها ، فدخلت. فلما نظر الرشيد إليها داخلة مُحْتفية قام مُحْتفياً حتى تلقاها بين عَمَد المجلس وأكَب على تقبيل رأسها ومواضع ثدييها ثم أجلسها معه فقالت : ياأمير المؤمنين أيعدو علينا الزمان؟ ويجفونا خوفاً لك الأعوان ؟ ويُحْرِدك(٢) علينا البهتان ، وقد ربيتك فى حجرى ، وأخذت برضاعك الأمان من عدوى ودهرى؟ فقال لها : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ فقالت : ظئرك يحيي وأبوك بعد أبيك ، ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أميرالمؤمنين من نصيحته وإشفاقه عليه وتعرضه لِلْحتف فى شأْن موسى أخيه(٣) ، فقال لها : ياأم الرشيد أمر سَبَق وقضاء حُمَّ(٤) وغضب من الله نفد ، قالت : يا أمير المؤمنين «يمحو الله ما يشاءُ ويُثْبِت وعنده أم الكتاب »(٥) قال : صدقت ، فهذا مما لم يمحه الله ، فقالت : الغيب محجوب عن النبيين فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ فأَطْرَق الرشيد مَلِيًّا ثم قال :

وإذا المنية أنشبَتْ أظفارها ... ألفيتَ كُلَّ تميمة لا تنفع(٦)

فقالت بغير روية : ما أنا ليحيي بتميمة يا أمير المؤمنين وقد قال الأول :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ... ذخرًا يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل « والكاظمين الغيظ. والعافين عن الناسِ والله يُحِبُّ المحسنين » . فأَطرق مليًّا ثم قال : يا أُم الرشيد أَقول :

(١) الظئر : المرضعة (٢) أحرده : أغضبه (٣) تشير الى ماكان أراده الهادى وهو موسى بن المهدى من حرمان أخيه الرشيد الخلافة من بعده ونقلها الى ولده واحتيال يحيى بن خالد فى رد الهادى عن عزمه باذلا فى ذلك جهده (٤) حم الامر : قضى ونفد (٥) أم الكتاب أصله أو اللوح المحفوظ (٦) التميمة : ما يعلق للاولاد من كتابة أو غيرها دفعا للعين أو للمرض .

إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكد إليه بوجه آخر تُقْبِلُ

فقالت : يا أَمير المؤمنين وأَقول :

سَتَقْطَع فى الدنيا إذا ما قطعتنى يمينك فانظر أى كفٍّ تبَدل(١)

قال هارون : رَضِيتُ . قالت : فهبه لى يا أَمير المؤمنين فلقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ترك شيئًا لله لم يُوجده(٢) الله لفقده » فأَكب هارون مَلِيًّا ثم رفع رأْسه يقول : « لله الأَمر من قبل ومن بعد » قالت : ياأَمير المؤمنين « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاءُ وهو العزيز الرحيم » واذكر يا أَمير المؤمنين أَلِيَّتك(٣) . ما استشفعتك إلا شفعْتَنى ، قال : واذكرى يا أُم الرشيد أَليتك أَن لاشفعت لمقْتَرِفٍ ذنبًا . فلما رأَته صرح بمنعها ولاذَ(٤) عن مَطْلَبِها ، أَخرجت حقًّا من زُمُرُّدة(٥) خضراءَ فوضعته بين يديه ، فقال الرشيد : ما هذا ؟ ففتحت عَنْه قُفُلاً من ذهب فأَخرجت منه خَفْضَه وذوائبه وثناياه قد غمَسَت جميع ذلك فى المسك ، فقالت : ياأَمير المؤمنين أَستشفع إليك ، وأَستعين بالله عليك وبما صار معى من كريم جَسَدك ، وطيِّب جوارحك ليحيى عبدك ، فأَخذ هارون ذلك فلَثَمَه ثم استعبر(٦) وبكى بكاءً شديدًا وبكى أَهل المجلس . فلما أَفاق رمى جميع ذلك فى الحق وقال لها . لحسن ما(٧) حفظت الوديعة ، فقالت : وأَهل للمكافأَة أَنت ياأَمير المؤمنين ، فسكت وأَقفل الحق ودفعه إليها وقال : « إن الله يأْمركم أَن تؤدوا الأَمانات إلى أَهلها » قالت : والله يقول : « وإذا حكمتم بين الناس أَن تحكموا بالعدل » ، ويقول : « وأَوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » قال : وما ذلك يا أُم الرشيد ؟ قالت : أَو ما أَقسمت لى أَن لا تحجبنى وَلَا

---

(١) البيتان من قصيدة معن بن أوس الآتية فى باب العتاب .
(٢) أوجده : أحزنه (٣) الالية : الحلف (٤) لا يلوذ : راغ وانحرف
(٥) الزمرد : من الاحجار النفيسة (٦) استعبر : جرت عبرته وهى الدمعة قبل أن تفيض (٧) ما مصدرية .

وَلَا تمتهنى(١) ؟ قال : أُحب يا أُم الرشيد أَن تشتريه مُحَكَّمة(٢) فيه . قالت : أَنْصفت يا أَمير المؤمنين وقد فعلت غير مُستقبلة لك ولا راجعة عنك . قال : بكم ؟ قالت : برضاك عمن لم يُسْخِطك . قال : يا أُم الرشيد أَمالى عليك من الحق مثل الذى لهم ؟ قالت : بلى يا أَمير المؤمنين أَنت أَعز على ، وهم أَحب إلى . قال : فتَحكمى فى تَمْنِيَةٍ(٣) بغيرهم . قالت : كلا . قد وهبتكه وجعلتك فى حِل منه . وقامت عنه وبَقِى مَبْهوتاً ما يحِيرُ(٤) لفظة .

قال سهل بن هارون . وَخَرَجَتْ فلم تَعد ، ولا والله ما رأَيت لها عَبْرَة . ولا سمعت لها أَنةً .

استعطاف ابراهيم بن المهدى (٥) للمأمون

أَمر المأْمون بإِبراهيم بن المهدى فأُدخل عليه ، فلما وقف بين يديه قال : هيه(٦) ، يا إِبراهيم ! فقال : يا أَمير المؤمنين ولى الثأْرُ مُحَكم فى القَصاص «والعفو أَقربُ للتَّقوى» وعن تَنَاوله الاغترار بما مُدّ له من أَسباب الشفاءِ أَمكن عادية الدهر من نفسه ، وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب ، كما جعل كلَّ ذِى ذنب دونك ، فإِن أَخذت فبحقك ، وإِن عفوت فبفضلك . ثم قال :

ذنبي إِليْك عظيمٌ ... وأَنت أَعظمُ منه
فخذ بحقك أَوْ لَا ... فاصفح بفضلك عنْهُ
إِن لم أَكُنْ فى فعالى ... من الكرام فكُنْهُ

(١) امتهنه ابتذله : وأهانه (٢) يقول أن تطلبى ما تشائين ازاء هذا القسم (٣) التمنية والمنيـة : بمعنى واحد (٤) يقال : هو لا يحير جوابا اي لا يرد (٥) كان ابراهيم بن المهدى أخو الرشيد لابيه قد ادعى الخلافة بعد قتل الامين وقبل عودة المأمون من خراسان الى بغداد واعانه على ذلك كثير من أهل بغداد ثم خلع وغلب على أمره فاختفى حتى ظفر به المأمون . وكان ابراهيم بارعا فى الادب حسن الغناء جيد الشعر توفى سنة ٢٤٢ هـ فى خلافة اخيه المعتصم .

(٦) هيه مثل ايه للاستزادة او للاستنطاق فهى اسم فعل .

فقال المأمون : شاورت أبا إسحاق(١) والعباس فى قتلك فأشارا به ، فقال : فما قلت لهما يا أميرَ المؤمنين؟ قال المأمون : قلتُ لهما نبدؤه بإحسان ونستأمره(٢) فيه فإن غيَّرَ فالله يغيرُ ما به . قال : أمّا أن يكونا قد نصحا فى عظيم بما جرت عليه السياسة فقد فعلا وبلّغا ما يلزمهما وهو الرأىُ السديدُ ، ولكنك أبيت أن تستجلبَ النصر إلا من حيث عوَّدَكَ الله . ثم استعبرَ باكيًا ، فقال له المأمون : ما يُبْكيك ؟ قال : جَذَلًا إذ كان ذنبى إلى من هذه صفته فى الإنعام ؛ ثم قال : إنه وإن كان قد بلغ جُرْمى استحلالَ دمى فحلم أمير المؤمنين وفضله يبلِّغانى عفوه ولى بعدهما شفاعة الإقرار بالذنب ، وحق الأُبوة بعد الأَب . فقال المأمون : ياإبراهيم لقد حُبِّبَ إلىَّ العفو حتى خفتُ أن لا أوجر عليه . أما لو علم الناس ما لنا فى العفو من اللذة لتقرّبوا إلينا بالجنيَّات ، لاتثريبَ(٣) عليك يغفر الله لك ، ولو لم يكن حق نَسَبِكَ ما يُبَلِّغ الصفحَ عن جُرمك لبَلغت ما أملت حسنُ تنَصُّلِكَ ، ولُطف تَوَصُّلك ، ثم أمر بردِّ ضياعه وأمواله ؛ فقال إبراهيم :

رددت مالى ولم تبخل عَلَىَّ به وقبل رَدِّكَ مالى قد حَقَنْتَ دمى
وقام عِلْمك بى فاحتجَّ عندك لى مقامَ شاهد عدل غير متهم
فلو بذلت دمى أبغى رضاك به والمال حتى أَسُلَّ النعل من قدمى
ماكان ذاك سوى عارية سلفت لو لم تهَبْهَا لكنت اليوم لم تُلم

---

(١) أبو اسحاق هو المعتصم بن الرشيد ، والعباس هو ابن المأمون ولقد أحسن ابراهيم فى تصويب رأيهما لان ذلك أنجع فى طلب الرضا وأبلغ فى دفع المكروه من الازدراء عليهما فى رأيهما (٢) اصل الاستئمار : المشاورة : والمراد هنا التجربة (٣) التشريب : اللوم والتعيير بالذنب (٤) حقن الدم : صانه .

استعطاف اسحاق بن العباس للمأمون

قال المأمون لإسحاق بن العباس : تحسِبَنى أَغفلتُ أَمر ابن المهدى وتأْييدك له وإيقادك لناره ؟ فقال : والله ياأَمير المؤمنين لأَجْرَامُ قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أَعظم من جُرْمى إليك ، ولرحمى بك أَمتن من أَرحامهم ، وقد قال لهم كما قال يوسف — عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام — لإخوته (لا تَثْريبَ عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أَرحم الراحمين) وأَنت يا أمير المؤمنين أَحق وارث لهذه الأُمة فى الطول ، ومُمْتَثِلٌ(١) لخلال العفو والفضل .

قال : هيهات ، تلك أَجرام جاهلية عفا عنها الإسلام وجُرْمك جرم فى أَسلافك وفى دار خلافتك .

قال : ياأَمير المؤمنين ، فوالله للمسلم أَحقُّ بإقالة العَثْرَة وغفران الذنب من الكافر ، وهذا كتاب الله بينى وبينكم إذ يقول (سارِعُوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأَرض أُعِدَّتْ للمتقين * الذين يُنفقون فى السَّرَّاءِ والضَّراءِ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحبُّ المحسنين) والناس يا أَمير المؤمنين نسبة دخل فيها المسلم والكافر والشريف والمشروف .

قال المأمون : صدقت ، وَرَتْ(٢) بك زنادى ، ولا بَرِحْتُ أَرى من أَهلك أَمثالك .

---

(١) امتثل طريقته : تبعها فلم يعدها . (٢) ورت بك زنادى ووقدت بك زنادى مثلان يقالان لمن أنجدك أو أرشدك . والمراد بهما الدعاء .

استعطاف الفضل (١) بن الربيع للمأمون

قال المأمون للفضل بن الربيع لما ظفر به : يافضل ، أكان من حقى عليك وحق آبائى ونعمهم عند أبيك وعندك أن تَثْلبنى(٢) وَتَسُبَّنى وتحَرِّضَ على دمى ؟ أتحبُّ أن أفعل بك ما فعلته بى ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن عذرى يحْقُدُكَ إذا كان واضحًا جميلا ، فكيف إذا أخْفَتْهُ العيوب ! وقَبَّحَتْه الذنوب ! فلا يضيق عنى من عفوك ما وسع غيرى منك ، فأنت كما قل الشاعر(٣) فيك :

صَفُوحٌ عن الأَجرام حتى كأَنَّهُ من العفو لم يَعْرِف من الناس مجرما
وليس يبالى أَن يكون به الأَذى إذا ما الأَذى لم يغش بالكره مسلما

استعطاف تميم بن جميل للمعتصم

كان تميم بن جميل السَّدوسى(٤) قد خرج بشاطئ الفرات ، واجتمع إليه كثير من الأَعراب ، فعظم أَمره ، وبَعُدَ ذكره ، ثم ظُفِرَ به ، وحُمل موثقًا إلى باب المعتصم ، فقال أَحمد بن أَبى دؤاد : ما رأَيتُ رجلاً عاين الموتَ ، فما هاله(٥) ولا شغله عما كان يجب عليه أَن يفعله إلا تميم بن جميل ، فإنه لما مَثُلَ بين

---

(١) هو الفضل بن الربيع بن يونس حاجب الرشيد ثم وزيره بعد نكبة البرامكة ثم وزير الامين فى خلافته ويقال : انه هو الذى أوغر صدر الرشيد على البرامكة حسدا لهم على منزلتهم وفيه يقول أبو نواس : توفى الفضل سنة ٢٠٨ هـ . (٢) ثلبه : تنقصه وصرح بعيبه . قال الشاعر :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

❊ لا يحسن التعريض الا ثلبا ❊

(٣) القائل هو الحسن بن رجاء (٤) سدوس : بطن من بنى شيبان ثم من بنى بكر (٥) هاله : أفزعه .

يدى المعتصم ، فَأُحْضِرَ السيف والنطعُ(١) وأوقف بينهما ، تأمَّلَهُ المعتصم — وكان جميلا وَسِيما — فأحب أن يعلم أين لسانه وجَنانه من منظره ، فقال : تكلم يا تميم . فقال : أمّا إذ أذنت يا أمير المؤمنين فأنا أقول الحمد لله الذى أَحسنَ كل شيءٍ خَلَقَه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جَعَل نَسْلَهُ من سُلَالة من ماءٍ مهين ، جَبَر بك صدع(٢) الدين ، ولمّ بك شَعَثَ(٣) المسلمين ، وأوضح بك سُبُل الحق ، وأخمدَ بك شهاب الباطل . إن الذنوب تُخْرِسُ الألسنة الفصيحة ، وتُعْيِي الأفئدة الصحيحة ؛ ولقد عظمت الجريرة ، وانقطعت الحجة ، وساء الظن ، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك ، وأرجو أن يكون أقربهما منك وأسرعهما إلى أشبههما بك وأولاهما بكرمك ، ثم قال على البديهة .

أَرى الموت بين السيف والنِّطع كامِنًا ... يُلاحظنى من حيثما أَتلَفَّتُ
وأَكبَرُ ظنِّى أَنك اليومَ قاتلى ... وَأَى امرئٍ مما قضى اللهُ يُفلتُ ؟(٤)
وأىُّ امرئٍ يأْتى بعذر وَحُجّة ... وَسيف المنايا بين عينيه مُصْلت
وما جزعى من أَن أَموت وَإننى ... لأَعلم أَن الموت شىءٌ مُوقت
وَلكن خلفى صِبْيَةٌ قد تركتُهُم ... وَأَكْبادُهم من حَسْرة تَتَفتت
كأَنى أَراهم حين أُنعى إليهم ... وَقد خَمَشوا تلك الوجوه وَصَوّتوا(٥)
فإن عشت عاشوا خافضين بغبطة ... أَذود الرّدَى عنهم وَإن مُت مُوِّتُوا(٦)
وَكم قائل لا يُبْعِدُ اللهُ روحه ... وَآخر جذلان يُسَرُّ وَيشمت

فتبسَّم المعتصم وَقال : كَاد وَاللهِ ياتميم أَن يسبق السيف العَذَل ، قد وَهبتك

(١) النطع : بساط من الجلد يفرش تحت من يراد قتله حتى لا يسقط دمه على الارض (٢) الصدع : الشق فى الحائط ونحوه (٣) الشعث : انتشار الامر والاشياء المتطرفة (٤) أفلت : تخلص ونجا (٥) أصلت السيف : استله من غموه (٦) خمش وجهه : لطمه وهو من باب ضرب ونصر (٧) موتوا : كثر فيهم الموت .

للصبية ، وغفرت لك الصَّبوة(١) . ثم أمر بفك قيوده وخلع(٢) عليه .

وكتب الجاحظ إلى ابن الزيات يستعطفه وكان قد تنكر(٣) له وتَلَوَّن عليه :

أَعاذك الله من سوءِ الغَضَب ، وعصمك من سرَفِ(٤) الهَوَى ، وصرفَ ما أَعادك من الفوَّة إلى حب الإِنصاف ، وَرَجَّحَ فى قلبك إيثار الإِناة(٥) فقد خفت ـ أَيدك الله ! ـ أَن أَكون عندك عن المنسوبين إلى نَزَق(٦) السُّفهاءِ ، ومجانبة سبل الحكماءِ ، وبعد فقد قال عبد الرحمن(٧) بن حسان بن ثابت :

وإن امرءًا أَمْسَى وأَصبح سَالما　　من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال الآخر(٨) :

ومن دعا الناس إلى ذمه　　ذموه بالحق وبالباطل

فإن كُنْتُ اجترأْت ـ أَصلحك الله ! ـ فَلَمْ أَجترئ إلَّا لأَن دوام تغافلك عنى شبيه بالإهمال الذى يورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأَة ، ولذلك قال عُيَيْنَةَ(٩) بن حصن بن حُذَيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان خيرًا لى منك أَرهبنى فاتَّقانى(١٠) وأَعطانى فأَغنانى ، فإن كنت لاتهب عقابى ـ أَيدك الله ! ـ لخدمة فهبه لأَياديك عِنْدِى ، فإن النعمة تشفع فى النقمة ، وإلا تفعل ذلك فعد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأُحدوثة(١١) ، وإلا فأْت ما أَنت أَهلُه من العفو دون ما أَنا أَهله من استحقاق العقوبة ؛ فسبحان من

---

(١) الصبوة : الزلة وجهلة الشباب (٢) خلع عليه خلعة : منحه بعض ثيابه وقد يراد به مطلق العطاء (٣) تنكر له : تغير (٤) السرف : مجاوزة الحد (٥) الاناة : الحلم والوقار (٦) النزق : الخفة والطيش (٧) هكذا يقول الجاحظ ، وغيره ينسب البيت لحسان نفسه . راجع الاغانى (٨) من الناس من يروى هذا البيت فى جملة أبيات لكعب بن زهير ، ومنهم من يرويه لمحمد بن حازم الباهلى ، راجع الاغانى (٩) هو سيد بنى ذبيان فى صدر الاسلام وهى سلالة حذيفة بن بدر الفزارى الذى كان السبب فى حرب داحس والغبراء (١٠) اتقاه : صيره تقيا (١١) الاحدوثة : الحديث والسيرة . جمعها أحاديث .

جعلك تعفو عن المتَعَمِّدِ وتَتَجَافى(١) عن عقاب المصِرِّ(٢) ؛ حتى إذا صرت إلى من هفوت ذكِر (٣) ، وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك والإنعام إلا منك هَجَمْت عليه بالعقوبة . واعلم - أيدك الله ! - أن شيْن غضبك علىَّ كزَيْن صفحك عنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببى منك كحياة ذكرى مع اتصال سببى بك(٤) . واعلم أن لك فطنة عليم وغفلة كريم والسلام .

استعطاف رجل من أهل الشام للمنصور

ياأمير المؤمنين من انتقمَ فقد شفى غيظه وانتصف ، ومن عفَا تفضل ، ومن أخذ حقه لم يجب شكره ، ولم يذكر فضله ، وكظم الغيظ حلم والتشفى طَرَفٌ من الجزع ، ولم يَمْدح أهل التقوى والنهى من كان حليماً بشدة العقاب ولكن بحسن الصفح والاغتفار وشدة التغافل . وبعد : فالمعاقب مستودع لعداوة أولياء المذنب (٥) والعافى مُسْتَرْعٍ لشكرهم آمن من مكافأتهم ، ولأن يُثْنى عليك باتساع الصدر خير من أن توصف بضِيقه ، على أن إقالتك عثراتِ عباد الله موجبةٌ لإقالة عثرتك من ربهم موصولة بعفوه ، وعقابَك إياهم موصول بعقابه . قال الله عز وجل : « خُذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

روح بن زنباع يستعطف معاوية

أراد معاوية معاقبة رَوْح بن زِنباع ، فقال : ياأمير المؤمنين أَنْشُدك الله تعالى

---

(١) تتجافى : تتباعد (٢) أصر على الذنب استمر (٣) يقول : هفوته هى تذكر الهفوة أو جريها على لسانه (٤) التشبيه فى هاتين الفقرتين من قبيل قولهم فى التفضيل : العسل أحلى من الخل . يقول : ان مقدار قبح الغضب كمقدار حسن الصفح وان مقدار موت الذكر عند الانقطاع مثل مقدار حياته عند الاتصال (٥) الاولياء : الاهل والاقارب

أَلا تَضعِ منى خَسِيسَة أَنت رَفَعتها أَو تنقُص منى مَرِيرةً(١) أَنت أَبْرَمْتها(٢) أَو تشمت بى عَدوًّا أَنت كَبَتَّه(٣) ، وحاسدًا بك وقَمْتَه (٤) وأَسأَلك بالله إلا أَرْبى حِلمك على خطئ وصفحك على جهلى . فقال معاوية : إذا الله سَنَّى(٥) عَقْد شئٍ تيسرا ، وعفا عنه .

وقد أَلمَّ المتنبى يقول رَوْح إذ يقول :

أَزِل حَسَد الْحُسّاد عنى بكَبْتهم فأَنتَ الذى صيرتهم لى حُسَّدا
إذا شدَّ زَنْدِى حُسنُ رأيك فى يدى ضربتُ بسيفٍ يقطع الهام مغمدا

ابن الرومى يستعطف القاسم (٦) بن عبيدالله

كتب ابن الرومى يستعطف القاسم بن عبيد الله :

تَرَفع عن ظُلمى إن كنت بريئًا ، وتفَضل بالعفو إن كنتُ مُسيئًا ؛ فوالله إنى لأَطلبُ عفوَ ذنب لم أَجْنِه ، وأَلتمسُ الإقالَة ممَّا لا أَعْرِفُه ، لِتَزْداد تطَوُّلا(٧) وأَزدادَ تَذَلُّلاً . وأَنا أُعِيذُ حالى عندك بكرمك من وَاشٍ يكيدها ، وأَحْرُسها بوفائك من بَاغٍ يُحَاول إفسادها ، وأَسأَل الله أَن يجعلَ حَظِّى منك بقدر وُدِّى لك ، ومَحلِّى من رَجَائك بحيثُ أَستحقُّ منك . والسلام .

---

(١) المريرة : الحبل الشديد الفتل (٢) أبرم الحبل : أجاد فتله ، والامر : أحكمه (٣) كبته : أذله وغاظه وصرعه لوجهه (٤) وقمه : قهره (٥) سنى الشىء : فتحه وسهله ، وهذا شطر بيت وهو :

واعلم علما ليس بالظن أنه اذا الله سنى عقد شىء تيسرا

(٦) هو القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وبيته بيت وزارة وكتابة وأدب ، فقد كان وزيرا ابن وزير اما الكتابة فهو فيها معرق لانه يرثها عن ثمانية آباء متعاقبين منذ خلافة يزيد بن معاوية وكان عظيم الهيبة شديد الاقدام سفاكا للدماء وهو الذى دس لابن الرومى السم فى الطعام خوفا من لسانه توفى سنة ٢٩١ هـ وعمره نيف وثلاثون (٧) التطول : الانعام .

وكتب إليه :

لو كان فى الصَّمت موضع يَسعُ حالِى لَخَفَّفْتُ عَن سَمْع الوزيرِ ونظَره ، ولم أَشغَل وجهًا من فكره ، وما زالت الشكوى تُعربُ عن لسان البَلوى . ومن اختلت حالتُه كان فى الصَّمت هَلَكته(١) ، وقد كان الصَّبر يَنْصُرُنى عَلَى ستر أَمرى حتى خذلَنى .

استعطاف للخوارزمى

لَوْ بغير المَاءِ حلْقِى شرق كنْتُ كالغصَّان بالماءِ اعْتِصَارِى(٢)

كيف يقْدِر – أَبقى الله السيد ! – عَلَى الدّوَاءِ ، مَن لايهتدى إِلى أَوْجُه الدّاءِ ؟ وكيفَ يُدَارِى أَعداءَه مَن لا يعرفُ الأَعداءَ من الأَصدِقاءِ ؟ أَم كيفَ يَسرِى بلا دليل فى الظلماءِ ؟ أَم كيف يَخْرُجُ الهاربُ مِنْ بين الأَرض والسماءِ ؟ الكريم – أَيَّدَ الله مولاى ! – إِذا قدَر غفر ، وإِذا أَوْثقَ أَطلقَ ، وإِذا أَسَر أَعتق . ولقد هَربْت من الشيخ إِليه ، وتَسلحت بعفوه عليه ، وأَلقيْت رِبْقة(٣) حَياتى ومماتى بيديه ، فلْيذِقْنى حلاوة رضاه عنى كما أَذاقنى مرارة انتقامه منى ، ولْتَلُح(٤) عَلَىَّ حالى غرة(٥) عفوه كما لاحت عليها مواسم(٦) غضبه وسطوه ، وليعلم أَن الحر كريم الظفر إِذا نال أَقال ، وأَن اللئيم لئيم الظفر إِذا نال استطال(٧) ، وليغتنم التجاوز عن عثرات الأَحرار ، ولينتهز فرص الاقتدار ، وليحمد الذى أَقامه مقام من يرتجى ويخشى ، وركب نصابه فى رتبةٍ شاب الزمان ومجدُها فتى ،

---

(١) الهلكة الهلاك (٢) الشرق بالماء كالغصة بالطعام والاعتصار معالجة الغصص بشرب الماء قليلا قليلا ، والبيت لعدى بن زيد العبادى الشاعر الجاهلى من قصيدة يستعطف بها النعمان بن المنذر يقول ان الانسان اذا غص بالطعام عالجه بالماء فماذا يصنع اذا كانت غصته بالماء نفسه (٣) الربقة العروة التى يربط بها ويراد بها الزمام (٤) لاح ظهر (٥) الغرة بياض فى وجه الحيوان والمراد هنا الاثر (٦) المواسم: العلامات (٧) استطال : تطاول واعتدى .

وأَخلقَ العَالَمُ وذكرُها طريّ ، وليعتقد أَنه قد هابه من استتر ، ولم يذنب إليه من اعتذر . وفق الله تعالى الشيخ لما يحفظ عليه قلوب أَوليائه ، وعصمه مما يزيد به فى جماجم أَعدائه .

اعتذار لسعيد بن حميد

كتب سعيد(١) بن حُمَيد يعتذر :

أَنا من لا يحاجُّك عن نفسه ، ولا يُغَالطك عن جُرْمه ، ولا يلتمس رضاك إلا من جهته ، ولا يستدعى بِرَّكَ إلا من طريقته ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجرم . نَبَتْ بى عنك غِرَّة الحداثة ، وردتنى إليك الْحُنْكة(٢) ، وباعدتنى منك الثقة بالأَيام ، وقادتنى إليك الضرورة ؛ فإن رأَيت أَن تستقبل الصَّنيعَة بقبول العذر ، وتجدِّد النعمة باطرَاح الحقد فإن قديم الحرمة وحديث التوبة يمحقان ما بينهما من الإساءة ، وإن أَيام الحياة وإن طالت قصيرة ، والمُتْعَة بها وإن كثرت قليلة .

اعتذار لابى على البصير

كتب أَبو علَى البصير يعتذر :

أَنا أَحد مَنْ أَسْكَنْته ظلك ، وأَعلقته حبلك(٣) ، وحبوته بلطيف بِرّكَ وخاص عنايتك ، وانتصف بك ، ولا يعتمد إلا عليك ، ولا يستنجح(٤) طلبه إلا بك ، وقد كان فَرَط مِنِّى قول إن تأَوَّلْتَه(٥) لى أَراك وجه عذرى وقام

(١) هو من أولاد الدهاقين ، كاتب شاعر مترسل حسن الكلام فصيح ، أخذ عن الامام الاعرابى ويؤخذ عليه انه كثير الاخذ لكلام غيره .
(٢) الحنكة : خبرة التجارب (٣) وصلته وقيدته بزمام مودتك
(٤) استنجح حاجة وتنجحها : تنجزها وطلب نجاحها (٥) أول الكلام وتأوله فسره .

عندك بحجّتى ، فأَغنانى عن توكيد الأَيمان على حُسْن نِيَّتِى ، وإن تـأَولته على أَحاق(١) بى لائمتك(٢) وحبسنى على أَسوإِ حال عندك . وقد أَتيتنى معترفاً بالزّلة ، مُسْتكيناً(٣) للمَوْجِدَة(٤) عائذاً بالصفح والإقامة ، فإن رأيت [أَن] تُقِرّ عَيْناً قرت بنعمتك عندى ، ولا تسلبنى منها ما أَلبستنى ، وأَن تقتصر من عقوبتى على المكروه الذى نالنى بسبب عتبك علىّ ، وتـأْمُرَ بتعريفى رأيك بما يُطَامِن(٥) هلعى ، وتَسْكُن إليه نفسى ، ويَأْمَنُ به رَوْعى(٦) ، فعلت ، إن شاء الله .

وكتب البديع إلى القاسم الكَرَخى يعتذر :

يعزّ علىّ ـ أَطال الله بقاء الشيخ الرئيس ! ـ أَن ينوب فى خدمته قلمى ، عن قدمى ، ويسعد برؤيته رسولى ، دون وصولى ، ويرد شِرْعة(٧) الأُنْسِ به كتابى قبل رِكَابى ، ولكن ما الحيلة والعوائق جَمَّة :

وَعَلَىَّ أَنْ أَسْعَى وليس علىَّ إدراك النَّجَاح

وقد حضرت داره ، وقبّلت جِدَاره ، وما بى حب الجدران ، ولكن شَغفاً بالقُطَّان ، ولا عشق الحيطان ، ولكن شوقاً إلى السكان(٨) ، وحين عَدَت(٩) العوادى عنك أَمليت ضمير الشوق على لسان القلم معتذرًا إلى مولاى عن تقصير وقع ، وَفُتُور فى الخدمة عرض ، ولكنى أَقول :

إن يكن تركى لقصدك ذنبا فكفى أَن لا أَراك عقابا

---

(١) أحاق : أنزل (٢) اللائمة : اللوم (٣) استكان : خضع ، وهو من الكون فوزنه افتعال بزيادة الالف للاشباع كما قالوا فى انظر (انظور) ويرى بعض الناس أنه من الكون وليس بوجه لان المعنى لايعنيه (٤) الموجدة : الغضب (٥) يطامن : يخفض يخفف (٦) الروع القلب وهو أيضا الفزع والخوف (٧) الشريعة والشرعة والمشرعة مورد الشاربة من الماء (٨) ألم البديع هنا بقول الشاعر :

أمر على الديار ديار ليلى
أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى
ولكن حب من سكن الديارا

(٩) منعت الموانع .

الباب الثانى

الفصل الثانى(١) فى رسائل حسن التقاضى والطلب

كتب عبد الله بن سليمان أبو العيناءِ المتوفى سنة ٢٨٢ هـ :

أنا ـ أعزّكَ الله ! ـ وعيالى زرعٌ من زَرْعك ، إن أسقيته رَاع(٢) وزكا ، وإن جفوتَه ذبلَ وذوى(٣) ، وقد مَسَّنِى منك جفاءٌ بعد بر ، وإغفالٌ بعد تعاهد ، حتى تكلم عدُوٌّ ، وشمت حاسدٌ ، ولعبت بى ظنونُ رجال كنتُ بهم لاعِباً ، ولهم مُخْرِساً :

لا تهنّى بَعْدَ أن أكْرَمْتنى وشديدٌ عادةٌ مُنْتَزَعَهْ

وكتب المرحوم عبد الخالق باشا ثروت :

إليك ـ يا من قد استأسَرَ النفوسَ بكرمه ، واسترقَّ الأحرار بجميل صُنْعه ، وأوْلى النعم والخيرات ، وأسْدى المعروف وَالمَبَرَّات ـ أرفعُ كتاباً ، تبعثه إلى ناديك العالى عواملُ الحاجة ، وتزجيه (٤) إلى ساحتك دواعى الشدة ، آملُ أن يكون تذكرة بأمرى (وَالذِّكْرَى تنفعُ المؤمنين) وتذكرةً بحالى (والله لا يضيعُ أجْرَالمحسِنِين) فقد كان سيِّدى ، رفع الله قدره وأعلى مرتبته ، وَعَدنى ـ ومثله من يتمسك من الوفاءِ بالعروة (٥) الوُثقى ، ويقطع حبل الإخلاف بسيف الوفاءِ ، ويُطرز خلعة الوعد بِوَشْى العطاءِ ـ أن يُرْسِلَ إلىَّ مِنْ خَيْرَاته وَيوليَنى من آلائه وحسناته ، ويضاعف لى من مِنَنِه ، ويزيدنى من عطائه ما أشُدُّ به أزْرِى (٦) على الزَّمَان ، وَأُطَاوِلُ به نوائب الحدثان (٧) ، فقد بارزنى الدهر بسيوفه ، ورمانى

(١) والفصل الأول فى الرسائل التجارية التى أغفلناها فى كتابنا هذا لان لها مؤلفات خاصة بها فارجع اليها اذا شئت (٢) نما وزاد .
(٣) ذبل (٤) تدفعه (٥) من الحبل الوثيق المحكم (٦) ظهرى .
(٧) بفتح الحاء والدال أو بكسر الحاء وسكون الدال حوادث الدهر .

بسهامه ، وأناخ (١) علىَّ بكلاكِلِه (٢) ، وقد طال الأَمدُ (٣) على حاجتى عند سيِّدى ـ أطال الله بقاءه ! ـ حتى شاب غرَاب شبابها ، وصاحَ بجانب ليلها ، فخفتُ أَن تكون هَبَّتْ عليها ريحُ النِّسْيَان ، وعصفت (٤) بها عاصفة (٥) الْحِدثان (٦) . فكتبتُ إلى سيدى ومولاى تلك الرقعة ، أستعجلُ بها بِرَّهُ ، وأَسْتَدِرُّ بها ضَرْعَ عَطَائِهِ ، علماً بأَن التعجيل يُكَبِّر العَطية وإن كانت صغيرة ، ويُكثرها وإن كانت يسيرة ؛ فعسى أَن يكونَ قد لاحَ نجم النجاح ، وهبَّ نسيم الفلاح فيُرْسلُ إلىَّ سيدى سحاب كرمه ، ويمطرنى من غِيَاث فَضْله ، فتَرِفُّ (٧) غصون آمالى بعد ذُبُولها ، وتضحك وُجُوه مطالبى بعد عُبُوسها ، وَأَمَلى فى ذلك فسيحٌ ؛ فإِن سيِّدى من أكرم الناس نسباً وأَشْرَفهم حسباً ، ومثله جديرٌ (٨) بحفظ العهد وإنجاز الوَعْد . فإن رأَى سيدى أن يخفف ثقل الحاجة عَنِّى ، ويَرُدَّ ما سلبه الدَّهْر مِنِّى بقَطْرَةٍ من بحر عطائه ، وَمِنَّةٍ (٩) من بعض آلائه (١٠) ، ويُجبرَ ما كسرَهُ الفقرُ من جَنَاحى ، وَيَرُدَّ عَنِّى النوائب لاتفتأ (١١) تتوالى ، عقدتُ لسانى على مدحه ، ووقفت نفسى على شكره ، فَيُحْرِزَ من الله أجرًا جزيلاً ، ومنى شكرًا جميلاً ، إن شاءَ الله بمنه وكرمه .

وكتب المرحوم أحمد بك رأفت :

السيد الكامل ـ أدام الله علاءَهُ ، وأَطال بقاءَهُ ، وجعله مَوْئل (١٢) الكرم ، وَمُسْدِى النعم ـ قد غمرنى بنعمائه ، وطوقنى بآلائه ، حتى قصرتُ حَمْدِى عليه ، وأمسكت لسانى عن الشكر إلا إليه ، وكان من مِنَنِهِ علىّ وأياديه البيضاء لدى أَن

---

(١) مال (٢) مصائبه (٣) الغاية (٤) اشتدت (٥) الريح
(٦) حوادث الدهر (٧) تتلالا (٨) حقيق (٩) نعمة (١٠) آلائه: أفضاله (١١) تستمر (١٢) ملجأ .

وعدنى يُقلِّدُنى فى أَول العام وظيفةً عالية ، ومرتبة سامية ، فاخضلَّ (١) رَوضُ الأَمل بعد ذبوله ، وبزغ (٢) كوكبُه بعد أُفوله (٣) واتسع نطاقه (٤) واستبشرَ القَلبُ بنيل أُمْنِيته ، والحصول على طِلْبته . واشتدَّ أَزْرِى (٥) على مقارعة كتائب (٦) الزمان ، وقَوى جنانى على صد جُيوش الحدثان ؛ وما زالت بى الأَيام حتى حان أَوَّلُ العام ، وما تحقَّقَ الوعدُ ، أَو أُوفِىَ العهْدُ . ومثل السيِّد من إذا وعد وَفَّى ، أَو تعهد أَوفى :

أَوَفِ دين ذِى المعروف يجمُلُ أَنَّنى ... تنوءُ بى البُؤسى ويُثقِلُنى العُسرُ
وأَنت الذى أَعطى المكارم حقها ... ولم يحك جَدْواك السّحاب ولا البَحْرُ
فعجِّل فخيرُ البرِّ يُحمد عاجلاً ... وأَوْف فوعد الحر دِين به الحرُّ

هذا ؛ ولكننى رجعت وحكَّمت العقل ، فعذرتُ السيد ، وحملتُ ذلك على أَنه إنما لم يعجِّل بإِنجاز وعده ، وإِيفاءِ عهده ، إلا لتقليد عبده وظيفةً أَسمى ومرتبةً أَعلى ، علهُ يستدرِك ما فات ، ويُحسنُ إلى عبده فيما هُو آت .

وكتب الفاضل عبد العزيز بك محمد :

عهدى بالسيد الجليل ــ أَدامه الله مصدراً للمكارم تَشْتَقُّ منه صفاتها ، ومظهراً للفضائل تَتجلى فيه آياتها ، سبَّاقاً إلى غايات المجد دَرَّاكا لمطالب الحمد ، أَريحيًّا (٧) لا يصبو (٨) إلا إلى إسداءِ المنن (٩) ، جواداً لا يطمع طرفه فى بث عوارفه إلى ثمن ، ما أَمَّه (١٠) أَسيرُ فاقة (١١) إلا وأَلفى (١٢) لديه كهفاً منيعاً ؛ وجاهاً رفيعاً ، وما قصدَهُ ذو حاجةٍ إلا وصدر (١٣) عن مورد (١٤) فضله

---

(١) صار نديا (٢) طلع (٣) غيبته (٤) ثوبه (٥) ظهرى
(٦) الجيوش (٧) يرتاح للعطاء (٨) لا يميل (٩) احسان
(١٠) قصد (١١) فقر (١٢) وجد (١٣) رجع (١٤) مكان الورود .

شادياً (١) بثنائه ، معلناً بولائه . وإن لى إلى السيّد حاجة إن لم يُسعف بقضائها فياحسرة نفسى وطول شقائها . وليست هذه بأول مرة استمحت (٢) فيها عالى مُروءته ، واستمطرت صيِّبَ (٣) هِمَّته ، فإنه طالما طوَّقنى قلائد نعمه ، وأرسل علىَّ مِدرار (٤) كرمه ، فليجر فى هذه أيضاً عادته ويقابلنى بما عوّدنى من كرامته . ومعاذ الله أن أسأله ما ليس فى وسعه ، أو أن أستقضيه شيئاً يحرصُ على مَنعه . ولكننى :

أُريدُ بسطةَ كفٍّ أستعين بها ... على قضاءِ حقوق للعُلَى قِبَلِى

والذى يكفل لى البسطة : أن يقلدنى سيدى وظيفة مناسبة لحالتى ، حتى تكون لى درعاً أتقى بها مهانة الفقر ، وسيفاً أكفُّ به عوادى الدهر ، ومالى والإقسام عليه فى إنالتى هذه البغية ، بنفيس وقت قضيته فى خدمة العلم ، واقتناء أبكاره ، وطويل عناء تحملته فى مزاولة (٥) الأدب واكتشاف أسراره ، ونفس ارتاضت (٦) بالفضل ، وآثرت (٧) غصة الفقر على منَّة البذل ، وله من سنيات (٨) الفضائل (٩) وعليات الفواضل (١٠) وجليات المآثر ، وجليلات المفاخر ـ ما لو أقسم به عليه فى إنالة أعز المطالب ، لألزمه كرم سجاياه برّ ذلك القسم ، وإجابة دواعى الهمم ، وإنك لفاعل إن شاء الله تعالى .

وكتب فقيد الأدب حسن افندى توفيق العدل ، المتوفى بلندن سنة ١٣٢٢ للهجرة :

كتابى إلى ربّ النعماءِ ، واليدِ البيضاء ، وقد أصبحت كما قال الحريرى :

---

(١) مترنما (٢) سأله العطاء (٣) السحاب (٤) مابدربالمطر
(٥) معاناته (٦) تمرنت (٧) اخترت (٨) عاليات (٩) جمع فضيلة . وهى الدرجة (١٠) جمع فاضلة ، وهى النعمة الجليلة .

«خاوِىَ(١) الوفاض(٢) بادى(٣) الإنفاض(٤) ، لا أَملك بُلْغة(٥) ، ولا أَجد فى جرابى مضنة »(٦) ـ قد التوى علىّ أَمرى ، وثقل من حاجتى ظهرى ومدّ الاحتياجُ إلىّ أَطنابه(٧) ، وسرْبلنى(٨) الافتقار إهابه(٩) ، والدنيا مكدرة بأَحداثها(١٠) وقصُورها منغصةٌ بإِحداثها(١١) نعيمها يصفو(١٢) ولكن لا يصفو. وأَنت ـ كما أَعلم ـ مفرِّج كُرْبتى ، وَمُنقذى مِن شدتى ، بطُرفة(١٣) من طرف رِفدك(١٤) ، ولمحةٍ من لمحات برِّك(١٥) فإن استدرَرْت(١٦) حلوبة(١٧) مالك ، فقد لاذ غيرى بجاهك ، ما يمت(١٨) غيرَك . وكيف يقصد النهر ، من جاور البحرَ ، ويحتاجُ إلى النجم من يسرى فى ضوءِ البدر ؟ فأَستهز عطف(١٩) جودك وأَستمطرُ سحاب كرَمك . كيف لا وأَنت قبلة المعروف ! وملاذ الملهوف ! إليك تُشد الرِّحال ، وبك تُناط الآمال ، أَولياؤك منك فى ظل ممدود ، وهناءٍ وسعود . أَفأَنت الشمس عَمَّت بالإِشراق ؟ ! أَو الغيث وَالىَ الاندفاق ؟ ! ـ لكن :

مَن قاسَ جدواك يوماً بالسحب أَخطأَ مدحك
فالسحبُ تعطِى وتبكى وأَنت تعطى وتضحك

نسَب الكرم بك عريق ، وروض المجد أَنيق ، أَصل راسخ ، وفرع شامخ ، تهتز للمكارم اهتزاز الحسام ، وتثبت أَمام الشدائد بثغر بسام :

تراهُ إذا ما جئتهُ متهللا كأَنك تعطيه الذى أَنت سائله

حكمت الآمال فى أَموالك ، واستعبدت الأَحرار بفعالك ، ينابيع الجود من أَملك تتفجر ، وربيع السماح بك ضاحك لا يضجر ، فلا زلت

---

(١) خالى (٢) بكسر الواو جراب الزاد (٣) ظاهر (٤) فناء الزاد والمال (٥) بضم الباء المؤنة القليلة (٦) انتهى كلام الحريرى (٧) حبال الخيمة (٨) ألبسنيه قميصا (٩) جلدة (١٠) مصائبها (١١) حدوثها (١٢) يكسو (١٣) بنعمة (١٤) عطائك (١٥) احسانك (١٦) استحلبت (١٧) ما تحلب (١٨) ما قصدت (١٩) جانب

مولاى ممتَّعًا بشرف سجاياك وشيمك ، مستمدًّا الشكر من غِرَاس نعمك ، ولا زالت الأَنام تنتفع بتلك الشيم وتجنى ثمار ذلك الكرم ، ودمتَ للمكارم بدْرَ تِمٍّ لا يناله خسوف ، وشمس فضلٍ لا يَلْحَقُهَا كسوف ، أَطال الله لك البقاء ، كتطول يديك بالعطاءِ ، آمين .

استمناح رجل لعبدالملك بن مروان

وَفَدَ رجلٌ من بَنِى ضَبَّة على عبد الملك بن مَرْوَان فقال :

والله مَا نَدْرِى إذا ما فاتَنَا طَلَبٌ إِليكَ من الذى نَتَطَلَّبُ ؟
فلقد ضَرَبْنَا(١) فى البلاد فلم نَجِد أَحدًا سِوَاكَ إلى المكارِم يُنْسَبُ ؟
فاصْبر لعاداتنا التى عوَّدتنا أَوْلَا ، فأَرشدنا إلىمَنْ نذهبُ ؟

فقال عبد الملك : إلىَّ ! إلىَّ ! وأَمر له بأَلف دينار ، ثم أَتاهُ فى العام المقبل فقال :

يَرُبُّ(٢) الذى يأْتى من الخير أَنه إذا فعلَ المعروفَ زاد وتَمما
وليس كبانٍ حينَ تَمَّ بناؤهُ تَتَبَّعَه بالنقْض حتى تَهَدّما

فأَعطاه أَلفى دِينار . ثم أَتاه فى العام الثالث فقال :

إذا استمطروا كانوا مَغَازِير(٣) فى الندى يَجودُون بالمعروفِ عودا على بَدْءِ

فأَعطاه ثلاثة آلاف دينار .

---

(١) ضرب فى الارض سافر (٢) رب : زاد وأصلح (٣) أغزر المعروف جعله غزيرا . والمغازير لا يكون الا جمعا لمغزار أو مغزير من صيغ المبالغة ولم أجدهما فى اللسان والقاموس ، وفى المخصوص سحابة مغزار : غزيرة فيكون جمعا لمغزار (حتا) .

استمناح العتابى لاحد أصدقائه

كتب كُلْثُوم(١) بن عمرو العَتَّابى إلى صديق له :

أَمَّا بَعْدُ ـ أَطال الله بقاءَك ، وجعله يمتد بك إلى رضوانه ، وَالْجنَّة ـ فإنك كنت عندنا رَوْضَةً من رياض الكَرَم ، تبتهج النُّفُوس بها ، وتستريح القلوب إليها ، وَكُنَّا نُعْفِيها من النُّجعة(٢) استتماماً لزَهْرَتها ، وشفقة على خُضْرَتها ، وادّخاراً لثمرتها ، حتى أَصابتنا سَنَةٌ كانت عندى قطعةً من سِنِى يوسف ، واشتد علينا كَلَبُها(٣) ، وغابت قِطَّتَهَا وكذبتنا غُيُومُها ، وَأَخْلَفَتْنا بُرُوقُها ، وفقدنا صالح الإخوان فيها ، فَانْتَجَعْتُك ، وأَنا بانْتِجَاعِى إياك شديد الشَّفَقَة عليك ، مع عِلمى بأَنك موضع الرَّائد(٤) ، وأَنك تُغَطِّى عين الحاسد ، والله يعلم أَنى ما أَعُدُّك إلا فى حومة(٥) الأَهل .

واعلم أَن الكَرِيم إذا استحيا من إعطاءِ القليل ولم يُمكنه الكثير لم يُعْرَف جودُه ولم تَظهر هِمّته ، وأَنا أَقول فى ذلك(٦) :

إذا تَكَرَّمْت عن بذل القليل ولم ... تَقْدِر على سَعَةٍ لم يَظْهَر الجودُ
بُثَّ النَّوَال ولا تمْنَعك قِلَّتُه ... فكلّ ما سَدَّ فقراً فهو محمود

قيل : فشاطره جميع ماله .

---

(١) من سلالة عمرو بن كلثوم صاحب المعلقة ، وكان شاعرا مترسلا بليغا مطبوعا متصرفا فى فنون الشعر من شعراء الدولة العباسية ومن شعره فى الشكر :

فلو كان للشكر شخص يبين ... اذا مـا تأمله الناظر
لمثلته لـك حتى تـراه ... لتعلم أنى امرؤ شاكر

وله مع الرشيد والمأمون والبرامكة أخبار ونوادر .

(٢) النجعة طلب الكلأ فى موضعه (٣) الكلب : القحط وبلاء الشتاء ومرض يصيب الكلاب (٤) الرائد الطالب (٥) الحومة هنا الجماعة والطائفة (٦) كذا ذكر القالى فى أماليه وقد حذفنا من روايته ثلاثة أبيات قليلة الاتصال بالغرض . هذا والمعروف أن هذه الابيات لشاعر يسمى حماد عجرد أو لبشار بن برد لا للعتابى وتبعة هذا على القالى .

استمناح أعرابية لعبد الله بن أبى بكرة

دخلت أعرابية على عبد الله بن أبى بَكْرَة (١) بالْبَصرة ، فوقفت بين السماطَيْنِ(٢) ، فقالت : أصلح الله الأمير وَأَمْتَع به ـ حَدَرَتْنَا إليك سنةٌ اشتدَّ بلاؤها ، وانكشف غطاوها ، أقُودُ صبية صغاراً ، وآخرين كباراً ، فى بلدة شاسعة تخفِضُنا خافضة ، وتَرْفَعُنا رافعة ، لملمَّات من الدهر أَذْهَبْنَ لحمى وبَرَين عظمى ، وتركْتنى وَالِهَةً (٣) أدُور بالحضيض ، وقد ضاق بىَ البلدُ العريضُ ، فسأَلْتُ فى أحياءِ العرب : مَنْ الكاملة فضائله ، المُعْطِى سائله ، الكافى نائله ؟ فدُلِلْتُ عليكَ ـ أصلحك الله تعالى ! ـ وأنا امرأة من هَوَازن (٤) ، قد مات الوالد ، وغاب الرَّافِدُ ، وأنتَ بعد الله غِيَاثى ومنتهى أملى ، فاصنع بى إحدى ثلاث خصال : إمَّا أن تردَّنى إلى بلدى أو تحسن صَفدى(٥) ، أو تُقِيمَ أَوْدِى(٦) .

فقال : بل أَجمعُهُنَّ لك ، ولم يزل يُجْرِى عليها كما يجرى على عياله حتى ماتت .

استمناح حكيم فارسى للمهلب

قال الهيثم بن عَدِى : قدم حكيم من حكماءِ أهل فارس على المُهلَّب بن أَبى صُفْرة فقال : ـ أصلح الله الأَمير ! ـ ما أَشْخَصَتنى الحاجَةُ ، وما قَنَعْتُ بالمقام ، ولا أَرضى منك بالنصف إذ قمتُ هذا المقام . قال : ولِمَ ذلك ؟ قال : لأَن الناس ثلاثة : غنىٌّ ، وفقير ، ومُسْتزيد . فالغنىُّ من أُعطى ما يستَحِقه ، والفقيرُ من أُمْنِعَ حقه ، والمستزيدُ الذى يطلبُ الفضلَ بعد الغِنَى ، وإنى نظرْتُ

---

(١) هو ابن أخى زياد ابن أبيه (٢) السماط الصف (٣) الوالهة والولهى الشديدة الحزن (٤) هوازن قسم من قيس وعبد الله بن أبى بكرة نسبه فى ثقيف وهم من هوازن فهى تريد أن تميله بعاطفة القرابة (٥) الصفد : العطاء (٦) الاود : الاعوجاج .

فى أمرك فرأيتُ أنك قد أدَّيت إلىَّ حقى ، فتاقت نفسى إلى استزادتك ؛ فإن منعتنى فقد أنْصفْتنى وإنْ زدْتنى زادت نعمتك علىّ . فأَعْجب المهلب كلامُه وقضى حوائجه .

تلطف رجل من أهل الشـام فى استمناح المنصور

قدم رجل من أهل الشام على أبى جعفر المنصور فتكلم كلاماً حسناً ، فقال له أبو جعفر : حاجتك ؟ فقال : يُمْلِيك الله يا أمير المومنين . قال : حاجتك ، فإنه ليس كلَّ ساعة يمكنك هذا ولا تُؤْمر به . فقال : والله ما أستقْصر عمرك ، ولا أخَاف بُخلك ، ولا أغتنم مالك ، وإن سُؤَالك لشرَفٌ ، وإن عطاءك لزَيْنٌ . وما بامرئٍ بَذل وجهه إليك نقْصٌ ولا شَيْنٌ . فأمر له المنصور بمنحة سنيَّة .

وقد ألَمَّ الرجل فى أكثر معانيه بقول أُمَية بن أَبى الصَّلت يستمنح عبد الله بن جُدْعان(١) القرشى :

عطَاوك زَيْنٌ لامرئٍ إنْ حبوتهُ ... ببذل وما كلّ العطاء يَزِينُ
ولَيْسَ بشيْن لامرئٍ بذل وجهه ... إليك كما بعض السُّؤال يشِين

* * *

ومن ألطف الاستمناح قول أُمية يَخَاطب ابن جُدْعان أَيضاً :

أأذكر حاجتى أَم قد كفانى ... حياؤك إن شيمَتك الحياءُ
وعلمك بالأُمور وأنت قَرم ... لك الحسب المهذَّب والسَّناءُ (٢)
كريم لا يُغَيِّره صباح ... عن الْخُلق الجميل ولا مَسَاءُ

---

(١) عبد الله بن جدعان من تيم رهط سيدنا أبى بكر الصديق ، وهو جواد مشهور . وكان أمية مداحا له منقطعا اليه ، وتوفى أمية بين يدى الاسلام .

(٢) القرم : الفحل والسيد ، والسناء : الشرف والسنا : الضوء .

تُبَارِى الرِّيح مَكْرُمة ومَجْداً إذا ما الكلبُ أَجْحَره الشِّتَاءُ(١)
إذا أثنى عليك المرءُ يوماً كفاه مِن تَعَرُّضه الثناءُ(٢)

استمناح عبد العزيز بن زرارة لمعاوية

قال العُتْبِى : وفدَ عبدُ العزيز بن زرارة على معاوية ، فلما أَذِن له وقف بين يديه وقال : يا أَمير المؤمنين ! لم أَزل أَهُزُّ ذوائب(٣) الرحال إليك ، إذ لم أَجد مُعَوَّلا إلَّا عليك ، أَمْتَطى الليل بعد النهار ، وأسم(٤) المجاهل بالآثار يَقُودُنى إليك أَمَل وتَسُوقنى بَلْوَى ، والمجتهد يُعْذَر ، وإذا قد بَلَغتك فقطنى(٥)

فقال معاوية : احْطُط عن راحلتك .

* * *

ولما وَلّى الخليفةُ المُهتَدِى سُليمانَ(٦) بن وَهْب وزارته قامَ إليه رجلٌ من ذوى حُرْمته فقال : ـ أَعزَّ الله الوزير ! ـ أَنا خادمك المؤمل لِدَوْلَتِك ، السعيد بأَيامك ، المنطوى القلب على وُدّك ، المنشُور اللسان بمدحك ، المُرْتَهَن بشكر نعمتك ، وقد قال الشاعر :

وَفَّيْتُ كلَّ صديق وَدَّنى ثمناً إلَّا مُؤمل دوْلاتى وأَيَّامى
فإنَّنى ضامن أَن لا أُكافئَه إلا بتسويغه فضلى وإنعامى(٧)

وإنى لكما قال القيسى(٨) : مازلت أَمتطى النهار إليك وأستدل بفضلك

---

(١) أجحره : ألجأه (٢) يقول : انك لا تجشم المحتاج مئونة السؤال لانك تستغنى بثنائه عن استجدائه (٣) الذوائب : جمع ذؤابة وهى الجلدة المتعلقة على آخر الرحل (٤) وسم الارض كوعد : ترك فيها أثرا (٥) قطنى اسم الفعل بمعنى يكفينى ومثلها قدنى (٦) سليمان ابن وهب من كبار وزراء الدولة العباسية ، وقد تقدم ذكر ابنه عبيد الله وحفيد القاسم . توفى سليمان سنة ٢٧٢ هـ (٧) سوغه : أناله (٨) يريد بالقيسى عبد العزيز بن زرارة المتقدم ذكره لانه من بنم عامر ثم من قيس . وقد ذكر عبارته بمعناها لا بلفظها .

عليك ، حتى إذا اجتن الليل فغض البصر ، ومحا الأثر ، قام الرجاءُ يدنى سائر أملى ، والنفس راغبة والاجتهاد عاذر ؛ وإذ قد بلغتك فقِدْنى .

فقال سليمان : لا عليك ، فإنى عارف بوسيلتك ، مُحتاج إلى اصطناعك وكفايتك ، ولست أُؤخِّرُ عن يومى هذا توليتكَ مايحسُنُ عليك أثره ، ويطيب لك خبرُه .

وكتب رجل من أهل البصرة إلى أخ له :

أما بعد ، فإنه يسهل عَلَىَّ طلب الحاجة أمران فيك ، وأمران لى ، وأمر من قبل الله وبه تمامها . فأَمَّا اللذان فيك فاجتهادك فى النُّجْح ، ومبالغتك فى الاعتذار ، وأَمَّا اللذان لى فإنى أَضيق عليك بِعُذْرِى ، ولا أَصون عنك شكرى ، وأما الذى من قِبَلِ الله عز وجل فإيمانى بأَن كل مقدر كائن ، والسلام .

وكتب المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى :

أنا إن سأَلتك حاجتى ــ أعزك الله ! ــ وبسطت إليك يد رجائى فقد طرقت باب المكارم ، واستمطرت غيث المراحم ، ورجوت واحد الدهر هِمَّةً وحَزْماً ، ونادرة الوجود كَرَماً وفضلاً . فإن أنجزتها فليست أُولى الهمم ، ولا وَاحِدة النعم ، فلكم سبقت إلىَّ منك أيادٍ تخرس دونها أَلْسِنة الشكر ، وتضيقُ بها جرائدُ(١) الحصْرِ ؛ ولقد مثلت ــ أيدك الله ! ــ بين [أَن] أَسْتَشفعُ إليك بِذَوِى الجاه عندك ، والزلْفى(٢) لديك ، وبين(٣) أَن أَكِلُ ذلك إلى كَرَمِكَ وفضلك وما طبعت عليه نفسك الشريفة من خلال الخير وسجايا البر ، فرأَيت أَن الثانية بك أَحْرَى ، وبفضلك أَجْدَر ، والسلام .

---

(١) الجرائد : جمع جريدة وهى السعفة وكانت يكتب فيها ، فالمراد الصحائف (٢) الزلفى : القربة والمنــزلة . (٣) كرر الكاتب بين توكيدا ، وهو جائز مسموع ، وأنا أستحسنه اذا أطال ما قبل المعطوف كما هنا .

استمناح الصابىء لاحد الرؤساء

وكتب أبو إسحاق الصابىء(١) إلى بعض الرؤساء :

قد جرت العادة ـ أطال الله بقاء الأمير ! ـ بالتمهيد للحاجة قبل مَوْرِدها وإسْلَاف(٢) الظنون الداعية إلى نجاحها . وسالك هذه السبيل يُسىءُ الظن بالمسئول ، فهو لا يلتمسُ فضله إلا جزاءً ، ولا يستدعى طَوْلَه إلا قضاءً . والأمير بكرمِهِ الغريب ، ومذهَبِه البديع ، يؤْثر أن يكون السلف له الابتداءُ منه ، ويوجبُ على المهاجم برغبته إليه حق الثقة به . فالحمدُ لله الذى أفْرَدَهُ بالطرائق الشريفة ، وَوَحَّدَه بالخلالِ المنِيفَة ، وجعله عين زمانه البصيرة ، ولَمْعَتِه (٣) الباقية المنيرة .

وكتب محمد بن عَيَّاد إلى جعفر بن محمد وزير المعتز وكان يتقَرَّب إليه :

ما زلْتُ ـ أيدك الله تعالى ! ـ أَذُمُّ الدهر بِذَمِّكَ إياهُ ، وأَنتظرُ لنفسى ولك عُقْباهُ ، وأتمنى زوال من لا ذَنْبَ له ، إلى عاقبه محمودة تكون بزوال حاله وأترك الإِعْذَار(٤)فى الطلب على الاختلال(٥) الشديد ضَنًّا بالمعروف عندى إلَّا عن أهله ، وَحُبًّا لرجائى إلا عن مستحقه .

ومن أرق الاستماحة (٦) ما كتبه عبيد بن طاهر إلى سليمان بن وهب :

أَبى دهرنا إسعافنا فى نفوسنا وَأَسْعَفَنا فيمن نحِبُّ ونُكْرِمُ

---

(١) الصابىء : هو أبو اسحاق ابراهيم بن هلال كاتب ديوان الانشاء عن الخليفة وعن عز الدولة بن بويه ، وهو معدود من رجالات الكتابة ، توفى عام ٣٨٤ هـ (٢) الاسلاف : التقديم (٣) اللمعة : البقعة والقطعة من الجسد تبرق (٤) أعذر : بالغ (٥) الاختلال : الاحتياج (٦) الاستماحة : الاستمناح ..

فقلتُ له : نُعْمَاك فيها أَتمها وَدَعْ أَمْرَنَا إن المُهِم المُقَدَّمُ

فأَعجب سليمان بلطف طلبه فى تهنئته وقضى حوائجه .

وقال أعرابى لرجل : ما اتهمت حسن ظنى بك ، منذ توجه رجائى نحوك ، ولا قعدت بجد قاتل(١) باعتمادى عليك ، ولا استدعتنى رغبة عنك إلى من سواك ، ولا أرانى الاختيار غيرك عوضاً منك .

وكتب البديع الهمذانى فى بابه إلى بعض أَصحابه :

لك ــ أَعزك الله ! ــ عادة فضل فى كل فضل ، ولنا شبه مقت فى كل وقت ، ولعمرى أن ذا الحاجة مقيت(٢) الطلعة ، ثقيل الوطأَة ، ولكن ليسوا سواء .

الفصل الثالث : فى رسائل الشكر

كتب أَبو منصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

الشكر ترجمان النِّيَّة ، ولسان الطوية ، وشاهد الإخلاص ، وعنوان الاختصاص ، عندى من إنعامه ، وخاصّ برّه وعامّه ، ما يستغرق منه الشكر ، ويستنفد قوة النشر ، شكر الأَسير لمن أَطلقه ، والمملوك لمن أَعتقه ، شكر كأَنفاس الأَحبار ، أَو أَنفاس الرياض غِبَّ الأَمطار .

وكتب الحسن بن وهب المتوفى سنة ٤٨٢ هـ :

ومن شكركَ على درجة رفعتُه إليها ، أَو ثروة أَقدرته عليها ، فإن شكرى لك على مهجة أَحييتها ، وحشاشة أَبقيتها ، ورمق أَمسكت به ، وقمت بين التلف وبينه ، فلكل نعمة من نعم الدنيا حد تنتهى إليه ، ومدى تقف عنده ، وغاية من الشكر لا يسمو إليها الطرف ، خلا هذه النعمة التى فاقت الوصف وأَطالت الشكر وتجاوزت قدره .

---

(١) الجد : الحظ . والقاتل المخطىء (٢) المقيت والممقوت : البغيض والمكروه .

وأنت من وراءِ كل غاية : رددت عنا كيد العدو وأرغمت أنف الحسود فنحن نلجأُ منك إلى ظل ظليل ، وكنف(١) كريم ، فكيف يشكر الشاكر ؟ وأين يبلغ المجتهد ؟ !

وكتب الأَمير أَبو الفضل الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ :

فأَما الشكر الذى أَعارنى رداءه ، وقلدنى طوقه وسناءه(٢) ، فهيهات أن ينتسب إلا إلى عادات فضله وإفضاله ، أَو يسير إلا تحت رايات عرفه (٣) ونواله(٤) ! وهو ثوب لا يحلى إلا بذكر طرازه واسم حقيقته ، ولسواه مجازه ، ولو أنه ـ حين ملك رِقِّى بأَياديه ، وأُعجز وسعى عن حقوق مكارمه ومساعيه ـ خَلّى لى مذهب(٥) الشكر وميدانه ، ولم يجاذبنى زمامه وعنانه ـ لتعلقت فى بلوغ بعض الواجب بعروة طمع ، ونهضت فيه ولو على وهن وظلع(٦) ، ولكنه يأْبى إلا أَن يستولى على أَمد الفضائل(٧) ذرى (٨ الغوارب (٩) منها والكواهل(١٠) ، فلا يدع فى المجد غاية إلا سبق إليها فارضاً(١١) ، وتخلف سواه عنها حسيراً(١٢) ساقطاً ، لتكون المعالى بأَسرها مجموعة فى ملكه ، منظومة فى سلكه ، خالصة له من دعوى القسم وشركه(١٣) .

وكتب أُستاذى الشيخ محمد عبده (١٤) يشكر للمرحوم حافظ إبراهيم تعريبه كتاب البؤساء :

لو كان لى أَن أَشكرك لظن بالغت فى تحسينه ، أَو أَحمدك لرأْى لك فينا

---

(١) جانب (٢) رفعته (٣) معرفة (٤) عطائه (٥) ريق (٦) كلاهما الضعف (٧) يعلو (٨) أعالى (٩) جمع غارب ما بين الظهر والعتق (١٠) جمع كاهل ما بين الكتفين (١١) سابقا (١٢) كليلا (١٣) مشاركته (١٤) هو الاستاذ الامام مفتى الديار المصرية سابقا ولد سنة ١٢٥٨ هـ وتوفى سنة ١٣٢٣ هـ وكتب هذا المكتوب شكرا لمترجم كتاب البؤساء وقد نظم قصيدة أثناء مرضه ومنها :

ولست أبالى أن يقال محمد ... أبل أو اكتظت عليه العمائم
ولكن دينا قد أردت صلاحه ... أحاذر أن تقضى عليه العمائم

أبدعتَ فى تزيينه ـ لكان لقلمى مطمعُ أن يدنو من الوفاءِ بما يُوجِبُهُ حقُّك ، ويجرى فى الشكر إلى الغاية كما يطلبُه فضلُك ، لكنك لم تقف بعرفك (١) عندنا ، بل عمَّمت به من حولنا ، وبسطتَهُ على القريب والبعيد من أبناءِ لُغتنا ، زَفَفت إلى أهل اللغة العربية عذراءَ من بنات الحكمة الغربيَّة ، سحرت قومها وملكت فيهم يومها ، ولا تزال تُنبِّه منهم خامدًا وتهز فيهم جامدًا ، بل لاتنفك تُحيِي من قلوبهم ما أماتته القسوة ، وتقوِّم من نفوسهم ما أعوزت فيه الأُسوة (٢) حكمة أفاضها الله على رجلٍ منهم ، فهدَى إلى التقاطها رجلاً منا ، فجردها من ثوبها الغريب ، وكساها حلة من نسيج الأَديب ، وجلاها للناظر ، وحلَّاها للطالب ، بعد ما أصلح من خَلقها وزان من معارفها ، حتى ظهرت مُحبَّبة إلى القلوب ، شيقة (٣) إلى مؤانسة البصائر ، تهشُّ (٤) للفهم وتبش (٥) للطف الذَّوق ، وتسابق الفكر إلى موطن العلم ، فلا يكاد يلحظها الوهم ، إلا وهى من النفس فى مكان الإلهام .

حاول قومٌ من قبلك أن يَبلغُوا من ترجمة الأَعجم مبلغك فوَقفَ العجز بأَغلبهم عند مبتدإ الطريق ، ووصل منهم فريق إلى ما يحبُّ من مقصِدِه ، ولكنه لم يُعن بأَن يعيد إلى اللغة العربية ما فقدت من أَساليبها ، ويردَّ إليها ما سلبهُ المعتدونَ عليها من متانة التأْليف ، وحسن الصياغة ، وارتفاع البيان فيها إلى أَعلى مراتبه .

أَما أَنت ، فقد وفيت من ذلك ما لا غاية لمزيد بعده ، ولا مَطمَع لطالب أَن يبلغ حدَّه ، ولو كنتُ ممن يقول بالتَّناسخ ، لذهبتُ إلى أَن روح «ابن المُقفع» كانت من طيِّبات الأَرواح ، فظهرت لك اليوم فى صورة أَبدع ، ومعنى أَنفع ،

---

(١) المعروف (٢) بالكسر والضم : القدوة (٣) لطيفة (٤) بفتح التاء : تصل اليه بسهولة (٥) بفتح الباء : من البشاشة .

ولعلك قد سننت بطريقتك فى التَّعريب سنة يعمل عليها من يحاوله بعد ظهور كتابك ويحملها الزمان إلى أبناءِ ما يُستقبَلُ منهُ ، فتكون قد أَحسنت إلى الأَبناءِ كما أَجملت فى الصُّنع إلى الآباءِ ، وحكمت للغة العربية أن لا يدخلها بعدُ من العُجْمة سِوَى ما هو فى أَسماءِ (الأَسماء الأَماكن والأَشخاص ، لا أَسماء المعانى والأَجناس) ومثلى من يعرف قدرَ الإحسان إذا عمَّ ، ويعلى مكان المعروف إذا شمل ، ويتمثل فى رأيه الحكيم العربى أَبى العلاءِ المعرى :

ولو أَنى حُبيتُ الخلد فرْدًا   لما أَحببتُ بالخلد انفرادا

فلا هَطَلَتْ علىَّ ولا بأَرضى   سحائبُ ليس تنتظم البلادا

فما أَعجز قلمى عن الشكر لك ! وما أَحقك بأَن ترضى من الوفاءِ باللقاءِ !

وكتب أَيضاً فى الشكر مع توثيق المودة إلى أَصحابه :

لك فى قلوبنا من المودة ما يزكيه سنَاؤك ، وفى مناطقنا من الحمد ما يوجبه كمالُك ، وفى صدورنا من الإِجلال ما يرفعه بهاؤك !

وما بيننا من المودّة لا تحدُّه مدة ، ولا تخلق جدَة ، نعيذه من حاجة للتجديد واستدعاءٍ للمزيد ، فلا المواصلةُ تربيه ، ولا المجاهلةُ تُوهيه ـ نعم إنّ ما يحفظُ لك فى الأَنفس هو تجلى فضلك ، ومثالُ علائك ونبلك ؛ وذلك الخالد بخلود الأَرواح ، والباقى فى تفانى الأَشباح .

وبعدُ ـ فقد تلقيت منك كتاباً يَبُوح بسرّ المحبَّة ، وينشرُ طىَّ الصداقة ، فيه تبيان وُجدانك مما وجدنا ، وتأثرك على ما فقدنا ، فكان نبأً عما نعلمُ ، وقضاء بما نحكم ، ولكن شكَرْنا لك فضلَ المرَاسلة ، وأَريحيَّة المجاملة ، والله يتولى إيفاءَك ، مثوبةً تكافئُ وفاءَك .

وكتب أَيضاً فى الشكر لآخر :

لوكان فى الثناءِ ، وملازمةِ الدُّعاءِ ، وحفظِ الجميل ، والقيام بالخدمةِ جهد المستطيع ما يفى بشكر من يفتح باب المحبة ، ويبدأُ بصنائع المعروف ،

لكنت والحمد لله من أقدر الناس عليه ، ولكن أنى يكون فى ذلك وفاءٌ ؟ والمحبَّة سر نظام الأكوان ! والإحسانُ قِوام عالم الإمكان ! والقائمُ على كنْهِ جميعه قيُّوم السموات والأرض! والمفتتحون لأبواب العُرف على هذه النسبة الجليلة منهُ ؛ فليس لى إلا أن ألجأْ إلى الله فى مكافأة فضيلتكم ، على ما كان منكم أيام الإقامة بينكم ، ثم أُسلى نفسى عن عجزى بما أتخيلُ أن كرمكم سيروى :

سيكفى الكريم إخاءُ الكريم ويقنع بالوُدّ منه نوالا

وبعد هذا أرجو عفوكم عن التقصير فى المبادرة إلى المكاتبة ، لأنى شغلت بما شَغَلنى عن نفسى ، ولكن زالت العوارض (والحمد لله) وفاتنى لهذا العذر تهنئتكم بالعيد ، وإنما للمؤمن فى كل يوم بربه عيد ، فنهنئكم برضا الله عنكم وتقبله صالح الأعمال منكم ، وسلامى على نجلكم ومن ينتمى إليكم .

الفصل الرابع : فى رســـائل النصح والمشورة

كتب بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

اسمع نصيحة ناصحٍ جمع النصيحة والْمِقَهْ(١)

إياك واحذر أَن تكو ن من الثقاتِ على ثقه

صدق الشاعر وأجاد ، وللثقات خيانة فى بعض الأوقات : هذه العينُ تريك السَّرَابَ(٢) شراباً ، وهذه الأُذنُ تُسْمعك الخطأَ صَوَابًا ، فلست بمعذور إن وثقت بمحذُور ، وهذه حالةُ الواثق بعينه ، السَّامع بأُذنه .

وأرى فلاناً يُكثر غشيانك(٣) وهو الدنئُ دُخْلتُه(٤) ، الرَّدىءُ جُملته ، السيءُ وصلتُه ، الخبيث كلمته ، وقَدْ قاسمتَه فى زِرِّك(٥) ، وجعلته موضع سرَّك ،

---

(١) المحبة (٢) ماتراه نصف النهار عند اشتداد الحر كالماء يلصق بالارض وهو مثل فى المخادع الـــكاذب (٣) اتيـــانك (٤) بتثليث الدال : نيته (٥) قوام القلب .

فأرى موضع غلطك فيه ، حتى أُريك موضع إتلافيه(١) : أفظاهرُه غرَّك ؟ أم باطنُه سرَّك ؟ ؟

يا مولاى : يُورِدك(٢) ثم لا يُصدِرُك(٣) ويُوقِعك ثم لا يعذرُك ، فاجتنبه ولا تقربه ، وإن حضر بابك ، فاكنُس جنابك(٤) ، وإن مَسَّ ثَوْبك فاغسل ثيابك ، وإن لَصِقَ بجلدك ، فاسْلخ إهابك ، ثم افتتح الصلاة بلعنِهِ ، وإذا استعذت بالله من الشيطان فاعْنهِ(٥) .

وكتب الإسكندر المقدونى إلى أُستاذه الحكيم أرسطو يستشيره فيما يفعله بأبناء ملوك فارس بعد أن قتل آباءهم وتغلب على بلادهم :

عليك أيها الحكيم منا السَّلام ، أما بعدُ فإن الأملاك الدائرة والعلل السماوية وإن كانت أسعدتنا بالأمور التى أصبح الناس لنا بها دائنين ـ فإنا مضطرون إلى حكمتك ، غيرُ جاحدينَ لفضلك والاجتباءِ(٦) لرأيك ، لما بلونا من إجداءِ(٧) ذلك علينا ، وَذُقنا مِن جَنَى(٨) منفعته ، حتى صار ذلك بِنُجُوعه(٩) فينا ، وترسخه فى أذهاننا ، كالغذاءِ(١٠) لنا ، فما ننفك نعوِّلُ عليه ، ونستمد منه استمداد الجداول من البحار . وقد كان مما سَبق إلينا النَّصر ، وبلغنا من النكاية فى العدو ما يعجزُ القول عن وصفه ، والشكرُ على الإنعام به ، وكان من ذلك أنا جاوزنا أرض سورية والجزيرة ، إلى أرض بابل وفارس ، فلما نزلنا بأهلها ، لم يكن إلا ريثما(١١) تلقانا نفرٌ منهم برأس ملكهم هدية ، وطلباً للحظوة عندنا ، فأمرنا

---

(١) تداركه (٢) يوصلك الى مكان ورد الماء (٣) لا يرجعك (٤) الفناء والناحية (٥) أقصده (٦) الاختيار (٧) اعطاء (٨) ما يجنى ويؤخذ من الثمر (٩) بتأثيره (١٠) بكسر الغين ما يتغذى به (١١) مقدار .

بصلب من جاءَ به وشُهْرَته ، لسوءِ بلائه وقلة ارعوائه ووفائه ، ثم أمرنا بجمع من كان هنالك من أولاد ملوكهم وأحرارهم ، وذوى الشرفِ منهم ، فرأينا رجالاً عظيمةً أجسامُهم وأحلامهم(١) ، حاضرةً ألبابُهم وأذهانهم ، رائقةً(٢) مناظرهم ومناطِقُهُمْ ، دليلاً على أن وراءَ ذلك ما لم يكن معه سبيلٌ إلى غلبتهم ، ولولا أَنَّ القضاءَ أَدالنا(٣) منهم ، وأظهرنا عليهم ، ولم نرَ بعيداً من الرأى فى أن نستَأْصل(٤) شأفتهم(٥) ، ونَجْتَثَّ(٦) أَصلهم ، ونلحقَهُمْ بمن مضى من أَسلافهم لتَسْكن القلوب بذلك إلى الأَمن من جرائرهم(٧) وبوائقهم(٨) ، فَرَأَينا أَن لا نعجل ببادرة(٩) الرأى فى قتلهم ، دون الاستظهار بمشورتك فيهم ، فارفع إلينا رأْيك فى ما استشرناك فيه صحته عندك ، وتقليبك إياه بِجَلِيِّ نظرك .

والسلام على أَهل السلام ، فليكن علينا وعليك .

فكتب أَرسطو المتوفى قبل الميلاد إلى الإِسكندر المقدونى :

إنَّ لكلِّ تُرْبة ـ ولا محالة ـ قسماً من كل فضيلة ، وإنَّ لفارس قِسْمها من النجدة والقوة ، وإنَّكَ إن تقتل أَشْرَافهم ، تُخَلِّف الوضعاءَ منهم على أَعقابهم وتورَّث سفلتَهاَ(١٠) ، منازل عليتهم ، وتغلب أَدنياءَهم ، على مَرَاتب ذَوى أَخطارهم ؛ ولم تُبتَل الملوكُ قط ببلاءٍ هو أَعظمُ عليهم من غَلَبة السفلة وذُلِّ الوجوه . واحْذَر الحذر كله أَن تُمكِّن تلك الطبقة من الغلبة ، فإنهم إن نجم منهم

---

(١) جمع حلم بكسر الحاءالعقل وبضمهاالمنام ليلا (الرؤيا) (٢)زائدة
(٣) جعل لنا الكرة عليهم (٤) نقطع . (٥) عـــداوتهم (٦) نقتلـــع
(٧) كنـــاية عن شرورهم (٨) الدواهى (٩) ما يظهر عنـــد الغضب
(١٠) بفتح السين وكسر الفاء السقاط من الناس ، وبعض العـــرب يخفف فينقل كسرة الفاء الى السين .

ناجِمٌ على جُندك وأهل بلادك ، دهمهم مالا رَوِية فيه ولا منفعةمعه . فانصرف عن هذا الرأى إلى غيره ، واعمد إلى من قبلك من العظماء والأَحْرَار ، فوزّع بينهم مملكتهم ، وألزم اسم الملك كلَّ من ولّيْته منهم ناحية ، واعقد التاج على رأسه ، وإن صغر ملكه ، فإنَّ المُتَسَمَّى بالملك لازمٌ لاسمه ، والمعقود لهُ التاجُ لا يخضع لغيره ، ولا يلبث ذلك أن يوقعَ بين كل ملك منهم وصاحبه ، تدابُرًا وتغالبًا على الملك وتَفاخُرًا بالمال والجند ، حتى ينسوا بذلك أضغانهم عليك ، وتَعود بذلك حربهم لك حَرْباً بينهم ، ثُمَّ لا يزدادُون بذلك بصيرةً إلا أحدثوا هنالك استقامة لك ، فإن دنوت منهم كانوا لك ، وإن نأَيت عنهم تعززُوا بك ، حتى يَثِبَ كلٌّ منهم على جاره باسمك ، وفى ذلك شاغلٌ لهم عنك ، وأمانٌ لأَحداثهم بعدك ـ وإن كان لا أمان للدّهْرِ ـ وقد أدّيت للملك ما رأَيْتُه حَظًّا ، وعلىّ حقًّا ، والملك أبْعَدُ رَوِية ، وأعلى عينًا فى ما استعان بى عليه .

والسلام الذى لا انقضاءَ له ولا انتهاءَ ولا غاية ولا فناءَ ، فليكن على الملك .

ومن رسالة للإمام علىّ المتوفى سنة ٤٠ هـ كرم الله وجهه :

دَعِ الإِسْرَاف مقتصدًا ، واذكر فى اليَوْمِ غدًا ، وأَمسك من المال بقدر ضرورتك ، وقدم الفضل(١) ليَوْم حاجتك ، أَتَرْجُو أن يُعْطيك الله أجر المتواضعين وأَنت عندهُ من المتكبِّرين ؟ أو تطمعُ وأنت مُتَمَرِّغ فى نعيم تمنعه الضعيف والأرملة ، أن يوجب(٢) لك ثواب المتصدِّقين ؟ وإنما المرءُ مجزىٌّ بما أَسلف(٣) وقادمٌ على ما قدم ، والسلام .

---

(١) ما فضل عندك من مال وأعمال فقدمه .
(٢) أن ومدخولها مجرور بحرف جر محذوف متعلق بتطمع .
(٣) قدمه فى سالف أيامه .

وكتب أيضاً ـ كرم الله وجهه ـ إلى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما :

أما بعد ـ فإنَّ المرءَ قد يسرُّه درك ما لم يكن ليفوتَه ، ويسوءُه فوتُ ما لم يكن ليُدْركه ، فليكنْ سرورُك بما نلت من آخرتِك ، وليكن أسفُك على ما فات منها ، وما نلت من دُنياك فلا تُكْثِرْ فيه فرَحًا ، وما فاتَكَ منها فلا تأْسَفْ عليه جزعاً ، وليكن هَمُّكَ فيما بعد الموت .

وكتب بطل الوطنية السيد عبد الله النديم المتوفى سنة ١٣١٤ هـ :

لا حول ولا قُوّة إلا (بالله) اشتبَه المراقبُ باللّاه(١) ! واستبدل الْحُلْوُ بالمرّ ، وقُدِّمَ الرقيقُ على الْحُر ! وبيعَ الدُّرُّ بالخزف! والخزُّ بالخشف(٢) ، وأظهر كل لئيم كبره ! إن فى ذلك لَعِبرة ! سَمعًا سمعاً ، فالوُشاة إن سَعَوا لا يعقلون ، ويُحِبُّون أن يُحمدُوا بما لم يفعلوا ، فكيف تشترُون منهم القار(٣) فى صفة العنبر ؟ وقد بدت(٤) البغضاءُ من أفواههم ، وما تخفى صُدُورُهم أكبر! وكيف تسمعُ الأَحبابُ لمن نهى منهم وزَجَر ؟ ولقد جاءَهُمْ من الأَنباءِ(٥) ما فيه مُزْدَجَر !(٦) عَجبْتُ لهم وقد دخلوا دارنا وهم عنها معرضون ! فلما أَحسوا بأْسنا إذا هُم منها يَركُضون فقابلوهُم بنبال الطَّرْد فى الأَعناق ، حتى إذا أَثْخَنْتُمُوهُم(٧) فشُدُّوا الوثاق(٨) ، أَيدْخلون بما لا يَنفع ، فى بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَن ترفع ! سيعلمون مقام الهبوط والعُرُوج(٩) ، «يومَ يسمعونَ الصَّيْحَةَ بالحقّ ؛ ذلك يومُ الخُروج» ويقولون إذا لم يجدُوا ملاذاً يا ويلينا قد كنَّا فى غَفْلَةٍ من هذا ! فإنهم عزموا على الإقامة مدَّة ، ولو أَرادُوا الخروج لأَعدُّوا لَهُ عُدَّة(١٠) . وأَنت عزيز العليا ، ووحيد الدنيا

---

(١) باللاهى الذى يكون ملهيا ـ وغالبا الشيطان (٢) بفتح الخاء أو بضمها الردىء من الصوف (٣) الزفت (٤) ظهرت (٥) الاخبار (٦) النهى بشدة (٧) أكثرتم القتل فيهم (٨) ما يربط به (٩) الطلوع (١٠) ما أعده الانسان لحوادث الدهر من المال والسلاح .

قد بينتُ لك فعلهم ، فَبما(١) رحمة من الله لِنْتَ لهم ، ولكنهم طمعوا فى عميم طَولك(٢) ، ولو كنت فظًّا(٣) غليظ القلب(٤) لانفضوا(٥) من حولك أتراهُم يعقلون كلامك أم يفهمون ؟ لَعَمْرُك(٦) إنهم لفى سكرتهم يعْمَهُون(٧) لهم قلوبٌ لا يدرُون بها للحسد قرارًا ، لو اطَّلعت عليهمْ لَوَلَّيْتَ منهم فرارًا . وإنى قد شيدتُ(٨) لك بقلبى حصنًا(٩) صعبًا(١٠) ما اسطاعوا أن يظهروه(١١) وما استطاعوا له نقبًا(١٢) ، نسيت بالعاذل(١٣) جميل الصوت(١٤) وأنكره ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكُرَهُ(١٥) . رُميتَ أيها العاذل بسيف الغدر فى نحرك ، أجئتنا لتُخْرِجَنَا من أرضِنا بسِحْرك ! فإن لم ترجعْ عنِ السحرِ وفعله ، فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مثله ، كيف يسعى العاذلُ بين النديم وإلفه ، وقد خلَتِ النُّذُر من بين يديه ومنْ خلفِه ! فياسادتى دعونى من المعجبِ والمطرب ! لَيْسَ البر أنَّ تُوَلُّوا وجوهكُمْ قِبَلَ المشرقِ والمغربِ ، واجعلوا سيفَ ثباتكم للعذَّال مسلولا ، وأوفُوا بالعهدِ إنَّ العهدَ كان مسئولا ، فإنهم إن قالوا كذب النديم أو بَطِر ، سَيَعْلَمُونَ غدًا مَن الكذابُ الأَشِر(١٦) ، وها قد صار أمر الحزبينِ عندك جليًّا ، فأَى الفَرِيقَيْنِ خير مقاماً وأَحْسَنُ نَدِيًّا ! (١٧) أتظنُّ عهد العاذل عند غضبك لا ينكث(١٨) مثلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إن تحمل عليه يلهث ، إنه لكُمْ

---

(١) فبرحمة وما للتوكيد وللدلالة على أن لينه ما كان الا برحمةمن الله
(٢) احسانك (٣) سيء الخلق (٤) قاسيه (٥) لتفرقوا (٦) لحياتك واللام لتوكيد الابتداء والخبر محذوف وتقديره قسمى (٧) بتحيرون
(٨) زينت (٩) موضعا حصينا (١٠) لا يقدر أحد أن يدخله والمراد المبالغة فى حصين المحبة (١١) لا يقدرون أن يعلوا ظهره لارتفاعه ونعومته
(١٢) خرقا لصلابته وسمكه (١٣) اللائم (١٤) الذكر الجميل ولا يستعمل الصوت بهذا المعنى الا فى الجميل (١٥) أنسانى ذكره (١٦) المتكبر
(١٧) مجلس القوم (١٨) لا ينقض .

عدوٌّ كبير ، ففرُّوا إلى الله إنى لكم منهُ نذير ، فإنه جمع لقتالكَ الأَولاد ، والأَحفاد(١) وآخرين مُقَرَّنين(٢) فى الأَصفاد(٣) ، تركوا أَمر الله بما لا يرضونه ، فأَعقبهُم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه . وظنِّى إنْ وصل إليك كتابى ، أَنهم يُطردون ويُدْعُون ، وحرامٌ على قريةٍ أَهلكناها أَنهم لا يرجعون ، أَيعُجبك إذا مشى هذا اللَّاهِ ، ثانى عطفه(٤)ليُضِلّ عن سبيلِ(٥) الله .

وإنك وإن فرحت بعلم ما يجْهَلُون ، قد نعلم أَنه ليحْزُنك الذى يقولون . فإن قلتَ إنّ اجتماعى بهم لأَجل الصدقة أَو شىءٍ من هذا القبيل ، إنما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكين والعاملين(٦) عليها والمؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ(٧) ، وفى الرِّقاب (٨) ، والغارمين(٩) ، وفى سبيل الله(١٠) وابن السبيل(١١) ؛ على أَنهُ لا تحلُّ الصدقة لذميم(١٢) هماز(١٣) مشاءٍ بِنميمٍ(١٤) ، وطباعهم كما تعلمُ منكَرَةٌ مُسْتَقذَرَةٌ ! كأَنهم حمرٌ(١٥)مستنفرَه(١٦) فرتْ من قَسْوَرَةٍ(١٧) .

وقد قال وفائى : خاطب عزيزك هذه المرَّة ، وإن لم يعملْ فيك فكرًا ، وما يُدْريكَ لعله يزَّكَّى(١٨) ، أَوْ يَذكَّرَ فتنْفَعَهُ الذِّكرى .

فقال لسانى : إنّ الوُدّ هوَ الرّسول المأْمون ، فأَرْسلهُ معى رِدْءًا(١٩) يصدِّقنى ، إنى أَخاف أَن يكذِّبون . فقلت : سيرُوا مع المحبَّة ذات

---

(١) أولاد الابناء (٢) مشدودين (٣) القيود (٤) لاوى عنقه تكبرا (٥) عن دين الله (٦) السعاة الذين يقبضون الصدقات بأمر الحاكم (٧) أشراف من العرب كان النبى صلى الله عليه وسلم يستألفهم للاسلام (٨) المكاتبون من العبد (٩) من تحملوا الدين (١٠) الفقراء فى الجهاد (١١) المسافر والمنقطع عن ماله (١٢) القبيح والمراد قبيح الفعال ذميم الخصال (١٣) عياب يعيب الناس (١٤) ساع بالنميمة والفساد (١٥) جمع حمار (١٦) نافرة (١٧) الاسد (١٨)يتطهر من الذنوب (١٩) معينا .

الفُتُوَّة(١) ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها منْ بعد قوَّة ، وقولوا لهُ عند الغايةِ قد جِئناك بآية . ولا تهابوا الجيش وإنْ كبرْ ، سيهزمُ الجمعُ ويولون الدُّبرْ(٢) ولاتظنُّوا من ظاهر الأَمر حُلول البلوى ، إذْ أَنتمْ بالعُدْوةِ(٣) الدُّنيا(٤) وهم بالعُدْوَةِ القصوَى(٥) ، بل قاتلوهم قتالَ المستشهدين ، ولْيَجِدُوا فيكم غلظة ، واعلمُوا أَنّ الله مع المتقين .

وإذا اشتبك القتالُ فليذُبَّ كلٌّ منكم عن مولاه(٦) ، وإنْ جنحوا(٧) للسلم(٨) فاجنح لها وتوَكّلْ عَلَى الله ، فسيروا ودعوا الأَولاد والْجُنَّة(٩) ، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنَّة ، ولا تسأَلوا عن الميرةِ(١٠) من أَصله ، وإن خفتمْ عَيْلَةً(١١) فسوف يغنيكم الله من فضلهِ ، فإن الله قد أَثاركم(١٢) لقتال العذال العائبين ، ليقطع طرفاً من الذين كفروا أَو يكبتهم(١٣) ، فينقلبوا خائبين .

واحملوا عليهم فإنهم متى طعنوا فى جنوبهم رَضُوا أَن يكونُوا مع الخوالفِ(١٤) وطبع(١٥) اللهُ على قلوبهم ؛ ولاتُدْبروا إذا رأَيتموهمْ قدامكم(١٦) ، إن تنصروا الله ينصركم ويثبِّت أَقدامكم .

وإن أَخذتم أَسرَى فقاتلوا أَنصارها ، فإِمَّا منًّا(١٧) بعدُ وإما فِدَاءًا حتى تضع الحربُ(١٨) أَوزارها(١٩) ، فإن أَطعتم دفعتم وأَصلحَ الله بالكمْ ، وإن تتولَّوْا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أَمثالكم .

---

(١) الكرم والتسامح (٢) الظهر (٣) بضم العين وكسرها جانب الوادى (٤) القريبة (٥) البعيد (٦) صاحبه (٧) مالوا (٨) الصلح (٩) المراد بها هنا النساء وأصلها لما تغطى بها المرأة وجهها (١٠) جلب الطعام (١١) فقرا (١٢) نشركم (١٣) يصرفهم ويذلهم (١٤) النساء (١٥) كناية عن اعماء بصائرهم (١٦) سابقيكم (١٧) تمنون عليهم باطلاقهم من غير شىء (١٨) أهل الحرب (١٩) أثقالها من سلاح وغيره .

وسأتلو فى خطبتكم عند قدومكم سالمين : فقطع دابرُ(١) القومِ الذين ظلموا والحمد لله ربِّ العالمين .

* * *

وكتب أُستاذنا الإمام الحكيم المرحوم الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣ﻫ :

عرض لى مامنعنى من قراءة الجرائد نحو أسبوع ، وكنتُ أسمعُ فيه بحادثة (ميت غمر) من بعض الأفواه ، أظنها من الحوادث المعتاد وقوعها ، حتى تمكّنتُ من مراجعة الجرائد ليلة الخميس الماضى ، فإذا لهب ذلك الحريق يأكل قابى أكلهُ لجُسومِ أُولئك المساكين : سكان (ميت غمر) ، ويصهرُ(٢) من فؤادى مايصهرُه منْ لحومهم ، حتى أرقت(٣) تلك الليلةَ ولم تغمض عيناى إلا قليلاً وكيف ينامُ من يبيتُ يتقلبُ فى نعم الله ، وله هذا العددُ الجمُّ من إخوةٍ وأخوات يتقلبون فى شدّة البأساءِ ؟ !(٤) فأردتُ أن أُبادرَ بما أستطيع من المعونة ـ وما أستطيعهُ قليلٌ لايغنى من الحاجة ولا يكشفُ البلاءَ ـ ثم رأيتُ أن أدعوَ جمعًا من أعيان العاصمة ليشاركونى فى أفضل أعمال البر فى أقرب وقت ، وكان ذلك يومَ السبت فحضرَ منهم سابقون ، وتأخر آخرون ، وكتب بعضهم يعتذرُون ، فشكرَ الله سعىَ من حضرَ ، وجزى خيرًا من اعتذر ، وغفر لمن تأخر . على أنهُ ليس الحادثُ بذى الخطب اليسير ، فالمصابون خمسة آلاف وبضعُ(٥) مئين منهم الأطفالُ الذين فقدوا عائليهم(٦) والتجار والصناع الذين هلكتْ آلاتهم ورُءُوسُ أموالهم ، ويتعذر عليهم أن يبتدئوا الحياة مرّة أُخرى إلّا بمعونةٍ من إخوانهم ، وإلّا أصبحوا مُتلصّصلين أو سائلين ، والذين

(١) أهلكوا عن آخرهم (٢) يذيب (٣) سهرت (٤) الضرر والفقر (٥) بكسر التاء أو بفتحها ما بين الثلاث الى التسع ـ وبالضم الفرج (٦) من ينفقون .

فقدُوا بيوتهم ولايجدون ما يأْوُون إليه ، ولا مالَ لهم يقيمون مايؤويهم من مثل بيوتهم المتخرِّبة ــ لهذا رأَيتُ ورأى كلٌّ من تفكَّرَ فى الأَمرِ ، أَنْ يُجمع مبلغٌ وافرٌ يُتمكنُ به من تخفيف المصاب عن جميع أُولئك المصابين .

وكتب أَيضاً فى الغرض المذكور :

قد بلغكم ــ ولا ريْبَ ــ من أَخبار الجرائد ، ما عليه أَهلُ (ميت غمر) بعد الحريق الذى أَصابَ مدينتهم ، فهم بِلا قُوتٍ ولا ساتر ولا مأْوَى ، فليتصوّر أَحدكُمْ أَن الأَمرَ نزلَ بساحتهِ ، أَفما كان يتمنى أَن يكون جميعُ الناس فى معونته ؟ فليطالب الآن كلٌّ منا نفسَهُ بما كان يطالبُ به الناسَ ، لوْ نزلَ بهِ ما نزَلَ بهمْ ، ولْيُنْفِقْ مما له ما يدفع الله به عنه مكروه الدهر ... فأَرجو من همتكم أَن تدفعوا شيئًا من مالكم فى مساعدة إخوانكم ، وأَن تبذلوا ما فى وُسْعكم لِحَث من عندكم على مشاركتكم فى هذا العمل المبرور والسلام .

الفصل الخامس : فى رسائل الملامة والعتاب

كتب بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٧ هـ :

لَئنْ ساءَنى أَنْ نِلتِنِى بمساءَةٍ ... لقد سَرَّنى أَنى خطرْتُ ببَالِكِ (١)

الأَميرُ ــ أَطالَ اللهُ بقاءَهُ ــ فى حَالَىْ برّه وجفائه متفضل ، وفى يوْمَىْ إدنائه وإبعاده متطوِّل ، وَهنيئًا لهُ من حمانا ما يحله(٢) ، ومن عرانَا ما يحله(٣) ومن أَعراضنا ما يستحلُّه .

بلغنى أَنهُ ــ أَدام اللهُ عزّه ! ــ استزاد(٤) صنيعه(٥) ، فكنت أَظنُّنِى

(١) هذا البيت لعبد الله بن عبيد الله أحد بنى عامر المشهور بابن الدمينة من قصيدة والخطاب لمؤنث (٢) ينزل فيه (٣) يفكه (٤) زاد (٥) معروفه واحسانه .

مجنيًا(١) عليه مساءً إليه ، فإذا أنا فى قرارة الذنب ، ومثارة(٢) العتْب ؛ ولَيتَ شعرى(٣) أَى محظور(٤) فى العشْرَة حضرْته ، أَو مفرُوض من الخدمة رفضتُهُ(٥) أَو واجب فى الزِّيارة أَهملته ! وهل كنت إلَّا ضيفًا أَهداه منزعٌ(٦) شاسع(٧) وأَداهُ أَمل واسع ، وحداه (٨) فضلٌ وإن قل ، وهداه رأىٌ وإن ضلّ ، ثم لم يلق إلا فى آل مكال رحله(٩) ولم يصلْ إلا بهم حبله ، ولم ينظم إلا فيهم شعره ، ولم يقف إلا عليهم شكره .

ثم ما بُعدت صحبةٌ إلا دنتْ مهانة ، ولا زادت حرْمةٌ إلا نقصتْ صيانة ، ولا تضاعفتْ منةٌ إلا تراجعتْ منزلة ، ولم تَزَلِ الصِّفة بنا حتى صار وابل(١٠) الإعظامِ قطرَه ، وعاد قميص القيام صَدْرَه(١١) ، ودخلت مجلسه وحوله من الأَعداءِ كتيبةٌ(١٢) ، فصار ذلك التقريبُ ازْوِرَارًا(١٣) ، وذلك السلامُ اختصاراً ، والاهتزاز إيماءً ، والعبارَة إشارة . وحين عاتبته آمل أَعتابه(١٤) ، وكاتبتهُ أَنتظرُ جوَابه ، وسأَلته أَرجو إيجابه ، أَجاب بالسكوت فما ازْدَدتُ لهُ إلا ولاءً ، وعليه ثناءً ؛ ولا جرَمَ(١٥) أَنى اليوْم أَبيضُ وجه العهد ، واضحُ حُجّةِ الوُدّ ، طويلُ لسان القول ، رفيع حكم العذر . وقد حملتُ فلاناً من الرِّسالة ما تجافى القلم عنه .

والأَمير الرئيس ـ أَطالَ اللهُ بقاءَهُ ـ يُنعمُ بالإِصغاءِ لما يوردُهُ مُوفقًا إن شاءَ الله تعالى .

---

(١) المؤاخذة بجنايته (٢) مكان الثوران (٣) ليتنى أشعر وأخبر بالحقيقة والواقع (٤) ممنوع (٥) أبطلته (٦) مصدر ميمى بمعنى البعد (٧) بعيد (٨) ساقه ودفعه (٩) ما يأخـــذه المسافر من الأثاث وحوائج السفر (١٠) المراد به الكثير من الانعام وأصـله المطـــر (١١) ثوب يلبس فيغطى الصدر (١٢) جماعة (١٣) انحرافا (١٤)ازالة عتبه وملامته (١٥) كلمة كانت فى الاصل بمنزلة لابد ولا محالة فجـرت على ذلك وكثرت حتى تحولت الى معنى القسم وصارت بمنزلة حقا .

وكتب أيضاً إلى القاسم الكرَجِي المتوفى سنة ٤٠٠ هـ :

أنا ــ وإن لم أَلقَ تطاوُل الإخوان إلا بالتَّطَوُّل ، وتحامُلَ الأَحرار إلا بالتَّحَمُّل ــ أُحاسبُ موْلاى ــ أَيَّدَه الله ! ــ على أَخلاقه ، ضنًّا(١) بما عقدتُ يدى عليه من الظن به ، والتقدير فى مذهبه ، ولَوْلا ذلك ، لقلتُ فى الأَرض مجالٌ ، إن ضاقت ظلالُك(٢) ، وفى الناس واصلٌ ، إنْ رَثتْ(٣) حبالك ، وآخذهُ بـأَفعاله .

فإنْ أَعارنى أُذُنًا واعية ، ونفسًا مراعية ، وقلبًا مُتَّعِظًا ، ورجوعاً عن ذهابه ، ونزوعًا(٤) عن هذا الباب الذى بقرَعُه(٥) ، ونزولاً عن الصُّعُود الذى يفْرعه(٦) ؛ فرشتُ لمودَّته خُوَان(٧) صدرى ، وعقدتُ عليهِ جَوَامعَ خصرى ومجامع عمرى(٨) . وإن ركب منَ التَّعَالى غير مركبه(٩) وذهب من التغالى فى غير مذهبه(١٠) أَقطعته خُطَّةَ(١١) أَخلاقه ، وَوَلَّيْتُهُ جانب إعراضه .

لا أَذُودُ(١٢) الطَّير عن شجر قد بلوت المُرّ منْ ثمره

فإنى وإن كنْتُ فى مقتبل السِّنِّ والعُمر ، قد حلبتُ شطْرَى الدهر(١٣) وركبتُ ظهرَى البرِّ والبحر(١٤) ، ولقيْتُ وَفدَى(١٥) الخيرِ والشرِّ ، وصافحتُ يدى النفعِ والضرّ ، وضربتُ إبطى العُسرِ واليُسرِ ، وبلوتُ

---

(١) بكسر الضاد وفتحها حرصا (٢) أماكن الظل (٣) بليت وذابت (٤) انتهاء وتركا (٥) يدقه بيده ليفتح له (٦) يصعده ويعلوه (٧) بضم الخاء أو بكسرها ما يؤكل عليه الطعام ومراده تمكين مودته من صدره (٨) مراده التمسك بمودته مدة حياته (٩) مراده وان تكبر (١٠) طريقه (١١) بضم الخاء الطريقة ، مراده انه يتركه وان اخذ فى غير طريق طباعه (١٢) لا أطرد (١٣) مراده مربه من خيره وشره وجرب نفعه وضره (١٤) مراده أنه جرب الامور فى البر والبحر (١٥) الوفد الجماعة التى ترد على الامير أو غيره ، ومراده انه عرف الخير والشر .

طعمى الْحُلو وَالمر ، وَرَضعْت ضرعى العُرْف والنكر(١) ؛ فما تكاد الأيام تريني من أفعالها غريبًا وتسمِعنى من أحوالها عجيبًا ، ولقيتُ الأفراد ، وَطَرحت الآحاد(٢) ، فما رأيت أحدًا إلا ملأْت حافتىْ(٣) سمعه وبصره ، وشغلتُ حَيِّزَى(٤) فكره ونظره ، وأثقلتُ كتفه فى الحزن وكفته فى الوزن ، ووددت لو بادر القرن(٥) صحيفتى(٦) أو لقِى صفحنى(٧) فمالىَ صغرت هذا الصغر فى عينه ، وما الذى أزرى(٨) بى عنده حتى احتجب وقد قصدته ، ولزم أرضه وقد حضرته .

وأنا أحاشيه(٩) أن يجهل قدر الفضل ، أو يجحد فضل العلم ، أو يمتطىَ(١٠) ظهر التيهِ(١١) على أهْليهِ ، وأسأله أن يختصّنى من بينهم بفضل إعظام ، إن زلت بى مرة قدم فى قصده . وكأنى به وقد غضب لهذه المخاطبة المجحفة(١٢) والرتبة المتحيفة(١٣) وهو فى جنب جفائه يسير ، فإن أقلع(١٤) عن عادته ونزع عن شيمته(١٥) فى الجفاءِ ، فأطال الله بقاءَ الأُستاذ الفاضل ، وأدام عزه وتأييده .

وكتب أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ ﻫ :

والله يا قليب : لولا أن كبدى فى هواك مقرُوحة(١٦) ، ورُوحى مجروحة لساجلتك(١٧) هذه القِطيعة وما دَدْتك حبل المصارمة(١٨) وأرجو أن الله تعالى يديل(١٩) لصبرى من جفائك ، فيردك إلى مودتى وأنف القلى(٢٠) راغم .

(١) المعروف والمنكر ضده (٢) هذا والذى قبله كله بمعنى أنه جرب الايام واختبرها من أول نشأته (٣) جانبى (٤) ناجيتى (٥) المقارن الكفء عند ملاقاة الابطال (٦) كتابى (٧) وجهى معناه تمنى لقائى (٨) حط من قدرى وشأنى (٩) أنزعه (١٠) يركب (١١) الكبر والعجب (١٢) من الاجحاف وهو الذهاب بالشىء (١٣) من التحيف وهو الظلم والجور (١٤) رجع (١٥) خلقه (١٦) مجروحة (١٧) معناه لقابلتك (١٨) المقاطعة (١٩) الغلبة والنصر (٢٠) أنف صاحب البغض .

فتمد طال العهد بالاجتماع حتى كِدنا نتناكر عند اللقاءِ والسلام .

وكتب أَبو بكر الخوارزمى المتوفى سنة ٣٧٣ هـ إلى تلميذه :

كتابى ، وقد خرجت من البلاءِ خروج السَّيْف من الجلاءِ(١) ، وبروز البدر من الظلماءِ ، وقد فارقتنى المحنة(٢) ، وهى مُفارقٌ لا يشتاق إليه ، وودعتنى وهى مودع لايبكى عليه ، والحمد لله تعالى على مِحنة يجليها ، ونعمة ينيلها ويوليها ، كنت أَتوقع أَمس كتاب مولاى بالتسلية ، واليوم بالتهنية ، فلم يكاتبنى فى أَيام البرحاءِ(٣) بأَنها غَمّته ، ولا فى أَيام الرخاءِ بأَنها سرَّته ! وقد اعتذرت عنه إلى نفسى وجادلت عنه قلبى فقلت : أَما إخلاله بالأُولى ، فلأَنه شغله الاهتمام بها عن الكلام فيها . وأَما تغافله عن الأُخرى فلأَنه أَحبّ أَن يوفِّرَ علىّ مرتبة السَّابق إلى الابتداءِ ، بنفسه على محل الاقتداءِ ، لتكون نعم الله سبحانه علىَّ موفورة من كل جهة ومحفوفة بى من كل رتبة ، فإن كنت أَحسنت الاعتذار عن سيدى ، فليعرف لى حق الإحسان ، وليكتب إلىَّ بالاستحسان ، وإن كنت أَسأْت ، فليخبرنى بعذره أَعرف منى بسره ، وليرض منى بأَن حاربت عنه قلبى ، واعتذرت عن ذنبه ، حتى كأَنه ذنبى ، وقلت يا نفسُ اعذرى أَخاكِ ، وكفاك منه ما أَعطاك ، فمع اليوم غد ــ والعود أَحمد .

وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر المتوفى سنة ٨٠ هـ :

أَما بعد : فقد عاقنى الشك فى أَمرك ، عن عزيمة الرأْى فيك . وذلك أَنك ابتدأْتنى بلطفك عن غير خبرة ، ثم أَعقبته جفاءً من غير ذنب ، فأَطمعنى أُولك

(١) صقله بازالة ما عليه حتى يرى له لمعان .
(٢) البلية .
(٣) شدة الأذى .

فى إخائك ، وأيأسنى آخرك من وفائك . فسبحان من لو شاءَ لكشف بإيضاح الرأى فى أمرك عن عزيمة الشك فيه ، فاجتمعنا على ائتلاف وافترقنا على اختلاف . والسلام .

وكتب صديقى زعيم الوطنية المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش :

سيدى : مالى أراك كمن نسىَ الخليط(١) وتجرد فى الصحبة عن المحيط والمخيط ؟فإذاماصادفتك(٢)صَدَفْتَ(٣)أوأنصفتك مانصفت(٤) ،أتظن أنى قعيدة بيتك(٥) أو رهين كيتك وذيتك(٦) فوحقك إذا آنست(٧) من يدى مالاً ، أومن قدمى كَلَلاً(٨) لنجزتها(٩) البتات(١٠) وكلت بنقضها الذات ،ولو أنى آنست من الزاد فترة(١١) أومن الشراب عُشْرة ، لطعمت الطوى(١٢) واستقيت الجوى(١٣) فكيف أُدَاعب(١٤) وتصاعب؟ وأُحالف وتخالف؟ وأُواصل وتفاصل؟ وأُجالب وتجانب؟ لبئست مطيتك التى اقتدعت(١٥) وشرعتك(١٦) التى شرعت(١٧) . فوالله لولا أن الحب حادث لايتقى بالتروس ، ومعنى لايدب إلا فى النفوس ، وسهامٌ لاترمى إلا من قسى الحواجب ، ونحو أوله المعية وآخره الجوازم ، لما افترست الظباءُ الأُسود الصيد(١٨) ولا ملكت الأَحرار العبيد . ولولا أنى كَرَعْت(١٩) من صابه(٢٠) ، والتحفت ببردة أوصابه(٢١) لتعوذت منك بسورة الفلق ، ونبذتك(٢٢) نبذ الرداءَ الْخَلِق(٢٣) ، ولهان على أَن أَدعك أَو أَسمعك .

---

(١) الصاحب (٢) وجدتك (٣) أعرضت (٤) كلاهما بمعنى ساعدتك (٥) المرأة التى فى البيت (٦) كلاهما بمعنى كذا وكذا والمراد أنى لست رهين قولك : افعل كذا وكذا (٧) علمت (٨) اعياء وضعفا (٩) قضيتها (١٠) القطع المستأصل (١١) ضعفا وقلة (١٢) الجوع (١٣) الحرقة (١٤) أمازح (١٥) دفعت (١٦) مكان الماء (١٧) دخلت (١٨) المترفعة (١٩) بكسر الراء وفتحها شربت بفمى (٢٠) مائه المر وأصله عصارة شجر مر (٢١) أمراضه (٢٢) رميتك (٢٣) القديم البالى .

تمرُّون على الديار ولن تعوجوا   كلامكم علىَّ إذًا حرامُ (١)

غير أن لى نفسًا شبَّت على الحب فلم أفطمها وتقادعت(٢) ناره فلم أعصمها ، حتى بلغ السيل الزبى (٣) وتبددت (٤) النفس أيدى سبا (٥) إلا حُشاشة غفل عنها الوجد ، وبقية رمق ألفيتها (٦) من بعد . وكلما رأيت منك الشطط (٧) واعتساف (٨) الخطط (٩) عمدت إلى أن أثنى (١٠) من رسنها (١١) وأذود (١٢) عن عطنها (١٣) وشخصت إلى المكافحة والمكافأة . وأن لا أكيلك إلا مثلا ، ولا أسقيك إلا وَشَلا (١٤) ولا أزيدك إلا فشلا :

ولست أجزيك الجزاءَ الذى   على وَفَاءِ الصنع لا بخسه

وَليس يبكى صاحبًا من إذا   أُهين لا يبكى عَلَى نفسه

عَلَى أنى بالرغم أصبح فى نهار أحلك (١٥) من ليل ، وَأمسى فى ليل أشق عَلَى النفس من وَيل :

وَليل كموج البحر أَرْخَى سُدُوله (١٦)   عَلَىَّ بأنواع الهموم لِتَبْتَلى (١٧)

فإن تخلصت من لقائك فإلى الشقاء ، وَإذا لجأت من عسفك فإلى العناء ، وإذا استجرت بفراقك ، فقد استجرت من الرمضا (١٨) ، وكأنك لم تدر أن دولة الحسن سريعة التقويض (١٩) وأنه لابد من هبوط القمر إلى الحضيض ولسوف تبلى

---

(١) لن تقيموا (٢) تسابقت (٣) مثل يضرب لما جاوز الحد
(٤) ذهبت (٥) هو مثل يقال ، وتبددوا أيدى سبا معناه ذهبوا متفرقين، وأصله فى الذين ذهبت جناتهم وغرق مكانهم وقد ذكرهم الله فى القرآن قال « لقد كان لسبأ » الى آخر الآيات (٦) وجدتهم (٧) يجاوز الحد
(٨) الميل عن الطريق المألوف (٩) الامور (١٠) أرد (١١) زمامها
(١٢) أمنع (١٣) مكانها (١٤) الماء القليل فى هذا الموضع والماء الكثير فى غيره (١٥) أشد سوادا (١٦) أستاره (١٧) لتختبرنى
(١٨) الارض الحارة (١٩) التفرق .

بعارض(١) بيد(٢) أنه غير ممطر ، وبساعة مقبالك فيها مدبر ، وَستصبح عما قريب قد عفت(٣) رسومك(٤) ، وَلم تجد فى سوق الصحبة من يسومك . وَالعاقل من لايختال بنفسه ، ولا يبنى على غير أُسِّه(٥) فإنك مانضت(٦) لؤلؤة مبسمك ، وَلا نضرت(٧) صورة معصمك(٨) ، وَلاشئت فخلقت كما تشاءُ ، وَلا اتخذت عندالله عهدًا وهذا الوفاء . ولكن مثالك من أفرغه الله فى القالب الذى اختار ، وجعله مرتع النفوس ومسرح الأَبصار ، وإنى أَيها العزيز قد تقدمت إليك :

ولى أَمل قطعتُ به الليالى أَرانى قد فنيت به وَداما

فلا تحرمنى من سائع العفو وسابغه ، ولا تجعلنى كباسط كفيه إلى الماءِ ليبلغ فاه وما هو ببالغه :

فأَشد ما لقيت من أَلم الجوَى(٩) قرب الحبيب وما إليه وُصولُ

كالعيس(١٠) فى البيداءِ يقتلها الظما(١١) والماءُ فوق ظهورها محمولُ

فاعمل فى يومك لغدك ، واستجزْ غيرك ببسط يدك ، ولا تأخذنى بجرم الجانى المتلبس ، ولا تبتغ منى صحيفة المتلمس(١٢) بَيْدَ أَنى أنشدك الذى بلى العاشق بالمعشوق وكلفه فى الحب بيض الأَنوق(١٣) وسهد(١٤) طرفه بنواعس العيون ، وخَوَّلَ(١٥) للحسن إذا أَراد شيئًا أَن يقول له كن فيكون ، كما قرَنَ الهوَى بالنوى(١٦) ، والقلب بالجوى(١٧) وقضى على المحب ، ونشر العشق فلم يحتجب ، ما الذى أَغرى بك إلى الاعتساف وعدم الإنصاف ؟

---

(١) السحاب الذى يعترض فى الافق (٢) غير أنه (٣) درست وذهبت (٤) آثارك (٥) أساسه (٦) ما ظهرت (٧) ولا حسنت (٨) موضع السوار من اليد (٩) الحزن (١٠) الابل البيض يخالط بياضها شقرة أو ظلمة خفية (١١) العطش (١٢) الطالب مرة بعد أخرى (١٣) الانوق العقاب ، ولفظ المثل : هو أعز من بيض الأنوق . وهو مثل يضرب للمحال أو لما لا سبيل اليه (١٤) أسهره (١٥) ملكه (١٦) البعد (١٧) الحرقة .

أَلينُ الأَعطاف ؟ أَم فُتُور(١) الأَجفان ؟ أَم تكسُّر الكلام ؟ أَم هيف القوام ؟ لقد شددت أَزرك(٢) ــ والله ــ بضعاف ، واستسمنت تلك العجاف ، وهل حدا(٣) إلى قطيعتى بك أَنى خشن الملمس ، رَثُّ الملبس ؟ ولم أُمْنح(٤) كما مُنِحت نضرة ، ولم أَلبس برقع البياض والحمرة ؟ ! فاعلم أَنك إن بدرتنى بعين الرضا(٥) ، ورحمت فؤادًا يتقلب منك على جمر الغضا(٦) فستجدنى صديقك الذى لا يبطره الوفاءُ ، ولا يُثنيه الجفاءُ ، أَملكُ لك من لسان ، وأَطوع لأَمرك من بنان .

أَكتُبُ ، فأَين لعبد الحميد الكاتب قلمى ، وَأَشْعِرُ ، فأَين الشعراءُ إلا تحت علمى ؟ وأَبذُلُ ، فأَين حاتمُ(٧) من كرمى ؟ وأَحْلم ، فأَين الأَحنف ابن قيس(٨) من حلمى ؟

ومن يحتمل فى الحب ما فوق كاهلى فحسبُك حلمًا أَن يقيم على الهجرِ(٩)

فإن أَصَخْتَ (١٠) إلى الداعية (١١) وَوَعيتَ كلمات لا تسمع فيها لاغية (١٢) ، إليك الجزاء وعلىَّ الوفاء ، وإلا فالفرَار إلى الموت أَمْرٌ يسير والقبر للعشاق قليل مِنْ كثير .

وكتب مُعاوية إلى ابنه يزيد يؤنبه :

أَما بعد ، فقد أَدت أَلسنة التصريح إلى أُذن العناية بك ، مافَجع الأَمل فيك وباعد الرَّجاءَ منك ، إذ ملأْت العيون بهجة والقلوب هيبة ، وترامت إليك آمال

---

(١) ذبولها (٢) ظهرك (٣) ساق الى (٤) أعطى (٥) حسنا (٦) شجر خشبه فيه صلابة (٧) أبو عدى حاتم بن عبد الله بن سعد الطائى وبه يضرب المثل فى الكرم من شعراء الجاهلية (٨) الاحنف بن قيس يضرب به المثل فى الحلم (٩) مابين الكتفين (١٠) استمعت (١١) مراده به الواشى العاذل (١٢) اللغو من الكلام .

الراغبين ، وهمم المنافسين . فسخت بك فتيان قريش ، وكهول أهلك ، فما يسوغ لهم ذكرك إلا على الْجِرَّة المهَوَّعة(١) والكظ الجشء(٢) . افتحمت البوائق(٣) وانقدت إلى المعاير ، واعتضتها من سمو الفضل ، ورفيع القدر .

فليتك ــ يزيد ــ إذا كنت لم تكن ، سررت يافعًا ناشئًا وأثقلت كهلًا ضالعًا(٤) ، فوا حزناً عليك يزيد ! ويا حر صدر المثكل بك . ما أشمت فتيان بنى هاشم وأذل فتيان بنى عبد شمس عند تفاوض المفاخر ودراسة المناقب ! فمن لصلاح ما أفسدت ورتق ما فتقت ؟

هيهات ! خمشت(٥) الدربة(٦)وجه النصبر بك ، وأبت الجناية إلاتحدراً على الألسن ! وحلاوة على المناطق ، وما أربح فائدة نالوها وفرصة انتهزوها ! انتبه يزيد للعظة ، وشاور الفكرة ، ولاتكن إلى سمعك أسرع منها إلى عقلك ، واعلم أن الذى وطأك وسوسة الشيطان وزخرفة السلطان ، مما حسن قبحه، واحلولى عندك مُرّة ، مُر شركك فيه السواد(٧) ونافسكه الأعبد ، فأضعت به من قدرك ، وأمكنت به من نفسك ... فمن لهذا كله ؟ !

واعلم يا يزيد أنك طريد الموت وأسير الحياة ، بلغنى أنك اتخذت المصانع والمجالس للملاهى والمزامير كما قال تعالى «أتبنونَ بكل ريع آية تَعْبَثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون(٨) » ، وأجهرت الفاحشة حتى اتخذت سريرتها عندك جهرًا .

اعلم يا يزيد أن أول سَلَبَكه السكر معرفة مواطن الشكر لله تعالى على نعمه

---

(١) الجرة : ما يفيض به البعير فيأكله ثانية ، وكذا غيره من النعم . والمهوعة : من هوعه أى قيأه وهذا تمثل، أى أنهم يستقلون ذكرك (٢)الكظ : الامتلاء من الطعام ، والجشء : الكثير وهذا تمثيل أيضا (٣) البوائق : جمع بائقة وهى الداهية (٤) الضالع والضليع : القوى (٥) خمش : لطم (٦) الدربة : التجربة (٧) السواد : العامة (٨) تقدم شرح غريب الآية فى خطبة قطرى .

المتظاهرة وآلائه المتواترة ، وهى الجرحة العظمى والفجعة الكبرى ترك الصلوات المفروضات فى أوقاتها ، وهى من أعظم مايحدث من آفاتها ؛ ثم استحسان العيوب وركوب الذنوب ، وإظهار العورة ، وإباحة السر ، فلا تأْمن نفسك على سرك ، ولاتعقد(١) على فعلك ، فما خير لذة تعقب الندم ، وتعفى(٢) الكرم ، وقدتوقف أَمير المومنين بين شطرين من أمرك لما يتوقعه من غلبة الآفة واستهلاك الشهوة ، فكن الحاكم على نفسك ، واجعل المحكُوم عليه ذهنك ترشد إن شاءَ الله تعالى . وليبلغ أَمير المومنين ما يَرُدُّ شارداً من نومه ، فقد أَصبح نصب(٣) الاعتزال من كل مُؤانس ودريئة(٤) الأَلسن الشامتة ، وفقك الله فأَحسن .

وكتب أَعرابى لابنه وسمعه يكذب :

يابنى ، عجبت من الكَذاب المشيد بكَذبه ، وإنما يدل على عيبه ، ويتعرض للعقاب من ربه . فالآثام له عادة ، والأَخبار عنه متضادة ، إن قال حقًّا لم يُصَدَّق ، وإن أَراد خيراً لم يُوَفق ؛ فهو الجانى على نفسه بفعالة ،] والدال على فضيحته بمقاله ، وما صح مِنْ صدقه نسب إلى غيره ، وما صح مِنْ كذب غيره نسب إليه . فهو كما قال الشاعر :

حَسْبُ الكَذُوب مِنَ المها نة بعض ما يُحْكى عليه

فإذا سمعت بِكذْبَةٍ من غيره نُسِبَتْ إليه

وكتب المرحوم حفنى بك ناصف إلى سماحة السيد توفيق البكْرى :

كتابى إلى السيد السند ، ولا أُجَشِّمُهُ(٥) الجواب عنه ! فذلك ما لا أَنتظرُهُ منه ، وإنما أَسأَله أَن ينشط إلى قراءته ، ويتنزل إلى مطالعته ، وله الرأْىُ بعد

---

(١) يقول : تفقد بالشراب الارادة والعزيمة (٢) تعفى : تذهب
(٣) النصب هنا : الفرض والهدف (٤) الدريئة : التى يتعلم الرامى الطعن والرمى عليها (٥) لا أكلفه .

ذلك أن يحاسب نفسه أو يزكيها ، ويحكم عليها أو لها :

قد تنفعُ الذكرى إذا كان هجرهم دلالاً فَأَمَّا إن مَلالا فلا نفعا

زُرْتُ السيد ، ويعلم الله أن شوقى إلى لقائه كحرصى على بقائه ، وكلفى بشهوده كشغفى بوجوده ، فقد بَعُدَ ــ والله ــ عهدُ هذا التلاق ، وطال أَمدُ الفراق ، وتصَرَّمَ الزمان ، وأنا من رؤيته فى حرمان . فسأَلت عنه ، فقيل لى : إنه خرج لتشييع(١) زائر ، وهو عما قليل حاضر ، فانتظرت رجوعه ، وترقبت طلوعه ، ولم أَزل أَعُدُّ اللحظات وأَستطيل الأَوقات ، حتى بزغت الأَنوار ، وارتج صَحْنُ الدار ، وظهر الاستبشارُ فى وجوه الزُّوَّار ، وجاءَ السيد فى موكبه ، وجلالة محتده(٢) ومنصبه ، فقمنا لاستقباله ، وهينمنا(٣) بكماله . فمرَّ يتعرَّف وُجُوه القوم حتى حازانى ، وكَبُرَ فى عينه أن يرانى ، فغادرنى(٤) ومَنْ على يسارى ، وأَخذ فى السلام على جارى ، وجَرَّ السَّلام الكلام ، وتكَرَّر القعود والقيام ، وأَنا فى هذه الحال أوهم جارى أَنى فى دارى ، وأُظهرُ للناس أَن شدة الأُلفة ، تُسْقِط الكلفَة . ومرَّ السيَّد بعد ذلك من أمامى ثلاث مرات ، ومن الغريب أَنه لم يستدرك ما فات :

تمرون على الديار ولن تَعُوجُوا كلامكم علىَّ إذن حَرَامُ

وكُنت أَظُن أَنَّ مكانتى عند السَّيد لاتنكَر ، وأَنَّ عهدى لديه لايُخْفَرُ(٥) فإذا أَنا لست فى العير(٦) ولا فى النفير(٧) ، وَغيرى عند السيد كثيرٌ ، وذهاب صَاحب أَوْ أَكثر عليه يسير .

وَمَنْ مَدَّتِ العليَا إليه يمينَها فأَكْبر إنسَان لديه صغير

(١) لتوديع (٢) أصله من جهة النسب (٣) تكلمنا بصوت خفى
(٤) تركنى (٥) لا ينقض (٦) الجماعة (٧) الجماعة أيضا .

ولا أَدعى أَنى أَوازى السيد ـ صانه الله ـ فى علوّ حسبه ، أَو أُدانيه فى علمه وأَدبه ، أَو أُقاربه فى مناصبه ورتبه ، أَو أُكاثره فى فضته وذهبه ؛ وإنما أَقول : ينبغى للسيد أَن يميز بين من يزورُه ، لسماع الأَغانى والأَذكار ، وشهود الأَوانى على مائدة الإِفطار ، وبين من يزوره للسلام ، وتأييد جامعة الإِسلام ، وأَن يفرق بين من يتردد عليه استخلاصاً للخلاص ، ومن يتردد إجابة لدعوة الإِخلاص ، وأَن لايشتبه عليه طلاب الفوائد بطلاب العوائد ، وقناص(١) الشوارد(٢) بنقباءِ الموالد ، وَرُوادِ الطرف(٣) ، بأَرباب الحرف :

فما كل من لقيتَ صاحبَ حاجة ولا كل من قابلت سائلك العُرْفَا(٤)

فإن حَسُنَ عند السيد أَن يغضى عن بعض الأَجناس ، فلا يحسن أَن يغضىَ عن جميع الناس ، وإلا فلماذا يطوف على الضيوف ، ويحييهم بصنوف من المعروف ويتخطى(٥) الرقاب «لصَرُّوف»(٦) ، ويخترق لأَجله الصفوف؟ فإن زعم السيد أَنه أَعلم بتصريف الأَقلام ، فليس بأَقدم هجرة فى الإِسلام ، وإن رأَى أَنه أَقدر منى على إطرائه(٧) ، فليس بممكن أَن يتخذه منْ أَوليائه !

ولا أَرُومُ بحمد الله منزلة غيرى أَحق بها منى إذا راما

وإنما أَصون نفسى عن المهانة والضعة ، وأَن أُعرضها للضيق وَفى الدنيا سعة :

وَأُكْرم نفسى إننى إن أَهنتها وَحَقك لا تكْرم علَى أَحد بعدى

فلا يُصَعِّر(٨) السيد من خده ، فقد رضيتُ بما أَلزمنى مِنْ بعده ، وَلا يَغُضُّ عنى عينه(٩) ، فهذا فراق بينى وَبينه ، وَليتخذنى صَاحبًا مِنْ بعيد ، وَلا يكلمنى إلى يوم الوعيد .

---

(١) جمع قانص بفتح القاف : الصائد (٢) المتفرقات والمراد طالبو متفرقات العلوم (٣) جمع طرفة : وهى ما ترى مليحة ، والمراد أهل المراتب العالية (٤) المعروف (٥) يتجاوز (٦) هو الدكتور يعقوب صروف المتوفى فى آخر يوليه سنة ١٩٢٧ م وهو احد أصحاب مجلة المقتطف وجريدة المقطم اليومية (٧) الثناء عليه (٨) لا يميل خده كبرا وخيلاء (٩) لا يغمض .

كِلَانَا غنِيٌّ عنْ أَخيهِ حياته ونحنُ إذا متنا أَشَدُّ تغَانِيَا

ومنِّى على السيد السَّلَام على الدَّوَام ، ومُبارَكٌ إذا لَبِسَ جديدًا ، وكلُّ عام وهو بخير إذا استقبل عيدًا ، ومَرْحى(١) إذا أَصاب ، وشَيَّعته(٢) السلامة إذا غاب ، وقُدُوماً مباركاً إذا آب(٣) ، وبالرِّفَاءِ والبنين(٤) إذا أَعْرَس(٥) ، وبالطالع المسعود إذا أَنجب(٦) ، وَرَحِمَهُ اللهُ إذا عطس ، ونوم العافية إذا نعسَ ، وصَحّ نومه إذا استيقظ ، وهنيئًا إذا شرب ، وما شاءَ الله كان إذا رَكِبَ ، ونَعِمَ صباحه إذا انْفَجَرَ الفجر ، وسعد مَسَاؤه إذا أَذّن العصر ، وبخٍ بخٍ (٧) إذا نثر ، ولا فُضّ(٨) فُوهُ إذا شعرَ(٩) ، وأَجاد وأَفاد إذا خطبَ ، وأَطربَ وأَغْرَبَ إذا كتب ، وإذا حج البيت فحجًّا مبرورًا ، وإذا شيع جنازتى فسعيًا مشكورًا ، والسلام .

وكتب القاضى الفاضل إلى أَخيه عبدالكريم يؤنِّبه على إيذائه علم الدين ابن النحاس :

سبب إصدار هذه المكاتبة إلى الأَخ ـ أَصلحه الله ! ـ إعلامه ما صح عندى ن الأَحوال التى أَخفاها ، والله مبديها ، فى حق عَلَم الدين .

وبالله أُقسمُ لئن لم تُدَاوِ ماجرحت ، وتستدرك مافعلت ، وتمحُ ما أَثبتَّ ، وتستأنف ضدّ القبيح الذى كتبت به وشافهت ، وتعتذر بالجميل فيما قاطعت الله به وبارزت ، ليكونن الحديث منِّى بغير الكتاب ، ولأُزيلَنّ السبب الذى قدرت به على مضَرّة الأَصحاب ، وما أَشد معرفتى بأَن الطباع لا تتغيّر ، وبأَنك ستحوجنى بعد هذا الكتاب إلى مالا يتأَخر ، وبالجملة فاستدرك بفعلك لابإيمائك لى وتنصلك إلىّ .

---

(١) كلمة تقال عند الاصابة فى الرمى مدحا للمصيب (٢) ودعته
(٣) رجع (٤) كلمة تقال لمن تزوج ومعناه الدعاء بالالتئام وجمع الشمل
(٥) تزوج (٦) ولد له (٧) كلمة تقال عند الرضا والاعجاب بالشىء أو عند الفخر والمدح وكررها للمبالغة (٨) لا كسرت أسنانه (٩) قال الشعر .

* فالدَّم فى النَّصْلِ شاهدٌ عجب *

وويل لمن كانت غنيمته من الأَيام عقد القلوب على البغضاء ، وإطلاق الأَلسنة بالمذام ، ولولا أَننى شريكك فى كل ما تستوجبه من الناس ، لأَلقيت حبلك على غاربك وتركتك وما اخترت لنفسك ، ولكن كيف بمن يرمى وليس برام ؟

ولكن سكوت الناس عن قبيحك مقابلة لجميل كثير منِّى ، فإذا أَنت لا تنفق إلا من كيسى ، فأَشفق على نفسك ، إن كنت تنظر فى غد ، وعلى بيتك إن كنت تنظر فى أَمس ، وعلى مكانك منِّى إن كنت لا تنظر إلا فى اليوم ، ولا تجاوبنى إلا بلسان الرجل شاكرًا لك ، فإنه وإن كان ــ والله ــ ما ذمك فقد ذممتك به عنه . وما أَظن أَنك تذكر أَنى كتبت إليك كتاباً ، ولا كُنت أُوثره ، ولولا حافظ غليظ ما كتبته ، ولولا علمى أَن الكثير مما قيل عنك فى أَمر الرجل هو القليل مما فعلته ، لأَضربت عن هذا كما أَضربتُ عن غيره ، وستعرفك الأَيام ما كُنت تجهل .

والله يأخذ بناصيتك إلى رضاه ويغمد سيف حليلتك عن مقلتك ، والسلام .

الفصل السادس : فى رسائل الشكوى

كتب الأَمير أَبو الفضل الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ :

إنما أَشكو إليك زماناً سلب ضِعْف ما وهب ، وفَجَّع بأَكثر مما مَتّع ، وأَوحش فوق ما آنس ، وعنف فى نزع ما أَلبس ؛ فإنه لم يذقنا حلاوة الاجتماع حتى جَرَّعنا مرارة الفراق ، ولم يُمتعنا بأُنس الالتقاء ، حتى غادرنا(١) رهن التلف ، والاشتياق .

والحمد لله تعالى على كل حال يسوء ويسر ، ويحلو ويمر ، ولا أيأس من روح(٢)

---

(١) تركنا (٢) من رحمة الله .

الله فى إباحة صنع(١) يجعل ربعه(٢) مُناخى(٣) ، ويقصر مدة البعاد والتراخى ، فألاحظ الزمان بعين راض ، ويقبل إلىّ حظى بعد إعراض ، وأستأنف(٤) بعزته عيشاً عذب الموارد(٥) والمناهل(٦) ، مأمون الآفات والغوائل(٧) .

وكتب عبد الحميد بن يحيى المقتول سنة ١٣٢ هـ إلى أهله ، وهو منهزم مع مروان(٨) :

أما بعد : فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور ، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته(٩) بنابها ذمها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً لها .

وقد كانت أذاقتنا أفاويق(١٠) استحليناها ، ثم جمحَت(١١) بنا نافرة ، ورمحتنا(١٢) مولية ، فملح عذبها ، وخشن لينها ، فأبعدتنا من الأوطان ، وفرقتنا عن الإخوان ، فالدار نازحة(١٣) ، والطير بارحة(١٤) ، وقد كتبتُ والأيام تزيدنا منكم بعداً ، وإليكم وجدا ، فإن تتمّ البليّة إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظفرٌ جارح مِن أظفار من يليكم ، نرجع إليكم بِذل الإسار (١٥) ، والذلُّ شَرُّ جار .

---

(١) المعروف (٢) دار (٣) مكان النوم ومراده أنه لا ييأس من معروف يحظى به مدة حياته (٤) أجدد (٥) أمكنه اتيان الماء (٦) المواضع التى فيها والمراد أنه يجدد عيشا هنيئا لا حزن معه (٧) الدواهى (٨) هو مروان بن محمد بن الحكم بن أبى العاص الاموى آخر ملوك بنى أمية المعروف بالجعدى قتل سنة ١٣٢ هـ (٩) كناية عن تسلطها عليه بنوائبها ومصائبها (١٠) ألبانها والمراد نعيمها وخيراتها (١١) اسرعت غالبة ايانا (١٢) طعنتنا برمحها والمراد مصائبها (١٣) بعيدة (١٤) البارح من الطير ما يمر من اليمين الى الشمال والعرب تتشاءم به ، وذلك أنه كان من عاداتهم اذا أرادوا أمرا عمدوا الى الطير فأطاروها فان طارت شمالا يتشاءمون ويرجعون وتسمى بارحات وان طارت يمينا تفاءلوا باليمين ومضوا فى أمرهم وتسمى سانحات (١٥) الاسر هو القبض على الرجل وأخذه أسيرا .

نسأل الله الذى يُعز من يشاءُ ويذل من يشاءُ أَن يهب لنا ولكم أُلفة جامعة فى دار آمنة ، تجمع سلامة الأَبدان ، والأَديان ، فإنه ربّ العالمين ، وأرحم الرَّاحمين .

وكتب أُستاذنا الحكيم المرحوم الشيخ محمد عبده ، وهو مسجون بسبب الحوادث العرابية :

تقلَّدَتنى اللَّيالى وهى مُدْبِرَةٌ كأَننى صَارِمٌ فى كفِّ مُنْهَزِمِ

عزيزى (هذه حالتى) اشتدَّ ظلام الفتن حتىتجسَّم بل تحَجَّر ، فأَخذت صخوره من مركز(١) الأَرض إلىالمحيط (٢) الأَعلى ، واعترضت ما بين المشرق والمغرب وامتدت إلى القطبين(٣) ، فاستحجرت فى طبقاتها طباع الناس إذ تغلبت طبيعتها ، وامتدت على المواد الحيوانية أَو الإنسانية ، فأَصبحت قلوب الثقلين (٤) كالحجارة أَو أَشد قسوة ، فتبارك الله أَقدر الخالقين ، انتثرت نجوم الهدى وَتَدَهْوَرَتْ (٥) الشموس والأَقمار ، وتَغَيَّبت الثوابت النيرة ، وفرّ كل مضىءٍ منهزماً من عالم الظلام ، ودارت الأَفلاك دورة العكس ذاهبة بنيِّرَاتها إلى عوالم غير عالمنا هذا ؛ فولى معهُ آلهة الخير أَجمعين ، وتمحضت السلطة لآلهة الشرّ فقلبوا الطباع ، وبَدّلوا الخلق ، وغيروا خلق الله ، وكانوا على ذلك قادرين .

رأَيت نفسى اليوم فى مَهْمَه (٦) لا يأتى البصر على أَطرافه . فى ليلة

---

(١) وسط دائرتها (٢) الدائرة المحيطةبالكرة الارضية (٣) الشمالى والجنوبى وهما طرفا محور الارض والمحور هو القطـر الوهمى الذى تدور عليه الارض من المغرب الى المشرق أثناء حركتها .

(٤) الانس والجن (٥) أدبرت (٦) مفازة واسعة .

داجية (١) غُطِّىَ فيها وجه السماء بغمام سوء فتكاثف(٢) رُكَامًا رُكَامًا (٣) لاأرى إنساناً ! ولاأسمع ناطقًا ! ولاأتوهم مجيبًا ! أسمع ذئاباً تعوى ! وسباعاً تزأر!(٤) وكلاباً تنبح !(٥) كلها يطلب فريسة واحدة ، هى ذات الكاتب ، والتَفَّ على رجلى تِنِّينان(٦) عظيمان ، وقد خَوِيَتْ(٧) بطون الكلّ ، وتحكم فيها سلطان الجوع ، ومن كانت هذه حاله ، فهو لا ريب من الهالكين .

تقَطَّع الأَمل ، وانفصمت(٨) عروة الرَّجَاءِ ، وانحلت الثقة بالأَولياء ، وضلَّ الاعتقاد بالأَصفياءُ ، وبطل القول بإجابة الدعاءِ ، وانفطر(٩) من صدمة الباطل كَبِدُ السماءِ ، وحقت على أَهل الأَرض لعنة الله والملائكة والأَنبياء وجميع العالمين .

سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض(١٠) ماءُ الوفاءِ ، وطمست معالم الحق ، وحرفت الشرائع ، وبُدِّلت القوانين ، ولم يبق إلا هوى يتحكم ، وشهوات تقضى ، وغيظ يحتدم(١١) ، وخشونة تنفذ (تلك سنة القدر) واللهُ لا يهدى كيد الخائنين .

ذهب ذوُو السلطة فى بُحور الحوادث الماضية ، يغوصون لطلب أَصداف من الشُّبَهِ ، ومقذوفات مِن التهم ، وسواقط من اللمم(١٢) ليُمَوِّهُوها (١٣) بمياه السفسطة ويغشوها بأَغشية من معادن القوة ، ليبرزوها فى معرض السطوة ويغشوا بها أَعين الناظرين ، لا يطلبون ذلك لغامض يبينونه ، أَو

(١) مظلمة (٢) كثر وتراكم (٣) السحاب المتراكم (٤) بفتح عينه أو بكسرها تصوت (٥) بفتح عينه أو بكسرها تصوت (٦) تثنية تنين وهو الحية العظيمة (٧) خلت (٨) انقطعت (٩) انشق (١٠) ذهب (١١) يتحرك ويشتد (١٢) المتقارب من الذنوب ، واللمم أيضا طرف من الجنون (١٣) من التمويه وهو التلبيس .

لمستور يكشفونه ، أو لحق خَفِيٍّ فيظهرُونه ، أو خَرْق بدا فيرقعونه ، أو نظام فاسد فيُصْلحونه ! كلَّا ، بل ليثبتوا أنهم فى حبس من حبسوا غيرُ مخطئين ، وقد وجدوا لذلك أَعواناً من حلفاءِ الدناءَة ، وأعداءِ المروءَة ، وفاسدى الأَخلاق ، وخبثاءِ الأَعراق(١) ، رضوا لأَنفسهم قول الزور ، وافتراءِ البهتان ، واختلاق الإِفك(٢) ، وقد تقدموا إلى مجلس التحقيق بتقارير محشوَّة من الأَباطيل ليكونوا بها علينا من الشاهدين .

كل ذلك لم تأْخذنى فيه دهشة ، ولم تحل قلبى وحشة ، بل أَنا على أَتم أَوصافى التى تعلمها ، غير مبال بما يصدر به الحكم أَو يبرمه القضاءُ ، عالماً بأَن كل ما يسوقه القدر ، وما ساقه من البلاءِ فهو نتيجة ظلم لا شبهة للحقّ فيه ، لأَن الله تعالى يعلم كما أَنت تعلم أَننى برىءٌ من كل ما رمونى به ولو اطلعت عليه لوليت منه رعبًا ، وكنت من الضاحكين .

نعم خنقنى الغم ، وأَحمى فؤادى الهم ، وفارقنى النوم ليلة كاملة عندما رأَيتُ اسمك الكريم ، واسم بقية الأَبناءِ والإِخوان ، تنسب إليهم أَعمال لم تكن ، وأَقوال لم تصدر عنهم ، لقصد زجِّهم فى المسجونين .

لكن اطمأَن قلبى ، وسكن جأْشى(٣) عندما رأَيت تواريخ التقارير متقادمة ، ومع ذلك لم يصلكم شرر الشر ، فرجوت أَن الحكومة لم تُرِد أَن تفتح باباً لا يذر(٤) الأَحياءَ ولا المَيِّتين .

قدّم فلان وفلان تقريرين ، جعلا فيهما تبعات الحوادث الماضية على عنق ولم يتركا شيئًا من التخريف إلا قالاه ، وذكرا أَسماءَكم فى أُمور أَنتم جميعًا أَبعد الناس عنها ، لكن لاحرج عليهما ، فإِنى أَراهما من المجانين ، ولم أَتعجب من

(١) الاخلاق (٢) الكذب (٣) اضطرا بالقلب عند الفزع
(٤) لا يدع ولا يترك .

هذين الشيخين إذ يعملان مثل ذلك الذّنب القبيح ، ويرتكبان هذا الْجُرْم الشنيع ! ولكن أخذنى العجب ـ كلُّ العجب غاية العجبُ بالغ ما شئت فى عجبى ـ إذ أَخبرنى المدافع عنِّى بتقرير قدمه فلان ، الذى أَرسلت إليه السلام ، وأَبلغته سرورى عند ماسمعت باستخدامه ، وأَنا فى هذا الحبس رهينَ .

إلى هذا الوقت لم يصلنى التقرير ، ولكن سيصل إلَىَّ ، إنما فيما بلغنى أَنه شهادة بأَقبح شيءٍ ، لا يشهد به إلا عدوٌّ مبين .

هذا اللئيم الذى كُنْت أَظن أَنه يأْلم لأَلمى ، ويأْخذه الأَسف لحالى ، ويبذل وُسْعه إن أَمكنه فى المدافعة عنِّى ! فكم قدمتُ له نفعًا ، ورفعتُ له ذكرًا ، وجعلتُ له منزلة فى قلوب الحاكمين ! كم سمعنى أَقاوم هجاءَ الجرائد ؟ ! وأُوسع محرريها لوماً وتقريعًا ؟ وأَهزأُ بتلك الحركات الجنونية ، وكان هو عَلَىَّ فى بعض أَفكارى هذه من اللائمين ! كان ينسبُ فلاناً لسوءِ القصد اتباعاً لرأْى فلان ، وأُعارضه أَشد المعارضة .

ثم لم أَنقض له عهدًا ، ولم أَبخس له وُدًّا ، وحقيقة كنت مسرورًا لوجوده موظفاً ، فما باله أَصبح من الناكثين ؟ !

آه ما أَطيب هذا القلب الذى يُملى هذه الأَحْرُف ! ما أَشدّ حفظه للولاءِ ، ما أَغْيَرُه على حقوق الأَولياءِ ! ما أَثبته على الوفاءِ ! ما أَرَقَّهُ على الضعفاءِ ! ما أَشد اهتمامه بشئون الأَصدقاءِ ! ما أَعظم أَسفه لمصائب مَنْ بينهم وبينه أَدنى مودَّة وإن كانوا فيها غير صادقين ! ما أَبعد هذا القلب من الإيذاءِ ولو للأَعداءِ ! ما أَشَدَّه محافظة على العهد ! ما أَعظم حذره مِنْ كل ما تُوبخ عليه الذمم الطاهرة ! ما أَقواه على العمل الحق ، والقول الحق لا يطلب عليه جزاءً ! وكم اهتم بمصالح قوم وكانوا عنها غافلين ؟ !

هذا القلب الذى يؤلمونه بأكاذيبهم ، هو الذى سرَّ قلوبهم بالترقية ، وملأها فرحاً بالتقدم ، ولطَّف خواطرهم بحُسْن المُعَاملة ، وَشَرَحَ صدورهم بلطيف المجاملة ، ودافع عنهم أزماناً خصوصاً هذا اللئيم !

أَفنشرحُ الصدور وهم يُحْرِجُون ؟ ونشفى القلوب وهم يُؤلمون ؟ ونفرحها وهم يحزنون ؟ تالله قد أَضلوا وما كانوا مُهْتدين . هذا القلب ذَابَ مُعْظَمُه من الأَسف على ما يَلُمُّ بالهيئة العمومية من مصائب هذه التقلبات ، وما ينشأُ عنها من فساد الطباع الذى يجعل العموم فى قلق مستديم ، وما بَقِىَ من هذا القلب فهو فى خوف على من يعرفهم على عهد مودَّته ، فإن تسللوا جميعًا بمثل هذه الأَعمال أَصبحوا من مودته خالين ، واتخذوه وقاية لهم من المضرة ، وجعلوه ترساً يُعَرِّضُونه لتلقى سهام النوائب التى يتوهمون تَفْوِيقها إليهم ، كما اتخذوه قبل ذلك سهما يصيبون به أَغراضهم فينالون منها حظوظَهم ، فقد أَراحوا تلك البقية من الفكر فيهم ، والله يتولى حسابهم وهو أَسرع الحاسبين .

آه ! ما أَظن أَن تلك البقية تستريح من شاغل الفكر فى شؤون الأَحبة وإن جاروا فى تصرفهم .

إن طبيعة هذا القلب لطبيعة ناعم الخزّ إذا اتصل بذى الوُدُّ وإن كان خشنًا ، فَصَعْبٌ أَن ينفصل ولو مزقته خشونته ، وإن هذا القلب فى علاقة مع الأَوداء كالضياء مع الحرارة ، أَيما حادث يحدث ، وأَيما كيماوىّ يدقق ، لا يجد للتحليل بينها سبيلاً . وأَظنك فى العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المتحققين .

وكتب المرحوم محمد حافظ بك إبراهيم (١) إلى الأُستاذ الإمام الحكيم الشيخ محمد عبده :

كتابى إلى سيدى : وأَنا من وعده بين الجنة والسلسبيل (٢) ، ومن

(١) يشكو اليه حاله وهو ضابط بالسودان .
(٢) عين فى الجنة وهو الشراب السهل فى الحلق .

تيهى(١) به ، فوق النَّثْرَة(٢) والإكليل(٣) وقد تعجلتُ السرور ، وتسلقتُ الْحُبُور(٤) ، وقطعتُ ما بينى وبين النوائب :

وَبَشَّرْتُ أَهلى بالذى قد سمعتُهُ فما محنَتِى(٥) إلا ليال قلائل

وقلتُ لهم : للشيخ فينا مشيئة فليْسَ لنا من دهرنا ما نُنَازِل(٦)

وجمعت فيه بين ثقة الزُّبيدىِّ(٧) بالصَّمْصَامة(٨) والحارث بالنعامة(٩) ، فلم أَقل فيه ما قال الهذَلى(١٠) لصاحبه ، حين نسى وعدهُ(١١) وحجب رفدهُ(١٢) :

«يادارَ عاتكة التى أَتَغَزَّلُ» بل أُناديه نداءَ الأَخيذةِ(١٣) فى عَمُورِية(١٤) ، شجاع الدولة العباسية ، وَأَمُدُّ صوتى بذكر إحسانه ، مدَّ المؤذن صَوْتهُ فى أذانه وأَعتمدُ عليه فى البُعد وَالقُرْب ، اعتماد المَلَّاح(١٥) على نجمة القطب(١٦) :

وَقالَ : أُصيحابى هالنى النوى(١٧) وهالهم أَمْرِى متى أَنت قافل(١٨)

فقلتُ : إذَا شاءَ الإمَامُ فأَوْبتى(١٩) قريبٌ وَرَبعى(٢٠) بالسعادة آهل

---

(١) عجبى (٢) كوكبان متقاربان بينهما قدر شبر وفيهما لطخ بياض كأنه قطعة سحاب (٣) من منازل القمر أربعة أنجم مصطفة (٤) الفرع ومعنى تسلق : تسور أىأتى الفرع من غير بابه ويروى تسلفت بالفاء (٥) محنتى : بليتى (٦) نضارب لان الشيخ كفانا صدمات الدهر (٧) أبو ربيعة عمرو بن معدى كرب ينتهى نسبه الى قحطان صحابى من شجعان الجاهلية والاسلام وزبيدى نسبة الى زبيد بضم الزاى قوم من اليمن (٨) اسم سيف عمرو (٩) اسم فرس للحارث بن عباد البكرى شيخ من العرب (١٠) نديم الخليفة أبى جعفر المنصورى العباسى كان لا يكلم الخليفة الا جوابا (١١) وعده ولم يوف ولما مرا على دار عاتكة بنت عوف قال الهذلى هذه دار عاتكة التى قال فيها الشاعر ــ يادار عاتكة الخ فعجب الخليفة كيف بدأه بالكلام على غير عادة ثم نظر الملك فى قصيدة الشاعر فوجد فيها «وأراك تفعل ما تقول» فتذكر الخليفة الوعد (١٢) عطاء (١٣) الاسيرة ويريد بها امرأة من بنى هاشم أسرها الروم فنادت وامعتصماه تعنى المعتصم من خلفاء بنى العباس فوصل الخبر الى المعتصم فقال: لبيك! لبيك ! وهم فحاربهم وخلصها (١٤) بلدة من بلاد الروم (١٥) صاحب السفينة (١٦) كوكب فى السماء تدور عليه الكواكب وهو ثابت مكانه ينظر اليه صاحب السفينة فيعرف الجهة التى هو قاصدها (١٧) العبد (١٨) راجع (١٩) رجعتى (٢٠) دارى

وها أنا متماسكٌ حتى تنحسر(١) هذه الغمرةُ(٢) ، وينطوى أَجلُ تلك الفترة(٣) ، وينظر إِلَيَّ سيِّدى نظرةً ترفعنى من ذات(٤) الصدع(٥) إلى ذات(٦) الرّجع(٧) ، وتردّنى إلى وكرى(٨) الذى فيه دَرَجْت(٩) ، ردَّ الشمس قطرة المزن(١٠) إلى أَصلها ، وردَّ الوفى الأَمانة إلى أَهلها :

فإن شاءَ فالقُرْبُ الذى قد رجوته ... وإن شاءَ فالعز الذى أَنا آمِلُ
وإلا فإنى قَافُ رُؤبة(١١) لم أَزل ... بقيد النَّوَى حتى تغول الغَوَائِلُ

فلقد حللْتُ السُّودان حلولَ الكليمِ (١٢) فى التابوت(١٣) ، والمغاضِب(١٤) فى جَوف الْحُوت ، بين الضِّيق والشدَّة والوحْشَةِ والوحدة ، لابل حلول الوزير(١٥) فى تنور العذاب ، والكافر فى موقف الحساب بين نارين : نار القيظ(١٦) ونار الغيظ

فناديتُ باسم الشيخ والقيظ جَمْرَةٌ ... تذيب دماغ الضب والعقلُ ذاهل
فَصِرْتُ كأَنى بين رَوْضٍ وَمَنْهَلِ ... تَهُبُّ الصَّبا فيه وتشدو البلابل

واليوم أَكتب إليه وقد قعدت همة النجمين ، وقصرت يدا الجديدين(١٧) عن إزالة ما فى نفس ذلك الجبار العنيد ، فلقد نمى ضِبُّ(١٨) ضغنه(١٩) علىَّ ، وبدرت(٢٠) بوادر(٢١) السوءِ منه إلَيَّ ، فأَصبحتُ كما سرّ العدوّ وساءَ الحميم(٢٢) وآلامى كأَنها جلود أَهل الجحيم ، كلما نضجَ منها أَديمٌ تجدد أَديم(٢٣) وأَمسيتُ وَمُلك آمالى إلى الزوال ، أَسرع مِنْ أَثر الشِّهَاب فى السماءِ ، ودولة صبرى إلى

---

(١) تنكشف (٢) الشدة (٣) يريد المدة بينهما (٤) الارض (٥) الشق (٦) السماء (٧) صوت الرعد (٨) يريد وطنه وأصله عش الطائر (٩) مشيت (١٠) المطر (١١) رجل من العرب كان أكثر روى أراجيزه على القاف الساكنة (١٢) سيدنا موسى عليه السلام (١٣) الذى وضعته أمه فيه وألقته فى البحر (١٤) سيدنا يونس بن متى عليه السلام (١٥) محمد الزيات وزير الخليفة مروان الحمار أدخله تنور العذاب الذى اصطنعه لتعذيب من يأمر بتعذيبه (١٦) شدة الحر (١٧) الليل والنهار (١٨) بكسر الضاد الغيظ (١٩) حقده (٢٠) أسرعت (٢١) جمع بادرة الحدة عند الغضب (٢٢) القريب الذى يهتم لامره (٢٣) الجلد .

الاضمحلال ، أحثُّ(١) من حباب(٢) الماء ، فنظرتُ فى وجوه تلك العباد ، وإنى لفارسُ العين والفؤاد ، فلم تقف فِرَاسَتى على غير بابك .

وإنى أهديكَ سلاماً لو امتزج بالسَّحَاب ، واختلطَ منهُ باللعاب ، لأَصبحتْ تتهادى(٣) بقطره الأَكَاسِرَة(٤) ، وأَمستْ تدخر معهُ الرُّهْبان فى الأَديرَة ، ولأَغنى ذات الحجاب عن الغالية(٥) والملاب(٦) .

ولا بِدْع إذا جاد السيد بالردِّ ، فقديُرى وجه المليك فى المرآة ، وخيال القمر فى الإِضاءَة ، وإن حال حائلٌ ، دون أُمنية هذا السائل ، فهو لا يذم يومك ، ولا ييأَسُ من غدك ، فأَنت خيْرُ ما تكون حين لا تظنُّ نفْسٌ بنفس خيراً ، والسلام .

الفصل السابع : فى رسائل العيادة

كتب ابن الرُّومى المتوفى سنة ٢٨٤ هـ إلى بعضهم :

أَذِن الله فى شفائك ، وتلقى داءَك بدوائك ، ومسحَ بيد العافية عليك ، ووَجه وفد السلامة إليك ، وجعل عِلَّتك ماحيةً لذُنُوبك مضاعفة لِثَوَابك .

وكتب أَبو بكر الخوارزمى المتوفى سنة ٣٨٣ هـ :

وصل كتابك ياسيِّدى ، فسرنى نظرى إليه ، ثم غمَّنِى اطِّلَاعى عليه ، لما تَضَمَّنَهُ مِنْ ذِكْر عِلَّتك ، جعلَ الله أَولها كفارةً ، وآخرها عافيةً ، ولا أَعدمك على الأُولى أَجراً ، وعلى الأُخرى شُكراً .

وبودى لو قَرُب عَلَىَّ متناولُ عيادتك ، فاحتملت عنك بالتعهد والمساعدة بعضَ أَعباءِ(٧) علتك ، فلقد خَصَّنى من هذه العلة قسمٌ كَقسمك ، ومرض قلبى فيك لمرض جسمك ، وَأَظُنُّ أَنى لو لقيتك عليلاً لانصرفت عنك ، وأَنا أَعلَّ منك فإِنى بحمد الله جلدٌ(٨) على أَوجاع أَعضائى ، غير جلد على أَوْجاع أَصدقائى ، شفاك الله وعافاك .

---

(١) أسرع (٢) ما يرى على وجه الماء من الفقاقيع (٣) تجعله هدية (٤) الملوك (٥) الطيب (٦) الزعفران (٧) جمع عبء (٨) شديد .

الفصل الثامن : فى رسائل التهانى

كتب فى التهنئة بميلاد الأولاد أبو منصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

أَهْلاً وسهلاً بعقيلة(١) النساءِ ، وأُم الأَبناءِ ، وجالبةِ الأَصهار ، والأَولاد الأَطهار :

ولو كان النِّسَاءُ كمثل هٰذى ... لفضلت النِّسَاءُ على الرجالِ

فما التأْنيث لاسم الشمس عيبٌ ... ولا التذكير فَخْرٌ للهلالِ

والله يُعَرِّفُكَ البركة فى مطلعها ، والسعادة بموْقِعها ، فالدنيا مؤنثة ، والناس يخدمونها ، والذكور يعبدونها ، والأَرض مؤنثة ، ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرية ، والسماءُ مونثة ، وقد زينت بالكواكب ، وَحُلِّيت بالنجوم الثواقب(٢) ، والنفس مؤنثة ، وهى قِوَام الأَبدان ، وملاك الحيوان ، والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأَجسام ، ولا تحرك الأَنام ، والجنة مؤنثة ، وبها وُعِد المتّقون ، وفيها تنعم المرسلون فهنيئاً هنيئاً ما أَوليت وأَوزعكَ(٣) الله شكر ما أُعطيت ، وأَطال بقاءَك ما عُرِف النسل وبقى الأَبد .

وكَتب بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ إلى الداوردى يهنئه بمولود :

حَقًّا لقد أَنجز الإِقبال وعده ، ووافق الطالع سعده ، وإِن الشأْن لفيما بعده ، وحبذا الأَصلُ وفرعُه ، وبورك الغيثُ وصوبه(٤) ، وَأَيْنع الرَّوْض ونوره(٥) ، وحبذا سماءٌ أَطلعت فرقدًا ، وغابةٌ(٦) أَبرزت أَسداً ، وظهرٌ وَافق سنداً ، وَذِكْر يبقى أَبدًا ، ومجد يُسمى ولداً ، وَشَرَفٌ لحمة وسدى(٧) :

أَنجب(٨) كُلٌّ من وَالديهِ به ... إِذا نجلاه فنعم ما نَجَلَا

فأَلفياه(٩) شِهَابَ ذكاء ، وَبَدْر علاء .

---

(١) كريمتهن (٢) المضيئات (٣) أقدرك (٤) مطره وهنا كناية عن الولد (٥) زهرة الشجرة وهو كناية عن الولد أيضا (٦) موضع الاسد الذى يألفه والمراد أصوله (٧) كلاهما من لحمة الثوب وسداه وهو كناية عن الصرف ظاهرا وباطنا (٨) ولداه كريما (٩) وجداه .

وَوَجداهُ ابن جلا(١) أَبْيَضَ(٢) يدعى الجفلى(٣)
لمثله أَولى فلا إِذا النَّدى(٤) احتفلا

وكتب فى التهنئة بالقدوم أَبو منصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

أُهَنِّئُ سيِّدى ، وَنَفسى تطيب بما يَسَّرَ الله من قدومه سالماً ، وَأَشْكُرُ الله على ذلك شكرًا دائماً . جعلَ الله قدومك مَقْرُوناً بالخيرَة التامة العامة ، والكفاية الشاملة الكاملة .

غيبة المكارم مقرونةٌ بغيبتك ، وأَوبة النعم موصولةٌ بأَوبتك ، فوصل الله قدومَك من الكرامة ، بأَضعاف ما قرن به مسيرك من السلامة ، وَهَنَّاك بإِيابك وبلَّغك غاية محابك ، مازلتُ بالنِّية معك مسافراً ، وباتصال الذِّكْر والفكر ملاقياً إِلى أَن جمع شمل سُرُورِى بأَوبتك وسكن نافرُ قلبى بعودتك .

وكتب أَيضاً فى التهنئة برمضان :

ساق الله إِليك سعادة إِهلاله ، وَعَرَّفك بركة كماله ، لقَّاك فيه ما ترجوه ورقاك إِلى ما تحبُّ فيما يتلوه ، جعلَ الله ما يطول من هذا الصوم مقـرونـاً بأَفضل القَبول ، مؤذناً بدرك البغية ونجح المأْمول ، ولا أَخلاك من بر مرفوع ، ودعاءٍ مسموع ، قابل الله بالقبول صيامك ، وبعظيم المثوبة تهجدك وقيامك ، أَعاد الله إِلى مولاى أَمثاله ، وتقبّلَ فيه أَعماله ، وأَصلح فى الدين وَالدُّنيا أَحْوَالَه وبلغه منها آماله . أَسعد الله مولاى بهذا الشهر ، ووفاه فيه أَجْزَل المثُوبة والأَجر .

وكتب أَبو الفرج الببغاءُ المتوفى سنة ٣٩٨ هـ تهنئته :

سيِّدى ـ أَيَّدَه الله ! ـ أَرفعُ قدراً ، وأَنبهُ ذِكْراً ، وأَعظمُ نبلاً ، وأَشهرُ

(١) واضح الامر (٢) نقى العرض شريفا (٣) دعاهم بجماعتهم وعامتهم (٤) مكان اجتماع الناس والاحتفال هو التجمع : أى ، لمثله نصوغ التهانى أولى فلا يحسن أن تصاغ لغيره :
بشرى فقد انجز الاقبال ما وعدا وكوكب المجد فى أفق العلا صعدا

فضلاً ، من أَن نهنئه بولاية ، وإن جَلَّ خطرها وعظم قدرها ، لأَن الواجب تهنئة الأَعمال بفائض عدله ، والرعيَّة بمحمود فعله ، والأَقاليم بآثار رياسته والولايات بسمات سياسته ، فعَرَّفهُ الله يُمن ما تولاه ورَعَاه فى سائر ما اسْتَرْعَاهُ ، ولا أَخلاه من التوفيق فيما يعانيه ، والتسديد فيما يُبرمه ويمضيه .

وكتب أَستاذنا الشيخ حمزة فتح الله :

أَى جهابذة(١) الكنانة(٢) نُبَّال الجنابة(٣) مياه الإِجَّانة(٤) أَبناءَ تلك اللغى صناديد هذه الوغى ، إليكم يُسَاقُ هذا الحديث ، فى القديم والحديث ، عن هذا النبأْ العظيم والمجد الصميم ، مالى أَرَى فى لغتنا الشريفة ــ ويعلم أَول النهى أَية من اللغات أَحَقُّ بهذا النبر(٥) أَن يُصْرَف إليها عند الإِطلاق ــ هُبُوباً غِبَّ خمول ، وتَرَّة(٦) بعد نحول ، ونوراً عقيب أُفول ، ونَوْرا إِثر ذبول ، وَصَباً وراءَ قَبُول ، وعدلا ولا حَيْف(٧) وقوة ولا ضعف ، وما يشاءُ المُطْرى(٨) فى هذا القبيل من العطف ، آمنت بالقدر المقدور والبعث والنشور ، كذلك يحيي الله الموتى .

أَليس رجلٌ وَاحِدٌ أَسفرت(٩) عنه عناية التوفيق ، فأَلقت إليه المقاليد(١٠) ، بلى(١١) ، ولكنه الواحد الذى يقول فى مثله صاحب بنى ميكال :

والناسُ أَلْفٌ منهُمُ كواحد وَوَاحد كالأَلف إن أَمْرٌ عنى(١٢)

إى(١٣) ورب تلك البَنِيّة(١٤) ، بارئْ(١٥) نسيم البرية ، إنه لرجلُ البلاد ، رجل الحزم والسداد : أَلَمْ نر جَنَانه(١٦) ، وحنانه وبنانه(١٧) وبيانه ، عوامل لهذه اللغة : لغة الفُرْقان(١٨) ، لغة الأَوطان ! لا ــ بل أَمضى من العوامل حتى

---

(١) الحذاق ذوو النقد (٢) ما يوضع فيها السهام والمراد أنهم نقادون للمسائل (٣) بضم الجيم الترس التى يتقى بها (٤) الاجابة بالكسر اناء تغلى فيه الثياب وما حول الفراس شبه الاحواض والجمع أجاجين (٥) اللقب الرفيع (٦) امتلاء الجسم بالسمن (٧) الظلم والجور (٨) المدح (٩) ظهرت (١٠) المفاتيح (١١) حرف جواب تثبت المنفى (١٢) أهم الناس وأقلهم (١٣) حرف جواب مثل نعم (١٤) بفتح الباء وزن غنية الكعبة (١٥ خالق (١٦) قلبه (١٧) انامل أصابعه (١٨) لغة القرآن الكريم

ظلت (آدابها) فرائض ، وقد كانت وما بالعهد من قِدَم (نوافل) ومن حُلِيها أَجياد(١) اللهجات عواطل . اللهم إلا بقية ثمد ، قد منيت(٢) صُحُفُها الأَود(٣) ، ففقدتُ الْجِلْدَ وَالْجَلَدَ(٤) وبعد أن راج سوق الرطانة(٥) ونضب(٦) ماءُ الإبانة وخبت(٧) أنوارُ البلاغة ، وَذَوَت(٨) أنوار(٩) النباغة وكسد البيانُ وقُوِّض(١٠) منه البنيان ، وأَصبحت العربية لُقًى(١١) وبضاعة مُزْجَاة(١٢) ، فأَيهذا اليراع(١٣) لا أَقل من نفثات فى صَوْغ كُلَيمات تقدر هذه النعمة قدرها ، وتمنحها(١٤) شكرها . . .

وَيْحَكَ !(١٥) هُبَّ(١٦)من سِنَتِك(١٧) فى حلية مِقَتِكَ(١٨) ، وانض(١٩) حسامك(٢٠) واشحذ كهامك(٢١) وانثل(٢٢) كِنَانتك(٢٣) واعمل بنانتك(٢٤) وصغ إن استطعت تهانئَ غُرًّا ، بل عقوداً درًّا بل أَنجماً زُهْرا ، مُشْتَارا(٢٥) من خلايا ذلك الأَرى(٢٦) الشهى(٢٧) النَّدِى الزكى ، ما جَرَسَت(٢٨) نحلة الشيح(٢٩) والْخُزَامى(٣٠) وأَطايب الثمار ، وأَزاهى الأَزهار تهدين أَولئك المصانعُ(٣١) شكراناً لتلك النعم تجميعاً لشواردها وتقييدا لأَوَابدها(٣٢) .

---

(١) الاعناق (٢) اختبرت (٣) الاود الكد والتعب ومراده اعتنى الناس بها لا عن بذل جهد (٤) القوة (٥) كل لسان يخالف العربية (٦) غار وذهب (٧) خفيت (٨) ذبلت (٩) جمع نور بالفتح الزهر (١٠) نقض (١١) بالقصر مطروحة (١٢) قليلة (١٣) القلم (١٤) تعطيها (١٥) كلمة رحمة (١٦) استيقظ (١٧) نومك (١٨) محبتك (١٩) سله من غمده (٢٠) السيف القاطع (٢١) شحذه حده ، والكهام بفتح الكاف السيف الكليل (٢٢) استخرج ما فيها من النبال (٢٣) الجراب الذى توضع فيه النبال والسهام (٢٤) أصبعك (٢٥) كثير الشرى (٢٦) العسل (٢٧) ما يشتهى (٢٨) أكلت وأصله جرس الشيء جرسا لحسه بلسانه (٢٩) نبت طيب الرائحة (٣٠) بضم الخاء نبت زهره أطيب الازهار (٣١) جمع مصقع البليغ (٣٢) لغرائبها .

كما شبهها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصطدوق ، وإشفاقاً عليها من الجماح (١) ، بعد ذلك من الارتياح .

فإليكم بنى هذه اللغة (كتابى هذا) تهنئة بتلك النهضة العربية فى إبَّانٍ ــ كما تعلمون ــ وجهه مكفَهِرّ(٢) وبدنه مقشَعِرّ ، وثناء على العزمة (التوفيقية) والعناية (الرياضية) .

على أن لذلك الوزير سوى ذلك أَيادِيَ(٣) مبرورة ، ومساعى مشكورة أَكسبت الوطن وأَهليه نهضات ، وأَقالته كثيراً من العثرات .

لكننى آثرت(٤) تلكمُ النهضة العربية بتهنئتكم بها ، أَى بنى جلدتى(٥) ، وإخوان حرفتى ، لكونها فيما أَخال لا بل فيما أَتيقَّنُ ويتيقن أَولو الحِجَا(٦) أَعظم النهضات وأَيمن(٧) ما اجتازه(٨) الوطن من عقبات ، ولو كان فى نطاق الإمكان زيادة البيان فى هذا الشَّأْن ، لأَسهبْتُ(٩) وأَوسعتُ ، وأَطربتُ(١٠) وأَطنبت ، ولو لم يكن فى تلك النهضة إلا أَن حياة الأُمَّة حياة لُغتها فحسب لكفاكَ وشفاكَ وأَغنَاكَ ، وكانَ ذلك قُصَارَاك(١١) وَحُمَادَاك(١٢) .

وكتب المرحوم الأُستاذ محمود بك أَبو النصر :

إنسان عين الفضائل ، عزيزى فلان المحترم : نور على نور ، وشفاءٌ لما فى الصدور شفاؤك أَيها العزيز من ذلك الرمد . قد أَنجز الإِقبال ما وعد ، وابتهجت النفوس وتزينت الطروس ، واهتزت الأَقلام وأَعلنت بالسلام .

وكيف لا ! وأَنت واحد الكُتَّاب وإنسان عين الآداب ؟ ! رمدت فرمدت

---

(١) الذهاب بسرعة (٢) متعبس (٣) نعما من ذلك الوزير الخطير مصطفى باشا رياض المتوفى سنة ١٣٣١ هـ (٤) اخترت (٥) بنى عشيرتى (٦) العقل (٧) أكثر بركة (٨) سلكه (٩) لاكثرت الكلام (١٠) مدحت (١١) مبلغ جهدك وغايتك (١٢) غاية ما تحمد عليه .

وشفيت فاهتزت وربت . وقد كان طرفها كليلا ، وفؤادُها عليلا . واليوم زال العناءُ ، وحق الهناءُ ووافى الشفاءُ ؛ فكان بردًا وسلاماً على القلوب وقميص يوسف فى أجفان يعقوب :

فلك الهناءُ بصحة ميمونة ... أبداً على مرّ الدُّهور تدُومُ

وإن الله ما قضى بما قد مضى ، إلا ليُعَرِّف سيِّدى ما عانته من القلوب ومنزلته من الفضل . وهذه حال العافية قد خلعت عليك ، وثياب السلامة سبقت إليك فوافى السرور ، وعم الحُبور . واللهُ يبلغك بالصحة والأعمال. منتهى الآمال والسلام .

وكتب الوزير المرحوم عبد الله باشا فكرى المتوفى سنة ١٣٠٨ ﻫ فى تهنئة العيد :

هذا يوم نشر البشر فيه أعلامه ، وأضاءت الدنيا وازدانت الآفاق ، ببهجة هذا العيد السعيد ، وأخذ الأحبة يتهادَوْن رسائل البشائر فيما بينهم ، وكل حزب فرحون بما لديهم ، بما أودع فيهم من روابط المحبة وعوامل الاتحاد السارية فى النفوس ؛ أما أنا فعيدى ، وبهجة نفسى ، وسرور فؤادى دوام إقبال الزمان عليك بوجه النصر وعَوْدُ أعياد السرور على جنابك الرفيع فمثلك تشرق الدنيا بطلعته ، وتفرح الأعياد برؤيته :

وأرَى الحياة لذيذةً بحياته ... وأرَى الوجود مشرقاً بوجودِهِ
لو أننى خُيِّرتُ من دهرى المنى ... لاخترتُ طول بقائه وخلودِهِ

أعاد الله عليك أيها الأخ أمثاله وأمثال أمثاله فى صفاءٍ وهناءٍ .

الفصل التاسع : فى رسائل التعازى والتأبين

كتب أبو منصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ ﻫ :

خبر عز علىَّ مستمعه ، وأثر فى قلبى موقعه . خبر تستاءُ(١) له المسامع وترتج منه الأضالع ، خبر يهدُّ الرواسى(٢) ويفاق الحجر القاسى . كادت له القلوب تطير ، والعقول تطيش ، والنفوس تطيح (٣) . خبر يشيب الوليد ، ويذيب

(١) تتألم وتتأثر من أجله (٢) الجبال (٣) تهلك .

الحديد ، قد كاد من الحزن أن تنقبض الألسن عن هذا النعى الفادح(١) وتخرس ، وتقصر الأيدى عن التعزية بهذا الرزء الفادح(٢) وتيبس .

وكتب أبو الفضل بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

إذا ما الدهر جرَّ على أناس مصائبه أناخ بآخرينا

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

أحسن مافى الدهر عمومه بالنوائب ، وخصوصه بالرغائب ،فهو يدعو الجفلى(٣) إذا ساء ، ويخص بالنعمة إذا شاء . فليكفر الشامت : فإن كان أفلت(٤) فله أن يشمت . ولينظر الإنسان فى الدهر وصروفه ، والموت وصفوفه ، من فاتحة أمرهِ إلى خاتمة عمره ، هل يجد لنفسه أثراً فى نفسه ؟ أو لتدبيره عوْناً على تصويره ؟ أم لعمله تقديماً لأمله ؟ أم لحيله تأخيراً لأجله ؟ كلا . بل هو العبد لم يكن شيئاً مذكوراً ، خُلق مقهوراً ، فهو يحيا جبراً ، ويهلك صبراً ، وليتأمل المرءُ كيف كان قبلاً ؟ ! فإن كان العدم أصلاً ، والوجود فضلاً ، فليعلم الموت عدلاً .

والموت ـ أطال الله بقاءَ مولاى ـ خطب قد عظم حتى هان ، وأمر قد خشن حتى لان ، ولعل هذا السهم قد صار آخر ما فى كِنانتها(٥) وأزكى(٦) ما فى خزانتها ، ونحن معاشر التبع نعلم الأدب من أقواله ، والجميل من أفعاله ، فلا نحثه على الجميل وهو الصبر ، ولا نرغبه فى الجزيل وهو الأجر ، فليرَ فيهما رأيه .

وكتب أيضاً :

ياسيدى : المصاب لعمر الله كبير ، وأنت بالجزع جدير ، ولكنك بالصبر أجدر . والعزاء على الأعزة رشد كأنه الغىّ ، وقدمات الميت ، فليحى الحىّ .

---

(١) الذى يثقل الناس ويهمهم (٢) المصيبة (٣) يدعو الناس بعامتهم وجماعاتهم (٤) أطلق وخلص وسلم من نوائب الدهر (٥) الجراب الذى توضع فيه السهام (٦) أطهر وأنفس لانه لايحرز الا ما كان نفيسا .

وكتب فقيد اللغة الشيخ إبراهيم اليازجى المتوفى سنة ١٩٠٦ م :

أشباحٌ تروح وتجىءُ ، وآجال تمسى وتغتدى ، وأنفاس تتقطع من دونها حزناً وأسفاً ، وعبرات تتفطر وَجْدًا ولهفاً . وما عمدت الأقدار إلى استنزاف مدمع ، ولا أرادت الأيام إيلام موجع . إنما هى سُنَّة الخلق : كون يليه زوال وعقد يسبقه انحلال . إن لكل شىءٍ أجلا موقوتاً . وإن لكل أجل سبباً مقدورًا ، وإن الإنسان فى كل ذلك شاهِدٌ يسمع لاهياً ويبصر ساهياً . وليس فى يده أن يسترد ماضياً ولا أن يرد آتياً . لقد وَدَدْت أن أُعزيك ، لولا مَا يُغالبنى على العزاءِ من كبد حرى ، ومُقْلة شكرى ، وزفرة تترى . ثم وَددت أن أَستبكيك ، لولا أنى بكيت حتى لم أدع فى البكاءِ من واد ، وأحييت ليالىَّ بالنوح حتى أَلمَّ بى مابالنجم من سهاد ، ثم لم يزدنى البكاءُ على سقم جسدى ، ولم يزدنى النوح على صفر يدى إلا من كبدى . وإن الأقدارسهام إذا انطلقت لم ترد ، وإن المتطلع إلى الفائت لطويل شقة الكمد ، وإن الخطوب لهِىَ هى وإنما تتفاوَتُ عند الجلد :

وإن الحَصى عند الْجَزُوع ثقيلة ... وضخم الصفا عند الصبور خفيف

والله المسئول فى إطالة بقائك قرة للعيون وجبراً لخاطر المحزون بمنه وكرمه .

تأبين الأحنف بن قيس(١) :

مات الأَحنفُ بن قيس بالكُوفة فمشى مصعب بن الزبير فى جنازته بغير رداءٍ(٢) . وقال قوم : مات سيد العرب . فلما دفن قامت امرأة على قبره فقالت :

---

(١) اسمه الضحاك وكان سيد تميم فى عهده معروفا بالعقل والدهاء والعلم والحلم الى ثبات جنان وحسن بيان ، وحياته مملوءة بجلائل الاعمال وكريم الفعال توفى سنة ٦٧ هـ (٢) كانت عاداتهم فى جنائز العظماء .

لله دَرّك (١) من مِجَنّ(٢) فى جنن ومُدْرَج فى كفن . فنسأل الذى فَجَعَنا بموتك وابتلانا بفقدك أن يجعل سبيل الخير سبيلك ، ودليل الرشد دليلك ، وأن يوسع لك فى قبرك ، ويغفر لك يوم حشرك . فوالله لقد كنت فى المحافل شريفاً ، وعلى الأَرامل عطوفاً . ولقد كُنت فى الحىِّ مُسَوَّداً وإلى الخليفة موفداً ، ولقد كانوا لقولك مستمعين ولرأيك متبعين .

ثم أَقبلت على الناس فقالت : أَلا إن أَولياءَ الله فى بلاده شهود عبادِهِ وإنى لقائلة حقًّا مُثْنية صدقاً ، وهو أَهل لحسن الثَّنَاءِ وطيب البقاءِ . أَمَا والذى كنت من أَجله فى عدَّة ومن الحياة إلى مُدَّة ومن المقدار إلى غاية ومن الآثار إلى نهاية ، الذى رفع عملكَ لمَّا قضى أَجلَكَ ، لقد عشت حميداً مودوداً ، ومت سعيداً مَفْقوداً(٣) . ثم انصرفت وهىَ تقول :

لله دَرَّك يا أَبا بحر ... ماذا تغيَّب منك فى القبر
لله درك ! أَىَّ حشو ثرى ... أَصبحت من عُرْف ومن نكر
إن كانَ دهر فيك جَدَّ لنَا ... حدثَانَهُ ووهت قوى الصبر(٤)
فلكم يد أَسديتهَا ويد ... كانت ترد جرائر الدهر

ثم انصرفت . فسئل عنها فإذا هىَ امرأَته وابنة عمه (٥) فقال الناس : ما سمعنا كلام امرأَة قط أَصدق ولا أَبلغ منه .

تأْبين الإسكندر :

لما جُعِل الإسكَندر فى تابوت من ذهب تقدم إليه أَحد الحكماء فقال :

---

(١) الدر : اللبن والعمل ، ولله درك : كلمة تعجب (٢) أجنه : ستره والجنن : القبر ومن بدائع العربية أن مادة (ج ن ن) تدل على الستر كالجن والجنون والجنة والمجن والجنان والجنين (٣) يقولون مات فلان غير حميد ولا فقيد أى غير مكترث لفقدانه فقولها : مفقودا تريد يحزن الناس فقدك (٤) حدثان الدهر : نوائبه (٥) ذكر صاحب بليغات النساء أن اسمها صفية بنت هشام المنقرية .

كان الملك يخبأ الذهب وقد صار الآن الذهب يخبؤه .

وتقدم إليه آخر والناس يبكون حوله فقال : حَرَّكنا بسكونه .

وتقدم إليه آخر فقال : كان الملك يعظنا فى حياته وهو اليوم أَوعظ منه أَمس(١) . وتقدم إليه آخر قائلا : قد طوّف الأَرض وتملَّكها ثم جُعِلَ منها فى أَربعة أَذرع . ووقف عليه آخر : انظر إلى حلم النائم كيف انقضى ، وإلى ظل الغمام وقد انجلى . ووقف عليه آخر : مالك لا تُقِلُّ عضواً من أَعضائك وقد كنت تستقلُّ مُلْكَ العباد ؟ !

وقال آخر : مالك لا ترغب بنفسك عن ضيق المكان ، وقد كنت ترغب بها عن رَحْب البلاد ؟ !

الفصل العاشر : فى رسائل الأجوبة

كتب عبد الله باشا فكرى المتوفى سنة ١٣٠٨ هـ :

سيِّدى سلَّمك الله وحيَّاك وأَسعدنى برؤية حُمَيَّاك ، وزاد عزَّك وعُلياك وحرس دينك ودنياك ، وجمعنى على بساط المَسَرَّة وإياك ، ولاحرمنى دوام لقياك ولا بَرح مبتسم الثغر بمحاسن معاليك ، مباهياً أَعصار الأَوائل بأَيامك ولياليك محلياً أَجياد المفاخر بزواهر لآليك . ورد علىَّ كتابُكَ الكريم مورد إعزاز وتكريم ، فبَلَّ بعض ما بالجوانح من الصدى ، وأَنعش ولا انتعاش الزهر بمباكرة الندى ، وجلا عَلَىَّ من البلاغة رَوْضاً غَضًّا ، وأَدار لدى صفواً من سُلاف المحبة محضاً ؛ وهزنى هزة النشوان شوقاً وطرباً ، واستفزنى بمعجز آياته الحسان عُجْباً ، وعَجَباً ونشر عَلَىَّ من محاسن لفظك الحر وكلماتِكَ الغرّ ، ما يخجل الدرارى ويفضح الدرّ .

---

(١) أخذ أبو العتاهية هذا المعنى فقال :

وكانت فى حياتك لى عظات ... وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وكتب أيضاً وهو بالآستانة فى يوم برد كثير الأمطار :

كتبتُ إليك والأمطارُ سَاجمة(١) بطَلِّهَا(٢) وَوَبلِهَا(٣) وعساكر البَرْدِ وَالبَرَد هاجمة بخيلهَا وَرَجْلهَا(٤) والسماءُ مُتَلفعة بأذيال السحَاب ، وكأن الشمس خافت من الطلِّ فتوارت بالحجَاب ، والجو مسكيّ الرداء ، عنبرى الأرجاء ، كأنه وعليه ثوب الغيم مزرُورٌ ، قد وَجَل(٥) من صولة البرد فلبس فَرْوَة السَّمُّور والغمام قد أناخ على الأُفق بكلاكِلِه(٦) ، وهز من البرق بيض مناصله(٧) ، ونَشَرَ فى الجو طرائق مطارفه(٨) ، وجاد على الأرض بتليده(٩) ، وطَارفه ، وثقلَ على كاهل الهواء كالطير بَلَّ جنَاحَهُ بالماءِ ، وَقَرُب حتى كاد يُمسكُ باليدين وَيُعتصر بالراحتين ، أو كأنه مرآة مُذَهَّبة تبدو وتخفى ، أو جَذْوَة (١٠) ملتهبة توقدُ وتُطفى ، والرعد يُهَدِّدُ بزواجِرِ زماجره السحائب فَيُبْكيها ، والطير يتلوى سُطُور الندى فى طُرُوس الثرى(١١) فيُمْليهَا ، وَيُطرب بأفنان(١٢) الألحان أفنَان(١٣) البانِ فيُعليها ويثنيها ويقرأْ على رؤوس الأغصَان أورَادَه الحسان فيقريها ويُرْقيها ، وقوسُ السماءِ يرمى بسهام وَبْلِهِ(١٤) جنوب الشقائق(١٥) فَيُصْميها(١٦) ويُدْميها ، والريح تمسحُ أخْلَافَ(١٧) الغمائم فتُمْريها(١٨) ، وترضعُ بِدَرِّهَا بنات النبات فى جُحُور أراضيها فتُرْبيها وتَرْبيها ، وترصع بدُرِّها تيجان القضبان ، وتارة تجعله عقوداً فى تراقيها(١٩) ، أو دموعًا فى مآقيها ، وكأن الحرَّ خاف من بنادق البرد ، ومدافع

---

(١) سائله (٢) الندى (٣) المطر الكثير (٤) المشاة على أرجلهم (٥) خف (٦) بجماعاته (٧) سيوفه (٨) ثياب من خز مربعة والمراد أنه كثر حتى غطى السماء (٩) المال القديم والطارف ضده والمراد كثر عطره (١٠) بتثليث الجيم الجمرة (١١) الارض (١٢) جمع فنن الغصن (١٣) الاغصان الناعمة (١٤) المطر الكثير (١٥) شقائق النعمان نبت أحمر (١٦) ليرميها ومراده أنه يرويها بالمطر حتى تزهو فتحمر (١٧) جمع خلف بالكسر الضرع (١٨) مرى الناقة يمريها اذا مسح ضرعها لتدر اللبن (١٩) أعناقها .

الرَّعد ، ففرَّ إلى مصر ونواحيها ، وأصبح نزيل من فيها ، لكرم أهليها ، وكأن غيرها بخلت عليه فلم تقبله عندها ضيفًا ، أو غلط الناس فى حساب الفُصُول فظنوا شتاها صيفاً .

وكتب حفنى بك ناصف إلى الشيخ على الليثى :

وصل يا مولاى إلى هذا الطَّرَف ، ما خصصت به العبدَ من الطُّرَف « قفص » من عنب كاللؤلؤ فى الصدف ، تتألق عناقيده كأنها من صناعة « النَّجف » ولعَمْر الحق إنها تحفة من أحلى التُّحف لا يُعثر على مثلها إلا بطريق الصُّدَف فقابلناه لثماً بالأفواه وَرَشْفاً بالشفاه ، واحتفينا(١) بقدومه كل الاحتفاء ، ولم نفرِّط فى حبَّة عند اللقاء ، بل حلَلْنَا له الْحُبَى(٢) ، وقلنا أهلًا وسهلًا ومرحبا ، وأوسَعَنَاهُ عضًّا ولثماً ، وتناولناه تخميشاً (٣) وضمًّا ، وحفظنا فى صدور ناسره المكنون وطويناه فى غُضُون(٤) البطون ، فطربت من تعاطيه الأرواح ، ولا غَرْو فهو أصلُ الرَّاح(٥) ، وانتشينا(٦) ولم نحمل وزرًا ، وثملنا(٧) ولم نذق طعماً مُرًّا . فهو كبيان مُهْديه سِحْرٌ ولكنهُ حلال ، ولَعِبٌ إلا أنه كمال . فإن أكسبت الشمول شاربها قوة فى الجنَان . ونفحت(٨) ذائقها طلاقة فى اللسان ، فقد سَرَت فى أجسامنا من حرارته شجاعة « ليثيَّة » ودبت فى كلامنا من مذاقته فصاحةٌ « علوية » وخلُصَت إلينا منه فوائد لا يحيط بها العلم ، ونجمت(٩) عنه منافع ليس يصحبُهَا إثم . فإن زعم الأولون أن فى الخمر معنى ليس فى العنب ، فقد تغير الحال فى هذه الهدية وانقلب ، وانكشف للمتأخرين حقيقة الأمر أن فى العنب معنى ليس فى الخمر . وكان الأحرى بهذا العنب أن يُنَاط(١٠) بالنُّحور أو تُزين به الصدور ، فما هو إلا اللؤلؤ لكنه سَلِم من سجن البحَار ، وما هو إلا الدُّرّ لكن ليس فيه صغار(١١) .

---

(١) بالغنا فى اكرامه وأظهرنا الفرح والسرور (٢) الحبال
(٣) المغازلة والملاعبة (٤) طيات البطون (٥) الخمرة (٦) شكرنا
(٧) سكرنا أيضا (٨) أعطت (٩) أظهرت (١٠) يعلق (١١) بضم الصاد الصغيرة .

وما ضره أن ضمَّه القفص حصَّةً من الحصص . فإن كريمَ الطير يودعُ فى الأَقفاص ، والقلب ليس له من حنايا الضلوع خلاص . فلا بِدْع أن تُسْتقلَّ فى حبَّاته حبَّات القلوب ، ويُسْتَمْلح فى جنب حلاوته رُضاب(١) المحبوب . وكأَن الثريا لما أَخذت شكلهُ فَغَرَ(٢) الهلالُ فاه لعنقودها يريد أَكله فهو يطاردها فى السماء ويأْخذ عليها الطريق من الوراء ، وهى تجرى من الأَمام مخافة الالتهام ؛ هذا لمجرد تشابه فى الشكل ، فكيف بالثريا لو أَشبهتهُ حلاوة وريًّا(٣) فلله تلك العناقيد وما أَشدَّ تألُّقهَا ! وأَصفى ماءها وأَحسن رونقها ! من كل عنقود تخاله عمود الصبح أَحاطت به الدَّرارى ، أَو غصن البان تعلقت به القمارى .

فسقى الغيثُ أَرضاً أَنبتته ، ولا ثَلَّ(٤) الدهر عُرُوشاً حملته ، وأَرضاً عرَّفتنا بأَثمارها حلاوة الجنة ، وأَبرزت لنا لمحةً من محاسنها المستكنَّة ، وأَنسانا عنبها ذكرى دمشق(٥) وأَزمير ، وأَنبأَنا غارسها أَن مصر خيرُ مُسْتَقر ، ولا ينبئك مثل خبير ، وعووساً كالعروس : تتيه(٦) فى الحلى والملبُوس تحسدها المجرَّة(٧) فى السماء وتودُّ لها هذه البهجة والرُّواء(٨) . ولا زال مولاى يُهْدَىَ ويَهْدِى ، وصنائعه تعيد فى ثنائه وتُبدى .

فأَجابه الشيخ على الليثى :

أَما بعد . فقد وصل كتاب القاضى الفاضل ، فأَرج الأَرجاءَ بلطيف فواضله شريف الفضائل . ما كنت أَظُنُّ أَن يحصل من زبيبة خَمَّاره ، حتى رأَيتُ القاضى الفاضل سبكه فى قوالب شتى وصاغه ، وأَتى بما أَدهش اللب من أَساليب البلاغة . فتارة عقداً فى النحور ، وتارة فى ميادين الطلب تطاردُهُ البدور ،

(١) ريقه (٢) فتح (٣) منظرا حسنا (٤) لا هرم (٥) عاصمة الشام سميت باسم بانيها دمشاق بن دمشاق بن كنعان (٦) تتبختر (٧) نجوم كثيرة لا تدرك بمجرد البصر وانما ينشر ضوءها فيرى كأنه بقعة بيضاء (٨) يضم الراء حسن المنظر .

وآونة دراً مكبراً ، ومرّة خمراً معتبراً ، وساعة دوالى «نجفة» ، وساعة غصناً تعلق به الهزَار(١) وأليفه :

تكاثرَت الظِّباءُ على خَراشٍ   فما يَدْرِى خراشُ ما يصيد

عجبًا لك أيها الفاضل ! هذا مع اشتغال بالك ، وإقبالك على ما لديك من مراعاة عدلك واعتدالك ! فكيف لو تفرَّغْتَ لهذا الأمر ! ؟ ولإراحة النفس، اعتصرتَ من العُنقود قدحاً من خمر ، وامتطيْتَ(٢) طرَفَ اليراع منتهجاً مناهج الطِّرْس ، وَدَبَّجْتَ(٣) بياض صفحاته بمحاسن حلى النِّفس(٤) فلله أنت من بليغ بلغَ ما يريد ، وقلَّدَ فرائد آدابه كلّ جيد ! وأفاد السِّحْر منثوراً فى فواصله ، وأقام بعوامل أقلامه تثقيفَ عوامله ! وأوجب علينا الشهادة له بالسبق ، فأذعَنّا مسلِّمين والحقُّ أحق ـ هذا ، ولولا أن يقال فلان جفَا ، وما احتفل بكتاب أخيه ولا احتفَى(٥) ، وإن كان شيبى يُلزِمُنى ذلك ، كما أن شباب (البيك) يسلك به أقوم المسالك ، لستَرْتُ عيِّى وما أشَرْتُ ، ورأيت طَيِّى خيراً لى مما نشرت ، وجعلت كتاب سيِّدِى فى عنق تميمَةً(٦) ورَوّحْتُ النّفس تيمناً(٧) بمس آياته الكريمة ، وقلت : كفانى ما أحاط بالعنق من قلائده ، حيث العبد لا يبلغ الفخامة كمال سيِّده .

وهبْنِى قُلْتُ هذا الصبح ليلٌ   أيعمى العالمون عن الضياء ؟

لا زالت بُرُدُ الترسُّل بيننا مُستمرّة ، ومدد التّوسل على جناح التقرب مستقرة ، ولابَرِحَ الجناب فى كلِّ بداية ، يترقى كما يحب من غاية إلى غاية والسلام .

الفصل الحادى عشر : فى رسائل الوصايا والشفاعات

من وصية عمر بن الخطاب لسعد بن أبى وقاص فى غزوة الفرس :

إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خِذلانهِ بكثرَةٍ ولا قِلَّة ، وهو دين الله

(١) بفتح الهاء طائر يقال له العند ليب (٢) علوت (٣) نقشت (٤) بكسر النون الحبر (٥) ولا سأل (٦) ما تكتب وتعلق فى عنق الصبيان للحرز (٧) تبركا

الذى أَظهرَه وجُنْدُه الذى أعدّه وأَمدّه ، حتى بلغ ما بلغ ، وطلع حيثما طَلع ، ونحنُ على موعد من الله ، والله مُنجزٌ وَعْدَه ، وناصرٌ جُنْدَه ـ ومكان القَيِّم بالأَمر مكان النّظام من الخرز يجمعه ويضُمه ، فإذا انقطع النّظام تفرَّق الخرز وذهب ، ثُمَّ لم يجتمع بحذافيره أَبدًا .

والعَرَبُ اليَوْمَ ، وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام ، عزيزون بالاجتماع ، فكن قُطْبًا ، واسْتَدْرِ الرَّحى بالعرب ، وأَصلهِمْ دونكَ نَارَ الحرب ، فإنك إن شخصت من هذه الأَرض انْقَضَّتْ عليك العرب من أَطرافها وأَقطارها ، حتى يكون ما تدعُ وَرَاءَك مِنَ العَوْرَات أَهم إليك مما بين يديك .

إن الأَعاجم إن يَنْظُرُوا إليك غدًا يقولوا هذا أَصل العَرَب ، فإذا قَطَعْتُمُوه اسْتَرَحْتُم ؛ فيكون ذلك أَشدَّ لكَلَبِهِمْ عليك وطمعهم فيك . فأَما ما ذكرت من مسير القوْم إلى قتال المسلمين ؛ فإن الله سُبْحَانه هو أَكْرَهُ لمَسِيرهم منك ، وهو أَقدر على تغيير مايَكْرَه . وأَما ما ذكرت من عددهم فإنّا لم نَكُنْ نُقَاتل فيما مضى بالكثرة ، وإنما كُنَّا نُقَاتل بالنَّصر والمَعُونة .

ومن وصية للنبي عليه الصلاة والسلام :

أَما بَعْدُ ؛ فقد جعل الله لى عليكم حَقًّا بولاية أَمركم ، ولكم علىَّ من الحق مثل الذى لى عليكم ، فالحقُّ أَوْسَعُ الأَشياءِ فى التواصفُ ، وأَضْيَقُهَا فى التناصُف لايجرى لأَحَدٍ إلَّا جرى عليه ، ولايجرى عليه إلاجَرَى لَهُ ، ولوكان لأَحد أَن يجرى له ولايجرى عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانهُ دون خلقه ، لقدرته على عباد ، ولعدلهِ فى كل ماجَرَت عليه صُرُوف قضائه ، ولكنَّهُ جَعَل حَقَّه على العباد أَن يُطلعُوه ، وَجَعَلَ جزاءَهم عليه مُضَاعَفَةَ الثَّوَاب تفضلاً منه وتوسعًا بما هو من المزيد أَهلُه ، ثم جعلَ الله سُبْحَانه من حقوقه حُقُوقًا افترَضها لبعض الناس على بعض ، فجعلها تتكافأُ فى وجوهها ، ويوجب بعضُها بعضًا ، ولا يُسْتَوْجب

بعضها إلا ببعض ، وأَعظمُ ما افترض سبحانه من تلك الحقوق ، حقُّ الوالى على الرَّعِيَّة ، وحقُّ الرَّعِيَّة على الوالى ؛ فريضة فرضها سبحانه لكلٍّ على كلٍّ ، فجعلها جمعًا لأُلْفَتهم وعزًّا لدينهم ، فليست تصلح الرَّعية إلا بصلاح الوُلاة ، ولا تصلح الوُلاة إلا باستقامة الرَّعية . فإذا أَدَّت الرعيَّة إلى الوالى حقه ، وأَدَّى الوالى إليها حقها ، عزَّ الحق بينهم ، وقامت مناهج الدين ، واعْتَدَلت معالم العَدْل وجَرَتْ على إذلالها السننُ ، فصلح بذلك الزمان ، وطُمِع فى بقاء الدولة ، ويئست مَطَامعُ الأَعداءِ ، وإذا غلبت الرَّعية وَاليها ، وأَجحف الوالى برعيته ، اَخْتَلَفَتْ هنالك الكلمة ، وظهرت معالِم الْجَوْر ، وكَثُرَ الإِدغال فى الدِّين ، وتُرِكَتْ محاجُّ السننِ ، فعمل بالهوى ، وعطِّلت الأَحكام ، وكثرَت علل النفوس ؛ فلا يستوحشُ لعظيم حق عُطِّل ولا لعظيم بَاطِلٍ فُعل ؛ فهنالك تذلُّ الأَبرار وتعزّ الأَشرار ، وتعظمُ تبعاتُ الله عند العباد . فعليكم بالتّناصُح فى ذلك وحُسْن التعاون عليه ، فليس أَحد وإن اشتدَّ على رضاء الله حِرْصُه ، وطال على العمل اجتهادُهُ ، ببالغٍ حقيقة ما اللهُ أَهله من الطاعة ، ولكن من واجب حقوق الله على عباده ، النصيحة بمبلغ جهدهم ، والتعاوُن على إقامة الحق بينهم . وليس امرؤٌ وإن عظمت فى الحقّ منزلته ، وتقدَّمت فى الدين فضيلته ، بفَوْقَ أَن يُعَان على ما حمّلهُ الله من حقه ، ولا امرؤٌ وإن صغرَتْه النفوس ، واقْتَحَمَتْه العُيُون بدون أَن يعين على ذلك ، أَوْ يُعَان عليه .

فأَجابه عليه الصلاة والسلام رَجُل من أَصحابه بكلام طويل يُكْثِرُ فيه من الثناءِ عليه ويذكر سمعه وطاعته ، فقال عليه الصلاة والسلام : إِنَّ من حقِّ من عظُم جلالُ الله فى نفسه ، وجلَّ مُوْضِعُه من قلبه ، أَن يصغُرَ عنده لعظم ذلك كلّ ما سواه ، وإن أَحقَّ من كان كذلك لَمَنْ عظُمت نِعْمَةُ الله عليه ولطفَ إِحْسَانُه إليه ، فإنه لم تَعْظمْ نِعْمَةُ الله على أَحد إلا ازْدَادَ حقُّ الله عِظَمًا ، وإن مِنْ أَسْخَف حالات الوُلاة عند صالح الناس ، أَن يظنّ بهم حبُّ

الفخر ، ويُوضعَ أمرُهُم على الكِبَرِ ، وقد كرِهْتُ أن يكُون جَالَ فى ظنكم أنى أُحبُّ الإطرَاءَ واستماع الثَّنَاء ، ولستُ بحمد الله كذلك ، ولوكنت أُحِبُّ أن يُقال ذلك لتركته انحطاطاً للهِ سبحانه عن تنَاوُل ما هو أحق بهِ من العظمة والكبرياءِ ، وربَّما اسْتحلى الناسُ الثناءَ بعد البلاءِ ، فلا تثنُوا علىَّ بجميل ثناءٍ لإخراجى نفسى إلى الله وإليكم من التُّقْيَةِ فى حقوقٍ لم أفرُغْ من أدائها ، وفَرَائضَ لا بُدَّ من إمضائها ، فلا تكلمونى بما تكلم بهِ الجبابرَة ، ولا تتحفظوا منى بما يُتَحفّظ به عندَ أهل البادِرَة ، ولا تخالطونى بالمصانَعة ، ولا تظنُّوا بى استثقالاً فى حقٍّ قيل لى ، ولا التماس إعظام لنفسى ، فإنه من اسْتَثْقَل الحقّ أن يقالَ له ، أو العدْلَ أن يُعْرَض عليه ، كان العمل بهما أثقلَ عليه ، فلا تكفوا عن مقالةٍ بحقٍّ ، أَوْ مشورَة بعدْل ، فإنى لسْتُ فى نفسى بفَوق أنْ أُخْطئ ولا آمنُ ذلك من فعلى ، إلا أن يكفيَنى الله من نفْسى ما هو أملك به منى ؛ فإنما أنا وأنتم عبيدٌ مملوكون لربٍّ لا رب غيره ، يملك منَّا ما لا نملك من أنفسنا ، وأخرجنا مما كنَّا فيه إلى ما صلحنا عليه ، فأبدلنا بعدَ الضَّلَالة بالهدى ، وأعطانا البصيرة بعد العمى .

ومن وصية له عليه الصلاة والسلام وصّى بها جيشًا بعثه إلى العدو :

فإذا نزلتُم بعدُوّ ، أو نزلَ بكم ، فليكُن معسكرُكُم فى قبيل الأشرَاف ، وسفاح الجبال ، أو أثناء الأنهار . كيما يكون لكم رِدْءًا ، ودونكم مَرَدًّا ، ولتكن مقاتلكم من وجه واحد أو اثنين ، واجعلوا لكم رُقباءَ فى صياصى الجبال ، ومناكب الهضاب ، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافةٍ أو أَمْن . واعلموا أن مُقدّمة القوم عيونهم وعيون المقدِّمة طلائعهم . وإياكم والتفرقَ ، فإذا نزلتم فانزلوا جميعًا ، وإذا ارْتحلتم فارتحلوا جميعًا ، وإذا غَشِيكُمْ الليلُ فاجعلوا الرِّماح كفّة ، ولا تَذُوقوا النَّوْم إلا غرارًا أو مضمضة .

ومن وصية له عليه الصلاة والسلام كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات :

انطلق على تقوى الله وحده لاشريك له ، ولا تُرَوِّعَنَّ مسلمًا ، ولا تجتازَنَّ عليه كارهًا ، ولا تأْخذنَّ منه أَكثر من حق الله فى ماله . فإذا قدِمْتَ على الحىّ فانزِل بمائهم من غير أَن تخالطَ أَبياتهم ، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار ، حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخدِج بالتَّحية لهم . ثم تقول : عبادَ الله ، أَرْسلنى إليكم ولىُّ الله وخليفتُه . لآخذَ منكم حقَّ الله فى أَموالكم ، فهل لله فى أَموالكم من حَقٍّ فَتُؤَدُّوه إلى وليِّه ؟ فإن قال قائلٌ منهم : لا ، فلا تراجعه . وإن أَنعَمَ لكَ مُنعمٌ ، فانطلق معه منْ غير أَن تُخيفه أَو تُوعدَه ، أَو تعْسفه أَو ترهقه ؛ فخذْ ما أَعطاك من ذهب أَو فضة ، فإن كان له ماشية أَو إبل فلا تدْخلها إلا بإذنه ، فإنَّ أَكثرها له ، فإذا أَتيتها فلا تدخلْ عليها دُخولَ مُتَسَلط عليه ؛ ولا عنيف به ، ولا تنفرَنَّ بَهيمة ، ولا تُفزِعنها ، ولا تَسُوءَنَّ صاحبها فيها ؛ واصدع المال صدْعين ثم خيِّره ، فإذا اختار فلا تتعرَّضَنَّ لما اختاره ، ثم اصدع الباقى صدْعين ثم خيِّره ، فإذا اختار فلا تتعرَّضنَّ لما اختاره ، فلاتزال بذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله فى ماله فاقبض حقَّ الله منهُ ، فإن استقَالكَ فَأَقِلْهُ ، ثم اخلطها ثم اصنع مثل الذى صنعت أَوَّلاً حتى تأْخذ حق الله فى ماله ؛ ولا تأْخذنَّ عودًا ولاهرمة ولا مكسورة ولا مهلوسة ولاذاتَ عوَار ، ولا تأْمننَّ عليها إلا من تثِق بدينهِ رَافقًا بمال المسلمين حتى يوصِّله إلى وليهم فيقسمُه بينهم ، ولا تُوكل بها إلا ناصحاً شفيقًا وأَمينًا حفيظًا غير معنف ولا مُجحف ولا مُغلب ولا متعب ، ثم احدُر إلينا ما اجتمع عندك نُصَيِّرهُ حيثُ أَمر الله ، فإذا أَخذها أَمينُك ، فأَوعزْ إليه أَنْ لا يحُول بين ناقةٍ وبين فصيلها ، ولا يمْصُر لبنها فيضر ذلك بولدها ، ولا يجهدَنَّها رُكوباً ، ولْيعدِلْ بين صواحباتها فى ذلك وبينها ، وليرَفِّهَ على اللاَّغب ، وليستأْن بالنَّقب والظالع وليوردها ما تمرُّ به من الغُدُرِ ، ولا يعدلْ بها نبت الأَرْض إلى جواد الطرُق ولْيُرَوحها فى

الساعات ، وليمهلها عند النّطاف والأعشاب حتى تأتينا بإذن الله بُدْناً مُنقيات ، غير مُتعبات ولا مجهودات ، لنقسمها على كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وعلى آله) فإن ذلك أعظم لأجْرِك ، وأقرّ لرُشْدك إن شاء الله .

وقال عليه الصلاة والسلام وقد سمع رجلاً يذم الدُّنيا :

أَيُّهَا الذَّامُّ للدنيا المغْتَرُّ بغرورها ، المخْدُوع بأَباطيلها ، أتغترّ بالدنيا ثم تَذُمها ؟ ! أنت المتَجَرِّم عليها أم هى المتجرّمة عليك ؟ ! متى استهْوَتك ؟ ! أم متى غرّتك ؟ ! أبمصارع آبائك من البلى ؟ أم بمضاجع أُمهاتك تحتَ الثرَى ؟ ! كم عللْتَ بكفيك ؟ ! وكم مَرَّضتَ بيديْك ؟ ! تبغى لهم الشفاء ، وتستوْصف لهم الأطباء ، لم ينفع أَحَدَهُم إشفاقُك ، ولم تسْعفه بطلبتِكَ ، ولم تدفع عنه بقوَّتك ، وقد مثلت لك به الدنيا نفسَك وبمصرعه مصرعك .

إن الدنيا دارُ صدق لمن صَدَقها ، ودارُ عافية لمن فهم عنها ، ودارُ غِنًى لمن تزوَّدَ منها ، ودارُ موعظة لمن اتَّعظ بها . مسجدُ أَحبَّاءِ الله ، ومُصلى ملائكة الله ، ومَهْبط وحى الله ، ومَتجَر أَولياءِ الله ، اكتسبوا فيها الرَّحمة ورَبحوا فيها الجنة ، فَمَنْ ذا يذُمّها وقد آذنت ببيْنِها ، ونادَت بفرَاقها ، ونَعتْ نفسها وأَهلَها ، فمثلت لهم ببلائها البلاءَ ، وشوَّقتهم بسرورها إلى السُّرُورِ ، راحتْ بعافية ، وابتكرت بفجيعة ، ترغيبًا وترهيبًا ، وتخويفًا وتحذيرًا ، فذَمَّها رجالٌ غَدَاة الندَامة ، وحمدها آخرون يوم القيامة ، ذكرتهم الدنيا فتذكَّرُوا ، وحدَّثتهم فصدقوا ، ووعظتْهُمْ فاتَّعظوا .

عهد الإمام على المتوفى سنة ٤٠هـ لمالك بن الحارث الأشتر النخعى ، حين ولاه مصر وجباية خراجها وجهاد عدوها وإصلاح أَهلها وعمارة بلادها :

اعلم يامالكُ أنى قَدْ وجَّهْتك إلى بلاد قد جَرَتْ عليها دُولٌ قبلك من عدْلٍ وجور ، وأَنَّ النَّاس ينظرُون من أُمورك فى مِثل ماكنت تنظر فيه من أُمور الوُلاة قبلك ، ويقولُون فيك كما كنت تقول فيهم ، وإنما يستدلُّ على الصالحين

بما يجرى اللهُ لهم على ألسنة عباده ، فليكن أحبّ الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح ، فاملك هواك ، وشح بنفسك عما لايحل لك ، فإنّ الشحَّ بالنفس الإنصاف منها فيما أَحبَّتْ أو كرهت .

وأَشعِر قلبَك الرحمة للرَّعِيَّةِ ، والمحبة لهم واللُّطف بهم ، ولاتكونن عليهم سبعًا ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إمَّا أَخ لك فى الدين ، وإمّا نظيرٌ لك فى الخلق ، يفرُط منهم الزَّلَل ، وتعرض لهم العلل ويُوتى على أيديهم فى العَمْد والخطإ ، فأَعطهم من عفوك وصفْحِك ، مثل الذى تُحبُّ وترضى أَن يُعطيك الله من عفْوه وصفحه ، فإنك فوقَهمْ ، وَوَالى الأَمر عليك فوقك ، والله فَوْقَ من ولَّاك ، وقد استكفاك أَمرَهم وابتلاك بهم ، ولا تنصبنَّ نفسك لحرب الله ، فإنه لا قِبَلَ لك بنقمته ، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته ، ولاتَنْدَمَنَّ على عفوٍ ، ولا تبجحنَّ بعقوبة . ولا تُسْرِعَنَّ إلى بادرة وَجدْتَ عنها مندوحة ، ولا تقولن إنى مُومّرٌ آمرُ فأُطاع ، فإن ذلك إدغالٌ فى القلب ، ومنهكة للدين ، وتقرب من الغير . وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أُبهةً أو مخيلة ، فانظر إلى عظم ملك الله فوقك ، وقدرَتِه منك على ما لاتقدر عليه من نفسك فإن ذلك يُطَامن إليك من طماحك ، ويكُف عنك منْ غربك ، ويفىءُ إليك بما عَزُب عنك من عقلك . وإياك ومُساماة الله فى عظمته ، والتَّشبه به فى جبروته فإن الله يُذِل كلَّ جبَّار ، ويهين كل مختال . أَنصِف الله وأَنصف الناس من نفسك ومن خَاصّة أهلك ومن لك فيه هوى من رَعيّتك ؛ فإنك إن لم تفعل تَظلم . ومن ظَلَم عباد الله كان الله خَصمه دون عباده ، ومن خاصمهُ الله أَدْحَض حُجَّته ، وكان الله حرباً عليه حتى يَنْزع ويتوب . وليس شىءٌ أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم ، فإن الله سميعٌ دعوة المظلومين وهو للظالمين بالمرصاد . وليكن أَحب الأُمور إليك أَوسطها فى الحق وأَعمها فى العدل وأَجمعها لرضاءِ الرَّعية فإن سخط العامة يجحف برضاءِ الخاصة وإنّ

سخط الخاصة يُغْتَفَر مع رضاء العامّة ، وليس أَحدٌ من الرعية أَثقلَ على الوالى مؤونة فى الرَّخاءِ وأَقل معونةً فى البلاءِ ، وَأَكْرَه للإِنصاف ، وأَسأَل بالإِلحاف ، وأَقل شكرًا عند الإِعطاءِ وأَبطأَ عُذْرًا عند المنع ، وأَخفّ صبرًا عندَ ملمّات الدَّهْر ، من أَهل الخاصة . وإنما عماد الدِّين ، وجماع المسلمين ، وَالعُدَّة للأَعداءِ ، العامةُ من الأُمة ؛ فليكُنْ صغْوُك لهم وميلكَ معهم ، وليكُنْ أَبعد رعيتك منك وأَشنأُهم عندك ؛ أَطلبهم لمعايب الناس فإن فى الناس عيُوباً ، الوالى أَحق مَنْ سترَها ، فلا تكشفنّ عمّا غاب عنك منها ، فإنما عليك تطهير ما ظَهَرَ لك ، والله يحكم على ما غاب عنك ، فاسْتُر العَوْرَةَ ما استطعت يستر الله منك ماتحب سَتْرَهُ من عورتك .

أَطلق عن النّاس عقدة كلّ حقد ، واقطع عنك سبب كلّ وَتْر ، وتغَابَ عن كلّ ما لَا يصح لك ، ولا تعجلَنَّ إلى تصديق ساع ، فإنّ السَّاعى غاشّ بالنّاصحين ، ولاتدخلنّ فى مَشُورتك بخيلاً يَعدل بك عن الفضل وَيَعِدُكَ الفقر ، ولاجباناً يُضعفك عن الأُمور ، ولا حريصًا يُزَيِّن لك الشرّ بالجور ، فإن البُخْل والجُبن والحرص غرائز شتى ، يجمعها سُوءُ الظنّ . إنّ شَر وُزَرائك مَنْ كان قبلك للأَشرار وزيرًا وَمَنْ شركهم فى الآثام ، فلا يكُونَنَّ لك بطانة ، فإنهم أَعوان الأَثمة ، وإخوان الظَّلَمة ، وأَنت واجدٌ منهم خيْرَ الخلَف ممن هُوَ مثل آرائهم ونفاذهم ، وليس عَليه مثل آصارهم وأَوزارهم ، ممن لا يُعَاوِن ظالماً على ظُلمه أَو آثماً على إثمه ، أُولئك أَخفّ عليك مؤونة وأَحسن لك معونة ، وأَحنى عليك عطفًا ، وأَقل لغيرك إلفًا ، فاتخذ أُولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك . ثم ليكُنْ آثَرهُم عنْدَكَ أَقولُهم لك بمُرِّ الحق ، وأَقلهم مُسَاعدةً فيما يكون منك مما كَرِهَ الله لأَوليائه ، واقعًا ذلك هواه حيثُ وقعَ ، وأَلصقْ بأَهل الوَرَع والصِّدق . ثم رُضهم على أَن لا يُطْرُوك ، ولا يُبَجِّحُوك بباطل لم تفعله ؛ فإن كثرة الإِطْرَاءِ تُحْدِث الزَّهْو ، وَتُدْنى من العزة ، ولا يكُونَنَّ المحسن والمسىء

عندك بمنزلة سواء ، فإن فى ذلك تزهيداً لأهل الإحسان فى الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة . وألزِم كلاًّ منهم ما ألزَمَ نَفْسَهُ . واعلم أنه ليس شئ بأدعى إلى حُسْن ظنٍّ وَالٍ برعيَّته من إحسانه إليهم ، وتخفيفه المؤونات عليهم ؛ وترْك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم ؛ فليكُنْ منك فى ذلك أَمْرٌ يجمع لك حُسْن الظن برعيَّتك ، فإن حُسن الظن يقطعُ عنك نصباً طويلًا ، وإن أحق مَنْ حَسُنَ ظنّكَ به . لمن حسن بلاؤك عنده ، وإن أحق مَنْ ساء ظنُّكَ به ، لمن ساء بلاؤك عنده ، ولا تنقض سنَّة صالحة عمل بها صُدُور هذه الأُمة ، واجتمعتْ بها الأُلفة ، وَصَلحتْ عليها الرعية ، ولا تُحْدِثَنَّ سنَّة تَضُرُّ بشىءٍ مما مضى من تلك السُّنن فيكون الأُجر لمن سنها ، وَالوِزْرُ عليك بما نقضت منها . وأكثر مُدَارَسَة العلماء ومناقشة الحكماء فى تثبيت ما صَلَح عليه أَمْرُ بلادك ، وإقامة ما استقام به الناس قبلك . واعلم أن الرعية طبقاتٌ لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غِنًى لبعضها عن بعض ، فمنها جنود الله ، ومنها كُتَّاب العامة والخاصة ، ومنها قُضَاة العدل ، ومنها عُمال الإنصاف والرِّفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذِّمة وَمُسلمة الناس ، ومنها التُّجار وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة السُّفلى من ذوى الحاجة والمسكنة ؛ وكلاًّ قد سَمَّى الله سهمه ، ووضع على حدِّه فريضةً فى كتابه ، أو سُنَّة نبيِّه صلى الله عليه وسلم عهداً منه عندنا محفوظاً . فالجنود بإذن الله حُصُون الرعية ، وزينُ الولاةِ ، وعز الدين وسُبُل الأَمن ، وليس تقوم الرعية إلا بهم ، ثم لا قَوَام للجنود إلا بما يخرج الله تعالى لهم من الخَرَاج الذى يَقْوُون به فى جهاد عدوهم ، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ، ويكون من وراء حاجتهم . ثم لا قوَام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتَّاب ، لما يحكمون من المعاقد ، ويجمعون من المنافع ، ويؤتمنون عليه من خواص الأُمور وَعَوَامها . ولا قِوَامَ لهم جميعاً إلا بالتجار وذوى الصناعات فيما

يجتمعون عليه من مرافقِهم ، ويقيمونه من أسواقهم ، ويكفونهم من الترفق بأيديهم ، مالا يبلغ رفق غيرهم ، ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رِفْدهم ومعونتهم ، وفى الله لكلٍّ سعةٌ ، ولكلٍّ على الوالى حق بقدر مايصلحه . وليس يخرج الوالى من حقيقة ما ألزمَهُ الله من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله ، وتوطين نفسه على لزومه الحق والصبر عليه فيما خفَّ عليه أو ثَقُلَ . فوَلِّ من جنودك أنصحهم فى نفسكَ لله ولرسوله ولإمامك ، وأطهرهم جَيْبًا وأفضاهم حلمًا ممن يُبطى عن الغضب ، ويستريح إلى العذر ، ويرأف بالضعفاء وينبو على الأقوياء ، ممن لايثيره العنف ، ولا يَقعد به الضعف ، ثم الصق بِذَوى المروآت والأحساب ، وأهل البُيُوتات الصالحة والسوابق الحسنة ، ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة ، فإنهم جُمَاعٌ من الكرم ، وَشُعَب من العُرْف ، ثم تفقّد مِنْ أُمورهم ما يتفقّده الوالدان من ولدهما ، ولا يتفاقمنَّ فى نفسك شىءٌ قويتهم به ، ولاتحقِرَن لطفًا تتعاهدهم به وإن قَلَّ ، فإنه داعيةٌ إلى بذل النصيحة لك وحُسْن الظن بك ، ولا تَدَع تفقد لطيف أُمورهم اتّكالًا على جسيمها ، فإن لليسير من لُطْفِك موضعًا ينتفعون به وللجسيم مَوْقعًا لا يستغنون عنه . وليَكُنْ آثر رُؤوس جُنْدك عندك من واساهم فى معونته ، وأفضلَ عليهم مِنْ جدته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خُلوف أهلهم حتى يكون هَمهم هَمًّا واحدًا فى جهاد العدو ، فإن عَطفك عليهم يُعطِّف قلوبهم عليك ، وإن أَفْضَل قُرَّة عين الولاة استقامة العَدْل فى البلاد ، وظهور مَوَدَّة الرعيَّة . وإنه لاتظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم ، ولاتصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على وُلاة أُمورهم ، وقلَّة استثقال دُولهم ، وترْك استبطاء انقطاع مدتهم . فأفسح فى آمالهم ، وواصل فى حُسْن الثناء عليهم ، وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم ؛ فإن كثرة الذِّكْر لِحُسْنِ فعالهم تهز الشجاع وتحرّض الناكل إن شاء الله تعالى . ثم اعرف لكلِّ امرئ منهم ما أَبلى ، ولا تضيفن بلاءَ امرئ إلى غيره ، ولا تُقَصِّرَنَّ دُون غاية بلائه ، ولا يدعونك شرف امرى إلى أن تعظم من بلائه ماكان صغيرًا

ولا ضعةُ امرى أن تستصغَر من بلائهِ ما كان عظيما ، وارْدُدْ إلى الله ورسُوله مايُضلعك من الخطوب ويشتبه عليكَ من الأُمور ؛ فقد قال سبحانه لقوْم أَحَبَّ إرشادهم «يا أَيها الذِين آمَنُوا أَطيعُوا اللهَ وأَطيعُوا الرسولَ وأُولى الأَمرِ منكُمْ ، فإن تنَازعْتُمْ فى شىءٍ فردُّوه إلى اللهِ والرَّسُول » فالرّد إلى الله الأَخذ بمُحكم كتابه ، والردّ إلى الرسول الأَخذ بسنته الجامعة غير المفرِّقة . ثم اختر للحكم بين الناس أَفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيقُ به الأُمور ولا تمحكه الخصوم ، ولا يتمادى فى الزلة ، ولا يحصر عن الفَىْء إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفى بأَدنى فهْمٍ دون أَقصاه ؛ أَوقفهم فى الشبهاتِ ، وآخذهم بالحُجج ، وأَقلهم تبرماً بمراجعة الخصم وأَصبرَهم على تكشيف الأُمور ، وأَصْرَمهم عند اتضاح الحكم ، مِمَّن لا يَزْدَهيه إطراءٌ ، ولا يستَميله إغرَاءٌ ، وأَولئك قليل . ثم أَكثر تَعاهُد قَضَائه ، وأَفسح فى البذْل مايزيح علَّته وتقل معه حاجته إلى الناس ، وأَعطهِ من المنزلة لديك مالا يطمع فيه غيرُه من خاصتك ، لتأْمن بذلك اغتياب الرِّجال له عندك . فانظر فى ذلك نظرًا بليغًا ، فإن هذا الدين قد كان أَسيرًا فى أَيدى الأَشرار ، يُعملُ فيه بالهوَى وتطلب به الدنيا . ثمّ انظر فى أُمور عمالك ، فاستعملهم اختبارًا ، ولا تُوَلهم محَاباةً وأَثرة ، فإن ذلك جماعٌ من شعبِ الجوْر والخيانة ، وتوخَّ منهم أَهل التجربة والحياء من أَهل البيوتات الصالحة والقِدَم فى الإسلام ، فإنهم أَكرَمُ أخلاقًا وأَصح أَعرَاضاً ، وأَقل فى المطامع إشرافًا ، وأَبلغ فى عواقب الأُمور نَظرًا ، ثم أَسبغْ عليهم الأَرزاق ، فإن ذلك قوَّة لهم على استصلاح أَنفسهم ، وغنًى لهم عن تناوُلِ ماتحت أَيديهم ، وحُجّة عليهم إن خالفوا أَمرَك أَو خانوا أَمانتَك . ثم تَفَقَّدْ أَعمالهم وابعث العُيُون من أَهل الصِّدق والوفاء عليهم ، فإن تَعاهُدَك فى السرِّ لأُمورهم حدوة لهم على استعمال الأَمانة والرفق بالرعية . وتحفظ من الأَعوان فإنْ أَحدٌ منهم بسط يدَهُ إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أَخبار عُيونك ، اكتفَيت

بذلك شاهدًا ، فبسطْتَ عليه العقوبة فى بدنه وأَخَذْتَهُ بما أصاب من عمله ، ثُم نصبته بمقام المذلَّة ووسمته بالخيانة ، وقلدته عار التُّهمة .

وتفَقد أمر الخراج بما يُصلح أهله ، فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحًا لمن سِواهم ، ولا صلاح لمن سِواهم إلا بهم لأن الناس كلهم عيالٌ على الخراج وأهله ، وليكن نظرُك فى عمارة الأَرض ، أَبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأَن ذلك لا يُدْرَك إِلّا بالعمارة ؛ ومَن طلب الخراج بغير عمارة أَخرَب البلاد ، وأَهلك العباد ، ولم يستقم أَمرُه إلا قليلاً . فإن شَكَوْا ثقلًا أَو علة أَو انقطاعَ شِرْب أَو بالةً أَو حالة أَرض اغْتَمرها غرقٌ ، أَو أَجحَف بها عطش ، خَفَفتَ عنهم بما ترجُو أَن يصلحَ به أَمرُهم ، ولا يثقلنّ عليك شيءٌ خففت به المؤونة عنهم ، فإنه ذخر يعودون به عليك فى عمارة بلدِك وتزيين ولايتك ، مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجُّحك باستفاضة العدل فيهم مُعتمدًا على فضل قوّتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم ، والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم فى رفقك بهم ، فربّما حدَثَ من الأُمور ما إذا عُوِّلَ فيه عليهم من بعدُ احتملُوه طيّبةً أَنفسُهم به ، فإِنَّ العُمرَانَ يحتمل ما حمَّلته ، وإنما يأْتى خرَاب الأَرض من إعْوَاز أَهلها ، وإنما يعوز أَهلها لإشراف أَنفُس الوُلاة على الجمع وسوءِ ظنهم بالبقاءِ ، وقلة انتفاعهم بالعِبر .

ثم انظر فى حال كُتَّابك فوَلّ على أُمورِك خيرهم ، واخصص رسائلك التى تُدْخل فيها مكائدك وأَسرارك بأَجمعهم لوُجود صالح الأَخلاق ممّن لا تُبْطره الكرامة فيجترى بها عليك فى خلاف لك بحضرة ملإٍ ، ولا تُقصِّر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمّالك عليك ، وإصدار جواباتها الصَّوَاب عنك فيما يأخذ لك ويعطى منك ، ولا يضعِف عقدًا اعتقده لك ، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك ، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه فى الأُمور ، فإن الجاهل بقدر نفسه ، يكون بقدر غيره أجهل ، ثم لا يكن اختيارُك إياهم على فراستك واستنامتك وحُسْن الظن منك ، فإن الرّجال يَتَعَرَّفُون لِفراساتِ الوُلاة بتَصنُّعهم وحسن

خدمتهم ، وليس وراءَ ذلك من النصيحةِ والأَمانة شئ ، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك ، واعمد لأَحسنهم فى العامة أثرًا وأَعرَفهم بالأَمانة وجهًا ، فإنَّ ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وُليت أَمره ، وَاجعل لرأس كلٍّ من أُمورك رأساً منهم لا يقهره كبيرها ، ولا يتسلطُ عليه صغيرُها ، ومهما كان فى كتَّابك من عَيب تَغَابَيْتَ عنه أُلزمته .

ثم استَوْصِ بالتجار وذوِى الصناعات وَأَوص بهم خيرًا ، المقيم منهم والمضطرب بمالهِ والمُترفق ببدنه ، فإنهم مواد المنافع ، وأَسباب المَرافق وجُلَّابها من المباعد والمطارح ، فى برِّك وبحرك ، وسهلك وجبلك ، وحيث لا يلتئم الناس لمواضِعها ، ولا يجترئون عليها ، فإنهم سِلْمٌ لا تُخاف بائقته ، وصُلحٌ لا تخشى غائلته . وتفقدْ أُمورهم بحضرتك وفى حواشى بلادك ، واعلم مع ذلك أَن فى كثير منهم ضيقًا فاحشًا وشُحًّا قبيحًا ، واحتكارًا للمنافع ، وتحكمًا فى البياعات ، وذلك بابُ مضرّة للعامة ، وعيب على الوُلاة ، فامنع من الاحتكار ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم منعَ منهُ ، وليكن البيع بيعًا سمحًا ، بموازين عدل ، وأَسعار لا تُجحف بالفريقين من البائع والمُبتاع ، فمن قارف حكرَةً بعد نهيك إياه فنكِّلْ به وعاقب فى غير إسراف .

ثم الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين ، والمحتاجين ، وأَهل البُؤسى وَالزَّمنى ، فإن فى هذه الطبقة قانعاً ومُعترًا . واحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم ، واجعل لهم قسمًا من بيت مالك ، وقسمًا من غلات صوافى الإسلام فى كل بلد ، فإن للأَقصى منهم مثل الذى للأَدنى وكلٌّ قد استُرعيت حقّه ، فلا يَشْغَلَنَّكَ عنهم بطر ، فإنك لا تُعْذَرُ بتضييعِك التافه لإحكامك الكثير المُهم ، فلا تُشْخص همك عنهم ، ولا تُصَعِّر خدكَ لهم ، وتفقد أُمور مَن لا يصلُ إليك منهم ممن تقتحمه العيون ، وتحتقرهُ الرجال ؛ ففرِّغ لأُولئك ثِقتك من أَهلِ الخشية والتواضع فليرفع إليك أُمورهم .

ثم اعمل فيها بالإعذار إلى الله سبحانه يوم تلقاه ، فإنَّ هؤلاءِ من بين الرعية أحوجُ إلى الإنصافِ من غيرهم ، وكلٌّ فاعذرْ إلى الله تأدية حقه إليه ، وتَعهد أهل اليُتم وذوى الرقة فى السنِّ مِمَّنْ لا حيلة له ، ولا ينصبُ للمسألة نفسه ، وذلك على الوُلاة ثقيل ، والحق كله ثَقيل ، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبَّرُوا أنفسهم ووَثِقوا بصدق موعود الله لهم .

واجعل لذوى الحاجات منك قسما تُفرِّغُ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلسًا عامًّا فتتواضع فيه لله الذى خلقك ، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك ، حتى يكلمك متكلمهم غير مُتعتع ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول فى غير مَوْطنٍ : « لن تقدس أُمةٌ لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير مُتَعْتَع » .

ثم احتمل الخرق منهم والعيَّ ونحِّ عنهم الضِيق والأَنف ، يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ، ويُوجب لك ثواب طاعته ، وأعط ما أعطيت هنيئًا ، وامنع فى إجمال وإعذار .

ثم أُمورٌ من أُمورك لابُدَّ لك من مباشرتها ، منها إجابة عُمالك بما يَعْيا عنه كتَّابك ، ومنها إصدار حاجات الناس يوم وُرُودها عليك مما تحرج به صدُور أعوانك ، وَأَمْض لكل يوم عمله ، فإن لكل يوم ما فيه ، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله تعالى أفضل تلك المواقيت ، وأجزل تلك الأَقسام ، وإن كانت كلُّها لله إذا صلحت النِّية وسلمت منها الرعية ، وليكن فى خاصة ما تُخْلِصُ لله به دينك إقامة فرائضه التى هى له خاصة ، فأَعط الله من بدنك ، فى ليلك ونهارك ، ووفِّ ما تقربت به إلى الله سبحانه من ذلك كاملًا غير مثلوم ولا منقوص بالغًا من بدنك ما بلغ ، وإذا قمت فى صلاتك للناس فلا تكونن مُنفردًا ولا مضيعًا ، فإن فى الناس مَنْ به العلة وله الحاجَة .

وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وجهنى إلى اليمن : كيف أصلى بهم ؟ فقال : « صَلِّ بهم كصلاة أضعفهم ، وكن بالمؤمنين رحيما » .

أما بعدُ ، فلا تُطَوِّلن احتجابك عن رَعِيتك ، فإن احتجابَ الولاة عن الرعية شُعبة من الضيق وقلة علم بالأُمور ، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه ، فيصغُر عندهم الكبير ، ويعظم الصغير ، وَيقبح الحسن ، ويحسنُ القبيحُ ، ويُشَاب الحق بالباطل ، وإنما الوَالى بشر لايعرف مانوَارَى عنه الناس به من الأُمور ، وليست على الحق سِماتٌ تعرف بها ضروب الصدق من الكذب ، وإنما أنت أحد رجلين : إما امرؤ سخَتْ نفسك بالبذل فى الحق ، ففيم احتجابك من واجب حق تُعطيه ؟ أو فعل كريم تسديه ؟ أو مبتَلى بالمنع فما أسرع كفّ الناس عن مسألتك إذا أيسوا منك ، مع أن أكثر حاجات الناس إليك مما لا مؤنة فيه عليك ، من شكاة مَظْلمة ، أو طلب إنصاف فى معاملة ؟

ثم إن للوَالى خاصة بطانة فيهم استئثار وَتطاوُلٌ ، وقلة إنصاف فى مُعَاملة ، فاحسم مادة أُولئك بقطع أسباب تلك الأحوال ، وَلا تُقْطِعَنَّ لأحد من حاشيتك وَخاصتك قطيعة ، وَلا يطمعن منك فى اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس فى شرب أو عمل مشترك ، يحملون مؤونتَه على غيرهم ، فيكون مهنأُ ذلك لهم دونَك وعيبه عليك فى الدنيا والآخرة ، وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد ، وكن فى ذلك صابرًا محتسبًا ، واقعًا ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع ، وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه ، فإن مغبة ذلك محمودة . وإن ظنت الرعية بك حيفًا فأصحر لهم بعذرك ، وأعدل عنك ظنونهم بإصحارك ، فإن فى ذلك رياضة منك لنفسك ورفقًا برعيتك ، وإعذارًا تبلغ به حاجتك من تقويم على الحق ، ولا تدفعن صلحًا دعا إليه عدوك ، ولله فيه رضا ؛ فإن فى الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك ، وأمنًا لبلادك ، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه فإن العدو ربما قارب ليتغفل ،

فخذ بالحزم ، واتهم فى ذلك حسن الظن . وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة ، أو ألبستَهُ منك ذِمة ، فحُطْ عهدك بالوفاء ، وارع ذِمتك بالأمانه ، واجعل نفسك جُنة دون ما أعطيت ؛ فإنه ليس من فرائض الله شئ الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم ، من تعظيم الوفاءِ بالعهود ، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين ، لما استَوْبلوا من عواقب الغدر ، فلا تغدرن بذمّتك ، ولا تَخيسن بعهدك ، ولا تختلن عدوك ، فإنه لايجترئ على الله إلا جاهل شقى ، وقد جعل الله عهده وذمته أمنًا أفضاه بين العبادِ برحمته وحصناً يسكُنون إلى مَنعتِه ، ويستفيضون إلى جواره ؛ فلا إدغالَ ولامدالسة ولاخِداع فيه ، ولاتعقد عقدًا يجوز فيه العلل ،ولاتعولن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة ، ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق ، فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضلَ عاقبته ، خيرٌ من غَدْر تخاف تَبعته وأن تحيط بك فيه من الله طلبةٌ ، فلا تستقيمُ فيها دنياك ولا آخرتك .

إياك والدماء ، وسفكها بغير حلها ، فإنه ليس شئ أدعى لِنقْمة ولا أعظم لتبعة ، ولا أحْرَى بزوال نعمة ، وانقطاع مدة ، من سَفك الدماء بغير حقها ، والله سبحانه وتعالى يتولى الحكم بين العباد فيما تَسافكُوا من الدماءِ يوم القيامة ، فلا تُقَوِّين سلطانك بسفك دم حرام ، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه ، بل يزيله ويثقله ، ولا عذر لك عند الله ولا عندى فى قتل العمد ، لأن فيه قود البدن ، وإن ابتُليت بخطإ وأفرط عليك سوطك ، أو سيفك ، أو يدك ، بعقوبة ، فإن فى الوكزة فما فوقها مقتلةً ، فلا تطمحن بك نخوة سلطانك ، عن أن لا تؤدى إلى أولياءِ المقتول حقهم .

وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحُب الاطراءِ ، فإن ذلك من أوثق فُرَص الشيطان فى نفسه ، ليمْحَقَ مايكون من إحسان المحسنين ـ

وإياك والمن على رَعيَّتك بإحسانك ، أو التزيد فيما كان من فعلك أو أن تَعِدَهم فتُتبع موعدَك بخُلفك ، فإن المن يبطل الإحسان ، والتزيد يذهب بنور الحق، والخلف يوجب المقتَ عند الله والناس ، قال الله سبحانه وتعالى : « كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » .

وإيَّاكَ والعَجَلة بالأُمور قبل أوانها ، أو التَّسقُّط فيما عند إمكانها ، أو اللجاجة فيها إذا تنكَّرَت ، أو الوهن عنها إذا استوضحت ، فضع كل أمر موضعه وأوقع كل عمل موقعه . وإياك والاستئثار بما الناس فيه أُسوَةٌ ، والتَّغابى عما يعنى به مما قد وضح للعيون ، فإنه مأخوذ منك لغيرك وعما قليل تنكشف عنك أغطيةُ الأمور ، ويُنتصف منك للمظلوم ، واملك حميَّة أنفك ، وسورة حدك وسطْوَة يدك ، حتى يسكن لسانك ، واحترس من كل ذلك بكف البادرة ، وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار ، ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر هُمُومك بذكر المعاد إلى ربك . والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة ، أو سنة فاضلة ، أو أثر عن نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم أو فريضة فى كتاب الله فتقتدى بما شاهدت مما عملنا به فيها ، وتجتهد لنفسك فى اتباع ما عهدت إليك فى عهدى هذا واستوثقت به من الحجة لنفسى دليلك لكيلا يكون ذلك علة عندَ تسرُّع نفسك إلى هواها ، وأنا أسأَل الله تعالى بسعة رحمته وعظيم قدْرَته على إعطاء كل رغبة ، أن يوفقنى وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه ، وإلى خلعه من حسن الثناء فى العباد ، وجميل الأثر فى البلاد ، تمام النعمة ، وتضعيف الكرامة ، وأن يختم لى ولك بالسعادة والشهادة . إنا إلى الله راغبون ، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين .

وكتب أبو بكر الصديق المتوفى فى ٧ جمادى الثانية ١٣ هـ إلى بعض قواده :

إذا سِرْت فلا تُعَنِّف أَصحابك فى السير ولا تغضبهم ، وشاور ذوى الآراء

منهم واستعمل العدل ، وباعد عنك الْجَوْر ، فإنهُ ما أفلحَ قومٌ ظَلَمُوا ولا نُصِرُوا على عدوهم (وَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا (١) فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (٢) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا(٣) لِقِتَالٍ ، أَوْ مُتَحَيِّزًا(٤) إِلَى فِئَةٍ ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ) ، وإذا نصرتم عليهم فلا تقتلوا شيخًا ، ولا امرأة ، ولا طفلا ، ولا تحرقوا زرعًا ، ولا تقطعوا شجرًا ، ولا تذبحوا بهيمةً ، إلا مايلزمكم للأكل ، ولا تغدروا إذا هادنتم(٥) ولا تنقضوا إذا صالحتم ، وستَمُرُّون على أقوام فى الصوامع ، ورهبان ترهَّبوا الله ، فدعوهم وما انفردوا إليه وما ارتضَوْه لأنفسهم ، فلا تهدموا صوامعهم ولا تقتلوهم ـ والسلام .

وكتب عمر بن الخطاب المتوفى فى ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٢ ﻫ إلى بعض قواده :

أما بعد : فإنى أوصيك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العُدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وأن تكون أنت ومن معك أشد احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم ، فإن ذُنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة « وإلا ننصر عليهم بطاعتنا ، لم نغلبهم بقوتنا » واعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم واسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم .

وأقم بمن معك فى كل جمعة يوماً وليلة ، حتى تكون لهم راحةٌ يُحْيُون فيها أنفسهم ، ويرمُّون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصُّلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق به . وليكن منك عند

---

(١) مجتمعين لكثرتهم يزحفون . (٢) الانهزام . (٣) متعطفا .
(٤) منضما الى جماعة يستنجد بها . (٥) صالحتم .

دنوك أَرض العدو أَن تكثر الطلائع ، وتبث السرايا بينك وبينهم ، ثمّ أَذْكِ أَحراسك على عسكرك ، وتيقظ من البياتات جهدك . والله ولىّ أَمرك ومن معك ، وولىَّ النصر لكم على عدوكم .

وكتب أَبو الفضل بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ إلى ابن أُخته :

أَنت وَلَدِى ما دُمْت : والعلم شأْنك ، والمدرسة مكانك ، والمحبرة حليفك ، والدفتر أَليفك ، فإِن قصرت ولا إِخالك ، فغيرى خالك ، والسلام .

ومن وصية ابن سعيد المغربى المتوفى سنة ٩٦٧ هـ لابنه ، وقد أَراد السفر :

أُودعك الرحْمٰن فى غُرْبتك مرتقبًا رُحماه فى أَوبتك
فلا تُطِلْ حبلَ النَّوَى إننى والله أَشتاق إلى طَلْعَتك
واختصر التوديع أَخذًا فما لى نَاظِرٌ يقوى على فرقتك
واجعل وصاتى نُصْبَ عين ولا تبرح مدى الأَيام من فكرتك
خلاصة العمر التى حنَّكت فى ساعة زفت إلى فطنتك
فللتجاريب أُمورٌ إذا طالعتها تشحذ من غفلتك
فلا تنم عن وَعْيها ساعة فإِنها عونٌ إلى يقظتك
وكل ما كابدته فى النَّوَى إِياك أَن يكسِرَ من همتك
فليس يُدْرَى أَصل ذى غربة وإنما تعرفُ من شيمتك
وَٱمْشِ الْهُوَيْنَا مظهرًا عفة وَٱبْغِ رضا الأَعين عن هيبتك
وانطق بحيث العىُّ مُسْتَقْبَح واصمت بحيث الخير فى سكتتك
ولجْ على رِزْقك من بابه واقصد له ما عِشْت فى بكرتك
وَوَفّ كلاًّ حقه وَلتكن تكسِر عند الفخر من حدتك
وحيثما خَيَّمت فاقصد إلى صحبة من تَرْجُوه فى نصرتك
وللرزايا وثبةٌ ما لها إلا الذى تذخر من عدّتك

ولا تَقُلْ أَسْلَمُ لى وحدتى ... فقد تقاسى الذلَّ فى وحدتك

ولْتَجْعَل العَقْل مِحَكًّا وخذ ... كُلًّا بما يظهر فى نقدتك

واعتبر الناس بأَلفاظهم ... واصحب أخاً يرغب فى صحبتك

كم من صديق مُظْهِرٍ نُصْحه ... وفِكْرُه وَقْفٌ على عثرتك

إياك أن تَقْرَبَهُ إنَّهُ ... عَوْنٌ مع الدَّهْرِ على كربتك

وَأَنْمُ نُمُوَّ النَّبت قد زاره ... غِبٌّ النَدَى واسمُ إلى قدرتك

ولا تُضَيِّع زمنًا مُمكنًا ... تذكاره يذكى لظى حسرتك

والشرُّ مهما اسطعت لا تأْتِهِ ... فإنه جَوْرٌ على مهجتك

يابُنَى ، الذى لا ناصح له مثلى ، ولا منصوح لى مثله – قد قدَّمت لك فى هذا النظم ما إن أخطرته بخاطرك فى كلِّ أوان رَجوت لك حسن العاقبة – إن شاءَ الله تعالى – وإن أخفّ منه للحفظ ، وأعلق بالفكر ، وأحَقّ بالتقدم قولُ الأَول :

يزينُ الغريبَ إذا ما اغْتَرَب ... ثلاثٌ فمنهنّ حسن الأَدب

وثانية حُسن أَخلاقه ... وثالثةٌ اجتنابُ الريب

واصغ يابُنَيّ إلى البيت الذى هو يتيمة الدهر ، وسُلَّمُ الكرم والصبر :

ولو أنَّ أوطان الدِّيار نَبَتْ بكم ... لكنتم الأَخلاق والآدابا

إذ حُسن الْخُلُق أَكْرَمُ نزيل ، والأَدبُ أرحبُ منزل ، ولتكن كما قال بعضهم فى أديبٍ مُتَغَرِّبٍ : وكان كلما طرَأَ على ملك فكأَنَّهُ معه ولد ، وإليه قصد ، غير مُسْتريب بدهره ، ولا منكر شيئًا من أمره .

وإذا دعاك قلبُك إلى صحبة من أُخِذ بمجامع هَوَاه ، فاجعل التَّكلف له سُلَّمًا ، وهبَّ فى روض أخلاقه هُبُوب النسيم ، وحل بطرفه حلول الوسَنَ ، وانزل بقلبه نُزُولَ المسرَّة ، حتى يتمكن لك ودَادُه ، ويخلص فيك اعتقاده

وطهر من الوقوع فيه لسانك ، وأغلق سمعك ، ولا تُرخص فى جانبه لحسود لك منه ، يريد إبعادك عنه لمنفعة ، أوحسود له يَغَار لتجمُّله بصحبتك ، ومع هذا ، فلا تغتر بطول صحبته ، ولا تتمهد بدوام رقدته ، فقد يُنَبِّهه الزمان ، ويتغَيَّر منه القلب واللسان ، وإنما العاقل من جعل عقله معياراً ، وكان كالمرآة يلقى كل وجه بمثاله ؛ وفى الأَمثال العامة : «من سبقك بيوم سبقك بعقل» فاحتذ بأَمثلة من جرب ، واستمع إلى ما خلد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الأَقوال ، فإنها خلاصة عمرهم ، وزُبدة تجاربهم ، ولا تتكل على عقلك ، فإن النظر فيما تعبَ فيه الناس طول أعمارهم ، وآبْتَاعوه غالياً بتجاربهم ، يُرْبحك ويقع عليك رخيصاً ، وإن رأيت من له عقل ومروءة وتجربة ، فاستفدمنه ولا تُضَيِّع قوله ولا فعله ، فإن فيما تلقاه تلقيحًا لعقلك ، وحَثاً لك واهتداء .

وليس كل ماتسمع من أَقوال الشعراءِ يحسن بك أَن تتبعه ، حتى تتدبره ، فإن كان موافقًا لعملك ، مصلحًا لحالك ، فراع ذلك عندك ، وإلا فانبذه نبذ النواة فليس لكلِّ أَحد يُتبسَّم ، ولا كل شخص يُكلم ، ولا الجود مما يعُم به ، ولا حسن الظن وطيب النفس مما يُعَامل به كلُّ أَحد ، ولله درُّ القائل :

ومالِيَ لا أَوفِى البرية قِسْطَهَا   على قَدْرِ ما يعطى وعقلى ميزانُ

وإياك أَن تعطى من نفسك إلَّا بقدر ، فلا تعامل الدُّون بمعاملة الكفءِ ، ولا الكفءَ بمعاملة الأَعلى ، ولا تُضيِّع عمرك فيمن يعاملك بالمطامع ، ويُثيبك على مصلحة حاضرة عاجلة ، بغائبة آجلة ، ولاتجف الناس بالجملة ، ولكن يكون ذلك بحيث لايلحق منه ملل ، ولا ضجر ، ولاجفاء ، فمتى فارقت أَحدًا ، فعلى حسنى فى القول والفعل ، فإنك لاتدرى هل أَنت راجعٌ إليه ؟ ! فلذلك قال الأَوّل :

* ولما مضى سلمٌ بكيتُ على سلمِ *

وإياك والبيت السائر :

وكنتَ إذا حللْت بدار قَوْم   رحلْتَ بخزية وتركْتَ عارَا

واحرص على ما جَمَع قَوْل القائل : « ثلاثة تُبْقِى لك الوُدّ فى صدر أخيك أَن تَبْدَأَهُ بالسَّلام ، وتُوسّعَ له المجلس ، وتَدْعُوهُ بأَحَبّ الأَسماءِ إليه » ، واحذَر كل ما بَيَّنه لك القائل : « كل ما تغرسه تجنيه ، إلَّا ابن آدم ؛ فإذا غَرَسْتَهُ يقلعك » . وقول الآخر : « إن ابن آدم ذئب مع الضَّعف ، أَسدٌ مع القوَّة » وإيَّاك أَن تثبت على صحبة أَحد قبل أَن تُطيل اختباره ، ويحكى أَن ابن المُقفع خطب من الخليل صُحْبته ؛ فجاوبهُ : « إن الصُّحبة رِقّ ، ولا أَضع رِقّى فى يديك حتى أَعرف كيف ملكتك » واستمل من عين مَنْ تُعَاشره ، وتَفَقَّد فى فلتات الأَلسن ، وصفحات الأَوْجه ، ولا يحملك الحياءُ على السُّكُوتِ عَما يَضرُّك أَن لا تُبَيِّنَه ؛ فإنَّ الكلام سلاح السِّلم ، وبالأَنين يُعْرَف أَلم الجرح ، واجعل لكل أَمْرٍ أَخَذت فيه غاية ، وتجعلها نهاية لك :

وخذ من الدَّهرِ ما أَتاك به   من قر عيْنًا بعيشه نَفعه

إذ الأَفكار تجلب الهموم ، وتُضَاعفُ الغُموم ، وملازمة القطوب ، عنوان المصائب والْخطوب ، يستريب به الصاحب ، ويشمت العدُوّ والمُجانب ، ولا تضرّ بالوَساوس إلَّا نفسك ، لأَنَّك تنصر بها الدَّهر عليك ـ ولِلهِ درُّ القائل :

إذا ما كنت لِلاحزان عوناً   عليك مع الزمان فمن تلوم ؟!

مع أَنه لايردّ عليك الغائب الْحُزْن ، ولا يَرْعَوَن بطول عتبك الزّمَن .

ولقد شاهَدْت (بِغرناطة) شخصًا قد أَلفته الهُموم ، وعشقَتهُ الغُموم ، ومن صغَره إلى كبَرِه لا تراهُ أَبدًا خليًا من فِكْرَة ، حتى لُقِّب « بصدر الهمِّ » .

ومن أَعجب ما رأَيتُه منهُ أَنهُ يتنكَّدُ فى الشِّدة ، ولا يتعلَّل بأَن يكون بَعدَهَا فَرَج ، ويتنكَّد فى الرَّخاءِ خوفاً من أَن لايدوم ، وينشد :

* توقَّعْ زوَالا إذا قِيلَ تَمْ *

وينشد : * وعِندَ التَّناهِى يَقْصُرُ المتطاوِلُ *

وله من الحكايات فى هذا الشأْن عجائب ، ومثل هذا عمره محسور يمر ضياعاً

ومتى رفعَك الزمان إلى قوم يذمون من العلم ما تحسِنه حسدًا لك وقصداً لتصغير قدرك عندك ، وتزهيدا لك فيه ، فلا يحملك ذلك على أن تزهد فى علمك وتركن إلى العلم الذى مدحوه ؛ فتكون مثل الغُرَاب الذى أعجبه مشى الحَجَلة فرام أن يَتَعَلَّمهُ فصعُبَ عليه ، ثم أراد أن يرجع إلى مشيه فنَسِيه فبقى مُخَبَّل المشى كما قيل :

إن الغراب وكان يمشى مِشْية فيما مضى من سالف الأَجْيَالِ
حسَدَ القطا وأراد يمشى مشيها فأصابه ضَرْبٌ من العُقَّالِ
فأضلَّ مِشْيَته وأخطأ مشيها فلذاك كنَّوْه (أبا مِرْقال)

ولا يُفسد خاطرك من جعل يذُم الزمان وأهله ، ويقول : ما بقى فى الدنيا كريم ولا فاضل ، ولا مكان يُرتاح فيه ؛ فإن الذين تراهم على هذه الصفة أكثر ما يكونون ممن صحبهم الحرمان ، واستحقت طلعتهم للهوان ، وأبرموا على الناس بالسؤال فمقتوهم ، وَعَجَزوا عن طلب الأُمور من وجوهها ؛ فاستراحوا إلى الوقوع فى الناس ، وأقاموا الأَعذار لأَنفسهم بقطع أسبابهم ، ولا تُزِلْ هذين البيتين من فكرك :

لِنْ إذا ما نلْت عزًّا فأخو العزِّ يلين
فإذا نَابك دهرٌ فكما كنت تكون

والأَمثال تُضْرَب لذى اللُّبِّ الحكيم ، وذو البصر يمشى على الصراط المستقيم ، والفطن يقنع بالقليل ، ويستدل باليسير . والله سبحانه خليفتى عليك لارب سواه .

وصية هارون الرشيد لمعلم ولده الأَمين :

ياأحمر ــ إن أمير المومنين قد دفع إليك مُهجة نفسه ، وثمرة قلبه ؛ فصيَّر يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ؛ فكُنْ له بحيث وضعك أمير المؤمنين .

أَقرئه القرآن ، وعرفه الأَخبار ، وروِّه الأَشعار ، وعلمه السنن ، وبصره

بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته ، وخُذْه بتعظيم بنى هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إيّاها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفُهُ ، وقَوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ؛ فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة .

وصية بعض نساءِ العرب إلى ابنها وقد أراد السفر :

قال أبان بن تغلب ، وكان عابدًا من عباد أهل البصرة : شهدت أعرابية وهى توصى ولدًا لها يريد سفرًا ، وهى تقول له :

أى بُنَىَّ : إجلس أمنحك وصيتى وبالله توفيقُك ؛ فإن الوصية أجدى(١) عليك من كثير عقلك ، قال أبان : فوقفت مستمعًا لكلامها ، مستحسنًا لوصيتها فإذا هى تقول : أى بُنى إياك والنميمة ، فإنها تزرع الضغينة وتفرق بين المحبين ، وإياك والتّعرض للعيوب فتتخذ غرضًا(٢) وخليق ألايثبت الغرض على كثرة السهام وقلما اعتورت(٣) السهام غرضاً إلا كلمته(٤) حتى يهى(٥) ما اشتد من قوته .

وإياك والْجُود بدينك ، والبخل بمالك ، وإذا هززت فاهزز كريماً يلن لهزتك ، ولا تهزز اللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها .

ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك ، فاعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه ، فإن المرءَ لا يرى عيب نفسه .

ومن كانت مودته بشره ، وخالف ذلك منه فعله ، كان صديقه منه على مثل الريح فى تصرفها ، والعذر ما تعامل به الناس بينهم ، ومن جمع الحلم والسخاءَ ، فقد أجاد الحلة ريطتها وسربالها .

---

(١) انفع . (٢) هدفا . (٣) تداولت . (٤) جرحته (٥) يضعف .

نصيحة رجل لهشام بن عبد الملك :

خرج الزُّهرى يوماً من عند هشام بن عبد الملك ، فقال : مارأيت كاليوم ، ولاسمعت كأَربع كلمات تكلم بهن رجل عند هشام ، دخل عليه فقال : ياأَمير المؤمنين احفظ عنى أَربع كلمات ، فيهن صلاح ملكك واستقامة رعيتك ، قال : ماهُنَّ ؟ قال : لاتعد عِدة ولا تثق من نفسك بإنجازها ، ولا يغُرَّنك المُرْتقى ، وإن كان سهلا إذا كان المنحدر وعرًا ، واعلم أَن للأَعمال جزاء فاتق العواقب ، وأَن للأُمور بغتات(١) ، فكن على حذر . قال عيسى بن دأب : فحدثتُ بهذا الحديث (المهدى) وفى يده لقمة قد رَفَعَهَا إلى فيه فأَمسكها وقال : ويحك ! أَعد علىَّ ، فقلت : يا أَمير المؤمنين : أَسِغ(٢) لقمتك ، فقال : حديثك أَعجب إلى .

نصيحة أَعرابى لسليمان بن عبد الملك :

قال أَعرابى لسليمان بن عبد الملك : إنى أُكلِّمك يا أَمير المؤمنين بكلام فاحتمله ، فإن وراءه إن قبلته ما تحبه ، قال : هاته ياأَعرابى ، فنحن نجود بسعة الاحتمال على من لانأْمن غَيْبَتَهُ ، ولا نرجو نصيحته ، وأَنت المأْمون غيبًا الناصح جيبًا(٣) ، قال : فإنى سأُطلق لسانى بما خرست عنه الأَلسن تأْدية لحق الله تعالى ، إنه قد اكتنفك رجال أَساءُوا الاختيار لأَنفسهم ، وابتاعوا(٤) دنياك بدينهم ، ورضاك بسُخْط ربهم ، وخافوك فى الله ، ولم يخافوا الله فيك فهم حرب للآخرة وسلم للدنيا فلا تأْمنهم على ما ائتمنك الله عليه ، فإنهم لم يأْلوا(٥) الأَمانة تضييعًا ، والأُمة كسفًا وخسفًا ، وأَنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسئولين عما اجترمت ، فلا تصلح دُنياهم بفساد آخرتك ، فإن أَعظم الناس عند الله

---

(١) البغتات : جمع بغتة وهى الفجأة . (٢) أساغ اللقمة : ابتلعها .
(٣) فلان ناصح الجيب : يراد به قلبه وصدره أى أمين ، قال الشاعر : * وحصنت صدرا جيبه لك ناصح * . (٤) ابتاع : اشترى . (٥) ألا يألوا ألوا : قصر . يقال انى لا آلوك نصحا لا أقصره وقال تعالى : « لا يألونكم خبالا » أى لا يقصرون فى خبالكم وفسادكم .

غَبْنًا من باع آخرته بدنيا غيره ، فقال سليمان : أما أنت يا أعرابى فقد سَلَلْتَ لسانك وهو سيفك . قال : أجل يا أمير المؤمنين ! لك لا عليك .

نصيحة فتاة لأَبيها :

قالت أعرابية ـ تنصح أباها بمجانبة السرف ـ حبس المال أنفع للعيال من بذل الوجه فى السوال ، فقد قل النوال ، وكثر النّجال(١) ، وقد أتلفت الطارف والتلاد (٢) وبقيت تطلب مافى أيدى العباد ، ومن لم يحفظ ماينفعه ، أوشك أن يسعى فيما يضره .

نصيحة البديع الهمذانى لوارث مال :

كتب البديع إلى بعض إخوانه يعزيه وينصح له :

وصلت رقعتك (ياسيدى) والمصاب لعمر الله كبير ، وأنت بالجزع جدير ولكنك بالصبر أجدر ، والعزاءُ عن الأَحبة رشد كأَنه الغَىّ ، قد مات الميت فليحى الحى ، فاشدد عَلَى مالك بالخمس(٣) ، فأَنت اليوم غيرك بالأَمس . قد كان ذلك الشيخ رحمه الله وكيلك ، تضحك ويبكى لك ، وقد مولك(٤) مما أَلف بين سراه (٥) وسيره ، وخلفك فقيرًا إلى الله غنياً عن غيره ، وسيعجم(٦) الشيطان عودك ، فإن استلانك رماك بقوم يقولون : خير المال ما تتلفه بين الشراب والشباب ، وتنفقه بين الحباب(٧)والأَحباب ، والعيش بين القداح والأَقداح (٨) ، ولولا الاستعمال لما أُريد المال ، فإن أَطعتهم فاليوم فى الشراب وغدًا فى الخراب ، واليوم واطرباً للكاس ، وغدًا واحَرَباً(٩)

(١) النجال : جمع نجل وهو الولد . (٢) الطارف : المستحدث من المال وغيره ، والتلاد : جمع تليد وهو عكس الطارف . (٣) يريد بالخمس الأصابع وهى مؤنثة فى الأكثر . (٤) موله: اتخذ لهمالا . (٥) السرى : سير الليل . (٦) عجم العود : عضه ليعرف مبلغ صلابته . (٧) حباب الماء والشراب : فقاقيعه التى تطفو كأنها القوارير . (٨) القداح: سهام الميسر، واحدها قدح كقرد . والأقداح : جمع قدح ، كجبل وهو وعاء الشراب . (٩) الحرب : أن يسلب الرجل ماله ، وقد حرب ماله أى سلب ومن هذا قولهم : واحربا .

من الإفلاس . يامولاى : ذلك الخارج من العُود يسميه الجاهل نَقرًا ، والعاقل فقرًا ، وذلك المسموع من النَّاى(١) هو فى الآذان زَمْر ، وفى الأبواب سَمْر ، وإن لم يجد الشيطان مَغْمزًا فى عودك من هذا الوجه ، رماك بآخرين يُمثلون الفقر حذاءَ عينيك ، فتجاهد قلبك ، وتحاسب بطنك ، وتناقش عِرْسك(٢) ، وتمنع نفسك وتبوء فى دُنياك بوِزْرك ، وتراه فى الآخرة فى ميزان غيرك ، لا ــ ولكن قصدًا بين الطريقين ، وميلاً عن الفريقين لامنع ولا إسراف ، والبخل فقر حاضر ، وضَيْر عاجل ، وإنما يبخل المرءُ خيفة ماهو فيه .

ومن يُنْفِق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر

فليكن لله فى مالك قسم ، وللمُرُوءة قسم ، فَصِلِ الرحم ما استطعت وقدر(٣) إذا قطعت ، فلأَن تكون فى جانب التقدير ، خير من أَن تكون فى جانب التبذير .

وصية الرياحى لقومه

قال الرياحى فى خطبته بالمربد(٤) :

يا بنى رياح ــ لاتُحَقِّرُوا صغيرًا تأْخذون عنه ، فإنى أَخذت من الليث بَسَالته ومن الحمار صبره ، ومن الخِنْزير حرصه ، ومن الغُرَاب بُكورَه ، ومن الثعلب روغانه (٥) ، ومن السّنور ضَرَعه(٦) ، ومن القرد حكايته ، ومن الكلب نُصرته ، ومن ابن آوى حذره ؛ ولقد تعلمت من القمر سير الليل ، ومن الشمس ظهور الحين بعد الحين .

(١) الناى : آلة للزمر ، فارسى معرب ، وقد تهمز ياؤه ،وقد جمعوه على نايات .

(٢) العرس : الزوجة . (٣) التقدير : التروية والتفكير فى تسوية أمر .

(٤) المربد : الجرين ، ثم صار علما على موضع بالبصرة .

(٥) الروغان : الميل عن الشىء لتجنب الضرر . (٦) الضرع : الخضوع

وصية ذى الاصبع لابنه

لمَّا احْتُضَرَ ذُو الأَصبع العُدْوانى(١) دعا ابنه (أسيدًا) فقال له :

يابُنى : إن أَباك قد فنى وهو حى ، وعاش حتى سئم العيش ، وإنى موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغته ، أَلن جانبك لقومك يحبُّوك وتواضع لهم يرفعوك ، وابسُط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأْثر عليهم بشىءٍ يُسَوِّدوك ، وأَكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ، ويكبَرُ على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، واعزز جارك(٢) وأَعن من استعان بك ، وأَكرم ضيفك ، وأَسرع النهضة فى الصريخ(٣) فإِن لك أَجلا لايعدوك وصن وجهك عن مسأَلة أَحد شيئًا ، فبذلك يتم سُؤدَدُك .

وصية عبد الله بن شداد لابنه

قال الكلبى : لما حضرت عبد الله بن شداد(٤) الوفاة دعا ابنًا له يقال له (محمد) فقال : يابنى ، إنى أَرى داعى الموت لايُقلع ، وأَرى من مضى لايرجع ، ومن بقى فإِليه ينزع(٥) ، وإنى موصيك بوصية فاحفظها .

عليك بتقوى الله العظيم ، وليكن أَولى الأُمور بك شكر الله ، وحسن النِّية فى السر والعلانية ، فإِن الشكور يزداد والتقوى خير زاد ، وكن كما قال الحطيئة :

ولست أَرى السعادة جمع مال ... ولكن التَّقِىَّ هو السعيد

وتقوى الله خير الزاد ذخرًا ... وعند الله للأَتقى مزيد

وما لا بُدَّ أَن يأْتى قريب ... ولكن الذى يمضى بعيدُ

---

(١) هو حرثان بن الحارث ، خطيب حكيم ، شاعر فارس ، وهو أحد المعمرين فى الجاهلية (٢) الجار : المجاور والذى أجرته من أن يظلم .
(٣) الصريخ : صوت المستغيث وهو أيضا المغيث واحدا أو أكثر. ـ(٤)هو عبدالله بن شداد بن الهادى الليثى كان من رجالات العراق ومن ذوى المكانة عند الحجاج ، ثم خرج عليه مع ابن الأشعث ، ويقال انه قتل سنة ٨٣ هـ .
(٥) نزع اليه كجلس : اشتاق .

أَى بُنَىَّ : لا تزْهَدَنَّ فى معروف ، فإن الدهر ذو صُرُوف ، والأَيام ذات نوائب ، على الشاهد والغائب ، فكم من راغب قد كَان مرغوباً إليه ، وطالب أَصبح مطلوباً ما لديه ، واعلم أَن الزَّمَان ذو أَلوان ، ومن يصحب الزمان يَرَ الهوان ، وكُنْ أَى (بُنَىَّ) كما قال أَبو الأَسود الدولى :

وعدّ من الرحمن فضلاً ونعمة ... عليك إذا ماجاءَللعُرْف(١) طالبُ
وإن امرأً لا يُرْتَجَى الخير عنده ... يكن هيِّنًا ثقيلاً على من يصاحب
فلا تمنعن ذا حاجة جاءَ طالبًا ... فإنك لا تدرى متى أَنت راغب
رأَيت الْتِوَا(٢) هذا الزمان بأَهله ... وبينهم فيه تكون النوائب

أَى بُنَىَّ : كُن جوادًا بالمال فى موضع الحق ، بخيلا بالأَسرار عن جميع الخلق فإن أَحمد جود المرءِ الإنفاق فى وجه البِرِّ ، وإن أَحمد بخل الحر الضن بمكتوم السِّرِّ ، وَكُن كما قال قيس بن الخطيم(٣) الأَنصارى :

أَجُود بمكنون التِّلَاد وإننى ... بسِرِّك عَمَّن سالنِى لضنين(٤)
إذا جاوز الاثنين سر فإنه ... ينثّ وتكثير الحديث قمين(٥)
وعندى له يوماً إذا ائتمنتنى ... مكان بِسَوْدَاءِ الفؤاد مكين (٦)

أَى بُنَىَّ : وإن غُلِبت يوماً على المال ، فلا تدع الحيلة على حال ، فإن الكريم يحتال ، والدنِىَّ عيال ، وكُنْ أَحسن ماتكون فى الظاهر حالاً ، وأَقلَّ ما تكون فى الباطن مالاً ، فإن الكريم من كرمت طبيعته ، وظهرت عند الإنفاد(٧) نعمته ، وكُنْ كما قال ابن حذاق(٨) العَبْدِى :

---

(١) العرف : المعروف . (٢) التوامصدر التـــوى وقصره للضرورة . والتوى به الزمان : اعوج . وألوى به : أهلكه . (٣) شـــاعر من أهل يثرب وبينه وبين حسان بن ثابت مناقضة . (٤) سهل الشاعر همزة سأل للوزن (٥) قطع همزة اثنين للضرورة ونث الحديث : أفشاه . (٦) سوداء الفؤاد أو القلب وسويداؤه وأسوده : حبته . (٧) الانفاد : الفقر . (٨) اسمه يزيد وهو شاعر قديم .

وجدتُ أَبي قد اُوْرَثه أَبوه خلالاً قد تُعَد من المعالى(١)
فأَكْرم ما تكُون عَلَيَّ نفسى إذا ما قَلَّ فى الأَزمات مالى
فتحْسُن سيرتى وأَصُون عِرْضِي ويجمل عند أَهل الرأْى حالى
وإِن نلتُ الغنى لم أَغلُ فيه ولم أَخْصُص بجفْوَتِي الموالى(٢)

أَى بُنَيَّ : وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأَنك لست بالشاهد ، فإنك إن أَمضيتها حيالها (٣) رجع العيب على من قالها ، وكان يقال : الأَريب العاقل هو الفطن المتغافل(٤) ، وكُنْ كما قال حاتم الطائى :

وما من شِيمَتى شتْم ابن عمى وما أَنا مُخْلِف من يرتجينى
وكلمةِ حاسد فى غير جُرْم سمعت فقلت : مُرِّى فانفذِينى(٥)
فعابوها عَلَيَّ ولم تسؤنى ولم يَعرق لها يوماً جبينى
وذو اللونين يلقانى طليقًا وليس إذا تغيب يأْتلينى(٦)
سمعت بعيبه فصفحت عنه محافظة على حَسبى وَدِينى

أَى بُنَيَّ : لا تواخ امرءًا حتى تعاشره ، وتَتَفقد موارده ومصادره ، فإذا استطعت العشرة ، ورضيت الخبْرَة(٧) ، فواجه على إقالة العثرَة ، والمُواساة فى العُسرة ، وكُنْ كما قال المُقَنَّع الكندى(٨) :

اَبْلُ الرِّجَالَ إذا أَردت إخاءَهم وتَوَسَّمْن فِعَالهم وتَفَقَّد ــ

(١) نقلت حركة الهمزة من أورث الى الواو وحذفت هى للوزن والخلال : جمع خلة وهى الخصلة . (٢) غلا فى الأمر غلو : جاوز الحد والموالى : الأقارب . يقول : ان كثر مالى لم أجف أقاربى . (٣) خيال ظرف فى معنى ازاء أى تركتها تذهب فى طريقها الخ . (٤) فى معنى هذا قول الشاعر :

ليس الغنى بسـيد فى قوم لكن سـيد قوم المتغـابى

(٥) نفذه : جازه . (٦) ائتلى كالا اى قصر : يقول اذا غاب عنى فلن يقصر فى نكايتى (٧) الخبرة ، وبغيـرهاء ، العلم بالشىء كالاختبار (٨) هو محمد ابن عمرة والمقنع لقب شاعر رصـين المبانى حكيم المعانى من شـعراء الدولة الاموية .

فإذا ظفرت بذى اللبابة والتقى ... فبه اليَدَين قَرِينَ عين فاشدد(١)

وإذا رأيت ولا محالة زلة ... فعلى أخيك بفضل حلمك فاردد

أَى بنى : إذا أَحببت فلا تفرط ، وإذا أَبغضت فلا تشطط.(٢) ، فإنه قد كان يقال أَحبب حبيبك هَوْنًا مّا(٣) عسى أَن يكون بغيضك يوماً ما ، وأَبغض بغيضك هَوْنا مّاعسى أَن يكون حبيبك يوماًما ، وكُن كما قال هُدْبة (٤) بن الخشرم العذرى :

وَكُن مَعْقلاً للحلم واصفح عن الخنا ... فإنك راء ما حييت وسامع

واحبب إذا أَحببت حبا مقارباً ... فإنك لاتدرى متى أَنت نازع (٥)

وأَبغض إذا أَبغضت بغضاً مقارباً ... فإنك لا تدرى متى أَنت راجع

الفصل الثانى عشر : فى رسائل التنصل والتبرؤ

كتب أَبو الحسن على بن الرومى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ إلى القاسم بن عبيدالله :

ترفع عن ظلمى إن كنت بريئًا ، وتفضل بالعفو إن كنت مُسِيئًا ، فوالله لأَطلب عفو ذنب لم أَجنه ، وأَلتمس الإقالة مما لا أَعرفه ، لتزداد تطوُّلاً ، وأَزداد تذللا ، وأَنا أُعيذ حالى عندك بكرمك من وَاشٍ يكيدها ، وأَحرسها بوفائك ممن يحاول إفسادها .

وأَسأَل الله أَن يجعل حظى منك بقدر وُدِّى لك ، ومحلى من رجائك بحيث أَستحق منك ، والسلام .

---

(١) اللبابة مصدر لب أى صار ذالب وهو العقل ، وكل ماقيل «فاشدد» من الشطر الثانى معمول له وتكررت الفاء للربط وكذا فى البيت التالى

(٢) شط وأشط : جاوز الحد. (٣) الهون : الرفق ، وما : اما زائدة ، واما صفة لهونا مثلها فى قوله تعالى : « ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما » .

(٤) هو شاعر من شعراء الدولة الأموية جيد البديهة وهو القائل :

ولست بمفراح اذا الدهر سرنى ... ولا جازع من صرفه المتقلب

ولا أتمنى الشر والشر تاركى ... ولكن متى أحمل على الشر أركب

(٥) نزع عن الأمر نزوعا : انصرف وانتهى عنه .

وكتب أَبو الوليد أَحمد بن زيدون الأَندلسى ، المتوفى بأَشبيلية سنة ٤٦٣ هـ :

يامولاى(١) وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى(٢) به ، وامتدادى(٣) منه ، ومن أَبقاه الله ماضِىَ(٤) حد العَزم(٥) ، وارى(٦) زند(٧) الأَمل(٨) ، ثابت(٩) عهد(١٠) النِّعْمَة ، إن سلبتنى(١١) أَعزك(١٢) الله لباس(١٣) نعمائك ، وعطلتنى(١٤) من حلى(١٥) إيناسك(١٦) ، وأَظمأْتنى(١٧) إلى بُرُود(١٨) إسعافك(١٩) ، ونفَضْت(٢٠) بى كفّ حياطتك(٢١) وغَضَضْتَ(٢٢) عَنِّى طرف(٢٣) حمايتك ، بَعْد أَن نظر الأَعمى إلى تأْميلى(٢٤) لك ، وسمع الأَصَمُّ ثنائى(٢٥) عليك وأَحس الجماد باسْتِحْمَادِى(٢٦) إليك .

---

(١) المولى له معان كثيرة والاليق منها هنا السيد أو المنعم ومنها العبد أيضا قال أبو تمام :

مولاك يا مولاى صاحب لوعة ... فى يومه وصبابة فى أمسه
دنف يجود بنفسه حتى لقد ... أمسى ضعيفا أن يجود بنفسه

(٢) عدنى ليوم حاجتى . (٣) مزيد خيرى . (٤) قاطع . (٥) قوة الارادة لا يعزم على أمر الا أمضاه . (٦) الورى : خروج النار من الزند وقت الاقتداح . (٧) مقدحة . (٨) الرجا . (٩) متمكن وموثق . ـ (١٠) ميثاق أى أن نعمته ثابتة ومحفوظة عليه أبدا وأن محبته مقصورة عليه وانه يطلب من الله أن يبقيه ، وعزمه سيف قاطع وأمله نور لامع وخيره غيث متتابع وانه لحسن افتتاح وبراعة استهلال . (١١) انتزعت منى . (١٢) أعزك الله ، جملة اعتراضية الغرض منها الدعاء لسيده بالعزة والاشارة الى ما يستلزمه سلب اللباس من المذلة وتنبيها له على ذلك . (١٣) ما يوارى الجسم أى جردتنى من نعمتك المحيطة بى . (١٤) العطل فى الأصل خلو جيد المرأة من القلائد . (١٥) مايتحلى به . (١٦) أنسك، أى حرمتنى من لذيذ أنسك . (١٧) أعطشتنى . (١٨) بارد . (١٩) انجادك . (٢٠) طرحت . (٢١) احاطتك أى طرحتنى من كف حوزك لى . (٢٢) خفضت (٢٣) نظر ، أى خفضت طرف وقايتك عنى فتركتنى عرضا لصائبات الحوادث . (٢٤) التأميل أمر معنوى لا يشاهد وانما ذلك مبالغة فى شدة التلبس والاتصاف به . (٢٥) مدحى ، مبالغة فى انتشار مدحه . (٢٦) أستحمادى مبالغة فى تأثير حمده يشير الى تعداد ما حل به من المصائب وأحدق به من كل جانب الا وهو تجريده من نعم الأمير المحيطة به أحاطة الثياب وحرمانه من الأنس بذلك الجناب واعطاشه الى سريع اغاثته =

فلا غَرْوَ(١) قد يغصُّ(٢) بالماءِ شاربُه ، ويقتلُ الدواءُ المستشفى به ، ويؤتى الحذِرُ(٣) من مأْمنهِ(٤) ، وتكونُ مَنيةُ(٥) المُتمنى فى أُمنيته(٦) ، والحين(٧) قد يسبقُ جهد(٨) الحريص :

كلُّ المصائِبِ قد تمرُّ على الفتى ... وتهون غيرَ شماتة(٩) الحُسَّاد

وإنى لأَتجلَّد(١٠) وأُرى للشامتين «أَنى لريْبِ(١١) الدهرِ لا أَتضعضع»(١٢)

فأَقول : هل أَنا إلا يَدٌ أَدماها(١٣) سِوَارُها(١٤) ، وجبينٌ عضَّ به إكليله(١٥)

= واخراجه من محيط دائرته وصرفه عنه نظر ملاحظته خصوصا بعد أن صبر تأميله فيه جسما مخترعا ولذا رآه الأعمى وجلا مدحه بما جذب اليه الآذان فدخلها بدون استئذان ولذا سمعه الأصم وبذل قصارى جهده فى حمده حتى كان مؤتمرا فى كل الكائنات ولذا أدركه الجماد وفيه من المبالغة ما فى قول المتنى :

أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم

وانما أكثر من تعداد مصائبه ليكون ذلك أدل على توجعه وتألمه ، وأسرع لتلبية ندائه وأمكن لجلب الصفاء وازالة الجفاء (١) فلا عجب : الغاء واقعة فى جواب أن من قوله ان أسليتنى (٢) غصصت بالماء أغص غصا اذا شرقت به وأغصصته أنا . (٣) المتيقظ (٤) من حيث لا يتوقع الضرر (٥) موت (٦) ما يتمناه (٧) الهلاك (٨) طاقة (٩) الفرح فى مصائب الغير ، يقول : ان انتزعت منى ما أعطيت ، وأحلت بى من المصائب ما حللت : بعد غلوى فى الثناء عليك . والتجائى فى كل الامور اليك ، فليس ذلك بالأمر العجيب ولا بالنادر بل كثير النظائر والأمثال فالماء الذى به زوال الغصص قد يكون هو الغاص وأن الأمنية قد تكون فيها المنية وأنه يشير فى عبارته لقول بعضهم :

قد كنت عدتى التى أسطو بها ... ويدى ، اذا اشتد الزمان وساعدى

فرميت منك بغير ما أملته ، ... والمرء يشرق بالزلال البارد

ولقول آخر :

تجرى الأمور على وفق القضاء ، وفى ... طى الحوادث محبوب ومكروه !

فربما سرنى ما بت أحذره ، ... وربما ساءنى ما بت أرجوه !

والبيت الذى ذكره لابن عيينة . (١٠) أتكلف الصبر والقوة (١١) ريب الدهر : نوائبه (١٢) أتزلزل : هذا حل بيت لأبى ذؤيب الهذلى وهو :

وتجلدى للشامتين أريهم ... أنى لريب الدهر لا أتضعضع

(١٣) أسال دمها (١٤) نوع من الحلى يلبس فى الساعد (١٥) تاجه .

ومشرَفىٌّ(١) أَلصقهُ بالأَرض صاقلُه(٢) ، وسمهرىٌّ(٣)عرضه على النار مُثقِفه(٤) ، وعبدٌ ذهب به سيده مذهب الذى يقول :

فقسا ليزدجروا(٥) ومن يَكُ حازماً فليقسُ أَحياناً على من يرحم

هذا العتبُ(٦) محمود عواقبه ، وهذه النبوة(٧)غمرةٌ(٨) ثم تنجلى(٩) ،وهذه النكبة(١٠) سحابة صيفٍ عن قليلٍ تقشعُ(١١) ، ولن يريبنى(١٢) من سيدى إن أَبطأَ سيبه(١٣) أَو تأَخر ، غير(١٤) ضنين غناؤه(١٥) ، فأَبطأُ الدلاء فيضاً(١٦) أَملؤها وأَثقل السحائب مشياً أَحفلها(١٧) وأَنفع الحيا(١٨) ماصادف جدباً(١٩) وأَلذ الشراب ما أَصاب غليلا(٢٠) ، ومع اليوم غدٌ ولكل أَجَلٍ كتابٌ .

---

(١) سيف (٢) جاليه (٣) رمح (٤) مقومه (٥) يمتنعوا : يخاطب نفسه ويسليها ويضرب لها الأمثال ويمنيها ويسهل عليها ما تعانيه ، ويجنبها ما تعاديه من مزيد استعطاف قلب سيده واستجلاب رحمته حيث لم يستهجن فعاله وعمله معه فقد أنزل نفسه منزلة الحسناء التى أجرى دمها السوار ، والجبين الذى أثر فيه تاج الافتخار ، والسيف الذى وضعه على التراب صاقله لصقاله لا لهوانه ، والرمح الذى وضعه على النار مثقفه لتقويمه لا لاحراقه ، والعبد الذى قسى عليه سيده رحمة به واحسانا لا استخفافا به وهوانا ، والبيت لأبى تمام . (٦) اللوم (٧) الجفوة (٨) شدة (٩) تنكشف (١٠) المصيبة (١١) تقاع ، يقول : أرجو أن يكون هذا اللوم ختام الجفا ، ومبدأ الألفة والصفاء وأن هذه الجفوة شدة وتحول وسحابة لا تلبث أن تزول ، يشير الى قول المتنبى :

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

والى المثلين العربيين « غمرات ثم تنجلى » و« سحابة صيف عن قليل تقشع » والأول يضرب فى حصول اليسر بعد العسر والثانى فى سرعة التغير . (١٢) يجعلنى شاكا (١٣) عطاؤه (١٤)غير ضنين : احتراس يريد به حمل سيده على العطف ودفع ما يتوهم من أن التأخير للايقاع به (١٥) نفعه . (١٦) الفيض : صعود الماء على الضفة ، والمراد هنا مجرد الصعود ، أى أن أبطأ الدلاء صعودا أكثرها امتلاء (١٧) املؤها (١٨) المطر (١٩) الارض التى لا نبات بها (٢٠) العطش بحرارة ، لما ذكر أن هذا العتب محمود العاقبة وأن ما حل به عن قريب يزول ، ورأى تأخير الرحمة به وعدم انقاذه من ورطته ربما يوهم الريبة فى محمدة العاقبة ، دفع ذلك معتذرا عن سيده فى هذا التأخير معللا بقوله فأبطأ الدلاء فيضا املؤها وأثقل السحاب مشيا أحفلها وغير ذلك مما يدل على أن فى التأخير ما ينفع البال ويقر الاعين =

لهُ الحمدُ على اهتبا له(١) ، ولا عتب عليه فى اغتفاله(٢) :

فإن يكن الفعلُ الذى ساءَ واحداً فأَفعالُه اللائى سَرَرْن أُلوف

وأَعود فأَقول : ما هذا الذنبُ الذى لم يسعهُ عفوُك ، والجهلُ الذى لم يأْت من ورائه حلمك ، والتطاول(٣) الذى لم يستغرقه تطولك(٤) ، والتحامل(٥) الذى لم يَفِ به احتمالك(٦) ؟! ولا أَخلو من أَن أَكون بريئاً فأَين عدالك ؟ أَو مسيئاً ، فأَين فضلك ؟

إلا يكن ذنبٌ فعدلك وَاسِعٌ أَو كان لى ذنبٌ ففضلك أَوسعُ

فهبنى مسيئاً كالذى قلت طالباً قصاصاً(٧) فأَين الأَخذياعز(٨) بالفضل

حنانيك (٩) ، قد بلغ السيل الزُّبى(١٠) ، ونالنى ما حَسْبِي به وكفى .

وما أرانى إلا ألو مرت بالسجود لآدم فأَبَيت (١١) واستكبرت ! !

= ثم ختم عبارته بما هو أمثل فى التسلية وأدعى للتصبر من حيث يقول:
ومع اليوم غد ولكل أجل كتاب

(١) اغتنامه (٢) تغافله : وهو تركه على ذكر منه بعد أن اعتذر من سيده بما اعتذر وأخذ يمدحه على ايقاعه به وتغافله منه على أن يرأف به ويعطف عليه والبيت للمتنبى (٣) الكبـــر (٤) فضلك (٥) التكليف بما لا يطاق (٦) الاحتمال كالحمل الا أنه فى الأمور العظيمة ، قال النابغة الذبيــانى *

فحملت برا واحتملت فجــــارا * (٧) عقابا (٨) اسم امرأة ، رجع بعد أن عود نفسه فى مخاطبة الأمير الصبر والانتظار التفت منه الى مافى ضميره من بقايا العتاب فقال يستفهم مريدا بذلك الزامه بالصفح عنه بتصــغير ذنبه وتكبير عفو سيده فكأنه يقول : ما هذه الحركة التى زلزلت طـودك ، وما هذه الجيفة التى عكرت بحرك ، ولم لا يشملنى كرمك وجودك مع أن فضلك وعدلك أكبر شفيع العاصي والمطيع ، وذكر البيتين تأييدا لما قاله فى نثره ، والاول للبحترى والثانى مأخوذ من قول الحماسى :

هبينى ظلومـــا نلتــــه بمساءة قصاصا فأين الأخذيا عز بالفضل

(٩) تثنية حنان ، وهو الرحمة (١٠) جمع زبية ، وهى حفرة تحفر لصيد الأسد فى مكان مرتفع لا يعلوه الماء فاذا وصل اليه السيل كان مجحفا : يريد بذلك مزيد استرحام سيده من حيث يقول له : حنـــانيك ، أى رحمـــة أثر رحمة أطلبها منك فان الذل والهوان قد وصلا النهاية ، والصغار والاحتقار قد بلغا الغاية : وقوله بلغ السيل الزبى مثل عــــربى يضرب فى بلوغ الشىء غايته (١١) امتنعت : ولقد أحسن كل الاحسان وتلطف ماشاء فى عطف =

وقال لى نوحٌ : اركب معنا . فقلت : ساوى(١) إلى جبل يَعْصِمنى(٢) من الماءِ ، وأَمَرْت ببناءِ صرح(٣) لعلى أَطَّلع إله موسى وعكَفت(٤) على العجل ، واعتديت(٥) فى السَّبت ، وتعاطبت(٦) فعقرْت(٧) ، وشربت من النهر الذى

= قلب سيده وطلب العفو عما اجترح من جريمته بأبلغ عبارة وأدق اشــارة مبدعا فى وصف ما لاقاه من العقاب والنكال ، وانه لو قسم على ذوى الذنوب من الأولين والاخرين لكان كافيا لتكفير تلك الذنوب جزاء وفاقا ، ملمحا الى ذوى الذنوب المشهورة ووقائع الآثام المأثورة . فقال : وما ارانى .. الخ . يشير الى ذنب ابليس وهو امتناعه واستكباره عن السجــود لآدم من حيث أمره الله بذلك « فأبى واستكبر وكان من الكافرين ، وقال أنا خير منــــه خلقتنى من نار وخلقته من طين » .

(١) سألجأ (٢) يحفظنى ، يشير الى ذنب ابن نوح ، وهو مخالفته لأبيه من حيث قال له لما عم الطوفان وصعد السفينة هو ومن آمن معه : يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين فخالف أباه وقال سآوى .. الخ . (٣) قصر ، يشير الى ذنب فرعون ، وهو انكاره الاله وادعاؤه أنه هو الالــه الحقيقى ، وذلك حينما أتاه موسى عليه السـلام بالايمان بالله ، فقال فرعون « يأيها الملأ ما علمت لــكم من اله غيرى ، فأوقد لى باهامان عــلى الطـين فاجعــل لى صرحا » : الآية . (٤) واظبت، يشير الى ذنب بنى اسرائيل وهو عبـــادة العجل ، وذلك أنه لما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه قام رجل صائغ من قبيلة يقال لها سامرة كانت تعبد البقر ، قال لبنى اسرائيل ان الحــلى الذى استعرتموه من المصريين وبقى معكـم بعد غرقهم لا يحل لـكم فادفنوه حتى يأتى موسى ويرى رأيه فيه ، ففعلوا ، فأخذه وصاغه عجلا ووضع فيـــــه القبضة التى أخذها من أثر حافر فرس الحياة فرس جبريل عليه الســلام ، فصار العجل يمشى ويخور، فقال لبنى اسرائيل هذا الهكم واله موسى نسـيه وذهب لطلبه ، فافتتن به كثير منهـم وأتبعوه (٥) جاوزت ، يشير الى ذنب بنى اسرائيل وهو انتهاك حرمة السبت وذلك أنهم نهوا عن الاصطياد فيــــه وكانت الحيتان تأتى فيه بكثرة رافعة خراطيمها حتى تغطى الماء ولا تأتى فى غيره فتحيلوا بعمل حيضان متصـلة بالبحر فاذا جاءت عشية الجمعة فتحوا الاتصال فتدخل الحيتان فى الحيضان فيأخذونها يوم الأحد ، ولما أمهــل الله عقوبتهم استحلوا الصيد يوم السبت فحاق بهم العذاب .

(٦) تعاطى : قام على أطراف أصابع رجليه . ثم رفع يديه وضرب .

(٧) عقر البعير بالسيف فانعقر ، أى ضرب به قوائمه . يشير الى ذنب قدار وهو قتل ناقة صالح عليه السلام ، وذلك أن امرأة يقال لها عنبرة لها مال وبنات حسان ، وأخرى يقال لها صدوق بنت المحيا صاحب أوثانهم ، كان =

ابتلى الله(١) به جيش طالوت ، وقُدْت الفيل لأَبرهة(٢) ، وعاهدت(٣) قريشاً على ما فى الصحيفة ، وتأَوَّلت(٤) فى بيعة العقبة(٥) ، واستنفرت إلى العير(٦)

= زوجهاأسلم وأنفق ماله على صالحوأتباعه ، وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام ، فدعت صدوق مصدقا لنفسها على قتل الناقة ، ودعت عنبرة قدارا على ذلك ايضا فذهب شقيا ثمود وكمن كل منهما فى أصل صخرة ، ولما مرت الناقة رماها مصدق بسهم فأصاب ساقها ، وشد عليها قدار بسيفه فأبان عروقها ، ثم نحروها .

(١) اختبر ، وهو يشير الى ذنب معظم جيش طالوت عليه السلام وهو مخالفتهم له حينما اشتكوا له قلة الماء ، وهم ذاهبون للقتال ، فقال لهم : « ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده » فخالفوا وشربوا الا قليلا منهم .

(٢) كان عامل اليمن من قبل النجاشي ، يشير الى ذنب أبرهة وهو ذهابه لهدم الكعبة ، وسبب ذلك أنه بنى كنيسة بصنعاء ليصرف الناس عن الكعبة فأتى رجل كنانى ولوثها بالعذرة ، وأتى أقوام من تجار قريش وأضرموا نارا بجانبها فهبت الريح فأحرقتها ، فغضب النجاشي لذلك ، وقام أبرهة وأخذ الفيلة وفى مقدمتها فيل النجاشى المسمى محمودا ليهدم الكعبة ارضاء له ، ولما وصل اليها وجه الفيل نحوها فأبى ، فوجهه الى اليمن فقام مهرولا ، وبعد ذلك أرسل الله عليهم طيرا ابابيل ترميهم بحجارة من سجيل فأهلكتهم .

(٣) أعطيتهم عهدا وميثاقا ، يشير الى ذنب قريش ، وهو اتحادهم على عدم نصرة الدين ، وذلك انهم لما رأوا ان الدين أخذ فى النمو وأن حمزة وعمر أسلما تعاهدوا على مهاجرة بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، وعلى قطع العلائق بينهم تماما وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها فى جوف الكعبة عهدا لذلك . (٤) خالفت .

(٥) طريق وعر فى الجبل . يشير الى ذنب من نقض بيعة العقبة ، وبيعات العقبة ثلاث ، ولم يتأول فيها أحد ، فذكره لها على سبيل الفرض ، اى هب أنى خالفت الاجماع وتعديت الحد وفعلت ما لم يفعله أحد .

(٦) العير ــ بالكسر ــ الابل التى تحمل الميرة ، وهو يشير الى ذنب ضمضم الغفارى وهو استنهاض قريش لأبى سفيان ، وذلك أن أباسفيان ابن حرب كان آتيا الشام فى عير ، فذهب رسول الله لقتاله ، فشعر بذلك =

ببدر ، وانخذلت(١) بثُلث الناس يوم أُحُد(٢) ، وتخلفت(٣) عن صلاة العصر فى بنى قريظة(٤) ، وجئت بالإفك(٥) على عائشة الصِّديقية ، وأَنِفتُ(٦)

= أبو سفيان ، فاستأجر ضمضما المذكور ليخبر قريشا · فذهب وصرخ ببطن الوادى واقفا على جمل قد جدعه ، وحول رحله وشق قميصه : يامعشـــر قريش اللطيمة أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه لا أرى ان تدركوها، الغوث الغوث ، فتجهـــزوا جميعـــا وذهبوا اليـــــه ، وحصلت الواقعة الشهيرة المسماة بغزوة بدر الكبرى، وفيها انتصر النبى عليه الصلاة والسلام انتصارا باهر .

(١) خذله : ترك عونه ونصرته (٢) أحد : جبل بالمدينة . يشير الى ذنب ابن سلول رأس المنافقين ، وهو رجوعه من الجيش هـــو ومن معــه من المنافقين ، وذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام لما خرج الى أحد ومعه ألف من أصحابه لقتال أعدائه ، وكان من رأى ابن سلول أن يمــكث النبى فى المدينة ، فأبى عليه الصلاة والســـلام قبول رأيه موافقا لمعظم الصحابة، فرجع هو ومن معه من المنافقين، وقال أطاعهم وعصانى (٣) تأخرت (٤) طائفة من اليهود يشير الى حادثة بنى قريظة ، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام بعد رجوعه من غزوة الخندق قال : من كان سميعا مطيعا ، فليصل العصر فى بنى قريظة، فبعض الصحابة أخذ بظاهر الحديث وصلى العصر هناك بعد مغيب الشمس، والبعض الاخر رأى ان المقصود الاسراع فصلى فى الطريق ، ولمــــا اختلف الفريقان فى تعيين المصيب ، ترافعا الى الرسول فحكم باصابتهما واذا تكـون عبارته كناية فداحة التخلف عن الذهاب (٥) الكـــذب ، يشير الى ذنب مسطح وحسان ومن معهما فى مجاهرتهم بالسوء لزوجـــة عليه الصـــلاة والسلام : وذلك انه لما ذهب عليـــه الصلاة والسلام الى غزوة بنى المصطلق كانت معه السيدة عائشة ، حيث كانت قرعتها ففى العــودة ذهبت السيدة لقضاء حاجتها ففاتها الركب ولم ينظر فى هودجها فمر صفوان وكان قد تأخر لأمر ما ، فأركبها بعيره وقاده فأشاع هـؤلاء ما أشاعوا فبرأها الله تعـــالى بالآيات البينات (٦) استكبرت ، يشير الى بعض الصحابة ، من حيث استكبروا على أسامة وذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام جهز جيشـــا ليذهب به الى الشام وقال له سر الى مقتل أبيك فتكلم قوم قالوا : أيؤمر هذا الغلام على المهاجـــرين الأولين فغضب عليه الصلاة والسلام من ذلك وخرج فى مرضه عاصبا وصعد المنبر وحمد الله واثنى عليه وقال ما معناه : ولئن طعنتم فى اسامة فقد طعنتم فى أبيه من قبل وانه لأهل لها فاستوصوا به خيرا .

عن إمارة أسامة ، وزعمتُ أن خلافة أبى بكر كانت فلْتة(١) ، ورويّتُ رمحى من كتيبة(٢) خالد ، ومزقت(٣) الأَديم(٤) الذى باركتْ يَدُ الله عليه ، وَضَحَّيْتُ بِأَشمط(٥) عنوان السجود به ، وبذلتُ لقطام(٦) ثلاثة آلافٍ وعبدٌ وقينةٌ(٧) ، وَضَرْبُ علىٍّ بالحسام المصمم .

---

(١) أى من غير احكام ولا رويــة يشير الى ذنب الشيعة وهو اعتقادهم أن عليا هو الأحق بالخلافة ، ومن سواه غاصب ويقولون ما تقــدم . وفى حديث عمر : « ان بيعة أبى بكر كانت فلتة وقى الله شرها » فقيل : المــراد بالفلتة الخلسة أى الامامة يوم السقيفة مالت الأنفس الى توليها وكثر فيهــا التشاجر فانتزعهــا واختلسها أبو بكر اختلاسا ، ومثل هذه البيعة مهيجة للشر والفتنة فعصم الله تعالى من ذلك ووقى (٢) جيش ، يشــير الى ذنب أبو شجرة السلمى وهو فتكه بجيش خالد فى حرب الردة ويشير الى قــوله فى ذلك :

ورويت رمحى من كتيبة خــالد وانى لارجــو بعــدها أن اعمرا

(٣) قطعت (٤) الجلد ، يشير الى ذنب أبى لؤلؤة وهو قتل عمر عليــه الرضوان وذلك أن أبا لؤلؤ طلب منه أن يخفف عنه جعل سيده فقــال له : انه ليس بكثير وانك لصانع مجيد ، وأريد أن تصنع لى رحى . فقال : سأصنع لك رحى يسمع دويهــا أهل المشرق والمغرب وكمن له حتى طعنه فى صلاة الصبح ومات بسبب ذلك ويشير الى ذلك ما قاله بعضهم فى رثائه :

جزى الله خيرا من امام وباركت يد الله فى ذاك الأديم الممــزق

(٥) مختلط شعر الرأس : يشير الى ذنب بعضهم وهو قتل عثمان عليــه الرضوان وذلك أنه وفد عليه وفود كثيرة من الجهات يشــكون عماله فأرضاهم وأرسل محمد بن أبى بكر ليكون واليا على مصر فبينما هو ذاهب اذ رأى عبدا على هجين يســتحثه فأحضره وفتشه فوجد معــه كتابا من الخليفة الى عامل مصر يقول : اذا أتاك محمد ومن معه فتحيل فى قتلهم ، فرجع محمد وأعطى الجواب لعثمان فأقر بانه خط كاتبــه وهــذا ختمه وعبده وهجينه وانه لم يرســله ، فطلب منه احد أمرين : الاعتــزال أو أعطاءه كاتبه الحكم فأبى فحصــلت الفتنة وحاصروه الى أن قتل ويشــير الى ما قاله بعض نعاته :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تســبيحا وقرآنا

(٦) اسم امرأة (٧) جارية : يشير بذلك الى ذنب ابن ملجم وهو قتل عــلى كرم الله وجهه وذلك أن هذه المــرأة أعجبته لنضــارتها فأراد أن يتزوجها فطلبت ما فى البيت فقال لها : لك ما طلبت وقال البيت وبعده : =

وكتبت إلى عمر بن سعد : أَن جَعْجع(١) بالحسين ، وتمثَّلت عندما بلغنى من وقعة الحرة(٢) :

ليت أَشْيَاخِى ببدر شهدوا جَزَعَ الخزرج من وَقْع الأَسل

ورجمت(٣) الكعبة ،وصلبت العائذ(٤) على الثنية(٥) ، لكان فيما جرى عَلَيَّ(٦) ما يحتمل أَن يكون نكالا(٧) ، ويدعى لو على المجاز عقاباً :

وحسبك من حادثات بامرئٍ ترى حاسديه له رَاحِمِينا

= فلا مهر أغلى من على وان غلا ولا فتك الا دون فتك ابن ملجم

(١) ضيق : يشير الى ذنب عبيد الله بن زياد وهو تحريضه على قتل الحسين ، وذلك أنه أبى مبايعة يزيدوأراد الذهاب الى الكوفة من حيث أنهم طلبوا مبايعته فأخبر يزيد عامله هناك عبيد الله بن زياد بذلك فأرسل لقتاله عمر بن سعد ولما أبطا جهز له « شمرا » وكتب عبيد الله له ما تقدم فانتشبت الحرب بينهما وانتهت باستشهاده رضى الله عنه .

(٢) أرض بظاهر المدينة كانت بها الوقعة بين عقبة بن مسلم وأهل المدينة يشير الى ذنب يزيد وهو تشفيه من أهل المدينة وذلك أنه أرسل عقبة بن مسلم الى محاربة أهل المدينة واباحتها ثلاثة أيام فقتل وأسرف وأباح . فلما بلغ يزيد ذلك قال بيت ابن الزبعرى الذكور مظهرا لما فى الضمير المستتر وهو كراهة الأنصار والمهاجرين .

(٣) رميت بالحجارة (٤) المتاجىء (٥) طريق العقبة : يشير الى ذنب الحجاج وهو رجمه الكعبة وصلبه عبدالله بن الزبير وذلك أنه لما حاربه التجأ عبد الله وأصحابه الى الكعبة فنصب الحجاج المنجنيق عليها ورجمها وبعدما انتصر عليه صلبه منكسا وآلى أن لا ينزله الا اذا شفعت أمه فيه فبعد سنة مرت عليه أمه وقالت أما آن لهذاالفارس أن يترجل فاعتبر قولها شفاعة وأنزله ومن قولها لابنها يوم مقتله : يابنى لا تقبان منهم خطة تخاف منها على نفسك الذل مخافة القتل فوالله لضربة بالسيف فى عز ، خير من ضربة بالسوط فى مذلة . فقال لها : انما أخاف المثلة . قالت : يا بنى ان الشاة لايضرها سلخها بعد ذبحها (٦) حصل لى (٧) عذابا يريد أنى لو أتيت بهذه الذنوب كلها لكان ما حصل لى من التعذيب والاهانة والذل والاستكانة كافيا لتمحيص هذه الذنوب . كيف لا وقد صرت الى حالة يرثى لها العدو والحبيب والبعيد والقريب ،وذلك أدل على طلب الرحمة وأحكم فى الاستعطاف والبيت الذى ذكره للعتبى .

فكيف ولا ذنب إلا نميمةٌ (١) أهداها كاشحٌ(٢) ! ونبأ(٣) جاء به فاسق وهم الهمازون (٤) المشاؤون (٥) بنميم ، والواشُون(٦) الذين لا يلبثون(٧) أن يصدَعُوا(٨) العصا ، والغُوَاةُ(٩) الذين لا يتركون أديماً(١٠) صحيحاً ، والسعاة الذين ذكرهم الأَحنف بن قيس فقال : « ما ظنك بقوم الصِّدق محمودٌ إلا منهم !؟ » .

حلفت فلم أترك لنفسك رِيبةً(١١) وليس وراء الله للمرء مطلب

والله ما غَشَشْتُك بعدَ النصيحة ولا انحرفت(١٢) عنك بعد الصاغية(١٣) إليك ولا نَصَبْتُ(١٤) لك بعد التشيع فيك ولا أزمعت(١٥) يأساً منك ، مع ضمان تكفلت به الثقة عنك ، وعهد أخذه حُسنُ الظن عليك ، ففيم عَبِثَ(١٦) الجفاءُ بأذمَّتى(١٧)

---

(١) نقل الكلام للافساد (٢) مضمر العداوة « أهداها كاشح » كناية عن حسن سبك هذه النميمة وأنه معتنى بها كما يعتنى بالهدية للامير (٣) خبر (٤) المغتابون (٥) النمامون (٦) الذين يزينون الحديث للافساد (٧) لبث بالمكان : أقام به (٨) يشقوا (٩) المضلون (١٠) الأديم : الجلد ، يريد سعى النمام وخبر الفاسق وتزيين الفواة والذين يشقون عصا الألفة ويمزقون أعراض الناس ويلمح فى عبارته الى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » الآية، والى قول كثير عزة :

ولا يلبث الواشون أن يصدعوا العصا اذا هى لم يصلب على البرى عودها

(١١) شبهة : يريد حلفت فلم أترك شبهة فى نفسك من براءتى وليس بعد الله يصدق القسم به حتى أقسم به وأذهب اليه . والبيت للنابغة الذبيانى من اعتذارياته النعمان .

(١٢) ملت (١٣) الاصغاء (١٤) الناصبى فى العرف من كان عدوا لعلى كرم الله وجهه وهو ضد الشيعى (١٥) خفت ، يقول أقسم بالله أنى مقيم على النصح لك ثابت على الميل اليك ولم أتخذ مذهب الناصبية مذهبا ولم يستفزنى اليأس منك وتلعب بى أيدى الأهواء فان ثقتى بك وحسن ظنى فيك قد ضمنا لى أن أطرد اليأس بالرجاء فى عفوك ، وهذا الكلام من الاستقصاء البديعى بمكان فانه استوفى جميع عوارض المحبة بحيث لم يبق لقائل قول (لو) ولا (ليت) استجلابا للرحمة وطلبا للعفو . (١٦) لعب وهزل . (١٧) حرماتى .

وعاث(١) العقُوق(٢) فى مواتى(٣) ، وتمكن الضياع(٤) من وسائلى(٥) ؟ ولم ضاقت مذاهبى(٦) ،وأَكْدَتْ(٧)مطالبى ؟وعلام رضيت من المركب(٨) بالتعليق(٩)؟ بل من الغنيمة بالإِياب(١٠) ؟ وأنى غلبنى الغلب(١١) ،وفجر(١٢)على العاجز الضعيف ولطمتنى(١٣) غير ذات سوار ؟ ومالك لم تمنع من قبل أن أفترس؟ وتدركنى ولما أمزَّق(١٤) ؟ ! أَم كيف لا تضطَرِمُ(١٥) جوانح(١٦) الأَكفاء(١٧) حسدا لى على الخصوص لك ؟ وتنقطع أَنفس(١٨)النُّظراء(١٩) منافسة(٢٠) لى على الكرامة فيك

---

(١) أفسد. (٢) ضد البر . (٣) وسائلى . (٤) الهلاك . (٥) ما أتقرب به . (٦) طرقى . (٧) ردت . (٨) الركوب . (٩) المراد تعليق الأمتعة . (١٠) الاياب : الرجوع . (١١) الغلب : المغلوب مرارا (١٢) فجر : اجترأ . (١٣) ضربتنى على وجهى براحتها (١٤) اقطع ، يستفهم عن سبب افساد الجفاء والعقوق لما قدمه من وسائل الرضا حتى ضاقت عليه المذاهب وامتنعت عليه المطالب وحتى رضى من عظيم الأمر بصغيره ومن الغنيمة بالرجوع سالما واجترأ عليه كل ضعيف وغلبه من كان له غلابا وظلمه من لم يكن له كفؤا. وقد ضمن عبارته من الامثال ما هو كالسحر الحلال (أولها) ارض من المركب بالتعليق يضرب فى القناعة بادراك بعض الحاجة (وثانيها) رضيت من الغنيمة بالاياب يضرب فى القناعة بالسلامة وهو مأخوذ من قول امرىء القيس :

لقد طوفت فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالاياب

وثالثها ورابعها مأخوذان من قوله :

فانك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

وقد صحفه ابن زيدون وهو تصحيف حسن وخامسها (لو ذات سوار لطمتنى) قاله حاتم حينما لطمته جارية وكانت العادة لبس السوار للحرة ــ والثلاثة تضرب عند العجز والذلة ــ ويشير الى قوله المنقب العبدى :

فان كنت مأكولا فكن خير آكل والا فأدركنى ولما أمزق

وفى هذا الاستفهام تحضيض له على انجاده وسرعة انقاذه .

(١٥) تتقد . (١٦) أضلاع . (١٧) الأمثال .

(١٨) جمع نفس . (١٩) جمع نظير . (٢٠) رغبة شديدة .

وقد زانني اسم خدمتك ، وزهاني(١) وسم(٢) نعتك ، وأبليت(٣) البلاءَ الجميل فى سماطك(٤) ، وقمت المقام المحمود على بساطك ؟ !

ألست الموالى(٥) فيك غُرَّ قصائد هى الأنجُمُ اقتادت مع الليل أنجما(٨)
ثناءٌ يظل الروضُ منه منوَّراً ضُحى ويخال الوشى(٦) فيه منمنما(٧)

وهل لبس الصباحُ إلا بُرداً(٨) طرَّزته(٩) بفضائلك ، وتقلدت(١٠) الجوزاءُ(١١) إلا عقداً فصَّلتُهُ(١٢) بمآثرك ، واستملى(١٣) الربيعُ إلا ثناءً أمليته فى محاسنك ، وبثَّ(١٤) المسْك إلا حديثاً أذعته(١٥) فى محامدك ؟ (ما يوم حليمة بسرٍّ) وإن كنت لم أكسك سليباً(١٦) ! ولا حليتك عُطلا ! ولا وسمتك غفلاً(١٧) بل وجدت آجُرًّا(١٨) وجصًّا(١٩) فبنيت ، ومكان القول ذا سعة فقلت :

---

(١) الزهو : الكبر (٢) علامة (٣) جربت
(٤) السمط : الصف من الناس (٥) المتابع
(٦) ضرب من الحرير ذو ألوان (٧) ثوب موشى بألوان فيها البياض ــ لقد أتى ابن زيدون من كلام السحر وسحر الكلام بما يكبو دونه قلم البليغ ــ وذلك من الاعتراف لسيده بأنه قد أوقد النار فى قلوب الحساد والنظراء بتعهده له بالانعام بالصلاة حتى انطلق لسانه فيه بالمدائح التى طلعت من الليل أنجما والثناء الذى زهرت به الرياض ووشيت به حلل الفضل والبيتان من قصيدة للبحترى يعاتب بها الفتح بن خاقان (٨) رداء (٩) علمته (١٠) لبست (١١) برج (١٢) تفصيل العقد : جعل خرزة بين كل لؤلؤتين (١٣) طلب الاملاء (١٤) نشر (١٥) أشعته : والمعنى أن فضائلك التى نشرتها فى مدائحك ظهرت للعين ظهور الصباح حتى انه لا يضىء الا بسببها : وأن عقد الجوزاء لم ينشرها فيه الا لكونه استملى من الثناء المملوء بمحاسنك . ثم أثبت أن ما تقدم حقائق ثابتة بقوله «مايوم حليمة بسر» وهو مثل عربى يضرب فى فشو الأمر وانتشاره (١٦) مساويا (١٧) عادم العلامة (١٨) الطين المحرق (١٩) الجير : أراد دفع ما يتوهم من أنه يتفضل عليه باذاعة المحاسن ونشر المدائح وانه اخترع له هذه السجايا والخلال حيث يقول له : انى لم أمدحك الا بما هو فيك من خصائص الخصال وجميل الخلال وانما أنا صغتها فى القالب الذى يلفت الأنظار ويجلى صدأ الأفكار .

حاشا(١) لك أن أُعدَّ من العامِلة الناصبة(٢) ، وأكون كالذبالة(٣) المنصوبة ، تضيءُ للناس وهى تحترِقُ ، فلك المثل الأَعلى(٤) ، وهو بك وبى فيك أولى ، ولعمرك(٥) ما جهلت أن (صريح الرأْى(٦) أن أتحول إذا بلغتنى الشمس و (نَبَا بى المنزل (٧)) وأصفح (٨) عن المطامع التى تقطع أعناق الرجال فلا (أَستوطئُ العَجْزَ(٩)) ولا أطمئن (١٠) إلى الغُرُور (١١) ، ومِنَ الأَمثال المضروبة : خامرى(١٢) أُم عامر(١٣) .

---

(١) تنزيها لك (٢) من النصب : وهو التعب (٣) الفتيلة (٤) الصفة العليا ــ بعد أن عمل جهد المستطيع فى الثناء عليه أراد ان يستميله بلطف ليجعل لعمله فائدة ونتيجة فنزهه عن ان يجعل مثله معه كمثل الكفار حيث عملوا وتعنوا فى الدنيا فيما لم يعدعايهم منه فائدة فى الآخرى ، ويشير الى قوله تعالى : (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة ، تصلى نارا حامية) الآية والى قول العباس بن الأحنف :

صرت كأنى ذبالة نصبت   تضىء للناس وهى تحترق

وبالغ فى التلطف بقوله : فلك المثل الأعلى والصفةالعليا من التجاوز والصفح وأنت أولى من صفح عن زلة المسىء ، وأنا اولى من ادخرت مودته بالصفح عنه وما أحسن قوله وهو بك الخ . كأنه يقول هو بك أولى وهو بى كذلك اذا كان فيك فكلا الحالين مخصوص بك وما ألطف ما ينسب الى الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه فى الامام أحمد بن حنبل :

قالوا يزورك أحمد وتزوره   قلت الفضائل لا تفارق منزله

أن زرته فلفضله أو زارنى   فلفضله فالفضل فى الحالين له

(٥) حياتك (٦) شديدة (٧) نبابى المنزل : لم يوافقنى (٨) أعرض (٩) استوطىء العجز : أجده لينا سهلا (١٠) أميل (١١) ما يغتر به من متاع الدنيا (١٢) اشترى (١٣) كنية الضبع ، يقسم بحياة سيده أنه جهل أن سديد الرأى وجوب التحول عن مقام الاهانة متى شعر بلحاقها به كما أنه لم يجهل أن الطمع مورد الهلكة وذريعة الخذلان ومقطع اعناق الرجال وأنه كان عليه أن يرحل ولا يستسهل العجز ولا يميل الى الغرور ولكن خابت آماله وانعكست أحواله فكان الغرورنصيبه والأمل قائده فاغتر كما اغتر الضبع بقول القائل خامرى أم عامر . يشير الى قول أبى تمام : =

وإنى مع المعرفة أن الجلاءَ(١) سباءٌ(٢) والنقلة(٣) مثلةٌ(٤) :

ومن يغتربْ عن قومه لم يَزل يَرى مصارعَ مظلوم مجراً ومحسبا
وتُدفن منه الصالحاتُ وإن يسئْ يكن ما أساء النار فى رأْس كبكبا(٥)

عارفٌ أن الأَدب الوطنُ لا يُخشى فراقه ، والخليط(٦) لا يتوقع زياله(٧) والنسيب(٨) لا يخفى ، والجمان لا يُجفى(٩) .

ثم ما قران(١٠) السعد بالكواكب أبهى أثرًا ، ولا أثنى خطرا(١١) من اقتران غِنى النفس به ، وانتظامها نسقاً(١٢) معه ، فإن الحائز(١٣) لهما الضارب بَسهم فيهما ــ وقليلٌ ماهم(١٤) ــ أينما توجَّه ، وردَ منهل (١٥) بر ، وحط فى جناب(١٦) قبول ، وضوحك قبل إنزال رَحله ، وأعطى حكم الصبى على أهله

= وان صريح الرأى والحزم بامرىء اذا بلغتـــه الشمس أن يتحـولا

والى المثل العربى « العجز وطىء » يضرب لمن استلان فراش العجـز وقعد عن طلب المكاسب وقوله خامرى الخ مثـــل يضرب لمن عـرف الدنيا وتقلباتها ثم يميل اليها ويغتر بها .

(١) الخروج عن الوطن (٢) أسر (٣) الانتقال (٤) تنكيل (٥) جبل (٦) المخالط (٧) مفارقته (٨) ذو النسب (٩) لا يهجر : بعد أن بين لسيده انه لا يجهل أن الصواب التحول أراد أن يبين له انه يعرف أيضـا ان الانتقال فيه التمثيـل والنـكال وأن الغربة كربة والنوى توى وأن حسنات الغريب مهجورة وسيئاته منشوره فقال انى مع معرفتى بأن خـروجى من وطنى قسر لى ودفن لمحاسنى وانتقالى منه الى غيره مع عدم معرفة أهـل هذه الجهات بما أنا متحل به من العلوم والاداب والكمالات تنكيل بمحاسنى وتضييع لبهجة كمالاتى فيجهل قدرى وتهضم حقوقى وتدفن منى الصالحات وتشاع على قلتها السيئات غير انى لا أعد ذلك البناء هو الوطن الحقيقى بل وطنى الذى أعول عليه انما هو ملازم لى اينما حللت وارتحلت لا اخشى فراقه وهو سميرى الملازم لى فلا أتـوقع غيابه وان النسيب اينما حل فهو معروف وأينما وجد فهو مألوف وحيث هو كذلك فلا يخشى من الانتقال بأسا ولا من التحول ضيما ــ والبيتـان للاعشى ، والنقلة مثلة ــ مثــل مـــولد (١٠) مصاحبة (١١) قدرا (١٢) النسق من الكلام وغيره ماجاء على نظام واحد (١٣) الجامع (١٤) قليل ماهم . يريد بذلك التعريض لسـيده بأنه لا نظير له فى أخلاقه وآدابه (١٥) عين (١٦) ناحية . بعد أن بين أن الأدب كبير النفع عظيم الفائدة حتى جعله وطنا فى الغربة وفرجة عند الكربة بين =

وقيلَ له أَهلاً وسهلاً ومَرحَباً   فهذا مَبيتٌ صالح ومقيل

غير أَن الوطنَ محبوبٌ ، والمنشأَ مأْلوفٌ ، واللبيبُ يحنُّ إلى وطنه ، حنين النجيب(١) إلى عَطَنِهِ(٢) . والكريمُ لا يجفو أَرضاً بها قوابله(٣) ، ولا ينسى بلدًا فيها مراضعُه ـ قال الأَول :

أَحبُّ بلاد الله ما بين مَنْعَجٍ(٤)   إلَيَّ وسلمى أَن يصوبَ سحابها

بلاد بها حل الشباب تمائمى(٥)   وأَول أَرض مسَّ جلدى ترابُها

= أنه يكون أكبر نفعا وأعظم جدى اذا صاحبه غنى النفس فان المتحلى بحلاهما القابض على زمامهما أينما يمم فالسعد قرينه والناس أهله يقبلون عليه من كل جانب ويعظمونه كل التعظيم لاول وهلة أين جرى نظره يعطونه حكم الصبى على أهله يفعل ما يريد كالسيد بالعبيد ويقولون له لقيت أهلا ونزلت مكانا سهلا واسعا رحبا فأنس ولا تستوحش وكن كما تحب وتختار فأنت رب الدار . وقوله ماقران السعد الخ أخذه من قول البستى :

وأتم الاشياء نورا وحسنا   بكر شكر زفت الى صهرير

ماقران السعد بالحوت أبهى   منظرا من قران بر وشكر

وقوله أعطى حكم الصبى الخ : عبارة كانت تقولها العرب فى مدح من نزلوا عنده وأكرمهم وأصل البيت المذكور : فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا فهذا البيت صالح وصديق .

(١) النجيب من الابل الفحل الكريم (٢) مبرك الابل حول الماء (٣) جمع قابلة وهى من تتلقى المولود عند خروجه (٤) اسم مكان (٥) تميمة وهو ما يعلق للطفل حفظا له ، بعد أن بين له أن سديد الرأى الانتقال وانه لايخاف عاقبة ذلك لأدبه وغنى نفسه أراد أن يبين له السبب الحامل على المكث فقال ان الوطن محبوب والمنشأ مألوف

ما من غريب وان أبدى تجلده   الا سيذكر عند الغربة الوطنا

ولا غرو فهو أول أرض وجد بها وأول تربة تضمخ به جسده وأول بقعة نما فيها فكره وأول جهة قضى فيها الشباب مآربه مع اخوان وأحباب وخلان وأتراب ـ فاذا تذكر هذه الجهات تخيل له رغد العيش وحسن الحال ورأى أغصان شبابه تميد على تلك الاوطان وتتمايل مع النسيم تمايل البان فيحن اليها حنين الغريب الى وطنه . وانه ليس من كرم الاصل وشرف =

هذا إلى مُغالاتى(١) بعقد جوَارك ، ومُنافستى(٢) بلحظةٍ من قرْبك واعتقادى الطمع فى غيرك طبع(٣) والغنى ممن سواك عناء ، والبدل منك أَعور ، والعوض لغاء(٤) ، وكل الصيد فى جوْفِ الفرا(٥) .

وإذا نظرتُ إلى أَميرى زادَنى ضنا به نظرى إلى الأَمراءِ

وفى كلِّ شجر نار ، واستحمد (المرح والعقار)(٦) ، فما هذه البراءةُ ممن

= المحتد أن يهجر الانسان قوابله ومراضعه لما لهن عليه من الخير العميم والفضل الجسيم فى أثناء الصغر فالواجب عليه أن يصلهن فى ابان الكبر حتى يجنين ثمرات أتعابهن ويسررن بحسن معاملته لهن والبيتان لبعض الاعراب.

(١) مجاوزتى الحد (٢) رغبتى فيك على وجه المبادرة (٣) دنس (٤) خسيس (٥) حمار الوحش (٦) نوعان من الشجر سريعا الورى . واستحمد : استفضل وقيل اقتدح على الهوينا ــ بعد أن بين محبة الوطن وألفة المنشأ ، وسبب ذلك الطبيعى :أراد أن يبين للامير أن ذلك ليس هو السبب الوحيد الحامل على المكث بل انضم اليه ما هو أشد منه تأثيرا وأعظم خطرا ألا وهو شدة محبنى لجوارك وحظوتى بقربك ، وأنت أكرم من حفظ للجوار حرمته ، وأوضح محجته · واعتقادى بأن الطمأنينة الى غيرك غرور والثقة بخلافك خذلان وعدم رضائى بسواك بدلا ولا بغيرك عوضا وكيف استبدل السمين بالغث والراحة بالتعب أم كيف أنظر الى غيرك من الأمراء ، وغيرك فيك :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

نعم وان اشتركوا معك فى اللقب الا أنهم لم يشتركوا معك فى كمال الأدب وفى كل شجر نار واستحمد المرح والعقار وفى ذلك من استمالة القلب ما يدهش الاب وقد جمعت هذه العبارة من الأمثال ما يذرى باللآل ــ فأولها « رب طبع يجر الى طمع » وثالثها «كل الصيد فى جوب الفرا » وهو يضرب لمن يفضل نفسه على أقرانه وثانيها « البدل منك أعور » يضرب لكل ما لا يرتضى به ، وأصله أن يزيد بن المهلب لما صرف عن خراسان بقتيبة بن مسلم الباهلى وكان شحيحا أعور قال الناس هذا بدل أعور ــ ورابعها « رضى من الوفاء باللقاء » يضرب لمن يرضى بالقليل من الكثير ــ خامسها « وفى كل شجر نار واستحمد المرح والعقار » يضرب فى تفضيل بعض المشتركين فى صفة على بعض .

يتولاك(١) ؟ والمَيلُ عمن لا يميلُ عنك ؟ ! – وهلَّا(٢) كان هواك(٣) فيمن هواه فيك ؟ ورضاك فيمن رضاه لك ؟ !

يامن يعز علينا أن نُفارقهم وجْدانُنا كلَّ شيءٍ بعدكم عدمُ

أُعيذك ونفسى من أن أَشيمَ(٤) خلّبا(٥) ، وأَستمطرَ جَهَامًا(٦) ، وأَكدِم(٧) فى غير مكدَم ، وأَشكو شَكْوَى الجريح إلى الغربان والرَّخم(٨) فما أَبْسَسْتُ(٩) لك إلا لِتَدُرَّ ، ولا حركت لك الحُوار(١٠) إلا لتحن ، ولا نبهتك إلا لأَنام ولا سَرَيتُ إلا لأَحْمَدَ السُّرَى(١١) لديك .

---

(١) مضارع تولاه صار وليه (٢) كلمة تحضيض (٣) ميل النفس : بعد أن بين له أنه لا يرضى سواه وأنه يفضل جواره على ماعداه وهو مع ذلك يعرض عنه ولا يميل اليه رجع ينكر عليه ذلك بطريق الاستفهام كما هو الأدب من حيث يقول كيف تتبرأ منى وأنا أواليك وتميل عنى وتهجرنى وأنا لا أميل الا اليك وهلا هويت من يهواك ورضيت من يرضاك والبيت للمتنبى (٤) شام البرق : نظر الى سحابته أين تمطر (٥) البرق الذى لا يعقبه مطر . (٦) السحاب الذى لا ماء فيه . (٧) أعض (٨) طائر ضعيف (٩) الابساس : الرفق (١٠) ولد الناقة (١١) السير ليلا – يطلب منه ان يجعل لأعماله نتيجة يجنى ثمرتها وأن يكون سيده غارس دوحتها وأن لا يجعله كالمسيح الماء من الصخر ، والمستجير عند كربته بعمرو والمستمطر الجهام والناظر الى البرق الخلب بل يرسل عليه عطفه مدرارا ، وأن يصل رحم الجوار بعد القطيعة ويقر عينا أضرها سهاد الجفوة وأن يحمد اليه سراه ويحسن عقباه ، ولقد رصع عبارته بجواهر الامثال وصاغها فى قالب غريب المثال ، يشير فيها الى قولة معد يكرب :

لا تهنى عادة اكرامك لى فشديد عادة منتزعه
لا يكن برقك برقا خابا ان خير البرق ما الغيث معه

والى المثل العربى « كدمت فى غير مكدم » يضرب لمن يطلب شيئا من غير أهله ، والى قول المتنبى :

ولا تشكو الى خلق فتشمتهم شكوى الجريح الى العقبان والرخم

والى الامثال العربية : « الابساس قبل الايناس » وهو يضرب فى الرفق =

وإنك إن سَنيت(١) عقد امرى تيسّر ، ومتى أَعذرت(٢) فى فك أَسرى لم يتعذر ، وعلمك محيط بأَن المعروف ثمرة النّعمة ، والشّفاعة زكاة المروءَة . وفَضَلَ الجاه(٣) يعوذُ به صدقه .

وإذا امرُؤٌ أَهدى إليك صنيعةً   من جاهه فكأَنها من ماله

لعلى أُلقى العصا بذاك(٤) وتستقرٌ بىَ النوى(٥) فى ظلِّك ، وأستأْنف(٦) التأَدب بأَدبك ، والاحتمال على مذهبك ، فلا أُوجدُ للحاسد مجال(٧) لحظه(٨) ولا أَدعُ للقادح(٩) مسَاغَ(١٠) لفظه .

= «حرك لها حوارها تحن» وهو يضرب فى استنهاض الهمة ، و« لها عمرا ثم نم » يضرب فيمن يعتمد على غيره ،و « عند الصباح يحمد القوم السرى » وهو يضرب عند حمد العاقبة .

(١) سهلت . (٢) بالغت فى طلب العذر (٣) المنزلة ــ يقول لسيده : انى ما كلفتك أيها السيد بارتكاب متون الأهوال ولا بمعاناة الأحوال ولا بعد نجوم السماء ولا رمال الدهناء ، وانما هو أمر يكبر فى عين سائله ويصغر عند باذله وهو فى يدك وقبضتك وأنت قادر عليه وان سهلت عسيره سهل وان التمست المعذرة انتقت الصعوبة ، وأنت تعلم ــ زادك الله علما ــ أن النعمة شجرة ثمرها المعروف وان المروءة مال زكاتها الشفاعة وشفاعة الانسان أفضل زكاة الانسان وبذل الجاه رفد المستعين ــ وأيد ذلك بالبيت بعده وقوله أن سنيت مأخوذ من قول بشار :

فبالله ثق ان عز ما تبتغى وقل   اذا الله سنى عقد أمر تيسرا

(٤) كل ما استترت به . (٥) ماينويه المسافر من قرب أو بعد

(٦) ابتدى . (٧) جال : طاف . (٨) نظره . (٩) الطاعن .

(١٠) ساغ الشراب : سهل مدخله فى الحلق ــ يقول أرجو من سيدى أن يعفو عن ذنبى وتقصيرى ويلبى ندائى ، هذا كى أسكن فى ظلك وكنفك ولا أذهب الى غيرك وتكون غاية آمالى ومنتهى أسفارى وأتوب عما كنت مرتكبه ومتمسكا به مما لا يرضيك وأتخلق بأخلاقك وأتمسك بطريقتك وأحذو حذوك وتبع مذهبك وبذلك لايجد عدوى فى مدار لحظه ولا الطاعن ما يسوغ من لفظه . وقوله لعلى ألقى الخ حل بيت المعز بن أوس وهو :

وألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قر عينا بالاياب المسافر

والله مُيسِّرك من إطلابى(١) بهذه الطِّلبة(٢) وإشكائى(٣) من هذه الشكوى ؛ بصنيعة تُصيب منها مكان المصنع ، وتستودعها أَحفظ مُستودع حسبما أَنت خليق(٤) له ، وأَنا منك حرىٌّ(٥) به ، وذلك بيده وهيِّن عليه .

مكاتبات متفرقة

كتب رئيس الجمهورية التركية إلى إحدى الدول الأُوربية :

أَيها الوزير الأَفخم – إن لفظة تقسيم (تركيا) إفكٌ لا يفوه به عاقل ؛ ولا يتصوره إنسان ، تكاد تنفطر له السماءُ دهشة ، وترتج له الأَرض وحشة ؛ بل تخِرُّ دونه الجبال ، وتنفك عنده الآمال ، كأَن أَوربا تستطيعه ، ولكنها لم تفعله ولن تفعله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ، فـ« قل اللهُمَّ مالك الملك ، تُؤْتى الملك من تشاءُ ، وتنزع الملك ممن تشاءُ ، وتعزُّ مَن تشاءُ ، وتذلُّ من تشاءُ ، بيدك الخير إنك على كل شيءٍ قدير » .

تقسيم تركيا : كلمة ليست أَكبر من أَوربا فقط ، بل هى أَكبر من منظومة هذا العالم الشمسى ، الذى تراه ، أَو تسمع به ، إن كنت لا تراه ؛ فلا يليقُ أَن يفوه به إلا فم القدرة الإِلٰهية « القائم ع كل نفس بما كسبت والله غالبٌ على أَمره ، ولكن أَكثر الناس لا يعلمون » .

تقسيم تركيا : رُبما يكون ، ولكن متى يكون ؟ حينما يتحلى وجه البسيطة بدمائنا الطاهرة الزكية ، يوم ترى الأَرض لابسة تلك الحلة الأَرجوانية الثمينة حيث تتمشى الدماء على فيروزج الفضاء ، محاطة كواكب الوجود بكتائب جنود

---

(١) اسعافى (٢) ما أطلبه (٣) ازاء ما أشكوه . (٤) جـدير .
(٥) حقيق : يقول لسيده والحمد لله الذى سهل لك مطلبى واسعافى وازالة ما أشكوه من آلام السجن بمعروف تبذله لأهله وتحفظه عند أمين لوقته حسبما يقتضيه كرم أخلاقك وجميل صفتك وأنا أحق الناس به لمودتى لك واخلاصى فى ولائك وما ذلك عليك بعزيز :

أن الصـنيعة لا تكون صـنيعة حتى تصـيب بهـا مكان المصنع

العدم المطلق : لا أَرض لمن تُقِلّ ، ولا سماء لمن تُظل ، ولا قائم موجود ، ولا دائم مقصود ـ هنالك تتحدث شياطين الخيال فى أَندية المحال بحديث ذلك التقسيم المشئوم ، ولا من سميع ، ولا من مجيب ؛ فالويل ثم الويل يوم ذلك التقسيم الموهوم ، والثّبور إذا تنزلت السماءُ بقضاءِ ذلك الهول المقسوم «إن فى ذلك لبلاغاً لقومٍ يتفكّرون» .

وكتب ابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ ه فى شكر صديق له على مراسلته إياه :

وصل ما وصلتَنى به(١) ـ جعلنى الله فداك(٢) ـ من كتابك ، بل نعمتك التامة ، ومنتك العامة(٣) فقرت عينى بوروده(٤) ، وشفيت نفسى بوُفُوده(٥) ، ونشرته فحكى نسيم الرياض غِبّ المطر(٦) ، وتنفس الأَنوار فى السَّحر(٧) ، وتأملتُ مفتَتَحه وما اشتمل عليه من لطائف كلمك ، وبدائع حكمك(٨) ؛ فوجدته قد تحمل من فنون البر عنك(٩) ، وضرُوب الفضل منك(١٠) جدًّا وهَزلا(١١) ماملأَ عينى ، وغمر قلبى(١٢) ، وغلب فكرى ، وبهر لُبِّى(١٣) ، فبقيت لا أدرى ! أَسُمُوط دُرٍّ خصصتنى بها(١٤) ؟ أَم عقود جوهر منحتنيها(١٥) ؟ ولا أَدرى : أَجدك أَبلغ وأَلطف ؟ أَم هزلك أَرفع وأَظرف ؟ وأَنا أَوكّل بتتبع ما انطوى عليه نفساً لا ترى

---

(١) ورد الى كتابك الذى ربطتنى به معك (٢) فداك : أى وضعنى الله مكانك فى كل مكروه حتى تخلص منه (٣) أى الذى ورد الى هو خطابك الذى أعده بمنزلة نعمتك العمومية وجميلك الشامل . (٤) فاطمأن قلبى بوصوله الى (٥) وطابت نفسى بمجيئه الى (٦) ونشرته أى فتحته فحكى نسيم الرياض غب بالمطر ، أى يشبه الريح التى تهب من البساتين بعد ما نزل المطر عليها . (٧) وأشبه تفتح الأزهار فى أواخر الليل . (٨) أى وتدبرت فى صدره رقى الكلمات اللطيفة التى أودعتها فيه والحكم البديعة التى نثرتها فيه . (٩ و ١٠) أى شاهدت منه أنواعا من الاكرام أثبتها فيه ، وأصنافا من الأفضال دونتها فيه . (١١) من الأمور الهامة الجديدة والامور المفرحة المازحة . (١٢) ملأ عينى : يعنى صرفها عن النظر الى غير احسانك ـ وغمر قلبى أى : لم يدع له منصرفا الى غير أفضالك . (١٣) وغلب فى فكرى أى : استحوذ على عقلى ، وبهرنى أى راع عقلى وسباه (١٤) أى عقود در قصرتها على (١٥) ومنحتنيها أى أعطيتنيها .

إلا ما اقتنيته منه(١) ، ولا تعدّ الفضل إلا فيما أخذته عنه ، وأمتّع بتأمله عيناً لا تقر إلا بمثله ، مما يصدر عن يدك ، ويرد من عندك ، وأُعطيه نظرًا لا يمله ، وطرفاً لا يطرف دونه(٢) ، وأجعله مثالا أرتسمه وأحتذيه(٣) ، وأُمتع خلقى برونقه ، وأُغذى نفسى ببهجته ، وأَمزج قريحتى برقته ، وأَشرح صدرى بقراءته ، ولئن كنت عن تحصيل ما قلته عاجزًا ، وفى تعديد ما ذكرته متخلفاً ، لقد عرفت أنه ما سمعت به من السِّحر الحلال .

ومن كتاب للمرحوم السيد توفيق البكرى فى سفرته إلى الآستانة العلية :

كتابى إلى السيد الأجل ، وأنا أحمدالله إليه ، وأدعوه أن يديم النعمة والسلامة عليه . وبعد : فلما اعتزمت على الرحلة هذا العام ، إلى قبّة السلام ، ودار خلافة الإسلام ، وفارقت مصر ، وساكنها ، وأرباضها(٤) ، ومواطنها ، ركبت سفينة عَدْوَليَّة(٥) إلى الثغور الفرنجية ؛ فجرت فى خضم(٦) عجاج ، ملتطم الأمواج ، له دَوِىٌّ من جرجرة(٧) الآذى(٨) أخضر الجلد ، كأنه إفرند(٩) تصخب(١٠) فيه النينان(١١) ، وتجرى فى جوفه الدعاميص(١٢) والحيتان ، إذا مازجه الأصيل(١٣) بالعشى خِلته كُسِّرت(١٤) عليه الْحُلى ، أومُزج بالرحيق(١٥) القُطْرُبُلِّى(١٦) ، وإن لاحت به نجوم السماء ، خلته صفائح من فضة بيضاء سمرت بمسامير صغار نُضار(١٧) . وأخذت السفينة تشقّ عُبَابه(١٨) ، وتفلق حبَابه(١٩) بين ريح رُخاء(٢٠) ، أو زعزع(٢١) هوجاء (٢٢) ، فهى تارة فى طريق مُعبد(٢٣) ،

---

(١) اكتسبه . (٢) الطرف العين ، يطرف : يطبق جفنا على الآخر . (٣) أرسمه فى فكرى وأقتدى به . (٤) مساكنها . (٥) نسبة الى قرية عدولى بالبحرين أو نسبة الى صانعها ، والمقصود أنها أضخم سفينة (٦) البحر (٧) الصوت (٨) الموج (٩) جوهر السيف (١٠) تختلط أصواتها (١١) جمع نون وهو الحوت (١٢) جمع دعموص دودة لها رأسان ترى فى الماء اذا قل (١٣) الوقت بعد العصر حتى تغرب الشمس (١٤) رددت ووضعت (١٥) الخمر (١٦) بضم القاف وسكون الطاء وضم الراء وتشديد اللام الخمر المنسوب الى قطربل قرية بين بغداد وعكبرا مشهورة بالخمر الجيدة (١٧) الذهب (١٨) الموج (١٩) بفتح الحاء ما يعلو (٢٠) بضم الراء الريح اللينة (٢١) بفتح الزاءين الريح الشديدة (٢٢) بفتح الهاء الريح القوية تقلع الأشجار والبيوت (٢٣) مذلل ومسهل

ورميثٍ(١) مُسَرَّد(٢) ، وطوراً فوق حَزْن(٣) وقرْدَد(٤) ، أو على صرحٍ (٥) مُمَرَّد(٦) ، وكان معنا فى الفُلك ، رهط من العرب والترك ، فكنا نتواردَ معهم فى جوائب(٧) الأَخبار ، وطُرف (٨) الأَحاديث والأَسمار(٩) ، ما يُزْرى(١٠) بالمنهل العَذْب ، واللؤلؤ الرطب ، إلى أن يميلَ ميزان النهار ، وتغرُق ذُكاءُ(١١) فى البحار ، ويُمسى الكون من السواد فى لَبُوس حديد(١٢) أو لِباس حداد ، وتبرُق نجومُ السماء فى أَكناف الظُّلماء ، كأَنها سِكاك(١٣) دِلاص(١٤) ، أو فلق رَصاص ، أوعيون جراد ، أو جمرٌ فى خلال رماد ، أو دُرٌّ فى بحر أَو ثُقْبٌ فى قُبَّة الدَّيْجُور(١٥) ، يلوحُ منها النور ، ويبدو الهلال كأَنه خنجرٌ من ضياء ، يَشُقُّ طيالس الظلماء ، أَو قلادة أَو دِمْلُج (١٦) غادة (١٧) ، أَو سِنان(١٨) لواء الضراب ، أَو الليل فيل وهو ناب ، فنأْخذ مجلسًا نَسَمه(١٩) الكافور ، وأَرضُه عنبر مذرُور(٢٠) رُقِمَتْ فيه زرابى مبثوثات(٢١) ، ومنابذ(٢٢) ، وحُسْبانات(٢٣) ، وأَنماطٌ(٢٤) مفروشة ، وبُسط منقوشة :

بُسط أَجادَ الرسمَ صانِعُها ... وزها عليه النقْش والشكْلُ

فيكاد يُقطَفُ من أَزهارها ... ويكاد يسقط فوقها النحل

وحولهُ شموع تزهو ، وأَضواءٌ تبهر(٢٥) ، وقد دارت عليه سُقاةٌ(٢٦) ،

---

(١) الارض السهلة . (٢) منتظم لا صعوبة فيه . (٣) الارض الصعبة . (٤) الارض المرتفعة الغليظة . (٥) القصر . (٦) مرد البناء : ملسه حتى صار ناعما . (٧) الأخبار الطارئة (٨) المحاسن . (٩) الأحاديث وأصله لأحاديث الليل (١٠) يعيب ويحقر (١١) بضم الذال ممنوعة من الصرف اسم الشمس (١٢) بفتح اللام الدرع (١٣) جمع سك المسمار (١٤) بكسر الدال الذى يبرق ويلمع (١٥) الظلام (١٦) بكسر الدال وزن درهم أو بضمهامع ضم اللام : حلى للنساء يلبسنه فى أيديهن (١٧) المرأة الناعمة لينة الأعطاف (١٨) حديدة الرمح (١٩) نسيمه (٢٠) منثور (٢١) منشورات (٢٢) جمع منبذة وزن مكنسة الوسادة التى يتكأ أو ينام عليها (٢٣) جمع حسبانة الوسادة الصغيرة التى يتكأ عليها أيضا (٢٤) جمع نمط ، ثوب من صوف يطرح على الهودج ذو لون من الألوان . (٢٥) تزهر وتبهر كلاهما بمعنى تضىء وبابهما منع . (٢٦) جمع ساق .

كجُمَّاع(١) الثريا(٢) ، بأَقداح الْحُمَيَّا(٣) ، وأَكواب(٤) الفانيذ(٥) ، المرَوَّق ، وقوارِير(٦) الجلاب(٧) المُصَفّق(٨) ، ثم تجيءُ قَينةٌ(٩) فى يدها ناى ، كأَنه صور إسرافيل ، يُحيي الرفات(١٠) ، ويَنْشُرُ(١١) الأَموات ، حتى إذا بدا الضِّياءُ ، كابتسام الشِّفة اللمياء ، دخلنا المضجَع لهجع ، وهَلُمَّ جرًّا(١٢) ، فى أَيامنا الأُخرى .

وكتبت السيدة وردة اليازجية إلى السيدة عائشة تيمور المتوفاة سنة ١٣٠٠ هـ :

سيدتى ومولاتى – أَعرض أَننى بينما أَنا أَلهج بذكر أَلطافكم السنية ، وأَتنَسَّم شذا أَنفاسكم العبقرية ، وأَترقب لقاءَ أَثر من لدنكم يتعلل به الخاطر ، ويكتحل بإِثمِدِ مداده الناظر .

وصَلَتْنى مكاتبتكم ، فَجَلَتْ عن العين أَقذاءَها ، وردت إِلى النفس صفاءَها ، فتناولتها بالقلب لا بالبنان وتصفحْت ما فى طيها من السحر البيَان ، فقلت :

هذا الكتاب الذى هامَ الفؤاد به   يا ليتنى قَلَمٌ فى كف كاتبه

ولعمرى إنه كتاب حَوَى بدائع المنثور والمنظوم ، وتحلَّى من درر الفصاحة فأخجلت لديه درارى النجوم ، وقد تطفلت على مقامكم العالى بهذا الجواب ناطقًا بتقصيرى ، وضمَّنتُه من مدح سجاياكم الغرَّاء ، ما يشفع لدى مكارمكم فى قبول معاذيرى ، لازلتم للفضل معدناً وذخرًا ، وللأَدب كنزًا وفخرًا .

وكتبت السيدة عائشة تيمور إلى السيدة وردة اليازجية المتوفاة سنة ١٣١٣ هـ :

أَستهلُّ براعة سلام حَمَل الشوق رسالتَه ، وتقلدَ الشفق ما نشقَتْ ناشقة عَرْف الوداد كفالته ، ولو رضيت المجال ، فى صدق المقال ، لنطق بخالص الوفاءِ

---

(١) بالضم ما جمع وانضم بعضه الى بعض ومراده الغلمان (٢) سبعة كواكب منضمة بعضها الى بعض . (٣) الخمر والمراد الشراب (٤) جمع كوب الكوز المستدير الرأس لا عروة له أو لا خرطوم (٥) نوع من الحلوى فارسى معرب بانيذ . (٦) جمع قارورة : ما يوضع فيها الشراب من الزجاج (٧) ماء الورد فارسى معرب (٨) المروق الصافى (٩) المغنية (١٠) الحطام البالى ، والمراد الأموات (١١) يحييها (١٢) معناه اتصال الأمر واستدامته

مداد حروفه ، وأَقام بأَداءِ التحية العاطرة قبل فض ختام مظروفه ، ولِعَمرى قد تَوَّجَته أَزهار الثناء بلآلئ غَرَّاء ، وكللته زواهر الوفاء ، من خالص الوداد إلى من لاتزال تَسْتَرْوح الأَسماع بنسيم أَنبائها صباح مساء ، وتتشوق الأَرواح إلى استطلاع بدرِ إنسانها الكامل أَطرافا وآناء ، ومما زادنى شوقاً إلى شوق ، حتى لقد شَبَّ فيه طفل الشفق عن الطوق ، اجتلائى حديقة الورد القدسية ونافحة الأَدب المسكيَّة ؛ فيالها من حديقة رمتها أَحداق الأَذهان ، فاقتبست نَوَرًا ونُورًا وانتشقَتْها مسامُّ الآذان ، فتملت طرباً وسروراً ، ومنذ سَرَّحتُ فى أَرجاءِ تلك اليانعة إنسان العيون ، وشرحت بأَفكار البصيرة أَسرار ذلك الدُّرّ المصون ، لم أَزل بين طَرَب أَتَوَشح بوشاحه ، وأَتعجَّبُ من حسن اختتامه وافتتاحه ، وجعلت أَغازل من نرجس تلك الروضة عيوناً ملكت منى الحواس وهَصَرَت من غصون أَلفافها كل ممشوق أَهيف مَيَّاس ، وأَتأَدب فى حضرة وردها خوفاً من شوكة سلطانها ، وأَن حياتى بجميل الالتفات ضاحكةٌ عن نفيس جُمَانه ، وإذا بالياسمين الغضِّ قد أَلقى نفسه على الثرى ونادى بلسان الإِفصاح : هل لهذه النضرة نظيرة ياترُى ؟! فأَشار المنثور بكفّه الخضيب أَن لا نظير لتلك الغادة ، ونطق الزنبق بلسان البيان : لاتكتموا الشهادة ، فعند ذلك صَفَّقَ الطير بأَكفِّ الأَجنحة وبَشّر ، وجرى الماءُ لإِذاعة نبإِ السرور فعثر بذيل النسيم وتكسَّرَ ، وتمايَلَتْ أَغصانها المُورِقة لسماع هذا الحديث ، وأَخذت نسماتها العاطرة فى السير الحثيث ، إذاعة لتلك البشائر فى العشائر ، ونشراً لهذه الفضائل التى سارت مسير المَثل السائر ، فقلت بلسان الصادق الأَمين ، بعد تحقيق هذا النبإِ اليقين : هكذا تكون الحدائق وإلَّا وكذلك لتكتب الفضائل وتملى :

وحَدّثتنى ياسعد عنهم فزدتنى غراماً فزدنى من حديثك ياسعد

فتحمَّل عنى أَيها الصديق تحيةً إلى ربّة هاتيك الحديقة ، واشرح لديها شَغَفى بفضلها الباهر على الحقيقة ، واعتذر عن كتابى هذا فقد جاءَ يمشى

على استحياء ، وكلما حركه الشَّوْقُ يُبْطئه الحياء . وكيف وقد حلَّ فى منبع الفضائل والمقام لم يدع مقالا لقائل ، فكأنى أهدى التمر إلى هجر ، وأمنحُ البحرَ الْخِضَمَّ بالمطر ؛ أدام الله معالى تلك الحضرة ، وزادها فى كل بهجة ونُضْرَة ، ما لاح جبينُ الهلال ، وبلغ غاية الكمال .

وكتب المرحوم السيد عبد الله النديم المتوفى سنة ١٣١٤ هـ :

أُستاذى وقُدْوَتى ، وملاذى وعُمْدتى — رَبَّيْتَ فأحسنتَ ، وغَذَّيت فأَسمنْتَ ، مُؤدِّياً ليثًا ، ولِنْتَ فسَوَّدْتَ ، وَجُدْتَ فعوَّدْتَ ، مُهَذِّباً غيثًا ، وعَلَّمت فأفهمت ، وأَشرت فألهمت غَرَض سَهمك ، وقد نلتَ ما أَمَّلت ، فيمن عليه عَوَّلْتَ بحسن فَهمك :

غلامُك الشهيرُ بالنديم ... من صار فى البَيَان كالنسيم

وكيف لايكون لسانى قوس البديع ، وكلامى السهم السريع ، وأنت باريه وراميه ! أَم كيف لايكون مقامى الحِصْن المنيع ، وقَدْرِى العزيز الرفيع ، وأَنت مُعْليه وبانيه ! فوجْهُ جمالِ العلم أَنت غُرَّته ، وإنسانُ عين العلم أَنت قُرَّته ، وحاليه وجاليه ! وجبينُ العقل أَنت طُرَّته ، وكتاب الفضل أَنت صُورته ، وطاليه وتاليه :

على بابك العالى من الفضل رايةٌ ... على رأْس أَرباب المعارف تخفق
فعلمك جَنَّاتٌ وَحلمك جُنَّةٌ ... وكلك خيراتٌ وغَيْثُكَ مُغْدِق
أَرى غصن من يدعو إلى الفضل نفسه ... من الفضل عُرْياناً وغصنك مورق
إذا رُمْتَ إنشاء فعن صدق قريحةٍ ... تهادى بكارٍ ، وغيرك يسرق

وكتب أَيضاً فى التَّوَدُّد :

بينما أَنا راكب لجة بحر الفكر ، مُجِدٌّ فى طلب فريدةٍ بِكْر ، تارة أَغوص ومرة أَسبحُ ، وآونة أَقفُ وطوراً أَصفح ، لايقرُّ لى قرار ولا يمكننى الفرار ولا يقصر عن طَرْح شباكى ذراع ، ولايُطوَى لسفينتى شراع ، كلما أَدركنى الملل

هاجت عَلَىَّ رياحُ الأَمَل حتى دخلتُ فى بحر عجّاج مُتَلاطم الأَمواج ، فاقتحمت هذا المركب الصعب ، وتهتُ بين الجزائر والشّعب ، فتعلقت أَفكارى بالصَّوَارِى والحبال ، وبتُّ بليلة نجومها كواحل ، لايُرَى فيها برّ ولا ساحل ، وقلتُ : اشتداد الأَمر يستدعى ضده ، ولا يأْتى الفرج إلا بعد الشِّدَّة ؛ وعينيك ما سل سيفها عَلَى مَفْرق مساها ، حتى سمعتُ باسم الله مجريها ومُرْساها ، فكان من تمام حظى وسُعُودى أن تركَتْ لُجَّة اليمِّ واستوت على الجودى ، وانصرف خوفى وارتباكى ، وبادرت بطرح شِبَاكِى ، فإذا هى قد مُلِئت بأَصداف الجوهر وعلقت بها شجرة العنبر ، فتفتح الصدف عن درّ يستخدم الأَقمار ، وفاح العنبر بما أَذهب شَذَى الأَزهار .

وصرت ما بينهما كسرى الزمان له شمس تُنَادِمُهُ فى مجلس عطر
ونلتُ أَقصى أَمان كنت آملُها الأُنس فى خَلَدِى والنُّور فى نظرى

ولما جلوت الظُّرْف ، بما فيها من الظُّرْف ، ووقعت عندى الموقع الحسن ، أَردت أَن أَسومها بثمن ، فإذا هى دُرَّة يتيمة ، لايقدر لها أَحدٌ عَلَى قيمة ، فاستهديتها من ربها ، لشغفى بحبها ، وجعلت القلب لها كنزًا ، والفؤاد لها حِرْزًا أَلا وهى محبة العزيز الحافظ ، أَبدع مرئى وأَبلغ لافظ .

وكتب إبراهيم بك المويلحى يعزى محمود باشا سامى البارودى :

أَنت فوق أَن تُعَزَّى عن الأَحبا ب وفوق الذى يعزِّيك عقلا
وبأَلفاظك اهتدى فإذا عَزَّا ك قال الذى قلت قبلا
وقتلت الزمان علمًا فما يغر ب قَوْلا ولا يُجَدِّد فعلا

نعم ؛ إنك يا «محمود» الخصال و «سامى» الفعال . لأَنت الشهم المُجَرِّب لصُرُوف الحدَثان ، والعالم الخبير بأَحوال الزمان . قد أَعْدَدْتَ لنوازل المقْدُور نُزُلاً من الصبر المأْجور ، وصرفت ضيف الشُّجون والهموم ، إلى قرى المصائل

والعلوم ، وأَخذت بِسُنَّة السلف الصالح فى مقابلة الخطوب الفوادح ، وأَنت لاشك عندنا آخذ فيما دهمك اليوم من المصاب العظيم ، بسيرة ذلك الفيلسوف الحكيم بينما هو جالس يوماً فى الدرس بين تلاميذه ، إذ جاءَه من أَخبره بأَن ابنه الوحيد مات وهو رطب الشباب غض العمر ، فلم يتولَّه الفزع ، ولم يظهر عليه الاضطرابُ ، ولم يَبْدُ على وجهه الكدر ، وما زاد على أَن استرجَعَ ، واستمر فى قراءَة درسه ، فلما انتهى بادره أَحد الحاضرين من أَصحابه ممن حَيَّرَتهم الدهشة فى أمره يسأَله : كيف لم يسلبه الحزن ثوب الثبات برهةً عند مفاجأَته بالخبر ؟ فقال له « لو فاجأتنى النازلة على غِرَّة منى لجزعتُ وحزنت ولكنى مازلت أُقَدِّرُ لابنى منذ يوم ولادته ، حُلول أَجله فى كل يوم من أَيام حياته ، ولمثل هذا اليوم كنت أَعدّه من زمان طويلٍ ، وكان كلما مضى عام من أَعوامه اعتبرتْهُ خُلسة اختلستها من الدهر ، حتى مضى على هذه العارية عِشرون عاماً ، فشكرى لله اليوم على أَن أَبقاها فى يدى طول هذه المدة ، يقوم مقام الحزن عند غيرى لدى استردادها » وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة أَقبضْتُم ولد عبدى ؟ فيقولون : نعم . فيقول : أَقبضتم ثمرة قلبه ؟ فيقولون : نعم . فيقول الله تعالى : ماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حمدك واسترجع فيقول: ابنوا لعبدى بيتًا فى الجنة ، وسموه بيت الحمد » وأَنت يامحمود ، صلوات الله عليك ورحمته لقوله تعالى : (ولنبلونكم بشىءٍ من الخوف والجوع ونقْصٍ من الأَموالِ والأَنفس والثمرات ، وبَشِّرِ الصابرين ، الذين إذا أَصَابَتْهُمْ مُصيبة قالوا إنَّا للهِ وإنا إليه راجعون ، أُولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمة ، وأُولئك هم المُهْتَدُون) أَول من يمتثل لحكم القضاءِ ، ويسترجع عند نزول البلاءِ ، ويعمل بأَدب الدين فى التجلد والتصبر ، ويأْخذ بسيرة الحكماءِ فى التدبر والتصبر :

ومن كان ذا نفس كنفسك حُرَّة ففيه لها مُغْن ، وفيهَا له مُسل

وكتب سهل[١] بن هرون المتوفى سنة ٦٤٩ فى البخل :

بسم الله الرحمن الرحيم

أَصلح اللهُ أَمركم ، وجمع شملكم ، وعلمكم الخير ، وجعلكم من أَهله . قال الأَحنف بن قيس :معشر بنى تميم لاتُسرعوا إلى الفتنة ، فإن أَسرع الناس إلى القتال ، أَقلهم حياء من الفِرار . وقد كانوا يقولون : إذا أَردت أَن ترى العيوب جَمّة ، فتأَمل عياباً ، فإنه يَعيب الناس بفضل مافيه من العيب . ومن أَعْيب العيب أَن تَعيب ماليس بعيب ، وقبيح أَن تنهى مُرْشِدًا ، وأَن تُغْرَى بمُشْفِق ، وما أَردْنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويم فاسدكم ، وإبقاء النعمة عليكم ، وما أَخطأْنا سبيل حُسن النِّية فيما بيننا وبينكم ، وقد تعلمون أَنَّا ما أَوصيناكم إلابما اخترناه لكم ، ولأَنفسنا قبلكم ، وشُهِرْنا به فى الآفاق دونكم ، ثم نقول فى ذلك ماقال العبد الصالح لقومه «وما أُريد أَن أُخالفكم إلى ما أَنهاكم عنه ، إن أُريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلْتُ وإليه أُنيب » فما كان أَحقنا منكم فى حُرمتنا بكم ، أَن ترعوْا حق قصدنا بذلك إليكم على ما رعيناه من واجب حقكم ، فلا العُذْر المبسوط بَلغتم ، ولا بواجب الحرمة قمتم ، ولو كان ذكر العيوب يراد به فخر ، لرأَينا فى أَنفسنا عن ذلك شُغْلا .

عبتمونى بقولى لخادمى : أَجيدى العجين فهو أَطيب لطعمه ، وأَزيدُ فى ريعه[٢] ، وقد قال عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه : «املكوا[٣] العجين ، فإنه أَحد الريْعين » .

وعبتُمونى حين ختمتُ على مافيه شىء ثمين من فاكهة رطبة نقِيَّة ، ومن

---

(١) هو من أبناء الفرس وكان من رجالات البلاغة والعلم والحكمة فى دولتى الرشيد والمأمون وقد وضع كتابا حاكى به كتاب « كليلة ودمنة » وسماه « ثعلة وعفرة » وكان قيم بيت الحكمة (مدير دار الكتب) فى عهد المأمون .

(٢) الريع النماء والزيادة . (٣) املاك العجين : انعام عجينة .

رُطبة غريبة ، على عبدٍ نهِم ، وصبى جَشِع ، وأمة لكْعاء[١] ، وزوجةٍ مُضيعة .

وعبتمونى بالختم ، وقد ختم بعض الأئمة على مِزود سويق[٢] وعلى كِيس فارغ . وقال : « طينه من طيِّه »[٣] فأَمسكتم عمن ختم على لاشىء ، وعبتُم من ختم على شىء .

وعبتُمونى أَن قلت للغلام : « إذا زدتَ فى المرق فزدْ فى الإِنضاج ، ليجتمع مع التأَدم باللحم طيب المرق » .

وعبتُمونى بخَصْف[٤] النعل ، وبتصدير[٥] القميص ، وحين زعمت أَن المَخْصُوفة من النعل أَبقى وأَقوى وأَشبه بالشد ، وإن الترقيع من الحزم ، والتفريط من التَّضْييع ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَخْصِف نعله ويُرَقِّع ثوبه ، ويقول : « لو أُهدى إلىّ ذِرَاع لقبلت ، ولو دعيت إلى كُراع لأَجبت » .

وقالت الحكماءُ : لاجديد لمن لم يَلبس الْخلِق ، وبعث زياد رجلاً يرتاد لهُ مُحَدِّثًا واشترط عليه أَن يكون عاقلاً ، فأَتاه به موافقًا ، فقال له : أَكُنت به ذا معرفة ؟ قال : لا . ولكنِّى رأَيته فى يوم قائظ ، يَلبس خلقًا ويَلبس الناس جديدًا . فَتَفَرست فيه العقل والأَدب . وقد علمت أَن الْخَلِق فى موضعه ، مثل الجديد فى موضعه ، وقد جعل الله لكل شيءٍ قدرًا ، وسما به موضعاً ، كما جعل لكل زمان رجالاً ، ولكل مقام مقالاً . وقد أَحيا الله بالسم ، وأَمات بالدواءِ ، وأَغص بالماءِ . وقد زعموا أَن الإِصلاح أَحد الكاسبين ، كما زعموا أَن قلة العيال أَحد اليسارين . وقد جبر الأَحنف بن قيس يد عنز ، وأَمر مالك بن أَنس بفرك النعل . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من أَكل بيضة فقد أَكل دجاجة ، ولبس سالم بن عبد الله جلد أُضحية . وقال رجل لبعضِ الحكماءِ : أُريد أَن أُهدى إليك دجاجَة ، فقال : إن كان لابد فاجعلها بيوضاً .

---

(١) اللكعاء : الحمقاء (٢) المزود : وعاء الزاد والسويق : شراب يتخذ من الحنطة أو الشعير (٣) طينه من طان الشىء أى ختمه بالطين « طيه » من الطوى وهو الجوع . (٤) خصف النعل : خرزها (٥) تصدير القميص : أن يجعل لصدره بطانة .

وعِبْتموني حين قلت : من لم يَعرف مواضع السَّرَف فى الموجود الرخيص لم يعرف مواضعَ الاقتصاد فى المَمتنع الغالى . ولقد أَتيت بماءٍ للوضوءِ على مبلغ الكفاية وأَشدّ من الكفاية ، فلما صِرْت إلى تفريق أَجزائه على الأَعضاءِ ، وإلى التَّوْفير عليها من وَضِيعة (١) الماءِ ، وجَدْت فى الأَعضاءِ فضلا عن الماءِ ، فعلمت أَنْ لوْ كنت سَلكت الاقتصادَ فى أَوائله لَخَرج آخره على كِفاية أَوّله ، ولكان نصيب الأَوّل كنصيب الآخر . فعبتمونى بذلك وشَنَّعتم علَىّ ، وقد قال الحسن ، وذكر السرف : « أَمَا إِنه ليكونُ فى الماءِ ، والكلأْ » فلم يرْض بذكر الماء حتى أَردفَه الكلأَ .

وعبتمونى أَن قلت : لا يَغترّنّ أَحدكم بطول عمره ، وتَقْويس ظهره ، ورقّة عظمه ، ووهْن قوّته . وأَن يرَى نحوه أَكثر ذرِّيّته ! فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يده ، وتحويله إلى ملك غيره ، وإلى تحكيم السَّرف فيه ، وتسليط الشهوات عليه ، فلعله يكون مُعَمّرًا وهو لايدرى ، وممدودًا له فى السن وهو لايشعُر . ولعله أَن يُرْزق الولدَ على اليأْس ، وَيَحْدُث عليه من آفات الدهر مالا يخطُر على بال ولا يُدْركه عقل ، فيستردّه ممن لايرده ، ويَظهر الشكوى إلى من لايرحمه ، أَصْعبَ ما كان عليه الطَّرب ، وأَقبَح ما كان به أَن يُطلب ؛ فعِبتُمونى بذلك . وقد قال الأَول : « اعمل لدنياك كأَنك تعيش أَبدًا ، واعمل لآخرتك كأَنك تموت غدًا » .

وعبتمونى بأَن قلت : بأَن السّرَف والتبذير إلى مال المواريث ، وأَموال الملوك ، وإلى مالا يُعَرّض فيه بذهاب الدين ، واهتِضام العِرْض ، ونَصْب البَدن واهتضام القلب أَسرع ، وأَن الحفظ للمال المكتسب ، والغنى المحتَلب أَقرب ، ومن لم يَحْسِب نفقته لم يحْسِب دخله ، ومن لم يحْسِب الدخل ، فقد

(١) الوضيعة هنا : النقص .

أَضاع الأَصل ومن لم يعرف للغنى قدره ، فقد أُوذِن بالفقر ، وطاب نفساً بالذلّ .

وعبْتُمونى بأَن قلت : إنّ كَسْب الحلال يضمَن الإنفاق فى الحلال ، وإن الخَبيثَ يَنزِع الخبيث ، وإن الطيّب يدعو إلى الطيّب ، وإن الإنفاق فى الهوى حجاب دون الهُدى ، فعِبتم عَلَىّ هذا القول ، وقد قال معاوية : لم أَرَ تبذيرًا قط إلا وإلى جَنبِهِ تَضييع ، وقد قال الحسن : إن أَردتم أَن تَعرفوا من أَين أَصَابَ الرجل ماله ، فانظروا فيماذا يُنْفِقه ، فإن الخبيثَ إنما يُنفَق فى السرف ، وقلت لكم بالشَّفقة عليكم ، وحُسن النظر منّى لكم ، وأَنتم فى دار الآفات ، والْحَوائج غير مأْمونات فإن أَحاطت بمال أَحدكم آفة لم يَرْجع إلا إلى نفسه ، فاحذروا النِّقم باختلاف الأَمكنة فإن البنية لاتجرى فى الجميع إلا بموت الجميع ، وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى العبد والأَمَة والشَّاة والبعير : فرّقوا بين المنايا . وقد قال ابن سِيرين لبعض البَحْريين : كيف تَصْنَعون بأَموالكم ؟ قالوا : نُفَرقها فى السفن ، فإن عَطِب بَعض سلم بَعض ، ولولا أَن السلامة أَكثر ما حَمَلنا أَموالنا فى البحر ، قال ابن سيرين « تحْسبها خرْقاءَ وهى صَناع »(١)

وعبتمونى بأَن قلتْ لكم عند إشفَاقى عليكم : إن للغنى لسُكْرًا ، وللمال لنَزوْة(٢) ، فمن لم يحفظ الغنى من سكره ، فقد أَضاعه ، ومن لم يربِط المالَ بخوف الفقر فقد أَهمَله .

فعبتمونى بذلك ، وقد قال زيد بن جَبلة : ليس أَحد أَقصر عقلاً من غنىٍّ أَمِنَ الفقر ، وسُكر الغنى أَكثر من سُكر الخمْر ؛ وقد قال الشاعر فى يحيى بن خالد بن برْمَك :

وَهوبٌ تِلادَ المال فيما يَنوبه مَنوعٌ إذا ما منعه كان أَحزما

وعبتمونى حين زعمتم أَنى أَقدم المال على العلم ، لأَن المال به يفاد العلم ،

---

(١) هذا مثل يضرب لمن تظن فيه الغفلة وهو فطن يقظ .
(٢) النزوة الثورة أو الوثبة .

وبه تقَوم النفس ، قبل أَن تعرف فضل العلم ، فهو أَصل ، والأَصل أَحقّ بالتفضيل من الفرع ، فقلتم : كيف هذا ؟ وقد قيل لرئيس الحكماء : الأَغنياء أَفضَل أَم العلماءُ ؟ قال : العلماءُ . قيل له : فما بال العلماء يَأْتُون أَبواب الأَغنياء أَكثر مما يأْتى الأَغنياءُ أَبواب العلماءِ ؟ قال : ذلك لِمَعْرِفَة العلماءِ بفضل المال ، وجهل الأَغنياءِ بحق العلم . فقلت : حالهما هى القاضية بينهما ، وكيف يَسْتَوِى شىء حاجةُ العامة اليه ، وشىء يَغْنى فيه بعضهم عن بعض ؟ ؟

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يأْمُر الأَغنياء باتخاذ الغَنَم ، والفقراء باتخاذ الدّجاج . وقال أَبو بكر رضى الله عنه : إنى لأَبغض أَهل بيت يُنْفِقُون نفقة الأَيام فى اليوم الواحد . وكان أَبو الأَسود الدُّؤلى يقول لولده : إذا بسط الله لك الرزق فابسط ، وإذا قبض فاقبض .

وعبتمونى حين قلت : فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون فى البيت إذا احْتِيج إليها اسْتُعْمِلت ، وإن اسْتُغْنى عنها كانت عُدَّةً . وقد قال الحُصَيْنِ بن المُنْذِر : وَدِدْت أَنّ لى مثل أُحُدٍ ذهبًا لا أَنتفع منه بشىءٍ . قيل له : فما كنت تصنع به؟ قال : لكثرة من كان يخدمنى عليه ، لأَن المَال مخدوم . وقد قال بعض الحكماءِ : عليك بطلب الغِنَى ؛ فلو لم يكن فيه إلا أَنه عِز فى قلبك وذلّ فى قلب عَدُوّك ، لكان الحظُّ فيه جسيما والنَّفع فيه عظيما .

ولسنا ندع سيرة الأَنبياء ، وتعليم الخلفاءِ ، وتأْديب الحكماءِ ، لأَصحاب اللهو ، ولستم عَلَىّ تردّون ولا رأْيى تفَنِّدون ، فَقَدّموا النظر قبل العَزْم ، وأَدْرِكُوا مالكم قبل أَن تُدْرِكُوا مآلكم ، والسلام عليكم .

الكلام على الرسائل العلمية

الرِّسالات العلمية ، هى : مقالاتٌ فى المطالب العلمية أَو المسائل الأَدبية ، وإنما سُمِّيت بالرسالات ، لأَن أَصحابها يرسلونها إلى من اقترحها عليهم ، ويسلك فيها

صاحبها مناهج الاسترسال ، والمخاطبات البليغة . وقد أَفردنا لها كتابنا «أُسلوب الحكيم ، فى منهج الإِنشاءِ القويم» فارجع إِليه إن شئت .

الفن الثانى فى المناظرات

للمناظرة ثلاثة شروط : (الأَول) : أَن يُجمع بين خصمين متضادين ، أَو متباينين فى صفاتهما ، بحيث تظهر خواصُّها كالربيع ، والخريف ، والصيف ، والشتاءِ . (الثانى) : أَن يأْتى كلٌّ من الخصمين فى نصرته لنفسه ، وتفنيد مزاعم قِرْنه ، بأَدلة من شأْنها أَن ترْفَع قدره ، وتحُطَّ من مقام الخصم ، بحيث يميل بالسَّامع عنه إِليه . (الثالث) : أَن تُصَاغ المعانى والمراجعات صوغاً حسناً ، وتُرَتب على سِياق مُحكم ليزيد بذلك نشاط السَّامع ، وتنمى فيه الرّغبة فى حلّ المشكل .

ولنذكر لك عليها شذرات من أَقوال الكتَّاب فنقول :

مناظرة النعمان بن المنذر وكسرى أَنو شروان فى شأْن العرب

رَوى ابن القُطامى عن الكلْبى قال : قدِمَ النعمان بن المنذر على كِسرى ، وعنده وفُود الرُّوم ، والهند ، والصين ؛ فذكروا من ملوكهم وبلادهم ؛ فافتخر النعمان بالعَرَب وفَضَّلهم على جميع الأُمم ، لايَسْتثْنى فارس ولا غيرها ، فقال كِسرى ، وأَخَذَتْهُ عزَّة المُلك : يانعمان ، لقد فكَّرْتُ فى أَمر العرب وغيرهم من الأُمم ، ونظرت فى حالة من يُقْدِم علَىَّ من وفُود الأُمم . فوجدت للرُّوم حَظًّا فى اجتماع أُلفتها ، وعظم سُلطانها ، وكثرة مدائنها وَوَثِيق بُنيانها ، وأَن لها دِيناً يُبَيِّن حلالها وحرامها ، ويرد سفيهها ويقيم جاهلها . ورأَيت الهند نحواً من ذلك فى حِكْمَتها وطِبّها ، مع كثرة أَنهار بلادها وثمارها ، وعجيب صناعتها ، وطيب أَشجارها ، ودقيق حسابها ، وكثرة عددها . وكذلك الصِّين فى اجتماعها ، وكثرة صناعات أَيديها وَفُرُوسيتها ، وهِمَّتها فى آلة الحرب وصناعة الحديد ، وأَن لهاملكاً

يَجْمعُهَا — والترك والخزَرُ على ما بهم من سوء الحال فى المعَاشِ، وقلة الرّيف والثمار والحُصُونِ، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، لَهم ملوك تَضم قَواصِيهَمُ، وتُدَبِّر أَمرهم؛ ولم أَرَ للعرب شَيئاً من خصال الخير فى أمر دين ولا دنيا، ولا حزم، ولا قوة، ومع أن مما يَدُلّ على مهانتها وذلها، صِغَر هِمَّتها، محِلتهم التى هم بها مع الوحوش النَّافرة والطيور الحائرة، يقتلون أولادهم من الفاقة ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة، قد خرجوا من مطاعِم الدُّنيا وملابسها ومَشَارِبها ولَهْوها ولذَّاتها، فأَفضل طعام ظَفر به ناعمهم لُحوم الإبل التى يَعافها كثير من السّباع لِثِقلها، وسوءِ طعمها، وخوف دائها، وإن قرى أَحدُهم ضعيفاً عَدَّها مكرُمَة، وإن أُطعم أَكلة عدَّها غنيمة، تنطق بذلك أَشعارهم، وتفتخر بذلك رجالهم، ما خلا هذه التَّنُوخية التى أَسَّس جَدِّى اجتماعَها وشدّ مملكتها، ومنَعها من عدُوّها، فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا، وإن مع ذلك آثارًا ولبُوساً، وقرًى وحصُوناً، وأُمورًا تشبه بعض أُمور الناس (يعنى اليمن).

ثم لا أَراكم تَستكينون على ما بكم من المذَلة، والقلَّة، والفاقة، والبُؤْس، حتى تفتخروا، وتريدوا أَن تنزلوا فوْق مراتب الناس.

قال النعمان: أَصلح الله الملك. حَقٌّ لأُمةٍ الملك مِنها أَن يَسمُو فضلها، ويَعظُم خطبها، وتعلو درجتها. إلا أَنَّ عندى جَواباً فى كل ما نطق به الملك فى غير رَدٍّ عليه، ولا تكذيب له، فإن أَمَّنى من غضبه نطقْتُ به. قال كسرى: قل فأَنتْ آمن. قال النعمان: أَما أُمتك أَيها الملك: فليست تنازعُ فى الفضل لموضعها الذى هِىَ به من عقولها وأَحلامها وبَسطة محلها، وبحبوحة عزها، وما أَكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك. وأَمَّا الأُمم التى ذكرْت فأَية أُمَّة تقرنها بالعَرَب إلا فضلتها. قال كسرى: بمَاذا؟ قال النعمان: بعزها ومنعتها، وحُسن وُجوهها وبأْسها وسخائها وحكمة أَلسنتها، وشدة عقولها وأَنفتها ووفائها.

فأَمَّا عزُّها ومنعتها، فإنها لم تزَل مُجَاورَة لآبائك الذين دوَّخوا البلاد

ووطَّدُوا المُلك ، وقادوا الجنْد ، لم يطمع فيهم طامع ، ولم يَنلْهم نائل ، حُصونُهم ظُهور خيلهم ومِهَادُهم الأَرض ، وسقوفُهم السماء ، وجُنَّتهم السُّيوف ، وعُدّتهم الصَّبر – إذْ غَيْرها من الأُمم ، إنما عزُّها الحجارة والطين ، وجزائر البُحُور .

وأَما حُسن وُجُوهها وأَلوانها : فقد يُعْرَف فَضْلهم فى ذلك على غيرهم من الهند المنْحَرفين ، والصِّين المُنْحَفة ، والترْك المَشوَّهَة ، والرُّوم المُقَشَّرَة .

وأَما أَنْسَابُهَا وأَحسابُها : فليست أُمّة من الأُمم إلا وقد جَهلت آباءها وأُصولها وكثيراً من أَولها ، حتى إن أَحدَهم لَيُسْئل عَمَّن وراءَ أَبيه دنيا فلا يَنْبُهُ ولا يعرفه ، وليس أَحد من العَرَب إلا يُسَمِّى آباءه أَباً فأَباً ، حَاطوا بذلك أَحسابهم ، وحَفِظوا به أَنسابهم ، فلا يدخل رجل فى غير قومه ، ولا يَنْتسب إلى غير نسبه ، ولا يُدعى إلى غير أَبيه .

وأَما سخاؤُها : فإن أَدْنَاهم رَجلاً الذى تكون عنده البَكَرَة والنَّاب ، عليها بَلاغه فى حموله ، وشَبعه ورِيه ، فيطرِقه الطارِق الذى يكتفى بالفلذة ، ويجتزِى بالشربة فَيعقرها له ، ويَرْضى أَن يخرج عن دنياه كلّها . فيما يكسبه حُسْن الأُحدوثة ، وطَيِّب الذِّكر .

أَما حِكْمة أَلسنَتهم : فإن الله تعالى أَعطاهم فى أَشعارهم ، وَرَوْنق كلَامهم وحسنه ووَزْنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالأَشياءِ وضَرْبهم للأَمثال وإبلاغهم فى الصِّفات ، ما ليس لشىءٍ من أَلسنة الأَجناس . ثم خيلهم أَفضل الخيل ، ونِسَاؤهم أَعفُّ النسَاء ولبَاسُهم أَفضل اللباس ، ومَعَادِنُهم الذَّهب والفضة ، وحجارة جبالهم الْجَزْع ومطاياهم التى لا يُبلغ على مِثْلِهَا سَفَرٌ ، ولا يُقطع بمثلها بلدٌ قَفْرٌ .

وأَما دِينها وشَرِيعتها : فإنهم مُتَمسكون به حتى يبلغ أَحدُهم من نسكهِ بدينه أَن لهم أَشْهُراً حرُماً محرَّماً ، وبَيْتاً محْجوجاً ، ينسكُونَ فيه منَاسكَهم ، ويذْبحون فيه ذَبائحهم ، فيَلْقى الرجل قاتلَ أَبيه أَو أَخيه ، وهو قادر على أَخذ ثأْره وإدْراك رَغمه منهُ ، فيَحْجزه كرَمه ويمنعُه دينه عن تَنَاوله بِأَذى .

وأَمَّا وَفاؤها : فإِنَّ أَحدَهم يلحظ اللحظةَ ، ويُومِئُ الإِيماءَة ، فهى وَلْتٌ (أَى عهدٌ) وعُقْدَةٌ لا يحلها إلا خُرُوج نفسه ، وإنَّ أَحدهم يرفعُ عُودًا من الأَرض فيكون رَهناً بديْنه ، فلا يَغلق رهْنُه ، ولا تخفر ذِمَّته . وإنَّ أَحدَهم ليَبْلُغه أَنَّ رجلاً استَجَارَ به ، وعسى أَن يكون نائياً عن داره فيُصاب فلا يرضى حتى يُفنِى تلك القبيلة التى أَصابته ، أَوْ تَفنَى قبيلته لما أُخفر من جوَاره ، وإنه ليلجأَ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة ، فتكون أَنفُسهم دُون نفسه ، وأَموالهم دُون مالهِ .

وأَمَّا قولك أَيها الملك يَئِدُون أَوْلادهم فإنما يفْعله من يفعله منهم بالإِناث أَنفةً منَ العار ، وغَيرَة من الأَزواج .

وأَما قولُك إن أَفضل طعامهم لُحوم الإبل على ما وصفت منها ، فما تركوا ما دُونها إلا احتقارًا له ، فعَمدُوا إلى أَجلِّهَا وأَفضلها ، فكانت مراكيهم وطعامهم مع أَنها أَكثرُ البهائم شُحُوماً ، وأَطيَبُهَا لُحوماً ، وأَرقها أَلباناً ، وأَقلها غائلة ، وأَحلاها مُضغة ، وأَنه لا شيءَ من اللحمان يُعالج به لُحمها إلا استبان فَضلها عليه .

وأَما تحاربُهُمْ وأَكل بعضهم بعضاً وتركهم الانقياد لرَجل يسوسهم وَيَجْمَعُهُم فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأُمم إذا أَنِست من نفسها ضعفاً ، وتخوَّفت نُهوض عدُوِّها إليها بالزحف ، وإنه إنما يكون فى المملكة العظيمة أَهلُ بَيت وَاحِدٍ يُعرَف فضلُهم على سائر غيرهم ، فَيلقُون إليهم أُمورهم ، وَيَنقادُون لهم بأَزِمَّتهم .

وأَما العرب فإنَّ ذلك كثِيرٌ فيهم ، حتى لقد حاوَلوا أَن يكُونوا مُلوكا أَجمعين مع أَنفتهم من أَداءِ الْخَرَاج والوطث (أَى الضرْب الشَّديد بالرِّجل على الأَرض) بالعَسف .

وأَما اليمن التى وَصفها الملك ، فانما أَتى جَدّ الملك إليها الذى أَتاه عند غلبة الجيش له على مُلك مُتَّسق ، وأَمر مُجْتمع ، فأَتاه مسلوباً طريدًا مُستَصرِخاً ، ولوْلا

ما وُتِر به مَنْ يليه من العرَبِ لمال إلى مجَال ، وَلَوَجَدَ مَنْ يُجيد الطِّعان ، ويَغْضب للأَحرَار ، من غَلبة العبيد الأَشرار .

قال : فعجب كسرَى لما أَجابه النعمان به ، وقال : إنك لأَهلٌ لمَوْضعك من الرِّياسة فى أَهل إقليمك ، ثم كسَاه من كسوته وسرَّحه إلى موْضعه من الْحِيرة .

فلمَّا قدِم النعمان الحيرة وفى نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تَنَقُّص العرب وتهجين أَمرِهم ، بعثَ إلى أَكثم بن صَيفى ، وحاجب بن زُرارة التميمِيين وإلى الحارث بن ظالم ، وقَيس بن مسعُود البَكريَيْنِ ، وإلى خالد بن جعفر ، وعَلْقمة بن علَاثة ، وعامر بن الطفيل العامرِيين ، وإلى عَمرو بن الشَّرِيد السُّلمى وعمرو بن معْدِيكرِبَ الزُّبيدى ، والحارث بن ظالم المُرِّىّ – فلما قدِمُوا عليه فى الْخوَرْنَق قال لهم قد عرفتم هذه الأَعاجم ، وقُرْب جِوَار العَرب منها ، وقد سمعتُ من كسرى مقالات ، تَخوَّفت أَن يكُون لها غوْرٌ ، أَو يكون إنما أَظهرها لأَمر أَراد أَنْ يتخذ به العَرب خَوَلاً كبعض طماطمَتِه فى تأديتهم الخرَاج إليه ، كما يفعل بملوك الأُمم الذينَ حوْلهُ – فاقتصَّ عليهم مقالات كسرى ، وما رَدَّ به عليه . فقالوا : أَيُّهَا الملك وفقك الله ، وما أَحسن ما رَدَدْتَ ، وأَبلغ ما حَجَجْتَه ، فمرْنا بأَمرك ، وادْعُنا إلى ما شئت .

قال : إنما أَنا رَجلٌ منكم ، وإنما ملكتُ وعزَزْتُ بمكانكم ومَا يتخوّف من ناحيتكم ، وليس شىء أَحب إلىّ مما سدَّد الله أَمركم وأَصلح به شأْنكم وأَدام به عِزْكم ، والرَّأْى أَن تسيرُوا بجماعتكم أَيُّهَا الرَّهط ، وتنطلقوا إلى كسرى فإذا دخلتم نَطق كلُّ رجل منكم بما حضره ليعلم أَن العرَب على غير ما ظنَّ ، أَو حدَّثته نفسه ، وَلَا ينطق رَجل منكم بما يُغضبُه ، فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأَعوان مُتْرَف مُعجبٌ بنفسه ، ولا تَنْخذلوا له انخذال الخاضع الذَّليل ، ولْيكن أَمرٌ بين ذلك ، تظهر به دماثةُ حُلومكم ، وفضل منزلتكم ، وعظيم أَخطاركم ، وليكن

أَول من يَبْدأ منكم بالكلام (أَكثم بن صيفى) ثم تَتَابعوا على الأَمر من منازلكم التى وضعتكم بها فإِنما دعانى إِلى التقدمة إِليكم علمى بميل كل رجل منكم إِلى التقدُّم قبل صاحبه ، فلا يكونَنَّ ذلك منكم فيجد فى آدابكم مَطْعناً ، فإِنه ملك مُترَف ، وقادر مُسلَّط . ثم دعا لهم بما فى خزانته من طرائف حُلَل الملوك وأَعطى كل رجل منهم حُلَّة ، وعمّمه عمامة ، وختّمه بياقوته ، وأَمر لكل رجل منهم بنجيبة مَهْرِية ، وفَرَسٍ نجيبةٍ ؛ وكتب معهم كتاباً :

أَما بعد : فإِن الملك أَلقى إِلىَّ من أَمر العرب ما قد علم ، وأَجبته بما قد فهم مما أَحبَبْت أَن يكون منه على علْم ، وَلَا يَتَلَجْلَج فى نفسه أَن أَمة من الأُمم التى احتجزت دونه بمملكتها ، وحمت ما يليها بفضل قُوَّتها ، تبلُغُهَا من الأُمور التى يَتَعَزَّزُ بها ذَوُو الحزم والقوة والتَّدْبير والمكيدة . وقد أَوفدتُ أيها الملك رهطاً من العرب ، لهم فضل فى أَحسابهم وأَنسابهم ، وعقولهم وآدابهم ، فليسمع الملك ، ولْيُغمض عن جفاء إِن ظهر من منطقِهم ، وليكرمنى بإِكرامهم وتعجيل سرَاحهم .

وقد نَسَبتهم فى أَسفل كتابى هذا إِلى عشائرهم .

فخرج القوم فى أُهْبَتهم ، حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، فدفعوا إِليه كتاب النعمان ، فَقَرَأَه وأمر بإِنزالهم إِلى أَن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم ؛ فلما أَن كان بعد ذلك بأَيام ، أَمر مرازِبتَه ، وَوجوه أَهل مملكته فحضَرُوا وجلسُوا على كراسى عن يمينه وشماله ، ثم دعا بهم على الولاءِ والمراتب التى وصفهم النعمان بها فى كتابه وأَقام التُّرْجمان ليُؤَدِّى إِليه كلامهم ، ثم أَذن لهم فى الكلام .

فقام أَكْثم بن صيفى فقال : إِن أَفضل الأَشياء أَعاليها ، وأَعلى الرجال ملوكُها وأَفضل الملوك أَعمها نَفْعاً ، وخيرُ الأَزمنة أَخْصَبُها ، وأَفضل الخطباء أَصدقها . الصدق منجَاة ، والكذبَ مَهوَاة ، والشَّر لجاجَة ، والحزم مَركب صعب

والعَجْز مركب وطيء ــ آفَةُ الرأي الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأُمور الصبر ، وحسن الظنِّ ورطة ، وسوء الظن عصمة ، وإصلاح فساد الرّعية خير من إصلاح فساد الراعي ، ومن فسدت بطانَتُه كان كالغاصِّ بالماءِ .

شرُّ البلاد لا أَمير بها ، وشَرُّ الملوك من خافه البريء ، المرء يعجز لا المحالة ، أَفضل الأَولاد البررَة ، خير الأَعوان من لم يُراء بالنصيحة ، أَحق الجنود بالنصر من حَسُنت سريرته ، يكفيك من الزاد ما بلغك المحل ، حَسْبُك من شر سماعُه ، الصَّمتُ حكم وقليل فاعله ، البلاغة الإيجاز ، من شدد نفرَ ، ومن تراخى تألَّف .

فتعجب كسرى من أَكْثم ؛ ثم قال : ويحك يا أَكْثم ما أَحكمك وأَوثق كلامك ! لولا وضعُك كلامك في غير موضعه ، قال أَكْثم : الصِّدْقُ ينبئُ عنك لا الوعيد ، قال كِسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى ، قال أَكْثم : رُبَّ قول أَنفذُ من صول .

ثم قام حاجب بن زرارة التميمي وقال : ورى زَنْدُك ، وعلتْ يَدُك ، وَهِيبَ سلطانُكَ ــ إن العرب أُمة قد غلُظت أَكبادُها ، واسْتَحْصدت مِرَّتُها ، ومُنِعت درَّتها ، وهي لك وامقةٌ ما تألفتها ، مسترسلة مالاينتها ، سامعة إن سامحتها ، وهي العلقم مرارة ، وهي الصاب غضاضة ، والعسل حلاوة ، والماء الزّلال سَلاسَة .

نحنُ وفودُها إليك ، وأَلسنتها لديك ، ذِمّتُنَا محفوظة ، وأَحسابُنَا ممنوعة ، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة ، إن نثوب لك حامِدِين خيرًا ، فلك بذلك عموم محْمدتنا وإن نذمَّ لم نُخَصّ بالذم دونها ؛ قال كِسرى : ياحاجب ، ما أَشبه حجر التلال بألوان صخرها ، قال حاجب : بل زَئير الأَسد بصولتها ، قال كِسرى : كَفى ذلك ، ثم قام الحارث البكْري فقال : دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظِّها ، وعلوِّ سنائها ، من طال رشاؤُهُ كثر متحه(١) ، ومن ذهب ماله قل منحُهُ ، تناقُل الأَقاويل يُعَرِّف اللب ، وهذا مقام سيُوجِف(٢) بما تنْطِق به الرَّكْب ، وتعرف به كنْه حالنا العجم والعرب ، ونحن جيرانُك الأَدنون ، وأَعْوانُك المعينون ، خيولنا

---

(١) المنح : الاستقاء (٢) أوجفته : أى أجريته

جمة وجيوشنا فخمة ، إن استنجدتنا فغير رُبُض ، وإن استطرقتنا فغير جُهُض ، وإن طلبتنا فغير غُمُض . لا ننثني لذعر، ولا نتنكر لدهر، رماحنا طوال وأعمارنا قصار . قال كسرى : أنفس عزيزة وأمة ضعيفة . قال الحارث : أيها الملك ، وأنى يكون لضعيف عزة أو لصغير مِرَّة ؟ (١) قال كسرى : لو قصر عُمرك لم تستول على لسانك نفسك . قال الحارث : أيها الملك ، إن الفارس إذا حمل بنفسه على الكتيبة مُغَرِّراً بنفسه على الموت ؛ فهى منيَّة استقبلها ، وجنان استدبرها ، والعرب تعلم أنى أبعث الحرب قُدُماً ، وأحبسها وهى تصرّف بها (٢) حتى إذا جاشت نارها ، وسعرت لظاها ، وكشفت عن ساقها ، جعلتُ مقادها رمحى ، وبَرْقها سيفى ، ورعدها زئيرى ، ولم أقصر عن خوض خضخاضها ، حتى أنغمس فى غمرات لُجَجِها وأكون فُلْكاً لفرسانى إلى بحبوحة كَبشها ، فأستمطرها هادماً ، وأترك حماتها جزر السباع وكل نسر قشعم .

ثم قال كسرى لمن حضره من العرب : أكذلك هو ؟ قالوا : فعاله أنطق من لسانه ، قال : مارأيت كاليوم وفداً أحشد ولا شهوداً أوْفَد .

ثم قام عمرو بن الشريد السلمى فقال : أيها الملك ، نعِمَ بالُك ، ودام فى السرور حالك ، إن عاقبة الكلام مُتَدبرة ، وأشكال الأمور مُعتبرة ، وفى كَثير ثقلة ، وفى قليل بُلغة ، وفى الملوك سورة العزِّ ، وهذا منطق له ما بعده : شَرُف فيه من شَرُف ، وخَمُل فيه من خمل ، لم نأْت لضيْمك ، ولم نفد لسخطك ، ولم نتعرض لِرفدِك ، إن فى أموالنا مُنتفداً ، وعلى عزنا معتمداً ، وإن أوْرَينا ناراً أثْقَبْنا ، وإن أَوِدَ دهر بنا اعتدلنا ، إلا أنا مع هذا لجوارك حافظون ، ولمن رَامَكَ كافِحُون حتى يُحْمَد الصدر ، ويُسْتطاب الخبر . قال كِسرى : ما يقوم قصدُ منطقك بإفراطك ولا مدحك بِذَمِّك . قال عمرو : كفى بقليل قصدى هاديًا ، وبأيسر

---

(١) مرة : قوة

(٢) بها : أى بالعرب

إفراطى مخبراً ولم يُلَم من غربت عما يعلم ، ورضى من المقصد بما بلغ ، قال كسرى : ماكل ما يعرف المرء ينطق به ، اجلس .

ثم قام خالد بن جعفر الكلابى فقال : أحضر الله الملك إسعاداً ، وأرشده إرشاداً ؛ إن لكل منطق فرصة ، ولكل حاجة غُصَّة ، وعىُّ المنطق أشدُّ من عى السكوت ، وعثار القول أنكأُ من عثار الوعث ، وما فرصة المنطق عندنا إلا بما نهوى ، وغُصة المنطق بما لا نهوى غير مستساغة ، وتركى ما أعلم من نفسى ويعلم من سمعى أننى له مطيق ، أحبّ إلىَّ من تكلفى ما أتخوف ويُتخوف منى ؛ وقد أوفدنا إليك ملكنا النعمان ، وهو لك من خير الأعوان ، ونعم حامل المعروف والإحسان ، أنفسنا بالطاعة لك باخعة ، ورقابنا بالنصيحة لك خاضعة ، وأيدينا لك بالوفاءِ رهينة . قال كِسرى : نطقت بعقل وسموت بفضل وعلوت بنبل .

ثم قام علقمة بن عُلاثة العامرى فقال : نهجت لك سُبل الرشاد ، وخضعت لك رقاب العباد ؛ إن للأقاويل مناهج ، وللآراءِ موالج ، وللعويص مخارج ، وخير القول أصدقه ، وأفضل الطلب أنجحه . إنا وإن كانت المحبة أحضرتنا ، والوفادة قربتنا ، فليس من حضرك منا بأفضل ممن عَزُب عنك ، بل لو قِسْت كل رجل منهم وعلمت منهم ما علمنا ، لوجدت له فى آبائه دنيا أنداداً وأكفاء ، كلهم إلى الفضل منسوب ، وبالشرف والسؤدد موصوف ، وبالرأى الفاضل والأدب النافذ معروف ، يحمى حماه ، ويروى ندماه ، ويذود أعداه ، لا تخمد ناره ، ولا يحترزُ منه جاره . أيها الملك ، من يَبْلُ العرب يعرف فضلهم ، فاصطنع العرب فإنها الجبال الرواسى عزًّا والبحور الزواخر طميًّا والنجوم الزواهر شُرُفاً والحصى عددًا ؛ فإن تعرف لهم فضلهم يعزوك ، وإن تستصرخهم لا يخذلوك . قال كِسرى ، وخشى أن يأْتىَ منه كلام يحمله على السخط. عليه : حسبُك ، أبلغت وأحسنت .

ثم قام قيس بن مسعود الشيبانى فقال : أطاب الله بك المراشد ، وجنَّبك

المصائب . ووقاك مكروه الشدائد . ما أَحقنا إذ أَتيناك بإِسماعك مالا يُحْنِقُ صدرك ولا يزرع لنا حقدًا فى قلبك ، لم نَقْدِم أَيها الملك لمساماة ، ولم ننتسب لمعاداة ، ولكن لتعلم أَنت ورعيتك ومن حضرك من وفود الأُمم ، أَنا فى المنطق غيرُ محجمين ، وفى الناس غير مقصرين ، إن جُورِينا فغير مسبوقين ، وإن سُومِينا فغير مغلوبين . فقال كسرى : غير أَنكم إذا عاهدتم غيرُ وافين - وهو يعرض به فى تركه الوفاء بضمانه السَّوَاد - قال قيس : أَيها المَلك ، ما كُنت فى ذلك إلا كَواف غُدِرَ به ، أَو كخافر أُخْفِرَ بذمته . قال كِسرى : ما يكون لضعيف ضمان ولا لذليل خِفارة . قال قيس : أَيها الملك ما أَنا فيما أُخْفِر من ذمتى أَحقُّ بإِلزامى العار منك فيما قتل من رعيتك ، وانتُهِك من حُرْمتك . قال الملك : ذلك لأَن من ائتمن الخونة واستنجد الأَثمة ، ناله من الخطأ ما نالنى ، وليس كل الناس سواء . كيف رأَيت حاجب بن زُرَارة لم يحكم قُوَاه فيبرم ويعهد فَيُوفى . ويعدُ فَيُنْجِز ؟ قال : وما أَحقه بذلك وما رأَيتُه إلا لى ؛ قال : القوم بزل (١) فأَفضلها أَشدُّها .

ثم قام عامر بن الطفيل العامرى فقال : كَثر فنون المنطق . ولِبْس القول أَعمى من حِنْدس الظلماء ، وإنما الفخر فى الفِعَالِ والعجز فى النجدة والسؤدد مطاوَعة القدرة ، وما أَعلمك بقدرنا وأَبصرك بفضلنا ، والحرى إن دالت الأَيام وثَابَتِ الأَحلام ، أَن تُحْدِث لنا أَموراً لها أَعلام . قال كِسرى : وما تلك الأَعلام ؟ قال : مجتمع الأَحياءِ من ربيعة ومُضَر على أَمر يُذكَرْ . قال : وما الأَمر الذى يُذكَر ؟ قال : مالى علم بأَكْثر مما خَبَّرَنى به مخبِّر . قال : متى تكاهَنْتَ يا ابن الطفيل ! قال : لست بكاهن ، ولكنى بالرمح طاعن . قال : فإِن أَتاك آتٍ من جهة عينك العوراء ، ما أَنت صانع ؟ قال : ما هَيْبتى فى قفاى بدون هيبتى فى وجهى ، وما أَذهب عينى عبثٌ ، ولكن مطاوعة العبث .

---

(١) جمع بازل : وهو البعير سن ست سنوات .

ثم قام عمرو بن معديكرب فقال : إنما المرءُ بأَصغريه قلبه ولسانه فبلاغ المنطق الصواب ، وملاك النجدة الارتياد ، وعفو الرأْى خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة ، فاجْتَبِذْ طاعتنا بلفظك واكْتَظِم بادرتنا بحلمك وأَلِنْ لنا كَنَفك يَسْلس لك قيادنا ، فإنا أناس لم يُوَقِّس صفاتنا قِرَاعُ مناقير من أَراد لنا قضما ، ولكن منعنا حمانا من كل من رام لنا هضما .

ثم قام الحارث بن ظالم المُرِّى فقال : إن من آفة المنطق الكذب ، ومن لؤم الأَخلاق المَلق ، ومن خَطل الرأى خفة الملك المسلط . فإن أعلمناك أَن مواجهتنا لك عن ائتلاف ، وانقيادنا لك عن تصاف ، فما أَنت لقبول ذلك منا بخليق ، ولا للاعتماد عليه بحقيق ، ولكن الوفاء بالعهود وإحكام وَلْت العقود . والأَمرُ بيننا وبينك معتدل . ما لم يأْت من قِبَلك مَيْل أَو زلل . قال كِسرى : من أَنت؟ قال : الحارث بن ظالم . قال : إن فى أَسماء آبائك لدليلاً على قلة وفائك وأَن تكون أَولى بالغدر وأَقرب من الوزر . قال الحارث : إن فى الحق مغضبة والسر فى التغافل ولن يستوجب أَحد الحلم إلا مع القدرة . فلتشبه أَفعالك مجلسك . قال كِسرى : هذا فتى القوم .

ثم قال : قد فهمت ما نطقت به خطباوكم ، وتفنن فيه متكلموكم . ولولا علمى أَن الأَدب لم يُثقف أَودكم ولم يحكم أَمركم . وأَنه ليس لكم ملك يجمعكم . فتنطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة . فنطقتم بما استولى على أَلسنتكم وغلب على طباعكم . لم أُجز لكم كثيراً مما تكلمتم به . وإنى لأَكْره أَن أَجبه وفودى أَو أَحنق صدورهم والذى أُحب من إصلاح مدبركم وتأَلف شواذكم ؛ والإعذار إلى الله فيما بينى وبينكم . وقد قبلت ما كان فى منطقكم من صواب وصفحت عما فيه من خلل . فانصرفوا إلى ملككم فأَحسنوا مؤازرته والتزموا طاعته . وارعوا سفهاءكم . وأَقيموا أَودهم . وأَحسنوا أَدبهم . فإن فى ذلك صلاح العامة .

رُوى عن الكلبي أنه قال : كان كسرى يَحفِل بالعرب ، ويستأْنس بمشاهدتهم ويرغب فى سماع محادثاتهم ، ومفاخراتهم ومنافراتهم ، ولم يَدّخر وسعاً إلا بذله للحصول على ذلك (ومما اتفق له) أن النعمان بن المنذر ، كان بمجلسه يوماً ، فقال له : هل فى العرب من قبيلة تشرفُ على قبيلة ؟ قال : نعم ، قال : فبأًى شىء ؟ قال : من كانت له ثلاثة آباء متوالية روساءُ ، واتصل ذلك بمزية رابعة ، فبيته أَشرف بيت ، وإليه تنسب القبيلة ، وبه تعلو على غيرها ، قال : أَحضر من هذه صفتهم فطلبهم النعمان فلم يُصبهم إلا فى آل حذيفة بن بدر ، وآل ذى الجدّين ؛ وآل الأَشعث بن قيس بن كِنْدة ؛ فأَحضرهم فى جملة من عشائرهم ؛ فعَقد لهم كسرى مجلساً عاماً حضره الحكَّام والعدول والأَعيان ، ثم قال : ليتكلم كل منكم بمآثر قومه وليصدُق .

فانتصب حذيفة بن بدر قائماً وكَان أَلسن القوم فقال : قد علمت العرب أَن فينا الشرف الأَقدم والفخر الأَعظم ، فقيل له : لِمَ ذاك يا أَخا فزارة ؟ قال : أَلسنا الدعائم(١) التى لا ترام ؟ ! والعز الذى لا يضام ؟ فقيل له : صدقْت ، ثم قام شاعرهم فقال :

فزارةُ بيت العز والعز فيهمُ ... فزارةُ بدرٍ حسْبُ بدر نضالها(٢)
لها العزة القعساء(٣) والحسب الذى ... بناه لبدرٍ فى القديم رجالها
فهيهات قد أَعيا القرون التى مضت ... مآثر بدرٍ مجدُها وفِعالها
وهل أَحدٌ إن مدّ يوماً بكفِّه ... إلى الشمس فى مجرى النجوم ينالها ؟
فإن يصلُحوا يصلُح لذاك جميعُنا ... وإن يَفسدوا يفْسَدْ على الناس حالها

ثم قام الأَشعث بن قيس فقال : لقد علمت العرب أَنا نقاتل عديدها الأَكثر ونقهر جمْعها الأَكبرَ وأَنّا غِياثُ اللزبات(٤) وبناة المكرمات ، فقيل له لِمَ يا أَخا

(١) الأركان (٢) محادتها ودفاعها (٣) الرفيعة (٤) بتسكين الزاى : الشدائد .

كِنْدَة ؟ قال : لأنّا ورثنا ملك كِندة فاستظللنا بأَفيائِه وتقلدنا منكبه الأَعظم ؛ وتوسَّطنا يُحبوحه(١) الأَكرم ، ثم قام شاعرهم فقال :

إذا قِست أَبيات الرجال ببيتنا وجَدْت له فضلاً على من يفاخرُ
فمن قال : كلَّا أَو أَتانا بخُطَّة يُنافرنا يوماً فنحن نخاطرُ
تعالوْا قِفوا كي يعلم الناس أَيُّنا له الفضل فيما أَورثْته الأَكابر

ثم قام بسطام بن قيس ؛ فقال : قد علمتْ العرب أَنَّا بُناة بيتها الذى لا يزول ومغرَسُ عزها الذى لا يحول ؛ فقيل له : ولِمَ يا أَخا شيبان ؟ قال : لأَنّا أَدركهم للثار وأَضربُهم للملك الجبار ، وأَقولهم للحق ، وأَلدُّهم للخصم .

ثم قام شاعرهم فقال :

لعمرىَ بسطامٌ أَحقُّ بفضلها وأَول بيت العز عز القبائلِ
فسائل أَبَيْت اللعن عن عز قومها إذا جَدَّ يوم الفخر كل مناضل(٢)
فيخبرك الأَقوام عنها فإِنها وقائع جدٍّ لا ملاعبُ هازل
أَلسنا أَعزَّ الناس قوماً وأُسرةً وأَضربهم للكبش يوم التخاذل
وقائع عزٍّ كلها رَبِعيَّةٌ (٣) تذلُّ لهم فيها رقابُ المحافل
إذا ذُكرتْ لم يُنكر الناس فضلها وعاذ بها ، من شرها ، كل قائل
وأَنّا ملوك الناس فى كل بلدةٍ إذا نزلت بالناس إحدى النوازل

ثم قام حاجب بن زرارة التميمى ، فقال : قد علمت العرب أَنَّا فرعُ دعاتها وقادة زحوفها ؛ فقيل له : لِمَ ذلك يا أَخا بنى تميم ؟ قال : لأَنَّا أَكثر الناس عديداً وأَنجبُهم طُرًّا وليداً ، وأَعطاهم للجزيل ، وأَحملُهم للثقيل .

ثم قام شاعرهم فقال :

لقد علمتْ أَبناءُ خندف أَنَّا لنا العز قِدماً فى الخطوب الأَوائل
وأَنَّا كِرَامٌ أَهلُ مجدٍ وثروة وعزٌّ قديم ليس بالمتضائل
فكم فيهم من سيِّد وابن سيِّد أَغر نجيب ذى فعال ونائل

(١) وسطه (٢) المجادل (٣) نسبة الى قبيلة ربيعة

فسائل أبيتَ اللعن(١) عنا فإننا   دعائم هذا الناس عند الجلائل

ثم قام قيس بن عاصم السَّعدى فقال : لقد علم هؤلاء أنا أرفعهم فى المكرمات وأثبتهم فى النائبات ، فقيل له : لِم ذاك يا أخا بنى سعد؟ قال : لأنَّا أدركهم للثار وأمنعهم للجار ، لا ننكل إذا حملنا ، ولا نُرام إذا حللنا ، ثم قام شاعرهم فقال :

لقد علمت قيسٌ وخندِفُ أننا   وجُلُّ تميم والجموع التى ترى

بأَنَّا لُيوثُ البأْس فى كل مأْزق   إذا جزّ بالبيض الجماجم والطلى

وأَنا إذا داعٍ دعانا لنجدة   أَجبنا سِرَاعاً فى العلائم من دعا

فهيهات قد أَعيا الجميع فِعَالُهم   وقاموا بيوم الفخر مَسْعاة من سعى

فقال كِسرى حينئذ : ليس منها إلا سيد يصلح لموضعه ، ثم أَعظَم صلاتهم أَجمعين ، وردَّهم إلى أَقوامهم مُعظمين .

مناظرات المهدى ومشاورته لأهل بيته فى حرب خراسان

هذا ماتراجع فيه المهدى ووزراؤه ، ومادار بينهم من تدبير الرأْى فى حرب خراسان ، أَيام تحاملت عليهم العمال وأَعنفت ، فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من المكانة على أَن نكثوا بيْعتهم ونقضوا موثقهم وطردوا العمال ، والتووا بما عليهم من الخراج ، وحَمَل المهدى مايُحب من مصلحتهم ويكره من عنتهم ، على أَن قال عثرتهم واغتفر زلتَهم واحتمل دالتهم تطولاً بالفضل واتساعاً بالعفو وأَخذًا بالحجة ورِفقًا بالسياسة ، ولذلك لم يزل مذ حَمَّله الله أَعباءَ الخلافة وقلده أُمور الرعية رفيقًا بمدار سلطانه ، بصيرًا بأَهل زمانه ، باسطاً للمعْدَلة فى رعيته تسكن إلى كَنفه وتأْنس بعفوه ، وتَثِق بحلمه ، فإذا وقعت الأَقضية اللازمة والحقوق الواجبة ، فليس عنده هوادة ولا إغضاء ولا مداهنة ، أَثرة للحق ، وقياماً بالعدل ، وأَخذًا بالحزم فدعا أَهل خراسان الاغترار بحلمه والثقة بعفوه ، أَن كَسروا الخراج وطردوا العمال

(١) أبيت اللعن : بغضته ومنعته أى انك لاتفعل ما يوجب لعنك بل تفعل ما تحمد وتمدح به .

وسأَلوا ما ليس لهم من الحق ، ثم خلطوا احتجاجاً باعتذار ، وخصومة بإقرار ، وَتَنصُّلاً باعتلال . فلما انتهى ذلك إلى المهدى خرج إلى مجلس خَلائه ، وبَعث إلى نفَر من لُحمته ووزرائه ، فأَعلمهم الحال واستفهمهم للرَّعِية ، ثم أَمر الموَالى بالابتداءِ وقال للعباس بن محمد : « أَى عمّ » تعقب قَوْلنا وَكُنْ حكماً بيننا . وَأَرْسَلَ إلى ولديه (موسى وهارون) فأَحضرهما الأَمر وشاركهما فى الرأْى ، وأَمر محمد بن الليث بحفظ مُرَاجَعتهم وإِثبات مقالتهم فى كتاب .

فقال سَلَام صاحب المظالم :

أَيها المهدى ، إن فى كل أَمر غاية ، ولكل قوم صناعة ، استفْرَغَتْ رأْيَهم ، واستغرقتْ أَشغالهم ، واستنفدتْ أَعمارَهم ، وذهبوا بها وذهبت بهم ، وَعُرِفوا بها وَعُرِفتْ بهم ، ولهذه الأُمور التى جعلَتنا فيها غاية ، وطلَبَتْ معونتنا عليها أَقوام من أَبناءِ الحرب ، وساسة الأُمور ، وقادة الجنود ، وفرسان الهزاهز ، وإخوان التجارب وأَبطال الوقائع ، الذين رشحتهم سِجَالُها ، وفيأَتْهم ظلالُها ، وعضتهم شِدائِدُها وَقَرَمَتهم نواجِذُها ، فلو عَجَمْتَ ماقِبَلَهم وَكَشفت ما عندهم لوجدت نظائر تؤيد أَمرَك ، وتجارب توافق نظرَك وأَحاديث تقَوِّى قلبك ، فأَما نحن معاشرَ عُمَّالك وأَصحاب دواوينك فَحَسَنٌ بنا ، وكثيرٌ منا أَن نقوم بثقل ماحَمّلتنا من عملك واستودعتنا من أَمانتك وشغلتنا من إمضاءِ عدلك وإنفاذ حكمك وإظهار حقك .

فأَجابه المهدى : إن فى كل قوم حكمة ، ولكل زمان سياسة ، وفى كل حال تدبيرًا يُبطل الآخرُ الأَولَ ، ونحن على علمٍ بزماننا وتدبير سلطاننا .

قال : نعم أَيها المهدى أَنت متَّبع الرأْى ، وثيق العُقْدَة ، قوى المنة ، بليغ الفِطْنة ، معصوم النِّية ، محضور الروية ، مؤيد البديهة ، موفَّق العزيمة ، مُعَان بالظفر ، مهدى إلى الخير ، إنْ هممْتَ ففى عزمك مواقع الظن ، وإن اجتمعت صدَع فعلك مُلتبِسَ الشك ، فاعزم يهدِ اللهُ إلى الصواب قلبك ، وَقُلْ يُنطق الله بالحق لسانَك ، فإن جنودك جَمة وخزائنك عامرة ، ونفسك سخية ، وأَمرك نافذ .

فأَجابه المهدى : إن المشاورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة ، لايهلك عليهما رأىٌ ولا يتخيل معهماحزم ،فأَشيروا برأْيكم وقولوا بما يحضُرُكُم ، فإنى من ورائكم ، وتوفيق الله من وراء ذلك .

قال الربيع : أَيها المهدى ، إن تصاريف وُجُوه الرأى كثيرة ،وإن الإشارة ببعض معاريض القَوْل يسيرة ، ولكن خُرَاسان أَرض بعيدة المسافة ، متراخية الشُّقَّة متفاوتة السبيل ، فإذا ارتأَيتَ من مُحكم التدبير ومبرَم التقدير ولُبَاب الصواب رأْياً ، قد أَحكمه نظرك ، وقلَّبه تدبيرك ؛ فليس وراءَه مذهب طاعن ، ولا دونه مَعْلقٌ لخصومة عائب ، ثم خَبَّت البُرد به ،وانطوت الرُّسُل عليه كان بالحرِى أَن لايصل مُحكمه ، إلاوقد حَدَث منهم ما يَنْقُضه ، فما أَيْسَرَ أَن ترجع إليك الرُّسل ، وتَرِدَ عليك الكتب بحقائق أَخبارهم وشوارد آثارهم ومصادر أُمورهم فَتُحْدث رأْياً غيره وتبتدع تدبيراً سواه ، وقد انفرجت الحلَق ، وتحلت العُقد ، واسترخى الحقاب ، وامتد الزمان ثم لَعِلْمك موقع الآخرة كمصدر الأُولى ولكن الرأْى أَيها المهدى ، وفقك الله ، أَن تصرف إجالة النظر وتقليب الفِكَر فيا جمعتنا له ، واستشرتنا فيه من التدبير لحربهم وَالحيَل فى أَمرهم إلى الطلب لرجل ذى دِين فاضل وعقل كامل ووَرَع واسع ليس موصوفاً بهوى فى سواك ، ولا متهماً فى أَثرَةٍ عليك ، ولاظنينًا على دُخْلة مكروهة ولامنسوباً إلى بدعة محذورة ، فيقدح فى ملكك وَيُرَيِض الأُمور لغيرك ، ثم تُسْنِد إليه أُمورَهم وَتُفَوّض إليه حربهم وتأْمُره فى عهدك ، وصيّتك إياه بلزوم أَمرك ما لزمه الحزم ، وخلاف نهيك إذا خالفه الرأْى عند استحالة الأُمور واشتداد الأَحوال التى ينقَضُّ(١) أَمر الغائب عنها ، ويثبتُ رأْى الشاهد لها ، فإنه إذا فعل ذلك ؛ فواثَبَ

---

(١) ينقض : ينهدم .

أَمْرَهم من قريب ، وسقط عنه ما يأْتى من بعيد ، تمت الحيلة ، وقويت المكيدة ، ونفذ العمل وَأُحِد النظر إن شاءَ الله تعالى .

قال الفضل بن عباس :

أَيها المهدى ، إن ولىَّ الأُمور وسائس الْحُرُوب ربما نَحَّى جنوده وَفَرَّق أَمواله فى غير ماضيق أَمرٍ حزبه ، ولاضغطة حالٍ اضطرته فيقعد عند الحاجة إليها وبعد التفرقة لها عديماًمنها فاقداً لها ، لايتق بقُوَّة ولايصول بعُدَّة ، ولايفرغ إلى ثقة ؛ فالرأى لك أَيها المهدى وَفَّقك الله أَن تغْنى خزائنك من الإنفاق للأَموال وَجُنودك من مُكَابدة الأَسفار وَمُقَارعة الأَخطار وتغرير القتال ، وَتُسْرع للقوم فى الإجابة إلى مايطلبون ، والعطاءِ لما يسأَلون ، فيفْسُدُ عليك أَدبهم وتُجَرِّئ من رَعِيَّتك غيرهم ، ولكن اغْزُهم بالحيلة وقاتلهم بالمكيدة وصارعْهم باللين وخاتلهم بالرِّفق وأَبرق لهم بالقول وأَرْعد نحوهم بالفعل وابعث البُعُوث وجنِّدَ الجنود وكتِّبْ الكتائب واعقد الأَلْوِية وانصب الرَّايات وأَظهر أَنك مُوَجِّهٌ إليهم الجيوش مع أَحنق قُوَّادك عليهم وأَسوئهم أَثرًا فيهم ، ثم ادسس الرسل ، وَابْثثْ الكتب ، وضع بعضهم على طمع من وعدك وبعضا على خوف من وَعِيدك ، وأَوقد بذلك وأَشباهه نيران التحاسُد فيهم واغرس أَشجار التنافس بينهم ، حتى تملأَ القلوب من الوحشة ، وتنطَوِى الصُّدور على البغضة ، ويدخل كلا من كل الحَذَر والهيبة . فإن مرام الظفر بالغيلة والقتال بالحيلة وَالمُناصبة بالكتب ، وَالمُكَايدة بالرسل ، وَالمُقَارعة بالكلام اللطيف المُدخل فى القلوب ، القوى الموقع من النفوس ، المعقود بالحجج الموصول بالحيل المبنى على اللين الذى يستميل القلوب ، ويسترق العقول والآراء ، ويستميل الأَهواءَ ، ويستدعى المُوَاتَاة ؛ أَنفذ من القتال بظُبَات السُّيوف وَأَسِنَّة الرِّمَاح ، كما أَن الْوَالِىَ الذى يستنزل طاعة رَعِيَّته بالحيل ، وَيُفَرِّق كلمة عَدوه بالمكايدة أَحكم عملاً وأَلطفُ منظرًا وأَحسن سياسة ، من الذى لاينال ذلك إلا بالقتال ، والإتلاف للأَموال والتغرير ، وَالْخِطَارِ .

وليعلم المهدى ، أنه إن وَجَّهَ لقتالهم رجلاً لم يسر لقتالهم إلا بجنود كثيفة تخرج عن حال شديدة ، وتُقدِم على أسفار ضيِّقة وأموال مُتفرقة وقُوَّاد غششة إن ائتمنَهُمْ استنفدوا ماله ، وإن استنصحهم كانوا عليه لا له . قال المهدى : هذا رأْى قد أسفر نُورُهُ ، وأبرق ضوءُهُ ، وتمثل صوابه للعيون ومجد حقه في القلوب ، ولكن فوق كل ذِى عِلم عليم ، ثم نظر إلى ابنه على فقال : ما تقول ؟

قال على : أيها المهدى إن أهل خراسان لم يخلعُوا عن طاعتك ولم ينصبُوا من دونك أحدًا يقدح في تغيير مُلكك ويريض الأُمور لفساد دولتك ، ولو فعلوا لكان الخطب أيسر والشأْن أصغر والحالُ أَدلّ ، لأَنَّ الله مع حقه الذى لايخذله وعند موعده الذى لايُخْلِفه ، ولكنهم قوم من رعيتك وطائفة من شيعتك الذين جعلك الله عليهم والياً وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً ، طلبُوا حقًا وسأَلوا إنصافاً فإن أجبت إلى دعوتهم ونفَّست عنهم قبل أن يتلاحم منهم حال ، أو يحدُث من عندهم فتق ، أطعت أمر الرَّبّ وأطفأْت ثائرة الحرب ، ووفرت خزائن المال وطرحت تغرير القتال ، وحمل الناس محمل ذلك على طبيعة جودك وسجيَّة حلمك وأسجاع خليقتك ، ومعدلة نظرك ، فأَمنت أن تنسب إلى ضعف ، أن يكون ذلك فيما بقى دُرْبَة ، وإن منعتهم ما طلبوا ولم تجبهم إلى ما سأَلوا اعتدلت بك وبهم الحال ، وساويتهم فى ميدان الخطاب — فما أرب المهدى أن يَعْدُ إلى طائفة من رعيته مُقرِّين بمملكته مُذعنين بطاعته لايخرجون أنفسهم عن قدرته ، ولا يبرئونها من عبوديته فيُملِّكهم أنفسهم ، ويخلع نفسه عنهم ويقف على الحيل معهم ، ثم يجازيهم السوء فى حدِّ المنازعة ومضمار المخاطرة — أيريد المهدى وفقه الله الأَموال؟ فلعمرى لاينالها ، ولايظفر بها إلا بإنفاق أكثر منها مما يطلب منهم ، وأضعاف ما يدّعى قبلهم ، ولو نالها فَحُملت إليه أو وضعت بخرائطها بين يديه ، ثم تجافى لهم عنها وطال عليهم بها ،

لكان مما إليه ينسب وبه يعرف من الجود الذى طبعه الله عليه وجعل قرّة عينه ونهمة نفسه فيه ، فإن قال المهدى هذا رأى مستقيم سديد فى أَهل الخراج الذين شكوا ظلم عُمالنا ، وتحامُل وُلاتنا ؛ فأَما الجنود الذين نقضوا مواثيق العهود وأَنطقوا لسان الإرجاف ، وفتحوا باب المعصية وكسَرُوا قيد الفتنة ، فقد ينبغى لهم أَن أَجعلهم نكالاً لغيرهم وعظة لسواهم ، فيعلم المهدى أَنه لو أَتى بهم مغلولين فِى الحديد ، مُقرّنين فى الأَصفاد ، ثم اتسع لحقْنِ دمائهم عفوُهُ ، ولإِقالة عثرتهم صفحه ، واستبقاهم لما فيه من حزبه ، أَو لمن بإزائهم من عدوِّه لما كان بدعاً من رأيه ولا مستنكرًا من نظره .

لقد علمت العرب أَنه أَعظم الخلفاءِ والملوك عفوًا وأَشدُّها وقعًا وأَصدقها صوْلةً وأَنه لايتعاظمُه عفو ، ولايتكاءَدُهُ صفح ، وإن عظم الذنب وجل الخطب ، فالرأى للمهدى وفقه الله تعالى أَن يحل عقدة الغيظ بالرجاءِ لحسن ثواب الله فى العفو عنهم وأَن يذكر أَولى حالاتهم وضيعة عيالاتهم برًّا بهم ، وتوسعًا لهم فإنهم إخوان دولته وأَركان دعوته ، وأَساس حقه الذين بعزّتهم يصول ، وبحجّتهم يقول ، وإنما مثلهم فيما دخلوا فيه من مساخطه وتعرَّضُوا له من معاصيه وانطووا فيه عن إجابته ، ومثله فِى قلة ماغيّرَ من رأيه فيهم أَو نُقِلَ من حاله لهم أَو تغيّرَ من نعمته بهم ، كمثل رجلين أَخوين مُتناصرين متوازرين أَصاب أَحدهما خَبَلٌ عارض ولهو حادث فنهض إلى أَخيه بالأَذى وتحامل عليه بالمكروه ، فلم يزدد أَخوه إلا رقةً له ولطفًا به واحتيالا لمداواة مرضه ومراجعة حاله عطفاً عليه وبَرًّا به ومرحمة .

فقال المهدى : أَما على فقد نوى سمتَ اللِّيان وفض القلوب من أَهل خراسان ولكل نبأ مستقر . ثم قال : ماذا ترى ياأَبا محمد (يعنى موسى ابنه)

فقال موسى :

أَيها المهدى ، لا تسكُن إلى حلاوة ما يجرى من القول على أَلسنتهم وأَنت ترى الدماءَ تسيل من خلل فعلهم ، الحال من القوم ينادى بمضمرة شر وخفيَّة

حقد قد جعلوا المعاذير عليها سترا واتخذوا العلل من دونها حجاباً ، رجاءَ أَن يدافعوا الأَيام بالتأْخير ، والأُمور بالتطويل ، فيكسِرُوا حيل المهدى فيهم ويفنوا جنوده عنهم ، حتى يتلاحم أَمرهم ، وتتلاحق مادَّتهم ، وتستفحل حربهم وتستمر الأُمور بهم ؛ والمهدى من قولهم فى حال غِرَّة ولباس أَمَنَة ، قد فتر لها وأَنس بها وسكن إليها ، ولولا ما اجتمعت به قلوبهم ، وبردت عليه جلودهم من المناصبة بالقتال ، والإِضمار للقراع عن داعية ضلال أَو شيطان فساد لَرَهِبوا عواقب أَخبار الوُلاة ، وغِبَّ سكون الأُمور فَلْيَشْدد المهدى — وفقه الله — أَزره لهم ويُكَتِّب كتائبه نحوهم ، وليضع الأَمر على أَشد مايحضُرُه فيهم ، ولْيُوقن أَنه لا يعطيهم خُطَّة يريد بها صلاحهم إلا كانت دُرْبة إلى فسادهم وقوة على معصيتهم ، وداعية إلى عودتهم وسبباً لفساد من بحضرته من الجنود ، ومن ببابه من الوفود ، الذين إن أَقَرَّهم وتلك العادة وأَجراهم على ذلك الأَرب ، ولم يبرح فى فتق حادث وخلاف حاضر ، لايصلح عليه دين ، ولاتستقيم به دنيا ، وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة ، واستمرار الدُّرْبة لم يصل إلى ذلك إلا بالعقوبة المفرطة والمؤونة الشديدة . والرأى للمهدى وفقه الله أَن لا يُقيل عثرتهم ، ولايقبل معذرتهم حتى تطأَهم الجيوش ، وتأْخذهم السيوف ، ويستحر بهم القتل ويحدق بهم البلاءُ ويُطبق عليهم الذل ، فإن فعل المهدى ذلك كان مقطعةً لكل عادة سوء فيهم ؛ وهزيمة لكل بادرة شر منهم ، واحتمال المهدى فى مئونة غزوتهم هذه تضع عنه غزوات كثيرة ، ونفقات عظيمة .

فقال المهدى : قد قال القوم ، فاحكم يا أَبا الفضل !

فقال العباس بن محمد :

أَيها المهدى : أَما (الموالى) فأَخذوا بفُرُوع الرأى وسلكوا جنبات الصواب وتعدوا أُمورًا قصَّرَ بنظرهم عنها أَنه لم تأْت تجاربهم عليها . وأَما (الفضل) فأَشار بالأَموال أَن لاتنفق ، والجنود أَن لاتفرق ، وبأَن لايُعطى القوم ما

ما طلبوا ، ولا يبذل لهم ما سألوا ، وجاء بأمرٍ بين ذلك استصغارًا لأمرهم ، واستهانة بحربهم ، وإنما يهيج جسيمات الأُمور صغارُها .

وأما (على) فأشار باللين وإفراط الرفق ، وإذا جرّد الوالى لمن غمِط أمره وسفه حقه اللين بحتًا ، والخير محضاً ، لم يخلطها بشِدَّة تعطف القلوب عن لينه ، ولابشر يحبسهم إلى خيره ، فقد ملكهم الخلع لعذرهم ، ووَسَّع لهم الفرجة لثنى أعناقهم ، فإن أجابوا دعوته وقبلوا لينه من غير خوف اضطرهم ولا شدة ، فنزوة فى رءُوسهم يستدعون بها إلى أنفسهم ، ويستصرخون بها رأى المهدى فيهم ، وإن لم يقبلوا دعوته ويسرعوا لإجابته باللين المحض والخير الصُّرَاح ، فذلك ماعليه الظن بهم ، والرأى فيهم ، وما قد يشبه أن يكون من مثلهم ، لأن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم ، والملك الكبير مالايخطرُ على قلب بشر ولا تُدْرِكْه الفكر ، ولا تعلمه نفس ، ثم دعا الناس إليها ورغبهم فيها ، فلولا أنه خلق نارًا جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة لما أجابوا ولا قبلوا .

وأما (موسى) فأشار بأن يُعْصَبوا بشدة لالين فيها ، وأن يُرْمَوْا بشر لاخير معه ، وإذا أضمر الوالى لمن فارق طاعته وخالف جماعته الخوف مفردًا ، والشرَّ مجردًا ليس معهما طمع ولا لين يثنهم اشتدت الأُمور بهم ، وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين إما أن تدخلهم الحمية من الشدة ، والأنفة من الذلة ، والامتعاض من القهر ، فيدعوهم ذلك إلى التمادى فى الخلاف والاستبسال فى القتال والاستسلام للموت ، وإما أن ينقادوا بالكُرْه ويذعِنوا بالقهر على بغضة لازمة وعداوة باقية تورث النفاق وتعقب الشقاق ، فإذا أمكنتهم فرصة أو ثابت لهم قدوة أو قويت لهم حال ، عاد أمرهم إلى أصعب وأغلظ وأشد مما كان .

وقال فى قول الفضل : أيها المهدى أكفى دليل ، وأوضح برهان ، وأبين خبر بأن قد أجمع رأيه وحزم نظره على الإرشاد ببعثه الجيوش إليهم ، وتوجيه

البعوث نحوهم مع إعطائهم ماسألوا من الحق ، وإجابتهم إلى ماسألوه من العدل .

قال المهدى : ذلك رأىٌ .

قال هارون : ما خُلطت الشدة باللين ، فصارت الشدة أَمَرَّ فطام لما تكره ، وعاد اللين أهدى قائد إلى ماتحب ، ولكن أرى غير ذلك .

قال المهدى : لقد قلت قولاً بديعًا ، وخالفت فيه أهل بيتك جميعًا ، والمرءُ مؤتمن بما قال وظنين بما ادعى ، حتى يأتى ببينة عادلة وحجة ظاهرة ، فاخرج عما قلت .

قال هارون :

أيها المهدى : إن الحرب خُدْعة ، والأعاجم قوم مكرة ، وربما اعتدلت الحال بهم ، واتفقت الأهواءُ منهم فكان باطن مايُسِرُّون على ظاهر ما يُعْلنون ، وربما افترق الحالان ، وخالف القلب اللسان ، فانطوى القلب على محجوبة تبطن واستسر بمدخولة لاتُعلن ، والطبيب الرفيق بطبه ، البصير بأمره ، العالم بمقدم يده وموضع ميسمه ، لايتعجل بالدواءِ حتى يقع على معرفة الداءِ ، فالرأى للمهدى وفقه الله أن يَفِرّ باطن أمزهم فَر المُسِنَّة ويمخض ظاهر حالهم مخض السقاء بمتابعةِ الكتب ومظاهرَة الرُّسل ، وموالاة العُيُون ، حتى تُهْتِكَ حُجُب عيونهم ، وتكشف أغطية أُمورهم ، فإن انفرجت الحال ، وأفضت الأُمور إلى تغيير حال ، أوداعية ضلال اشتملت الأهواء عليه ، وانقاد الرجال إليه وامتدت الأعناق نحوه بدين يعتقدونه وإثم يستحلونه ، عَصَبهم بشدة لالين فيها ، ورماهم بعقوبة لاعفو معها ، وإن انفرجت العيون واهْتُصِرت الستور وَرُفِعَتِ الحجُب ، والحالُ فيها مريعة والأُمور بهم معتدلة فى أرزاق يطلبونها وأعمال ينكرونها وظلامات يدعونها ، وحقوق يسألونها ، بماتَّةِ سابقتهم ودالة مناصحتهم ، فالرأى للمهدى وفقه الله أن يتسع لهم بما طلبوا ويتجافى لهم عما كرهوا ويَشْعَبَ من أمرهم ما صدعوا ، ويَرْتَقَ من فتقِهم ما قطعوا ، ويولى عليهم من أَحبُّوا ويُدَاوى بذلك مَرَض

قلوبهم وفساد أُمورهم ، فإنما المهدى من أُمَّته وسواد أَهل مملكته بمنزلة الطبيب الرفيق والوالد الشفيق والراعى المُجَرِّب الذى يحتال لمرابض غنمه ، وضوالِّ رعيَّتِه حتى يُبرئَ المريضة من داءِ علتها ويردُّ الصحيحة إلى أُنس جماعتها ثم إن خراسان بخاصة الذين لهم دالة محمولة ، وماتة مقبولة ، ووسيلة معرُوفة ، وحقوق واجبة ؛ لأَنهم أَيدى دولته وسيوف دعوته وأَنصار حقه وأَعوان عدله ،فليس من شأْن المهدى الاضطغان عليهم ولا المؤاخذة لهم ، ولا التَّوَعُّر بهم ولا المكافأَة بإساءَتهم ؛ لأَن مبادرة حسم الأُمور ضعيفة قبل أَن تقوى ، ومحاولة قطع الأُصول ضئيلة قبل أَن تغلظ. أَحزَمُ فى الرأى وأَصح فى التدبير من التأْخير لها والتهاون بها حتى يلتئم قليلها بكثيرها وتجتمع أَطرافها إلى جُمْهورها .

قال المهدى : مازال هارون يَقَعُ وَقْعَ الحيا حتى خرج خُرُوج القدح من الماءِ وانْسَل انسلال السيف فيما ادَّعى ، فَدَعُوا ما سبق موسى فيه فإنه هو الرأى وثنى بعده هارون ؛ ولكن من لأَعِنَّة الخيل وسياسة الحرب وقادة الناس إن أَمعن بهم اللجاج وأَفرطت بهم الدّالة ؟ !

قال صالح بن على : لسنا نبلغ أَيها المهدى بدوام البحث وطول الفكر أَدنى فِرَاسة رأيك وبعض لحظات نظرك ، وليس يَنْفَضُّ عنك من بيوتات العرب ورجالات العجم ذو دين فاضل ورأى كامل وتدبير قوى تقلده حَرْبك وتستودعه جندك ، ممن يحتمل الأَمانة العظيمة ويضطلع بالأَعباءِ الثقيلة ، وأَنت ، بحمد الله ، ميمون النقيبة مبارك العزيمة ، مخبور التجارب ، محمود العواقب ، معصوم العزم فليس يقع اختيارُك ولايقفُ نظرك على أَحد توليه أَمرك وتسند إليه ثغرك إلَّا أَراك الله ما تحب وجمع لك منه ما تريد .

قال المهدى : إنى لأَرجو ذلك لقديم عادة الله فيه وحسن معونته عليه ولكنى أحب الموافقة على الرأى والاعتبار للمشاورة فى الأَمر المهم .

قال محمد بن الليث : أَهل خُراسان قَوْمٌ ذووُ عزَّة ومَنَعة وشياطين خدَعة ، زُروع الحمِيَّة فيهم نابتة ، وملابس الأَنفة عليهم ظاهرة ، فالروية عنهم عازبة والعَجلة عنهم حاضرَة ، تسبق سيولهم مطرَهم وسيُوفُهم عذلهم ، لأَنهم بين سِفْلة لا يعْدُو مبلغ عقولهم منظر عُيونهم ، وبين رُؤساء لا يُلْجمون إلَّا بشدّة ، ولا يَفطنون إلَّا بالمرِّ ، وإن وَلَّى المهدى عليهم وضيعًا لم تنقد لهُ العظماء ، إن ولى أَمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء ، وإنْ أَخر المهدى أَمرهم ودافع حربهم حتى يصيب لنفسه من حشمه ومواليه أَو بنى عمه أَو بنى أَبيه ، ناصحًا يتفق عليه أَمرهم وثقة تجتمع له أَملاؤهم بلا أَنفة تلزمهم ولا حَمِيَّة تدخلهم ولا مصيبة تنفِّرهم ، تَنفَّست الأَيام بهم وتراخت الحال بأَمرهم ، فدخل بذلك من الفساد الكبير ، والضياع العظيم مالايتلافاهُ صاحب هذه الصفة وإن جدَّ ، ولا يستصلحه وإن جهد ، إلا بعد دهر طويل ، وشر كبير ، وليس المهدى — وفقه الله — فاطماً عاداتهم ولا قارعاً صفاتهم بمثل أَحد رجلين لاثالث لهما ولاعدل فى ذلك بهما : أَحدهما لسان ناطق موصول بسمعك ويَدٌ ممثلة لعينك وصخرةٌ لا تُزَعزع وبهمة لاتثنى ، وبازل لايفزعه صوت الجلجل ، نقى العِرْض نزيه النفس جليل الخطر ، قد اتضعت الدنيا عن قدره ، وسما نحو الآخرة بهمته فجعل الغرض الأَقصى لعينه نصبا ، والغرض الأَدنى لقدمه موْطئًا ، فليس يقبل عملاً ، ولا يتعدّى أَملاً وهو رأْس مواليك وأَنصح بنى أَبيك ، رجل قد غُذِّى بلطيف كرامتك ونبت فى ظل دولتك ونشأَ على قوائم أَدبك فإن قلدته أَمرهم وحملته ثقلهم وأَسندت إليه ثغرهم ، كان قفلا فتحه أَمرك وباباً أَغلقه نهيك ، فجعل العدل عليه وعليهم أَميرًا والإِنصاف بينه وبينهم حاكمًا . وإذا حكم المنصفة وسلك المعدلة فأَعطاهمْ مالهم وأَخذ منهم ماعليهم ، غَرَس لك فى الذى بين صدورهم ، وأَسكن لك السُّويداء داخل قلوبهم ، طاعة راسخة العروق باسقة الفروع متماثلة فى حواشى عوامهم . متمكِّنة من قلوب خواصهم ،

فلا يبقى ريبٌ إلا نفوه ولا يلزمهم حقٌّ إلا أدُّوه ، وهذا أحدَهما . والآخر عُودٌ من غيضتك ، أَو نَبعةٌ من أَرُومَتِك ، فتيُّ السِّن كهلُ الحلمِ راجح العقل محمود الصَّرَامة مأْمُون الخلاف يُجرِّد فيهم سيفهُ ويبسط. عليهم خيرَه بقدر مايستحقون وعلى حسب مايستوجبون وهو « فُلَان » أَيُّهَا المهدى - فسلطه أَعزَّك اللهُ عليهم ، ووجِّههُ بالجيوش إليهم ولا تمنعك ضرَاعة سِنِّه وحداثة مولده فإن الْحِلم والثقة مع الحداثة خيرٌ من الشكِّ والجَهل مع الكُهُولة ، وإنما أَحداثُكم أَهلَ البيت فيا طبعكم الله عليه ، واختَصَّكم به من مكارم الأَخلاق ومحامد الفِعال ومحاسن الأُمور وصواب التَّدْبير وصرَامة الأَنفس كفراخِ عِتاق الطير(١) المُحكمة لأَخذ الصَّيد بلا تَدْريب ، والعارفة لوُجُوه النفع بلا تـأْديب ، فالحلم ، والعلم ، والعزم ، والحزم ، والتُّؤَدة ، والرِّفق ، ثابت فى صُدُوركم مزروع في قُلوبكم ، مُستحكم لكم متكامل عندكم ، بطبائع لازمة ، وغَرائز ثابتة .

قال معاوية بن عبد الله :

أَفتاءُ(٢) أَهل بيتك أَيها المهدى فى الحلم على ماذُكر ، وأَهل خُراسان فى حال عز على ماوُصِف ؛ ولكن إن ولى المهدى عليهم رجلاً ليس بقدر الذِّكْرُ فى الجنود ولا بنبيه الصوت فى الحروب ولابطويل التَّجْرِبة للأُمور ، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة فى الأَعداءِ ، دخل ذلك أَمران عظيمان ، وخطران مهولان أَحدهما : أَن الأَعداءَ يَغْتَمِزونها منه ويحتقرونها فيه ويجتَرِئون بها عليه فى النهوض به والمقارعة له والخلاف عليه قبل الاختبار لأَمره ، والتكشفِ لحاله والعلم بطباعه . والأَمر الآخر : أَن الجنود التى يقود ، والجيوش التى يسوس إذا لم يختبروا منه البأْس والنَّجْدة ، ولم يعرفوه بالصِّيت والهيبة انكسرت شجاعتهم وماتت نجدتهم واستأْخرت طاعتهم ، إلى حين اختْبارهم

(١) عتاق الطير : الجوارح منها.
(٢) أفتاء : اصحاب الفتوة من الشبان ، جمع فتى ، كيتيم وأيتام .

ووقوع معرفتهم ، وربما وقع البوار قبل الاختبار ، وبباب المهدى - وفقه الله - رجل مهيب نَبيه حَنِيك صيِّتٌ له نسب زاك وصوْت عَالٍ قد قاد الجيوش وساد الحروب وتـألَّف أَهل خراسان ، واجتمعوا عليه بالمِقَة(١) ووثقوا به كل الثقة ، فلو ولاه المهدى أَمْرَهمُ لكفاه الله شَرهم .

قال المهدى : جانبت قصد الرميّة وأَبيْتَ إلا عصبية ، إذ رأْىُ الحدث من أَهل بيتنا كرأْى عشرة حُلَمَاء من غيرنا ؛ ولكن أَين تركتم وَلِىَ العهد ؟

قالوا : لم يَمْنعْنَا من ذكره إلا كونُه شبيه جده ونسيج وحده ، ومن الدِّين وأَهله ، بحيث يقصُر القول عن أَدنى فضله ، ولكن وجدنا الله عزّ وجل حجب عن خلقه وسترَ دون عباده علم ماتختلف به الأَيام ، ومعرفة ماتجْرى عليه المقادير من حوادِث الأُمور ، ورَيب المَنون المختَرمة لخوالى القُرون ، ومواَضى المُلوك ، فكرهنا شُسُوعَه عن محلة الملك ودار السلطان ، ومقرِّ الإمامة والولاية ، وموضع المدائن والخزائن ، ومستقرّ الجنود ومعدن الجود ، ومجمع الأَموال التى جعلها الله قُطْبًا لدار الملك ، ومصْيدة لقلوب الناس ، ومثابة لإخوان الطمع وثُوّار الفِتن ، ودواعى البدع ، وفرسان الضَّلال ، وأَبناءِ الموت ؛ وقلنا : إن وَجّه المهدى ولى عَهْده فحدث فى جيوشه وجنوده ما قد يحدث بجنود الرسل من قبله ، لم يستطع المهدىّ أَن يُعْقبهم بغيره إلا أَن ينهضَ إليهم بنفسه ، وهذا خَطر عظيم وهَوْل شديد ، إن تنفستِ الأَيام بمقامه واستدارت الحال بإمامه ، حتى يقع عِوض لا يُسْتغنى عنه ، أَو يحدث أَمر لا بد منه صار ما بعده مما هو أَعظم هولاً ، وأَجل خطرًا له تبعًا وبه متصلاً .

قال المهدى : الْخطب أَيْسَر مما تذهبون إليه ، وعلى غير ما تصفون الأَمر عليه . نحن أَهل البيت نجرى من أَسباب القضايا ومواقع الأُمور على سابق من العلم ،

---

(١) المقة : المحبة .

ومحتوم من الأَمر ، قد أَنبأَت به الكتب ونبَّأَتْ عليه الرسُل ، وقد تناهى ذلك بـأَجْمَعه إلينا وتكامل بحذافيره عندنا ، فيه‌ندبّر وعلى الله نتوكل . إنه لا بُدَّ لِوَلِيِّ عهدى وولى عهد عَقِبِى بعدى ، أَن يقود إلى خراسان البعوث ويتجه نحوها بالجنود ؛ أَمَّا الأَوّل فإنه يقدم إليهم رسله ويُعمل فيهم حيَله ثم يخرج نشيطاً إليهم حَنِقاً عليهم ، يريد أَن لا يَدَع أَحداً من إخوان الفِتن ودواعى البدع ، وفُرْسَان الضلال إلا توطأَه بحرّ القتل وأَلبسه قِنَاع القهر ، وقلده طوقَ الذلّ ؛ ولا أَحداً من الذين عمِلوا فى قص جناح الفتنة وإخماد نار البدْعة وَنُصْرَة وُلاة الحقّ إلا أَجْرى عليهم دِيمَ فضله وجَدَاول نهاله ، فإذا خرج مُزْمِعاً به مجمعاً عليه لم يسِرْ إلا قليلاً حتى تـأتِيه أَن قد عملت حيلُه ، وكدحتْ كُتُبه ونفذت مكايده ، فهدأَت نافرة القلوب ووقعت طائرة الأَهواءِ واجْتَمع عليه المختلفون بالرضا فيميل نظراً لهم وَبَرًّا بهم وتعطفاً عليهم إلى عَدَوّ قد أَخاف سبيلهم وقطع طريقهم ومنع حُجَّاجُهم بيتَ الله الحرام ، وسلب تجارَهم رزْق الله الحلال . وَأَمَّا الآخر ، فإنه يُوَجه إليهم ، ثم تُعقد له الحجة عليهم بإعطاء ما يطلبون وبذل ما يسأَلون ، فإذا سَمعت الفرَق بقَرابَاتـها له وجنح أَهل النَّواحى بـأَعْناقهم نحوه ، فأَصغت إليه الأَفئدة واجتمعت له الكلمة وقدمت عليه الوُفودُ قصدَ الأَول ناحية بجعت بطاعتها وأَلقت بـأَزمَّتها ، فأَلبَسها جنَاحَ نعمته وَأَنزلها ظلّ كرَامته وَخصها بعظيم حَبائه ، ثـمَّ عمَّ الجماعة بالمعدلة وَتعطفَ عليهم بالرّحمة فلا تبقى فيهم ناحية ذاتية وَمالا فرْقة قاصية إلا دخلت عليها برَكَته وَوَصلتْ إليها منفعته فأَغْنى فقيرَها وَجبر كَسيرها وَرفع وَضيعها وَزاد رفيعها ، ما خلا ناحيتيْن : ناحية يَغلب عليها الشقاءُ وتستميلهم الأَهواءُ ، فتستخف بِدعوته ، وتُبطئُ عن إجابته وتتثاقل عن حقه ، فتكون آخر مَنْ يَبْعث وأَبطأَ مَنْ يوجه ، فيصطلى عليها مَوجدة ويبتغى لها علة ، لا يلبَث أَن يجدَّ بحق يلزمهم وأَمر يجب عليهم فتستلحمهم الجيوش وتـأْكلهم السيوف ويستحرُّ بهم القتل ويُحيط بهم الأَسر ويُفْنيهم التَّتبع حتى يُخَرِّب

البلاد ويُيتمَ الأَولاد . وناحيةٍ لايبسُط لهم أماناً ولا يقبلُ لهم عهداً ولا يجعل لهم ذمة لأَنهم أَولُ من فتح باب الفرْقة وتدرّع جلْباب الفتنة ورَبض فى شق العصا ولكنه يَقْتُل أَعلامهم ويأْسِر قوَّادهم ويطلب هُرّابهم فى لُجَج البوار وقُلل الجبال وحميل الأَوْدية وبطون الأَرض تقتيلاً وتنكيلاً حتى يدع الدِّيار خراباً والنساء أَيامى . وهذا أَمرٌ لا نعرف له فى كتبنا وقتاً ولا نصحِّح منه غير ما قلنا تفسيرا — وأَما (موسى ولىّ عهدى) فهذا أَوانُ توجُّهه إلى خراسان وحلوله بُجرْجان وما قضى الله له من الشُّخوص إليها والمقام فيها خيرٌ للمسلمين مغبة وله بإذن الله عاقبة بحيث يغمر لجج بحورنا ومدافع سيولنا ومجامع أَمواجنا فيتصاغر عظيم فضله ويتذاءب مشرق نوره ويتقلل كثير ما هو كائن منه ، فمن يصحبه من الوزراء ويختار له من الناس ؟

قال محمد بن الليث : أَيها المهدى — إن ولىّ عهدك أَصبح لأُمتك وأَهل ملتك عَلماً قد تثنتْ نحوه أَعناقها ومدت سَمْتَه أَبصارُها ، وقد كان لقُرْب داره منك ومحلِّ جواره لك عطل الحال غُفل الأَمر واسعُ العُذر ، فأَما إذا انفرد بنفسه وخلا بنظره وصار إلى تدبيره ، فإن من شأْن العامة أَن تتفقد مخارج رأْيه . وتستنصت لمواقع آثاره ، وتسأَل عن حوادِث أَحواله فى بره ومرحمته ومعدلته ، وتدبيره وسياسته ووزرائه وأَصحابه ، ثم يكون ما سبقَ إليهم أَغلب الأَشياء عليهم وأَملك الأُمور بهم وأَلزمها لقلوبهم وأَشدَّها استمالة لرأْيهم ، وعطفاً لأَهوائهمْ ، فلا يفتأْ المهدى وفقه الله ناظراً له فيما يُقوِّى عمدَ مملكته ، ويسدِّد أَركان ولايته ، ويستجمع رضاء أُمته بأَمر هو أَزْين لحاله ، وأَظهر لجماله ، وأَفضل مغبة لأَمره ، وأَجلّ موقعاً فى قلوب رعيته ، وأَحمد حالا فى نفوس أَهل ملَّته ، ولا أَدفع مع ذلك باستجماع الأَهواء له ، وأَبلغ فى استعطاف القلوب عليه من مرحمة تظهر من فعله ، ومعدلة تنتشر عن أَثره ، ومحبةٍ لِلخير وأَهله — وأَن يختار المهدى وفَّقه الله من خيار أَهل كل بلدة ، وفقهاء أَهل كلّ مصر ، أَقواماً

تسكن العامة إليهم إذا ذكرُوا ، وتأْنس الرّعية إذا وُصفوا ، ثم تسهل لهم عمارة سُبل الإِحسان ، وفتح باب المعروف ؛ كما قد كان فتح له وسُهِّل عليه .

قال المهدى : صدقت ونصحت ؛ ثم بعث فى طلب ابنه موسى ، فقال له :

أى بُنى – إنك قد أَصبحت لِسَمت وجوه العامة نُصْباً ، ولمثنى أعطاف الرَّعيَّة غايةً ، فحسنتك شاملة وإساءتك نائية ، وأَمرُك ظاهر ، فعليك بتقوى الله وطاعته فاحتمل سُخط الناس فيهما ، ولا تطلب رضاهم بخلافهما ، فإِن الله عزوجل كافيك من أَسخطه عليك إِيثارُك رضاه ، وليس بكافيك من يُسْخطه عليك إِيثارُك رضا من سواه – ثم اعلم أَن لله تعالى فى كل زمان فترة من رسله ، وبقايا من صفوة خلقه وخبايا لنصرة حقه يجدِّد حبل الإِسلام بدعواهم ويشيِّد أَركان الدين بنُصرتهم ويتخذ لأَولياء دينه أَنصاراً ، وعلى إقامة عدله أَعواناً ، يَسُدون الخلل ويُقيمون المَيْل ، ويدفعون عن الأَرض الفساد ، وإِن أَهل خراسان أَصبحوا أَيدى دولتنا ، وسيوف دعوتنا ، الذين نستدفع المكاره بطاعتهم ، ونستصرف نزول العظائم بمناصحتهم ، ونداقع ريب الزمان بعزائمهم ، ونزَاحم ركن الدهر ببصائرهم فهم عماد الأَرض إذا أَرجف كنفُها وخوْف الأَعداء إذا برزت صفحتها ، وحصون الرعية إذا تضايقت الحال بها ، قد مضت لهم وقائع صادقات ، ومواطن صالحات أَخمدت نيران الفتن ، وقسمت داعى البدَع ، وأَذلَّت رِقاب الجبَّارين ، ولم ينفكوا كذلك ما جَرَوا مع ريح دولتنا ، وأَقامُوا فى ظلِّ دعوتنا ، واعتصموا بحبل طاعتنا التى أَعز الله بها ذاتهم ورفع بها ضِمَتهم ، وجعلهم بها أَرباباً فى أَقطار الأَرض ومُلوكا على رقاب العالمين ، بعد لباس الذُّل وقِنَاع الخوف ، وإِطباق البلاءِ ومُحالفة الأَسَى وجهد البأْس والضر فظاهر عليهم لِبَاس كرامتك ، وأَنزِلْهم فى حدائق نعمتك ثم اعرف لهم حق طاعتهم ، ووسيلة دوالَّتهم وماتة سابقتهم ، وحرمة مُناصحتهم بالإِحسان إِليهم والتوسعة عليهم ، والإِثابة لمحسنهم والإِقالة لمسيئهم .

أى بُنَىَّ ، ثم عليك العامَّة فاستدع رضاها بالعَدْل عليها ، واستجلِبْ مودَّتها بالانصاف لها ، وتحسن بذلك لربك ، وَتَوثق به فى عين رعيتك ، واجعل عُمَّال العذر ووُلَاة الْحُجج مُقدمة بين يدى عملك وَنَصْفَةً منك لرَعِيَّتك ، وذلك أن تأمر قَاضِىَ كل بلد ، وخيار أهل كل مصر أن يختارُوا لأنفسهم رجلا تُوَلِّيه أمرهم وتجعل العدل حاكماً بينه وبينهم فإن أَحسنَ حُمِدْتَ ، وإن أَسَاءَ عُذِرْتَ ، هؤلاءِ عُمَّال العُذْر ووُلَاة الْحُجج ، فلا يسقطنَّ عليك ما فى ذلك ، إذا انتشر فى الآفاق وسبق إلى الأَسماع من انعقاد أَلسنة المُرْجفين وَكَبْتِ قلوب الحاسدين وإطْفاء نيران الحروب ، وسلامة عواقب الأمور ، ولا ينفكنَّ فى ظل كَرَامتك نازلاً ، وَبِعُرَا حَبْلِكَ متعلقاً رَجُلَان : أحدهما كريمة من كَرَائم رجالات العرب وأعلام بُيُوتات الشَّرَف ، له أَدب فاضل وَحُلم راجح وَدِين صحيح والآخر له دِين غيرُ مَغْمُوز ، وموضع غير مدخول ، بصيرٌ بتَقليب الكلام ، وتصريف الرأى ، وأنحاء العرب ووَضْع الكتب ، عالم بحالات الحروب ، وتصاريف الْخُطوب ، يضع آداباً نافعة وآثاراً باقية من مَحَاسنك وتحسين أمرك وتحلية ذِكْرك فَتَسْتَشِيرُهُ فى حَرْبك وتدخله فى أمرك ، فرجُلٌ أصبته كذلك فهو يأْوى إلى محلَّتى وَيَرْعَى فِي خُضرة جِنَانى ، ولا تدع أن يختار لك من فقهاءِ البُلْدَان وخيار الأَمصار أقواماً يكونون جيرانك وَسُمَّارك ، وأَهل مُشَاورتِكَ فيما تُورِد ، وأَصحاب مُناظرتك فيما تُصْدر ، فَسِرْ على بركة الله ، أَصْحَبَكَ الله من عَوْنه وتوفيقه دليلاً يهدى إلى الصواب قلبَك ، وهادياً يُنْطِق بالخير لِسَانَك .

وفود بكارة الهلالية على معاوية

استأْذنت بَكَّارَة الهلالية على معاوية بن أَبى سفيان فَأَذِنَ لها ، وهوَ يومئذ بالمدينة فدخلت عليه ، وكانت امرأة قد أَسَنَّت وعشِىَ بصرُها وَضَعُفَت قوتها ، ترْعَشُ بين خادمين لها ؛ فَسَلَّمت وجلست ، فَرَدَّ عليها مُعَاوية السلام ، وقال :

كيف أَنْتِ يا خالةُ ؟ فقالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : غَيَّرَكِ الدهر ، قالت : كذلك هو ذو غِيَرٍ ، من عاش كبرَ ، ومن مات قُبِرَ ، فقال عمرو بن العاص : هى والله القائلة يا أمير المؤمنين :

يا زيدُ دونك فاحتفر من دارنا سيفاً حُسَاماً فى التراب دفينا
قد كُنْتُ أَذْخُرُه ليوم كريهة فاليوم أبرزه الزمان مصونا

وقال مروان : وهى والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابن هِنْدٍ للخلافة مالكا هيهات ذاك وإن أراد بعيدُ
مَنَّتك نفسك فى الخلاءِ ضلالَةً أَغْرَاك عمرو للشقَا وسعيدُ

وقال سعيد بن العاص : هى والله القائلة :

قد كُنت أَطمع أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أُمَيَّة خاطبا
فالله أَخَّرَ مُدَّتِى فتطاولت حتى رأيتُ مِنَ الزَّمان عجائبا
فى كلِّ يوم لا يزال خطيبُهم بَيْنَ الجميع لآل أحمد عائبا

ثم سكتوا ، فقالت : يا معاوية ، كلامهم أعشى بصرى ، وَقَصَّرَ حُجَّتِى ، أنا والله قائلة ما قالوا ، وما خفى عليك مِنِّى أكثر ، فضحك معاوية وقال : ليس يَمْنَعُنَا ذلك من بِرِّك ، اذْكُرِى حاجتك ، قالت : أما الآن فلا .

مناظرة السيف والقلم

لزين الدين عمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ

لمَّا كان السيفُ والقلَمُ عُدَّتى العمل وَالقَوْل ، وَعُمْدتى الدُّوَل ، فإن عدِمَتهما دولةٌ فلا حَوْل ، وَرُكْنَىْ إسناد الْمُلْك المعربيْن عن المخفوض والمرفوع ، وَمُقَدِّمَتى نتيجة الجدل الصادر عنهما المحمولُ والموضوع فكَّرْتُ أيهما أعظم فخراً وأعلى قدراً فجلستُ لهما مجلِس الحكْم والفتوى ، ومثلتُهما فى الفكر حَاضِرَيْنِ للدعوى وسويتُ بين الخصمين فى الإكْرَام ، واستنطقتُ لسان حالِهمَا للكلام . فقال

القلم : بسم الله مجريها ومُرْساها ، والنهار إذا جَلَّاهَا والليل إذا يغشاها ، أما بعد حمد الله خالق القلم ، ومشرفه بالقسَم ، وجاعله أول ماخلق ، جَمّل الورق بغصنه كماجَمّل الغصن الورق ، والصلاة على القائل : جفت الأَقلامُ ، فإن للقلم قصَبَ السباق ، والكاتِبُ بسبعة أقلام من طبقات الكتاب فى السبع الطباق ، جَرَى بالقضاءِ والقدر ، ونَابَ عن اللِّسان فيما نهى وأَمَرَ ، وطالما أربى عَلى البيض والسُّمْر فى ضرابها وطعانها ، وقاتل فى البعد والصوارم فى القُرْبِ ملء أجفانها ، وماذا يُشْبِه القلم فى طاعة ناسه ؟ ومشيه لهم على أُمِّ راسه ؟ قال السيف : بسم الله الخافض الرافع ، وأَنزلْنَا الحديد فيه بأْس شديد ومنافع ، أما بعد حمد الله الذى أنزل آية السيف فعظم بها حرمه الْجَرْح وآمن خيفَةَ الخيف ، والصلاةعلى الذى نفذ بالسيف سطور الطروس ، وخدمته الأَقلام ماشية على الرءُوس ، وعلى آله وصحبه الذين أُرْهِفَتْ سيوفهم ، وبنيت بها على كسر الأَعداءِ حروفهم ، فإن السيف عظيم الدولة شديد الصَّوْلة ، محا أَسطار البلاغة ، وأَساغ ممنوع الإِساغة ، من اعتمد على غيره فى قهر الأَعداءِ تعب ، وكيف لا وفى حَدِّه الْحَدُّ بين الجدِّ واللعِبِ ؟! فإن كان القلمُ شاهدًا ، فالسيف قاض ، وإن اقتربت مجادلته بأَمر مستقبل قطعَهُ السيف بفعل ماض ، به ظهرَ الدينُ ، وهو العُدّة لقمع المعتدين ، حَمَلَتْه دون القلم يد نبيِّنَا ، فَشَرُف بذلك فى الأُمم شرفاً بينًا ، الجنة تحت ظلاله ، ولاسيما حين يُسَلّ فترى وَدْقَ الدم يخرج من خلاله ، زينت بزينة الكواكب سماه غمده ، وصدَقَ من قال « السيف أَصْدَقُ إنْبَاءً من ضده » لايعبث به الحاملُ ، ولا يتناوله كالقلم بأَطراف الأَنامل ، ما هو كالقلم المُشَبَّه بقوم عُرُّوا عن لبوسهم ، ثم نكسوا كما قيل على رُءُوسهم ، فكأَن السيف خُلِق من ماءٍ دافق ، أَو كوكب راشق مقدرًا فى السرْد ، فهو الجوهر الفَرْد ، لا يشترى كالقلم بثمن بخس ، ولا يبلى كما يبلى القلم بسواد وطمس ، كم لقائمه المنتظر ، من أثر فى عين أَو عين فى أَثر ، فهو فى جراب القوم قوامُ الحرب ، ولهذا جاءَ مطبوع الشكل داخل الضرب ، قال

القلم : أَوَمَنْ يُنْشَأُ فى الحلية وهو فى الخصام غير مُبِين ، يُفاخرُ وهو القائمُ عن الشمال ، وأنا الجالس على اليمين ؟ ! أنا المخصوص بالرأى وأنت المخصوص بالصَّدَى ، أنا آلة الحياة وأنت آلة الردى ، ما لِنْتَ إلا لبعد دخول السعير ، وما حُدِّدت إلا عن ذنب كبير ، أنت تنفع فى العمر ساعة ، وأنا أفنى العُمْرَ فى الطاعة ، أنت للرَّهَب ، وأنا للرغب ؛ وإذا كان بَصَرُك حديدًا فبصرى ماءُ ذهب ، أين تقليدُكَ من اجتهادى ، وأين نجاسة دمك من تطهير مدادى ؟

قال السيف : أَمثلك يُعَيِّرُ مثلى بالدماءِ ؟ ! فطالما أمرتُ بعض فراخي — وهى السكين — فأصبحت من النفَّاثات فى العقد يامسكين ، فأخلت من الحياة جُثمانك ، وشقّت أنفك وقطعت لسانك .

ويلك ! إن كنت للديوان فحاسِبٌ مهموم ، أو للانشاءِ فخادمٌ لمخدوم ، أو للتبليغ فساحر مذموم ، أو للفقيه فناقص فى المعلوم ، أو للشاعر فسائل محروم ، أو للشاهد فخائف مسموم ، أو للمعلم فللحىّ القيُّوم . أما أنا فلى الوجه الأَزهر والحلية والجوهر والهيبةُ إذ أُشْهَر ، والصعود على المنبر . ثم إنى مملوك كمالك ، فاتك كناسك ، أسلك الطريق ، وأقطع العلائق .

قال القلم : أما أنا فابن ماء السماءِ ، وأليف الغدير وحليف الهواء ، أما أنت فابن النار والدخان وناثرُ الأَعمار وخَوَّان الإخوان تفصلُ ما لايفصلُ وتقطعُ ما أمر الله به أن يُوصَل ، لاجرم أن صَعَّرَ السيف خده وصقل قفاه ، وسُقِى ماء حميا فَقَطَّعَ مِعَاه ، ياغُرَاب البين ، وياعُدَّة الحيْنِ ، ويا مُعْتَلّ العين ، ويا ذا الوجهين ، كم أفنيت وأعدمت ؟ وأرملْتَ وأيْتَمْتُ ؟

قال السيف : يا ابن الطين ! أَلست ضامرًا وأنت بطين !؟ كم جَرَيت بعكس وتصرفت فى مكس ، وَزَوَّرْت وحرفت ، ونكرت وعرفت ، وسَطَّرت هجواً وشتما ، وخلدت عارًا وذمًّا ، أَبشر بفرط رَوْعتك ، وشدة خيفتك ، إذاقِسْتَ بَيَاض صحيفتى بسواد صحيفتك ، فألِنْ خطابك فأَنت قصير المدة ، وأَحسن

جوابك فعندى حده ، وأقلل من غلاظتك ، وجبهك ، واشتغل عن دم فى وجهى بقَيح فى وجهك ، وإلا فأدنى ضربةٍ منى تروم أرومتك ، فتستأْصلكَ وتجتثُّ جرثومتَك ، فسقيًا لمن غاب لك عن غابك ، ورعيًا لمن لو أهاب بك لسلخ إهابك .

فلما رأى القلم السيفَ قد احتد ، ألان له من خطابهِ ما اشتد ، وقال : أما الأَدب فيؤخذ عنِّى ، وأما اللطف فيكتسب منِّى ، فإن لِنْتَ لنتُ ، وإن أحسنت أَحسنت ، نحن أهل السمع والطاعة ، ولهذا نجمع فى الدواةِ الواحدةِ منا جماعة ، وأما أنتم فأَهل الحِدة والخلافِ ، ولهذا لايجمعون بين سيفين فى غلاف . قال السيف : أمكرًا ودعوى عفةٍ ؟ لأَمر ماجدع قصير أنفه ! لو كنت كما زعمت ذا أدب . لما قابلت رأس الكاتب بعقدة الذنب ، أنا ذو الصِّيت والصوت ، وغِرارى لسان مشرَفى يرتجل غرائب الموت ، أنا مِن مارجٍ من نار ، والقلم من صلصالٍ كالفخار ، وإذا زعم القلم أنه مثلى ، أمرت من يدق رأسه بنعلى . قال القلم : صَهْ فصاحب السيف بلاسعادة ، كأعزل . قال السيفُ : مهْ فقلم البليغ بغير حظ مغزل ، قال القلم : أنا أزكى وأطهر ، قال السيف : أنا أبهى وأبهر ؛ فتلا ذو القلم لقلمه إنَّا أَعْطيناكَ الكوْثَرَ ، وتَلَا صاحب السيف لسيفه : فصلِّ لربِّكَ وانْحَرْ . فتلا ذو القلم لقلمه : إن شانِئَكَ هُوَ الأَبتر ، قال : أما وكتابى المسطور ، وبيتى المعمور ، والتوراة والإنجيل ، والقرآن ذى التبجيل ، إن لم تكف عنِّى غرْبك ، وتُبعد منى قُرْبك ، لأَكْتبنك من الصُّم البُكم ، ولأُسطرنْ عليك بِقلمى سجلاً بهذا الحكم . قال السيف : أما ومَتْنى المتين ، وفتحى الْمُبين ، ولسانىّ الرطبين ، ووجهى الصلبين ، إنْ لم تغب عن بياضى بسوادك ، لأَمسَنّ وجهك بمدادك ، ولقد كسبت من الأُسد فى الغابة ، توقيع العين والصلابة ، مع أنى ما أَلوتُكَ نصحاً أنضرب عنكم الذكر صفحاً ؟ قال القلم : سَلَم إن كنت أَعلى فأنا أَعلم ، وإن كنت أَحلى فأَنا أَحلم ، وإن كنت أَقوى فأنا أَقوم ، أَو كنت أَلوى فأَنا أَلوم ،

أَوكنت أَطرى فأَنا أَطربُ ، أَوكنت أَغلى فأَنا أَغلب ، أَوكنت أَعتى فأَنا أَعتبُ ، أَوكنت أَقضى فأَنا أَقضب . قال السَّيف : كيف لا أَفْضُلك ، والمقرُّ الفلانىُّ شادٌّ أَزرى . قال القلم : كيف لاأَفضلك وهو (عزَّ نصرهُ) ولى أَمرى ؟ !

قال الحكمُ بين السيف والقلم : فلما رأَيتُ الحجَّتيْن ناهضتين ، والبيِّنتيْن بينتيْن مُتعارضتين ، وعلمتُ أَنَّ لكلٍّ واحدٍ منهما نسْبةً صحيحة ، إلى هذا المقرّ الكريم ، ورواية مُسْندةً عن حديثه القديم ، لطفتُ الوسيلة ، ودقَّقت الحيلة حتى رددْتُ القلم إلى كنَّه ، وأَغمدتُ السَّيف فنام ملءَ جفنه ، وأَخرْت بينهما الترجيح ، وسكت عمّا هو عندى الصَّحيح ، إلى أَن يحكَم المقرُّ بينهما بعلمه ، ويسكِّن سورة غضبهما الوافر ولجاجهما المديد ببسط حلمه .

مناظرة للآمدى بين صاحب أبى تمام ـ وصاحب البحترى

صاحب أَبى تمام : كيف يجوز لقائل أَن يقول : إن البُحترى أَشعرُ من أَبى تمام ، ومن أَبى تمام أَخذ ، وعلى حذْوه احتذى ، ومن معانيه استقى ! حتى قيل الطائى الأَكبر ، والطائى الأَصغر !

صاحب البحترى : أَما الصحبة له فما صحبه ولا تتلمذ له ، ولا روى ذلك أَحد عنه ولا نقله ، ولا رأَى قط أَنه محتاج إليه ، ودليل ذلك الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند (أَبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى) وقد دخل عليه البحترى بقصيدته التى أَولها * أَفاقَ صبٌّ من هوَى فأُفيقا * وأَبو تمّام حاضر فلما أَنشدها علق أَبو تمام منها أَبياتاً كثيرة ، فلما فرغ من الإنشاد أَقبل أَبو تمام على محمد بن يوسف فقال : أَيها الأَمير ، ما ظننت أَن أَحدًا يُقْدِم على أَن يسرق شعرى وينشده بحضرتى حتى اليوم . ثم اندفع ينشد ما حفظه ، حتى أَتى على أَبيات كثيرة من القصيدة . فبهت البحترى ، ورأَى أَبو تمام الإنكار فى وجه أَبى سعيد . فحينئذ قال له أَبو تمام : أَيها الأَمير والله ما الشعر إلا له ؛ وإنه أَحسن فيه

الإحسان كله ، وأقبل يقرظه ويصف معانيه ويذكر محاسنه ، ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى ضاعَف له الجائزة .

فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التي هي من عين شعره وفاخر كلامه قبل أن يعرف أن أبا تمام جديرٌ به أنْ يستغني عن أن يصحبه أو يتتلمذ له أو لغيره من الشعراء ، على أنني لا أُنكر أنه استعار بعض معاني أبي تمام ، لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البُحتري من شعره ، وليس ذلك بمقتضٍ أن يكون أبو تمام أُستاذ البحتري ، ولا بمانع أن يكون البحتري أشعر من أبي تمام . فهذا « كُثَيِّر » قد أخذ من « جميل » واستقى من معانيه ، فما رأينا أن أحدًا قال إن « جميلا » أشعرُ منهُ بل هو عند أهل العِلم بالشعر والرواية أشعر من جميل .

صاحب أبي تمام : إن البُحتري نفسه يعترف أن أبا تمام أشعرُ منه ، فقد سُئل عنه وعن أبي تمام فقال : إن جيِّده خيرٌ من جيدِي ، وجيدُ أبي تمام كثيرٌ .

صاحب البحتري : إن كان هذا الخبر صحيحاً فهو للبحتري لا عليه لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبي تمام كثير الاختلاف وشعره شديد الاستواء ، والمُسْتوي الشعر أولى بالتَّقدُمة من المختلف الشعر ، وقد اجتمعنا نحن وأنتم على أن أبا تمام يعلو علواً حسناً وينحط انحطاطاً قبيحاً ، وأن البحتري يعلو بتوسط ولا يسقط ، ومن لا يسقط ولا يُسِفُّ أفضلُ ممن يسقط ويسف .

صاحب أبي تمام : إن أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أولاً ، وإماما متبوعاً ، وشُهر له حتى قيل هذا مذهب أبي تمام وطريقة أبي تمام ، وسلكَ الناس نهجه ، واقتفوا أثره ، وهي فضيلة عرى عن مثلها البحتري .

صاحب البحتري : ليس الأمر على ماوصفت ، وليس أبو تمام صاحب هذا المذهب ، ولا بأَوّل فيه ولا سابق إليه ، بل سلك فيه سبيل مسلم بن الوليد

واحتذى حذْوَهُ ، وأفرط فى ذلك وأسرف ، حتى زال عن النَّهج المعروف ، والسنن المألوف .

بل إن مُسلماً غير مبتدع ، ولكنه رأى هذه الأَنواع التى وقع عليها اسمُ البديع متفرّقة فى أشعار المتقدمين فقصدها ، وأكْثر فى شعره منها ، ولكنه حرص على أن يضعها فى مواضعها ، ولم يَسْلم مع ذلك من الطعن عليه ، حتى قيل إنه أول من أفسد الشعر . فجاءَ أَبو تمام على أثره واستحسن مذهبه ، وأَحبَّ أَن يجعل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأَصناف فَسَلك طريقاً وعرًا واستكْرَه الأَلفاظ والمعانى استكراهاً ، ففسد شعره وذهبت طلاوته ونَشِف ماؤه . فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أَبى تمام لهذا المذهب وسبقه إليه ، وكلٌّ ما فى المسأَلة أنه استكثر منهُ وأَفرط . فكان إفراطه من أَعظم ذُنُوبه ، وأكبر عيوبه .

أَما البحترى فإنه فارق عمود الشعر ، وطريقته المعروفة على كثرة ما جاءَ فى شعره من الاستعارة والتجنيس والمُطابقة ، فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة اللفظ وصحة المعنى والبُعد عن التكلف والتَّعمل سبباً فى إجماع الناس على استحسان شعره واستجادته وتداوله ، ونَفَاقُ شعر الشاعر دليلٌ عَلَى علوٍّ مكانته ، واضطلاعه بما يلائم الأَذْوَاق ، ويُلامس القلوب ، من أَساليب الكلام ومناهجه .

صاحب أَبى تمام : إنما أَعْرَض عن شعر أَبى تمام مَنْ لم يفهمه لدِقَّة معانيه وقُصُور فهمه عنه ، أَما النُّقاد والعلماءُ فقد فهموه وعرفوا قدره ، وإذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضرُّه طعنُ من طعنَ بعدها عليه *

صاحب البُحترى : لا يستطيع أَحدٌ أَن يُنْكر منزلة ابن الأَعرابى ، وأَحمد بن يحيى الشيبانى ودُعبل الخزاعى من الشعر ، ومنزلتهم من العلم بكلام العرب . وقد علمتم مذهبهم فى أَبى تمام وازدرائهم بشعره ، حتى قال دُعبل : إن ثلثَ شعره محال(١)

(١) المحال : الفاسد .

وثُلثه مسروق وثلثه صالح ، وقال : ما جعل الله أبا تمام من الشعراء ، بل شعره بالْخُطب والكلام المنثور أشبه بالشعر . وقال ابن الأَعرابى فى شعر أَبى تمام : إنْ كان هذا شعرًا فكلام العرب باطلٌ . وهذا محمد بن يزيد الْمُبَرد يقول : ما علمناه دُوِّنَ له كبير شىء .

صاحب أَبى تمام : إن دُعبلاً كان يشنأ أبا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهورٌ فلا يقبل قول شاعر فى شاعر . وأما ابن الأَعرابى فكان شد يد التَّعَصُّب عليه لغرابة مذهبه ، ولأَنه كان يرد عليه من معانيه مالا يفهمه ولا يعلمه ، فكان إذا سُئل عن شىءٍ منها يأنف أن يقُول لا أدرى فيعدِل إلى الطعن عليه .

ولا مانع أَن يكون جميع من تذْكرونه على هذا القياس .

صاحب البُحترى : لا عَيبَ على ابن الأَعرابى فى طعنه على شاعر عدل فى شعره عن مذاهب العرب إلى الاستعارات البعيدة المُخرجة للكلام إلى الخطأ والإحاطة ، والعيبُ فى ذلك يلحق أَبا تمام إذ عدل عن المحجة إلى طريقة يجهلها ابن الأَعرابى وأَمثاله من المضطلعين بالسليقة العربية .

صاحب أَبى تمام : إن العلم فى شعر أَبى تمام ، أَظهرُ منه فى شعر البحترى والشاعر العالم ، أَفضل من الشاعر غير العالم .

صاحب البحترى : كان الخليل بن أَحمد عالماً شاعرًا ، وكان الأَصمعى شاعرًا عالمًا ، وكان الكسائى كذلك ، وكان خلف بن حبان الأَحمر أَشعر العلماء ، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان زمانهم من الشعراءِ غير العلماءِ ، والتَّجْويد فى الشعر ليست علته العلم ، والشائع المشهور أَن شعر العلماءِ دُون شعر الشعراءِ ، وقد كان أَبو تمام يعمل على أَن يدل فى شعره على علمه باللغة وكلام العرب . أَما البُحترى فلم يقصد هذا ولا اعْتَمَده ، ولا كان يعدّه فضيلة ولا يراه علماً ، بل كان يرى أَنه شاعر ، لا بُد له أَن يقرِّب شعره من فهم سامعه ، فلا يأتى بالغريب إلا أَن يتفق له فى اللفظة بعد اللفظة فى موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه ، عَلَى أَن هذا

العلم الذى تؤثرُون به أَبا تمام لم ينفعه ، فقد كان يلحن فى شعره لحناً يضيقُ العذر فيه ، ولا يجد المتأَوِّل له مخرجاً منه ، إلا بالحيلة والتحمُّل الشديد .

صاحب أَبى تمام : لسنا نُنكر أَن يكون صاحِبُنا قد وهم فى بعض شعره ، وعدَل عن الوجه الأَوضح فى كثير من معانيه ، وغير غريب عَلَى فكرٍ نتج من المحاسن ما نتج وولد من البدائع ما ولد ، أَن يلحقه الكلال فى الأَوقات ، والزلل فى الأَحيان ، بل من الواجب لمن أَحسن إحسانهُ أَن يُسَامح فى سهوه ، ويتجاوز له عن أَخطائه ، وما رأَينا أَحدًا من شعراءِ الجاهلية سلم من الطعن ، ولا من أَخذ الرواة عليه الغلط والعيب ، وكذلك ما أَخذته الرّواة عن المحدثين المتأَخرين من الغلط والخطأ ، واللحن أَشهرُ من أَن يحتاج إلى أَن نُبرهنَه أَو ندل عليه ، وما كان أَحد من أَولئك وهؤلاءِ مجهول الحق ولا مجحود الفضل ، بل عفا إحسانهم عَلَى إساءتهم وتجويدهم عن تقصيرهم .

صاحب البُحترى : أَما أَخذُ السهو والغلط عَلَى من أُخِذَ عليهم من المتقدمين والمتأَخرين فنى البيت الواحد والبيتين والثلاثة . أَما أَبو تمام فلا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من عِدَّة أَبيات ، يكون فيها مفسدًا أَو مُحيلاً أَو عادلاً عن السنن أَو مستعيرًا استعارةً قبيحةً ، أَو مخطئاً للمعنى بطاب الطباق والتجنيس، أَو مبهماً بسوءِ العبارة والتعقيد ، حتى لا يُفهم ولا يوجد له مخرج .

صاحب أَبى تمام : تُنكرُون على أَبى تمام من الفضل ما يعترف به البُحترى نفسه ، فقد رثاه بعد موته رثاء اعترف فيه له بالسبق وفضله على شعراءِ عصره .

صاحب البُحترى : لم لا يفعل البحترى ذلك ؟ ؟ وقد كان هو وأَبو تمام صديقين متحابين ، وأَخوين متصافيين ، يجمعهما الطلب والنسب والمكتسب ، فليس بمُنكر ولا غريب أَن يشهد أَحدهما لصاحبه بالفضل ، ويصفه بأَحسن ما فيهِ وينحله ماليس فيه ، على أَن الميت خاصة يُعطى فى تأْبينه من التقريظ والوصف وجميل الذكر أَضعاف ما كان يستحقه .

صاحب أبي تمام : كيفما كان الأمر لاتستطيعون أن تدفعوا ما أجمع عليه الرواة والعلماءُ ، أن جيِّدَ أبي تمام لايتعلق به جيِّد أمثاله ؛ وإذا كان جيده بهذه المكانة ، وكان من الممكن إغفال رديئه واطِّراحه كأنه لم يَقُلْهُ فلا يبقى ريب في أنه أشعر شعراء عصره ، والبحترى واحد منهم .

صاحب البحترى : إنما صار جيِّد أبي تمام موصوفاً ومذكوراً لِنُدْرَته ووقوعه في تضاعيف الردىء ، فيكون له رونق وماءٌ عند المقابلة بينه وبين ما يليه ، وجيد البحترى كجيد أبي تمام ، إلا أنه في جيد مثله أو متوسط ، فلا يفاجئ النفس منه ما يفاجئها من جيد صاحبه .

مناظرة بين الليل والنهار

لمحمد أفندى المبارك الجزائرى

لما أسفر النهار عن بياض الغُرَّة قابله الليل بسواد الطُّرَّة ثم صار الهزل جَدًّا ، واشتد النزاع بينهما جِدًّا ، فاستنجد كلٌّ منهما أميره ، وأفشى له سره وضميره ، وإذا بالليل حمل على النهار ، فصبغ حُمْرة وردته بِصُفْرة البهار ، وخطر يَجُرُّ ذيول تيهه وعجبه ، مُرَصِّعًا تيجان مفاخره بدرر شبهه ، ثم قال : « والليل إذا يَغْشَى » « إنَّ فى ذلك لعبرة لمن يَخْشَى » ففتح باب المناقشة فى هذا الفصل ، وعقد أسباب المنافسة بقوله الفصل « فإن الحرب أولها كلام » ثم تَنْجَلى عن قتيل ، أو أسير بكلام .

ولما بلغ الليل غايته بزغ الفَجْرُ ورفع رايته ، وقال إذ جال فى مُعْترك المنايا « أنا ابن جَلَا وطَلَّاع الثنايا » ، فتقدم فى ذلك المكان وجلى ، تالياً قوله تعالى « والنَّهَارِ إذا تجلَّى » ثم استوى على عرش السنا والسناء ، وأطلع شموس طلعته فى الأرض والسماء ، فأَعْرَبَ عن غوامض الرقائق والحقائق ، وأغرب فى نشر ما انطوى من الأسرار والدقائق ، وماانحدر من منبره حتى أيد دعوى خبره بشاهد

مخبره ، فانتدب إليه « الليل » ومال عليه كل الميل ، وقال : أحمد من جعلنى خلوة للأحباب ، وجلوة لعرائس العرفان ونفائس الآداب ، وخلقنى مثوى لراحة العباد ، ومأْوَى لخاصة النسَّاك والعبَّاد ، ولله درٌّ من قال فأجاد :

أيها الليل طُل بغير جُنَاح ليس للعين راحةٌ فى الصباح
كيف لا أبغض الصَّباح وفيه بانَ عنى نور الوُجُوه الصِّبَاح

أتردَّد على أرباب المجاهدة بفنون الغرائب ، وأتودَّدُ إلى أصحاب المشاهدة بعيون الرغائب ، تدور فى ساحتهم بدورُ الحسن والبهاء ، وتدارُ من راحتهم كووس الأُنس والهناء فتُحَيِّيهم نغمات السمر ، وتُحْيِيهم نسمات السحر ، فأحيان وَصْلِي بالتهانى مُقْمرة ، وأفنان فضلى بالأمانى مُثمرة ، وحسبى كرامةً أنى للناس خير لباس أقيهم بلطف الإيناس من كل باس ، وَمَنْ وَاصل الإدلاج وَهجَرَ طيب الكرى قيل له (عند الصَّبَاح يحمد القومُ السُّرَى) .

وَمَا الليلُ إلا للمُجدِّ مَطِيَّةٌ وَميدان سبق فاستبق تبلغ المُنى

ففتن بمعانى بيانه البديع ، وَتفنن فى أفانين التصريع وَالترصيع ثم أتم خطبته بالتماس المغفرة وَالعفو ، واستعاذ بالله من دَوَاهى الغفلة وَدَوَاعى اللهو . فوثب إليه (النهار) وَصال عليه صولة ملك قهار ، وصعد على منبره ثانياً ، وقد أضحى التيه لعطفه ثانياً ، فأثنى على من جلا ظلمة الحجاب ، وتجلى له باسمه النور وتوجّه بسورة من الكتاب وزانه بأبهى سراج وَهَّاج ، فأوضح بسناه السبيل والمنهاج ثم صاح : أيها الليل ، هَلَّا قصرت من إعجابك الذيل؟ ! ولئن دارت رحى الحرب واستعرت نار الطعن والضرب ، فَلَأَسْبِيَنّ مُخَدّرَاتك ، وهى عن الوجوه حاسِرَة ، وَأنت تتلو يومئذ « تلكَ إذًا كَرَّة خاسرة » . فما دعاك إلى حلبة المفاضلة ؟ وَما دهاك حتى عرضت بنفسك للمُنَاضلة ؟ ! وَهل دأبك إلا الخداع والمكر ؟ ! وترقب الفرصة وَأنت داخل الوكر ؟ ! أما حَضَّ القرآن

على التعوُّذ بربِّ الفلق وندب « مِنْ شرِّ ما خلقَ ومن شرِّ غاسِقٍ إذا وَقَبَ » فبربي يُسْتَعَاذ من شَرِّك ويستعان على صنوف صروف غدرك ، وهَبْ أَنك تجمع المحب بالحبيب ، إذا جار عليه الهوى وحار الطبيب ، فكم يُقاسى منك فى هاجرة ، ويئن أنين الثكلى حتى مطلع الفجر ؟ ! .

يبيتُ كما بات السليمُ مُسَهَّدًا وفى قلبه نارٌ يَشُبُّ لها وَقْدُ

فيُسَاهر النجوم ، ويُسَاور الوجوم ، وقد هاجت لَوَاعج غرامه ، وتحركت سواكن وجده وهُيَامه ؛ فأَنشد وزفيره يتصعد :

أَقضى نهارى بالحديث وبالمُنَى ويجمعنى والهمّ بالليل جامعُ
نهارى نهار الناس حتى إذا بدا لِيَ الليلُ هَزَّتنى إليك المضاجعُ

على أَن العاشقَ الوَله ، يشكو منك فى جميع أَحواله ، فكمْ قطع آناءك بمواصلة أَنينه متململاً من فرط شوقه وحنينه ، فلما أَن حُظِيَ بالوصال تمثل بقول من قال :

الليلُ إن وَاصَلَتْ كالليل إن هجرَتْ أَشكو من الطُّولِ ما أَشكو من القِصَر

ولئن افتخرت ببدرك الباهر الباهى ، فإنما تُبَارَى ببعض أَنوارى وتُبَاهى ، وهل للبدر عند إشراق الشمس من نور ؟ أَو لطلعة حسنه من خُدُور البطون ظهور ! ومن ادَّعى أَنك تساوينى فى الفضل والقدر ! أَو زعم أَن الشمس تقتبس من مشكاة البدر ! ومتى استمدت الأُصول من الفروع « وما أَغنى الشموس عن الشموع » فبى تَنْجَلِى محاسن المظاهر الكونية وتتحلى بجواهر الأَعراض اللونية ، أَوَ يخفى حسنى وجمالى على مشاهد ؟ أَو يفتقر فضلى وكمالى إلى شاهد ! وعِرْضِى عَار من العار ، وجميع الحسن من ضيائى مُسْتعار !

وليس يصحُّ فى الأَذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

أَما كفاك بيِّنَة ، وزادك ذكرى أَو تبصرة ، قوله تعالى : « فَمَحَوْنَا آية الليل وجعلنا آية النهار مُبْصِرة » و « هل يَسْتوِى الأَعمى والبصيرُ ،

أم تستوى الظلمات والنور» وأين منزل أهل الغفلة من منزل أهل اليقظة والحضور!
وإن كنت مغنى الأُنس والأَفراح ، تفعل بعقول الناس فعل الرَّاح ، فهل حسبت أن
السكوت خير من الحركة ، وقد أجمع العالم على أن الحركة بركة ، فإن لى بكل خطوة
حَظْوة وليس لجوادى كَبْوَة ، ولا لِصَارمى نَبْوَة ، وإن صَرَّحْتَ للذينَ يبيتُونَ
لِرَبِّهم سجدا وقياماً ، معرضاً بكل غافل لاه ، فى كل مجال رجال لاتلهيهم تجارةٌ
ولا بيع عن ذكر الله ، وأين من احتجب بظلماتٍ بعضها فوق بعض ، ممن أضحى
ينظر بعين الاعتبار فى ملكوت السموات والأَرض! وقد أتحفنى الله بالصلاة الوسطى
فأُوترُ بها صلواتى ، وشرع فيها الإسرار لأَسرار اختصت بها أَهل جلواتى ، وكفانى
شرفاً « شهْرُ رمضان الذى أُنزل فيه القرآن » ، فمآثرى مأْثورة فى القديم
والحديث ، ومفاخرى منثورة فى الكتاب والحديث ، ومحاسِنى واضحةٌ لأُولى
الأَبصار ، وهل تخفى الشمس فى رابعة النهار ! فاكفف عن الجدال وَأَمْسِك ،
ولا تجعل يومك مثل أمسك ، وسالم من ليس لك عليه قُدْرَة ، فقد قيل :
«ما هلكَ امروٌ عَرَفَ قَدْرَه » ، أقول قولى هذا وأستغفر الله من آفة العُجْب
والكبرياء . ولما انهار ركن النهار ، إبْهَارَّ (الليل) وتبرقع بالاكْفِهْرَار ، فسدَّ
ما بين الخافقين بسواده ، وطَفِقَ يَرْمى بسهام جَدَله فى جلاده ، وقدم بين
نجواه سورة القدر ، آية على ما حازه من كمال الرفعة والقدر ، وثنى
بقوله تعالى : « سبحانَ الذى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا » فأَشار إلى الحبيب حين
تجلت له قوة عينه ليلا ، ثم قال : « سُحْقًا لك أَيها النهار ، فقد أَسَّسْت
بنيانك على شفا جُرُف هَارٍ ، ومنى كان انسلاخُكَ وظهورك ، وتفاضلنى
وبى أُرِّخَت أعوامك وَشهورك ـ ألم يأْن لك أن تخشع للذكر(١) ! فتعترف
برتبة التقديم فى الذكر(٢) ، وكيف تُعَيِّرُنى بلون السَّواد ! وهل يقبح السواد

---

(١) الذكر : القرآن . (٢) الذكر هنا : الشرف .

إلا فى الفواد؟! أوكيف تعيبُنى بالخداع (وَالحَرْبُ خُدْعة) وليس الشىءُ فى موطنه بغريب ولا بِدْعة؟! أما تشهد العوالم من هَيْبَتِى حَيارى ؟ «وترى الناس سكارى وماهم بِسُكَارى» فكم أرّقتُ(١) ملوكاً أكاسرةً؟ وأرَقت(٢) دماءَ أُسُودٍ كَاسرة، وكم أَوْرَيتُ نار الوغى تحت العجاج؟ وقد ازْوَرَّت اللحاظ واغْبَرَّت الفجاج، فأنا البطل الذى لا يُصْطلى بناره، ولا يأْخذ منه الموتُور بثاره، وَافْتِخَارُكَ على بالصلاة الوسطى، ليس إنصافاً منك ولا قسطاً، وهب أنك انفردت بتلك الصلاة الجليلة، فأين أنت مما أُوتيتُهُ من الصلات الجزيلة، أما كان افتراض الصلاة فى ليلة العروج؟! فما بالُكَ تدعى الارتقاء إلى هذه البُرُوج؟!

وما أعجَبَتْنى قَطُّ دعوى عريضة ولو قام فى تصديقها ألف شاهد

وأمّا افتخارُكَ عَلَىَّ بفضل شهر رمضان، وما نزل فيه من السبع المثانى والقرآن، فهل صحّ لك صيامه إلا بى بَدْءًا وختاماً؟! وقد تميّزْتُ عليك بفضيلة إحيائه تَهَجُّدًا وقياماً، على أنى محل النيّة «ونية المرء خير من عمله» لأنها بمثابة الروح له، وبها يحظى الراجى ببلوغ أمله، هذا: وإنى أتكَفَّل للصائم بمديد الراحة ووافر الأَجر حتى يتبيّن له الخيط الأَبيض من الأَسود من الفجر، وكيف تفتخر بالكتاب المنزه فى مزاياه عن المشاركة؟ والله تعالى يقول فيه: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ» وهل فى مطالع سعودك أشرقت بدور العيدين؟! أم على جناح جُنْحك أُسْرِى بنور طلعة الكونين؟! عُرِجَ به عليه الصلاة والسلام إلى منزلة قاب قوسين، وهل فى تجليات أسحارك يقول الرب: هل من سائل؟ فيُنَاجيه العبد متضرعاً إليه بقلب خاشع ودمع سائل.

ومما اختصصت به من الفضائل والمفاخر، أنه فى دولتى وُلد سيد الأَوائل والأَواخر، ونَاهيك بليالى شهر الله رجب، وكيف لا وفى طالعها السعيد حملت آمنة بسيّد العَجم والعرب.

---

(١) أرقت: أسهرت.
(٢) أرقت: أسلت.

فطلع (النهار) طلوع الأَسد من غابه ، وكسر جُيوش الدجى حين كَشَّرَ عن نابه ، وَشَمَّر للحرب العَوَان غيرَ نَاكِلٍ ولا وَانٍ ، ناشرًا فى الأُفق رايته البيضاء ، وأَسِنَّتُه لامعة بين الخضراءِ والغبراءِ ، وقال : والذى كسانى حُلل الملاحة ، وأَطلق لسانى بالبلاغة والفصاحة ، لأَمحونَّ سطور الدجى من طُرُوس الوجود ، ولأُثبتن حسن أَحوالى فى مقامات أَهل الشهود : فإِنى معروف بالوفاءِ وصدق الخبر ، موصوف بالصفاء الذى لايشوب صفوه كَدَر ، كيف يُبَاهينى (الليل) بمكارم الأَخلاق ، ومحاسن الشِّيم ، وأَنا أَتحدث بنعم الله وهو موسوم بكُفْرَان النِّعَم ؟ أَلست مظهرَ الهداية والدلالة ، وهو مظهر الغَوَاية والضلالة ؟ ! فكم أَرشدت مَنْ أَضله ، وأَعززت من أَهانه وأَذله ، وكم أَظهرت منه عيبًا كان غيبًا ، فابيضت عينُه حُزْناً «واشتعل الرأْس شيبًا» :

ومن جَهِلَتْ نفسه قدره رأَى غيره منه مالا يرى

وكيف يزعم هذا العبد الآبق أَنه لسَيِّده فى حَلبة الشرف سابق ، وقد قال الواحد القهار : «ولا اللَّيلُ سابقُ النَّهارِ» إن هو وأَيم الله كافر ، وبشموس أَنوار الشهادة غير ظافر ، لوكان من السُّعداءِ لفاز بدار النعيم ، ولولا شقاوه لما شابه سواد طبقات الجحيم ، وماذا يُؤمِّله من الجزاءِ ويرجوه «يَوْم تَبْيَضُّ وُجُوه» أَما درى أَن صحيفته سوداءُ مظلمة ، وصحيفتى تفصح عن نفْسٍ مؤْمنة بالله مسلمة ! وأَنى يرقى كتابه إلى علِّيين ، وهو من ظلمات الحجاب فى سِجِّين ! .

ثم أَقبل عليه ، وأَنشد مشيرًا إليه :

يا مُشبهًا فى فِعْلِهِ لَوْنَه لم تَعْدُ ما أَوجبت القِسْمَه
خُلُقك من خلقك مستخرجٌ والظلم مُشْتَق من الظلمه

وقال : كيف تدعى فوق حالك ، وأَى فضل لمن منظره أَسود حَالِك !

أَما علمت أَن الظاهر للباطن عنوان ، كما أَن اللسان عن الجنان ترجمان ، قال أَفضل الخلق عليه الصلاة والسلام : «ابتغوا الخير عند حِسان الوجوه» وقال الشاعر :

لا تسأل المرءَ عن خلائقه في وجهه شاهدٌ من الخبر

فأنا مِفْتاح خزائن الأَرزاق ، وبى يستفتح باب الكريم الرزاق ، وكفانى دليلاً على الفضل والكمال « إن الله تعالى جميل يُحب الجمال » لقد سمعتُ أقاويلك التى قدمتها بين يديك ، وزعمتَ أنها حُجَّة عليك(١) ، ولا جَرَمَ أن لسان الجاهل مفتاح حَتْفه ، وكم من باغ قُتل بصارم بغيه وحَيفه . أما انسلاخى منك فمن أمْلَح الملح لى والغُرَر ، وهل يحق لأَصناف الأَصداف أن تُنَافس نفائس الدُّرَر ؟ أليست « تَلِدُ الأَمَة ربتها حُرَّة نجيبة » وقد قالوا : « إن الليالى حَبَالى يَلِدْن كل عجيبة » ، وأَما تَقَدُّمك عَلىَّ فمن العادة تقدم الخدم بين يدى السادة :

أَو ما يُرى أَن النبىَّ محمدًا فَاقَ البَرِيّة وهو آخر مُرْسَل

على أنه « أَولُ ما خلق الله النُّورَ » كما ورد عن جابر فى الخبر المأْثور .

وأَما تحلّى صفوتك بتجلِّى الحق تعالى فى السَّحَر ، فليس إلا لمن أحيا أَحيانك بالمجاهدة والسهر ، وأَما زَهْوُك بقصة ظهور سيد ولد آدم الذى هو نتيجة مُقَدمات الكون وَزُبدة العالَم ، فهل وقع اتفاق الرواة على ذلك ؟ وَأَنَّى لك هذا ، وَصُبْح طاعته تمحو سوادك الحالك ، وأَما خبَرُ الإسراءِ فعنّى رَوَته الأُمّة(٢) ثم بلَّغه الشاهد للغائب بعد أُمة(٣) ؛ فما لاحت أَسراره إلا بمطالعى ، ولا راحت أَستاره إلا بطوالعى ، وما أَشَرْتُ إليه من بقية معانيك التى أَضاءَت بها فى الخافقين نجومُ معاليك ، فأَين أَنت من يوم عَرَفَة ، الذى عرفه بأَبهى الخصائص مَنْ عرفه ، وأَين أَنت من يوم عاشوراء ، الذى يَعظم فيه الشكر والصبر على السراءِ والضراءِ ! وناهيك بسُمُوّ شأْن العيدين ، فما أَجلَّهما من موسمين سعيدين ، وكيف تُفَاخرنى بساعة تبدو منك مرة فى كل عام ، ولى كل أَسبوع أَمدٌ تمتد فيه موائد الْجُود والإنعام

(١) هكذا بالاصل والاصح أن يقال : « وزعمت أنها حجة لك مع أنها حجة عليك » .

(٢) الأمة : أهل الدين (٣) الأمة:الحين من الدهر ، أى مدة ، أو وقت.

فأَخبارُ أَخبارى سارت بها الركْبَان ، وماسَت بنسيم رِقّتها معاطف البيان ، وقدرى فوق ماتصفه الأَلْسُن ، وعندى « ما تشتهيه الأَنْفُس وتلذ الأَعْيُنِ » فدع عنك قول الزُّور وَالْمَيْنِ « فقد بين الصبح لذى عينين » .

ولمَّا أَفاض (النهار) فى حديث يفضح الأَزهار ، أَبدع فى كنايته وتلويحه وأَغْرَب فى تعريضه وتصريحه . ابتدر إليه (الليل) وأَجلب عليه بالرَّجل والخيل وامتطى جواده الأَدهم ، واعتمّ بعمامة سوداء وتلثّم ، فأَنسى بفتكاته عنترة بنى عبس ، حين أَمسى يتوعّد عمارة بالقتل والرّمس ، ثم نشر فى الأُفق ذوائبه السود ، وعبس وبَسر فأَسَر بسطوته الأَسود ، وقال : « فلا أُقسمُ بالشفق ، والليل وما وَسَق ، والقَمَرِ إذا اتَّسَق » لأَسبينَّ رُوميّ النهار ، ولأَجعلنه عبرة لذوِى الاعتبار ؛ فلقد تَزَيَّى المملوكُ بِزِيِّ الملوك ، وَادَّعى مقام الوصول إلى صاحب السير والسلوك ، أَما كفاه ازدرائى وتحقيرى ؟ ! حتى حكم بتضليلى وتكفيرى ! كم أَسبَلت عَلَى عَوْرَاته ذيلَ سترى ، وهو لا يُبَالى بهتك أَستارى ؟ وكم أَوْدَعتُ مكنون سرّه فى خزانة سرّى ، وهو يبوح بمصون أَسرارى ! أُفٍّ له من فاضح ، أَما يكفيه ما فيه من المفاضح ؟ !

أَنَمّ بما اسْتَوْدَعْتُهُ من زجاجةٍ يُرى الشيء فيها ظاهرًا وهو باطن

كيف احتج لتقدمه بحديث جابر ، مع أَن ماوراه لِكَسْرى أَعظمُ جابر ، فإنه برهنَ على تقدمى عليه لو أَدرك سر ما أَومأَ إليه ، وعلَام جعل السوادَ على النقص علامة ، وهو مُشتقٌّ من السُّوْدَد لدى كل علّامة ؟ أَما درى أَنى حُزْتُ من الكمال الحظ الأَوْفَر ، حتى تحلى ببديع وصفى العنبرُ والمسكُ الأَذفر !

إن كُنتُ عبدًا فنفسى حُرَّة كرماً أَو أَسْوَدُ الْخَلق إنى أَبيض الْخُلق

وهل يُزرى بالخال سواده البارع ، أَو يُغْرِى بالبرص بياضه الناصع ، وفى بياض المشيب عِبْرَة وأَى عبْرَة ، فكم أَجرى من الآماق أَعظم عَبْرَة .

له منظر فى العين أبيضُ ناصع ولكنه فى القلب أسود أسفَعُ

ومن عاب نعت الشباب ، وفضل وصف الشيب ، فقد غاب عن شهود العيب وعالم الغيب «فما كلُّ بيضاءَ شَحْمَة ولا كلُّ حمراءَ لحمة » ؛ ولمَّا أنهى مقاله ، وملّ مقامه شَمَّرَ للرحلة أذياله ، وقَوّض خيامه . فتهلل وجه الصباح ، وهلل بذكر فالق الإصباح وازدهاه السرور والابتهاج ، كأنه ربُّ السرير والتاج :

فكأَن الصبح لمَّا لاح من تحت الثُّرَيَّا
ملكٌ أَقبل فى التا ج يُفدَّى ويحيَّا

برز إلى المبارزة من بابها ، إذ كان فى فرسانها وأربابها ، فسلب (الليل) لباسه وأذاقه شدته وباسه ، وقال له : أيها المَعجبُ بنفسه ، المغرب فى نفشه صحيفة زوره بنقشه(١) « ما كل سَوْدَاءَ تمرة ، ولا كل صَهْباء خمرة » ألم تعلم أيُّنَا أبهى محيًا ، وشتان ما بين الثرى والثريّا ، أين سوادك من بياضى ؟ ! وما زهر نجمك إن تلألأَ من زهر رياضى ! وكم أطلعت بُدورًا فى مواكب السيارة ، فأضحت تزهو بجماله على الكواكب السيارة ، وهل لك مثل الغزالة ؟ التى انفردت فى الملاحة لامحالة ! فأنا الذى ضاء صباح الصبَّاحة من محياه ، وضاع عَبير العنبر من نشر أنفاسه وطيب رياه ، ولولاى ما عُرِف الحسن والجمال ، ولا سعى على وجه الأَرض بدر الكمال . فوجم (الليل) لبراعة تلك العبارة ، وبلاغ ما لاح له من الرمز والإشارة ثم وثب للمقال كأنما أنشط من عِقال ، وقال : « رُبَّ ملوم لاذنب له » ، ومظلوم خيب الدهر أمله ، فإلى متى يسوءُنى النهار ؟ وحتَّامَ يسومنى عذابَ النار ؟ طالما أعرتُهُ أذناً صماء ، وعيناً عمياءَ ، وهو لا ينثنى عن المقابلة ، ولا يرعوى عن المحاربة والمقاتلة . أما تعلم أيها المغتر ببياضك أن السواد حِلية أهل الزهد والصلاح ، وهل يسترقُّ الأَسود إلا سود أحداق

(١) النقش : ما يكتب به من مادة، يريد سواده .

المِلَاح ! بيد أَن الحر لا يُبَالى بالجمال الظاهر ، وإنما يُبَاهى بالفعل الجميل ، والقلب الطاهر ، فإن تفاوُت المراتب ، بحسب تفاوت المناقب .

وما الحسن فى وجه الفتى شرف له إذا لم يكن فى فعله والخلائق

وكم أَعددت للأُنس مقاعد ، وفى الأَمثال : «رُبَّ ساع لقاعد» فإن ظِلِّى ظليل ونسيمى عليل بليل ، تهدأ بى الأَنفاس وتسكُن الأَعضاء والحواس . فقام (النهار) يعثر بذيله ، وقد كفكَف وَاكِف سيله ، فما لبث أَن تنفَّس الصباح ، وأَظهر من سناه ما أَخفى ضوء المصباح ، ورفرف بجناحه الأَبيض على الدُّجى ، فاقتنصه من وكره بعد ما سكن وسَجَا :

فكأَن الصباح فى الأُفْق باز والدُّجَى بين مِخْلَبَيْهِ غُرَاب

وقال : تَبًّا لك أَيها (الليل) فلقد أُوتيت من المينِ أوفر نيل ، أَى حديث لك صحيح وَضعتَه ، وأَى حق لك صريح أَضَعْتَهُ ؟ !

عليك بالصدق ولو أنه أَحرقكَ الصدق بنار الوعيد

آبْغَ رضا الله فأَغبى الوَرَى من أَسخط المَوْلى وأَرضى العبيد

نعم لك فى السمر خبر مرفوع ، بيد أَنه مكروه فى السُّنة موضوع ، قد اشتهرت لكن بأَقبح الأَوصاف ، وعدلتَ لكن عن سبيل العدل والإنصاف ، تكتم عن المرءِ ما يُرْدِيه «وتخفى فى نفسك ما الله مُبْديه» وفى المثل : «الليل أخفى للويل» فما أَصعب مراسك قبل افترار سُهيل ، وهل يترنم بذكرك إلا غافل ؟ وأَنى يغتر بك عاقل ، ونجمك آفل ؟ وكيف تفتخر علىَّ ، وأَنت تفتقر إلىَّ ؟

ولما سلب النهار بأَساليب بَيَانه العقول ، وسكت الليل مَلِيًّا أَنشأَ يقول :

فعين الرِّضا عن كل عيب كليلةٌ كما أَن عين السُّخط تبدى المساويا

كيف أَتصَدّى للكذب ، وأَتردّى باللهو واللعب ! ! وأَنا المنعوت باللطف والظرف والموسوم بالصمت وغضّ الطرف ، كيف أورث الغرور ، وأُوثر الغفلة على الحضور ، وأَنا الداعى لذكر الله وحده ؛ والساعى فى رَدّ الكثرة الوهمية إلى عين

الوَحْدَة وأنا الموصوف بالسِّتْرِ الجميل ، والمعروف بشكر المعروف والجميل ، وهل أَحْجبُ البصر عن شهود عالم الكثافة ، إلا لأكشف لعين البصيرة عن عالم اللطافة ، وبذلك يتحقق العبد بفنائه عن وُجُوده ، فَيمده الرب تعالى بسر بقائه من خزائن جُودِهِ . ثم قال (النهار لليل) وقد هجم عليه هُجُوم السيل : أيها المدعى مقام الدعوة إلى الله ، وهو فى حال الغفلة عن مولاه لاه ، كيف تَسَنَّمْتَ ذَرْوَة هذا المِنْبر ؟ كأنك تكْتُبُ بالمِسْك وتختم بالعنبر ! لقد أطلت فيما « لا طائل تحته » ولا معنى ، فكم ذا « أَسْمَعُ جَعْجَعَةً ولا أرى طَحناً » فلو كنت ممن انتخب غُرر الشِّيم وانتقى ، لاتَّعظت بقوله تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتَّقى » . فتنبه من غفلتك أيها « الليل » قبل أن تدعو بالثُّبور والويل ، وإلا فَرَّقْتُ طلائع سَوَادِك أى تفريق ، ومزقت سوابغ ظلامِك أى تمزيق « فما كلُّ مَرَّة تَسْلَم الجَرَّة » . فاسودَّ وجه الليل ، وانقلب « بحَشف وسُوء كيل » وندم على مناضلة النهار ، نَدَامة الفرزدق حين فارق النَّوَّار(١) ولما سُقِط فى يَدِه ، ورُزِئ فى عدده وعُدَده ، تردى بالسواد ، ولبِسَ ثياب الحداد ، ثم لاح هلاله للعين ، كمِنْجَل صيغ من لُجين :

انْظُر إلى حُسْنِ هلالٍ بدا ... يَجْلو سنا طَلْعته الحنْدِسا
كمِنْجَل قد صيغ من فِضَّةٍ ... يَحْصُدُ من زهر الدجى نرجسا

---

(١) بنت مجاشع زوج الفرزدق طلقها فى مجلس عبد الملك بن مروان . وذلك أن الفرزدق قال فى المجلس — وفيه جرير — النوار طالق ثلاثا أن لم أقل بيتا لايستطيع جرير أن ينقضه أبدا فقال عبد الملك : ماهو ؟ فقال :

فانى انا الموت الذى هو واقع ... بنفسك فانظر كيف انت مزاوله

فقال جرير : أم حرزة طالق منى ثلاثا ان لم أكن نقضته وزدت عليه . فقال عبد الملك هات فأنشد :

أنا الدهر يفنى الموت والدهر خالد ... فجئتنى بمثل الدهر شيئا يطاوله

فقال عبد الملك : فضلك والله يا أبا فراس وطاق عليك .

وقال : من يُنْصفنى من هذا الجائر ؟ وينْصِتُ لى فأَبثه شكوى الواله الحائر ، فحتام أعانى حَدَّ الظبا ، وقد بَلَغ السيل الزُّبى .

وكنت كالْمُتمنى أَن يرى فلقاً ... من الصباح فلما أَن رآه عمى

فانتبه طرف (النهار) وازدهر سراحه أَى ازدهار ، وشرع يتلو سورة النور بكمال الابتهاج ، والشمس ترقمُ آية جماله بالذهب الوهاج .

وقابل الصُّبْح جُنْح الليل فارتَسَمَت ... سُطورُه البيضُ في أَلواحه السود

ثم قال : أَيها « الليل » البهيم « تالله إِنَّك لفى ضَلَالِك القديم » كيف تدعى أنك مظلوم ، وتشتكى من جورى وأَنت الظلوم ؛ وهب أَنى قاتَلْتُكَ ظلماً فأَنت البادى ، وهل قابلتك إلا بما واجهتنى به في المبادى ، وها أَنا بَرْهَنت على فضلى بشهود عُدول ، ليس للمنصف على تزكية شهادتهم عدول ، فاستقلْ من دعوى المجد والفخر ، « فقد حَصْحص الحق » ووضح الفجر ، وإن أَبيت سلوك محجتى ولم تتضح لك أَدلة حُجَّتى ، فهلم إلى « حضرة الأَمير » ولا ينبئك مثل خبير .

فأَنكر الليل زعمه التفرد بالفضل وادعاءه ، وأَجاب فى عرض أَمرهما على (الأَمير) دعاءه ، وقال : على الخبير ، سقطت ، وعند ابن بجدتها حططت .

وكتب أيضا فى مناظرة بين الارض والسماء

جالت السماءُ فى ذلك المضمار وصالت ، ونَوَّهت برفيع قدرها وقالت : تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً ، ومنح أَشرف الخلق إلىَّ عُرُوجا ، وقدمنى فى الذكر فى محكم الذكر ، وشرفنى بحسن القسم ، وأتحفنى بأَوفر القسم ، وقدسنى من النقائص والعيُوب ، وأَطلعنى على الغوامض والغيوب ، وقد ورد أَن الرَّب ينزل إلى كل ليلة ، فيولى من تعرض لنفحاته بره ونيله ، فيالها من تحفة جليلة ومنحة جزيلة يحقُّ لى أَن أَجر بها ذُيول العزة والافتخار ، وكيف لا والوجود بأَمره باسطٌ إلىَّ أَيدى الذلة والافتقار ، فلى العز الباذخ ، والمجد الأَثيل الشامخ ، لتفردى بالرفعة والسمو وعُلُوّ المنزلة دون غلُوّ . فقالت لها « الأَرض » ويحك لقد

أكثرت نزراً وارتكبتِ بما فُهْتِ به وزراً ، أما إنه لا يُعْجَبُ بنفسه عاقل ، ولا يأمن مكر ربه إلا غافل ، ومن ادّعى ماليس له بقوله أو فعله ، فهلاكه أقربُ إليه من شراك نَعله ، وقد قيل : « من سعادة جدِّك ، وقوفك عند حدِّك » ومن فعلَ ما شاء لقِىَ ما ساء ، أوما كفاك أنْ خَطرت فى ميادين التيه والإعجاب ! حتى عرضت لشتمى « إنَّ هذا لشىءٌ عُجَاب » ! وهل اختصك الله بالذكر ؟ أو أقسَم بك دونى فى الذكر ؟ أو آثرك بالتقديم ، فى جميع كلامه القديم ، حتى ترديتِ بالكبرياء وتعَديت طَوْرَ الحياء !

إذا لم تخش عاقبة الليالى ولم تستَح فاصنَع ما تشاءُ
فلا وأَبيك ما فى العيش خيرٌ ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ

وكيف تزدرِين أهلى بالذُّنوب والمعاصى ! وأنت تعلمين أن الله هو الآخذ بالنواصى ؟ فقابلتها « السماءُ » بوجه قد قطبتُه ، ومِجَنٍّ قد قلبته ، وقالت لها فى الحال أيتها القانعةُ بالمحال ، ما كنتُ أحسبُ أنك تجترئين على مُبارزة مثلى ، وتنكرين علىَّ ما ترنمتُ به من شواهد مجدى وفضلى ، وهَلْ خِلتِ أن التحدث بالنعم مما يلام عليه ؟ مع أنه أمرٌ مندوبٌ إليه ؟ ومن أمثال ذوى الفطنة والعقل « ليس من العدل سرعة العذل » وكيف جَحَدْت ظهور شمس كمالى ؟ وهل لك من الفضائل والفواضل كما لى ! ولكن لك عند عُذراً جليًا ، وإن كنت « لقد جئت شيئاً فَرِيًّا » .

قد تنكر العينُ ضوءَ الشمس مِنْ رَمَدٍ ويُنْكِرُ الفَم طعم الماءِ من سَقمِ

ولو رأيت ما فيك من المساوى عيانا ، لما ثنيت إلى حَلبة المفاخرة عِناناً . فأنَّى تفوزين بأشرف الأَقدار ، وأنت موضع الفضلات والأَقذار ؟ وما هذا التطاولُ والإقدام ، ووجهك موطئُ النعال والأَقدام ، إن هذا إلا فعل مكابر ، دَعوى عريضة وعجز ظاهر ، وهل يحق للكثيف أن يتغالى على اللطيف ، أم ينبغى للوضيع

أن يتعالى على الرفيع ؟ فقالت لها « الأرض » أيتها المُغترة بطوالع أقمارها والمُعْتَزَّة بلوامع أنوارها « ما كلّ بَيضاءَ شَحْمة ، ولا كل حمراءَ لحمة » فبمَ تزعمين أنك أَتقى منّي وأنقَى ، وما عند الله خيرٌ وَأَبقى ، وأنت واقفةٌ لى على أقدام الخدْمة جارية فى قضاءِ مآربى بحسب الْحِكمة ، قد كفَّلك الحق بحل مُؤونتى ، وكلَّفك بمساعدتى ومعونتى ، ووكلك بإِيقاد سراجى وَمِصباحى ، ووكلك إلى القِيام بشئونى فى ليلى وصباحى ، وليس عُلُوُّكِ شاهداً لك بالرتبة العَليَّة ، فضلا عن أن يُوجبَ لك مقام الأَفضلية ــ فما كل مُرْتفع نجد ، ولا كلّ مُتعاظم ذُو شَرف ومجد .

وإن علانِى مَن دونى فلا عَجبٌ لى أُسوة بانحطاطِ الشَّمس عنْ زُحل

فمن أَعظم ما فقتُ به حسناً وجمالا ، وكدْتُ بإِخْمصى أَطأُ الثريا فضلاً وكمالا تكوينُ الله منِّى وجُود سيِّد الوُجود ، فأَفرغَ عَلَيَّ به خلع المكارم فهو بدر الكمال وشمسُ الجمال :

وأَجملُ منك لم تر قط عينٌ وأَكملُ منك لم تلد النِّساءُ
خُلقت مبرءًا من كل عيْب كأَنك قد خلقت كما تشاءُ

فأَكرم به من نبى أَسَرنى به وأَرضى ، كيف لا ولولاه ما خلق سماءً ولا أَرضا ، وجعلنى له مسجداً وطهورا ، وأَقرّ به عيْنى بطوناً وظهورا .

فأَبْرَقت « السَّماءُ » وأَرعدَتْ ، وأَرغتْ وأَزبدَتْ ، وقالت : إن لم تَتخطِّى خطَّة المكابرة وتتخلِّى عن هذه المثابرة ، لأَغرقنَّك فى بحر طوفانى ، أَو أَحرقنَّكِ بصواعق نيرانى ، وَهل امتطيت السماكيْن ، أَوَ انتعلت الفرْقدَيْن ، حتى تفتخرى علىّ ، وَتشيرى بالذم إلىّ ، وَتلك شهادة لى بالكمال ، وَلقد صدق من قال :

وإذا أَتَتْكَ مَذَمَّتِى من ناقص فهى الشهادة لى بأَنّى كامل

أَم حسبت أَن لك فى ذلك حجة ، فخاطرت بنفسك فى ركوب هذه الُّلجّة وَكنت كالباحث عن حتفه بظلفه ، وَالجادع مارِنَ أَنفه بِكَفِّه :

لكل داء دَوَاء يُستطَبُّ به إِلَّا الحماقةَ أَعْيتْ مَنْ يُدَاويها

أمّا دعواكِ أني واقفةٌ لك على أقدام الخِدْمة ، فهى مما يُوجِبُ عليك شكر الفضْل والنعمة ، فلو تفكَّرتِ أنَّ خادم القوم هو السيد والمولى ، وعرفت الفاضل من المفضول ، أو تَدَبَّرْتِ أنَّ «اليد العُليا خيرٌ من اليد السفلى» لاسْتَقلت من هذا الفضول ، فإنَّ قيامى بشئونك أَوْضحَ أَمارة . وأمَّا قولك منِّى سيد الوُجود ومن اصطفاهم لحضرته الملكُ الوَدُودُ ، فإن كنت تفتخرين بأَشباحهم الظاهرة ، فأنا أفتخرُ بأَرواحهم الطاهرَة ، أَمَّا علمتِ أنها فى ملكوتى تغدُو وتروحُ ، وبوارِدَىْ(١) بَسْطى وقبضى تَشْدُو وَتنُوح ، فأنا أَوْلى بهم ، وأَحرَى بالافتخار بحزبهم .

فلما سمعت الأَرض من السماءِ مقالة تقطرُ من خلالها الدِّماءُ ، أطرقت لمحة بارقٍ خاطف ، أَو نُغبةَ(٢) طائر خائف ، ثم قنّعتْ رَأْسها ، وصعَّدت أنفاسها وقالت : لقد أكثرتِ ياهذه اللغط ، وما آثرتِ الصوَاب على الغَلط ، فعلامَ تهزئين بى وتستخفينَ بحسبى ونسبى ؟ وإلامَ تنقُضين عُرى أَدِلتى ، ولاتُعَامِلينني باللّتى ؟ وحتّام تُقابلينَنى بأَنواع التأْنيب ، ولِمَ لا تقفى على حقيقتى بالبَحْث والتنقِيب ؟ أَحسبتِ أَن الجسم ماخُلق إلا عبثاً ، ولا كان للنفس النفيسة إلا جَدثاً ؟ وفى ميدانه تتسابق الفُهوم ، وَتُدْرك عوارف المعارف والعلوم ، وبه تترقى الأَرواح فى مراقى الفلاح ! وكيف لا يكُون مقدساً من كلِّ غى ومَيْن ؟ وهو لا يَفْتُرُ عن تسبيح بارئه طرفة عيْن ! وإلى متى أَنتِ علىّ مُتحاملة ؟ وعن آية العدْل والإحسان مُتَماحلة ؟ وأَنا لك أَسمُع من خادم ، وأَطوَع من خاتم ؛ على أَن لى من الفضائل ما ثبت بأَصحّ البراهين والدلائل ، أما فىّ بقعةٌ من أَشرف البقاع عن الإطلاق ، لضمِّها أَعضاء مَن تمَّمَ اللهُ به مكارم الأَخلاق ! وفىّ روضةٌ من رياض الجنَّة ، كما أَفصحتْ عن ذلك أَلسنةُ السُّنة ، ومنِّى الكعبة والمشعرُ الحرام والحجر وَزمزَم والركنُ والمقام ، وَعَلَىَّ بُيوتُ الله تشد إليها الرِّحال ، ويسبِّح

(١) وارد : طريق .
(٢) النغبة : الجرعة .

فيها بالغُدُوِّ والآصال رجال ، وأخرج منى طيِّبات الرزق فأكرم بها عبادَهُ ، وَأَتمَّ نِعمتَه عليهم فجعل الشكر عليها عِبادة ؛ وناهيك بما اشتملت عليه من الرِّياض والغياض ، ذات الأنهار والحياض ، التى تُشفى بنسيمها العليل ، وتنْفى بِبرْد زُلالها حَرَّ الغَليل :

لِمَ لا أهيمُ على الرِّياضِ وطيبها — وأَظلُّ منها تحت ظِلٍ ضَافِ

والزهرُ يَضحك لى بثغرٍ باسمٍ — والنَّهْرُ يلقانى بقلبٍ صافى

فأسفرتْ عن بدر طلعتها « السماء » وهى تزْهُو فى بُرُود السَّنا والسناء ، وقالت تناجى نفسها عند مارق السَّمر ، حتَّام أُريها السهى وتُرينى القَمر ؟ ثم عطفت عليها تقول ،وهى تسطو وَتصول : أيتها المتعديةُ لمفَاضَلتى ،والمتصدِّية لمناضلتى مَتى قِيس التراب بالعسجد؟ أوْ شُبِّه الحصى بالزبرجد؟ ! إن افتخرتِ بشرف هاتيك البقاع التى زها بها منك اليَفاع وَالقَاع ، فأين أنت من عرش الرَّحمن؟ الذى تعكفُ عليه أَرْواحُ أهل الإيمان ؟ وأين أنت من البيت المعْمور ؟ والكرْسى المكلَّل بالنُّور ؟ ! وكيف تفتخرين على بروْضة من رياض الجنة ، وهى علىّ بأسرها فضلا من الله ومِنَّه ! أم كَيف تزعُمين أنه كُتب لك بأوفر الحظوظ ، وعندى القلم الأعلى واللَّوح المحفوظ ؟ وأما ازْدهاؤك بالحِيَاض والأنهار ، والرياض المبتهجة بوُرُود(١) الورْد والأزهار ، فليت شعرى هل حويت تلك المعانى إلا بنفحات غُيوثى وأمطارى ؟ أم أَشرقت منك هاتيك المغانى إلا بلمحات شموسى وأقمارى ؟ ! فكيف تُباهِينى بما منحتُك إياه ، وعطَّرتُ أرْجاءك بأريج نَشره ورَياه ؟! ويا عجبًا منك كلما لاحَ على شعار الحزن ، خطرت فى أبْهى حُلة من حلل الملاحة والحُسن ، وإن افترَّت ثُغُور بدُور أُنسى ، وقرت ببديع جمالى عين شمسى ، زفرْت زفْرَة القيظ ، وكدت أن تَتَميزِى من الغيظ ، ما هذا الجفاء يا قليلة الوفاء ؟! وهل صفتْ أوقاتُك إلابوجودى ، أوطابت أوْقاتك إلا بوابل كرمى وجُودى ؟ ! ولوْ قطعتُ عنك

(١) وردت الشـجرة ورودا اذا اخرجت وردها .

لطائف الإمداد لخلعت ملابس الأُنس ولبست ثياب الحداد ! أَو حجبتُ عنك الشُّموس والأَقمار لما ميّزت بين اللَّيل والنهار ! كُنت بفضلى معترفة حيث إنك من بحر فَيْضى مغترفة ؟ ! فَنَزعت «الأَرض» عن مُقاتلتها ، وعلمت أَنها لا قِبَل لها بمقابلتها . وحين عجزت عن العوم فى بحرها ، واستسلمت تمائمها لسحرها ، بسطت لها بساط العتاب ، مُتمثلة بقوْل ذى اللطف والآداب :

إذا ذهب العِتَابُ فليسَ وُدّ وَيَبْقى الوُدُّ ما بَقِىَ العِتابُ

ثم قالت : اعلمى أَيتها الموسومة بسلامة الصَّدر ، الموْصوفة بسموٍّ المنزلة وَعُلُوٍّ القدر ، أَن اللهَ ما قارن اسمى باسمك ، ولاقابل صورة جسمى بجسمك إلا لمناسبة عظيمة ، وأُلفة بيننا قديمة ، فلا تُشمِتى بنا الأَعداءَ ، وَتَسِيئى الأَحبَّاءَ والأَوِدّاء ، فإن ذلك من أَعظم الرزايا ، وَأَشَدُّ المِحَن والبلايا .

كلّ المصائب قد تمرُّ على الفتى فتهونُ ، غير شماتة الأَعداءِ

أَلا وَإنَّ العبد محلُّ النَّقصِ وَالخلل ، وهل يسُوغ لأَحدٍ أَن يُبَرّئ نفسه من الزلل ؟ ! وَمَنْ ذا الذى يسلم من القَدْح ، ولو كان أَقوام من القِدْح(١) :

وَمَنْ ذا الذى تُرجى مزاياه كلها كفى المرءَ نُبلا أَن تُعدَّ معايبُهْ

هذا ، وإن لى مفاخرَ لاتُنكر ، ومآثرَ تجل عن أَن تحصر ، كما أَنك فى الفضل أَشهرُ من نار على عَلَم ، وَأَجَلُّ من أَن يحصى ثناءً عليك لسان القلم ، فإلى متى ونحن فى جدالٍ وجلاد ، نتطاعنُ بأَسنة أَلسِنَة حداد ، وهل ينبغى أَنْ يجُرّ بعضُنا على بعض ذَيلَ الكِبْرِ وَالصّلف ، عفا اللهُ عمَّا سلف ، وهذه لعمرى ، حقيقة أَمرى ، فانظرى إلى بعينِ الرِّضا واصفحى بحقِّك عما مضى .

ولما سمعت السماء هذه المقالة ، التى تجنَحُ إلى طلب السِّلم والإقالة ، قالت لها : مآربُ لا حفاوة ، ومشرب قد وَجَدْتُ له حلاوة ، وما ندبت إليه من المودة

(١) القدح : بكسر القاف السهم قبل أن يراش ويركب نصله .

والأُلفة ، فلأَمر ما جدَعَ قصيرٌ أَنفه ، ولو لم تُلْقَى إلى القياد ، لعاينت منّى مادونه خَرْط القتاد ، ولكن لاحرج عليك ولاضَيْر ، فإنك اخترت الصلح والصلح خير ، وكيف جعلْت العتاب شرطاً بين الأَحباب أو ماسمعت قول بعض أُولى الأَلباب :

إذا كنت فى كلّ الأُمور مُعاتبًا ... صديقك لم تَلْقَ الذى لا تُعَاتبه

وإن أَنت لم تشرب مِرارًا على القذَى ... ظمئْت وأَى النَّاس تصفُو مشاربه

وها أَنا رَادَّةٌ إليك عوائد إحسانى ، وموائد جُودى وامتنانى ، فقرِّى عيناً وطِيبى نفسًا ، وتيهى ابتهاجاً وأُنْسًا ، وأَبشرى ببلوغ الوطر ، وزوال البُوس والخطر . فسجدت الأَرض شكرًا ، وَهامت نَشْوة وسُكرًا ، وتهلل وجهها سُرُورًا ، وامتلأَت طرباً وحُبورًا .

مناظرة بين فصول العام لابن حبيب الحلبى المتوفى سنة ٤٠١ هـ

قال الرَّبيع : أَنا شبابُ الزمان ، وروح الحيوان ، وإنسان(١) عين الإنسان أَنا حياة النفوس ، وزينة عروس الغروس ، ونزهة الأَبصار ، ومنطق الأَطيار ، عرف(٢) أَوْقاتى ناسم ، وأَيامى أَعياد ومواسم ، فيها يظهر النَّبات ، وتنشر(٣) الأَموات ، وتُرَدُّ الودائع ، وتتحرك الطبائع ، ويمرح(٤) جنيب(٥) الجنوب(٦) ، وينزح(٧) وجيب(٨) القلوب وتفيض عيون الأَنهار ويعتدل الليل والنهار ، كم لى عقدٌ منظوم ، وطراز وشيٍ مرقوم ، وحلَّة فاخرة ، وحليةٌ ظاهرة ، ونجم سعد يُدنى راعيه من الأَمل ، وشمس حُسْن تنشدنا(٩) : « بُعد ما بين بُرْج الْجَدى(١٠) والحمل(١١) » عساكرى منصورة ، وأَسلحتى مشهورة فمن سيف غُصْنٍ

(١) مايرى فى سوادها (٢) الريح الطيبة (٣) تحيا (٤) ينشط (٥) مجنوب ، والجنوب ريح تخالف الشمال ، مهبها من مطلع سهيل الى مطلع الثريا (٦) ريح تخالف الشمال ومنه اذا جاءت الجنوب جاء معها خير كثير (٧) يبعد ويذهب (٨) كثرة خفقانها (٩) تقول لنا من انشاد الشعر (١٠) برج فى السماء وهو أحد البروج الاثنى عشر التى تمر بها (١١) برج فى السماء أيضا .

مجوْهر ، وَدِرْع بنمسج مُشهَّر ، وَمِغْفرٍ(١) شَقِيق(٢) أحمر ، وتُرْس بهارٍ يَبهر ، وَسَهم آس يرْشقُ فينشق ، ورمُح سوسن(٣) سِنانه أَزرق ، تحرسها آيات ، وتكتَنِفُهَا أَلويةٌ ورايات . بِي تحمَرُّ من الورد خُدُوده ، وتهتزُّ من البَان قُدُودُه ، ويخضرُّ عذار الرَّيحان ، ويَنتبهُ من النرْجس طَرفه الوسنان(٤) ، وتخرج الخبايا من الزَّوايا ، وَيفترُّ ثغْرُ الأُقْحُوان(٥) قائِلا (أَنَا ابنُ جَلَا وَطلَاع الثّنَايا) :

إنَّ هذا الرَّبيعَ شيءٌ عجيبٌ   يُضحِكُ الأَرضَ مِنْ بُكاءِ السَّماءِ
ذهبٌ حيثُما ذَهَبنا ودُرٌّ   حيث دُرْنا وفضةٌ في الفضاءِ

(وقال الصيف) : أَنا الخِلّ الموافق ، والصديق الصادِق ، والطبيب الحاذق أَجتهد في مصلحة الأَحباب ، وأَرفع عنهم كُلْفة حَمْل الثياب ، وأُخَفِّف أَثقالهم ، وأُوَفر أَموالهم ، وأَكفِيهم المؤونة ، وأَجزِلُ لهم المعونة ، وأغْنِيهم عَنْ شراءِ الفِرَا ، وأُحققُ عندَهم (أَن كل الصيد في جَوْف الفَرَا) نُصِرتُ بالصبا ، وأُوتيت الحكمة في زمن الصّبا ، بِي تتضحُ الجادة(٦) وتنضج من الفواكه المادة ، ويزْهُو البُسَرُ والرّطب وينصلحُ مِزَاج العِنب ، ويقوى قلبُ اللوز ، ويلين عطف التِّين والموز وينعقِدُ حَبُّ الرمان ، فيقمع الصفراء ، ويسكنُ الخفقان ، وتخضبُ وجنات التُّفَّاح ويذهب عرف(٧) السَّفرجل مع هُبوب الرياح ، وتسودُّ عيون الزيتون وتخرُج تيجان النَّارنج والليمون ، موَاعدى منقودة ، ومواثِدِى مَمْدُودة ، الخير موجود في مَقَامي ، والرزْق مقسومٌ في أَيامى .

الفقير يَنصاع(٨) بملءِ مُده وصَاعه ، والغنى يرتعُ في ريع مُلكه وإقطاعه ، والوحش تأْتى زرافاتٍ(٩) ووحداناً ، والطير تغدو خِماصاً وتروح بطاناً(١٠) .

---

(١) زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس (٢) شقائق النعمان وهو نبت أحمر الزهر مبقع بنقط سوداء كبيرة (٣) نبات طيب الرائحة (٤) النعسان النفلان (٥) البابونج نبت طيب الرائحة حواليه ورق أبيض ووسطه أصفر (٦) الطريق (٧) رائحته الطيبة (٨) يقفل راجعا مسرعا (٩) جماعات (١٠) تذهب جائعة وترجع ممتلئة .

مصيفٌ له ظل ظليل على الوَرَى وَمَنٌّ حلا طعماً وحللَ أَخلاطا
يعالج أنواع الفواكه مُبدياً لصحَّتها حفظاً يُعجز بقراطا(١)

(وقال الخريف) : أَنا سائق الغيوم ، وكاسر جيش الغموم ، وهازم أَحزاب السَّموم(٢) ،وحادى نجائب السحائب ،وحاسِر نقاب المناقب. أَنا أَصدُّ الصدى(٣) وأَجود بالندى ، وأُظهر كل معنى جلىّ ، وأَسمو بالوسمىّ(٤) والولىّ ؛ في أَيامى تقطف الثمار ، وتصفو الأَنهار من الأَكدار ويَترَقرق(٥) دمع العُيُون ، ويتلون ورق الغصون ، طَوْر يحاكى البقم ، وتارة يُشبه الأَرقم ، وحيناً يبدو فى حلته الذهبية فيجذِبُ إلى خلته القلوب الأَبية ، وفيها يُكفَى الناس همّ الهوامّ ، ويتساوى فى لذة الماءِ الخاص والعام ! وتقدُمُ الأَطيارُ مُطربةً بنشيشها رافلةً فى الملابس المجددة عن رِيشها ، وتُعصرُ بنت العنقود وتوثقُ فى سجن الدنِّ بالقيود ،على أَنها لم تجترح إثماً ، ولم تعاقب إلا عُدواناً وظلماً ، بى تطيبُ الأَوقات ، وتحصلُ اللذَّات ، وترق النسمات ، وترمى حصى الجمرات ، وتسكن حرارة القلوب ، وتكثر أَنواع المطعوم والمشروب ، كم لى من شجرةٍ أُكلها دائم ، وحملها للنفع المتعدى لازم ، ورقها على الدوام غيرُ زائل ، وقدُود أَغصانها تُخْجِل كل رُمح ذابل :

إن فصل الخريف وافى إلينا يَتهادَى فى حُلةٍ كالعرُوسِ
غيره كان للعيون ربيعاً وهو ما بيننا ربيعُ النفوسِ

(وقال الشتاءُ) ،أَنا شيخُ الجماعة ،ورب البضاعة ،والمقابلُ بالسمعِ والطاعة أَجمع شمل الأَصحاب ،وأَسدلُ عليهم الحجاب ،وأَتحفهم بالطعامِ والشراب ،وَمَنْ ليس له بى طاقةٌ أُغلق من دونه الباب ،أَميلُ للمطيع ، القادر

(١) بقراط الحكيم اليونانى وهو لفظ يونانى معناه ناسك الصبح
(٢) الريح الحارة (٣) العطش (٤) المطر الذى يأتى فى الخريف ، والولى الذى يأتى بعده (٥) ترقرق الدمع فى العين تحرك .

المستطيع المعتضد بالبرود والفرا ، المتمسك من الدينار بأوثق العُرى ، ومن يَعْشُ عن ذِكْرِى ، ولم يمتثل أمرى ، أرجفته بصوت الرَّعد ، وأنْجَزْتُ له من سيف البرق صادق الوعد ، وسرْتُ إليه بعساكر السحاب ، ولم أقنع من الغنيمة بالإياب معرُوفى معروف ، ونَيل نَيلى موصوف ، وثمار إحسانى دانيةُ القطوف ، كم لى من (وابل) طويل المدى (وجود) وافرِ الجدا (وقطر) حلا مذاقه (وغيث) قيد العفاة إطلاقه (ودِيمة) تُطْرب السمع بصوتها (وحياً) يحيي الأَرض بعد موتها ، أيامى وجيزة وأوقاتى عزيزة ، ومجالسى معمورة بذوى السيادة ، مغمورة بالخير والمير والسعادة ، نُقلها يأْتى من أنواعه بالعَجَب ، ومناقلها تسح بذهب اللهب ، وراحُها تُنْعش الأَرْوَاح ، وسقاتها بجفونهم السقيمة تفتن العقول الصِّحاح ؛ إن رُدتها وَجَدْت مالا ممدودا ، وإن زُرْتها شاهدت لها بَنين شهودا .

مناظرة بين البر والبحر لبعض الادباء

قال (البرّ) : يا صاحب الدَّر ، ومعدن الدُّر ، أطرقْتَ رياضى ، ومزَّقتَ قصورى وأحواضى ، وأغرَقتَ جنّتى ، ودخلت جنتى ، وتلاطمت أمواجك على جنتى ، وأكلْتَ جزائرى وجروفى ، وأهلكْتَ مَرْعى فصيلى وخروفى ، وأهزلت ثورِى وحملى وفرسى وجملى ، وأجريتَ سفنك على أرْضٍ لم تجرِ عليها ، ولم تمل طرف غرابها إليها ، وغرست أوتادها على أوْتاد الأَرض ، وعرست فى مواطن النفل والفرض ، وجعلت مَجْرى مَرَاكبك فى مَجرى مراكبى ، ومَشَى حوتك على بطنه فى سعد أخبية مضاربى ، وغاصَ ملاحك فى ديار فرَحى ، وهاجرت من القرى إلى أم القرى وحملت فَلَّاحى أثقاله على القرى ، وقد تلقيتك من الجنادل بصدرى ، وحملتُك إلى برزخك على ظهرى ، وقبّلت أمواجك بثغرى وخلفت مقياسى فرحاً بقدومك إلى مصرى وقد جُزْتَ وعدلت وفعلت ما فعلت ، فلعلك تفيض ، ولا يكون ذهابك عن ذهاب بغيض ، أو تفارق هذه

هذه الفجاج ، وتختلط بالبحر العَجاج ، وإن لم تفعل شكوناك إلى من أنزلك من السماء ، وأنعم بك علينا من خزائن الماء :

إذا لم تكن ترحم بلاداً ولم تُغثْ   عباداً فمولاهم يُغيثُ ويرْحمُ
وإن صدرت منهم ذنوبٌ عظيمة   فعفوُ الذى أجراك يا بحرُ أعظمُ
نمدُّ إليه أيدياً لم نَمُدّها   إلى غيره والله بالحالِ أعلَمَ

قال (البحر) : يابرُّ ، ياذا البرِّ ، ومنبتُ البُرِّ ، هكذا تخاطب ضيفك وهو يخصك شتاءك وصيفك ، وقد ساقنى الله إلى أرضك الجرُز ، ومعدن الدُّر والخرز لأُبْهج زرعَها وخيلها ، وأُخرج أبَّها ونخيلها ، وَأُكرمَ ساكِنك ، وأنزل البركة فى أماكنك ، وأُثبت لك فى قلب أهلك إحكام المحبَّة ، وأنبت بك لهم فى كلِّ سُنبلة مائة حبَّة ، وأُحييك حياة طيبة ، يبتهجُ بها عمرُك الجديد، وتتلو « كذلك يُحيي اللهُ الموْتى » أَلسنةُ العبيد ، وأُطهِّرك من الأَوساخ ، وأَحمل إليك الإبليز فأطيبك به من عرَق السباخ ، وأنا هدية الله إلى مصرك ، وملكُ عصرك القائم بنصرك ، ولولا برَكاتى عليك ، ومسيرى كل مسرًى إليك ، لكنت وادياً غيرى ذى زرْع ، وصادياً غير ذى ضرْع :

سَرَيتُ أَنا ماء الحياة فلا أذى   إذا ما حفظتُ الصحب فالمال هيِّنُ
فكن خضراً يا برّ واعلم بأنَّنى   إلى طينكَ الظمآن بالريِّ أُحسنُ
وأَسعى إليه من بلادٍ بعيدةٍ   وَأَحسنُ أَجرى بالتى هى أَحسنُ
إذا طاف طُوفانى بمقياسك الذى   يُسرُّ بإتيان الوفاءِ وَيُعْلَنُ
فقمْ وتلقَّاه ببسطتك التى   لرَوْضتها فضلٌ على الرَّوْض بيِّنُ

ولعمرى : لقد تلطف (البرُّ) فى عتابه وأحسن ، ودفع (البحرُ) فى جوابه بالتى هى أَحسن ، وقد اصطلحا وهما بحمد الله أخوان مُتضافران على عمارة بلاده ، ونشر الثرْوة ونموّ الخيرات بين عباده ، فالله تعالى يخصب مرعاهُما ويحرسهما ويرعاهما .

مناظرة بين الهواء والماء لبعض الأدباء

قال (الهواءُ) : الحمد لله الذى رفع فلك الهواء ، على عُنْصر التراب والماء .
« أما بعد » فأنا الهواءُ الذى أُؤَلف بين السحاب وأنقلُ نسيم الأَحباب ، وأَهُبُّ تارةً بالرَّحمة وأُخرى بالعذاب ، وأنا الذى سُيِّرَ بى الفلكُ فى البحر كما تسير العِيسُ فى البِطاح ، وطار بى فى الجوِّ كل ذى جَناح ، وأنا الذى يضطربُ منى الماءُ اضطراب الأَنابيب فى القنا ، إذا صَفَوْتُ صفا العالم ، وكان له نضَرَة وزَهْوًا ، وإذا تكَدَّرْتُ انكدرت النجوم وتكدر الجوُّ ، لا أَتلوَّن مثل الماءِ المتلوِّن بلوْن الإِناءِ ، لولاىَ ما عاش كل ذى نفس ، ولولاىَ ما طاب الجوُّ من بخار الأَرض الخارج منها بعدَ ما احْتَبس ، ولولاىَ ما تكلم آدمىٌّ ولا صوَّت حيوان ، ولا غرَّد طائر على غُصن بان ، ولولاىَ ما سُمع كتاب ولا حديث ، ولا عُرف طَيِّب المسموع والمشموم من الخبيث ؛ فكيف يُفاخرنى الماءُ الذى إذا طال مُكثه ، ظهر خبثه ، وعلت فوقه الجيَف وانحطَّت عنده اللآلىءُ فى الصدف .

فقال (الماءُ) : الحمد لله الذى خلق كلّ حىّ « أما بعد » فأنا أول مخلوق ولا فخر ، وأنا لذة الدنيا والآخرة ويوم الحشر ، وأنا الجوهر الشفاف ، المشبَّه بالسيف إذا سُلّ من الغلاف ، وقد خلق الله فِىَّ جميع الجواهر حتى اللآلئ والأَصداف ، أُحْيِى الأَرضَ بعد مماتها ، وأُخرج منها للعالم جميع أَقواتها ، وأَكسو عرائس الرّياض أَنواع الحلل ، وأَنثر عليها لآلئَ الوَبل والطلل ، حتى يضرَب بها فى الْحُسن المثل ، كما قيل :

إن السَّمَاءَ إذا لم تبْكِ مُقْلتُها لم تَضْحك الأَرضُ عن شىءٍ من الزَّهر

فكيف يُنْكِرُ فضلى مَنْ دَبّ أَو درَج ؟ وأنا البحرُ الذى قيل عنه فى الأَمثال « حدِّث عن البحر ولا حرَج » وأما أنت أَيها الهواءُ : فطالما أَهْلكت أُناساً بسمُومِك وزمهريرِك ، ولا تقوَّم جُنَّتُك بسعيرك .

وأما قولك : لولايَ ماعاش إنسان ، ولا بقَى على الأَرض حيوان ، فجوابُهُ : لَوْ شاءَ اللهُ تعالى لعاش العالم بلا هواء ، كما عاش عالم الماء فى الماء ، وأنشدك الله أما رأَيْتَ ما حبانى اللهُ به عظيم المِنَّة ، حيث جعلنى نهراً من أَنهار الجنة ، وأَنا أَرفع الأَحداث ، وأُطَهِّرُ الأَخباث ، وأَجلو النظر ، وأُزيلُ الوضَر ، أَما رأَيت الناسَ إذا غِبْتُ عنهم يتَضرَّعون إلى الله بالصوم والصلاة والصدقة والدعاء ويسأَلونه تعالى إرْسَالى من قِبَلِ السماء ؟ واعلم أَننى ما نلتُ هذا المَقَامَ الذى ارتفعتُ به على أَبناء جنسى إلا بانحطاطى الذى عيَّرْتنى به وتواضعى وهَضم نفْسى

وقد كثرَ بينهما النزاع والجدال ، حتى حكم بينهما أَميرٌ وقال :

إن كلاً منكما مُحِق فيما يَدَّعيه ، فما أَشبهكما فى السماء بالفَرْقدين ، وفى الأَرض بالعينين ، إلا أَن مِرآة الحقِّ أَرَتْنِى فضيلةً تفْضُلُ بها أَيها الماءُ أَخاك الهواءَ ، وحققت لى بأَنكما لستما فى الفصل سَواء ، وهى (أَن الله تعالى خلقَ آدمَ منَ الماء) فاعترف لأَخيه بالفضل والذكاء .

مناظرة بين الجمل والحصان للمقدسى المتوفى سنة ٨٧٥ هـ

قال (الجمل) : أَنا أَحْمِلُ الأَحْمَالَ الثقال ، وأَقطع بها المراحل الطوال ، وأُكابدُ الكلال ، وأَصبرُ على مُرِّ النِّكال ، ولا يعترينى من ذلك مَلَال ، وأَصول صَوْلة الإدلال ، بلى أَنقادُ للطفل الصغير ، ولو شئت استصعبت على الأَمير الكبير فأَنا الذَّلول ، وللأَثقال حَمُول ، لستُ بالخائن ولا الغلول ، ولا الصائل عند الوُصُول ، أَقطعُ فى الوُحُول ما يَعْجَزُ عنه الفحول ، وأُصابرُ الظلماء فى الهواجر ولا أَحُول ، فإذا قضيتُ حقَّ صاحبى ، وبلغْت مآربى أَلقيتُ حَبْلى على غاربى ، وذهبت فى البوادى أَكتسبُ من الحلال زادِى ، فإن سمعتُ صوت حَادٍ سلمتُ إليه قيادى ، وواصلتُ فيه سُهَادى ، وطلقتُ طِيبَ رُقَادِى ، ومددتُ إليه عُنقِى لبلوغ مرادى ؛ فأَنا إنْ ضَللتُ فالدليلُ هادى ، وإنْ زللتُ أَخَذَ بيدِى مَن إليه

انْقِيادى ، وإن ظمِئتُ فذِكرُ الحبيب زادى ، وأنا المسخر لكم ، بإشارة « وَتحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ » فلم أزل بين رحلة ومقام ، حتى أَصِلَ إلى ذلك المقام .

فقال (الحصان) : أنا أَحْمِلُ صاحبى على كاهلى فأَجتهدُ به فى السير ، وأَنطلقُ به كالطير ، وأهجم هجومَ الليل ، وأقتحمُ اقتحام السيل ، فإن كان طالباً أَدْرَكَ بى طلبه ، وإن كان مطلوباً قطعت عنه سببه ، وجعلت أسبابَ الرَّدى عنه محتجبة ، فلا يُدْرَكُ مِنِّى إلا الغبار ، ولا يُسْمع عَنِّى إلا الأَخبار ، وإن كان الجملُ هو الصابر المجرَّب ، فأَنا السابق المقرَّب ، وإن كان هو المقتصد اللاحق ، فأَنا المقرِّب السابق ، فإذا كان يوم اللقاء قدمتُ إقدام الوَالِه ، وسبقت سبق نبالِه ، وذلك مُتخلفٌ لثقل أَحْمَاله ، وإن أَولقَ سائسى قيدى وأَمِن قَائِدِى كيدى أُوثِقت بِشكالى ، لكيلا أَحُول على أشكالى ، وأُلْجِمْتُ كيلا أَكِلّ عن إقْدَامِى ، فأَنا الموعُود بالنجاة ، المعدُود لِنَيل الجاه ، المشدود للسلامة ، المقصود للكرامَة قد أجزل المنعم على إنعامه ، أمضى بالعناية الأَزليَّة أحكامه « فإن الخير معقودٌ بنواصى الخيل إلى يوم القيامة » خُلِقْتُ من الريح ، وأُلهمت التسبيح ، وما برِح ظهرى عِزًّا ، وبطنى كنزاً ، وصَهْوَتى حِرزا ، فكم رَكَضتُ فى ميدان السباق وما أبديت عَجزا ، وكم حزرت رءُوس أهل النِّفاق حزًّا ، وكم أخليت منهم الآفاق (هل تحسُّ منهم من أَحَدٍ أو تسمعُ لهم ركزا) .

الفن الثالث فى الأمثال

المثل عبارةٌ عن تأْليف لا حقيقة له فى الظاهر ، وقد ضُمِّنَ باطنه الْحِكم الشَّافية وهى ثلاثة أقسام مفترضةٌ ممكنة ، ومخترعةٌ مستحيلة ، ومختلطة :

(١) الأَمثال المفترضة الممكنة : هِىَ ما نُسِب فيها النطق والعمل إلى عاقل(١).

---

(١) وتختلف عن الحكاية من وجهين : الأول أن لهـا مغزى ، والثانى كونها غير واقعـة وان كانت فى حيز الامكان .

(٢) والمخترعة المستحيلة : ما جاءت على ألسنة الحيوانات والجمادات فيُعزى لها النطق والعمل لإرشاد الإنسان .

(٣) والمختلطة : ما دار فيها الكلام أو العمل بين الناطق وغير الناطق .

وشروط المثل أربعة : (الأول) أن تكون روايته خالية من كل تعقيد ليُفضى المقصودُ منه إلى ذهن السامع . (الثانى) أن لا يكون مُسهباً مُمِلًّا (الثالث) أن يُبهج السامع بطلاوته ويفكه فكرتَه بهزْل كلامه وابتكار معانيه ، ويضبط عقله فى فهم الرواية المختلفة وفضّ مُشكلها (الرابع) أن يُورد بصورة محتملة .

وفوائد المثل جَمَّة ، منها نزهة البال وترْويح الخاطر ، ومنها استقصاءُ الحكم ؛ وهى قديمة العهد جداً ، ولا يعرف اسم أول من تكلم بها ، وكما تكون نثرا تكون نظماً — ونذكر لك من الأمثال ما طاب وراق فنقول :

أمثال القرآن الكريم

أمثال القرآن الكريم قسمان : ظاهرٌ مُصَرَّحٌ به ، وكامنٌ لاذِكر للمثل فيه ، أما أمثاله الظاهرة : فكقوله تعالى فى شأن المنافقين « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُون صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُون * أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأَبْصَارِهِمْ » .

وقوله سبحانه تعالى فِي شأن الذى يُنفق أمواله ابتغاءَ مرضَاة الله ، والذى ينفقها رياءً : « يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلوا صدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى ، كالذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فمَثَلُهُ كَمثَلِ

(١) مطر .

صَفْوَانٍ(١) عليه ترابٌ فأَصابه وَابِلٌ(٢) فتركه صَلدا(٣) لايقدرُون على شيءٍ مما كَسَبُوا واللهُ لا يهدى القوم الكافرين ، ومثلُ الذين يُنْفقون أَموالهم ابتغاءَ مَرْضَاة الله وتثبيتاً من أَنفسهم كمثَل جَنَّةٍ برَبْوَةٍ(٤) أَصابها وابلٌ فآتتْ أُكلها ضِعْفَين فإن لم يُصِبها وابلٌ فطلٌّ(٥) والله بما تعملون بصير ، أَيَودُّ أَحدُكم أَن تكون له جنَّةٌ من نخيل وأَعناب تجرى من تحتها الأَنهار ، له فيها من كل الثمرات وأَصابه الكِبَرُ وله ذُرِّيةٌ ضُعفَاءُ فأَصابها إعْصَارٌ(٦) فيه نَارٌ فاحترقت كذلك يُبَيِّنُ الله لكُم الآيات لعلكُم تَتفكَّرُون » .

وقوله تعالى فى تمثيل الحق والباطل : « أَنزل من السَّماءِ ماءً فسالت أَوديةٌ بقدرها فاحتمل السَّيْل(٧) زبدًا رابياً ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاءَ حلْيةٍ أَو متاع زبدٌ مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأَمَّا الزَّبَدُ فيذهب جُفَاءً(٨) وأَما ما ينفع الناس فيمكُثُ فى الأَرض كذلك يضرب الله الأَمثال » .

وقوله تعالى فى تمثيل الحكمة وضدها : « أَلم تَرَ كيف ضربَ الله مثلا كلمة طيِّبَة كشجرة طيِّبة أَصلها ثابت وفرعها فى السماءِ تؤْتى أُكلها كلَّ حين بإِذْنِ ربِّها ، ويضْرِب الله الأَمْثَالَ للناس لعلهم يتذكَّرُون ، ومثل كلمة خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثة اجْتُثَّتْ(٩) من فوق الأَرض ما لها من قرار » .

وقوله جل شأْنه فى حال الكفار وما يعبدون من دون الله : « يا أَيها الناس ضُرِبَ مثلٌ فاستمعوا له ، إنَّ الذين تَدْعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لايستنقذوه منه ضَعُفَ الطالب والمطلوب » .

وقوله تعالى : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أَولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإنَّ أَوْهَن البيوت لبيت العَنْكَبُوت لو كانوا يَعْلَمُون » .

---

(١) حجر أملس (٢) مطر شديد (٣) صلدا نقيا من التراب (٤) مكان مرتفع (٥) مطر خفيف (٦) ريح شديد (٧) مايعلو على وجه الماء من قذر ونحوه (٨) باطلا مرميا به (٩) قطعت من أصلها .

وقوله تعالى في أنَّ عمل الكافرين يذهب هباءً تذرُوه الرِّياح :

«مثل الَّذِين كَفروا بربهم أَعمالهم كرمادٍ اشْتَدَّت به الرِّيح في يَوْمٍ عاصف لا يقدرون ممَّا كَسَبُوا على شيء» .

وقوله تعالى : «والَّذِين كَفرُوا أعمالهم كَسَرَاب(١) بقيعَةٍ(٢) يحسبه الظمآن مَاءً حتى إذا جَاءَه لم يجِدْه شيئاً ووَجد الله عنده فوفَّاه حسابه والله سريعُ الحساب أَو كَظُلُمَات فى بحر لُجِّى(٣) يغشاهُ مَوْجٌ من فوقه مَوْجٌ من فوقه سحاب ، ظُلمات بعضها فوق بعض إذا أَخْرَج يَدَهُ لم يَكَدْ يراها ، ومَنْ لم يجعلِ اللهُ له نورًا فما له مِنْ نور» .

وقوله تعالى فى أَنَّ الدنيا ظِلٌّ حائل وخيال باطل :

«واضْرِبْ لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناهُ من السَّماءِ فاختلط به نبات الأَرض فأَصبح هَشِيما(٤) تَذْروه الرِّياح» .

وقوله تعالى : «اعلموا أَنَّمَا الحياة الدنيا لعبٌ ولَهْوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بَيْنَكُم وتكاثرٌ فى الأَموال والأَولاد كمثل غيث أَعجب الكُفَّار نباته ثمَّ يهيج فتراه مُصفرًّا ثم يكون حُطَاماً» .

وأَما أَمثاله الكامنة ، فهى الآداب البارعة ، والحكم الباهرة ، فمن ذلك قوله تعالى :

فى الصِّدق

١ يا أَيها الَّذِينَ آمنُوا اتَّقوا الله وكُونُوا مع الصَّادِقين .

٢ هذا يوم ينفعُ الصَّادِقين صدقُهُمْ

٣ إنه كان صادق الوعد .

فى الصبر والثَّبَات

١ وَبَشِّر الصَّابرين

٢ فاصبر صَبْرًا جميلا

(١) شعاع يرى مثل المـاء حين اشتداد الحر نصف النهار .
(٢) جمع قاع وهو الارض المستوية (٣) عميق (٤) يابسا متفرقة أجزاؤه

٣ واصبر على ما أَصابك إنَّ ذلك لَمِنْ عَزْمِ الأُمُور

٤ فصبرٌ جميلٌ

٥ واصبرْ على ما يَقُولُون واهجرهم هَجْرًا جميلاً

في العلم والاسترشاد

١ إنما يخْشَى الله مِنْ عباده العُلَمَاءُ

٢ وما يعقِلها إلا العالِمُون

٣ قُلْ هَلْ يستوى الذين يَعْلمون والذين لا يَعْلمون

٤ فاسأَلوا أَهلِ الذكْرِ إنْ كنتم لا تَعْلمون

في الاتحاد والوئام بعد الخصام

١ واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا واذكُرُوا نعمَةَ اللهِ عليكم إذ كنتم أَعداءً فأَلَّف بين قلوبكم فأَصبحتم بنعْمَته إخوانًا

٢ وَلَا تَنَازَعُوا فتَفْشَلوا وَتَذْهَب رِيحكم

٣ ولا تكونوا كالتى نَقَضَت غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قوَّةٍ أَنكاثًا

في العفو

١ فاصفح الصفحَ الجميل

٢ والكاظمين الغيظَ والعافين عن الناس

٣ فمن عفا وأَصلح فأَجْرُهُ على الله

٤ عفا الله عَمَّا سَلف

في الوفاء

١ وَأَوْفوا بِالْعَهْدِ إِنَّ العَهدَ كَانَ مسئولا

٢ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمانات إلى أَهْلِهَا

في الاقتصاد

١ ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عُنقِكَ ولا تبْسُطها كلَّ البَسْط فَتَقْعُدَ مَلومًا مَحْسُورًا

٢ إن المُبَذِّرين كانوا إخوان الشَّيَاطين

٣ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا

في الأَمر بالمعروف

١ خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بالعُرْفِ وَأَعْرِض عن الجاهلين

٢ وَلْتكن منكم أُمة يَدْعُون إلى الخير ويأْمُرُون بالمعْرُوف وينْهَوْنَ عن المنكر وأُولئك هُمُ المفلِحُون

٣ وَتَعَاوَنوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ولا تَعاوَنوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَان

٤ إنَّ الله يَأْمُرُ بالعَدْلِ والإحسان وَإِيتَاءِ ذِى القُرْبَى وَيَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ والمنكرِ والبَغْى

برُّ الوالدين والقريب والجار والصاحب

١ وَقَضَى ربك أَلَّا تَعْبُدُوا إلا إِيَّاهُ وبالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عندكَ الكِبَرَ أَحَدُهما أَو كلاهما فلاتقل لهما أُفٍّ ولاتنهرهما وَقُلْ لهما قولاً كريماً ، واخفضْ لَهُمَا جناحَ الذُّل من الرَّحْمَة وقُلْ رَبِّ ارْحمهما كما رَبياني صَغيرًا

٢ وَأُولو الأَرحام بعضهم أَوْلى ببعضٍ

٣ وبالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى القُرْبَى وَالْيَتَامى والمساكين وَالْجَارِ ذى القرْبى والْجَارِ الْجُنُبِ والصاحب بالْجَنْبِ وابن السبيل وما مَلَكَتْ أَيمانُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يحبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فخورًا

في النصيحة

١ إِنى لك من النَّاصحين

٢ وأَنا لكم ناصحٌ أَمين

٣ وَنَصَحْتُ لكم ولكن لا تُحِبُّونَ النَّاصحين

في الشكر

١ لئن شكَرتُم لأَزيدَنَّكُمْ

٢ وقليلٌ من عبادى الشكور

٣ ومن شكَر فإِنما يشكُر لنفْسِهِ

٤ وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرين

في الإِغضاءِ والتغافل واللين

١ أُولٰئِكَ الذين يَعْلَم اللهُ مافى قلوبهم فَأَعْرِض عنهم وَعظهم وَقُلْ لهم فى أَنفسهم قولاً بليغًا

٢ لاتثريبَ عليكمُ اليوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لكم

٣ ادفع بالتى هى أَحسن

٤ فاصبرْ على مايَقُولُونَ واهْجُرْهُمْ هجرًا جميلاً

٥ ولوْ كنْتَ فَظًّا غليظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ

٦ فأَسَرَّهَا يوسفُ فِى نفسِهِ ولَمْ يُبْدِهَا لهم

٧ وإِذَا خاطبَهُمْ الجاهلون قَالوا سلاماً

في المدح

١ ما هٰذَا بَشرًا إِنْ هٰذَا إِلا مَلَكٌ كريم

٢ إِذا رأَيتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لؤلؤاً منثورًا

٣ إِنك اليومَ لدينا مكينٌ أَمين

٤ إنَّ هٰذَا لَهُوَ الفضلُ المبين
٥ وإنك لَعَلَى خُلُقٍ عظيم
٦ ختَامُهُ مسك
٧ ذرِّيَّةً بعضُهَا من بعض
٨ وَبَرًّا بوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكنْ جَبَّارًا عَصِيًّا
٩ ذلك خيرٌ وأحسن تأويلا
١٠ أُولٰئك هم خير البرية
١١ رضى الله عنهم ورَضوا عنه
١٢ وكلٌّ من الأَخيار
١٣ سِيمَاهُم فى وُجُوههم
١٤ وكانوا أَحَقَّ بها وأهلها
١٥ أُولٰئِكَ الذين هَدَى اللهُ فبِهُدَاهم اقْتَدِهْ
١٦ إنَّ خيرَ من استأْجرتَ القوىُّ الأَمين

فى التبرئة والتنزيه

١ حَاشَا الله ما علمنا عَلَيْهِ من سُوءٍ
٢ أُولٰئِكَ مُبَرءُون مما يقولون
٣ فبرأَهُ اللهُ مما قَالوا

فى حُسْن الخلق

١ ما شَاءَ الله
٢ وصوركم فأَحسن صُوَرَكم
٣ يزيد فى الخلق ما يشاءُ
٤ فتبارك الله أَحسنُ الخالقين
٥ صُنْعَ الله الذى أَتقنَ كل شَىءٍ

فى الكذب والزُّور

١ وإنهمْ ليَقُولُونَ منكرًا مِنَ القولِ وَزُورًا
٢ إن هٰذَا إلا اختلاق
٣ كَبُرَتْ كلمة تخرج من أَفواههم إن يقولون إلا كَذِبًا
٤ فويلٌ لهمْ مما كتبتْ أَيديهمْ وويلٌ لهم مما يكْسِبُون
٥ فَبَدَّلَ الذينَ ظلموا قولاً غيرَ الذى قيل لهم
٦ أُنظر كيف كذبوا على أَنفسهم وَضَلَّ عنهم ما كانوا يفترون

فى الخيانة ونقض العهد

١ أَوَ كلَّمَا عاهدوا عهدًا نَبَذَهُ فريق منهم
٢ وما وجدنا لأَكثرهم من عهد
٣ إنهم لا أَيمان لهم

٤ فمنْ نكثَ فإنما يَنْكُثُ على نفسه
٥ إنَّ اللهَ لايحبُّ من كان خَوَّانًا أثيما
٦ وأنَّ اللهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ

فى السُّخرية والغيبة والنميمة والجهر

١ يا أَيها الذين آمنوا لايَسْخر قَوْمٌ من قومٍ عَسى أَنْ يَكونُوا خيرًا منهم ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أَنْ يكنَّ خيرًا مِنْهُنَّ ولا تَلْمِزوا أَنفسَكم ولا تنابزوا بالأَلقاب
٢ ولا تَجَسَّسُوا ولا يَغْتب بعضكم بعضا
٣ لايُحِبُّ اللهُ الجهر بالسُّوءِ منَ القول إلا مَنْ ظُلِمَ
٤ وَيْلٌ لكلِّ هُمَزَة لُمَزَةٍ
٥ وإذا مَرُّوا بهم يتغامزون

فى القتل والانتحار

١ ولا تقتلوا أَولادكم خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نرزقهم وإياكُم إنَّ قَتْلَهم كان خِطئًا كبيرًا
٢ ولا تقتلوا النَّفْسَ التى حَرَّمَ اللهُ إلا بالحقِّ وَمَنْ قتلَ مظلوماً فقد جعلنا لِوَلِيِّهِ سُلطانًا فلا يُسْرِفْ في القتل إِنَّهُ كان مَنْصُورًا
٣ ولا تلقوا بأَيديكم إلى التَّهْلكَة
٤ ولا تقتلوا أَنفسَكُم إنَّ اللهَ كانَ بكُم رحيما

فى الزنا

١ ولا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كان فَاحشةً وسَاءَ سبيلا
٢ ولا تُكْرِهُوا فَتَيَاتكم على البِغَاءِ إنْ أَرَدْنَ تحصُّنًا لتبتغوا عَرَضَ الحياة الدنيا

فى الخمر والميسر

١ يسأَلونك عن الخمرِ والمَيْسِر قُلْ فيهما إِثمٌ كَبير ومنافعُ للناسِ وإِثمُهما أَكْبَرُ من نفعهما
٢ يا أَيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والميسرُ والأَنْصَابُ والأَزْلَام رِجْسٌ منْ عَملِ الشَّيْطَانِ فاجتنبوهُ لعَلكم تُفْلِحُون إنما يريد الشَّيْطَان أَنْ يُوقِعَ بينَكُمْ العَدَاوَةَ والبغضاءَ فى الخمر والميسر وَيَصُدَّكُمُ عنْ ذكر اللهِ وعن الصَّلاة فهل أَنتم مُنْتهون ؟!

في البخل وحب المال

١ وَمَنْ يَبْخَلْ فإنما يَبخلُ على نفسه والله الغَنِيُّ وأَنتم الفقراء

٢ والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفِضَّةَ ولا يُنفقونها في سبيل الله فبَشِّرهم بعذاب أَليم

٣ الذي جمع مالاً وعدّدَه يحْسَبُ أن ماله أَخْلَدَهُ

٤ وتأْكلون التراثَ أَكلاً لَمًّا وتحبّون المال حُبًّا جَمًّا

في الرِّبَا

١ وَأَحَلّ الله البيعَ وحرّم الرِّبَا

٢ يمْحَقُ الله الرِّبَا ويُرْبِي الصَّدَقات

في العُجْب والكبر

١ واسْتَكْبَر هو وجنودُه في الأَرض بغير الحق

٢ ثم ذهب إلى أَهله يَتَمَطَّى

٣ ثانِيَ عطفِهِ ليُضل عن سبيل الله

٤ أَليس في جهنم مَثْوَى للمُتكبرين

٥ إنْ في صدورهم إلا كبرٌ ما هم ببالغيه

٦ ولا تُصَعِّرْ خَدَّك للناس ولا تمش في الأَرض مَرَحًا

في الاستبداد والأَثرة

١ فإذا جاءتهمُ الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصِبهم سيئة يطيَّروا بموسى وَمَنْ مَعَهُ

٢ وإن يكن لهم الحقُّ يأْتوا إليه مُذعِنين

٣ ما أُرِيكم إلا ما أَرَى

في التفرق والاختلاف

١ تَحْسَبهم جميعًا وقلوبُهم شتَّى

٢ كلّ حِزب بما لديهم فَرِحُون

٣ فاختلف الأَحزابُ من بينهم

٤ إنكم لفي قول مختلف

في الجُبن والفرار

١ إن يُرِيدون إلَّا فِرَارًا

٢ يَحْسَبون كل صَيْحَةٍ عليهم هم العَدُوُّ

٣ أَشِحَّةً عليكم فإذا جاءَ الخوفُ رَأَيتَهم ينظرون إليك تَدورُ أَعينهم كالذي يُغَشَى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سَلَقوكم بأَلسِنَةٍ حِدَادٍ

فِيمَنْ يأمر بما لا يفعلُ ويعلم ولا يعمل

١ أتأمرونَ الناس بالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أنْفُسكم

٢ لِمَ تقولون مالا تَفْعَلُون ؟

٣ كمثل الحمارِ يَحْمِلُ أَسفارًا

فى الغفلة

١ لعمرُك إنّهم لفى سكرَتِهم يعْمهون

٢ قُتل الخرَّاصُون الذين هُمْ فى غَمْرَة ساهُون

٣ وإذا ذُكِّرُوا لا يذْكرُون

٤ فويْلٌ للْمُصَلِّينَ الذينَ هُمْ عَنْ صلاتهم سَاهُون

٥ إذْ قضِيَ الأَمرُ وهم فى غَفْلَةٍ

٦ يعلمُون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هُمْ غافلون

فى إنكار الجميل

١ فلمَّا كشفنَا عنهُ ضُرَّهُ مَرّ كَأَنْ لم يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسّهُ

٢ ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضُرٍّ للَجُّوا فى طُغْيَانهم يعْمَهُون

٣ ولو بَسَطَ اللهُ الرِّزْق لعباده لَبَغَوْا فى الأَرض

٤ إنَّ الإنسانَ لَيطْغَى أَنْ رآه اسْتَغْنَى

٥ قُتِلَ الإنسان ما أَكْفرَه ؟ !

فى الذم والإهانة والتهكم والتَّحْقير

١ أَنتم شرٌّ مَكاناً ! !

٢ فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِق ؟ ؟

٣ خُذُوه فَغُلوهُ

٤ مَا نَفْقَهُ كثيراً مِمَّا تقول

٥ كلما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُختَهَا

٦ لايُسْمِنُ ولَا يُغْنِى مِنْ جُوع

٧ إنا تَطَيَّرْنا بكم

٨ سَوَاءً مَحْيَاهُم ومماتهم

٩ لمَقْتُ اللهِ أَكبرُ مِنْ مقْتكم أَنْفُسَكُمْ

١٠ يُعْرَف المُجْرِمون بِسِياهُمْ

١١ ذُق إنك أَنت العزيز الكريم

١٢ ذوقوا فِتْنَتَكُم هذا الذى كُنْتم به تَسْتعجلون

١٣ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فما لَهُ مِنْ مُكْرِم

١٤ وما أُوتِيتمْ من العلم إلا قليلا

١٥ ذلك مَبْلَغُهُمْ مِنَ العلم

١٦ فمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب إن تَحْمِلْ عليه يَلْهَثْ أَو تتركه يَلْهَثْ

١٧ كَمَثَلِ الحمارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا
١٨ أُولئك هم شرُّ البَرِيّة
١٩ همّازٍ مَشّاءٍ بِنَمِيمٍ منّاعٍ للخير مُعْتدٍ أَثيم ، عُتُلٍّ بعد ذلك زَنيمٍ
٢٠ إنك لَغَوِىٌّ مُبين
٢١ إن شانِئَكَ هُوَ الأَبتَر
٢٢ أُولئك لاخَلَاق لهم فى الآخرة
٢٣ أَينما يُوَجِّهْهُ لا يأْتِ بخير
٢٤ أُولئك حزبُ الشَّيطَان
٢٥ اتَّخَذُوا أَيمَانَهُمْ جُنَّة
٢٦ فما لِهٰؤُلاءِ القوم لا يكادون يفقهون حديثًا

فى الضالين والمُضِلِّين

١ إنهم أَلْفَوْا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يُهْرَعُون
٢ الشَّيطان سوَّل لهم وأَمْلى لهم
٣ وإنَّ كثيرًا لَيُضِلُّون بأَهوائهم بغير عِلْم
٤ ولقد ضَلَّ قبلهم أَكثَرُ الأَولين
٥ وإخوانهم يَمُدُّونهم فى الغَىِّ ثم لا يُقْصِرون
٦ ربَّنَا إِننا أَطعْنَا سادتنا وكُبراءَنا فأَضلونا السبيلا

فيمن عميت بصيرتهم وأَضلهم هواهم

١ لهم قلوبٌ لايفقهون بها ولهم أَعينٌ لايُبصرون بها ولهم آذانٌ لايسمعون بها أُولئك كالأَنعام بل هم أَضلُّ أُولئك هم الغافلون
٢ فإنها لا تَعْمَى الأَبصار ولكن تَعْمَى القلوب التى فى الصدور
٣ أَفرأَيت مَنِ اتخذ إلٰهه هواه وأَضله الله عَلَى عِلم ؟!

فى قرناءِ السوءِ ، والغاوين ، والنهى عن اتباعهم

١ ولا تُطعْ مَنْ أَغفلنا قلبه عن ذِكْرِنَا واتبع هواه وكان أَمْرُه فرُطاً
٢ يدْعُو لمَنْ ضَرُّه أَقرب من نفعه لبئسَ المَوْلى ولبئسَ العَشير
٣ ولا تَرْكَنوا إلى الذين ظلموا فتمسَّكم النار
٤ ولاتتبَّعان سبيل الذين لايعلمون
٥ وإخوانهم يَمُدُّونهم فى الغَىِّ ثم لايُقصِرُون

٦ يا ليتَ بيني وبينك بُعْدُ المشرقين فبئس القَرِين

٧ يا وَيْلتَا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا

في التنبيه على الخطأ والضلال

١ ما لكم كيف تحكمون ؟

٢ فأين تذهبون ؟

٣ أتستبدِلون الذي هو أدْنَى بالذي هو خيرٌ ؟

٤ تلك إذَن قسمةٌ ضِيزَى

٥ تالله إنكَ لفي ضلالك القديم

٦ ذلك هو الضلالُ البعيد

٧ ويحْسَبون أنهم على شيء

٨ وهم يحسبون أنهم يُحْسِنون صنْعًا

في المنافقين والمرائين

١ قد بَدَت البغضاءُ من أفواههم وما تُخفي صدورُهم أكبرُ

٢ وإذا خَلَوْا عَضوا عليكم الأنامِل مِنَ الغَيظ

٣ يقولون بألسِنتهم ما ليس في قلوبهم

٤ يُرْضونكم بأفواههم وتأبى قلوبُهم

٥ وليحْلِفُنَّ إن أردنا إلا الحُسْنى والله يشهدُ إنهم لكاذبونَ

٦ إنْ تَمْسَسْكُم حسنةٌ تَسُؤْهم وإنْ تُصِبكم سيئةٌ يفرَحوا بها ، وإنْ تَصبرُوا وتتقوا لا يضركم كَيدهم شيئًا

٧ مُذَبْذَبين بين ذلك لا إلى هؤلاءِ ولا إلى هؤلاءِ

٨ يبغونكم الفتنة وفيكم سَمّاعون لهم

٩ لقد ابتَغوا الفتنة مِنْ قبلُ وقلبوا لك الأُمور حتى جاءَ الحق وظهرَ أمرُ الله وهم كارهون

١٠ ويحلِفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنّهُمْ قومٌ يفرَقون

تمثيل أعمال المُرَائين والمنافقين

١ فَمَثله كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عليه ترابٌ فأصابه وابِلٌ فتركه صَلْدًا

٢ أعمالهم كرمادٍ اشتدَّت به الريح في يوم عاصف

٣ أعمالُهم كَسَرابٍ بقِيعَةٍ يَحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءَه لم يَجِدْهُ شيئًا

في الإنذار والوعيد

١ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم
٢ فسوف يأتيهم أنباءُ ما كانوا به يستهزئون
٣ لكلِّ نبإٍ مُستقَرٌّ وسوف تعلمون
٤ وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نَعُدْ . ولن تُغني عنكم فئتُكم شيئًا ولو كثُرَتْ
٥ فانتظروا إني معكم من المنتظرين
٦ واتقوا فتنة لا تُصِيبن الذين ظلموا منكم خاصةً
٧ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير
٨ ذلك وعدٌ غير مكذوب
٩ وما هي من الظالمين ببعيد
١٠ هذا بلاغٌ للناس ولْيُنذروا به
١١ عما قليلٍ ليُصْبِحُنَّ نادمين
١٢ وسيعلم الذين ظلموا أي مُنقلَبٍ ينقلبون
١٣ فسيعلمون من هو شرٌّ مكاناً وأضعفُ جُندًا
١٤ اعْمَلوا على مكانتِكم إني عامل فسوف تعلمون
١٥ إنه لقولٌ فصلٌ وما هو بالهزل
١٦ ذَرهم يأْكلوا ويتمتعوا ويُلههمُ الأَملُ فسوف يعلمون
١٧ سيعلمون غدًا مَنِ الكذّابُ الأَشِرُ
١٨ سيُهزَم الجمع ويُولُّون الدبُر
١٩ لتُنَبَّؤُنَّ بما عملتم
٢٠ ولقد جاءهم من الأَنباء ما فيه مُزْدجر
٢١ اعملوا ما شئتم
٢٢ فستعلمون مَنْ هو في ضلال مبين
٢٣ إن ما توعدون لواقع
٢٤ فستذكرون ما أَقول لكم
٢٥ فليضحكوا قليلا ولْيَبْكوا كثيرًا
٢٦ فإن للذين ظلموا ذَنُوباً مثل ذَنُوب أَصحابهم فلا يستعجلون
٢٧ اعملوا على مكانتِكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون
٢٨ كلَّا سيعلمون ، ثم كلَّا سيعلمون
٢٩ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أَنفسهم وتبيَّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأَمثال
٣٠ كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون
٣١ ولنخرجنَّهم منها أَذلَّةً وهم صاغرون

٣٢ وقد أفلحَ اليوم من اسْتَعْلَى

٣٣ ولا تعجبْك أَمْوَالهم ولا أولادهم إنما يُريدُ الله أن يُعَذبهم بها فى الدُّنْيَا

٣٤ لقد كُنْت فى غفلة مِنْ هذا فكَشفنا عَنْك غِطَاءَك

٣٥ وليعلمنَّ نَبأَهُ بَعد حين

٣٦ سَنَسِمُه عَلَى الخرطوم

٣٧ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ الله قد أَهْلك مِنْ قبلهِ من القرون مَنْ هُوَ أَشد مِنْهُ قوةً وأَكْثرُ جَمْعًا

٣٨ كلا لَا وَزَرَ

٣٩ إنَّا مِنَ المجرمين مُنْتَقِمُون

٤٠ سَنُسْتدرجهم مِنْ حيث لايعلمون

٤١ سَنَنْظُر أَصَدَقت أَم كُنْت مِنَ الكاذبين

فى الحياة الزوجية

١ وَمِنْ آياته أَنْ خلق لَكُمْ مِنْ أنفسِكُمْ أزواجاً لتسكُنُوا إليها وجعلَ بَينكُمْ مَوَدَّةً ورحمة

٢ وَأَنْ تعفوا أقرب للتَّقْوَى ولا تَنْسوا الفضل بينكُمْ

٣ وَإنْ خِفتم شِقَاقَ بينهما فابعثوا حكمًا مِنْ أهله وَحَكَمًا مِنْ أَهْلها إنْ يُرِيدا إصلاحاً يُوَفقِ الله بينهما

٤ وَلَهُنَّ مثل الذى عليهِنَّ بالمعرُوفِ وللرِّجَالِ عليهن دَرَجَة

٥ وإنِ امرأَةٌ خافت مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَو إعْرَاضاً فلا جُنَاحَ عليهما أَنْ يُصْلحا مابينهما صلحًا والصُّلح خير

٦ وعَاشروهُنَّ بالمعروف

٧ وَائْتَمِرُوا بينكُم بمعروف

فى آداب النساءِ

١ وَقُلْ للمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ من أَبصارهنَّ ويحفظن فروجهنَّ ولا يُبْدين زينتهنَّ إلا ما ظهرَ منها وَلْيَضربن بخُمُرِهنَّ على جُيوبهِنَّ

٢ وَقَرْنَ فى بيوتكُنَّ ولا تَبَرَّجْن تَبرُّج الجاهلية الأُولى

٣ محْصَنَاتٍ غير مسافحاتٍ ولا مُتَّخذات أَخْدان وقلن قَوْلا معروفاً

٤ إن اتقَيْتُنَّ فلا تخضعْنَ بالقَوْلِ فيطمعَ الذى فى قلبه مرضٌ وقلن قَوْلا معروفاً

فى الصلح والسلم

١ فاتقوا الله وأَصلحوا ذات بينِكُم

٢ إنما المؤمنون إخوةٌ فأصلِحُوا بين أخَوَيْكُم

٣ وَالصُّلحُ خيرٌ

٤ وإنْ جنحوا لِلسلمِ فاجْنَح لهَا

٥ يا أَيُّها الذين آمنوا ادخلوا فِي السِّلم كَافَّةً ولا تتَّبِعُوا خُطُوَات الشيطان

النّاس بخير ما تباينوا

١ ولو شَاءَ رَبكَ لجعلَ النّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ولا يزالون مُختلِفين إلا مَنْ رحم ربك ولذلك خلقهم

٢ وَرَفعنا بعضهم فوق بعض درجات لِيَتَّخِذ بعضُهم بعضًا سُخْرِيًّا

في الحثِّ على الصدقة والنهى عما يبطلها

١ مَثَلُ الذين يُنْفقون أَمْوالهم فِي سبيل اللهِ كمثَلِ حَبَّةٍ أَنبتت سبع سَنَابل فى كُلِّ سُنبلة مائة حبَّة

٢ لَنْ تنالوا البرَّ حتى تنفقوا مِمَّا تحبُّون

٣ يا أَيُّهَا الذين آمنوا لَا تُبْطِلُوا صدقاتِكُمْ بالمَنِّ والأَذى

٤ قَوْلٌ معروف ومغفرةٌ خيرٌ مِنْ صدقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى

٥ وما تنفقوا منْ خير يُوَفَّ إليكم

٦ وَأَمَّا السَّائل فلا تَنْهَر

في التحية والاستئذان

١ وإذا حُيِّيتم بتحيَّة فحيُّوا بأَحْسَنَ منها أَو رُدُّوهَا

٢ رحمة الله وبركاته عليكم أَهْل البيت

٣ يا أَيُّهَا الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بُيُوتكُمْ حتى تستأْنِسُوا وَتسَلموا عَلَى أَهْلها

٤ فإن لم تجدوا فيها أَحدًا فلا تدخلوها حتى يُؤذن لكُم

٥ فإن استأْذنوك لبعض شأْنهم فَأْذَنْ لمنْ شئت مِنْهُمْ

في آداب المشى

١ وَاقْصِد فى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِك

٢ ولا تمشِ فِي الأَرضِ مَرَحًا إنكَ لَنْ تخرِقَ الأَرضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجبال طولا

٣ وَعِبَادُ الرحمن الذينَ يَمْشُون على الأَرضِ هَوْنًا

في التلطف والدعوة والطلب

١ إن أُرِيدُ إلا الإصلاح ما استطعت

٢ ياقوم اتبعونِ أَهْدِكُم سبيل الرشاد

٣ هل أَتبعك على أَنْ تُعَلِّمَنى مِمَّا علمت رشْدًا

٤ فَقُلْ هلْ لك إلى أَنْ تزكَّى

٥ إنى لكُم رسولٌ أَمين

٦ فاتبعْنى أَهْدِكَ صِراطاً سويا

في الشُّورَى

١ وشاورْهمْ فى الأَمر

٢ وأَمْرهم شورى بينهم

٣ أَفْتونى فى أَمرى

فى الشفاعة

١ مَن يَشْفع شفاعة حسنةً يكن له نصيبٌ منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كِفْل منها

فى الخطإِ والاضطرار

١ وليسَ عَليكم جناحٌ فيما أَخْطَأْتم به ولكن ما تَعمَّدَت قلوبكم

٢ فمن اضطرَّ غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ عليه

فى المسئوليَّة عن العمل

١ ولا تزر وازرةٌ وزْرَ أُخرى

٢ وأَنْ ليس للإنسان إلا ما سَعى

٣ كلُّ امرئٍ بما كسبَ رَهين

٤ وَكُلَّ إنسان أَلْزَمْنَاهُ طائره فى عنقه

٥ لايضركم مَنْ ضَلَّ إذا اهتديتم

فى الجهاد

١ وَأَعِدُّوا لهم ما استطعتم مِنْ قُوَّة وَمِنْ رباطِ الخيلِ ترْهِبُونَ بهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُم

٢ وَقَاتلوهم حتى لا تكُون فِتْنَةٌ

٣ وَفَضَّلَ اللهُ المجاهدين على القاعدين أَجْرًا عظيمًا

٤ ولولا دفع اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لَفَسَدَتِ الأَرضِ

فى الإِيمان

١ وَاحْفَظُوا أَيمَانكُمْ

٢ ولا تجعلوا اللهَ عُرْضَة لأَيمانِكُمْ

٣ ولا تنقضوا الأَيمان بعد توكيدها

فى الكلام والاستماع

١ أَلم تَرَكيف ضَرَبَ اللهُ مثلاً كلمة طيِّبَةً كشجرةٍ طيِّبَة أَصلها ثابت وَفَرْعها فى السَّماءِ تُؤْتى أُكلها كل حين بإِذْنِ رَبِّهَا

٢ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجْتُثَّتْ مِنْ فوق الأَرض ما لها مِنْ قَرَار

٣ الذين يَسْمَعُون القَوْل فَيتَّبِعُون أَحْسَنَهُ أُولٰئِكَ الذين هداهُم اللهُ وأُولئك هُم أُولُو الأَلْبَاب

٤ وَقُولُوا لِلنَّاس حُسْنًا

٥ يا أَيُّهَا الذين آمَنُوا اتقوا الله وقولوا قَوْلاً سديداً

٦ وإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ

٧ وإِذا مَرُّوا باللغو مَرُّوا كِرَاماً

في الْجَدل والمناظرة

١ ولا تُجَادِلُوا أَهْل الكتاب إلا بالتى هى أَحْسَنُ إلا الذين ظلموا منهم

٢ أُدْعُ إلى سبيل رَبِّكَ بالحكمة وَالمَوْعِظة الحسنةِ وجَادِلهم بالتى هىَ أَحْسَنُ

في تباين المذاهب وتفاوت الدرجات

١ لكلٍّ جَعَلنا مِنْكُم شِرْعَةً ومنهاجاً

٢ ولكلٍّ وَجْهَةٌ هو مُوَلِّيها

٣ قلْ كُلٌّ يَعْمَل على شاكلته

٤ واللهُ فَضَّلَ بعضكُمْ على بَعض في الرِّزْق

٥ وَمَا مِنَّا إلا له مقام معلوم

٦ وفوق كل ذى عِلْمٍ عَليم

٧ وأَنا مِنا الصالحون ومنا دُون ذلك

وبضدها تتميز الأَشياءُ

١ قُلْ لايَسْتَوِى الخبيث والطَّيِّبُ ولو أَعْجَبك كثرة الخبيث

٢ أَفمَنْ أَسَس بُنْيَانه على تقوى من الله ورضوان خيرٌ أَمْ مَنْ أَسس بنيانه على شفَا جُرُفٍ هار فانهار به في نار جهنَّمَ

٣ مثلُ الفريقين كالأَعْمَى والأَصمِّ والبصير وَالسميع هَلْ يستويان مَثلا

٤ وما يستوى البحران هذا عَذْبٌ فراتٌ سائغ شرابه وهذا مِلْحٌ أُجاجٌ

٥ أَفَمَنْ يَمْشِى مُكِبًّا على وَجْهِهِ أَهْدَى أَم مَنْ يَمْشِى سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتقيم

٦ قلْ هَلْ يستوى الذين يَعْلَمُونَ والذين لايَعْلَمُون

في الحث على العمل والسعى والتنافس والمهاجرة

١ ولكلٍّ دَرَجَات مما عملوا

٢ وفى ذلك فلْيَتَنَافس المتنافِسُونَ
٣ أَلَمْ تكُنْ أَرضُ اللهِ وَاسِعَةً فتهَاجرُوا فيها ؟ ؟
٤ فامشوا فى مَنَاكِبِها وكلوا مِنْ رِزْقِه

في الجزاءِ على العمل

١ ظَهَرَ الفسادُ فى البرِّ والبحر بما كَسَبتْ أَيدى الناس ليذيقَهُمْ بعض الذى عَمِلوا لعَلَّهُمْ يَرْجعون
٢ إن هذا كان لكُمْ جزاءً وكَانَ سعيكُمْ مشكُورًا
٣ فمنْ يَعْمَل مِثْقَال ذرة خيرًا يَرَهُ وَمَنْ يعمل مِثْقَالَ ذرَّةٍ شَرًّا يَرَه
٤ وأن ليس للإِنسان إِلَّا مَا سَعَى وأَن سَعْيه سوف يرى ثمَّ يُجْزَاه الجَزَاءَ الأَوْفَى

الجزاءُ من جنس العمل

١ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسِّلْم فاجْنَحْ لها
٢ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم
٣ وإِنْ عَاقبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ ماعُوقبتم به
٤ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها
٥ فمن اعْتَدَى عليكُم فاعْتَدُوا عليه بمثل ما اعْتَدَى عَلَيْكُمْ

٦ هل جزاءُ الإِحسان إِلا الإِحسان
٧ للذين أَحْسَنُوا الحسنى وزيادة
٨ فاذكُرُونى أَذكُرُكُم
٩ وإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا
١٠ إِنَّ اللهَ لايُغَيِّرُ مابِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُوا ما بأَنفسهم
١١ وأَوْفُوا بعَهْدى أُوفِ بِعَهْدِكُم
١٢ وما كان ربكَ ليهلكَ القرَى بظلم وأَهلها مُصْلحون
١٣ جَزَاءً وفاقاً

شبيه الشيء منجذب إليه

١ الخبيثاتُ للخبيثينَ والخبيثونَ للخبيثاتِ ، والطيِّبَاتُ للطيِّبين والطيِّبُونَ للطيِّبَاتِ

فى الإِفساد والبغى والنهى عنهما

١ وَلاتفسدوا فى الأَرض بعد إِصلاحها
٢ ولا تبغ الفساد في الأَرضِ
٣ وإِنَّ كَثيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ ليبغى بعضهم على بعض
٤ ولا تَعَاوَنُوا على الإِثم والعدوان

فى المفسدين المكابرين

١ وإِذا قيلَ لهم لاتفسدوا فى الأَرض

قالوا إنما نحنُ مُصْلِحُون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون .

٢ الذين ضلَّ سعيُهُمْ فى الحياة الدنيا وهم يَحْسَبُون أنهم يحسِنُون صنعاً

٣ ويَحْسَبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذِبُون .

فى غرور الظلمة واستدراجهم

١ يُوحى بعضُهم إلى بَعْض زُخْرُفَ القول غرُوراً .

٢ يَعِدُهم ويُمنِّيهم وما يعِدُهم الشيطان إلا غُرُوراً .

٣ بل إنْ يَعِد الظالمونَ بعضُهم بعضاً إلا غُرُوراً .

٤ ولا تَحْسَبَنَّ الله غافلا عما يعمَلُ الظالمون .

٥ وَأُمْلِي لهم إن كَيدِى مَتين .

٦ فَذَرْهُم فى غَمْرَتِهِمْ حتى حين .

٧ فلا تَعْجَل عليهم إنما نَعُدُّ لهم عَدًا

٨ سَنَستدرجُهم من حيثُ لا يعلمون

٩ ذَرهم يأكلوا ويتَمَتَّعُوا ويُلهِهم الأَمل فسوف يعلمون .

فى سوء عاقبة الظالمين والشماتة بما يصيبهم

١ فغُلِبُوا هُنالكَ وانقلبُوا صَاغِرِين .

٢ انْقَلَبَ على عَقِبَيْهِ خَسِرَ الدنيا والآخرةَ ذلِكَ هو الْخُسْرَان المبينُ

٣ فانظرْ كَيْفَ كان عاقبة الظالمين .

٤ فجعَلْنَاهم أَحاديثَ ومَزَّقْنَاهُمْ كلَّ مُمَزَّق .

٥ فأَتَى اللهُ بُنيانهم مِنَ القواعِدِ .

٦ فَخَرَّ عليهم السَّقفُ مِنْ فَوْقهم وأَتاهُم العذابُ من حيث لا يَشْعُرون .

٧ فأَصابهُمْ سيئاتُ ما عملوا وحاق بهمْ ما كانوا به يستهزئون .

٨ فأَصبحَ يُقلِّب كَفَّيْهِ على ما أَنفق فيها .

الإعراض عن الدعوة

١ وإذا تتْلَى عليه آياتنا ولى مُسْتكبراً كأَن لم يسمعها كأَن فى أُذنيهِ وَقرًا

٢ كأَنهم حُمُرٌ مُستنفرةٌ فَرّت مَنْ قسورة

٣ ثمّ نظر ، ثمَّ عبَس وبسرَ ، ثمَّ أَدبر واستكبر

في التدخل في مالا يعنى والنهى عنه

١ ولا تقْفُ ما ليس لَكَ به علم
٢ لاتَسْأَلُوا عن أَشياءَ إن تُبْد لكم تَسُؤْكم .
٣ عليكم أَنفسكم لايضرُّكم من ضلّ
٤ فلا تَسْأَلن ما ليس لكَ به عِلم .
٥ ليس لك من الأَمر شيء .

في الكرم والإكرام والضيافة

١ ادخلوها بسلام آمنين
٢ كلوا واشربوا هنيئًا .
٣ فكُلُوه هَنيئاً مَرِيئاً
٤ فكُلِي واشربي وقَرِّى عينًا .
٥ وفاكهةٍ مِمَّا يَتَخَيرُون ولحم طيْرٍ مما يشتهون .
٦ وَيُؤْثِرُون على أَنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ .

في التعزية وتهوين الخطب

١ وَيَخْلُقُ ما لا تعلمون .
٢ كل نفس ذائقة الموت .
٣ كلُّ مَنْ عليها فان .
٤ كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وَجْهَهُ .
٥ فإنَّ مع العُسْر يُسْرًا إنّ معَ العسر يسرًا .
٦ ولا تيأَسُوا مِنْ رَوْح الله .
٧ فلا تَذْهَب نفْسُك عليهم حسراتٍ
٨ ولا تحْزَن عليهم ولا تَكُ في ضَيْقٍ مما يَمْكُرُون .
٩ ولا يَحْزُنْكَ قَوْلهم .
١٠ سَيَجْعَلُ اللهَ بعد عُسْرٍ يُسْرًا .

في الكيل والميزان

١ أَوفوا الكيلَ ولا تكُونوا من المُخْسرين وَزِنُوا بالقسطاس المستقيم ولا تَبْخَسُوا الناسَ أَشْيَاءَهم ولا تَعْثَوْا في الأَرض مفسِدِين .
٢ ويلٌ للمُطَفِّفِينَ الذين إذا اكْتَالوا على الناس يَسْتَوْفُونَ وإذا كَالُوهم أَو وزَنُوهم يُخْسِرُونَ .

في النهْي عن الرِّشْوَة

١ ولا تأْكلوا أَمْوالكم بيْنكم بالباطل وَتُدْلُوا بها إلى الحُكّام لِتأْكُلوا فريقًا مِن أَمْوال الناس بالإثْم وأَنتم تعْلمُون .
٢ يا أَيها الذين آمنوا لا تأْكلوا

أَمْوَالكم بينكم بالباطل إلا أَن تكُون تجَارَةً عن تراضٍ مِنكم

في مال اليتيم ومتاعه

١ ولا تَقْرَبُوا مال اليتيم إلا بالتى هى أَحْسَنُ .

٢ ولا تأْكلوا أَموالهم إلى أَموالكم إنه كان حُوباً كبيرًا .

٣ إن الذين يأْكلون أَموال اليتامى ظلمًا إنما يأْكلون فى بطونهم نارًا وسيَصْلَوْنَ سَعِيرًا .

٤ فأَمَّا اليتيم فلا تَقْهَرْ .

فى صكِّ الدَّيْنِ وإنظار المُعْسِر

١ يا أَيها الذين آمنوا إذا تَدَايَنْتُم بديْنٍ إلى أَجلٍ مُسمًّى فاكتبوه .

٢ وإن كَان ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ .

فى الأَحكام والْحُكَّام

١ وإذا حكمتم بين النَّاس أَن تحكموا بالعدل .

٢ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قُرْبَى .

٣ ولا يَجْرِمَنَّكم شنآنُ قَوْمٍ على أَلَّا تَعْدِلُوا ، اَعْدِلُوا هُوَ أَقربُ لِلتَّقوَى .

٤ ولا تُلْبِسُوا الحقَّ بالباطلِ وتكتموا الحقَّ وأَنتم تعلمون .

فى اتِّهام الأَبرياء

١ ومن يكْسب خطيئةً أَو إثماً ثم يَرْم به بريئاً فقد احْتَمَلَ بهْتَاناً وإثماً مُبيناً .

٢ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكُونُ لنا أَن نتكلم بهذا سُبحانَكَ هذا بُهْتَانٌ عظيم .

٣ إذ تلَقَّوْنه بأَلسنتكم وتقولون بأَفواهكم ما ليس لكم به علم وتحْسَبُونه هيِّناً وهو عند الله عظيم

٤ لكل امرئٍ منهم ما اكتَسَبَ من الإِثم والذى تولى كِبَرَه منهم له عذابٌ عظيم .

فى المُكابرة فى الحق والمعاندة

١ ويُجادل الذين كفروا بالباطل لِيُدْحِضُوا به الحق .

٢ وجَحَدوا بها وَاسْتيْقَنَتها أَنفسهم ظلماً وعُلوًّا .

٣ ما ضرَبوه لك إلا جَدَلا .

٤ يُريدُون أَن يُطفِئُوا نورَ اللهِ بأَفواهِهم .

٥ يجادلونك فى الحقِّ بعد ما تبيّنَ

٦ وإنَّ فريقاً منهم ليكْتُمُون الحقَّ وهم يعلمون .

٧ أُنظر كيف نصرِّفُ الآيات ثم هم يَصْدِفون .

فى الحقِّ والباطل

١ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ويُبْطِلَ الباطلَ ولو كره المجرمُون

٢ الآن حَصْحَصَ الحقُّ .

٣ فأَمَّا الزَّبَدُ فيذهَبُ جُفَاءً ، وأَمَّا ما ينفع الناس فيمكُثُ فى الأَرض .

٤ قضِيَ بالحق وخَسرَ هُنالك المُبْطلون .

٥ الحقُّ أَحقُّ أَن يُتَّبع .

٦ فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال .

٧ لقد جئناكم بالحق ولكنَّ أَكثركم للحق كارهون .

٨ فوقع الحقُّ وبطل ما كَانوا يعملون .

٩ ولا يأْتونك بمَثَل إلا جئناك بالحق وأَحسن تفسيرا .

فى أَداءِ الشهادة

١ يا أَيها الذين آمنوا كُونوا قوّامين بالقسط. شهداءَ لله ولو على أَنفسكم أَو الوالدينِ والأَقربين .

٢ ولا تكْتموا الشهادة ومن يكْتُمها فإِنهُ آثِمٌ قلبُهُ .

٣ فإِذا دفعتم إليهم أَموالهم فأَشْهدُوا عليهم .

٤ ولا يأْب الشُّهداءُ إذا ما دُعُوا .

٥ وأَشهدُوا إذا تبايعْتم ولا يُضَارّ كاتبٌ ولا شهيد .

٦ وأَنا على ذلكم من الشاهدين .

٧ وما شهدنا إلا بما علمْنَا .

فى الخبر اليقين

١ ما زاغ البصرُ وما طغى .

٢ فلنقصَّنَّ عليهم بعلمٍ وما كُنا غائبين .

٣ نحنُ نقصُّ عليك نبأَهُم بالحقِّ .

٤ أَحطتُ بما لم تحط. به .

٥ ولا يُنبِّئكَ مثل خبير .

في الاستنكار والتعجب

١ إني لعملكم مِنَ القالين .

٢ لقدْ جئتم شيئاً إدًّا .

٣ لقدْ جِئْت شيئاً إِمْرًا .

٤ لقدْ جِئْتَ شيئاً نُكرًا .

٥ مَا سَمِعْنا بهذا في آبائِنا الأَوَّلين .

٦ إنَّ هذا لشيءٌ عَجيبٌ .

في المحاماة والدِّفاع عن الأَثمةِ

١ ها أَنتم هؤلاءِ جادَلْتُمْ عنهم في الحياةِ الدُّنيا فمن يجادِلُ اللهَ عنهم يومَ القيامةِ أَمَّنْ يكُونُ عليهم وكيلا .

٢ ولا تُجَادِلْ عن الذين يختانون أَنفسهم .

٣ ولا تعاونوا على الإِثم والعُدْوان .

٤ فلن أَكُونَ ظهيرًا للمجرمين .

في التحدِّي وعدم المبَالاة

١ فاقْضِ ما أَنت قاض .

٢ فإن كانَ لكم كيدٌ فكيدُون

٣ فكيدُوني جميعاً ثم لا تُنْظِرُونِ

٤ قلْ هاتوا بُرْهانكم إن كُنتم صادقين .

٥ قل هلْ عندكم مِنْ علم فتُخرجوه لنا .

في النَّجوى والمؤَامرَة

١ فتَنَازَعُوا أَمْرَهم بَينَهُمْ وأَسَرُّوا النجْوَى .

٢ لا خيرَ في كثيرٍ مِنْ نجْوَاهُمْ .

٣ أَمْ يَحْسَبُون أَنَّا لا نسمعُ سِرَّهم ونجواهم .

في الظَّنّ والشكّ

١ إنْ يَتَّبعُون إلا الظَّنّ وإن الظنّ لا يُغنِى من الحق شيئاً .

٢ وَإِنهُمْ لَفِى شكٍّ منه مُريب .

٣ وإنَّا لَفِى شكٍّ مما تَدْعوننا إليه مُرِيبْ .

٤ إنْ يَتَّبعُون إلا الظن ومَا تَهوى الأَنفسُ .

٥ وما يَتَّبعُ أَكثرهم إلا ظنًّا إنَّ بَعض الظنّ إثمٌ .

في التبرُّؤ والتنصُّل

١ فلمَّا تراءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عقِبَيْهِ ، وقال إني بريءٌ منكم إني أَرَى مالا تروْنَ .

٢ أَنتمْ بَرِيئونَ مما أَعملُ وأَنا برىءٌ مما تَعْلمون

٣ فلا تلوموني وَلُومُوا أَنفُسَكُم

في موقف الظلمة والمجرمين أمام العدالة

١ وقفوهُم إنهم مسئولون .

٢ هذا يَوْمُ الفصل جمعناكُم وَالأَوَّلين

٣ مكانكُم أَنتم وشركاؤكم

٤ خُذُوهُ فغلُّوهُ

٥ ما لَكُم لا تنْطقونَ

٦ مالكُم لا تناصَرُون

٧ لا تختَصِمُوا لَدىَّ

في حيرة المجرمين وإشفاقِهم عند ظهور الحق

١ فَعَمِيَتْ عليهمُ الأَنباءُ يومئِذٍ فَهُمْ لا يَتساءَلُونَ

٢ ووقَعَ القول عليهم بما ظلموا فهمْ لا يَنطقون

٣ وَوُضِع الكتاب فترى المجرمين مُشْفِقِين مما فيه .

في الإفحام والإلزام

١ إقرأْ كتابكَ كفى بِنَفْسِك اليوم عليك حَسِيباً .

٢ هذا كتابُنا ينطقُ عليكم بالحق إنا كُنَّا نستَنْسِخُ ما كنتم تعملون

٣ ووجدوا ما عملوا حاضراً

في اليأْس والتيئيس

١ قُضِيَ الأَمْرُ الذى فيه تستفْتِيَان

٢ فنادوا وَلاتَ حينَ مناصٍ

٣ اصْبِرُوا أَو لا تصبِرُوا

٤ وَلا تخَاطِبْنِي في الذين ظلموا

٥ لا تَعْتَذِرُوا اليَوْم

في إمضاءِ الأَمر

١ فإذا عزمْت فتوكل عَلَى اللهِ

٢ وكان أَمراً مَقضيًّا

٣ إفعَل ما تُؤْمَر

٤ فافعَلوا ما تُؤْمرُون

في حال المجرمين وهم يعذبون

١ كلما أَرادوا أَنْ يخرُجُوا منها أُعِيدوا فيها

٢ لهم فيها زَفِيرٌ وَشهِيقٌ

٣ يَتَجَرَّعُهُ ولا يكادُ يُسِيغه

٤ إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بآياتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كلما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جلودًا غيْرَهَا لِيَذوقوا العَذابَ .

في الشيب والكبرو الضعف

١ رَبِّ إِنِي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّى وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شيبا .

٢ وقد بَلغتُ من الكِبَرِ عِتِيًّا .

٣ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنكسه فى الخلقِ

٤ ومنكم مَنْ يُرَدُّ إلى أَرْذلِ العُمُرِ لكيلا يَعْلَمَ بَعْدَ علم شيئًا .

جزع الناس ومظاهرهم عند البلاءِ

١ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِم لايَرْتَدُّ إليهم طَرْفهم وأفئدتُهُمْ هواء

٢ وترَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَاهُمْ بِسُكَارَى .

٣ هَلْ تُحِسُّ منهم مِنْ أَحَدٍ أَو تسمَعُ لَهُمْ رِكزًا .

٤ وَوُجُوهٌ يومئذٍ عليها غَبَرَةٌ تَرْهَقهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ

٥ فانطلقوا وَهُمْ يَتَخَافتون

في صفات الإِنسان الفطرية

١ إنَّ الإِنسان لظلومٌ كفّار

٢ وكان الإِنسان أَكثر شيءٍ جَدَلا

٣ خُلِقَ الإِنسان مِنْ عَجَلٍ

٤ فطرَةَ اللهِ التى فطرَ الناسَ عليها لا تبديلَ لخلق الله

٥ وَخلقَ الإِنسانُ ضعيفًا

٦ إنّ الإِنسان ليطغى أَن رآه اسْتَغْنَى

٧ إنّ الإِنسان خلقَ هَلُوعًا إذا مَسَّهُ الشرُّ جَزُوعًا ، وإذا مَسَّهُ الخيرُ مَنُوعاً .

٨ قُتِلَ الإِنسان ما أَكْفَرَه !

في الخوف

١ فأَصْبَحَ فى المدينَة خائِفًا يَتَرَقَّبُ

٢ فَخَرَجَ منها خائفًا يَتَرَقَّبُ

٣ لو اطلعت عليهمْ لَوَلَّيْتَ منهمْ فِرَارًا وَلَملِئْتَ منهم رُعْبًا

٤ ذلك الذى يُخَوِّفُ الله به عِبَادَه

٥ فأَوْجَسَ منهمْ خيفة

٦ إننَا نخافُ أَنْ يَفْرُط علينا أَو أَنْ يطغى .

٧ إنى أَخافُ أَن يكَذِّبُون

٨ إذ دخلوا عَلَى دَاوُدَ فَفزعَ منهم

٩ إنَّا منكُمْ وَجِلُون

في التضجر والتحسر وإظهار الضعف

١ لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا
٢ ياليتني كُنْتُ معهم فأَفوز فوزًا عظيمًا
٣ ياليتني مِتُّ قَبْلَ هذا وكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا
٤ هذا منْ عَملِ الشيطان إنه عَدُوٌّ مُضلٌّ مُبِين
٥ هذا يَوْمٌ عَسِر
٦ يا ليتها كانت القاضية
٧ وَيَضِيقُ صَدْرِي ولاينطلق لساني

في النفس الأَمارة بالسوء

١ ما أَصابكَ مِنْ حَسَنَةٍ فمنَ اللهِ وما أَصابك مِنْ سَيِّئَةٍ فمن نفسك
٢ وما أُبَرِّئُ نَفسي إنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ إلا ما رَحِمَ رَبِّى

في الخجل والاستحياء

١ فجاءَتْه إحداهنَّ تمشي عَلى اسْتِحْيَاءٍ
٢ يَتَوَارَى مِنَ القَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ به

في النسيان

١ وما أَنسانيه إلا الشيطانُ أَنْ أَذْكُرَه
٢ فَنَسِيَ ولم نَجِدْ لَهُ عَزْمًا
٣ وَنَسُوا حَظًّا مما ذكِّرُوا به
٤ ولا تَنْسوا الفضلَ بينكُم
٥ واذكُرْ ربكَ إذا نَسِيت
٦ سَنُقْرِئكَ فلا تَنْسَى
٧ لاتُؤاخِذْني بما نَسِيتُ

في الرؤْيا والأَحلام

١ نَبِّئْنَا بتَأْوِيله إنَّا نراكَ مِنَ المحسنين
٢ أَفتوني في رُؤْيايَ إن كُنْتم لِلرُّؤْيا تَعْبُرُون
٣ أَضْغَاثُ أَحلام وما نحنُ بتأْويل الأَحلام بعالمين
٤ أَنا أُنَبِّئُكُم بتأْويلهِ
٥ هذا تأْويل رُؤْيَايَ مِنْ قَبلُ قَد جعلها رَبِّى حَقًّا .

الفرح بزوال المكروه

١ وكَفَى اللهُ المؤْمنين القِتَالَ
٢ الحمد لله الذى أَذهبَ عَنَّا الحَزَنَ
٣ الحمدُ للهِ الذى نَجَّانَا مِنَ القَوْم الظالمين
٤ فقطعَ دابرُ القَوْمِ الذينَ ظلموا والحمد للهِ رَبِّ العالمين

٥ فَوَقعَ الحقُّ وبطلَ ما كانوا يَعْمَلون

٦ فانقلبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وفضلٍ لم يَمْسَسْهم سُوء

٧ فوقاه الله سَيِّئَاتِ ما مَكَرُوا

في النعيم والسرور والقصور وما حَوَت

١ تَعْرِفُ فى وُجُوهِهِمْ نَضرَة النعيم

٢ إذا رَأَيتَهُم حَسِبْتَهُمْ لؤلؤًا مَنْثُورًا

٣ وُجُوهٌ يَوْمئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَة

٤ فيها سُرُرٌ مرفوعَةٌ وأَكْوَاب مَوْضُوعَةٌ ونمارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثة

٥ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائنُها مِن اسْتَبْرَق

٦ وَيُطَاف عَلَيْهِمْ بآنِيَةٍ مِنْ فضةٍ وَأَكْوَاب كانت قَوارِيرًا

٧ مُتَّكِئِين فيها عَلَى الأَرَائِكِ

في الجبال والبحار والسفن والأمواج

١ وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وحمرٌ مختَلفٌ أَلوانها وَغَرَابيبُ سُودٌ

٢ وقال اركبوا فيها باسم الله مَجْرِيها وَمُرْسَاها

٣ وهيَ تجرى بهم فى مَوْج كالجبال

٤ أَو كظلمَاتٍ فِى بحرٍ لُجِّىٍّ يَغْشَاه مَوْجٌ من فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظلماتٌ بعضها فَوْقَ بعضٍ إذا أَخرج يَدَه لم يَكَدْ يَراها

٥ فَغَشِيَهُمْ من اليمِّ ما غَشِيَهم

٦ وحالَ بينهما الموجُ فكان مِنَ المغْرَقِين

٧ ولهُ الجوارِ المنْشَئَاتُ فِى البحرِ كالأَعلام

في المطر والبرق والرعد والريح

١ يكاد سَنَا بَرقِهِ يذهب بالأَبصار

٢ هذا عارضٌ ممطرُنَا

٣ ريحٌ فيها عذاب أَليم

٤ وهو الذى يُرْسِل الرِّيَاحَ بُشْرًى بينَ يَدَىْ رحمتِهِ

في البساتين والروح والريحان

١ وَدَانِيَةً عليهمْ ظِلَالُها وَذُلِّلتْ قطوفها تَذْليلا

٢ فيها فاكِهة والنخل ذاتُ الأَكمام

وَالْحَبُّ ذو العَصْف وَالرَّيْحَان

٣ فى سِدْرٍ مَخْضُود وَطلحٍ مَنْضُودٍ وَظِلٍّ مَمْدُود ، وماءٍ مَسْكُوب ، وفاكهةٍ كثيرَة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة

في التَّفكُّر والنظر والاستدلال على الخالق

١ وَمَا مِنْ دَابة فى الأَرض ولا طائر يطير بجنَاحَيْهِ إلا أُمَمٌ أَمثالُكُم

٢ وترَى الجبالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وهى تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنعَ الله الذى أَتْقَنَ كلَّ شيءٍ .

٣ وهو الذى يَبْدَأُ الخلق ثم يُعِيدُه وهو أَهْوَنُ عليه

٤ ما خَلْقُكُمْ ولا بَعْثُكُمْ إلَّا كنفس واحدة

٥ لخلقُ السموات والأَرضِ أَكبر من خلق الناس ولكنَّ أَكثر الناس لا يعلمون

٦ وما خلقنا السموات والأَرضَ وما بينهما لاعبين

٧ وفى أَنفسِكُم أَفلا تُبْصرون

٨ فلينظر الإِنسانُ إلى طَعَامِهِ

٩ فلينظر الإِنسانُ ممَّ خُلقَ

١٠ وَاللهُ أَنْبَتَكُم من الأَرض نباتاً ثم يُعيدكم فيها ويُخرجكم إخْرَاجاً

١١ وجعلنا الليلَ والنهارَ آيتين فمحَوْنَا آية الليل وجعلنا آية النهار مُبْصِرَةً لتَبْتَغُوا فضلاً من ربِّكُم ولتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنينَ وَالحساب

١٢ وَترى الأَرضَ هَامِدَةً فإِذا أَنزلنا عليها المَاءَ اهتزَّت وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ من كلِّ زَوج بهيج

في العِظَة وَالعِبْرَة

١ إنَّ فى ذلك لذكرى لمَنْ كان لَهُ قَلْبٌ أَو أَلْقَى السَّمع وهو شَهِيدٌ

٢ فَاعْتَبرُوا يا أُولى الأَبصارِ

٣ ذلك ذِكْرَى للذَّاكرينَ

٤ لنجعلها لكم تذكرَةً وَتعِيها أُذنٌ وَاعِيَة

٥ إنَّ فى ذلك لعِبْرَةً لمن يَخْشى

٦ إن فى ذلك لعِبْرَةً لأُولى الأَبصار

٧ وما يَذَّكَّر إلَّا أُولو الأَلباب

٨ لقد كان فى قصصهم عِبْرَةٌ لأُولى الأَلباب

فى نِعم الله وفضله

١ ذلك تخفيفٌ مِنْ ربّكُم ورحمة .

٢ يريدُ الله بكمُ اليسرَ ولا يريدُ بكمُ العُسرَ .

٣ وما مِنْ دابة فى الأَرض إلا عَلَى الله رزقها .

٤ وإن تعُدُّوا نعمة الله لاتحصوها .

٥ وإنَّ ربَّكَ لذو مَغْفِرَةٍ للناسِ عَلَى ظلمهم .

ما استأثر الله بعلمه

١ إنَّ الله عنده علم الساعة وَيُنَزِّل الغيث ويعلمُ ما فِى الأَرحام وماتَدْرِى نفسٌ ماذا تكْسِب غداً وما تَدْرِى نفسٌ بأَى أَرض تموت إنَّ اللهَ عليم خبير .

٢ ويسأَلونكَ عن الرُّوح قُلِ الروح مِنْ أَمرِ ربى .

فى العمل لوجه الله لا لجزاءِ الناس

١ إنما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لانريد منكم جزاءً ولا شكُورًا .

٢ وما أَسأَلكم عليه مِنْ أَجْر إن أَجْرِىَ إلَّا على ربِّ العالمين .

وصف الدنيا وتحقير متاعها

١ قُلْ مَتاعُ الدنيا قليل .

٢ إنما الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْو .

٣ وما الحياةُ الدنيا إلا متاع الغرور .

فى التحذير من النفس والشيطان وغرور الدنيا

١ الشيطانُ يَعدُكُم الفقر ويأْمركُم بالفحشاء .

٢ إنَّ النفسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوء .

٣ فلا تغُرّنكمُ الحياة الدنياولايغرّنكُم بالله الغرور .

فى التسليم بقضائه تعالى وقَدَرِه

١ قُلْ لن يُصِيبنا إلا ما كَتَبَ اللهُ لنا هُوَ مولانا .

٢ ولو شاءَ ربك ما فعلوه .

٣ ليقضِىَ الله أَمرًا كان مفعولا .

٤ إنَّ الله بالغُ أَمرِهِ .

٥ أَلَا لَهُ الخلقُ والأَمرُ .

٦ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لمنْ يَشَاءُ وَيَقْدِر

٧ وربك يخلقُ ما يشاءُ ويختار .

٨ لِلهِ الأَمر من قبلُ ومن بعدُ .

٩ ألا إلى الله تصيرُ الأُمُور .
١٠ لا يُسْأَلُ عمَّا يفعلُ .

في الترغيب والتقوى والإحسان

١ مَنْ جاءَ بالحسنةِ فلهُ عَشْرُ أَمْثَالها .
٢ إن الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات .
٣ إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتقاكُم .
٤ ورحمةُ رَبك خَيْرٌ مما يَجمعون .
٥ للذين أَحْسَنُوا الحسنى وَزيَادةٌ .

في الاعتماد على الله والتوكل

١ وعلى الله قصدُ السبيل .
٢ وما ذلك على الله بعزيز .
٣ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوكيل .
٤ إنما أشكُو بَثِّى وَحُزْنِى إلى الله .
٥ ليسَ لها من دُونِ اللهِ كاشفة .
٦ وَاللهُ المستعانُ .

في الموت وعدم تخلف الآجال

١ كلُّ نَفْسٍ ذائقةُ الموت .
٢ لكلِّ أَجَلٍ كتابٌ .

في التوبة والإنابة

١ إنما التَّوْبَةُ على اللهِ للذين يعملون السُّوءَ بجهالةٍ ثمَّ يتوبونَ منْ قريبٍ .
٢ وَليستِ التوْبة لِلذينَ يَعملونَ السيئات حتى إذا حضرَ أَحَدَهُم المَوْتُ قال إنى تُبْتُ الآن .
٣ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَو يَظلِم نَفسهُ ثمَّ يَسْتَغْفِر اللهَ يجدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيماً .

في الدعاء والتضرع
إلى الله تعالى

١ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذنا إنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا .
٢ رَبِّ هَبْ لى مِنْ لَدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إنك سَميع الدُّعاءِ .
٣ رَبَّنَا فَاغْفِر لنا ذُنُوبَنا وكفر عَنَّا سيئاتنا وتوفنا مع الأَبرار .
٤ رَبِّ أَدْخِلنى مُدْخلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنى مخرج صِدْقٍ وَاجْعَل لى مِنْ لَدُنك سلطاناً نصيرًا .
٥ رَبَّنَا آتنا من لَدُنك رَحْمَةً وَهَيِّىء لنا من أمرنا رشدًا .
٦ رَبِّ اشْرَح لى صَدْرِى وَيَسِّرْ لى أَمْرِى .

في فضل القرآن الكريم

١ ولقدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فهل مِنْ مُدَّكِرٍ .

٢ إنَّ هذا القرآن يهْدِي للتى هى أقوَمُ .

٣ فاقرءُوا ما تيسر مِنَ القرآن .

٤ وإذا قُرِئَ القرآن فاستمعوا لهُ وَأَنْصِتُوا لعلَّكُم ترْحَمُون .

في الإنباء والاستنباء

١ عَمَّ يَتَسَاءَلُون عَنِ النَّبَإِ العظيم الذى هم فيه مختلفون .

٢ فَأَقْبَلَ بَعضُهُمْ على بعض يَتساءلون .

٣ عَرَّف بعضه وَأَعرض عن بعض .

٤ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا .

٥ هل أتاك حديث الجُنود .

في الكُتب والكتابة والرسالة

١ إِذْهَبْ بكتابى هذا فَأَلْقِهْ إليهم .

٢ ولقدْ وَصَّلنَا لَهُمُ القول .

٣ فيها كُتُبٌ قَيِّمَة .

٤ هاؤمُ اقرأوا كتَابِيَهْ .

في الاقتراب والدنو

١ اقتربتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ القمرُ .

٢ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بقريب ؟ ؟

٣ أَزِفتِ الآزِفة .

٤ فكان قاب قَوْسَيْنِ أَو أدنى .

٥ قلْ عَسَى أَن يكُون قريبًا .

في الضعف والعجز

١ فما استطاعُوا مِنْ قيام وما كانوا مُنْتَصرين .

٢ فما اسْطاعُوا أَنْ يظهَرُوه وما استطاعوا له نَقبا .

٣ وما ينبغى لهم وما يستطيعون .

٤ إنك لن تستطيع معى صَبراً .

٥ وإنَّ أَوْهَنَ البُيُوت لَبَيْتُ الْعَنْكَبوت .

٦ ضَعُفَ الطالب والمطلوب .

٧ فما له مِنْ قوَّة ولا نَاصِرٍ .

٨ وَخُلِقَ الإنسانُ ضعيفًا .

في البلاءِ وما يصاب به الناس

١ فَجَعَلناها حَصِيدًا كأَنْ لَمْ تَغْنَ بالأَمْسِ .

٢ إنَّ هذا لَهُوَ البلاءُ المبين .

٣ فأَصبحوا لا يرَى إلا مَسَاكِنُهُمْ

٤ ما تَذَرُ مِنْ شيءٍ أتتْ عليه إلَّا جعلتْهُ كالرَّمِيمِ .

٥ فَتَرَى القوم فيها صَرْعَى كأَنهم أَعجازُ نَخْلٍ خاوية .

٦ وَأَخْرَجَتِ الأَرضُ أَثْقَالهَا .

٧ فجعلَهُمْ كَعَصْفٍ مأْكُولٍ .

في الاغترار بالمظاهر

١ وإذا رأَيتهُمْ تُعْجِبْك أَجْسَامُهُمْ وإن يقولوا تَسْمَع لِقَوْلهم كأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَة .

٢ يَحْسَبُهُ الظمْآنُ مَاءً حتى إذا جاءَهُ لم يَجدْهُ شيئًا .

٣ يَحْسَبهم الْجَاهِلُ أَغنياءَ مِنَ التَّعَفُّف .

٤ تَحْسَبُهُمْ جميعًا وقُلوبُهُمْ شَتَّى .

٥ وَتَحْسَبهم أَيقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ .

في البشرى والتهنئة

١ يا بُشْرَى هذا غُلَام .

٢ بُشْرَاكُم اليومَ .

٣ بَشّرْنَاك بالحقِّ فلا تَكُنّ مِنَ القانطين .

٤ وَبَشّرُوهُ بغلام عَليم .

ما يقال عند الظفر بالحاجة

١ هذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى .

٢ إنَّ هٰذَا لَهُوَ الفَوْزُ العظيم .

٣ فَضْلا مِنَ اللهِ ونعمة .

٤ ذلك ما كُنَّا نَبْغِ .

في الامتنان بالنعم

١ أَلَمْ نَشْرَحْ لكَ صدركَ .

٢ أَلم يجِدْكَ يَتيما فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضالا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عائلا فأَغنى .

٣ اذْكُرُوا نِعْمَتِى الَّتِى أَنعمتُ عليكُمْ .

٤ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامكُمْ .

٥ ولولا أَنْ ثَبَّتْنَاك لقدْ كِدْتَ تركنُ إليهم شيئًا قليلا .

في التحدث بالنعمة

١ وَبَرًّا بوالدتى ولم يجعلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا .

٢ ولوْلَا نعمة ربى لَكُنْتُ مِنَ المُحْضَرِين .

٣ وَأَمَّا بنعمةِ ربكَ فحدِّث .

التأْمين والطمأْنينة

١ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ .

٢ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القَوْمِ الظالمين

٣ أَقْبِلْ ولا تخف إنك من الآمنين.
٤ ولكن لِيَطْمَئِنَّ قلبي .
٥ لاتَخَفْ إنك أنت الأَعلى .
٦ وما أُريد أن أَشُقَّ عليك ستجدُنى إن شاءَ اللهُ من الصالحين .

٧ ولا تخَافى ولا تَحْزَنى إنَّا رادوهُ إليكِ .
٨ لَنْ يَصلوا إليك .
٩ ولا تَهِنُوا ولا تحزنوا وأَنتم الأَعْلَوْنَ والله معكم .

أمثال مختارة للعرب

إن من البيان لَسحرًا(١) ، إن البلاءَ مُوَكل بالمنطق(٢) ، إن المُوَصِّينَ بَنُو سَهْوَان(٣) ، إن الشقيَّ وافد البراجم(٤) ، إن البُغَاث بأَرضنا يَسْتَنْسِرُ(٥) ، إن الجبان حتفهُ من فوقه(٦) ، إن المعَافى غيرُ مخدوع(٧) ، إن فى الشر خيارًا ، إن الحديد بالحديد يُفْلحُ ، إن الشفيق بسوءِ ظَنٍّ مُولَعُ(٨) ، إنّ وراءَ الأَكمة ماوراءَها ، إن العصا من العُصِيَّة(٩) ، إن العَوان لاتُعَلَّمُ الخمرة(١٠) ، إن الغنيّ طويلُ الذيل مياس(١١) ، إن الليلَ طويلٌ وأَنت مُقمر(١٢) ، إن العصا قُرِعَت لذى الْحِلم(١٣) ، إن الحبيب إلى الإخوان ذو المال ، إن الهزيل إذا شبِعَ ماتَ(١٤) ، إن غدًا لناظره قريب ، إن أخاكَ مَنْ آساك(١٥) ، إنك لاتجنى من الشوك العنب ، أَتتك بحائن رجلاه ،

(١) يضرب فى استحسان المنطق (٢) يضرب لمن أسىء اليه . (٣) يضرب لمن يسهو عن طلب شىء أمر به . (٤) البراجم : بطن من تميم ، يضرب لمن يوقع نفسه فى هلكة طمعا . (٥) يضرب للضعيف يصير قويا . (٦) يضرب فى أن الحذر لاينجى من القدر . (٧) يضرب لمن يخدع فلا ينخدع . (٨) يضرب لمن يفشى على نفسه أمرا مستورا . (٩) يضرب فى مشاكلة الفرع للأصل . (١٠) العوان : المرأة النصف ، والخمرة: لبس الخمار . يضرب فى استغناء المجرب عن الارشاد . (١١) أى لايستطيع ذو الغنى أن يكتمه . (١٢) يضرب للامر بالتصبر فى طلب الحاجة . (١٣) يضرب لمن اذا نبه انتبه . (١٤) يضرب فيمن استغنى فتجبر على الناس . (١٥) يضرب فى الحث على مراعاة الاخوان .

إنما أُكلتُ يوم أُكِلَ الثور الأبيض ، إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليكَ القمر(١) ، إن كنت ريحاً فقد لاقيْتَ إعصاراً(٢) ، إن تَرِدِ الماءَ بماء أكيس(٣) ، إحدى حُظَيّات لقمان(٤) ، أكل عليه الدهر وشرِب(٥) ، إنه ليَعْلَم من أيْنَ تُؤكل الكَتف(٦) آكل لحمى ولا أدعُهُ لآكل(٧) ، إياك وما يُعْتذر منه ، إذا زَلّ العَالِمُ زَل بزلته عالم ، أنْتَ تَئِقٌ وأنا مَئِقٌ فمتى نتفق(٨) ، إياك أعنى واسمعى ياجارة ، إذا حانَ القضاءُ ضاق الفضاءُ(٩) ، أُم الجبان لا تفرح ولا تحزن ، إذا جاءت السنة جاءمعها أعْوَانُهَا(١٠) إن حالتْ القوسُ فَهْمِى صائب(١١) ، ألا من يشترى سهراً بنوم(١٢) ، إذا ما القارظ العنزى آبا(١٣) ، وإن كُنت كَذوباً فكُن ذكُوراً(١٤) ، إنما يحمل الكلَّ على أهل الفضل(١٥) ، إذا تخاصم اللصان ظهر المسروق(١٦) ، إذا تفرقَت الغنم قادتها العنز الجرباءُ إذا عاب البزاز ثوباً فاعلم أنه من حاجته(١٧) ، إذا أردت أن تطاع فسلْ ما يُسْتطاع إن يكن الشغلُ مجهدةً فإن الفراغ مفسدة ، إذا قدم الإخاءُ سمح الثناءُ ، بلغ السيل الزُّبى(١٨) بعض الشر أهون من بعض(١٩) ، بلغ السكين العظم(٢٠) باقعة من البواقع(٢١)

(١) يضرب للامر المشهور . (٢) يضرب للمداهى الشديد يبلى بمن هو ادهى منه واشد . (٣) يضرب للاخذ فى الامور بالاحتياط . (٤) يضرب فى الشر يصدر عمن عرف به ، وحظيات لقمان : سهامه (وفى القاموس خطأ) (٥) يضرب لمن طال عمره . (٦) يضرب فى المجرب المحنك . (٧) يضرب فى الرجل ينصر قرينه وان كان عدوه . (٨) التئق : السريع الى الشر ، والمئق: السريع الى البكاء يضرب للمختلفين أخلاقا . (٩) يضرب لمن يخاطب شخصا وهو يريد غيره تعريضا ، (١٠) السنة القحط وأعوانها الجراد والامراض ، يضرب فى تجمع الشدائد. (١١) حالت القوس : زالت عن استقامتها . يضرب فيمن زالت نعمته ولم تزل مروءته . (١٢) يضرب لمن غمط النعمة وكره العافية . (١٣) يضرب فى امتداد البعد والغيبة (١٤) يضرب الرجل يكذب ثم ينسى فيناقض نفسه . (١٥) الكل : الثقل. (١٦) يضرب فى القوم يختلفون فيسود فيهم الاشرار. (١٧) البزاز :بائع الثياب (١٨) الزبى : جمع زبية وهى أعلى الجبل ، يضرب لمن جاوز الحد . (١٩) يضرب فى الشرين يختار أهونهما(٢٠) يضرب لمن جاوز الحد . (٢١) الباقعة : الداهية يقال فى الرجل يكون داهيا منكرا .

إبدأهم بالصُّراخ يَفِرُّوا(١) . أبدى الصريح عن الرغوة(٢) . بعض الجدب أمرأُ للهزيل(٣) . بنان كف ليس فيها ساعد(٤) . بعد البلاءِ يكون الثناءُ . أبلغ من قُسّ . أبخل من مادر . أبصر من زرقاء اليمامة ، ومن غُراب . أنتى من الدهر . أبقى من وَحْى فى حجر(٥) . أبينُ من فلق الصبح . أبكَرُ من غُراب . ترك الذنب أيسر من طلب التوبة . تجوع الحرَّة ولا تأْكل بثدييْهَا(٦) . تسألنى برامتين سلجما (٧) تجشأْ لقمان من غيرشبع (٨) . تضرب فى حديد بارد . تلدغ العقرب وتصىء(٩) . تركتهم فى حَيْص بَيْص(١٠) . تطلب أثرًا بعدعين(١١) . تسمع بالمُعيدى خير من أن تراه(١٢) اتخذ الليل جملا(١٣) . ترى الفتيان كالنخل وما يُدريك ما الدخل(١٤) . التثبت نصف العفو . تقطع أعناق الرجال المطامع . أتبع السيئة الحسنةَ تمحها . اتق شرَّ من أحسنتَ إليه(١٥) تضرَّع إلى الطبيب قبل أن تمرض(١٦) . تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن . التقدير أحد الكاسبين . التدبير نصف المعيشة . جزاءُ سنمار . أسمع جعجعة ولا أرى طحنًا . جَوِّع كلبك يتبعك(١٧) . جاوز الحزام الطبيين(١٨) جانيك من يجنى عليك(١٩) . جليسُ السوءِ كالْقين(٢٠) ، إن لم يحرق ثوبك دخَّنه ،

---

(١) يضرب فى الظالم يتظلم ليسكت عنه (٢) يضرب عند انكشاف الامر وظهوره (٣) يضرب فيمن لايحسن احتمال الغنى بل يطغى فيه (٤) يضرب فيمن له همة ولا قدرة له على بلوغها فى نفسه (٥) الوحى : الكتابة (٦) أى لاتكون مرضعا ، يضرب فى صيانة الرجل نفسه عن خسيس المكاسب . (٧) السلجم : اللفت ، يضرب لمن يطلب شيئا فى غير موضعه (٨) يضرب لمن يدعى ما ليس يملك . (٩) يضرب لمن يظلم ويتظلم وصاءت العقرب : صوتت (١٠) يضرب فيمن وقع فيما لامخلص له منه (١١) يضرب فيمن ترك الشىء ثم طلبه بعد ذهابه. (١٢) يضرب فيمن منظره دون مخبره (١٣) أى أدى واجبه من العمل ليلا (١٤) يضرب لذى المنظر لا خير فيه . (١٥) يضرب فى مقابلة الاحسان بالاساءة (١٦) يضرب فيمن يعد ولا يفى (١٧) يضرب فيما ينبغى أن يعامل به اللئيم (١٨) يضرب فى تفاقم الامر (١٩) رأى لاتزر وازرة وزر أخرى (٢٠) القين : الحداد .

جاءُوا على بكرة أبيهم(١) ، أجود من حاتم ومن كعب بن مامَة ، أَجبن من صافر ومن نعامة(٢) ، أَجهل من فَراشة ، أَجمع من نملة ، حال الجريض دون القريض(٣) ، حَنّ قِدْح ليس منها(٤) ، حسبك من شر سماعه ، حسبك من القلادة ما أَحاط بالعنق(٥) . حُبُّك الشيء يُعمى ويُصِم ، الحديث ذو شجون(٦) ، حافظ على الصديق ولو فى الحريق ، أَحَشْفًا وسوء كيلة(٧) ، الحكمة ضالة المؤمن ، الحبارى خالة الكروان ، الحاجة تَفْتُقُ الحيلة (٨) ، أَحمق من هَبَنَّقَة ، أَحلم من الأَحنف ، أَحكم من لقمان ، أَحذرُ من غُراب ومن ذئب ومن ظليم(٩) ، أَحفظ من الشعبى ، خذ من جذع ما أَعطاك(١٠) ، خالف تذكر ، خرقاء وجدت صوفاً(١١) ، خير المال عين خَرَّارة فى أَرض خَوَّارة(١٢) ، أَخطب من سحبان ومن قس ، أَخونُ من ذئب ، دون ذا وينفق الحمار(١٣) ، أَدهى من قيس بن زهير ومن عمرو بن العاص . ذهبوا أَيدى سبا(١٤) ، الذئب خالياً أَسد ، ذكرتنى الطعن وكنت ناسيًا(١٥) ، رَمتنى بدائها وانسلت(١٦) ، رماه الله بثالثة الأَثافى(١٧) ، رُبَّ قول أَشد من

(١) أى جاءوا جميعا (٢) الصافر من الطيور بغاثها وضعافها (٣) الجريض الغصة والقريض : الشعر . يضرب فى الامر يتيسر حين لاينفع (٤) يضرب فى الرجل يفتخر بقوم ليس منهم أو يتمدح بما ليس فيه (٥) يضرب فى المقالة السيئة وما يخشى منها . (٦) الشجون : الفنون . يضرب فى الحديث يتذكر به غيره (٧) يضرب فى الجمع بين خصلتين مكروهتين . (٨) يضرب فى مناسبة أحد الشيئين للاخر . (٩) الظليم : ذكر النعام (١٠) جذع : اسم رجل . يضرب فى اغتنام مايجود به البخيل (١١) الخرقاء التى لاتحسن العمل ، يضرب لمن يفسد عماله بسوء تصرفه (١٢) الخوارة : الارض التى فيها لين وسهولة (١٣) يضرب فى المبالغة فى المدح بغير احتياج اليه (١٤) أى تفرقوا تفرقا لا اجتماع معه كما تفرقت سبأ . (١٥) يضرب فى تذكر الشىء بغيره . (١٦) يضرب فيمن يعير صاحبه بعيب هو فيه . (١٧) الاثافى : جمع ثفية وهى الحجر توضع عليه القدر ، وهما اثنتان وثالثتهما الحبل ، والمراد بها الداهية العظيمة .

صَوْل(١) ، رُب أَخٍ لكَ لم تلِدْه أُمك ،رجع بخفى حنين(٢) ،رُب رمْية من غير رام ، الرَّاوِية أَحدُ الشاتمين(٣) ، رُب كلمة سلبت نِعمةً ، رُب مَلوم لاذَنب له ، رُب زَارع لنفسه حاصدٌ سواه ، أَروَى من ضَبٍّ(٤) ، أَرق من النّسِيم ومن رقراق السّراب ومن غِرقئ البَيض(٥) ، الزيتُ فى العجين لا يضيع(٦) ، زَكاة النِّعم المعروف ، أَزكنُ مِن إياس ، أَزْهى من طاووس(٧) ، سَبَق السيف العَذْل(٨) ، أَساءَ سَمْعًا فأَساءَ إجابةً ، سكتَ أَلفًا ونطق خُلفاً(٩) ، سُرِق السَّارِق فانتحر(١٠) السليمُ لا ينام ولا يُنيم(١١) ، سحابةُ صيفٍ عن قَليل تَقشّع ، شرٌّ الرأْى الدَّبَرِى(١٢) ، شُخْبٌ فى الإِناءِ وَشُخْبٌ فى الأَرض(١٣) ، شنشنة أَعْرِفُهَا من أَخْزَم(١٤) ، شَرٌّ من الموت ما يُتمنى معه الموت ، أَشأَم من البَسُوس ، ومن أَحمر عاد ، ومن غراب البين(١٥) ، أَشكر من كلب ، صَدقنى سنّ بكره (١٦) ، صادف دَرْء السَّيل درءًا يصدعه(١٧) ، صدرك أَوْسَع لسرّك ، أَصدقُ من

---

(١) يضرب عند الكلام يؤثر فيمن يواجه به (٢) يضرب فى الخيبة (٣) هذا كقولنا شتمك من بلغك(٤) تزعم العرب أن الضب لا يحتاج الى شرب الماء يفتح فاه للهواء فيكون فى ذلك ريه (٥) الغرقىء القشرة الرقيقة الملتزقة ببياض البيضة (٦) يضرب فى الاحسان الى الاقارب (٧) الزهو : العجب (٨) يضرب فى الخطأ يلام فاعله بعد وقوعه الخلف : الردىء من القول (١٠) يضرب لمن تنتزع من يده ما ليس له فيجزع عليه .

(١١) السليم : الملدوغ . يضرب فيمن لا يستريح ولا يريح غيره .

(١٢) الدبرى ما يسنح بعد فوات الفرصة .

(١٣) الشخب : ماخرج من الضرع ممتدا من اللبن ، يضرب فيمن يصيب مرة ويخطىء أخرى .

(١٤) الشنشنة : الطبيعة والعادة يضرب فى مشابهة الفرع لأصله فى الشر .

(١٥) البسوس : هى المرأة التى هاجت بسببها حرب بكر وتغلب ، وأحمر عاد هو أحمر ثمود وهو الذى عقر الناقة فحل العذاب بثمود من جزاء عمله .

(١٦) يضرب فى الانسان يقول الحق على غير قصد منه .

(١٧) هذا كمن قال : لا يفل الحديد الا الحديد .

قطاة(١) ، أَصعبُ من رد الشُّخْب فى الضَّرع ، ضرَب أخماساً لأَسداس(٢) ، أَضْيَقُ من ظِلِّ الرمح ، أَضعف من بعُوضة ، أَضبطُ من نملة ، أَطرق كرا (٣) ، إنَّ النعامة فى القرى أطولُ صُحبة من الفرقَدَين ، أَطمعُ من أشعب ، طبيبٌ يُدَاوى الناس وهو مريض ، طفيليّ ومُقترح ، ظِئر رَءُوم خير من أُم سَئوم(٤) . عند الصباح يَحْمَدُ القوم السرَى(٥) ، عند جُهينةَ الخبرُ اليقين(٦) ، عرض عليه خَصْلتى الضَّبُع(٧) ، عِش رجبًا تر عجباً ، أَعط القوس باريهَا ، أَعرض ثوب الملبس ، العَوْدُ أحمد ، عند الامتحان يُكْرم المرءُ أو يُهَان ، أَعزّ من كليب وَائل ، أَعيي من باقل ، أَعدى من الظليم ، ومن الشَّنفَرى ، ومن السليك ، أعق من ذِئبة ، أَعقدُ من ذنب الضَّبِّ ، وأَعجزُ ممنْ فتل الدخان (٨) ، غدّة كغدة البعير ، وموت فى بيت سلوليَّة(٩) ، غَثُّك خير من سَمِين غيرك ، فى الصيف ضَيَّعت اللبن(١٠) فى بيته يُؤتى الحكم ، فى كل شَجَر نَار ، واستحمد المرْح والعَقار(١١) ، أفرسُ من بسطام ، أَفتك من عمرو بن كلثوم ، قطعت جهيزة قول كل خطيب(١٢) ، قد أَنصف القارة من راماها (١٣) ، قبل الرِّماء تملأُ الكنائن(١٤) ، اقتلونى

---

(١) لأن صوت القطاة واحد لايتغير (٢) يضرب فيمن يريد الشيء ويظهر غيره . (٣) الكرا : الكروان ، يضرب فيمن يتكلم بما لايقدر عليه . (٤) الظئر : الحاضنة والرءوم : العطوف (٥) يضرب فى تحمل التعب رجاء الراحة (٦) يضرب فى الرجل يعرف الشيء على وجهه كقولهم : على الخبير سقطت . (٧) تزعم العرب أن الضبع صادت ثعلبا وخيرته بين أن تأكله وأن تمزقه . يضرب فيمن يسوم غيره ما لاخيار له فيه من البلاء . (٨) يضرب فيمن اذا سألته عن أمر أبهم الجواب (٩) سلول قبيلة ذليلة، يضرب فى اجتماع خصلتين من الشر (١٠) يضرب لمن يطلب شيئا قد فوته على نفسه (١١) المرح والعقار: شجرتان قويتا النار . يضرب فى تفضيل بعض الشيء على بعض . (١٢) يضرب لمن يقطع على الناس ماهم فيه بحماقة يأتى بها (١٣) القارة : قبيلة من أبرع الناس فى المراماة .

(١٤) يضرب فى الاستعداد للامر قبل الشروع فيه .

ومالكاً(١) ، القول ما قالت حذامِ ، كان كُرَاعا فصار ذراعا (٢) ، كلام كالعسل وفعل كالأَسل(٣) ، كل فتاةٍ بأَبيها مُعجبة(٤) ، كطالب القرن جُدِعت أُذنه(٥) ، كمُجِير أمّ عامر(٦) ، كيف أُعاودك وهذا أَثر فأْسك(٧) ، كأَن على رءُوسهم الطير ، كالمستجير من الرَّمْضَاءِ بالنار ، لو ذات سوار لطمتني(٨) ، لو خُيِّرتُ لاخترت ، لوترك القطا ليلاً لنام(٩) ، لعل له عُذرا وأنت تلومُ ، لأَمر ما جَدَعَ قصير أَنفه ، لكل مقام مقالٌ ، لا مخبأَ لِعِطره بعد عرُوس (١٠) ، لا تعدَمُ الحسناءُ ذامًّا (١١) ، لا تَهْرِف بما لا تعرفُ(١٢) ، لا ناقتى فيها ولا جملى ، لا فى العير ولا فى النَّفيرِ(١٣) لا يفل الحديد إلا الحديد ، لا تأْمن الأَحمق وبيده سكين(١٤) ، لا تجزَعَنَّ من سُنَّةٍ أَنت سرتها ، ما وراءك يا عصام ، ما يوم حليمة بِسر(١٥) ، ما أشبه الليلة بالبارحة ، مَرْعَى ولا كالسعدان(١٦) ، ما كل بَيْضاءَ شَحْمة ، منك أَنفك وإن كان أَجدع(١٧) ، من استرعى الذئب ظلم ، من مأْمنه يُؤتى الحذر ،

---

(١) يضرب فيمن يريد يصاحبه المكروه وان ناله هو منه ضرر (٢) يضرب فى الذليل يصبح عزيزا (٣) الأسل : الرماح (٤) يضرب فى عجب الرجل رهطه وعشيرته (٥) أصل المثل فى النعام ، ويضرب فى طلب الأمر يفضى بصاحبه الى التلف (٦) أم عامر الضبع وقد أكلت من أجارها . يضرب فى الذى يجزى على احسانه بالسوء (٧) يضرب فيمن لايفى بالعهد (٨) يضرب فى الوضيع يقع منه العدوان (٩) يضرب فيمن حمل على مكروه من غير ارادته (١٠) يضرب فيمن لايدخر عنه نفيس (١١) يضرب فى الشيء الحسن لايخلو من عيب (١٢) يضرب لمن يتعجل فى مدح الشيء قبل تمام معرفته .

(١٣) يضرب فى الوضيع ليس فيه شيء من خلال الشرف

(١٤) يضرب فى عسف الجاهل اذا قدر

(١٥) حليمة بنت ملك غسان ، يضرب للأمر المشهور الذى لا يكاد يجهل

(١٦) السعدان : نبت من أنفع الأعشاب للأبل ، يضرب فى الشيء يفضل على أشكاله وأقرانه

(١٧) يضرب فيمن يلزمك خيره وشره .

مواعيدُ عرقوبٍ ، مُكره أَخوك لابطل(١) ، أَمنع من عُقاب الجو ، نفسُ عِصامٍ سَوّدت عصاماً(٢) نعيمُ كلب فى بُؤس أَهله(٣) أَنْدَمُ من الكُسَعى ، وافق شنٌّ طبقة(٤)أوردها سعد وسعدمشتمل(٥) ، أَوفى من السموأَل ، ومن الحارث بن عباد ، هما كفرسَىْ رهان ، يَدَاك أَوكتا ، وفُوكَ نفخ(٦) ، اليوم خمر وغدا أَمر(٧) .

الفن الرابع فى الأَوصاف

الوصف(٨) عبارة عن بيان الأَمر باستيعاب أَحواله وضروب نُعُوته الممثلة له . وأُصولُه ثلاثة :

الأَول : أَن يكون الوصف حقيقيًّا بالموصوف مفرزًا له عما سواه .

الثانى : أَن يكون ذا طلاوة ورونق .

الثالث : أَن لا يخرج فيه إِلى حدود المبالغة والإِسهاب ، ويكتفى بما كان مناسباً للحال . وأَنواعه كثيرة ، ولكنها ترجع إِلى قسمين : وهما وصف الأَشياءِ ووصف الأَشخاص ــ أَمَّا الأَشياءُ الْحَرِية بالوصف فهى كالأَمكنة والحوادث ومناظر الطبيعة .

وأَمَّا وصف الأَشخاص فيكون بوصف الصورة أَو الطبع أَو بوصفهما معاً ، ولنذكر لك فِقَرًا جارية على أَلسنة البلغاءِ فى صفات شتى ، ثم نتبعها بمقالات فى الوصف نثرًا ونظماً .

---

(١) يضرب فيمن يحمل على ماليس من شأنه (٢) يضرب فى سؤدد الرجل (٣) يضرب فى التابع ــ كالخادم ــ يشغل سادته بمصيبته فيغنم ما قدر عليه من أموالهم (٤) يضرب فى تمام المشاكلة والاتفاق (٥) يضرب للمقصر فى الأمر (٦) يضرب لمن يجنى على نفسه (٧) يضرب فى تقلب الأيام (٨) أحسن طريقة للاجادة فى الوصف أن ترسم أولا فى بدء وصفك منظرا عاما جامعا لجمل الأمر الذى تحاول وصفه ثم تأخذ بايراد مختلف الأجزاء قسما فقسما وذلك اما على تتابع ورود هذا الأجزاء ، أو ايثار ما كان يراه الكاتب اشد مناسبة لغايته .

وصف البلدان

بَلْدَة كأَنها صورة جَنَّة الْخُلد ، منقوشة فى عرض الأَرض . بلدة كأَن محاسِنَ الدنيا مجموعة ومحصورة فى نواحيها . بلدة تُرَابها عنبر ، وحصباؤها عقيق ، وهواؤها نسيم ، وماؤها رحيق . بلدة معشوقة السكنى ، رحبة المَثْوى(١) ، كوكبها يَقْظان ، وجوُّها عُريان ، يومُها غداة ، وليلها سحر . بلدة واسعة الرقعة ، طيِّبة البقْعَة ، واسطة البلاد وسرَّتُها ، ووجهها وغُرَّتها .

وصف القلاع

قلعة حلقت(٢) بالجو تناجى السماء بأَسرارها . قلعة تتوشح بالغيوم ، وتحتلى النجوم . قلعة مُتَنَاهِيَة فى الحصانة ، ممتنعة عن الطلب والطالب ، منصوبة على أَضيق المسالك وأَوعر المناصب ، لم تزِدها الأَيام إلا نبُوًّ(٣) أَعطاف ، واستِصْعاب جوانب وأَطراف ، قد ملّ المُلوك حصارها ، ففارقوها عن طماح(٤) منها وشماس(٥) وسئمت الجيوش ظلَّها ، فغادرتها(٦) بعد قنوط وإياس ؛ فهى حمى لا يُراع(٧) ومَعْقِل لا يُسْتطاع ، كأَن الأَيام صالحتها على الإعفاء من الحوادث والليالى ، وعاهدتها على التسليم من القوارع(٨) .

وصف الدور

دَارُ قرارٍ تُوسِعُ العين قُرَّة ، والنفس مسرة ، كأَن بانيها استسلف الجنة فعجّلت له . دار تَغَارُ منها الدور ، وتتقاصر عنها القُصُور . دار اقترن الْيُمن(٩) بيمناها واليسر بيسراها ، الجسوم منها فى حضر ، والعيون على سفر ، دار دار بالسعد نجمها وفاز بالحسن سهمها ، يخدمها الدهر ، ويأْويها البدر ، ويكْنُفُها لنصر . هى مرتع النواظر ، ومتنفس الخواطر ، أَخذت أَدوات الجنان ، وَضَحِكَت من العبقرى(١٠) الحسان .

---

(١) الاقامة (٢) ارتفعت (٣) بعدا (٤) كبر وفخر (٥) اباء وامتناع
(٦) تركتها (٧) لا يفزع ولا يخاف أحدا (٨) الحوادث والنوائب
(٩) البركة (١٠) البسط المعجب شكلها

وصف الديار الخالية

دار لبِست البِلَى وتعطلت من الحلى ، صارت من أَهلها خالية ، بعد ما كانت بهم حالية ، قد أَنفد البَيْنُ سكانها ، وأَقعد حيطانها . دار شاهدُ اليأْس منها ينطق ، وحبلُ الرّجاءِ فيها يقصر ، كأَن عمرانَها يُطْوَى ، وخَرابَهَا يُنشر ، أَركانها قيَامٌ وقُعود ، وحيطانهَا رُكَّع وسجود .

بَكَت دارهم من بَعْدهم فتهلَّلت ... دموعى فأَىَّ الجَازعين أَلُوم
أَمُسْتعبراً يبكى على اللهو والبِلَى ... أَم آخر يَبْكى شجوه فيهم ؟

وصف أَيام الربيع

يَوْمٌ جلابيب غيُومه رواق(١) وأَودِيَةُ نَسِيمه رقاق ، يوم سمَاؤه فَاختِيَّة ، وأَرضه طَاوُوسيَّة ، يوم ممَسّك السماءِ ، مُعصفَرُ الهواء ، مُعَنْبرُ الروض ، مصنْدَل الماءِ ، يوم تبسَّم عنه الربيع ، وتبرج عنه الروض المريع ، يوم كأَنَّ سمَاءَه مُحِدٌ تتبَاكى وأَرضه عروس تَتَجَلَّى ، يوم دجنه (٢) عَاكف ، وقَطْره واكف(٣) .

وصف الرياض

رَوْضَة رقت حواشيهَا وتأَنق واشيهَا(٤) ، روضة كَالعقود المنظمة على البرود المنمنمة ، روضة قد راضتهَا أَكفُّ المطر ، ودبجتهَا أَيدى النَّدى . رياض كَالعرائس فى حليهَا وزخارفهَا ، والقيَان(٥) فى وشيهَا ومطارفهَا(٦) ، باسطة زرابيهَا وأَنمَاطهَا ، نَاشرة برودهَا ورياطهَا ، زاهية بحمرائها وصفرائها ، تَائهة بغيدانهَا وغدرانهَا ، كأَنما احتفلت لوفد ، أَوهى من حبيب على وعد . روضة قد تضوعت(٧) بالأَرج (٨) الطيب أَرجاؤها ، وتبرجَتْ(٩) فى ظلل الغَمَام صَحراؤهَا ، وتنَافحت

---

(١) الكساء المرسل على مقدم البيت من أعلاه الى الارض (٢) الغيم (٣) سائل

(٤) حائكها وناقشها (٥) جمع قين : المغنية (٦) جمع مطرف رداء من خز مربع فيه أعلام والزرابى البسط ، والأنماط الأثواب التى تطرح على الهوادج ، الرباط الاثواب الرقاق (٧) تحركت (٨) النفح : الريح الطيب (٩) تزينت .

بنَوافح المسك أَنوارها ، وتعارَضت بغرائب النطق أَطيارُها ، بُسْتَان أَنهارُه محفوفة بالأَزهار ، وأَشجاره مُوقرة بالثمار ، أَشجار كأَن الحور أَعارتها قُدودها وكستْهَا بُرُودها ، وحلتها عُقودها ، شقَائق كتيجان العقيق على رءُوس الزنوج كأَنها أَصداغ المِسْك على الوجنات الموردة ، كأَن الشقيق جام(١) من عقيق أَحمر ، مُلِئت قرارته بمسك أَذفر ، الأَرض زُمُردة ، والأَشجار وَشْيٌ ، والماءُ سيوف ، والطيور قِيان(٢) قد غردت خطباءُ الأَطيار على منابر الأَنوار والأَزهار .

وصف طول الليل والسهر وما يعرض فيه من الهموم والفكر

ليلة قُص جناحها ، وضل صباحها . ليالٍ ليست لها أَسحار ، وظلمات لا تتخللها أَنوار . ليل ثابت الأَطناب(٣)بطيءُ الغوارب طامِع الأَمواج وافى الذوائب. بات بلية ساورته(٤)فيها الهموم ، وسامرته النجوم ، واكتَحَل السهاد ، وافترش القتاد ، واكتَحَل بماءِ السهر ، وتململ على فراش الفكر ، قد أَقض مِهادُه(٥) وقلِقَ وساده ، هموم تفرق بين الجنب والمِهَاد ، وتجمع بين العين والسهاد .

وصف انتصاف الليل وتناهيه وانتشار النور وأَفول النجوم

قد اكتهَلَ(٦) الظلام ، قد نَصَّفنا عمر الليل واستغرقنا شبابه ، قد شاب رأس الليل ، كاد يتم النسيم بالسحر ، قد انكشف غطاءُ الليل وستر الدجى ، هَرِم الليل وشَمِطت ذوائبه ، قُوّضت(٧) خيام الليل ، وخلع الأُفق ثوب الدجى ، تبسم الفجرُ ضاحكا من شرقه ، ونصب أَعلامه على منازل أُفقه ، اقتنص بازى الضوءِ غراب الظلام ، وفَضَّ كافور النور من الغَسَق مسك الختام ، طرز قميص الليل بغرةً الصبح ، باح الصبح بسره ، خلع الليل ثيابه وحَدَر(٨) الصبح نقابه ، بث الصبح طلائعه ، تبرقع الليل بغرة الصبح ، أَطار منادى الصبح غراب الليل ،

(١) اناء (٢) مغنيات (٣) حبال الخيمة (٤) شغلته وقاومتــه
(٥) خشن وتترب (٦) صار كهلا تشبيها بالرجل الكهل وهو من جــاوز الأربعين سنة . (٧) هدمت . (٨) أنزل .

عزلت نوافج الليل بجامات الكافور ، وانهزم جيش الظلام عن عسكر النور ، مالت الجوزاءُ (١) للغُرُوب ، وولَّت مواكب الكواكب ، وتناثرت عقود النُّجوم ، وَوَهى نطاق الجوزاء ، وانطفأ قنديل الثريا .

وصف طلوع الشمس وغروبها

بَدَا حَاجبُ الشمس ، أَلقت الغَزَالة (٢) لُعَابهَا وضَرَبت الضُّحى (٣) أَطنَابَها ، انتشر جناح الضوءِ فى أُفقِ الجوّ ، استوى شبابُ النهار على رونق الضحى ، بلغت الشمس كبِدَ السماءِ ، قام قائمُ الهاجرة ورمت الشمس بجمرات الظهر . اصفرَّت غلالة (٤) الشمس ، وصارت كأَنها الدينارُ يلمع فى قرار الماء ، نفضت تبرًا على الأَصيل ، وشدت رَحْلها للرَّحيل ، جنحت الشمس إلى مغاربها ، دلكت (٥) دلوح (٦) واغبرَّ لَوْحُ اللوح (٧) تصوبت الشمس للمغيب ، وتَضيَّفت للغُرُوب ، فآذن جنبُهَا بالوجوب (٨) ، شاب النَّهار وأَقبل شباب الليل . استتر وجه الشمس بالنقاب وتوارت بالحجاب . وكأَن هذا الأَمر مِنْ مطلع الفَلَق إلى مجمع الغَسق .

وصف الرعد والبرق

قام خَطيبُ الرَّعد . نَبَض (٩) عِرْق . سحابة ارتجزت (١٠) رُعُودُها . وذهبت بِبُروقها بُرُودها . نطق لسانُ الرّعد . وخَفَقَ قلبُ البرق . فالرعد ذو صخب (١١) وانبرق ذو لهب . ابتسم البَرْق عن قَهقهة الرعد . زأَرت أُسُودُ الرعد ولمعت سُيوف البرق . رعدت الغَمائم وبرقت . وانحلت عُرى السماءِ فطبقت . هدرت رواعِدُها ، وتربت أَباعدها . وصدقت مواعدها .

---

(١) برج فى السماء (٢) الشمس (٣) الضحى جمع ضحوة ، مؤنث والضحا تذكر على أنها اسم (٤) الثوب الرقيق (٥) غربت (٦) السحابة (٧) واللوح اللمح واللمعان من لاح يلوح لوحا (٨) وجبت الشمس وجيبا ووجوبا غابت (٩) تحرك (١٠) الرجز ضرب من الشعر ويقال رجز الراجز وارتجز أيضا
(١١) كثير اللغط والجلبة .

وصف مقدّمات المطر

لبست السماءُ سِرْبالها ، وسَحَبت السُّحبُ أذيالها ، قد احْتَجَبَتْ السماءُ فى سُرادق الغيم ، لبسَ الجو مُطرَفَه(١) الأَدكن(٢) ، باحَتِ الرِّيحُ بأَسرار النَدَى ، ضُربت خيمة الغمام ، ابتلّ جناح الهواءِ ، واغْرَوْرقت مُقلة السماءِ ، هبّت شمائل الجنائب ، لتأْليف شمْل السحائب ، تألفت أَشْتَات الغيوم ، وأَلْقَتْ الستور على النجوم .

وصف الثلج والبَرْد وأَيام الشتاءِ

مَدّ الشتاءُ رواقَه ، وأَلقى أَوراقه (٣) وحلّ نطاقَه . أَناخ بنوازِلهِ ، وأَرْسى بكلاكله ، وكلح بوجهه ، وكشر عن أَنْيَابِه ، قد عادت الجبالُ شيبًا ، ولبست من الثلوج ملاءً قشيبًا(٤) . شابتْ مفارق البُرُوج بتراكم الثلوج ، أَلمّ الشيب بها ، وابيضت لمَمُهَا(٥) ؛ بردٌ يقضقضُ(٦) الأَعضاءَ ، وينقضُ الأَحشاءَ ، برد يُجمِّدُ الريق في الأَشداق والدمع فى الآماق ، يوم كأَن الأَرض شابتْ لهَوْله ، يوم فضىّ الجلباب مسكى النقاب ، عبوس قمطرير(٧) ، كشر عن ناب الزمهرير ، وفرش الأَرض بالقوارير(٨) ، يومٌ أَرْضه كالقوارير اللامعَة ، وهواؤه كالزنابير اللاسعة .

وصف المطر والسحاب والماءِ والغدران

ماءٌ إذا مسته أَيدى النسيم(٩) ، حكى سلاسل الفضة ؛ غديرٌ ترقْرقت(١٠) فيه دموع السحائب ، وتوَاترت عليه أَنفاس الرِّياح الغرائب ، انحلّ عِقد السماءِ وانهلَّ دمع الأَنواءِ(١١) ، انحل سلك القطر عن دُر البحر ، سحابةٌ تحدو من الغيوم جمالاً ، وتمدّ من الأَمطار جبالاً . سحابة ترسل الأَمطار أَمواجًا

---

(١) رداء من خز مربع ذو أعلام (٢) المائل الى السواد (٣) جمع روق ، وهو والرواق بمعنى (٤) جديدا (٥) جمع لمة للشعر الذى يجاوز شحمة الآذان . (٦) يكسر ويضعف (٧) شديد مظلم (٨) جمع قارورة وهى الاناء من الزجاج (٩) شابته (١٠) تحركت (١١) جمع نوء : المطر

والأَمواجَ أفواجًا . سحابةٌ يضحك من بكائها الروضُ ، وتخضرُّ مِن سوادها الأَرض ، سحابةٌ لا تجف جفونها ، ولايخف أنينها ، ديمةٌ(١) روّت أديم(٢) الثرى(٣) ، ونبهت عيون النور من الكرَى(٤) ، سحابة ركِبت أعناق الرياح ، وسَحّت كأَفواه الجراح . مطرٌ كأَفواه القرب

وصف القيظ. وشدة الحر

حرٌّ يشبه قلب الصب ، ويُذيب دماغ الضبٍّ(٥) قوى سلطان الحرّ ، وبسط بساط الجمر ، أوقدت الشمس نارها ، وأذْكت(٦) أُوارها(٧) ، حرٌّ يلفح حرّ الوجه ، هاجرةٌ كأَنها من قلوب العشاق ، إذا اشتعلت فيها نار الفِراق ، هاجرة تحكى نار الهجر ، وتذيب قلب الصخر ، حرٌّ تهرب له الْحِرْباءُ(٨)من الشمس ، قد صَهَرَتِ(٩) الهاجرة الأَبدان ، وركبت الجناذيب(١٠) العيدان ، حرٌّ ينضج الْجُلود ، ويذيب الجلمود ، أيام كأَيام الفرقة امتدادًا ، وحر كحرِّ الوجه اشتدادًا ، هاجرة(١١) كالسعير الهاجم ، يحز أذيال السمائم(١٢)

وصف الشيب

ذوى(١٣) غصن شبابه ، بدتْ فى رأسه طلائع المشيب ، أقمر ليل شبابه ، ظهرت غرة القمر ، وأَوْمضَ(١٤) البرق فى ليل الشَّعْرِ ، رمى فاحم العود(١٥) بضدِّه واشتعل المبيض فى مسوده ، لمع ضوءُ فرعه ، وتفرق شمل جمعه ، علاه غباره وقائع الدهر ، بيْنا هو راقدٌ فى ليل الشباب ، إذ أيقظه صبح المشيب ، طوى مراحل الشباب ، وأنفق عمره بغير حساب ، جاوز من الشباب مراحل ،

(١) المطر بلا رعد (٢) وجه الأرض (٣) التراب (٤) النوم (٥) حيوان برى لا يعيش الا فى الجهات الشديدة الحر (٦) أوقدت (٧) نارها (٨) حيوان يستقبل الشمس ويدور معها كيفما دارت ويتلون ألوانا بحر الشمس . (٩) أذابت . (١٠) الجراد . (١١) شدة الحر عند الزوال (١٢) الرياح الحارة (١٣) ذبل . (١٤) برق ولمع (١٥) معظم شعر الرأس مما يلى الأذن

وورد من الشيب مناهل ، فَلَّ (١) الدهرُ شباته ، ومحاسن رُواته ، طار غراب شبابه ، انتهى شبابُه ، وشاب أترابُه ، استبدل بالأدهم(٢) الأبلق(٣) وبالغراب العَقْعَق(٤) ، استعاض (٥) من الغراب بقادمة النِّسر ، أَسفَرَ صبحُ المشيب ، علتهُ أهبةُ الكبَرِ ، نفض جبة الصبا ، وتولى داعية الْحِجا (٦) ، الشيب زُبدةٌ مَخضتها الأيام ، وفضة محَّضتها التجارب . سرَى فى طريق الرُّشد بمصباح الشيب ، الشيبُ خطام المنيَّة ، الشيب نذير الآخرة .

وصف آلات الكتابة

الدواة ـ المداد ـ الأقلام

الدواةُ من أنفع الأدوات ، وهى للكتابة عتاد(٧) ، وللخاطر زناد ، غدير لا يرِدُ غير الأفهام ، ولا يمتح(٨) بغير أرشية (٩) الأقلام ، غدير تفيض ينابيع الحكمة من أقطاره ، وتنشأ سحب البلاغة من قراره .

مِدَاد كسواد العين ، وسويداء القلب ، وجناح الغراب ، ولُعاب الليل ، وألوان دُهم الخيل ، مداد ناسب خافية الغراب ، واستعار لونه شرْخ الشباب(١٠)

أقلام جَمَّة المحاسن ، بعيدة عن المطاعن ، أنابيب ناسبت رماح الخط فى أجناسها ، وشاكلتْ الذهب فى ألوانها ، وضاهت الحديد فى لمعانها ، أقلام كأنها الأميال استواءً ، والآجال مضاءً ، بطيئة الخفى قوية القُوى . قلم لاينبُو(١١) إذا نبت الصِّفاح ، ولا يُحْجِم (١٢) إذا أحجمت الرِّماح ، قلم يسكتُ واقفا ، وينطق ساكتًا .

وصف الخطباء

جَلَوْا بكلامهم الأبصار العليلة ، وشحذوا بمواعظهم الأذهان الكليلة ، ونبهوا

---

(١) هزم (٢) الأسود (٣) الأبيض وأصله للرخام (٤) طائر قدر الحمامة (٥) جعله عوضا (٦) العقل (٧) ما يعده الانسان لحوادث الدهر (٨) لا يبرح (٩) حبال الدلاء (١٠) ريعانه (١١) لا يبعد (١٢) لا يتأخر

القلوب من رقدتها ، ونقلوها عن سوءِ عادتها ، فشفوْا من داءِ القسوة ، وغباوة الغفلة وداووْا من العيّ الفاضح ، ونهجوا لنا الطريق الواضح ، خطيب لا تناله حبسة ، ولا ترتهنُه لكنة ، ولا تتمشى فى خطابه رُتة(١) ، ولا تتحيف(٢) بيانه عجمة ، ولا تعترض لسانه عقدة ، خطيب جواهر نفثاته صحاح ، وعرائس أفكاره صباح ، خطيب تزينت بِدُرَرِ ألفاظه عقود المُلح ، لاعيب فيه إلا أن لفظه عطل الياقوت والدُّر ، خطيب مصقع ينثر لسانُه اللؤلؤ المكنون ، هو الخطيب المصقع الذى أشخصَ بآيات خطبهِ الزاجرة عيون القوْم وأبكاها ، هو الخطيب المصقع الذى تتلاعب بالعُقول معانيه ، ويصَاغ الدُّرُّ من لفظِ فيهِ ، هو الخطيب الذى تهتز له المنابر ، وتنقاد إليه كلمات السِّحر متسابقةً ، آخذًا بعضها برقاب بعض .

وصف العُلماءِ

بَدْر العلوم اللائح ، وقطرُها الغادى والرائح ، وثبيرها(٣) الذى لايزحم ، ومنيرها الذى ينجلى به ليلها الأَسحم (٤) ، أَما فنون الأَدب فهو ابن بجدتها (٥) وأَخو جُملتها وأَبو عذرتها ، ومالك أَزِمَّتها ، تستخرج الجواهر من بُحوره ، وتحلى لمعات الطروس بقلائد سطوره ، وتآليفه عقائل أَصبح الدهر من خطابها ، له بدائع مائسات(٦) الأَعطاف ، بحر البيان الزَّاخر ، شيخ المَعارف وإمامها ومن فى يديه زمامُها ، لديه تنشد ضوالّ الأَعراب ، وتوجد شوَارد اللغة والإِعراب ، مالك أَعِنّة العلوم وناهج طريقها ، والعارف بترْصِيعها وتنْمِيقها ، النَّاظم لعقودها الرَّاقم لبُرُدها ، المُجيد لإِرهافها (٧) العالم بجلائها وزفافها ، ملك رق الكتابة والإِنشاءِ ، وتصرف فى فنون الإِبداع كيف شاءَ ، عالم يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الْحِكمة من نواحيه ،

(١) العجمة . (٢) بمعنى تنقص (٣) المثابر المواظب . (٤) الأسود .
(٥) العالم بها المتقن لها . (٦) متبخترات مائلات . (٧) لرقتها ولطفها .

صاحب المصنفات التي دلت على وفرة اطلاعهِ ، وغزَارَة مادته ، وحُسْن بيانِه ، لم يترك معنى مغلقًا إلاافتتح صياصيه(١) ، ولامشكلا إلا أوضحَ مبانيه .

وصف البُلغاء

فلان يحوكُ الكلامَ على حسب الأَماني ، ويخيطُ الأَلفاظ على قدُود المعاني ، يجتني من الأَلفاظ أنوارها ، ومن المعاني ثمارها ، يعبث(٢) بالكلام ويقوده بأَلين زمام ، حتى كأَن الأَلفاظ تتحاسد في التسابق إلى خواطره ؛ والمعاني تتغايرُ في الانثيال (٣) على أَنَامِله . بليغ نسق (٤) من جواهر كلامه أَكاليل دُرّ ، ما لمنظومها سلك بليغ تُفكُّ سهام أَفكاره الزرَد ، ناظم سلك البلاغة وقائد زمام البراعة ، إذا أَوجز أَعجز ، وإذا شاءَ أَطال ، وأَطلق من البلاغة العقال ، إذا أَذكى سراج الفِكْر ، أَضاءَ ظلام الأَمر ، يستنبط حقائق القلوب ، ويستخرج ودائع الغُيوب .

وصف الشعراء والمنشئين ومحاسن النظم والنثر

مقذِفُ حصى القريض وجماره ، ومطلعُ شموسه وأَقماره ، نثرُه سِحْر البيان ونظمه قطع الْجُمان ، طلعت شمس الأَدب من أُفق أَشعاره ، وتفجرت ينابيعها من خلال آثاره ، شاعر توقدتْ جمراتُ أَفكاره ، شاعر عرائس أَفكاره صباح ، إن نثر فالنجُوم في أَفلاكها ، أَو نظمَ فالجواهر في أَسلاكها ، أَخذت بمجامع القلوب كلمُه ، إذا كتب انتسب إليه السِّحْر أَصح انتساب ، ونسق(٥) المعجزات نسق حساب ، وأَرى البدائع بيض الوجوه كريمة الأَحساب ، إن نثر رأَيت بحرًا يزخر ، وإذا نظم أَزْرَى بنظم العقود بالجوهر ، وأَتى بأَحسن من رقم البرُود ، إذا كتب مَلأَ المهارِق (٦) بياناً ، وأَرى

---

(١) جمع صيصة : الحصن المنيع (٢) يلعب (٣) الانصباب (٤) نظم
(٥) نظم (٦) جمع مهرق حرير ثوب أبيض ينقى الصمغ منه ويغسل ثم يكتب فيه .

السحر عِياناً ، هو الكاتب الذى تحْسُدُ أرقام الطراز سطورَ قلمه ، ويود التِّبرُ لو كان مِداد كلمِه ، هو الكاتب الذى تنقاد إلى يراعه(١) دقائق المعانى صَاغِرةً بزمام ، نثر كنثرِ الورد ، و نظم كنظم العقد ، نثر كالسِّحْر أو أدق ، ونظم كالماءِ أو أرق ، نثر كما تفتَّح الزهر ، ونظم كما تنفس السحر ، رسالة تضحكُ عن غرر وزهر ، وقصيدة تنطوى على حبر ودُرٍ ، كلام كما هَبّ نسيم السَّحر ، على صفحات الزَّهر . كتاب مطلعه مطلع أهلة الأَعياد ، وموقعه موقع نيل المراد ، كتاب حَسِبته يطير من يدىّ لِخِفته ويلطف عن حِسى لقتلته ، صحائف انطوت المحاسن تحت رِقّ منشورها ، وصدحت حمائم البلاغة على أغصان سطورها ، صحائف تنوب عن الصفائح ، وقراطيس تَزُفُّ إلى الأَسماع عرائس القرائح ، صحائف ألبسها الْحِبْرُ أثواباً من الْحُبَرِ(٢) ، ودبجها(٣) صوبُ(٤) الفكر ، لا صوب المطر .

وصف الأُمراءِ والأَشراف

فلان من شرف العنصر الكريم ، ومعدن الشرف الصميم(٥) ، أصل راسخ ، وفرع شامخ(٦) ، ومجد باذخ(٧) ، قد ركَّبَ الله دَوْحته(٨) ، فى قرارة المجد وغرس نبعته(٩) فى منبتِ الفضل ، المجد لسان أَوْصافه ، والشرف نسب أَسلافه . دَوْحة رسب(١٠) عِرْقها وبَسَق(١١) فرْعها وطلب عُودُها واعتدل عمودها وفيَّأَت ظلالها ، وتهدَّلت(١٢) ثمارها وتفرَّعتْ أغصانها ، وبرد مقيلُها(١٣) ، أَمير جيشه الهمم ، دَوْحةُ مجده وريفَةُ(١٤) الظِّلِّ وريقة(١٥) أَمير لاعيبَ فى نداه(١٦) إلا أنه يستعبد كلّ حُرّ . هو غُرَّة الجمال ، وصورة

(١) أقلامه (٢) الحبرات التى تلبسها النساء المصريات اذا خرجن (٣) نقشها (٤) المطر (٥) الخالص(٦) المرتفع (٧) العالى (٨) الشجرة العظيمة (٩) الشجر أيضا (١٠) نبت (١١) ارتفع (١٢) تدلت (١٣) مكانها . (١٤) ممتدة متسعة (١٥) مورقة (١٦)عطائه وهذا نوع من أنواع البديع يسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم كقول بعضهم :

ولا عيب فى معروفهم غير أنه   يبين عجز الشاكرين عن الشكر

وفى الحقيقة ليس بعيب بل نهاية فى المدح .

الكمال . عقد المناصب به تَضيد ، أميرٌ عَبَقت من شمائله نَسَمات النَّد ، وقطرت من سلسبيل أوصافه مياهُ المجد ، جامعٌ ماتفرق من شمل الفضائل ، ناظم ما انتثر من عقد المآثر ، أنارت به نجوم المعالى وشموسها ، له شرف باذخ تعقد بالنُّجوم ذوائبه ، ألقت إليه الرياسة مقاليدها(١) ، وملكته طريفها وتليدها(٢) . أمير تفرَّعَ من دَوْحة سناء(٣) ، وتحدّر من سُلالة أكابر ، ورُقاة أُسرة ومنابر ، مُرْتضع ثَدْى المجد ، ومفترش حِجْر الفضل ، له صدر تضيق به الدَّهْناءُ(٤) ، وتفزع إليه الدّهماءُ(٥) ، له فى كلِّ مَكْرُمَة غُرَّة الإصباح ، وفى كل فضيلة قادمة الجناح ، له صورة تَسْتنطق الأَفواه بالتسبيح ، ويترقرق فيها ماءُ الكرم ، وتقرأُ فيها صحيفة البِشْر ، ينابيع الجود تتفجر من أنامله ، وربيع السماك يضحك من فواصله ، له أخلاق خلقن من الفضل وَشِيَمٌ تشام(٦) منها بوارق المجد ، أَرِجَ(٧) الزمان بفضله ، وعقِم النساءُ عن الإتيان بمثله ، ماله للعفاة(٨) مباح ، وفَعَالُه(٩) فى ظلمة الدهر مصباح ، مناقب تشدخ(١٠) فى جبينها غُرَّة الصباح ، وتتهادى أنباءَها(١١) وُفود الرياح ، سألت عن أخباره فكأنى حركت المسك فتيقًا ، أو صبَّحت الروض أنيقًا(١٢) هو رائش(١٣) نبلهم ، ونبْعة(١٤) فضلهم ، وواسطة(١٥) عقدهم ، له هِمَّة علا جناحها إلى عنان النجم ، وامتد صباحها من شرق إلى غرب ، همَّتُه أبعد من مناط(١٦) الفرقَد ، وأعلى من منكِب الْجوزاءِ(١٧) ، موضعه من أهل الفضل موضع الواسطة من العقد ، وليلة التمِّ من الشهر ، بل ليلة القدر إلى مطلع الفجر ، هطلت علىَّ سحائب عنايته ، ورفرفت

(١) مفاتيحها . (٢) حديثها وقديمها (٣) مجد ورفعة (٤) الفلاة الواسعة (٥) جماعة الناس (٦) تنظر (٧) فاحت منه رائحة طيبة (٨) الطالبون للعطاء (٩) بفتح الفاء : كرمه (١٠) تفلق (١١) أخبارها (١٣) معجبا (١٣) السهم ذى الريش (١٤) الشجرة (١٥) ما تكون وسط العقد وهى أحسنه (١٦) محل علاقته (١٧) برج فى السماء

حولى أَجنحة رعايته ، وقد استظهرت على جَوْر الأَيام بعدله ، واستَتَرْتُ من دهرى بظله ، قد غَرَّقتنى نعمه حتى استنفدتْ شكْر لسانى ويدى ، وتَتَابَعَتْ نعمه تتابع القَطر على القَفْر ، وترادفت مِنَنُه ترادُف اليسر إلى ذوى الفقر ، له أَياد قد عمَّت الآفاق ، وطوقت الأَعناق ، أَياد قد حبستْ عليه الشكر ، واسْتَعبدت له الحر ، مِنَنٌ توالت توالِىَ القَطْر ، واتسعت سعة البَرِّ والبحر ، وأَثقلت كَاهِلَ الحر .

وصف القلم

القلم أَحد اللسانين ، وهو المخاطِب للغُيُوب ، بسرائر القلوب ، على لُغات مختلفة من معان معقولة ، بحروف معلومة ، متباينات الصور مختلفات الجهات ، لِقاحُها التفكر ونِتاجها التَّدَبر ، تخرس منفردات ، وتنطق مُزدوجات بلا أَصوات مسمُوعة ، ولا أَلسُن محدودة ، ولا حركات ظاهرة ، خلا قلم حَرَّف باريه قَطَّته ، ليتعلق المداد به ، وأَرْهفَ جانبيه ليرُدَّ ما انتشر عنه إليه ، وشق رأْسه ليحتبس المداد عليه ، فهُنالك استمد القلم بشقّه ، ونشر فى القرطاس بخطه حروفاً أَحكَمها التفكر ، وأَولى الأَسماع بها الكلام الذى سداه العقل ولحمته اللسان ونهَسَتْه اللهوات ، وقطعته الأَسنان ، ولفظته الشفاه ، ووَعتْه الأَسماع عن أَنحاءٍ شتّى من صفات وأَسماء ، قال البُحترى :

طعانٌ بأَطراف القوافى كأَنه ‏ ‏ طعانٌ بأَطْرَاف القَنا المتكسِّر

وقال ابن المقفّع : « القلم بريد القلب : يُخبر بالخبر ، وينظر بلا نظر » .

وقال أَبو دُلَف: « القلم صائغُ الكلام يفرغ ما يجمعُه العلم » .

وقال الجاحظ : « الدواة منْهَل ، والقلم ماتح ، والكِتاب عَطَن » .

وقال سهل بن هارون : « القلم أَنف الضمير ، إذا رعف أَعْلَنَ وأَبان آثاره »

وقال عمرو بن مسعدة : « الأَقلام مطايا الفِطن » .

وقال المأْمون : « لله دَرّ القلم كيف يَحُوك وَشْى المملكة » .

وقال جالينُوس : « القلم طبيب المنطق » .

وقال أَحمد بن عبد الله : « القلم راقدٌ فى الأَفئدة ، مُسْتيقظ فى الأَفواه »

وقيل : « عُقول الرجال تحت أَقْلَامها » .

وقال آخر : « القلم أَصمّ يسمع النّجْوى ، وأَخرسُ يفصح بالدعوى ، وجاهل يعْلَم الفَحْوى » .

وقال أَيضًا أَحمد بن يوسف : « عبرات الأَقلام فى خدود كتبها أَحسن من عَبَرات الغوانى فى صُحون خدودها » .

وقال أَيضاً : « القلم لسان البَصر يُناجيه بما استتر عن الأَسماع ؛ إذا نَسَج حلله ، وأَودعَهَا حكمه » .

وقال العتابى : « الأَقلام مطايا الأَذهان » .

وقال عبد الحميد : « القلم شجرةٌ ثمرتها الأَلفاظ ، والفكر بحر لُولُؤه الحكمة »

وقيل : « بِرِىّ القلم تروى القلوب الظَّمِئة » .

وقال ابن أَبى دواد : « القلم سفير العقل ، ورسوله الأَنبلُ ، ولسانه الأَطول ، وترجمانه الأَفضل » .

وقال أَيضاً : « القلم الدنيا والآخرة » .

وقال آخر : « بِنَوْءِ القلم تصوب الحكمة » .

قال ابن مَيثَم : « من جلالة شأن القلم أَنه لم يكتب لله تعالى كتاب قطُّ إلا به »

وقالوا : « القلم قَسيم الحكمة » .

وقال يحيى بن خالد البرمكى : « الخط صورة روحها البيان ، ويدها السرعة وقدمُها التسوية ، وجوارحها معرفة الفصول » .

ووصف أَحمد بن إسماعيل خطاً حسنًا فقال : « لو كان نباتاً لكان زَهْرًا ولو كان معدناً لكان تبرًا ، أَو مَذَاقاً لكان حلوًا ، أَو شراباً لكان صفوًا » .

وقال إقليدس : « الخط هندسة رُوحانيَّة ، وإن ظهرت بآلة جسمانية ».
أخذه النّظام فقال : « الخط أصل فى الروح وإن ظهر بالجسد » .

وقال بعض الملوك اليونانية : « أمر الدِّين والدُّنيا تحت شيئين : قلم وسيف ، والسيف تحت القلم » .

وقال أفلاطون : « الخط عِقَالُ العقل » .

وقال أرسططاليس : « القلم العلَّة الفاعلة والمداد العلَّة الهيولانيَّة ، والخط العلَّةُ الصُّورية ، والبلاغة العلَّة السامية » .

سئل بعض الكُتَّاب عن الخط : متى يستحق أن يُوصف بالجودة ؟ فقال : « إذا اعتدلت أقسامُه ، وطالت ألفه ولامُه ، واستقامت سطوره ، وضاهى صعوده حدوره ، وتفتّحت عيونه ، ولم تشبه راءَهُ نونه ، وأشرق قرطاسه ، وأظلمت أنفاسه ، ولم تختلف أجناسه ، وأسرع إلى العيون تَصَوُّره ، وإلى العقول ثمره ، وقُدِّرت فُصُوله ، واندَمجت وصوله ، وتناسب رقيقه وجليله ، وخرج عن نمط الوراقين ، وبعد عن تصَنُّع المحبرين ، وقام لكَاتبه مقام النسبة والحلية » .

وقالوا : « القلم أحدُ اللِّسانين ، والعمُّ أَحد الأَبوين ، والتَّثَبُّت أَحد العفوين ، والمَطْل أَحد الْمَنْعين ، وقلَّة العيال أَحد اليَسَارَيْن ، والقناعة أَحد الرِّزقين ، والوعد أَحد الضَّرْبين ، والإصلاح أَحد الكَسْبَين ، والرَّاوية أَحد الهاجيين ، والهجر أَحد الفراقين ، واليأْس أَحد النُّجْحين ، والمزاح أَحد السبابين » .

وقال آخر : « مَساقُ الدُّنيا بسين وقاف فيقال سق » يريد السيف والقلم
وقال آخر : « القلم لسانُ اليد » .

حدثنى يحيى البحترى قال : حدثنا أَبى عن ابن الترجمان ـ وكان الواثِقُ أَنفذه إلى ملك الروم بهدايا ـ قال : وافَقت لهم عيدًا ، فرأَيتُهم قد علَّقوا على باب بيعتهم كتباً بالعربية منشورة ، فسأَلت عنها ، فقيل :

هذه كُتب المأْمون بخط أحمد بن أَبى خالد الأَحول ، استحسنُوا صُوره وتقديره فجعلوه هكذا . فحدّثتُ أنا بهذا الحديث أَبا عُبَيد الله محمد بن داود بن الجرَّاح فقال : هذا حق ، قد كتب سليمان بن وهب كتاباً إلى ملك الروم فى أيام المُعتمد فقال : ما رأَيتُ للعرب شيئًا أَحسنَ من هذا الشكل ، ولستُ أَحْسِدُهم على شىءٍ حسدى إيَّاهم عليه ، والطَّاغية لايقرأُ العربى ، وإنما راقَه اعتداله وهندستُه وحُسْنُ موقعه ومرَاتبه .

وقال هشام بن عبد الملك لأَعرابى : انظر ، كم على هذا الميل من عدد الأَميال ، وكان الأَعرابى لايحسنُ أَن يقرأَ فمضى ونظر ثم عاد فقال : رأَيتُ كرأْس المحجن مُتّصلا بحلقة صغيرة ، تتبعه ثلاثة كأَطباء الكلبة ، تفضى إلى هنة كأَنها رأْس قَطاة بلَا منقار . ففهم بوصفه أَنها خمسة .

حدثنى يعقوبُ بن بيان الكاتب قال : قال بعضُ الكُتَّاب « القلمُ الرّدىءُ كالولد العاقّ » .

وقالوا : « رَدَاءَةُ الخط إحدى الزّمانتين ، كما أَن حسنه إحدى البلاغتين »

حدثنى طلحة بن عبد الله قال :

اعتذر رجل إلى محمد بن عبد الله بن طاهر من شىءٍ بلغه عنه ، فرأَى خطَّه قبيحًا ، فوقع فى رقعته : « أَردنا قبولَ عُذرك ، فاقتطعنا عنه ما قابلنا من قبح خطِّك ولو كنت صَادقاً فى اعتذارك لساعدتك حركةُ يدك ، أَو ما علمت أَنّ حسن الخطِّ يناضل عن صاحبه بوضوح الْحُجَّة ، ويُمكِّن له درك البغية » !

وكان أَبو هَفَّان عبد الله بن أَحمد المُهتزمى من أَقبح الناس خطًّا وكان يَبْتَدئ الخط من رأْس الوَرَقة ويعوِّج سطُوره حتى يبقى آخر سطر فى الورقة كلمةً واحدةً فرثاه يحيى بن علىّ فقال فى مرْثيَّته :

مع خط كأَنَّه أَرجُل البط   أَو الحطِّ فى ذوى الفتيان !

قالوا : « رَداءة الخط زمانة الأَديب » .

نظر عبد الله بن طاهر إلى خط بعض كُتَّابه فلم يرضه ، فقال : « نَحُّوا هذا عن مرتبة الديوان فإنه عليل الخط ، ولا يُومن أن يُعدى غيره » .

أنشدنى العنزى بن على فى قبح الخط :

جزعت من قُبح خطى وفيه وضعى وحطِّى
رجعتُ من بعد حِذْقى إلى تعلم خطِّى

حدثنا أبوالعباس الرّيعى قال حدثنا الطلحى قال حدثنى أحمد بن إبراهيم قال : دخل على الرَّشيد أعرابى فأنشده أرجوزة – وإسماعيل بن صبيح يكتب بين يديه كتاباً ، وكان أحسنَ النَّاس خطًّا ، وأسرعهم يداً – فقال الرشيد للأعرابى : صف هذا ، فقال له : ما رأيتُ أطيش من قَلمه ، ولا أثبت من حلمه ، ثم قال :

له قلمٌ بُؤسى ونعمى كلاهما سحابته فى الحالتين درور
يناجِيك عمَّا فى ضميرك لحظُه ويفتح باب النّجح وهو عسير

فقال الرشيد : « قد وجب لك يا أعرابى عليه حقٌّ ، هو يقضيك إياه ، وحق علينا فيه نحن أن نقوم به ، ادفُعوا إليه دِيَةَ الحر » فقال له : « على عبدك دية العبد » .

جاء يوماً عبد الله بن المُعتز فى المسجد الجامع إلى أبى العباس أحمد ابن يحيى ليسلم عليه فقام له وأجلسه مكانه ، فداس ابنُ المُعتزّ قلماً فكسره ، فلما جلس قال لمنْ حوله :

لكفِّى ثأْرٌ عند رجلى لأنها أثارتْ قتيلاً ما لأعظمه جبرُ

فعجب الناس من سرْعة بديهته .

وأهدى رجل إلى إبراهيم بن المدبر قلماً وكتب إليه :

قد وجهت إليك أعزّك الله بمفاتح العلوم ، بادٍ جمالُها ، تام كمالها ، فهى كما قال الشاعر :

ليس فيها ما يقالُ له كملت لو أن ذا كَمُلَا

كلّ جزءٍ من محاسنها　　كائنٌ من حسنه مَثَلَا

وقال أحمد بن إسماعيل :

وإذا نَمْنَمتْ بَنانك خطًّا　　مُعرباً عن إصابة وسَدَادِ

عجبَ الناس من بياض مَعانٍ　　يُجتنى من سواد ذاك المِدَاد

حدثنا أَحمد بن يزيد المهلّبي قال حدثني أبو هفّان ، قال سأَلت ورّاقًا عن حاله فقال :

«عَيشِي أَضيقُ من محبرةٍ ، وجِسْمِي أَدقُّ من مِسطرةٍ ، وَجاهي أَرقّ من الزجاج ، ووَجهي عند النّاس أَشدُّ سوادًا من الحبر ، وحظى أَحقرُ من شَقّ القلم ، وَبَدَنِي أَضعف من قصبة ، وطعامي أَمرّ من العَفْص ، وسُوءُ الحال أَلزمُ لى من الصبغ » فقُلت له عَبَّرْتَ عن بلاءٍ ببلاء(١) .

وسُئِلَ ورَّاقٌ عن حاله فقال :

وإذا كنت بالليل لا أَكتُب　　وطُول النهار أَنا أَلعبُ

فَطَوْرًا يُبطلنى مَأْكلٌ　　وطورًا يبطلنى مشْربُ

فإنْ دام هذا على ما أَرى　　فبيتى أَولُ ما يخربُ

وصف الكتاب

الكتابُ نعْمَ الأَنيس فى ساعة الوَحدة ، ونعْم المعرفَةُ فى دار الغُرْبة ، ونعم القَرين والدَّخيل ، ونعم الزَّائر والنزيل ، وعَاءٌ مُلىءَ علما وظرفاً ، وإناءٌ مُلىءَ مزْحاً وجدًّا ، وحبَّذا بستان يحمل فى خرج ، وروض يقلب فى حِجْر ، هل سمعت بشجرة تؤتى أُكلها كل حين بأَلوان مختلفة وطعوم متباينة ؟ هل سمعت بشجرة لا تذوى وزهر لا يتوَى(٢) وثمر لا يفنى ، ومن لك بجليس

---

(١) ومثاله قول قائلهم :

تبـــا لـــرزق نـــازل　　من شق هذى القصبه

تبـــا لـــه ، تبـــا لـــه　　مـــا أتعبه ، مـــا أتعبه

(٢) يتوى : يهلك .

يفيد الشيء وخلافه ، والجنس وضِدّه ، يَنطقُ عن الموْتى ويُترجم عن الأَحياءِ ، إن غَضبتْ لم يَغضب وإن عَربدتْ لم يَصخَب(١) ، أَكتَمُ من الأَرض وأَنمُّ من الرِّيح وأَهوَى من الهوى ، وأَخدعُ من المُنَى ، وأَمتع من الضحى ، وأَنطلق من سحبان وائل ، وأَعيي من باقِل(٢) هل سمعت بعلم تَحَلّى بخلال كثيرة وجمع أَوصافاً عَديدةً ، عَرَبِّى فارسىٌّ يُونانىٌّ هندى سِندى رومى ، إن وعَظ أَسمع ، وإن أَلهى أَمتع ، وإن أَبكى أَدمعَ وإن ضرب أَوجع ، يُفيدك ولا يستفيدُ منك ، ويزيدك ولا يستزيد منك إن جَدّ فعبِرة ، وإن مَزَح فنُزهة . قبرُ الأَسرار ومخزَن الودائع ، قيد العلوم وينبوعُ الحكم ، ومعدن المكارم ومؤنسٌ لا ينام . يفيدك علم الأَولين ، ويخبرك عن كثير من أَخبار المتأَخِّرين . هل سمعت فى الأَولين أَو بلغك أَن أَحدًا من السَّالفين جمعَ هذه الأَوصاف مع قلة مؤنته ؟ وخفة محمله ، لا يرزؤك(٣) شيئًا من دُنياك ، نعم المدّخر لعُدَّة (٤) ، والمشتغل والحرفة ، جليس لا يطريك(٥) ورفيق لا يَملك ، يطيعك فى الليل طاعته فى النهار ، ويطيعك فى السّفر طاعته فى الحضَر . إن أَطلت النَّظر إليه أَطال إمتاعك(٦) وشحذَ(٧) طباعك ، وبسط لسانك وجوَّد بيانك ، وفخَّم أَلفاظك ، إنْ أَلِفْته خلد على الأَيام ذكرك ، وإن دَرَسْتَه رفع فى الخلق قدْرك ، وإن نَعَتَّه نوه عندهم باسمك ، يُقْعد العبيد فى مقاعد السَّادات ، ويُجْلس السوقة فى مجالس الملوك ، فأَكرم به من صاحب ، وأَعْزز به من موافق .

---

(١) لم يصوت (٢) رجل من اياد يضرب به المثل فى العى ، ومن عيه أنه اشترى طيبا فجعله على عاتقه، فسئل عن ثمنه ، فحل عنه يديه وفتح أصابعه وأشار بها ، وأخرج لسانه ، يريد أنه بأحد عشر درهما ، ولم يلهم أن يخبر عن سره بلسانه ، فصار عيه مثلا .

(٣) لاينقصك (٤) ما يعده الانسان لحوادث الدهر من سلاح وغيره

(٥) لا يمدحك (٦) انتفاعك

(٧) أحدها وأقواها

وصف عاصفة لجلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ

أَتى عارض فى ليلة الجمعة التاسعة من جمادى الآخرة ، وكانت فيه ظُلُماتٌ متكاثِفة وبُرُوق خاطفة ورِياح عاصفَة ، فقويَتْ أَهويتُهَا ، واشتدَّ هُبوبها فتدافعت لها أَعِنةٌ مُطلقات ، وارتفعتْ لها صواعقُ مُصعِقات ، فرَجَفتْ لها الْجُدران واصطفَقَت ، وتلاقتْ على بُعدها واعْتنقت ، وثارَ بين السَّماءِ والأَرض عجَاج فقيل لعلَّ هذه على هذه أطبقت .

وتحسب أَنَّ جهنم قد سالَ منها وادٍ وعدا منها عادٍ ، وزاد عصف الرِّياح إلى أَن انطفأَت مصابيح النُّجُوم ، ومُزِّق أَديمُ السَّماءِ ومُحىَ ما فوقهُ من الرّقوم ، لا عاصِمَ من الخطف للأَبصار ، ولا مَلجأً من الخطب إلَّا معاقل الاستِغْفَار ، وفرّ النّاس نساءً ورِجالاً ، ونفرُوا من دُورهم خفافاً وثِقالاً ، لايستطيعون حِيلة ، ولا يهتدُون سبيلا ، فاعتَصمُوا بالمساجد الجامعة ، وأَذْعنوا للنّازلة بأَعناق خاضعَة ، ووجوه عافيَة ، وَنُفوس عن الأَهل والمال سالية ، يَنظرون مِن طرفْ خفِيٍّ ، ويتوقعون أَىَّ خطبٍ جلى ، قد انقطعت من الحياة عُلَقهم وعميَتْ عن النَّجَاة طرُقهم ، ووقعت الفِكرةُ فيما هُم عليه قادمون ، وقاموا إلى صلاتهم وَوَدُّوا أَن لو كانوا من الذين هم عليها دائمون ، إلى أَنْ أَذِن الله فى الرُّكود وأَسَعَف الهاجدينَ بالهجود .

وَأَصبحَ كلٌّ يسلمْ على رَفيقه ، وَيُهنِّئه بسلامة طريقه ، ويرى أَنه قد بُعثَ بعدَ النفخة ، وأَفاقَ بعدَ الصَّيحة والصَّرْخة ، وَأَنَّ الله قد ردَّ له الكرَّة وَأَديَهُ بعدَ أَن كاد يأْخُذَه على غِرة ؛ ووردَتْ الأَخبار بأَن كسِرَت المراكبُ فى البحار ، والأَشجار فى القفار ، وأُتلِف خلقٌ كثير من السّفار ، ومنهم من فرَّ فلم ينفعه الفرار .

وصف العلم لبديع الزّمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ

العلم شَىْءٌ بعيد المرام، لايصادُ بالسّهام، ولا يقسم بالأَزلام(١)، ولا يُرَى فى المنام، ولايُضبَط باللجام، ولايكتبُ للئام، ولايُورثُ عن الآباءِ والأَعمام.

وزَرْع لا يزكو(٢) إلا مَتَى صَادَفَ من الحزم ثرى طيِّبًا، ومن التوفيق مطرًا صيبًا، ومن الطبع جوًّا صافيًا، ومن الجهد رَوْحًا(٣) دائمًا، ومن الصبر سُقْيًا نافعًا.

وَغَرَضٌ لا يصاب إلَّا بافتراش المدر(٤)، واستِناد الحجر، ورد الضجر، ورُكوب الخطر، وإدمان السَّهر، واصطحاب السَّفَر، وكثرة النَّظر، وإعمال الفكر.

وصف رجل لخصمه

كان أحمدُ بن يوسُف(٥) مُنصرفاً عن غَسَّان بن عباد، وجرت بينهما هنات(٦) بحضرة المأْمون، ثم قال المأْمون يوماً لخاصة أَصحابه: «أَخبرونى

(١) الأزلام: جمع زلم ـ بفتح الزاى أو ضمها مع فتح اللام ـ وهى سهام لا نصل لها ولا ريش. كان العرب اذا أرادوا القمار أحضروا جزورا فنحروها وقسموا لحمها الى ثمانية وعشرين قسما، ثم أتوا بعشرة أزلام، فرسموا على واحد منها خطا، وعلى الثانى خطين، وعلى الثالث ثلاثة، وهكذا الى السابع، فيكون عليه سبعة وهو المسمى بالقدح المعلى، وتبقى ثلاثة غفلا لا يرسم عليها شىء، ثم يضعون الجميع فى خريطة ويدخل رجل يده فيها فيخرج زلما باسم واحد من المقامرين، فان كان مرسوما له عليه شىء أخذ من أقسام اللحم بقدره، وان كان غفلا غرم ثمن الجزور. والمقصود من هذه العبارة أن العلم لا ينال بطريق البحث والمصادفة، كما ينال اللحم المقسوم.

(٢) يزكو: ينمو ويطيب. (٣) الروح ـ بفتح فسكون ـ نسيم الريح.

(٤) المدر: قطع الطين اليابس، وافترش المطر: نام عليه

(٥) كاتب بليغ من كتاب المأمون، وكان بارعا فى الرسائل، ويكنى: أبا جعفر

(٦) الهنات: جمع هنة، وقد تجمع على هنوات، والمراد: أمور

عن غَسَّان بن عباد ، فإنِّى أُريده لأَمر جَسيم » وكان قد عزَم على تقليده السِّنْدَ . فتكلم كلٌّ بما عنده فى مدحه ، فقال أَحمدُ بن يوسف : هو يا أَمير المؤمنين رجل محاسنه أكثرُ من مَسَاويه ، لا يَتطرق(١) إلى أمر إلا تقدَّم فيه ، ومهما تُخُوِّف عليه فإنه لن يَأْتى أمرًا يُعْتَذَرُ منه . قَسَم أَيامَه بين أَفعال الفَضْل ، فَجَعَل لكلِّ خلقٍ نوبة (٢) إذا نظرتَ فى أَمره لم تَدر أَىّ حالاته أَعجب : أَمَا هَداه إليه عَقْله ؟ أَمْ مَا اكتسبه بأَدبه ؟ فقال له المأْمون : لقد مدحتَه على سُوءِ رأْيك فيه . قال : لأَنى فى أَمير المؤمنين كما قال الشاعر :

كَفَى ثمنًا لِما أَسديتَ أَنِّى ... نَصحتُك فى الصّدِيق وفى عَدَائى

وإنِّى حين تَنْدُبنى لِأَمر ... يكون هَواك أَغلبُ مِنْ هوائى(٣)

وصف أَبى دُلف لعبد الله بن طاهر

دخَل أَبو دُلف(٤) على المأْمون بعد الرِّضا عنه ، فسأَلهُ عن عبد الله ابن طاهر(٥) فقال : خَلفته يا أَميرَ المؤمنين أَمينَ غَيب ، نَصيحَ جَيب(٦) أَسدًا عاتيًا قائمًا على بَرَائِنه ، يَسْعَد به وليّك ، ويشقى به عَدوّك ، رَحْبَ

(١) تطرق الى الأمر : ابتغى اليه طريقا .

(٢) النوبة : الفرصة والدولة والمرة ، جمعها نوب كغرف .

(٣) يريد هواى ، ومده للضرورة .

(٤) أبو دلف ــ كعمر ــ هو القاسم بن عيسى البكرى من قواد المأمون ثم المعتصم ، وكان جوادا شجاعا ، وفيه يقول الشاعر :

انما الدنيا أبو دلف ... بين ناديه ومحتضره

فاذا ولى أبو دلف ... ولت الدنيا على أثره

توفى سنة ٢٢٦ هـ .

(٥) هو عبد الله بن طاهر بن الحسن ، من كبار ولاة المأمون ولى مصر مدة سنتين تقريبا . قال صاحب كتاب ادب الخواص : ان البطيخ العبدلاوى الموجود بالديار المصرية منسوب اليه ، اهـ .

(٦) يقال : هو ناصح الجيب ، أى القلب والصدر .

الفِنَاء لأَهل طاعتك ، ذا بأْسٍ شديد لمن زاغ عن قصد محجَّتك ، قد فقّهه الحزم ، وأَيقظه العزم ، فقام في نحر الأَمور على ساق التشمير ، يبرمها بأَيْدِه(١) وكيده ، ويفُلُّها بحده وجِدّه ، وما أَشبهه في الحرب إلا بقول العباس بن مرْداس :

أَكرُّ على الكتيبة لا أُبالى أَحَتْفِي كان فيها أَم سواها

فقال قائل : ما أَفصحه على جبليَّته ! فقال المأْمون : إن بالجبل(٢) قوماً أَمجادًا(٣) كراماً أَنجادًا(٤) ، وإنهم لَيُوَفون السيف حظه يوم النزال ، والكلام حقه يوم المقال .

وصف أَعرابى لرجل

وصف أَعرابى رجلاً فقال :

إنْ سأَلَ أَلحف ، وإنْ سُئل سوَّف ، وإذا وعد أَخلف ، وإذا صَنعَ أَتلف ، وإذا همَّ بالفعل الجميل توقف ، ينظر بنظر الحسود ، ويُعْرِض إعراض الحقود ، بينما هو خِلٌّ وَدُود ، إذا هو خَلٌّ وَدُود ، فناؤه شاسع ، وضيفه جائع ، وشرّه شائع ، وسرّه ذائع ، ولونه فاقع(٦) ، وجفنه دامع ،

(١) الأيد : القوة .
(٢) الجبل . بلاد بين أذربيجان وعراق العرب وخوزستان وبلاد الديلم .
(٣) الأمجار — جمع ماجد أو مجيد ، كأشهاد فى شاهد وشهيد — والماجد والمجيد : الحسن الخلق السمح .
(٤) الأنجاد — جمع نجد بكسر الجيم أو ضمها — وهو الشديد البأس ، ومن كلام على : أما بنـــو هاشم فأنجـاد أمجاد .
(٥) فناء البيت : الساحة أمامه ، وجمعه أفنية والشاسع : البعيـــد ، والجملة كناية عن أنه بخيل ، لأن من عادة البخيل عندهم أن يبنى خبـــاءه بعيدا عن الحى حتى لا يقصد ، ، قالت الفارعة :

ولا يحـل اذا ما حـــل منتئيا يخشى الرزية بين الماء والبادى

(٦) الفاقع : الشديد الصفرة ، وربما أكد به الأبيض .

وديارِه بَلاقِع ، رَدِيءُ المَنْظَر ، سَيِّئُ المَخْبَر ، يَبْخَل إِذَا أَيسر ، ويَهلَع(١) إذا أَعسر ، ويكْذِب إذا أَخْبر ، إنْ عاهَد غَدَرَ ، وإنْ خَاصَم فَجَر ، وإنْ خُوطبَ نَفَر .

وصف الإمام العادل

كتب عُمرُ بنُ عبد العزيز رضى الله تعالى عنه لمّا وَلى الخِلافة إلى الحسن ابن أَبى الحسن البصرى ، أَن يكتب إليه بصفة الإمام العادل . فكتب إليه الحَسَنُ :

اعلم يا أَمير المؤمنين أَنَّ الله جعلَ الإمام العادل قوام كلّ مائل ، وقصد كلّ جائر ، وصلَاح كل فاسد ، وقُوَّة كل ضعيف ، ونصفة كلّ مظلوم ، ومفزعَ كلّ ملهُوف . والإِمام العادلُ يا أَمير المؤمنين كالرَّاعى الشّفيق على إِبله ، الرَّفيق الذى يرْتَادُ لها أَطيب المراعى ، ويذودُها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السِّباع ، ويكنُفُهَا من أَذى الحر والقرّ ، والإِمام العادل يا أَمير المؤمنين ، كالأَب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغارًا ، ويُعلمهم كبارًا ، يكتسبُ لهم فى حياتِه ويدّخِرُ لهم بعد مماته ، والإِمام العادل يا أَمير المؤمنين ، كالأُم الشّفيقة ، البرَّة الرَّفيقة بولدها ، حملتهُ كرهًا ، ووَضعتهُ كرْهًا ، وربّته طِفلاً ، تسهرُ بسهره ، وتسكُن بِسكونه ، تُرضِعهُ تَارَةً ، وتَفْطمه أُخرَى ، وتفرَح بِعَافيتهِ ، وتغْتَمُّ بشكايته ، والإِمام العادل يا أَمير المؤمنين ، وصىّ اليتَامَى ، وخازنُ المساكين ، يُرَبى صغيرَهم ويُمَون كبيرَهم ، والإِمام العادل يا أَمير المومنين ، كالقلب بين الجَوَانح ، تصلُح الجَوَانح بصلاحه ، وتفسدُ بفساده ، والإِمام العادل يا أَمير المؤمنين ، هو القائمُ بين الله وبين عباده ، يَسمع كلام الله

(١) الهلع : أشد الجزع .

ويُسْمِعَهُمْ ، وينظرُ إلى الله ويُريهم ، وينقادُ إلى الله ويَقُودُهم ـ فلا تكن يا أَميرَ المومنين فيما ملَّكك الله كعبد ائتَمَنَهُ سيِّده ، واستحفظه مالَه وَعِيَالَه ، فبَدد المال ، وشرَّد العِيَال ، فأَفقرَ أهلَه وفَرَّق ماله .

واعلم يا أَمير المؤمنين أَن الله أَنزل الحُدُودَ لِيزْجُرَ بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أَتاها من يليها ؟! وأَنَّ الله أَنزل القَصاصَ حيَاةً لعبادِه ، فكيف إذا قتلهم من يقتص منهم ؟! واذكر يا أَمير المؤمنين الموْت وما بعده ، وقلَّة أَشيَاعك عِنده ، وأَنصارك عليه ، فتزوّد له ، ولما بعدهُ من الفزع الأَكبر .

واعلم يا أَمير المؤمنين ، أَنّ لك منزلاً غير منزلك الذى أَنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقُك أَحبَّاؤك ، يُسْلمُونك فى قعره فريدًا وحيدًا ، فتزوّد له ما يصحبُك ، يَوْمَ يفرُّ المرءُ من أَخيه ، وأُمِّه وَأَبِيهِ وصَاحبتِه وبنيه ـ واذكر يا أَمير المومنين ، إذا بُعثرَ ما فِي القبور ، وحُصِّل ما فى الصدُور ؛ فالأَسرار ظاهرة ، والكتَابُ لا يُغَادرُ صغيرةً ولا كبيرة إلَّا أَحصاها ـ فالآن يا أَمير المؤمنين وأَنت فى مهل قبل حُلول الأَجل ، وانقطاعِ الأَمل ـ لاتحكم يا أَمير المومنين فى عباد الله بحُكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظَّالمين ، ولا تُسلّط المستكبرين على المستضْعفين ، فإنّهم لايرقبُون فى مُؤمن إلاًّ ولا ذمّة ، فتبُوءَ بأَوْزارك وأَوْزار مع أَوْزارك ، وتحمل أَثقالك وأَثقالاً مع أَثقالك ، ولا يَغُرّنّك الذين يتنعَّمون بما فيه بُؤسك ، ويأْكلُون الطَّيبات فى دُنياهم بإذهاب طيِّبَاتك فِى آخرتك ، ولا تنظر إلى قُدْرَتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدْرَتك غدًا ، وأَنت مأْسورٌ فى حبائل الموت ، وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمُرْسلين ، وقد عنت الوُجوه للحىِّ القيُّوم . إنى يا أَمير المؤمنين ، وإنْ لم أَبلغ بعظتى ما بلغهُ أُولُو النُّهى من

قبلى فلم آلُكَ شفقةً ونُصحًا ، فأنزل كتابى إليك كمداوى حبيبه ، يسقيه الأَدوية الكريهة ، لما يرجُو له فى ذلك مِنَ العافية والصحة .

وصف عمرو بن العاص مصر لسيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

مصر تُرْبَةٌ غَبْرَاءُ ، وشجرةٌ خضراءُ ، طُولها شهر ، وعرضها عشر(١) ، يَخُطُّ وسطها نهر ميمون الغَدَوات ، مُبارك الروحات ، يجرى بالزيادة والنّقصان كجرى الشمس والقمر ، له أَوان تظهر به عُيون الأَرض ويَنابيعها ، حتى إذا أَصلح عجاجه ، وتعظَّمت أَمواجه ، لم يكن وُصول أَهل القرى إلى بعض إلا فى خِفافِ القَوارب(٢) وصِغار المرَاكب ، فإذا تكاملت زيادته نكص(٣) على عَقِبيه كأَوَّل ما بدأَ فى شِدَّته ، وطَما (٤) فى حِدّته ، فعند ذلك يخرجُ القوم ليحرُثوا بُطُون أَوْدِيتِهِ وروابيه فيبذرون الحَبَّ ويَرْجُون الثِّمَار من الرب ، حتى إذا أَشرق وأَشرف ، سقَاهُ من فوقه النَّدى ، وغذاه من تحته الثرَى ، فعند ذلك يدُرُّ حلابُه ، ويغنى ذبابه — فبينما هى يا أَمير المؤمنين درّة بيضاءُ ، إذا هى عَنبرَةٌ سوداء ، فإذا هى زبرجدَةٌ خضراءُ ، فتبارك الله الفعال لما يشاءُ .

وصف حرب لأَبى منصور الثعالبى النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ

عند ما دارت رَحا الحرب ، صَمَتَتْ الأَلسنةُ ، ونَطَقت الأَسِنَّةُ ، وخطبت السُّيوف على منابر الرِّقاب ، وأَقدمت الرماح على الخطط الصِّعاب ، وتلاصقت القنا والقَنابل(٥) ، وتعانقت الصّوارم (٦) والمناصل ، وبلغت القلوب الحناجر ، وأَدْركت السيوفُ المناحرَ ، وضاقَ المجال ، وتحكَّمت

(١) أى عشر ليال ، لأن عادة العرب السير فى الليل .
(٢) السفن الصغيرة (٣) رجع (٤) ارتفع
(٥) القنا : الرماح ، والقنابل : جمع قنبل ما بين الخمسين فصاعدا من الخيل (٦) السيوف القاطعة ، وكذا المناصل

الآجال ، فلا ترى إلَّا رُءُوساً تُنْدَر(١) وَدِماءً تهدَرُ ، وأَعضاء تتطاير وتَتَناثر ، وأَجساماً تتزايل وتمايل حتى ثملت الرِّماحُ من الدِّماءِ ، فتعثرَت فى النحور ، وتكسّرت فى الصدُور ، فرجعوا الأَعداء من جوانبهم ، وتمكّنوا من فض مُواكبهم .

وصف المطر شعرًا لأَبى الفضل الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ

مع مقدمة لعمر بن على المطوعى فى وصف ذلك المطر نثرًا

حكى عمرُ بن على المطوعى قال : رأَى الأَمير السيدُ أَبو الفضل عبد الرحمن ابنُ أَحمد أَدام الله عِزّه أَيام مُقامِه بجُوَين(٢) أَن يطالع قرية من قرى ضِياعه(٣) تُدعى «بجاب» على سبيل التنزه والتفرُّج ، فكنت فى جُملة من استصحبه إِليها من أَصحابه ، واتفق أَن وصلنا والسماء مُصحية(٤) ، والجو صاف ، لم يُطرز ثوبه بعلم الغمام(٥) والأُفق فَيْرُوزجٌ لم يعبق به كافور السحاب(٦) . فوقع الاختيار على ظل شجرَة باسِقة الفُرُوع(٧) ، مُتسعة الأَوْراق والغصّون ، قد سترَت ما حَوَاليها من الأَرض طولاً وعرْضاً ، فنزلنا تحتها مُستظلين بِسماوَةِ أَفنانها(٨) مُستترين من وَهَج الشمس بستَارَة أَغصانها(٩) ، وأَخذنا نتجاذَب أَذيَال المُذَاكرة(١٠) ، ونَتسالب أَهدابَ المناشدة والمحاوَرَة(١١) ، فما شَعُرْنَا بالسماءِ إِلَّا وقد أَرْعَدَتْ

---

(١) تسقط (٢) كورة بخراسان ، وبلدة بسرخس من بلاد فارس .
(٣) والضياع : جمع ضيعة ، وهى العقار والأرض المغلة (٤) لا غيم فيها (٥) عبارة عن خلو الجو من السحاب (٦) أى لونه مثل الفيروزج وهو الزرقة ، ولم يعبق به : لم يلصق به ، والكافور : طيب يستخرج من شجر كبير ، ولون هذا الطيب يصير أبيض بعد عماية تعمل فيه . والمعنى : أنه لا يرى شيء من السحاب فى الأفق (٧) طويلتها (٧) الأفنان : الغصون ، وسماوتها : يعنى أوراقها العريضة المتلاحمة تلاحما يجعلها تشبه السقوف
(٩) وهج الشمس : شدة حرها وتوقدها
(١٠) عبارة عن تذاكرهم
(١١) عبارة عن تناشدهم الأشعار وتحاور بعضهم مع بعض تحاورا أدبيا

وَأَبرقت(١)وأظلمت بعد ما أَشرقتْ ، ثم جادَت بمطر كأَفوَاهِ القرب ، فأَجادت(٢) وحكت أَنامل الأَجواد ، بل أَوفت عليها وزادت(٣) ، حتى كاد غيثها يعود عيثًا(٤) وهم وبلها أَن يستحيل ويلا(٥) فصبرنا على أَذَاها وقلنا سحابة صيف عن قليل تقشع(٦) فإذا نحن قد أَمطرتنا بَرَد الثغور ، لكنها من ثغور العِذَاب(٧) لا من الثغور العَذَاب(٨) ، فأَيقنا بالبلاءِ ، وسلمنا لأَسباب القضاءِ(٩) ، فما مرت ساعةٌ من النهار ، حتى سمعنا خرير الأَنهار(١٠) ورأَينا السيل قدبلغ الزبى(١١) والماءَ قد غمر القيعان والربا(١٢) فبادرنا إلى حصن القرية ، لائذين من السيل بأَفنيتها(١٣) ،

---

(١) يقال : رعدت وبرقت ، أى جاءت بالرعد والبرق ، وأرعدت وأبرقت يعنى تهددت بالرعد وتوعدت بالبرق . (٢) جادت : تكرمت، وأجادت: أحسنت

(٣) حكت : شابهت : وأنامل الاجواد : المقصود أيدى الكرام ، ومحاكاتها لأيدى الكريم يعنى مشابهتها لايديهم فى السخاء ، وأوفت وزادت بمعنى واحد .

(٤) الغيث : المطر ، والعيث : الافساد (٥) الوبل : المطر العظيم القطرات والوبل : الشر (٦) أى لا تمكث الا قليلا وتذهب (٧) البرد ــ بفتحات ــ قطرات المطر المتجمدة تنزل على الأرض كالحب فى شكل الثلج أو الجليد، تشبه به أسنان الغوانى وثناياها عند افترار الثغور ، والثغر : الفم ، وثغور العذاب : فتحاته .

(٨) من الثغور العذبة الريق . (٩) وخضعنا لحكم المقادير .

(١٠) يعنى جرى الماء بشدة ، فصار يسمع له صوت كصوت مياه الانهار .

(١١) السيل : الماء العظيم الذى يتجمع من المطر ، ويسيل بشدة ، والزبى ــ جمع زبية ــ وهى الأرض المرتفعة ارتفاعا عظيما بحيث لا يعلوها الماء عادة ، أو حفرة تحفر فيها ليصاد فيها الأسد .

(١٢) الربا ــ جمع ربوة ــ الأرض المرتفعة ارتفاعا ، والقيعان ــ جمع قاع ــ وهو الأرض السهلة المطمئنة التى انفرجت عنها الجبال والآكام .

(١٣) فبادرنا : أسرعنا ، والحصن : الموضع الحصين المنيع ، الذى لا يوصل الى جوفه ولائذين : محتمين متحصنين ، والأفنية ــ جمع فناء ــ وهو المتسع أمام الدار .

وعائذين من القَطر بأَبنيَتها(١) ، وأثوابُنا قد صَنْدَل كافورَها ماء الوبل(٢) ، وغلفَ طرازها طين الوَحْل(٣) ، ونحن نحمد الله تعالى على سلامة الأَبدان ، وإنْ فقدنا بياض الأَكمام والأَرْدان(٤) ، ونشكره على سلامة الأَنفس والأَرواح ، شكر التاجر على بقاء رأس المال ، إذا فُجعَ بالأَرباح(٥) فبتنا تلك الليلة تحت سماء تَكِفّ ولا تنكُف(٦) ، وتبكى علينا إلى الصباح بأدمع هوام(٧) ، وأربع سجام(٨) ، فلما سُلَّ سيفُ الصبح من غمد الظلام(٩) ، وصُرف بوالى الصحو عاملُ الغمام(١٠) ، رأينا صواب الرأى أَنْ نوسعَ الإقامة بها رفضا(١١) ، ونتخذ الارْتحال عنهَا فرضاً ، فما زلنا نطوى الصحارى أَرْضًا فأَرضاً ، إلى أن وافينا المستقر ركضاً(١٢) ، فلما نفضنا غُبَار ذلك المسير(١٣) ، الذى جعلنا فى ربقة الأَسير(١٤) ، وأَفْضَيْنَا إلى ساحة التيسير(١٥) بعد ما أُصِبْنَا بالأَمر العسير ،

---

(١) عائذين : ملتجئين ، والقطر : ما نزل من ماء المطر ، والأبنية : المبانى

(٢) صندل : استعمله متعديا بمعنى جعل لون الصندل أحمر ضاربا الى السواد ، والكافور والوبل تقدم معناهما (٣) غلف الشيء : جعل له غلافا اى حجابا وسترا ، والطراز : رسم الثوب ، والمعنى : أن رسم الثوب ستره الطين المتناثر من الوحل .

(٤) الأردان : أصول الأكمام (٥) أى أوجع بعدم الارباح وفقد المكاسب

(٦) تكف : تمطر ،ولاتكف :لاينقطع مطرها (٧) هوام – جمع هام – من همى يهمى بمعنى سال (٨) لعله يريد أربع نواح يقطر منها الماء كثيرا .

(٩) أى الصبح الشبيه بالسيف ، والظلام الشبيه بالغمد (١٠) الوالى : العامل أو الحاكم،والمعنى أزال الصحو الغمام (١١) أى أن نرفض الاقامة بها رفضا باتا

(١٢) وافينا : أتينا ، والمستقر : السكن ، وركضا : يعنى عدوا ، وجريا على الأقدام .

(١٣) يعنى لماأزلنا وسخ هذا السير بمعنى استرحنا (١٤) الربقة : عروة تجعل فى حبل مع عرى غيرها ، ويربط فى هذا الحبل (ويسمى الربق) أولاد الضأن والمعز والبقر (١٥) أفضينا : وصلنا ، والساحة : رحبة واسعة بين الدور ، والتيسير : بمعنى اليسر والتسهيل .

وتذاكرنا ما لقينا من التعب وَالمَشقة ، فى قطع ذلك الطريق وطى تلك الشقة(١) أخذ الأَمير السيد أَطال الله بقاءه القلم فعلق هذه الأَبيات ارتجالا :

دَهَتْنا السماءُ غَدَاة السَّحَاب ... بغيث على أُفقه مُسْبلِ(٢)

فجاءَ بِرَعْد لهُ رَنَّةٌ(٣) ... كرنةِ ثكلى ولم تثكلِ(٤)

وثنى بِوبْلٍ عدا طَوْرهُ(٥) ... فعادَ وبالا على المُمحلِ(٦)

وأَشرَفَ أَصحابنا مِنْ أَذاهُ ... على خَطَرٍ هائل مُعضلِ(٧)

فمنْ لائذٍ بفناءِ الجِدَارِ(٨) ... وآوٍ إلى نَفَقٍ مُهملِ(٩)

ومن مُسْتَجير يُنادِى الغرِيق ... هناكَ ومن صارخٍ معولِ(١٠)

وجادَتْ علينا سماءُ السقوف ... بدمع من الوَجدِ لَمْ يُهمل(١١)

---

(١) طى تلك الشقة : أى قطع تلك المسافة (٢) الغداة : أول النهار ، يعنى دهمتنا السماء بمطر فى أول النهار الذى كان فيه غيم ، والغيث : المطر، والمسبل ، الهاطل يعنى دهمتنا السماء بمطر هاطل على الأفق الذى كان السحاب مخيما عليه

(٣) له رنة : أى دوى وصوت هائل .

(٤) الثكلى : التى فقدت ولدها ، ولم تثكل : يعنى لم يفقدها الله ولدها والمعنى كصوت الغائب عنها ولدها،مع أن الله لم يهلكه ، فهى تصوت على غيابه ولم ينقطع أملها من وجوده

(٥) الوبل : تقدم تفسيره وهو المطر الشديد ، وعدا طوره : تجاوز حده .

(٦) فصار ثقيلا وخيما على المكان المحل الجدب المنقطع عنه المطر .

(٧) أشرف على كذا : قرب منه ، والمعضل : الذى لا دواء له .

(٨ و ٩) فمن متحصن بالأراضى المجاورة للجدران ، ومن لاجىء الى سرب فى الأرض لم يتعهده احد

(١٠) ينادى الغريق : أى يدعو الناس ويقول الغريق لينقذوه ، والمعول : الرافع صوته بالبكاء

(١١) همل الدمع : سال ، والمعنى :انها جادت بدمع لم يكن السبب فى اسباله لا الغرام ولا الوجد

كأَن حراماً لها أَن ترى يبيسًا مِن الأَرض لم يبللِ(١)
وأَقبل سيلٌ له رَوْعَةٌ(٢) فأَدبَرَ كل عن المُقبل(٣)
يُقلعُ ما شاءَ من دَوْحة(٤) وما يَلْقَ من صخرة يحمل(٥)
فَمِنْ عامرٍ رَدَّهُ غامِرًا(٦) ومن مُعلم عاد كالمجهل(٧)
كفانا بَليتَّهُ رَبُّنَا فقد وجب الشكر للمفضل(٨)
فقل للسماءِ ارْعدى وابرقى(٩) فإنا رَجعنا إلى المنزل

وصف حديقة لابن حبيب الحلبى المتوفى سنة ٩٧٧ هـ

لما صدأَت مِرآةُ الجنان(١٠) قصدتُ لجلائها بعض الجنان(١١) فدخلت إليها ، وما كدتُ أَن أَقدِمَ عليها ، فإذا هى جنةٌ عاليةٌ(١٢) قطوفها دانية(١٣) وطلحها مَنضود(١٤) ، وظلها مَمْدُودٌ(١٥) ، وأَعلام أَشجارها مرفوعة(١٦) وفاكهتها

(١) كأن حراما لها ، أى كأن السماء محرم عليها أن ترى أرضا يابسة لم تبل بالماء .

(٢) الروعة : الفزعة . (٣) كل واحد يولى ويهرب ممن يقابله

(٤) يقتلع كل ما يريد من الشجر العظيم

(٥) يحمل كل ما يلقاه من الصخور الضخام

(٦) رده غامرا : صيره خرابا (٧) من معلوم صار كالمجهول

(٨) كفانا الله شره . فوجب الشكر له لأفضاله علينا

(٩) ايت بالرعد والبرق

(١٠) الجنان : القلب ، وصدئت مرآته علامة على الوسخ ، والمعنى : لما كل القلب ، ومل العمل .

(١١) لجلائها : أى ازالة الوسخ الذى علاها ، والجنان – جمع جنة – وهى الحديقة ذات النخل والشجر (١٢) أى مرتفعة (١٣) عناقيدها متدلية قريبة من الجانى .

(١٤) الطلح : الأشجار العظام ، ومنضود يعنى متراكم بعضه فوق بعض

(١٥) أى متسع (١٦) اى أغصانها مرتفعة .

كثيرة لا مقطوعةٌ ولا ممنوعةٌ(١) ، تجوس المياه خلال ديارها (٢) وَتُشْرِق بآفاقها أنوارًا نوّارها (٣) ، نزهة النواظر(٤) ، وشركُ الخواطر(٥) ، بها أشجار لا تحصى(٦) ، وثمار لا تُعَدُّ ولا تُسْتَقصى(٧) .

وصف البيان لأمير المؤمنين ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ

البيان تُرْجمان القلوب ، وصقيل العقول(٨) ، وَمُجْلِي الشبهة(٩) ، وموجب الحجة ، والحاكم عند اختصام الظنون ، والمفرق بين الشكّ واليقين ، وخير البيان ما كان مصرِّحاً عن المعنى ، ليسرع إلى الفهم تلقيه ، أو موجزًا ليخف على اللفظ تعاطيه .

ووصف أيضاً المكارم فقال :

لن تكْسبَ ــ أعزك اللهَ ــ المحامدَ ، وتستوجب الشرف ، إلا بالحمل على النفس والحال ، والنهوض بحمل الأثقال ، وبذل الجاه والمال ، ولو كانت المكارم تُنَالُ بغير مؤونة لاشترك فيها السفل(١٠) والأحرار ، وَتَساهَمَها الوضعاءُ(١١) وذوو الأخطار ، ولكن الله تعالى خصّ الكرماء الذين جعلهم أهلها ، فخفف عليهم حملها وَسَوَّغهم فضلها وحظرها(١٢) على السفلة لصغر أقدارهم عنها وَبُعْد طباعهم منها ، ونفورها عنهم وَاقْشِعْرارها منهم .

ووصف أيضاً القرآن الكريم فقال :

فضل القرآن على سائر الكلام معروف غير مجهول ، وظاهر غير خفي

(١) لا تقطع عن الطالب ولا تمنع عنه (٢) أى تتردد بين بيوتها
(٣) النوار : الزهر (٤) تتنزه فيها العيون (٥) تصطاد الخواصر وتسبى العقول
(٦) لا يمكن الاتيان على عددها (٧) لايتأتى ادراك آخرها (٨) جلاؤها
(٩) كاشفها (١٠) السفل : جمع سفلة ، وهم طغام الناس وغوغاؤهم .
(١١) جمع وضيع : وهو الساقط (١٢) منعها

يشهد بذلك عجزُ المتعاطين ، ووَهْن(١)المتكلفين ، وهو المبلِّغُ الذى لايمَلّ ، والجديدُ الذى لايخلقُ(٢) والحق الصادع ، والنور الساطع ، والماحى لظلم الضلال ، ولسان الصدق النافى للكذب ، ومفتاح الخير ، ودليلُ الجنة — إن أَوْجَز كان كافيًا وإن أَكثر كان مُذكِّرًا ، وإن أَمر فناصحًا ، وإن حكم فعادلاً ، وإن أَخبر فصادقًا . سراجٌ تستضىءُ به القلوب ، وبحر العلوم ، وديوان الحكم ، وجوهر الكلم .

وصف البلاغة لفحول البلغاء

(١) قال الجوهرى : أَحسن الكلام نظاماً ماثقبته يد الفكرة ، ونظمته الفطنة ووُصل جوهر معانيه فى سُمُوط(٣) أَلفاظه ، فاحتملته نُحُورُ الرواة .

(٢) وقال العطَّار : أَطيبُ الكلام ما عُجِنَ عنبرُ أَلفاظه بمسك معانيه ، ففاح نسيم نشقه(٤) وسطعت رائحة عبقه ، فتعلقت به الرواة ، وتعطرت به السراة .

(٣) وقال الصائغ : خير الكلام ما أَحْميتَه بكير الفكر ، وسبكتهُ بمشاعل النظر ، وخلَّصته من خبَث الإطناب ، فبرَزَ بُرُوزَ الإبريز ، فى معنًى وَجيز(٥) .

(٤) وقال الصيرفى : خير الكلام ما نقدته عين البصيرة ، وجلتهُ يَد الرويّة وَوَزنته بمعيار الفصاحة ، فلا نظرٌ يزيفه(٦) ؛ ولاسَماع يُبهرجه(٧) .

---

(١) ضعف (٢) لا يبلى

(٣) السمط : الخيط الذى ينظم فيه (٤) النشق : الاستنشاق ، العبق : لصوق الطيب بالشىء ، وتغلف الرجل بالطيب : ادهن به ، والسراة : الأشراف .

(٥) الكير : زق ينفخ فيه الحداد ، والمشاعل : جمع مشعل وهو القنديل وهو موضع شعل النار أى الهابها . (٦) زيف الدراهم : اى انها زائفه اى مغشوشة . (٧) وبهرجها : أبطلها

(٥) وقال الحداد : أَحسنُ الكلام ما نصبت عليه منفَخَة القريحة ، وأَشعلتَ عليه نار البصيرة ، ثم أَخرجته من فحم الإفخام وَرَقَّقْتَهُ بغطيس الأَفهام(١) .

(٦) وقال النجار : خير الكلام ما أَحكمت بحر معناه بقَدُّوم التقدير ، وَنَشرته بمنشار التدبير ، فصار باباً لبيت البيان ، وعارضةً(٢) لِسَقف اللسان.

(٧) وقال الحائك : أَحسن الكلام ما اتصلت لُحمة أَلفاظه ، بسُدَى معانيه مفوفاً منيرًا ، موشى محبرًا(٣) .

(٨) وقال الجمَّال : البليغ من أَخذ بخطام(٤) كلامه ، فأَناخه فى مبرك المعنى ، ثم جعل الاختصار له عِقالا ، والإجادة له مجالا ، فلم(٥) يند عن الآذان ولم يشذ عن الأَذهان .

وصف عمر بن الخطاب

قال معاوية بن أَبى سفيان لصعصعة بن صَوْحان : صِفْ لى عُمر بن الخطاب فقال : كان عالما برعيته ، عادلاً فى قضيته ، عارياً من الكبرِ قَبولا للعذر ، سهل الحجاب ، مصون الباب ، متحريا للصواب ، رفيقًا بالضعيف ، غير محاب للقريب ولا جاف للغريب .

(١) الغطيس كسكين المطرقة العظيمة (٢) العارضة : الخشبة العليا التى يدور فيها الباب وعوارض البيت خشب سقفه . (٣) المفوف : الرقيق من الثياب أو الذى فيه خطوط بيض، والمنير : المنسوج على نيرين أى المضاعف النسج ، والموشى : المنقوش والمحبر : المحسن (٤) الخطام : كل ما وضع فى أنف البعير ليقاد به ، وجمعه : خطم (٥) ند : هرب

وصف على بن أَبى طالب

قال مُعاوية لِضرار الصدائى : ياضرار صف لى عليًّا قال : اعفنى يا أَمير المومنين قال : لتصفنه ، قال : أَما إِذ لابد من وصفه فكان والله بَعيدَ المدى(١) شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلمُ من جوانبه وتنطقُ الحكمة من نواحيه ، يَستوحشُ من الدنيا وَزَهرتها ، وَيَستأْنسُ بالليل ووحشته ، وكان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، وَيُخاطبُ نفسه ، يُعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، وكان فينا كأَحدنا يُجيبنا إِذا سأَلناه وينبئنا إِذا استنبأْناه ، ونحن مع تقريبه إِيانا ، وَقُربه منا ، لا نكادُ نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته ، يُعظم أَهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأَس الضعيف من عدله .

وصف كلام العرب لعتبة بن أَبى سفيان

قال عُتبة بن أَبى سفيان : إِن للعرب كلاماً هو أَرق من الهواء ، وأَعذبُ من الماء ، مَرَقَ من أَفواههم مرُوق السهام من قسيها ، بكلمات مؤتلفات ، إِن فسرت بغيرها عُطلت(٢) ، وإِن بُدلت بسواها من الكلام استصعبت ، فسهولة أَلفاظهم توهمك أَنها لُكْنة إِذا سُمعت ، وصعوبتها تعلمك أَنها مفقودة إِذا طُلِبت(٣) .

---

(١) المدى : الغاية

(٢) التعطيل : ترك الشىء ضياعا

(٣) هذا النوع من الكلام يسمى المتنــع

وصف الكتاب للجاحظ

قال الجاحظ : الكتاب وعاءٌ مُلِئَ علمًا وظَرْفٌ حشى ظُرْفاً ، وبستان يحملُ فى رُدْن(١)وروضةٌ تقلب فى حجر ، ينطق عن الموتى ، ويترجمُ كلام الأَحياءِ ، ولا أعلم جارًا أَبر ، ولا خليطًا أنصف ، ولا رفيقًا أَطوع ، ولامعلمًا أَخضع ، ولاصاحبًا أَظهر كفَاية ، وأَقل جنَاية ، ولا أَقل إملالاً وإبراماً ، ولاأَقل خلافًا وإجرامًا ، ولا أَقل غيبة ، ولا أَبعد من عَضْبِهة(٢) ، ولا أَكثر أعجوبة وتصرفاً ، ولاأَقل صلفًا(٣) وتكلفًا ولا أبعد من مراءِ ، ولا أَترك لشغب ، ولاأَزهد فى جدال ، ولا أَكَفَّ عن قتَال — من كتَاب ، ولا أَعلم قرينًا أَحسن مواتَاة(٤) ، ولا أَعجل مكافأَة ، ولا أَخصر معونة ، ولا أَقل مؤونة ، ولاشجرة أَطول عمرًا ولا أَجمع أمرًا ، ولا أَطيب ثمرة ، ولا أَقرب مُجتنى ، ولا أَسرع إدراكا فى كل أَوان ، ولا أَوجد فى غير إبان —من كتَاب ، ولا أَعلمُ نتَاجا فى حداثة سنهِ ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده يجمع من التدابير الحسنة ، والعلوم الغربية ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأَخبَار اللطيفة ، ومن الحكم الرقيقة ، ومن المذاهب القديمة ، والتجَارب الحكِيمة والإخبَار عن القرون الماضية والبلاد المتراخية والأَمثَال السَائرة والأُمم البَائدة(٥) ما يجمع الكتَاب .

وقيل لبعض العلمَاءِ : ما بلغَ من سرورك بكتبك ؟

فقَال : هى إن خلوت لذتى ، وإن اهتممتُ سلوتى ، وإنْ قلت : إنَّ زَهر البستَان ونور الجنَان يجلوان الأَبصارَ ، ويمتعَان بحسنهمَا الأَلحَاظ ، فإن

---

(١) الردن : الكم ، وجمعه أردان . (٢) العضبهة : البهتان والنميمة .
(٣) الصلف : تمدح المرء بما ليس عنده . (٤) المواتاة : حسن المطاوعة والموافقة وأصاله بالهمزة وفى الحديث : خير النساء المواتية لزوجها .
(٥) القديمة الهالكة .

بستَان «الكتب» يَجلو العقل، ويَشْحذُ الذّهْن، ويُحيي القلب، وَيُقَوِّى القريحة، ويُعين الطبيعة، ويبعثُ نتائجَ العقول، ويستثير دفائن القلوب، وَيُمْتِعُ فى الْخَلوة، ويُونس فى الوحشة، ويضحك بنوادره، ويَسُرُّ بغرائبه، وَيُفِيد ولا يستفيد، وَيُعْطى ولا يأْخُذ، وتَصِل لَذَّته إلى القلب من غير سآمة تُدْرِكك، ولا مَشَقَّة تعرض لك.

وصف التاريخ لابن الأثير

التاريخ: مَعَاد(١) معنوى، يعيد الأَعصار وقد سَلفت، وَيَنْشُر أَهلها، وقد ذهبت آثارُهم وعفت(٢)، وبه يستفيدُ عُقول التجارِب مَنْ كان غِرًّا، ويلقى مَنْ قبله من الأُمم وهَلُمَّ جَرًّا. فهم لديه أَحياء، وقد تَضَمَّنتهم بُطونُ القبور، وعنه غُيَّبٌ وقد جعلتهم الأَخبار فى عِدَاد الحضور، ولولا التاريخ لجهلت الأَنساب ونُسِيت الأَحساب، ولم يعلم الإنسانُ أَنَّ أَصله من تراب، وكذلك لولاه لماتت الدول بموت زعمائها وَعَمِيَ(٣)على الأَواخر حال قدمائها، ولم يُحَطْ علمًا بما تداولته الأَرض من حوادث سمائها، ولمكان العناية به لم يخل منه كتاب مِنْ كُتُبِ الله المنزلة، فمنها ما أَتى بأَخباره المُجْمَلة، ومنها ما أَتى بأَخباره المُفَصَّلة، وقد وردفى التوراة مُفردًا فى سِفر من أَسفارها، وتضمَّن تفصيل أَحوال الأُمم السالفة ومُدَد أَعمارها.

وقد كانت العرب على جهلها بالقَلَم وخَطِّه، والكِتَاب وَضَبطه، تصْرِفُ إلى التواريخ جُمَل دواعيها، وتجعل لهُ أَوّل حَظٍّ من مساعيها، فتستغنى بحفظ قلوبها عن حفظ مكتوبها، وتَغْتَاض برقم صُدُورها، عن رقم سُطُورها،

(١) معاد: يقصد أنه كاليوم الآخر. (٢) عفا الشيء: هلك.
(٤) عمى عليه الأمر: التبس وكذلك عمى عنه.

كل ذلك عِناية منها بأَخبار أَوَائِلِها ، وأَيام فضائلها ، وهل الإِنسان إِلا ما أَسَّسَهُ ذِكْرُه وبناه ؟ وهل البقاءُ لِصُورَة لحمه ودَمه لولا بقاءُ معناه !!

وصف الرَّجُل الكامل

كتب الحسن(١) بن سهل إلى محمد(٢) بن سَمَاعَة القاضى ، يَصِفُ لهُ الرَّجُلَ الكامل :

أَما بعدُ : فإنى احتجتُ لبعض أُمورى إلى رجل جامع لخصال الخير ، ذِى عِفَّة ونزاهة ، طُعمة(٣) قد هذبته الآداب وأَحكمته التجارب ، ليس بظَنّين(٤) فى رأْيه ، ولا بمطعُون فى حَسبه ، إن أُوتمن على الأَسرار قام بها ، وإن قُلِّدَ مهمًّا من الأُمور أَجزأَ(٥) فيه ، له سِن مع أَدَب ولسان ، وتُقْعِدُه الرزانة ، ويسكنه الْحِلم قد فرَّ(٦) عن ذكاءٍ(٧) وفطنة ، وعَضَّ على قَارحة(٨) من الكمال ، تكْفيه اللَّحظة وترشدهُ السكتة ، قد أَبصر خدمة الملُوك وأَحكمها ، وقام فى أُمُورِهمُ فحمد فيها له أَناةُ الوزراءِ ، وصولة الأُمَراءِ ، وتَوَاضع العلماءِ ! وفهم الفقهاءِ وجَوَاب الحكماءِ ، لايبيعُ نَصِيبَ يومه بحِرْمَان غَده ، يكَاد يسترق(٩) قلوب الرجال بحلاوة لِسَانه ، وحُسْنِ بيانه ، دلائلُ الفضل عليهِ لائحة ، وأَمارَاتُ العلم شاهده .

---

(١) هو وزير المأمون وختنه أبو زوجه بوران توفى سنة ٢٢٦ هـ . (٢) من أصحاب محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة توفى سنة ٢٢٣ ، وقد بلغ مائة سنة وهو صحيح الحواس . (٣) الطعمة بالضم طريق الكسب وبالكسر هيئة الأكل والسير فيه . (٤) الظنين : المتهم (٥) أجزأ : أغنى (٦) فر الدابة : كشف عن أسنانها ليعرف مبلغ عمرها (٧) الذكاء تمام السن واكتماله أو حدة الذهن . (٨) الفرس القارح الذى استكمل القوة باكتمال العمر ونظيره فى الابل البازل ، والسن التى تنبت له عند قروحه تسمى قارحا وقارحة والجملة كلها كناية عن استيفاء صفات الكمال (٩) يستعبد .

مُضطلعًا(١) بما استنهض ، مستقلا(٢) بما حُمِّلَ ، وقد آثرتك بطَلَبِه وحبَوْتك بارْتِيَادِه(٣) ، ثِقَةً بفضل اختيارك ، ومعرفةً بحُسْنِ تأتِّيك(٤) .

وصف قناة السويس

للمرحوم أَحمد شوقى بك

مخاطبًا ابنَيه يوم أَنْ عبرَ قناة السويس ميممًا الأَندلُس

حينما نَفَتْه الأَحكام العُرْفيَّة إبانَ الحرب العالميَّة [الأُولى]

يا بَنِيّ : القناة لقومكما فيها حياة ، ذِكْرى إسماعيل وريَّاه (٥) ، وعُلْيَا مَفَاخِرِ دُنْيَاه ، دولة الشرق المرجاة ، وسلطانُه الْوَاسِعُ الْجَاه ، طريقُ التِّجَارة ، والوسيلة والمَنَارَة ، ومشْرَع(٦) الحضارة .

تعبُرَانها اليومَ على مُزْجَاة(٧) كأَنها فُلْكُ النَّجَاة ، خرجت بنا بين طوفان الحوادث ، وطُغْيَان الكَوَارث ، تفارق برًّا مُغْتَصبهُ مُضَرِيٌّ(٨) الغَضْبة . قد أَخَذَ الأُهْبَةَ ، وَاسْتَجْمَعَ كالأَسد للْوَثْبَة ، وتلاقِىَ بحرًا جُنَّتْ جواريه ، ونزت(٩) بالشَّرِّ نوازيه ، وتمثَّلَتْ بكل سبيل عواديه مملوءًا ببغتات الماءِ ، مُترعاً بفجاءَات السماءِ من نون(١٠) ينْسِف الدوارع ، أَو طَيْرٍ (١١) يَقْذِفُ البيض مصارعَ ، فقلت : سِيرِى ، عَوّذْتك بِوَدِيعة (١٢)التابوت ، وبِصَاحب(١٣)

(١) يقال هو مضطلع لهذا الأمر وبه اذا كان قديرا عليه . (٢) استقل بالحمل نهض . (٣) والارتيـاد : الطلب . (٤) تأتى للامر : ترفق وأتاه من وجهه . (٥) الريا : الرائحة الطيبة(٦) المشرع: المورد . (٧) زجاء وأزجاه : ساقه وسيره (٨) مضر فخذ منأفخاذ العرب ينسب لمضر بن نزار وهـذا مأخوذ من قول بشار :

اذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطر الدما

(٩) النزو : الوثب ، والنازية : حدة الرجل الوثاب الى الشر وجمعها نواز . (١٠) النون الحوت والمراد الغواصة (٧) يريد بالطير الطائرات وبالبيض ما يلقى منها من مهلكات القذائف (١٢) هو موسى كليم الله (١٣) هو نبى الله يونس .

الْحُوت ، وبالحيِّ الذى لا يموتُ ، وَاسْرِى يا ابنة اليَمِّ زمَامُك الروح(١) ، ورُبَّانك(٢)نوح ، فكم عليك من مَنْكُوب ومجرُوح .

إن للنفى لرَوْعَة ، وإن للنأْى للوعة ، وقد جرت أَحكَامُ القضاء ، بأَن نعبرُ هذا الماءَ ، حين الشرُّ مُضطرم ، واليأْس محتدم ، والعدوّ مُنْتَقِم ، والخصم محتكم ، وحين الشامت جَذْلان مُبْتسم ، يَهْزَأُ بالدمع ، وإن لم ينسجم(٣) . نفانا حُكَّامُ عُجم ، أَعوان العدوان والظلم ، خَلَفناهم يفرحُون بذهب اللجم ، ويمرَحُون فى أَرسانٍ يُسَمُّونها الْحُكم ، ضربونا بسيفٍ لم يطبعوه ، ولم يملكوا أَن يَرْفَعُوه ، أَو يضعُوه ، سامحهم فى حقوق الأَفراد ، وسامحوه فى حقوق البلاد ، وما ذَنْبُ السيف إذا لم يستَحِ الجلَّاد ! !

ماذا تهمِسَانِ ! كأَنى أَسمعكما تقولان : أَى شيءٍ بدا له ، على هذه الضاحية(٤) وماذا شَجا خياله من هذه الناحية ! أَى حسن أَو طيب لملح يتصبب فى كثيب ماءٍ عكر فى رمل كدر ! !

قناة حَمِئة(٥) كأَنها قناة صَدِئة ، بل كأَنها وَعِبْرَيْها(٦) رمال بعضها متماسك وبعضها منهال ، وكأَن راكب البحر مُصْحِر(٧) ، وكأَن صاحب البَرِّ مُبحر ! رُوَيْدَكُمَا : ليس الكتاب بزينَة جلده ، وليس السيف بحليَة غِمده . تلك التنائف(٨) من تاريخكم صحائف ، وهذه القفار كتبٌ منه وأَسفار ، وهذا المجاز هو حقيقة السيادة ، ووثيقة الشّقاءِ أَو السعادة ، خيط الرقبة ، من اغتصبه اختصَّ بالغلبة ، ووقفَ للأَعقاب عقبة ، ولو سكتٌ لنطقت العِبر ، وأَينَ العيان وأَينَ الخبر !

---

(١) جبريل . (٢) الربان رئيس الملاحين وجمعه ربابنة . (٣) انسجم الدمع : سال . (٤) الضاحية كل أرض بارزة للشمس . (٥) الحمئة : التى فيها الحمأة أى الطين الأسود المنتن ، والقناة الأولى الترعة والقناة الثانية الرمح . (٦) عبر النهر شاطئه . (٧) أصحر سار فى الصحراء (٨) التنائف جمع تنوفة وهى المفـــازة .

انظرا : تريا العِبرين عبرة الأَيام ، حصون وخيام ، جنود قعود وقيام ، جيش غيرنا ،فرسانه وقُوّاده ،ونحن بُعْرانه(١) وعلينا أزواده(٢) ، ديك على غير جداره خَلا له الجو فصاح ، وكلبٌ فى غير داره انفرد وراءَ الدار بالنُّبَاح .

القَنَاة وما أَدراكما ما القناة ، حظّ البلاد الأَغبر من التِقَاءِ الأَبيض والأَحمر بَيْدَ أَنها أَحلام الأَول ، وأَمانى الممالك والدّوَل : الفراعنة حاولوها ، والبَطالسة زاولوها(٣) ، والقياصرة تناولوها ، والعرب لأَمر ما تجاهلوها(٤) ، إلى أَن جرى القَدَر لغابته ، وأَتى « إسماعيل » بآيته ، فانفتح البرزخ بعنايته ، والتقى البحران تحت رايته فى جمع من التِّيجان لم يشهده إكليله(٥) ، قد كان يُتَوّج فيه ؛ لو شهدته جيوشه وأَساطيله ، وما إسماعيل إلا قَيْصَرٌ لو أَنه وفق والإِسكندر لو لم يُخْفق . ترك لكم عزَّ الغد وكنز الأَبد ، والمَنْجم الأَحد ، والوقف الذى إن فات الوالد فلن يَفوت الولد .

ماذا على الرِّمَال من لمحات جلال وجمال ؟ ارجعا القَهْقَرى بالْخيال ، إلى العَصر الخال واعرضا فى حداثتها الأَجيال ، تريا على هذا المكان وُجُوهاً تتمثل وركاباً تتنقل ، وتريا النُّبُوّة تتهلل ، والآيات تتنزل ، وتريا الملك يتَرَجَّل ، حتى كأَنكما بالزمان الأَول فهاهنا وضعَ للنبوّة المهد ، وابتدأَ بها العهد ، فأَقبل صاحب المقام ، ومحطم الأَصنام ، وبنَّاءَ البيت الحرام ، خليل ذى الجلال والإِكرام(٦) .

هاجر إلى مصر أَكرم من هاجر ، ثم انقلب منها بأَم العرب هَاجِرْ(٧) ، ومِن هذه الثنيَّات طلع يوسف فى القيد ، وهو للسيارة صيد ، يسير من كَيْدٍ إلى كَيْدٍ ، قَلْبٌ جرحته الإخوة ، وجنْبٌ قَرّحته النسوة ، فيالك «يوسف» من

---

(١) البعران جمع بعير كأبعر . (٢) الأزواد جمع زاد وهو الطعام .
(٣) زاول الشيء : حاوله . (٤) يروى ان هارون الرشيد فكر فى أن يصل البحرين بقناة وأنه استشار يحيى بن خالد البرمكى فى ذلك فقال له : ياأمير المؤمنين « ان خرق السويس خرق فى الاسلام » فعدل عن رأيه !
(٥) الاكليل : التاج (٦) هو خليل الله ابراهيم (٧) هى جارية مصرية أهداها فرعون الى السيدة سارة زوج سيدنا ابراهيم فوهبتها له فاستولدها اسماعيل جد العرب المستعربة .

أُسْوة(١) ، عِزٌّ بعد هَوْن ، وذلة بعد المنزِل الدّون ، وشئون أقدار وشُجُون ، وسُهول حياة وحُزون ، وسجوف القصُور بعد السجون إلى سجود الشمس لك والقمر والكواكب الآخَر .

وإلى هذا الفضاء خرج موسى حين زال زَوِيلُهُ(٢) ، وطلبه قتيله ، وزيَّنَ له الفرار خليله(٣) ، فحوته هذه الرمال ، فإذا الأمن سبيله ، وَالْيُمْن دليله ، والسلامة زاملته(٤) والسِّلم زميله ، ولو أطلعه الله على غيبه ، للَمسَ النبوّة بين يديه وجَيبه إلى أن رُفِع له المنار ، واكتحل بالنور واقتبس من النار ، وقيل له : كُنْ من الأَحرار الأَحبار ، وارْجع فسلِّط الحقَّ على فرعون الجبار ، فكَان عليه السلام أَول من اقتحم على الفرد جبروته ، وهتك على المستبد طاغوته(٥) ، وخطم(٦) المتأَله(٧) وحطم عظمُوته ، ماءُ الحق على لُطفه ، ظفِر بنار الباطل على عُنْفِه ، ظهر العدل على الحيف ، وكسرت العَصَا السيف .

وعلى هذه الأَرض مَشت السماءُ(٨) الطاهرة ، والنَّيرَة الزَّاهرة ، والآية المتظاهرة أَم الكلمة (٩) وطريدة الظلمة ، سرحوا في عِرضها فأَخرجوها من أَرضها فضربت في طول الأَرض وعرضها ، يوسف حاديها ، وجبريل هاديها ، والقدس ناديها ، والطهارة أَرجاءُ واديها ، وعلى ذراعيها مصباح الحكمة وجناح الرحمة والإصباح من الظلمة ، حتى هبطت به أَكرم الأَديم(١٠) فنشأَ بين الحكيم والعليم

(١) الأسوة : القدوة ، وما يتأسى الحزين أي يتعزى (٢) زال زويله : فزع وحذر (٣) يشير الى ما كان من امر موسى حين وجد قبطيا واسرائيليا يقتتلان فاستنصره الاسرائيلي على القبطي فوكزه وكزة كانت القاضية ، فاما أصبح وجد الاسرائيلي نفسه يقاتل قبطيا آخر فاستغاثه فقال موسى انك لغوى مبين . ثم هم بنصرته على القبطي فظن أنه يريده بالأذى فصاح الاسرائيلي ياموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس فذاع أمره ولم يلبث أن جاءه رجل وقال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج اني لك من الناصحين فخرج منها الى بلاد مدين (٤) الزاملة ما يحمل عليه من الابل وغيرها . (٥) الطاغوت : الشيطان وكل رأس ضلال (٦) خطمه : قهره أو ضرب أنفه (٧) أراد المتكبر غير أن معناها اللغوى المتنسك المتعبد . (٨) يريد السيدة مريم (٩) الكلمة سيدنا عيسى (١٠) الأديم : وجه الأرض

وترعرع حيث ترعرع بالأمس الكليم . فيالك من دار لعبت على عُرَاصاتها الأقدار ، ناوئت(١) موسى القريب ، وآويت عيسى الغريب ، نَبوت(٢) بالنبي وحَبَوْت الأمنَ عيسى وهو صبي ، عُذرك لا تنضى(٣) إليه المطى ، فإنما أغضبت القبطى لابنك القبطى .

ثم انظرا تريا إبلا صِعَاباً ، وخَيْلا عراباً (٤) . وتريا الرُّعاة(٥) انقضوا على الوادى ذئاباً ، فأخافوا القرى الآمنة ، وأخرجوا من مصر الفراعنة ، واستبدوا بالملك فيها آونة . وتريا الوحوش الضاربة والجوارح الكاسرة ، يقودها شر الأكاسرة(٦) ، مَلأَت هذه الفجاج(٧) ، وكأنها حرجات(٨) السَّاج ، أوحركات الأمواج ، ثم تدفقت تكتسح الدِّيار ، باغية السيف طاغية النار ، تدك الهياكل والمعاقل ، وتهتك العقائد والعقائل .

وتريا الإسكندر الكريم ، قد لمَع كالصارم من هذا الضريم(٩) ، يحمل الحملات النَّجائب ويفتح بالكتب والكتائب .

وتريا ابن العاص والصَّحابة ، مروا من هذه الأرجاء مرّ السحابة ، يفتحون للحقِّ ويفتكون بالرّق ، حتى أخلوا القُصُور من القياصرة ، وأراحوا مصر الصابرة من صلف الجبابرة .

وتريا صلاح الدين يَختفى كالبدر ويبدو ، ويروح كالغيث ويَغْدُو ، بعوثٌ بلا عَدَد ، ومددٌ إثر مدد ، وذخائر وعُدد ، وبشرى كل يوم بفتوح جدد .

وتريا نابليون قد ركب طيشه ، وأركب الغرر جيشه . وتريا إبراهيم بن على مشهور الجراز ، موفور الجهاز ، ملك سورية وضبط الحجاز . وتريا إسماعيل

(١) ناوأه ونواه : عاداه (٢) نبا به المكان : لم يوافقه (٣) انضى المطية : هزلها (٤) العراب من الخيل والابل العربية (٥) العمالقة الذين ملكوا مصر مدة من الدهر (٦) قمبيز (٧) الفجاج : الطرق الواسعة (٨) الحرجة : الشجرة الملتفة والساج شجر يعظم جدا ويذهب طولا وعرضا له ورق عريض جدا . (٩) الضريم : الرمل

بعث الحشرين ، وحشد الحافرين ، وقرّب المسافة للمسافرين ، غيّر وجه السفر ، فقيل : بلغ غاية الظفر ، وقيل : وقع الحافر فيما حفر .

ثمَّ انظرا اليوم تريا القناة فى يد القوم إنْ أمنوا ركزوها ، وإن خافوا هزوها

وصف فرس

قال محمد بن الحسين يصف فرساً :

هو حَسَنُ القميص ، جيد الفُصُوص ، وثِيق القصب ، نقيُّ العصب ، يُبصر بأُذُنيه ، ويتبوع بيديه ، ويُداخل برجليه ، كأَنه موج فى لُجَّةٍ أَو سيل فى حدُور يناهب المشى قبل أَن يبعث ، ويلحق الأَرانب فى الصعُوداء ، ويجاوز جوارى الظِّباء فى الاستواء ، ويسبق فى الحدود جرى الماء ، إن عُطِفَ جار ، وإن أُرسل طار ، وإن كُلِّف السير أَمعن وسار ، وإن حبس صفَنَ ، وإن استوقف قطن ، وإن رعى أَنن ، فهو كما قال تأَبط شَرًّا :

ويسبق وفد الريح مِنْ حيث تُنْحَى بمنخَرَق من شدَّة المتدارِك

وصف العصا

لقى الحجَّاج أعرابياً ، فقال : مِنْ أين أَقبلت؟ قال من البادية قال : ما بيدك؟ قال : عصاً أَركزها لصلاتى ، وأُعدُّها لعُداتى ، وأَسوق بها دابتى وأَقوى بها على سفرى ، وأَعتمد عليها فى مشيى ، ليتسع بها خطوى ، وأَعبر بها النهر فتؤمنّى وأَلقى عليها كساء فيسترنى من الحرِّ ، ويقيينى من القرِّ ، وتدنى ما بعد منى ، وهى محمل سُفرتى وعلاقة إداوتى(١) ومِشجبُ ثيابى ، أَعتمد بها عند الضراب وأَقرع بها الأَبواب ، وأَتقى بها عقور الكلاب ، تنوب عن الرُّمْح فى الطعان ، وعن الحرْبة عند مُنازلة الأَقران ورثتها عن أَبى ، وأُورثها بعدِى ابنى ، وأَهش بها على غَنمِى ، ولى فيها مآرب أُخرى ، كثيرة لا تحصى .

(١) الاداوة : وعاء ماء يتطهر به .

وصف كرة القدم لمؤلف الكتاب

قاتل الله الكرة : ما أعجب أمرها ، وما أدقُّ سرَّها ، قد جمعت الأضداد واسترقت النجباء والأوغاد ، فهي كبيرة الحجم ، مُفوَّقة الجسم ، لكنها خفيفة الوزن ، سريعة الوثْب ، وهي ناعمة اللمس ، مليحة الرقص ، لكنها تأْبى الوخْز ولا تطيق اللكز ، وهي تفرُّ من المداعبة والملاعبة ، ولكنها لا تمل من ضرب ولا تكل من دحرجة ، وهي محبوبة مألوفة ، تنقل على الأيدى والأحضان ، لكنها تطرد بالأرجل والعصيِّ ، فهي عزيزة ذليلة ، حقيرة جليلة ، تُشْبه القنابل فى صورها ، والدُّفوف في أصواتها ، والطير فى امْتطاءِ الهواءِ ، واختراق الفضاءِ .

وصف جيوش لابن الرومى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ

وصار فلان فى جيوش ، عليهم أردية السيوف ، وأقمصة الحديد ، وكأَن رماحهم قرون الوعول(١) ، وكأَنَّ أدراعهم زبد السيول على خيل تأْكل الأَرض بحوافرها وتمد بالنقع سُرَادِقها ، قد نُشرت فى وجوهها غرر(٢) كأَنها صحائف الرق(٣) وأمسكها تحجيل(٤) كأَنها أسورة اللجين وقرطت عذرا(٥) كأَنها الشنوف تتلقف الأعداء أوائلها ، ولم تنهض أواخرها ، قد صب عليهم وقار الصبر ، وهبت معهم ريح النصر .

وصف الحسد للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ

الحسد ـ أبقاك الله ـ داء ينهك الجسد ، علاجه عسيرٌ وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض(٦) وماظهر منه فلا يداوى ، وما بطن منه فمداويه فى عناء ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « دَب(٧) إليكم داءُ الأُمم من قبلكم الحسد والبَغْضاءُ »

الحسد عقيد(٨) الكفر ، وحليف الباطل(٩) وضدّ الحق ، منه تتولد

---

(١) جمع وعل وهو تيس الجبل (تيس الشاة الجبلية) وقرونه طويلة .
(٢) جمع غرة وهى بياض فى جبهة الفرس (٣) الرق جلد رقيق أبيض يكتب فيه (٤) التحجيل بياض قوائم الفرس (٥) أى السبت عذرا وهو ما على خد الفرس من اللجام . (٦) أى مسلك خفي يعسر الخروج منه
(٧) سرى فيكم (٨) أى معاهدة ومحالفة (٩) ملازمة

العداوةُ ، وهو سبب كل قطيعة(١) ومُفرق كل جماعة ، وقاطع كل رحم مِنَ الأَقرباءِ(٢) ، ومُحدثٌ للتفرق بين القُرناء(٣) ، ومُلقح الشرِّ بين الحلفاءِ(٤)

ووصف أيضًا أفضل الكلام ــ وقال :

أَفضل الكلام ما كان قليله يُغنى عن كثيره ، ومعناهُ ظاهرا فى لفظه ، وكأَن الله قد أَلبَسَه من ثياب الجلالة ، وغشاه(٥) من نور الحكمة ، على حسب نِية صاحبه وتقوى قائله ــ فإِذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه(٦) مُنزهًا عن الاختلال ، مَصُوناً عن التكلف ، صنع فى القلوب صنيع الغيث(٧) فى التربة الكريمة ، ومتى فُصّلت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، كساها الله من التوفيق ، ومنحها من التأْييد مالا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها معه عُقول الجهلة .

وصف الشعراء المحدثين

قال ابن دُريد : سأَلت أَبا حاتم عن « أَبى نواس » فقال : إِن جدّ أَحسن وإِن هزل ظرف ، وإِن وصف بالغ ، يُلقِى الكلام على عواهنه لا يُبالى مِنْ أَينَ أَخَذَ ، قلت : « فبشار بن بُرْد » قال : نظار غوَّاص مطيلٌ مجيد يصف مالم يره كأَنه رآه على أَن فى شعره خلَلا كثيراً ، قلت : « فمروانُ بن أَبى حفصة » قال : شاعر راض عن نفسه يستحسن كل ما جاءَ منه معجبٌ به ، لا يرى أَنَّ من سبقه يتقدمه ، كثير الصواب ، كثير الخطأ ، ليس لشعره صنعة قلت : « فمسلم بن الوليد » ؟ قال : خليج صافٍ ينزع من بحر كدر ، كالزند يورِى تارةً ويصلد أُخرى ، قلت : « فأَبو العتاهية » قال : غناء جَمٌّ ، واقتدار سهل وشعر كخرز الزجاج ، وربما أَشبه الياقُوت والزبرجد ، قلت : « فعباس بن

---

(١) انفصال (٢) كل قرابة واتصال (٣) المناظر (٤) مولد الشر بين المتحالفين (٥) كساء (٦) أى من اجبار الفكر (٧) المطر

الأحنف» قال : يُلقي دلوَهُ في الدلاء فيغترفُ الصفو أحياناً والحمأة أحياناً ، على أن كدره أكثر من صفوه ، قلت « فسلم الخاسر » قال : مُقِلٌّ مداح ، شعره دِيباج وعهن ، يُمَوّه الرديء حتى يشبه الجيد ، قلت « فأبو الشيص » قال : جده كله فيه حلاوة وبشاعة كالسدرة التي نفضت ففيها المستعذب والمستبشع قلت « فعلي بن جبلة » قال : بحّاث عن الكلام الفَخْم ، والمعنى الرائع ، لا ينالُ مرتبة القُدماء ، ويجل عن منزله النظراء . قلت « فأبو تمام » قال : سيل كثير الغثاء ، غزير الغَمار ، جم النطاف ، فإذا صفا فهو السّلاف بالماء الزلال ، قلت : « فعبد الصمد بن المعذل » قال : خرَّاج وَلاَّج ، يعتسف تارة ويهتدى أخرى ، قلت « فعلي بن الْجهْم » قال كلام رصين ومسلكٌ وعر ، عقله أغلبُ على شعره من طبعه ، قلت « فبكر بن النطاح » قال : تشبه بالأعراب فأفرط وتجاوز حد المولدين فأسهب ، فهو الساقط بين القريتين .

وصف ابن الأثير المتوفي سنة ٨٥٩ هـ أبا تمام والبُحْتري والمتنبي

قال : لقد وقفت من الشعر في كل ديوان ومجموع ، وأنفدت شطرا من العمر في المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحرًا لا يوقفُ على ساحله ، وكيف يُحصى قول لم تُحص أسماء قائليه ؟ فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده ، وتتشعب مقاصدُه ، ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم ، في اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ، إذ المراد من الشعر إنما هو إيداعُ المعنى الشريف ، في اللفظ الجزل اللطيف فمتى وجدت ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل ، وقد اكتفيت من هذا بشعر أبي تمام ، والبحتري والمتنبي ، وهؤلاء الثلاثة هم (لَاتُ الشعر وعُزَّاهُ ومناتُه) الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومُستحسناته ، وقد حَوَتْ أشعارُهم غرابةَ المحدثين وفصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة ، وحكمة الحكماء . أما أبو تمام : فإنه ربٌّ معان وصيقل أذهان ، وقد شهد له بكل معنى مُبتكر ، لم يمش فيه على أثر ، فهو غير مُدَافع عن مقام الإعراب ، الذي برز فيه

على الأَضراب . ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ، ولم أَقل ما أَقوله إلا بعد التنقير ، فمن حفظ شعر الرَّجل وكشف عن غامضه ، وراض فكره برائضه أَطاعته أَعِنَّة الكلام ، وكان قوله فى البلاغة ما قالت « حَذَام » فخذ منِّى فى ذلك قول حكيم وتعلم (ففوْقَ كلِّ ذى عِلْم عَليم) .

وأَما البُحْترى : فإنه أَحسنُ فى سبك اللفظ على المعنى ، ولقد حاز طرفى الرِّقة والجزالة على الإطلاق ، فبينا يكون فى شظف نجدٍ ، إذ يتشبَّث بريف العِراق ، وسُئِل المُتنبى عنه وعن أَبى تمام وعن نفسه فقال : أَنا وأَبو تمام حكيمان ، والشاعر البُحترى . ولعمرى إنه أَنصف فى حكمه ، وأَعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فإن البُحْترى أَتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصَّخرة الصماء ، فى اللفظ المصُوغ من سُلافة الماءِ ، فأَدرك بذلك بُعْدَ المرام ، مع قُرْبه إلى الأَفهام ، وما أَقول إلا أَنه أَتى فى معانيه بالنوادر الغالية ، ورقى فى ديباجة لفظه إلى الدَّرجة العالية . وأَما المُتنبى فإنه أَراد أَن يسلك مسلك أَبى تمام ، فقصُرَت عنه خطاه ، ولم يعطه الشِّعر من قياده ما أَعطاهُ ولكنهُ حُظِىَ فى شعره بالحكم والأَمثال . واختص بالإبداع فى وصف مواقِفِ القتال وأَنا أَقول قولا لستُ فيه مُتأَثماً ، ولا منه مُتَلَثِّما ، وذاك أَنه إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أَمضى من نصالها ، وأَشجعَ من أَبطالها . وقامت أَقواله للسامع مقام أَفعالها ، حتى يظن أَن الفريقين قد تقابلا ؛ والسِّلاحين قد تواصلا فطريقه فى ذلك تضل بسالكه ، وتقوم بعذر تاركه ، ولا شك أَنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصف لسانه ، ما أَداه إليه عِيانه ، ومع هذا فإنى رأَيت الناس عادلين عن سُنن التوسُّط فإما مفرِّط فى وصفِهِ وإما مُفْرط . على أَنه إذا كان انفرد بطريق صار أَبا عذره ، ولقد صدق فى قوله من أَبيات يمدح بها سيف الدولة :

لا تطلبن كريماً بعد رُؤيته	إن الكرام بأَسخاهم يدًا خُتموا
ولا تبال بشعر بعد شاعِره	قد أُفسِدَ القول حتى أُحْمِدَ الصمم

وصف المفضل الضبي المتوفى سنة ٤٣٠ هـ مروره ببعض أحياءِ العرب

رَوَى المفضل الضبي قال : نزل علينا بنو ثعلبة فى بعض السنين وكنتُ مشغوفًا بسماع أخبار العرَب وجمعها ، فأَخذت أَجولَ بين خيامهم ، وأَتحسسُ من أَحوالهم وإذا أَنا بامرأَة واقفة فى فِناءِ خبائها آخذة بيد غلام قلَّما رأَيتُ مثله فى حسنه وجماله وهى تعاتبُهُ بلسان رطب، وكلام عَذْب ، يسترقهُ السمع ويترشفه القلب ، فكان أَكثر ما أَسمعهُ منها (بنىِّ – وأَى بنىٍّ) وهو يتبسم فى وجهها وقد غلب عليه الحياء والخجل كأَنه من ربات الحِجَال فلا يَحِيرُ جواباً ، ولا يبدى خطاباً ، فاستحسنتُ ما رأَيتُ ، واستحليت ما سمعتُ ، فدنوتُ فسلمت فرد عَلَىّ السلام ووقفتُ أَنظر إلى المرأَة والغلام ، فقالت لى : يا حضرى ماحاجتك؟ قلت : الاستكثارُ مما أَسمعُ ، والاستمتاع بما أَرى ، فابتسمت وقالت : يا هذا إن شئت سقْتُ إليك ما هو أَحسنُ مما رأَيتَ ، فقلت هات حفظك الله ، قالت : ولد هذا الغلام فكان ثالث أَبويه فَرُبِّىَ بيننا كانه شبلٌ ، وكنتُ أَقِيه برد الشتاءِ وحرّ الهجير ، حتى إذا ماتمت لهُ خمس سنين ، أَسلمتُه إلى المؤدِّب فحفظه القرآن فتلاه ، وعلمه الشعر فروَاه ، ورغب فى مُفاخرة قومه ، وطلب مآثر آبائه وأَجداده فلما اشتد عظمه وكمُل خلقه ، حملتُه على عِتَاق الخيل فتفرس وتمرس ولبس السلاح ومشى لخيلاءَ بين بيوتات الحى ، وأَصغى إلى أَصوات ذوى الحاجات ، فأَخذ فى قِرَى الضيف وإطعام الطعام ، وأَنا عليه وجلة أَحرسه من العيون أَن تصيبه ، ومن الأَلسن أَن تعيبه ، إلى أَن نزلنا فى بعض الأَيام منهلاً من المناهل بين أَحياءِ العرب ، فخرج فتيان الحى فى طلب ثأْر لهم وشاءَ الله تعالى أَن أَصابت لغلام وعكة شغلتْهُ عن الخروج ، حتى إذا أَمعن القوم ولم يبق فى الحى غيره . ونحن آمنون وادعون ، فوربك ما هو إلا أَن أَدبر الليل وأَقبل الصبح حتى طلعت علينا طلائع العدو وغرر الجياد ثوارًا لا زوارًا ، فما كان

إلا هنيهة حتى أحرزوا الأموال ، وهو يسألنى ما الخبر؟ وأنا أستره عنه إشفاقًا عليه وضنًّا به ، حتى إذا علت الأصوات وَبُرِّزَت المخدرات ، رمى دِثاره وثار كما يثور الضرغام إذا أُغضِبَ ، فأمر بإسراج فرسه ، ولبس دِرجَ حربه ، وأخذ رمحه بيده ، وركب حتى لحق حماة القوم وأنا أنظر إليه فطعن أدناهم منه فرمى به ، ولحق أبعدهم فقتله ، فانصرفت إليه وُجوه الفرسان ، فرأوه غلاماً صغيراً لا مدد وراءه ، فحملوا عليه ، فأسرع يَؤُمُّ البيوت ، حتى إذا خلفهم وراءه وامتدوا فى أثره عطف عليهم ففرق شملهم وشتت جمعهم وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزّق ، وَمَرَق كما يمرق السهم من الرمية ؛ وناداهم خلوا عن المال فوالله لا رجعت إلا به ، أو لأهلكن دونه ، فتداعت إليه الأقران ، وتمايلت نحوه الفرسان ، وتميزت له الفتيان وحملوا عليه وقد رفعوا إليه الأسنة ، ومالوا عليه بالأعنة ، فوثب عليهم وهو يزأر كالأسد ، وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطمها ، ولا كتيبة إلا هزمها ، حتى لم يبق من القوم إلا من نجا به فرسه ، ففاز بالأموال وأقبل بها ، فكبرت القوم عند رويته ، وفرحوا فرحاً عظيما بسلامته ، فوالله ما رأينا قطُّ يوماً كان أصبح صباحاً وأحسن رواحاً من ذلك اليوم ، ولقد سمعته ينشد فى وجوه فتيات الحى هذه الأبيات :

تأملنَ فعلى هل رأيتن مثله ... إذا حشْرجَت نفس الكمى عن الكرب
وضاقت عليه الأرض حتى كأنه ... من الخوف مسلوب العزيمة والقلبِ
ألم أعطِ كلاًّ حقه ونصيبه ... من السمهرى اللدن والصارم العضْبِ
أنا ابن أبى هند بن قيس بن خالد ... سليل المعالى والمكارم والسيْبِ
أبى لى أن أعطى الظلامة مُرْهفٌ ... وَطرفٌ قوى الظهر والجوف وَالْجنْبِ
وعزم صحيحٌ لو ضربت بحده ... شماريخ رضوى لانحططن إلى الترب
وعرضٌ نقىٌّ أتقِى أن أعيبَه ... وَبَيت شريف فى ذُرَا ثعلب الغلبِ
فإن لم أُقاتل دُونكن وأحتمى ... لكن وأحميكن بالطعن والضرب

وأَبذُل نفسًا دونكن عزيزة علىَّ لأَطراف القنا وَظُبَى القضبِ
فلم تصدق اللاتى مشين إلى أَبى يهنئنه بالفارس البطل النَّدبِ

وصف نهج البلاغة للإمام المرحوم الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ

أَوفى لى حكم القدر بالإطلاع على كتاب (نهج البلاغة) صدفةً بلا تعمد ، أَصبته على تَغيِّر حال ، وتبلبل بال ، وتزاحم أَشغال ، وعطلة من أَعمال ، فحسِبته تَسلية وَحيلةً ، فتصفحت بعض صفحاته ، وتأَملت جملاً من عباراته من مواضع مختلفات ، ومواضيعَ متفرقات ، وكان يخيل لى فى كل مقام أَن حروباً شبتَ ، وغارات شنت ، وأَن للبلاغة دولة ، وللفصاحة صولة ، وأَن للأَوهام عرامة (١) ، وللريب دعارة (٢) ، وأَن جحافل الخطابة ، وكتائب الذرابة ، فى عقود النظام ، وصفوف الانتظام ، تنافح بالصفيح الأَبلج (٣) والقويم الأَملج (٤) ، وتمتلج (٥) المهج برَوائع الحجج ، وتفل دعارة الوساوس وتصيب مقاتل الخوانس (٦) فما أَنا إلا والحق منتصر ، والباطل منكسر ، وَمَرْج الشك فى خمود ، وَهَرْج الريب فى ركود ، وأَن مدير تلك الدولة ، وباسل الصولة هو حامل لوَائها الغالب ، أَمير المؤمنين علىّ بن أَبى طالب ؛ بل كنت كلما انتقلت من موضع إلى موضع أَحسُّ بتغيُّر المشاهد ، وتحول المعاهد ، فتارة كنت أَجدنى فى عالم تعمره من المعانى أَرواح عالية ، فى حلل من العبارات الزاهية ، تطوف على النفوس الزاكية ، وتدنو من القلوب الصافية تُوحى إليها رشادها ، وتقوم منها منآدها ، وتنفر بها عن مداحض المزال إلى جواد الفضل والكمال ، وطورا كانت تتكشف لى الجمل عن وجوه باسرة ، وأَنياب كاشرة ، وأَرواح فى أَشباح النمور ، ومخالب النسور ، وَقد تحفزت للوثاب ، ثم انقضت للاختلاب فخلبت القلوب عن هواها ، وَأَخذت

---

(١) العرامة : الشراسة (٢) الدعارة : سوء الخلق (٣) الصفيح : السيف ، والأبلج : اللامع البياض (٤) الرمل الأملج : الاسمر (٥) تمتلج : تمتص (٦) الخوانس خواطر السوء تسلك من النفس مسالك الخفاء

الخواطر دون مرماها ، واغتالت فاسد الأَهواء ، وباطل الآراء ، وأَحياناً كنت أَشهد أَن عقلا نُورانيًّا لا يشبه خلقاً جسدانياً فُصِل عن الموكب الإلهىّ ، واتصل بالرُّوح الإنسانىّ ، فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به إلى الملكوت الأَعلى ، ونما به إلى مشهد النور الأَجلى ، وسكن به إلى عمار جانب التقديس ، بعد استخلاصه من شوائب التلبيس ، وآنات كأَنى أَسمع خطيبَ الْحِكمة ، يُنادى بأَعلياء الكلمة ، وأَولياءِ أَمر الأُمة ، يُعَرِّفهم مواقعَ الصواب ، ويُبصرهم بمواضع الارتياب ويُحذرهم مزالق الاضطراب ، ويُرشدُهم إلى دقائق السياسة ، ويهديهم طريق الكياسة ، ويرتفع إلى منصات الرياسة ، ويصعدهم شرف التدبير ، ويُشرف بهم على حسن المصير .

وصف حفلة للمرحوم المُوِيلْحى المتوفى سنة ١٩٣٠ م

لو كان لليالى لسانٌ ينطق بالفَخَار ، وجنانٌ يجرى بنظم الأَشعار ، لأَنشدت ليلةَ الحفلة (الخديوية) قصيدةً تسجل لها فى ديوان العصور والدهور ، مالم تبلُغه ليلة قبلها فى تكامل الفرح والسرور ، ولو كان الدهر يُفْصِحُ لنا يوماً عن انشراحه وابتهاجه ، لأَنبأْنا بأَنه ادّخرها غُرَّة لجبينه ، ودُرَّة لتاجِه .

لا زالت أَيام الجناب العالى ولياليه مُشرقةً بالسعد والهناءِ ، مُتأَلقة تأَلق البدُور فى أُفق السماءِ .

ووصف أَيضاً متحفاً من مقامة له

قال عيسى بن هشام : زايلْنا الأَهرام وخليناها ، تندُبُ من شادها وتنعى مَنْ بناها ، وملنا إلى دار التُّحَف ومستودع الآثار ، لمشاهدة ما حفظتُه لنا من صُنوف الطرف وعُيون الأَخبار ، وما أَخرَجته الأَيام من عالم الخفاءِ إلى عالم الظهور ، بعد أَن كان سرًّا مكتوماً فى خواطر العصور والدهور ، وما صانتهُ بطون القُبور من الفناءِ والدثور ، وحمته أَحشاء الرُّمُوس من العفاءِ والدُّرُوس وما أَخبَتْه

أَرحام المعابد والهياكل من بقايا الماضِين وخبايا الأَوائل ، وما انكشفتْ عنه سُجُوف الأَحقاب وديعةَ الأَسلاف للأَعقاب ، من مكْنُون الدفائن ومكنوز الخزائن وعجائب الفن الدقيق ، وبدائع البِدْع الأَنيق ، وغرائب الصنع العَتِيق ، بليتْ فى اصطحابها بطونُ الأَيام والليالى ، وانحنت فى احتضانها ظهورُ العُصور الخوالى ، وانقلبت البحار وهادًا ، وأَصبحت الوِهاد أَطوادًا ، وغدتِ الأَغوارُ أَنجادًا ، وأَضحى العمارُ خراباً والخرابُ عمارًا ، والغَمَارُ سرَاباً ، والسراب غمارًا ، وتمدينتْ بوَاد ، وتبدَّتْ مدائن(١) ، وبادتْ مواطن وقامت موَاطن(٢) ، ومضت دول ، وذهبت أُولٌ إِثرَ أُول ، وبدَتْ أَحوالٌ وحالت ، وظهرت أَعمالٌ وزالت ، وهى كما تركها أَهلُها ، مَصُونٌ وَضْعُهَا ، محفوظٌ شكلها ، خبرٌ صادق ، ولسانٌ ناطق تخبر بالعبر ، وتحدث عمنْ غبر :

مضت غبراتُ العيش وهى غوابر على الدهر مكتوبٌ عليها حبائس

وصف الفونغراف « الحاكى » للمرحوم مصطفى بك نجيب المتوفى سنة ١٣٢٠ هـ

مثالُ القوة الناطقة ، من غير إرادة سابقة ، يقْتَطِف الأَلفاظ اقتطافاً ، ويختطف الصوت اختطافاً ، مطبعة الأَصوات ، ومِرْآة الكلمات ، ينقل الكلام من ناحية إلى ناحية ، نقل كلام عمر رضى الله عنه إلى سارية(٣) أَشدُّ من الصدى فى إعادة الصوت على أَصله ، كأَنه الحروف على يد الطابع ، والوتر عن يد الضارب والقصبُ على فم القاصِب ، يحفظ الكلام ولا يُبيدُه ، ومتى استعدته منه يعيده ، من غير أَن يُبقى لفظاً فى صدره ، أَو يكتُم شيئاً من أَمره ، كأَنما حِفظُ الوَديعة فى نفسه طبيعة ، فلو تقدَّم له الوجودُ فى مرتبه الزمن لما احتجنا فى الإخبار إلى عنعنة(٤) ، ولا فى الدعاوى إلى بيِّنة ، بل كانَ يُسْمِعنَا كلام السيد المسيح فى المهد ،

---

(١) البادية : الصحراء (٢) مواطن الأولى ــ جمع موطن ــ أى مكان الانسان ومقره ، ومواطن الثانية : مشاهد الحرب (٣) ابن زيد الذى ناداه عمر رضى الله عنه على المنبر (٤) مراده الأخبار عن النبى صلى الله عليه وسلم التى تروى عن فلان عن فلان .

وصوت عاذر(١) من اللحد ، وكانت اسْتَوْدَعَتْه الفلاسفة حكمتهم ، وأنشدُوه كلمتهم ، فرأينا غرائب اليونان وبدائع الرُّومان ؛ وربما سمعنا خُطب سحبان وشعرَ سيِّدنا حَسَّان بذلك اللسان ، وأصبح وجود الإنسان غيرَ محدود بزمن من الزمان . لله دره من تلميذ يَستوعب ما عند المعلم ، ويستخلصه فى لحظة مُعيدا لقوله ، ناقلا لصوته ولفظه :

لقد وجدتُ مكانَ القول ذا سَعَةٍ فإن وجدت لساناً قائِلا فَقُلِ

نديم ليس فيه هفوةُ النديم ، وسمير لا يُنسب إليك تقصير ، تُسْكته وتستعيده تَذُمه وتستجيده ، تنقصه وتَسْتزيده ، وهو فى كلّ هذه الأَحوال راضٍ بما يقال ، لا يكل من تحديث ، ولا يملُّ من حديث ، نمامٌ ينمُّ لك كما ينم عليك ، وينقلُ لغيرك كما ينقل إليك ، فهو المصوِّرُ لكلّ فن ، المتكلمُ بكلِّ لُغة ، المتحدِّث عن كلِّ إنسان ، المؤرِّخ لكل زمان ، الشاعر الناثر ، المغنى العازف لا تعجزه العبارة ، ولا يُجهده الأَداء ، ولا يضرُّه اختلافُ شكل ، ولا تبايُنُ أَصل بل تعهدت شِدَّة حفظه للبشرية من اللغات ، إلى حفظ أَصوات العجماوات إلى اصطكاك الجمادات

وقال ووصف أيضاً نظارة ويشكر من أهداها :

ورد الكتابُ المطَرَّزُ بحلى الكَرم . المُحَلى بجميل النِّعم ، واستلمتُ الهدية فسلمتْ يدٌ أَهدتها ، وحُفِظتْ السجايا التى محاسن الأَعمال هدتها ، ودامت رحابٌ لمثل هذه الحسنات فيها مجال ، وللمُحسنات بهاء وجمال ، وللآمال محط رحال ، وللمقاصد كعبةُ إقبال ، وطابت نفسٌ تعالى الله أَن تماثلها نفسُ عصام فإنها نسخت آية الكَرِّ والإقدام ، بآية الْجُود والإكرام ، وفعلت فى القلوب بالعطاءِ والنَّوال ، ماقصرت عنه الرِّماحُ الطوال ؛ وتأَملتُها فأَرَتنى الاعينٌ رأَتْ

(١) هو الذى أحياه عيسى عليه السلام .

وأَظهرتْ من محاسن المَناظر ما أَمرت وقربت كلَّ منظور بعيد ، وتلت «فكشفنا عنك غطاءَك فبصرك اليوم حديد» وصفا وفّى بصفائها ، فلم أَشْتَه شيئاً إلا جمعتْ بينه وبيني ، وصحَّ علينا قولُ القائل : «رأَيت بعينها ورأَت بعيني» ثم سرَّحت نظرى فى الأَطلال والرُّسوم ، حتى نظرتُ نظرة فى النجوم فلم تُخف عنّى شجراً ولا مدرًا ، ولا نجماً ولا قمرًا :

يزِيد وجهُها حُسْناً إذا ما زِدْته نَظرا

ببهاء يخيَّل لى أَنها صيغتْ من ضياء ، فلا عَيْب فيها غير أَنى نظرتُ بها فى سماء فضلك الباهر ، وأُفق شرَفك الظاهر ، فلم ينكشف لى بها لجُودك آخر ، لا زال كرَمُك بعيدًا حدُّه على كلِّ ناظر وباصر ، وفضلُ مناهلك غاية تقصدها الأَوائل والأَواخرُ .

وصف سان استفانو بالإسكندرية لمؤلف الكتاب

كتابى والقلمُ فى البنان ، يُسَطِّرُ ما يمليه الجنان ، على محاسن ذلك المكان المشهور بـ (سان استفانو) . هناك ترَى البحر كالمرآة تمثلتْ فيها السماءُ ، فكأَنما الماءُ سماء ، والسماءُ ماء ، وتخال الشاطئَ مَرْتعاً للظبيات الآنسات ، أَو سُوق جمال تُباع فيه القلوبُ على الغانيات .

هُناك الشبيبة واللعب ، والزَّهْوُ والطرب ، وقد اعتلَّ الصَّبا ، وصحَّ الصِّبا ، حُورٌ ووِلدان يمرحون بنشاط الشباب ، ويتهادُون بنشوَة الدَّلال والإِعجاب ، فمن «غادات» روائح وغاديات ، قُدُودُهُن الرِّماح الطاعنات ولحاظهنٌّ القاتلات المُحْييات .

ومن «ولدان» يلعبون بالكرة والصوْلجان ، فالكرة قلبُ المحِبّ المتيَّم ، والصَّوْلجان الذى يدفعُها شوق العاشق المغرم ، هُناك نغمات الأَوتار تدعُو إلى اغتِنَام الأَوطار ، تهدى الارْتياح إلى الأَرواح ، وتُبْدِل الأَفراح من الأَترَاح

هُناك الكؤوسُ على قُطْب الخلاعة تدُور ، فهى برشفَاتها الثغور ، وبنُورها البدُور تَشْرُق من الحنان وتَغرُب فى أفواه الندمان ، فيعلُو الوُجوه الشفق ، فتبارك المبدِعُ فيما خلق .

هُناك فريقٌ من أهل الهوَى ، حُلفاء الأَسى والجوَى ، يختلسُون النَّظرات وتحتها سهام صائبات ، تقصدُ قلوبهم ولا راحمَ لهم ، ينادون من يُحبون فلا يُجابون ، ويتذلَّلون لعزِّ الجمال على أنهم لا يُحَابُون ، يتمنَّون الرِّضا بعد الهَجْر وحلوَ اللقا بعد الصبر ، وفريقٌ آخر قد وافاهم السعد فنالوا الأَمانى ، تعلو وُجوههم نضرَةُ النعيم بما نالوه من إشارة أَو تسليم ، يتبادلون التحيَّاتِ بالحواجب ، ويُشْفِقُون على القلوب فيضعون الأَيدى فوق الترَائب ، حتى إذا الليلُ سجا ، وسترَهم رِداء من الدُّجى ، يَتلاقون إلى جانب اليمِّ ، ويَتهامسون والفمُ قريب من الفم ، ترَاهم على الأَرائك جَنْباً بجنب ، وعُنقاً على كتف ، مبتعدين عن العُيون هنا وهنا ، وقد بلغوا الآرابَ والمُنى ، يَجْتَنُون الثمرَ من السَّمر ، ويلثمون الرَّاح بالراح ، ولا يزالون فى مسرّة وهناء وأُنس وصفاء ، حتى يُنادِى منادى الموائد بحَىِّ على شهىّ الطعام ، وهلمُّوا إلى رَائق المُدَام ، فيجلسون مثنى وثلاث ورُباع محفوفين بيانع الأَزهار ، مستضيئين بأَزهى الأَنوار ، والغلمان عن يمينهم وشمالهم قائمون بحوَائجهم ، وهم فى لباسهم كأَقمار ، وفى خِفَّتهم كلمح الأَبصار فيأْكلونَ ويشربون ، ويضحكون ويلعبون بين نغمة بالحديث الرَّخيم ، ونشوة بالمدام القديم ، حتى إذا أَخذتْ كل حاسة حظَّها ، وتلجْلجتْ الأَلسنة فلا تفهم لفظها ، هنالك تراهم كسرْب الظباء رائح وغاد ، هذه مائلة وهذا مُتهَادٍ ، إلى أن يتمشَّى النوْم فى الجفون ، فتذبل العيون فينصرفون إلى المنام ، ويحملون بلذيذ الأَحلام ، بعد أَن يتعاهدوا على الأَوبة ويحسنوا الختام بالتوبة .

وصف الشمس

الشمس كوكبٌ مضىء بذاته ، وهى أَعظم الكواكب المرئية لنا منظرا ،

وأَسطعُها ضوءًا ، وأَغزرها حرارةً ، وأَجزلُها نفعًا للأَرض التى نسكنها ، ولكثير من أَخواتها ، سيارات الشمس وبناتها .

والشمس كرةٌ متأَجِّجة نارًا ، حرارتها أَشد من حرارة أَى ساعور(١) أَرضىّ ، ويبلغ ثقلها ثلثمائة وزن من ثقْلِ الأَرض ، وهى أَكبر منه جِرماً بثلثمائة أَلف وأَلف مرّةٍ .

وتدور الشمس على محورها من الغرب إلى الشرق مرة واحدة فى نحو خمسة وعشرين يوماً . وتبعد عنا بنحو اثنين وتسعين أَلف أَلف ميل وخمسمائة أَلف ميل وهى مع كلِّ هذا العِظَم الهائل لاتعد فى النجوم الكبرى ، بل إن فى أَكثر ما نشاهد من النجوم الثابتة شموسٌ أَكبر من الشمس بأُلوف الأُلوف ، والشمس بسياراتها تابعٌ من توابع أَحدها .

وسطح الشمس مهب عواصف وزوابعَ نيرانيةٍ شديدةٍ ، تثير فى جوِّها أَشوظة(٢) هائلةٌ تندلعُ(٣) أَلسنتها المتأَجِّجة عن محيط كرتها أَميالاً ، وقد وصف بعض العلماءَ لهبًا ارتفع من سطحها لأَول وهلة نحو أَربعين أَلف ميل فى الفضاءِ ، ثم ازداد بريقًا(٤) ثم ارتفعَ بعدَ نصف ساعة إلى خمسين وثلثمائة أَلف ميل ، ثم جعل يَضْول ويضعف ، فلم يمض ساعتان حتى اضمحلّ اضمحلالا ، غير أَن ما وصفه هذا العالم ليس إلا من قبيل النّوادر ، ولكن ارتفاعَ اللهب نحومائة أَلف ميل ليس بغير العادى وكثيرًا ماتبلغ سرعة اللهب مائة ميل فى الثانية ، وأَكثر مادة الشمس من عنصر المُخْذى (الإِيدروجين) المتقد .

وبرصد الشمس مرارًا بالمرقب المغشى بالسواد شوهدَ فى صفحة قرصها نكتٌ سودٌ ، وكلف يشوِّه محياها ، كأَنما هى كرةٌ سوداء الباطن غلفت

---

(١) الساعور : النار نفسها أو موقدها (٢) الشواظ اللهب
(٣) اندلع اللسان خرج من الفم . (٤) تلألؤًا

بِسَطحٍ ساطع من الصعادات يَتَخَلَّلهُ نَقَبٌ يظهرُ تحتها السوادُ ، ولا تزال حقيقة هذه البقع موضوع البحث والتعليل عند الفلكيين ، ومن تنقلِ هذه النكت عرفت دَورتها على مِحْورها .

وللشمس سياراتٌ أو أبناءٌ انفصلت منها منذُ أزمانٍ سحيقة ، عُلِمَ منها إلى الآن نحوُ ثمانية ، هى على ترتيب الأَقرب منها فالأَقرب : عطارد ، فالزّهْرَة ، فالأَرض ، فالمرِّيخ ، فالمشتَرى ، فزُحل ، فأُرانوس ، فنبتُون . ولم تعلم كل شئون هذه السيارات حق العلم ، وإنما أَلمّ العلماءُ بمعرفة مَوادها وكثافتها وأبعادها .

ولكن أمرَ الحياة فيها لم يَزَل مبهماً مستغلقًا ــ اللهُمَّ إلا فى الأَرض وقمرها .

أَما مِقدارُ النعم التى سخَّرها الله لنا بوُجود الشمس فمما لا يُحصيه العد ، فهى مبعثُ حياتنا وحياة الحيوان الذى يعيشُ معنا ، ومصدرُ نورِنَا ونارِنَا وحرِّنَا وبَرْدِنَا ، وهى التى تحيل مياه البحار بخارًا ، وتقلها فى الجو غيوماً ، وتنزلها على الأَرض أَمطارًا ، حيثُ تجرى جداولَ وأَنهارًا ، فتروى زَرْعنا ، وتنمى غراسنا وتثيرُ الرياح ، وتطلعُ الأَنواءَ ، وتزجى(١) السُّفُنَ والبواخرَ فى عباب الماءِ وتدفعُ القطرَاتِ الحديدية ، وتديرُ الآلات البخارية ، وتنيرُ المصابيحَ الدخانية والزيتية إذ ليس الفحمُ الحجرى والزيت الأَرضى إلاحرارة نارها المدخرة منذ قديم الدهور ، لينتفعَ بها أَحياء هذه العصور ، وما النهار المبصِرُ ، والليلُ المظلم إلا آيتان من آيات اللهِ المسخرة لنا بتسخير هذا المخلوق العجيب ، فنى النهار نَسعى فى مناكب الأَرض لابتغاء رزقنا ، وتدبير معاشنا ، وتنظيم شئون حياتنا ، ونسبح بحمد ربنا ونعتبرُ بآثار من سبقنا ، وفى الليل نسكُن لإراحة أَبْداننا ، واستجماع(٢) قوانا ، واستيفاء حظنا من النوم الذى به نستديمُ صحتنا ، ونستعيضُ ما فقدناه بأَعمالنا ، وننظر فى

(١) تسير .

(٢) استجماع .

ملكوت السموات وما خلقَ الله من شئٍ فى حركات الكواكب وانتقالها ، وبديع صُوَرها وألوانها ، فتعنو وجوهنا ، ويتضاءلُ كبرياؤنا ، أمام قدْرَة خالقنا العظيم ، فسبحانه من إلٰه حكيم .

وما الألوان التى نراها فى نور الأزهار ، وريش الأطيار ، ونفائس المصنوعات إلا أثر وقوع أضوائها على هذه المرئيّات وانعكاسها(١) على أبصارنا ؛ فإنّ نور الشّمس الأبيض مؤلّفٌ من سبعة ألوان أصلية(٢) تنشأُ منها كلُّ الألوان الفرعية وهى : الأحمر ، والبُرْتقالى ، والأصفر ، والأزرق ، والأخضرْ والنّيلجى ، والبنفسجىُّ . فمن الأجسام مالا يمتص شيئًا من هذه الألوان ، بل يعكسُهَا كلها على العين ، فيبدو أبيض ناصعًا كزهرة الياسمين ، ومنها ما يمتصُّ بعضها ويعكِس باقيها ، فَيَتَلَوَّن بلَوْن ما يعكس منها ، فإذا أبصرتَ ورَقَةَ الشجر خَضْرَاءَ عرفت أنها اختزنت من ضَوْءِ الشمس ستة ألوان ، وردت إلى عينيك سابعها وهو الأخضر لأن فيما ادخرتهُ نفعًا لها ، وليس بها إلى ما لَفَظَتْهُ افتقارُ ، ومنها ما يرد لونين أو أكثر ، فيبدو لونه مزيجًا بين هذه الألوان السبعة ، وهذه الألوانُ من عجائب صنع الله فى الأرض لتمييز بعضها من بعض ، فقد يَتَماثلُ الشيئان شكلاً وحجماً وصلابةً وليناً وشمًّا ، ثم لايتباينان إلا من حيثُ اللون فيكُون اللون آيةَ تباينهما ، وأكثر ما يكُون ذلك فى الأزهار .

وتنوعُ الألوان هو السِّرُّ فى جمال المرئيات من مشاهد الطبيعة وبدائع الصناعة . وإن أعظم المصوِّرينَ وأمهرَ النقاشين لم يبرزوا على غيرهم ، ويدلوا على ذكائهم ونبوغهم إلا ببراعتهم محاكاة ألوان الطبيعة المؤتلفة وأشكالها المتجانسة ، وإنما يتم لهم ذلك إذا عَرفوا كيف يمزجون من الأصباغ ما يستخدمون به ألوان النور خيرَ استخدام ، وينتفعون به أحسن انتفاع ،

(١) انعكس مضارع عكس كما فى الأساس .
(٢) أمكن ارجاع هذه الألوان فى الصناعة الى ثلاثة .

وقد سخر علماءُ الطب تباين الألوان فى كشف النقابِ عن حقائق الجراثيم ، فإنَّ منها ما لايتضح للعين فى المِجْهرِ إلا إذا أُلقى عليه صبغٌ خاصٌ يُؤثِّر فيه فيُصبغُ به .

ولأمواج الشمس الضوئية سرعةٌ معلومة تسيرُ بها ، فاذا انخفضت هذه السرْعة عما هى عليه لم تعد العينُ قادرة على رؤيتها ، لأنها تستحيل إلى مظهرٍ آخر غير مظهر الضوء والحرارة ، وليس ينكر ما للضوءِ والحرارة معاً من الأثر الْحَسن فى تنقية المساكن مما يَقْطُنها من الجراثيم القتَّالة ، والعفن المضنى ، ولذلك قيل إنَّ الدار التى تدخُلها أَشعة الشمس لا يدخلها الطبيبُ .

وصف القمر

القمرُ أَجملُ الكواكب صُورةً ، وأَبينها منظراً ، وأَسهلها رصداً ، وأَكبرها فى رأْى العين بعد الشمس جرْماً ، وهو سيارٌ كرويٌّ أَصغر من الأَرض بنحو تسع وأَربعين مرَّة ، انفصل منها زَمن التكوين وصَار تابعاً لها ، طائفاً حولها ، مُستمدًّا نوره من الشمس مثلها دائراً حول الشمس معها ، غير أَنَّ طواف الأَرض بقمرها حولها يتمّ فى سنةٍ شمسيَّةٍ ، وطواف القمر حول الأَرض يتمّ فى شهر قمريٍّ : أَى مُدَّة تسع وعشرين يوماً ونصف يوم تقريباً ، ومع أَنه خاضعٌ لنظام الأَرض لا يقلّ بُعْدُه عنها عن واحد وعشرين أَلفاً ومائتى أَلف ميل .

والذى يسترعى أَنظارنا كما استرعى أَنظار من قبلنا اختلافُ أَشكاله وتعدُّد مطالعه ، مما جعله مبعث تخيُّل القُدَمَاءِ ، ومثار تفكر الحكماءِ ، ومقصداً لعبادة الْجُهلاءِ ، فتراه يلوحُ ليلة أَوَّل الشهر إثر غروب الشمس ضئيلا مُقَوَّسا ، لا يلبثُ أَن يغْرُب ويغيب فى شفق الشمس ، ثم يهل فى الليلة الثالثة أَبين صُورة وأَبقى زمناً لازدياد تأَخره فى الغروب عن الشمس ، ولا يزال نورُه فى تزايد ، ومطالعُه فى تقدُّم نحو المشرق حتى يطلع من المشرق فى الليلة الرابعة عشرة عند غروب

الشمس بدرًا كاملا ، بهىّ الطلعةِ باهرَ الأَنوار ؛ فتبارك اللهُ أَحسنُ الخالقين .

ولكنَّ الكمال للهِ وحدهُ ، فإِن مُنتهى الزِّيادة مُبتدأ النقصِ ، فنى الليلة الخامسةَ عشرة يتأَخر طلوعُه من المشرق ، وينقُصُ من حافةِ نوره التى كانت موضع هلاله الأَول زيقٌ لا يُشعرُ به إلا فى الليالى التالية ، ولا تزال مطالعُه فى تقهقر ونوره فى تناقُص حتى قربِ آخر الشهر فيشْرِق قبيلَ الفجر هلالاً ضئيلاً يكادُ يكونُ مقلوبَ الهلال الأَول . فى الليلة الأَخيرة يكونُ عند الصباح فى الأُفق الشرقىّ مُظلما لا يُرى منه شىء ، وهو ليلة المحاقِ أَو السرار ويظل بعضَ النهار كذلك ثم يتولدُ هلاله الجديد ، ولكنه لا يظهر إلا بعد أَن يغيب قرص الشمس فيلوح هلاله ، ثم يختفى كما قدمنا .

وعِلةُ ذلك : أَن نورَ القمر كنور الأَرض مُستفاد من الشمس ، وهو لا يُقابل الأَرض إلا بوجهٍ واحد لا يتغيَّر ، وهذا الوجه بالنسبة إلى حركتهِ مع الأَرض حول الشمس لا يقابل الشمس مقابلةً تامةً إلا فى وضع واحد ومرَّة واحدة هى الليلة الرابعة عشرة ، فيغشاه ، نورها ويصير بدرًا ، أَما بقية الليالى التى قبلها والتى بعدها فينحرفُ قليلاً أَو كثيراً عنها ، حتى يصير كله ظلاماً ليلة المحاق ، فيطوى خبره ويكون الوجه الآخر الذى لا يرى لنا بدراً كاملا ؛ ثم يتولدُ هلاله خلقاً جديداً .

وكذلك شأْن الأَرض فى استمداد نورها أَو ما نسميهِ نهارًا ، ولو كان فى القمر سكان ، لكانت الكرة الأَرضية فى رأْى أَعينهم أَكبر كوكب فى السماء ، ولشاهدوها أَكبر من الجِرْم الذى نشاهد القمر عليه أَضعافاً مضاعفة ولكانت عندهم أَروع جمالاً وأَبدع من قمرهم فى نظرنا تشكلاً ، فبدورانها على نفسها يرونها كلَّها جزءًا فجزءًا ، وتظهر قاراتُهَا ومحيطاتها واضحة عليها فى وقت الصحو ، ومُظَلَّلا بعضها بالغمامِ فى وقت الدجن ، وتبدو أَهِلتُهَا وبُدُورها ضخمة باهرة ، ولكن لا يراها إلا سكان النِّصْفِ المقابل لنا أَو الذين يريدون التفرج برويتها من أَهل النصف الثانى .

ولقُرب القمر منا وخلو جوّه من الهواءِ سهل رصده علينا ، فترى فى صفحته عند الشُّرُوق ليلة التمام كثيراً من المَحْو(١) يجعلُ صورته أَشبه بوجه إِنسان ذى أَنف وفم وحاجبين وعينين إحداهما مُغضيةٌ ، ولا يزالُ كذلك حتى يتعدى خطّ زوال مكان الناظر . فإِذا مال إِلى المغرب انحرفتْ هذه الصورة حتى يصير عاليها سَافلها ، وليس هذا المحو إِلا ظلامَ بطون الأَودية والسهول البعيدة الغوْر وظلال الجبال والهضَاب الشاهقة الطول شهوقاً يكاد يمنع استدارته . أَما قممُ الجبال وسطوحُها المقابلة للشمس فَتُرَى لامعة ساطعة فتبين سلاسل الجبال طرائق مضيئة وقممُهَا نقطاً لامعة وفوهات جبال ناره الشديدة السَّعة ، البعيدة الغور التى تعد بعشرات الأُلوف ، كأَنها حلقاتٌ وسطها نقط سود .

وقد ظنَّ القدماءُ فى علَّة المحو ظنوناً ، بعضها صادف الحقيقة ، وبعضها جَانبهَا حتى ظهر غاليلْيُو ، واخترع سنة ١٦٠٦ ، مرْقباً يقرِّب الأَشباح ثلاثين مسافة فأَثبت وجود الجبال والأَودية فيه ، وزاد عليه غيره فى تحسين المراقب المكبِّرة حتى أَصبح القمر يُرَى كأَنه عَلَى بُعد أَربعين ميلاً منَّا ، على أَن هذا القرب لا يجعلنا نرى الأَشباح الصغيرة التى من نوع الحيوان لنتحقق أَن للقمر سكانا كما للأَرض أَو لا ؟ ولكن قد أَصبح من المَرجح إِن لم يكن من المحقق أَنه خالٍ منَ الماءِ ومن السحاب والضباب الناشئين منه ومن النبات ، إِذ لو كان به شىءٌ منها لتغيَّر شكله من حال إِلى حال ، ويُشَكُّ أَن له هواءً ، وإِن كان له هواءٌ فلعله لا يزيد على قمم جباله ، ولا شك أَن الماءَ والهواءَ هما ينبوعا الحياة ، وتجرُّده منهما ، وخمود جبال ناره ، ويُبْس جرمه يجعل برده شديدًا جدًّا فى الليل ، وحرّه عظيما جدًّا فى النهار على فرْط طولهما البالغ فيه خمسة عشر يوماً مما يجعل الحياة فيه متعسَّرَة بل مستحيلة ، اللهم إِلا أَن تكونَ حياة غير حياتنا .

---

(١) المحو : السواد فى القمر .

ويُرجِّحون أَنَّ القمرَ كان فى أَزمان سَحيقة على طبيعةٍ تقرُب من طبيعة أُمَّةِ الأَرض ، فكان آهِلاً بالحيوان والنباتِ ، إلا أَن صِغَرَ جسمه جعله يسبق الأَرض فى اليُبْس والبرُودة فَتَقَبّض وبرد وانتهت دُنياه ، وأَصبح كإِسفنجةٍ مشعثة ذاتِ شعبٍ ونخَاريب(١) تكوينُها من جنسِ تكوين الأَرض .

ولقد خلق الله القمر مسخراً لأَهل الأَرض خاصة ، فهو يعكس نور الشمس عليهم هدايةً لهم فى ظلمات البرِّ والبحر ، ولقد قضى الإِنسان عُصُوراً ودُهوراً وليس له مصباحٌ فى جُنح الظلام غيره ، ولا يزالُ كذلك لأَهل البَدْو وقبائلِ الهمج . وهو باختلافِ أَشكاله تَقويم فطرىٌّ لهم فبإِهلاله يُعْرَفُ أَولُ الشهر وبالتربيع الأَول يعرفُ رُبعهُ ، وببدره(٢) يعرفُ نصفه ، وبالتربيع الأَخير ثلاثة أَرباعه ، وبمحاقهِ تعرفُ نهايته .

وإِذا مَرَن الإِنسانُ على النظر فى تقدير ضَوْئِهِ ، وأَوقات مطالعه ، عرَف الشهر يوماً يوماً ، والليل ساعةً ساعةً ، قال تعالى : «يَسأَلونك عن الأَهلَّةِ قُلْ هىَ مواقيت للناس والْحجِّ » .

وباتحاد جذبِه مع جذب الشمس للأَرض ينشأُ المَدُّ والجزْرُ ، وفائدتهما فى تسهيل الملاحةِ لا تنكر ، فكم موانِئَ ومرافِىء لولاهما لَسُدت برَواسبِ الأَنهار والسيول .

ولضوءِ القمر فى إِنضاج الثمار والبقول أَثر أَيما أَثر حتى إِن بعضها لا ينمو ويزهُو لونه إِلا فى لياليه البيض .

الفن الخامس : فى المقامات

المقامة عبارة عن كتابة حسنة التأْليف ، أَنيقة التصنيف ، تتضمن نكتة

(١) جمع نخروب ، وهى الثقوب التى تكون فى مثل خلايا النحل .
(٢) مصدر بدر البدر يبدر بدرا . وبالمصدر سمى هذا الكوكب عند تمام نوره كأنه يبادر الشمس بالشروق فى ليلة التمام عند غروبها .

أَدبيّة ، ومدارُها على رواية لطيفة مختلفة تُسندُ إلى بعض الرُّواة ، ووقائع شتى تُعْزَى إلى أَحد الأُدباء ؛ والمقصود منها غالباً جمعُ دُرَر وغُرَر البيان ، وشوارد اللغة ونوادر الكلام ، منظوم ومنثور ، فضلاً عن ذكر الفرائد البديعية ، والرَّقائق الأَدبية ، كالرَّسائل المُبتكرة ، والخُطب المُحَبرة ، والمواعظ المبكية والأَضاحيك الملهية(١) ولنذكر منتخباتٍ من مقامات مختلفة فنقول :

قال الحريرى(٢) المتوفى سنة ٦١٥ هـ ــ المقامة التاسعة الاسكندرانية :

أَخبر الحارث بن همَّام قال : طحابى(٣) مَرَحُ(٤) الشباب وهوى الاكتساب(٥) إلى أَن جُبْتُ(٦) ما بين فرغانة(٧) وغابة(٨) أَخوضُ الغمار(٩) لأَجنى الثمار وأَقتحم الأَخطار(١٠) لكى أُدركَ الأَوطار(١١) ، وكنتُ لقفتُ من أَفواه العلماء وثقفت(١٢) من وصايا الحكماء ، أَنه يلزمُ الأَديب الأَريب(١٣) إذا دخلَ البلد الغريب ، أَن يستميل قاضيَه(١٤) ويَستخلص مَراضيه ليشد ظهره عند الخصام ، ويأْمن فى الغُرْبة جوْر الحكام ؛ فاتَّخذتُ هذا الأَدبَ إماماً وجعلته لمصالحى زماماً ، فما دخلت مدينة ، ولا ولجت عرينة إلا وامتزجت

---

(١) اعلم أن المقامات تعرف بالمكان الذى تجرى فيه فيقال المقامة الحلبية أو الموصلية بناء على أن محل وقوعها حلب أو الموصل ، وربما نسبت الى المروى عنه ، ويستحب فى راوى المقامة أن يمثل رجلا ظريف النفس كثير الأسفار حسن الرواية متفرغا لفنون الأدب جادا فى طلب غرره كادا ذهنه فى تحصيل درره كالحارث بن همام فى المقامات الحريرية وعيسى بن هشام فى المقامات البديعيه ، ومخترع هذا الفن هو بديع الزمان الهمذانى وبعده الحريرى ، واشتهر بعدهما كثيرون ممن نسجوا المقامات على منوالهما وان لم يبلغوا شأوهما .

(٢) تقدم أنه توفى سنة ٦١٥ هـ (٣) ذهب بى . (٤) هو النشاط وشدة الفرح (٥) أى محبة اكتساب المال (٦) قطعت (٧) بلد بأقصى المشرق (٨) مدينة بالمغرب (٩) بالكسر جمع غمرة : الماء الكثير ، وهنا الأمور الصعبة (١٠) أى أدخل فى القحمة بالضم وهى الشدة ، والأخطار : الأمور العظمة . (١١) الحجاب (١٢) أدركت (١٣) العاقل (١٤) يرغبه ويترضاه .

بحاكمها امتزاج الماءِ بالراح ، وتقوَّيت بعنايته تقوِّى الأَجساد بالأَرواح ؛ فبينما أَنَا عند حاكم الإِسكندرية ، فى عشيَّة عريَّة(١) وقد أَحضر مال الصدقات ، ليفُضه(٢) على ذوى الفاقات(٣) إِذ دخل شيخٌ عِفْرية(٤) تعتِلُه(٥) امرأَة مُصبية(٦) فقالت : أَيَّدَ(٧) الله القاضى ، وأَدام به التراضى(٨) ، إِنى امرأَةٌ من أَكرم جُرثومة(٩) ، وأَطهر أَرومة(١٠) ، وأَشرف خؤولة وعمومة ، مِيْسَمِى(١١) الصَّوْن(١٢) ، وشيمتى(١٣) الهون(١٤) ، وخُلقى نعم العون(١٥) ، وبينى وبين جارتى بَوْن(١٦) وكان أَبى إِذا خطبنى بُناةُ(١٧) المجد وأَرباب الجدِّ ، سكَّتهم(١٨) وبكَّتهم(١٩) وعاف وصلتهم(٢٠) وصلتهم(٢١) واحتج بأَنه عاهد الله تعالى بحلفه ، أَن لا يُصاهر(٢٢) غير ذى حرفة(٢٣) ، فقيض القدر(٢٤) لنصبى ووصبى(٢٥) أَن حضر هذا الْخُدعة(٢٦) نادِىَ أَبى(٢٧) فأَقسم بين رهطهِ(٢٨) أَنه وفقُ شرطه ، وادَّعى أَنه طالما نظم دُرَّة ، فباعها ببدرة(٢٩) فاغتر أَبى بزخرفة محاله ، وزوجنيه قبل اختبار حاله ، فلما استخرجنى من كناسى(٣٠) ورحلنى عن أُناسى ، ونقلنى إِلى كَسره(٣١) وحصَّلنى تحت أَسره ، وجدته قُعدة جُثمة(٣٢) وأَلفيته ضُجعة نُومة(٣٣)

---

(١) أى شديدة البرد (٢) يفرقه (٣) أى الفقراء المحتاجين . (٤) أى شديد الدهاء (٥) تجره بعنف (٦) أى ذات صبيان (٧) قواه ونصره (٨) أراد رضاء الخصوم بحكمه الغالب والمغلوب (٩) أى أصل (١٠) الأرومة: أصل الشجرة ثم استعير لأصل الحسب (١١) علامتى ، والميسم : الآلة التى يكوى بها (١٢) الحفظ والعفاف (١٣) خلقى وعادتى (١٤) الرفق (١٥) أى الرفيق الظهير (١٦) أى تفاوت فى الفضل (١٧) جمع بان (١٨) قال لهم كلاما لا جواب له (١٩) ألزمهم الحجة (٢٠) كره قربها (٢١) أعطاهم (٢٢) يزوج ابنته (٢٣) صناعته (٢٤) يعنى قدر الله تعالى (٢٥) لتعبى (٢٦) المخادع (٢٧) مجلس أبى (٢٨) قومه وعشيرته (٢٩) البدرة عشرة آلاف درهم (٣٠) أى منزلى ، وأصله بيت الظبى (٣١) بفتح الكاف وكسرها جانب بيته (٣٢) كثير القعود كثير الجثوم أى يلازم الموضع الذى يقعد فيه (٣٣) الضجعة والنومة أصله العاجز الذى لا يتصرف ، والمعنى انه عاطل عن العمل .

صحبته برياش وزى وأثاث(١) ورى(٢) فما برح يبيعه فى سوق الهضم (٣) ، ويتلف ثمنه فى الخضم والقضم(٤) إلى أن مزق مالى بأسره(٥) ، وأنفق مالى فى عسره ، فلما أنسانى طعم الراحة ، وغادر بيتى أنقى من الراحة(٦) قلت له : يا هذا إنه لا مخبأ بعد بوس(٧) ولا عطر بعد عروس(٨) فانهض للاكتساب بصناعتك ، واجتن(٩) ثمرة براعتك(١٠) فزعم أن صناعته قد رُميت بالكساد(١١) لما ظهر فى الأرض من الفساد ولى منه سُلالة(١٢) كأنه خلالة(١٣) وكلانا ما ينال منه شبعة(١٤) ولا ترقأ(١٥) له من الطوى(١٦) دمعة ، وقدقدته(١٧) إليك وأحضرته لديك ، لتعجم(١٨) عود دعواه وتحكم بيننا بما أراك الله — فأقبل القاضى عليه ، وقال له : قد وعيت(١٩) قصص عِرْسك ، فبرهن الآن عن نفسك ، وإلا كشفت عن لبسك(٢٠) وأمرت بحبسك . فأطرق إطراق الأفعوان(٢١) ثم شمّر للحرب العوان(٢٢) وقال :

اسمع حديثى فإنه عجبُ ... يضحك من شرحه وينتحب(٢٣)
أنا امرو ليس فى خصائصه(٢٤) ... عَيْبٌ ولا فى فخاره ريب
سُرُوج دارى التى ولدتُ بها ... والأصل غَسَّان(٢٥) حين أنتسب

---

(١) رياش : مال ولباس فاخر ، زى : هيئة حسنة ، أثاث : متاع البيت . (٢) حسن حال وكثرة نعمة وهو بكسر الراء وفى الأصل اسم من روى (٣) المراد ببيعه بأقل من القيمة (٤) الأكل بأطراف الأسنان وقيل الخضم اكل بأطراف الاسنان والقضم بمقدمها وقيل الخضم أكل الرطب والقضم اكل اليابس : تريد أنه يصرف ثمنه فى اع الأكل واللذات (٥) أى فرق الذى لى بأجمعه (٦) بطن الكف لنقائه من الشعر (٧) أى فقر (٨) مثل قالته امرأة من العرب مات عنها زوجها واسمه عروس فتزوجها رجل أبخر وأمرها أن تتعطر فقالته (٩) أى الجنى : جمع الثمار (١٠) أى فضلك على أقرانك (١١) هو خمود السوق وقلة البيع ضد النفاق بالفتح (١٢) يعنى ولدا (١٣) ما يتخلل به (١٤) قدر ما يشبع به مرة (١٥) أى لا تسكن (١٦) الجوع (١٧) أتيت به (١٨) لتقضى وتختبر (١٩) فهمت وحفظت ما قصته زوجك (٢٠) أظهر أشكالك وتعمية أمرك (٢١) ذكر الأفاعى أو العظيم منها (٢٢) الحرب التى قبلها وهى تكون أشد من الأولى (٢٣) الانتحاب رفع الصوت بالبكاء (٢٤) خصاله وطباعه (٢٥) أسم ماء نزل عليه قوم من الأزد فنسبوا اليه منهم أبو جفنة ورهط الملوك وقيل غسان قبيلة .

وشغلى الدرسُ والتبحرُ فى العلم طلابى وحبذا الطلبُ
ورأس مالى سحر الكلام(١) الذى منه يصاغ القريضُ(٢) والخطبُ
أغوص فى لُجَّة البيان فاختار اللآلئ منها(٣) وأنتخبُ
وأجتنى(٤) اليانع(٥) الجنِىَّ(٦) من القول وغيرى للعُود يحتطبُ
وآخذ اللفظ فضة فإذا ما صغته(٧) قيل إنه ذهبُ
وكنت من قبل أمترى نشباً(٨) بالأدب المقتنى وأحتلبُ
ويمتطى(٩) أخمصى(١٠) لحرمته مراتباً ليس فوقها رُتبُ
وطالما زُفَّتِ الصِّلات إلى ربعى(١١) فلم أرض من يَهِبُ(١٢)
فاليوم من يعلقُ الرجاءُ به أكسدُ شىءٍ فى سوقه الأدب(١٣)
لا عرض أبنائه يُصان ولا يرقب(١٤) فيهم إلٌّ(١٥) ولا نسب
كأنهم فى عراصهم(١٦) جِيَف يبعد من نتنها ويُجْتنبُ
فحار لُبِّى(١٧) لما منيت به(١٨) من الليالى وصرفها(١٩) عجبُ
وضاق ذرعى(٢٠) لضيق ذات يدى وساورتنى(٢١) الهموم والكربُ
وقادنى دهرى المليم(٢٢) إلى سلوك ما يستشينه(٢٣) الحسب(٢٤)

---

(١) هو ما لطف مأخذه وراق (٢) الشعر (٣) أى أتعمق فى بليغ المعانى وانتقى منه الملح (٤) أقتطف (٥) الزاهى (٦) الطرى من التمر الذى جنى حديثا (٧) سبكته (٨) أى اكتسب مالا (٩) أى يركب (١٠) ما ارتفع من باطن القدم عن الأرض (١١) أى حملت الجوائز والهدايا الى منزلى (١٢) أى لم أكن تحت منة كل حد بل لم أنل الا من العظماء (١٣) أى أن ما يتعلق به الأمل ويرجى منه النوال لا يستعمل الأدب والمعارف حتى صار ذلك كالسلعة الكاسدة عنده . (١٤) يحفظ (١٥) بخفض الهمزة وتشديد اللام — العهد والقرابة والجوار (١٦) جمع عرصة وهى فناء الدار أى كأنهم فى مواضعهم (١٧) تحير عقلى (١٨) بليت به (١٩) تقلبها (٢٠) القبض قلبى (٢١) انتابتنى وغلبتنى (٢٢) الذى يأتى بما يلام عليه (٢٣) يستبشعه (٢٤) ما يعد من مفاخر الاباء أو الدين وقيل الكرم .

فبعت حتى لم يبق لى لَبدٌ(١) ولا بتاتٌ(٢) إليه أَنقلبُ
وَادّنْتُ(٣) حتى أثقلت سالفتى(٤) بحمل دَيْنٍ من دونِهِ العطبُ
ثم طويت الحشا على سَغبٍ(٥) خمساً(٦) فلما أَمَضَّنِى(٧) السَّغَبُ
لم أَرَ إلا جهازها عرضاً(٨) أَجولُ فى بيعه وأَضطرب
فَجُلتُ فيه والنفس كارهةٌ والعين عبرى(٩) والقلب مكتئبُ(١٠)
وما تجاوزت(١١) إذ عَبَثْتُ(١٢) به حَدّ التّراضى(١٣) فيحدث الغضبُ
فإن يكن غاظها توهّمُها أَن بنانى بالنظم تكتسبُ
أو أَننى إذ عزمت خطبتها زخرفتُ قولى لينْجَح الأَرب(١٤)
فوالذى سارت الرفاقُ(١٥) إلى كعْبته تَسْتَحِثها(١٦) النُّجُب(١٧)
ما المكر بالمحْصَنات(١٨) من خُلقى ولاشعارى(١٩) التمويه(٢٠) والكذب
ولا يدى مُذْ نشأَتُ نِيطَ بها(٢١) إلا مواضى اليَرَاع(٢٢) والكتبُ
بل فكرتى تنظم القَلَائِدَ(٢٣) لا كفى وشعرى المنظوم لا السُّخُب(٢٤)

---

(١) يقال ماله سبد ولا لبد أى لاشعر ولا صوف والمراد ذوات الشعر والصوف من المواشى ، وأراد الحريرى أنه لم يبق له كثير ولا قليل كناية عن شدة الفقر والحاجة (٢) الزاد ومتاع البيت (٣) تداينت (٤) صفحة العنق وقيل مقدمه (٥) جوع (٦) خمس ليال (٧) أحرقنى (٨) حطام الدنيا ، وهو المال قل أو كثر (٩) دامعة باكية (١٠) حزين (١١) تعديت (١٢) فعلت به ما لايليق فعله (١٣) أى حد الرضا (١٤) الحاجة (١٥) جمع رفقة ، وهو جمع رفيق (١٦) تستعجلها (١٧) جمع نجيبة ، وهى الكريمة من الابل (١٨) جمع محصنة أى النساء العفائف . (١٩) تخلقى (٢٠) تزيين الكلام وأصله أن يطلى المعدن غير الذهب والفضة بأحدهما أو الفضة بالذهب (٢١) علق بها (٢٢) جمع يراعة وهى القصبة الجوفاء والمراد بها الأقلام (٢٣) جمع قلادة أصله ما تقلد به المرأة من الذهب والمراد ما ينظم من القصائد والأشعار (٢٤) جمع سخاب وهو القلادة من القرنفل والمسك ليس فيها من الجواهر شىء تجعل فى أعناق الأطفال .

فهذه الحِرفة المشارُ إلى ... ما كنت أحوِى بها وَأجْتَلِبُ
فأْذَنْ لشرحي كما أذنْتَ لها ... وَلَا تُرَاقب(١) واحكم بما يجبُ

قال : فلما أحكم ما شاده(٢) ، وأكمل إنشاده ، عطف القاضى إلى الفتاة ، بعد أن شغف(٣) بالأبيات ، وقال : أما أنه قد ثبت عند جميع الحكام ، ووُلاة الأحكام انقِرَاضُ(٤) جيل الكِرَام(٥) وميل الأيام إلى اللئام ؛ وإنى لإخال(٦) بَعْلَكِ(٧) صدوقاً فى الكلام بَرِيًّا من الملام ، وها هو قد اعترف لك بالقرض ، وصرح عن المخض(٨) ، وَبَيَّنَ مِصْداق النظم ، وتبين أنه معروق العظم(٩) ، وَإعْنَاتُ المعذر ملأمة(١٠) ، وحبس المعسر(١١) مألة(١٢) ، وكتمان الفقر زهادة وانتظار الفرج بالصَّبر عبادة ، فارْجِعى إلى خدرك(١٣) ، واعذُرى أبا عُذْرك(١٤) وَنَهنهى من غَرْبك(١٥) ، وسلمى بقضاء ربك - ثم إنه فرض لهما فى الصَّدَقات حِصَّةً ، وناولهما من دارهمها قبضة(١٦) . وقال لهما : تعللا(١٧) بهذه العُلالة(١٨) ، وتنديا بهذه البلالة(١٩) وصبراً على كيد الزمان وكده ، فعسى الله أن يأتى بالفتح

---

(١) أى لا تنظر الى واحد منا والمراد لا تعدل عن الحق (٢) أى أتقن ما بناه والانشاد من أشاد البناء اذا طلاه بالشيد وهو الجص . (٣) ويروى بالعين المهملة من شغف الحب فؤاده أى علاه وشمله — وبالعين المعجمة أى فتن وبلغ حبها شغافه ، وهو غلاف القلب . (٤) انقطاع وفناء (٥) أى جماعة الكرم ، والجيل أهل زمان واحد (٦) بكسر الهمزة — أى لا أظن (٧) زوجك (٨) الخالص (٩) كناية عن الهزال يقال عظم معروق اذ أخذ ماعليه من اللحم (١٠) الاعنات : الحمل على المشقة الشديدة والمعذر البالغ فى العذر أو هو الذى يأتى بمايعذر به ويطلق على المحقق العذر ، وعلى الذى بان عذره والملأمة اللؤم . (١١) العاجز عن قضاء الدين . (١٢) ايلام (١٣) بيتك وسترك (١٤) أبو عذر المرأة أول زوج لها . (١٥) أى كفى وازجرى نفسك عن الحدة (١٦) هى ما يتناوله الانسان بأطراف أصابعه (١٧) تشاغلا وتلاهيا (١٨) ما يتعلل به وأصلها بقية اللبن (١٩) قدر ما يبل به الشىء واسم البقية أيضا

أَو أَمْرٍ من عنده ، فنهضا وللشيخ فرحة المطلق من الإِسار(١). وهِزَّة الموسر بعد الإِعسار .

قال الراوى : وكنت عرفت أَنه أَبو زيد ، ساعة بزَغَتْ شمْسُه ، ونزعت(٢) عرسُه وكدتُ أُفصح عن افتنانه(٣) ، وأَثمار أَفنانه(٤) ثم أَشفقت(٥) من عُثور(٦) القاضى على بُهتانه(٧) ، وتزويق(٨) لسانه ، فلا يرى عند عرفانه(٩) أَن يُرشحه(١٠) لإِحسانه ،فأَحْجَمْت(١١) عن القول إِحجامَ المرتاب(١٢) ، وطويت ذكره كطىّ السِّجل للكتاب(١٣) ، إِلا أَنى قلت بعد ما فَصَل(١٤) ووصل إِلى ما وصل ، لو أَن لنا مَنْ يَنْطلق فى أَثره لأَتانا بفَصِّ خبره(١٥) ، وما يُنشر من حَبَرِه(١٦) ، فأَتبعه(١٧) القاضى أَحد أُمَنَائه ، وأَمره بالتَّجَسُّس(١٨) عن أَنبائه(١٩) ، فما لَبثَ أَن رجع مُتدهْدهاً(٢٠) ، وَقَهْقَر مُقَهقهاً(٢١) ، فقال له

---

(١) القيد الذى يشد به الأسير (٢) خبثت والنزع الذكر بالقبيح والافساد بين الناس ومعناه خاصمته عرسه (٣) يقال افتن الرجل فى حديثه اذا جاء بالافانين وهى الأساليب والمرادهنا تصرفه فى الفنون والمعارف (٤) جمع فنن بالتحريك وهو طرف الغصن (٥) خفت (٦) اطلاع . (٧) كذبه (٨) التزويق التحسين ، والتزويق مأخوذ من الزاووق ، وهو الزئبق (٩) معرفته (١٠) الترشيح والتربية ، والتأهيل من ترشيح الظبية ولدها ، لأنها اذا بلغ ولدها السعى سعت به حتى عرق فتقوى ، ويأتى بمعنى التقوية أيضا (١١) تأخرت (١٢) الشاك (١٣) السجل : الصحيفة فيها الكتابة ـ أى كما تطوى الصحيفة الكتابة (١٤) ذهب . (١٥) بحقيقة حاله (١٦) الحبر أردية يمانية موشاة جمع حبرة وهى : ما تلبسه المرأة المصرية ، والمراد ما يذكره من الكلام المسجع الشبيه بالحبر فى الحسن . (١٧) أى أرسل وراءه من يتبعه (١٨) أى بالبحث سرا بحيث لا يشعر (١٩) أخباره (٢٠) التدهده : الاسراع من دهدهت الحجر اذا دحرجته وتبدل الهاء الأخيرة ياء فيقال تدهدى تدهديا . (٢١) القهقرى المشى الى الوراء ، والقهقهة الضحك بصوت مرتفع .

القاضى : مَهيمَ(١) يا أبا مريم(٢) ؟ فقال له : لقدعاينت عجباً ،وسمعت ما أنشأ لى طَرَباً . فقال له : ماذا رأيت ؟ وما الذى وعيْتَ ؟ قال : لم يزل الشيخ مُذ خرج يُصفِّق بيديه ، ويخالف بين رجليه(٣) ، ويُغَرِّد بملءِ شدقيه . ويقول :

كدْتُ أُصْلَى(٤) ببليّه من وقاح(٥) شَمّريه(٦)

وأزورُ السِّجن لولا حاكم الإسكندريه

فَضَحك القاضى حتى هوت(٧) لدنيَّته(٨) . ودوت(٩) سكينته(١٠) . فلما فاء(١١) إلى الوقار . وَعَقَّبَ الاستغفار بالاستغفار ، قال : اللهم بحُرْمَة عبادك المقربين حَرِّم حبسى على المتأدبين ، ثم قال لذلك الأمين : على به(١٢) . فانطلق مُجِدًّا فى مطلبه ، ثم عاد بعد لأْيه(١٣) مخبراً بنأْيه(١٤) ، فقال له القاضى : أما إنه لو حضر لكُفِىَ الحذر(١٥) ، ثم لأَوليتُهُ ما هو به أولى ، ولأَريته الآخرة خير له من الأُولى . قال الحارث بن همام : فلما رأَيت صَفْوَ(١٦) القاضى إليه ، وفوت ثمرة التنبيه عليه غَشِيتنى(١٧) ندامة الفرزدق(١٨) حين أَبانَ

---

(١) أى ما الخبر ، وهى كلمة لأهل اليمن معناها : ما خبرك وما شأنك
(٢) يقال لعون القاضى أبو مريم (٣) أى يرقص (٤) احترق (٥) الوقاح : قليلة الحياء بينة القحة والوقاحة ، وحافر وقاح : صلب (٦) الشمرى : الماضى فى الأمور الجاد فيما يحاول (٧) وقعت (٨) بتشديد النون والياء جميعا : قلنسوة طويلة يلبسها القضاة كأنها منسوبة الى لدن (٩) ذبلت وفترت (١٠) وقاره (١١) رجع (١٢) أى ائت به واحضره (١٣) اللأى كالسعى : الابطاء والاحتباس (١٤) أى يبعده (١٥) ما يحتار منه ويخاف (١٦) ميله (١٧) أتتنى وحضرتنى (١٨) هو همام بن غالب التميمى الشاعر

النَّوار(١) والكُسَعِىِّ(٢) لما استبان النهار .

المقامة البشرية لبديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ

حدثنا عيسى بن هشام ، قال : كان بشر بن عوانة العبدى صعلوكا ، فأغار على ركب فيهم امرأة جميلة فتزوج بها ، وقال : ما رأيت كاليوم ، فقالت :

أَعْجَب بِشْرًا حَوَر فى عينى وساعد أَبيض كاللُّجين

ودونه مَسْرُجُ طُرف العين خَمْصانة ترفل فى حجْلينِ

أَحسن من يمشى على رجلينِ لو ضَمَّ بِشر بينها وبَينى

لأَسفَر الصبُّح لذى عينين

قال بشر : ويْحَك من عنيت ؟ فقالت : بنت عمك فاطمة ، فقال : أهى من الحسن بحيث وصفت ؟ فقالت : وأزيد وأكثر ، فأنشأ يقول :

---

(١) النوار — على وزن سحاب — اسم زوجة الفرزدق . وكان قد طلقها ثم ندم على ذلك ، ومن شعره فى ذلك قوله :

ندمت ندامة الكسعى لما غدت منى مطلقة نوار
وكانت جنتى فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرار
ولو أنى ملكت يدى وأمرى لكن على القدر الخيار

(٢) الكسعى هو عامر بن الحارث نسبة الى كسع ، بضم الكاف وفتح السين ، حى من بنى ثعلبة ، كان راعيا وعمل قوسا بعد طول تعب ثم رمى عنها ليلا فنفذت فى الرمية ووقع السهم فى حجر فقدح منه الشرر فظن أن السهم أخطأ الرمية ، فرمى ثانيا وثالثا الى آخر الأسهم وكانت خمسا ، وهو يظن خطأها فعمد الى قوسه فكسرها ، ثم بات فلما أصبح تبين أن أسهمه كلها أصابت فندم ندما شديدا فضربت العرب المثل به فى الندامة .

وَيْحكِ يا ذات الثنَايَا البِيض ما خلتُنى منك بمُسْتعيض
فالآن إذ لوحت بالتعريض خلَوْت جوًّا فاصفِرى وبيضى
لا ضُمّ جفْناى على تغميض مالم أَشلْ عرضى من الحضيض

فقالت :

كم خاطبٍ فى أمرها أَلحّا وهى إليك ابنة عمّ لحّا

ثم أَرسل إلى عمه يخطب ابنته ، ومنعه العمّ أُمنيَّته ، فآلى أَلا يرعى على أَحد منهم إن لم يُزوِّجه ابنته ، ثم كَثُرَت مضراته فيهم واتصلت معراته إليهم ، فاجتمع رجال الحى إلى عمه ، وقالوا : كُف عنَّا مجنونك ، فقال : لا تُلبسُونى عارًا وأَمهلونى حتى أَهلكه ببعض الحيل ، فقالوا : أَنت وذاك . ثم أَرسل إليه عمه : إنى آليتُ أَن لا أُزوّج ابنتى هذه إلا ممن يَسُوق إليها أَلف ناقة مَهْراً ، ولا أَرضاها إلا من نُوق خزاعة .

وكان غرض العم أَن يَسْلك بِشْر الطريق بينه وبين خزاعة فيفترسُهُ الأَسد ، لأَن العرب قد كانت تحامت عن ذلك الطريق ، وكان فيه أَسدٌ يُسَمَّى « داذًا » وحيةٌ تُدْعى « شجاعا » يقول فيهما قائلهم :

أَفتك من « داذ » ومن « شُجَاع » إن يَكُ داذ سَيِّد السِّبَاع
فإنها سيِّدةُ الأَفاعى

ثم إن بِشْرًا سلك ذلك الطريق ، فما نصفه حتى لقى الأَسد ، وقمص مُهْرُه فنزل وَعَقَرَهُ ، ثم اخترط سيفه إلى الأَسد واعترضه وقطعه ، ثم كتب بدم الأَسد على قميصه إلى ابنة عمه :

أَفاطمُ لو شهدت ببطن خَبْت وقد لاقى الهزبْرُ أَخاك بِشْرا
إذًا لرأَيْتِ ليْثاً أَمَّ ليثاً هزَبراً أَغلباً لاقى هزبرا
تبهنَسَ حين أَحْجمَ عنه مُهْرى محاذرةً ، فقلت : عقُرْت مُهْرا

أَنِلْ قَدَمَىّ ظهر الأَرض إنى ... رأَيتُ الأَرض أثبت منك ظَهْرا
وقلْتُ له وقد أَبْدَى نِصَالاً ... مُحَدَدة ووَجْهاً مكفهرا
يُكَفْكِفُ غِيلةً إحدى يديه ... ويَبسُط للوثوب علىّ أُخْرى
يُدِلُّ بمِخْلب وبحدّ ناب ... وباللحظات تحسبهُنَّ جَمْرا
وفى يُمْنَاى ماضى الحد أبغى ... بمضربه قراع الموت أثرا
أَلم يَبْلغْك ما فعلت ظبَاه ... بكاظمة غداة لَقيتُ عَمْرا
وقلبى مثلُ قلبك ليس يخشى ... مُصاوَلَةً ، فكيف يخاف ذُعرا
وأَنت تروُمُ للأَشبال قوتاً ... وأَطلُبُ لابنة الأَعمام مهرا
ففيم تَسُوم مثلى أن يولى ... ويجعل فى يديك النَّفس قسْرا
نصحتك فالتمِسْ ياليث غيرى ... طعاماً إن لحمى كان مُرًّا
فلما ظن أَن الغش نُصْحى ... وخالفنى كأَنى قلت هُجرا
مَشَى ومشيت من أَسدين راما ... مَرَاماً كان إذ طلباه وَعْرا
هَزَزْتُ له الحسام فخلْتُ أَنى ... سللت به لدى الظلماء فجرا
وجُدْت له بجائشة أَرته ... بأَن كذَبَتْه ما مَنَّته عذرا
وأَطلقت الْمُهنَّد من يمينى ... فَقَدَّ له من الأَضلاع عشرا
فَخر مجنْدَلا بدَمٍ كأَنِّى ... هدمتُ به بناءً مُشْمَخِرا
وقلت له : يَعِزُّ علَى أَنِّى ... قتلت مُنَاسِبى جَلَدًا وفخْرا
ولكن رُمت شيئًا لم يرُمْه ... سواك فلم أطق يا ليث صبرا
تُحَاوِل أَن تعَلِّمنى فرارًا ... لعمر أَبيك قد حَاولْت نكْرا
فلا تجزع فقد لا قيت حُرًّا ... يحاذر أَن يُعاب فمُتَّ حُرًّا

فلما بلغت الأَبيات عمه ندم ، على ما منعه تزويجها ، وخشى أَن تغتاله الحية ، فقام فى أَثره وبلغه ، وقد ملكته سورة الحية .

فلما رأى عمه أخذته حمية الجاهلية ، فجعل يده فى فم الحية وحكّم سيفه فيها وقال :

بِشْرٌ إلى المجد بعيد همّه   لمّا رآه بالعراء عمّه
قد ثكلتْهُ نفسه وأمه   جاشت به جائشةٌ تهمه
قام إلى ابنٍ للفَلا يؤمه   فغاب فيه يده وكُمُّه
ونفسه نفسى وسمِّى سمه

فلما قتل الحية قال عمه : إنى عرضتك طمعاً فى أمر قد ثنى الله عنانى عنه ، فارجع لأُزوجك ابنتى .

فلما رجع جعل بشر يملأُ فمه فخرًا حتى طلع أَمرد كشقِّ القمر على فرسه مدججاً فى سلاحه . فقال بشْر : إنى أسمع حس صيد وخرج ، فإذا بغلام على قيد فقال : ثكلتك أُمك يابشر أن قتلت دودة وبهيمة تملأُ ماضغيك فخرًا ، أَنت فى أمان إن سلمت عمك ، فقال بشْر : مَنْ أنت ؟ لا أُمّ لك . قال : اليوم الأَسود والموت الأَحمر . فقال بشْرٌ : ثكلتك من سلحتك . فقال : يا بشْرٌ ومن سلحتك . وكرَّ كل واحد منهما على صاحبه ، فلم يتمكن بشْر منه ، وأَمكن الغلام عشرين طعنة فى كُلْية بشر ، كلما مسه شبا السِّنان حماه عن بدنه إبقاءً عليه ، ثم قال : يا بشر كيف ترى ، أَليس لو أَردت لأَطعمتك أَنياب الرمح ! ثم أَلقى رمحه ، واستل سيفه فضرب بشرًا عشرين ضربة بعرض السيف ، ولم يتمكن بشر من واحدة . ثم قال : يا بشر سلم عمك واذهب فى أَمانٍ . قال : نعم . ولكن على شريطة أَن تقول لى من أَنت . فقال : أَنا ابن المرأَة التى دلَّتك على ابنة عمك فقال بشر :

تلك العصَا مَن هذه العُصية   وهل تلد الحيَّةُ إلا الحيَّة

وحلف لا ركب حصاناً ، ولا تزوج حصاناً ، ثم زوج ابنة عمه لابنه .

الفن السادس : فى الروايات

الرواية عبارة عن ذكر قولٍ أَو فعل حدثا ، أَو أَمكن حدوثهما .

وخواصها أَربعة : الإِيضاح ، والإِيجاز ، والإِمكان ، والتلطُّف .

فالإِيضاح : يكون بتقديم فرش للحديث ، وتوطئةٍ للخبر ، يُقَرِّب مأْخذَ الرواية ، وبمُرَاعاة الترتيب الطبيعى فى إِيراد ظُرُوف الخبر مالم يكن لِلرَّاوِى غرضٌ لتجاوز هذا النظام ، وبالعُدُول عن كثرة الاستطرادات فى إِنشاءِ الحديث لأَن ذلك يصرفُ العقلَ عن الرواية ويذهب برَوْنقها .

والإِيجاز : حذفُ فضول حَشْو الكلام مع انتقاءِ أَخصِّ الظروف وأَنسبها للغاية ، ولا بأْسَ بالإِطناب إِذا ما دعَا إِليه مُقتضى الحال .

والإِمكان : ترشيح الرواية للقبول فى ذهن السامع .

والتلطُّف فى الرواية : أَن يَبلغ الكاتبُ كُنْهَ القلوب ، ويأْخذَ بمجامع اللُّبِّ بأَن ينتقل فيها من حال إِلى حال لأَن النفس قد جُبلتْ على محبة التحوُّل ، وَطُبعت على إِيثار التنقل .

وللرواية ثلاثة أَجزاء : صدرُها ، وعِقدتها ، وختامُها . فالصدر : التوطئة للواقع بحيث يقف السامع على أَسماءِ الأَشخاص وطباعِهم ، وعلى مكان الواقع وسوابق العمل .

والعقدةُ : هى الجزء الذى على مِحْوَره تدور الرواية ، وهو المجال الأَوسع الذى تتقابلُ فيه الأَشخاص وتشتبك الأَحوال وتضطرم فى النفس لواعجُ الشوق للوقوف على عاقبة الأَمر ، فتنتقل من الرجاءِ إِلى الخوف ، ومن الفرح إِلى الحزن .

والختام : الجزء الأَخير من الرواية الذى به تُفُكّ الإِرْبة وتُحل رِباق الحديث فتنال النفوس بذلك مَرَامَها وتفوزُ بوطَرِها ، وسِمَتُه أَن يكون فُجَائياً مُرْتبطاً مع ما قبله ارتباطاً محكماً وافياً بالمراد بحيث تَرضَى به النفوس ، وترتاح إِليه القلوب ، وشواهد الرواية كثيرة لانُطيل بذكرها ، أَفْرَدها الأُدباءُ بالتآليف العديدة ، ولنذكر هنا بعض مُلح لا يستغنى عنها المقام .

ليلى الأَخيلية مع الحجاج

روَى بعضهم : أَنه بينما كان الحجَّاج فى مجلس ، ومعه عَنْبسة بن سعيد ، إذ دخل الحاجب فقال : امرأَةٌ بالباب ، فقال له الحجاج : أَدخِلها ؛ فدخلت فلما رآها الحجاج طأْطأَ رأْسه حتى ظننت أَن ذقنَه قد أَصاب الأَرض ، فجاءَت حتى قعدتْ بين يديه فنظرتُ فإِذا امرأَة قد أَسنَّت ، حسنة الْخَلق ، ومعها جاريتان لها وإذاهى ليلى الأَخيليَّة ، فسأَلها الحجاج عن نسبها ، فانتسبت له ، فقال لها : ياليلى ما أَتى بك ؟ فقالت : إخلافُ النجوم وقلة الغيوم ؛ وكلب البرد ، وشدَّة الجهد ، وكنت لنا بعد الله الرِّفد ، فقال لها ، صفى لنا الفجَاجُ ، فقالت : الفجاج مُغبرة ، والأَرض مقشعِرَّة ، وَالمبْرَكُ معتل ، وذى العيال مختلّ ، والهالك للقل والناس مسنتون ، رحمةَ الله يرجون ، وأَصابتنا سنُون مجحفة مُبلطة ، لم تدع لنا هُبَعاً ولا ربعاً ، ولا عافطة ولا نافطة ، أَذهبت الأَموال ، ومزَّقت الرجال وأَهلكت العيال ، ثم قالت : إنى قلت فى الأَمير قولاً ، قال : هات ؛ فأَنشأَت تقول :

أَحجَّاج لا يفللْ سلاحُك إنما المنايا بكف الله حيث يراها

أَحجَّاج لا تعط العُصَاة مناهم ولا الله يُعْطى للعُصَاة مُناها

إذا هبط الحجَّاج أَرضاً مريضة تتَبَّع أَقصى دائها فشفاها

شفاها من الدَّاءِ العُضال الذى بها غلامٌ إذا هزَّ القناةَ سقاها

سقاها فَرَوَّاها بشرْب سجاله دماء رجَالٍ حيث مال حشاها

إذا سمع الحجَّاج رِز كتيبَةٍ أَعدَّ لها قبل النزول قِرَاها

أَعدَّ لها مَصْقولةً فارسيةً بأَيدى رجال يحلبون صراها

فما ولد الأَبكار والعون مثله ببَحر ولا أَرضٍ يَجف ثراها

قال : فلما قالت هذا البيت ، قال الحجاج : قاتلها الله ، ما أَصاب صِفتِى شاعرٌ منذ دخلت العراق غيرها ، ثم التفت إلى عَنْبسة بن سعيد فقال : والله إنى لأَعد للأَمر عسى أَن لا يكون أَبدًا ، ثم التفت إليها فقال : حَسْبُك ، قالت : إنى

قد قلت أكثر من هذا . قال : حسبُك ، وَيْحَكَ حسبُك ، ثم قال : ياغلام اذهب بها إلى فلان ، فقل له اقطع لسانها ، فذهب بها فقال له : يقول لك الأمير اقطع لسانها . قال : فأَمرَ بإِحضار الحجّام ، فالتفتت إليه فقالت : ثَكَلَتْكَ أُمك أما سمعت ماقال ؟ إنما أمركَ أَن تقطع لسانى بالصلة ، فبعث إليه يستثبتُهُ ، فاستشاط الحجاج غضباً ، وَهَمَّ بقطع لسانه ، وقال : ارْدُدها ، فلما دخلت عليه قالت : كاد (وأمانة الله) يَقطع مِقولى ، ثم أنشأَت تقول :

حجاج أَنت الذى ما فوقه أَحدٌ إلا الخليفةُ والمستغفر الصمد
حجاج أَنت شهاب الحرب إن لقحت وأَنت للناس نور فى الدجى يَقدُ

ثم أَقبل الحجاج على جُلسائه فقال : أَتدرون من هذه ؟ قالوا : لا والله أَيها الأَمير ، إنا لم نرَ قطُّ أَفصحَ لساناً ، ولا أَحسن مُحَاورة ، ولا أَملحَ وجهاً ، ولا أَرصنَ شعراً منها . فقال : هذه ليلى الأَخيلية التى مات توبة الخفاجى من حُبها ، ثم التفتَ إليها فقال : أَنشدينا يا ليلى بعض ما قال فيك توبة ، قالت : نعم أَيها الأَمير هو الذى يقول :

وهل لَيْلَى تبكِينِى إذا مِت قبلها وقام على قبرى النساءُ النوائح
كما لو أَصاب الموتُ ليلى بكيتُها وجاد لها دمعٌ من العين سافحُ
وَأُغْبَطُ من ليلى بما لا أَناله بلَى كل ماقرّت به العينُ طائحُ
ولو أَن ليلى الأَخيلية سلَّمت عَلَىَّ ودونى جَنْدَلٌ وصفائحُ
لسلَّمتُ تسليم البشاشة أَو زَقا إليها صدًى من جانب القبر صائحُ

ثم قال : سلى يا ليلى تُعطى ، قالت : أَعطِ فمثلُك أعطى فأَحسن ، قال : لك عشرون ، قالت : زِدْ ، فمثلك زاد فأَجمل ، قال : لك أَربعون ، قالت : زِدْ فمثلُك زاد فأَكمل ، قال : لكِ ثمانون ، قالت : زِد فمثلُك زاد فتمم ، قال : مائة واعلمى أَنها غنم ، قالت : معاذ الله أَيها الأَمير ، أَنتَ أَجْوَدُ جودًا ، وأَمجد مجدًا ، وأَورى زندًا من أَن تجعلها غنمًا ، قال : فما هى ويحك يا ليلى ؟ قالت :

مائة من الابل برُعاتها ، فأَمر لها بها ، ثم قال : أَلك حاجة بعدها ؟ قالت : يدفع إِلىّ النابغة الجعدى . قال : قد فعلت . وقد كانت تهجوه ويهجوها . فبلغ النابغة ذلك فخرج هارباً عائذًا بعبد الملك ، فأَتبعتْهُ إِلى الشام فهرب إِلى قتيبة بن مُسلم بخراسان فأَتبعتْهُ على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة بقومَس ويقال بحلوان .

بنات الشاعر المقتول

كان لشاعر عدوٌّ فبينما هو سائر ذات يوم فى بعض الطرق إذا هوبعَدُوّه ؛ فعلم الشاعر أَن عَدُوّه قاتله لا محالة ؛ فقال له : ياهذا ، أَنا أَعلم أَن المنيَّة قد حضرت ولكن سأَلتك الله إذا أَنت قتلتنى أَن امْضِ إِلى دارى ، وقِفْ بالباب وقل : « أَلا أَيها البنتان إن أَباكما » فقال : سمعاً وطاعة . ثم إنه قتله . فلما فرغ من قتله أَتى إِلى داره ، ووقف بالباب وقال : « أَلا أَيها البنتان إِن أَباكما » فأَجابتاه بفمٍ واحد : « قتيلٌ خُذَا بالثأْر ممن أَتاكما » ثم تعلقتا بالرجل . ورفعتاه إِلى الحاكم فاستقْرَرَه فأَقرَّ بقتله فقتله .

المرأَة المتكلمة بالقرآن الكريم

قال عبد الله بن المبارك : خرجت حاجًّا إِلى بيت الله الحرام وزيارة قَبر نبيّه عليه الصلاة والسلام . فبينما أَنا فى بعض الطريق إذ أَنا بسوادٍ ؛ فتميزت ذاك فإِذا هى عجوزٌ عليها دِرْعٌ من صُوف وخِمَارٌ من صوف . فقلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته . فقالت : « سلام قولاً من رب رحيم » فقلت لها : يرحمك الله ما تصنعينَ فى هذا المكان ؟ قالت : « ومن يُضلل الله فلا هَادِى لَهُ » فعلمتُ أَنها ضالة عن الطريق فقلت لها : أَين تُريدين ؟ قالت : « سُبحان الذى أَسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأَقصى » فعلمت أَنها قد قضت حَجَّتها وهى تريد بيت المقدس . فقلت لها : أَنتِ مُنذ كم فى هذا الموضع ؟ قالت : « ثلاث ليال سَويًّا » فقلت : ما أَرى معك طعاماً تأْكلين . قالت :

« هو يُطعمُنى ويسقين » فقلت : فبأَىّ شىءٍ تتوضئين ؟ قالت : « فإن لم تجدوا ماءً فتيمَّمُوا صعيدًا طيِّباً » فقلت لها : إن معى طعاماً فهل لك فى الأَكل ؟ قالت : « ثم أَتمُّوا الصِّيَام إلى الليل » فقلت : ليس هذا شهر رمضان . قالت : « ومَنْ تَطَوَّعَ خيرًا فإن الله شاكرٌ عليم » فقلت : قد أُبيح لنا الإفطار فى السَّفر . قالت : « وأَن تصوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون » فقلت : لِمَ لا تكلمينى مثل ما أُكلمك ؟ قالت : « ما يلفظُ من قول إلا لديه رقيبٌ عتيد » فقلت : فمن أَى الناس أَنت ؟ قالت : « ولا تَقْفُ ما ليس لك به علْمٌ إن السَّمع والبصر والفواد كل أُولئك كان عنه مسئولا » فقلت : قد أَخطأْت فاجعلينى فى حلّ . قالت : « لا تثْرِيبَ عليكم اليوم يغفر الله لكم » فقلت : فهل لك أَن أَحملك على ناقتى هذه فتدرِكى القافلة ؟ فقالت : « وما تفعلوا من خير يَعْلمه الله » قال : فأَنَخْت ناقتى قالت : « قل للمؤمنين يَغُضُّوا من أَبصارهم » فغضضت بصرى عنها ، وقلت : اَركبى . فلما أَرادت أَن تركب نفرَت الناقة ، فمزقت ثيابها فقالت : « وما أَصابكم من مصيبة فَبما كَسَبت أَيديكم » فقلت لها : اصبرى حتى أَعقلها ، قالت « ففهَّمْنَاها سليمان » فعقلت الناقة وقلت لها : أَركبى فلما ركبت قالت : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كُنَّا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون » قال : فأَخذت بزمام الناقة وجعلت أَسرع وأَصيح ، فقالت : « واقصدْ فى مَشيك واغضض من صوتك » فجعلت أَمشى رويدًا رويدًا وأَترَنم بالشِّعْر ، فقالت : « فاقرءُوا ما تيسر من القرآن » فقلت لها : لقد أُوتيت خيرًا كثيرًا قالت : « وما يذَّكَّر إلا أُولُو الأَلباب » فلما مشيتُ بها قليلاً قلت : أَلَكِ زَوجٌ ؟ قالت « يَا أَيها الذين آمنوا لا تسأَلوا عن أَشياء إن تُبْدَ لكم تَسُؤْكُم » فسكَتُّ ولم أُكلمها حتى أَدركت بها القافلة ، فقلت لها : هذه القافلة فمن لك فيها ؟ فقالت : « المال والبنونَ زينةُ الحياة الدنيا » فعلمتُ أَن لها أَولادًا ، فقلتُ : وما شأْنهم فى الحجِّ ؟ قالت : « وعلاماتٍ وبالنَّجْم هم يهتدون » فعلمت أَنهم أَدلّاءُ الركب فقصدت بها القِبَاب والعمارات فقلت : هذه القباب فمن لَك فيها ؟ قالتْ :

«وَاتَّخَذَ اللهُ إبراهيم خليلا» «وَكلَّمَ اللهُ موسى تكليما» «يا يَحيى خُذِ الكتاب بقُوَّةٍ» فناديت يا إبراهيم ياموسى يا يحيى فإذا أَنا بشُبَّان كأَنهم الأَقمار قد أَقبلوا، فلما استقرَّ بهم الجلوس، قالت: «فابعثوا أَحدكم بوَرِقكُم هذه إلى المدينة فلينظُرْ أَيها أَزكى طعاماً فليأْتِكُم برزق منه» فمضى أَحدهم فاشترى طعاماً فقدموه بين يدىّ، وقالت: «كلُوا واشربوا هنيئاً بما أَسلفتم فى الأَيام الخالية» فقلت: الآن طعامكم علىّ حرام حتى تخبرونى بأَمرها. فقالوا: هذه أُمنا منذ أَربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن، مخافة أَن تَزِلَّ فيسخط عليها الرحمن، فسبحان القادر على ما يشاءُ، فقلت: «ذلك فضل الله يُؤْتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم».

مروان بن الحكم، وعبد الله بن الزبير

روَى عُقيل بن خالد عن ابن شهاب أَنَّ مروان بن الحكَم وعبد الله بن الزُّبير اجتمعا ذات يوم فى حُجرة عائشة (والحجابُ بينهما وبينها) يُحدثانها ويسأَلانها، فجرى الحديث بين مروان وابن الزبير ساعة، وعائشة تسمعُ.

فقال مروان:

فمن يَشَا الرحمن يَخْفِضْ بقدرِهِ وليس لمن لم يرفع الله رافعُ

فقال ابن الزبير:

ففَوِّضْ إلى الله الأُمُور إذا اعْترت وبالله، لا بالأَقربينَ، أُدافعُ

فقال مروان:

ودَاوِ ضميرَ القلب بالبرِّ والتُّقى فلا يستوى قلبان قَاسٍ وخاشعُ

فقال ابن الزبير:

ولا يَسْتَوِى عبدان هذا مُكَذِّب عُتُلٌّ لأَرحام العَشيرة قاطعُ

فقال مروان:

وعبدٌ يُجَافى جَنْبهُ عن فراشه يبيتُ يُنَاجى ربَّه وهو راكعُ

فقال ابن الزُّبير :

وللخير أَهْلٌ يُعْرَفون بهديهم إذا اجْتَمَعَتْ عندالْخُطوب المجامعُ

فقال مروان :

وللشَّرِّ أَهْلٌ يُعْرَفون بشكلهم تُشِيرُ إليهم بالفُجور الأَصابعُ

فسكت ابن الزُّبير ولم يُجب ، فقالت عائشة : يا عبد الله مالك لم تُجِبْ صاحبك ؟ فوالله ما سمعتُ تجاولاً فى نحو ما تجَاوَلْتُمَا فيه أَعجب إلى من تجَاوُلكما ، فقال ابن الزُّبير : إنى خِفْتُ عَوَار القول فكففتُ .

عُبَيدُ بن الأَبرص ، وامْرُؤ القيس

قيل : إنَّ عُبيد بن الأَبرص لقِى امرأ القيس يوماً فقال له : كيف معرفتك بالأَوابد ؟ قال : ما أَحببتُ ، فقال :

ما حبَّةٌ قامتْ بميتتها دَرْدَاء ما أَنبَتت نَاباً وأَضراساً

فقال امرؤ القيس :

تلك الشعيرة تُسْقى فى سَنَابلها

قد أَخرجت بعد طُولِ المكث أَكداساً

فقال عُبيد :

ما السُّودُ والبيضُ والأَسماءُ واحدةٌ لا تستطيعُ لهنَّ النَّاسُ تمساسَا

فقال امرؤ القيس :

تلك السَّحاب إذا الرَّحمٰنُ أَنشأَها رَوَّى بهنَّ مُحول الأَرض أَيباسَا

فقال عُبيد :

ما مُرْتجَاتٌ على هَوْلٍ مَرَاكبها يقْطَعْنَ بعد المدى سيرًا وأَمراسَا

فقال امرؤ القيس :

تلك النُّجومُ إذا حانت مطالعها شَبَّهتها فى سواد الليل أَقباسَا

فقال عُبيد :

ما القاطعاتُ لأَرضٍ لا أَنيسَ بها ... تأْتى سِرَاعاً وما يرجِعْن أَنكاسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الرِّياحُ إذا هَبَّت عواصِفُهَا ... كفى بأَذيالها للترب كُنَّاسَا

فقال عُبيد :

ما الفاجعاتُ جهاراً فى علانيَةٍ ... أَشدّ من فَيلق ملحُومة باسَا

فقال امرؤ القيس :

تلك المنايا فما يبقينَ من أَحَدٍ ... يأْخذن حَمْقى وما يُبقين أَكياسَا

فقال عُبيد :

ما السَّابقات سِرَاعُ الطير فى مهل ... لا يشتكين ولو طال المدى باسَا

فقال امرؤ القيس :

تلك الجياد عليها القوم مُذْ نتجت ... كانوا لهنَّ غداة الرَّوْع أَحلاسَا

فقال عُبيد :

ما القاطعات لأَرض الجوّ فى طلق ... قبل الصباح وما يسوين قرطاسَا

فقال امرؤ القيس :

تلك الأَمانىّ يتركن الفَتَى ملكاً ... دون السماءِ ولم تُرْفَع له راسَا

فقال عُبيد :

ما الحاكمون بلا سمعٍ ولا بصرٍ ... ولا لسانٍ فصيحٍ يُعجبُ النَّاسَا

فقال امرؤ القيس :

تلك الموازين والرحمن أَرسلها ... ربّ البرية بين الناس مقياسَا

أَبو تراب ، والشَّريف العَبَّاسى

اجتمعَ يوماً أَبو تراب هبةُ الله بن السريجى ، والشريف العباسى ، وكانا شاعرين

فقال أَبو تراب :

أَسلوت حبّ بُدُورَ أَم تتجلَّد وسهرت ليلك أَم جُفونكَ ترقد

فأَجاب الشريف بديهاً :

لا بل هُمُ أَلِفوا القَطِيعَةَ مثل ما أَلِفُوا نزُولهم بها فَتبَعَّدوا

فقال أَبو تراب :

فإِلَامَ تصبرُ والفُؤادُ مُتَيَّمٌ ولظى اشتياقِكَ فى الْحَشَى يتوقد

فأَجاب الشريف :

ما دام لى جلد فلستُ بجازعٍ إِذ كان صبرى فى العواقب يُحمد

فقال أَبو تراب :

أَحسنت ! كتمان الهوى مُسْتحسَنٌ لو كان ماءُ العين مما يجمد

فأَجاب الشريف :

إِنْ كان جَفنى فاضحى بدموعه أَظهرت للجُلساءِ أَنى أَرمَد

فقال أَبو تراب :

فهبِ الدموعَ إِذا جرت مَوَّهتها فيقال لِمَ أَنفاسُهُ تتصعد

فأَجاب الشريف :

أَمْشِى وأُسرعُ كى يظنُّوا أَنها من ذلك المشْىَ السَّريع تولد

فقال أَبو تراب :

هذا يجوزُ ومثلهُ مُسْتعملٌ لكنَّ وجهك بالمحبة يشهد

فأَجاب الشريف :

إِن كان وجهى شاهدا بهوًى فما يدرى إِلى مَنْ بالمحبَّة أَقْصِد

فقال أَبو تراب :

إِخضعْ وذلّ لمن تحبّ فليس فى حُكْمِ الهوى أَنفٌ يشالُ ويعقد

فأجاب الشريف :

ذا لا يكُونُ مع الحبيب وإنما مع ساقط مُتَحيِّل يتعمّدُ

المأمونُ والمرأة المُتَظَلِّمةُ

جلس المأمونُ يوماً للمظالم فكان آخرُ من تقدم إليه ، وقد هَمَّ بالقيام امرأةً عليها هيئة السفر ، وعليها ثيابٌ رثَّةٌ فوقفتْ بين يديه فقالت : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » فنظر المأمون إلى يحيي(١) بن أَكْثَمَ ، فقال لها يحيي : وعليك السلام يا أمة الله ، تكلَّمى فى حاجتك ، فقالت :

ياخيْرَ مُنْتَصِفٍ يُهْدَى له الرّشد ويا إمَاماً به قد أَشْرَقَ البلَدُ
تشكُو إليك عَميدَ القوم أَرْمَلَةٌ عدا عليها فلم يترك لها سَبد(٢)
وابْتَزَّ مِنّى ضياعى حتى مُنِعْتُها ظُلْماً وفَرَّق مِنّى الأَهل والولد

فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأْسَهُ إليها وهو يقول :

فى دُونِ ما قلت زال الصبر والْجَلَدُ عَنِّى وأُقرح منى القلب والكَبِدُ
هذا أَوَانُ صلاة العصر فانصرفى وأَحْضِرِى الْخَصْم فى اليوم الذى أَعِدُ
والمجلس السبت إن يُقْضَ الجلوس لنا نُنْصفك منه وإلا المجلسُ الأَحَدُ (٣)

فلما كان يومُ الأَحد جلس فكان أَولُ مَنْ تقدم إليه تلك المرأَة فقالت : « السلام عليك يا أَمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » فقال : وعليك السلام ، أَين الخصمُ ؟ فقالت : الواقف على رأْسك يا أَمير المؤمنين ، وأَومأَتْ إلى العباس ابنه فقال : يا أَحمد بن خالد خُذْ بيده فأَجلسه معها مجلس الخصوم ، فجعل كلامُها يعلو كلام العباس . فقال لها أَحمد بن خالد : يا أَمة الله إنك بين يدى أَمير المؤمنين وإنك تكلِّمين الأَمير فاخفضى من صوتك . فقال المأَمون : دعْهَا

(١) يحيى بن اكثم قاضى قضاة الدولة العباسية لعهد المأمون ومن سلالة اكثم ابن صيفى توفى سنة ٢٤٢ (٢) أصل السبد : القليل من الشعر ، ويقال ما له سبد ولا لبد أى لا قليل ولا كثير (٣) قوله : والا المجلس ، اسقط منه فاء الجواب للضرورة .

يا أَحمد ،فإن الحق أنطقها وأخرسهُ ، ثم قضى لها بردّ ضيعتها إليها ، وأَمر بالكِتاب لها إلى العامل ببلدها أَن يُوَفِّر لها ضيعتها ، ويُحسن معونتها وأَمر لها بنفقة .

عمر بن الخطاب ، والهرمزان

لما أُتِىَ بالهرمزان أَسيراً إلى عمر بن الخطاب قيل له : يا أَمير المؤمنين هذا زعيم العَجم وصاحبُ رئيسهم ، فقال له عمر : أَعرضُ عليك الإسلام نصحاً لك فى عاجِلِك وآجلك ، قال : يا أَمير المؤمنين إنما أَعتقِدُ ما أَنا عليه ، ولا أَرْغَب فى الإسلام فدعا له عمر بالسيف فلما هم بقتله ، قال يا أَمير المومنين شرْبةٌ من ماءٍ أَفضل من قتْلى على ظمأ ، فأَمر له بِشَرْبةٍ من ماء ، فلما أَخذها قال أَأَنا آمِنٌ حتى أَشربها ؟ قال : نعم ، فرمى بها وقال : الوفاءُ ياأَمير المؤمنين نور أَبلج ، قال : صَدَقت لك التَّوَقف عنْك والنظر فى أَمرك ، ارْفعُوا عنه السيف ، فلمَّا رُفع عنهُ قال : الآن يا أَمير المؤمنين أَشهد أَن لا إِلٰه إلا الله وأَن محمداً عبدُه ورسوله وما جاءَ به حقٌ من عنده ، فقال عمر : أَسلمت خير إسلام فما أَخَّرَك؟ قال : كرِهْت أَن تظن أَنى أَسلمت جزعاً من السيف ، فقال عمر : إن لأَهل فارس عقُولاً بها استحقُّوا ما كانوا فيه من الملك ، ثم أَمر به أَن يُبَرّ ويُكْرَم ، وكان بعدُ يشاوره فى توجيه الجيوش لأَهل فارس .

إبراهيم بن المَهْدِى ، وابن بختيشوع

قال العُتْبى : تنازع إبراهيم بن المهدى وابن بختيشوع الطبيب بين يدى أَحمد بن أَبى دُؤاد فى مجلس الحكم فى عقار بناحية السواد ، فأَربى(١) عليه إبراهيم وأَغلظ له (٢) فأَغضب ذلك ابن أَبى دؤاد فقال :

يا إبراهيم إذا نازعت فى مجلس الحكم امرءاً فلا أَعلمن أَنك رفعت عليه صوتاً ولا أَشرت بيد ، وليكن قصدُك أَمماً(٣) وريحك ساكنة ، وكلامك مُعتدلاً ،

(١) أربى عليه : زاد . (٢) أحفظه: أغضبه ، والحفيظة : الحمية
(٣) الأمم : البين من الامر والوسط .

ووفِّ مجالس الخليفة حُقوقها من التعظيم والتوقير والاستِكانة والتَّوجُّهِ إلى الواجب ، فإن ذلك أَشْبه بك ، وأَشكل بمذهبك فى مَحتدك(١) ، وعظيم خَطرك ولا تعجلن فرُبَّ عجلة تَهبُ ريثاً (٢) . والله يَعْصِمُك من خطل القول والعمل ، ويتم نعمته عليك كما أَتمها على أبويك من قبل إن ربك حكيم عليم .

فقال إبراهيم : أَصْلَحَكَ الله ، أمرت بسداد ، وَحَضَضت على رشاد ، ولست عائدًا لما يَثْلِم(٣) مُرُوءَتى عندك ، ويُسْقِطنى من عينيك ، ويُخْرِجنى من مقدار الواجب إلى الاعتذار ، فهأَنذا معتذر إليك من هذه البادرة اعتذار مُقِرّ بذنبه مُعترف بجرمه ، ولا يزال الغضبُ يستَفِزنى(٤) ببوادره ، فيردُّنى مثلك بحلمه ، وتلك عادة الله عندك وعندنا منك ، وقد جعلت حَقى فى هذا العقار لابن بختيشوع فليت ذلك يكون وافياً بأَرش(٥) الجناية عليه «ولم يتلف مال أفاد مَوْعظة» حَسْبُنَا الله ونعم الوكيل .

الأَحنف بن قيس ، وقيس بن عاصم

قيل لِلأَحنف بن قيس : مِمّن تعلمت الحلم ؟ قال : من قيس بن عاصم المِنْقرى رأَيتُه قاعدًا بفِناءِ داره مُحْتبياً(٦) بحمائل سيفه يُحَدِّث قومه حتى أُتِيَ برجل مكتوف ، ورجل مقتول ، فقيل له : هذا ابن أخيك قتل ابنك ، فو الله ما حَلّ حبوته ولا قطع كلامه ، ثم التفت إلى ابن أَخيه وقال له : يا ابن أَخى أَسأْت إلى رحمك ، ورميتْ نفسكَ بسهمِكَ ، وقتلت ابن عمِّك ، ثم قال لابن له آخر : قُمْ يا بُنَىَّ فحلَّ كتاف ابن عمك ووارِ أَخاك ، وسُقْ إلى أُمِّه مائة ناقة دِيةَ ابنها ، فإنها غريبة ، ثم أنشأَ يقول :

إنى امْرُؤٌ لا يطبى حسبى دَنَسٌ يُهَجِّنُه ولا أَفَنُ(٧)

---

(١) المحتد : الأصل (٢) الريث : الابطاء والمقدار (٣) ثلم الاناء : كسره من حرفه (٤) استخفه وازعجه (٥) الأرش : الدية وما يعطى تعويضا (٦) احتبى : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة أو نحوها ، والاسم من ذلك الحبوة (٧) أطباه : دعاه واستهواه . والأفن : ضعف الرأى وفعله كفرح

من مِنقَرٍ فى بيت مَكْرُمة والغُصْنُ يَنْبت حوله الغُصْن
خطباءُ حين يقول قائِلُهم بيضُ الوجوه مصاقعٌ لُسنُ(١)
لا يفْطِنون لعيب جارهم وهم لحِفظ جواره فطنُ(٢)

معن بن زائدة وجاره بين يدى المهدى

قال سعيد بن مسلم : نذر المهدى دم رجُل من أهل الكوفة ، كان يَسْعى فى فساد سُلطانه ، وجعل لمن دل عليه أو جاء به مائة ألف درهم ، فأقام الرجل حيناً مُتوارياً ثم إنه ظهر بمدينة السلام(٣) ، فكان ظاهراً كغائب خائفاً مترقباً ، فبينما هو يمشى فى بعض نواحيها إذ بصُرَ به رجل من أهل الكوفة فعرفهُ ، فأهوى إلى مجامع(٤) ثوبه ، وقال : هذا بُغْية أمير المؤمنين فأمكن الرجُل من قياده ، ونظر إلى الموت أمامه ، فبينما هو على تلك الحال ، إذ سَمِع وقع حوافر الخيل من وراء ظهره فالتفت فإذا معن بن زائدة ، فقال : يا أبا الوليد أجرنى أجارك الله فوقف وقال للرجل الذى تعلق به : وما شأنُك؟ قال : بغية أمير المؤمنين الذى نذر دمه ، وأعطى لمن دلَّ عليه مائة ألف درهم ، فقال : يا غلام انزل عن دابتك واحْمِل أخانا ، فصاح الرجل يا معشَرَ الناس يحال بينى وبين من طلبه أمير المؤمنين! قال معن : اذهب فأخبرهُ أنه عندى ، فانطلق إلى باب أمير المومنين فأخبر الحاجب فدخل إلى المهدى فأخبره فأمر بحبس الرجل ، ووجَّه إلى معْنَ من يحضر به ، فأتته رُسل أمير المومنين وقد لبس ثيابهُ وقُرِّبت إليه دابته فدعا أهل بيته ومواليه ، وقال : لا يُخلصن إلى هذا الرجل وفيكم عين تطرف(٥) ، ثم ركب ودخل حتى سلم على المهدى ، فلم يَرُد عليه وقال : يا معن أتجير علىّ ؟ قال : نعم

---

(١) رجل لسن وألسن فصيح ، ويجمع ألسن على لسن كأحمر وحمر
(٢) فطن : جمع فطن . كجون : جمع جون ، وهذا جمع نادر (٣) مدينة السلام : هى بغداد ، أو قسم منها (٤) مجامع الثوب : ما أحاط بالجيب ويقال لها تلابيب (٥) طرفت العين : تحركت

يا أمير المؤمنين، قال: ونعم أيضاً؟ واشتد غضبه، فقال معن: يا أمير المؤمنين قتلت فى طاعتكم باليمن فى يوم واحد خمسة عشر ألفاً، ولى أيام كثيرة قد تقدم فيها بلائى وحسن غنائى، فما رأيتمونى أهلاً أن تهبوا لى رجلاً واحداً استجار بى؟ فأطرق المهدى طويلا ثم رفع رأسه وقد سُرّى(١) عنه فقال: قد أجَرْنا من أجَرْتَ، قال معن: فإن رأى أمير المؤمنين أن يَصِله فيكون قد أحياه وأغناه، فعل، قال: قد أمرنا له بخمسة آلاف، قال: يا أمير المؤمنين إن صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية، وإن ذنب الرجل عظيم فأجْزِل الصِّلة، قال: قد أمرنا له بمائة ألف، قال فتعجلها يا أمير المؤمنين بأفضل الدُّعاء ثم انصرف ولحقه المالُ، فدعا الرجل وقال له: خُذْ صلتك والحق بأهلك وإيَّاك ومخالفة خلفاء الله تعالى.

معن بن زائدة والأسود

روى مروان بن أبى حفصة عن معنِ بن زائدة أنه قال: لما جد المنصور فى طلبى، وجعل لمن يحملنى إليه مالاً، اضْطررتُ لشدة الطلب أن تعرضتُ للشمس حتى لوحتْ(٢) وجهى، وخففتُ عارضى(٣)، ولبِسْتُ جُبَّة صوف، وركبتُ جَمَلاً وخرجتُ متوجهاً إلى البادية لأقيم بها، فلما خرجتُ من باب حَرْب، وهو أحد أبواب بغداد، تبعنى أسود متقلد سيفاً، حتى إذا غِبت عن الحرس قبض على خِطام الجمل فأناخه وقبض على يدى، فقلت له: ما بك؟ فقال: أنت(٤) طلبة أمير المؤمنين، فقلت: ومن أنا حتى أُطلب؟ فقال: أنت معن بن زائدة، فقلت له: يا هذا، اتّق الله عز وجل، وأين أنا من معن؟ فقال: دع هذا، فإنى والله لأعرف بك منك، فلما رأيت منه الجد قلت له: هذا عقد جوهر، قد حملته معى بأضعاف ما جعله المنصور لمن يجيئه بى فَخذْه ولا تكن سبباً

(١) سرى عنه الهم: انكشف، وقد يحذف المرفوع اكتفاء بالجار والمجرور
(٢) لوحه العطش والسفر: غيره ولوحت وجهه الشمس: غيرت لونه.
(٣) العارضان جانبا الوجه، وما يكون عليهما من اللحية (٤) الطلبة: الحاجة وما يطلب.

لسَفْك دمي ، قال : هاته ، فأَخرجتُه إليه . فنظر إليه ساعة وقال : صَدقت فى قيمته ولست قابِله منك حتى أَسأَلك عن شيء فإن صدقتنى أَطلقتك ، فقلت : قل ، قال : إنَّ الناس قد وصفوك بالجود ، فأَخبرنى هل وهبت مالك كله قَطُّ ؟ قلت : لا ، قال : فنصفه ؟ فقلت : لا ، قال : فَثُلْثَه ؟ قلت : لا ، حتى بلغ العُشْر ، فاستَحْيَيت وقلت : أَظن أَنى قد فعلت هذا ، قال : ما ذاك بعظيم ؛ أَنا والله راجل(١) ، ورزقى من أَبى جعفر المنصور كلّ شهر عشرون درهماً وهذا الجوهر قيمته أُلوف دنانير ، وقد وَهَبْتُه لك ووهبتُكَ لنفسك ولجودك المأْثور بين الناس ولتَعْلَمَ أَنَّ فى هذه الدنيا مَنْ هو أَجودُ منك فلا تعجبك نفْسُك ولتحقر بعد هذا كلّ جودٍ فعلتَهُ ولا تتوقف عن مَكْرُمة ، فقلت : يا هذا قد والله فضحتنى ولسَفْكُ دمى علىَّ أَهْوَنُ مما فعلت ، فخذ ما دفعتُه لك فإنى غَنِىٌّ عنه ، فضحك وقال : أَردتُ أَنْ تكَذِّبنى فى مقالى هذا ، والله لا أَخَذْتُه ولا آخذُ لمعروفٍ ثمناً أَبدًا ، ومضى لسبيله ، فوالله لقد طلبته بعد أَن أَمنْتُ ، وبذلت لمن يجىء به ما يشاء ، فما عرفت له خبرًا ، وكأَنَّ الأَرض ابتلعته .

معاوية والأَعرابية

خرج معاوية مُتَنَزِّها ، فمرَّ بحواءٍ(٢) ضَخْم ، فقصد قصْد بيت منه ، فإذا بفنائه امرأَة بَرْزَة(٣) ، فقال لها : هل من غداءٍ ؟ قالت : نعم حاضر ، قال : وما غداؤك ؟ قالت : خُبْزٌ خمير ، وماءٌ نمير ، وحيْسٌ(٤) فطير ، ولبن هَجِير(٥) ، فَثَنَى وَرِكه ونزل ، فلما تغَدَّى قال : هل لك من حاجة ؟ فذكرت حاجة أَهل الحواء ، قال : هات حاجتك فى خاصة نفسك ، قالت : يا أَمير المؤمنين إنى أَكره أَن تنزل وادياً(٦) فيَرِفَّ أَولُه ويقف آخرُه(٧) .

---

(١) الراجل : غير الراكب (٢) الحواء ككتاب : جماعة البيوت المتدانية
(٣) البرزة من النساء : الكهلة الجليلة تبرز للقوم وتحدثهم مع العفـــة .
(٤) الحيس : تمر يخلط بسمن ولبن ممخوض (٥) الهجير : الخاثر من اللبن (٦) رف النبات : اهتز (٧) قف النبات : يبس

الأَحنف بين يدى معاوية

وَفَدَ الأَحنف بن قيس على مُعَاوية مع أَهل العراق . فخرج الآذنُ فقال إن أَمير المؤمنين يَعْزِم عليكم أَن لا يتكلم أَحدٌ إلا لنفسه ، فلما وصلوا إليه قال الأَحنف : لولا عَزْمة أَمير المؤمنين لأَخْبَرْتُه أَن دافَّة دفت(١) ، ونازلة نزلت ، ونابتة نبتت ، كلهم بهم حاجة إلى معروف أَمير المؤمنين وبرِّه ، فقال معاوية : حَسْبُك يا أَبا بَحْرٍ فقد كفيت الشاهد والغائب .

الأَحنف بين يدى عمر بن الخطاب

قدم الأَحنف بن قيس التميمى على عمر بن الخطاب فى أَهل البصرة ، وأَهل الكوفة ، فتكلَّموا عنده فى أَنفسهم وما يَنُوب كلّ واحدٍ منهم ، وتكلم الأَحنف فقال : يا أَمير المؤمنين ، إن مفاتيحَ الخير بيد الله ، وقد أَتتك وفودُ أَهل العراق وإخوانَنَا من أَهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازلَ الأُمم الخالية ، والملوك الجبابرة ، ومنازلَ كسرى وقيصر وبنى الأَصفر(٢) ، فهم من المياه العَذبة والجنان المختلفة فى مثل حُوَلاءِ السّلى(٣) وحَدَقَة(٤) البعير ، تأْتيهم ثمارُهم غَضَّة(٥) لم تَخْضُر وإنا أَنزلنَا أَرضاً طَرَفٌ فى فَلَاة ، وطَرَفٌ فى ملح أُجَاج ، جانب منها منابت القصب وجانب سُبْخَة نَشاشة(٦) لا يجف ثراها ، ولا يَنْبُت مرعاها ، يخرج الرجل الضعيف منا يستعذبُ الماءَ من فرسخين ، وتخرج المرأة بمثل ذلك تُرَنِّق(٧) لولدها ترنيق العَنْز ، تخَافُ عليه العدوّ والسّبُع فإلا ترفع خسيستنا ، وتنْعَش(٨) ركيستنا

---

(١) يقال : دفت دافة أى أتت فئة مهاجرة (٢) بنو الأصفر عند العرب : هم الروم (٣) السلى غلاف رقيق يكون فيه المولود ، والحولاء : جلدة خضراء مملوءة ماء تخرج مع الولد وهذا يكنون به عن الخصب وكثرة الماء والخضرة (٤) قال فى اللسان : وفى حديث الأحنف نزلوا فى مثل حدقة البعير أى نزلوا فى خصب وشبهه بحدقة البعير لأنها ريا من الماء (٥) غضة : طرية (٦) أرض سبخة نشاشة : لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها . (٧) رنق الماء : صفا (٨) نعشة : رفعه كأنعشه ، والركيسة الضعيفة

وتَجْبُرُ فاقتنا، وتزِدْ فى عيالنا عيالا، وفى رجالنا رجالا، وتُصَغِّر درهمنا، وتكبر قفيزنا(١)، وتأمر لنا بحفر نهر نستعذب به الماء وإلا هلكنا، فقال عمر: هذا والله السيد؟ هذا والله السيد! ثم كتب إلى أَبى موسى الأَشعرى أن يحتفِر لهم نهرًا.

أُسَيِّد بن عنقاء ـ وعميلة الفزارى

كان أُسيد بن عنقاء الفزارى من أكبر أَهل زمانه، وأَشدهم عارضة ولساناً، وطال عمره، ونكَبَه دهره، واختلت حاله، فخرج عشية يتبقل(٢) لأَهله، فمَرّ به عميلة الفزارى، فسلم عليه وقال: ياعم ما أَصارك إلى ما أَرى؟ قال بُخْل مثلك بماله، وصَوْن وجهى عن أَموال الناس، فقال: لئن بقيتُ إلى غَدٍ لأُغَيِّرَن ما أَرى من حالك، فرجع ابن عنقاء إلى أَهله، فأَخبرها بما قال له عُميلة، فقالت له: لقد غَرك كلام غلام، فى جنح ظلام(٣) فكأَنما أُلقمَتْ فاه حجرًا، فبات مُتَمَلْمِلاً بين رجاءٍ ويأْس، فلما كان السحر سمع رُغَاءَ الإِبل وثغاءَ الشاة وصهيل الخيل ولَجَب الأَموال(٤) فقال: ماهذا؟ فقالوا: هذا عُمَيلة، ساق إليك مَالهُ، فخرج ابن عنقاءَ له، فقسم عُميلة ماله شطرين، وساهمه(٥)، عليه، فأَنشأَ ابن عنقاءَ يقول:

رآنى على ما بى عُمَيلة فاشتكى ... إلى ماله حالى أَسَرّ كما جَهَرْ
دعانى فآسانى ولو ضن لم يُلم ... على حين لا بدوٌ يُرَجّى ولا حضَرْ
فقلت له خيرًا وأَثنيْتُ فعله، ... وأوفاك ما أُبليت من ذم أَو شَكَرْ
ولما رأَى المجد استُعيرتْ ثيابه ... تردّى رِدَاءً سابغ الذيل واتزَرْ(٦)
غلام رَمَاه الله بالخير مُقْبلاً ... له سيمياءُ لا تَشُقُّ على البصر(٧)
إذا قيلت العَوْرَاء أَغضى كأَنه ... ذليلٌ بلا ذُل ولو شاءَ لانتصر(٨)

---

(١) القفيز: مكيال (٢) تبقل: خرج يطلب البقل (٣) جنح الليل أو الظلام الطائفة منه (٤) اللجب: الجلبة والصياح واضطراب موج البحر (٥) ساهمه: قارعه أى ضرب القرعة (٦) أتزر من الأزار ـ قلبت الهمزة تاء الافتعال (٧) السيما والسيماء، والسيميا والسيمياء: العلامة يقول يفرح به من يراه للطف محياه. (٨) العوراء: الكلمة القبيحة، وقرب من هذا البيت قوله:

يصم عن الفحشاء حتى كأنه ... اذا ذكرت فى مجلس القوم غائب

الفضل وجعفر ابنا يحيي البرمكى

قال محمد بن عبد الرحمن الهاشمي(١) : كانت أُمُّ جعفر بن يحيي تزورُ أُمى وكانت لبيبة من النساء ، حازمة فصيحة بَرْزَة ، يعجبُنى أن أَجدها عند أُمى فأَستكثر من حديثها ، فقلت لها يوماً : يا أُم جعفر ، إن بعض الناس يفضِّل جعفراً على الفضل ، وبعضهم يفضل الفضل على جعفر ، فأَخبريني ، قالت : ما زلنا نعرف الفضل للفضل فقلت : إن أَكثر الناس على خلاف هذا ، فقالت : هاأنا ذَهْ أُحدثك واقض أنت وذلك الذى أَردت منها ، فقالت : كانا يوماً يلعبان فى دارى ، فدخل أَبوهما فدعا بالغداء وأَحضرهما ، فطعما معه ، ثم آنسهما بحديثه ، ثم قال لهما : أَتلعبان بالشطرنج فقال جعفر وكان أَجرأَهما : نعم ! قال : فهل لاعبت أَخاك بها ؟ قال جعفر : لا ، قال : فالعبا بها بين يدى لأَرَى لمن الغلب ؟ فقال جعفر : نعم ! وكان الفضل أَبصر منه بها ، فجيء بالشطرنج فصُفَّت بينهما ، وأَقبل عليها جعفر ، وأَعرض عنها الفضل فقال له أَبوه : مالك لا تلاعبُ أَخاك ؟ فقال : لا أُحب ذلك ، فقال جعفر : إنه يرى أنه أَعلم بها منِّى فيأْنف من ملاعبتى ، وأَنا أُلاعبه مخاطرة ، فقال الفضل لا أفعل ، فقال أَبوه : لاعبه وأَنا معك ، فقال جعفر : رَضِيت ، وأَبى الفضلُ ، واستعفى أَباه ، فأَعفاه . ثم قالت لى : قد حدثتك فاقضِ ، فقلت : قد قضيت بالفضل لجعفر على أَخيه ، فقالت : لو عَلِمت أَنك لا تحسن القضاءَ لما حكَّمْتك ، أَفلا ترى أَن جعفراً قد سقط أَربع سقطات تنزه الفضل عنهنَّ ؟

فسقط حين اعترف على نفسه بأَنه يلعب بالشطرنج ، وكان أَبوه صاحب جِدّ .

وسقط فى التزام مُلاعبة أَخيه وإظهار الشهوة لغلبه والتعرض لغضبه .

وسقط فى طلب المقامرة وإظهار الحرص على مال أَخيه .

والرابعة قاصمة الظهر حين قال أَبوه لأَخيه لاعِبه وأَنا معك ، فقال أَخوه لا ،

(١) هو محمد بن غسان بن عبد الرحمن صاحب صلاة الكوفة

وقال هو نعم ؟ فناصب صفًا فيه أبوه وأخوه ؟ فقلت : أحسنت ، والله وإنك لأقضى من الشعبي ، ثم قلت لها : عزمت عليك أخبريني هل خَفي مثل هذا على جعفر ؟ وقد فَطِن له أخوه ، فقالت : لولا العَزْمة لما أخبرتك ، إن أباهما لما خرج قلت للفضل خالية به : ما منعك من إدخال السرور على أبيك بملاعبة أخيك ؟ فقال : أمران ؛ أحدهما : لو أني لاعبته لغلبته فأخجلته ، والثاني : قول أبي لاعبَهْ وأنا معك فما يسرني أن يكون أبي معي على أخي ، ثم خلوت بجعفر ، فقلت له : يسأل أبوك عن اللعب بالشطرنج فيصمت أخوك وتعترف ، وأبوك صاحب جد ؟ فقال : إني سمعت أبي يقول : نِعْم لَهْوُ البال المكدود(١) وقد علم ما نلقاه من كدّ التعلم والتأدب ولم آمَنْ أن يكون بلغه أنا نلعبُ بها ، ولا أن يُبادِر فيُنكر فبادرت بالإقرار إشفاقاً على نفسي وعليه . إن كان توبيخٌ فَدَيته من المواجهة به . فقلت له : يا بني . فلم تقول ألاعبه مخاطرة ! كأنك تقامر أخاك وتستكثر ماله . فقال : كلا . ولكنه يستحسنُ الدواة التي وهبها لي أمير المؤمنين فعرضتها عليه فأبى قبولها ، وطمعت أن يُلاعبَني فأُخاطرهُ عليها . وهو يغلبني فتطيب نفسه بأخذها . فقلت لها : يا أُمَّاه ما كانت هذه الدواة ؟ فقالت : إن جعفراً دخل على أمير المؤمنين ، فرأى بين يديه دواة من العقيق الأحمر ، محلاة بالياقوت الأزرق والأصفر ، فرآه ينظر إليها فوهبها له . فقلت : إيه . فقالت ثم قلت لجعفر : هبْك اعتذرْتَ بما سمعت . فما عذرُك من الرضا بمناصبة أبيك حين قال لاعبه وأنا معك ! فقلت أنت : نعم . وقال هو : لا ؟ فقال : عرفت أنه غالبي . ولو فتر لَعِبُه لتغالبت له ، مع ماله من الشرف والسرور بتحيز أبيه إليه . قال محمد ابن عبد الرحمن : فقلت : بَخٍ بَخٍ (٢)هذه والله السيادة ! ثم قلت لها : يا أُمَّاه ، أكان منهما من بلغ الْحُلم ؟ فقالت : يا بني ، أين يُذَهب بك ! أُخبرك عن

---

(١) كده : أجهده وأتعبه
(٢) يقال : بخ بخ – وبخ بخ ، اعجابا بالشيء واظهارا للسرور به

صبيين يلعبان . فتقول : «أكان منهما من بلغ الْحُلم» ؟ ! لقد كنا ننهى الصبى إذا بلغ العشر ، وحضر من يُسْتَحَى منه ، أن يبتسم .

براعة الرشيد فى الأدب

دخل سهل بن هرون على الرشيد وهو يضاحك المأمون فقال : اللهم زدْهُ من الخيرات ، وابْسُط له من البركات ، حتى يكون فى كل يوم من أيامه مُرْبياً على أمْسِه ، مقصِّرًا عن غده .

فقال له الرشيد : يا سهل ، من روى من الشعر أحسنه وأرصنه ، ومن الحديث أفصحَهُ وأوضحه ، إذا رام أن يقول لم يعجزه القول .

فقال سهل : يا أمير المؤمنين ما ظننت أن أحدًا تقدمَنِى إلى هذا المعنى ، قال بل أعْشى همدان حيث يقول :

رأيتُك أمسَ خير بنى لُؤَى ... وأنت اليوم خيرٌ منك أمسِ
وأنت غدًا تزيد الخير ضِعفاً ... كذاك تزيدُ سادةُ عبد شمس

الواثق وابن أبى دؤاد

قال أبو العيناء : دخل ابن أبى دؤاد على الواثق فقال له : ما زال اليوم قوم فى ثلبك ونقصك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لكل امرئٍ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذابٌ عظيم ، والله ولى جزائه وعقاب أمير المؤمنين من ورائه ، وما ذَلَّ يا أمير المؤمنين من كنت ناصره ، ولا ضاع من كنت حافظه ، فماذا قلت لهم يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت : يا أبا عبد الله :

وسعَى إلى بِعيب «عزَّة» معشرٌ ... جعل الإلٰهُ خُدُودَهُن نِعَالها

المنصور والربيع بن يونس(١)

قال سعيد بن مُسلم بن قتيبة دعا المنصور بالربيع فقال : سَلْنى ما تريد؟ فقد سكت حتى نطقت(٢) وخففْتَ حتى ثقلت ، وأقللتَ حتى أكثرتَ ؛ فقال : والله يا أمير المؤمنين ، ما أَرْهَبُ بخلك ، ولا أستقصِرُ عمرك ، ولا أَستصغرُ فضلك ، ولا أغتنم مالك ، وإن يومى بفضلِك علىّ أحسن من أمسى ؛ وغَدَك فى تأْميلى أحسن من يومى ، ولو جاز أن يشكرك مثلى بغير الخدمة والمناصحة لما سبقنى فى ذلك أحد .

قال : صدقت ، عِلمى بهذا منك أَحَلك هذا المحل ، فسَلنى ما شئت ؟ ؟

قال : أسأَلك أن تقرِّب عبدك « الفضل » وتُؤْثره وتُحِبه .

قال : يا ربيع ، إن الحب ليس بمال يوهب ، ولا رُتبة تُبذل ، وإنما تؤكده الأَسباب .

قال : فاجعل لى طريقاً إليه بالتفضل عليه .

قال : صدقت ، وقد وصلتُه بأَلف أَلف درهم ، ولما أَصِلْ بها أحدًا غير عمومتى لتعلم ماله عندى ، فيكون منه ما يستدعى به محبتى ، وكيف سأَلت له المحبة يا ربيع ؟

قال : لأَنها مفتاح كل خيرٍ ، ومِغلاقُ كل شر ، تستتر بها عندك عُيوبه وتصير حسناتٍ ذنوبه ، قال : صدقت ، وأتيت بما أَردت .

الأَعرابى السائل

وقف أعرابى يسأَل ، فعبِثَ به فتى ، وقال : مِمَّنْ أنت ؟

فقال الأَعرابى : من بنى عامر بن صعْصَعة قال : من أيهم ؟

---

(١) الربيع بن يونس هو صاحب المنصور توفى سنة ١٧٠ هـ

(٢) يقول : انك أطلت السكوت فنبهت بذلك على نفسك ، فقام السكوت مقام الكلام ، وعلى هذا القياس ما بعده

قال : إن كنت أردت عاطفة القرابة فليكفك هذا المقدار من المعرفة فليس مقامي بمقام مجادلة ولا مُفاخرة ، وأنا أقول : فإن لم أكن من هاماتهم(١) فلست من أعجازهم .

فقال الفتى : ما رويت عن فضيلتك إلا النقص فى حَسَبك .

فامْتعض(٢) الأعرابى لذلك ، فجعل الفتى يعتذر ، ويخلط الهزل والدُّعابة(٣) باعتذاره ، وأطال الكلام ، فقال له الأعرابى : يا هذا ! إنك منذ اليوم أدبتنى بمزحك ، وقطعتنى عن مسألتى بكلامك واعتذارك ، وإنك لتكشف من جهلك بكلامك ما كان السكُوتُ يستره من أمرك ، ويْحَكَ ! إن الجاهل إن مزح أسخط ، وإن اعتذر أفرط ، وإن حدَّث أسقط(٤) ، وإن قدَر تسلط وإن عزم على أمر تورَّط(٥) ، وإن جلس مجلس الوقار تبَسَّط(٦) ، أعوذ منك ومن حال اضطرتنى إلى احتمال مثلك .

معاوية والأحنف بن قيس

لما عزم معاوية على البيعة ليزيد ، كتب إلى زياد أن يُوجِّه إليه بوفد أهل العراق ، فبعث إليه بوفد البصرة والكوفة ، فتكلَّمت الخطباءُ فى يزيد والأحنف بن قيس ساكت ، فلما فرغوا ؛ قال : قل يا أبا بحر فإن العيون إليك أشرع(٧) منها إلى غيرك ، فقام الأحنف فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

يا أمير المؤمنين ، إنك أعلَمُنَا بيزيد فى ليله ونهاره ، وإعلانه وإسراره ،

---

(١) الهامات : الرءوس (٢) امتعض : تألم (٣) الدعابة : اللعب والمزاح (٤) أسقط : أخطأ (٥) تورط فى الأمر : وقع وارتبك . (٦) تبسط : أكثر من القول وجانب الاحتشام (٧) أشرع : أرفع وأكثر نظرا .

فإن كنت تعلمُه لله رضاً ، فلا تُشاوِرْ فيه أحدًا ، ولا تُقِم له الخطباءَ والشعراءَ ، وإن كنت تعلمُ بُعْدَه من الله ، فلا تُزوِّدْه من الدنيا وترحل أنت إلى الآخرة فإنك تصير إلى يومٍ يفِرُّ المرءُ من أخيه ، وأُمِّه وأَبيه ، وصاحِبَتِه وبنيه ، فكأنه أفرغ على معاويةَ ذَنوب(١) ماءٍ بارد .

فقال له : أقعد يا أبا بحر ، فإن خِيَرَةَ الله تجرى ، وقضاءه يمضى ، وأحكامه تنفُذُ ، لا مُعقِّبَ لُحكمه ، ولا راد لقضائه(٢) ، وإن «يزيد» فتى بَلَوْناه ولم نجدْ فى قريش فتى هو أجدر بأن يجتمع عليه منه .

فقال : يا أمير المؤمنين ، أنت تَحكى عن شاهد ، ونحن نتكلم على غائب ، وإذا أراد الله شيئاً كان .

الحجاج ورسول المهلب

يُروى أن المهلّب(٣) لما فرغ من أمْرِ عبد ربّه الحرُورى(٤) ، دعا بِشْر بن(٥) مالك ، فأنفذه بالبشارة إلى الحجاج ، فلما دخل على الحجاج قال : ما اسْمُك؟ قال : بِشْرُ بن مالك ، فقال الحجاج : بشارةٌ ومُلك ، كيف خلفت المهلب ؟ قال : خلفته وقد أَمِنَ ما خاف ، وأدرك ما طلب ، قال : كيف كانت حالكم مع عدوكم ؟ قال : كانت البُداءة لهم ، والعاقبة لنا . قال الحجاج : العاقبة للمتقين ، فما حال الجند ؟ قال : وسِعَهم الحق وأغناهم النفل(٦) ، وإنهم لمع رجل

---

(١) الذنوب : الدلو الملاى ، جمعه أذنبة وذنائب (٢) أى لا راد لقضائه
(٣) هو المهلب بن أبى صفرة الأزدى ، كان شجاعا مهيبا وقائدا من أكبر قواد الجيوش فى الدولة الأموية ، وهو الذى شتت الخوارج ومزقهم كل ممزق . ويقال للبصرة بصرة المهلب لأنه حماها من الخوارج توفى ٨٣ .
(٤) الحرورى : نسبة الى حروراء على غير القياس وهى بلدة بقرب الكوفة والحرورية : فرقة من الخوارج كالأزارقة (٥) كذا فى زهر الآداب . وفى تاريخ ابن خلكان أن اسم الرسول مالك بن بشير . (٦) النفل : الغنيمة وجمعه أنفال

يسوسهم بسياسة الملوك ويقاتل بهم قتال الصُّعلوك ، فلهم منه بر الوالد ، وله منهم طاعة الولد ، قال : فما حال ولد المهلب ؟ قال : رُعاة البيات حتى يأْمنوا ، وحماة السرح(١) حتى يردُّوه ، قال : فأَيهم أفضل ؟ قال : ذلك إلى أبيهم . قال : وأنت أيضاً ، فإِنى أرى لك لساناً وعبارة ، قال : هم كالحلقة المفرغة(٢) لا يُدْرى أين طرفاها ، قال : ويْحك ! ! أَكُنت أعددتَ لهذا المقام هذا المقال ؟ قال : لا يعلم الغيبَ إلا الله ، فقال الحجاج لجلسائه : هذا ـ والله ـ الكلام المطبُوع ، لا الكلام المصنوع .

حديث معاوية وليلى(٣) الأَخيلية

قال بعض الرواة : بينا معاوية يسير إذ رأى راكباً فقال لبعض شُرَطه ائتنى به وإياك أن تروعه فأَتاه فقال : أَجب أمير المؤمنين ، فقال : إياه أَردت ، فلما دنا الراكبُ حدَرَ لثامه ، فإذا ليلى الأَخيلية ، فأَنشأَت تقول :

مُعاوِىَ لم أكد آتيك تهوى ... برحْلى نحو ساحتك الركابُ
تجوبُ الأَرض نحوك ما تأَبى ... إذا ما الأكم قنَّعها السَّرَاب(٤)
وكنت المُرتجى وبك استعاذت ... لتنعشها إذا بَخِلَ السَّحابُ

فقال : ما حاجتُكِ ؟ قالت : ليس مثلى يطلبُ إلى مثلك حاجة ، فتخير أَنت أَعلى عَيْناً ، فأَعطاها خمسين من الإبل ، ثم قال : أَخبرينى عن مُضر ، قالت فاخر بمضر ، وحارِبْ بقِيس ، وكاثر بتميم ، وناظر بأَسد(٥) .

فقال : ويحك يا ليلى ؟ أكما يقول الناس كان توبة ؟ قالت : ياأَمير

---

(١) السرح : الماشية فى المرعى (٢) الحلقة المفرغة : المصبوبة قطعة واحدة وهذه الجملة مثل : لا امرأة عربية (٣) ليلى الأخيلية : اشعر امرأة عربية بعد الخنساء (٤) الأكم : واحده أكمة ـ وسكنت الكاف للوزن ـ تقول : ان ركابها تجول فى الأرض قاصدة معاوية ، ولا تتأبى عند اشتداد الحر اذ تتغطى الآكام بالسراب (٥) مضر : أصل لقيس وتميم وأسد : تقول : ان مضر ذات مجد عظيم وقيس اهل البسالة والاقدام وتميم ذوو الكثرة والعدد وأسد أهل الحجة واللدد

المؤمنين ليس كل الناس يقول حقا ، الناس شَجَرة بغى يحسدون النعم حيث كانت وعلى من كانت ، كان يا أمير المؤمنين : سبط البنان ، حَدِيد اللسان ، شجى الأَقران ، كريم المخبر ، عفيف المئزر ، جميل المنظر ، وكان كما قلت ، ولم أَبعُدْ عن الحق فيه :

بعيدَ المدَى لا يبلُغُ القَرْم غورَه ... أَلدُّ مَلدّ يغلب الحق باطله(١)

فقال معاوية : ويحك يا ليلى ! يزعم الناس أَنه كان عاهراً فاجراً : فقالت من ساعتها مرتجلة :

مَعاذ النُّهى قد كان والله توبةُ ... جوادًا على العلات جمًّا نوافلُهْ(٢)

أَغر خفاجيًّا يرى البخل سُبَّة ... تحالف كفاه النَّدَى وأَنامِلهْ

عفيفاً بعيد الهم صُلباً قناتُه ... جميلا مُحَيَّاه قليلا غوائله(٣)

وكان إذا ما الضيف أَرغى بعيرُه ... لديه أَتاهُ نيله وفواضلهْ

وقد علِم الحدبُ الذى كان سارياً ... على الضيف والجيرانِ أَنك قاتلهْ

وأَنك رَحْب الباع ياتوب بالقرى ... إذا ما لئيم القَوْم ضاقت منازلهْ

يبيتُ قرير العين من كان جاره ... ويُضحِي بخير ضيفه ومُنازِله

فقال لها معاوية : ويحكِ يا ليلى ! لقد جُزْتِ بتوبة قدره ، فقالت : يا أَمير المؤمنين ، والله لو رأَيْتُه وخبرته لعلِمتَ أَنى مُقصِّرة فى نعته ، لا أَبلغ كُنْهَ ما هو له أَهل ، فقال لها معاوية : فى أى سِنْ كان توبة ؟ فقالت : يا أَمير المؤمنين :

أَتته المنايا حين تم تمامه ... وأَقصَرَ عنه كل قِرن يُناضلهْ

وصار كلَيْثِ الغاب يحمى عرينَه ... فترضى به أَشبالُه وحلائلهْ

---

(١) القرم السيد . والألد : الشديد الخصومة . والملد مبالغة فى الألد . تقول : لا يدرك غوره مع شدة عارضة تجعل باطله يغلب الحق (٢) على العلات : أى على كل حال . والنوافل : العطايا (٣) الغوائل : الدواهى . وفلان قليل الغوائل : أى ليس فيه مايعيبه العشير .

عطوفٌ حليمٌ حين يُطلب حلمه وسُمٌّ زُعافٌ لا تصاب مقاتلهْ

فأمر لها بجائزة ، وقال : أى ما قلت فيه أشعر ؟

قالت : يا أمير المؤمنين ، ما قلت شيئاً إلا والذى فيه من خصال الخيرِ أكثر ، ولقد أجدتُ حيث أقول :

جزَى الله خيراً والجزاءُ بكفه فتًى من عقيل ساد غير مكلف

فتًى كانت الدُّنيا تهون بأَسرِها عليه فلمَ ينفَكَّ جَمّ التصرف

ينال عليَّات الأُمور بهَوْنة إذ هى أَعْيت كل خِرْق مُسَوِّف(١)

الحارث(٢) بن عوف المرِّى ومصاهرته أَوس(٣) بن حارثة الطائى

يروى أن الحارث بن عوف المُرِّى : قال يوماً لخارجة بن سنان المرِّى ، أَترانى أَخطب إلى أَحد فيردنى ؟ قال : نعم ، قال : ومن ذاك ؟ قال : أَوس بن حارثة بن لأَم الطائى ، فقال الحارث لغلامه : ارحل بنا ، ففعل ، فركبا حتى أَتيا أَوساً . فلما رأَى الحارث بن عوف قال : مرحباً بك يا حارث ، قال : وبك ، قال : ماجاءَ بك ؟ قال : جئتك خاطِباً ، قال : لست(٤) هناك ، فانصرف ولم يكلمه ، ودخل أَوْسٌ على امْرَأَته مُغْضباً - وكانت من بنى عبْسٍ(٥) - فقالت : مَنْ الرجل الذى وقف عليك فلم يُطِل ولم تكلمه ؟ قال : ذاك سيد العرب الحارث

---

(١) الهونة : التؤدة . والخرق : الفتى الحسن الكريم السجايا والمسوف : من يصنع ما شاء لا يرده أحد (٢) هو أحد عظماء ذبيان . ومرة : بطن من ذبيان . والحارث أحد السيدين اللذين سعيا فى الصلح بين عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء التى دامت نحو أربعين سنة وقد احتملا فى مالهما خاصة غرامة تلك الحرب (٣) هو سيد طىء فى زمانه ، وفيه يقول الشاعر :

الى أوس بن حارثة بن لأم ليقضى حاجتى فيمن قضاها

فما وطىء الحصا مثل ابن سعدى ولا لبس النعال ولا احتذاها

(٤) أى لست كفؤا (٥) عبس وذبيان أبناء عم

ابن عوف المرِّى ، قالت : فمالك لا تستنزله ؟ قال : إنه استَحْمَق(١) ، قالت : وكيف ؟ قال : جاءنى خاطباً ، قالت : أفتُريد أن تُزَوِّجْ بناتك ؟ قال : نعم ، قالت : فإذا لم تُزَوِّجْ سيد العرب ، فمن ؟ قال : قد كان ذلك ، قالت : فتدَاركْ ما كان منك ، قال : بماذا ؟ قالت : تلحقُه فترده ؟ قال : وكيف وقد فرط منى ما فرط إليه ؟ قالت : تقول له : إنك لقِيتنى مُقتضباً (٢) بأمر لم يتقدم منى فيه قول ، فلم يكُن عندى فيه من الجواب إلا ما سمعت ، فانصرف ولك عندى كل ما أحببت . فإنه سيفعلُ ، فركب فى أثرهما . قال خارجة بن سنان : فوالله إنى لأَسِيرُ إذ حانت منّى التفاتةٌ ، فرأيته فأقبلت على الحارث وما يُكلمنى غَمًّا ، فقلت له : هذا أوس بن حارثة فى أثرنا قال : وما نصنع به ؟ امْض ، فلما رآنا لا نقف عليه ، صاحَ : يا حارثُ أَربع(٣) على ساعة ، فوقفنا له ، فكلَّمنا بذلك الكلام ، فرجَعَ مسروراً .

فبَلغنى أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته : ادعى لى فلانة ــ لأكبر بناته ــ فأتتهُ ، فقال : يا بُنية هذا الحارث بن عوف سيدٌ من سادات العرب ، قد جاءنى طالباً خاطباً ، وقد أردت أن أُزَوِّجك منه ، فما تقولين ؟ قالت : لا تفعل ، قال : ولِمَهْ ؟ قالت : لأنى امرأة فى وجهى رَدَّة(٤) وفى خلقى بعض العُهدة(٥) ، ولست بابنة عمه فيرعى رحمى ، وليس بجارك فى البلد فيستحى منك ، ولا آمن أن يرى منى ما يكْره فيُطَلقنى ، فيكون علىّ فى ذلك ما فيه ، قال : قومى بارك الله عليك ادعى لى فلانة ــ لابنته الوسطى ــ فدعتها ، ثم قال لها مثل قوله لأختها فأجابته بمثل جوابها وقالت : إنى خرقاءُ(٦) وليست بيدى صناعة ، ولا آمنُ أن يرى

---

(١) استحمق : فعل فعل الحمقى (٢) الاقتضاب : المفاجأة (٣) ربع عليه : وقف أو مال اليه (٤) يقال فى وجهه ردة ، أى قبح مع شىء من الجمال (٥) العهدة ، الضعف (٦) الخرقاء ، التى لا تحسن صنعة

منى ما يكره فيُطَلقنى ، فيكون على فى ذلك ما تعلم ، وليس بابن عمى فيرعى حق ولا جارك فى بلدك فيستحيك ، قال : قومى بارك الله عليك ، ادعى لى « بُهَيْسة » – يعنى الصغرى – فأُتى بها ، فقال لها كما قال لهما ، فقالت : أنت وذاك ، فقال لها : قد عرضت ذلك على أُخْتَيكِ فأَبتاه ، فقالت – ولم يذكر لها مقالتيهما : لكنى والله الجميلة وجهاً ، الصناع(١) يدًا ، الرفيعة خلقاً ، الحسيبة أباً ، فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير ، فقال : بارك الله عليك .

قال خارجة : ثم خرج إلينا فقال : قد زوجتك يا حارث « بهيسة » بنت أَوس ، قال : قبلت . ثم أَمر أُمها أَن تهيِّئها ، وتصلح من شأْنها ، ثم أَمر ببيت فضُرِب(٢) له ، وأَنزله إياه ، فلما هُيِّئت بعث بها إليه ، فلم يلبث عندها إلا هُنَيْهَةً(٣) ثم خرج إلى ، فقلت : أَبنيت بأَهلك ؟ قال : لا والله ، فإنى لما دَنوْت منها قالت : مَهْ أَعِندَ أَبى وإخوتى ؟ هذا والله مالا يكون ، قال خارجة : ثم ارتحلنا بها فَسِرْنا ما شاءَ الله ثم انتحَى بها ناحيةً ، ولم يلبث أَن عاد إلى ، فقلت : أَبنَيت بأَهلك ؟ قال : لاوالله فقد قالت : أَكما يُفعل بالأَمة الجليبة (٤) ! والسبية الأَخيذة(٥) ! لا والله حتى تنحر الجزر ، وتذبح الغنم ، وتدعو العرب وتعمل ما يُعمل لمثلى ، قلت : والله إنى لأَرى همة وعقلاً ، وأَرجو أَن تكون المرأة مُنْجبة إن شاءَ الله ، فرحلنا حتى قدمنا وأَحْضَرَ الإبل والغنم ، ثم خلا بها ، ولم ينشبْ أَن خرج فقلت : أَبنيت بأَهلك ! قال : لا – فقد قلت لها أَحضرنا من المال ما قد تريدين ، فقالت : والله لقد ذكرت لى من الشرف مالا أَراه فيك ، قلت : وكيف ؟ قالت : أَتفرغ للنساءِ والعرب يقتلُ بعضها بعضاً – وذلك فى أَيام حرب عبْس وذبيان – قلت : فماذا تريدين ؟ قالت : اخرج إلى هؤلاءِ القوم

(١) امرأة صناع : حاذقة فى الصناعة (٢) ضرب : اقيم ، وبنى له بيت
(٣) الهنيهة : الزمن اليسير (٤) الجليبة : المجاوبة (٥) الأخيذة : المأخوذة

فأَصلح بينهم ، ثم ارجع إلى أَهلك فلن يفوتك ، قال خارجة ، فقلت : والله إنى لأَرى همة وعقلاً ، قال : فاخرج بنا فخرجنا حتى أَتينا القوم فمشينا فيما بينهم بالصُّلح ، فاصطلحوا وحملنا عنهم الديات ، فكانت ثلاثة آلاف بعير فى ثلاث سنين ، فانصرفنا بأَجمل الذكر(١) :

ولو كان النساءُ – كمثْل هَذِى – لفضِّلت النساءُ على الرجال

سَوْدة بنت عمارة ومعاوية

قال عامر الشعبى : وفدتْ سودة بنت عمارة بن الأَشتر الهمدانية على معاوية ابن أَبى سُفيان ، فاستأْذنت عليه فأَذن لها ، فلما دخلت عليه سلمت ، فقال لها : كيف أَنت يا ابنة الأَشتر ؟ قالت : بخير يا أَمير المؤمنين ، قال لها : أَنت القائلة لأَخيك :

شمِّر لفعل أَبيك يا ابن عمارة يوم الطِّعَان ومُلتقى الأَقران
وانْصُرْ عليّاً والحسين ورَهْطَه واقصد لهند(٢) وابنها بهوانِ
إنَّ الإِمام أَخا النبىِّ محمد عَلَمُ الهدى ومنارةُ الإِيمانِ
فَقُدِ الجيوش وسِرْ أَمام لوائه قُدُماً بأَبيض صارم وسنانِ

قالت : يا أَمير المؤمنين مات الرأْس وبُتر الذنب ، فَدع عنك تذكار ما قد نُسِى ، قال : هيهات ، ليس مثل مقام أَخيك نسى ، قالت : صدقت ، والله يا أَمير المؤمنين ، ما كان أَخى خفى المقام ، ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساءُ :

وإن صَخرًا لتأْتَم الهداة به كأَنه عَلَمٌ فى رأْسه نارُ

---

(١) وقد خلد زهير هـذا الذكر الجميل فى معلقته اذ يقول من أبيـات كثيرة :

يمينا لنعم السـيدان وجدتمـا على كل حال من سحيل ومبـرم
تداركتما عبسا وذبيـان بعدمـا تفانوا ودقوا بينهم عطـر منشم

(٢) هند : هى أم معاوية

وبالله أسألك يا أمير المؤمنين إعفائى مما استعفيته ، قال : فعلت ، فقولى حاجتك ، قالت :

يا أمير المؤمنين ، إنك للناس سيد ، ولأُمورهم مُقَلَّد ، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدمُ علينا من ينهض بعزك ، ويبْسُط بسلطانك ، فيحصدنا حِصادالسُّنْبُل ،ويدوسنا دياس البقر ، ويسومنا الخسيسة (١) ويسأَلنا الجليلة ، هذا ابن أرطاة ، قدم بلادى وقتل رجالى ، وأَخذ مالى ، ولولا الطاعة لكان فينا عِزًّا ومنعةً ، فإما عزلته فشكرناك ، وإمَّا لا فعرفناك ، فقال معاوية : أَإياى تُهددِين بقومك ؟ والله لقد هَممت أن أَرُدَّك إليه على قَتَب أَشرَس(٢) فَيُنْفِذ حكمه فيك ، فسكتت ، ثم قالت :

صَلَّى الإِلٰه على روح تَضمَّنَه ... قبرٌ فأَصبح فيه العدل مدفونَا

قد حالف الحق لا يبغى به ثمناً ... فصار بالحق والإيمان مقرونَا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : علىّ بن أَبى طالب ، قال : ما أَرى عليك منه أَثراً ، قالت : بلى ، أَتيته يوماً فى رجل ولّاه صدقاتنا ، فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين ، فوجدته قائماً يُصلِّى فانفتل (٣) عن الصلاة ثم قال برأْفة وتعطف : أَلك حاجة ؟ فأَخبرته خبر الرجل ، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إنى لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا ترك حقك ، ثم أَخرج من جيبه قطعةً من جِرَاب ، فكتب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم «قد جاءتكم بيِّنة من ربكم فأَوفُوا الكيل والميزَان ولا تَبخوسُا الناسَ أَشياءهم ولا تَعْثَوْا فى الأَرض مفسدين ، بَقيَّة الله خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أَنا عليكم بحفيظ.» إذا أَتاك كتابى هذا فاحتفِظْ بما فى يديك حتى يأْتى من يَقبضُه منك والسلام . فعزله يا أَمير المؤمنين ما خزمه بخزام ولا ختمه بختام ، فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها والعدل عليها ،

(١) سلمه الأمر : كلفه اياه . تقول : يجشعنا دنايا الأمور (٢) القتب : الرحل الصغير ، والأشرس : الخشن الغليظ (٣) انفتل : انصرف

فقالت : أَلِيَ خاصة أم لقومى عامة ؟ قال : وما أنت وغيرك ؟ قالت : هى والله إذن الفحشاءُ واللؤم ، إن كان عدلاً فشاملا ، وإلا يسعنى ما يسعُ قومى ، قال : هيهات ، لمَّظكم(١) ابن أَبى طالب الجرأَة ، وغرّكم قوله :

فلو كنت بواباً على باب جنَّةٍ لقلت لِهَمْدَان ادخلوا بسلام

وقوله :

ناديتُ هَمْدان والأَبواب مُغْلقة ومثل هَمْدان سنى فتحةُ الباب
كالهِنْدُوَانىّ لم تفلل مضاربه وجْهٌ جميل وقلب غير وجَّاب

اكتُبُوا لها بحاجتها .

أَم سنان بنت جشمة ومعاوية

قال سعيد بن أَبى حُذافة : حبس مروان وهو والى المدينة غلاماً من بنى ليث فى جناية جناها ، فأَتته جدة الغلام – وهى أَم سنان بنت جُشَمَة المذحَجِيَّة – فكلمته فى الغلام ، فأَغلظ مروان لها ، فخرجت إلى معاوية فدخلت عليه فانتسبت فعرفها فقال : مرحباً بابنة جشمة ، ما أَقدمك أَرضنا ، وقد عهدتك تَشْتمیننا وتحضِّين علينا عدونا ؟ قالت : إن لبنى عبد مناف أَخلاقاً طاهرةً ، وأَحْلاماً وافرة ، لا يجهلون بعد علْم ، ولا يَسْفهون بعد حلم ، ولا ينتقمون بعد عفو ، وإن أَولى الناس باتباع ما سَنَّ آباؤه لأَنت ، قال : صدقت ، نحن كذلك ، فكيف قولك :

عَزَبَ الرُّقَاد فمقلتى لا ترقد والليلُ يُصْدر بالهموم ويُوردُ
يا آل مَذْحج لا مُقام فَشَمِّرُوا إن العدوّ لآل أَحمد يقصدُ
هذا علىّ كالهلال تَحُفّه وسط السماء من الكواكب أَسْعُد

---

(١) لمظه الشيء : منحه اياه

خيرُ الخلائف وابن عم محمد إن يهدكُم بالنُّور منه تهتدوا
ما زال مُذْ شهد الحروب مُظَفَّراً والنصر دون لوائه ما يعقد

قالت : كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وأرجو أن تكون لنا خلفاً ، فقال رجل من جُلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ؟ وهى القائلة :

إما هلكت أبا الحسين فلم تزلْ بالحق تُعْرَف هادياً مَهْدِيًّا
فاذهب عليك صَلاة ربك ما دعت فوق الغُصُون حَمَامَةٌ قَمْرِيًّا
قد كنت بعد محمد خَلَفاً كما أوصى إليك بنا فكنت وَفِيًّا
واليومَ لا خلفٌ يُؤَمَّل بعده هيهات نأْملُ بعدهُ إنْسِيًّا

قالت : يا أمير المؤمنين لسان فطن ، وقول صدق ، ولئن تحقق ما ظننا فحظّك الأوفر ، والله ما وَرّثك الشنآن فى قلوب المسلمين إلا هؤلاء ، فأدحض مقالتهم ، وأبعد منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قُرْباً ومن المؤمنين حُبًّا ، قال : وإنك لتقولين ذلك ، قالت : سبحان الله ! والله ما مثلك مدح بباطل ولا اعْتُذِر إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأْينا وضمير قلوبنا .

شكرًا لربى الذى أعاننى على طبع الجزء الأول ، ويليه الجزءُ الثانى وأوله : « الفن السابع فى التاريخ »

فهرست

الجزء الاول من كتاب جواهر الادب

فهرس الجزء الأول من جواهر الأدب



تأليف
المرحوم السّيد أحمد الهاشمي

مدير مدارس فؤاد الأول
ومراقب مدارس فيكتوريا سابقا

الجزء الثاني

يطلب من
المكتبة التجارية الكبرى
بمصر ص.ب ٥٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الفن السابع فى تاريخ أدب اللغـة العربية

وفيه مقدمات عشر

المقدمة الأولى فى التـاريخ

التاريخ : هو معرفة أخبار الماضين وأحوالهم من حيث معيشتهم ، وسياستهم ، واعتقادهم ، وأدبهم ، ولُغتهم .

والأَدب : (كل رياضة محمودة يتخرَّجُ بها الإنسان فى فضيلة من الفضائل) وهذه الرياضة كما تكون بالفعل ، وحسن النظر ، والمُحاكاةِ ، تكون أيضاً بمزاولة الأَقوال الحكمية التى تضمنتها لغة أى أُمة .

واللغة : أَلفاظٌ يُعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم ، وهى من الأَوضاع البشرية .

وأدبُ لغة أىّ أُمة : هو ما أُودع شعرها ونثرها من نتائج عُقول أبنائها وصور أخيلتهم وطباعهم ، مما شأنه أن يهذب النفس ، ويُثقف العقل ، ويُقوِّم اللسان .

وتاريخ أَدب اللغة : هو العلم الباحثُ عن أَحوال اللغة ، نثرها ونظمها فى عصورها المختلفة من حيث رفعتُها وضعتها ، وعما كان لنابغيها من التأْثير البيِّن فيها .

واللغة العربية : إحدى اللغات السَّامِيَّة ، وهى لغة أُمة العرب القديمة العهد الشائعة الذكر ، التى كانت تسكن الجزيرة المنسوبة إليها فى الطرف الغربى من آسيا .

وهذه الأُمة : منها القدماءُ ، وهم الذين يسكنون تلك الجزيرة ، وينطقون باللغة العربية سليقةً وطبعاً ، وهم ثلاثُ طبقات :

أُولاها ــ العرب البائدة : وهؤلاءِ لم يصل إلينا شىءٌ صحيح عن أخبارهم إلا ما قصه اللهُ علينا فى القرآن الكريم ، وإلا ما جاءَ فى الحديث النبوى ، ومن أَشهر قبائلهم : طسم ، وجديس ، وعادٌ ، وثمودُ ، وعمليق ، وعبدُ ضخْم .

وثانيتها – العرب العاربة : وهم بنو قحطان الذين اختاروا اليمن منازلَ لهم ، ومن أُمهات قبائلهم : كهلان وحِمير .

وثالثتُها – العرَب المُستعرِبة : وهم بنو إسماعيل الطارئون على القحطانيين والممتزجون بهم لغة ونسباً ، والمعروفون بعد بالعدنانيين ، ومن أُمهات قبائلهم : رَبيعة ، ومُضرُ ، وإيادٌ ، ونزار .

ومنها المُحدَثون : وهم سلائل هؤلاءِ الأَقوام الممتزجون بسلائل غيرهم ، والمنتشرون بعد الإِسلام فى بقاع الأَرض من المحيط الأَخضر (الأَطلنطى) إلى ماوراءَ بحر فارس ودجْلة ، ومن أَعالى النهرين إلى ما وراء جاوَه وسُومطْرَة .

المقدمة الثانية فى توضيح بعض ما فى المقدمة الأُولى

اعلم أَنه يُوجَدُ فى الجنوب الغربى من آسيا إقليم واسع الأَرجاء ، تبلغ مساحته رُبعَ أَوربا تقريباً ، تسَاهل الأَقدمون فسمُّوه (جزيرة العرب) مع أَن الماءَ لم يحط به من جميع جهاته .

يتأَلف غَرْبى هذا الإِقليم مِن جُزْءين شهيرين : الحجاز شمالاً ، واليمن جنوباً . أَما الحجاز فقطْر فقير ، قلَّت مياهه ، وأَجدبتْ أَرضه ، واشتدت حرارته ، يعتمد أَهله على الأَودية القليلة ، والآبار الشحيحة ، لم يستطيعوا أَن ينتفعوا كثيراً بالماءِ الذى ينزلُ مِنَ السماء ، لأَنهم لم يبلغوا من الفنون مبلغاً يمكنهم من اختزانه واستخدامه عند الحاجة إليه ، وأَشهر مُدنه مكة والمدينة والطائف .

وأَما اليمن فقد اشتهرَ قديماً بالغنى والخِصب والحَضَارة ، كثرت أَمطاره وسيوله وعرَفَ أَهلُه بما أُوتوا من فن أَن ينتفعوا بها ، فأَنشأُوا السدود يسيطرون بها على الماءِ جَمعاً وتصريفاً ، وأَشهرُ مدنه صنعاءُ ، وجران ، وعدَنَ .

وهذان القطرِان – أَعنى الحجاز واليمن – أَبعدُ البلادِ أَثرًا فى حياةِ العرب ، وفى تاريخهم السياسى ، والاقتصادى ، والأَدبى .

وإذا وقع نظرك على (مصور) جزيرة العرب فأَبْيَنُ ماترى فيها وأَبعده مدًى صَحْراؤها فى داخلها، وهى متنوعة فى طبيعتها، فسهلة لينة حيناً، وصلبة انتثرت فيها الحصباءُ حيناً، ومفروشة بحجارة سوداء تسمى الحِرار حيناً. وهذه الصحراءُ فى جملتها قفر، تسطع الشمس عليها فى الحر فتلفح أَرضها وأَهلها، ويعتمد ساكنوها على ما تُنبته البِقاع عقب المطر فترعاه إبلهم وشياههم؛ وهم يأْكلون من لحُومها، ويشربون من أَلبانها، ويلبسون من أَصوافها وأَوبارها.

المقدمة الثالثة فى نسب سكان جزيرة العرب

اعتاد النسَّابُون أَن يُقسِّموا الشعوب إلى أَجناس، ويُسمُّوا كل جنس باسم خاص يجمعها فاعتادوا أَن يُسَمُّوا الجنس الذى منه العرب (الجنس السامى) نسبة إلى (سام بن نوح) عليه السلام، وعدوا من هذا الجنس البابليين والأشوريين والعبرانيين والفينيقيين والأَرمينيِّين والحبشيِّين. ولكن هذا كله لا يزال موضع خلاف بين علماءِ الأَنساب؛ كما اختلفوا فى أَن أَصل (الجنس السامى) نشأَ فى آسيا (فى جزيرة العرب أَو أَرمينيَّة أَو على شاطئ الفرات) أَو نشأَ فى إفريقيَّة ثم نزح منها إلى آسيا.

ومن قديم وهؤلاءِ العربُ ينقسمون إلى عرب الشمال (الحجازيين) وعرب الجنوب (اليمانيين) ويذكر النسَّابون أَن عرب الشمال يرجعون فى نسبهم إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ويُسمُّون النزاريين نسبة إلى نزار من نَسل إسماعيل، وعرب الجنوب من نسل قحطان، ويُسمُّون اليمانيين أَو القحطانيين، وبين هذين النوعين من العرب فروق ترجع فى جملتها إلى أَن عرب الحجاز تغلب عليهم عيشة البداوة، وعرب اليمن يعيشون عيشة حضارة.

ولسنا نقصد أَن عرب الشمال كانوا يسكنون الحجاز فحسبُ وعرب الجنوب كانوا يسكنون اليمن ولا يتعدونها، بل نعنى أَن كلا من الحجازيين واليمانيين

عُنصر يختلف فى نَسبه ودمه عن العنصُر الآخر ، ولكن كانت بين العنصرين صِلاتٌ ، ورَحل قوم من كل فريق إلى موطن الآخر لأَسباب يطول ذكرها ، فكان فى الحجاز عرب من اليمن وكان فى اليمن عرب من الحجاز .

وكل من اليمانيين والحجازيين ينقسمون إلى قبائل .

فاليمانيون يتفرَّعون إلى فرعين كبيرين : شعب كهلان وشعب حِمْير .

فشعب كهلان : قبائله طيِّئ ، وهَمدان . ولخم ، وكِنْدَة .

وشعب حمير : أَشهر قبائله قُضَاعة ، وتنوخ ، وكلب .

والحجازيون : كذلك ينقسمون إلى قسمين كبيرين : ربيعة ، ومُضر .

فشعب ربيعة : أَشهر قبائله بكر ، وتغْلِب .

وشعب مُضر : أَشهر قبائله قيس ، وتميم ، وهُذيل ، وكنانة ، وقريش ، وكل قبيلة من هذه القبائل تنقسم إلى بطون وأَفخاذ يطول عدها ، وكان بين هذه القبائل – حتى ما كان منها من أَصل واحد – من الحروب ، والمنازعات ، والتهاجى ما ملئت به كتب التاريخ والأَدب .

المقدمة الرابعة فى اللغة العربية

وإذ قد ذكرنا قبلُ أَن العرب والعبرانيين ومن إليهم يُعدُّون (ساميين) فلغاتهم التى يتكلمون بها تسمى (لغات سامية) فاللغة العربية إحدى اللغات السامية وقد عرفت على النحو الذى نعلمه ، حول آخر القرن الخامس للميلاد .

ويذهب الباحثون فى علم المقارنة بين اللغات إلى أَن اللغة العربية من أَقرب اللغات إلى اللغة الأَصلية التى تفرعت منها اللغات السامية ، نظراً لاحتباس العرب فى بلادهم وقلة النازحين منها والوافدين إليها ، وضعف العلاقة بين أَهلها وغيرهم من الأُمم .

وكما انقسم العرب إلى حجازيين ويمانيين انقسمت لغتهم إلى مُضرية

وحِميرية وكانت هناك فُروق بين اللغتين عَظيمةٌ فى الأَلفاظِ اللغوية ، وفى الصِّيَغ وفى التراكيب ، وفى اللهجات؛ ولكن حدث قبيل الإسلام أن أَخذت لغة الحجاز ، وبعبارة أَدق (لغة قريش) تسود وما زالت كذلك حتى ظفرت باللغة الحميرية ، وحتى صارت (لغة قريش) هى لغة جزيرة العرب جميعاً . وقد دعا إلى هذه الظاهرة أَسباب سياسية ، ودينية ، واقتصادية ستأْتى الإِشارة إليها بعد .

المقدمة الخامسة فى تاريخ الأُمة العربية

ليس تاريخ الأُمة العربية قبل الإسلام معروفاً محققاً ، لأَن أكثر الأُمة كانوا أَهل بَدو لم تمكنهم بداوتهم من أَن يُدَوِّنوا تاريخهم ، أَو ينقشوا حوادثهم حتى أَن الذين تحضروا منهم كاليمانيين والحميريين لم يعثر الباحثون إلا على القليل من نقوشهم وآثارهم ، وإنما يَعتمدُ الذين يؤرخون للعرب قبل الإسلام على هذا القليل من الآثار ، وعلى ما كتبه أَهل عصرهم من الأُمم الأُخرى كاليونان ، والرومان ، والمصريين ، والعبريين ، والحبشيين ، وعلى ما يستنبطون من بعض نصوص أَدبية . ولنقصر الآن كلامنا على حالة العرب قُبيل الإِسلام ، فإن اللغة العربية التى نعنى بآدابها وتاريخها إنما عُرفت فى هذا العصر .

هذا العصر سمَّاه القرآن الكريم (الجاهلية) ونسبنا إليه فقلنا : العصر الجاهلى ، والأَدب الجاهلى ؛ وقد يكون اشتقاق هذا الاسم من الجهل وهو ضد العلم لما كان يغلب فيه من السفه والفخر بالمال والأَنساب والإمعان فى سفك الدماء والعصبية الحادة ونحو ذلك مما كرهه الإسلام ونفر منه ، وقد نُقل إلينا كثير مما يدل على حالة هذا العصر الاجتماعية والسياسية من شعر وأَمثال وقصص ، ولكنها كلها لم تُدوّن فى الكتب إلا فى القرن الثانى والثالث للهجرة ؛ فكان بعضها مثاراً لنقد الناقدين وأَخذ العلماءُ والأُدباءُ من قديم يمحصونها ، ويُصَحِّحون بعضاً ويكذبون بعضاً ، ولكن بجانب ذلك وَرد كثير من آيات القرآن الكريم

وصحيح الحديث يروى لنا الشىء الكثير عن هذه الحياة الجاهلية ، ويكشف لنا من غموضها .

ويدلنا ماصحّ من تاريخهم على أنه قد أُنشئ على تُخوم جزيرة العرب الشمالية إمارتان كبيرتان : إمارةُ الحيرة فى العراق بجوار الفرس ، وإمارة الغساسنة فى الشام بجوار الرومان ، وكان يحكم هاتين الإمارتين أُمراءُ من العرب يتبعون فى نظامهم نظام الدول المجاورة لهم . فإمارة الحيرة تتبع فى كثير من شئونها نظام الفرْس وإمارة الغساسنة تتبع فى كثير من شئونها نظام الرومان .

وكان سكان هاتين الإمارتينِ وسكان اليمن فى الجنوب يعيشون عيشة حضارة يزرعون ويصنعون ، وكثير من سادتهم مُترَفون . وقد روى لنا الكثير عن ترف أُمراءِ الغساسِنة فى الشام ، وعن حضارة الحيريين ، وماكان لهم من خَوَرْنَق وسدير .

أَما داخل الجزيرة والحجاز ، إذا أَنت استَثْنَيتَ بعض سكان المدن المشهورة — كمكة ويثرِب والطائف — فكانوا أَهل بدو يحتقرون الزراعة والصناعة والتجارة ويعتمدون فى معيشتهم على الإبل ، ويُوغلون بها فى الصحراءِ ، ويتطلبون منابت العشب ، ومراعى الشجر ، وموارد الماء ، ويأْكلون مما تخرجه الأَنعام .

المقدمة السادسة فى حياة العرب الاجتماعية

كان سكان الجزيرة يعيشون عيشة قبائل ، فالقبيلة هى الوحدة التى يُبنى عليها نظام حياتهم ، وأَفرادُ القبيلة ينتسبون إلى أَبٍ واحد ، وقلَّ أَن ينتسب إليها . من لم يُسَاهمها فى نَسَبها إلا عن طريق الحلف أَو الولاءِ[1] .

(١) كان الأسير من قبيلة أخرى اذا لم يستطع فداء نفسه يسمونه بسمة القبيلة التى أسرته ، ويسمى حليفا لها . وكانوا يجيزون استرقاق الأسرى ، فاذا عتق الأسير ظلت هناك صلة بين المعتق والمعتق . وهذه الصلة تسمى الولاء .

وتسود أفراد القبيلة فكرةُ العصبية ، فكلٌّ فرد يتعصب لقبيلته ويعنى بحفظ نسبه ويفتخر به ، ويحنو على من يُشاركه فيه ، ويسير على منهج قبيلته ، سواء أصابت أم أخطأَت ، ومن هذه الظاهرة قول القائل :

وما أَنا إلا من غزيَّة إن غوَت غويت وإن ترشد غزيةُ أَرشد

والقبيلة تحميه من العدوان ، وتطالب بدمه إن جنى أَحد عليه ، ولكل قبيلة رئيس هو سيدها ، وهو مرجع الأَفراد فى إقامة العدل بينهم على حسب عرفهم وتقليدهم .

وعلاقة القبيلة بغيرها من القبائل علاقة عداء غالباً — تُغِيرُ عليها ، وتغنم من مالها ورجالها ، والأُخرى تتربص بها الدوائر لتنتقم منها :

يُغار علينا واترين فيُشتفى بنا إن أُصبنا أَونُغير على وترِ (١)

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا فما ينقضى إلا ونحن على شطر

ولم تكن للعرب فى الجاهلية عدا من ذكرنا قبلُ حكومة تسيطر عليهم جميعاً وتشرف على شئونهم ، لأَن شرط قيام الحكومة انتساب الأَفراد إلى المواطن ، لا إلى القبائل ، وانحلال العصبيات وقيام الجامعة الوطنية الدينية مقام العصبية القبلية ، وهى أُمور لم تتوافر للعرب فى جاهليتها .

كانت القبيلة تنقسم عندهم إلى أُسر ، ونظام الأُسرة كان فى هذا الطور هو المعروف عند علماءِ الاجتماع : بطوْر السلطة الأَبوية ، إذ كان الأَب فيها واسع السلطان نافذَ الكلمة على كل أَفراد الأُسرة ، يتصرَّف فى مالهم وفى شئونهم ويقطع فى الأُمور دُونهم ، وهو المرجع الأَعلى لهم جميعاً ، وكان بعض الأُسر تمتاز بصفات وأَعمال ، تجعل له الرياسة والشرف كبيت هاشم ، وبيت أُمَيةَ فى قريش ، وبيت زُرارة فى تميم ، وهكذا .

(١) الواتر القاتل ، والموتور الذى قتل له قتيل فلم يأخذ بدمه ، وواترين حال من الضمير فى علينا .

المقدمة السابعة فى أخلاقهم

ترى أن أكثر العرب أهل بدو . ولأهل البدو صفات خاصة يتمدحون بها ويُكثرون فى شعرهم من ذِكرِها والتغنّى بها ولعل من خير ما يمثل هذه الصفات ماجاء فى قول «تأبطَ شرًّا» أحد الشعراء الجاهليين[١] إذ يمدح ابن عم له بأنه قليل الشكوى من الهمّ ينزل به ، بعيد الهمة واسع الأمل يسير وحيدًا لايهاب ، ويركب المهالك ولا يخشى مُواجهتها ، (عدّاء) يسبق الريح السريعة ، إن نام فإنما تنام عينه ، ولا ينام قلبه ، وإن صحا كانت عينه دَيدَبان قلبه . وله سيفٌ صارمٌ ، إن أصاب به قِرنا استقبلته المنايا مُتهللةً ، لا يخشى الوحدة بل يأنس بها ، ويعرف مسالك الصحراء فلا يضلُّ فى سيره ، كما لا تضل الشمس ، وهذه الصفات كما ترى هى (المثل الأعلى) للبدوىّ لا للحضرى .

وقد تمدَّحوا بالمُروءة وأكثروا من ذكرها ، وهو لفظ يجمع قانون الشرف عمادُه الشجاعة والكرم والوفاءُ ، وأكثر ما تتجلى فيه الشجاعة عندهم النزال والقتال والدفاع عن الأهل والقبيلة ونجدَة المستصرخ . وأكثر ما يتجلى فيه الكرم إيقاد النيران ونحر الجزور ، وإضافة اللاجئ .

---

(١) قليل التشكى للمهم يصيبه	كثير الهوى شتى النوى والمسالك
يظل بموماة ويمسى بغيرها	جحيشا ويعرورى ظهور المهالك
ويسبق وفد الريح من حيث تنتحى	بمنخرق من شدة المتدارك
اذا حاص عينيه كرى النوم لم يزل	له كالىء من قلب شيحان فاتك
ويجعل عينيه ربيئة قلبه	الى سلة من حد أخلق صائك
اذا هزه فى عظم قرن تهللت	نواجذ أفواه المنايا الضواحك
يرى الوحشة الأنس اللذيذ ويهتدى	بحيث اهتدت أم النجوم الشوائك

الموماة : المفازة التى لا ماء فيها ، وجحيشا : وحيدا ، ويعرورى ظهور المهالك : يركبها ، مأخوذ من قولهم اعروريت الفرس اذا ركبته عاريا ليس عليه شىء ، ووفد الريح أولها والمعنى أنه يسبق الريح لخفته ، والمنخرق السريع والمتدارك المتلاحق ، حاص خاط ، والشيحان الحازم . والفاتك الذى اذا هم بشىء فعله ، ربيئة القلب ديدبانه — ويريد بالسلة السيف الذى يستل . ام النجوم : الشمس .

فأما الشجاعة فيمثلها فى نظرهم قول عمرو بن معديكرب :

لما رأيتُ نِساءَنا يفحصن بالمعزاءِ شدّا(١)
وبدت «لمِيس» كأنها بدرُ السماءِ إذا تبدّى
وبدت محاسنها التى تخفى وكان الأمرُ جدّا
نازلتُ كبشَهُمُ ولم أَرَ من نزالِ الكبش بُدا(٢)
هم يُنذرون دمى وأنذرُ إن لقيتُ بأن أَشُدا
كم من أخٍ لِى صالحٍ بوّأْتُهُ بيدَىّ لَحدَا
ما إن جزِعتُ ولا هلعتُ ولا يرُدُّ بكاى زنْدا
أَلْبستُه أثوابَه وخلِقتُ يوم خلقت جلدًا
أغنِى غَناء الذاهبين أَعُد للأَعداء عَدّا
ذهب الذين أحبُّهم وبقيتُ مثل السيفِ فردا

وأما الكرم ، فمن خير ما يمثله فى نظرهم قول عتبة بن بجير :

فقالوا غريبٌ طارقٌ طوحَتْ به متونُ الفيافى والخطوب الطوائح(٣)
فقمتُ ولم أَجثم مكانى ولم تقم مع النفس علات البخيل الفواضح
وناديتُ شبلا فاستجاب وربما ضمنا قِرَى عشر لمن لا تصافح(٤)
فقام أبو ضيف كريم كأَنه وقد حد من فرط الفكاهة مازحُ(٥)
إلى جِذم مالٍ قد نهكنا سوامه وأعراضنا فيه بواق صحائح(٦)

(١) المعزاء : الأرض الصلبة ذات الحجارة . ومعنى يفحصن بالمعزاء شدا : أى أنهم يؤثرون فى الأرض الصلبة لشدة عدوهن .
(٢) كبش القبيلة رئيسها . (٣) الخطوب الطوائح : أى المصائب المهلكة . وطوحت به حملته على ركوب المهالك . (٤) شبل اسم ابنه ! وقرى عشر أى ضيافة عشر ليال لمن ليس بيننا وبينه مصادقة توجب مصافحته . (٥) أبو ضيف يريد نفسه . (٦) الى جذم . متعلق بقام فى البيت قبله ، ويريد بجذم المال أصل المال ، وهو النوق جمع ناقة .

جعلناه دون الذمِّ حتى كأَنه إذا عُدّ مَال المكثرين المنائح[١]

لنا حمد أَرباب المئين ولا يُرى إلى بيتنا مالٌ مع الليل رائح[٢]

وقد أَحبوا كثيراً ، وشربوا الخمر ، ولعبوا الميسر ، وشُغفوا بالصيد . وطربوا للغناء وتاقوا إلى السمر ، وكان هذا كله مادة لشعرِهم وأَدبهم .

المقدمة الثامنة فى دينهم

كان للعرب فى الجاهلية دينٌ ، ولكنه دين ضعيف ، لا يُخلصون له ولا يصل إلى أَعماق نفوسهم ، وحسبنا دليلًا على ذلك أَننا ننظر فيما بين أَيدينا من شعرهم فنرى فيه الصيد كثيراً ، والخمر والنساء والميسر كثيراً ، والفخر والهجاء ووصف القتال كثيرا ، ولكن قل أَن نرى فيه شرحاً لعاطفةٍ دينية ، وقل أَن نرى فيه ذكر الله وتمجيده ، وقل أَن نرى فيه وصفاً لما كانوا يعبدون .

انتشرت اليهودية والنصرانية فى بعض بقاع جزيرة العرب ، فقد كان فيها مستعمرات يهودية أَشهرها «يثرب» وهى سميت بعدُ «بالمدينة» ، كذلك انتشرت اليهودية فى اليمن فى أَوائل القرن السادس للميلاد ، ولكنها كانت فى نزاع مستمر مع النصرانية .

وانتشرت النصرانية فى مناذِرةِ الحيرة ، وفى غساسنة الشام ، وسائر قبائله وزاحمت اليهودية فى اليمن ، وكان أَشهر مراكز النصرانية فى اليمن مدينة نجران.

وكان القسيسون والرهبان يردون أَسواق العرب يعظون ويبشِّرون ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار ، واشتهر من شعرَائهم وخطبائهم (عدىٌّ بن زيد وقس بن ساعِدة) ولكن اليهودية والنصرانية كانتا قليلتين إذا قيستا بالدين السائد فى الجزيرة وهو الوثنية ، فقد عبد العرب الأَصنام ، وعظموا الأَوثان

(١) المنائح : جمع منيحة وهى الناقة أو الشاة تدفع الى الجار لينتفع بلبنها مادام فيها لبن . (٢) يقول : ان مالنا قليل فابلنا باركة بفناء الدار انتظارا للضيف وهى ليست كثيرة حتى تصير سارحة ورائحة ومع ذلك لنا من الحمد والثناء مثل ما للمكثرين أصحاب المئين .

ونصبوها فى الكعبة ، وقرّبوا لها القرابين ، وكان من أشهر هذه الأَصنام (اللّات والعزّى ومناةَ) وكان تقديسها يكاد يعم قبائل العرب ، وإن كان ثم أَصنام أُخرى خاصة ببعض القبائل .

المقدمة التاسعة فى ثقافتهم

كانت المدن على التخوم واليمن مُتحضرة بعض تحضر ، فالآثارُ التى عُثر عليها فى اليمن والحيرة . وما نقل عن أَهلها يدل دلالة صادقة على أَنهم كانوا على حظ من الفن والعلم غير قليل : فأَهل الحيرة تسرب إليهم شىء من علوم الفرسِ وآدابهم وعلوم اليونان وآدابهم والغساسنة فى الشام تسرب إليهم شىء من حضارة الرومان واليونان وآدابهم . واليمن أُمة عريقة فى المدنية كانت تتصل بالفرس، وتتصل بالحبشة وتتصل بالرومان ، ولها معهم جميعاً صلات تجارية— أَما ماعدا هؤلاء من سكان الجزيرة فكان حظهم من العلم والفن قليلا .

وعلى الجملة كان للعرب معرفةٌ بالأَنساب ، وبشىءٍ من أَخبار الأُمم ، وبشىءٍ من الطب . ولكن ما كان عندهم من ذلك لم يَعدُ أَن يكون معلومات عملية أَولية وتجارب ينقصها الاستقراء ، ونظرات عامة يعوزها التعمق والاستقصاءُ .

أَما من الناحية الأَدبية فكان لهم شِعرٌ وقصص وأَمثال — وقد طبع كل ذلك بطابع عقليتهم التى أَنتجها تاريخهم وبيئتهم كما سترى .

المقدمة العاشرة فى عصور اللغة العربية وآدابها

لما كان تاريخ لغة أَى أُمة وأَدبها يرتبط كل الارتباط بالحوادث السياسية والدينية والاجتماعية التى تقع بين ظَهرانَىْ هذه الأُمة . ناسب لذلك تقسيم تاريخ أَدب اللغة العربية إلى خمسة أَعصر :

الأَول : عصر الجاهلية ، وينتهى بظهور الإسلام . ومدته نحو خمسين ومائة سنة .

الثانى : عصر صدر الإسلام ويشمل دولة بنى أُميَّة ؛ ويبتدى بظهور الإسلام ، وينتهى بقيام دولة بنى العباس سنة (١٣٢) هـ .

الثالث : عصر بنى العباس ؛ ويبتدئ بقيام دولتهم وينتهى بسقوط بغداد فى أَيدى التَّتار سنة (٦٥٦) هـ .

الرابع : عصر الدول التركية ؛ ويبتدئُ بسقوط بغداد وينتهى بمبدإِ النهضة الأَخيرة سنة (١٢٢٠) هـ .

الخامس : عصر النهضة الأَخيرة ؛ ويبتدىءُ من حكم الأُسرة المحمدية العلوية بمصر .

العصر الأَول عصر الجاهلية

حالة اللغة العربية وآدابها فى ذلك العصر

لغة العرب من أَغنى اللغات كلماً ، وأَعرقها قدماً ، وأَوسعها لكل مايقع تحت الحسِّ ، أَويجول فى الخاطر : من تحقيق علوم ، وسنّ قوانين ، وتصوير خيال ، وتعيين مرافق . وهى على هندمة أَوضاعها ، وتناسُق أَجزائها لغة قوم أُميينَ ، ولا عجب إن بلغت تلك المنزلة : من بسطة الثروة ، وسعة المدى ، إذ كان لها من عوامل النمو ، ودواعى البقاءِ والرقى ، ما قلَّما يتهيأ لغيرها . وما رواه لنا منها أَئمة اللغة وجاءَ به القرآن الكريم والحديث النبوى هو نتيجة امتزاج لغات الشعوب التى سكنت جزيرة العرب ، ولا شك فى أَن من أَسباب امتزاج هذه اللغات ما يأْتى :

(١) هجرة القحطانيين إلى جزيرة العرب ومخالطتهم فيها العرب البائدة باليمن ثم تمزُّقهم فى بقاع الجزيرة كل ممزق بظلمهم أَنفسهم وتخرُّب بلادهم بسيل العرم[1]

(١) العرم : جمع عرمة كفرجة وهى سد يعترض به الوادى أو هو جمع بلا واحد أو هو الأحباس والسدود تبنى فى الوادى لحبس المياه خلفها وهى المسماة الآن بالخزانات وحادثة سيل العرم أنه كان لسبأ فى اليمن عرم تحبس الماء خلفها فتوزع بنظام فهدمت العرم بسيل عظيم أغرق البلاد ودمر القرى أمامه فكان هو مع كثير من الفتن والحروب الأهلية سببا فى تفرق قبائل سبأ فى أنحاء جزيرة العرب حتى ضرب بهم المثل فى التفرق فقيل « تفرقوا أيدى سبأ » .

(٢) هجرة إسماعيل عليه السلام إلى جزيرة العرب واختلاطه وبنيه بالقحطانيين بالمصاهرة والمجاورة والمحاربة والمتاجرة ، وأظهرُ مواطن هذا الامتزاج مشاعر الحج والأَسواق التى كانت تقيمها العرب فى أَنحاءِ بلادها ومن هذه الأَسواق : عكاظ ، ومجنة ، وذو المجاز .

وأَهَمها سوق عكاظ ؛ وكانت تُقام من أَول ذى القعدة إلى اليوم العشرين منه ، وأُقيمت تلك السوق بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة . وبقيت إلى ما بعد الإسلام حتى سنة تسع وعشرين ومائة . وكان يجتمع بهذه السوق أَكثر أَشْراف العرب للمتاجرة ومُفاداة الأَسرى ، والتحكيم فى الخصومات ، وللمفاخرة والمنافرة بالشعر والخُطب ، فى الحسب والنسب والكرَم والفصاحة والجمال والشجاعة ، وما شاكل ذلك . وكان من أَشهر المحكمين فى الشعر « النَّابغة الذبيانى » ، ومن أَشهر خُطبائها « قس بن ساعدة الإيادى » . وقد لهج الشعراء بذكرها فى شعرهم وحَضرها منهم الرجال والنساء ولقريش عظيم الأَثر فيما نجم عن اجتماع العرب بتهذيب لغتهم .

كلام العرب

الغرضُ من كلام العرب كغيره الإبانة عما فى النفس من الأَفكار . ليكون مدعاة إلى المعاونة والمعاضدة ، ذريعة إلى تسهيل أَعمال الحياة .

ولما كانت هذه الأَفكارُ لا تزال متجدِّدَةً غير متناهية ، كانت صور الكلام المبين عنها لا تزال كذلك متجدِّدةً خاضعة لقوى الاختراع والابتداع وأَنواع الإنشاء والتأْليف على حسب ما يقتضيه المقام ؛ فقد تصل صورة الكلام إلى الغاية القصوى فى البلاغة . وقد تنحطُّ صورة العبارة إلى الدرك الأَسفل من الإبانة بحيث لو انحطت عن ذلك لكانت عند الأُدباءِ بأَصوات العجماوات أَشبه وبين الحالين مراتب . وجلُّ بحث علم الأَدب وتاريخه فى التفاوت بين هذه المراتب ورجالها .

وكلام العرب بمراتبه العليا والدنيا وما بينهما تعتورهُ كغيره أَحوال تتغير بتغيُّر حياة أَهله العقلية والمعاشية والدينية ، وتلك الأَحوال تتمثل فى «أَغراض اللغة ، ومعانيها ، وعباراتها» .

أَغراض اللغة فى الجاهلية

(١) كانت اللغة تستعمل فى أَغراض المعيشة البدوية ، ووصف مرافقها من حل وترحال ، وانتجاع كلإٍ ، واستدرار غيث ، ونَتج حيوان .

(٢) وفى إِثارة المنازعات والمشاحنات ، وما يتبعها من الحض على إِدراك الثأْر ، والتفاخر بالانتصار ، والتَّباهى بكرَم الأَصل والنَّجَار .

(٣) شرح حال المشاهدات والكيفيات ، والإِخبار عن الوقائع والقصص وغير ذلك .

معانى اللغة فى الجاهلية

تجمل معانى اللغة فيما يأْتى :

(١) فى قصر معانى المفرَدات على ما تَقتضيه البداوة والفطرة الغضة الخالية من تَكلف أَهل الحضر وتأَنقهم .

(٢) وفى انحصار أَحكامِهم فى (الخبر) ومطالبهم فى (الإِنشاءِ) إِما فى التعقل المستنبط من الحس ، والمشاهدة ، أَو الطبيعة ، أَو التجرِبة ، أَو الوجدان من غير مبالغة ولا إِغراء ، وإِما فى التخيُّل المنتزعة صوره من المحسوسات بحيث لا تخرج عن الإِمكان العقلىّ والعادىِّ .

عبارة اللغة فى الجاهلية

تلخص أَحوال العبارة فى الجاهلية فيما يأْتى :

(١) استعمال الأَلفاظ فى معانيها الوضعية ، أَو معان مناسبة للمعنى الأَصلى بطريق المجاز الذى يصبح بعد قليل وضعاً جديداً .

(٢) كثرة استعمال المترادِف، وقلة الأَعجمى المعبر عنه بالمعرَّب، وخلو الكلام العربىِّ من اللحن، وغلبة الإِيجاز عليه، كما تراه واضحاً فى شعرهم.

(٣) إرسال الأَساليب الكلامية على حسب ما تقتضيه البلاغة بدون تكلف

تقسيم كلام العرب

ينقسم كلام العرب قسمين: نثرا، ونظماً.

فالنظم هو الموزون المقفى، والنثرُ ما ليس مُرتبطاً بوزن ولا قافية.

النثر ـ المحادثة ـ الخطابة ـ الكتابة

الأَصل فى الكلام أَن يكون منثورًا: لإِبانته عن مقاصد النفس بوجه أَوضح وكلفة أَقل: وهو إما حديث يدور بين الناس وبعض فى إِصلاح شؤون المعيشة، واجتلاب ضروب المصالح والمنافع، وذلك مايسمى (المحادثة) أَو (لغة التخاطب) وإما خطاب من فصيح نابه الشأْن، يُلقيه على جماعة فى أَمر ذى بال، وهذا ما يسمى (الخطابة)، وإما كلامٌ نفسى مدلول عليه بحروف ونُقوش لإِرادة عدم التلفظ به أَو لحفظه فى الخلف، أَو لبعد الشقة بين المتخاطبين وذلك ما يسمى (الكتابة)، إذًا فأَقسام النثر ثلاثة: محادثة، وخطابة، وكتابة.

وكلها إما أَن تكون كلاماً خالياً من التزام التقفية فى أَواخر عباراته، وذلك ما يسمى «النثر المرسل» وإما أَن تكون قطعاً ملتزَماً فى آخر كل فقرتين منها أَو أَكثر قافية واحدة وهذا ما يسمى «السجع» وهو نوع من الحلية اللفظية إذا جاءَ عفوا ولم يُتعمد التزامه، ولحسن وقعه فى الأَسماع، وحوكه وتأْثيره فى الطباع، وكان أَكثر ما يستعمل فى الخطابة، والأَمثال والحكم، والمفاخرات والمنافرات.

المحادثة، أَو لغة التخاطب

لغة التخاطب عند عرب الجاهلية بعد أَن توحدت لغاتها هى اللغه المعربة المستعملة فى شعرها وخطبها وكتابتها، ولافرق بينها فى البلاغة إلابقدرماتستدعيه حال الخطابة والشِّعر والكتابة من نبالة الموضوع، والتأَنق فى العبارة.

وأكثر ما وصل إلينا ما كان شريف المعنى ، فصيحَ اللفظ .

الخطابة

لمَّا كان جُلُّ العرب فى جاهليتها قبائل مُتبدِّية لا يربطها قانون عام ولا تضبطها حكومة مُنظمة .

ومن شأْن المعيشة البدوية شَن الغارات لأَوهى الأَسباب ، والمدَافعة بالنفس عن الرُّوح والعرض والمال ، والمباهاة بقوَّة العصبية وكرَم النجارِ وشرف الخِصال وللقول فى ذلك أثر لا يَقلُّ عن الصول ، كانت الخطابة لهم ضرورية ، وفيهم فطريَّة . وإنما لم تصل إلينا أَخبار خطبائهم الأَوائل ، وشىءٌ من خُطبهم كما كان ذلك فى الشعر ، لحفلهم قديماً بالشعر دون الخطابة ، ولصعوبة حفظ النثر .

وما عُنى الرُّواة بنقل أَخبار الخطباء وخُطبهم إلا عند ما حلت الخطابة بعدُ منزلة أَسمى من الشعر لابْتذَالهِ بتعاطى السفهاء والعامة له وتلوثهم بالتكسب به والتعرض للحُرَم ، فنبُه بذلك شأْن الخطابة ، واشْتهرَ بها الأَشْرَاف .

وكان لكلٍّ قبيلة خطيب ، كما كان لكلٍّ قبيلة شاعر .

وأَكثر ما كانت الخطابة فى التحريض على القتال والتحكيم فى الخصومات وإصلاح ذات البين ، وفى المفاخرات والمنافرات ، والوصايا ، وغير ذلك .

وكان من عادة الخطيب فى غير خُطب الإملاك والتزويج أن يخطب قائماً أَو على نشز مرتفع من الأَرض ، أَو على ظَهر راحلته ، لإبعاد مدى الصوت وللتأْثير بشخصه ، وإظهار مَلامح وجهه ، وحركات جوارحه ، ولا غِنًى له عن لوْث وعَصبِ العمامة ، والاعتماد على مخصرَة أَو عَصا أَو قناة أَو قوس ، وربما أَشار بإِحداها ، أَو بِيده .

وخُطباءُ العرب كثيرون (من أَقدمهم كعب بن لؤىّ) وكان ذا نفوذ عظيم فى قومه ، حتى أَكبروا موته ، وذا الإصبع العدوانى وهو حرثان بن محرث .

(ومن أشهرهم) قيسُ بن خارجة بن سنان خطيب حرب داحِس والغبراء[١]، وخويلد بن عمرو الغطفانى، خطيب يوم الفجار[٢]، وقس[٣] بن ساعدة الإيادى، خطيب عكاظ، وأكثم بن صيفى زعيم الخطباء الذين أوفدهم النعمان على كسرَى: وهم أكثم بن صيفى، وحاجب[٤] بن زرارة التميميان، والحارث بن عباد[٥]، وقيس بن مسعود[٦] البكريّان، وخالد بن جعفر[٧]، وعلقمة بن علاثة[٨]، وعامر بن الطفيل[٩] العامريون، وعمرو بن الشريد السلمى[١٠]، وعمرو

(١) داحس والغبراء فرسان لقيس بن زهير سيد عبس. راهنه حذيفة بن بدر الفزارى على أن يسابقه بفرسيه، الخطار والخنفاء، فوضعت فزارة كمينا فى طريق السباق. فلطم وجه الغبراء وكانت سابقة. فهاجت الحرب بين عبس وفزارة، ثم عبس وذبيان لنصرتها فزارة، وفى القصة روايات أخرى. (٢) يوم الفجار حرب كانت بين قريش وهوازن حضرها النبى صلى الله عليه وسلم. (٣) ستأتى ترجمة قس وأكثم. (٤) سيد من سادات تميم. وهو الذى وفد على كسرى حين منع تميما من ريف العراق حتى أصابهم القحط فأعجب به ومنحه مطلبه وتعهد له حاجب بحسن الجوار. ورهن عنده قوسه على ذلك فقبلها منه وبقيت عند كسرى حتى أخذها ابن حاجب ثم بيعت بعد بأربعة آلاف درهم. (٥) كفراب كان خطيبا مؤثرا. وشاعرا بليغا. وله عمل جليل فى الحرب التى نشبت بين بكر وتغلب لمقتل كليب بعد أن اعتزلها. وله فيها قصيدة مشهورة منها:

قربا مربط النعامة منى لقحت حرب وائل عن حيال

(٦) هو قيس بن مسعود بن خالد بن ذى الجدين كان كريما عالى الهمة من أفضل العرب حسبا ونسبا وكانت تقر له كلها بذلك بل هى وكسرى أيضا. وكان له حظيرة فيها مائة من الابل لأضيافه اذا نحرت ناقة قيدت أخرى مكانها. (٧) سيد من سادات بنى عامر. خلص قومه من العبودية لغطفان بعد أن قتل سيدها زهير بن خزيمة.

(٨) خطيب بليغ اشتهر فى قومه بالعفة والمحافظة على الجوار والعقل الراجح والحسب الواضح. (٩) هو ابن عم لبيد الصحابى شاعر متين، وفارس من أشهر فرسان العرب نجدة وأبعدهم اسما. ولقد بلغ من شهرته أن قيصر كان اذا قدم قادم من العرب قال ما بينك وبين عامر، فان كانت بينه وبينه رحم ووشيجة قربه وأكرمه. (١٠) هو أبو السيدة تماضر الخنساء يميل الى الفخر والصراحة فى القول ــ ولقد بلغ من تغاليه فى ذلك أنه كان يأخذ ابنيه معاوية وصخرا فى المواسم العامة.

ابن معديكرب[١] الزُّبيدى ، والحارث بن ظالم[٢] المرِّى .

قُسُّ بن ساعدة الإيادى

هو خطيب العرب قاطبة ، والمضروب به المثل فى البلاغة والحكمة ، كان يدين بالتوحيد ، ويؤمن بالبعث ، ويدعو العرب إلى نبذ العكوف على الأَوثان ، ويرشدهم إلى عبادة الخالق . ويقال إنه أَول من خطب على شرف ، وأَول من قال فى خطبته « أَما بعدُ » وأَول من اتكأَ على سيف ، أَو عصاً فى خطابته ، وكان الناس يتحاكمون إليه ، وهو القائل : « البينة على من ادَّعى ، واليمين على من أَنكر » وسمعه النبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة يخطب فى عُكاظ ، فأَثنى عليه وعَمَّر قُسٌّ طويلا . ومات قبيل البعثة — ومن خطبه خطبته التى خطبها فى سوق عكاظ وهى — أَيها الناس : اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ماهو آت آت ، ليلٌ داج ، ونهارٌ ساج ، وسماءٌ ذات أَبراج ، ونجوم تزخر ، وجبال مرساة ، وأَرض مُدحاة ، وأَنهار مُجراة ، إن فى السماء لخبرا وإن فى الأَرض لعبرا ، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ، أَرَضُوا بالمقام فأَقاموا ؟ أَم تركوا فناموا ؟ يُقْسِم قُسٌّ بالله قسماً لا إِثمَ فيه ، إن لله ديناً هو أَرضى لكم وأَفضل من دينكم الذى أَنتم عليه ، إنكم لتأْتون من الأَمر منكرا .

فى الذاهبين الأَولين من القرون لنا بصائر
لما رأَيت مواردًا للناس ليس لها مصادر
ورأَيت قومى نحوها تمضى الأَكابر والأَصاغر

---

(١) خطيب شاعر وفارس قاهر وصحابى جليل شهد حربى اليرموك والقادسية وأبلى فيهما البلاء الحسن على كبر سنه وضعف جسمه .

(٢) كان شجاعا فاتكا وخطيبا شاعرا يميل الى معاقرة الخمر وهو الذى قتل خالد بن جعفر غيلة لقتله أباه وكثيرا من قومه .

لا يرجع الماضى إلينا ولا منَ الباقين غابر
أَيقنتُ أَنى لا محا له حيث صار القوم صائر

أَكثم بن صيفى

هو أَعرف الخطباء بالأَنساب وأَكثرهم ضربَ أَمثال ، وإصابة رأْى وقوة حجة ، وقَلَّ من جاراه من خطباءِ عصره ، وهو زعيم الخطباءِ الذين أَوفدهم النعمان على كسرى ، ولقد بلغ من إعجابه به أَن قال له : لو لم يكن للعرب غيرُك لكفى وقد عمر طويلا حتى أَدرك مبعث النبى صلى الله عليه وسلم وجمع قومه وحثهم على الإِيمان به ، وفى إسلامه رواياتٌ . وكان فى خطبه قليل المجاز ، حسن الإِيجاز ، حلو الأَلفاظ ، دقيق المعانى ، مُولعاً بالأَمثال (راجع خطبه فى فن المناظرات الآتية) .

الكتابة

يراد بالكتابة عند الأُدباءِ : صناعة إنشاءِ الكتب والرسائل ، وإذا كانت الكتابة بهذا المعنى تؤدَّى بالنقوش المسماة بالخط ، فأَوَّل حلقة من سلسلة الخط العربى هى الخط المصرى القديم ، ومنه اشتق الخط الفينيقى ، ومن هذا اشتق الآرامى ، والمسند بأَنواعه ، والصفوى ، والثمودِى واللحيانى ، شمالى جزيرة العرب ، والحميرى جنوبيها .

ورواة العرب يقولون : إنهم أَخذوا خطهم الحجازى عن أَهل الحيرة والأَنبار .

أَما الكتابة : بمعنى إنشاءِ الكتب والرسائل ، فهى لازمة لكل أُمة متحضرة ذات حكومة منظمة ، ودواوين متعددة ، وقد كان بعض ذلك موفوراً فى ممالك التبابعة جنوباً ومأْثورا عن ممالك المناذرة الغساسنة شمالا ، ولذلك استعمل الخط المسند الحميرى عند الأَولين من عهد مديد ، والأَنبارى الْحِيرى عند الآخرين ، وإنما لم يصل إلينا شىءٌ من رسائل تلك الأُمم . ولا من كتب فنونها ودينها غير قليل عثروا عليه لتقادُم عهد أَهلها ، وعدم استكمال البحث بعد فى بلادها .

ولم يُعرِّفنا التاريخ أيضاً بأحد من كتّاب هذه الصناعة إلا (بعدِى بن زيد العبادىِّ) الذى كان كاتباً ومترجماً عند كسرى .

أما البدو من سكان أواسط الجزيرة وهم جمهور مُضر ، وبعض القحطانيين فكانوا أُمِّيين ــ ومن المعقول أنهم لم يعرفوا الكتابة الإنشائية إلا بعد أن عرفوا الخط (آخر عصور الجاهلية) ، وما نقل عنهم فيه أنهم كانوا يكتبون فى بدءِ رسائلهم : باسمك اللهمَّ ؛ ومن فلان إلى فلان ، وأمَّا بعد .

ولم تقم لهم دولة بالمعنى السابق إلا بقيام الإسلام ، فهو الذى أفشى فيهم الخط والكتابة .

ولما كانت علوم كل أُمة لها الأثر العظيم فى تكوين فكر الأديب ، وخيال الشاعر ، وكانت كتابتها قسما قائماً بنفسه يسمى كتابة التدوين ، ناسب شرح ذلك .

علوم العرب وفنونها

العلوم والصناعات لازمة لحضارة الأُمم ، ومن العرب أهلُ حضارة دلت عليها دولهم العظيمة وَقِدَمُ تاريخهم ، وآثارهم الخالدة ، التَّبابعةُ فى اليمن ، والمناذِرَةُ والغساسنة فى الشمال ــ وإذًا تكون هندسة إرواء الأرض وعمارة المدن ، والحساب والطب ، والبيطرة ، والزراعة ، ونحوها معروفة فى الجنوب والشمال مدوَّنة فى الكتب ، وإن لم يحفظ لنا الدهرُ صوراً منها ــ أما البدوُ منهم : وإن كانوا أميين يمقتون الصناعاتِ فلا غِنَى لهم تجربة تُرشدهُم إلى ما ينفعهم ، ليعرفوا متى تجود السماءُ ، وبمَ يتميز الأقرباءُ من البعداءِ ؟ فأكسبهم ذلك علم النجوم والطب الضرورى ، والأنسابَ والأخبار ، ووصف الأرض ، والفراسة والعيافة ، والقيافة ، والكهانة ، والعرافة ، والزجر ؛ وقرض الشِّعر .

أما علم النجوم ــ وهو معرفة أحوال الكواكب ــ فقد كانوا أبرع ناطق

فى هذا العلم منهم فى كل علم سواه ، تعرفه عامتهم قبل خاصتهم للاهتداء به فى ظلمات البر والبحر ، ومعرفة أزمنة الخصب والمحل ، وبعض معارفهم فيه مستمد من الكَلْدان لاختلاطهم بهم ولاتفاق اللغتين فى كثير من أسماء الكواكب والبروج :

ومن أَشهرهم فيه (بنو حارثة بن كلب ، وبنو مرة بن همام الشَّيبانى) .

الطب الإنسانى والحيوانى (البيطرة) ، وقد عاناه من العرب كثيرون .

ومن مشهوريهم (الحارث بن كِلدة الثقفى ، وابن حذيم التيْمىّ) .

الأَنساب : علم تتعرف به القرابات التى بين بعض القبائل وبعض ، فتُلحق فروعها بأُصولها ، وإنما دعاهم إلى العناية به حاجتُهم إلى التناصر بالعصبية ، لكثرة حروبهم ، وتفرق قبائلهم وأَنفتهم من أَن يكون للغريب عنهم سلطان عليهم وحبهم الافتخار بأَسلافهم .

وممن اشتهر بمعرفة أَنساب العرب (دغفل بن حنظلة الشيبانى وزيد بن الكيس النمرى ، وابن لسان الحُمرّة) ولهذا يحفظون أَنسابَهم .

الأَخبار والتاريخ والقصص : هى معرفة أَحوال السابقين ، وكانوا يعرفون منها ما كان عليه أَسلافهم ، وبعض مجاوريهم من الأَحوال المأْثورة ، ووقائع أَيامهم المشهورة ، كقصة الفيل ، وحرب البسوس وحرب الفجار .

وصف الأَرض : هو معرفة كل بُقعة وما يجاورها ، وكيف يهتدى إليها .

ومن قرأَ شعر العرب فى نسيبهم ، واطلع على وصفهم ، وكيف كانوا يحددون الحقير منها بحدود قلما تحد به مملكة عظيمة ، عرف شدة حذقهم بمعرفة بلادهم .

الفراسة : هى الاستدلال بهيئة الإنسان وشكله ولونه وقوله على أَخلاقه وفضائله ورذائله ، وقد نبغ فيها من العرب من لا يحصى عددهم ، ولهم فى ذلك نوادر شتَّى .

القيافة : ضربٌ من الفراسة وهى الاهتداءُ بآثار الأَقدام على أَربابها ، أَو الاستدلال بهيئة الانسان وأَعضائه على نسبه . فقد كانوا يميزون بين أَثر الرجل

والمرأة ، والشيخ ، والشاب ، والأعمى ، والبصير ، والأحمق والكيس .

وإذا نظروا عدة أشخاص ألحقوا الابن بأبيه ، والأخ بأخيه ، والقريب بقريبه وعرفوا الأجنبي من بينهم – وممن اشتهر بالقيافة (بنو مدلج ، وبنو لهب) .

الكهانة والعرافة : وهما القضاء بالغيب ، وربما خصت الكهانة بالأمور المستقبلة والعرافة بالماضية ، وطريقهم فى ذلك الاستدلال ببعض الحوادث الخالية على الحوادث الآتية ، لما بينهما من المشابهة الخفية ، وللعرب فى الكهان اعتقاد عريض لزعمهم أنهم يعلمون الغيب ، فيرفعون إليهم أمورهم للإستشارة ويستفسرونهم عن الرؤى ، ويستطبونهم فى أمراضهم – وممن اشتهر من الكهان (شق أنمار ، وسطيح الذئبى) ومن الكواهن (طريفة الخير ، وسلمى الهمدانية) ومن العرافين (عراف نجد الأبلق الأسدى ، وعراف اليمامة رباح بن عجلة) .

الزجر : وهو الاستدلال بأصوات الحيوان ، وحركاته ، وسائر أحواله على الحوادث بقوة الخيال ، والاسترسال فيه .

ومن أشهر الزجارين : بنو لهب ، وأبو ذؤيب الهذلى ، ومرة الأسدى .

ومن العرب من لم يعبأ بالزجر وما شاكله كلبيدبن ربيعة القائل :

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى   ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وكضابئ بن الحارث القائل :

وما عاجلات الطير تدنى من الفتى   نجاحا ولا عن ريثهن يخيب

ورب أمور لاتضيرك ضيرة   وللقلب من مخشاتهن وجيب

ولا خير فيمن لايوطن نفسه   على نائبات الدهر حين تنوب

النظم ، والشعر ، والشعراء

النظم : عرفه العروضيون بأنه الكلام الموزون المقفى قصدًا – ويرادفه الشعر عندهم – أما المحققون من الأدباء فيخصون الشعر بأنه الكلام الفصيح الموزون

المتفنّ ، المعبر غالباً عن صُور البديع ، ولمَّا كان الخيال أَغلب مادته أطلق بعض العرب (تجوزًا) لفظ الشِّعر على كل كلام تضمن خيالا ، ولو لم يكن موزوناً مُقفى ولجرْيه وفق النظام الممثل فى صورة الوزن والتقفية كان تأْثيره فى النفس من قبيل إثارة الوِجدان والشعور ، بَسطًا وَقَبضاً وترغيباً وترهيباً ، لا من قَبيل إقناع الفكر بالحجة الدامغة ، والبرهان العقلى ، ولذلك يَجملُ أَثره فى إثارة العواطف وتصوير أَحوال النفس ، لا فى الحقائق النظرية ، ولا رَيب أَن تَرتاع بصور المحسوس الباهر وما انتُزع منه من الخيال الجَلِىِّ لخفة مؤونتِه عليها ؛ وإراحتِه لها من المعاناة والكد ؛ إذا انضم إلى نغَمُ الوزن والقافية ، الشديد الشبه بتأْثير الايقاع والتلحين الذى يطرَب له الحيوان ، فضلا عن الإنسان .

والعرب بفطرتهم مطبوعون على الشِّعر لِبداوتهم ، وملاءمة بيئتهم لتربية الخيال فالبدوى لحريته ، واستقلاله بأَمر نفسه ، يغلب على أَحكامه الوجدان ، ويسلك إليه من طريق الشعور ؛ ومعيشةُ البدوِى فوق أَرض نقيَّة التربة ، وتحت سماء صافية الأَديم ، ساطعة الكواكب ، ضاحية الشمس جلت لحسِّه مناظر الوجود وعوالم الشهود ، فكان لخياله من ذلك مادة لايغور ماؤها ، ولا ينضُب معينها فهام بها فى كل واد ، وأَفاض منها إلى كل مراد ، وكان له من لُغتِه ، وفصاحة لسانه أَقوى ساعد وأَكبر مُعاضد ، ويشعر الإنسان بطبعه أَن الشعر متأَخر فى الوجود عن النثر ، وإن كانت هناك واسطة بين النثر والشعر ، فليست إلا السجع ، لما فيه من معادلة الفِقَر ، والتزام القافيه ، والميل للتغنى به — فكان من ذلك المقطعات ، والأَراجيز الصغيرة ، يحدون بها الإبل ، ويُعدون بها المكارم ثمَّ لما نَمَتْ ملكة الشعر فيهم ، واتسعت أَمامهم ، ونوعوا الأَوزان ، وأَطالوا القوافى وقصَّدوا القصيد .

وقد خَفى علينا — كأَكثر الأُمم — مبدأ قول الشعر ، وأَول من قاله .

أَما ما نسب من الشعر آدم ، وإبليس ، والملائكة ، والجن ، والعرب البائدة ، فهو حديث خرافة .

والشعر الذى صَحت روايته منذ أَواسط القرن الثانى قبل الهجرة تنتهى أَقدم مطوَّلاته (إلى مُهلهل بن ربيعة) وأَقدمُ مقطعاته إلى (نَفر) لعلهم لم يبعدوا عنه طويلا مثل : العنبر بن عمرو بن تميم ، ودَريد بن زيد بن نهد ، وأَعصر بن سعد بن قيس عيلان ، وزهير بن جناب الكلبى ، والأَفوه الأَزدى ، وأَبو داود الإِيادى ، وقد رووا أنه لم يكن لأَوائل العرب من الشعر إلا الأَبيات يقولها الرجل فى حاجته ، وأَن أَول من قصد القصائد ، وذكر الوقائع (المهلهل بن ربيعة التغلبى) فى قتل أَخيه كُليب فهو أَول من روِيت له كلمة تبلغ ثلاثين بيتًا ، وتبعه الشعراءُ مثل (امرىء القيس) وعلقمة ، وعبيد ، ممن أَخرجوا لنا الشعر العربى فى صورته الحاضرة .

هذا مجمل ما يتعلق بحقيقة الشعر ، ونشأَته فى الجاهلية .

أَما ما يتعلق بمادَّته وجوهره فإِنه يرجع إلى أَغراضه ، وفنونه ، ومعانيه ، وأَخيلته وأَلفاظه ، وأَساليبه ، وأَوزانه ، وقوافيه .

(١) أَغراضه وفنونه

نظم العرب الشعر فى كل ما أَدركته حواسهم ، وخطر على قلوبهم من فنونه وأَغراضه الكثيرة كالنسيب ويسمى (التشبيب والتغزل) وطريقته عند الجاهلية تكون بذكر النساءِ ومحاسنهنّ ، وشَرح أَحوالهن ، وكان له عندهم المقام الأَول من بين أَغراض الشعر ، حتى لو انضم إليه غرض آخر قدم النسيب عليه وافتتِح به القصيد ، لما فيه من كل اجتماع إنسانى ـ والبدو أَكثر الناس حبًّا لفرَاغهم .

الفخر : هو تمدح المرء بخصال نفسه وقومه ، والتحدث بحسن بلائهم ومكارمهم وكرم عُنصرهم ، ووفرة قَبيلهم ، ورفعة حسبهم ، وشُهرة شجاعتهم .

والمدح : وهو الثناءُ على ذى شأْن بما يستحسن من الأَخلاق النفسية كرجاحة العقل ، والعفة ، والعدل ، والشجاعة ، ان هذه الصفات عريقة فيه وفى قومه وبتعداد محاسنه الخلقية ـ وشاع المدح عندما ابتذل الشعر ، واتخذه الشعراءُ مهنة ، ومن أَوائل مدَّاحيهم : زهير ـ والنابغة ـ والأَعشى .

والرثاءُ : وهو تَعداد مناقب الميت ، وإظهار التفجع والتلهُّف عليه ، واستعظام المصيبة فيه .

والهجاءُ : وهو تعداد مثالب المرءِ وقبيله ، نفى المكارم والمحاسن عنه .

والاعتذار : وهو درء الشاعر التهمة عنه ، والترفق فى الاحتجاج على براءته منها ، واستمالة قلب المعتذر إليه واستعطافه عليه ، و(النابغة) فى الجاهلية فارس هذه الحلبة .

والوصف : هو شرح حال الشيء وهيئته على ما هو عليه فى الواقع لإحضاره فى ذهن السامع ، كأَنه يراه أَو يشعر به ، ومن أَشهرهم فى ذلك (امرؤ القيس وأَبو داود الإيادى) .

والحكمة والمثل : فالحكمة قول رائعٌ يتضمن حكما صحيحًا مسلماً به ، والمثل مرآة تريك أَحوال الأُمم وقد مضت ، وتقف بك على أَخلاقها وقد انقضت فالأَمثال ميزان يوزن به رقى الأُمم وانحطاطها وسعادتها وشقاؤها وأَدبها ولغتها وأَكثر ما تكون أَمثال العرب وحكمها موجزة متضمنة حكما مقبولا ، أَو تجربة صحيحة ، تمليها عليها طباعها بلا تكلف وأَكثر الشعراءِ أَمثالا : (زهير والنابغة) .

(٢) معانيه وأَخيلته

قصد الشاعر من شعره الابانة عما يخالج نفسه من المعانى فى أَى غرض من الأَغراض السابقة ونحوها ، ومن هذه المعانى ما هو عادى فى البدوى

والحضرى والعربى والعجمى كالأَخبار الصادقة ، وأَوصاف المشاهدات ، وشرح الوجدانات كما يمليها الخاطر بلا مبالغة ولا إغراق ؛ ومنها ما هو غريب نادر ، انتزعه الخيال من المرئيات البديعة والأَشكال المنتظمة ، وذلك يسمى المخترع ، تتفاضل الشعراءُ بالإِجادة فيه والاكثار منه .

وإذا قسنا الشعر الجاهلى بهذا المعيار وجدنا معانيه وأَخيلته تمتاز بالأُمور الآتية :

(١) جلاء المعانى وظهورها ومطابقتها للحقيقة . (٢) قلة المبالغة والغلو فيها بما يخرجها عن حد العقل ومأْلوف الطبع . (٣) قلة المعانى الغريبة المنزع ، الدقيقة المأْخذ المتجلية فى صور الخيال البديع ، والتشبيه الظريف ، والاستعارة الجميلة والكناية الدقيقة وحسن التعليل وغير ذلك . (٤) قلة تأَنقهم فى ترتيب المعانى والأَفكار على النظام الذى يقتضيه الذوق ، فيدخلون معنى ، وينتقلون من غرض إلى آخر اقتضابا بدون تخيل ولا تلطف .

(٣) أَلفاظه وأَساليبه

ولما كانت العرب أُمما بدوية تنظم الشعر بطبعها ، من غير معاناه صناعة ولا دراسه علم – غلب على شعرها صراحة القول وقلة المواربة فيه ، والبعد عن التكلف وصحة النظر ، والوفاءُ بحق المعنى – أَضف إلى ذلك الأُمور الآتية :

(١) جودة استعمال الأَلفاظ فى معانيها الموضوعة لها ، لإِحاطة علمهم بلغتهم ومعرفتهم بوجود دلالتها . (٢) غلبة استعمال الأَلفاظ الجزلة ، واستعمال الأَلفاظ الغريبة التى هجرت عند المحدثين . (٣) القصد فى استعمال أَلفاظ المجاز ، ومقت استعمال الأَعجمى إلا ما وقع نادرا . (٤) عدم تعمد المحسنات البديعية اللفظية ومتانة الأُسلوب ، يحسن إيراد المعنى إلى النفس من أَقرب الطرق إليها وأَطرفها لديها وبإِيثار المجاز ، أَو قلة الإِسهاب إلا إذا دعت الحال .

(٤) أوزانه وقوافيه

العرب لم تعرف موازين الشعر بتعلم قوانين صناعية ، وتعرُّف أُصول وضعية ، وإذا كانت تنظم بطبعها على حسب ما يُهيئهُ لها إنشادُها ، وقد هدتهم هذه الفطرة إلى أوزان أَرجعها الخليل إلى خمسة عشر وزناً سماها بحورا وزاد عليها الأَخفش بحرًا ، وقد أَكثروا النظم من بعضها دون بعض .

راجع مؤلفنا «ميزان الذهب فى بحور شعر العرب» .

وشعر العرب رجزُه وقصيده يُبنى على قافية واحدة كيفما طال القول .

(٥) شعراء الجاهلية

شعراء الجاهلية : أَكثر من أَن يحاط بهم ، ومن جُهل منهم أَكثر ممن عرف وإنما اشتهر بعضهم دون بعض لنبوغه ، أَو كثرة المروى من شعره ، أَو قرب عهده من الإسلام زمن الرواية ـ وكان للشعراءِ عند العرب منزلة رفيعة ، وحكم نافذ ، سلطان غالب ، إذ كانوا أَلسنتهم الناطقة بمكارمهم ومفاخرهم وأَسلحتهم التى يذودون بها عن حياض شرفهم ، وكانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أَتت القبائل فهنأَتها ، وصنعت الأَطعمة ، وأَتت النساءُ يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الأَعراس ، ويتباشر الرجال والولدان لأَنه حماية لأَعراضهم وذَبٌّ عن حياضهم ، وتخليد لمفاخرهم ، وإشادة بذكرهم ، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد ، أَو شاعر ينبغ ، أَو فرس تنتج .

وكانت طريقة نظم الشعراءِ ارتجالية ، فتأْتيهم أَلفاظه عفوًا ، ومعانيه رهوًا ، كما وقع للحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم ، أَما من اتخذه منهم صناعة يستدرها ويلتمس به الجوائز ، وينشده فى المحافل والمواقف العظام ، فإنه يتعهده بالتهذيب والتنقيح ، لجعله رقيق الحاشية ، حسن الديباجة ، يصح أَن يقال فيه إنه المثل الأَعلى للشعر الجاهلى كما ترى ذلك واضحاً فى حوليات زهير ، واعتذريات النابغة ،

وقد عبر الناس دهرًا طويلا لايقولون الشعر إلا فى الأَغراض الشريفة ، لايمدحون عظيما طمعاً فى نواله ،ولايهجون شريفاً تشفياً منه وانتقاماً ، حتى نشأَت فيهم فئة امتهنت الشعر وتكسبت به ، ومدحت الملوك والأُمراءَ ، كالنابغة الذبيانى وحسان مع النعمان بن المنذر ، وملوك غسان ، وزهير بن أَبى سلمى مع هرم ابن سنان وأُمية بن أَبى الصلت مع عبد الله بن جدعان أَحد أَجواد قريش ،والأَعشى مع الملوك والسوقه ،حتى قصد به الأَعاجم ، وجعله متجرًا يتجربه ، فتحامى الشعر الأَشراف ، وآثروا عليه الخطابة .

(٦) طبقات الشعر

طبقات الشعراءِ باعتبار عصورهم أَربع : (١) طبقة الجاهليين . (٢) طبقة المخضرمين ،وهم الذين اشتهروا بقول الشعر فى الجاهلية والإِسلام . (٣) طبقة الإِسلاميين . وهم الذين نشأُوا فى الإِسلام ، ولم تفسد سليقتهم العربية وهم ، شعراءُ بنى أُمية . (٤) طبقة المولدين أَوالمحدثين ، وهم الذين نشأُوا زمن فساد العربية وامتزاج العرب بالعجم ،وذلك من عصر الدولة العباسية إلى يومنا هذا .

والشعراءُ الجاهليون يقسمون باعتبار شهرتهم فى الشعر للاجادة أَو للكثرة إلى طبقات كثيرة ،منها ثلاثاً : (١) الطبقة الأُولى ، امرؤ القيس بن حجر وعمرو ابن كلثوم وزهير بن أَبى سلمى ، والنابغة الذبيانى . (٢) الطبقة الثانية الأَعشى ولبيد بن ربيعة العامرى ، وطرفة بن العبد . (٣) الطبقة الثالثة عنترة ابن شداد ، وعروة بن الورد ، ودريد بن الصمة ، والمرقش الأَكبر والحارث ابن حلزة اليشكرى — ومن الأُدباءِ من يقدم ويزيد .

(١) امرئ القيس

هو الملك أَبو الحارث حندج بن حجر الكندى شاعر اليمانية .

وآباؤه من أَشراف كندة وملوكها ،وكانت بنوأَسد المضرية خاضعة لملوك كندة — وآخر ملك عليهم هو حجر أَبو امرئ القيس— وأُمه أُخت **مهلهل وكليب** .

نشأ امرؤ القيس بأَرض نجد بين رعية أَبيه من أَسد وسلك مسلك المترفين من أَولاد الملوك يلهو ويلعبُ ويُعاقر الخمر ويُغازل الحسان فَمقتَه أَبوه ولما لم ينجح فيه القولُ طرده عنه وأَقصَاه ، حتى جاءَ نَبأُ ثورانِ بنى أَسد على أَبيه وقتلهم له لأَنه كان يَعسِف فى حكمه لهم ، فقال : (ضيعنى صغيرًا ؛ وحملنى دمه كبيرًا ، ولا صَحْوَ اليومَ ولا سُكرَ غدًا ، اليوم خمرٌ ، وغدًا أَمرٌ) وأَخذ يجمع العدَّة ، ويَسْتنجدُ القبائل فى إدراك ثأْره ، فنازل بنى أَسد وقتَل فيهم كثيرًا ، ثم اشتدَّت به علة قروح فمات منها ودُفِن بأَنقره ، وكان ذلك قبل الهجرة بقريب من قرن .

شعره : يُعتبرُ امرو القيس رأْس فحول شعراءَ الجاهلية ، والمقدَّم فى الطبقة الأُولى ، فهو أَوَّل من أَجاد القَول فى استيقاف الصحب ، وبُكاء الديار وتَشْبيه النساءِ بالظباءِ والمها والبَيْض ، وفى وصف الخيل بقيد الأَوابد ، وترقيق النسيب وتقريب مآخذ الكلام ، وتجويد الاستعارة ، وتنويع التشبيه ، وذلك لسعة خياله بكثرة رحلاته .

وقد يُفحِشُ فى تشبيه النساءِ ، وتحدثه عنهنَّ ، ويُشتمُّ من شعره ، رائحة النيل وتلمح فيه شارات السيادة والملك ، من ذلك قوله :

فظل العذارى يَرْتمين بلحمها وشحمٍ كهدَّاب الدمقْس المفتل

وقوله : وظل طهاةُ اللحم من بين منضج صفيف شواء أَو قديرٍ مُعجل

وقوله : ولو أَنَّ ما أَسعى لأَدنى معيشة كفانى ولم أَطلب قليل من المال

ولكنما أَسعى لمجدٍ مؤثلٍ وقد يُدرِك المجد المؤثل أَمثالى

وشعره : وإن اشتمل بشملة البداوة فى جفاءِ العبارة ، وخشونة الأَلفاظ وتجهم المعانى ، تراه أَحياناً يخطر فى حُلل من حُسن الديباجة ، وبديع المعنى ودقة النسيب ، ومُقاربة الوصف ، وسهولة المأْخذ ، مما كان لخلقه أَجمل مِثال فى مُحاكاتهِ ولم يَقل الشعر كاسبًا .

ومن شعره ، يذكر رحلته إلى قيصر مع عمْرو بن قميئة الضبعى :

سمالكَ شوقٌ بعد ما كان أَقصرا وحلت سُليمى بطنَ ظَبى فَعَرْعَرَا

فدعها وسلِّ الهمَّ عنها بحسْرة ذَمُول إذا صامَ النَّهار وهجَّرَا

عليها فتى لم تحمل الأَرضُ مثله أَبرَّ بميثاق وأَوفى وأَصبرَا

إذا قلتُ هذا صاحبٌ قد رضيته وقرَّت به العينان بُدلت آخرَا

كذلكَ جَدى لا أَصاحبُ صاحباً مِن النَّاس إلا خاننى وتغيَّرَا

ومن أَبياته السائرة قوله :

إذا المرءُ لم يخزُنْ عليه لسانه فليس على شىءٍ سِوَاهُ بخَزَّانِ

وقوله : وقد طوفْتُ فى الآفاق حتى رضِيتُ من الغَنيمة بالإِياب

معلقة امرئ القيس

[قفا نبك من ذِكْرى حبيبٍ ومنزل بِسقط اللوى بين الدخول فَحومل(١)

فتوَضح فالمقرَاةِ لم يَعْف رسْمُها لِما نسجتْها من جَنُوب وشمالِ(٢)

ترَى بعَرَ الآرام فى عَرصَاتها وقيعانها وكأَنه حبٌّ فلفل(٣)

كأَنى غَدَاة البَيْن يومَ تحمَلوا لَدَى سَمُرَات الحى ناقِفَ حَنْظل

وُقُوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون : لا تهلكْ أَسى وتحمل(٤)

---

(١) اللوى : ما التوى من الرمل ، أو استرق منه ، والجمـع ألواء والوية ، وسقط اللوى منتهاه ، وهو مثلث السين . والدخول وحومل وتوضح والمقراة ! كلها أسماء أماكن يقع بينها سقط اللوى ، وفيه منزل الحبيب . (٢) لم يعف رسمها ، لم يمح أثرها والمراد من « جنوب وشمال » ريح الجنوب وريح الشمال . (٣) الآرام : جمع رئم وهو الظبى خالص البياض . والعرصات ! جمع عرصة ، وهى البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء . والقيعان : فناء الدار . (٤) أى وقوف صحبى على مطيهم بسمرات الحى ، ونصحوا لى بالتحمل والاحتمال .

وإن شِفائى عَبْرَةٌ مُهراقَةٌ فهلْ عِنْد رسم دارس منْ مُعَوَّلِ (١)
كدأبكَ منْ أُم الحوَيرث قَبلها وجَارتها أُمُّ الرّباب بمأسَلِ (٢)
إذا قامَتا تضَّوعَ المِسكُ مِنهما نَسِيمَ الصَّبا جاءتْ بريَّا القرنفل (٣)
ففاضتْ دُموعُ العَين منى صبَابة على النَّحْرِ حتى بل دمعى محْملى (٤)
ألا رُب يوم لى مِنَ البيض صالح ولا سِيما يومٌ بِدارَةِ جُلجُل (٥)
ويومَ عقرتُ للعذارَى مطيَّتى فيا عجبا مِنْ كورها المتَحمَّل (٦)
فظل العذارَى يرتْمينَ بِلحمها وشحمٍ كهُدَّاب الدِّمقس المفتل (٧)
تدَارُ علينا بالسديفِ صِحافها ويُؤتى إلينا بالعبيطِ المَثمَلِ (٨)
ويوم دخلتُ الخدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ فقالت لك الويلاتُ إنك مُرْجِلِى (٩)
تقولُ وقدْ مالَ الغبيطُ بنا معًا عقرت بعيرى ياامرأ القيس فانزل (١٠)
فقلت لها سيرى وأرْخِى زِمَامَه ولا تُبعدينى منْ جَناكِ المعللِ (١١)
دعى البكرَ لا ترثى له منْ ردافِنَا وهاتى أذيقينا جناةَ القرَنفل (١٢)
بثغرٍ كمِثل الأقْحوَان مُنورٍ نَقِىٍّ الثنايا أشنَبٍ غيْرَ أثعَل (١٣)

---

(١) عبرة مهراقة دمعة مسكوبة . والمعول المستعان به .
(٢) الدأب : الشأن . (٣) تضوع المسك : انتشرت رائحته . والريا : الرائحة . والمراد انه اذا قامت هاتان المرأتان يضوع منهما المسك كما يأتى النسيم بشذا القرنفل . (٤) المحمل على وزن منبر حمالة السيف . (٥) ابتدأ الشاعر يذكر حوادث شبابه وملاعب صباه ، وخص بالذكر أيامه بدارة جلجل ، وهى مكان بنجد ، وسيحدثنا عن لهوه أطيب الحديث . (٦) مطية الشاعر هنا ناقته . (٧) هداب الدمقس : أطراف الحرير ، والمفتل : المفتول . (٨) السديف : قطع السنام ، والصحاف جمع صفحة القصعة ، والعبيط لحم الذبيحة تنحر من غير علة ، والمثمل الشهى . (٩) الخدر هنا الهودج وعنيزة اسم لمحبوبته ، انك مرجلى : أى فاضحى بين رجالى . (١٠) الغبيط : الرحل ، عقرت بعيرى دميت ظهره لثقلك . (١١) الجنى : الشهد ، المعلل : الشهى . (١٢) البكر : البعير ، الرداف : هو أن يركب اثنان على دابة واحدة ، أذيقينا جناة القرنفل : أى مكنينا من ثغرك العطر .
(١٣) الأقحوان زهر أبيض جميل تشبه به الثغور العذاب ، أشنب: فيه برد ورقة وصفاء .

فمثلك حُبْلى قد طرَقت ومرضع ... فألهيتها عن ذى تمائمَ مُحْوَل(١)

إذا ما بكى من خلفِها انْصَرفت ... له بشقٍّ وتحتى شِقها لم يُحوَّل(٢)

ويوماً على ظهْر الكثيب تعذرت ... على وآلت حلفةً لم تحلل(٣)

أفاطِم مهلاً بعض هذا التدلل ... وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى(٤)

أغرّك منى أن حبك قاتلى ... وأنكِ مهما تأمرى القلب يفعل

وأنكِ قسَّمت الفؤاد فنصفه ... قتيلٌ ونصف بالحديد مكبل(٥)

فإن تكُ قد ساءتك منى خليقةٌ ... فسلى ثيابى من ثيابك تنسل(٦)

وما ذرفت عيناكِ إلا لتضربى ... بسهميك فى أعشار قلب مقتل(٧)

وبيضة خدر لا يُرامُ خِباؤها ... تمتعت من لهْو بها غيرُ مُعجل(٨)

تجاوزتُ أحراساً إليها ومعشراً ... على حِراصاً لو يُسرُّونَ مقتلى(٩)

إذا ما الثريَّا فى السماء تعرضت ... تعرُّض أثناء الوشاح المفصَّل(١٠)

فجئتُ وقد أنضت لنوم ثيابها ... لدى الستر إلا لبسة المتفضِّل(١١)

فقالت : يمين الله ما لك حِيلةٌ ... وما إن أرى عنك الغوَاية تنجلى(١٢)

---

(١) محول مضى عليه حول . يريد ان يقول انى رجل أفتن النساء ، حتى لا تنجو منى الحبلى ولا المرضع ، مع أنها فى شغل بالحمل والرضاع .

(٢) فى هذا البيت صورة فاتنة من صور الجماع . (٣) تعذرت : تمنعت . أى مضت فى عنادها وتجنيها ــ آلت حلفة . أقسمت يمينا ، لم تحلل ، لم تقيد اليمين يحلها هو ولم يستثن فيها .

(٤) أزمع الأمر ، وأزمع عليه أثبت عزمه على امضائه والصرح بفتح الصاد وضمها الهجر والقطيعة والاجمال الرفق . (٥) مكبل : مقيد .

(٦) الخليقة : السجية والطبيعة ، والثياب هنا القلب وتنسل تسقط والمعنى اذا ساءتك خصلة من خصالى فسلى قلبى من قلبك .

(٧) السهام : العيون ، قلب مقتل : أهلكه العشق (٨) بيضة الخدر كناية عن المراة المخدرة المحجبة ، غير معجل غير مضطر الى العجلة .

(٩) الأحراس : الحراس ، وحراص جمع حريص ، وأسر الأمر أضمره .

(١٠) الوشاح أديم عريض يرصع بالجواهر تشده المراة بين عاتقها وكشحها . والوشاح المفصل : هو المرصع بالذهب أو الزبرجد .

(١١) أنضى الثياب خففها . والمتفضل هو الذى يلبس ثوبا واحدا حين يأوى الى فراشه . (١٢) مالك حيلة : أى لا بصر لك بعواقب الأمور .

خرجت بها أمشى تجرُّ وَرَاءَنا   على أَثرينا ذيل مِرْطٍ مُرحل(١)

فلما أَجزنَا ساحةَ الحيِّ وانتحت   بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل(٢)

هصرتُ بفوْدَى رأسِها فتمايلتْ   على هضيم الكشح ريا المخلخل(٣)

مهفهفةٌ بيضاءُ غير مُفاضة   ترائبها مصقولةٌ كالسَّجنْجل(٤)

كبكر المقاناةِ البياض بصفرةٍ   غذاها نمير الماء غير المحلل(٥)

تصدُّ وتبدى عن أَسيل وتتقى   بناظرةٍ من وحْش وجْرة مطفل(٦)

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحِش   إذا هى نصَّته ولا بمُعطل(٧)

وفرْع يزين المتنَ أسْود فاحم   أثيث كقِنو النخلة المتعثكل(٨)

غدائره مسْتشزراتٌ إلى العلى   تضل المدارِى فى مثنى ومرسل(٩)

وكشح لطيف كالجديل مخصَّر   وساق كأنبوب السقى المذلل(١٠)

---

(١) المرط كساء من صوف أوخز ، مرجل : فيه صور رجال وبالحاء فيه صور رحال . (٢) جزت المكان : قطعته وخلفته ، انتحت قصدت ، الخبت . الفضاء الواسع ، والعقنقل : الوادى العظيم .

(٣) هصرت فوديها : أملتهما الى ، والفودان : جانبا الرأس . هضيم الكشح : دقيقة الخصر ، ريا المخلخل : بضة الساق .

(٤) مهفهفة : ضامرة البطن ، غير مفاضة : غير مسترخية اللحم ، الترائب موضع القلادة من الصدر ، والسجنجل : المرآة المجلوة .

(٥) المقاناة : الخلط (والشاعر يشبه خليلته ببيضة النعام لأول عهدها بمزج الصفر بالبياض) ، المحلل : الذى كدرته الابل ، يصف حبيبته بأنها لا تشرب الماء المحلل كسائر الأعرابيات ، وانما هى سيدة مترفة تشرب الماء النمير . (٦) تصد : تتمنع ، تبدى : تعيد الصد ، أى تصد ، الأسيل : الرقيق ، صفة لموصوف محذوف هو الخد ، وجرة : مكان لتربية الوحوش بين مكة والبصرة ، ومطفل : ذات طفل والمعنى تصد عن خد أسيل وتتقى المحب بعين مملوءة بالعطف ، كما تنظر الى طفلها الظبية الرءوم .

(٧) الرئم : الظبى ، نصته : رفعته ، معطل وعاطل : لا حلية فيه .

(٨) الفرع : الشعر . (٩) مستشزرات : مرتفعات ، والغدائر : خصل الشعر ، المدارى : الأمشاط . (١٠) الجديل : الوشاح ، والمذلل اللين ، ومنه شجرة مذللة معطفة الأغصان ، ينالها كل احد .

وَيُضحى فتيتُ المسْكِ فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل(١)
وتعطو برخْص غير شثن كأَنه أَساريع ظبى أَو مساويك إِسحل(٢)
تضىءُ الظلام بالعشاءِ كأَنه منارةُ مُمسى راهب مُتبتل(٣)
إِلى مثْلها يرنُو الحليم صبابة إِذا ما اسبكرَّت بين دِرْع ومجول(٤)
تسلت عمايات الرجال عن الصبا وليس فؤادى عن هواها بمنسل(٥)
أَلا رُبَّ خَصم فيك أَلْوى رددْته نصيح على تعذاله غير مؤتل(٦)
وليل كموْج البحر أَرخى سُدولهُ على بأَنواع الهموم ليبتلى(٧)
فقلت له لما تمطى بجوزِهِ وأَردَفَ أَعجازًا وَنَاءَ بِكلكل(٨)
أَلا أَيها الليل الطويل أَلا أنجل بصبح وما الإِصباح منك بأَمثل(٩)
فيالك من ليل كأَن نجومه بكل مُغار الفتل شدَّت بيذبل(١٠)
كأَن الثريَّا عُلقت فى مصامِها بأَمراس كتَّان إِلى صمٍّ جندل(١١)

(١) انتطقت المرأة : لبست المنطق أو النطاق ، والتفضيل لبس الثوب الواحد . وعن هنا : بمعنى بعد ، أى لم تلبس المنطق بعد المفضل يريد أنها لم تكتس بعد عرى ، ونوم الضحى من عادات المترفات .
(٢) العطو : التناول ، ورخص : لين ناعم ، وهو وصف للبنان : وشثن : خشن ، وأساريع جمع أسروع والاسحل شجر يستاك به .
(٣) يقول : تضىء محبوبتى الظلام كأنها منارة الراهب فى المساء .
(٤) اسبكرت : اعتدلت واستقامت ، ودرع المرأة : قميصها .
(٥) تسلت : تكشفت وانزاحت ، عمايات : جمع عماية ، وهى الغواية والضلال ، ومنسل : سال ، ولم يسل عن هواها فؤادى .
(٦) ألوى : عسر ، والتعذال والعذل : اللوم ، غير مؤتل غير مقصر .
(٧) السدول : الستور ، يبتلى : يختبر . وهو يصف الليل بتعمد ايذائه . (٨) تمطى الليل : طال ، والجوز : الوسط ، وفى رواية بصلبه ، ناء : نهض ، والكلكل : الصدر . (٩) أمثل : أفضل . يذكر أن همومه موصولة ، فليس الصبح خير من الليل . (١٠) مغار : محكم شديد ، ويذبل اسم جبل : يصف نجوم الليل بالثبات . (١١) فى مصامها : فى موضعها ، أمراس : جمع مرس ، وهو الحبل ، والجندل الأصم الحجر الصلب .

وقربة أَقوام جعلت عصامها على كاهِلٍ منى ذلول مرحَّل (١)

وواد كجوفِ العير قفر قطعته به الذِّئب يعوى كالخليع المعيَل (٢)

فقلت له لما عوى : إن شأْننا قليل الغِنى إن كنت لما تمول (٣)

كلانا إذا ما نال شيئًا أَفاتهُ ومن يحترث حرثى وحرثك يهزل (٤)

وقد أَغتذِى والطير فى وكناتها بمنجردٍ قيد الأَوابِدِ هيكل (٥)

مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطَّهُ السيل من عل (٦)

كميتٍ يزلُّ اللبد عن حال متنه كما زلت الصَّفْواءَ بالمتنزلِ (٧)

على العقب جيَّاش كأَن اهتزامه إذا جاش فيه حميه غلىُ مرْجَل (٨)

مسحٍ إذا ما السابحات على الونى أَثرْنَ غبارًا بالكديد المركل (٩)

يزل الغلامُ الخف عن صهواتِهِ ويلوَى بأَثوابِ العنيفِ المثقل (١٠)

درِيد كخذْروف الوليدِ أَمره تتابع كفيْهِ بخيط موصَّل (١١)

---

(١) العصام : حبل تربط به القربة ، ومرحل : كثير الحمل والترحيل.

(٢) يقال للموضع الذى لا خير فيه ، والمعيل : المسيب الذى ألقى حبله على غاربه . (٣) تمول : صار ذا مال (٤) أفاته : ضيعه ، ومن يحترث حرثى وحرثك : من هو مثلنا ، ويهزل : يضعف .

(٥) وكنات : العش ، وفرس أجراد ومنجرد : قصير الشعر رقيقه ، الأوابد : الوحش النافر ، وقيد الأوابد : مبالغة فى سرعة العدو ، والهيكل : الضخم من كل شىء . (٦) مكر مفر : سريع الكر والفر ، من عل : من فوق . [يصف عدو الفرس فى كره وفره واقباله وادباره بجلاميد الصخر تحطها السيول]. (٧) كميت خالط حمرته سواد ، ويزل : يسقط ، عن حال متنه : عن وسط ظهره ، الصفواء : الملساء ، المتنزل : المطر ينزل من السماء . (٨) وجياش : اذا حركته بعقبك جاش كما يجيش البحر بالأمواج ، اهتزامه : صهيله ، المرجل : القدر ، [يشبه صهيل جواده حين يجيش حميه بالقدر حين تفور] .

(٩) مسح : عداء السابحات ، والسوابح : الخيول ، الونى : الضعف والتعب الكديد الأرض تكدها بحوافرها الدواب ، المركل : المكدود .

(١٠) الخف : الجلد ، أو الخفيف العنيف من لا رفق له بركوب الخيل ، المثقل : الثقيل [يريد أنه لا يذل لغير سيده وهو وصف بديع] .

(١١) درير : كثير الجرى ، الوليد : الصبى ، والخذروف : شىء يدوره فى يديه بخيط فيسمع له دوى « نحلة » ، أمره : فتله .

له أَيْطَلا ظَبْيٍ وسَاقا نعامةٍ ... وإرخاءُ سرحانٍ وتقريبُ تتفُل(١)

ضليعٌ إذا اسْتَدبَرْته سَدّ فرجهُ ... بِضافٍ فويق الأَرض ليس بأَعزَل(٢)

كأن سَنا المتنيْنِ منه إذا انتحَى ... مدَاكَ عَروسٍ أَو صلايةَ حَنظَل(٣)

كأَن دِمَاءَ الهاديات بِنحْره ... عُصارة حناءٍ بشيبٍ مرجَّل(٤)

فَعنّ لنا سِربٌ كأَن نعاجه ... عذارَى دوارٍ فى مُلاءٍ مذيل(٥)

فأَدبرن كالجزع المفصَّل بينَهُ ... بجيد مُعَمٍّ فى العشيرة مُخول(٦)

فأَلحقنا بالهادياتِ ودُونهُ ... جوَاحرها فى صَرَّة لم تزيل(٧)

فعادى عداءً بين ثورٍ ونَعْجة ... دِراكاً ولم ينْضَح بماءٍ فَيغْسل(٨)

فظل طهاةُ اللَّحم ما بين مُنضجٍ ... صفِيفَ شِواء أَو قَدِير مُعَجَّل(٩)

---

(١) الايطل : الكشح ، السرحان الذئب ، والتقريب : رفع اليدين معا .

(٢) ضليع : قوى الجنبين ، استدبرته : نظرت اليه من خلف .

(٣) المداك والمدوك الصلاية [يذكر ان الجواد اذا انتحى ناحية وهو غير مسرج رايت ظهره براقا لامعا كما تلمع صلاية الحنظل ومداك العروس ، وانما خص صلاية الحنظل لما يترك بها من الدهن اللامع ، وخص مداك العروس لقرب عهده بالطيب ، وان امرأ القيس لشاعر فنان !]

(٤) الهاديات : المتقدمات [ويريد بها هنا الفرائس] ، مرجل : مسرح ، [يذكر ان دماء الفرائس بنجزه كعصارة الحناء بالشيب المرجل وكلاهما يلمع من الخضاب] . (٥) عن : عرض ، السرب : القطيع ، النعاج : البقر ، دوار : اسم صنم ، مذيل : طويل الأطراف .

(٦) الجزع : الخرز [لأن لونه يجزع الى بياض وسواد] ، والمفصل بينه : اى الذى فصل بين حباته بالذهب او الزبرجد ، الجيد : العنق ، المعم والمخول : كرام العم والخال : [يشبه النعاج بالجزع المفصل فى جيد من كرم عمه وخاله] . (٧) الهاديات : السابقات المتقدمات ، الجواحر : المتخلفات ، فى صرة : فى صياح شديد ، لم تزيل : تتفرق .

(٨) عادى عداء : جمع بين ثور ونعجة ، دراكا : تباعا ، لم ينضح بماء : لم يعرق . (٩) الطهاة : جمع طاه وهو الطباخ ، لحم صفيف ، صف على النار ليشوى وفى الشمس ليقدد .

ورحْنا يكادُ الطرْف يَقْصُر دُونه | متى ما ترقَّ العينُ فيهِ تَسفلِ(١)
فباتَ عليه سَرجُه ولجامُه | وباتَ بِعيْنى قائماً غيرَ مُرسل(٢)
أصاحِ ؟ ترَى بَرقاً أُرِيك وَمِيضهُ | كلمعِ اليدين فى حَبِىٍّ مكلل(٣)
يُضِيءُ سناه أَو مصابيح رَاهِب | أَهَانَ السَّليط. بالذبال المفَتل(٤)
قَعَدتُ وأَصحابى له بين ضارجٍ | وبين العذيْبِ ، بعدَ ما مُتَأَمَّل(٥)
على قَطنٍ بالشيمِ أَيمنُ صَوبه | وَأَيْسَرَه عَلى الستَار فيذبل(٦)
فأَضْحى يسحُّ الماءَ حَول كتَيْفَةَ | يكبُّ على الأَذقان دوْح الكنهبْل(٧)
ومَرَّ على القنان مِنْ نفيانهِ | فأَنزَل مِنْه العصْم من كلِّ منزلِ(٨)
وتَيْماءُ لم يَترك بها جِذعَ نخلة | ولا اطُمًا إلا مشيدًا بِجنْدل(٩)
كأَن ثبيرًا فى عرَانينَ وَبْلهِ | كبِير أُنَاسٍ فى بجاد مُزَمَّل(١٠)

---

(١) يكاد الطرف يقصر دونه : أى أن العين لا تقدر على حصر محاسنه ، ترق : تنظر الى أعلى ، تسفل : تنظر الى أسفل . (٢) يريد انه بات مقيدا مسرجا ملجما ، ليستطيع الفارس امتطاءه متى شاء .
(٣) ومض البرق ومضا ووميضا وومضانا : لمع لمعا خفيا ، الحبى : الحباب المتراكم . (٤) السليط : الزيت الجيد ، الذبال : جمع ذبالة ، وهى فتيلة المصباح [وفى رواية : آمال] . (٥) ضارج : اسم ماء ببلاد طىء ، والعذيب : اسم ماء قريب منه ، ومتأمل : اى مأمول .
(٦) قطن : اسم جبل ، الشيم : النظر الى البرق ، الصوب : أى المطر ، والستار ويذبل : جبلان . (٧) يسح : الماء يسكبه ، وكتيفة : اسم أرض ، دوح : جمع دوحة ، وهى الشجرة العظيمة ، والكنهبل : نوع من الشجر الضخم . (٨) القنان : اسم جبل ابنى أسد ، نفيان المطر : رشاشه ، العصم : الوعول ، ومفردها أعصم [سميت بذلك لاعتصامها بالجبال] . (٩) تيماء : اسم أرض ، الاطم : القصر [يريد أن المطر لم يترك بتيماء الا جذوع النخل وما شيد بالصخر من الآطام والديار] .
(١٠) ثبيرا : اسم جبل ، عرانين وبله : فى طغيان وبله ، البجاد : كساء مخطط يلبسه كبار الأعراب ، مزمل : ملفف .

كأن ذُرا رأْس المجيمرِ غدوةً من السيل والغثاء فلكة مغزَل(١)
وألقى بصحْرَاء الغبيط بعاعه نزول اليمانى ذِى العياب المحمَّل(٢)
كأن مُكاكىَّ الجواءِ غديةً صبحن سُلافاً من رحيق مفلفل(٣)
كأن سباعاً فيه غرقى عشية بأَرجائه القصوى أنابيش عُنصل(٤)

(٢) النابغة الذبيانى

هو النابغة الذبيانى أبو أُمامة زياد بن معاوية ، أَحد فحول الطبقة الأُولى من شعراءِ الجاهلية ، وزعيمهم بعكاظ ، وأَحسنهم ديباجة لفظ ، وجلاء معنى ، ولطف اعتذار ــ ولقب بالنابغة لنبوغه فى الشعر فجاءة وهو كبير ، بعد أن امتنع عليه وهو صغير ــ وهو من أشراف ذبيان ، إلا أن تكسبه بالشعر غض قليلا من شرفه ، على أنه لم يتكسب بشعره إلا فى مدح ملوك العرب ، وكان من أمره فى ذلك أنه اتصل بملوك الحيرَة ومدحهم ، وطالت صحبته للنعمان بن المنذر ، فأدناه منه إلى أن وشى به عند النعمان أَحد بطانته ، فغضب عليه وهم بقتله ، فأسر إليه بذلك عصامُ حاجب النعمان ، فهرب النابغة إلى ملوك غسان فى الشام ، المنافسين للمناذرة فى ملك العرب فى الحيرة ، فمدح عمرو بن الحارث الأَصغر وأَخاه النعمان ، غير أَن قديم صحبته للنعمان جعله يحن إلى معاودة العيش فى ظلاله ، فتنصل واعتذار إليه بقصائد عطفت عليه قلبه ، وعمر النابغة طويلا ، ومات قبل البعثة .

---

(١) المجيمر : اسم جبل ، وذرا راسه اعاليه ، الغثاء : ما يخالط زبد السيل من ورق الشجر والحشيش . (٢) الغبيط : أراض لبنى يربوع ، بعاعه : ثقله ، العياب : جمع عيبة [وهى ما يضع الرجل فيه متاعه] . (٣) المكاكى : ضرب من الطير يصيح فى الغدوات ، صبحن ، شربن شراب الصباح السلاف والسلافة : صفوة الخمر ، الرحيق : الخمر مفلفل وضع عليه فلفل (يريد أنه لذاع) . (٤) الأنابيش : جمع أنبوش وهو أصل البقل ، والعنصل : البصل البرى .

شعره : يمتاز برشاقة اللفظ. ووضوح المعنى ، وحسن النظم ، وقلة التكلف، حتى عُدَّ عند المدققين من الشعراءِ كجرير أنه أشعر شعراءِ الجاهلية ، وأغراه تكسُّبه بالشِّعر أن يفتن فى ضروب المدْح ، حتى مدَح الشيءَ وضده .

ومن جيد قوله فى الاعتذار :

أتانى (أبيت اللعن)(١) أنك لمْتنِى ... وتلك التى أهتم (٢) منها وأنصبُ(٣)

فبتُّ كأَن العائدات(٤) فرشن لِى ... هراسا (٥) به يعلى فراشى ويقشب(٦)

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراءَ الله للمرءِ مطلب

لئن كنت قد بُلغْت عنى جناية (٧) ... لمبْلِّغك الواشى أغشُّ وأكذَب

ولكننى كنت امرأً لى جانبٌ(٨) ... من الأَرض فيه مسترادٌ(٩) ومذهب

ملوكٌ(١٠) وإخوان إذا ما أتيتهمْ ... أحكمُ فى أموالهم وأُقَرَّب

كفعلك فى قوم أَرَاك اصطنعتهم ... فلم ترهم فى شكرهم لك أذنَبوا(١١)

فلا تتركنى بالوعيد كأننى ... إلى الناس مطلىٌّ به القار(١٢) أجربُ

أَلم تر أن الله أعطاك سورة(١٣) ... ترى كل مَلْكٍ دونها يتذبذَب (١٤)

ولست بمستبق أخًا لا تلمُه ... على شعث ، أى الرجال المهذبُ(١٥)

---

(١) جملة دعائية يخاطبون بها الملوك تحية ، ومعناها : أبيت أن تفعل شيئا تلعن به ، وكانت هذه تحية ملوك لخم وجذام .

(٢) أصير لأجلها ذا هم . (٣) أتعب . (٤) الزائرات فى المرض . (٥) شكوكا كأنه حسك . (٦) يخلط .

(٧) ذنبا وفى رواية : خيانة . (٨) الجانب : الناحية [وأراد به الشام]. (٩) موضع يتردد فيه لطلب الرزق .

(١٠) بدل من مستراد ومذهب ــ أو مبتدأ بتقدير فيه ملوك .

(١١) قال الأصمعى : [كما فعلت أنت بقوم قربتهم وأكرمتهم ، فتركوا الملوك ولزموك ، فلم تر ذلك ذنبا عليهم » . (١٢) القطران .

(١٣) منزلة رفيعة وشرفا . (١٤) يضطرب : [وأراد بهذا البيت والذى قبله تسلية النعمان على ما حصل من مدحه لآل جفنة] .

(١٥) تلمه : تصلحه ، والشعث : الفساد ، والمهذب : المنقى من العيوب ، [يعتذر بذلك عن زلته] .

فإن أك مظلوماً (١) فعبدٌ ظلمته ... وإن تك ذا عُتبى (٢) فمثلك يعتب (٣)

ومن أباغ المعلقات والمطولات أيضاً :

(٢) معلقة النابغة الذبيانى

عوجُوا فحيوا لنعمٍ دمنة الدار ... ماذا تحيون من نؤى وأحجار ؟ (٤)

أقوى وأقفر من نُعْم وغيَّرَه ... هُوج الرياح بهابى الترب موَّار (٥)

وقفت فيها سراة اليومَ أسألها ... عن آل نُعم أمونًا عبر أسفار (٦)

فاستعجمت دارُ نعم ما تكلمنا ... والدار لو كلمتنا ذات أخبار (٧)

فما وجدت بها شيئًا ألوذ به ... إلا الثمامَ وإلا مَوْقدَ النار (٨)

وقد أرانى ونعمًا لاهيينِ معاً ... والدهر والعيش لم يهمُمْ بإمرار (٩)

أيام تخبرنى نعم وأخبرها ... ما أكتم الناس من حاجى وأسرارى

لولا حبائل من نعم علقتُ بها ... لأقصر القلب عنها أى إقصار (١٠)

فإن أفاق لقد طالت عمايته ... والمرءُ يخلقَ طورًا بعد أطوار (١١)

نُبئت نعمًا على الهجران عاتبة ... سقيًا ودعيًا لذاك العاتب الزارى

رأيت نعمًا وأصحابى على عَجل ... والعيش للبين قد شدَّت بأكوار

فريع قلبي وكانت نظرة عرضت ... حينا وتوفيقَ أقدار لأقدار (١٢)

بيضاءَ كالشمس وافت يوم أسعدها ... لم تؤذِ أهلًا ولم تُفحِش على جار

(١) جعل غضبه ظلما لأنه عن غير موجب . (٢) رضا .
(٣) يرضى . (٤) عوجوا : قفوا ، الدمنة : ما اجتمع من آثار الديار ، النؤى ما يكون حول الخباء لمنع المطر . (٥) أقوى : خلا ، أقفر : صار قفرا ، هوج : جمع أهوج ، الريح تعصف بشدة ، هابى الترب : سافيه ، موار : يجيء ويذهب . (٦) سراة اليوم : وسطه ، والأمون : الناقة القوية المأمونة . (٧) استعجمت : عيت عن الجواب .
(٨) ألوذ به : أفزع اليه ، الثمام : نوع من النبت الدقيق الضعيف .
(٩) أمر العيش امرارا صار مرا .
(١٠) الحبائل : جمع حبالة [وهى الشرك] ، أقصر : كف وانصرف .
(١١) العماية : الضلالة ، والطور : الحال ، ويخلق : يتغير .
(١٢) ريع : من الروع [وهو الفزع] ، والحين : الهلاك .

تلوث بعد افتضال البُرد مئزرها ... لوثا على مثل دعص الرملة الهارى(١)

والطيب يزداد طيباً أن يكون بها ... فى جيد واضحةِ الخدَّين معطار(٢)

تسقى الضجيعَ إذا استسقى بذى أشر ... عذب المذاقة بعد النوم مخمار(٣)

كأن مشمولة صرفاً بريقتها ... من بعدِ رقدتها أو شهد مُشتار(٤)

أَقولُ والنجمُ قد مالت أَواخره ... إلى المغيب : تثبتْ نظرة حار(٥)

أَلمحةٌ من سنا برق رأَى بصرى ... أَم وجه نعم بدا لى أم سنا نار

بل وجهُ نعم بدا والليل مُعتكرُ ... فلاح من بين أَثواب وأَستار

إن الحمول التى رَاحت مُهجرة ... يتبعْنَ كل سفيه الرأى مغيار(٦)

نواعمٌ مِثل بيضات بمحنية ... يحفزنَ منه ظليمًا فى نقًا هار(٧)

إذا تغنى الحمامُ الورْقُ هيَّجنى ... وإنْ تغربت عنها أُم عمّار(٨)

ومهمه نازحٍ تعوى الذئابُ به ... نائى المياه عن الورَّاد مقفار(٩)

جاوزْتُهُ بعلنداة مناقلةٍ ... وعر الطريق على الإحزان مضمار(١٠)

تجتابُ أَرضاً إلى أَرض بذى زجل ... ماض على الهول هاد غير محيار(١١)

---

(١) تلوث : تلف ، وافتضال البرد : هو التوشح به ، والدعص : الكثيب الصغير ، والهارى : المنهار . (٢) الجيد : العنق ، معطار : كثير العطر ووضوح الخد اشراقه . (٣) الأشر حسن الثغر وتحريز أطرافه مخمار عطر يقول وجدت خمرة الطيب أى رائحته .

(٤) المشمولة : الخمر ، والصرف : الخالصة ، والريقة : الريق ، والمشتار : الذى ينزع العسل من بيوت النحل . (٥) حار : مرخم حارث . (٦) الحمول : الهوادج [ويريد بها النساء راحت مهجرة سارت وقت الهجير] ، مغيار : غيور . (٧) المحنية والمحنو : منعطف الوادى . (٨) الورق : جمع ورقاء ، وهى الحمامة تألف الشجر الوريق . وأم عمار : واقعة موقع البدل من الضمير فى [عنها]. (٩) المهمة : الوادى الموحش ، نازح بعيد الوراد [جمع وارد] ، مقفار : لا أنيس به . (١٠) علنداة : شديدة [وهو وصف للناقة] ، مناقلة : سريعة نقل القوائم فى جرى بين العدو والخبب ، الاحزان : المشى فى الحزن [وهو ما صلب من الأرض] ، مضمار : كثير الضمور . (١١) تجتاب : تقطع وتجوب ، الزجل : الصوت ، محيار : شديد الحيرة .

إذا الركاب ونت عنها ركائبها	تشذرَت ببعيد الفتر خطار(١)
كأنما الرحل عنها فوق ذى جدد	ذب الريَّاد إلى الأَشباح نظار(٢)
مطرَّد أفردت عنه حلائله	من وحش وجرة أَومن وحش ذى قار(٣)
مجرَّس وحدٌ جأَب أطاع له	نبات غيث من الوسمى مبكار(٤)
سراته ما خلا لباته لهق	وفى القوائم مثل الوشم بالقار(٥)
باتت له ليلةٌ شهباءُ تسفعه	بحاصب ذات إشعان وإمطار(٦)
وباتَ ضيفاً لأَرطاةٍ وألجأه	مع الظلام إليها وابل سار(٧)
حتى إذا ما انجلت ظلماء ليلته	وأَسفر الصبحُ عنه أى إسفار
أَهوى له قانصٌ يسعى بأَكلبه	عارى الأَشاجع من قناص أَنمار(٨)
محالفُ الصيد هبَّاشٌ له لحَم	ما إن عليه ثيابٌ غير أَطمار(٩)

(١) ونت من الونى [وهو الضعف] ، تشذرت : نشطت ، الفتر : الضعف ، خطار : كثر الخطران برجليه على الناقة يحثها على المضى .

(٢) ذو الجدد : هو ثور الوحش تعلو ظهره خطوط بيض وحمر ، والذب : الدفع ، والرياد والارتياد : التحول . (٣) مطرد : مشرد ، ووجرة وذوقار موضعان ، والوحش اذا أفردت عنه حلائله جن وأكثر من العدو فى أرجاء الفضاء . (٤) مجرس : خائف وذلك أن يسمع جرس الانسان أى صوته ، وحد : وحيد ، جأب ، صلب شديد تطاع له الكلأ وأطاع : واذا اتسع وأمكن رعيه حيث شاء ، الوسمى : اول المطر . ومثله المبكار . (٥) سراته : ظهره ، لباته : صدره ، لهق : أبيض ، القار : شيء أسود تطلى به السفن . (٦) ليلة شهباء ويوم أشهب : تهب فيهما ريح باردة ، تسفعه : تلهفه وترميه ، والحاصب : الريح تقذف بالحصباء وهو الحصى . (٧) الارطاة : شجرة مرة . والوابل المطر الغزير ، والسارى يسح بالليل . (٨) أهوى له : انقض عليه ، أكلبه : كلابه ، الأشاجع : أصول الأصابع التى تتصل بعصب ظاهر الكف ، وعريها محمود فى الرجال أنمار : اسم لقبيلة مشهورة بالصيد .

(٩) هباش : كثير الهبش وهو الكسب يتكسب لهم ومعه هباشات ، اى مكاسب ، أطمار : جمع طمر ، وهو الثوب الخلق .

يسعى بعضب براها فهى طاويةٌ ... طول ارتحال بها منه وتسْيار(١)

حتى إذا الثورُ بعد النفر أمكنه ... أشلى وأرسل غطفا كلها ضار(٢)

فكرّ محمية من أن يفر كما ... كرّ المحامى حفاظاً خشية العار(٣)

فشك بالروق منه صدرُ أولها ... شك المشاعب أعشارًا بأعشار(٤)

ثم انثنى بعد للثانى فأقصده ... بذات ثغر بعيد القعر نعّار(٥)

وأثبت الثالث الباقى بنافذة ... من باسل عالم بالطعن كرار(٦)

وظل فى سبعة منها لحقن به ... يكرُّ بالروق فيها كر إسوار(٧)

حتى إذا ما قضى منها لُبانتهُ ... وعاد فيها بإقبال وإدبار(٨)

انقض كالكوكب الدرى منصلتًا ... يهوى ويخلط تقريبًا بإحضار(٩)

فذاك شِبهُ قلوصى إذ أضر بها ... طول السُّرى والسرى من بعد أسفار(١٠)

لقد نهيت بنى ذبيان عن أقر ... وعن تربعهم فى كل أصفار(١١)

فقلت يا قوم إن الليث منقبضٌ ... على براَئِنه لوثبة الضارى(١٢)

لا أعرفن ربرَباً حورًا مدامعها ... كأنهنَّ نعاجٌ حول دَوَّار(١٣)

---

(١) العضب جمع أعضب : وهو اللين الناعم ، طاوية : جائعة .

(٢) النفر : العدو ، أشلى تقول أشلى ، وتقول أشليت الكلب للصيد .

(٣) محمية : حفاظ والمحامى الذائد والمدافع .

(٤) الروق القرن ، المشاغب : الذى يشعب القدح ويصدعه .

(٥) أقصده رماه بذات ثغر : أى بطعنة ذات ثغر والثغر هنا الشق ، بعيد القعر : بعيد الغور ، نعار : له نعير

(٦) نافذة : أى ماضية ، باسل : من البسالة وهى الشجاعة .

(٧) الاسوار : الرامى الحاذق.

(٨) لبانته : حاجته

(٩) منصلتا : الانصلات هو المضى فى سرعة.

(١٠) القلوس : الناقة ، والسرى : السير بالليل .

(١١) أقر : واد خصيب حماه النعمان ، وبنو ذبيان : قوم النابغة .

(١٢) منقبض على براثنه : متحفز للوثوب وثبة الأسد الضارى .

(١٣) الربرب : القطيع من البقر شبه به النساء ، حور : جمع حوراء ، من الحور وهو شدة بياض بياض العين مع شدة سواد سوادها ، والمدامع : العيون ، والنعاج : يريد بها هنا أيضا النساء ، ودوار : صنم كن يطفن حوله .

ينظرنَ شزرًا إلى من جاء عن عُرُض ... بأَوجه منكرات الرق أحرار(١)
خلف العضاريط. لايوقين فاحشة ... مستمسكات بأَقتاب وأكوار(٢)
يذرفن دُمعًا على الأَشفار منحدرًا ... يا مُلن رحلة حصن وابن سيار(٣)
إما عُصيت فإنى غيرُ منفلت ... منى اللصابُ فجنبا حَرة النار(٤)
إذ أَصنع البيت فى سوداءَ مظلمة ... تقيدُ العير لايسرى بها السارى(٥)
تدافع الناس عنَّا حين نركبها ... منَ المظالم تدعى أُم صبار
ساق الرفيدات من جوش ومن خردٍ ... وماش من رهط. ربعى وحَجار(٦)
قرمى قضاعة حلا حولَ حجرَته ... مدًّا عليه بسلاف وأنفار(٧)
حتى استقل بجمع لا كفاءَ له ... يقفو الوحوش عن الصحراءِ جرار(٨)
لا يخفض الرزّ عن أَرض أَلم بها ... ولا يضل على مصباحِهِ السارى(٩)
وعيرَتنى بنو ذبيان خشيتهُ ، ... وهل علىَّ بأَن أَخشاك من عار

---

(١) النظر الشزر : هو النظر فى اعراض بمؤخر العين كنظر المباغض ، العرض : الجانب منكرات الرق أحـرار صفة للنساء يرميهـن السبى بالعبودية . (٢) العضاريط : الخدم ، لا يوقين فاحشة [يريد أن السبى عرضهن للمنكر أى للفحشاء] ، الأقتاب : جمع قتب ، وهو عود الرحل والأكوار الرحال . (٣) الأشفار منابت الهدب .

(٤) اللصاب : جمع لصب وهو الشعب الضيق من الجبل ، والحرة : أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها حرقت بالنار .

(٥) سوداء مظلمة : وصف لحرة النار : تقيد العير : تمنعه من المشى .

(٦) الرافيدات : بنو رفيدة من كلب بن وبرة ، جوش : جبل ببلاد بنى القين ، ربعى وحجار : رجلان من قضاعة (٧) قرمى قضاعة : صفة لربعى وحجارة والمراد الرجل القوى المتين ، حـلا : نزلا ، مدا عليـه : أمداه ، السلاف : من يتقدمون العسكر ، والأنفار : من يتكون من الجيش من أفـرادهم . (٨) استقـل : نهض ، لا كفـاء له : لا نظير له : والجرار : الجيش الكبير كأنما يجر بعضه بعضا .

(٩) الرز : الصوت ، الم نزل : يعنى أنه لا يهاب ارضـا ينزل بها حتى يخفض صوته .

(٣) زُهير بن أَبى سلمى المزنى المضرى

هو زُهير بن أَبى سلمى : واسمه ربيعة بن رباح المزنى ثالث فحول الطبقة الأُولى من الجاهلية ، وأَعفهم قولا ، وأَوجزهم لفظًا ، وأَغزرهم حكمة ، وأَكثرهم تهذيبًا لشعره .

نشأَ فى غطفان وإن كان من مزينة ، من بيت جل أَهله شعراء ، رجالا ونساء ، واختص زهير بمدح هرم بن سنان الذبيانى المرى ؛ وأَول ما أَعجبه من فعله وحببَ إليه مدحه حسن سعيه هو والحارث بن عوف فى الصلح بين عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء بتحملهما ديات القتلى التى بلغت ثلاثة آلاف بعير ، وقال فى ذلك قصيدته ، وهى إحدى المعلقات السبع .

ثم تابع مدحه كما تابع هرم عطاءه حتى حاف أَلا يمدحه زهير إلا أَعطاه ، ولايسأَله إلا أَعطاه ، ولايسلم عليه إلا أَعطاه عبدًا أَو وليدة أَو فرساً ، فاستحيا زهير منهُ ، فكان إذا رآه فى ملأٍ قال : أَنعموا صباحا غير هرم ، وخيركم استثنيت ، وكان زهير سيدًا كثير المال حليما معروفاً بالورع ؛ متدينًا مؤمنًا بالبعث والحساب ، كما يبدو من قوله :

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدْخرُ ليوم حساب أَو يعجل فينقم

وعَمَّرَ زهير ، ومات قبل البعثة بسنة .

وكان زهير صاحب روية وتعمل وتهذيب لما يقول ، ولاسيما مطولاته ، حتى قيل : إنه كان ينظم القصيدة فى أَربعة أَشهر ، ويهذبها فى أَربعة أَشهر ، ويعرضها على خواصه فى أَربعة أَشهر ، فلا يظهرها إلا بعد حول ، ولذلك يسمون بعض مطولاته الحوليات ، ومما سبق غيره قوله يمدح هرماً :

قد جعل المبتغون الخير فى هرم والسائلون إلى أَبوابه طُرُقا

من يلق يوماً على علاته هرماً يلق السماحة منه والندى خُلقا
لو نال حىٌّ من الدنيا بمكرمة أُفق السماء لنالت كفه الأُفقا

وشعره يمتاز أولا بحسن الإيجاز وحذف فضول الكلام وحشوه ، بحيث يودع اللفظ اليسير والمعنى الكثير .

وثانياً بإجادة المدح وتجنب الكذب فيه .

وثالثاً بتجنب التعقيد اللفظى والمعنوى ، والبعد من وحْشى الكلام وغريبه .

ورابعاً بقلة الهذر والسخف فى كلامه ، ولذلك كان شعره عفيفاً يقلُّ فيه الهجاء ولقد هجا قوماً فأَوجع ، ثم ندم على ما صنع .

ومن أَشهر المعلقات والمطولات أَيضاً :

مُعلقة زهير بن أَبى سلمى

أَمن أُم أَوفى دمنةٌ لم تكلم بحومانة الدَّراج فالمتثلم (١)
ديارٌ لها بالرقمتين كأَنها مرَاجيع وشم فى نواشر معصم (٢)
بها العينُ والآرامُ يمشينَ خلفة وأَطلاؤها ينهضن من كل مجثم (٣)
وقفتُ بها من بعد عشرين حجة فلأْياً عرفت الدارَ بعد توهم (٤)
أَثافى سعفًا فى معرس مرجل ونُؤْياً كجذم الحوض لم يتثلمِ (٥)
فلما عرفتُ الدار قلت لربعها أَلا أَنعم صباحاً أَيها الربع واسلم
تبصر خليلى هل ترَى من ظعائن تحملن بالعلياءِ من فوق جرثمِ (٦)

(١) أم أوفى : امرأة زهير ، ودمنة الدار : الأثر ، لم تكلم : لم تظهر ، أى ، أمن دمن أم أوفى دمنة لم تتكلم ، وحومانة الدراج موضع ، وكذلك المتثلم . (٢) الرقمتان : اسم ، مراجع الوشم : خطوطه ، ونواشر المعصم : عروقه . (٣) العين : البقر ، والآرام : الظباء وأطلاؤها : أولادها ، والمجثم : المكان الذى يقمن فيه ، يمشين خلفه : فوجا بعد فوج وسربا بعد سرب . (٤) حجة : سنة .

(٥) الأثافى : الحجارة وضع عليها القدر ، سفع : سود ، ومعرس المرجل : الموضع الذى يكون فيه ، والنؤى : ما يحفر حول الخيام لمنع السيل ، وجذم الحوض : أصله ، لم يتثلم ، لم يتكسر .

(٦) الظفائن : الجمال عليها الهوادج ، العلياء وجرثم : موضعان ، والتحمل : الارتحال .

جعلنَ القنانَ عن يمين وحزنهُ   وكم بالقنان من محلّ ومحرم(١)
علونَ بأنماط عتاق وكلة   وِرادَ حَواشيها مشاكِهةُ الدم(٢)
ظهرنَ منَ السوبان ثم جزعنهُ   عَلى كل قينى قشيب ومُفأَم(٣)
وَوركنَ فى السوبان يعلون متنهُ   عليهنَّ دَل الناعِم المتنعمِ(٤)
بكرنَ بكورًا واستَحَرنَ بسحرة   فهن ووَادى الرس كاليد للفمِ(٥)
وفيهن ملهى للصديق ومنظر   أنيق لعين الناظر المتوسمِ
كأن فتات العهن فى كل منزل   نزلنَ به حب الفنا لم يحطمِ(٦)
فلما وَردنَ الماءَ زرقاً جمامهُ   وضعن عصيي الحاضر المتخيمِ(٧)
تذكرنى الأَحلامُ ليلى ومن تطف   عليه خيالاتُ الأَحبة يحلمِ(٨)
سعى ساعيا غيظ بن مرةَ بعد ما   تنزل ما بين العشيرة بالدمِ(٩)
فأَقسمتُ بالبيتالذى طاف حوله   رجالٌ بنوهُ من قريش وجرهمِ(١٠)
يميناً لنعم السيدان وجدتما   على كل حال من سحيل ومبرمِ(١١)

(١) القنان : اسم جبل ، الحزن : ما غلظ من الأرض .
(٢) الأنماط : ثياب تفرش بها الهوادج ، وعتاق : جيدة الحوك ، والكلة : الستارة [الناموسية] ، وراد موردة ، مشاكهة ، مشابهة .
(٣) السوبان : اسم واد ، جزعنه : قطعنه ، قشيب : جديد ، مفام : واسع . (٤) وركن فى السوبان : عرجن عليه ، متنه : ظهره .
(٥) استحرن : سرين سحرا كاليد للفم : يريد أنهن فى قربهن من وادى الرس كاليد للفم ، لأنها لا تخطئه فى قربها منه .
(٦) العهن : الصوف ، الفنا : شجر له حب أحمر وفيه نقط سود .
(٧) جمام الماء : ما اجتمع منه ، والجمام الزرق : المياه الصافية ، ووضع العصيي : كناية عن ترك السير ، الحاضر : النازل على الماء ، المتخيم : المقيم . (٨) فى كتاب « مدامع العشاق » بحث مفصل عما قاله الشعراء فى طيف الخيال . (٩) الساعيان فى هذا الصلح هما الحارث بن عوف وهرم بن سنان واليهما يوجه زهير الثناء .
(١٠) البيت : هو الكعبة ، وجرهم : اسم لقوم كانوا ولاة البيت قبل قريش وأبادهم الله لبغيهم . (١١) السحيل : الخيط المفرد المبرم المفتول : والسحيل هنا والمبرم كناية عن الرخاء والشدة .

تَدَارَكتُما عَبساً وذُبيان بعد ما ... تفانَوا ودقوا بينهم عِطرَ مَنشم(١)

وقد قلتما : إنْ نُدرِك السِّلم واسِعًا ... بمالٍ ومعروفٍ مِن الأمرِ نسلم(٢)

فأَصبحتما منها على خيرِ موطِنٍ ... بعيدَين فيها من عُقوقٍ ومَأْثَمِ(٣)

عظيمينِ فى عَليا مَعدّ هُدِيتما ... ومن يستبح كنزًا من المجدِ يعْظم

وأَصْبحَ يحدَى فيهمُ من تِلادِكم ... مغانمُ شتَّى من إفال مُزَنمِ(٤)

تعفَّى الكلوم بالمئين فأَصبحت ... يُنجِّمها مَن ليسَ فيها بمجرِمِ(٥)

يُنجِّمها قومٌ لقومٍ غَرامة ... ولم يهريقوا بينهم مِلءَ محجمِ(٦)

أَلا أَبلغ الأَحلاف عَنِّى رِسالة ... وذُبيان هل اقْسَمْتمُ كل مقسم(٧)

فلا تكتمُنَّ الله ما فى صدورِكم ... ليخفى ، ومهما يكتم اللهُ يَعلم

يؤخَّر فَيوضع فى كتاب فيدخر ... ليوم حساب أَو يعجل فينْقم

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمو ... وما هوَ عَنها بالحديثِ المرَجمِ

متى تبعثوها تبعثوها ذَميمة ... وتضرى إذا ضَريْتموها فتضرَمِ(٨)

فتعرككم عَركَ الرَّحى بثفالها ... وتلقح كِشافاً ثم تنْتج فتتئمِ(٩)

---

(١) منشم : امرأة تبيع عطرا. فاذا حاربوا اشتروا منها كافورا لموتاهم.
(٢) واسعا خالصا من شوائب الأحقاد .
(٣) العقوق : قطيعة الرحم ، والمأثم : الاثم ، وهو العدوان .
(٤) يحدى : يساق ، افال : جمع أفيل وهو الفصيل ، مزنم : معلم .
(٥) تعفى : تمحى ، الكلوم ، الجروح ، ينجمها : يؤديها أقساطا .
(٦) المحجم : وعاء يتلقى فيه الحجام الدم عند الفصد .
(٧) أى : هل حلفتم لو تعملون شيئا ينقض ما تحالفتم عليه .
(٨) يقال ضريته فضرى : أى هجته فهاج : تضرم : تشعل .
(٩) الثفال : جلد بسيط تحت الرحى عند الطحن .

فتنْتج لكم غِلمان أَشأَمَ كلهم كـأَحمر عاد ثمّ ترضع فتُفطم(١)

فتغلِلْ لكم مالا تغِلُّ لأَهلها قُرى بالعراق من قفيز ودِرهَم(٢)

لحىٍّ حلالٍ يَعصم الناس أَمرهُم إذا طَرقت إحدَى الليالى بمعظِم(٣)

كِرام فلا ذُو الضغنِ يُدرِك نَبلهُ ولا الجارِم الجانى عليهم بمسلِم(٤)

رَعوا ما رُعَوا من ظمئهم ثم أَوردوا غمارًا تَفرَّى بالسِّلاح وبالدم(٥)

فَقضَّوا منايا بينهم ثم أَصدروا إلى كلإٍ مُستوبِل متوخِّمِ(٦)

لعمرِى لِنعم الحىِّ جر عليهم بما لا يُؤاتيهم حُصينُ بن ضمضم

وكان طوَى كشحاً على مُستكنه فلا هو أَنداها ولم يَتجَمْجم(٧)

وقال سأَقضى حاجتى ثم أَتقِى عَدوِّى بأَلف من وَرَائى مُلجم(٨)

فشد ولم يَنظر بيوتاً كثيرةً لدى حيث أَلقت رَحلها أُمُّ قشعم(٩)

لدى أَسد شاكى السِّلاح مُقذف له لبَد أَظفارهُ لم تقلمَ(١٠)

جَرِىء متى يُظلم يُعاقِب بظلمه سريعاً وإلا يَبْدَ بالظلم يَظلم

---

(١) غلمان أشام : غلمان شؤم ، واحمر عاد : هو عاقر الناقة .

(٢) القفيز : اسم مكيال .

(٣) حى حلال : حالون فى مكان واحد متجاورون ، يعصم الناس أمرهم : يسلم الناس برأيهم ، والمعظم : الحادث الرهيب .

(٤) النبل : الثأر ، الجارم : المجرم .

(٥) الظمأ : الهدنة بين الحربين ، والغمار : جمع غمر ، وهو الماء الكثير ، تفرى : انفجر .

(٦) الكلأ : العشب ، أصدروا : رجعوا ، مستوبل : متوخم ، مستثقل مردوم .

(٧) الكشح : الجنب . مستكنة : مضمرة .

(٨) الف ملجم : يريد ألف فارس ألجموا خيولهم .

(٩) لم ينظر : لم ينتظر ، والبيوت الكثيرة : قومه وانصاره ، يريد أنه لم يستعن بأحد ، وأم قشعم : هى المنية .

(١٠) شاكى السلاح : شاهر السلاح ، مقذف : يسرع به كثيرا الى الحروب ، لبد : الشعر الملبد على منكبى الأسد .

لعمرك ما جرَّت عليهم رماحهمْ ... دمَ ابن نهيك أو قتيلِ المُثلم

ولا شاركوا القوام فى دمِ نوفل ... ولا وَهبٍ منهم ولا ابن المُخزم

فكلاًّ أراهم أَصْبحوا يَعقلونَهُ ... عُلالة أَلف بعدَ أَلف مُصتَّمِّ

ومن يَعص أَطراف الزِّجاج فإنه ... يُطيعُ العوالِي ركِّبت كلَّ لهذم(١)

ومن يوفِ لا يُذمَم ومن يفض قلبه ... إلى مُطمئن البرِّ لا يَتجَمْجم

ومنْ هاب أَسباب المَنايَا يَنلنه ... ولو رام أَسباب السماءِ بسلم

ومن يَكُ ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومهِ يُستَغن عنه ويُذمم

ومن لا يزل يسترحل الناس نفسه ... ولا يعفها يوماً من الذل يندم

ومن يغترب يحسب عَدوًّا صديقه ... ومن لا يكرّم نفسهُ لا يكرَّم

ومن لا يذُد عن حوضه بسلاحه ... يُهدم ومن لا يظلم الناس يُظلم(٢)

ومن لم يصانِع فى أُمور كثيرة ... يضرَّس بأَنْياب ويوطأ بمنسم(٣)

ومن يجعل المعروف من دون عرضه ... يفره ومن لا يتَّقِ الشتم يشتَم

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وكأَن ترَى من صامت لك معجب ... زِيادته أَو نَقْصه فى التكلم

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وإنَّ سِفاه الشيخ لا حلم بعده ... وإن الفتى بعدَ السفاهَةِ يحلم

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانين حولا لا أَبا لك يَسْأَم

---

(١) الزجاج : أسفل الرمح ، والعوالى : جمع عالية : وهى أعلاه ، اللهذم : اللسان الطويل ، والمعنى : من عصى زجاج الرمح وهى لا تقتل . أطاع عواليه وهى قتالة : أى من لم يطع باللين يطع بالشدة .

(٢) الذود : هو الدفع ، ومن لا يظلم يظلم : [يريد به أنه طمع الناس أن يبطشوا بالضعيف وأن يظلموا من لا يقدر على الظلم يعنى من لم يدفع الظلم بمثله يظلم] .

(٣) المصانعة : المداراة ، يضرس : يمضغ بالأضراس ، والمنسم : الحافر.

وأَعلمُ ما فى اليوم والأَمسِ قبْله ولكننى عن علم ما فى غَدٍ عَم
رأَيْتُ المنايا خبط عشواءَ من تصب تمته ومن تخطى يُعمَّر فيهرم
سأَلنا فأَعطيتم وعُدنا فَعدْتمُ ومن يُكثر التسآل يوماً سَيُحرم

(٤) عنترة العبسِى

هو عنترة بن عمرو بن شدَّاد العبسى أَحد فرسان العرب وأَغرِبتها وأَجوادها وشُعرائها المشهورين بالفخر والحماسة .

وكانت أُمهُ أَمةً حبشية تسمى زبيبة ، وأَبوه من سادات بنى عَبس .

وكان من عادات العرب أَلاتُلحق ابن الأَمَة بنسبها ، بل تجعله فى عداد العبيد ، ولذلك كان عنترة عند أَبيه منبوذًا بين عبدانه ، يرْعى له إبله وخيله فربأَ بنفسه عن خصال العبيد ، ومارس الفروسية ومهرَ فيها ، فشبَّ فارساً شجاعاً هُماماً ، وكان يكره استعباد أَبيه له وعدم إلحاقه به ، حتى أَغار بعض العرب على عبس ، واستاقوا إِبلهم ، ولحقتهم بنو عبس ، وفيهم عنترة لاستنقاذ الإِبل ، فقال له أَبوه : كر ياعنترة ، فقال : العبدُ لايحسن الكرّ ، إنما يحسنُ الحلاب والصر ، فقال : كِر وأنت حُرٌّ ، فقاتل قتالا شديدًا حتى هزم القوم واستنقذ الإِبل ، فاستلحقه أَبوه ، ومن ذلك الوقت ظهر اسمه بين فرسان العرب وساداتها .

وطال عمر عنترة حتى ضَعف جسمه ، وعجز عن شَنِّ الغارات ، ومات قُبيل البعثة .

شعره ــ لم يشتهر عنترة أَول أَمره بشعر غير البيتين والثلاثة ، وإنما غلبت عليه الفُروسية مكتفياً بها حتى عيره يوماً بعض قومه بسوادِه وأَنه لايقول الشعر فاحتج لسواده بخلقه وشجاعته ، واحتجَّ لفصاحته بنظم مُعلقته المشهورة التى كانت تسمى المذهبة أَيضاً ، وقد ضمَّنها خصاله ومكارم قومه ، وحُسن دفاعه عنهم ووفرة جُوده معرجا فيها علي أَوصاف أُمور شتى ، وهى من أَجمل المعلقات .

معلقة عنترة العبسى

هل غادرَ الشعراءُ من متردَم ؟ أم هل عرفت الدار بعد توهُّم(١)

يا دار عبلةَ بالجِواءِ تكلمى وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى(٢)

دارٌ لآنسَة غضيض طرفُها طوْع العنان لذيذة المتبسِمِ

فوقفتُ فيها ناقتى ـ وكأَنها فدن ـ لأَقضى حاجة المُتلوِّم(٣)

وتحلُّ عبلةَ بالجِوَاءِ وَأَهلُنَا بالحزنِ فالصَّمَّان فالمتثلِّم(٤)

حُيِّيتَ مِن طلل تقادم عهدهُ أقوى وأَقفر بعد أُم الهيثم(٥)

حلت بأَرض الزائرين فأَصبحت عَسِرًا على طلابك ابنة مخرم(٦)

عُلقتها عرضاً وأَقتل قومها زعمًا لعمر أَبيك ليس بمزعم(٧)

ولقد نزلت ، فلا تظنى غَيره ، مِنى بمنزلة المحبِّ المكرم(٨)

كيفَ المزَارُ وقد تربع أَهلها بعنُيزَتين وأَهلُنا بالغَيْلَمَ(٩)

إنْ كنت أَزمعتِ الفراق فإنما زُمَّت ركابُكم بليل مظلم(١٠)

ما راعنى إلا حَمولة أَهلها وسط الديار تسفُ حَبَّ الخمخِم(١١)

---

(١) غادر : ترك ، متردم : اى شىء يصلح لم يكونوا أصلحوه .

(٢) الجواء : بلد ، تكلمى : أفصحى وأخبرى ، وعمى وانعمى : أى نعم الله صباحك وأدامك سالمة . (٣) الفدن : القصر ، والمتلوم : المترقب المنتظر : وعنى بالمتلوم نفسه . (٤) تحل : تترك ، والصوان والصمان بمعنى واحد وهو معروف عند العرب (٥) حييت : لك منى التحية ، من طلل : المكان تقادم عهده ، اقوى : خلا من السكان ، أقفر : خرب ، الهيثم : الصقر (٦) الزائرين بالهمزة : الأعداء ، والزاير بالياء : من الزيارة للأحباب والأصدقاء . (٧) علقتها : أحببتها ، عرضا : من غير قصد ، زعما : ظنا . (٨) نزلت حلت من نفسى منزلة المحب المكرم . (٩) تربع القوم : نزلوا فى الربيع ، والعنيزتان ، والغليم : موضعان ، يقول : كيف أزورها وقد بعدت عنى بعد قربها .

(١٠) أزمع : نوى وصمم ، زمت الركاب : شدت

(١١) راعنى : أفزعنى ، والحمولة : الابل ، تسف حب الخمخم : تأكل بقلة لها حب أسود اذا أكلته الغنم قلت البانها وتغيرت .

فيها اثنتانِ وأربعون حلوبة سودًا كخافيةِ الغراب الأَسحم(١)

إذ تستبيك بذِى غُروب واضح عذبٍ مقبَّله لذيذ المطعم(٢)

وكأَن فارة تاجرٍ بقسِيمة سَبَقت عوارضها إليك من الفم(٣)

أَو رَوْضَة أُنُفًا تَضمَّن نبتُها غيثٌ قليلُ الدمْنِ ليس بمعلم(٤)

جَادتْ عليه كلُّ بِكْر حُرة فتركنَ كلَّ قرارة كالدرهم(٥)

سحًّا وتِسْكاباً فكلٌّ عَشية يجرى عليها الماءُ لم يتصرّم(٦)

وخلا الذباب بها فليس ببارح غرِدًا كفعل الشارب المترنم(٧)

هزجاً يحك ذراعهُ بذراعِهِ قدح المكب على الزناد الأَجذم(٨)

تمسى وتصبحُ فوق ظهر حشية وأَبيتُ فوق سرَاة أَدهم مُلجم(٩)

وحشيتى سَرْجٌ على عبل الشوى نهد مراكِله نبيل المحزم(١٠)

هل تُبلغنِّى دارها شدَنيةٌ لعنت بمحروم الشرَابِ مُصرَّم(١١)

---

(١) الحلوبة : الناقة فى ضرعها لبن ، الأسحم : شديد السواد .

(٢) تستبيك : تذهب بعقلك ، غروب : حد ، وغروب الأسنان حدها .

(٣) فارة : الفارة هنا وعاء .

(٤) الروضة : الحديقة ، والأنف : التام فى كل شيء ، والدمن : المطر الخفيف ، والمعلم : ذو العلامة .

(٥) البكر : السحابة فى أول الربيع وفى عادتها أن لا تمطر .

(٦) لم يتصرم : ينفد ولم ينقطع [وخص مطر العشى لأنه أكثر ما يكون صيفا . (٧ ، ٨) خلا : انفرد ، ببارح : أى بتارك ، غردا : مترنما والتغريد الترنيم ، الهزج : سريع الصوت ، يحك ذراعه بذراعه : أى يمر احدهما على الأخرى ، قدح المكب : الذى أكب على الزناد يقدحه على التوالى ، الأجذم : الزناد القصير .] وكلها نعوت لغناء الذباب وترنيمه فوق الغدير] (٩) الحشية : الفراش المحشو ، يعنى أن حبيبته تمسى وتصبح مستريحة ناعمة ، وأما هو فيبيت فوق ظهر جواده حارسا لها ومدافعا عن القبيلة . (١٠) حشيتى : فراشى ، سرج : السرج ما يوضع على الجواد ، عبل الشوى : غليظ القوائم يريد جواده .

(١١) تبلغنى : توصلنى دارها منزلها ومقامها .

خطارة غِب السُّرَى زيّافة تطَس الأَكام بذاتِ خُف مِيْثَمِ(١)

وكأنما أَقِص الآكام عشيةً بقريب بين المنسمين مُصلمِ(٢)

تـأْوى لهُ قلصُ النعام كما أَوت حزَقٌ يَمانِيةٌ لأَعجم طمْطِمِ(٣)

يَتبعْنَ قلة رَأسِهِ وكأَنَّهُ حرَجٌ على نعش لهن مُخيمِ(٤)

صعل يعود بذى العشيرة بيضهُ كالعَبد ذى الفَرْو الطويل الأَصْلمِ(٥)

شربت بماءِ الدُّحْرُضين فأَصبحت زَوْراءَ تنفر عن حياض الديلمِ(٦)

وكأَنما تنأَى بجانِبِ دَفِّهَا الــــوَحشى منْ هَزجِ العشىِّ مُؤوّمِ(٧)

هرٌّ جنِيبٌ كلما عَطفتْ لهُ غضبى تلقاها باليدين وبالفمِ(٨)

---

(١) خطارة : تحرك ذنبها وترفعه وتضرب به حاديها ، غب السرى : اى بعد السرى ، زيافة : تسرع فى مشيها .

(٢) اقص : أكثر ، والآكام : المرتفع من الأرض ، المنسمان : الظفران المقدمان فى الخف ، مصلم : مقطوع الأذنين .

(٣) تأوى : ترجع وتسكن ، قلص : جمع قلوص وهىالناقة الشابة. حزق : جماعات . (٤) يتبعن : يحطـن به ، قلة الرأس : اعـلاه ، والحرج : سرير يحمل عليه المريض أو الميت .

(٥) صعل : صغير الراس دقيق العنق ، يعـود : يأتى الى بيضه ، ذو العشيرة : اسم مكان ، شبه ذكر النعام بالعبو الأسود عليهفروة طويلة.

(٦) الدحرضان : اسم مورد من موارد الماء ، زوراء : عوجاء مائلة من النشـــاط ، والديلم : الأعـــداء ، والمعنى أنها تجـافت عن الحياض لخوفها منها .

(٧) ينأى : يبعد ، والدف : الجنب ، والوحشى : الجانب الأيمن من البهائم ، وسمى الجـانب الأيمـن وحشـيا لأنه لا يركب منـه الراكب ولا يحلب منه الحالب ، هزج العشى : صـوت الهر الذى يخـدشها لأن السنانير اكثر ما تصيح فى العشيات ، والمؤوم : عظيم الراس .

(٨) هر جنيب : مجنوب كلما مالت له غاضبة اتقاها وردها باليدين وبالفم ، والمعنى أنها كثيرة النشاط فى ساعة العشى وهى ساعة الفتور عند سواها من الابل فكأنها من نشاطها يخدشها هو تحت ابطها .

أبقى لها طول السفار مُقرمداً … سنداً ومثلَ دعائم المتخيّمِ (١)

بركت على ماء الرداع كأنما … بركت على قصب أجش مُهضّم (٢)

وكأن ربا أو كحيلا معقدا … حش الوقود به جوانبَ قمقم (٣)

ينباع من ذفرى غضوب جسرة … زيّافة مثلِ الفنيق المكدَم (٤)

إن تغدقى دونى القِناع فإننى … طبٌّ بأخذ الفارس المستلئم (٥)

أثنى على بما علمتُ فإنّنى … سهل مُخالفتى إذا لم أظلم

فإذا ظلمت فإن ظلمى باسلٌ … مُرٌّ مذاقته كطعم العلقم

ولقد شربت من المدامةِ بعدما … ركدَ الهواجر بالمشوف المعلم

بزجاجة صفراء ذات أسرَّة … قرنت بأزهرَ فى الشمال مقدَّم (٦)

فإذا شَربت فإننى مُستهلكٌ … مالى ، وعرضى وافر لم يكلم (٧)

وإذا صَحوت فما أقصر عن ندى … وكما علمت شمائلى وتكرمى (٨)

وحليل غانية تركت مجندلا … تمكو فريضته كشدق الأعلم (٩)

---

(١) أبقى : ترك ، طول السفار : طول السفر وامتداده ، والمقرمد : المبنى بالآجر ، أراد به سنامها وقد أراد أنه انكمش وتماسك وصلب كما يتماسك الآجر وهو الحجارة الخشنة الملمس .

(٢) الردع : مورد لبنى سعد ، الأجش : الذى فى صوته خشونة ، المهضم : المخرم ، وقيل المكسر .

(٣) الرب : ما بقى من عصارة الثمار ، الكحيل : القطران ، معقدا : أوقد تحته حتى انعقد .

(٤) ينباع : ينفعل ، والذفران : العظمان الناتئان خلف الأذنين ، زيافة : متبخترة فى سيرها ، والفنيق : الفحل من الابل ، والمكدم : المعضعض ، والكدم : العض ، وفى رواية المقرم .

(٥) تغدقى : ترخى القناع على وجهك . طب : أى خبير حاذق ، والمستلئم : الذى لبس اللامة وهى الدرع .

(٦) الأسرة : الخطوط والطرائق التى فى وسطها ، قرنت : شدت بكأس أخرى ، أزهر : ابريق من فضة ، والمقدم : المصطفى .

(٧) شربت : سكرت ، مستهلك : مستنفد .

(٨) صحا : أفاق من سكره . (٩) الحليل : الزوج .

سبقت يدىَّ له بعاجل ضربة ورشاش نافذة كلون العندم
هلا سألت الخَيلَ يا ابنةَ مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمى
إذ لا أزالُ على رحالة سابح نَهْدٍ تعاوره الكماة مُكلم(١)
طورًا يُعرَّض للطعان وتارة يأوى إلى حصد القسى عَرَمْرم(٢)
يخبرك من شهد الوقائع أننى أغشى الوغى وأعِف عند المغنم
فأَرَى مغانم لو أشاءُ حويتها فيصُدُّنى عنها الحيا وتكرمى
ومُدجَّج كرهَ الكماة نزالهُ لا ممعن هرباً ولا مستسلم(٣)
جادت يداى له بعاجل طعنة بمثقف صدق الكعوب مقوَّم
برحيبة الفرعين يهدى جَرْسها بالليل معتس الذئاب الضرم(٤)
فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم(٥)
فتركته جَزَرَ السباع ينشْنَه ما بين قلةِ رأسه والمِعْصم
ومشكٍّ سابغة هتكت فروجها بالسَّيف عن حامى الحقيقة معلِم(٦)
رَبِذ يداه بالقدَاح إذا شتا هتَّاك غايات التِّجار ملوم(٧)

(١) تعاوره : يطعنه ذا مرة وذاك اخرى . الكماة : الشجعان ، مكلم : مجروح . (٢) الحصد : الكثير المحكم ، والقسى : جمع قوس ، والعرمرم : الشديد ، وقيل الكثير .

(٣) المدجج : الكامل السلاح ، كره الكماة : خافوا منه .

(٤) الرحبة : الواسعة ، جرسها : الصوت ، والمعتس والمبتغى : الطالب ، والضرم : الجياع .

(٥) فشككت : شققت ، ثيابه : درعه وقيل قلبه .

(٦) المشك : الدرع ، السابغة : السابلة أضافها لنفسه وهو جائز ، هتكت : فضحت وكشفت ، فروجها : جمع فرجة ، وهى الخروق النافذة ، الحقيقة : الراية، والمعلم : الذى قد علم نفسه بعلامة فى الحرب

(٧) الزبد : السريع الضرب بالقداح الحاذق فى لعبها ، اذا شتا : لأن القحط أكثر ما يأتى العرب فى الشتاء .

لما رآنى قد نزلت أريده أبدى نواجذه لغير تبسُّم(١)

فطعنته بالرمح ثم علوتهُ بمهند صافى الحديدة مخذم(٢)

عهدى به مدَّ النهار كأنما خضب البنان ورأسهُ بالعظلم(٣)

بطل كأن ثيابهُ فى سرْحةٍ يحذَى نعال السِّبت ليس بتوْأَم(٤)

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نواهل منِّى وبَيضُ الهند تقطر من دمى

فودَدْت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

يا شاة ما قنَص لمن حلت له حرمت على وليتها لم تحرم(٥)

فبعثت جاريتى فقلت لها اذهبى فتجسسى أخبارها لِى واعلمى

قالت : رأيت من الأعادى غرة والشاة ممكنة لمن هو مُرْتَم

وكأنما التفتت بجيد جداية رشأ من الغزلان حُرٍّ أرثم(٦)

نبئت عمرًا غير شاكر نعمتى والكفر مخبثة لنفس المنعم

ولقد حفِظت وصاة عمى بالضُّحى إذْ تقلص الشفتان عن وضح الفم

فى حومة الحرب التى لا تشتكى غمراتها الأَبطال ، غير تغمغم

إذ يتقون بى الأَسنة لم أَخِمْ عنها ولكنى تضايق مقدمى(٧)

---

(١) أبدى نواجذه الخ : كلح فى وجهى فبدت أضراسه .

(٢) المخذم : من الخذم وهو القطع .

(٣) خضب : طلى ، والعظلم : شجر أحمر .

(٤) بطل : لأنه يبطل العظائم بسيفه ، وقيل : هو الذى تبطل عنده دماء الأقران فلا يأخذ الناس منه أو ممن فعل فى حماره ثأرا ، والسرحة : شجرة لا ثمرة لها وانما يستظل بها ، وتعرف عند العرب بطول ساقها . (٥) الشاة هنا المرأة ، وهو يعنى جارته لأن من كانت له جارة فهى فى حماه ، وكانت محرمة كالأم والأخت .

(٦) الجيد : العنق ، والجداية بكسر الجيم وفتحها : الظبية أتى عليها خمسة أشهر أو ستة ، والرشأ : الغزال الصغير .

(٧) يتقون بى : يجعلوننى وقاية بينهم وبينها بأن يقدمونى للموت لم أخم : لم أنكص ، تضايق : ضاق .

لما سمعتُ نداءَ مرة قد علا ... وابنى ربيعة فى الغبار الأقتم(١)

ومحلم يسعون تحت لوائهم ... والموتُ تحت لواء آل محلم(٢)

أيقنتُ أن سيكون عند لقائهم ... ضرب يطيرُ عن الفراخ الجثم

لما رأيت القوم أقبلَ جَمْعهم ... يتذامرون كررْتُ غير مُذَمم

يدعون عنترَ والرِّمَاح كأنها ... أشْطان بئر فى لبان الأدهم(٣)

مازلت أرميهم بغُرَّة وجهه ... ولبانِه حتى تسربل بالدم

فازْورَّ من وقع القنا بلبانه ... وشكا إلى بعبرة وتحمحم(٤)

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مُكلمى

والخيل تقتحم الغبار عوابساً ... من بين شيظمة وأجرد شيظَم(٥)

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقْمها ... قيل الفوارس «وَيكَ» عنتر أقدم(٦)

ذُللٌ ركابى حيث شئتُ مُشايعى ... قلبى ، وأحفزُهُ بأمرٍ مُبرم(٧)

ولقد خشيت بأن أموت ولم تكن ... للحرب دائرة على ابنى ضمضم(٨)

الشاتمى عِرضى ولم أشتمهما ... والناذرين إذا لم القهما دمى

---

(١) النداء : الصياح ، الأقتم : الأسود الحالك .

(٢) هو ابن عوف الشيبانى الذى يضرب به المثل فى الوفاء والعزة يقال « لا حر بوادى عوف » .

(٣) الأشطان : جمع شطن وهوحبل البئر ، شبه الرمح به لطوله ، واللبان بالفتح : الصدر . (٤) ازور : مال ، وشكا : لو كان يستطيع الشكوى ، والعبرة بفتح العين : البكاء والاشفاق .

(٥) تقتحم : تخوض ، والعوابس : الكوالح ، والشيظم والأجرد : القصير الشعر . (٦) ويك : كلمة يقولها المتندم اذا ندم على مافرط منه ، ولكثرة استعمالها الحقت بها الكاف ، وقيل « وى » بمعنى اعجب أى عجبا لك يا عنترة .

(٧) ذلل : جمع ذلول ، الذلول من الابل وغيرها سهلة القياد ، وركابى : ما أركبه ، واحفزه : أدفعه ، والمبرم : المحكم .

(٨) والدائرة : ما ينزل بالناس من بلوى ، وابنا ضمضم : هما هرم وحصين ابنا ضمضم ، المريان : قتلهما ورد بن حابس العبسى ، وكان عنترة قتل أباهما ضمضما فكانا يتوعدانه .

إنْ يَفعلا فلقد تركت أَباهما جزر السِّباع وكل نسر قشعم(١)

(٥) عمرو بن كلثوم التغلبي

هو أَبو الأَسود عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب التغلبي ، وأُمه ليلى بنت مهلهل أَخي كليب . نشأ عمرو فى قبيلة تغلب بالجزيرة الفراتية ، وساد قومه وهو ابن خمس عشرة سنة ، وقاد الجيوش مظفرًا ، وأَكثر ما كانت فتن تغلب مع أُختها بكر بن وائل بسبب حرب البسوس ، وكان آخر صلح لهم فيها على يد عمرو بن هند أَحد ملوك الحيرة من آل المنذر . ولم تمض مدة حتى حدث بين وجوه القبيلتين مشاحة فى مجلس عمرو بن هند ، قام أَثناءَها شاعر بكر (الحارث بن حلزة اليشكرى) وأَنشد قصيدته المشهورة ، وما فرغ منها حتى ظهر لعمرو بن كلثوم أَن هوى الملك مع بكر ، فانصرف ابن كلثوم وفى نفسه ما فيها ؛ ثم خطر فى نفس ابن هند أَن يكسر من أَنفة تغلب بإِذلال سيدها وهو عمرو بن كلثوم فدعاه وأُمه ليلى بنت مهلهل وأَغرى هندًا أُمه أَن تستخدمها فى قضاءِ أَمر ، فصاحت ليلى واذلاه ، فثار به الغضب وقتل ابن هند فى مجلسه ، ثم رحل تَوًّا إلى بلاده بالجزيرة ، وأَنشد معلقته الآتية ، وعاش مائة وخمسين سنة ، ومات قبل الإِسلام بنحو نصف قرن .

شعره ـ لم يشتهر عمرو إلا بمعلقته الواحدة التى قامت له مقام الشعر الوَفير لحسن لفظها ، وانسجام عبارتها وعلو فخرها ، ولعل شهرته بالخطابة لاتقل عن شهرته بالشعر الجيد ، ومن سامى الفخر البليغ :

معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي

أَلا هُبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خُمور الأَندرينا(٢)

---

(١) يقول مهما ينذرانى ومهما يشتمانى فلن يبلغا منى مناهما فلقد قدمت أباهما طعمة للسباع والنسور ، والقشعم : الكبير من النسور .

(٢) هبى : استيقظى ، الصحن : القدح العريض ، فاصبحينا : أى اسقينا الصبوح ، وهو شرب الخمور فى الغداة ، والأندرينا جمع الأندر : وهى قرية بالشام جمعها بما حواليها .

مشعشعة كأن الحص فيها إذا ما الماءُ خالطها سخينا (١)

تجور بذى اللبانة عن هواهُ إذا ما ذاقها حتى يلينا (٢)

ترى اللحزَ الشحيح إذا أُمِرَّتْ عليه لماله فيها مهينا (٣)

صددت الكأْس عنا أُم عمرو وكان الكأْس مجراها اليمينا (٤)

وما شرُّ الثلاثة أُم عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا (٥)

وكأْسٍ قد شربت ببعلبك وأُخرى فى دمشق وقاصِرِينا

إذا صمدتْ حمياها أَريبًا من الفِتْيان خلت به جُنونا (٦)

فما برحت مجالَ الشرْب حتى تغالوها وقالوا : قد روينا (٧)

وإنا سوفَ تدركنا المنايا مقدرة لنا ومقدرينا

وإن غدًا وإن اليوم رهن وبعد غد بما لا تعلمينا

قفى قبل التفرق ياظعينا نخبرُك اليقين وتخبرينا

بيوم كريهة ضَرْبا وطعنًا أقرّ به مواليك العيونا (٨)

قفى نسأَلك هل أَحدثتِ صِرْما لوشك البين أَم خنت الأَمينا (٩)

أَفى ليل يُعاتِبنى أَبوها وإخوتها وهم لى ظالمونا ؟!

تريك إذا دخلت على خلاءٍ وقد أَمنت عيون الكاشحينا

ذراعىْ عيطل أَدْمَاءَ بِكْرٍ تربعت الأَجارع والمتونا (١٠)

(١) مشعشعة : ممـزوجة ، سميت بذلك لأنه يظهـر لها شعـاع كالشمس ، والحص : الورس : سخينا : أى جدنا وتكرمنا من السخاء .

(٢) تجور بمعنى تعدل وتميل ، واللبانة : الحاجة .

(٣) اللحز الضيق ، الشحيح : البخيل .

(٤) صددت : أى صرفت (٥) أى لست أنا شر الثلاثة فتعدل عنى الكأس . (٦) حمياها : سورتها ، أريبا : عاقلا .

(٧) الشرب : جمع شارب ، المجال : موضع المجاولة .

(٨) الكريهة : موضع الحرب ، أقر : أى أمكن ، مواليك : هنا بنو عمك .

(٩) الصرم : القطيعة ، والوشك : السرعة ، والبين : هنا الفراق ، والأمين : الوفى بالعهد (١٠) العيطل : الناقة طويلة العنق ، والأدماء : من الابل ، والظبـاء : البيضاء بـكر : لم تلد ، تربعت : رعـت الربع ، الأجارع : جمع أجرع ، وهو الرمل .

وثدياً مثل حق العاج رخصاً حصاناً من أكف اللامسينا (١)
ونحراً مثل ضوء البدر وافى بإتمام أُناساً مدلجينا (٢)
ومتنى لدنة طالت ونالت روادفها تنوءُ بما يلينا (٣)
ومأْكمة يضيق الباب عنها وكشحاً قد جننت به جنونا (٤)
وسالفتى رخام أو بلنط يرن خشاش حليهما رنينا (٥)
تذكرت الصبا واشتقت لما رأَيت حمولها أُصلا حدينا (٦)
وأَعرضت اليمامة واشمخرت كأَسياف بأَيدى مصلتينا (٧)
فما وجدت كوجدى أم ثقب أَضلته فرجَّعت الحنينا
ولا شمطاء لم يترك شقاها لها من تسعة إلا جنينا (٨)
أَبا هند فلا تعجل علينا وانظرنا نخبرك اليقينا (٩)
بأَنا نورد الرايات بيضاً ونصدرهن حمراً قد روينا
فإن الضغن بعد الضغن يفشو عليك ويخرج الداء الدفينا (١٠)
وأَيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا
وسيد معشر قد توجوه بتاج الملك يحمى المحجرينا
تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أَعنتها صفونا (١١)
وقد هرت كلاب الحى منا وشذبنا قتادة من يلينا (١٢)

---

(١) العاج : عظم الفيل ، والرخص : اللين ، الحصان : العفيفة ، واللامس : المباشر . (٢) النحر : أعلى الصدر .
(٣) لدنة : أى لينة ، تنوء : بمعنى تثقل . (٤) الماكمة : رأس الورك.
(٥) السالفتان : صفحتا العنق ، والرخام والبلنط : حجارة بيض ، الخشاش : صوت الحلى . (٦) أصلا : أصيلا ، وهو العشى .
(٧) اعرضت : قابلت ، اشمخرت : ارتفعت ، مصلت : مجرد .
(٨) شقاها : يعنى شؤمها . (٩) يعنى عمرو بن هند
(١٠) الضغن : الحقد ، ويفشو : يكثر ، الداء الدفين : الكامن .
(١١) صفونا : جمع صافن ، وهى من الخيل .
(١٢) هرت : نبحت ، وشذبنا : أى قطعنا ، القتادة : واحدة القتاد وهو الشوك .

وأَنزلنا البيوت بِذى طلوح إلى الشامات ننفى الموعِدِينا(١)
نعُمُّ أُناسنا وَنَعفّ عنهم ونحملُ عنهم ما حمَّلونا
ورِثْنَا المجد قد علمتْ معدٌّ نطاعِنُ دونه حَتى يَبينا(٢)
ونحنُ إِذا عمادُ الحَربِ خَرت على الأَخفاض نمنَع من يلينا(٣)
نطاعِن ما تراخى الناسُ عنا ونَضرِبُ بالسُّيُوف إذا غشينا(٤)
بِسُمر من قنا الخطىِّ لدن ذَوَابل أَو ببيض يَعتلينا(٥)
نَشُقُّ بها رُءُوس القومِ شقًّا ونخليها الرقاب فتختلينا(٦)
تخال جماجمُ الأَبطال منهم وسوقاً بالأَماعِز يَرتمينا(٧)
نجذُّ رُءُوسهم فى غير وَتر ولا يدرون ماذا يتقونا(٨)
كأَن ثيابنا منَّا وَمِنْهمْ خُضِبنَ بأُرْجُوَان أَو طلِينا(٩)
كأَن سيوفنا فينا وفيهمْ مخاريقٌ بأَيدِى لاعبينا(١٠)
إِذا ما عى بالإِسناف حيٌّ من الهول المشبه أَن يكونا(١١)
نصبنا مثل رهوة ذات حد محافظة وكنا السابقينا(١٢)
بفتيان يرون القتل مجدًا وشيب فى الحروب مجَربينا
يدهدون الرءُوس كما تدهدى حزاورةٌ بأَبطحها الكوينا

(١) يقول وأنزلنا بيوتا بمكان يعرف بذى طلوح الى الشامات نبفى من هذه الأماكن أعداءنا الذين كانوا يوعدوننا . (٢) يبين : يظهر .
(٣) الأخفاض : عمد الأخبية . (٤) تراخى : تباعد .
(٥) السمر : الرماح . والخطى : منسوب الى الخط قرية على ساحل البحر ، لدن : لينة . (٦) نخليها : أى نقطع بها ، فتختلينا : أى تقطع والضمير راجع الى السيوف أيضا . (٧) تخال : تظن ، وسوق . جمع وسق ، وهو المكيال . بالأماعز : جمع أمعز وهو المكان الغليظ .
(٨) نجذ : نقطع . الوتر الدخل وفى رواية « وبر » (٩) الأرجوان : صبغ أحمر . (١٠) مخاريق : ثياب صفار يلعب بها الصبيان .
(١١) الاسناف : التقدم . (١٢) الرهوة : رأس الجبل ، وذات حد أى كثيرة السلاح .

حديًّا الناس كلهمُ جميعًا مُقارعة بَنيهمْ عن بنينا (١)

فأَما يَوْمَ خشيتنا عليهم فتصْبح خيلنا عصبا ثبينا (٢)

وأما يَوْم لا نخشى عليهمْ فنُمْعِن غارة مُتَلببينا (٣)

برأْس من بنى جشم بن بكر ندقُّ به السهولة والحزونا (٤)

بأَى مشيئة عمرو بن هند ؟ نكون لقَيلكم فيها قطينا (٥)

بأَى مشيئة عمرو بن هند ؟ ترى أنا نكون الأَرذلينا

بأَى مشيئة عمرو بن هند ؟ تطيع بنا الوشاة وتزدرينا (٦)

تهددنا وتوعدنا ! رويدًا متى كنَّا لأُمك مقتوينا ؟ (٧)

وإن قناتنا ياعمرو أَعيت على الأَعداء قبلك أن تلينا (٨)

إذا عض الثقافُ بها اشمأَزت وولته عشوزنة زبونا (٩)

عشوزنة إذا غمزت أَرنت تشج قفا المثقف والجبينا (١٠)

فهل حدثت عن جشم بن بكر؟ بنقص فى الخطوب الأَولينا (١١)

ورثنا مجد علقمة بن سيف أَباح لنا حصون المجد دينا (١٢)

ورثت مهلهلاً والخير منه زهيرًا نعم ذخر الذاخرينا (١٣)

---

(١) الحديا : التحدى فى القتال ، وهو طلب المبارزة . مقارعة : من القراع فى القتال وهو اصطدام الفارسين . (٢) ثبين : جمع ثبة ، وهى الجماعة .

(٣) نمعن : نسرع . المتلبب : المتحزم . (٤) الرأس السيد ، وهو هنا الجماعة . (٥) القيل : السيد . والقطين : الخدم . (٦) الازدراء : الاحتقار . (٧) المقتوى : الذى يخدم بقوة .

(٨ ، ٩) القناة هنا : العزة . والثقاف : خشبة تقوم بها الرماح ، واشمأزت ارتفعت والعشوزنة : الشديدة الصلبة الزبونة : الدفوع .

(١٠) غمزت : أى لينت ، أرنت أى صوتت ــ تشج : أى تجرح ، والمثقف : المصلح للرماح والمقوم . (١١) جشم بن بكر : جد ، الخطوب الأمور العظيمة . (١٢) دينا : أى طاعة لها ، وهو علقمة بن سيف ابن شرحبيل بن مالك بن سعد بن جشم بن بكر بن حبيب بن غنم بن جشم ابن تغلب بن وائل . (١٣) مهلهل : يعنى عديا أخا كليب ، وسمى مهلهل لأنه أول من رقق الشعر .

وَعتَّاباً وكلثوماً جميعًا بهم نلنا تراث الأكرمينا(١)

وذا البرة الذى حُدِّثْتُ عنه به نُحمَى ونَحمِى المجحرينا(٢)

ومنا قبلة الساعى كليب فأَىُّ المجد إلا قد ولينا ؟(٣)

متى تعقد قرينتَنا بحبل تجذُّ الحبلَ أَو تعصِ القرينا(٤)

ونوجد نحن أَمنعهم ذمارًا وأَوفاهم إِذا عقدوا يمينا(٥)

ونحن غداة أُوقدَ فى خزازَى رفدنا فوق رفد الرافدينا(٦)

ونحن الحابسون لذى أَراط تسف الجلة الخور الدرينا(٧)

فكنا الأَيمنين إذ التقينا وكان الأَيسرين بنو أَبينا(٨)

فصالوا صولة فيمن يليهم وَصُلْنَا صولة فيمن يلينا(٩)

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأُبنا بالملوك مصفدينا

إِليكم يا بنى بكر إِليكم أَلمَّا تعلموا منا اليقينا

أَلما تعلموا منا ومنكم كتائب يَطَّعِنَّ ويرتمينا

نقود الخيل دامية كلاها إِلى الأَعداءِ لاحقةً بطونا

علينا البيض واليلب اليمانى وأَسيافٌ يقمن وينحنينا(١٠)

علينا كلُّ سابغة دِلاص ترى تحت النجادِ لها غضونا(١١)

---

(١) كلثوم : أبوه ، وعتاب : جده . (٢) ذا البرة : كعب بن زهير ابن تيم ، وسمى بهذا لشعرات كانت تحت أنفه مدورة كالبرة فى أنف البعير . (٣) قبلة الساعى : ضربه مثلا كالكعبة فى كثرة من يختلف اليه . (٤) القرينة : أصلها أن يقرن جمل صعب الى جمل ذلول . وتعص : تكسر ، وهذا مثل ضربه . (٥) الذمار ما يحق على الانسان أن يحميه . (٦) خزازى : موضع واقعة كانت بين ربيعة واليمن وكانت قضاعة اذ ذاك وربيعة أحلافا . (٧) أراط : موضع واقعة كانت لهم ، وتسف : تأكل . (٨) بنو أبينا : يعنى مضر بن نزار وربيعة بن نزار . (٩) الصولة : الحملة . (١٠) اليلب : جلود تنسج على هيئة الدروع وتلبس . (١١) السابغة : الدرع الطويلة ، دلاص : براقة ، والنجاد : النطاق ، والغضون : التثنى .

إذا وُضعت عن الأَبطال يوماً رأيت لها جلود القوم جُونا(١)

كأَن متونهنَّ متون غُدرٍ تصفقها الرِّياح إذا جرينا(٢)

وتحملنا غداةَ الرَّوعِ جردٌ عرفنَ لنا نقائدَ وافتلينا(٣)

وردنَ دوارِعا وخرجْنَ شعثًا كأَمثال الرصائع قد بلينا

ورثناهنَّ عن آباءِ صدقٌ ونورِثها إذا مِتنا بنينا

وقد علم القبائِل غير فَخْرِ إذا قبب بأَبطحها بُنينا

بأَنا العاصِمُون إذا أَطِعنا وَأَنَّا الغارمونَ إذا عُصينا

وأَنا المنعمونَ إذا قدرْنا وَأَنَّا المهلكونَ إذا أُتينا

وَأَنَّا الحاكمونَ بما أَرَدْنا وَأَنَّا النازلون بحيث شِينا

وأَنَّا التَّاركونَ لما سخطنا وَأَنَّا الآخذونَ لما هوينا

وَأَنَّا الطالبون إذا نقمَنا وأَنَّا الضاربون إذا ابْتلينا

وَأَنَّا النازلون بكلِّ ثغر يخافُ النازلون به المنونا(٤)

ونشربُ ـ إن وَردنا ـ الماءَ صفوًا وَيشرب غيرنا كدرًا وطينا

أَلا سائلْ بنى الطماح عنا ودُعْميًّا فكيفَ وَجدتمونا ؟(٥)

نزلتمْ منزلَ الأَضيافِ منا فأَعْجلنا القرى أَن تشتمونا(٦)

قريناكم فعجلنا قراكم قبيلَ الصبح مرادة طحونا(٧)

متى نَنقُلْ إِلى قوم رحاها يكونوا فى اللقاءِ لها طحِينا(٨)

---

(١) جونا : سودا . (٢) المتون : الأعالى ، شبه أعالى الدروع فى بياضها ولمعانها بالغدر وهى الحياض اذا حركتها الريح . (٣) الروع : الحرب ، والجرد : قصيرة الشعر . (٤) الثغر : المكان المخوف . (٥) بنو الطماح ودعمى : حيان من بنى أسد بن ربيعة ابن نزار . (٦) نزلتم حيث نزل الأضياف : أى جئتم للقتال فعاجلناكم بالحرب ولم ننتظر أن تشتمونا . (٧) قريناكم : جعلنا قراكم الحرب لما نزلتم بنا ولقيناكم فطحناكم طحن الرحى والمرداة : الحجر وكل ما يكسر به الشيء فهو مرداة . (٨) أصل الرحى ما استدار من الشيء والرحى هنا الحرب ، تشبيها بالرحى .

يكون ثقالها شرقى نجد   ولهوتها قضاعة أجْمعينا(١)

على آثارنا بيض حِسان   نحاذر أن تفارق أو تهونا(٢)

ظعائن من بنى جُشم بن بكر   خلِطنَ لميسم حسبًا ودِينا(٣)

أخذن على فوارسهن عهدا   إذا لاقوا فوارِس معلمينا(٤)

ليستلبن أبدَانًا وبيضاً   وأسرى فى الحديد مُقرنينا(٥)

إذا ما رحْن يَمشين الهوينا   كما اضطربت مُتون الشاربِينا

يقتن جيادنا ويَقلنَ لستم   بُعولتنا إذا لم تمنعونا(٦)

إذا لمْ نحمهن فلا بقينا   لشيء بعدهُن ولا حيينا(٧)

وما منع الظعائن مثل ضَرب   ترى منه السوَاعد كالقلينا(٨)

إذا ما الملك سام النَاسَ خَسْفًا   أبينا أن يُقر الخسف فينا(٩)

ألا لا يجهلن أَحَد علينا   فنجهل فوقَ جهلِ الجاهلينا

ونعدوا حيثُ لا يُعْدى علينا   ونَضرب بالمواسى من يلينا

ألا لا يحسب الأَعداءُ أنَّا   تَضعضعنا وَأَنَّا قد فنينا

ترانا بارزين وكل حى   قد اتخذوا مخافتنا قرينا

كأَنَّا والسُّيوفُ مسللات   ولدْنَا الناس طرا أَجمعينا

ملأْنا البر حتى ضاق عنا   كذاكَ البحرُ نملؤهُ سفينا

إذا بَلغ الرَّضِيع لنا فطاماً   تخر له الجبابر ساجدينا

---

(١) الثقال : جلدة توضع تحت الرحى للطحين . ولهوتها : أى مقدار ما يطرح فى فم الرحى من الحب . (٢) أى نساءنا اللواتى خلفنا نقاتل عنهن ونحذر أن نفارقهن أو يصرن الى غيرنا . (٣) الميسم : الحسن أى لهن مع جمالهن حسب ودين . (٤) المعلم : الذى يعلم نفسه فى الحرب بعلامة . (٥) الأبدان جمع بدن وهى الدروع . (٦) يقتن : من القوت ، وهو الطعام . جيادنا : جمع جواد . (٧) نحميهن : ندافع عنهن . ما بقينا : ما حيينا . (٨) القلون : جمع قلة ، وهى الخشبة التى يلعب بها الصبيان يضربونها بالمقلاء . (٩) يقول اننا أعزاء لا تصل الملوك الى ظلمنا .

لنا الدنيا ومن أَضْحى عليها ونبطِش حينَ نَبطش قادرينا
تنادى المصعبان وآلُ بكر وَنَادَوا يا لكنْدَةَ أَجمعينا
فإن نَغلب فغلابُونَ قدماً وإن نُغلب فغيرُ مُغلبينا

(٦) طرفة بن العبد البكرى

هو عمرو بن العبد البكرى: أَقصر فحول شعراءِ الجاهلية عمرًا، ومال إلى الشعر والوقوع به فى أَغراض الناس، حتى هَجا عمرو بن هند ملك العرب على الحيرة مع أَنه كان يتطلب معروفه وجوده، فبلغ عمرو بن هند هجاءَ طرفة له فاضطغنها عليه، حتى إذا ما جاءَه هو وخاله المتلمس يتعرضان لفضله أَظهر لهما البشاشة وأَمر لكل منهما بجائزة، وكتب لهما كتابين، وأَحالهما على عامله بالبحرين ليستوفيا منه، وبينما هما فى الطريق ارتاب المتلمس فى صحيفته، فعرج على غلام يقرؤها له، ومضى طرفة، فإذا فى الصحيفة الأَمر بقتله، فأَلقى الصحيفة، وأَراد أَن يلحق طرفة فلم يدركه وفر إلى ملوك غسان، وذهب طرفة إلى عامل البحرين وقتل هناك، وعمره ست وعشرون سنة.

شعره ــ يجيد طرفة الوصف للناقة فى شعر مقتصرًا فيه على بيان الحقيقة مع قصد فى الغلو، ومعاظلة فى بعض التراكيب، واسترسال فى وحشى اللفظ. وخفى المعنى وكذلك كان هجاؤه الملوك على شدة وقعه، ومن أَبلغ المقطعات والمعلقات أَيضاً:

معلقة طرفة بن العبد البكرى

لخولة أَطلالٌ ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد(١)
وقوفاً بها صحْبى على مطيهم يقولون لا تهلك أَسى وتجلد(٢)
كأَن حدوج المالكية غدوة خلا ياسفين بالنواصف من دد(٣)

---

(١) خولة . امرأة من بنى كلب . وثهمد : أكمة فى بلاد خثعم . تلوح : تظهر . (٢) وقوفا : واقفين ، أسى : حزنا ، تجلد : تجمل .
(٣) المالكية نسبة الى مالك بن صبيعة ابن عم عمرو ، =

عدولية أو من سفين ابن يامن ... يجور بها الملاح طورا ويهتدى (١)
يشق حباب الماء حيزومها بها ... كما قسم الترب المفايل باليد (٢)
وفى الحى أحوى ينفض المرد شادن ... مظاهر سمطى لؤلؤ وزبرجد (٣)
خذول تراعى ربرباً بخميلة ... تناول أطراف البرير وترتدى (٤)
وتبسم عن ألمى كأن منورا ... تخلل حر الرمل دعص له ند (٥)
سقته إياة الشمس إلا لثاته ... أسف ولم تكدم عليه بإثمد (٦)
ووجه كأن الشمس ألقت رداءها ... عليه نقى اللون لم يتخدد (٧)
وإنى لأمضى الهم عند احتضاره ... بهوجاء مرقال تروح وتغتدى (٨)
أمون كألواح الإران نسأتها ... على لاحب وكأنه ظهر برجد (٩)

= والحدوج : الهوادج والقباب ، والخلايا : جمع خلية : السفينة الكبيرة : والتواصف : مجارى الماء الى البحر .

(١) عدولية : قديمة ، وهى الكبيرة من السفن وهى تنسب الى موضع يقال له عدول ، ابن يامن : ملاح أو تاجر من أهل البحرين . (٢) حباب الماء طرائفه وما ارتع منه والحيزوم الصدر . والمفايل الذى يجمع ترابا ويخبىء فيه شيئا مثل الحلقة ويقسم التراب نصفين ويطلبه فى أحدهما فان أصاب ظفر وان أخطأ قهر . (٣) أحوى : فى لونه سواد فى والمراد شجر الأراك والشادن ولد الظبية اذا قوى . (٤) الخذول : الملتحفة من الظباء ، والربرب : القطيع من الظباء ، الخميلة : الشجر الملتف . البرير : المدرك من ثمر الأراك . (٥) تبسم : يفتر ثغرها واللمى سواد فى الشفة : والمنور : الأقحوان . تخلل : دخل فيه . حر الرمل : النقى منه

(٦) الاياء : ضوء الشمس . اللثة مغرز الأسنان . يقول : أسنانها بيض ، ولثاتها زرق . أسف : أى ذر عليه باثمد هو الكحل .

(٧) ألقت وفى رواية حلت : رداءها . أى بهاءها لم يتخدد : أى يضطرب حتى تصير فيه شقوق .

(٨) الهوجاء : الخفيفة الفؤاد . مر قال : وصف للناقة بشدة السير .

(٩) الأمون : التى أمنت من أن تكون ضعيفة . والاران : التابوت الذى يحمل فيه الموتى ، نسأتها : أى زجرتها . واللاحب : الطريق ، والبرجد : كساء من أكسية العرب .

جُمانية وجْناءَ تردِى كأنَّها — سفنَّجةٌ تَبرَى لأَزعَر أَربدِ

تبارى عِتاقا ناجياتٍ وأَتبعت — وظيفًا وظيفاً فوق مورْ معبدِ(١)

تربَّعَتِ القفيَّنِ فى الشوْل ترتعى — حدائق مولىِّ الأُسرة أَغيدِ(٢)

تريع إلى صوت المهيب وتتقى — بذى خصل روعات أَكلف ملبدِ(٣)

كأَن جَناحى مضرجيٍّ تكنفا — حفافيه شكًّا فى العسيف بمسرَدِ(٤)

فطورًا به خلف الزّميل وتارةً — على حشف كالشن ذاو مجددِ(٥)

لها فخْذان أَكمل النحض فيهما — كأَنهما بابا منيف ممْردِ(٦)

وطيٌّ محال كالحنيِّ خلوفة — وَأَجْرنةٌ لزت بدأَى منضدِ(٧)

كأَن كناسى ضالة يكنفانها — وأَطر قِسِى تحت صلب مؤبدِ(٨)

---

(١) تبارى : تشابه ، والعتاق : الابل الكرام . والناجيات : المسرعات فى السير والوظيف : ساق البعير ، والمور : الطريق . (٢) تربعت : رعت أيام الربيع ، والقفان . موضعان موصوفان بالرعى لجودتهما ، والشول . بفتح الشين من الابل التى جف لبنها وأتى عليها من نتاجها سبعة أشهر . (٣) تريع : تصغى ، والروعة الفزع . والأكلف : الذى فى وجهه لون يخالف لونه وهو صفة من صفات الفحل. (٤) المضرجى : النسر ، تكنفا : أحاطا ، حفافيه : جوانبه . (٥) الطور : المرة الأولى والتارة : المرة الثانية ، والزميل : الرديف ، والحشف : الضرع الذى لا لبن فيه وهو المنقبض ، والشن : القربة الخلقة ، والذاوى : هو اليابس ، والمجدد الضرع الذى لا لين فيه ولا لبن .

(٦) النحض : اللحم ، والمنيف : المشرف ، والمرد : المملس .

(٧) المحال : فقار الظهر ، والحنى ، القسى خلوفه : مؤخر أضلاعه : وأجرنة : با طن عنق البعير ، لزت : قرب بعضها الى بعض فانضمت واشتدت ، بدأى : أعالى الاضلاع ، منضد أى بعضه فوق بعض .

(٨) الكناس : بيت الظباء والضأن ، شبه تباعد ما بين مرفقها وزورها بكناس الظبى حول الشجر : وأطرقسى أى عطنها وانحناؤها . والصلب : الظهر والمؤيد : الموثق ، والأيد القوة .

لها مرفقان أفتلان كأنها تمر بسلمى دالج متشدد(١)

كقنطرة الرومى أقسم ربها لتكتنفن حتى تشاد بقرمد(٢)

صهابية العثنون موجدة القرا بعيد وخد الرِّجل موارة اليد(٣)

جنوحٌ دفاق عندل ثم أفرعتُ لها كتفاها فى معالى مصعد(٤)

أمرت يداها فتل شزر وأجنحت لها عضداها فى سقيف مسند(٥)

كأن علوب النِّسع فى دأياتها موارد من خلفاءِ فى ظهر قردد(٦)

تلاقى وأحياناً تبين كأنها بنائق غر فى قميص مقدد(٧)

وأتلع نهاضٌ إذا صعدت به كسكان بوصى بدجلة مُصعد(٨)

وجمجمة مثل العلاة كأنما وعى الملتقى منها إلى حرف مبرد(٩)

---

(١) المرفق : مفصل العضد ، أفتلان : مفتولان ، تمر وفى رواية أمرا : فتلا ، السلم : الدلو له عروة . الدالج : من يمشى بالدلو من البئر الى الحوض ، متشدد : متكلف للشدة ، ومعنى ذلك أن الذى يسقى الابل يجعل الحوض بعيدا عن البئر ، فاذا أخرج الدلو من البئر مشى به الى الحوض .

(٢) القنطرة : الجسر ، الرومى : أحد البنائين من الروم تكتنفن أى يحاط حواليها بالبناء ، وتشاد : ترفع . (٣) صهابية : بياض شيب .

(٤) جنوح : مائلة فى سيرها عن النشاط ، دفاق متدفقة فى السير ، عندل : عظيمة الرأس ، وأفرعت : رفعت ، فى معالى : مرتفع .

(٥) أمرت فتلت فتلا محكما ، والشزر : الفتل الى اليسار ، وأجنحت : أميلت ، والسقيف : هنا صدرها . ومسند فى رواية منضد بعضه على بعض .

(٦) العلوب : الآثار ، والنسع : حزام الرجل . والدأيات : مآخير الأضلاع ، موارد : طرق الماء ، والخلفاء : الصخر الملساء ، والقردد . الأرض الصلبة .

(٧) تلاقى : يتصل بعضها ببعض وتتلاقى الطرق من أعلاها وتفترق من أسفلها .

(٨) الأتلع : الطويل يعنى عنقها ، نهاض : كثير الارتفاع . صعدت . ارتفعت ، السكان . الدقل ، وهو مؤخر السفينة ، والبوصى . ضرب من السفن ، بدجلة . نهر مصعد قاصد الى العراق .

(٩) الجمجمة . غطاء الرأس ، وهو يعنى رأس الناقة ، والعلاة . السندان يضرب عليه الحداد ، وعى الملتقى يعنى جمع ملتقى الرأس شبهه بحرف المبرد لصلابته .

وخُذٌ كقرطاس الشآمِي ومِشفر   كسبت اليمانِي قدُّه لم يجرد(١)

وعينان كالماويتين استكنتا   بكهفى حجاجى صخرة قلت مورد(٢)

طحوران عوار القذى فتراهما   كمكحولتى مذعورة أم فرقد(٣)

وصادقتا سمع التوجُّس للسرى   لهمس خفى أو لصوت مندد(٤)

مؤللتان تعرف العتق فيهما   كسامعتى شاة بحومل مفرد(٥)

وأروع نباضٌ أحذُّململم   كمرداة صخرٍ فى صفيح مصمد(٦)

وإن شئت سامى واسط الكور رأسْها   وعامت بضبعيها نجاءَ الحفيدد(٧)

وإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت   مخافة ملوى من القدِ محصد(٨)

وأعلم مخروط من الأَنف مارن   عتيقٌ متى ترجم به الأَرض تزدد(٩)

---

(١) المشفر من البعير كالشفة من الانسان ، والسبت : جلود البقر اذا دبغت بالقرظ .

(٢) الماويتان : المرآتان المصقولتان . أسكنتا : دخلتا .

(٣) طحوران : دفوعان ، العور الخبث الذى يقع فى العين وكذلك القذى ، كمكحولتى : أى عينى . مذعورة خائفة طردها القناص وأفزعها ، والفرقد : ولدها .

(٤) وصادقتا سمع يعنى أذنيها ، والتوجس : الشمع ، والهمس الصوت الخفى : والمندد المرتفع .

(٥) مؤللتان : محددتان كالحربة ، والعتق : الكرم ، والشاة : بقرة الوحش وتسمى نعجة ، وحومل : موضع معروف ، ومفرد : وحيد .

(٦) أروع : فزع ونباض فؤادها . أحذ : قليل الشعر ، ململم : أى مجتمع ، كمرداة كصخرة تردى بها الحجارة لصلابتها . الصفيح : الحجارة العريضة . مصمد : مصلب .

(٧) سامى ساوى ، واسط : وسط ، الكور : الرحل عامت مدت يدها كهيئة السابح فى الماء : الضبعين : العضدان ، نجاء : سرعة ، الحفيدد : الظلتم . وهو ذكر النعام .

(٨) الارقال : ضرب من السير ، والملوى من القد : السوط ، المحصد : المحكم الفتل .

(٩) الأعلم : المشقوق المشفر الأعلى . المارن . مالان من الأنف وهو مقدمة ، عتيق : كريم ، متى ترجم به الأرض : أى تضربها به يريد أنها اذا حطت رأسها الى الأرض أسرعت فى السير وذلك لنشاطها وحدتها .

لى مِثلها أَمضى إذا قال صاحبى — أَلا ليتنى أَفديك منها وأَفتدى

وجاشت إليه النفس خوفاً وخاله — مصاباً ولو أَمسى على غير مرصد

إذا القوم قالوا من فتى ؟ خلت أَننى — عُنِيت ، فلم أَكسل ولم أَتبلد

أَحلت عليها بالقطيع فأَجذمت — وقد خب آل الأَمعز المتوقد(١)

فذالت كما ذالت وليدة مجلس — ترى ربها أَذيال سحل ممدد(٢)

ولست بحلال التلاع مخافة — ولكن متى يسترفد القوم أَرفد(٣)

فإن تبغِنى فى حلقة القوم تلقنى — وإن تقتنصنى فى الحوانيت تصطد(٤)

ى تـأتنى أُصْبِحك كأْساً روِية — وإن كنت عنها غانياً فاغن وازدد(٥)

وإن يلتق الحىُّ الجميع تلاقِنى — إلى ذورة البيت الرفيع المصعد(٦)

نداماى بِيضٌ كالنجوم وقينة — تروح علينا بين بَرد ومجسد(٧)

حيب قطاب الجيب منها رفيقة — لجسِّ الندامى بضة المتجرِّد(٨)

وما زال تشرابى الخمورَ ولذتى — وبيعى وإنفاق طريفى ومتلدى(٩)

لى أَن تحامتنى العشيرة كلها — وأَفردِت إفراد البعير المعبد(١٠)

رأَيت بنى غبراءَ لاينكروننى — ولا أَهل هذاك الطراف الممدَّدِ(١١)

(١) أحلت : وثبت ، القطيع : السوط ، أجذمت : أسرعت ، وخب : ارتفع ، الآل : ما يكون فى أول النهار مثل السراب ، الأمعز : الأرض الغليظة التى فيها حصى ، والمتوقد : المشتعل . (٢) ذالت : تبخترت الناقة ، والوليدة الفتية ترى ربها : أى مولاها أذيال : أطراف الثوب التى يصل الى الأرض ، والسحل : الثوب القطن والممدد : المبسوط .

(٣) التلعة : من أسماء الأضداد تكون للمرتفع والمنخفض .

(٤) حلقة القوم : مجالس أشرافهم ، والحوانيت : بيوت الخمارين .

(٥) تأتنى : تجئنى . (٦) ذروة : الذروة أعلى الشىء

(٧) الندامى أصحابى على الخمر ، والقينة : الجارية ، والبرد : الثوب الأبيض ، والمجسد أ المصبوغ بالزعفران .

(٨) رحيب ، واسع : قطاب الجيب أى مجتمع الجيب . يصف صدرها الرحب والسعة .

(٩) الطريف الحديث المكتسب . (١٠) المعبد : المذلل المطلى بالقطران . (١١) بنى غبراء اللصوص ، والطراف بيت من جلد : يعنى أنه لا ينكرم أحد .

أَلا أَيهاذا اللائمى أَحضرُ الوَغى ... وأَن أَشهد اللذات هل أَنت مخلِدِى(١)

فإِن كنت لاتستطيعُ دفع مَنيتى ... فدعْنى أبادرها بما ملكت يدى

فلولا ثلاثٌ هنَّ من عيشة الفتى ... وجدك لم أَحفل متى قام عودى

فمنهن سبق العاذلات بشربة ... كميت متى ماتعل بالماءِ تزيد(٢)

وكرى إِذا نادى المضاف مُحْسنا ... كسيد الغضا والنابه المتَورد(٣)

وتقصيريوم الدجن والدجن معجب ... ببهكنة تحت الطَّراف المعمد(٤)

كأَن البرين والدماليج علقت ... على عشرٍ أَو خرْوع لم يخضد(٥)

فذرنى أَرى هامتى فى حياتها ... مخافة شرب فى الحياة مصردِ(٦)

كريمٌ يرْوىّ نفسه فى حياته ... ستعلم إِن متنا غدًا أَينا الصدى(٧)

أَرى قبر نحامٍ بخيل بماله ... كقبر غوى فى البطالة مفسد(٨)

ترى جُثوتين من تراب عليهما ... صفائحُ صمٌ من صفيح منضد(٩)

أَرى الموت يعتام الكرام ويصطفى ... عقيله مال الفاحِش المتشدد(١٠)

أَرى الدهر كنزًا ناقصا كل ليلة ... وما تنقص الأَيام والدهر ينفد

لعمرك إِن الموت ما أَخطأَ الفتى ... لكالطوَل المرخى وثنياه باليد(١١)

---

(١) اللائمى : اللاحى ، وفى رواية الزاجرى . (٢) كميت : خمر تضرب الى السواد ، تعل : أى يصب الماء عليها . (٣) كرى : عطفى ، والمضاف الذى أضافته الهموم . (٤) الدجن : المطر الخفيف ، يعجب من رآه ، والبهكنة : المرأة التامة الخلق . (٥) البرين : الخلاخل فى أنف الناقة ، على عشر : العشر شجر أملس مستو ضعيف العود شبه به عظامها وساعديها لملاسته واستوائه . (٦) الشرب بكسر الشين وضمها اسم للمشروب : والمصرد : المقلل . (٧) يروى نفسه من الخمر فى حياته والصدى : العطشان . (٨) النحام : كثير السعال عندما يسأل ، والغوى : الذى يتبع هواه ولذاته . والبطالة : اتباع الهوى والجهل (٩) الجثوة : التراب المجموع ، صفائح صم صلبة . المنضد : المجموع بعضه على بعض . (١٠) يعتام : يختار ، الكرام : الخيار والأماجد ، ويصطفى : ينتخب ، وعقيلة كل شىء خيرته والفاحش : القبيح السيىء الخلق والمتشدد : كثير البخل (١١) الطول : الحبل ، وثنياه أى طرفاه ، ومعناه أن الانسان وان يطل عمره الا أنه كالفرس لصاحبها اذا أرادها جذب الحبل اليه .

فمالى أرانى وابن عمى مالكا متى أدن منه ينأَ عنّى ويبْعدِ(١)
يلوم وما أَدرى علامَ يَلومنى ؟ ! كما لامنى فى الحىِّ قرط بن أَعبدِ(٢)
وأَيأَسنى منْ كلِّ خيرٍ طلبته كأَنا وضعناه إلى رمس ملحدِ(٣)
على غير ذنبٍ قلته غير إننى نشدت فلم أَغفل حَمولة معبد(٤)
وقرَّبت بالقربى وجدِّك أَننى متى يك أَمرٌ للنكيثة أَشهد(٥)
وإن أَدع فى الجلّى أَكن منْ حماتها وإن يأْتك الأَعداءُ بالجَهْد أَجهدِ(٦)
وإن يقذفوا بالقذع عرضك أَسقهم بكأْس حياض الموت قبل التهدُّد(٧)
بلا حدثٍ أَحدثته وكمحدث هجانى وقذفى بالشكاة ومطرَدى(٨)
فلو كان مولاى امرءًا هو غيره لفرَّجَ كربى أَو لأَنظرَنى غد(٩)
ولكنَّ مولاى امرؤٌ هو خانقى على الشكر والتسآل أَو أَنا مُفتدى(١٠)
وظلم ذوى القربى أَشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند(١١)
فذرنى وخلقى إننى لك شاكر ولوْ حل بيتى نائيا عند ضرْغدِ(١٢)
فلو شاءَ ربِّى كنت قيس بن خالد ولوْ شاءَ ربى كنت عمرو بن مرثد(١٣)

---

(١) ابن عمى على خلافى ، أتقرب اليه فيبعد عنى . (٢) ويبالغ ابن عمى فى الجفاء فيلومنى على مالا أستحق اللوم عليه كما يفعل قرط بن أعبد . (٣) أيأسنى جعلنى يائسا والرمس القبر : والملحد ، اللحد .
(٤) وكل ما ألقاه لا سبب له الا أنى نشدت : طلبت (٥) النكيثة : بلوغ الجهد ، وقيل أنقاض الأمور . (٦) الجلى : الأمر العظيم ، والحماة الذائدون . (٧) القذع : الشتم والقبيح . (٨) أى هو متعد على بلا حدث أحدثته ، هجانى وطردنى ، والمطرد : الطريد . (٩) يقول لو أن مولاه رجلا آخر لفرج كربه وأنظره ولم يتعجله بما تعجله به ابن عمه من القدح والذم .
(١٠) خانقى : مكرهى على شكره على ما لم يفعله ، والا فأنا هدف سهامه . (١١) أما أنا فقد ضقت بهذا التجنى لأن الظلم من الأقربين لا يحتمل . (١٢) ضرغد : جبل بعيد . (١٣) قيس بن خالد : من بنى شيبان ، وعمرو بن مرثد : ابن عم طرفة قيل لما بلغ هذا عمرو ابن عم طرفة وجه الى طرفة فقال له أما الولد فالله يعطيكم وأما المال فلك فيه مالنا ، ثم دعا ولده وكانوا سبعة فأمر كل واحد فدفع لطرفه عشرا من ابله ، ثم أمر ثلاثة من بنى بنيه فدفع كل واحد منهم الى طرفة عشرا من الابل .

فأصبحت ذا مالٍ كثير وزارني بنون كرامٌ سادةٌ للمسودِ

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كرأس الحيَّةِ المتوقدِ

فآليت لا ينفك كشحي بطانة لعضب رقيق الشفرتين مهند

حسام إذا ما قمت منتصرًا به كفى العود منه البدءُ ليس بمعضدِ

أخي ثقة لاينثني عن ضريبة إذا قيل مهلا ؛ قال حاجزه قدِي

وبرك هجود قد أثارت مخافتي نوادِيها أمشي بعضب مجردِ (١)

فمرت كهاةٌ ذات خيف جلالة عقيلة شيخ كالوَبيل يلنددِ (٢)

يقول وقد تر الوظيف وساقها ألست ترى أن قد أتيت بمؤيد (٣)

وقال ذروه إنما نفعها له وإلا تردُّوا قاصى البَرك يزدَدِ (٤)

فظل الإماءُ يمتللن حوارها ويسعى علينا بالسديف المسرهد (٥)

فإن متُّ فانعيني بما أنا أهله وشقى على الجَيْب يا ابنة معبد (٦)

ولا تجعليني كامرئٍ ليس همه كهمِّي ولا يغني غنائي مشهدى (٧)

بطئٍ عن الجلّى سريع إلى الخنا ذليل بإجماع الرِّجال ملهد (٨)

فلو كنت وغلا في الرجال لضرني عداوة ذي الأَصحاب والمتوحد

ولكن نَفى عنِّي الأَعادي جرأتي عليهم ، وإقدامي وصدقي ومحتدى (٩)

---

(١) البرك : الابل الكثيرة الباركة ، والهجود النيام . (٢) الكهاة : الناقة السمينة ، والخيف الضرع ، والجلالة الكبيرة ، والوبيل العصا .

(٣) تر : بمعنى انقطع والوظيف مستدق الساق من الابل والخيل .

(٤) ذروه : اتركوا عناده

(٥) الحوار : الصغير من الابل ، والسديف : السنام ، والمسرهد : المقطع صغارا (٦) انعيني : اذكرى من الأفعال ما أنا أهل له وهو يخاطب ابنة أخيه وشق الجيب معروف ، ويراد به التنويه بشدة المصاب .

(٧) واحذرى أن تجعليني هينا كرجل لا يغني مثل غنائي ، ولا يقوم في الحرب مقامي ولا يشهد مشهدى في المجالس والخصومات .

(٨) البطىء : الكسول المتقاعد ، والجلى : الأمر الخطير العظيم ، والخنا : الفساد . (٩) يقول ان الجرأة والاقدام والصدق وكرم الأصل منعت عنه أعداءه من الاساءة اليه .

لعمرك ما أَمرى على بغمة   نهارى ولا ليلى على بسرمد(١)

ويوم حبست النفسَ عند عراكِه   حفاظا على روعاته والتهدُّد(٢)

على موطن يخشى الفتى عندهُ الردى   متى تعترك فيه الفرائض ترعد

وَأَصفر مَضبوحٍ نظرتُ حوارهُ   على النار واستودعته كفَّ مُجْمد(٣)

أَرى الموت أَعداد النفوس وَلا أَرى   بعيدًا غدًا ما أَقرب اليومُ من غد

ستبدى لك الأَيامُ ماكنت جاهلًا   ويأْتيك بالأَخبار من لم تزوِّدِ(٤)

ويأْتيك بالأَنباءِ من لم تبع لهُ   بتاتاً ولم تضرب له وقت موعد(٥)

لعمرك ما الأَيام إِلا معارةٌ   فما اسطعت من معروفها فتزود(٦)

عن المرْءِ لاتسأَل وأَبصر قرينهُ   فإِنَّ القرين بالمقارن مقتد(٧)

لعمرك ما أَدرى وَإِنى لواجل   أَفى اليوم إِقدام المنيةِ أَم غد ؟(٨)

فإِن تك خَلفى لا يفتها سوادَيا   وَإِن تك قدامى أَجدها بمرصد(٩)

إِذا أَنت لم تنفع بودك أَهله   وَلم تنك بالبُوسى عدوَّك فابعد(١٠)

---

(١) الغمة : الأمر الذى لا يهتدى له ، والمعنى انى لا اتحير فى امرى نهارا ولا ليلا فيطول على الليل ، والسرمد الطويل . (٢) العراك : الازدحام ، أى صبرت النفس عند ازدحام القول فى الحرب والخصومات على روعات اليوم وهن قرعاته . (٣) الأصفر هنا الأسود : المجمد الذى يأخذ بكلتا يديه ولا يخرج من يديه شىء . وقيل الذى يضرب بالسهام أو الأمين فى القمار . (٤) ستبدى : ستظهر ، ما كنت جاهلا ، يعنى ما لم تسمع من قبل ، ويفيدك بها من لم تسأله عنها . (٥) تبع له بتاتا تشترى له زادا . (٦) لعمرك : وحياتك ليست الأيام الا معارة أى عارية تسترد وتسترجع فاحرص على عمل الخير وصنع المعروف وتزود من ذلك كثيرا .

(٧) الرواية المحفوظة لهذا البيت :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدى

(٨) وأنا وانت وغيرنا لا يدرى ولا يعرف متى يحين حينه .

(٩) فان تك خلفى : فهى جادة ورائى ، ولن اغرب عن عينها ، وان تك قدامى فهى رقيبة مترصدة .

(١٠) اذا لم تنفع ببرك الأقربين والأصدقاء ولم تلحق العطب بالأعداء ببطشك فاتخذ مكانا قصيا .

(٧) معلقة أَعْشى قَيْس

هو أَبو بصير ميمون الأَعشى بن قيس بن جندل القيسى ـ نشأَ فى بدءِ أمره راويةً لخاله (المسيب بن علس) وقد عمىَ الأَعشى وطال عمره ، حتى انبلجَ فجر الإِسلام وعظم أَمر النبى صلى الله عليه وسلم بين العرب ، فأَعدَّ له قصيدة يمدحه بها وقصدهُ بالحجاز ، فلقيه كفارُ قريش وصدوه على وجهه على أَن يأْخُذ منهم مائة ناقة حمراءَ ، ويرجع إلى بلده لتخوُّفهم أَثر شعره ففعل ، ولماقرب من اليمامة سقط عن ناقته فدُقت عُنقه ومات ، ودفن ببلدته (منفوحة) باليمامة .

شعره : يُعدُّ (الأَعشى) رابعاً للثلاثة الفحُول : امرى القيس ، والنَّابغة ، وزهير ؛ وإن كان يمتاز عنهم بغزارة شعره ، وكثرة ما روى له من الطِّوال الجياد وتفننه فى كلِّ فن من أَغراض الشِّعر ؛ واشتهر من بينهم بالمبالغة فى وصف الخمر حتى قيل : أَشعر النَّاس امرؤ القيس إذا ركبَ ، وزُهيرٌ إذا رغب ، والنَّابغة إذا رَهب ، والأَعشى إذا طرب .

ولشعره طَلَاوة ورَوْعة ، ليست لكثرة من شعر غيره من القدماءِ ، ولقُوّة طبعه وجلبة شعره سُمِّى (صنَّاجة العرب) حتى ليُخيَّل إليك إذا أَنشدتَ شعره أَنَّ آخر يُنشد معك .

ولجلالة شعره كان يرفعُ الوضيع الخامل ، ويخفض الشَّريف النابه ، ومن الذين رفعهم شعر الأَعشى (المحلَّق الكلابى) وقد كان أَبا لثمانى بنات عوَانس رغبت عن خطبتهن الرجال لفقرهن ، فاستضافه على فَقره ، فمدحه الأَعشى ونوه بذكره فى (سوق عكاظ) فلم يمض عامٌ حتى لم تبق جارية منهن إلا وهى زوْجٌ لسيد كريم ، وكان الأَعشى يَتطرف فى شعره ، ويتكسب به ، وعده بعضهم من أَصحاب المعلقات ، وذكر قصيدته اللامية التى يمدح بها الأَسود الكندى ، ومطلعها :

ما بكاءَ الكبير بالأَطلالِ وسؤالى وما تَردُّ سؤالِى

ومن جيّد شعره قصيدتُه التى أعدها لينشدها بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يمدحه فيها ، فلم يفز بذلك ، أولها :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ... وبت كما بات السليمُ مُسهدا

وما ذاكَ من عِشق النساءِ وإنما ... تناسيت قبل اليوم خلة مهددا

ولكن أرى الدهر الذى هو خائن ... إذا أصلحتْ كفاى عاد فأفسدا

شباب وشيبٌ وافتقارٌ وثروَة ... فلله هذا الدهر كيف تردَّدا

وقصيدته التى أنشدها فى مدح المحلق أولها :

أرقتُ وما هذا السُّهاد المورقُ ... وما بى من سُقم وما بى تعشق

ومنها :

لعمرى لقد لاحت عيونٌ كثيرة ... إلى ضوء نار فى اليفاع تحرق

تشبّ لمقرورين يصطليانها ... وباتَ على النَّارِ النَّدَى والمحلقُ

رضيعَى لبان ثدى أم تَقاسما ... بأسحم داجٍ عوض لا نتفرقُ

ترى الجُودَ يجرى ظاهراً فوق وجهه ... كما زانَ مَتن الهندوانى رونقُ

يداه يدا صدقٍ فكفٌّ مبيدةٌ ... وأُخرَى إذا ما ضنَّ بالمال تنفقُ

وقيل إن معلقته هى التى أولها :

ودِّعْ هريرة إن الرَّكب مرتحل ... وهل تطيق وداعاً أيها الرجل[١]

غَرّاءُ فرعاءُ مَصْقولٌ عَوارضها ... تمشى الهوينَى كما يمشى الوجى الوحل[٢]

كأن مِشيتها من بَيت جارتَها ... مَرُّ السحابةِ ، لا ريثٌ ولا عجل[٣]

(١) هريرة اسم قينة كانت لرجل من آل عمرو بن مرثد أهداها قريب له فولد خليدا الآتى ذكره فى شعره .

(٢) الغراء : البيضاء الواسعة الجبين ، والفرعاء : الفرع اى الشعر ، والعوارض هنا الرباعيات والأنياب من الأسنان ، يريد أنها نقة الأسنان ، الوجى : الذى يشتكى حافره ولم يشف بعد ، فيكون مشيه متثاقلا فكيف اذا كان وحلا ؟ أى يمشى فى الوحل ، يعنى أن هذه الجارية لسمنها وتدللها تمشى متمهلة متمايلة .

(٣) الريث : البطء .

تسمعُ للحلى وسواساً إذا انصرفت ... كما استعان بريحٍ عشرق زجلُ (١)

ليست كمن يكره الجيران طلعتها ... ولا تراها لسر الجار تختتلْ (٢)

يكادُ يصدعَها ـ لولا تشددُها ـ ... إذا تقوم إلى جاراتِها الكسل (٣)

إذا تقوم يَضوع المسك أَصورةً ... والزنبق الوردُ من أَردانها شمل (٤)

ماروضةٌ من رياض الحزن مُعشبة ... خضراءُ جاد عليها مُسبلٌ هطِل (٥)

يضاحك الشمس منها كوكب شرق ... مؤزَر بعميم النُّبت مكتهل (٦)

يوماً بأَطيب منها نشر رائحة ... ولا بأَحسن منها إذ دنا الأَصل (٧)

صدت « هريرة » عنا ما تكلمنا ... جهلا بأُم خليد ، حبلَ من تصل ؟ (٨)

أئن رأَتْ رجلا أَعشى أَضرَّ بهِ ... ريب المنون ودهر مفندٌ خبل (٩)

---

(١) الوسواس : صوت الحلى ، والعشرق : شجرة مقدار ذراع لها أكمام فيها حب صغار اذا جفت فمرت بها الريح تحرك الحب فيسمع له خشخشة على الحصى .

(٢) تختتل : أى تتسمعه استراقا . (٣) يصفها بالسمن والترف ، وكانوا يمدحون المثريات بالكسل وقلة العمل فى البيت لأنهن مخدومات متنعمات .

(٤) يضوع المسك : أى تذهب رائحته هناك ، وأصورة : جمع صوار بالضم وهو نافجة المسك أو حقه ، والزنبق عند العرب : زيت الياسمين ، وأكمله ما كان يميل الى حمرة ولذلك وصفه بالورد . (٥) الحزن : الأرض الغليظة ، والحزن المراد هنا : موضع ببلاد بنى يربوع من اليمامة فيه رياض وقلاع . (٦) كوكب كل شيء : معظمه ويريد به هنا جماعة الزهر . أى يضاحك الشمس منها ويدور معها حيث دارت زهرها . أو يتفتح ويشرق عند شروقها ، وهذا الزهر مؤزر أى يكتنفه نبات تام النمو ملتف عليه كالتفاف الازار . (٧) الأصل : جمع أصيل وهو من العصر الى الظلام وخص هذا الوقت لأن الجو يبرد فيه فيهب النسيم حاملا رائحة الأزهار يعنى أن رائحة الروضة الموصوفة بهــذه الصفات الحسنة ليست بأفضل من رائحة هريرة .

(٨) أم خليد : كنية هريرة وقوله (حبل من تصل ؟) استفهام تعجبى . يعنى اذا هجرتنا ولم تكلمنا فمن تكلم اذا .

(٩) الأعشى : الذى لا يبصر بالليل ، والمفند : الآتى بالفند وهو السفه فى الراى ، ومثله الخبال .

قالت هريرة لما جئت زائرها : ويلى عليك وويلى ! منك يارجلُ(١)

إما ترَينا حفاة ؛ لا نعال لنا إنا كذلك ما نحفى وننتعل(٢)

وقد أَقودُ الصبا يوماً ، فيتبعنى وقد يُصاحبُنى ذو الشرَّةِ الغزِل(٣)

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى شاو مشلّ شلولٌ شُلشلٌ شول(٤)

فى فِتية كسيوف الهند قد علموا أَنْ هالكٌ كلُّ من يحفى وينتعل(٥)

نازعتهم قضُب الريحانِ متكئًا وقهوةً مُزَّةً راووقها خَضلُ(٦)

لا يستفيقون منها ، وهى راهنة إلا بهاتِ ، وإن عَلوا ، وإن نَهلوا(٧)

---

(١) ويل عليك وويلى منك : أى أتفجع عليك لأنك تسعى بزيارتك لى فى هلاك نفسك وأتفجع منك لأن زيارتك لى تجر الى هلاكى .

(٢) ثم أخذ يعاتبها ويدفع عن نفسه بأن الصفات التى صدت عنه من أجلها طارئة عليه بفعل الموت والزمان ، وأنه كان شابا غنيا طروبا غزلا يشرب الخمر مع فتيان مثله ويستمع للقيان وينعم بهن فقال : (اما ترينا حفاة لا نعال لنا ... الخ) أى أن ترينا نتبذل مرة فنمشى حفاة فليس هذا دأبنا فاننا أيضا منتعلون فطورا نفتقر وطورا نفتنى .

(٣) أقود الصبا الخ : أى أتصابى ، وآتى بأفعال الفتيان ويصحبنى منهم الغزل ذوى الشرة وهى : نشاط الشباب .

(٤) الحانوت : بيت الخمار ، والشاوى : الذى يشوى اللحم ، والمشل : السواق الخفيف ، والشلول والشلشل : الغلام الحار الرأس الخفيف الروح النشيط فى عمله ، والشول : من يشول بالشىء الذى يشتريه المشترى ، فيحمله له ويرفعه .

(٥) أى كالسيوف فى المضاء والصرامة أن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن المحذوف وجعله « هالك كل من .. الخ » خبرها فهنالك خبر مقدم وكل مبتدأ مؤخر .

(٦) الريحان : كل زهر طيب الرائحة ، ونازعتهم قضب الريحان : أتناولها مرة ويتناولونها أخرى ، والقهوة : الخمرة ، الراووق : الوعاء الذى تروق فيه الخمر . وخضل : دائم الندى لا يخف لكثرة شربهم .

(٧) راهنة دائمة أمامهم أى لا ينتهون الا اذا أبطأ عليهم الساقى فصاحوا به (هات) ولو شربوا عللا بعد نهل أى مرة بعد أخرى .

يسعى بها ذو زجاجات له نَطَف   مقلص أَسفل السربال مُعتمل(١)
ومستجيب تخال الصنج يُسْمِعه   إذ ترجَّع فيه القينة الفُضل(٢)

(٨) الحارث بن حِلِّزة اليشكرى

هو الحارث بن حلزة اليشكرى البكرى ، يتصل نسبه إلى يشكر رهْط من بكر ابن وائل ولم يوثر عنه غير قطع يسيرة ، ومعلقته الآتية التى كان من أَمرها أَن عمرو ابن هند أَحد ملوك الحيرة أَصلح بين بكر وتغلب بعد حرب البسوس ، وأَخذ من كلا الفريقين رهائن من أَبنائهم ، ليكف بعضهم عن بعض وليقيد منها للمُعتدى عليه من المعتدى ، فحدث أَن سَرح الملك ركباً من تغلب فى بعض المفازة فماتوا عطشاً ، وتزعم بكر أَنهم سقوهم وأَرشدوهم الطريق فتاهوا وهلكوا ، وذهب الفريقان يتدافعان عند عمرو بن هند ، وكانت ضلعه مع تغلب ، فهاج ذلك الحارث ابن حلزة وكان فى المجلس مستوراً عن الملك بستارة لما فيه من البرص ، فارتجل قصيدته هذه ارتجالا يفتخر فيها بقومه وفعالهم وحسن بلائهم عند الملك وعظم أَيامهم معه ، فما أَتم قصيدته حتى انقلب الملك إلى جانب البكريين ، وقرب الحارث من مجلسه ، وعمر الحارث طويلا حتى قيل إنه أَنشد هذه القصيدة وعمره خمس وثلاثون ومائة سنة ومات قبل الهجرة بنحو خمسين سنة .

---

(١) النطف : القرط من اللؤلؤ ، ومقلص : مشمر ، والسربال : القميص والمعتمل النشيط (المعنى) يسعى بالخمر ساق يحمل زجاجتها مقرط الأذن بلؤلؤ مشمر ذيله معتمل نشيط .

(٢) ومستجيب : أى ورب عود طرب مستجيب لصوت الصنج كأنه يسمعه النغم فيجيبه بمحاكاته . أى أن العود والصنج متفقان فى النغم لا يشذ أحدهما عن الآخر . والصنج : دوائر رقاق من صفر يصفق بأحدهما على الأخرى وهى التى نسميها فى زماننا (الكاسات) وهو أيضا نوع من الآلات الوترية ، وترجع : تردد النغم ، والقينة : الأمة وقيل اذا كانت مغنية ، والمرأة الفضل : التى تلبس ثوبا واحدا كأنها متبذلة .

وشعره: تغلب عليه الجزالة مع الإيجاز، واطراد التعبير من طريق الحقيقة والتشبيه فى الغالب، وكذلك ما فيه من الطابع البدوى الذى يكاد يمتاز به شعر الجاهليين، ومعلقته هى :

آذنتنا ببينها أسماءُ رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ منه الثَّواءُ(١)

بَعْدَ عهدٍ لنا لبرْقَة شما ء فأدنى ديارهَا الخلصاءُ(٢)

لا أرى من عهدت فيها فأبكى الـــيوْمَ دلهَا وما يحير البكاءُ

غير أنى قد أستعين عَلى الهـــم إذ خفَّ بالثوى النَّجَاءُ(٣)

بزفوف كأنها هِقلة أمْ م رئال دوِية سقفَاءُ(٤)

آنَسْت نبأَةً وأفزعها القنــــاص عصرًا وقد دنى الإمْساءُ(٥)

ثم قال :

وَأَتَانَا من الحوادثِ والأنـــباءِ خطبٌ نَعنى به ونساءُ(٦)

إن إخواننا الأراقم يغلو نَ علينا فى قيلهم إحفاءُ

يخلطون البرىءَ منا بذى الذنـــب ولا ينفع الخلى الخَلاءُ(٧)

زَعَموا أن كلَّ منْ ضرب العيــــر موال لنا ، وأنا الولاءُ(٨)

(١) آذنتنا أعلمتنا ، ببينها : بفراقها لنا . وثاو : مقيم . أى كثيرا ما تكره اقامة المقيم بين قوم لثقل كلفته أو لشره ، وأسماء ليست من هؤلاء ففراقها شاق علينا .

(٢) برقة شماء : مكان ، والخلصاء كذلك ، الثوى : المقيم .

(٣) النجاء : الاسراع . (٤) الزفيف اسراع النعامة فى سيرها والمراد المبالغة فى وصف الناقة بالسرعة والهقلة الناعمة والرئال أولادها والواحد رأل ، والدو : المفازة والدوية المنسوبة اليها والسقفاء الطويلة مع انحناء (٥) آنست : أحست ، والنبأة : الصوت الخفى ، والقناص : الصيادون . (٦) نعنى به : نقصد به نحن دون غيرنا، ونساء به يصيبنا منه سوء ، والأراقم : أحياء من تغلب معادية لبنى بكر قبيلة الشاعر ، ويغلون علينا : يتجاوزن الحد فى التقول علينا ، والقيل : القول والاحفاء : شدة الالحاح والاستقصاء . (٧) الخلى هنا الخالى من الذنب . والخلاء : الخلو من الذنب كذلك ، أى لا تنفع عندهم البرىء براءته من الذنب فهم يأخذونه بذنب المجرم . (٨) أى فهم يلزموننا ذنوب الناس ولو لم تكن ذنوبهم مما يؤخذ عليها فعندهم أن كل من ضرب حماراً مثلا مذنب .

أَجمعوا أَمْرهم عِشَاء فلما أَصبحوا أَصبحت لهم ضوضاء

من مُنادٍ ، ومن مجيب ، ومن تصْـ ـهال خيلٍ خِلال ذاك رغاء(١)

أَيها الناطق المرقش عنا عند عَمرو ، وهل لذاكَ بقاء ؟(٢)

لا تخلنا على غراتك ، إنَّا قبل ما قد وشى بنا الأَعداء(٣)

فبقينا على الشناءةِ تَنميـــــنا حصونٌ ، وعزة قعساء(٤)

قبل ما اليوم ِ بيضتْ بعيون النـــــاس فيها تغيظٌ وإباء(٥)

وكأَن المَنون تردى بنا أَرْ عن جوناً ينجاب عنه العماء(٦)

مكفهِرًا على الحوادث لا ترْ نُوه للدَّهْر موبدٌ صماء(٧)

أَيما خطةٍ أَردتم فأَدُّو ها إلينا تمشى بها الأَمْلاء(٨)

---

(١) أى يتلمسون أى ذنب ، ويتشاورون فى الليل فى امر حربنا ، والتعبئة له فلا يصبح الصباح حتى تكون لهم جلبة وضوضاء من مناد الخ قيل ان هذين البيتين أوجز ما قيل فى وصف التأهب للارتحال وأصـــدقه وأوضحه تصويرا للحقيقة . (٢) المرقش : المزين القول بالباطل ، وهل لذاك الخ : أى لتزيينك الباطل دوام . (٣) لا تخلنا : أى لا تحسبنا ، والغرة : اسم مصدر من الاغراء ، وما زائدة والمفعول الثانى محذوف .

(٤) الشناءة : البغض وتنمينا : ترفعنا ، والقعساء : الثابتة ، أى فبقينا على بغضك لنا فى عزة ثابتة وحصون منيعة من أن يصيبنا منكم مكروه .

(٥) قبل ما اليوم : أى قبل اليوم وما زائدة ، وبيضت بعيــون الناس : بيضتها أى أعمتها والباء زائدة والتغيظ الترفع والاباء .

(٦) تردى : ترمى وترجم ، والباء فى (بنا) للتجريد نظير قولهم : لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد ، أى لتلقين الأسد ، أى هو كالأسد ، والأرعن هنا الجبل الذى له حدود وأطراف تخرج عن معظمه ، والجون الأسود ، وينجاب منه : ينشق عنه ، والعماء : السحاب الأبيض (٧) وصف هذا الجبل بأنه مكفهر ، والمكفهر من الجبال الصلب المنيع . ولا ترنوه لا تنقصه وتنال منه ، والمؤبد : الداهية ، وصماء : لا تسمع اعتذارات . أى أن هـــذا الجبل منيع على حوادث الدهر لا تنال منه الدواهى الصماء .

(٨) الخطة : الأمر يقع بين القوم ، أو الاقدام على الأمر ، والأملاء جمع ملأوهم الأشراف والرؤساء .

إن نبشتم ما بين ملْحَةٍ فالصا قب فيه الأَموات والأَحياء(١)

أَو نقشتم ، فالنقشُ يُجشمه النا س ، وفيه الصلاحُ والإِبراءُ(٢)

أَو سكتم عنا ، فكنا كمن أَغـــمضَ عيناً فى جفنها أَقذاء(٣)

أَو منعتم ما تسأَلون فمن حُد ثتموه له علينا العلاء ؟(٤)

هل علمتم أَيام ينتهب النا س غِوارًا لكل حى عواء(٥)

إذا ركبنا الجمال من سعف البحـ رين سَيرًا حتى نَهاها الحساء(٦)

ثم ملنا على تميم فأَحْرَمْ نا وفينا بنات مُرٍّ إماء(٧)

لا يقيم العزيز بالبلد السهـ ل ، ولا ينفع الذَّليل النجاء(٨)

ليس ينجى مُوَائلا من حذار رأْس طودٍ وحرةٌ رجلاء(٩)

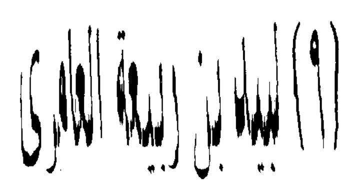
فملكنا بذلك الناس حتى ملك المنذرُ بن ماء السماء

---

(١) ملحة والصاقب : موضعان ، أى ان كانت الخطة التى ترضونها أن تثيروا القتال الذى وقع بيننا فى هذين المكانين نفيه أموات وأحياء أى فكانت عاقبته قتلى وأسرى منكم لم تدركوا منا ثأرهم ، وحـذفت الفاء الواقعة فى جواب الشرط « وهو فيه الأموات الخ » للضرورة . أو أن جواب الشرط محذوف تقديره فلنا الفخار بذلك أو ان جواب الشرط الآتى له . (٢) أو نقشتم أى دققتم الاستقصاء ويجشمه : يتكلفه على مشقة (٣) وان سكتم عنا فانا نسكت ، ونغضى أعيننا على القذى لأن الحق فى جانبنا . (٤) وان منعتم ما تسألون فيه من الصلح والتراضى فمن الذى أخبرتم أن له العلو علينا ؟ حتى تطمعوا فينا ، وحدث هنا تعدت الى ثلاث مفاعيل . (٥) غوارا . أى مغاورة بعض على بعض ، والعواء الصياح . (٦) يريد بالسعف . النخل ، والحساء جمع حسى ، وهو الرمل يكون الماء تحته قريبا أى علمتم اذ ركبنا الجمال من نخل البحرين حتى انتهينا الى الحساء .

(٧) فأحرمنا أى دخلنا فى الأشهر الحرام فامتنعنا عن قتالهم وفينا بناتهم سبايا ، ومر أبو تديم .

(٨ و ٩) النجاء : الاسراع والفرار . والموائل الذى يطلب موئلا أى ملجأ ، والطود ، والجبل، والحرة الأرض ذات الحجارة السوداء، والرجلاء الغليظة .



هو أبو عقيل لبيد بن ربيعة العامرى أحد أشراف الشعراء المجيدين . وهو من بنى عامر بن صعْصعة إحدى بطون هوازن مُضر ، وأمه عبسية ، نشأ لبيد جوادًا شجاعاً فاتكاً ، أما الجود فورثه عن أبيه الملقبُ بربيعة المعْتزِّين وأما الشجاعة والفتك فهما خصلتا قبيلته . إذ كان عمه ملاعب الأسنة أحد فرسان مُضر فى الجاهلية ، وكان بين قبيلته وبين بنى عبس أخواله عداوة شديدة ، فاجتمع وفداهما عند النعمان بن المنذر ، وعلى العبسيين الربيع بن زياد ، وعلى العامرين ملاعب الأسنة ، وكان الربيع مقرباً عند النعمان أعرض عنه فشق ذلك عليهم ، ولبيد يومئذ صغير ، يسرح إبلهم ويرعاها ، فسألهم عن خطبهم فاحتقروه لصغره ، فألح حتى أشركوه معهم ، فوعدهم أنه سينتقم لهم منه غدًا عند النعمان أسوأ انتقام ، بهجاء لايجالسه بعده ولا يؤاكله فكان ذلك ، ومقت النعمان الربيع ولم يقبل له عذرًا ، وأكرم العامريين وقضى حوائجهم ، فكان هذا أول ما اشتهر به لبيد ؛ ثم بعد ذلك المقطعات والمطولات ، وشهد النابغة له وهو غلام بأنه أشعر هوازن ، ولما ظهر الإسلام وأقبلت وفود العرب على النبي صلى الله عليه وسلم جاءَ لبيد فى وفد بنى عامر وأسلم ، وعاد إلى بلاده ، وحسن إسلامه وتنسك وحفظ القرآن كله ، وقال :

الحمد لله إذ لم يأتِنِى أجلى حتى اكتسيت مِن الإسلام سربالا

وهجر الشعر حتى لم يرو له فى الإسلام غير بيت واحد ، هو :

ما عاتب الحر الكريم كنفسه والمرءُ يصلحه الجليس الصالحُ

وبعد أن فتحت الأمصار ذهب إلى الكوفة زمن عمر بن الخطاب واختارها

دار إقامة . وما زال بالكوفة حتى مات فى أوائل خلافة معاوية سنة إحدى وأربعين من الهجرة ، وقد قيل إنه عاش ثلاثين ومائة سنة .

شعره : نبغ فيه وهو غلام ، وجرى فيه على سنن الأشراف والفرسان .

فمن قوله يرثى أخاه أربد :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع — وتبقى الديار بعدنا والمصانعُ

وقد كنت فى أكناف جار مضنة — ففارقنى جارٌ بأربد نافعُ

فلا جزع إن فرق الدهر بيننا — فكل امرئ يوماً به الدهر فاجعُ

وما الناس إلا كالدِّيار وأهلها — بها يوم حلوها وراحوا بلاقعُ

وما المال والأهلون إلا ودائعٌ — ولا بد يوماً أن تردَّ الودائعُ

لعمرك ما تدرى الضواربُ بالحصى — ولا زاجرات الطير ما الله صانعُ

وما الناس إلا عاملان : فعامل — يتبر ما يبنى وآخر رافعُ

فمنهم سعيدٌ آخذ بنصيبه — ومنهم شقىٌّ بالمعيشة قانعُ

ومن جيد الشعر وأبلغه أيضاً :

معلقة لبيد بن ربيعة العامرى

عفتِ الديار محلها فمقامُها — بمنى تأبد غولها فرجامُها (١)

فمدافعُ الرَّيَّان عرِّى رسمُها — خلقاً كما ضمنِ الوحىَّ سلامُها (٢)

دِمنٌ تجرم بعد عهد أنيسها — حجج خلوْنَ حلالها وحرامُها (٣)

---

(١) عفت : درست ، والمحل والمقام : موضع الحلول والاقامة : تأبد . توحش . الغول والرجام : جبلان .

(٢) الريان : واد بحمى ضرية ، ومدافع : مجارى المياه به حيث يندفع السيل وعرى : رسمها خلقا : أى ظهر باليا والسلام : الحجارة . يذكر أن مدافع الريان لم تبق منها الا آثار تشبه آثار الكتابة على الأحجار .

(٣) الدمن ما اجتمع من آثار ، تجرم : مضى .

رزقت مرابيع النجوم وصابها ... ودق الرَّواعد جودها فرهامها (١)

من كل سارية وغادٍ مدجن ... وعشية متجاوب إرزامها (٢)

فعلا فروع الأَيهقان وأَطفلت ... بالجلهتين ظباؤها ونعامها (٣)

والعين ساكنة على أطلائها ... عوذًا تأَجَّل بالفضاء بِهَامها (٤)

وجلا السيول عن الطلول كأَنها ... زبرٌ يجدُّ متونها أقلامها (٥)

أَو رجع واشمةٍ أُسفَّ نؤورها ... كففاً تعرض فوقهن وشامها (٦)

فوقفت أَسأَلها ؟ وكيف سؤالنا ... صمًّا خوالد ما يبين كلامها (٧)

عريت وكان بها الجميع فأَبكروا ... منها وغودر نؤيها وثمامها (٨)

شاقتك ظعن الحى حين تحملوا ... فتكنَّسوا قطناً تصرُّ خيامها (٩)

من كل محفوف يظل عصيه ... زوج عليه كله وقرامها (١٠)

---

(١) المرابيع : أوائل الأمطار فى الربيع . والنجوم : الأنواء ، وصابها : مطرها والودق : المطر : وجوده : غزيره . ورهامه لينه وصغيره .

(٢) السارية : السحابة وغاد : يسير بالغداة . مدجن : مظلم ، لأن المقيم اذا انتشر ملأ الجو بالدجنة وهى الظلمة والارزام : صوت الرعد .

(٣) الأيهقان : النبت أطفلت : أصبحت ذات أطفال ، الجلهتين الجهتين

(٤) العين : البقرة وأغلاؤها أولادها ، والعوذ : حديثة النتاج لأن ولدها يعوذ بها ، تأجل : تجمع وصار أجلا ، والأجل القطيع . (٥) يريد أن السيول كشفت عن الطلول فظهرت كالكتب تجدد ظهورها الأقلام .

(٦) الواشمة : من تحلى الأيدى بالوشم .

(٧) الصم البواقى وهى الأثافى ، ما يبين : لا يظهر . (٨) عريت : خلت أبكروا : ساروا فى البكرة ، وغودر : ترك ، والنؤى : حفرة حول الخباء تمنع السيل والثمام :نبت ضعيف . (٩) الظعن . الجمال عليها الهوادج ، أو هى النساء فى الهوادج ، تكنست الظباء . سكنت الكناس والقطن . الهوادج ، تصر خيامها ، يسمع لها صرير . يريد أن ظعن الحى تركوا وطنهم وأسكنهم الرحيل رحالا يصفق بها الريح . (١٠) محفوف صفة للهودج يحف بالديباج ويزدان به جانباه ، يظل . يغطى أو يظلل والعصى هنا أعواد الهودج ، والزوج ، بساط يفرش على الهودج والكلة ستر رقيق ، والقرام . ثوب ملون منقوش .

زجلا كأَن نِعاج توضح فوقها ... وظِباءُ وجرة عطفاً آرامها(١)

حفِزت وزايلها السرَابُ كأَنها ... أَجزاعُ بِيشة أَثلها ورِضامها(٢)

بل ماتذكرمن «نوار» وقدنـأَت ... وتقطعت أَسبابها ورمامها(٣)

مرِّية حلت بفيد وجاورت ... أَهل الحجاز فأَين منك مرامها(٤)

بمشارق الجبلين أَو بمحضر ... فتضمنتها فردة فرخامها(٥)

فصوائق إن أَيمنت فمظنة ... منها وحاف القهر أَو طلخامها(٦)

فاقطع لبانة من تعرض وصله ... ولشرُّ واصل خلة صرامها(٧)

واحب المجامل بالجزيل وصرمُهُ ... باقٍ إذا ظلعت وزاغ قوامها(٨)

بطليح أَسفار تركن بقية ... منها وأَحنق صلبها وسنامها(٩)

فإذا تغالى لحمها وتحسرت ... وتقطعت بعد الكلال خدامها(١٠)

---

(١) زجل : الجماعة ، توضح ووجرة : موضعان ، النعاج : البقر ، عطفت الظبية تعطف جيدها اذا ربضت ، يذكر أن النســاء فوق الهوادج كأنهن النعاج أو الأرآم والأعلام . (٢) حفزت : حثت على المسير ، وزايلها : فارقها ، بيشة : واد ، والأجزاع منعطف الوادى . الأثل : نــوع من الشجر ، والرضام : صخور عظام .

(٣) نوار : اسم حبيبته ، الرمام : القطعة من الحبل البالى ، يريد أن الوصل تقطعت به الأسباب ، (٤) مرية : تنسب الى مرة بن عوف فيد : موضع فى طريق مكة مرامها : منالها . (٥) الجبلان أجا وسلمى ، محجر : جبل فى بلاد طيىء ، فردة اسم أرض ، الرخاء : موضع كثيرالأشجار

(٦) الصوائق : جبل قرب مكة وتروى فصعائد ، وأيمنت : سارت نحو اليمن . وحاف : الصخرة السوداء ، والقهر . اسم موضع ، والطلخاء: الفيلة .

(٧) اللبانة : الحاجة ، تعرض : تغير .

(٨) واحب : أعط المجامل المكافىء وصرمه باق : أى وقطيعته باقية ـــ اذا ظلعت : اذا مالت مودته عنك وزاغ قوامها أى ملاكها .

(٩) الطليح : الناقة المعيبة . وأحنق بمعنى ضمر .

(١٠) تغالى : ارتفع من الهزال ، وتحسرت : تقطعت ، والكلال : الاعياء

فلها هبابٌ فى الزمامِ كأنها صهباءُ راح مع الجنوب جُهامها[١]

أَو ملمعٌ وسقت لأَحقب لاحه طرد الفحول وضوبُها وكدامها[٢]

يعلو بها حدَب الأَكام مسحَّج قد رابه عصيانها ووحامُها[٣]

بأَحزَّة الثلبوت يربأَ فوقها قفر المراقب خوفها أَرآمُها[٤]

حتى إذا سلخا «جمادى» ستة جزءاً فطال صيامه وصيامها[٥]

رجعا بأَمرهما إلى ذى مِرةٍ حصد ونجح صريمة إبرامها[٦]

ورمى دوايرها السفا وتهيجت ريح المصايف سومها وسهامها[٧]

فتنازعا سبطاً تطير ظلالهُ كدخان مشعلة يشبُّ ضرامها[٨]

مشمولة غلثت بنابت عرفجٍ كدخان نار ساطعٍ أَسنامها[٩]

فمضى وقدمها وكانت عادة منه إذا هى عردت إقدامها

فتوسطا عرض السرىِّ وصدعا مسجورةً متجاورا قلامها[١٠]

---

(١) الهباب النشاط : والصهباء : السحابة التى لم يكن فيها ماء ، والجهام الذى لا ماء فيه ، والجنوب : هى الريح اليمانية . (٢) الملمع الأتان التى قد بان حملها واسودت حلماتها (٣) يعلو : يرتفع . الحدب : ما ارتفع من الأرض المسحج : المعضعض رابه أى شككه . والعصيان : الامتناع . والوحام الكراهية للشيء .

(٤) الأحزة : ما غلظ من الأرض . الثلبوت : موضع فى نجد . يربأ : يرفع . قفر المراقب : عالى موضع الارتقاب . والأرآم : الأعلام .

(٥) أراد ستة أشهر أولها المحرم وآخرها جمادى ، جزءا : أى استغنيا بالرطب من الكلا عن الماء ، والصيام : عن الماء ، وسلخا : أى مضى عليهما .

(٦) رجعا : الأتان والحمار . بأمرهما : برأيهما ، ذى مرة . قوة ، يعنى الحمار ، حصد : محكم وصريمة : عزيمة ، والابرام . الاحكام .

(٧) الدواير : مآخير الحوافر ، والسفا . شوك البهى هنا ، المصايف: المرعى أيام المصيف ، سومها : مرها . السهام : وهج الصيف وشدة حره . (٨) تنازعا : تجاذبا . (٩) اسم الدخان . اذا ارتفع وكثر ، غلثت : خلطت ، العرفج : كثرة الدخان ، ساطع . مرتفع .

(١٠) توسطا : دخلا وسطه عرض السرى : ناحية النهر . وصدعا : شققا . مسجورة : اى عينا مملوءة .

محفوفة وسط اليراع يظلها ... منها مُصرعُ غابة وقيامها (١)

أفتِلك؟ أَم وحشيةٌ مسبوعة ... خذلك وهادية الصور قوامها (٢)

خنساء ضيَّعت الفرير فلم يرم ... عُرض الشقائق طوفها وبغامها (٣)

لمعفر قهدٍ تنازع شلوهُ ... غبس كواسب ما يمنّ طعامها (٤)

صادفن منها غرةً فأصبنها ... إن المنايا لا تطيش سهامُها (٥)

باتت وأسبل واكفٌ من ديمة ... يروى الخمائل دائما تسجامُها (٦)

تجتاف أَصلًا قالصاً متنبذًا ... بعُجوب أَنقاء يميل هيامها (٧)

يعلو طريقة متنها متواترًا ... فى ليلةٍ كفر النجوم ظلامها (٨)

وتضى فى وجه الظلام منيرة ... كجمانة البحرى سل نظامها (٩)

حتى إذا انحسر الظلام وأَسفرتْ ... بكرت تزلُّ عن الثرى أَزْلامها (١٠)

---

(١) محفوفة: محوطة من جميع جوانبها، يعنى العين، مصرع: بعضه فوق بعض والغابة: الأجمة وهى الشجر الملتف. (٢) أفتلك: الأتان، أم وحشية: بقرة الوحش مسبوعة: أكل السبع ولدها، خذلت: تأخرت عن البقر والخذول: المتخلفة، وهادية متقدمة. (٣) خنساء: قصيرة الأنف، الفرير: ولد البقرة، يرم: يبرح، عرض أى ناحية، الشقائق: جمع شقيقة وهى ما بين الرملتين وطوفها، أى دورانها وترددها وبغامها: صوتها. (٤) المعفر ولد البقرة، والقهد: الأبيض تنازع: تجاذب، شلوه واحد الأشلاء وهى الأعضاء وغبس الذئاب الغبروكواسب: تكسب ما تأكل، ما يمن طعامها ليس أحد يمن به عليها. (٥) صادفن: وجدن، غرة: غفلة، فأصبتها: أوقعتها، لا تطيش: لا تخطىء.

(٦) أسبل: هطل، الواكف: المطر يقيم أياما لا ينقطع، الخمائل الشجر الملتف والتسجام: كثرة المطر. (٧) تجتاف: تدخل جوفه، أصلا قالصا، يعنى أصل شجرة، بعجوب: أصل الذنب، يعنى أطراف الرمال، منتحيا. (٨) الطريقة، الخطة، متواترا: متتابعا، كفر: غطى والغمام: السحاب.

(٩) تضىء: تنير والجمانة: الحبة من اللؤلؤ، سل نظامها: وهو الخيط الذى يسلك فيه اللؤلؤ. (١٠) انحسر الظلام: انكشف، أسفرت: دخلت فى الاسفار وهو الصبح، بكرت: غدت بكرة، تزل: تسرع، الثرى: التراب، أزلامها: قوائمها.

علهت تبلد فى نهاءِ صعائد سبعاً توؤماً كاملا أيامُها (١)

حتى إذا يئست وأسحق حالقٌ لم يبله إرضاعها وفطامها (٢)

وتسمعت رِز الأَنيس فراعها عن ظهر غيب والأَنيس سقامها

فغدت كلا الفرجين تحسب أَنه مولى المخافة خلفها وأمامها (٣)

حتى إذا يئسَ الرماة وأَرسلوا غضباً دواجن قافلا أَعصامُها (٤)

فلحقن واعتكرت لها مدريةٌ كالسمهرية حدها وتمامها (٥)

لتذودهنَّ وأَيقنت إن لم تذد أَن قد أَحم مع الحتوف حمامها (٦)

فتقصدت منها كساب فضرِّجت بدم وغودر فى المكرِّ سخامها (٧)

فبتلك ــ إذ رقص اللوامع بالضحى واجتاب أردية السراب إكامها (٨)

أَقضى اللبانة لا أُفرِّط ريبة أَو أَن يلوم بحاجة لوَّامها (٩)

أَو تكن تدرى « نوارُ » بأَننى وصَّال عقد حبائل جذامها ؟ (١٠)

تَراك أَمكنة إذا لم أرضها أَو يرتبط بعض النفوس حمامها (١١)

بل أنت لاتدرين كم من ليلة طلق لذيذ لهوها وندامُها

---

(١) علهت : تحيرت ، تبلد : تتردد ، وتتحير ، فى نهاء : غاية ، الصعائد : المكان تؤاما : أى متتابعة لياليها . (٢) أسحق : ارتفع ، والحالق المرتفع وهو ضرعها ، والحالق : الجبل المرتقع . (٣) الفرجان ما بين القوائم ، مولى المخافة : صاحب المخافة . (٤) الغضب : جمع أغضب وهى الكلاب .

(٥) اعتكرت : اجتمعت ورجعت . مدرية : محددة ، والسمهرية : الرماح المنسوبة الى سمهر وهو رجل كان يقوم الرماح باليمن .

(٦) تذودهن : أى تطردهن ، وأن قد أحم : قدر ، الحتوف : جمع حتف وهو الموت والحمام : الموت . (٧) فتقصدت : قصدت يعنى قتلت ، كساب : اسم كلبه ، فضرجت : خلطت ، وغودر : ترك ، فى المكر : موضع القتال ، سخامها : اسم كلب (٨) فبتلك : البكرة ، رقص : ارتفع ، اللوامع بالضحى : الآل ، واجتاب : لبس ، أرديه : جمع رداء .

(٩) اللبانة : الحاجة ، لا أفرط : لا أترك ، والريبة : الشك والمخافة . أو أن لا يلوم .

(١٠) وصال . أى أصل ولا أقطع .

(١١) تراك أمكنة يقول اذ رأى ما يكره تركها ، أو يرتبط : يتلف ، وبعض بمعنى كل .

قد بت سامِرها وغايةَ تاجر ... وافيت إذ رفعت وعز مُدامُها(١)

أَغْلى السَّباء بكل أَدكنَ عاتق ... أَوجونةٍ قدحَتْ وفض خِتامها(٢)

بِصبوح صافية وجذب كرينة ... بمُوَتر تأْتاله إبهامُها

باكرْت حاجتها الدجاج بِسحرة ... لِأَعل منها حين هَب نيامها

وغداةَ ريح قد وزعْت وقرةٍ ... إذ أَصبحت بيد الشمال زمامُها

ولقدحَميتُ الخيل تحمل شِكتى ... فِرطٌ وِشاحِى إذ غدوت لجامُها(٣)

فعلوْت مُرتقياً على مرْهوبة ... حرجٍ إلى أَعلامهن قَتَامُها(٤)

حتى إذا أَلقت يدًا فى كافِر ... وأَجن عورات الثغور ظلامها(٥)

أَسهلت وانتصبت كجذْعِ مُنيفة ... جرداءَ يحصُر دونها جُرامها(٦)

رفعتها طرد النعام وفوقه ... حتى إذا سخنت وخفَّ عظامها(٧)

قلقت رحالتها وأَسبل نحرها ... وابتل من زَبد الحميم حزامها(٨)

ترقى وتطعن فى العنان وتنتحِى ... وردَ الحمامة إذ أجد حمامها(٩)

وكثيرةٌ غربَاؤها مجهولة ... ترجَى نوافلها ويُخشى ذامها(١٠)

---

(١) بت سامرا : أى فيها وغاية تاجر يريد راية تاجر يبيع الخمر . ويضع الراية ليعرف موضعه بها فرفعها لذلك . عز : غلا . مدامها : خمرها وسميت مدامة لمداومتها فى الدن . (٢) السباء : شراء الخمر . وجونة : سوداء . والأدكن : الزق . قدحت غرقت . (٣) فرط : من صفة الفرس السابق . وشكتى : سلاحى . (٤) فعلوت : طلعت مرتقيا الحرج : الضيق . والأعلام : الصوت . والقتام : الغبار .

(٥) ألقت يدا . يعنى الشمس . والكافر : البحر . وأجن : ستر . العورات : جمع عورة . موضع المخافة . والثغر ، موضع المخافة أيضا .

(٦) أسهل . نزل السهل وانتصبت يريد الفرس . ومنيفة ، يريدنخلة طويلة : الجرام : الصرام . (٧) ركضها فى المسير كما تطرد النعام وفوقه : فوق الطرد وسخنت جمعت ، وخف عظامها : وأسرعت . فاذا عرقت جاد جريها . (٨) الرحالة : سرج . والحميم : العرق ، وأسبل نحرها : جرى . (٩) الى الماء وهو الورد . وترقى تعتمد . وتنتهى تقصد . كأنها حمام أجهد نفسه . (١٠) يريدكم من خطة وحالة عظيمة مشهورة حضرتها وكنت المقدم فيها . ترجى قوافلها : فضلها ، ويخشى عيبها .

غلب تشذر بالدخول كأنها   جن البدى رواسياً أقدامها(١)

أنكرت باطلها وبوّت بحقها   يوماً ولم يفخر على كرامها(٢)

وجزور أيسارٍ دعوت لحتفها   بمغالق متشابه أعلامها(٣)

أدعو بهن لعاقر أو مطفل   بذلت لجيران الجميع لحامها

فالضيف والجار الغريب كأنما   هبطا تبالة مخصباً أهضامها(٤)

تأوى إلى الأطناب كل رزية   مثل البليةِ قالص أهدامها(٥)

ويكللونَ إذا الرياح تناوحت   خلجاً تمد شوارعاً أيتامها(٦)

إنا إذا التقت المجامع لم يزل   منا لزاز عظيمة جشامها(٧)

ومقسم يعطى العشيرة حقها   ومغذمر لحقوقها هضامها(٨)

فضلا، وذو كرم يعين على الندى   سمح كسوب رغائب غنامها

من معشر سنت لهم آباؤهم   ولكل قوم سنة وإمامها

إن يفزعوا تلق المغافر عندهم   والسن يلمع كالكواكب لامها

لا يطبعون ولا يبور فعالهم   إذ لا يميل مع الهوى أحلامها

فبنوا لنا بيتاً رفيعًا سمكه   فسما إليه كهلها وغلامها(٩)

---

(١) تشذر : تهيأ للقتال . الدخول . الأحقاد ، البدى مكان معروف بالجن ، رواسيا : يعنى أنها ثابتة . (٢) بوّت : أقررت .

(٣) الأيسار : الذين يحضرون القسمة ويضربون بالقداح ، والمغالق السابع من سهام الميسر . (٤) يقول عنده من الخصب مثل ما عند أهل تبانة من الرطب (٥) الرزية : المرأة متى أهزلها أهلها . والبلية : ناقة الرجل تعقل عند قبره وتفقأ عيناها ويطرح حفتها ويلزون وجهها فلا تزال عند قبره حتى تموت ويحضر لها قدر ما بقيت قوائمها . الأطناب : حبال الفساطيط . والاهدام : الخلقان وقائص : قصير مرتفع .

(٦) التكليل أن يوضع اللحم بعضه على بعض ، الخلج : الجفان ، شوارع جمع شارعة وهى من صفات الأيدى ، أى أيديهم ممدودة للأكل .

(٧) المحافل : المجامع . لزاز : قرن ، لكل عظيمة جشامها أى متجشم لها ، متكفل بها . (٨) المقسم : يريد عامر بن الطفيل ، والمغذمر : الذى يأخذ من هذا ويعطى هذا ، والهضم : النقصان .

(٩) بنوا : يعنى آباءه وأجداده ، السمك : المرتفع من الشىء .

فاقنع بما قسم المليك فإنما ... قسم الخلائق بيننا علامها
وإذا الأمانة قسمت فى معشر ... أوفى بأعظم حظنا قسامها
فهم السعاة إذا العشيرة أفظعت ... وهم فوارسها وهم حكامها(١)
وهم ربيع للمجاور فيهم ... والمرملات إذا تطاول عامها
وهم العشيرة إن يبطأ حاسد ... أو أن يميل مع العدو لئامها

ومنه قوله فى النعمان يرثيه :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول ... أنحب فيقضى أم ضلال وباطل(٢)
أرى الناس لا يدرون ما قدر أسرهم ... بلى كل ذى لب إلى الله واسل(٣)
ألا كل شىء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم ... دويهية تصفر منها الأنامل
وكل امرئ يوما سيعلم غيبة ... إذا كشفت عند الإله الحواصل

ويعتبر لبيد ممن رثى نفسه قبل موته بقوله لابنتيه وهو محتضر :

تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
فإن حان يوماً أن يموت أبوكما ... فلا تخمشا وجهًا ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرءُ الذى لا حليفه ... أضاع ولا خان الصديق ولا غدر
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

(١٠) علقمة بن عبدة التميمى

هو علقمة الفحل بن ناشر التميمى ، شاعر جاهلى مجيد من أقران امرئ القيس ، مات قبل الإسلام بزمن طويل ، وإنما قيل له (الفحل) من أجل

(١) السعاة جمع ساع وهو المصلح ، وأفظعت : ابتليت بالأمر الفظيع . وهو المهم .

(٢) السؤال بمعنى الاستفهام ، والمحاولة : استعمال الحيلة ، والنحب : النذر .

(٣) الواسل الطالب والراغب الى الله ، أى أرى الناس لا يعرفون ما هم فيه .

أن يتميز فى الأخبار من شاعر آخر فى قبيلته أيضاً يسمى علقمة الخصى بن سهل ويكنى أبا الوضاح أدرك الإسلام وأسلم ، وقيل سمى (الفحل) لأنه خلف امرأ القيس على زوجته بعد أن طلقها ،لأنهافضلت علقمة عليه حين حكماها فى الشعر .

(١٠) معلقة علقمة الفحل بن عبدة التميمى

طحابك قلب فى الحسان طروب … بعيد الشباب عصر حان مشيب(١)

تكلفنى ليلى ، وقد شط وليها … وعادت عواد بيننا وخطوب(٢)

منعمة ، ما يستطاع كلامها … على بابها من أن تزار رقيب(٣)

إذا غاب عنها البعل لم تفش سره … وترضى إياب البعل حين يؤوب(٤)

فلا تعدلى بينى وبين مغمر … سقتك روايا المزن حين تصوب(٥)

سقاك يمان ذو حبى وعارض … تروح به جنح العشى جنوب(٦)

---

(١) طحابه قلبه : ذهب به كل مذهب ، والطروب : من الطرب ، وهو خفة السرور والشوق الى الشيء . وبعيد : تصغير بعد . حان المشيب : قرب أوانه ، أى أضلك قلبك الطروب فى حبك الحسان بعد ما ذهب الشباب وقرب المشيب ، والخطاب لنفسه ، ثم التفت وتكلم عن نفسه فقال : تكلفنى الخ .

(٢) شط وليها : بعد عنك قربها ودنوها ومواصلتها ، عادت : شغلت ، وصرفت مقلوب عداه عن الأمر صرفه ، والعوادى : جمع عادية ، وهى الأمر الشاغل عن الشيء والخطوب : جمع خطب وهو الأمر العظيم من حوادث الدهر .

(٣) منعمة : من النعيم فهى محجبة يعنى بحراسة أهلها لها .

(٤) لم تفش سره : كناية عن أنها لم تخنه ، ولذلك هى ترضى ايابه فلا يعجبها غيره ، واذا قرىء وترضى ـ بالضم ـ كان المعنى وتجعل ايابه رضيا حميدا بألا يشك فى صونها .

(٥) فلا تعدلى : فلا تسوى ، والمغمر من الرجال : المحمق من الرجال الذى يستجهله الناس ، سقتك الخ . يدعو لها بأن تسقيها المزن الروية أى تروى حين تمطر ، يريد أنه رجل عاقل نبيل ينبغى لها أن تحرص عليه ثم عاد الى الدعاء لها فقال ، سقاك الخ .

(٦) أى سقاك سحاب يمان يأتى من ناحية جنوبى نجد ، أصله يمنى خففوا ياء النسب ، وزادوا الألف عوضا عنها ، فعومل المنسوب معاملة المنقوص ، الحبى : السحاب المتراكم =

وما أَنت ؟ أَم ما ذكرها ربيعةً يخط لها من ثرمداء قليب(١)

فإنْ تسأَلونى بالنساءِ فإننى بصير بأَدواءِ النساءِ طبيب(٢)

إذا شاب رأْس المرءِ أَوْ قل ماله فليس له من وُدّهِنَّ نصيب

يردْن ثراءَ المال حيثُ علمنه وشرخُ الشباب عندهن عجيب(٣)

فدعها ! وسلِّ الهم عنك بجسرة كهمك فيها بالرداف خبيب(٤)

إلى الحارث الوهاب أَعملت ناقتى بكلْكلها والقصريين وجيب(٥)

وقال أَيضاً علقمة الفحل بن عبدة التميمى :

والحمد لا يُشْترىٰ إلا لهُ ثمنٌ مِمَّا يضنُّ به الأَقوام معلوم(٦)

والجود نافية للمال مهلكة والبخل مبق لأَهليه ومذموم(٧)

= بعضه على بعض فيكون سيره بطيئا كأنه يحبو ، ويكون لذلك مطره غزيرا ، والعارض السحاب المعرض فى الأفق ، والجنوب : الريح الجنوبية .

(١) وما أنت : ما استفهامية للتعجب وأم للاضراب بمعنى بل ، أى ما شأنك ؟ بل ما الداعى لذكرك ليلى ، وهى ربعية وأنت تميمى ، وقد رحلت الى بلادها حيث حط لها فى ثرمداء قليب ، والقليب : البئر وثرمداء موضع ، ثم أخذ يصف النساء وطباعهن ، فقال فان تسألونى الخ .

(٢) الأدواء : جمع داء ، أى بطباعهن المعينة التى بمنزلة الأمراض فيهن

(٣) الثراء : الكثرة أى يحببن من يعلمن عنده مالا ، وشرخ الشباب أوله ، وعجيب : معجب . (٤) الجسرة : الناقة القوية الماضية ، وكهمك أى مثل همتك فى المضاء والقوة ، والرداف جمع رديف والرديف والردف كل شىء يكون خلف الراكب ولو حقائب ، والخبيب : السير السريع .

(٥) والحارث الوهاب : يريد به الحارث بن جبلة بن أبى شمر الغسانى ، وكان أسر أخاه شاسا فرحل اليه يطلب خلاصه وفكه ، وأعمل الناقة : وجهها وأجهدها ، والكلكل : الصدر وما بين الترقوتين ، وهو المناسب هنا والقصريان : ضلعان يليان الترقوتين . والوجيب خفقان القلب اى أنه لشدة اجهادها فى السير اشتد نبض قلبها . وبان ذلك فى كلكلها وقصرييها لقرب القلب منهما . (٦) يقول : ان الحمد لا يشترى الا بأثمان تضن بها النفوس ، والحمد : الثناء والمدح . (٧) نافية أى مبيد ومهلك ، والبخل ، الخ . أى : أن البخل يوفر المال وأهله مأمونون وأدخل الهاء فى نافية للمبالغة مثل علامة ونسابة .

والمالُ صوف قرار يلعبون به   على نقادته واف ومجلوم(١)
ومطعمُ الغنم يوم الغنم مُطعمه   أنى توجه ، والمحروم محروم(٢)
والجهلُ ذو عرض لا يُسْتراد له   والحلم آونةً فى الناس معدوم(٣)
ومن تعرَّض للغربان يزجرها   على سلامته ـ لا بد ـ مشئومُ(٤)
وكل حصن وإن طالت سلامته   على دعائمه ـ لا بدَّ ـ مهدوم(٥)

أمية بن أبي الصلت

هو أُمية بن عبد الله بن أَبى الصلت بن أَبى ربيعة بن عوف الثقفى شاعر خطير من أشراف ثقيف ، وأحد المتمسين للدين فى الجاهلية ، وأُمه رقية بنت عبد شمس بن عبد عناف .

منشؤه ـ نشأَ بالطائف ، وكان أَبوه شاعرًا مشهورًا ، وروى الكثير من أَخبار اليهود والنصارى وما بقى فى رءُوس شيوخ الجاهلية من ملة إبراهيم وإسماعيل وحدث عن خلق السموات والأَرض والملائكة والجن وشرائع الأَنبياءِ والرسل ، وخاض فى التوحيد وأمر الآخرة ، وتعبد ولبس المسوح ، وحرم الخمر على نفسه وشك فى الأَوثان ، ورأَى فى الكتب ما يبشر ببعثة نبى من العرب ، فطمع أَن يكونه ؛ فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كُسِف باله ، وحمله الحسد والكمد أَن

---

(١) القرار : النقد . وهى غنم صغار الأجرام قصار الواحدة نقدة ، يلعبون به . أى يتداولونه ويعبثون به ، واف : كثير ، ومجلوم : مجزوز بالجلم أى المقص ، يريد أن منهم من يعطى القليل ومنهم من يعطى الكثير كما أن الصوف على النقد قليل وكثير . والنقادة : جمع لاسم الجمع .
(٢) المعنى : أن الذى جعل الغنم له طعمة فسيطعمه فى يوم الغنم أينما توجه . ومن حرمه فلن يناله فقضاء الله كائن لا محالة .

(٣) ذو عرض لا يستراد له ، أى : لا يراد ولا يطلب ، فأنت لا تحبه ولا تريده ، آونة : أحيانا ، ومفرده : أوان . (٤) المعنى أن من يزجر الطير وان سلم فلا بد أن يصيبه شؤم . والغربان يتشاءم بها . فمن تعرض لها يزجرها ويطردها خوفا من أن يصيبه الشؤم فلا بد أن يقع ما يخاف ويحذر . (٥) يقول : كل حصن دامت سلامة أهليه فيه فلابد أن يهلكوا ويخرب الحصن ، ودعائمه : أركانه التى يقوم بها .

ينابذه ، ويكفر بدينه على علمه بصحته ، ويحرض عليه قريشا ، ويرثي قتلاهم في وقعة بدر ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رواية شعره في ذلك وروى أنه هو الذي نزلت فيه آية « واتل عليهم نبأَ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأَتبعه الشيطان فكان من الغاوين » وكان عليه الصلاة والسلام إذا سمع شعره في التوحيد والإيمان والثناء على الله يقول : آمن لسانه ، وكفر قلبه .

ومن آخر شعره ما قاله عند موته :

كل عيش وإن تطاول دهرًا ... منتهى أمره إلى أن يزولا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي ... في رءُوس الجبال أَرعى الوعولا
فاجعل الموت نصب عينيك واحذر ... غولة الدهر إن ذا الدهر غولا

واختص بأَكثر مدائحه في الجاهلية « عبد الله بن جدعان أَحد سراة قريش وأَجوادِها » حتى كان منه بمنزلة زهير مع هرم ، وأَقام بقية حياته بالطائف إلى أن مات بها كافرا سنة تسع للهجرة .

شعره : يعد أُمية من أَكبر شعراءِ القرى على قلة الشعر فيهم ، غير أَن الذي أَزرى بشعره في نظر بعضهم كثرة استعماله للدخيل من العبرية والسريانية في شعره وكان أُمية يسمي السماءَ : صاقورة ، وحاقورة ، ويزعم أَن للقمر غلافاً يدخل فيه إذا خسف ويسميه (الساهور) ويسمي الله في شعره السلطيط. والتغرور ، ونحو ذلك .

ويمتاز شعره ببعض السهولة في لفظه ، وبذكره بعض العجائب من القصص الخيالية ، والأَساطير الخرافية ، وخلق العالم وفنائه ، وأَحوال الآخرة وصفات الخالق والخشوع له ويذكر من ذلك ما لم يذكره أَحد من الشعراء قبله ، ويتخلل ذلك شيءٌ من الحكم والأَمثال ، ومن شعره :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا ... بالخير صبحنا ربي ومسانا
رب الحنيفة لم تنفد خزائنه ... مملوءَة طبق الآفاق سلطانا
ألا نبي لنا منا فيخبرنا ... ما بعد غايتنا من رأس محيانا

وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا أن سوف تلحق أخرانا بأُولانا

الرواية والرواة

قد علمنا مما تقدم أن عامة المروى من كلام العرب شعرها ونثرها وأخبارها معزو إلى أهل البدو الأُميين ، ولذلك لم يصل إلينا كتاب يجمع بين دفتيه الكثير منها ، وما روى لنا من كلام فصحاء العرب ليس إلا النزر اليسير بوجوه مختلفة ، وبالطبع لايحفظ هذه الوديعة إلا أهل الحفاظ عليها ، والاعتداد بها وهم الشعراء والمتأدبون ، فقدكان امرؤ القيس راوية أبى داود الإيادى ، وزهير راوية أوس ابن حجر . والأعشى راوية المسيب بن علس .

واشتهر من قريش أربعة بأنهم رواة الناس للأشعار وعلماؤهم بالأنساب وهم مخرمة بن نوفل وأبو الجهم حذيفة ، وحويطب بن عبد العزى ، وعقيل بن أبى طالب .

العصر الثانى ، عصر صدر الإسلام ، ويشمل بنى أُمية(١)

حالة اللغة العربية وآدابها فى ذلك العصر

كانت العرب أُمماً بدوية ، ليس لها من وسائل العمران وأسباب الرخاء مايحملها على تبحر فى علم ، أو تبصر فى دين ، أو تفنن فى تجارة ، أو زراعة ، أو صناعة ، أو سياسة ــ وعلى وفق ذلك كانت اللغة العربية لاتعدو أغراض

(١) خلفاء بنى أمية هم :

١ ــ معاوية بن أبى سفيان (٤١/٦٠) ٢ ــ يزيد بن معاوية (٦٠/٦٤)
٣ ــ معاوية بن يزيد (٦٤ /٦٤) ٤ ــ مروان بن الحكم (٦٤/٥٦)
٥ ــ عبد الملك بن مروان (٥٦/٨٦) ٦ ــ الوليد بن عبد الملك (٨٦/٩٥)
٧ ــ سليمان بن عبد الملك (٩٦/٩٩)
٨ ــ عمر بن عبد العزيز (٩٩/١٠١)
٩ ــ يزيد بن عبد الملك (١٠١/١٠٥)
١٠ ــ هشام بن عبد العزيز (١٠٥/ ١٢٥)
١١ ــ الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥/١٢٦)
١٢ ــ يزيد بن الوليد الأول (١٢٦/١٢٦)
١٣ ــ مروان الجعدى (١٢٧/١٣٢) .

المعيشة البدوية – إلا أن روحاً من الله تنسم بين أَرجائها فأَيقظتها من رقدتها ونبهتها لضرورة التعاون على الخير فى معاشها ولغتها وجماعتها ، فظهر ذلك بيناً فى الأَسواق التجارية اللغوية الاجتماعية ، وفى الإذعان فيها إلى حكومة الأَشراف من قريش وتميم وغيرهما ، مما هيأَهم لأَن يجتمعوا تحت لواءٍ واحد ، ويتفاهموا بلسان واحد ، فكان ذلك إيذاناً من الله بإظهار الإسلام فيهم ، وما أَلفت نُفُوسهم هذا النمط الجديد إلا وقد جاء النبى الكريم لاما لشعثهم ، موحدًا لكلمتهم مُهذباً لطباعهم ، مُبينًا طريق الحق ، وجادة الصواب ،بشريعة عظيمة فكان من نتيجة ذلك أَن أُسست لهم جامعة قومية ملية وملكٌ كبير – وبالتفاف العرب حول صاحب هذه الدعوة وأَنصاره ، وتفهمهم شريعته وكلامه ثم خضوعهم بعد لزعامة قومه وخلفائه ووُلاتهم وفتوحهم تحت أَلويتهم ممالك الأَكاسرة والقياصرة وغيرها ومخالطتهم أَهلها بالجوار والمُصاهرة حدث فى حياتهم الفكرية واللسانية ، ما يمكن إجمالُه فى الأُمور الآتية :

الاول : شيوع اللغة القرَشية ، ثم توحد لغات العرب وتمثلها جميعها فى لغة قريش واندماج سائر اللهجات العربية فيها ، وبعض أَسباب هذا يرجع إلى ما قبل الإسلام بتأْثير الأَسواق والحج وحكومة قريش – وأَكثرها يرجع إلى نزول القرآن بلغتهم وظهور ذلك الداعى العظيم منهم ، وانتشار دينه وسلطانه على أَيديهم . وبحكم الضرورة تكون لغتهم هى الرسمية بين القبائل

الثانى : انتشار اللغة العربية فى ممالك الفُرْس والروم وغيرهما بالفتوح والمغازى وهجرة قبائل البدو إليها ، واستيطانهم لها واختلاطهم بأَهلها .

الثالث : اتساع أَغراض اللغة بسلوكها منهجاً دينيًّا ، واتباعها خُطة نظامية تقتضيها حالُ الملك وسكنى الحضر .

الرابع : ظُهُور المعانى والتصورات وتغيُّرات الأَلفاظ والأَساليب .

الخامس : ظهور اللحن فى الكلام بين المستعربين : من الموالى ، وأبناء العرب من الفتيات ، وبعض العرب المكثرين من مُعاشرة الأعاجم .

ولما كان معظم هذه التغيرات يرجع إلى القرآن الكريم والحديث النبوى ناسب وصفهما من كثير مما ينبغى أن يقال فيها .

القرآن الكريم وأثره فى اللغة العربية(١)

القرآن (كتابٌ أُحكمت آياتُه ، ثم فُصِّلت مِن لَّدن حكيم خبيرٌ) فيه آيات بينات ، ودلائل واضحات ، وأخبار صادقة ، ومواعظ رائقة ، وشرائع راقية ، وآداب عالية بعبارات تأخذ بالألباب أساليب ليس لأحد من البشر بالغاً مابلغ

(١) اعلم أولا أن اعجاز القرآن من جهة أغراضه . فنجـده فى كل غرض وموضوع غاية فى الابانة والجلاء ونهاية فى الاصابة واطراد الأحكام . فمن تشريع خالد ، وتهذيب بارع ، وتخليم جامع ، وأدب بالغ . وارشـاد شامل ، وقصص ومواعظ ومثل سائر ، وحكمة بالغة . ووعد وعيد ، وأخبار بغيب ، الى غير ذلك من الأغراض والمقاصد ، وقد كان فحـول البلاغة لا يبرز أحدهم الا فى فن واحد من أنواع القول فمن يبرع فى الخطابة لا ينبغ فى الشعر ومن يحسن الرجز لا يجيد القصيد ومن يستعظم منه الفخر لا يستعذب منه النسيب ولأمر ما ضربوا المثـل بامرىء القيس اذا ركب وزهير اذا رغب والأعشى اذا طرب والنابغة اذا رهب .

ثانيا : من جهة ألفاظه وأساليبه ، فلا تجد منه الا عذوبة فى اللفظ ، ودماثة فى الأساليب وتجاذبا فى التراكيب ، ليس فيها وحشى متنافر ولا سوقى مبتذل ، ولا تعبير عويص ، ولا فواصل متعملة . على شيوع ذلك فى كلام المفلقين وأهل الحيطة المتروين حتى انك لترى الجملة المقتبسـة منه فى كلام أفصح الفصحاء منه تفرعه جمالا . وتشمله نورا وتكسـوه روعة وجلالا ، الى اجمال فى خطاب الخاصة وتفصيل فى تفهيـم العـامة وتكنية العربى . وتصريح للاعجمى وغير هذا مما يقصر عن احصائه الالمام ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام .

ثالثا : من جهة معانيه ، فانك تجدها من معين العرب الذى منه يستقون لاطراد صدقها قرب تناولها واطمئنان النفوس اليها وابتـكارها البديع على غير مثال معهود ، من حجج باهرة وبرهانات قاطعة وأحكام مسلمة وتشبيهات رائعة على نموذج وتواصل وبراءة من التقاطع والتدابر وهو فى جملته نزهة النفوس وشفاء الصدور وهو الكتاب الخالد الذى لا تبديل لكلماته ولا ناسخ لأحكامه ولا ناقص . (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) .

من الفصاحة والبلاغة أَن يأْتى بمثلها، أَو يُفكر فى مُحاكاتها، فهو آية الله الدائمة، وحُجته الخالدة: (لا يأْتيه الباطلُ من بَين يديه ولا من خلفهِ تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ) أَنزله الله على رسوله ليُبلغه قومه وهم فحول البلاغة وأُمراءُ الكلام، وأَناة الضيم، وأَربابُ الأَنفة والحميَّة. فبهرهم بيانه، وأَذهلهم افتنانُه فاهتدى به من صحَّ نظرُه، واستحصف عقله، ولطُفَ ذوقه، وصدَّ عنه أَهلُ العناد والمكابرة واللجاج ـ فتحدَّاهم أَن يأْتوا بمثله فنكصُوا، ثم بعشر سور مثله، فعجزوا، ثم بسورة من مثله فانقطعوا، فحقَّ عليهم إعجازه ـ قال تعالى: (قلْ لئن اجتمعت الإِنسُ والْجنُّ على أَن يأْتوا بمثل هذا القرآن لا يأْتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا).

وللقرآن فضلٌ على اللغة فقد أَثرَ فيها مالم يؤثره أَى كتاب سماويًّا كان أَوغير سماوىٍّ فى اللغة التى كان بها، إذ ضمن لها حياة طيِّبةً وعمرًا طويلا؛ وصانها من كلِّ مايشوه خلقها ويذوى غضارتها ـ فأَصبحت وهى اللغة الحية الخالدة من بين اللغات القديمة التى انطمست آثارها وصارت فى عداد اللغات التاريخية الأَثرية وأَنه قد أَحدث علوماً جمة وفنوناً شتى لولاه لم تخطر على قلب، ولم يخطها قلم ـ منها: اللغة، والنحو، والصرف، والاشتقاق، والمعانى، والبديع، والبيان، والأَدب، والرسم، والقراءات، والتفسير، والأُصول، والتوحيد، والفقه.

جمع القرآن وكتابته

وقد نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنجماً على حسب الوقائع ومُقتضيات الأَحوال فى بضع وعشرين سنة، وكان عليه الصلاة والسلام يأْمر كتَّاب وحيه بكتابة ما يُنزل ـ وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن كله مكتوب، وفى صدُور الصحابة محفوظ، وفى مدة الإِمام عثمان كثرت الفتوحات وانتشر القراءُ فى الأَمصار، فأَمر عثمان، زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن

ابن الحارث بن هشام – فنسخوا تلك الصحف فى مُصحفٍ واحد مرتبِ السور – واقتصر فيه من جميع اللغات على لغة قريش لنزوله بلغتهم .

صاحب الشريعة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

هو سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى من أبناء إسماعيل بن إبراهيم الخليل أبي العرب المستعربة ، وُلد فى (مكة) ونشأً بها يتيما ، وربته أُمهُ آمنة بنت وهْب بن عبد مناف ، وأرضعته حليمة بنت أَبي ذؤيب من عرب البوادى ، وماتت أُمه وعمره ست سنين ، فعاله جده عبد المطلب ثم مات جده بعد سنتين ، فكفلهُ عمُّه أبو طالب .

وعندما بلغ أَشدَّه تولى رعى الغنم بالبادية مع إخوته فى الرَّضاع ، وكذلك كانت الأَنبياءُ عليهم السلام ، فما من نبيٍّ إلا رعاها ، وهذه من حكم الله سبحانه وتعالى فإن الإنسان إذا استرعى الغنم وهى أَضعفُ البهائم سكن قلبه الرِّقق والرحمة ، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان قد هذب نفسه ، وخلصها من شوائب الخلق الغريزية كالحدة والحسد ، ثم اشتغل عليه السلام بالتجارة ، وكان شريكه فيها السائب ، وخرج إلى الشام يتجر لخديجة بنت خوَيلد من سراة بنى أَسد ، وشرفت بعد ذلك خديجة بزواجه منها ، فكان يعملُ فى مالها تاجرا .

صفاته : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وسط القامة ليس بالطويل البائن ولا القصير المُتردد مُعتدل السمن ، ضخم الرَّأْس ، عظيم الهامة ، صلت الجبين ، سهل الخدين ، واسع العينين أَسودهما ، أَزج الحاجبين سابغهما ، أَهدب الأَشفار صبيح الوجه مدور مستوىَ الأَنف مُفلج الأَسنان ، رجِل الشعر حسنهُ ، عريض الصدر ، رحْب الراحتين ، سائل الأَطراف ، أَزهر اللون ، فلا بالآدم ولا بالشديد البياض .

وكان عليه السلام أَفصح قومه لساناً ، وأَرجحهم عقلاً وأَصحهم فهماً ، وأَعظمهم

أمانة ، وخيرَهم جِوارًا وأَصدقهُمْ حديثًا ، وأكثرهم اتصافاً بمكارم الأَخلاق .

ولمَّا بلغ الأَربعين من عمره أرسله الله للعالمين بشيرًا ونذيرًا إذ نزَل عليه الوَحيُ وهو قائم على جَبل (حرَاءَ) قريبًا من (مكة) فأَخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو لعبادة الله وحْده أقواماً لادين لهم إلا أن يسْجدوا للأَصنام فآمنتْ به زوجته خديجة وابنُ عمه على بن أَبى طالب وصدِّيقه أَبو بكر ومولاه زيْدُ بن حارِثة الكلبى ، وحاضِنتُه أُمُّ أَيمن .

وجمع رسولُ الله عشِيرتُه ، وهم بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب ، وبنو نَوْفل ، وبنو عبدِ شمس أولاد عبد مناف وقال لهم : (إنَّ الرَّائد لايَكذبُ أَهْلهُ واللهِ لو كذبت الناسَ جميعًا ما كذبتكم ، ولو غَررْتُ الناس جميعا ما غررتكم والله الذى لا إله إلا هو أنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة) فقالو له قَوْلًا لينًا إلا عمَّه أبا لهب .

فلمَّا جهر رسول الله بالدعوة إلى الإسلام بتوحيد الله ونبذِ الأَوْثان سخِرتْ منه (قريش) واستهزءُوا به فى مجالسهم وأَضمروا له الحقد والعَداوَة وآذوهُ كثيرًا ، وكان أَشدَّهم فى ذلك أبو جهل عمرو بن هِشام بن المغيرة المخزومى القرشى .

ثم أَسلم حمزة عمُّ رسول الله ثم عُمَر بن الخطاب ، فقوِىَ بهما وأَسلم بمكة نفرٌ من ولدِ (الأَوسِ ، والخزرج) وهما قبيلتان من أَهل (المدينة) وعادوا إليها ، فانتشر فيها الاسلام بهم ، ووفد على رسول الله جمع من أَهلها يدعونه وأَصحابه إلى الهجرة إليهم فهاجر ، وبهجرته إلى المدينة ابتدأ التاريخ الهجرى .

ولم يقاتل رسولُ الله أَحدًا على الدخول فى الدين بل كان أَمْرُهُ مقصورًا على التبشير والإنذار ، فلما ازداد طُغيان أَهل (مكة) وأَخرجوا المسلمين من ديارهم ، وائتمروا مع غيرهم من مُشركى العرب على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن الله سبحانه وتعالى بقتال المشركين كافة فكانت أول حرب بين رسول الله وبينهم فى

(غزوة بدر) وتلتها غزوات عدّة كان النصر فى أكثرها لرسول الله ولجماعته .

وبعث رسول الله رُسله يدعون إلى الإسلام وهم دحْيةُ الكلبي إلى (هِرقل) ملك الروم ، وعبد الله بن حُذافة إلى (كسرى) ملك الفرس ، وشجاع الأَسدىّ إلى (الحارث الغسّانى) ملك البلقاء بالشام ، والحاطب بن أَبى بلْتعة إلى (المقوْقِس) أَمير مصر ، وسليط بن عمرو العامرى إلى (هَوْذة) صاحب اليمامة ، وبعث عمرو بن أُمية إلى النجاشى (أَصْحَمة) ملك الحبشة فأَسلم ، وعمر بن العاص إلى (جَيفر) و (عبدًا) ملكى عمان فأَسلما ، والعلاء بن عبد الله الحضرى إلى (المنذِر) ملك البحرين فأَسلم ، وخالد بن الوَليد إلى (بَنِى عبد المدان) ، وعلى ابن أَبى طالب إلى (بنى مَذْحِج) فى أَرض (اليمن) فأَسلموا . وأَسلمت (همدان) وتابعها سائر أَهل (اليمن) وملوك (حِمْيَر) ثم أَقبلت بعد ذلك وفود العرب جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايعونه على الإسلام .

وحجَّ رسول الله فخطب فى الناس خُطبة الوداع وهى أكثر خطبة استيعاباً لأُمور الدين والدنيا . وفى يوم الاثنين الثالث عشر من ربيع الأَول سنة إحدى عشرة من الهجرة توفى رسول الله بالمدينة وفيها دُفن — وله من العمر ٦٣ سنة قمرية . وثلاثة أَيام .

الحديث النبوىّ

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أَفصحَ الناس وأَبينهم وأَحكمهم ، وكانت حياته كلها هداية ونورًا . وأَفعاله وأَقواله جميعها مدَادًا يستمد منه الخلقُ سدادهم وإرشادَهم فى معاشهم ومعادِهم — ولهذا حرص المسلمون على حفظ ذلك الأَثر العظيم حرصاً لم توفق إلى مِثله أُمة فى حفظ آثار رسُولها — فجمعوا من كلامه ، ووصف أَفعاله وأَحواله الأَسفار الضخام ، ووَعوا منها فى صُدُورهم مالا يدخل تحت حصر — وكلامه صلى الله عليه وسلم منزَّه عن

اللغو والباطل ، وإنما كان فى توضيح قرآن ، أو تقرير حكم ، أو إرشاد إلى خير ، أو تنفير من شر ، أو فى حكمة ينتفع الناس بها فى دينهم ودنياهم بعبارة هى فى الفصاحة والبلاغة والإيجاز والبيان فى الدرجة الثانية بعد القرآن الكريم ، ولذلك كان تأثيرها فى اللغة والأدب بالمنزلة التالية لكلام الله تعالى .

النثر ــ لغة التخاطب ــ الخطابة ــ الكتابة

كانت لغة التخاطب فى مبدإ الإسلام بين العرب الخلص والموالى النابتين فيهم هى العربية الفصيحة المعربة ــ وكانت لغة الموالى الطارئين عليهم تقرب من الفصيحة أو تبتعد عنها على حسب طول لبثهم فيهم ، أو قصر مقامهم عندهم ، ولما فتح المسلمون الأمصار ، وكثر عندهم سَبْى الأعاجم وأسرى الحروب ، ودخل فى الإسلام منهم ألوف الألوف ، وأصبحوا لهم إخواناً وشركاء فى الدين وتم بينهم التزاوج والتناسل ، نشأ للعرب ذُرِّية اختلطت عليهم ملكة العربية ، وكذلك كان الشأن فى المتعربين من الأعاجم ، أما العرب أنفسهم بعد الفتوح فكانت لغتهم فى جزيرتهم مثل ما كانت عليه فى جاهليتهم ، أما سكان الأمصار منهم وأولادهم من الحرائر ، فالعامة منهم المخالطون للأعاجم لم تخل لغتهم من لحن أو هجنْة ، والخاصة منهم تشددوا فى المحافظة فى سلائقهم ، وتحاموا التزوج بالأعجميات ، وبالغوا فى تربية أبنائهم ، فكانوا يرسلونهم إلى البادية ليرتاضوا على الفصاحة ، أو يحضرون لهم المؤدبين والمعلمين ــ كذلك كان يفعل خلفاءُ بنى أُمية وأُمراؤهم اقتداء بكبيرهم (معاوية بن أبى سفيان) فى تربية ابنه (يزيد) ومن لحن منهم عدوا ذلك عليه عارًا لا تمحى وسبَّة لا تزول ، ومن هؤلاءِ اللحانين عبد الله بن زياد ، والوليد ابن عبد الملك ، وخالد القسْرى ــ مع أن بعضهم كان من أبلغ الناس وأبينهم .

ومن هنا يعلم السر فى تسرع القوم إلى وضع النحو وتدوينه والشكل والإعجام

الخطابة والخطباءُ فى هذا العصر

لما كان مبدأُ كل انقلاب عظيم فى أى أُمة : إما دعوة دينية ، وإما دعوة سياسية كانت تلك الدعوة تستدعى أَلسنة قوّالة من أهلها لتأْييدها ونشرها وألسنة من أعدائها وخصومها لإدحاضهم والصد عنها . وذلك لايكون إلا بمخاطبة الجماعات ـ كان ظهور الإسلام من الحوادث التى أَنشطت الأَلسن من عقلها وأثارت الخطابة من مكمنها فوق ما كانت عليه فى جاهليتها فكان العمل الأَكبر لصاحب الدعوة العظمى سيدنا (محمد) صلى الله عليه وسلم بادىء أَمره غير تبليغ القرآن واردًا من طريق الخطابة، ولأَمر مَّا جعلها الشارع شعار كل الأُمور ذوات البال ولذلك كان دعاة النبي عليه الصلاة والسلام ورسله إلى الملوك وأُمراءُ جيوشه وسراياه ثم خلفاؤه من بعده وُعمالهم كلهم خطباءَ مصاقع ولسنا مقاول ، وأن الشرع صرفهم عن اللهو بالشعر الذى لاينهض بأَعباءِ الخطابة ولاسيما الدينية لشرحها الحقائق وقرعها الأَسماع بالحجج العقلية والوجدانية ،وترغيبها فى الثواب وترهيبها من العقاب ، بعبارات تفهمها الخاصة والعامة ،وكان لهم من القرآن وأَدلته وحججه والاقتباس منه مددٌ أيما مدد ـ ولما حدثت الفتنة بين المسلمين بعد مقتل عثمان ، وافترقوا إلى عراقيين بزعامة الإمام علي ـ وشاميين بزعامة معاوية ، ولكل منهم دعوة يؤيدها ورغبة يناضل عنها فى تلك الحرب الشعواءَ التى لم ينكب الإسلام بمثلها ظهر من كلتا الطائفتين خطباءَ لايحصى عددهم ، ولا يُشقّ غبارهم وعلى رأس العراقيين شيخ الخطباء الإمام (على بن أَبى طالب) وعلى رأَس الشاميين (معاوية بن أَبى سفيان) ولم تعدم كل طائفة منها خطباءُ يؤيدون دعوتها بما أُوتوا من البلاغة فى الخطابة والفصاحة والبيان .

والخطابة وصلت فى هذا العصر إلى أَرْقى ما وصلت إليه من اللسان العربي حتى ممن يعد عليهم اللحن ولم تسعد العربية بكثرة خطباءَ ووفرة

خطب مثل ما سعدت به فى هذا الصدر الأَول . إذ كان القوم ورؤساهم عرباً خلصاً يسمعون القول فيتبعون أَحسنه .

ولم يخرج الخطباءُ عن مأْلوفهم من اعتجار العمامة ، والاشتمال بالرِّداء واختصار المِخصرة ، والخطبة من قيام .

وليس فى عصور أَدب اللغة عصر أَحفل بالخطباءِ من هذا العصر إذ كانت الخطابة فيه سلِسة القيادِ على خلفائه وزعمائه لفطرتهم العربية ، ومحلهم من الفصاحة والبيان ، وانطباعهم على أَساليب القرآن واتساع مداركهم .

خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة

وقف على باب الكعبة : ثم قال :

لا إله إلا اللهُ وحده لاشريك له ، صدق اللهُ وعدَهُ ، ونصرَ عبده وهزمَ الأَحزاب وحده ، إلا كلَّ مأْثُرَة أَو دم أَو مال يُدَّعى فهو تحت قدمَىَّ هاتين ، إلا سِدانة البيتِ وَسقاية الحاج أَلا وقتيل الخطإِ العمْد بالسوْطِ والعصا فيه للدِّية مُغلظة فيها أَربعون خِلقة ، فى بطونها أَولادها ، يا معشر قريش ، إن الله قد أَذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباءِ ، والناس من آدمَ وآدمُ خُلِقَ منْ تُرَاب ، ثم تلا هذه الآية : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتعَارفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خبيرٌ » .

ومن خطبته فى حِجَّة الوداع

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أَنفسنا . ومن سيئات أَعمالنا ، من يهدى الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأَشهد أَن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأَشهد أَن محمدًا عبده ورسوله أُوصيكم عباد الله بتقوى الله وأَحثكم على طاعته ، وأَستفتحُ بالذى

هو خيرٌ (أما بعد) أَيُّها الناس اسمعوا منى أُبَيِّنْ لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ألا هل بلغتُ ؟ اللهم اشهد ! فمن كانت عنده أمانة فليؤدِّها إلى من ائتمنه عليها وإن رِبا الجاهلية موضوعٌ ، وإن أول رِبًا أبدأُ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأن أول دمٍ أبدأُ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وإن مآثرَ الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية ، والعمد قودٌ ، وشبه العمد ما قُتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية ، أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يُعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سِوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقًا ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولايدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولايأتين بفاحشة ، فإن الله قد أذِن لكم أن تعضلوهُنَّ وتهجروهُن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، فاتقوا الله فى النساءِ ، واستوصوا بهن خيرًا ، ألا هل بلغتُ اللهم اشهد ! أيها الناس إنما المؤمنون إخوة ، فلا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ألا هل بلغت اللهم اشهد ! فلا ترجعن بعد كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده : كتاب الله وسنتى ألا هل بلغت ، اللهم اشهد ؟ أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ! قالوا : نعم ! قال : فليُبَلغ الشاهد الغائب ، والسلام عليكم ورحمة الله .

ومن أحاديثه عليه الصلاة والسلام :

إن مَثل مابعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أَصاب أَرضاً ، فكان منها طائفةٌ طيبة قبلت الماءَ ، فأَنبتت الكلأَ والعُشب الكثير ، وكان منها أَجادِبُ أَمسكت الماءَ ، فنفع الله تعالى بها الناس فشرِبُوا منها وسَقَوا وزرعُوا ، وأَصاب طائفة منها أُخرى إنما هى قيعان لاتمْسِك ماءً ولاتنبت كلأً ، فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله تعالى به فعَلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأْساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أَرسلت به .

إنما مثلى ومُثلكم كمثل رجل استوقد نارا ، فلما أَضاءَت ما حوله جعل الفراش وهذه الدَّوابُ التى تقع فى النار تقع فيها ، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيَقتحِمْن فيها ، فأَنا آخذ بحجزكم عن النار ، وأَنتم تقتحمون فيها .

أَدِّ الأَمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك .

إن الناس إذا رأَوا الظالم فلم يأْخذوا على يده أَوشك أَن يَعمَّهم الله تعالى بعقاب .

مثل المؤمنين فى توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأَعضاء بالسهر والحمى .

أَبو بكر الصديق رضى الله تبارك وتعالى عنه

هو أَبو بكر عبد الله عتيق بن أَبى قَحافة عثمان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأَول الخلفاءِ الراشدين ، ويجتمع نسبه مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مُرَّة بن كعب .

ولد بعد مولد رسول الله بسنتين وبضعة أَشهر ، ونشأَ من أَكرم قريش خلقاً وأَرْجحهم حلمًا وأَشدهم عِفة ، وكان أَعلمهم بالأَنساب وأَيام العرب ومفاخرهم .

صحب رسول الله قبل النبوة ، وكان أَول من آمن به من الرجال وصدقه فى كل ما جاءَ به : ولذلك سُمى « الصديق » وهاجر معه إلى المدينة ،

وشهد معه أكثر الغزوات ، وما زال ينفق ماله وقوته فى معاضدته ، حتى انتقل صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى .

واختلفت العرب وارتدت عن الإسلام ، فجرد عليهم الجيوش حتى قمعهم ، وما مات إلا وجيوشه تهزم جيوش الفرس والروم ، وتستولى على مدائنهم وحصونهم ، وكانت وفاته عام ثلاثة عشر من الهجرة ، ومدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر وعشر ليال .

وكان فصيحا بليغًا خطيبًا مُفوهاً قوى الحجة ـ شديد التأْثير ـ يشهد بذلك خطبته يوم السقيفة ، وذلك أنه لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفت الصحابة فيمن يبايعونه خليفة له عليهم ، فأَبت الأَنصار إلا أن يكون الخليفة منهم ، وأَبى المهاجرون من قريش إلا أن يكون منهم ، واشتد النزاع حتى كادت تقع الفتنة ، فخطبهم خُطبة لم يلبث الجمع بعدها أن بايعوه (خليفة) ، وهى :

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أَيها الناس نحن المهاجرون ، وأَول الناس إسلاماً ، وأَكرمهم أَحساباً ، وأَوسطهم دارًا ، وأَحسنهم وُجُوهاً ، وأَكثر الناس ولادة فى العرب ، وأَمسهم رحمًا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أَسلمنا قبلكم ، وقُدِّمنا فى القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : (والسابقون الأَولون من المهاجرين والأَنصار والذين اتبعوهم بإِحسان) فنحن المهاجرون وأَنتم الأَنصار : إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الفىء ، وأَنصارنا على العدو ، آويتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيرًا ، فنحن الأُمراءُ وأَنتم الوزراءُ لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش ، فلا تَنفِسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله .

وخطب أَيضاً حين بايع للناس البيعة العامة :

حمد الله وأَثنى عليه ، ثم قال : أَيها الناس إنى قد وُلِّيت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن رأَيتمونى على حق فأَعينونى ، وإن رأَيتمونى على باطل فَسدِّدونى ،

أَطيعونى ما أَطعت الله فيكم فإِذا عَصيْتهُ فلا طاعة لى عليكم – أَلا إِن أَقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأَضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه .

أَقول قولى هذا وأَستغفر الله لى ولكم .

وخطب أَيضاً الناس ، فقال – بعد أَن حمد الله وأَثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم :

أُوصيكم بتقوى الله ، والاعتصام بأَمر الله الذى شرع لكم ، وهداكم به ، فإِن جوامع هدى الإِسلام بعد كلمة الإِخلاص السمع والطاعة لمن وَلاه الله أَمركم فإِن من يطع الله وأُولى الأَمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقد أَفلح وأَدى الذى عليه من الحق ، وإِياكم واتباع الهوى ، فقد أَفلح من حُفظ من الهوى والطمع والغضب ، وإِياكم والفخر ! وما فخر من خُلق من ترَاب ثم إِلى التراب يعود ، ثم يأْكله الدودُ ، ثم هو اليوم حيٌّ وغدا ميت ؟ ! فاعملوا يوماً بيوم ، وساعة بساعة وتوَاقوْا دعاءَ المظلوم ، وعُدوا أَنفسكم فى الموتى واصبروا ، فإِن العمل كله بالصبر ، واحذروا ، والحذر ينفعُ ، واعملوا ، والعمل يُقبل ، واحذروا ما حذركم الله من عذابه وسارعوا فيما وعدكم الله من رحمته وافْهموا وتفهموا ، واتقوا ، وتَوقَّوا ، فإِن الله قد بين لكم ما أَهلك به من كان قبلكم ، وما نجى به من نجى قبلكم قد بين لكم فى كتابه حلاله وحرامه ، وما يجب من الأَعمال وما يكره فإِنى لا آلوكم ونفسى ، والله المستعان ولاحول ولا قوة إِلا بالله ، واعلموا أَنكم ما أَخلصتم لله من أَعمالكم ، فربكم أَطعتم وحظكم حفظتم واغتبطتم ، وما تطوعتم به لدينكم فاجعلوه نوافل بين أَيديكم تستوفوا سلفكم وتعطوا جرايتكم حين فقركم وحاجتكم إِليها ، ثم تفكروا عباد الله فى إِخوانكم وصحابتكم الذين مضوا قد وردوا على ما قدموا فأَقاموا عليه وحلوا فى الشقاءِ أَو السعادة فيما بعد الموت إِن الله ليس له شريك . وليس بينه وبين أَحد من خلقه نسب يعطيه به

خيرًا ولا يصرف عنه سوءًا إلا بطاعته واتباع أمره ، فإنه لاخير فى خيرٍ بعده النار ، ولا شر فى شرٍّ بعده الجنة .

من حكم سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه :

(١) صنائع المعروف تقى مصارع السُّوءِ .

(٢) ليست مع العزاءِ مصيبة ، ولا مع الجزع فائدة .

(٣) ثلاث من كن فيه كُنَّ عليه : البغْى ، والنكث ، والمكْر .

(٤) كثير القول يُنسى بعضه بعضاً ، وإنما لك ما وعِى عنك .

(٥) أصلح نفسك يصلح لك الناس .

سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه

هو أمير المؤمنين أبو حفص عمر بن الخطاب القرشى – ثانى خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأول من تسمَّى من الخلفاءِ (بأمير المؤمنين) وأول من أرخ بالتاريخ الهجرى ، ومصَّر الأمصار ودَون الدواوين .

ولد رضى الله عنه بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم بثلاث عشرة سنة .

وحضر مع رسول الله الغزوات كلها ثم لما قبض أعان أبو بكر على تولية الخلافة ، ولمَّا أحس أبو بكر بالموت عهد بها إليه ، فقام بأعبائها خير قيام ، وأتم جميع ما شرع فيه أبو بكر : من فتح ممالك كِسرى وقيصر .

وقتله غيلة الغلام الشقى أبو لؤلؤة عبد المغيرة بن شعبة المجوسى ،لأنه لم ينصفه على زعمه فى تخفيض مايدفعه لسيدة من أجْرة عمله . وكان قتله سنة ٢٣ هـ .

ومدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام ، وكان رضى الله عنه من أبين الناس منطِقًا ، وأبلغهم عبارة ، وأكثرهم صواباً وحكمة ، وأرواهم للشعر ، وأنقدهم له .

ومن خُطبه خطبته إذ وَلِى الخلافة

صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أيها الناس ، إنى داع فأمِّنوا :

اللهم إنى غليظٌ فلينى لأَهل طاعتك بموافقة الحق ، ابتغاءَ وجهك والدَّار الآخرة ، وارزقنى الغلظة والشدة على أَعدائك وأَهل الدعارة والنِّفاق من غير ظلم مِنِى لهم ولا اعتداءَ عليهم ، اللهم إنى شحيحٌ فسخِّنِى فى نوائب المعروف قصدًا من غير سرف ولا تبذير ، ولا رياءَ ولا سُمعة ، واجعلنى أَبتغى بذلك وجهكَ والدار الآخرة اللهم ارْزقنى خفض الجناح ، ولين الجانب للمؤمنين ، اللهم إنى كثير الغفلة والنِّسيان فأَلهمنى ذكركَ على كل حال ، وذكر الموت فى كلِّ حين ، اللهمَّ إنى ضعيف عند العمل بطاعتك فارزقنى النشاط فيها والقوة عليها بالنِّيةِ الحسنةِ التى لاتكون إلا بعزتك وتوفيقك، اللهم ثبتنى باليقين ، والبر والتقوى ، وذكر المقام بين يديك ، والحياءَ منك ، وارزقنى الخشوع فيما يرضيك عنى ، والمحاسبة لنفسى ، وإصلاح الساعات ، والحذر من الشبهات ، اللهم ارزقنى التَّفكر والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك ، والفهم له والمعروف بمعانيه ، والنظر فى عجائبه ، والعمل بذلك ما بقيت ، إنك على كل شىءٍ قدير .

ومن خطبه فى ذمِّ الدنيا

إنما الدنيا أَمل مخترم ، وأَجل منقض ، وبلاغٌ إلى دار غيرها ، وسير إلى الموت ليس فيه تعريج ، فرحم الله امرءًا فكر فى أَمره ، ونصحَ لنفسه ، وراقب ربه ، واستقال ذنبه ، بئس الجارُ الغنى يَأْخذك بما لا يعطيك من نفسه ، فإن أَبيت لم يعذرك ، وإياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم ، ومؤدِّية إلى السقم ، وعليكم بالقصدِ فى قوتكم ، فهو أَبعد من السِّرف ، وأَصح للبدن ، وأَقوى على العبادة ، وإن العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دِينه .

ومن حكم سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه

(١) من كتم سره كان الخيارُ فى يده . (٢) أَشْقَى الولاةِ من شقيت به رعِيَّته

(٣) لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً .

(٤) من لا يعرف الشر كان أَجدر أَن يقع فيه .

(٥) أعقل الناس أعذرهم للناس . (٦) لا تؤخر عمل يومك إلى غدك.
(٧) أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقهم . (٨) من يئس من شيء استغنى عنه .

ومن خطبته فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى

« أما بعد » فإن القضاء فريضة محكمة ، وسُنة متبعةٌ ، فافهم إذا أدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس[١] بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمعَ شَريف فى حيْفك[٢] ، ولا ييئس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادَّعى ، واليمين على من أنكر ، والصلحُ جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلَّ حراماً أو حرَّم حلالا ، لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ، الفهم ، الفهم فيما تجلج[٣] فى صدرك ، مما ليس فى كتاب ولا سنَّة[٤] ، ثم اعرف الأشياء والأمثال ، فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله ، وأشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقًّا غائبًا أو بينة أمدًا ينتهى إليه ، فإذا أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا استحقت عليه القضية ، فإنه أنفى للشكِّ وأجلى للعمى ، المسلمون عدُول بعضهم على بعضٍ إلا مجلودًا فى حَد أو مجرباً عليه شهادة زُور أو ظنينا فى ولاءٍ أو نسب[٥] ، فإن الله تولى منكم السرائر ، ودرأ بالبينات والأيمان[٦] ، وإياك والقلق والضجر[٧] ، والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الأجر ، ويحسن به الذخر ، فمن صَحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن

---

(١) آس بين الناس : سو بينهم . (٢) الحيف : الميل أى ميلك معه لشرفه . (٣) تلجلج : تردد حتى كان موقع حيرة .
(٤) الكتاب . القرآن الكريم . والسنة ما أثر عن النبى من قول أو فعل أو تقرير . (٥) ظنين : متهم أى ينتسب الى غير أبيه أو يدعى الى غير مواليه ، فليس أهلا للشهادة .
(٦) درأ : دفع يريد منه الحدود . (٧) القلق والضجر ضيق الصدر وقلة الصبر .

تخلق(١) للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله(٢)، فما ظنك بثواب غير الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته، والسلام(٣).

عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه

هو أمير المؤمنين عثمان بن عفان القرشى الأموى. ثالث الخلفاء الراشدين، وموحد نسخ القرآن المبين. ولد فى السنة السادسة من مولد النبى صلى الله عليه وسلم وآمن فى السابقين الأولين وبذل ماله الكثير فى تأييد الإسلام ومعونة المجاهدين وشهد مغازى رسول الله كلها إلا بدرا – وقد كان عمر قبل وفاته عهد بالخلافة إلى ستة هو منهم – تنتخب الأمة أحدهم خليفة، فانتخبوا بالشورى عثمان، فأكمل مغازى عمر ثم ثار عليه بعض الأعراب بحجة أنه يؤثر أقرباءه بولاية الأقاليم؛ فحاصروه فى داره بالمدينة وقتلوه وهو يتلو القرآن الكريم سنة ٣٥ هـ؛ فكان قتله سبب التفرق بين المسلمين؛ وكانت مدة خلافته اثنتا عشرة سنة إلا اثنى عشرة يوماً.

وكان رحمه الله من بلغاء الخطباء، وأوجزهم لفظاً؛ وأجزلهم معنى؛ وأسهلهم عبارة؛ ومن خطبه بعد أن بويع، وهى بعد الحمد والثناء:

أما بعد – فإنى قد حملت وقد قبلت، ألا وإنى متبع ولست بمبتدع، ألا وإن لكم على بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثلاثاً: اتباع من كان قبلى فيما اجتمعتم عليه وسننتم، وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأ، والكف إلا فيما استوجبتم – ألا وإن الدنيا، خضرة قد شهيت إلى الناس ومال إليها كثير منهم، فلا تركنوا إلى الدنيا، ولا تعفوا بها، فإنها لست بثقة – واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها.

---

(١) أى ظهر للناس فى خلقه نيته.
(٢) شأنه ضد زانه والمراد قبحه وأظهر نفاقه.
(٣) يريد ماذا يكون ثواب الناس بجانب رزق الله فى الدنيا ورحمته فى الآخرة.

ومن خطبه أيضاً وهى آخر خطبة خطبها :

أما بعد – فإن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يعطكموها لتركنوا إليها – الدنيا تفنى والآخرة تبقى ، فلا تبطرنكم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية ، فآثروا ما يبقى على مايفنى . فإن الدنيا منقطعة ، وإن المصير إلى الله ، اتقوا الله عز وجل فإن تقواه جُنة من بأسه ، ووسيلة عنده واحذروا من الله الغير ، والزموا جماعتكم ، ولا تصيروا أحزاباً : (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عليكم إِذْ كُنتُمْ أعداءً فألف بين قلوبكم فأَصْبَحْتُمْ بنعمته إخواناً) .

من حكم سيدنا عثمان رضى الله عنه

(١) ما يزَع الله بالسلطان أكثر ممَّا يزع بالقرآن . (٢) أنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوَّال . (٣) يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقتَ سُرورِك .

الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه

هو أمير المؤمنين أبو الحسين على بن أبى طالب ، وابن عم رسول الله وزَوْج ابنته ، ورابع الخلفاء الراشدين – ولِدَ كرم الله وجهه بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم باثنتين وثلاثين سنة ، وهو أول من آبه الصبيان ، وكان شجاعاً لايشق له غبار ، شهد الغزوات كلها مع النبى إلا غزوة تبوك ، وأبلى فى نصرة رسول الله ما لم يبله أحد ، ولما قتل عثمان بايعه الناس بالحجاز ، وامتنع عن بيعته مُعاوية وأهل الشام شيعة أُميَّة ، غضباً منهم لمقتل عثمان وقلة عناية (الإمام على) بالبحث عن معرفة القتلة على حسب اعتقادهم ، فحدث من جراءِ ذلك الفتنة العظمى بين المسلمين وافتراقهم إلى طائفتين فتحاربوا مدة من غير أن يستتب الأمر لعلى أو معاوية حتى قتل أحد الخوارج الإمام علياً غِيلة بمسجد الكوفة سنة ٤٠ هـ .

وكانت مُدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر .

وكان كرم الله وجهه أفصح الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم علماً وزهداً وشِدة فى الحق ، وهو إمام الخطباء من العرب على الإطلاق بعد

رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطبه كثيرة ، منها خطبته ـ كرم الله وجهه ـ بعد التَّحكيم ، وهى :

الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح ، والحدث الجلل ـ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ليس معه إله غيره وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم «أما بعد» فإن معصية الناصح الشفيق ، العالم المجرِّب تورث الحيرة وتعقب الندامة ، وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة(١) أمرى ونحلت لكم مخزون رأيى ، (لو كان يُطاع لقصير أمْرٌ)(٢) فأبيتم على إباءَ المخالفين الجُفاة المنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضن الزند بقدْحه ، فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن :

أمرتهم أمرى بمُنْعرجِ اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضُحى الغد

ومن خطبة له حين خاطبه العباس وأبو سفيان فى أن يبايعا له بالخلافة : أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة ، وعرجوا عن طريق المنافرة وضعوا عن تيجان المفاخرة ، أفلح من نهض بجناح ، أو استسلم فأراح ، هذا ماءٌ آجن ، ولقمة يغصُّ بها آكلها ، ومجنى الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه فإن أقلْ يقولوا حرص على الملك ، وإن أسكت يقولوا جرع من الموت هيهات بعد اللتيا والتى والله لابن أبى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى أمه ، بل اندمجتُ على مكنون علم ، لو بحث به لاضطربتم اضطراب الأرْشيةِ فى الطوىِّ البعيدة .

من حكم سيدنا علىٍّ كرم الله وجهه

(١) روى الشيخ خير من مشهدِ الغلام . (٢) الناس أعداءَ ما جهلوا .

---

(١) أى حكومة الحكمين عمرو بن العاص ، وأبى موسى الأشعرى .

(٢) هو مولى جذيمة الأبرش وكان حاذقا ، وكان قد أشار على سيده جذيمة أن لا يأمن الزباء ملكة الجزيرة فخالفه وقصدها اجابة لدعوتها فى قبولها زواجه فقتلته فقال قصير (لو كان يطاع لقصير أمر) فذهبت مثلا .

(٣) الناس من خوف الذل فى الذل . (٤) الصبر مطية لاتكبو وسيف لاينبو . (٥) إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه . (٦) قيمة كل امرئ مايحسن . (٧) المرءُ مخبوءٌ تحت لسانه . (٨) استغن عمن شئت تكون نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أَسيره وأَحسن إلى من شئت تكن أَميره. (٩) خير أَموالك ما كفاك وخير إخوانك من واساك . (١٠) الناس بزمانهم أَشبه منهم بآبائهم . (١١) ما هلك امرؤ عرف قدره . (١٢) من عذب لسانه كثر إخوانه . (١٣) بشر مال البخيل بحادث أَو وارث . (١٤) بالبر يستعبد الحر . (١٥) إعادة الاعتذار تذكير للذنب . (١٦) إذا تم العقل نقص الكلام . (١٧) من أَكثر فكره فى العواقب لم يشجع . (١٨) الشرف بالعقل والأَدب لا بالأَصل والنسب . (١٩) أَكثر مصارع العقول تحت بروق الأَطماع . (٢٠) قلب الأَحمق وراءَ لسانه ، ولسان العاقل وراءَ قلبه . (٢١) يعيش البخيل فى الدنيا عيش الفقراءِ ، ويحاسب فى الآخرة حساب الأَغنياءِ . (٢٢) الولايات مضامير الرجال . (٢٣) الناس أَبناءَ الدنيا ، ولا يُلامْ الرجل على حب أُمه . (٢٤) من علم أَن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . (٢٥) الحرمان خير من الامتنان .

سحبان وائل

هو سحبان بن زفر بن إياد الوائلى ، الخطيب المصقع المضروب به المثل فى البلاغة والبيان ، نشأَ فى الجاهلية بين قبيلة وائل ، ولما ظهر الإسلام أَسلم وتقلبت به الأَحوال حتى التحق بمعاوية فكان يُعِدُّه للملمَّات ، ويتوكأُ عليه عند المفاخرة .

قدم على معاوية وفدٌ فطلب سحبان ليتكلم ، فقال : أَحضروا لى عصاً ، قالوا : وما تصنع بها وأَنت بحضرة أَمير المؤمنين ؟ قال ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه ، فضحك معاوية وأَمر له بإحضارها ، ثم خطب

من صلاة الظهر إلى أن حانت صلاة العصر ، ما تنحنح ولا سعل ولا توقف ولا تلكأ ولا ابتدأ فى معنى وخرج منه ، وقد بقى منه شىء ، فما زالت تلك حاله حتى دهش منه الحاضرون ، فقال معاوية : أنت أخطب العرب . قال سحبان : والعجم والجن والإنس ، وكان سحبان إذا خطب يسيل عرقاً . ومات فى خلافة معاوية سنة ٥٤ هـ ومما يؤثر من خطبه قوله :

إن الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار ، أيها النا س : فخذوا من دار ممركم لدار مقركم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم ، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم ، قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها حييتم ، ولغيرها خلقتم .

إن الرجل إذا هلك ، قال الناس : ما ترك ؟ وقال الملائكة : ما قدّم ؟ قدّموا بعضاً يكن لكم ، ولا تخلفوا كلا يكن عليكم .

زياد بن أبيه

هو أحد دُهاة العرب وساستها وخطبائها وقادتها .

منشؤه : كان للحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب أُمةٌ تسمى سُمية . قد قرنها بعبد له رومى يدعى عبيدًا فولدت له سُمية زيادًا هذا (فى السنة الأُولى من الهجرة) فنشأ غلاماً فصيحا شجاعاً ، فما افتتحت العرب الممالك والأَمصار حتى عرف منه ذلك ، فاستكتبه أبو موسى الأَشعرى والى البصرة من قبل عمر ، فأَظهر من المهارة ما جمع القلوب على حبه .

ولما ولى أمير المؤمنين (على) الخلافة اضطربت عليه فارس فسار إليها زياد بجمع كثير ، وتمكن بخداعه من إيقاع الشقاق بين روساء المشاغبين . وما زال يضرب بعضهم ببعض حتى سكنت ثائرتهم ، وبقى يتولى لعلى الأَعمال حتى قتل (على) فخافه معاوية ، فأَرسل إليه المغيرة بن شعبة يستقدمه ، فقدم عليه فادعاه أخاً له واستلحقه بنسب أَبيه أبى سفيان ، وصار يسمى زياد بن أَبى سفيان ، بدل زياد بن عبيد ، أَو ابن سمية ، أَو ابن أَبيه .

وولاه معاوية العراقين ، وهو أول من جمع له بينهما ؛ فسار في الناس سيرة لم
يها الشعث ، وأقام المعوج ، وكبح الفتنة ، واشتط في العقوبة ، وأخذ بالظنة ،
وعاقب على الشبهة ، حتى شمل خوفه جميع الناس فأمن بعضهم بعضاً ؛ وكان
الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد ، حتى يأتى صاحبه فيأخذه ،
بل كان لايغلق أحد بابه ، وكان زياد يقول : (لو ضاع حبل بيني وبين خراسان
لعرفت آخذه) وكان مكتوباً فى مجلسه عنوان سياسته وهى (الشدة فى غير عنف
واللين فى غير ضعف ، المحسن يجازى بإحسانه ، والمسيء يعاقب بإساءته) .

وتوفى بالكوفة فى رمضان سنة ٥٣ هـ .

ومن خطبه البليغة خطبته البتراء[١] حين قدم إلى البصرة والياً لمعاوية وهى :

أما بعد : فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغى الموفى بأهله على النار
ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم ، من الأمور العظام التى ينبت فيها
الصغير ، ولايتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد
الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، فى الزمن السرمدى
الذى لايزول ، أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ،
واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى
لم تسبقوا إليه : من تركم الضعيف يقهر ، والضعيفة المسلوبة فى النهار
لاتنصر ، والعدد غير قليل ، والجمع غير مفترق ، ألم يكن منكم نهاة يمنعون
الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ! قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون
بغير العذر ، وتغضون على النكر ، كل امرىء منكم يرد عن سفيهه ، صنع من
لا يخاف عقابا ولا يرجو معاداً ، فلم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم ، حتى
انتهكوا حرم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً فى مكانس الريب .

---

(١) البتراء التى لم يحمد الله فيها .

حرام على الطعام والشراب حتى أضع هذه المواخير بالأرض هدماً وإحراقاً ، إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله « لينٌ فى غير ضعف ، وشدةٌ فى غير عنف » وإنى لأقسم بالله ـ لآخُذن الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمطيع بالعاصى ، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول : « إنج سعد فقد هلك سعيد » أو تستقيم لى قناتكم ، إن كِذبة الأمير بلقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم على بكذبة ، فقد حلت لكم معصيتى ، وقد كان بينى وبين قوم إِجَنٌ فجعلت ذلك دُبُرَ أُذنى وتحت قدمى ، إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السُّل من بغضى لم أكشف له قناعاً ؛ ولم أهتك له ستراً . حتى يبدى لى صفحته . فإذا فعل ذلك لم أُناظره فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم فرب مبتئس بقدو منا سيسر ؛ ومسرور بقدومنا سيبتئس .

أيها الناس : إنا قد أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا لنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا .

الحجاج الثقفى

هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفى ، أحد جبابرة العرب وساستها ، وموطد ملك بنى أمية ، وأحد البلغاء والخطباء المصاقع ؛ ولد سنة ٤١ هو شب فى خلافة معاوية .

وخدم الحجاج بولاية عبد الملك بن مروان ؛ وابنه الوليد ـ حتى كان ملكه ما بين الشام والصين ـ ومات سنة ٩٥ هـ فى مدينة واسط بالعراق .

وكان الحجاج آية فى البلاغة وفصاحة اللسان وقوة الحجة وشجاعاً داهية عنيفاً ؛ قال الأصمعى : أربعة لم يلحنوا فى جد ولا هزل : الشعبى ، وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف ، وابن القرية ؛ وكان الحجاج أفصحهم ، ومن مآثره اهتمامه بوضع النقط والشكل للمصحف وغيره ، ونسخه عدة مصاحف من مصاحف

عثمان وإرسالها إلى بقية الأَمصار ، ومن خطبه المشهورة خطبته لما قدم أميرًا على العراق فإنه دخل المسجد ـ معتمًا بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه ، متقلدًا سيفاً ؟ متنكباً قوساً ـ يوم المنبر ، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر فمكث ساعة لايتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض : قبَّح الله بنى أُمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق .

فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ، ونهض فقال :

أنا ابن جلا وطلاعُ الثنايا متى أَضع العمامة تعرفونى

يا أهل الكوفة ، إنى لأَرى رُءُوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها ، وكأَنى أنظر إلى الدماءِ ترَقرَقُ بين العمائم واللحى ، ثم قال :

هذا أَوان الشدِّ فاشتدِّى زِيم قد لفها الليلُ بِسوَّاق حُطم
ليس براعى إبلٍ ولا غنم ولا بجزَّار على ظهر وضمْ

ثم قال :

قد لفها الليل بعصلبى أروع خراج من الدّوى
مُهاجر ليس بأَعرابى

وقال :

قد شمرت عن ساقها فشدُّوا وجدت الحرب بكم فجدُّوا
والقوس فيها وترٌ عُرُدُّ مثل ذراع البكر أَو أَشد
لا بُد مما ليس منه بدٌّ

إنى والله ياأَهل العراق مايقعقع لى بالشنآن ، ولايغمز جانبى كتغماز التين ، ولقد فررت عن ذكاءِ ، وفتشت عن تجربة ، وإن أَمير المومنين (أَطال الله بقاءه) نثر كنانته بين يديه ، فعجم عيدانها ، فوجدنى أمرها عودًا ، وأَصلبها مكسرًا فرماكم بى لأَنكم طالما أَوضعتم فى الفتنة ، واضجعتم فى مراقد الضلال ، لأَحزمنكم حزم السلمة[1] ، ولأَضربنكم ضَرْب غرائب[2] الإبل ، فإنكم لكأَهل قرية

(١) نوع من الشجر وذلك لأن الأشجار تصعب أغصانها ثم تختبط بالعصى لسقوط الورق وهشيم العيدان .
(٢) وهى تضرب عند الهرب وعند الخلاط وعند الحوض أشد الضرب

كانت آمنة مُطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كلِّ مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجُوع والخوف بما كانوا يصنعون ، وإنى والله ما أقول إلا وفيت ولا أهم إلا أمْضيت ، ولا أخلق (١) إلا فريَت(٢) .

وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعْطياتكم ، وأن أوجهكم لمحاربة عدُوكم مع المهلب بن أبى صفرة (٣) ، وإنى أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عُنقه .

طارق بن زياد

هو أحد قوَّادُ جيوش الوليد بن عبد الملك ، كان خطيباً مِصقعًا ، وبَطلامقداماً بعيد الهمة ، يعشق المجد ، وتصبو نفسه إلى الفتوحات ، خرج من المغرب سنة ٩٢هـ باثنى عشر ألف جندى من مواطنيه ، يَقلهم أُسطول قوى ، وقد جُهز لذلك وعبرَ البحر إلى أسبانيا لفتحها ، فلما علم (رُودريك) ملكها بقدوم المسلمين إلى بلاده قابلهم بجيش عظيم ، هالت طارقاً كثرة عَدده وكمال عُدده ، فبادر طارق وأحرق أُسطوله ليقطع أملَ أَصحابه فى الرُّجوع ، وقال لهم : « أيها الناس الخ » فاندفعوا على الأسبان اندفاع اليائِس ، وهزموهم شر هزيمة ، ثم والى طارق فتوحاتة فى أسبانيا حتى قبض على (رودريك) آخر ملوك البريغوط بها ، وقتله سنة ٩٤ هـ ، وبعد ذلك بسنة استقدمه الوليد إلى دمشق إلى أن مات سنة ١٠١ هـ ، وهاهى خطبته البليغة :

أيها الناس ، أين المفر ، البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام ، فى مأْدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه ، وأسلحته وأقواته مَوفورة ، وأنتم لاوزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستلخصونه من أيدى عدوكم ، وإن امتدت بكم

---

(١) أقدر . (٢) قطعت . (٣) هو أبو سعيد المهلب بن أبى صفرة الأزدى البصرى قائد قواد الأمويين ومبيد الخوارج ومبتدع الركب الجديد .

الأيام على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم أمرًا ذهبت ريحكم ، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإنى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجو ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس أربأ فيها بنفسى ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه أوفر من حظى ، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الخيرات العميدة ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المومنين من الأبطال عُرْباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارًا وأختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان واسماحكم بمجَالدة الأبطال والفرسان ، ليكون مَغنمها خالصاً من دونه ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى ولى إنجادكم على ما يكون لكم ذكرًا فى الدارين ؛ واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وإنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم «لذريق» فقاتله إن شاء الله تعالى فاحملوا معى ، فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولى ، فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخذلون .

الكتابة : خطية ، وإنشائية

الكتابة الخطية : كان الخط فى مبدإ ظهور الإسلام هو الخط الأنبارى الحيرى المسمى بعد انتقاله إلى الحجاز بالحجازى ، وهو أصل النسخ ، وكان يكتب به النزر اليسير من العرب عامة وبضعة عشر من قريش خاصة ، فلما انتصر النبى صلى الله عليه وسلم على قريش فى يوم بدر وأسر منهم جماعة كان فيهم بعض الكتاب ، فقبل الفداء من أمييهم ، وفادى الكاتب

منهم بتعليم عشرة من صبيان المدينة ، فانتشرت الكتابة بين المسلمين . وحض صلى الله عليه وسلم على تعلمها ؛ ومن أشهر كُتَّاب الصحابة : (زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بنِ هشام) . ولما فتح المسلمون الممالك ، ونزلت جَمهرة الكتاب منهم الكوفة عنوا بتجويد الخط العربى وهندسة أَشكاله حتى صار خط أَهل الكوفة ممتازًا بشكله عن الخط الحجازى ، واستحق أَن يسمى باسم خاص وهو (الكوفى) وبه كانت تكتب المصاحف وحِلى القصور والمساجد وسك النقود.

وكان الصحابة وتابعوهم من بنى أُمية يكتبون بلا إعجام ولا شكل إلا قليلا اعتمادًا منهم على معرفة المكتوب إليهم باللغة ، واكتفائهم بالرمز القليل فى قراءة اللفظ ، فلما فسد اللسان باختلاط العرب بالعجم ، وظهر اللحن والتحريف فى الأَلسنة ، أَشفق المسلمون على تحريف كَلِم الكتاب الكريم فوضع أَبو الأَسود الدؤلى علامات فى المصاحف «بِصبغ مخالف» فجعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف ، والكسرة نقطة أَسفله ، والضمة نقطة من الجهة اليسرى ، وجَعل نقطتين ؛ وكان ذلك فى خلافة معاوية رضى الله عنه .

ووضع نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر بأَمر الحجاج نقط الإعجام بنفس المداد الذى يُكتب به الكلام ، حتى لايختلط بنقط أُستاذهما أَبى الأَسود ، وكان ذلك فى خلافة عبد الملك بن مروان ، ثم شاع فى الناس بعد .

الكتابة الإنشائية قسمان : كتابة رسائل ودواوين ، وكتابة تدوين وتصنيف .

كتابة الرسائل والدواوين

كان زعماءُ العرب ونصحاؤهم كلهم كتاباً ينشئون بملكتهم ، ولو لم يخطوا بيمينهم ؛ فكان النبي وأَصحابه ، وخلفاؤه يُملون كتبهم على كتَّابهم بعبارتهم ، وبعضهم يكتبها بيده ، ولما اتسعت موارد الخلافة أَصبحت فى حاجة إلى إنشاء الدواوين لضبط ذلك ، فكان (عمر) أَول من دوَّن الدواوين ، وكان كُتَّاب

الرسائل للخلفاء وعمالهم إما عَرباً أو موالِيَ يجيدون العربية ، أما كُتاب الخراج ونحوه فكانوا فى كل إقليم من أهله يكتبون بلغتهم ، ولما نبغَ من العرب من يُحسن عملهم حُوِّلت هذه الدواوين إلى العربية زمنَ عبد الملك بن مروان ، والوليد ابنه ، وجرى خلفاءُ بنى أُمية فى كتابة الرسائل على ما كان عليه الأَمر زمن الخلفاء الراشدين .

ثم لما اتسعت رقعة المملكة ، وَقرَّت أُمور الدولة ، وازدادت الأَعمال ، وشُغل الخلفاءُ عن أَن يَلوا الكتابة بأَنفسهم أَو بخاصة عشيرتهم عَهدوا بها إلى كبار كتابهم حتى انتشرت وصارت صناعة مُحكمة ، وكان كثيرٌ منهم يعرف اللغة الرومانية أَو الفارسية أَو اليونانية أَو السريانية ، وهى لغات أُمم ذات حضارة وعُلوم ونظام ورسوم .

ومن هؤلاءِ : سالم مولى هشام بن عبد الملك ، أَحد الواضعين لنظام الرسائل ؛ وأُستاذ (عبد الحميد الكاتب) الذى آلت إليه زعامة الكتابة آخر الدولة الأُموية .

مميزات الكتابة الإنشائية

وتمتاز الكتابة فى هذا العصر بالميزات الآتية :

(١) الاقتصارُ فى أَغراضها على القدر الضرورى لدولة عربية ؛ والاقتصار فى معناها على الإلمام بالحقائق : وتوضيحها بلا مبالغة ولا تهويل ؛ واستعمال الأَلفاظ الفحلة والعبارات الجزلة والأَساليب البليغة ؛ إذا كان الكاتب والمكتوب إليه عرباً فصحاءَ .

(٢) مُراعاة الإيجاز غالباً إلا حيثُ يُستدعى الحالُ الإسهاب ، وبقى الأَمر على ذلك ؛ حتى جاءَ عبد الحميد الكاتب آخرَ الدولة الأُموية ؛ فأَسهب فى الرسائل وأَطال التحميدات فى أَولها ، وسلك طريقه من أَتى بعده .

الكُتَّاب

كتَّاب هذا العصر كثيرون ، فقد كان الخلفاءُ والأُمراءُ والقواد كلهم

كتاباً بُلغاء ولما صارت الكتابة صناعة ، تداولها كثير من الأعاجم وغيرهم ، واشتهر من بين هؤلاء :

عبد الحميد بن يحيى الكاتب

وهو عبد الحميد بن سعيد العامرىّ نسباً ، الشامىّ داراً ، شيخ الكتاب الأوائل ، وأول من أطال الرسائل ، ونشأ بالأنبار بليغا حَصيفًا .

وكان عبد الحميد فى أول أمره معلم صِبيان حتى فطن له مروان بن محمد أيام توليه أَرْمينية ، فكتب له مدة ولايته ، حتى إذا بلغه مبايعة أهل الشام له بالخلافة فسجد مروان لله شكرا وسجد أصحابه إلا عبد الحميد ،فقال له مروان : لم لا تسجد ؟ فقال : ولِم أسجد ؟ أَعَلى أن كنت معنا فطرت عنَّا ؟ قال : إذًا تطير معى ، قال : الآن طاب لى السُّجود ، وسجد ، فاتخذه مروان كاتب دولته .

ولما دهمت مروان جيوش خراسان أنصارُ الدعوة العباسية ، وتوالت عليه الهزائم ، كان عبد الحميد يلازمه فى كل هذه الشدة ، فقال له مروان : قد احتجت أن تصير مع عدوِّى وتُظهر الغدر بى ، فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتهم إلى كتابك يحوجُهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفعنى فى حياتى ، وإلا لم تَعجز عن حفظ حرَمى بعد وفاتى ، فقال له : إن الذى أشرت به علىّ أنفع الأمرين لك ، وأقبحهما بى ، وما عندى إلا الصبر ، حتى يفتح الله عليك ، أو أقتل معك وأنشد :

أسِر وفاءً ثمَّ أُظهر غدرَةَ   فمن لى بعُذْر يوسع الناس ظاهره؟

وبقِى حتى قتلَ مروان سنة ١٣٢ هـ ، وأُخِذ عبد الحميد إلى السفاح فقتله سنة ١٣٢ هـ .

منزلته فى الكتابة : اتفقت كلمة البلغاء وأهل الأدب على أن عبد الحميد هو الأُستاذ الأول لأهل صناعة كتابة الرسائل ، وذلك أنه أول من مهد سبلها وميز

فصولها ، وأطالها فى بعض الشئون وقصرها فى بعضها الآخر ، وأطال التحميدات فى صدرها ، وجعل لها صوراً خاصة ببدئها وختمها على حسب الأغراض التى تكتب فيها ، وكان لبلاغة عبد الحميد عمل يعجز عنه السحر فى خلب الأفئدة وجذبِ النفوس ، فيقال إنه لما ظهر أبو مسلم الخراسانى بدعوة بنى العباس كتب إليه عن مروان كتاباً يستجلبه به وضمنه ما لو قرئ لأدَّى إلى وقوع الخلاف والفشل وقال لمروان : كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره ، فإن يك ذلك وإلا فالهلاك ، وكان الكتاب لكبر حجمه يُحمل على جمل ، فلما وصل الكتاب إلى داهية خراسان أبى مُسلم أمر بإحراقه قبل أن يقرأه ، وكتب على جذاذة منه إلى مروان :

محا السيف أسطار البلاغةِ وانتحى عليك ليوث الغاب من كل جانب

التَّدْوين والتصْنيف

انقضى زمن الخلفاء الراشدين ، ولم يدون فيه كتاب إلا ما كان من كتابة المصحف ، وكان مرجع الناس فى أمر دينهم ودنياهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله فإذا اشتبه عليهم أمر من أمور الدين رجعوا إلى الخلفاءِ ، وفقهاءِ الصحابة .

ثم لما انتشر الإسلام فى زمن بنى أُمية ، واختلطت العرب بالعجم ، ففسدت فيهم ملكة اللسان العربى ، وفشا اللحن ، وأشفقوا على القرآن من التحريف ، وعلى اللغة من الفساد دونوا النحو ، وكان أول من كتب فيه « أبو الأسود الدُّؤلى » وقد تلقى مبادئه عن « الإمام على » وأخذ عنه فتيان البصرة ، وخصوصاً الموالى إذ كانوا أحوج الناس إلى النحو ، واشتغل به أهل الكوفة بعد أن فشا بالبصرة ، ولم ينقض هذا العصر حتى اشتغل به طبقتان طبقه من البصريين وطبقة من الكوفيين ثم لما حدثت الفتن وتعددت المذاهب والنِّحل وكثرت الفتاوى والرجوعُ فيها إلى الرؤساءِ ، ومات أكثر الصحابة ، خافوا أن يعتمد الناس على رؤسائهم ، ويتركوا سنة رسول الله ، فأذن أمير المؤمنين « عمر بن عبد العزيز » لأبى

بكر محمد بن عمرو بن حزم فى تدوين الحديث ، وانقضى هذا العصر ، ولم يدون فيه من علوم اللغة والدين غير النحو وبعض الحديث وبعض التفسير ، أما العلوم الأُخرى فيروى أَن خالد بن يزيد بن معاوية حبب إليه مطالعة كتاب الأَوائل من اليونان فترجمت له ، ونبغ فيها ووضع كتباً فى الطب والكيمياءِ ، وأَن معاوية استقدم عبيد بن شرية من صنعاءَ فكتب له كتاب « الملوك وأَخبار الماضين » وأَن وهب بن منبه الزهرى ، وموسى بن عقبة ، كتبا فى ذلك أَيضاً كتباً ، وأَن زياد بن أَبيه وضع لابنه كتاباً فى مثالب قبائل العرب ، وأَن ماسرجويه متطبب البصرة تولى فى الدول المروانية ترجمة كتاب أَهرون بن أَعين ، من السريانية إلى العربية ، وأَن يونس الكاتب بن سليمان أَلف كتاباً فى الأَغانى ونِسْبتها إلى من غنى بها ، ولم يبلغ التصنيف شأْواً يذكر .

الشعر والشعراءُ فى هذا العصر

جاءَ النبى الكريم ، والشعر ديوان العرب ، فأَتاهم بالأَمر العظيم ، والحادث الخطير ، حاملاً بإحدى يديه القرآن يدعو الناس إلى توحيد الله ، والتمسك بالفضيلة وشاهراً بالأُخرى سيف الحق لحماية هذه الدعوة ، وما كان أَشد ذهولهم لخطبهما وانزعاجهم من وقعهما ، فهبوا يتحسسون الأَول ، ويتمرسون أَساليبه ومعانيه ويتفرسون أَلفاظه ومغازيه ، مابين معاند يتلمس مطعناً فيه ومؤمن يستبينه ويستهديه ، وتأَهبوا للثانى : بين ضال يناوئه ، ومهتد يعاضده ؛ فصار ذلك صارفاً لهم عن التشاغل بالشعر ، محولا مجرى أَفكار المؤمنين منهم عن أَكثر فنونه المنحرفة عن سنن الشرف والحق كالمدح بالباطل والهجاءِ والمغازلة ، وبغض إليهم تلك الفنون المرذولة بإزراءِ القرآن على الشعر بقوله : (والشعراءُ يتبعهم الغاوون أَلم تر أَنهم فى كل واد يهيمون ، وأَنهم يقولون مالا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا

وانتصروا من بعد ما ظلموا) ولهذا لم يكف شعراءُ المسلمين عن قوله فيما يطابق روح القرآن ، كالموعظة والإرشاد ، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه..الخ

ولبث الحال على ذلك مدة حياة النبي الكريم ، حتى إذا ما ثاروا لإسكان فتن أهل الردة ، وفتح الممالك والأمصار ، أضافوا إلى ما ألفوه من أغراض الشعر الإكثار من التباهى بالنصر ، ووصف المعارك ، وأحوال الحصار وآلات القتال .

ولما آل الأمر إلى بنى أمية ، وشغب عليهم كثير من فرق المسلمين أصبح الشعر لساناً يعبر عن مقصد كل حزب ؛ حتى أصبح حرفة عتيدة ، وصناعة جديدة ومورد ثروة ، وأصبحت دراسته ونقده وروايته دأب العلماء والأدباء ، حتى الخلفاءُ وأولياء عهودهم ، ونصف ما كان عليه الشعر فى هذا العصر من حيث أغراضه ومعانيه وتصوراته وعباراته بما يأتى .

أغراض الشعر وفنونه

(١) نشر عقائد الدين وحكمه ووصاياه والحث على اتباعه ، وخاصة زمن النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين .

(٢) التحريض على القتال ووصفه ـ والترغيب فى نيل الشهادة رفعا لكلمة الله ، وذلك فى أزمان غزوات النبي وحصار المدن وفتحها .

(٣) الهجاءُ ـ أولا فى سبيل الدفاع عن الإسلام يهجو مشركى العرب بما لا يخرج عن حد المروءة وبما رضيه النبي من حسان بن ثابت شاعره فى هجاء قريش وعشيرة النبي من بنى عبد مناف ، وكان يتحرج عنه المسلمون ولو بالتعريض زمن النبي وخلفائه ، ولذلك عاتب عمر أمير المؤمنين (الحطيئة) وهدده بقطع لسانه لنيله من بعض المسلمين ، ثم صار يتساهل فى خطبه حتى كان الهجاءُ غاية براعة الشاعر ، وإن لم يصل فى الإقذاع والفحش إلى الحد الذى وصل إليه فى العصر التالى ، ومن ذلك التهاجى المشهور بين جرير والفرزدق والأخطل .

(٤) المدح ـ وقلما كان مبدأُ الإسلام فى غير النبي من حيث الاهتداءُ بهديه ، ونشر الحق على يديه ، وكان خلفاؤه يأنفون مدحهم بما تزهى به نفوسهم تواضعاً .

ثم استرسل الشعراءُ فيه وَقبل ذلك منهم الخلفاء إلى أن كان المدح من أهم الدعائم لتوطيد أركان الدولة وتفخيم مقام الخلفاءِ والولاة والإشادة بعظمتهم .

معانيه وأَخيلته وأَلفاظه وأَساليبه وأَوزانه

لم يخرج شعراءُ هذا العصر فى جملة تصورهم وتخيلهم عما أَلفوه زمن الجاهلية وإن فاقوهم كثيرا فى ترتيب الفكر ، وتقريب المعنى إلى الأَذهان والوِجْدان ، بما هذَّب نفوسهم ، ورقق طباعهم من دراسة كتاب الله وحديث رسول الله ؛ وكذلك لم يخرجوا جملة فى هيئة تأَليف اللفظ ونسجه ومتانة أسلوبه عن نظائرها فى الجاهلية وإنما آثروا جزالة اللفظ وفخامته ومُؤالفته لسابقه ولاحقه دون غرابته كما آثروا جودة الأَسلوب ومتانته ، وروعة تأثيره ولاسيما أَهل النسيب ، ولم يطرأ على أَوزان الشعر العربى حدث غير ما عرف عنه فى الجاهلية .

وإنما شاع فى هذا العصر نظم الأَراجيز ، والتطويل فيها واستعمالها فى جميع أَغراض القصيد ، حتى فى افتتاحها بالنسيب ، والتخلص منه إلى المدح والذم ونحو ذلك .

الشعراءُ

شعراءُ هذا العصر ممن خلصت عربيتهم ، واستقامت أَلسنتهم ، ولم يمتد إليهم اللحن ، ولقد زادتهم مدارسة القرآن الكريم فصاحة وبلاغة ، وإحكاماً وإتقاناً حتى فضلهم بعض الرواة على سابقيهم من الجاهليين ومن أَشهر شعراءِ هذا العصر : كعب بن زهير ، والخنساءُ ، والحطيئة ،

وحسان بن ثابت ، والنابغة الجعدى وعمرو بن معد يكرب من المخضرمين [(١)] وعمر بن أبي ربيعة ، والأخطل ، والفرزدق ، وجرير ، والكميت ، وجميل ، وكثيِّر عزة ، ونُصَيْب والراعى ، وذو الرمة من الإسلاميين .

(١) كعب بن زهير

هو كعب بن زهير بن أبي سلمى أحد فحول المخضرمين ، ومادح النبي الأمين ، ولما ظهر الإسلام ذهب أخوه بجيْر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغضب كعب لإسلامه ، وهجا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فتوعده النبي صلى الله عليه وسلم وأهدر دمه ، فحذره أخوه العاقبة ، إلا أن يجئ إلى النبي صلى الله عليه وسلم مسلماً تائباً ، فهام كعب يترامى على القبائل أن تجيره فلم يجره أحد ، فلما ضاقت الأرض في وجهه جاء أبا بكر رضى الله عنه بالمدينة ، وتوسل به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأقبل به عليه وآمن ، وأنشده قصيدته المشهورة الآتية .

فخلع عليه النبي بردته ، فبقيت فى أهل بيته حتى باعوها لمعاوية بعشرين ألف درهم ، ثم بيعت للمنصور العباسى بأربعين ألفاً ومات سنة ٢٤ هـ.

شعره : كان كعب من الشعراء المجيدين المشهورين بالسبق ، وعُلو الكعب فى الشعر ، وكان خلف الأحمر أحد علماء الشعر يقول : لولا قصائد لزهير ما فضلته على ابنه كعب ، وكفاه فضلا أن الحطيئة مع ذائع شهرته ، رجاه أن ينوِّه به فى شعره ، فقال :

فمنْ للقوَافى شَانَهَا من يحُوكها ... إذا ما مضى كعب وَفوَّز جرولُ

ومن شعره قوله :

لو كنت أَعجبُ من شيءٍ لأَعجبنى ... سعْى الفتى وهو مخبوءٌ له القدَرُ

يسْعى الفتى لأُمور ليسَ يُدرِكها ... والنفس واحدة والهم مُنتشر

(١) المخضرم من الشعراء من عاش فى الجاهلية والاسلام .

فالمرءُ ما عاش ممدودٌ له أَمَلٌ   لا ينتهى العمْر حتى ينتهى الأَثرُ

ومن قوله أيضاً :

إن كنْتَ لا ترهَب ذمى لما   تعرف منْ صفحى عن الجاهل

فاخش سكوتى إذا أَنا مُنصِتٌ   فيكَ لمسموع خنَا القائل

فالسامع الذم شريك له   ومُطْعِمُ المأكول كالآكل

مقالة السُّوءِ إلى أَهلها   أَسرعُ من مُنْحدِرٍ سائل

ومن دعا الناس إلى ذَمِّه   ذَمُّوهُ بالحقِّ وبالباطل

ومن قوله أَيضاً قصيدة « بانت سُعاد » المشهورة – وهى :

بانت سعادُ فقلبى اليومَ متبولُ   مُتيمٌ إثرَها لم يُفد مكبول (١)

وما سُعادُ غداة البيْن إذ برزت   إلا أَغنّ غضيض الطرف مكحول (٢)

تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت   كأَنه مُنْهلٌ بالرَّاحِ معلول (٣)

شُجَّت بذى شبم من ماءِ مَحنيةٍ   صافٍ بأَبطحَ أَضحى وهو مشمول (٤)

تنفى الرِّيَاحِ القذَى عنه وأَفرطه   من صوب غاديةٍ بيض يعاليل (٥)

ويلُ امها خُلة لو أَنها صدقت   بوعدها ولو انَّ النصح مقبول (٦)

لكنها خُلة قد سِيطَ من دمها   فجعٌ وولعٌ وإخلافٌ وتبديل (٧)

---

(١) بانت : فارقت ، والمتبول : الذى أسقمه الحب ، ومكبول : مقيد .
(٢) الأغن : الذى فى صوته غنة ، وهى صوت محبوب ، غضيض الطرف : أى فى طرفها كسر وفتور . (٣) تجلو : تكشف واراد بالعوارض هنا الأسنان ، ذى ظلم : أى ثغر ذى ظلم والظلم ماء الأسنان وبريقها . معلول : أى مسقى بالخمر مرة بعد أخرى . (٤) شجت : أى مزجت بالماء لتذهب سورتها ، وبذى شبم أى بماء ذى شبم والشبم : البرد ، والمحنية : منعطف الوادى لأن ماءها يكون أصفى وأرق ، والأبطح : مسيل فيه دقاق الحصى ، والمشمول : الذى ضربته ريح الشمال حتى برد .
(٥) القذى : ما يسقط فى الماء ، وأفرطه : أى ملأه .
(٦) ويل امها ، وفى رواية ابن هشام أكرم بها والخلة هنا الصديقة .
(٧) سيط من ساط الماء ونحوه يسوطه : خلطه بغيره ، والفجع : الاصابة بالمكروه ، والولع : الكذب .

فما تقوم على حال تكون بها ... كما تلوّن فى أثوابها الغول[(١)]

ولا تمسك بالعهد الذى زعمت ... إلا كما يمسك الماءَ الغرابيل

كانت مواعيد عُرْقوب لها مثلا ... وما مواعيده إلا الأباطيل[(٢)]

أرجو وآمُل أن تدنو مودَّتها ... وما إخال لدينا منك تنويل

فلا يغرنك ما منَّت وما وعدت ... إن الأمانى والأحلام تضليل

أمست سُعاد بأرض لا يبلّغها ... إلا العتاق النُّجيات المراسيل[(٣)]

نبئت أن رسول الله أوعدنِى ... والعفو عند رسول الله مأمول[(٤)]

مهلا هداك الذى أعطاك نافلة القـــــــرآن فيها مواعيظ وتفصيل[(٥)]

لاتأخُذنى بأقوال الوشاة ، ولم ... اذنب ، ولو كثرت فىَّ الأقاويل

لقد أقوم مقاماً لو يقوم به ... يرى ويسمع ما قد أسمع الفيل[(٦)]

لظل ترْعدُ من وجد بوادره ... إن لم يكن من رسول الله تنويل[(٧)]

مازلت أقطع البيداءَ مدّرِعاً ... جنح الظلام وثَوْب الليل مسبول[(٨)]

حتى وضعت يمينى ما أُنازعها ... فى كف ذى نقمات قوله القيل[(٩)]

فلهْوَ أخْوفُ عندى إذ أكمله ... وقيل : إنك منسوب ومسئول[(١٠)]

---

(١) الغول : من خرافات العرب يزعمون أنها تتراءى لهم فى الفلوات وتتلون لهم وتضلهم عن الطريق . (٢) عرقوب يضرب به المثل فى خلف الوعد ، قيل انه وعد أخا له ثمر نخلة ، وقال : اعتنى اذا طلع النخل ، فلما أطلع قال له : اذا أبلح ، فلما أبلح قال : اذا أزهى ، فلما أزهى قال : اذا أرطب ، فلما أرطب قال : اذا صار تمرا ، فلما صار تمرا جذه من الليل ولم يعطه شيئا . (٣) العتاق : الابل أو الخيل الكريمة ، والنجيات السريعات ، والمراسيل : جمع مرسال وهو السريع . (٤) أوعد : هدد

(٥) نافلة : عطية التفصيل ، التبيين . (٦) أى : لقد شهدت برؤية الرسول مشهدا عظيم الهيبة لو شهده الفيل أو سمع الفيل ما يدور به من الحديث لظل يرعد . (٧) لظل يرعد : جواب لو فى البيت السابق ، والبوادر جمع بادرة : وهى ههنا بين المنكب والعنق .

(٨) ادرع الظلام : أى لبسه كأنه درع . (٩) ما أنازعها : أى لا أجاذبها والقيل : أى القول المحب . (١٠) أخوف : أى أعظم مسببه للخوف ، ومنسوب : أى مسئول عن نسبك .

من ضيغمٍ بضراءِ الأَرض مخدره ... فى بطن عثر غير دونه غيل(١)
يغدو فيلحم ضرغامين عيشهما ... لحم من الناس معفور خراديل(٢)
إذا يساور قرناً لا يحل له ... أَن يترك القِرن إلا وهو مغلول(٣)
منه تظل حمير الجوِّ نافرة ... ولا تمشى بواديه الأَراجيل(٤)
ولا يزال بواديه أَخو ثقة ... مُضرج البز والدرسين مأكول(٥)
إن الرسول لنورٌ يستضاءُ به ... مهندٌ من سيوفِ الله مسلول
فى عصبةٍ من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أَسلموا : زولوا(٦)
زالوا ، فما زال أَنكاس ولا كشف ... عند اللقاء ولا مِيلٌ معازيل(٧)
يمشون مشْي الجمال الزهر يعصمهم ... ضرب إذا عرَّد السود التنابيل(٨)
شم العرانِينِ أَبطال لبوسهم ... من نسج داود فى الهيجاء سرابيل(٩)
بيض سوابغ قد شكت لها حلق ... كأَنها حلق القعفاءِ مجدول(١٠)

---

(١) من ضيغم : متعلق بأخوف فى البيت السابق ، وضراء الأرض أى الأرض المستوية التى تأويها السباع وبها نبذ من الشجر ، والمخدر : مكان اقامة الأسد ، وبطن عثر : مأسدة أى مخدرة ، غيل من بطن عثر دونه غيل ، والغيل : الأجمة ـــ يصفه بالمنعشة والتوحش . (٢) يلحم : أى يطعم اللحم ، معفور : أى ملقى فى التراب والخراديل ، القطع .

(٣) يساور : يواثب ، والقرن المماثل ، ولا يحل : لا يسوغ ، والمغلول : المقيد . (٤) الجو : البر الواسع ، والأراجيل جمع رجيل : وهو الراجل غير الراكب . (٥) البز : الثياب ، والدرس : الثوب الخلق ، أى أن بوادى هذا الأسد تجد شجاعا كان يثق بنفسه فافترسه وأصبحت ثيابه خلقة ممزقة . (٦) زولوا أى انتقلوا من مكة الى المدينة .

(٧) النكس : الضعيف ، والكشف : جمع أكشف وهو من لا ترس له ، والميل : جمع أميل وهو من لا سيف له أو من لا يحسن الركوب . والمعازيل: جمع معزول وهو من لا سلاح له . (٨) الزهر : البيض ، وعرد : فر وأعرض والتنابيل : القصار . (٩) شم العرانين : شم الأنوف ، أى أعزة ، واللبوس السرابيل : الدروع أى لباسهم دروع من نسج داود .

(١٠) بيض : صفة للسرابيل ، والسوابغ : الطوال ، والقعفاء : نبات ينبسط على الأرض يشبه حلق الدروع .

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم قوماً ، وليسوا مجازيعا إذا نِيلوا[(١)]

لايقطع الطعن إلا فى نحورهم وليس لهم عن حياض الموت تهليل[(٢)]

(٢) عمرو بن معد يكرب الزبيدى

هو أبو ثور عمرو بن معد يكرب الزبيدى المذحجى ، فارس اليمانيين ، وأحد الشعراءِ المعمرين ، والخطباءِ الموفدين .

منشؤه وصفاته : نشأ عمرو بين قومه محمقا أَكولا ، لايؤمل منه خير ، ولاتلحظ فيه سيادة ، على ضخامة فى جثة ، وجهارة فى صوت ، حتى بلغ زبيدا أَن خثعم ستشنُّ الغارة عليهم ، فتأَهَّبوا . ودخل عمرو على أُخته ، فقال : أَشبعينى إن غدًا الكتيبة ، فأَخبرت أَباه فقال : سلى هذا المائق ما يشبعه ، فأَكل عنزًا بثلاثة آصع ذرة ، وأَتتهم خثعم فتبلد حتى رأَى لواءَ أَبيه مال وانهزمت زبيد ، فثار وكرَّ على خثعم ، وتراجع إليه قومه فهزموا الأَعداءَ ، فأَصبح يسمى فارس زبيد بعد أَن كان يسمى مائق زبيد ، واشتهر بالشجاعة حتى هابته أَبطال العرب وضرب به المثل فى الشجاعة ، وفى ذلك يقول أَبوتمام :

إقدام عمرو ، فى سماحة حاتم فى حلم أَحنف ، فى ذكاءِ إياس

وفى شجاعته يقول عن نفسه : وسرت بظعينة وحدى على مياه معد كلها ما خفت أَن أُغلب عليها ـ ما لم يلقنى حراها أَو عبداها . فأَما الحران : فعامر ابن الطفيل ، وعيينة بن الحارث بن شهاب ، وأَما العبدان : فأَسود بنى عبس ـ يعنى عنترة ـ والسليك بن السلكة ، وكلهم قد لقيت .

ولما فشا الإسلام فى قبائل العرب ، وفد مع بعض قومه على رسول الله فأَسلم ثم رجع إلى قومه ، ولما مصرت الكوفة أَقام بها حتى كانت وقعة نهاوند فحضرها تحت لواءِ النعمان بن مقرن ، ومات بها سنة إحدى وعشرين .

---

(١) المفاريح : جمع مفراح الشديد الفرح ، والمجازيع جمع مجزاع الشديد الحزن .

(٢) التهليل : الجبن والفرار .

ويُعد عمرو من الشعراءِ المخضرمين ، ويأتى شعره فى الطبقة الثانية من الجودة ويغلب عليه وصف الوقائع والتحدث عن نفسه بالشجاعة ، وهو أَحد الخطباءِ الذين أوفدهم النعمان على كِسرى .

ومن شعره قوله فى صدق عن نفسه فى الحرب :

ولما رأَيتُ الخيلَ زُورًا كأَنها جداول زرْع أُرْسلت فاسبطرتِ
فجاشت إلىَّ النَّفسُ أَوَّل مرة فردت على مكروهها فاستقرتِ
علام تقول الرُّمْح يُثقل عاتقى إذا أنا لم أطعنْ إذا الخيل كرَّتِ

ومن قوله أَيضاً :

أَمِن رَيحانة الدَّاعِى السميع يُورِّقنى وأَصْحابى هُجوعُ
أَشَاب الرأس أَيامٌ طوالٌ وهم ما تَضَمَّنه الضلوعُ
وسوق كتيبَةٍ دلفت لأُخرى كأَنَّ نهارهَا رأْسُ صليعُ
إذا لم تسْتطِعْ شيئًا فدعْه وجاوزه إلى ما تَسْتطيعُ
وصِله بالزِّماع فكل أَمر سَما لك أَو سموت له ولوعُ

(٣) الخَنْسَاءُ

هى السيدة تماضر الخنساءُ بنت عمرو بن الشريد السلمية ، أَرق شواعر العرب وأَحزن من بَكى وندب .

كان أَبوها عمرو ، وأَخواها معاوية وصَخر ، وكانت هى من أَجمل نساءِ زمانها فخطبها دُريد بن الصمة فارس جُشم ، فرَغبت عَنه وآثرت التزوج فى قومها ، فتزوجت منهم ، وكانت تقول المقطعات من الشعر ، فلما قتل شقيقها معاوية ، ثم أَخوها لأَبيها صخر ، جزَعَت عليهما جزَعاً شديدا ، وبكتهُما بكاءً مرا ، وكان أَشد وجدها على صخر ، لأَنه شاطرها هى وزوجها أَمواله

مرارًا ، ولما جاءَ الإِسلام وفدت مع قومها على النبي صلى الله عليه وسلم وأَسلمت ، وكان يُعجبه شِعرها ، ويستنشدُها ويقول (هِيهِ ياخناس) ويومئ بيده .

ومافتئت تبكى صخرا قبل الإِسلام وبعده حتى عميت ، وبَقيت إِلى أَن شهدت حرب القادِسية مع أَولادها الأَربعة ، فوصتهم وصيتها المشهورة وحضتهم على الصبر عند الزحف ، فقتلوا جميعاً ، فقالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، ولم تحزن عليهم حزنها على أَخويها ، وتوفيت بالبادية سنة ٤٦ هـ فى خلافة معاوية .

شِعرها : أَغلب علماء الشعر على أَنه لم تكن امرأَةٌ قبل الخنساءِ ولابعدها أَشعر منها ، ومن فَضل ليلى الأَخيلية عليها لم ينكر أَنها أَرثى النساءِ ، وكان بشار يقول : لم تقل امرأَة شعرا إِلا ظهر الضعف فيه ، فقيل له : وكذلك الخنساءُ ، فقال : تلك التى غلبت الفحول . ولم يكن شأْنها عند شعراءِ الجاهلية أَقل منه عند شعراءِ الإِسلام ، فذلك النابغة الذبيانى يقول لها ، وقد أَنشدته بسوق عُكاظ قصيدتها التى مطلعها :

قَذًى بعينيك أَم بالعين عُوَّارُ ... أَم ذرفت إِذ خلت من أَهلها الدارُ

لولا أَن أَبا بَصير (يعنى الأَعشى) أَنشدنى قبلك لقلت : إِنك أَشعر من بالسوق . وسئل جرير : مَن أَشعر الناس ؟ قال : أَنا ، لولا الخنساءُ ، فقيل : فيم فضلتك ! قال : بقولها .

إِن الزمان (وما يَفنى له عَجَب) ... أَبقى لنا ذنبا واستؤصل الرَّاس

إِن الجديدين فى طولِ اختلافهما ... لا يفسدان ولكن يفسد الناس

ومن جيد شعرها ترثى أَخاها صخراً :

أَعَيْنى جُودا ولا تجْمدا ... أَلا تَبكِيَان لصخر الندى

أَلا تبكيانِ الجرىء الجميل ... أَلا تبْكيان الفتى السيِّدَا

رفيع العماد طويل النِّجا ... د ساد عشيرتَهُ أَمردَا

إذا القومُ مدوا بأَيديهم إلى المجد مد إليه يدا
فنال الذى فوق أَيديهمُ من المجد ثم انتمى مُصعدا
يحمله القوم ما عالَهُم وإن كان أَصغرَهم مولِدا
وإن ذُكِر المجد أَلْفيْته تَأَزَّرَ بالمجد ثم ارْتدى

ومن قولها ترثية أَيضاً :

أَلا يا صخرُ إن أَبكيت عينى فقد أَضْحكْتنى زمنا طويلًا
دفعت بك الخطوب وأَنت حى فمن ذا يَدْفع الخطب الجليلا
إذا قَبح البكاءُ على قتيل رأَيت بكاءَك الحسن الجميلا

ومن بديع قولها :

يُذكرنى طلوع الشمس صخرًا وأَذكره لكلِّ غروب شمس
فلوْلَا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى
ولكن لا أَزال أَرى عَجُولا ونائحة تنوحُ ليوم نحْسِ
هما كِلْتاهما تبكى أَخاها عشيَّةَ رِزْئِهِ أَو غِب أَمس
وما يَبْكين مثل أَخى ولكن أُسلى النفس عَنه بالتأَسى
فقد ودعت يوم فراقِ صَخر أَبى حسانَ لذَّاتى وأُنسى
فيا لهْفِى عليه ولهْفَ أُمِّى أَيُصْبح فى الضريح وفيه يُمسى

(٤) الحُطيئة

هو أَبو مليكة جرول الحطيئة العبسى ، منشؤه معلول النسب ، وكان جشعاً سؤولا ملحفاً دنئ النفس ، كثير الشر قليل الخير ، بخيلا قبيح المنظر ، رَثّ الهيئة فاسد الدين ، وعاش الحطيئة مدة الجاهلية ، وجاء الإسلام فأَسلم ، ولم يكن له صحبة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم عاش متنقلًا فى القبائل يمدح هذه تارة ، ويذمُّ تلك أُخرى ، ويَنْتسِبُ إلى عبس طورًا ، وطورا إلى

ذهل ، ويهجو اليوم من يمدحه بالأَمس ، وكل قبيلة تخطب وده ، وتتقى شر لسانه ، حتى أن أَمير المؤمنين عمر بن الخطاب حبسه . فما زال يستشفع إليه بالناس وقول الشعر حتى أَطلقه وهدده بقطع لسانه إن هجا أَحدا ، واشترى منه أَعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم ، ولكنه نكث ، وأَوغل فى الهجاءِ بعد موت عمر ، وبقى كذلك حتى مات أَوائل خلافة معاوية سنة ٥٩ هـ .

شعره : لولا ما وصم به الحطيئة من خسَّة النفس ؛ ودناءَة الخلق ، وجهالة النسب لكان بإجادته فى كل ضربٍ من ضُرُوب الشعر زعيم شعراءِ المخضرمين على الإطلاق ، إلا أَنه لم يقف ببراعته وفصاحته موقفا لله والشرف ، وقلما يوجد فى كلام الحطيئة مظنة ضعف ، أَو مغمزٌ لغامز من ركاكة لفظ ، أَو غضاضة معنى أَو اضطراب قافية .

ومن مدحه الذى لا يلحق له فيه غبار ، قوله :

يسوسون أَحلاماً بعيدًا أَناتها ... وإن غضبوا جاءَ الحفيظة والجد
أَقِلوا عليهم (لا أَباً لأَبيكم) ... من اللوم أَو سدُّو االمكان الذى سدوا
أُولئك قوم إن بنوا أَحسنوا البنا ... وإن عاهدوا أَوفوا وإن عقدوا شدوا
وإن كانت النعماءُ فيهم جزوا بها ... وإن أَنعموا لا كدروها ولا كدوا
مطاعين فى الهيجا مكاشيف للدجى ... بنى لهم آباؤهم وبنى الجد
ويعذلنى أَبناءُ سعد عليهم ... وما قلت إلا بالذى علمت سعد

ومن أَبياته التى استعطف بها أَمير المؤمنين عمر وهو فى سجنه قوله :

ماذا تقول لأَفراخٍ بذى مرخٍ ... زغب الحواصلِ لاماءٌ ولا شجر
أَلقيت كاسبهم فى قعر مظلمة ... فاصفح ، عليك سلام الله يا عمر !
أَنت الأَمين الذى مِن بعد صاحبه ... أَلقى إليك مقاليد النهى البشر
لم يُوثِروك بها إذ قدموك لها ... لكن لأَنفسهم كانت بك الخير

(٥) حسان بن ثابت

هو أبو الوليد حسان بن ثابت الأنصارى : شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشعر شعراء المخضرمين ، وهو من بنى النجار أهل المدينة ، نشأ فى الجاهلية ونبه شأنه فيها ، ولما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وأسلم الأنصار ، أسلم معهم ودافع عنه بلسانه ، كما دافع عنه الأنصار بسيوفهم .

وعاش حسان بعد النبى محبباً إلى خلفائه مرضيًّا عنه ، وعمر قريباً من ١٢٠ سنة ، وبقى أكثر حياته ممتعاً بحواسه وعقله ، حتى وهن جسمه فى أواخر عمره ، وكف بصره ، ومات فى خلافة معاوية سنة ٥٤ هـ .

شعره : كان حسان شاعر أهل المدر فى الجاهلية ، وشاعر اليمانية فى الإسلام ، ولم يكن فى أصحاب النبى ولا فى أعدائه عند دعوته إلى الله أشعر منه ، ولذلك رمى مشركى قريش من لسانه بالداهية التى لم يكن لهم قبل بها ، فأوجعهم وأخرسهم من غير فحش ولا هجر ، ولما أذن له النبى صلى الله عليه وسلم فى هجائهم قال له كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ قال : أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم ينصب له منبراً بالمسجد ، ويسمع هجاءه فى أعدائه ، ويقول : «أجب عنى ، اللهم أيده بروح القدس» ، وكان فى شعر حسان زمن الجاهلية شدة وغرابة لفظ ، فلما أسلم وسمع القرآن ووعاه ، وكثر ارتجاله الشعر ، لان شعره وسهل أسلوبه .

ومن شعره فى الجاهلية :

ولقد تقلدنا العشيرة أمرها ... ونسودها فى النائباتِ ونعتلى
ويسود سيدنا جحاجح سادةً ... ويُصيب قائلنا سواءَ المفصِلِ
ونحاول الأمر المهم خطابة ... فيهم ونفصل كل أمر معضل
وتزور أبواب الملوكِ ركابنا ... ومتى نحكم فى البرية نعْدِلِ

ومن شعره فى الإسلام يفاخر وفد تميم بقوم النبى صلى الله عليه وسلم :

إن الذوائب من فهرٍ وإخوتهم ... قد بينوا سنناً للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة ... إن الخلائق (فاعلم) شرها البدع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
إن كان فى الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
وعفة ذكرت فى الوحى عفتهم ... لا يطمعون ولا يزرى بهم طمع
لا يفخرون إذ نالوا عدوهم ... وإن أُصيبوا فلا خور ولا جزع

(٦) النابغة الجعدى

هو أبو ليلى حسان بن عبد الله الجعدى العامرى أحد القدماء المعمرين والشعراء المخضرمين ، ووصاف الخيل المشهورين .

قال الشعر فى الجاهلية ، ثم استعصى عليه دهرًا ، ثم نبغ فى الشعر عند ظهور الإسلام وبعده ، ولذلك سمى (النابغة) وهو ممن فكر فى الجاهلية ، وأنكر الخمر وما تفعل بالعقل ، وهجر الأزلام والأوثان ، وذكر دين إبراهيم ، وصام واستغفر ، ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسلم .

وعاش طويلا فى الإسلام ، فأقام زمناً مهاجرًا ، حتى أيام عثمان رضى الله عنه فأحس بضعف فى نفسه . فاستأذن فى الرجوع إلى البادية ، فأذن له ثم لما كانت خلافة (على) شهد معه وقائع صفين ، وظاهره بيده ولسانه ، ونال من معاوية وبنى أُمية — ومات بأصبهان سنة ٨٥ هـ — بعد أن عمر مائة وثمانين سنة .

شعره : كان النابغة الجعدى شاعرًا مطبوعاً فى الجاهلية والإسلام ، وهو أول من سبق إلى الكناية فى الشعر عن اسم من يعنى إلى غيرها ، وتبعه الناس بعد ، قال :

أكنى بغير اسمها ، وقد علم اللـــــه خفيات كل مكتتم

وكان ممن يصفون الخيل ، فلا يُلحق له فى ذلك غبار ، حتى ضُرب به المثل قال الأصمعى : ثلاثة يصفون الخيل لايقاربهم أحد ، طفيل الغنوى ، وأبو داود الإيادى والنابغة الجعْدى ، وله فى الفخر والهجاء والمديح والرثاء شعر كثير .

ومن أشرفه قصيدته التى مدح بها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ـ وهى :

خليلى عُوجا ساعة وتهجرا ... ونوحا على ما أحدث الدهرُ أوذرا
ولا تجزعا إن الحياة ذميمةٌ ... فخفا لرَوْعات الحوادث أو قرا
وإن جاء أمر لا تطيقان دفعه ... فلا تجزعا مما قضى اللهُ واصبرَا
ألم تريا أن الملامة نفعها ... قليلٌ إذا ما الشىءُ ولى وأدْبرا
تهيج البكا والندامةَ ثم لا ... تغيِّرُ شيئًا غير ما كان قدرَا
أتيتُ رسول الله إذ جاء بالهدى ... ويتلو كتاباً كالمجرة نيِّرا
أقيمُ على التقوى وأرضى بفعلها ... وكنتُ من النار المخوفةِ أحذرا

ومنها فى الفخر :

وإنا لقومٌ ما تعود خيلنا ... إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا
وننكر يوم الروع ألوانَ خيلنا ... من الطعن حتى نحسب الجون أشقرا
بلغنا السماء مجدنا وجدودنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا
ولا خيرَ فى حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له ... حَليمٌ إذا أورد الأمرَ أصدرَا

ولما سمع رسول الله (بلغنا السماء ـ البيت) قال له فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ قال : الجنة يارسول الله ، قال له : إن شاء الله ، ولما أتم قصيدته ، قال له الرسول أجدت لا يفضض الله فاك ، فأتت عليه مائة سنة أونحوها وما انفضت من فِيهِ سِن .

(٧) عمر بن أبى ربيعة

هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة القرشى المخزومى ، أشعر قريش وأرق أصحاب الغزل ، وأوصف الشعراء لأحوال النساء .

ولد بالمدينة ليلة مات أَمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) رضوان الله عنه ، وكانت أُمه نصرانية ، وكان أَبوه تاجرا مُوسرًا ، وعاملا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللخلفاءِ الثلاثة من بعده ، فشب فى نعيم وترف ، وقال الشعر صغيرًا وسلك فيه طريق الغزل ، ووصف أَحوال النساء ، وتزاورِهِن ومداعبة بعضهن لبعض وتعرض للمحصنات المتعففات من نساءِ قومه ومن غيرهن ، فوقعن منه فى بلاءٍ عظيم ، صِرن يخفن الخروج إلى الحج ، لأَنه كان يتلقاهُن بمكة ، ويترقب خُرُوجهن للطواف والسعى ، ويَصفهُن وهن محرِمات ، وحلمتْ عليه رجالات قريش لمكانة نَسبه منهم ، ولترقب توبته وإِقلاعه ، فلما تمادى فى أمره ، وشبب ببنات السادات والخلفاءِ غضب عليه (عمر بن عبد العزيز) ونفاه إلى جزيرة أَمام مدينة مصوع ؛ ثم رأَى أَن يُكفر عن سيئاته بالتوبة والجهاد ، فغزا فى البحر ، فاحترقت السفينة التى كان فيها ، واحترق هو أَيضاً سنة ٩٣ هـ

شعره : رقيق بلفظ رشيق ، ومعنى أَنيق ، حتى قال فيه جرير : هذا والله الذى أَرادته الشعراء فأَخطأَته ، وقد سلك فى الغزل طريقاً لم يسلكوه ، ومن قوله المشهور :

ليت هِندًا أَنجزتنا ما تعِدْ	وشَفتْ أَنفسنا مما نجدْ
واستبدَّت مرة واحدة	إنما العاجزُ من لا يستبد
زعموها سأَلت جارتها	وتعرّت ذات يوم تبترِد(١)
أَكما يَنعَتُنى تبصرننى ؟	عمركن الله ! أَم لا يقتصد(٢)
فتضاحكن ، وقد قلن لها :	حسن فى كلِّ عينٍ من تود(٣)
حسدًا حملنه من شأْنها	وقديماً كان فى الناس الحسد

(١) تبترد : تصب الماء البارد على رأسها .
(٢) وينعتنى : يصفنى ، عمركن الله اذكرن الله ، يقتصد : يعتدل فلا يبالغ .
(٣) أى ان من تحبه تعتقد انه حسن لدى جميع الناس .

غادة تفترُّ عن أَشنبها حين تجلوه أُقاحٍ أَو برد(١)
ولها عينان فى طرفيهما حورٌ منها ، وفى الجيد غيد(٢)
قلت : من أَنتِ ؟ فقالت : أَنا من شفَّه الوجد ، وأَبلاه الكمد(٣)
نحن أَهل الخيفِ من أَهل مِنى ما لمقتول قتلناه قود(٤)
قلت : أَهلاً ! أَنتم بغيتنا فتسمين ، فقالت : أَنا هِند !(٥)
إنما ضلل قلبى فاحتوى صعدة فى سابرى تطرِد(٦)
إنما أَهلك جيران لنا إنما نحن وهم شئٌ أحد(٧)
حدثونا أَنها لى نفثت عقدًا ، ياحبذا تلك العقد !(٨)
كلما قلت : متى ميعادنا ؟ ضحكت هند ، وقالت : بعد غد!

(٧) الأَخطل

هو أَبو مالك غِياثٌ الأَخطل بن غوث التغلبى النصرانى ، شاعر الأَمويين وأَمدح ثلاثة شعرائهم المقدمين ، والمتفرد بالتعمق بوصف الخمر دون الإِسلاميين، قال الشعر وهو صبى ، وما لبث أَن زاحم شاعر تغلب وقتئذ (كعب بن جعيل) وهاجاه وظهر عليه ، ولما طلب يزيد بن معاوية قبل أَن يلى الخلافة من كعب هجاءَ الأَنصار ،

---

(١) الغادة : المرأة ، تفتر : تظهر ، الأشنب : الفم فى أسنانه ماء ورقة وعذوبة ، تجلوه : تكشفه ، الأقاح : جمع أقحوان وهو البابونج البرى من نبات الربيع له نوار أبيض . البرد : ماء الغمام يسقط جامدا .

(٢) الحور : شدة سواد سواد العين مع شدة بياض بياضها الجيد : العنق ، غيد : نعومة . (٣) شفه الوجد : أهزله الحب ، الكمد : الحزن الشديد . (٤) الخيف : ناحية من منى عند مكة ، القود : القصاص .

(٥) بغيتنا : مطلبنا . (٦) ضلل : صار ضالا لا يهتدى ، احتوى: اشتمل، الصعدة : القناة تنبت مستقيمة لا تحتاج الى مثبت ، شبه محبوبته فى اعتدال قدهابها ، السابرى : الثوب الرقيق الجيد تطرد : تمشى مستقيمة (٧) شىء أحد أى شىء واحد (٨) نفثت عقدا : سحرتنى والنفث : النفخ ، والعقد تكون من خيوط ينفث بها قصد السحر .

لتعرُّض عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأَنصارى لأُخته فى شعره ، أَبى عليه ذلك كعب ، وقال : لاأَهجو قوماً نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآووه ، ولكنى أَدُلك على الأَخطل ، فبعث إليه وأَمره بهجائهم ، فهجاهم بقصيدة منها :

ذهبت قريش بالسماحة والندى ... واللؤمُ تحت عمائم الأَنصار

فدعو المكارم لستمُ من أَهلها ... وخُذوا مساحيكم بنى النجار

وبلغ الشعر كبار الأَنصار فغضبوا ، وشكوه إلى معاوية ، فوعدهم بقطع لسانه ، فاستجارَ بيزيد ، فما زال بأَبيه حتى عفا عنه ، ولما ولى يزيد الخلافة قرَّبه إليه ، وتابعه فى ذلك خُلفاءُ بنى أُمية ، وبخاصةٍ عبد الملك ، إذ كان يستعين به على أَعدائه ، فقربه إليه وأَدناه ، وسمح له بالدخول عليه بلا إذن ، وأَجزل له العطايا ، وسَمَّاه شاعر الخليفة .

ولما حدثت المهاجاة بين جرير والفرزدق وحُكم فيهما أَيُّهما أَشعرُ؟ عرض بتفضيل الفرزدق ، فهجاه جرير ، فرد عليه الأَخطل ، وكانت الشيخوخة قد بلغت منه ، فلم يلحق جريراً ، وكان الأَخطل يُقيم أَزماناً بدمشق ، وأَحياناً ببلاده من أَرض الجزيرة ، ومات فى أَول خلافة الوليد سنة ١٢٥ ﻫ ، وقد نيف على السبعين .

شعره : كان الأَخطل أَحد الشعراءِ الثلاثة السابقين سواهم من فحول الإسلاميين وكان مطبوعاً على الشعر ، بعيدا عن التكلف والتعمُّق فيه ، وامتاز بإجادة المديح والإبداع فى معانيه ، قال يمدح بنى أُمية ، ويخُصُّ بشر بن مروان :

إن يحلموا عنك فالأَحلامُ شيمتهم ... والموتُ ساعة يَحمى منهم الغضب

كأَنهم عند ذاكم ليس بينهم ... وبَين من حاربوا قربى ولا نسبُ

كانوا موالى حق يطلبون به ... فأَدركوه وما ملوا ولا لغبوا

وإن يكُ للحقِّ أَسبابٌ تمد بها ... ففى أَكفهم الأَرْسان والسبب

هم سعوا بابن عفان الإمام وهم ... بعد الشماس مَرَوها ثُمَّت احْتلبوا

ومنها :

إذا أَتيت أَبا مروان تسأَله وجدته حاضراه الجود والحسب
ترى إليه رِفاق الناس سائلةً من كل أَوْب على أَبوابه عصب
يحتضرون سِجالا من فواضله والخير محتضر الأَبواب منتهب
والمطعم الكرم لا ينفك يعقرها إذا تلاقى رواق البيت واللهب
كأَن جيرانها فى كل منزلة قتلى محرَّدة الأَوصال تستلب

ومن أَفضل شعره قوله :

والناس همهم الحياة ولا أَرى طول الحياة يزيد غير خَبالِ
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخرًا يكون كصالح الأَعمالِ

(٩) الفرزدق

هو أَبو فراس همام بن غالب التميمى الدارمى ، أَفخر ثلاثة الشعراءِ الأُمويين ، وأَجزل المقدمين فى الفخر والمدح والهجاءِ .

ولد سنة ١٩ هـ ونشأَ بين البصرة والبادية ، وأَتى به أَبوه يوماً إلى أَمير المؤمنين على بن أَبى طالب كرم الله وجهه ، فسأَله عنه ، فقال هذا ابنى يوشك أَن يكون شاعرًا مجيدًا ، فقال له أَقرئه القرآن ، فأَقرأَه وحفظه ، ثم رحل إلى خلفاءِ بنى أُمية بالشام ومدحهم ونال جوائزهم ، وأَخص من كان يمدحه منهم « عبد الملك بن مروان » ثم أَولاده من بعده ، وكان الفرزدق فوق إقذاعه فى الهجو ، وفحشه فى السباب وقذف المحصنات ، يرمى بالفجور ، وقلة التمسك بشعائر الدين ، ثم تاب فى أَواخر شيخوخته على يد الحسن البصرى ، وكان فيه تشيع يستره أَيام اختلافه إلى بنى أُمية ، كاشف به آخر حياته حتى أَمام الخليفة « هشام » عندما رأَى الناس تفسح طريق الطواف بالكعبة ، مهابة وإجلالا « لعلى بن الحسين » فسأَل عنه كالمتجاهل لأَمره ، فشق ذلك على الفرزدق ، وأَنشد قصيدته الميمية

الآتية يعرف «بعلى» ويُنكر على «هشام» تجاهله ، فحبَسَه هشام ثم أَطلقه ، وعاش الفرزدق قريباً من مائة سنة ، ومات بالبصرة سنة ١١٤ هـ .

شعره : يمتاز شعر الفرزدق بفخامة عبارته ، وجزالة لفظه ، وكثرة غريبه ومداخلة بعض أَلفاظه فى بعض ، ولذلك يعجب به أَهل اللغة والنحو ، وكان يقال (لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة) ويعتبر الفرزدق من أَفخر شعراءِ العرب وقد قضت العوامل السياسية والاجتماعية أَن يشتبك مع جرير فى التهاجى والتسابّ حتى أَفحشا وشغلا الناس بنقائضهما .

ومن جيد شعره قوله يمدح سيدنا زين العابدين (وهو على بن الحسين) :

هذا الذى تَعرِفُ البطحاءُ وطأَته والبيتُ يعرفه والحلُّ والحرم
هذا ابن خيرِ عباد الله كلهم هذا التقُّ النقُّ الطاهرُ العلم
وليس قولك : من هذا ؟ بضائره أَلعُرْب تعرف من أَنكرتَ والعجم
إذا رأَته قريش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهى الكرمُ
ينمى إلى ذروة العز التى قصرت عن نيلها عرب الإسلام والعجم
يغضى حياءً ويغضى من مهابته فلا يكلم إلا حين يبتسم
بكفه خيزران ريحها عبق من كفِّ أَروع فى عرنينهِ شمم
يكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم إذا ما جاءَ يستلم
ينشق ثوب الدجى عن نور غرته كالشمس تنجاب عن إشراقها الظلم
من معشر حبهم دين وبغضهم كفر وقربهم منجى ومعتصم
إن عد أَهل التقى كانوا أَئمتهم أَو قيل من خير أَهل الأَرض قيل هم

(١٠) جرير

هو أَبو حزرة ، جرير بن عطية ، الخطفى ، التميمى ، اليربوعى ، أَحد فحول الشعراءِ الإسلاميين ، وبلغاء المداحين الهجائين ، وأَنسب ثلاثتهم

المفلقين ، وهو من بنى يَربُوع أحد أحياءِ تميم ، ولد باليمامة سنة ٤٢ هـ ونشأ فى البادية ، وفيها قال الشعر ونبغ ، وكان يختلف إلى البصرة فى طلب الميرة ومدح الكبراء ، فرأى الفرزدق وما أكسبه الشعر من المنزلة عند الأُمراء والولاة وهو تميمى مثله ، وودّ لو يسقفُه إلى ما ناله ، وأغراه قومه به للتنويه بشأْنهم ، فوقعت بينهما المهاجاة عشر سنين لعوامل سياسية واجتماعية ، وكان أكثر إقامة جرير أثناءها فى البادية وكان الفرزدق مقيما بالبصرة يملأُ عليه الدنيا هجاءً وسبًّا ، فما زال به بنو يربوع حتى أَقدموه إلى البصرة ، واتصل بالحجاج ومدحه فأَكرمه ورفع منزلته عنده ، فعظُم أَمره ، وشرّق شعره وغرَّب حتى بلغ الخليفة عبد الملك فحسد الحجاج عليه ، فأَوفده الحجاج مع ابنه محمد إلى الخليفة « يزيد بن معاوية » بدمشق ليصل بذلك إلى مدحه ، ومن وقتئذ عُدَّ من مُداح خلفاءِ بنى أُميه ، ومات باليمامة سنة ١١٤ هـ .

وكان فى جرير على هجائه للناس عفةٌ ودين ، وحسن خلق ، ورقة طبع .

شعره : اتفق علماءُ الأَدب ، وأئمة نقد الشعر ، على أنه لم يوجد فى الشعراءِ الذين نشأُوا فى ملك الإسلام أَبلغ من جرير والفرزدق والأَخطل ، وإنما اختلفوا فى أَيهم أَشعر ، ولكل هوى وميل فى تقديمه صاحبه ، فمن كان هواه فى رقة النسيب وجودة الغزل والتشبيب ، وجمال اللفظ ولين الأُسلوب ، والتصرف فى أَغراض شتى فضل «جريرًا» . ومن مال إلى إجادة الفخر ، وفخامة اللفظ ، ورقة المسلك وصلابة الشعر ، وقوة أسره ، فضل « الفرزدق » ومن نظر بعد بلاغة اللفظ ، وحسن الصوغ إلى إجادة المدح والإمعان فى الهجاءِ ، واستهواه وصف الخمر واجتماع الندمان عليها حكم «للأَخْطل» . وإن لجرير فى كل باب من الشعر أَبياتاً سائرة ، هى الغاية التى يضرب بها المثل ، فيقال إن أَغزل شعر قالته العرب هو قوله :

إن العيون التى فى طرفها حَوَرٌ قتلْننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعْن ذا اللبِّ حتى لا حراك به وهُنَّ أَضعفُ خلق الله إنسانا

وإن أَمدح بيت قوله :

أَلستم خيرَ من ركب المطايا وأندى العالمين بُطون راح

وإن أَفخر بيت قوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم رأَيت الناس كلهم غِضابا

وإن أَهْجى بيت مع التصوّن عن الفُحش قوله :

فغُضَّ الطرف إنك من نُمير فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

وإن أَصدق بيت قوله :

إنى لأَرجُو منك خيرا عاجلا والنفس مولعةٌ بحبِّ العاجل

وإن أَشد بيت تهكمًا قوله :

زعم الفرزدق أن سيقتلُ مربعاً أَبشر بطول سلامة يا مربع

ومن جيِّد شعره قوله من قصيدة يرثى بها امرأَته ، وهى التى ندِبت بها نوار امرأَة الفرزدق :

لولا الحياءُ لهاجنى استعبارُ ولزُرتُ قبركِ والحبيب يزارُ
ولقد نظرت وما تمتّع نظرةٌ فى اللَّحد حيثُ تمكن الإحفارُ
ولَّهتِ قلبى إذ علتْنى كبْرة وذوُو التَّمائم من بنيك صغارُ
لا يلبثُ القُرناء أَن يتفرقوا ليلٌ يكرُّ عليهم ونهارُ
صلى الملائكة الذين تخيَّرُوا والطيِّبون عليك والأَبرارُ
فلقد أَراك كسيت أَحسن منظر ومع الجمال سكينةٌ ووقارُ

(١١) الكميْتُ

هو الشاعر الخطيب الراوية أبو المستهل الكميتُ بن زيد الأَسدى الكوفى ،

أَشعر شعراءِ الشيعة الهاشمية ، ومثير عصبية العدنانية على القحطانية ولد سنة ٦٠ هـ – ونشأً بالكوفة بين قومه بنى أَسد – إحدى قبائل العرب الفصحاءِ من مُضر ، فلقن العربية ، وعرف الأَدب والرواية ، وعلم أَنساب العرب وأَيامها ومثالبها بمُدراسة العلم والأَخذ عن الأَعراب ، وكان له جدتان أَدركتا الجاهلية تقصان عليه أَخبارها وأَشعار أهلها . فخرج أَعلم أَهل زمانه فى ذلك ، وأَقر له (حماد) الراوية بالسبق عليه .

وقال الكميت الشعر وهو صغير ، وكان لا يذيعه ولا يتكسَّبُ به ، ويكتفى بحرفته (تعليم صبيان الكوفة بالمسجد) ولما حصف شعره وقوى أَثره ، ولا سيما قصائده التى أَعلن فيها تشيعه (لبنى هاشم وآل على) أَنشده الفرزدق مُستنصحا له فى أَمر إذاعته إذا أَعجبه فأَمره بإذاعته ، فقال قصائده البليغة المطولة المسماة (بالهاشميات) التى يقول فيها من قصيدة فى مدح بنى هاشم :

طربت وما شوقاً إلى البيض أَطرب ... ولا لعبا منِّى وذُو الشبِ يلعبُ

ولم يُلْهنى دار ولا رَسمُ منزلِ ... ولم يتطربْنى بنان مُخضبُ

ولا السانحاتُ البارحات عشية ... أَمر سليم القرن أَم مر أَعضبُ

ولكن إلى أَهل الفضائل والنهى ... وخيرِ بَنى حَواءَ والخير يُطلبُ

بنى هاشمٍ رهط النبى فإننى ... بهم ولهم أَرضى مرارًا وأَغضبُ

خفضتُ لهم منى الجناح مودَّةً ... على كنف عطفاه أَهل ومرحبُ

ومالى إلا آل أَحمد شيعة ... ومالِى إلا مذهب الحقِّ مذهبُ

بأَى كتاب أَم بأَيةِ سُنة ... يُرى حبهم عارًا على ويُحسبُ

شعره : لشعره من التأْثير السياسى والمذهبى أَثر سيئ شتت شمل الوحدة العربية ، وتوفى سنة ١٢٦ هـ .

الرِّواية والرُّوَاة

ظهر الإسلام وعمدة العرب فى ضبط علومهم وآدابهم على الحفظ والرواية فجاءهم من كتاب الله وسنة رسوله بالأمر الخطير والعلم الكثير فكانت عنايتهم بحفظها فى الصدور أكثر من كتابتها فى السطور .

ولما اتسع علم المسلمين بما أُضيف إليها من تفسير الصحابة والتابعين ، ومن أقوالهم فى الدين ـ تعددت طوائف الرواة للقرآن والحديث وفنون الأدب .

ولما كان الإنسان عُرضة النسيان ، وأحوال الناس تختلف فى الصدق والكذب تشددت الصحابة والتابعون وتابعوهم فى تصحيح الرواية ، وشدة التوثق من صدق الرواة تحرُّجاً منهم أن يدخل فى الدين ما ليس منه .

ولما خاف سيدنا (عمر بن عبد العزيز) أن تموت السنة الصحيحة بموت رواتها وبما وضعه الزنادقة والشيعة والخوارج ودسوه فيها ، أمر العلماء بتدوين الحديث ، وبقى الأمر فى الشعر والأدب كما كان فى الجاهلية : لكل شاعر راوٍ أو عدة رُواة ، ومن أشهر هؤلاء : هُدبة بن خشرم راوية الحطيئة ، وجميل راوية هدبة وكثير رواية جميل ، وأبو شقفل وعبيدِ أخو ربيعة بن حنظلة راوية الفرزدق ، ومربع راوية جرير والفرزدق معاً ، ومحمد بن سهل راوية الكميت ، وصالح بن سليمان راوية ذى الرمة ، وذو الرمة راوية الراعى .

وبقى الأمر كذلك حتى أواخر هذا العصر ـ فاشتغل العلماءُ بالرواية ، وصار الراوى منهم يروى لمئات من الشعراءِ والشواعر ، وإن لم يكن هو شاعراً .

وأكثر هؤلاءِ العلماءِ من الرواة أدرك العصر (عصر بنى العباس) فيذكر فيه .

ومع تشديد الناس فى تصحيح الراوية سُنةً وأدباً حدث فى الشعر والخطب كثير من التصحيف والتحريف والنقص والزيادة ، ونحو ذلك

العصر الثالث : عصر الدولة العباسية(١) من ١٣٢ ــ ٦٥٦ ﻫ

أحوال اللغة وآدابها فى ذلك العصر

كان بنو أُمية شديدى التعصب للعرب والعربية ، فكان كل شىء فى دولتهم عربى الصبغة ، وكانت جَمهرة العرب مُنتشرة فى كل مكان امتد إليه سلطانها ، فلما قامت الدولة العباسية بدعوتها ، لم تجد لها من العرب أَنصاراً وأَعواناً ، مثل ما وجدت من الفرس وأُمم الأَعاجم ، فاكتسحت بهم دولة بنى أُمية ، وأَسست دولة قوية ؛ كان أَكثر النفوذ فيها للموالى . فاستخدمهم الخلفاء والأمراء فى كل شىء من سقاية الماء إلى قيادة الجيوش والوزاة ، وابتدأ شأن العرب السياسى يتضاءل من ذلك الحين شيئاً فشيئاً ، واختلطوا بالأَعاجم ، وكان من المجموع شعب ممتزج لغة وعادة وخُلقاً ، فأَثر فى اللغة لفظاً ومعنى ، وشعراً ونثرا ، كتابة وتأْليفاً ، ولم يظهر ذلك بالطبع فى جميع الممالك بنسبة واحدة ، بل كان فى أَواسط آسيا أَظهر منه فى مصر والشام . أَما حال ممالك العرب والأَندلس صدر هذا العصر فلم يبعد كثيراً عما كان عليه فى العصر الماضى ، ثم سرت إليها عدوى تقليدها للمشارقة فى أَكثر الأُمور .

---

(١) خلفاء بنى العباس الى سنة ٣٣٢:

الخليفة	السنوات
ابو العباس عبدالله السفاح	١٣٦/١٢٣
ابو جعفر المنصور	١٥٨/١٣٦
محمد المهدى	١٦٩/١٥٨
موسى الهادى	١٧٠/١٦٩
هارون الرشيد	١٩٣/١٧٠
محمد الأمين	١٩٨/١٩٣
عبد الله المأمون	٢١٨/١٩٨
ابواسحق محمد المعتصم	٢٢٨/٢١٨
ابوجعفر هارون الواثق	١٣٢/٢٢٣
جعفر المتوكل على الله	٢٤٧/٢٣٣
محمد المنتصر	٢٤٨/٢٤٧
ابو العباس احمد المستعين	٢٥٢/٢٤٨
ابو عبد الله المعتز	٢٥٥/٢٥٢
محمد المهتدى بالله	٢٥٦/٢٥٥
أحمد المعتمد على الله	٢٧٩/٢٥٦
أحمد المعتضد بالله	٢٨٩/٢٧٩
على المكتفى بالله	٢٩٥/٢٨٩
جعفر المقتدر بالله	٣٣٠/٢٩٥
ابو منصور محمد القاهر	٣٣٢/٣٣٠
ابو العباس احمد الراضى	٣٣٩/٣٢٢
ابراهيم المتقى بالله	٣٣٣/٣٣٩

ويمكن إرجاع جميع هذه التغييرات إلى ثلاثة أُمور ؛ الأَول : ما يتعلق بالأَغراض التى تؤديها اللغة ، الثانى : ما يتعلق بالمعانى والأَفكار ، والثالث : ما يتعلق بالأَلفاظ والأَساليب .

أغراض اللغة

لما قامت الدولة العباسية وتشبه الخلفاء بملوك الفرس فى أَكثر أُمور السياسة والمعيشة ، وحاكتهم العامة فى ذلك بتقليد أَمثالهم من طبقات الأَعاجم ، تناولت اللغة فى المشرق أَغراضاً لم تعهد فيها من قبل ؛ بنقل علوم تلك الأُمم وآدابها وعاداتها وطرق معيشتها .

ثم تناولت هذه الأَغراض فى الغرب بعدئذ بفرق يسير ، فكان من تلك الأَغراض ما يأْتى :

(١) تدوين العلوم الشرعية واللسانية والعقلية ، ولم يدون فى صدر الإِسلام من ذلك إلا نزر يسير ، وكذلك الترجمة من اللغات الأَجنبية إلى العربية .

(٢) تأْدية مقاصد الصناعات المختلفة ، وخاصة بعد دخول العرب فى غمار الصناع وبعد تعرب الأَعاجم .

(٣) تأْدية المقاصد التى استدعاها الانغماس فى الترف بلذائذ الحضارة التى جرت فيها الأُمم عصر الدولة العباسية إلى أَمد بعيد ، أَو اقتضاها نظام الملك والدفاع عنه : كالإِمعان فى وصف الأَشياء النفيسة مما لم يعرف للعرب فى صدر الإِسلام أَو عُرِف وكان قليلا ممقوتاً صاحبه ، وكوصف البحر والأَساطيل الحربية والمعارك البحرية . وامتاز بأَكثر ذلك المغرب والأَندلس كما امتازت الأَندلس بالإِجادة فى وصف مناظر الطبيعة ، ومحاسن الوجود لملاءمة بيئتها لذلك ، وكادت تلحق بها فى الوصف صقلية وإفريقية إبان ازدهائهما .

(٤) تأْدية مقاصد أَنواع الخلاعة والسخرية ، مما قل نظيره فى صدر الإِسلام .

(٥) المحاضرة والمناظرة والبحث والجدل وتدريس العلوم .

المعانى والأفكار

إن ما حدث فى مشارق الممالك الإسلامية ومغاربها ، أثناءَ العصر العباسى ، من الانقلابات السياسية والاجتماعية ، كان له نتيجة ظاهرة فى الحركة الفكرية للمُتكلمين بالعربية ؛ ظهر ذلك فى عباراتهم وأشعارهم بصور مختلفة ، فمنها :

(١) ازديادُ شيوع المعانى الدقيقة ، والتصورات الجميلة ، والأَخيلة البديعة

(٢) التعويلُ على القياس والتعليل فى الأَحكام الفكرية ، بالإكثار فى الحجج والبراهين العقلية ، وانتحاءُ مذاهب الفلاسفة فى الشعر والكتابة والتدريس ، ولا سيما بعد عصر الترجمة ، وأكثر ما كان ذلك بالمشرق ، وقلما عُنِىَ به أَهل المغرب .

(٣) التهويلُ والغلو فى التفخيم المقتبس فى المشرق من اللغة الفارسية والسارى بعضه بالعدوى إلى أَهل المغرب والأَندلس .

الأَلفاظ والأَساليب

غلب على عبارة اللغة العربية فى هذه المدة أمران عظيمان : السُّهولة ، والمحسنات البديعية ، ويشمل ذلك ما يأْتى :

(١) انتقاءُ الأَلفاظ الرشيقة السهلة ، وقلة الحاجة إلى الارتجال .

(٢) ازديادُ الميل إلى استعمال أَلفاظ القرآن ، والاقتباس منه والاستشهاد به .

(٣) الإكثارمن أَلفاظ المجاز ، والتشبيه ، والتمثيل ،والكناية ،والمحسنات اللفظية .

(٤) التوسُّع فى إدخال أَلقاب التعظيم على أَسماء الخلفاء والأُمراء والعظماء .

(٥) تفاقمُ الخطب فى استعمال الكلمات الأَعجمية فى كثير من الأَشياء .

(٦) وضع اصطلاحات العلوم والفنون والصناعات وإدارة الحكومة وغيرها .

(٧) التأَنق فى صوْغ العبارات وتوثيق الربط بينها والميل إلى استعمال السجع .

(٨) التطرف إلى غاية حدَّى الإطناب والإيجاز ، ولكل منهما مقام .

(٩) حدوث لغة تأْليفية لتعليم العلوم تقاس بمعيار المنطق لابمعيار البلاغة .

وإذًا كانت اللغة إما نثرا ، وإما شعرًا .

والنثر : مُحادثة ، وخطابة ، وكتابة ، فاحفظ ما يتلى عليك .

النثر ــ المحادثة ــ أو «لغة التخاطب»

إن لغة التخاطب بين الخاصة من العرب في أواخر العصر الماضى كانت العربية الفصيحة الخالية من اللحن ، إلا من آحاد عُيِّرُوا به ، وإن لغة العامة والسوقة من العرب المختلطين بالعجم هى العربية المشوبة بشىءٍ من اللحن ، ولغة المتعرِّبين من العجم تقل عن هذه الفصاحة ، وتزيد عليها فى اللحن بمراتب مختلفة .

فلما تم امتزاجُ العرب بالعجم ، عصرَ الدولة العباسية ، تكونت بين العامة فى البلاد التى تكثر فيها جمهَرةُ العرب لغات تخاطب عامّيةٌ ، إلا بين أهل جزيرة العرب فلم يزل تخاطبهم باللسان الفصيح إلى أواسط القرن الرابع ، وبقِيت لغات التخاطب فى البلاد التى نقل فيها جاليتهم هى اللغات الوطنية الأعجمية ممزوجة ببعض الألفاظ العربية التى أدخلها عليها الإسلام .

وخاف الخلفاءُ والخاصة من هوْل تغلب العامية على أبنائهم ، وأشفقوا أن تستطيل على الفصيحة ، فيستغلقَ على المسلمين فهم الكتاب والسنة ، وهما كل الدين ، فحرضوا العلماءَ على تدوين اللغة والإكثار من العناية بضبط النحو وفنون البلاغة ، ولكن ذلك كله لم يوقف تيار العامية الزاخر ، الذى استمر فى طغيانه إلى أن غلب فى النصف الأخير من عصر هذه الدولة على جميع لغات التخاطب ، حتى لغة الخلفاءِ وعلماءِ العربية أنفسهم ، وأصبح لكل بلاد عربية لغة تخاطب عاميةٌ خاصةٌ بها ، ولكن لم تصبح العامية لغةَ علم وأدب ، كما وأن ذلك لم يكن طويل الأمد .

الخطابة والخطباء

لما كان قيام الدولة العباسية فى المشرق ، والإدريسية فى المغرب الأقصى ،

والأَموية فى الأَندلس ، من الأُمور التى ينشأ عنها كثيرٌ من الانقلابات السياسية والمذهبية والاجتماعية ، وكان ذلك يستدعى تأْليف الأَحزاب ، ودعوة الناس إلى التشيُّع لزعماءِ الأَحزاب ، كانت دواعى الخطابة متوافرة أَسبابها ؛ فكان بين قوّاد هذه الدول ودُعاتها وخلفائها ورؤساءِ وُفودها خطباءُ مصاقعُ . ثم لما فترت هذه الدواعى باستقرار الدول ، واشتدَّ اختلاطُ العرب بالأَعاجم ، وتولى كثير من الموالى قيادة الجيوش وعمالة الولايات والمواسم ، ضعُف شأْن الخطابة لضعف قدرتهم عليها . فلم يمض قرن ونصف من قيام تلك الدول حتى بطل شأْن الخطابة إلا قليلا فى المغرب أَيام الحفل وقدوم الوفود ، وبقِيت الخطابة قاصرة على خطبِ الجمعة والعيدين والمواسم وخطب الزواج ونحو ذلك وقل فيها الارتجالُ ، أَو عدم جملةً ، وحل محل الخطابة فى الأُمور السياسية نشر المنشورات ، وفى الأُمور الدينية مجالسُ الوعظ والتدريس فى المساجد والمدارس ، واشتهر فى صدر الدولة العباسية جملة خطباءِ ، أَشهرهم : داوُد بن على ، وشبيب بن شيبة .

داود بن على

هو داود بن على بن عبد الله بن عباس ، خطيب بنى العباس ، وأَحد مؤسسى دولتهم ، نشأَ هو وإخوانه – وكانوا اثنين وعشرين رجلا – فى قرية الحميمة من أَعمال عمّان – وكان الوليدُ بن عبد الملك أَجلى « على بن عبد الله بن عباس » وأَهل بيته إليها – سنة ٩٥ هـ غضبًا عليه .

وكان داود أَحد النابغين من إخوانه وكان بليغهم ولسانهم وأَخطبهم فى وقته ، وعاجلته منيَّته قبل أَن يستطير سلطانه فى الدولة . وَلَّاهُ أَبو العباس عقب بيعته بالكوفة ولاية الكوفة وسوادها ، ثم ولاه إمارة الحج فى هذه السنة ، وولاه معها ولاية الحجاز واليمن واليمامة ، فقتل من ظفر بهم من بنى أُمية فى مكة والمدينة سنة ١٣٢ هـ – وهو أَول موسم ملكه بنو العباس – وخطبهم الخطبة الآتية وهى :

« شكرا شكْرا ، إنا والله ما خرجنا لنحفِر فيكم نهراً ، ولا لنبنى فيكم قصرا . أَظنَّ عدوُّ الله أَن لن نقدر عليه ؟ أَن رُوحى له من خطامه ، حتى عثرَ فى فضل زمامه ، فالآن حيثُ أخذ القوس باريها وعادت القوس إلى النزعة ، ورجع الملك فى نصابه فى أَهل بيت النبوَّة والرحمة ، والله لقد كنا نتوجع لكم ونحن فى فرشنا ، أَمِنَ الأَسود والأَحمر ، لكم ذمة الله ، لكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكم ذمة العباس ، لا ورب هذه البنية — وأَومأَ بيده إلى الكعبة — لا نهيج منكم أَحدا » ثم ذهب إلى المدينة ، ومات بها سنة ١٢٣ .

شبيب بن شيبة

هو شبيب بن شيبة بن عبد الله المنقرى التميمى ، خطيب البصرة ، نشأَ بها ، وامتاز بنبالة نفس وسخاء كف ، وحسن تواضع ونزاهة لسان ، كما امتاز بخطبه القصيرة البليغة ، القريبة من حد الإعجاز . قال الجاحظ : يقال إنهم لم يروا خطيباً كشبيب بن شيبة ، فإنه ابتدأَ بحلاوَة ورشاقة ، وسهولة وعذوبة ، فلم يزل يزداد منها حتى صار فى كلِّ موقف يبلغ بقليل الكلام مالا يبلغه الخطباءُ المصاقع بكثيره ، وقد يُطوِّل حتى يقول فيه الراجز :

إذا غدت سعد على شبيبها على فتاها وعلى خطيبها
من مطلع الشمس إلى مغيبها عجبت من كثرتها وَطيبها

وعرف شبيب أَبا جعفر المنصور قبل خِلافته ، ثم اتصل به بعدها ، فجعله فى حاشية ولىِّ عهده « المهدى » وَبقِى كذلك حتى وَلى المهدى الخلافة ، فصار من خيرة سماره وجلسائه ، إلى أَن مات فى حدود سنة ١٧٠ هـ .

ومن خطبه القصار ، ما عزى به المهدى يوم ماتت ابنته « البانوقة » وجزع

عليها جزعاً شديدا ـ أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رزئت أجرًا ، وأعقبك صبرا ولا أجهد الله بلاءك بنقمة ، ولا نزع منك نعمة ، ثواب الله خيرٌ منها ، ورحمة الله خير لها منك ، وأحق ما صبُر عليه مالا سبيل إلى رده .

الكتابة ـ خطية وإنشائية

الكتابة الخطية : تنوع فى هذا العصر الخط الكوفى إلى أنواع أربت على خمسين نوعاً : ـ ومن أشهرها : المحرّر ، والمشجّر ، والمربّع ، والمدوَّر ، والمتداخل وبقى مُستعملا فى المبانى والسكة إلى حدود الألف . ثم نسى جملة وقد جددت منه أنواع فى عصرنا ، أما تاريخ خطنا المستعمل الآن فحدث فى آخر الدولة الأموية أن استنبط (قطبةُ) المحرر من الخط الكوفى والحجازى خطاً هو أساس الخط الذى يكتب به الآن ، واخترع القلم الجليل الذى يكتب به على المبانى ونحوها وقلم الطومار (الورقة الكبيرة) وهو أصغر أنواع الجليل وحسن عملة غيره من كتاب صدر الدولة العباسية حتى ظهر إبراهيم الشَّجْرى ، وأخوه يوسف من كتاب أواخر القرن الثانى فولد إبراهيم من الجليل قلم الثلثين وولد يوسف من الجليل القلم الرياسى ، وهو قلم التَّوقيع ، وعن إبراهيم أخذ الاحول المحرر من (صنائع البرامكة) واخترع قلم النصف .

هذه هى أشهر الخطوط وقد تولد منها نحو من ٢٠ خطاً ، يختص كلٌّ منها بغرض خاص ، واتفقوا على أن طول الألف يعتبر معيارًا لارتفاع بقية الحروف . وأن يكون طول الألف مربعاً مقدار قطة القلم .

وعن الأحول أخذ مهندس الخط الأعظم الوزير (أبو على محمد بن مُقلة) وأخوه أبو عبد الله الحسن المتوفى سنة ٣٣٨ هـ ، وهما اللذان تمَّ على أيديهما هندسة خط النسخ والجليل وفروعه على الأشكال التى نعرفها الآن ، وأمّا العمل الذى بدأ به (قطبة) فهندسا الحروف ، وقدَّرا مقاييسها وأبعادها

وضبطاها ضبطاً محكما ، واخترعا له القواعد ، وعن الوزير ابن مقلة أخذ أبو عبد الله بن أسد القارئ المتوفى سنة ٤١٠ هـ ، وعنه أخذ أبو الحسن على ابن هلال البغدادى المعروف بابن البواب — المتوفى سنة ٤١٣ هـ — وهو الذى أكمل قواعد الخط. واخترع عدة أقلام ، وإليه انتهت الغاية . وكل من جاء بعده فهو تابع لطريقته كأمين الدين ياقوت الملكى المتوفى سنة ١٦٨ هـ — كاتب السلطان ملكشاه السلجوقى — أما الأندلسيون والمغاربة فلم يعبأوا بهذا الاصطلاح وبقوا يكتبون على طريقة الخط. الحجازى إلى الآن بنوع من التعديل — واخترع الجليل الشكل المستعمل الآن بأن كتب الضمة واواً تكتب فوق الحروف ، والفتحة ألفاً ، والكسرة ياءً والشدة رأس شين ، والسكون رأس خاءٍ وهمزة القطع رأس عين ، ثم اختزل شكلها وزيد عليها حتى آلت إلى الشكل المعروف الآن ، وهاك ترجمة الخطاط المتفنن المشهور .

ابن مُقلة

هو الوزير أبو عليٍّ محمد بن على بن الحسن بن مقلة إمام الخطاطين . وأحد كبار الكتاب البارعين ، أخذ الخط. عن الأحول المحرر صنيعة البرامكة ، وتم على يديه ويدى أخيه الحسن نقل الخط. من الكوفى إلى الشكل المعروف فى زماننا ، وكان ابن مقلة يتولى فى أول أمره بعض أعمال فارس ، ويجبى خراجها ، وتنقلت به الأحوال إلى أن استوزره الإمام المقتدر بالله سنة ٣١٦ هـ ، ثم كاد له أعداؤه عنده فقبض عليه سنة ٣١٨ هـ ، ونفاه إلى فارس ، ثم وزر للراضى فوشى به أعداؤه عنده فقبض عليه وعزل ، ثم أطمعه نحسهُ أن يكيد لابن رائق ، أمير الأمراء ببغداد عند هذا الخليفة ، فقبض عليه ابن رائق وقطع يده اليمنى ثم عاد فقطع لسانهُ أيضاً ، حتى مات سنة ٣٢٨ هـ ومن قوله فى تلك الحوادث :

إذا ما مات بعضك فابك بعضاً   فإنَّ البعض من بعض قريب

وقوله :

ما سئِمْتُ الحياة لكن توثقت بأَيمانهم فبانَتْ يمينى
بِعتُ دينى لهم بدُنياى حتى حرمونى دُنياهمو بعد دِينى
ولقد حُطْت ما استطعت بجُهدى حفظ أَرواحهم فما حفظونى
ليس بعد اليمين لذَّةُ عيش يا حياتى بانت يمينى فبينى

الكتابة الإنشائية فى الرسائل الديوانية والإخوانية

كانت كتابة الرسائل فى أَوائل حُكم بنى العبَّاس جارية على نظام كتابتها فى أَواخر عهد بنى أُمية ، سالكة الطريق التى سلكها عبد الحميد ، وابن المقفع ، والقاسم بن صبيح ، وعمارةُ بن حمزة ، ونظراؤهم ، من العناية بجعل عبارتها جزلة بليغة متناسقة الوضع والأُسلوب ، لايقصد بها إلا إفهام المعنى الجيد بوضوح وبلاغة وقوة حجة ، غير منظور فيها إلى زخرف اللفظ ومحسناته ، وبقيت كذلك بل زادت حسناً وجمالا ومراعاة لمقتضى الحال إلى أَوائل القرن الرابع ثم أَخذت الصناعات اللفظية تغلب عليها تدريجيًا بتضاؤل ملكة البلاغة فى الكتاب وتقاصر هممهم عن استيفاءِ أَداتها لتغلب الأَعاجم من الديلم البويهيين والترك السلجُوقيِّين على سلطان الخلفاءِ فى الشرق ، وتغلب البربر على شمالى أَفريقية والأَندلس فى الغرب ، فلم يعد فى الملوك والأُمراءِ من يعنيهم أَمر العربية وبلاغتها ، وما زالت كذلك حتى سقطت الدولة العباسية على أَيدى الأَعاجم من التتار فكان ذلك عصر ابتداءِ اضمحلال الكتابة ، واضمحلال اللغة فى الجملة .

الكتاب

كان أَكثر كتاب المشرق فى هذا العصر ، من سلالة فارسية أَو سوادية ، بلغوا بحذقهم سياسة الملك ونبوغهم فى البلاغة أَن ارتقوا عند خلفاءِ العباسيين إلى مرتبة الوزارة ـ وأَول من ارتقى إليها هو أَبو سلمة الخلال ، وأَشهر من

بلغ نفوذه وسلطانه مبلغاً زاحم فيه الخليفة يحيي بن خالد بن برمك ، وابناه جعفر والفضل ، ثم محمد بن الزيات فى زمن المعتصم ، والواثق ، وكان كتاب الأندلس والمغرب أكثرهم من سلالة عربية ، ومن أشهر كتاب هذا العصر فى الشرق : ابن المقفع ، ويحيي بن خالد بن برمك ، وابناه جعفر والفضل ، وإسماعيل بن صبيح ، وعمرو بن مسعدة ، وأحمد بن يوسف ، وابن الزيات ، والحسن بن وهب ، وعلى بن الفرات ، وابن مقلة ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وأبو بكر الخوارزمى ، والبديع ، والصابى ، والعماد الكاتب ، والقاضى الفاضل .

ومن أشهر كتابه فى الأندلس : ابن شهيد ، وأبو المطرف بن عميرة ، وابن زيدون ، ولسان الدين بن الخطيب .

ابن المقفع

هو محمد بن عبد الله بن المقفع ، أحد فحول البلاغة ، وثانى اثنين مهد للناس طريق الترسل ورفع لهم معالم صناعة الإنشاء ، وأولهما (عبد الحميد)

منشؤه ـ نشأ ابن المقفع بين أحياء العرب ، فكان أبوه (داذَويْه) المقفع الفارسى يعمل فى جباية الخراج لولاة العراق من قبل بنى أُمية ، وهو على دين المجوسية ثم أسلم فى آخر عمره ، وولد له ابنه هذا حوالى سنة ١٠٦ هـ وسماه (رَوْزبَه) فنشأ بالبصرة وهى يومئذ حلبة العرب ومُنتدى البلغاء والخطباء ، والشعراء فكان لكل ذلك فوق ذكائه المفرط وتأديب أبيه له ، أعظم أثر فى تربيته وتهيئته لأن يصير من أكبر كتاب العربية ، وعلمائها وأدبائها والمترجمين إليها ، وأسلم بمحضر من الناس وتسمى (عبد الله) وتكنى بأبى محمد .

أخلاقه وبلاغته ـ كان نادرة فى الذكاء ، غاية فى جميع علوم اللغة والحكمة وتاريخ الفرس مُتأدباً متعففاً قليل الاختلاط إلا بمن على شاكلته ، كثير الوفاء لأصحابه .

وكان أُمة فى البلاغة ورصانة القول وشرف المعانى إلى بيان غرض وسهولة

لفظ ، ورشاقة أَسلوب ، ولاتوصف بلاغته بأَحسن مما وصف هو البلاغة ، حيث يقول : (البلاغة هى التى إذا سمعها الجاهل ظنَّ أَنه يحسن مثلها) .

ومن رسائله أنه عزى بعضهم فقال :

(أَما بعد) فإنَّ أَمر الآخرة والدُّنيا بيد الله ، هو يدبرهما ويقضى فيهما ما يشاءُ لا راد لقضائه ، ولا مُعقب لحكمه ، فإن الله خلق الخلق بقدرته ، ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة ، لئلا يطمع أَحدٌ من خلقه فى خلد الدنيا ، ووقت لكل شيءٍ ميقات أَجل ، لا يستأَخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ، فليس أَحد من خلقه إلا وهو مُستيقنٌ بالموت ، لا يرجو أَن يخلصه من ذلك أَحد ، نسأَل الله تعالى خير المنقلب ؛ بلغنى وفاة فلان ، فكانت وفاته من المصائب العظام التى يحتسب ثوابها من ربنا الذى إليه منقلبنا ومعادنا وعليه ثوابنا . فعليك بتقوى الله والصبر وحسن الظن بالله ، فإنه جعل لأَهل الصبر صلوات منه ورحمة ، وجعلهم من المهتدين .

وقد ترجم كتباً عديدة من أَشهرها كتاب (كليلة ودمنة) وقيل : إن هذا الكتاب من وضع ابن المقفع – وهو قول مقبول لا بأْس به – وله كتاب (الأَدب الكبير) و(الأَدب الصغير) و(الدرة اليتيمة) وقتله والى البصرة سفيان بن معاوية سنة ١٤٢ هـ ، لاتهامه بالزندقة ، والكيد للإسلام بترجمة كتب الزندقة .

إبراهيم الصولى

هو أَبو إسحاق إبراهيم بن العباس بن محمدبن صول ، كاتب العراق ، وأَشعر أَصحاب المقطعات ، نشأَ ببغداد ، فتلقى العلم والأَدب عن أَئمة زمانه ، واشتغل بالشعر فى حداثتهِ ، فبرع فيه ، وتكسَّبَ به ، ورحل إلى العمال والأُمراءِ يمدحهم ويستميح جدواهم ، ثم قصد الفضل بن سهل وزير المأْمون أَيام مقامه معه

بخراسان ومدحه ، فوهب له عشرة آلاف درهم ، وجعله الفضل كاتباً لأَحد قوَّاده وبقى يتنقل فى أَعمال النواحى والدواوين حتى كان زمن الواثق عاملا على الأَهواز ، فتحامل عليه وزيره ابن الزيات ، فعزله وسجنه بها ، فكتب إليه يستعطفه ، فلم يزدد بذلك إلا جَفاءً وغلظة ، ثم اطلع الواثق على ذلك فأَطلقه وتولى ديوان الضياع والنفقات فى خلافة المتوكل ، ومات سنة **٢٤٢** هـ ومن رسائله معزية عن لسان المنتصر بالله إلى طاهر بن عبد الله مولى أَمير المؤمنين :

(أما بعد) تولى الله توفيقك وحياطَتكَ ، وما يرتضيه منك ويرضاه عنك ؛ إن أَفضل النعم نعمةٌ تلقيت بحقِّ الله فيها من الشكر ، وأَوفرَ حادثة ثواباً حادثة أُدِّى حقُّ الله فيها من الرضا والتسليم والصبر ، ومثالك من قدم ما يجب لله عليه فى نعمة فشكرها ، وفى مصيبة فأَطاعه فيها ، وقد قضى الله سبحانه وتعالى فى محمد بن إسحاق مولى أَمير المؤمنين – عفا الله عنه ! – قضاءه السابق والموقع ، وفى ثواب الله ورضا أَمير المؤمنين – أَدام الله عزه ! – وتقديم ما يقدم مثله أَهل الحجا والفهم ، ما اعتاضه معتاض وقدمه موفق ، فليكن الله عز وجل وما أَطعته به ، وقدمت حقه أَولى بك من الأُمور كلها ، فإنك إن تتقرب إليه فى المكروه بطاعته ، يحسن ولا يتك فى توفيقك لشكر نعمه عندك .

ابن العميد

هو الأُستاذ الرئيس الوزير أَبو الفضل محمد بن الحسين العميد ، كاتب المشرق وعماد ملك آل بويه وصدر وزرائهم ، نشأَ شغوفاً بمعرفة العلوم العقلية واللسانية فبرع فى علوم الحكمة والنجوم ، ونبغ فى الأَدب والكتابة وابتدع طريقة الشعر المنثور ، حتى قيل فيه (بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد) ثم رحل عن أَبيه إلى آل بويه ، وتقلدَ شريفَ الأَعمال فى دولتهم – إلى أَن تولى وزارة

ركن الدولة سنة ٣٢٨ هـ فساس دولته ووطد أركانها ، وتشبه بالبرامكة ففتح بابه للعلماء والفلاسفة والشعراء والأُدباء ، وكان يشاركهم فى كل ما يعلمون إلا الفقه ، وما زال فى وزارته محطَّ الرحال ، وكعبة الآمال حتى توفاه الله تعالى سنة ٣٦٠ هـ .

ومن رسائله إلى أبى عبد الله الطبرى : كتابى إليك ، وأنا بحال لولم يُنغصها الشوق إليك ، ولم يرنق صفوها النزوع نحوك ، لعددتها من الأَحوال الجليلة ، وعددت حظى منها فى النعم الجليلة ، فقد جمعت فيها بين سلامة عامة ، ونعمة تامة ، وحظيت منها فى جسمى بصلاح ،وفى سعيى بنجاح ،ولكن ما بقى أن يصفو لى عيش مع بُعدى عنك ، ويخلو ذرعى مع خلوِّى منك، ويسوغ لى مطعم ومشرب مع انفرادى دونك ، وكيف أَطمع فى ذلك وأَنت جزءٌ من نفسى ، وناظم لشمل أُنْسى ، وقد حرمت رؤيتك ، وعدمتُ مشاهدتك ، وهل تسكن نفس مُتشعِّبة ذات انقسام ، وينفع أُنسُ بيت بلا نظام ، وقد قرأْت كتابك ، جعلنى الله فداءك ، فامتلأْت سرورًا بملاحظة خطك ، وتأَمل تصرفك فى لفظك .

وما أَقرظهما فكل خصالك مقرظ عندى ، وما أَمدحهما ، فكل أَمرك ممدوح فى ضَميرى وعقدى .

بقية خلفاء العباسيين

عبد الله المستكفى بالله	٣٣٤/٣٣٣	المنصور الراشد لله	٥٣٠/٥٢٩
القاسم المطيع لله	٣٦٣/٣٣٤	محمد المقتفى لأمر الله	٥٥٥/٥٣٠
أبو بكر الطائع لله	٣٨١/٣٦٣	يوسف المستنجد بالله	٥٦٦/٥٥٥
أحمد القادر بالله	٤٢٢/٣٨١	حسن المستضىء بأمر الله	٥٥٧/٥٦٦
عبد الله القائم بأمر الله	٤٦٧/٤٢٢	أحمد الناصر لدين الله	٦٢٢/٥٧٥
عبدالله المقتدى بأمرالله	٤٨٧/٤٦٧	محمد الظاهر بأمر الله	٦٢٤/٦٢٢
أحمد المستظهر بالله	٥١٢/٤٨٧	منصور المستنصر بالله	٦٤٠/٦٢٤
فضل المسترشد بالله	٥٢٩/٥١٢	عبد الله المستعصم بالله	٦٥٦/٦٤٠

وأَرجو أَن تكون حقيقة أَمرك موافِقةً لتقديرى فيك؛ فإن كان كذلك وإلا فقد غطى هواك وما أَلقى على بَصرِى .

الصاحب بن عباد

هو كافى الكفاة أَبو القاسم إسماعيل الصاحب بن عباد ، وزير آل بويه وكاتبهم ، ولد سنة ٣٢٦ هـ بطالقان قزوين ، وتعلم العلم والأَدب من أَبيه ، ثم اتصل بابن العميد ، فلزم صُحبته ، وأَخذ عنه الأَدب ، وتولى له كتابة خاصته ، ثم تنقلب به الأَحوال فى خدمة ملوك بنى بُويه ، فكان وزيراً لمؤيد الدولة ، ثم لأَخيه فخر الدولة ، وله فى ملكها اليد المطلقة ، والأَمر النافذ حتى مات سنة ٣٨٥ هـ .

ويعد ابن عباد فى الكتابة ثانى ابن العميد فى حلبته ، وأَبلغ من سلك طريقته غير أَنه أولع بالسجع والجناس ، ولايعرف بعدهما من بلغ بشرف العلم والأَدب مبلغهما ، ولا حل من شرف الملك والسلطان بمهنة الكتابة منزلتهما ، ومن رسائله ما كتب به إلى بعض السادة ، وقد أَهدى إلى ابن عباد مُصحفاً :

أَلبر ، أَدام الله السيد أَنواع ، تطول به أَنواع ، وتقصر عنه أَنواع ، فإن يكن فيها ما هو أَكرم منصباً ، وأَشرف منسباً ، فتحفة السيد ، إذ أَهدى مالاتشاكله النعم ، ولا تُعادِله القيمُ ، كتاب الله وبيانه ، وكلامه وفرقانه ، ووحيهُ وتنزيله وهُداه وسبيله ، ومعجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودليله ، طبع دون معارضة على الشفاه وختم على الخواطر والأَفواه ، فقصر عنه الثقلان ، وبقى ما بقى الملوان ، لائح سراجه ، واضح منهاجه ، منير دليله ، عميق تأْويه ، يقصم كل شيطان مريد ، وبذل كل جبار عنيد ، وفضائل القرآن لا تحصى فى مطوّلات الأَسفار؛ فأَصِف الخط الذى بهر الطرف ، وفاق الوصف ، وجمع صحة الأَقسام ، وزاد فى نخوة الأَقلام ، بل أَصفه بترك الوصف فأَخباره آثاره ، وعينه

فُراره ، وحقا أَقول إِنى لا أَحسب أَحدا ماخلا الملوك جمع من المصاحف ما جمعت وابتدع فى استكتابها ما ابتدعت ، وإِن هذا المصحف لزائد عن جميعها زيادة الفرع على الغرَّة ، بل زيادة الحج على العُمرة .

أبو بكر الخوارزمى

هو أَبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى ، الكاتب الشاعر اللغوى الأَديب الرحالة ، ولد بخوارزم سنة ٣٢٣ هـ ونشأَ بها ، وكان ضليعًا فى كلِّ فن من فنون العربية ، وخاصة الكتابة والشعر ، جاب الأَقطار ، ودخل الأَمصار من الشام إِلى أَقصى خراسان ، فى استفادة العلم والأَدب وإِفادتهما ، وكان كثير الحفظ للشعر غزير مادة اللغة .

وتقلب الخوارزمى فى خدمة كثير من الملوك والأُمراء والوزراء ــ حتى أَلقى عصا التسيار بمدينة نيسابور ، وطاب عيشه بها إِلى أَن مُنى فى آخر أَيامه بمساجلة بديع الزمان الهمذانى ومناظرته ومناضلته ، وأَعانه عليه قوم من أَعيان البلدة ووجوهها ، فانخذل الخوارزمى انخذالًا شديدًا ، وكسف باله ، ولم يحل عليه الحول حتى مات سنة ٣٨٣ هـ .

وكان الخوارزمى ممن يجرى على طريقة ابن العميد فى الكتابة متوخيًا جزالة الأَلفاظ ، مُحتفلًا بصحة المعانى مع مَيل فيه إِلى الغريب ، وتقدم له كثير من الرسائل .

بديع الزَّمان الهمذانى

هو أَبو الفضل أَحمد بن الحسين الكاتب المترسل ، والشاعر المبدع .

منشؤه : نشأَ بهمذان ، ودرس العربية والأَدب ، ونبغ فيهما ، وضرب فى الأَرض يتكسَّب بأَدبه ، ثم أَقام بنيسابور مدَّة أَملى بها أَربعمائة مقامةٍ ، بنمط رشيق وسجع رقيق ، وعلى منوالها نسج الحريرىُّ ، ثم شجر بينه وبين

الخوارزمى ما كان سبباً فى هبوب ريحه ، وبعد صيته ، إذ لم يكن فى الحسبان أن أحدًا يجترئ على الخوارزمى .

وبموت الخوارزمى خلا له الجوُّ عند الملوك والأُمراء ، فجول فى حواضرهم ، ثم استوطن هَراة ، وصاهر أَحد أَعيانها العلماء ، فحسنت حاله ، ونعم باله ، ولكن المنية عاجلته وهو فى سن الأَربعين سنة ٣٩٣ هـ ، وتقدم له كثير من الرسائل والمقامات المشهورة .

ابن زيدون

هو الكاتبُ الشاعر ذو الوزارتين أَبو الوليد أَحمد بن عبد الله المشهور بابن زيدون المخزومى الأَندلسى ، ولد سنة ٣٥٤ هـ ، ونشأَ فى مدينة قرطبة ، وتأَدَّب على كبار أئمتها ، وقال الشعر وأَجاده ، ولما نُبه شأْنه بين شعراءِ قرطبة ، اتَّصل بأَبى الوليد بن جَهور أَحد ملوك الطوائف فحظى عنده ومدحه حتى أَصبح لسان دولته الناطق ، وحسامها المسلول ، فأَفسد أعداؤه ما بينه وبين ابن جهور ، فاعتقله ومكث فى مَحبسهِ مدَّة استشفع فيها إليه بقصائد أَبدعها ، ورسائل استنفد فيها جهده ، فما أَلانت له قلباً ، فأَعمل الحيلة فى فراره من سجنه ، وخلص إلى المعتضد ابن عباد ملك إشبيلية إذ كان أَشد ملوك الطوائف رغبة فيه وأَكثرهم تمسكا بالأُدباءِ ، فأَلقى إليه مقاليد وزارته ، وأَصبح صاحب أَمره ونهيه ، ولما مات المعتضد وخلفه ابنه المعتمد كان له كما كان أَبوه ، وأَغدق عليه برَّه ونعمته .

ومكث ابن زيدون على هذه الحال حتى مات بإشبيلية سنة ٤٦٣ هـ .

القاضى الفاضِل

هو أَبو على عبد الرحيم البيسانى اللخمى ، ولد بمدينة عسقلان سنة ٥٢٩ هـ ، وتعلم على أَبيه وغيره ، قدم مصر وهو شابٌّ ، وتولى رئاسة ديوان الإِنشاءِ فى أَواخر الدولة الفاطمية .

وتعلم فى ديوان ابن حديد قاضى الإسكندرية ، وظهر فضله فيما كان يرسله إلى القاهرة من الرسائل فاستقدم أيام الظافر إليها وكان من كتاب ديوانه ، ولازم خدمة أكابر القضاة و الكتّاب فى الديوان وأخذ عنهم ، وحاكاهم بل فاقهم فصاحة وبلاغة لسعة اطلاعه ، وغزارة مادته وسرعة بديهته ، وصفاء خاطره .

ولما سقطت الدولة الفاطمية تولى وزارة صلاح الدين بن أيوب ، وكان يتردّد بين مصر والشام فى الحروب الصليبية ، ودبر المملكة أحسن تدبير — وبقى فى الوزارة حتى مات صلاح الدين فوزر لابنه العزيز على مصر ، ثم وزر من بعده لأخيه ، ومات سنة ٥٩٦ هـ . ومن رسائله القصيرة رسالة كتبها على يد خطيب عيذاب إلى صلاح الدين يتشفع له فى توليته خطابة الكرك وهى :

أدام الله السلطان الملك الناصرَ وثبته ، وتقبل عمله بقبولٍ صالحٍ وأثبته ، وأرغم أنف عدوه بسيفه وكبتهُ .

خدمة المملوك هذه واردة على يد خطيب عيذاب ، ولما نبا به المنزلُ عنها وقل عليه المرفق منها وسمع هذه الفتوحات التى طبق الأرض ذكرها ، ووجب على أهلها شكرها — هاجر من هجير عيذاب وملحها ، سارياً فى ليلة أملٍ كلها نهار فلا يسأل عن صبحها ، وقد رغب فى خطابة الكرك وهو خطيب وتوسّل بالمموك فى هذا الملتمس وهو قريب ، ونزع من مصر إلى الشام ، وعن عيذاب إلى الكرك وهذا عجيب ، والفقر سائق عنيف ، والمذكور عائل ضعيف ، ولطف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف — والسلام .

التدوين والتصنيف

كانت الحاجة إلى التدوين قد اشتدت فى مبدأ الدولة العباسية لاتساع ممالك الإسلام ، فهب العلماء إلى تهذيب ما كتب فى الصحف المتفرقة ، وما حفظوه فى

الصدور ، ورتبوه وبوبوهُ وصنفوه كتباً ، وكان من أَقوى الأَسباب لإِقبال العلماءِ على التصنيف حث الخليفة (أَبى جعفر المنصور) عليه ، وحمله الأَئمة والفقهاءَ على جمع الحديث والفقه ، ولم يقتصر على مُعاضدة العلوم الإِنسانية ، بل أَوعز إِلى العلماءِ والمترجمين أَن ينقلوا إِلى العربية من الفارسية واليونانية فنون الطب والسياسة والحكمة والفلك والتنجيم والآداب ، وتابعه فى ذلك أَولاده وأَحفاده ، حتى زخرت بحور العلم ، واخترعت الفنون ، وتفرعت المسائل ودونت الكتب فى كل فن .

كتابة التصنيف والتدوين

وكانت كتابة التصنيف والتدوين فى القرن الأَول وبعض الثانى من النهضة عبارة عن سلسلة من الروايات المسندة إِلى رواتها ، وبعضها يروى بلفظ أَصحابها غالباً كما فى الشعر والخطب والرسائل ، وبعضها بلفظ الراوى كما فى أَخبار الفتوح والتاريخ والقصص ، ثم ظهرت بعد ذلك فى العلوم الشرقية واللسانية طبقات الاستنباط والتعليل ، والتفريع والشرح والاختصار ، وجمع الفروع تحت كليات عامة ، فلم يكن للمولفين بُد من حذف أَسانيد الروايات ، وترك المحافظة على نقلها بلفظها إِلا فى الحديث ونحوه .

أَما كتب العلوم المترجمة فكانت عبارتها هى تفسير أَلفاظها الأَعجمية بالعربية ، ولم تكن ترجمتها جيدة فى (عصر المنصور) ثم صُحِّحت ترجمتها فى زمن (الرشيد والمأْمون) ثم لما أَتقن كثير من فلاسفة المسلمين هذه العلوم كتبوا فيها بعباراتهم ، وكانت أَول أَمرها بليغة مفهومةً ، ثم عمّوها على بعض الفقهاءِ المكفرين لهم والمغرين الأُمراءِ بقتلهم حتى أَصبحت عبارة كتب الفلسفة والتوحيد أَصعبَ ما يقرأُ باللسان العربى .

العلوم اللسانية ونشأَتها

العلوم اللسانية هى الأَدب ، والتاريخ ، والعروض ، والنحو ، واللغة ، والبلاغة

علم الأَدب ــ كانت كتبه فى أول هذا العصر رسائل يبحثُ كل منها فى ضرب خاص من ضروبه ، كرسائل ابن المقفع ، ورسائل سهل بن هرون : فى الأَخلاق، وكتاب النوادر ، وكتاب الأَراجيز ، وكتاب الشعر للأَصمعى، وكتاب الشعر والشعراءِ لأَبى عُبَيدة ، وإذا تابعنا من يقول إن ابن المقفع هو الذى ابتدع كتاب (كليلة ودِمْنة) ونحله الهند والفرس : كان هذا الكتابُ أَول كتاب ظهر فى (الأَدب العربى) الخاص بموضوع واحد ، وأَول كتاب ظهر فيه جامع لفنون كثيرة : منه كتاب (البيان والتبيين) وكتاب (الحيوان) للجاحظ ، واقتفى أَثره أَحمدُ بن طَيْفور فى كتابه العظيم (المنظوم والمنثور) فى أَربعة عشر جزءًا ، ثم أَبو العباس محمد المُبرَّد فى (الكامل ، والروضة) ، ثم أَبو حنيفة الدينورى وأَبو بكر محمد الصولى ، وابن قتيبة صاحب (أَدب الكاتب) . وابن عبد ربه صاحب (العقد الفريد) ، وأَبو على القالى صاحب (الأَمالى) ، وأَبو الفرج الأَصبهانى صاحب (الأَغانى) ، وغيرهم ، ومن أَشهر المؤلفين فى الأَدب : الجاحظ ، وأَحمد بن عبد ربه ، والحريرى ، وها هى ترجماتهم .

الجاحظ

هو إمام الأَدب أَبو عثمان عمرٌو الجاحظ بن بحر محبوب الكنانى البصْرى وُلد حوالى سنة ١٦٠ هـ بمدينة البصرة ونشأَ بها فتناول كلَّ فن : ومارس كل علم عُرِفَ فى زمانه مما وُضع فى الاسلام ، أَو نُقل عن الأُمم الأَوائل ، فأَصبح له مشاركة فى عِلْمِ كل مايقع عليه الحسن أَو يخطر بالبال ، فهو راويةٌ متكلمٌ فيلسوفٌ ، كاتبٌ مُصنفٌ ، مترسلٌ شاعر ، مورخٌ عالم بالحيوان والنبات والموات ، وصَّافٌ لأَحوال الناس ووجوهِ معايشهم واضطرابهم وأَخلاقهم وحِيَلهم ــ إلا أَنه غلب عليه أَمران : الكلام على طريقه المُعتزلة ؛ والأَدب الممزوجُ بالفلسفة والفُكاهة ، وكان غاية فى الذكاءِ ، ودقة الحس ، وحُسن الفراسة ،

وكان سمْحًا جوادًا كثير المواساة لإخوانه ، وكان على دمامة خَلقِه وتناقض خُلقه خفيف الرُّوح فكه المجلس غاية فى الظرف وطِيبِ الفكاهة وحلاوة الكلام — وهو على الجملة أحد أفذاذِ العالم وإحدى حُجج اللسان العربى . وأقام الجاحظ أكثر عُمره بالبصرة يعيش معيشة الأُدباءِ والعلماءِ ،محبوباً لولاتها وأعيانها ، محبُوًّا منهم بالعطايا والمنح ، بما يُصنِّفه لهم من الكتب المتفقة مع أهوائهم المختلفة — وكان كثير الانتجاع للخلفاءِ (ببغداد ، وسُرَّ مَنْ رأى) حتى فُلج بالبصرة وبقى مفلوجاً مدة إلى أن انتقل إلى بغداد فمات بها ودفن بمقبرة الخيزران (أُم الرشيد) سنة ٢٥٥ ه ، وله أكثر من مائتى كتاب .

أحمد بن عبد ربه

هو أديبُ الأَندلس وشاعرها أَبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه القُرطبى وُلد سنة ٢٤٦ ه ونشأَ بمدينة قرطبة ، ودرس علوم العربية فنبغ فى جميعها وحفظ منها ما لم يحفظه أحد من علماءِ زمانه ، وقرأَ رسائلَ المحدثين من المشارقة ، وما ترجم من كتب الأَوائل فى أكثر العلوم ، وأَودعَ زُبْدَة ذلك فى كتابه (العقْد الفريد) وكان يشتغل فى حداثته بالشعر ، ويجرى فى مضمار اللهو والطرب ، ونظم فى ذلك من القصائد والمُقطعاتِ الرقيقة الجميلة ما جعل المتنبى على صلفه وكبره حين سمع شعره يسميه (مليح الأَندلس) ثم أقلع فى كبره عن صبْوته ، وأَخلص لله فى توبته . فاعتدَّ أَشعاره التى قالها فى الغزل واللهو عملا باطلا ، وعمِل على أَعاريضها وقوافيها قصائد فى الزُّهد يُعارضها بها ، وسماها (المُمحِّصات) ونال من خلفاءِ بنى أُمية بالأَندلس قبولًا ، وحل عندهم فى المكان الأَسمى ، وبقى بقرطبة رئيسا مسوَّدا ، حتى فلج ، وعاش بعد ذلك عدَّة سنين ، ثم مات بها سنة ٣٢٨ ه .

الحريرىُّ

هو أَبو محمد القاسم بن محمد بن عثمان الحريرى البصرى ، المولود سنة ٤٤٦ ه

الكاتب الشاعر اللغوى النحوى صاحب البدائع المأثورة فى مقاماته المشهورة التى نسجها على منوال مقامات بديع الزمان الهمذانى. وأنشأ خمسين مقامة ، أتى فيها على كثير من مواد اللغة وفنون الأدب وأمثال العرب وحكمها ، بعبارة مُسجّعة مُزينة بأنواع البديع ، ولا سيما الجناس ، ترغيباً للطلاب فى حفظ اللغة وأدبها ، وتفكيهاً لهم بمطالعتها ، ونحل وقائعها (أبا زيد السروجى) وهو أعرابىٌّ فصيحٌ من سروج ، كان قد قدم البصرة وأعجبه بها علماؤها ، وسمى راويها عنه (الحارث بن همّام) —يريد نفسه— وأهداها إلى الوزير جمال الدين بن صدقة وزير المسترشد العباسى ، وله غير المقامات شعر كثير ورسائل بديعة وكتب فى النحو واللغة [منها كتابه (دُرة الغَوّاص فى أوهام الخواص) و (ملحة الإعراب فى النحو) وتوفى بالبصرة سنة ٥٢٢ هـ .

فن التاريخ

أول ما وضع فى التاريخ باللغة العربية الكتاب الذى وضعه عُبَيْدُ ابن شرية لمعاوية ، وفى صدر الدولة العباسية وضع كثير من العلماء كتباً فى التاريخ بأقسامه التى من أشهرها :

(١) فن السِّيرِ والمغازى ؛ وأشهر من ألف فيه من الأوائل : محمد بن إسحاق .

(٢) فن الفتوح ؛ وأشهر من ألف فيه منهم : الواقدى ، والمدائنى ، وأبو مخنف.

(٣) فن طبقات الرجال ، وأشهر علمائه : ابن سعد كاتب الواقدى ، والبخارى

(٤) فن النَّسب ؛ وأشهر قدماءِ علمائهِ : الكلبى ، وابنه .

(٥) فن أخبار العرب وأيامها ؛ وأشهر علمائه : أبو عُبيدة ، والأصمعى .

(٦) قصص الأنبياء ؛ وكتب فيه كثيرون .

(٧) تاريخ الملوك ؛ ومن أقدم مَنْ كتب فيه : ابن قتيبة الهيثم بن عدِى ، وابن واضح اليعقوبى ، ثم شيخ المؤرخين وعمدتهم محمد بن جرير الطبرى الجامع كتابه هذه الفنون السابقة مرتباً على حسب السنين الهجرية .

وحاكاه بعده ابنُ الأَثير فى تاريخه (الكامل) .

العروض والقافية

أَولُ من اخترع علم العروض «الخليل بن أَحمد» من غير سابقة نعلُّم على أُستاذ أَو تدرُّج فى وضع ، بل ابتدعهُ ، وحصر فيه أَوزان العرب فى خمسة عشر بحرًا ، وزاد عليه تلميذُ تلميذِه الأَخفش بحرًا آخر ، ثم لم يزد عليهما أَحدا يُعْتد به .

أَما القافية ، فقد كان العلماءُ قبل الخليل يتكلمون فيها ، ولكن الخليل هو أَول من فصَّل الكلاظم فيها ، وجعلها علمًا مدوناً .

النحو

جاءَت الدولة العباسية والنحو علم يُدْرُس فى المعاهد ، ولكن البصريين سبقوا الكوفيين فى الاشتغال به ، كما سبقهم الكوفيون فى الاشتغال بالشعر وعلم الصَّرْف .

ومن أَكبر الأَئمة الذين اشتغلوا بالنحو وهذَّبوه من البصريين أَبو عمر ابن العلاءِ وتلميذه الخليل ، وتلميذ الخليل «سيبويه» الواضع لأَول كتاب جامع فى النحو ؛ ثم بعده «الأَخفش» شارح كتابه .

ومن الكوفيين : مُعاذ الهراءُ ، والرُّؤاسى ، وتلميذهما الكسائىُّ ، وتلميذه الفراءُ .

علم اللغة

ويسمى «متن اللغة» ونعنى به معرفة معانى أَلفاظها المفردة ، وأَوَّل ما وضع الأَئمة فيه رسائل وكتباً صغيرة فى موضوعات خاصة ، فلما ظهر الخليل أَحصى أَلفاظ اللغة بطريقة حسابية فى كتاب ورتبه على حروف المعجم مقدِّماً حروف الحلق ، مبتدئاً منها بالعين ، ولذلك سمى معجمه (كتاب العين) ثم أَلف أَبو بكر بنُ دريد معجمه العظيم الذى سماه (الجَمْهرة) مرتباً

على حروف المعجم بترتيبها المعروف الآن ، وأدرك عصر الأزهرى فألف كتاب (التهذيب) على ترتيب الخليل ، ثم وضع الجوهرى كتابه المسمى (بالصحاح) على ترتيب الجمهرة وابن سيده الأندلسى كتابه (المحكم) على ترتيب الخليل ،وابن فارس كتابه (المجْمل) والصاحب بن عباد كتابه (المحيط.) وهذه هى أُصول كتب اللغة وما بعدها من (العباب ، والتكملة ، ومجمع البحرين) للصاغانى ، و (النهاية) لابن الأثير ، و (لسان العرب) لابن مكرم و (المصباح) للفيومى ، و (القاموس) للفيروزابادى ، فهو جمع لها أو اختصار منها .

علوم البلاغة ـ المعانى والبيان والبديع

أول كتاب دون فى علم البيان كتاب (مجاز القرآن) لأَبى عبيدة تلميذ الخليل ثم تبعه العلماءُ ولا يعلم أول من ألف فى المعانى بالضبط. ، وإنما أثر فيها كلام عن البلغاء وأشهرهم الجاحظ.فى (إعجاز القرآن) وغيره ، وأول من دون كتباً فى علم البديع ابن المعتز وقدامة بن جعفر ، وقبل ذلك كان البديع يستعمل فى الشعر عملا ، وبقيت هذه العلوم تتكامل ، ويزيد فيها العلماءُ حتى جاءَ فحل البلاغة عبد القاهر الجرجانى فألف فى المعانى كتابه (دلائل الإعجاز) وفى البيان كتابه (أسرار البلاغة) وجاءَ بعده السكاكى فألف كتابه العظيم (مفتاح العلوم) .

الخليل بن أحمد

هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدى الأزدى البصرى ، مخترع العروض ومبتكر المعْجمات ، وواضع الشكل العربى المستعمل حتى الآن .

ولد سنة مائة هجرية بالبصرة ، ونشأَ بها ، وأخذ العربية والحديث والقراءة عن أئمة زمانه ، وأكثر الخروج إلى البوادى ، وسمع الأعراب الفصحاء ، فنبغ فى العربية نبوغاً لم يكن لأحد ممن تقدمه أو تأخر عنه ، وكان غاية فى تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله ، ولقن ذلك تلميذه سيبويه .

ومما يشهد له بحدة الفكر وبعد النظر ، اختراعه العروض علماً كاملا ، لم يحتج إلى تهذيب بعده ، وابتكاره طريقة تدوين المعجمات بتأليف كتاب « العين » وتدوينه كتاباً دقيقاً فى الموسيقى على غير معرفة بلغة أجنبية واشتغال بلهو ، وزاد فى الشطرنج قطعة سماها « جبلا » لعب بها الناس زمناً ، وبقى الخليل مقيما بالبصرة طول حياته ، زاهدًا متعففاً مكبًّا على العلم والتعليم ـ حتى مات فى أوائل خلافة الرشيد سنة ١٧٠ هـ . بصدمة فى دعامة مسجد ارتج منها دماغه.

سيبويه

هو أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر ـ إمام البصريين ، وحجة النحويين .

ولد بالبيضاء من سلالة فارسية ونشأ بالبصرة ، وكان يطلب أول أمره الحديث والفقه ، فعيبت عليه لحنة لحنها فى مجلس شيخه ، فخجل وطلب النحو ، ولازم الخليل ، وأخذ عن غيره أيضاً ، وكان الخليل يؤثره على أصحابه ، فدون جميع ما أخذه عنه ونقله عن غيره فى كتابه الذى لم يجمع قبله مثله ـ ولولا هذا الكتاب الذى رواه عنه ، وشرحه تلميذه الأخفش ، ما كان لسيبويه خبر يشهر لوفاته كهلا ، ولقلة من أخذ عنه هذا الكتاب ، ولأنه لايعرف له كتاب غيره وبحسبك هو ، ومات ببلدته البيضاء بفارس سنة ١٨٠ ـ وسنه نيف وأربعون سنة .

الكسائى

هو أبو الحسن على بن حمزة ـ أحد القراء السبعة ، وإمام الكوفيين فى النحو واللغة ـ نشأ بالكوفة ، وتعلم على الكبر بعد لحنة لحنها أمام جمع من طلبة العلم ، فلازم أئمة الكوفة حتى أنفد ما عندهم ، ثم خرج إلى الخليل بالبصرة وجلس فى حلقته ، وأعجبه علمه ، فقال له : من أين علمك هذا ؟ فقال من بوادى الحجاز ونجد وتهامة ، فخرج إليها ، وأنفد خمس عشرة قنينة حبر فى الكتابة عن العرب ، سوى ماحفظ عنهم ، ولما رجع من البادية وجه إليه المهدى فخرج إلى بغداد فحظى عنده ، وضمه إلى حاشية ابنه الرشيد ، ثم جعله الرشيد مودب ولده الأمين ،

وكان يجلسه هو والقاضى محمد بن الحسن الشيبانى صاحب الإمام الأعظم أبى حنيفة على كرسيين مميزين بحضرته ، وما زالا على هذه الكرامة حتى خرج الرشيد إلى الرِّيِّ وهما فى صحبته فماتا فى يوم واحد فبكاهما ، وقال : دفنت الفقه والعربية بالرِّيِّ ـ وذلك سنة ١٨٩ هـ . وقد انتهت إليه إمامة القراءة والعربية بالكوفة وبغداد ـ وكان يروى الشعر ، وليس فيه جيد نظر .

العلوم الشرعية

التفسير ـ لم يُدوَّن فى كتب جامعة تجمع سور القرآن الكريم كلها إلا فى عصر الدولة العباسية ، وكان التفسير عبارة عن نقل روايات عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه تبين المراد من آياته ، وأول طبقة من المفسرين أدركت الدولة العباسية ،أو أنشئت فى صدرها طبقة سفيان بن عُيينة ، ووكيع بن الجراح ، وشعبة بن الحجاج ، وإسحاق بن رَاهَويه ، ومقاتل بن سليمان ، والفراء .

كتب الحديث

أول كتاب جمع فى الحديث الكتاب الذى أمر الخليفة الأموى «عمر ابن عبد العزيز» بتدوينه ولم يعرف له خبر بعد ، ثم أخذ العلماءُ يدونون فيه بحض الخليفة أبى جعفر وأولاده ، فدون الإمام مالك «مُوطأه» ولما اشتدت رغبة الناس فى طلب الحديث وضع كثير من الزنادقة واليهود المتظاهرين بالإسلام كثيرا من الأحاديث ، فتجرد لها الأئمة الأعلام ، وبينوا صحيحها من فاسدها ، كإسحاق بن راهويه وتلميذه محمد بن إسماعيل البخارى الذى دون كتابه فى الأحاديث الصحاح فقط ، وتبعه تلميذه مسلم ابن الحجاج ، والإمام أحمد بن حنبل ، وأصحاب الكتب الستةِ الصحاح ؛ وهم : الترمذى ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، والبخارى ، ومسلم .

هذه هى أُصول الكتب الصحيحة فى الحديث .

الإمام البخارى

هو أبوعبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة؛ إمام المحدثين؛ وصاحب «الجامع الصحيح» أجل كتب الإسلام وأفضلها بعد كتاب الله العزيز ولد ببخارى من سلالة فارسية سنة ١٩٤؛ ونشأ بها يتيما فحفظ القرآن وألم بالعربية وهو صبى وحُبب إليه سماع الحديث، فكان سماعه من علماء بخارى وهو لم يناهز البلوغ، حتى حفظ عشرات الألوف من الأحاديث ودخل من أجلها أكثر ممالك المشرق، وأخذ عنه علماؤها وأئمتها، ومنهم أحمد بن حنبل، وتفقه مبدئيا على مذهب الشافعى، واستخرج كتابه «الجامع الصحيح» من ستمائة ألف حديث، فى ست عشرة سنة، جمع فيه تسعة آلاف حديث مكررًا بعضها بتكرر وجوهها، وقال: إنى جعلته حجة بينى وبين الله، فأجمع علماءُ السنة على أنه لم يكن فيها أصح منه، ومات سنة ٢٥٦ .

علم الفقه

لما كان المروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وظاهر نص القرآن لايستوعِبان كل أحكام الوقائع المختلفة المتجددة بتجدد الزمان والمكان، كان الاجتهاد ضروريا فى الدين، وجاءت الدولة العباسية وأهل الحجاز يرجحون جانب الأخذ بالحديث لكثرة رواته بينهم، وإمامهم فى مذهبهم «مالك بن أنس» وأهل العراق يرجحون الأخذ بالقياس، وإمامهم فى مذهبهم «أبو حنيفة» لكثرة ما وضعه متزندقة العراق فى الحديث ثم لما دخل أهل الحجاز العراق، وتساوى الفريقان فى معرفة الحديث عملوا بهما ونشأ من ذلك عدة مذاهب أشهرها (مذهب أبى حنيفة، ومذهب مالك، ومذهب الشافعى، ومذهب أحمد بن حنبل) وهذه المذاهب الأربعة هى التى ارتضاها معظم الأمة فى أمر دينها ودنياها ثم كان لكل مذهب أئمة مجتهدون فيه .

الإمام الأَعظم أَبو حنيفة النعمان

هو الإمام الأَعظم أَبو حنيفة النعمان بن ثابت فقيه العراق ، ولد سنة ٨٠ هـ من سلالة فارسية ، ونشأَ بالكوفة ، وعاصر بعض الصحابة ، وأَخذ كل علمه عمَّن شافه الصحابة ونقل عنهم واستنبط. فقهه من القرآن الكريم وما صح عنده من الحديث مع استعمال الرأْى والقياس ، وكان من أَعبد الناس وأَكثرهم تهجدًا وقراءة للقرآن الكريم ، وأَكثرهم ورعاً وتوخياً للكسب من وجه حِل ، رضى أَن يعيش تاجر خز ، ورغب عن وظائف الملوك والخلفاء ، وعرض عليه القضاء من قبل أُمراءِ بنى أُمية ، ثم المنصور فأَبى ، فسجنه وآذاه ، حتى قيل إنه مات فى سجنه ، وكان يعتذر بأَنه لا يأْمن نفسه أَن تزل ، وقرأَ عليه علماءُ الكوفة وبغداد ، وتخرج عليه منها الأَئمة من أَصحابه كمحمد بن الحسن ، وأَبى يوسف ، وزفر ، ومات ببغداد سنة ١٥٠ هـ .

الإمام مالك

هو أَبو عبد الله مالك بن أَنس ، إمام دار الهجرة ، وسيد فقهاءِ الحجاز ، وهو عربى من سلالة أَقيال حِمْير ، ولد سنة ٩٥ هـ بالمدينة المنورة ونشأَ بها ، وأَدرك خيار التابعين من الفقهاءِ والعباد ، ورحل إليهم وأَخذ عنهم ، وما زال يدأَب فى التحصيل وجمع السنة حتى صار حجة من حجج الله فى أَرضه ، وضرب به المثل ، فقيل : « لا يفتى ومالك بالمدينة » وعرف الخلفاءُ قدره فأَجلوه ، حتى أَن الرشيد رحل هو وأَولاده إليه بالحجاز ليسمع « موطأَه » فسمعه وأَغدق عليه .

وكان مالك أَول أَمره فقيرًا ، فلما كثرت مِنحُ الخلفاءِ له حسن حاله ، فأَظهر نعمة الله عليه ووصل أَهل العلم وأَشركهم فى ماله ، ومنهم « الشافعى » .

وأَما أَخلاقه من حيث الكرم والطلاقة والوقار والنبل والتواضع والحب

لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها تجل عن الوصف حتى إنه كان لايركب دابة فى المدينة إجلالا لأرض ضمت جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتوفى سنة ١٧٩ هـ بالمدينة ـ ودفن بالبقيع .

الإمام الشافعى

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ، عالم قريش وفخرها ، وإمام الشريعة وحبرها ، وهو من ولد المطلب بن عبد مناف . ولد بمدينة غزة سنة ١٥٠ هـ ، وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين ، ونشأ بها فقيرا تربيه أمه ، ويواسيه ذوو قرابته من قريش ، حفظ القرآن وهو ابن تسع سنين وأولع بالنحو والشعر واللغة ، ورحل إلى البادية فى تطلبها ولم يناهز سن البلوغ حتى حفظ منها شيئًا كثيرًا ، ثم تفقه وحفظ (موطأ مالك) وأفتى وهو ابن خمس عشرة سنة ثم رحل فى هذه السن إلى (مالك) وقرأ عليه الموطأ من حفظه ، فقال مالك : إن يكن أحد يفلح فهذا الغلام ، وأضافه وخدمه بنفسه ، ثم رجع إلى مكة ، وعلم بها العربية والفقه ، وصحح عليه الأصمعى شعر الهذليين ، ثم دخل بغداد سنة ١٩٥ هـ ، فاجتمع عليه علماؤها وأخذوا عنه ، وفى سنة ١٩٩ هـ أو سنة ٢٠٠ هـ خرج إلى مصر وسكن الفسطاط فكانت دار هجرته ، وبها أملى مذهبه بجامع عمرو ، وتوفى بها سنة ٢٠٤ هـ .

الإمام أحمد بن حنبل

هو الإمام الصابر المحتسب أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيبانى .

ولد ببغداد من سلالة عربية سنة ٢٦٤ هجرية ، فتعلم وطلب الحديث وسمع من أئمة وقته ، حتى حفظ مئات الألوف من الأحاديث ، واختار نيفاً وأربعين ألف حديث ضمنها كتابه (المسند) واستنبط مذهبه من السنة مشوباً بشيء من القياس والرأى ، وظهرت فى مدته فتنة (خلق القرآن)

فامتحن بها فى مجلس المعتصم ليجيبهم إلى القول بخلق القرآن ، فلم يفعل ، فضُرب حتى أُغمى عليه ، وبقى مدة مريضاً ، ثم عُوفى واشتغل بالعلم والتعليم ببغداد ــ حتى مات سنة ٢٤١ هـ .

علم الكلام

كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين يستدلون على عقائدهم بظاهر الكتاب والسنة ، وما وقع فيهما من المتشابه ، أو أوهم التشبيه المنافى لتنزيه المعبود توقفوا فيه خوف أن يحيد بهم فهمهم فى التأويل عن القصد ــ غير أن ذلك لم يُقنع من دخل فى الإسلام فكثر جدلهم ، واضطر العلماءُ أن يُعارضوهم ، وساعدهم الخلفاءُ ، وأولهم المهدى الذى حرضهم على تدوين علم الكلام « التوحيد » فافترق الراضى عن مذهبهم من علماءِ الكلام فرقتين . فرقة اعتقدت ما يقرب من مذهب السلف وسُموا (الجماعة) أو أصحاب الحديث ، وفرقة اعتزلتها وخالفتها فى بعض المسائل وسُموا (المعتزلة) أو أصحاب العدل ، وجرى رجالُ الحكومة العباسية على هذا المذهب ونصروه ، حتى ظهر أبو الحسن الأشعرى فألف مذهبه الكلامى الذى سمِّى بعد بمذهب الأشاعرة . وغلب على كل مذهب سواه إلا بعض مذاهب قليلة كمذاهب الشيعة « وبقى كثير منها إلى الآن » ومذاهب الخوارج وبقى منهم إلى عصرنا بقية فى الجبل الأخضر من برقة ، وفى جزيرة جربة على ساحل تونس وببلاد البحرين .

أبو الحسن الأشعرى

هو أبو الحسن على بن إسماعيل شيخ طريقة أهل السنة والجماعة وإمام المتكلمين وُلد بالبصرة سنة ٢٧٠ هـ ونشأ بها ، وأخذ علم الكلام عن أبى على الجبائى شيخ المعتزلة ، وتبعه فى الاعتزال ، واحتج له حتى صار لسان المعتزلة أكثر من ثلاثين عاماً ، ثم هداه البحث أخيرًا فرأى أن كلا الفريقين من هؤلاءِ ومن

المعتزلة غالٍ فى نظره ، فتوسط ، وتغيب عن الناس مدة ألف فيها كتبه فى نُصرة أَهل السنة ، والرد على أكثر عقائد المعتزلة ، وكان شافعى المذهب .

توفى سنة ٣٢٤ هـ وممن نصر مذهبه الفخر الرازى ، وقاربه فى مذهبه القاضى أَبو منصور الماتريدى .

الإمام الغزالى

هو أَبو حامد محمد بن محمد الغزالى الطوسى الشافعى ، حُجة الإِسلام ، ولد سنة ٤٥٠ هـ ونشأَ بُطوس وتعلم بها مبادئ العلوم ، ثم رحل إلى نيسابور ، ولازم إمام الحرمين الجوينى ، وهو يومئذ عالم الشافعية فى الشرق ، فما زال يتلقى عنه العلم حتى صار من أكابر مُتكلمى الأَشاعرة وفقهاءِ الشافعية ، ولما مات الجوينى ذهب إلى بغداد ولقى الوزير نظام الملك صاحب المدرسة النظامية الشهيرة وناظر بحضرته العلماء فظهر عليهم ، وأَقر له فحول العراق بالفضل ، فتولى التدريس بالمدرسة النظامية أَربع سنوات ــ ثم حجَّ وذهب إلى الشام يدرس ويسيح لزيارة بعض مشاهد أَنبيائها ثم دخل مصر وأَقام بالإِسكندرية مدة ثم عاد إلى وطنه طوس ، واشتغل بتأْليف الكتب الجليلة وفى مقدِّمتها كتاب «إِحياءِ علوم الدين» ثم أُلزم التدريس بنيسابور ، ثم عاد إلى وطنه حيث أَمضى بقية عمره بين التدريس ووعظ الصوفية وعمل البر ، حتى مات بالطابران قصبة طوس سنة ٥٠٥ هـ .

* * *

نشأَة العلوم الكونية المنقولة

وترجمتها وأَشهر المترجمين والمشتغلين بها

وكانت تسمى علوم الفلسفة والحكمة وتشمل أَربعة علوم : المنطق ، والطبيعيات ، والرياضيات ، والإِلهيات ، وتشمل الطبيعيات علم الطبيعة ، والكيمياء ، وفن المواليد الثلاثة ، والطب والصيدلة والفِلاحة .

وتشمل الرياضيات : علم الحساب وعلم الجبر وعلم الهندسة وعلم الآلات (الميكانيكا) علم الفلك الشامل للهيئة والتنجيم ، ومن متعلقاته علم الجغرافيا الرياضية ، ويلحق بهذه العلوم علم السياسة وتدبير المنزل والمال وعلم الأخلاق وفنون الموسيقى .

وتشمل الإلهيات: علم ما وراء الطبيعة من الروحانيات والمدركات العقلية كالبحث عن صفات الخالق والقوى النفسية والجنّ والملائكة ، ونحو ذلك .

وهذه العلوم فطرية فى الإنسان من حيث إنه متفكر متمدين لا تختص بها أمة دون أخرى ، فكان الاشتغال بها ضرورياً لكل أمة أصبحت ذات حضارة ولذا ترجم المسلمون بعضها فى عصر بنى أمية ، واستقدم «المنصور العباسىُّ» كثيراً من الأطباء والمترجمين ، فترجموا له كتب اليونان والفرس والهنود فى الطبّ والفلك والسياسة .

ولما جاء عصر المنصور فتر أمرُ الترجمة إلى زمن الرشيد والبرامكة فحثوا العلماء على ترجمة الكتب اليونانية ؛ وصححوا بعض ما ترجم زمن المنصور .

ثم جاء عصر (المأمون) فزخرت بحور الترجمة ، وبعث إلى بلاد الروم جماعة من المترجمين كابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة والحجاج ابن مطر ، وحُنين بن إسحاق ؛ فاختاروا كتباً حملوها إلى بغداد وترجمت ، وتعلمها الناس وصححوا أغلاطها ، واستدركوا عليها ولم يمض قرن من تأسيس الدولة العباسية حتى برع المسلمون فى هذه العلوم كلها ؛ وظهر بينهم من الحكماء والفلاسفة من كاد يلحقُ فلاسفة اليونان ومن هؤلاء فيلسوف الإسلام والعرب (أبو يوسف يعقوب بن إسحق بن الصبَّاح الكندى) وتلميذه أحمد بن الطيب السرخسى ؛ وبنو موسى بن شاكر محمد وأحمد والحسن أشهر رياضى هذا العصر : وأول المخترعين من المسلمين فى الحيل والهندسة ؛ ومحمد بن موسى الخوارزمى مخترع علم الجبر والمقابلة ومذيع الحساب

الهندى بين العرب ؛ ثم ذهب طورُ الترجمة والتصحيح وتلاه طورُ التأليف والتكميل والاختراع فأَتى به بالعجب العُجاب أَبو نصر محمد بن طرخان الفارانى الحكيم الكبير مخترع آلة الطرب المسماة بالقانون ؛ والتى استنبط الأَفرنج بمحاكاتها آلة المعزف (البيانو) المتوفى سنة ٣٣٩ هـ ، وأَبو بكر محمد ابن زكريا الرازى الطبيب الكيميائى الشهير المتوفى سنة ١٦٤ هـ ، والشيخ الرئيس حكيم المشرق أَبو على الحسين بن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ ، وأَبو الريحان أَحمد بن محمد البيروتى الفلكى الرياضى المقوم المتوفى سنة ٤٣٠ هـ .

وكان لدولة الفواطم فى مصر اشتغال بهذه العلوم ، فاشتهر فى دولتهم فى الفلك والرياضيات ابن يونس ، وفى الطب ابن رضوان وغيرهما .

ولم يُعن أَهل الأَندلس بهذه العلوم عناية أَهل المشرق ، وأَشهر من نبغ منهم فيها أَبو الوليد القاضى أَحمد بن رُشد ، وأَبو القاسم الزهراوى ، ومن كتب هؤلاءِ الأَئمة وأَمثالهم اقتبس أَهل (أوربا) كثيرًا من أُصول مدنيتهم الحاضرة.

الشعر والشعراء

قد كان للشعر عند الخلفاءِ والوزراءِ ، والقوَّاد سوقٌ نافقة ، حتى عند روساءِ الأَعاجم من الديلم والترك ، ودام كذلك إلى انتهاءِ الدولة العباسية ، وبهذه العناية العظيمة بل وكثرة قائليه تفنن الناس وأَدخلوا عليه فنوناً لم تُعهد فيه واستعملوه فى كل غرض حتى التعبد به ، وتشكل أَسلوبه ، وتنوعت معانيه بما يُطابق أَغراض استعماله .

ولم يقتصر الشعر على الموالى فى صدر الدولة العباسية كالكتابة بل اشتركوا فيه هم وغيرهم من أَعراب البادية أَحياناً ، ومن سلائل العرب بالأَمصار الأُخرى ، غير أَن بضعة من فحول صدر الدولة كانوا موالى مثل بشار ، وأَبى نواس ، ومسلم ، وأَبى العتاهية ، وابن الرومى .

ومن أَشهر شعراءِ الأَمصار من العرب أَبو تمام ،والبحترى، وابن المعتز ، والمتنبى

وأبو فراس وأبو العلاء المعرى ، وابن هانى الأندلسى ، والشريف الرضى :

(١) بشارُ بنُ برْد

هو أبو معاذ بشار المرَعّث بن برد ، أشعر مخضرمى الدولتين ، ورأْس الشعراءِ المحدثين وممهد طريق الاختراق والبديع للمتفننين ، وأحد البلغاءِ المكفوفين وأصله من فُرس طخارستان من سبى المهلب بن أبى صفرة فنشأَ بشارٌ فيهم ، واختلف إلى الأَعراب الضاربين بالبصرة ، حتى خرج نابغة زمانه فى الفصاحة والشعر ، وكان أكمه مجدور الوجه ، قبيح المنظر ، مفرط الطول ، ضخم الجثة ، متوقد الذكاءِ لايسلم من لسانه خليفةٌ ولا سُوقة ، لا يأْلف ولا يُؤلف .

شعره : قد أجمع رواة الشعر ونقدته على أن بشاراً هو رأْس المحدثين وأسبقهم إلى معاطاة البديع ، وطرق أبواب المجون والخلاعة والغزل والهجاءِ ، وأنه أول من جمع فى شعره بين جزالة العرب ورقة المحدثين . وفتق عن المعانى الدقيقة والأخيلة اللطيفة ، حتى عُدَّ شعره برزخاً بين الشعر القديم والحديث ، ومجازا يعبر عليه الشعر من مرابع البداوة إلى مقاصير الحضارة ومات مقتولا سنة ١٦٧ هـ ، ومن شعره فى المشورة والحكم والنصائح قوله :

إذا بلغ الرأْى المشورة فاستعن ... برأْى نصيحٍ أو نصيحة حازمِ
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافى قوةٌ للقوادمِ
وما خير كفٍّ أمسك الغلُّ أُختها ... وما خيرُ سيف لم يؤيد بقائمِ
وخلِّ الهوينى للضعيف ولا تكن ... نؤوماً فإن الحُرَّ ليس بنائمِ

وقوله :

ظلَّ اليسار على العباس ممدود ... وقلبهُ أبدًا بالبخل معقودُ
إن الكريم ليُخْفى عنك عسرته ... حتى تراه غنيًّا وهو مجهودُ
وللبخيل على أمواله عللٌ ... زرق العيون عليها أوجُه سودُ
إذا تكرهت أن تُعطى القليل ولم ... تقدر على سعةٍ لم يظهر الجُود

بث النوال ولا تمنعك قلته فكلّ ما سدَّ فقرًا فهو محمود

وقال :

إذا كنت فى كل الأُمور معاتباً صديقك لم تلق الذى لا تُعاتبه
فعش واحدًا أَو صِلْ أَخاك فإِنه مُقارفُ ذنب مرَّةً ومُجانبه
إذا أَنت لم تشرب مرارًا على القذَى ظمئت وأَى الناس تصفو مشاربه

وقال :

خليلىَّ إن المالَ ليس بنافع إذا لم ينلْ منه أَخ وصديقُ
وكنتُ إذا ضاقت علىَّ محلةٌ تَيمَّمتُ أُخرى ما على مضيقُ
وما خابَ بين الله والناس عامل له فى التقى أَو فى المحامِدِ سُوقُ
وما ضاق فضلُ اللهِ عن متعفف ولكن أَخلاقَ الرجال تضيقُ

(٢) أبو نواس

هو أبو الحسن بن هانئ ، الشاعر المتفنن ، والجاد الماجن ، وصاحب الصيت الطائر ، والشعر السائر ، ورأس المحدثين بعدبشَّار ، وهوفارسىُّ الأَصل ، ولدبقرية من كورة خوزستان سنة ١٤٥ هـ ، ونشأَ يتيما ، فقدمت به أُمه البصرة بعد سنتين من مولده ؛ فتعلم العربية ورغب فى الأَدب ، فلم تعبأْ أُمه بحاله وأَسلمته إلى عطار بالبصرة فمكث عنده لايفترُّ عن معاناة الشعر ، إلى أَن صادفه عند العطار (والبةَ ابن الحباب) الشاعر الماجنُ الكوفى ، فى إحدى قدماته إلى البصرة ، فأَعجب كل منهما بالآخر ، فأَخرجه والبةُ معه إلى الكوفة فبقى معه ومع ندمائه من خلعائها ؛ وتخرج عليهم فى الشعر وفاقهم جميعا ، وقدم بغداد فبلغ خبره (الرشيد) فأَذن له فى مدحه فمدحه بقصائد طنانة ، ثم انقطع إلى مدح محمد الأَمين الخليفة العباسى ، وثبت عنده بعض ما يوجب تعزيره فسجنه ولم يلبث بعد خروجه من السجن أَن مات ببغداد عام ١٩٨ هـ وكان أَبو نواس جميل الصورة ، فكه المحضر ، كثير الدعابة ، حاضر البديهة ، متيناً فى اللغة والشعر والأَدب ..

شعره : أَجمع أَكثر علماءِ الشعر ونقدته وفحولُ الشعراءِ على أَن (أَبا نواس) أَشعر المحدثين بعد بشّار وأَكثرهم تفنناً وأَبدعهم خيالا ، مع دقة لفظ ، وبديع معنى وأَنه شاعر مطبوع برَّز فى كل فن من فنون الشعر ، وامتاز بقصائده الخمريات ، ومقطعاته المجونيات ، وأَراجيزه الطرديات (أَقواله فى تبكيره إلى الصيد ومطاردته) وكان شعره لِقاح الفساد ، والقدوة السيئة لنقله الغزل من أَوصاف المؤنث إلى المذكر ، وإبداعه وصف الخمر ، فكان نموذج سوءٍ لمن تأَخر ، ومن ذلك قوله :

دَعْ عنك لومى فإن اللوم إغراءُ ... وداونى بالتى كانت هى الداءُ
صفراءُ لاتنزلُ الأَحزانُ ساحتها ... لو مسَّها حَجرٌ مَسته سراءُ
رقَّت عن الماءِ حتى ما يلائمها ... لطافةً ، وجفا عن شكلها الماءُ
فلو مَزجْتَ بها نورا لمازجها ... حتى تولد أَنوار وأَضْواءُ

ومن قوله لما حضرته الوفاة :

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة ... فلقد علمتُ بأَن عفْوكَ أَعظم
إن كان لايرجوك إلا مُحسن ... فبِمن يَلوذُ ويستجير المجرم ؟
أَدعوك ربِّ كما أَمرت تَضرُّعاً ... فإذا رددْت يدى فمن ذا يرحم؟
ما لى إليك وسيلةٌ إلا الرَّجا ... وجميل عفوك ثم إنى مسلم

(٣) مسلم بن الوليد

هو صريع الغوانى أبو الوليد مسلم بن الوليد الأَنصارى ، أَحد الشعراءِ المفلقين ، قال الشعر فى صباه ، ولم يتجاوز به الأُمراء والرؤساء ، مكتفياً بما يناله من قليل العطاءِ ، ثم انقطع إلى يزيد بن مزيد الشيبانى قائد الرشيد ، ثم اتصل بالخليفة (هارون الرشيد) ومدحه ومدح البرامكة وحسن رأْيهم فيه ، ولما أَصبح الحلُّ والعقد بيد ذى الرياستين (الفضل بن سهل) وزير المأْمون فى أَول خلافته قرَّبه وأَدناه وولاه أَعمالا بجرجان ، ثم الضياع

بأَصبهان ، واكتسب منهما مئات الأُلوف وأَنفقها فى لذاته وشهواته ، ولما مات الفضلُ لزم منزله ونسك ، ولم يمدح أَحدًا حتى مات بجرجان سنة ٢٠٨ ﻫ .

شعره : أَول من تكلف البديع فى شعره ، واستكثر منه فى قوله : ، ومزجَ كلام البدويين بكلام الحضريين ، فضمنَهُ المعانى اللطيفة ، وكساه الأَلفاظ الظريفة ، فله جزَالة البدويين ، ورقة الحضريين .

ومن جيد قوله يمدح داود بن يزيد المهلبى :

نفسى فداؤك يا داوُد إذ علقَتْ أَيدى الردى بنَواصى مضمرِ القودِ
تجود بالنفس إن ضَنَّ الجواد بها والجودُ بالنفس أَقصى غاية الجُودِ

وقوله :

دلت على عيبها الدنيا وصدَّقها ما استرجع الدهرُ مما كان أَعطانى
ما كنت أَدَّخرُ الشكوَى لحادثة حتى ابتلى الدهر أَسرارى فأَشكانى

(٤) أَبو العتاهية

هو أَبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سُويد ، أَطبعُ أَهل زمانه شعرا ، وأَكثرهم قولا ، وأَسهلهم لفظًا ، وأَسرعهم بديهة وارتجالا ، وأَول من فتح للشعراء باب الوعظ والتزهيد فى الدنيا ، والنهى عن الاغترار بها ، وأَكثر من الحكمة .

وُلِدَ بعين التمر قرب الأَنبار سنة ١٣٠ ﻫ ، ونشأَ بالكوفة فى عمل أَهله وكانوا باعة جرار ، إلا أَنه ربأَ بنفسه عن عملهم ، وقال الشعر فى صباه ، وامتزج بلحمه ودمه ، فذاع صيته وسلك طريق خُلعاء الكوفة ، ثم قدم بغداد ومدح المهدى ، ثم عرضتْ له حالٌ امتنع فيها عن قول الشعر ، حتى حبسه الرشيد لعدم تلبيته ما اقترحه عليه من القول فيه ، ثم أَطلقه بعد أَن أَجاب طِلبَتهُ ، وعاد إلى قول الشعر على عادته ، وترَك الغَزل والهجاء ، وبقى على ذلك مدة الرشيد والأَمين وأَكثر أَيام المأْمون ، حتى مات سنة ٢١١ ﻫ ببغداد

شعره : يمتاز بالسهولة المتناهية بالنسبة لأَهل عصره . ومن قوله يمدح المهدى :

أَتته الخلافة مُنقادةً إليه تُجَرِّر أَذيالها
فلم تكُ تصلحُ إلا له ولم يكُ يصلحُ إلا لها
ولو رامها أَحَدٌ غيرُه لزُلزلت الأَرض زلزالها
ولو لم تعطه بنات القلو ب لما قبِلَ الله أَعمالها
وإن الخليفة مِن بغضِ (لا) إليه ليُبغضُ من قالها

وكتب على البديهة فى ظهر كتاب :

أَلا إننا كلنا بائدٌ وأَىُّ بنى آدم خالدُ
وبدؤهم كان من ربهم وكل إلى ربِّهِ عائدُ
فياعجباً كيف يُعصى الإلــــه أَم كيف يجحده الجاحدُ
ولله فى كلِّ تحريكة وفى كلِّ تسكينة شاهدُ
وفى كلِّ شىءٍ له آية تدلُّ على أَنه الواحد

(٥) أَبو تمام

هو أَبو تمام حبيب بن أَوْس الطائى، أَسبق ثلاثة الشعراءِ الذين سارت بذكرهم الرُّكبان ، وخلد شعرهم الزمان ، ثانيهم البحترى ، وثالثهم المتنبى .

وُلد من سلالة عربية سنة ١٩٠ بقرية جاسم من أَعمال دمشق ، ونُقل صغيرًا إلى مصر ، فنشأَ بها فقيرًا وكان يسقى الماءَ بالجرَّة فى جامع عمرو . وتعلم العربية وحفظ ما لا يحصى من شعر العرب ونبغ فى قوله ، ثم خرج إلى مقر الخلافة فمدح المعتصم وحظِىَ عنده ، ومدح وزيره محمد بن الزيات ، والحسن بن وهْب ، الذى وَلاه بريد الموصل فأَقام بها إلى أَن مات سنة ٢٣٢ هـ .

شعره : يعد أَبو تمام رأْس الطبقة الثالثة من المحدثين انتهت إليه معانى المتقدمين والمتأَخرين ، وظهر والدنيا قد مُلئت بترجمة علوم الأَوائل وحكمتها

من اليونان والفرس والهند ، فحصُف عقله ولطف خياله بالاطلاع عليها ، وهو الذى مهد طريق الحكم ، والأَمثال للمتنبي وأَبى العلاءِ وغيرهما ، ولذلك كان يقال : إن أَبا تمام والمتنبي حكيمان ، والشاعر هو البحترى .

وأَجاد أَبو تمام فى كل فن من فنون الشعر ، أَما مراثيه فلم يعلق بها أَحد جاش صدرُه بشعر ، وأَشهر ها القصيدة التى رثى بها محمد بن حُميد الطائى ، ومنها :

كذا فليجلَّ الخطْب وَليفدح الأَمر ... فليس لعينٍ لم يفِضْ ماؤها عذر
تُوُفّيت الآمالُ بعد محمدٍ ... وأَصبح فى شغل عن السفر السفْر
وما كان إلا مالَ مَنْ قلَّ مالهُ ... وذخرًا لمن أَمسى وليس له ذخر
وما كانَ يدرى مُجتدِى جُود كفه ... إذا ما استهلت أَنه خُلق العسر
أَلا فى سبيل اللهِ مَن عُطلت له ... فِجَاج سبيلِ الله وانثغر الثّغر
فتَى كلما فاضَت عيون قبيلة ... دماً ضحكت عنه الأَحاديث والذكر
فتَى دهره شطران فيما ينوبه ... ففى بأسِه شطرٌ وفى جوده شَطر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة ... تقوم مقام النصرِ إن فاته النصر
وما مات حتى مات مَضْرِبُ سيفهِ ... من الضرب واعتلت عليه القنا السُّمْر
وقد كان فوت الموت سهلا فَردَّه ... إليه الحِفاظُ المُرُّ والخُلُقُ الوَعْر
ونفسٌ تعَاف العارَ حتى كأَنما ... هو الكفر يوم الرّوْع أَو دونه الكُفر
فأَثبت فى مستنقع المَوتِ رَحْلهُ ... وقال لها من تحت أَخْمصِك الحشر
غَدا غدْوَة والحمد نسج رِدائه ... فلم ينصرف إلا وأَكفانه الأَجر
تردَّى ثيابَ الموت حمرًا فما دجا ... لها الليل إلا وهى من سندس خضر

(٦) البحترى

هو أَبو عبادة الوليد بن عبيد الطائى ـ أَشعر الشعراءِ بعد أَبى نواس .

وُلد سنة ٢٠٦ ه بناحية منْبِج فى قبائل طيء وغيرها من البدو الضارِبين فى شواطى الفرات ، ونشأ بينهم فغلبت عليه فصاحةُ العرب ، ولازم وهو فتًى أَبا تمام وعليه تخرج ، ثم خرج إلى العراق وأَقام فى خدمة (المتوكل والفتح ابن خاقان) محترماً عندهما إلى أَن قتلا فى مجلس كان هو حاضره ، فرجعَ إلى منبِج بين أَعراب طيء ، وبقى يختلف أَحياناً إلى رؤساءِ بغداد ، وسُرَّ من رأَى ، حتى مات سنة ٢٤٨ ه .

وكان على فضله وفصاحته من أَبخل خلق الله وأَقذرهم ثوباً ، وأَكثرهم فخرا بشعره ، حتى كان يقول إذا أَعجبه شعره : (أَحْسنتُ والله !) ويقول للمستمعين : ما لكم لا تقولون أَحسنت . والكثير على أَنه لم يأْت بعد أَبى نواس مَن هو أَشعر منه .

شعره : كله بديع المعنى ، حسن الديباجة ، صقيل اللفظ سلِس الأسلوب كأَنه سيلٌ ينحدر إلى الأَسماع محمودًا فى غرَض سوى الهجاءِ ، ولذلك اعتبره كثير من أَهل الأَدب هو الشاعر الحقيقى ، واعتبروا أَمثال أَبى تمام والمتنبى والمعرى حُكماء ، ولسهولة شعره ورقته كان أَكثر الأَصوات التى يتغنى بها فى زمنه من شعره المطبوع فى ديوان حافل . ومن قوله يمدح الخليفة المتوكل ، ويصف موكب خروجه لصلاة عيد الفطر :

بالبر صُمت وأَنت أَفضل صائم ... وبسنةِ الله الرضية تُفطر
فانعم بيوم الفطر عِيدًا إنه ... يوم أَغرٌّ من الزمان مُشهَّر
أَظهرْت عِز المُلك فيه بجحفل ... لجب يُحاط الدينُ فيه ويُنصر
خِلنا الجبال تسير فيه وقد غدت ... عُددًا يسير بها العديد الأَكثر
فالخيل تصهل والفوارس تدَّعى ... والبيض تلمع والأَسِنَّة تزهر
والأَرض خاشعة تميد بثقلها ... والجوُّ معتكر الجوانِب أَغبر

والشمس طالعةٌ توقد فى الضحى طوْرًا ويُطْفئها العجاج الأَكدر
حتى طلعتَ بِضوءِ وجهك فانجلت تلك الدُّجى وانجاب ذاك العثير
فافتنّ فيك الناظرون فإِصْبع يومى إِليك بها وعين تنظر
يجدون رؤيتك التى فازوا بها من أَنعم الله التى لا تُكفر
ذكروا بطلعتك النبيَّ فهللوا لما طلعت من الصفوف وكَبَّروا
حتى انتهيْت إلى المصلى لابساً نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيْت مشْيَةَ خاشعٍ متواضع لِله لا يزهى ولا يَتكبر
فلو أَنَّ مشتاقاً تكلفَ فوق ما فى وسعه لسعَى إِليك المنبر
أَبديت من فصلِ الخطاب بحكمة تُنْبى عن الحق المبين وتخبر
ووقفتَ فى بُرْدِ النبيِّ مذكرًا بالله تنْذِرُ تارةً وتبشِّرُ

(٧) ابن الرُّومى

هو أَبو الحسن على بن العباس بن جريج الرومى مولى بنى العباس ، الشاعر المكثر المطبوع ، صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، والمعانى المخترعة ، والأَهاجى المقْذِعة .

وُلد ببغداد سنة ٢٢١ ﻫ ونشأَ بها ، وأَقام كل حياته بها ، وكان كثير التطيُّر جدًّا ، وكان القاسم بن عُبيد الله وزير المعتز يخاف هجوه وفلتاتِ لسانه ، فسلط عليه من دس له السم فى الدسم إلى أَن مات سنة ٢٨٣ ﻫ ببغداد .

شعره : قال الشعر فى كل غرض ، ولا سيما الوصف والهجاء ، ونَبغَ فى الشعر نبوغاً لم يقصر به كثيرًا عن درجة البُحترى ، وربما فاقه فى اختراع المعانى النادرة أَو توليدها من معانى من سبقه بشكل جديد ، ووضعها فى أَحسن قالب ، ومن جيِّد قوله :

وإذا امرؤ مدح امرأً لنواله وأَطال فيه فقد أَطال هجاءهُ
لو لم يُقدِّر فيه بُعد المستقى عند الوُرُود لما أَطال رِشاءه

(٨) ابن المعتز

هو أَبو العباس عبد الله بن محمد المعتز بالله الخليفة العباسى أَشعر بنى هاشم وأَبرع الناس فى الأَوصاف والتشبيهات .

ولد سنة ٢٤٩ هـ فى بيت الخلافة وتربى تربية الخلفاء وأخذ عن المبرد وثعلب ومهر فى كل علم يعرفه أَئمة عصره ، وفلاسفة دهره ، حتى هابه وزراءُ الدولة وشيوخ كتابها ، وعملوا على أَن لا يقلدوه الخلافة ، خشية أَن يكف أَيديهم عن الاستبداد بالملك ، وولوا المقتدر صبيًّا ، ثم حدثت فتن عظيمة ، فتسرع محمد بن داود بن الجراح وجمع العلماء وخلعوا المقتدر ، وبايعوا ابن المعتز بالخلافة فلما رأَى غلمان المقتدر أَن الأَمر سيخرج من أَيديهم تآمروا على قتله ، وخُنق من ليلته سنة ٢٩٦ هـ ، وشعره سهل العبارة مع رشاقة وقلة تكلف وتصنع ، يعرفُ فيه نضرة النعيم .

(٩) أَبو الطيب المتنبى

هو أَبو الطيب أَحمد بن الحسين الجعفى الكندى الكوفى المتنبى الشاعر الحكيم ، صاحب الأَمثال السائرة ، وخاتم الثلاثة الشعراء ، وآخر من بلغ شعره غاية الارتقاء ، ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ فى محلة كندة ، ونشأَ بها ، وأَولع بتعلم الشعر من صباه وخرج إلى بادية بنى كلب فأَقام بينهم مدة ينشدهم من شعره ويأخذ عنهم اللغة فعظم شأنه بينهم ، حتى وشى بعضهم إلى لؤلؤ أَمير حمص من قبل الأَخشيدية بأَن أَبا الطيب ادعى النبوة فى بنى كلب ، وتبعه منهم خلق كثير ، ويخشى على ملك الشام منه ، فخرج لؤلؤ إلى بنى كلب وحاربهم ، وقبض على المتنبى وسجنه طويلا ثم استتابه وأَطلقه .

فخرج من السجن وقد لصق به اسم المتنبى مع كراهته له ، ثم تكسب بالشعر مدة انتهت بلحاقه بسيف الدولة بن حمدان ، فمدحه بما خلد اسمه أبد الدهر .

ثم قصد كافورًا الإخشيدى أمير مصر ومدحه ، ووعده كافور أن يقلده إمارة أو ولاية _ ولكنه لما رأى تغاليه فى شعره وفخره بنفسه عدل عن أن يوليه ، وعاتبه بعضهم فى ذلك فقال : ياقوم من ادَّعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أما يدعى المملكة بعد كافور ؟ فحسبكم _ فعاتبه أبو الطيب واستأذنه فى الخروج من مصر فأبى ، فتغفله ليلة عيد النحر سنة ٣٥٠ ، وخرج منها يريد الكوفة ، ومنها قصد عضد الدولة بن بويه بفارس مارًّا ببغداد فمدحه ومدح وزيره ابن العميد فأجزل صلته وعاد إلى بغداد ، وخرج إلى الكوفة فخرج عليه أعراب بنى ضبة وفيهم فاتك بن أسد وكان المتنبى قد هجاه هجاءً مقذعاً ، فقاتلهم قتالا شديدًا حتى قتل المتنبى وابنه وغلامه سنة ٣٥٤ هـ .

شعره : لا خلاف عند أهل الأدب فى أنه لم يبلغ بعد المتنبى فى الشعر من بلغ شأوه أو داناه ، والمعرى على بعد غوره ، وفرط ذكائه ، وتوقد خاطره ، وشدة تعمقه فى المعانى والتصورات الفلسفية يعترف بأبى الطيب ويقدمه على نفسه وغيره ، ويؤخذ هذا من قوله :

إذا رأيتَ نُيوب الليثِ بارزة فلا تَظنن أن الليث يبتسمُ
أعيذُها نظراتٍ منك صادِقة أن تحسبَ الشحم فيمَن شحمهُ ورم
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدَبى وأسمعت كلماتى من به صمَم
وما انتِفاع أخى الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم
يا من يعزُّ علينا أن نُفارقهمْ وُجْدانُنا كل شىءٍ بعدكم عدم
إن كان سرَّكم ما قال حاسِدنا فما لجرحٍ إذا أرضاكم ألَمُ

وبيننا لو رَعَيْتم ذاك مترفة إن المعارف فى أهلِ النُّهى ذِمم
كم تطلبون لنا عيباً فيعْجزكم ويكْره الله ما تأْتون والكرم
إذا ترَحَّلت عن قوم وقد قدرُوا أَلّا نُفارقهم فالرّاحلون هُم

وقوله :

ذو العَقْل يَشقى فى النعيم بعقْله وأَخُو الجهالةِ فى الشقاوة ينعم
لا يخدعنّك مِنْ عدوٍّ دمعُه وارحم شبابك من عدوٍّ تُرْحَم
لا يسلم الشرف الرَّفيع من الأَذى حتى يُرَاق على جوانبه الدَّم
والظلْمُ منْ شِيم النفوس فإن تجد ذَا عفة فلعلةٍ لا يَظْلِم
ومِنَ البليَّةِ عذل من لا يرعوِى عن غيّه وخطابٌ من لا يفهم
ومِن العداوَةِ ما ينالُك نفْعه ومِنَ الصَّداقة ما يَضرُّ ويُؤلم

وقوله :

ما كنت أَحسب قبل دَفنِكَ فى الثرى أَن الكواكِبَ فى التّراب تمور
ما كنت آمل قبل نعشك أَن أَرى رضْوى على أَيدى الرِّجال يسير
خَرجوا بهِ والكُلُّ باك حوْلَه صعقات موسى يَوْم دكَّ الطور
حتى أَتوا جدثاً كأَنَّ ضريحه فى كلِّ قلْب مُوجدِ محفور
كفل الثناءُ له بردِّ حياتهِ لما انطوى فكأَنّه منشور

(١٠) ابن هانئ الأَندلسى

هو القاسم محمد بن هانئ الأَزدِىُّ الأَندلسى ، شاعر المغرب ومتنَبِّيه ، ولد بإشبيلية سنة ٣٢٦ هـ ولما نبه شأنه اتصل بعامل إشبيلية زمن المستنصر الأموى ، ومدحه بغرر القصائد ، فأَحله منزلة سنية ، وأَغدق عليه العطايا ، فأَكب على اللهو والطرب والاستهتار ، واتهم بالزندقة والكفر لاشتغاله بالفلسفة .

ولما شاع ذلك عنه نقم عليه أَهل إشبيلية ، وأَشركوا عاملها فى التهمة »

وكادوا يهمون به ، فأشار عليه بالهجرة من إشبيلية ، فاجتاز البحر إلى عدوة المغرب ، ومدح ولاته من قبل المعز الفاطمى ، ثم نُمى خبره إلى المُعز فوجه فى طلبه ، فوفد عليه بإفريقية ، ومدحه فاصطفاه واتخذه شاعر دولته .

ولما فتح جوهر مصر ، وبنى القاهرة ، ورحل إليها المُعز ليتخذها دار ملكه شَيَّعه ابن هانئ ، ورجع لأَخذ عياله والالتحاق به فتجهز وتبعه ، ولما وصل إلى برقة مات بها سنة ٣٦٢ ، وعمره ٣٦ سنة .

شعره : لم ينبغ فى شعراءِ جزيرة الأَندلس ولا بر المغرب جميعه من يفوق « ابن هانئ » فى صناعة الشعر أَو يساويه ، فقد كان عندهم فى الشهرة والإجادة وشرف الشعر بمنزلة المتنبى عند المشارقة ، ومن قوله فى وصف الخيل :

وصوَاهِلٍ لا الهضْبُ يوم مُغارها هضْب ولا البيد الحزونُ حزونُ
عُرفت بساعة سبقها لا أَنها عَلقت بها يوم الرهان عُيون
وأَجلُّ عِلْم البَرْق فيها أَنها مَرَّت بجانحتيه وهى ظنون

ومن قوله الموهم الكُفْر فى مطلع قصيدة يمدحُ بها المعزَّ :

ما شئت لا ما شاءَتْ الأَقْدارُ فاحْكُمْ فأَنت الواحِد القهَّارُ

(١١) أَبو العلاءِ المعرى

هو أَبو العلاءِ أَحمد بن عبد الله بن سُليمان المعرى التَّنُوخى ، الشاعر الفيْلسوف ولد بمَعَرَّة النعمان سنة ٣٦٣ ، وجُدِر فى الثالثة من عمره فكُفَّ بصره ،وتعلم على أَبيه وغيره من أَئمة زمانه ، وكان يحفظ كل مايسمعه من مرة واحدة ، وقال الشعر وعمره إحدى عشرة سنة ، ودخل بغْداد ، وأَقبلَ عليه السيد المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ إقبالا عظيما ثم جفاه ، ولما رجع إلى المعرة أَقام ولم يبرح منزله ، ونَسك وسمى نفسه رهين المحبَسيْن : (مَحْبس العمى ، ومحْبس المنزل) وبقى فيه مُكبًّا على التدريس والتأْليف ، ونظْم الشعر مُقتَنعا بعشرات من الدنانير فى العام يستغلها من عقار لهُ مجتنبا أَكلَ الحيوان ومايخرج منه مدة ٤٥ سنة مُكتفياً

بالنبات والفاكهة والدِّبس ، متعللا بأَنه فقير ، وأَنه يرحم الحيوان . وعاش عَزَباً وعَمَّر إلى أَن مات سنة ٤٤٩ من الهجرة بالمعرَّة وأَوصى أَن يُكتب على قبره :

هذا جناهُ أَبي عــلىَّ وما جَنيْتُ على أَحد

شعره : وله كثيرٌ من الشعر يُناقِض بعضه بعضاً فى حقيقة العالم والشرائِع والمعبود ، وللناس فى اعتقاده أَقوال كَثيرة ، والظاهر أَنه كان شاكًّا متحيرا ، وهو أَحكم الشعراءِ بعد المتنبي ويُفضل عليه فى الغريب والأَخيلة الدقيقة والطبيعيات والاجتماعيات والأَخلاق ، والقوانين ونظام الحكومات ، والفلسفة والشرائع والأَديان ، ولذلك يفضله الإفرنج عليه ، وهو فى هذه الأُمور معدوم النظير ، ومن مراثيه الجيدة قوله :

غير مُجدٍ فى مِلتِي واعتقادى نَوحُ باكٍ ولا ترنم شادِ
وشبيةٌ صوتُ النعى إذا قيـــسَ بصوت البشير فى كل نادِ
أَبَكت تلكمُ الحمامة أَم غَنّـــتْ على فرع غُصنها الميادِ
صاح هذه قبورنا تملأُ الرَّحْـــب فأَين القبور من عهد عاد
خفف الوطءَ ما أَظن أَديمَ الـــأَرض إلا من هذه الأَجسادِ
وقبيح بنا وإن قدم العهـــدُ هوانُ الآباءِ والأَجْدَادِ
سر إن اسطعت فى الهواءِ رويدًا لا اختيالًا على رُفاتِ العبادِ
ربَّ لحد قد صار لحدًا مرارًا ضاحك من تزَاحُم الأَضدادِ
ودفين على بقايا دفين فى طويل الأَزمان والآبادِ
فاسأَل الفرْقدين عَمن أَحسَّا من قبيل وآنسا من بلادِ
كم أَقاما على زوال نهار وأَنارَا لمدلِج فى سوادِ
تعبٌ كلها الحياة فما أَعْجَـــبُ إلا من راغِبٍ فى ازديادِ
إن حُزْناً فى ساعة الموت أَضعا ف سرورٍ فى ساعةِ الميلادِ
خُلِق الناس للبقاءِ فضَلتْ أُمة يحسبونهم للنفادِ

إنما يُنقلون من دار أعما ـلٍ إلى دارِ شِقوَة أو رشادِ
ضجعةُ الموت رقْدَةٌ يستريح الـ ـجسمُ فيها والعيش مِثلَ السهادِ

ومنها :

بَانَ أمرُ الإلٰهِ واختلف النا س فداعٍ إلى ضلالٍ وهادِ
والذى حارت البريةُ فِيهِ حيوان مُستَحْدثٌ مِن جمادِ
فاللبيبُ اللبيبُ من ليس يَغتـ ـر بِكونٍ مَصيره للفسادِ

وله :

ضحكنا وكان الضحك مِنا سَفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
تُحَطِّمنا الأَيام حتى كأَننا زُجاجٌ ولكن لا يُعاد لنا سبكُ

(١٢) ابن خفاجى الأَندلسى

هو أَبو إِسحاق إِبراهيم بن عبد الله بن خفاجى (شاعر شرقى الأَندلس) وأَشهر وُصَّاف الطبيعة . ولد بجزيرة شَقر من أَعمال بلنسية شرقى الأَندلس سنة ٤٥٠ ﻫ ، فتعلم ونظم الشعر ، وكتب الرسائل الإخوانية البليغة ، وما زالت شمسُ أَدبه فى صعود حتى صار واحد زمانه فى الأَندلس ، وغلب على شِعرِه وصف الحوادث الجوية ، ومناظر الطبيعة بأَخيلة جميلة وتشبيهاتٍ بديعة . وله غزلٌ رقيقٌ ، ومدح بارع ، ورثاء بليغ .

شعره : يمتاز بالجزالة وكثرة المعانى وازدحامِها فى اللفظ ، حتى يحتاج فى فهمها إلى التأَمل على خلاف مذهب الأَندلسيين . وتوفى سنة ٥٣٣ ﻫ .

ومن قوله يصف زهرة :

ومَائِسةٌ تُزْهى وقد خلع الحيا عليها حلى حُمرًا وآرية خُضرا
يَذوبُ لها ريق الغمائمِ فِضة ويجمُدُ فى أَعطافها ذهبًا نضرا

وقوله :

يا أَهْلَ أَنْدلس لِلّهِ دَركم ماءٌ وظلٌّ وأَنْهار وأَشجار

ما جنةُ الخلد إلا فى دياركم ولو تخيرت هذى كنتُ أَختارُ
لاتحسبوا بعدذا أنتدخلوا سقرًا فليس تدخلُ بعد الجنة النارُ

وقال فى ذم علماءِ السوءِ من المسلمين والنصارى :

درسُوا العلوم ليملكوا بجدالهم فيها صدور مراتب ومجالس
وتَزهدوا حتى أَصابوا فرصةً فى أخذ مال مساجدٍ وكنائِسِ

(١٣) الطغرائى(١)

هو مؤيد الدين الأُستاذ العميد فخر الكتاب أَبو إسماعيل الحسين بن محمد الطغرائى ، صاحب (لامية العجم) وهو أَصبهانى الأَصل ، برع فى الكتابة والشعر حتى كان أَوحد زمانه ، ولم ينبغ بعده فى الشرق من يُضاهيه ، وترقَّت به الحال فى خدمة سلاطين آل سلجوق إلى أَن صار وزيرًا للسلطان مسعود بن محمد السلجوقى صاحب الموصل ، ولما قهره أَخوه السلطان محمود كان أَول من اعتقل الوزير أَبو إسماعيل الطغرائى ، فدسَّ بعض حسدته من رؤساءِ الكتاب إلى السلطان محمود أَنه ملحد ، فقتله ظلمًا سنة ٥١٣ هـ .

ومن شعره لامية العجم المعتبرة من عيون الشعر ، وقد كان قالها ببغداد سنة ٥٠٥ هـ .

(١٤) البهاءُ زهير

هو الوزير الشاعر الكاتب أَبو الفضل بهاء الدين زهير بن محمد بن على المهلبى الأَزدى المصرى ، صاحب السهل الممتنع ، والغزل الرقيق ، والعتاب الرفيق .

ولد بوادى نخلة قرب مكة سنة ٥٨١ هـ ، ونشأَ بمصر ببلدة قوص ، ثم اتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أَيوب ، وخرج معه فى خدمته إلى بلاد الشام والجزيرة ،فلما نُكب الملك الصالح بخيانة عسكره وانضوائهم إلى ابن عمه الملك

(١) الطغرائى من يكتب الطغراء (وهى الطرة) وكانت تكتب فى الدولة السلجوقية فوق البسملة بخط معلق فيها نعوت السلطان وألقابه .

الناصر ، صاحب الكرك وقبض على الصالح واعتقله ، حفظ البهاءُ عهد صاحبه ، ولم يخدم غيره ، وأقام بنابلس حتى استردَّ الصالحُ ملك الديار المصرية فقدم إليها فى خدمته ، واتخذه وزيرًا ـ حتى مات بوباء فى شوال سنة ٦٥٦ هـ .

شعره : كانت سهولة طباع زهير تفوق سهولة شعره الذى هو أسهل نظمًا ولفظاً.

الرواية والرُّواة

جاءت الدولة العباسية وقد اتسع نطاق الرواية ، واختص كل فريق من الناس برواية شيءٍ ـ فلما دوِّنت الكتب فى عصر الدولة العباسية أفرغ الرواة ما حفظوه فيها ، وأخذ أمر الرواية يضمحل شيئًا فشيئًا فى أكثر العلوم ، ولا سيما الأَدب ثم اقتصر فى الرواية على تصحيح النطق والأَداءِ ـ ولكل رواةٌ مشهورون .

وأَما رُواة الأَدب والشعر خاصة فأَشهرهم «حماد» الراوية الكوفى (وخلف الأَحمرُ البصرى) وأَبو عمرو الشيبانى الكوفىُّ ، والسكرى البغدادى .

ومن رُواة الأَدب بجميع فنونه لغة وشعرا وأَخبارًا ـ أَبو عمر بن العلاء وأَبو عبيد معمر بن المثنى ، والأُصمعى ، وأَبو زيد الأَنصارى ،وأَبو عبيد القاسم بن سلام ، ومحمد بن سلام الجمحى ، وغيرهم ؛ وهاك ترجمة أَشهرهم فى الرواية :

الأَصْمعى

هو شيخ رُواة الأَدب ، الإِمام الثبت الحجة الثقة التقىُّ ، أَبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن على بن أَصمع الباهلى البصرى .

ولد سنة ١٢٣ هـ ـ ونشأَ بالبصرة ، فأَخذ العربية والحديث والقراءة عن أَئمة البصرة ، وأَخذ عن فصحاءِ الأَعراب ، وأَكثر الخروج إلى البادية ، وشافه الأَعراب وساكنهم ، وتعلم من (خلف الأَحمر) نقد الشعر ومعانيه ، وكان أَحفظ أَهل زمانه حتى قال مرة : إنى أَحفظ اثنى عشر أَلف أَرجوزة ، فقال له رجل : منها البيت والبيتان ، فقال : ومنها المائة والمائتان ، وعَمر حتى أَدرك زمن «المأْمون» وأَراد وزيره أَن يقدمه إليه فاعتذر بكبر السن ، ومات سنة ٢١٦ هـ ، وله مؤلفات كثيرة

العصر الرابع عشر : الدول المتتابعة التركية ٦٥٦ ـ ١٢٢٠ هـ

حالة اللغة العربية وآدابها فى ذلك العصر

لما اكتسح التَّتار مملكة الدولة العباسية افترقوا إلى ممالك متعددة بآسيا وشرق أوربا ، ولم يلبثوا أكثر من نصف قرن حتى أسلموا ، وشرعوا يخدمون الإسلام بتقريب العلماء إليهم ، وترغيبهم فى التأْليف ، فأَفاد ذلك فى إدامة الحركة العلمية فى الجملة ، وإن لم يفد اللغة العربية فائدة تذكر لمكان العُجْمَة منهم ، أَما علوم العربية وآدابها فلم يكن لها مَباءَة ترجع إليه إلا البلاد العربية كالشام ومصر ، غير أَن اللغة التركية العثمانية أَصبحت هى الغة الرسمية للأَعمال الديوانية والسياسية فى جميع الممالك العثمانية ، فزاحمت اللغة العربية ودخل فى اللغة أَثناءَ دولتى المماليك والعثمانيين كثير من الأَلفاظ التركية والفارسية .

النثر ـ لغة التخاطب

كادت تحل محل اللغة العامية العربية (فى أَعالى الجزيرة وشرقى العراق) اللغة الفارسية والتركية والكردية ممزوجة بشىءٍ من الأَلفاظ العربية .

أَما فى بقية الجزيرة والعراق ومصر والشام فقد بقيت العامية العربية لسان الجميع لغلبة العناصر العربية فيها ، ثم أَخذت العناية بها فى الانحطاط

الخطابة

لم تتغير الخطابة عما كانت عليه أَواخر الدولة العباسية من حيث قصورها على خطب الجمع والأَعياد ، وتلاوة بعض المرسومات والمنشورات ، وبقيت لغة الخطابة اللهجة العربية وحدها ، أَو مع الترجمة إلى الأَعجمية .

الكتابة ، الكتابة الخطية

درج الخط فى هذا العصر فى الطريق التى مهدها ابن مُقلة ، وابن البواب وياقوت الملكى ، وياقوت المستعصمى ، واستعملت فيه أَكثر أَنواعه ، وما زال

الخط يجرى فى مضماره ، حتى قبض على عنانه مُتكسبو الترك العثمانيين ، فأَبدعوا فى تحسينه مما جعل جميع العالم يعترف لهم بالسبق ، ومن أَشهرهم الشيخ حمد الله الأَماسى إمام الخطاطين العثمانيين ، وجلال الدين ، ودرويش على ، والحافظ عثمان المتوفى سنة ١١١٠ هـ .

الكتابة الإنشائية ـ كتابة الرسائل

اتبعت فى كتابة الرسائل أثناءَ هذا العصر طريقة القاضى الفاضل التى أَساسها المعانى الخيالية ، والتزام السجع والمحسنات البديعية ، وعضد هذه الطريقة من كتاب هذا العصر ـ شهاب الدين محمود الحلبى المتوفى سنة ٧٥٥ هـ ومحيى الدين بن عبد الظاهر وابن فضل الله العمرى وأَولاده ، وبقيت هذه الطريقة مرعية فى مصر والشام حتى نهاية دولة المماليك ، وصدر حكومة العثمانيين ، ولما غلبت التركية العثمانية على كتابة الدواوين وأَصبحت رسمية فى الحواضر والأَمصار أَخذ شأن الكتابة العربية فى الاضمحلال .

الكُتَّاب

(١) القاضى محيى الدين عبد الظاهر

هو الكاتب الشاعر عبد الله بن عبد الظاهر الجذامى المصرى ، ولد سنة ٦٢٠هـ ، ورباه والده ، وبرع فى كتابة الرسائل ، سالكا طريقة القاضى الفاضل ، وخدم فى ديوان الإنشاءِ مدة الملك الظاهر بيبرس وولديه ، وبعض أَيام المنصور قلاوون ، ويعتبر محيى الدين وابنه محمد فتح الله من واضعى اصطلاح الإنشاء ونظام ديوانه الذى ظل مرعيًّا فى مصر والشام حتى نسخه النظام التركى العثمانى ، وتوفى سنة ٦٩٢ ، وله من رسالة كتبها على لسان الملك المنصور قلاوون يرد على صاحب اليمن فى تعزيته على موت ابنه ، ويظهر التجلد على فقده :

ولنا (والشكر لله) صبرٌ جميلٌ ، لا نأْسف معه على فائت ، ولا نأْسى على مفقود ، وإذ علم الله (سبحانه وتعالى) حسنُ الاستنابة إلى قضائه ، والاستكانة إلى عطائه ، عوض كلَّ يوم ما يقول المبشر به ، هذا مولى مولود ، وليست الإبل بأَغلظ أكبادًا ممن له قلب ، لايبالى بالصدمات كثرت أو قلت ، ولا بالتباريح حقرت أو جلت ، ولا بالأَزمات إن هى توالت أو تولت ، ولا بالجفون إن ألفت ما فيها من الدموع والهجوع وتخلت ، ويخافُ من الدهر من لاحلبَ أَشطره ، ويأْسفُ على الفائت من لايأْتِ الخطوب الخطرة ، على أَن الفادح يموت الملك الصالح (رضى الله عنه) وإن كان منكباً ، والنافح بشجوه ، وإن كان مبكياً ، والنائح بذلك الأَسف وإن كان لنار الأَسف مذكياً ، فإن وراءَ ذلك من تثبيت الله عز وجل ما ينسفهُ نسفا ، ومن إلهامه الصبرُ مايجدد لتمزق القلوب مابه ترفا ، وبكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا حسن اقتداء يضرب عن كل رثاء صفحا .

(٢) شهاب الدين بن فضل الله العمرى

هو الشاعر الكاتب المصنف أَبو العباس شهاب الدين أَحمد بن محيى الدين يحيى بن فضل الله العمرى ، سليل عمر بن الخطاب ، وصاحب كتاب (مسالك الأَبصار) ولد بمدينة دمشق سنة ٤٠٠ هـ ؛ وتفقه وتأَدب على أَبيه وغيره وتوفى سنة ٤٧٩ هـ ومن إنشائه فى وصف (قِط زباد) من رسالة طويلة : « (وقط الزباد) الذى لا تحكيه الأَسود فى صورها ، ولا تسمح غزلانُ المسك بما يخزُنه من عرفه الطيب فى سررها كم تنقل فى بيوت طابت موطناً ، ومشى من دار أَصحابه فقال : (ربنا عجل لنا قطنا) »

(٣) لِسان الدين بن الخطيب

هو أَبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطى الأَندلسى المعروف

بلسان الدين بن الخطيب وزير بنى الأَحمر ملوك غرناطة ، وكان وزيرا لأَبى الحجاج يوسف ولد سنة ٧١٣ هـ بمدينة غرناطة ، وتـأَدب وتفقه واجتمع له من الحكمة والأَدب ملكة يلذ بها أُدباءُ الأَندلس كتابة وشعرا وتصنيفاً وسياسة ، ومات مقتولا سنة ٧٩٠ هـ .

ومن قصار رسائله : رسالة فى الشوق ، كتبها إلى ابن خلدون ، وهى بعد الديباجة : أَما السوق فحدث عن البحر ولا حرج ، وأَما الصبر فصل به أَية درج ، بعد أَن تجاوز اللوى والمنعرج ، لكن الشدَّة تعشق الفرج ، والمؤمن ينشق من روح الأَرج ، وأَنّى بالصبر على إبر الدَّبر ؟ ومطولة اليوم والشهر ، حتى حكم القهر ، وهل للعين أَن تسلو سلو المقصر ، عن إنسانها المبصر ؟ أَو تذهل ذهول الزاهد عن سرها الرائى والمشاهد . وفى الجسد مُضغة يصلح إذا صلحت ، فكيف حاله إن رحلت عنه ونزحت ؟ وإذا كان الفراق هو الحمام الأَول ، فعلام المعول ؟ أَعيت مراوضةُ الفراق على الراق . وكانت لوعة الاشتياق أَن تفضى إلى السياق :

تركتمونى بعد تشييعكم أَوسع أَمر الصبر عصيانا
أَقرعُ سنى ندماً تارة وأَستميح الدمع أَحياناً

التدوين

أَلف علماءُ هذا العصر تـآليف جمة أَخلفت على العربية بعض ما أَباده التتارُ والصليبيون من الكتب النفيسة . ويرجع أَكثر الفضل فى ذلك إلى علماءِ العصر والشام وجالية الأَندلس . أَما أَعاجمُ المشرق وإن أَلفوا فى العلوم الإِسلامية والفلسفة فإن تـأْثير بيئتهم الأَعجمية جعل كتبهم صعبة التناول ، ضعيفة الأَثر .

الأَدب

قد كان لأُدباءِ القاهرة من الكتاب السبقُ فى وضع الكتب الجامعة التى

تبحث فى عدة علوم أدبية أو ملحقة بها ، ومن هؤلاء : شهاب الدين النوَيرى صاحب نهاية الأَرب ، وابن فضل الله العُمرى صاحب مسالك الأَبصار ، وشهاب الدين القلقشندى صاحب صبح الأَعشى . وممن أَلف فى الأَدب بمناح مختلفة : جمال الدين الوطواط صاحب الغرر والعرر ، وشهاب الدين الحلبى صاحب منازل الأَحباب ، وحسن التوسل إلى صناعة الترسل ، وشهاب الدين أَحمد الأَبشيهى صاحب المتطرف ، والنواجى صاحب حَلبة الكميت .

بقية العلوم الإسلامية

لما أَباد التتار بقية العلماء والنحاة فى الشرق ، كاد أُفق المشرق والشام ومصر يصفو من النحاة وأَهل اللغة ، لولا أَن تداركها الله بدخول التتار فى الإسلام ومعاضدتهم هم والدول التى خلفتهم للعلم والعلماء ، بجلاء بعض كبار النحاة واللغويين من الأَندلس والمغرب قبيلَ حادث التتار وبعده كابن مالك والشاطبى وأَبى حيان وابن منظور الإفريقى ، فجددوا النحو واللغة بمصر والشام ، وتخرج عليهم تلاميذ أَفاضل كانوا كواكب العصور المتأَخرة فدوَّنوا العلم وحفظوه لمن أُتى بعدهم ممن نشأُوا فى العصور المظلمة .

كتابة التدوين والتصنيف

أَما كتابة التدوين فكانت فى المتون ونحوها موجزة جدًّا ، وكانت فى الشروح والمطولات مبسوطة . ومن أَشهر المؤلفين فى هذا العصر : ابن خلكان ، وابن خلدون ، والسيوطى ، وابن مكرم ، والفيروزابادى ، وعز الدين بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠ هـ - وابن حَجر العسْقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ - وابن هشام النحوى المتوفى سنة ٧٦١ هـ - ولسان الدين ابن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ هـ - وسعد الدين التفتازانى سنة ٧٩١ هـ - والسيد الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ هـ - والشهاب الخفاجى .

(١) ابن خلكان

هو قاضى القضاة شمس الدين أبو العباس أحمد بن أبى إبراهيم بن أبى بكر خلكان الإربلى ولد سنة ٦٠٠ هـ بمدينة إرْبل ، وأقام بها إلى سنة ٦٢١ هـ ، ثم رَحل إلى حلب ومكث بها سنين ، ثم عاد إلى دمشق ، وأقام بها مدة ، ثم أقام بمصر ، وتولى القضاء بها وفيها ألف أكثر تاريخه (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) ثم تقلبت به الأحوال بين مصر والشام ـ إلى أن مات سنة ٦٨١ هـ . ثم تمم عليه محمد بن شاكر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ كتابه (فوات الوفيات) .

(٢) ابن خلدون

هو عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون ولد بتونس سنة ٧٣٢ هـ ، وتلقى العلم والأدب من أبيه ومن أكابر العلماء ، وقرأ الكتب العقلية والفلسفية على بعض حكماء المغرب ، واحترف بصناعة الكتابة وهو شاب لم يطر شاربه ، ثم وصل بعد ذلك إلى ملوك بنى الأحمر ، فحظى عندهم .

وألف تاريخه فى خلال أربعة أعوام ، ومقدمته التى لم ينسج أحد على منوالها ثم عزم على الحج ، فدخل مصر سنة ٧٨٤ هـ ، زمن سلطانها برقوق ، ثم استقدم أهله وولده من المغرب ، فغرقت بهم السفينة ، فأقام بمصر حزينًا ، وجلس للتدريس بالجامع الأزهر ، وتولى قضاء المالكية سنة ٧٨٦ هـ إلى أن مات سنة ٨٩٨ هـ .

(٣) جلال الدين السيوطى

هو عبد الرحمن جلال الدين بن الإمام كمال الدين الخضيرى السيوطى ، ولد سنة ٨٤٩ هـ ، ونشأ يتيما وحفظ القرآن وعمره دون الثمانى ، وأخذ العلم عن مشايخ وقته ، وابتدأ فى التصنيف وسنه ١٧ سنة ، ثم لازم الأشياخ وطلب العلم فى بقاع الأرض ، ونبغ فى كثير من العلوم ، وتولى التدريس والإفتاء ، ولم يكن أشهر منه فى زمنه وقد ترك للناس أكثر من ثلثمائة مصنف وتوفى سنة ٩١١ هـ بالقاهرة .

الشعر

لما كان أكثر الملوك والأُمراء فى هذا العصر أعاجم بالفطرة كان ميلهم إلى الشعر العربى غير طبيعى ، ولذلك انقرض الشعر العربى من أَواسط آسيا ، وبقيتْ صبابةٌ منه بالعراق والجزيرة ، وبقى على شىءٍ من الرونق فى الشام ومصر والأَندلس والمغرب . غير أَنه قل التكسب به فيها ، فمال أَكثر الشعراء إلى انتحال الكتابة فى الدواوين صناعة ، واستعملوا الشعر فى تملق الملوك والرؤساءِ وفى إظهار التفصح والتسلية ، فهجر قوله فى الأَغراض الهامة ، وعُدِل به إلى أَغراض أُخرى .

الشعراءُ

ظهر فى هذا العصر شعراءُ كثيرون ، من أَشهرهم ، شرف الدين الأَنصارى المتوفى سنة ٦٦٢ هجرية : وجمال الدين بن نباتة المصرى المتوفى سنة ٧٦٨ هجرية ، وشهاب الدين التلعفرى المتوفى سنة ٦٧٥ هجرية ، والشاب الظريف المتوفى سنة ٦٩٥ هجرية ، والإمام البوصيرى المتوفى سنة ٦٩٥ هجرية وابن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ هجرية ، وأَبو بكر بن حجة الله المتوفى سنة ٨٣٧ هجرية ، وصفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ هجرية ، وفخر الدين بن مكانس المتوفى سنة ٨٦٤ هجرية ، وابن ممتوق الموسوى المتوفى سنة ١١١١ هجرية .

١ ـ البوصيرى

هو شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجى البوصيرى ، صاحب البردة والهمزية ، ولد بدلاص ، ونشأ ببوصير ، ثم انتقل إلى القاهرة ، وتعلم علوم العربية والأَدب ، فقال الشعر البليغ فى جده وهزله ، ومن شعره الجيد قوله فى بردته :

أَمِن تذكر جيران بذى سلم   مزجت دمعًا جرى فى مقلة بدم

أم هبت الريحُ من تلقاءِ كاظمة وأومض البرقُ فى الظلماءِ من إضم
فما لعينيك إن قلت اكففا همتا وما لقلبك إن قلت استفق يهم
أيحْسَبُ الصب أن الحب منكتم ما بين منسجم منه ومُضطرم

ومنها :

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على حبِّ الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فاصرف هَوَاهَا وحاذر أن توليه إن الهوى ما تولى يصْم أو يَصِم
وراعِها وهى فى الأعمال سائمة وإن هى استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرءِ قاتلة من حيث لم يدرِ أن السم فى الدسم
واخش الدسائس من جوع ومن شبع فرب مخمصة شر من التخم
واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت من المحارم والزم حمية الندم

ومن قصيدته الهمزية فى مدح النبى عليه الصلاة والسلام التى أولها :

كيف ترقى رُقِيك الأنبياءُ يا سماء ما طاولتها سماءُ
يُسَاوُوك فى عُلاكَ وقد حا ل سنًا منك دونهم وسناءُ

وتوفى البوصيرى سنة ٦٩٥ ﻫ بالإسكندرية ، وقبره بها مشهور يزار .

٢ – صفِيُّ الدين الحِلِّي

هو عبد العزيز بن على الشهير بابن سرايا الطائى الحلى شاعر الجزيرة .

ولد سنة ٦٧٧ ﻫ ونشأً بمدينة الحلة من مدن الفرات ، فتأدب ونظم الشعر وتوفى سنة ٧٥٠ ﻫ ، ويعتبر صفى الدين من أئمة البديع المبتدعين فى أنواعه المغالين فى استعماله من شعورهم بلا كثير تكلف ، وهو أول من نظم القصائد النبوية الجامعة لأنواع البديع المسماة بالبديعيات ، مثال بردة البوصيرى ومن قوله فى الأدب :

اسمع مخاطبة الجليس ولا تكن عجلا بنطقك قلما تتفهم
لم تعط مع أُذنيك نطقا واحدًا إلا لتسمع ضعف ما تتكلم

وله :

بقدر لغات المرءِ يكثُرُ نفعه فتلك له عِند الشدائد أعوانُ
تهافتْ على حِفظِ اللغات مجاهدا فكل لِسان فى الحقيقة إنسانُ

٣ ـ ابن نُباتة المصرى

هو جمال الدين محمد بن محمد المعروف بابن نُباتة ، أشعر شعراء المصريين زمن المماليك ، ولد سنة ٦٨٦ ﻫ ونشأ بالقاهرة ومات سنة ٧٦٧ ﻫ ،ومن شعره قوله :

يا مشتكى الهمِّ دعْه وانتظر فرجاً ودارِ وقْتك من حِينٍ إلى حِينِ
ولا تُعانِدْ إذا أَصبحت فى كدَرٍ فإنما أَنت من ماءٍ ومن طِين

٤ ـ ابن معتوق الموسوى

هو شهاب الدين بن معتوق الموسوى ، شاعر العراق فى عصره ، وسابقُ حلبته فى رقة شعره ، ولد سنة ١٠٢٥ ﻫ ونشأ بالبصرة .

وابن معتوق من كبار شعراءِ الشيعة ، مدح عليا والشهيدين بما يخرج عن حد الشرع والعقل ، ومات سنة ١١١١ ﻫ .

ويمتاز شعره بالرقة وكثرة المجازات ، حتى لتكاد الحقيقة تهمل فيه جملة .

العصر الخامس : عصر النهضة الأخيرة

محمد على ـ سنة ١٢٢٠ ﻫ

قدم « محمد على » إلى مصر ضابطاً فى الحملة التى وجهتها تركيا لإخراج الفرنسيين من مصر ، وكان راجح العقل ، استطاع أن يجمع حوله أعيان المصريين وكبار علمائهم بلطف معاملتهم وحُسن معاشرتهم ، فأَحبوه وآثروه ، وأعانوه على الحكومة التركية حتى قلدته ولاية مصر وهى لذلك كارهة .

وكان أَول هم لمحمد على فى ولاية الحكم أن يتخلص من المماليك ، فأَوقع بجمهرتهم فى القلعة سنة (١٨١١ م) .

بعد ذلك وجه همته إلى أن ينشئ جيشا له كل ما للجيوش الحديثة ، فأنشأ فى قصر ابن العينى مدرسة حربية إعدادية سنة ١٨٢٥م وجمع فيها التلاميذ من طوائف مختلفة إلا المصريين ، غير أن هذه التجربة أخفقت فاضطر إلى أن يجعل أكثر التلاميذ بعد من المصريين ، وكانت لغة التعليم الأساسية هى التركية ، وكانت تدرس إلى جانبها العربية وغيرها ، وكان قد سبق فأرسل طائفة من المماليك إلى بعض البلاد الأوربية لدراسة الفنون الجندية .

ثم أنشأ مدرسة أركان الحرب فى جهة أبى زعبل من ضواحى القاهرة ودعا لها بأساتذة من الفرنسيين .

مدرسة الطب

علمت أن همة محمد على اتجهت بادى الأمر إلى إنشاء جيش منظم مجهز بجميع الوسائل الحديثة ، ولم يكن فى مصر إلى ذلك الوقت أطباء اللهم إلا نفر قليل من الإفرنج لتطبيب مرضى الجاليات الأجنبية ، وكانت إذا نشبت المعارك الحربية يدعى بالحلاقين ليأسوا الكلوم ويضمدوا الجروح ، لهذا عمد محمد على إلى إنشاء مدرسة طبية بجهة أبى زعبل فى سنة ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م) يقوم بإزائها مستشفى كبير ، ودعا لها بأساتذة من الإفرنج ، وكان التعليم فى هذه المدرسة شاقاً مجهداً ، فإن أساتذتها لم يكونوا يعرفون العربية ، وطلابها لا علم لهم باللغات الأفرنجية فدعت هذه الضرورة إلى أن يقوم بين الأساتذة وتلاميذهم مترجمون .

إيقاظ محمد على الشرق بحسن بلائه فى السياسة والحرب .

استمكن سلطان محمد على بما أعد من جيش قوى فى البر ، وأسطول عظيم فى البحر ، وعلم عال يأخذ به أبناء البلاد ، ومعامل ومصانع أغنته عن كثير مما يرد من الغرب ، ومشروعات للرى ضاعف بها استثمار الأرض ، وغير ذلك من وسائل

الإصلاح ، ولقد استعانت به تركيا فى إخماد الفتن فى أطراف بلادها ، كما استعانت به فى حروبها مع الدول الأُخرى ، كما تمكن بجيشه من فتح السودان كما اقتطع شطرا من أملاك تركيا بعد أن شجر الخلْف بينه وبينها ، وكاد يظفر بحاضرة مُلكها لولا أن تألّبت عليه الدول الأُوربية وحُلْن بينه وبين غايته .

أما الأُسطول الضخم الذى بناه محمد على ، فقد أحرقته تلك الدول غيلة فى واقعة (نافارين) .

ولقد أتى بالعلماء والأَساتذة وأهل الفنون من أُوربا ، وبعث البعوث إلى بلادها ، وأقام المدارس فى مصر على نهج مدارسها ، وتقدم بترجمة ما يُحتاج إليه فى وسائل الحياة المختلفة ، وبهذا وغيره انتظمت العلاقات بين الشرق والغرب .

إسماعيل وإتمامه بناء جدّه

قبض محمد على باشا فى سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩م) بعد أن حكم مصر أكثر من أربعين سنة بعثها فيها من الموت بعثاً ، وأنهضها نهضة قوية تلفَّت لها وجهُ التاريخ ، وما كاد المُلك يصيرُ إلى حفيده عباس الأَول حتى خبت تلك النهضة فأُغلقت المدارس ، وعُطلت المصانع وفترت تلك الحركة العظيمة التى تناولت جميع مرافق الحياة فى البلاد ، وكذلك كان شأْنُ خلفه سعيد ابن محمد على طول أيام حُكمه ، حتى إذا انتهت ولايةُ مصر فى سنة ١٢٧٩ هـ (١٨٦٣ م) إلى إسماعيل ابن إبراهيم بن محمد على تأثر فى سبيل الإصلاح بخطى جده العظيم وراحَ يُتِمُّ ما بُنِىَ لمجدِ مصر ، ونهض بوجوه الإصلاح التى تقوم عليها الثروة والقوة والعلم والعظمة فى كل البلاد .

مظاهر النهضة الحديثة فى العلم والأَدب

لم يكن للبَعوث العلمية التى أوفدها محمد على فى مُبتدأ الامر إلى أوربا شأْن جليل ، وأولها كان فى سنة (١٨١٣م) على أنه مابرح يُوالى إرسال البعوث

حتى كانت سنة١٢٤٢هـ(١٨٢٦م) إذ أوفد إلى أوربا بعثة عظيمة يزيدُ عددُ طلابها على الأربعين ، أحرزوا قبل سفرهم قدرًا صالحاً من التعليم والتثقيف ، وظل بعد هذا يُوفد البعوث العلمية إلى مختلف البلاد الأوربية للتبحر فى العلوم والفنون ، ولم يَقْنَع بهذا بل أقام فى باريس نفسها (مدرسة) جمعت نحو الأربعين طالباً ، فيهم بعض الأمراء من أولاده وأحفاده .

الترجمة والتأليف

كان أول عهد مصر بالترجمة فى هذا العصر ، ما قام به أُولئك المترجمون الذين جاء بهم محمد على ليؤدُّوا بالعربية إلى طلبة مدرسة الطب ما كان يُلقيه عليهم أساتذتهم من الدروس باللغة الأجنبية ، فلما أخرج بعض هؤلاء الأساتذة بلغاتهم كتباً ورسائل فى فنون الطب ، وأُريد ترجمتها إلى العربية جاء محمد على بطائفة ممن تفقهوا فى العربية لمعاونة أُولئك المترجمين على تحرير العبارة وضبط المصطلحات العلمية ، بقدر ما اتسع له علمهم بالعربية ، وما عثروا عليه من مصطلحاتهم ، وكان هذا عملا شاقاً مضنياً .

وكانت جمهرة المترجمين أول الأمر من الأطباء ، لأن الطب أَوَّلُ العلوم الحديثة التى عُنِىَ بدراستها فى مصر بعد العلوم الحربية ، ثم توالت الترجمة فى العلوم والفنون الأُخرى على يد من تخرَّجوا فيها من الطلاب .

أما التأليف فى العلوم الحديثة فكان فى مبتدأ الأمر ضئيلا ، وكان أكثره من وضع الأجانب الذين جاء بهم محمد على ليبتغى بهم وسائل الإصلاح المنشود .

على أن المصريين قد جعلوا يُقبلون على مُعالجة ، وخاصة من عهد إسماعيل حتى بلغ اليوم غاية محمودة ، وما زالت البلاد تتطلع منها إلى المزيد[1] .

---

(١) ومن أبرع من برعوا (فى أثناء هذه النهضة) فى التأليف والترجمة فى فنون الطب والصيدلة ، مرتبين على حسب تاريخ وفياتهم، ابراهيم بك النبراوى ١٢٧٩ هـ (١٨٩٧ م) وأحمد بك حسن الرشيدى =

حالة اللغة العربية وآدابها فى هذا العصر

كانت حالة البلاد العربية فى أوائل القرن الثالث عشر غاية ما وصلت إليه من الفساد والاضمحلال ، فلما استولى محمد على باشا على مصر رأى — كما علمت سابقاً — أن يُرَبِّى من يكون خيرَ واسطة لنقل المعارف الأوربية اليها ، فبعث إلى أوربا بثلاثة بعوث علمية ، فى أزمنة مختلفة ، كوّنت بعد ذلك ثلاث طبقات من العلماء والأطباء والمهندسين والضباط ، فنقلوا إلى اللغة العربية عشرات الكتب الجليلة فى العلوم المختلفة ، فأحدث ذلك فى اللغة العربية انقلاباً عظيما ،

= ١٢٧٢هـ (١٨٦٥م) ، ومحمد على باشا البقلى ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) واحمد بك ندى ١٢٩٤هـ (١٨٧٧م) وسالم باشا سالم ١٣١١هـ (١٨٩٣م) ، ومحمد الدرى باشا ١٣١٨هـ (١٩٠٠م) ، وممن برعوا كذلك فى العلوم الرياضية ترجمة وتأليفا محمد بك بيومى ١٢٦٨هـ (١٨٥١م) ، وتهجت باشا ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م) ، ومحمود باشا الفلكى ١٣٠٣ (١٨٨٥م) ، وشفيق بك منصور ١٣٠٨هـ (١٨٩٠م) ، ومختار باشا المصرى ١٣١٥هـ (١٨٩٧م) ، واسماعيل باشا الفلكى ١٢١٩هـ (١٩١١م) .

ومن خير من الفوا فى العلوم المختلفة فى صدر هذه النهضة : الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ١٢٤٠هـ (١٨٢٥م) ، والشيخ شهاب الدين المصرى ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧م) ، ورفاعة بك رافع الطهطاوى ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣م) ومحمد قدرى باشا ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥م) ، وأحمد فارس الشدياق ١٣٠٥ هـ (١٨٧٨م) ، والشيخ عبد الرحمن نجا الأبيارى ١٣٠٦هـ (١٨٨٨م) ، والشيخ حسين المرصفى ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م) والشيخ محمد بيرم ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م) ، وعلى مبارك باشا ١٣١١هـ (١٨٩٣م) ، والشيخ محمد العباسى المهدى ١٣١٥هـ (١٨٩٩م)، وعثمان بك جلال ١٣١٦ هـ (١٨٩٨ م)، وأمين فكرى باشا ١٣١٧هـ (١٨٩٩م) ، والشيخ ابراهيم اليازجى ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥م) وقاسم بك أمين ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨م) ، وعمر بك لطفى (١٩١٤م) وعلى ابو الفتوح المتوفى سنة (١٩١٣م) ، ومحمد بك النجارى ١٣٣٢هـ (١٩١٤م) ، واحمد فتحى زغلول باشا ١٣٣٢هـ (١٩١٤م) ، وجرجى زيدان بك (١٩١٤م) واسماعيل سرهنك باشا (١٩٢٤م) ، والشيخ محمد بك الخضرى (١٩٢٦م) .

ولا شك فى أن هذه النهضة الحديثة مدينة فى مستهلها لشيخ المترجمين على الاطلاق رافع بك كما أنها مدينة لأكبر السابقين من المؤلفين المصلح العظيم على مبارك باشا .

واكتسبت من سعة الأَغراض والمعانى والأَلفاظ العلمية والأَساليب الأَجنبية وطرق البَرْهنة والاستنباط وترتيب الفكر ثروة طائلة ، ورأى الأُدباء أنه صارت لهم دولة منظمة مُتحضرة تتقبل منهم بقبول حَسَن كل مايحسبونه نتيجة كَدهم ، وثمرة أَفكارهم ، فالتفوا حولها ، وصار أَيضاً للدولة كُتَّاب وشعراءُ ومُنشئون ، ومن الأَسف أَن هذه النهضة لم يستمر سيرها فى مصر كما استمر فى الشام بل ركدت ريحها فى زمن عباس باشا الأَول ، وزمن سعيد باشا ، ثم تَنَسَّمت فى عصر إسماعيل وما لبثت أَن صارت رخاءً طيبة فأَعاد سيرة جده فى نشر العلم ، وظهرت ثمرة أَعماله فى حياته ، وكانت مصر تُوشك أَن تكون قطعة من أوربا .

النثر ـ المحادثة ـ أَو لغة التَّخاطب

كانت العاميَّة فى أَوائل هذه العصور غاية فى الانحطاط ، ثم لما انتشر التعليم بين طبقات المصريين ، ودخل فى عبارتهم كثير من الفصيح ، انتقل ذلك لمعاشريهم من الأُميين ، وبعض النساء ، ومما ساعد على ذلك جعْلُ التقاضى باللغة الفصيحة وكثرة الصحف والمجلات والروايات .

الخطابة

كان المصريون والسوريون فى أَوائل هذا العصر لايستعملون الخطابة فى غير الأَغراض الدينية ، ثم اتسعت دائرة الأَفكار فى عصر إسماعيل باشا ، وصادف ذلك مجىءالسيد جمال الدين الأَفغانى إلى مصر ،والتفَّ لفيف حوله من أُدباء المصريين والسوريين ، فأَدخلهم فى عداد جمعيته ، وأَلفَ منهم أَندية كانوا يتناوبون الخطابة فيها من الأُمور الدينية والسياسية والاجتماعية ، وانتشرت الخطابة بين شبان مصر ، وفشت بعد عصر إسماعيل فى زمن توفيق باشا وعباس حلمى باشا ، ومن أَشهر خطبائهم السيد عبد الله النديم المتوفى عام ١٣١٤ هـ (١٨٩٦م) والشيخ محمد عبده المتوفى عام ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥م) ومصطفى كامل

المتوفى عام ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨م) وسعد باشا زغلول المتوفى عام ١٣٤٨هـ (١٩٢٧م) والشيخ عبد العزيز جاويش بك المتوفى عام١٩٢٧م وغيرهم ، حتى بلغت الخطابة فى عصرنا هذا مبلغاً عظيما .

الكتابة الخطية

وقف الخط فى سبيل تقدمه على الحد الذى رسمته له الطبقة الناشئة فى القرن العاشر ، والحادى عشر ، والثانى عشر : من خطَّاطى الترك ، وكل من نشأً بعدهم فإنما هو متبع طريقتهم . وأشهرهم . عبد الله زهدى ، وهو الذى خط بالقلم الجليل جدران المسجد النبوى ، وجدران سبيل والدة عباس باشا الأول بالصليبية بالقاهرة ، ومحمد مونس أفندى ، وتخرَّج عليه وعلى تلميذه محمد جعفر بك جميع خطاطى قطرنا المصرى .

الكتابة الإنشائية

مضى العصر المتقدِّم وليس لكتاب الدواوين فى أواخره شأن يُذكر ، لجعل التركية هى اللغة الرسمية ،وأقبل العصر الحاضر والحال لم تتغير فى الممالك العثمانية إلا قليلا ، وشرعت تتغير فى مصر ، ثم لما انشئت المدارس النظامية ، نشأت طبقة من كُتاب الدواوين رقُّوا كتابتها ، وقد هجر السجع الذى أكثر منه الأقدمون إلا أن (عبد الله باشا فكرى) أشهرَ المصلحين للكتابة الديوانية الفصيحة أَلمَّ به فى كثير من مكاتباته الرسمية . وقد سبق كثير من رسائله فى فن المكاتبات ، أما كتابة التأليف والصحف فأخذت تنحُو منحى كتابة ابن خلدون فى مقدمته ، ولما ولت الحكومة الشيخ محمد عبده تحرير (الوقائع الرسمية) والإشراف على تحرير الجرائد ترقت كتابتها كثيرا ، ودرجت فى سبيل التقدم إلى الآن .

كتابة التدوين

كان أكثر الكتب التى أُلفت أو ترجمت فى مصر علمية ، لشدة احتياجها لها ، أما سوريا فكانت حالة الأدب فيها فى النصف الأول من العصر الحاضر خيرا منها

فى مصر ، ولكن مصر نهضت فى النصف الثانى ، واسترجعت حياتها الأدبية ، وأدخلت دراسة أدب اللغة فى مدارسها ، وألف فيه عدة كتب ، وانحط شأن سوريا فى العربية فلم ينبغ فى اللغة من السوريين فى السنوات الأخيرة من يضارع سابقيهم ، ومن أشهر العلماء الأزهريين فى هذا العصر : الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المتوفى فى ١٢٤٠ (١٨٢٥م) والشيخ حسن العطار المتوفى فى ١٢٥٠ (١٨٣٤م) ومن غير الأزهريين من أهل النهضة الحديثة : رفاعة بك شيخ المترجمين والمؤلفين ، وعلى مبارك باشا المتوفى فى ١٣١١ (١٨٩٣م) وجمال الدين الأفغانى المتوفى فى ١٣١٤ (١٨٩٧م) وجورجى بك زيدان المتوفى فى ١٣٣١ (١٩١٤م) وأحمد فارس الشدياق اللبنانى المتوفى فى ١٣٠٥ (١٨٨٧م) والدكتور يعقوب صروف صاحب مجلة المقتطف المتوفى فى ١٣٤٦ (١٩٢٧م) وولى الدين بك يكن المتوفى فى ١٣٢٩ والشيخ محمد عبد المطلب المتوفى فى ١٣٥٠ (١٩٣١م) والشيخ محمد بك الخضرى المتوفى فى (١٩٢٦م) والشيخ أحمد مفتاح المتوفى فى ١٣٢٩ وفتحى باشا زغلول المتوفى فى (١٩١٤م) والشيخ نجيب الحداد المتوفى فى (١٨٩٩م) وعبد الله باشا فكرى ، والشيخ حسين المرصفى المتوفى فى ١٣٠٧ (١٨٨٩م) والشيخ ناصف اليازجى المتوفى فى ١٢٨٧ ، وإبراهيم بك المويلحى المتوفى فى ١٣٣٣ ، ومحمد بك المويلحى المتوفى فى (١٩٣٠م) وقاسم بك أمين المتوفى فى ١٣٢٦ ، والسيد مصطفى لطفى المنفلوطى المتوفى فى (١٩٢٤) والشيخ إبراهيم اليازجى المتوفى فى ١٣٢٣ (١٩٠٦م) وحفنى بك ناصف المتوفى فى ١٣٣٧ والشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد المتوفى فى ١٣٣١ (١٩١٣م) وأديب إسحاق المتوفى فى ١٣٠٣ (١٨٩٢م) ومصطفى بك نجيب المتوفى فى ١٣٣٠ وإسماعيل باشا صبرى ، وبطرس البستانى المتوفى فى ١٣٠١ (١٨١٣م) وسليم باشا تقلا المتوفى فى ١٣١٠ (١٨٩٢م) .

وهاك ترجمة بعض زعماء النهضة الحديثة :

(١) رفاعة بك الطهطاوى المتوفى سنة ١٢٩٠ هـ

هو الكاتب الشاعر السيد رفاعة بك الحسينى الطهطاوى ، شيخ المترجمين ، وإمام النهضة الحديثة ، ولد بطهطا من أسرة شريفة ، وتأدب وتعلم فى الجامع الأزهر ثم انتخب إماماً لبعض فرق الجيش ؛ ولم يلبث أن اختاره محمد على باشا إماماً ومعلماً لأول بعث علمى أرسل إلى فرنسا سنة ١٢٤١هـ ، فراقته علوم أوربا وعظمتها فأكبَّ بنفسه على تعلم اللغة الفرنسية ، فلما عاد إلى مصر سنة ١٢٤٧ هـ اختاره محمد على باشا رئيساً للترجمة بمدرسة أبى زعبل . واشترك هو وأستاذه الشيخ حسن العطار فى إنشاء جريدة « الوقائع المصرية » وتحريرها ثم نُقل إلى مدرسة المدفعية (الطبجية) ثم صار مديرا لمدرسة الألسن والترجمة ، ثم انتخب عضواً بلجنة المدارس ، وتولى إدارة مجلة (روضة المدارس المصرية) وعكف على الترجمة والتأليف حتى توفِّى عام ١٢٩٠ هـ تاركا لمصر كتباً ورجالا هم أركان النهضة الحديثة ، وآخر ما ألفه كتاب « نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز » .

(٢) عبد الله فكرى باشا المتوفى عام ١٣٠٧ هـ ــ ١٨٨٩ م

عبد الله فكرى بن محمد بليغ الضابط ابن الشيخ عبد الله العالم الأزهرى ، وهو من أركان النهضة الأدبية فى الديار المصرية . ولد عام عام ١٢٥٠ هـ ، وأكبَّ على تعلم علومه بالأزهر ، مشتغلا أيضاً باللغة التركية ، واستخدم من أجلها مترجما للعربية والتركية فى عدة مناصب ، آلت إلى نقله إلى حاشية سعيد ثم إسماعيل باشا ، فعُهد إليه بتأديب بنيه الكرام وغيرهم من أمراء بيت الملك ثم تقلب فى جملة مناصب آخرها نظارة المعارف عام ١٢٩٩ هـ ، وبقى بها حتى زمن الثورة العربية . فسقط مع الوزارة ، واتهم فى الثورة فقبض عليه ، ثم اتضحت براءته فأُطلق ورُد إليه معاشه ؛ بعد أن استعطف الخديوى توفيق باشا بقصيدة طويلة وتوفى عام ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) .

وكان فكرى باشا كاتباً بليغاً ، سلك فى كتابته طريقة كتّاب القرن الرابع كالبديع الهمذانى ، والخوارزمى من التزام السجع القصير ، القليل التكلف ولذلك يقول فيه المرحوم الشيخ حسين المرصفى مدرس دار العلوم : (لو تقدم به الزمان ، لكان فيه بديعان ، ولم ينفرد بهذا اللقب علامة همذان) .

(٣) على مبارك المتوفى عام ١٣١١ هـ - ١٨٩٣ م

هو أبو المعارف المصرية ، العالم المؤرّخ المؤلف المترجم ، المربى العظيم على ابن مبارك بن سليمان بن إبراهيم مؤسس دار العلوم ، ودار الكتب العربية .

ولد عام ١٢٣٩ هـ ، وكان والده يُرسله إلى مُعلم قاس يتعلم عليه القرآن الكريم فحفظه ، وهَرب من المعلم لقسوته وضربه ، وأخذ يتعلم الكتابة على بعض الكتّاب حتى عثر فى بعض خرجاته بتلاميذ ذاهبين إلى مدرسة أبى زعبل ، فصحبهم ودخل المدرسة ثم اختير فى جملة من تلاميذها إلى مدرسة قصر العينى . وعمره ١٢ عاما ، ودرس الرياضة فبرع فيها فاختير طالباً بمدرسة الهندسة ، فأكمل فى خمسة أعوام دَرس فن الهندسة ، وأرسل إلى أوربا عام ١٢٦٠ هـ ليتمم علومه بها فمكث نحو أربعة أعوام درس فيها فن الهندسة والحرب ، ثم عاد إلى مصر ضابطاً بالجيش ، ثم قدّم لعباس باشا الأول مشروعاً بنظام المدارس المصرية فأعجبهُ وعهد إلى رياسة ديوانها ، فقام به خير قيام ، وألف بعض الكتب الدراسية ، فكان أول من نظم المدارس المصرية ، وتزاحمت عليه المناصب فكان مديرًا للسكك الحديدية وناظرًا للمعارف وللأشغال وللأوقاف والقناطر الخيرية ، فقام بذلك جميعًا فى آن واحد خير قيام ؛ ومن أعماله العظيمة إنشاء دار الكتب وإنشاء مدرسة دار العلوم ليوفق بين طلبة العلم القديم وطلبة العلم الحديث ، ومات عام ١٣١١ هـ - ١٨٩٢ م .

(٤) الشيخ محمد عبده المتوفى عام ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥ م

هو المصلح الكبير المجتهد الكاتب الخطيب الإمام الشيخ محمد عبده

أحد أركان النهضة العربية وموسسى الحركة الفكرية ، ولد عام١٢٥٦ هـ بإحدى قرى مديرية الغربية ، ونشأ بين أسرته بمحلة نصر من مديرية البحيرة وترك بلا تعليم حتى ناهزت سنه العاشرة ، ثم رغب فى التعليم فحفظ القرآن الكريم وطلب العلم بالجامع الأحمدى ، ثم انتقل إلى الأزهر ونبغ فى علومه — ولما قدم مصر السيد جمال الدين الأفغانى سنة١٢٨٦ ، وأعاد إلى مصر دراسة الفلسفة وعلوم الحكمة لزمهُ الشيخ محمد عبده ، وكان أنبغ تلاميذه ، وأحرصهم على ملازمته ، والاستفادة منه ، ونال درجة العالمية سنة ١٢٩٤ هـ واختير سنة ١٣٩٥ مدرساً للأدب والتاريخ العربى بدار العلوم ، ومدرسة الألسن ، ثم اختير لإصلاح لغة (الوقائع المصرية) ثم صار رئيس تحريرها — وفى هذه المدة جعله رياض باشا مراقباً على كتابة الجرائد وتحريرها — وحدثت عقب ذلك الثورة العرابية ، ونُفى من مصر إلى سورية ، وتولى التدريس بمدارسها ، ثم انتقل إلى أوربا فالتقى بالسيد جمال الدين بباريس ، فأنشآ معاً جريدة (العروة الوثقى) ثم عفا عنه الخديوى وعاد إلى مصر قاضياً بالمحاكم الأهلية ، ثم مفتياً للديار المصرية ، وتولى التدريس بالأزهر وإليه يرجع الفضل فى إصلاحه ، وما زال كذلك حتى توفى سنة ١٢٢٣ .

(٥) الشيخ حمزة فتح الله المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ — ١٩١٧ م

هو الشيخ الوقور ، اللغوى ، الحجة ، التقى الشيخ حمزة فتح الله .

وُلد رحمه الله بثغر الإسكندرية سنة ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩م) ونشأ بها . وبعد أن حفظ القرآن الكريم انتظم فى سلك طلبة العلم بجامع الشيخ إبراهيم باشا — ثم أكمل دراسته بالأزهر الشريف ، وأمعن فى قراءة الأدب واللغة ، وقرض الشعر وحرر الرسائل ، وحفظ الغريب ، ثم عاد إلى الإسكندرية ، وأختير (فى منتصف العقد الثالث من عمره) محرراً فى إحدى الصحف التونسية فمكث هناك حوالى ثمانى سنوات اكتسب فيها الدُّربة على كتابة

الصحف السياسية ، ثم عاد إلى مصر فوجد نار الثورة العرابية مستعرة ، فانضم إلى حزب الخديوى توفيق ، وكتب وخطب فى تأييده ، وبعد أن انتهت الثورة العرابية استخدم فى وزارة المعارف ، ومكث بها زهاء ثلاثين سنة ، متنقلا بين التفتيش والتدريس ، حتى مات سنة ١٩١٨ م .

علمه وأعماله : كان الشيخ كثير القراءة فى كتب اللغة ، والأدب ، والحديث ، شديد الحفظ والذكر ، قلما تحدث أمامه حادثة أو تذكر إلا روى فيها شعرا ، أو مثلا ، أو قصة ، وكان فكه المحاضرة ، صحيح العبارة يحوكها على سنن العربية الفصيحة وهو أعلم من شاهدناه باللغة والأدب والصرف .

عهد إليه بالتدريس فى دار العلوم ، فأحيا بتدريسه وتأليفه ما دثر من آثار السالفين كالجاحظ والمبرد والقالى والمرتضى ، وأظهر ما كان ذلك فى (مواهبه الفتحية) .

أسند إليه تفتيش اللغة العربية فى مدارس الحكومة على اختلاف أنواعها ، فرأى المجال فسيحاً لتخليصها من أدران العامية ، وأوضار الدَّخيل ، وفساد التراكيب وعجمة الأساليب ، فأخذ يرشد المعلمين إلى ما يعثر عليه من ذلك فى كتابة التلاميذ ويتحفهم بمرادفة تارة ، ويرشدهم إلى المظان أخرى ، فيتنبه بذلك الغافل .

أخلاقه : كان الشيخ حليما رحيما ، تقيًا ورعاً ، لاتأخذه فى الله لومة لائم .

وكان يحب العرب والعربية ، ويرى أن الله خصهما بكل مزية .

مؤلفاته : مما عرف من مؤلفاته ، كتاب المواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية وباكورة السلام فى حقوق النساء فى الإسلام ، ورسالة التوحيد ، وكتيب فى المفردات الأعجمية التى فى القرآن الكريم ، وغير ذلك .

شعره وكتابته : كان بدوى الشعر من حيث ألفاظه ومعانيه ، وتراكيبه ، وأساليبه وتشبيهاته واستعاراته على طريقة شعر العلماء ، فمنه قوله :

كم جامح بالثريا راضه سفر فوق الثرى بين أكوار وأقتاب

إن الثواءَ ثواء والقصور قبو ... ر العاجزين ولا إبْراءَ للخابى
ومن بغى نيل مجدٍ وهو فى دعةٍ ... فقد بغى من صفاة دَر أَحلاب
والمرءُ فى موطن كالدر فى صدف ... والتِّبر فى معدنٍ والنَّبع فى غاب
والسيفُ مثل العصا إن كان مُغتمدًا ... وزامرُ الحى لا يحظى باطراب
وأَزهدُ الناس فى علم وصاحبه ... أدنى الأَحبة من أَهل وأَصحاب

باحثةُ البادية السيدة ملك حِفنى ناصف المتوفاة سنة ١٣٣٧ هـ

هى : المفكرة ، الكاتبة ، الشاعرة ، السيدة ملك حفنى ناصف .

ميلادها ونشأَتها : ولدت بالقاهرة سنة ١٨٨٦ م ؛ ولما ميزت أَرسلها والدها إلى إحدى المدارس الأَولية ، ثم إلى المدرسة السنية فحصلت منها على شهادة الدراسة الابتدائية سنة ١٩٠٠ م (وهى أَول سنة تقدمت فيها الفتيات لنيل هذه الشهادة) ثم أَتمت دراستها فى قسمها العالى ، واختيرت مُدرسة فى مدارس البنات بالقاهرة ، وفى سنة ١٩٠٧ م تركت التعليم العلمى واشتغلت بالتعليم العملى فى بيت زوجها .

أَخلاقها وأَعمالها : كانت مدة دراستها خير نموذج لقريناتها ، من أَخلاق سامية ، وسريرة صافية ، ونفس أَبيَّة ، ومثابرة على العمل .

وكانت بعد زواجها تباشر أَكثر أَعمال بيتها بنفسها ، لا لسبب ، سوى أَن تكون قدوة لغيرها من السيدات اللاتى يتركن بُيوتهن إلى من لا يحسن القيام عليها والتدبير فيها ، فيوقعن أَزواجهن فى الفقر المدقع ، والبلاء الشديد ، وكانت إذا فرغت من شئون منزلها ، عكفت على قراءة الكتب النافعة ، وتعرف أَحوال السيدات ، وزيارة مدارس البنات ، وفحص مناهج التعليم .

كل أُولئك لتكون لها رأْياً صحيحاً ، وفكرًا ناضجاً فى تربية البنات ، إصلاح حال الأُمهات ، وظلت تستسهل فى ذلك الصعب ، وتستحلى المرَّ .

وكان من رأيها فى تربية المرأة أن تباشر من أعمال الرجل مالا ينافى الشرع الشريف ، وألاتكون زينتها مشغلة لها ولاعبئًا ثقيلا ينوءُ به بعلها ، ولها فى ذلك خُطب فى محافل نسوية ، كان لها تأْثير فى عدول الكثيرات منهن عن جمودهن وأفكارهن القديمة ، وكان بيتها مقصدًا لزيارة كثير من السيدات الغربيات والشرقيات يستترن به فى الوقوف على مبلغ رُقى المرأة المسلمة ، وما ينتظرن من شئونها المستقبلة ، ولم يكن شىء من ذلك كله لنسيها مايجب لزوجها ، والبر بذوى قرباها ومن يقع تحت نظرها ممن أجهدهم الفقر ، وأشد ماكان برها لوالدها

آثارها العلمية :

(١) كتابها الذى أسمته (النسائيات) وهو مجموع ما خطبته وكتبته فى (الجريدة) خاصًا بالمرأة . (٢) حقوق النساءِ ، وهو كتاب لم يطبع بعد : أنجزت منه ثلاث مقالات : الأُولى فى الموازنة بين المرأة المسلمة الشرقية والمرأة المتدينة الغربية فى الحقوق المالية ، والثانية فى حقوق المرأة المسلمة من جهة إدارة الأَعمال العامة ، والثالثة فى المرأة المسلمة من جهة الانتخاب . (٣) رسالة اضافية قدمتها للمؤتمر المنعقد فى مايو عام ١٩١١ م بمصر الجديدة ضمنتها آراؤها السديدة فى وسائل ترقية المرأة المصرية .

ثم عاجلتها الحمى الأَسبانية عام١٣٣٨ هـ فاحتضرت وهى فى ريعان شبابها ويانع عمرها ، فتركت بفقدها فى العالم النسوى المصرى فراغاً لم يُشغل بعد .

كتابتها : إن الناظر فى كتاباتها المختلفة يرى عبارة سهلة صحيحة الألفاظ عربية الأَسلوب ، خالية من تصنع السجع ، وترى ذلك واضحاً فى كتابها (النسائيات)

شعرها : قالت الشعر وهى فى الحادية عشرة من عمرها . وكان بدء أمرها فيه أن تقوله معارضة لما تحفظه فى المدرسة تارة جدًّا ، وتارة هزلا ؛ وشعرها حسن الديباجة ، جميل الأَسلوب يعد فى الدرجة الوسطى من شعر هذا العصر .

وهاك نموذجاً من نثرها وشعرها ـ رسالة كتبتها من رمل الإسكندرية لصديقة لها ـ وهى :

«عزيزتى السيدة بلسم

أُحييك ، ولولا برودة البحر لالتهبت إليك شوقاً ، ولولا تصبرى لطرت إليك حباً ، وإنى لم ينسنى صفاء السماء صفاء ودك ، ولارقة النسيم رقة حديثك إنما شجانى وذكرنى ، ولم أكن ناسية .

حبيبتى : ليتك معى ترين الطبيعة بجمالها ، ترين البحر يزخر كالرعد والأَمواج تتلاطم زرافات ووحداناً ، صفاء فى البحر ، وصفاء فى السماء ، كأَنهما قلبان ، وتسمعين تغريد الطيور ، وحفيف الأَشجار ، إنها لعمرك مناظر تلهى المرءَ ، ولكن هيهات لمثلى أن تلهو ، وهى ما يكنه الدهر ، وما يخبئه الليل والنهار ، تقبلى منى أَحر قبلاتى ، وأَوفر أَشواقى » .

ومن شعرها تخاطب المرأة المصرية .

سيرى كسيرى السحب لا تتأَنْ ولا تتعجَّلى
لا تكنسى أَرض الشوا رع بالإِزار المسبلِ
أَمَّا السُّفور فحكمهُ فى الشرع ليس بمُعضلِ
ذهب الأَئمة فيه بـــين مُحرِّم ومُحَلِّل
ويجوز بالإِجماع منهـــم عند قصد تأَهُّل
ليس النِّقاب هو الحجـــاب فقصِّرى أَو طوِّلى
فإِذا جهلت الفرق بينهمـــا فدنك فاسأَلى
من بعد أَقوال الأَئمة لا مجال لمقولى
لا أَبتغى غير الفضيـــلة للنساء فأَجملى

الشعر

كانت حالة الشعر فى النصف الاول من هذا العصر لاتزيد شيئا مذكورا على

ما كانت عليه فى العصر الماضى ، إذ كانت حكومة (محمد على باشا) فى فى أَول أَمرها تركية الصبغة ، وكان هو أُميًّا لايحل عنده الأَدب محل العلم الذى عليه مدار تأْسيس المملكة ، ولكن الشعر أَخذ بعد ذلك فى الترقى .

وسارت مصر فى طريقه ، وانتشرت بينها العربية حتى زمن (إسماعيل باشا) وكان هو متأَدباً ، وعصره غاصاً بالأُدباءِ ، فتقدم الشعر فى عصره خطوات تمثلت فى شعر السيد على أَبى النصر ، والشيخ على الليثى ، ثم طفر طفرة إلى عظيم الشعراءِ (البارودى) .

ولم يزل للعلم والعلماءِ مع ذلك المقام الأَول فى مصر ، حتى كان العصر الحاضر ، ونالت مصر بعض حاجاتها من العلم وكتبه ، فهب أَهله يتفكهون بالأَدب وكتابته والتأْليف فيه ويستمعون الشعر ، ويحضرون المجامع العظيمة لإِنشاده ، فأَقبل الشعراءُ على نظمه فى كل أَغراضه القديمة والحديثة ، ونحو به نحو الشعر الإِفرنجى من وصف المناظر الطبيعية ، وأَحوال الوجدان ، والعواطف النفسية ، وكثير من الشعراءِ بعد البارودى ، لم يحاك القدماءُ فى ندب الديار ، ووصف الظعائن ، وحث المطايا مستغنياً عن ذلك بوصف القطار ، والكهرباء ، والمسرة ، والبرق ، ويقول الآن الشعر على هذه الطريقة مئات من الشعراءِ فى مصر والشام والعراق ، إلا أَن المصريين سبقوا السوريين بمراحل فى هذا العصر .

ومما يمتاز به شعرُ هذا الوقت ، خلوه من تكلف البديع والجناس ، والرجوع به إلى حالته القديمة الطبيعية حتى صار شعر فحولة يشبه شعر أَهل القرن الرابع والخامس .

نماذج من النظم

قال المرحوم السيد على أَبو النصر المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ ـ ١٨٨٠ م :

بصادر آمالى ووارد خاطرى كلفتُ فيا نفسى الأَبية خاطرى

ولا تجزعى إن هال خطب فربما تدين الأَمانى لامرئ غير قادر
وكونى على حمل الأَذى مستعدة فكم عادل أَرخى العنان لجائر
ولا تشتكى الأَيام إلا لمنصف فلا خير فى الشكوى إلى غير ناصر
ومن لم يكن ذا هِمَّة هاشمية أَخافته فى الهيجا بروق البواتر

وقال محمود صفوت الساعاتى المتوفى سنة ١٢٩٨ﻫ يمدح شريف مكة ويعاتبه :

ترنو النجوم بلحظها البراقِ والجو فى الإِرعاد والإِبراق
فإِذا تبسمت البروق لغِبطة بكت السماءُ بدمعها المهراق
عاملتمونى بالجفاءِ رويدكم الورد ذو أَرج بلا إِحراق
مالى أَراكم تنكرون مكانتى الشمس لا تخفى مع الإِشراق
قلدتم غيرى الجميل وقلتم حسبُ المغرِّد زينةُ الأَطواق
أَسديتم الجدوى له وسددتم طرق الرجاء علىَّ بالإِطراق
إن لم يكن مثلى يُسىءُ ومثلكم يغضى فأَين مكارم الأَخلاق

وفى الحكم للمرحوم الشيخ على الليثى المتوفى سنة ٣١٣ ﻫ – ١٨٩٦م :

كل حال لضدِّه يتحوَّلْ فالزم الصبر إذ عليه المعولْ
يا فؤادى استرح فما الأَمر إلا ما به محكم القضاءَ تنزل
قدرٌ غالب وسرٌّ الخفايا فوق عقل الأَريب مهما تكمل
رب ساعٍ لحتفه وهو ممن ظنَّ بالسعى للعلا يتوصَّل

وقال المرحوم الشيخ شهاب الدين المتوفى سنة ١٢٧٥ ﻫ يرثى إبراهيم باشا :

صبرًا على ما قد مضى إذ لا مخلِّص من قضا
كيف التصبر والمنا يات ذات غَضب مُنتضى
أَرْدت بإِبراهيم مذ بلغ المقام المُرْتضى
وإليه آل الأَمر فى حكم (الإِيالة) وانقضى

فمضى وقلت مؤرِّخاً (الله يرحم من مضى)
٦٦ ٢٥٨ ٩٠ ٨٥٠ ١٢٦٤ هـ

حفنى ناصف بك المتوفى ١٣٣٧ هـ - ١٩١٩ م

هو القاضى الفاضل الشاعر الكاتب ، محمد حفنى ابن الشيخ إسماعيل ابن الشيخ خليل بن ناصف ، ولد ببركة الحج من أعمال القليوبية سنة ١٢٨٢ هـ يتيما فقيراً ، فكفلته جدته أُم أَبيه .

ولما ترعرع تعلم القرآن على معلم كان يفرط فى ضربه ، ففر ماشياً على قدميه إلى الأَزهر وجود فيه القرآن ، وحفظ فيه المتون ، ودرس فقه الشافعى ، وعلوم اللسان العربى واشتغل بالأَدب والشعر فبرع فيهما حتى أَصبح من شعراءِ الأَزهر المعدودين ، وكان أَول الناجحين من الطلبة المقبولين فى دار العلوم ، وبقى أَولهم حتى خرج من المدرسة ثم اختير مدرساً وضابطا لمدرسة الخرس والعميان ، ثم نقل إلى النيابة كاتب سر للمرحوم شفيق بك منصور يكن ، ثم نقل مدرساً بمدرسة الحقوق ، وفى أَثناءِ ذلك كلفته نظارة المعارف مع آخرين تأْليف سلسلة كتب سهلة ، لتعليم النحو والصرف والبلاغة فأَلف خمسة كتب لم يزل العمل فى التعليم جارياً عليها ثم نقل إلى القضاءِ الأَهلى ، فمكث يترقى فى درجاته مدة عشرين سنة ، كان فى خلالها مثال العدل والنزاهة ، ونقل من وكالة محكمة طنطا الأَهلية مفتشاً أَول للغة العربية بوزارة المعارف .

وتوفى صبيحة يوم الثلاثاء ٢٦ فبراير سنة ١٩١٩ م ودفن يوم الأَربعاء بمقبرة الإمام ، وكان رحمه الله من أَطيب خلق الله حديثًا ، وأَرقهم فكاهة ، وأَملحهم نادرة وأَحضرهم جواباً ، مع دعابة فيه .

شعره : لم ينكر الأُدباءُ عليه أَنه أَبو الطبقة التى نشأَت بعد طبقة البارودى ، وعبد الله باشا فكرى ، وكل من نبغ بعدُ ممن انتهت إليهم الرياسة فى الشعر فعليه تعلم ، وله قلد ، حتى أَصبحوا شعراءَ هذا الزمان .

وأَكثر شعره من النوع السهل الممتنع ، الكثير الملح المطربة والنكت الأَدبية المعجبة ، حتى فى المراثى ، لتمثيلها فى صورة جديدة بديعة ، فمن ذلك قوله :

أَتقضى معى إن حان حينى تجاربى ... وما نلتها إلا بطول عنائى
وأَبذلُ جهدى فى اكتساب معارفٍ ... ويفنى الذى حصلتُه بفنائى
ويُحزنُنى أَلا أَرى لى حيلة ... لإعطائها من يستحق عطائى
إذا ورَّث الجُهال أَبناءَهم غِنًى ... وجاهاً فما أَشقى بنى الحكماء

ومن شعره أَيضاً يخاطب أَحد الرؤساء :

أَحييتَ آمالى وكنت أَمتها ... من طول مالقيتُ من إِخوانى
أَدلى بإِخلاصى لهم وأَذود عن ... أَعراضهم بجوارحى ولسانى
محضتهم ودىَّ فلما أَيسروا ... كانت بداية أَمرهم نسيانى

مصطفى باشا كامل المتوفى سنة ١٣٢٦ هـ ـ ١٩٠٨ م

هو مصطفى بن على أَفندى المهندس ، المولود بالقاهره فى ١٤ أَغسطس سنة ١٨٧٤م ولما بلغ السادسة من عمره أَدخله والده المكاتب الأَولية ، ثم انتقل إلى مدرسة والده عباس باشا الأَول ، وفى أَثناء وجوده فى هذه المدرسة توفى والده فانتقل إلى مدرسة القربية ، فأَتم فيها الدراسة الإبتدائية سنة ١٨٨٧ م ثم تحول إلى المدارس الثانوية ، ونال فى نهايتها شهادة البكالوريا بتفوق باهر ، وذكاء نادر ، مما لفت إليه نظر المرحوم على باشا مبارك ناظر المعارف ، فاختصه بمرتب شهرى يصرف إليه مساعدة له ، وكان منظوراً إليه بعين الإجلال والاحترام من إخوانه ومعلميه ورؤسائه لما امتاز به من حسن الإلقاء ، وفصاحة اللسان ، وصراحة القول واستقلال الفكر ومناقشته فى المسائل العلمية والاجتماعية ، والكل يعجبون به ، ويتوقعون له مستقبلا مجيداً ، ثم دخل مدرسة الحقوق الخديوية نهارا ، ومدرسة الحقوق الفرنسية ليلا فكان يتلقى دروسهما حتى نال الكفاية منهما ،

ذهب إلى (طولون بفرنسا) وأدى فيها الامتحان ونال الشهادة النهائية ، وفى أثناء دراسته للحقوق تنبه خاطره إلى المسائل السياسية ، وأصبح همه إنقاذ مصر من الاحتلال ، وكان يتردد على الجرائد الوطنية ، فيكتب فيها آيات الوطنية ، وأنشأ المجلة المدرسية ، وألفَ كتاب المسألة الشرقية ، ورواية فتح الأندلس ، وكتاباً فى حياة الأمم والرق عند الرومان ، وكلها ترمى إلى تحبيب الاستقلال ، وإحياء الشعور الوطنى فى أفكار المصريين ، واجتمع مصطفى بالمرحوم « عبد الله النديم » الخطيب المفوه والكاتب البليغ ومشعل نار الوطنية من قبل ، فاقتبس مصطفى منه الأساليب والتعليمات العظيمة ، وأضاف ذلك إلى معلوماته الماضية ، ونهض نهضة الأسد إلى فريسته ، وأذكى أوار الوطنية فى عقول الشباب الناهض ، وتطورت مصر الفتاة إلى يومنا هذا فى مراقى التقدم والنجاح ، وقد طار صيته فى الآفاق ، وأنشأ جرائد اللواء العربى والفرنسى والإنكليزى لهذا الغرض ، وتوفى يوم الأربعاء ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ م وخطبه الطنانة كثيرة معروفة لانطيل بذكرها .

محمد بك فريد المتوفى سنة ١٩١٩ م

هو المخلص الأمين ، محمد بن أحمد باشا فريد ، والدته أميرة من فضليات سيدات الخلفاء العباسيين ، وكان ميلاده فى ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٤ هـ ، وعاش ٥٢ سنة ، ولما كان عمره ٧ سنوات أدخله المرحوم والده مدرسة خليل أغا ، ثم دخل المدارس الثانوية وفاز بشهادة البكالوريا ، ثم دخل مدرسة الحقوق حتى نال الشهادة النهائية فى شهر مايو سنة ١٨٨٧ م ، وعقب ذلك عينته الحكومة المصرية بقلم قضايا الخديوى عباس باشا بالرتبة الثانية ، ثم تدرج فى وظائف القضاء إلى أن صار أحد رؤساء النيابة العمومية ، وفى خلال ذلك كان يكاتب أمهات الصحف العربية والإفرنجية ، حتى استقال

من خدمة الحكومة فى ٢١ نوفمبر عام ١٧٩٦م ، واشتغل بالمحاماة ، وانضم بكل قواه إلى الحزب الوطنى لتحرير مصر والسودان ، ولازم صاحبه المرحوم مصطفى باشا كامل ، وقد ألف كتاب البهجة التوفيقية فى تاريخ العائلة الخديوية ، وتاريخ الدولة العثمانية ، وتاريخ الرومان ؛ وأنشأ مجلة « الموسوعات » وكتب آلاف المقالات فى المؤيد واللواء والصحف الأوربية ، وألقى مئات من من الخطب فى بلاد الشرق والغرب ، وتعرف بكثير من ساسة العالم .

ولما شعر المرحوم مصطفى كامل باشا بدنو الأجل ، جمع رجال الحزب الوطنى وأوصاهم بانتخاب « فريد » بعده رئيساً ، فقام برياسته خير قيام ، وقد ضحى بنفسه وأولاده وأهله وماله ومناصبه حباً فى الوطن ، حتى مات غريباً فى يوم الاثنين ١٥ نوفمبر عام ١٩١٩م ، ونقلت جثته من بلاد ألمانيا لدفنها بالقاهرة ، فوصلت صباح يوم الثلاثاء ٨ يونيه عام١٩٢٠م ، وشيعت باحتفال مهيب ، ورثته صحافة العالم شرقاً وغرباً .

فممن رثاه المرحوم محمد حافظ بك إبراهيم المتوفى عام ١٣٥٩ﻫ ، قال من قصيدة طويلة :

من ليوم نحنُ فيه لغَدْ ... مات ذو العَزْمة والرأْى الأَسَدْ
أَيها النيلُ لقد جلَّ الأَسى ... كنْ مدَادًا لى إذا الدَّمعُ نَفدْ
فلقدْ ولى فريدٌ وانطوى ... ركْنُ مصر وفتاها والسندْ
خالِد الآثارِ لا تخشَ البلَى ... ليس يَبلَى من له ذكر خَلدْ
قل لصَبٍّ النيل إن لاقيتَهُ ... فى جوار الدائم الفرد الصمد
إن مصرًا لاتنِى عن قصْدها ... رغم ما تلقى ، وإن طال الأَمدْ
فاسترح واهْنأْ فى غِبْطة ... فلقَدْ بذرت الحب والشعب حصَدْ

(٧) سعد باشا زغلول

هو الزعيم الأكبر سعد بن الشيخ إبراهيم زغلول المولود ببلدة إبيانه بمديرية الغربية عام ١٢٧٧هـ ، قرأ القرآن الكريم ودخل الأزهر الشريف ، وحضر علوم اللغة والأدب والنحو والمنطق والتوحيد وعلوم التشريع ، وغيرها على فطاحل العلماء ثم تعين محرراً لجريدة « الوقائع المصرية » الرسمية بالداخلية ، ثم انتقل معاوناً بنظارة الداخلية فى مدة وزارة « محمود سامى باشا البارودى » ثم تعين مديرا لقلم قضايا مديرية الجيزة ، وذلك مدة اشتداد الثورة العرابية ، ثم استقال واشتغل بالمحاماة وقد انتخبته الجمعية عضواً فى لجنة تنقيح قانون الجنايات بالاستئناف ، ثم اختاره اللورد « كرومر » أن يكون وزيراً للمعارف . ثم وكيلا للجمعية التشريعية إلى أن تطورت الحالة الوطنية فى القطر المصرى ، فانتخبته الأمة وكيلا عنها فى مطالبة انجلترا بالجلاء عن مصر والسودان .

ومن كلماته المأثورة فى الوطنية :

١ ــ لا استعباد ، لا استعمار ، لاحماية ، ولا رقابة ، لا تداخل لأحد فى شأن من شوونا ، هذا ما نريد ، وهذا مالا بد أن نحصل عليه .

٢ ــ أقسم بالوطنية وعزتها : لو كنت أعرف أنى أقود أمة بلهاء تنقاد لكل زعيم بدون تصور ولا إدراك ، كما يصفها أعداؤها ما رضيت أن أكون قائداً لها .

٣ ــ إن قوتنا ليست مستمدة من الخارج ، بل هى نفوسنا ، فلتكن نفوسنا قوية تصل إلى غايتنا .

٤ ــ الإرادة متى تمكنت من النفوس وأصبحت ميراثاً يتوارثه الأبناء عن الآباء ذللت كل صعب ، ومحت كل عقبة ، وقهرت كل مانع مهما كان قويا ، ووصلت عاجلاً أو آجلا إلى الغاية المطلوبة .

٥ ــ لا يمكن أن نعتبر للحكوميين مذهباً ، لأن المذهب يقتضى مبادى وقواعد ، أمَّا هم فقاعدتهم القوة ، وما يعتمد على القوة لايصح أن يسمى مذهباً .

ومن كلماته المأثورة فى الحرية وحدودها :

١ ــ كل أمر يقف فى طريق حريتنا لا يصح أن نقبله مطلقًا ، مهما كان مصدره عاليًا ، ومهما كان الآمر به .

٢ ــ كل تقييد للحرية لابد أن يكون له مبرر من قواعد الحرية نفسها وإلا كان ظلماً .

٣ ــ الصحافة حرَّة ، تقول فى حدود القانون ما تشاءُ وتنتقد من تريد ، فليس من الرأى أن نسألها لم تنتقدنا ،بل الواجب أن نسأل أنفسنا لم نفعل ماتنتقدنا عليه .

٤ ــ نحن نحب الحرية ، ولكنا نحب أكثر منها أن تستعمل فى موضعها ،

٥ ــ جميل جدًّا أن يقال لا تحجروا على الناس ، ولا تقيدوا حريتهم ، وإنها لنغمة لذيذة يحسن وقعها فى الأسماع والقلوب ، ولكنا لا نريد الحجر على الناس ولا تقييد حريتهم ، بل نريد حماية الحق وصيانته من أن يتمتَّع به غير صاحبه من حيث يُحرم منه صاحبه .

ومن آرائه فى التشريع :

١ ــ كل شريعة توسس على فساد الأخلاق فهى شريعة باطلة .

٢ ــ لاتصدقوا أن هناك قاعدة يرجع إليها القاضى فى تقدير العقوبة ، أو أن هناك ميزاناً تُوزنُ به الجزاءَات ، وإنما هى أُمور اجتهادية يلهم بها القاضى إلهاماً .

٣ ــ الحقُّ فوق القُوَّة ، والأُمَّة فوق الحُكومة .

٤ ــ إننا إذا احترمنا أمرًا للحكومة ، نحترمه لأنه نافع للأُمة ، لا لأنه صادر من تلك القوة المسيطرة .

٥ ــ يجب أن نَنقاد للقانون ، وألا نعتبر الانقياد إليه مهانة ومذلة ، بل عزًّا وشرفاً .

٦ ــ إن كانت الحكومة تريد أن نكون فى صَفِّها ، مُدافعين عنها فما عليها إلا أن تتبع الحق والعدل ، وتحترم القانون .

٧ ــ يُعجبنى الصدق فى القول والإخلاص فى العمل ، وأن تقوم المحبة بين الناس مقام القانون .

٨ ــ الذى يلزمنا أن نفاخر به هو أعمالنا فى الحياة لا الشهادة التى فى أيدينا .

٩ ــ أُعاهدكم عهدًا لا أحيد عنه على أن أموت فى السعى إلى استقلالكم ، فإن فزتُ فذاك ، وإلا تركت لكم تتميم ما بدأْت به .

هذا قليل من كثير لا نحيط به جميعا ، خصوصاً خطبه المطولة الممتعة التى تكاد أن تكون فى درجة الإعجاز ، ولا غرابة فى ذلك . فقد كان معروفاً بالشجاعة والصراحة يمتلك فى يده أعنة الألفاظ وأعذبها وأخفها وقعا على النفوس عن أقسى المعانى وأخشنها بأرق الألفاظ وأعذبها وأخفها وقعًا على النفوس والأسماع ، خصوصاً وأنه قدير على التأْثير على نفس السامع ، وامتلاكه أزمة الأهواءِ وتلاعبه بالعواطف والقلوب ، واقتداره على إسناد كل جزئية من جزئيات المسائل الاجتماعية أو القانونية أو الأخلاقية أو السياسية إلى قاعدتها العامة التى توضع طريقا وتكشف الغامض منها .

ولقد كان مُشرِّعا يبحث النظامات ويدققها ، وسياسيًّا يبارز خصمه مبارزة الرجل الذى يحسن تقليب الحسام بين يديه ، فلا كلماته تخرق حجب الآداب ، ولا تتجاوز حدّ اللياقة . لقد كان كلامه ينزل على السامعين نزول الندى على آكام الزهر فلا يرتفع صوت ، ولا تبدو حركة مع طول خطابته نحو ساعتين وأكثر ، حتى وافاه القدر المحتوم فى أواخر أغسطس سنة ١٩٢٧ م ، وعمره نحو ٦٧ سنة ، وقد خلفه زعامة حزب « الوفد المصرى » حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا .

(٨) مصطفى النحاس

هو مصطفى بن الشيخ محمد النحاس من أعيان بندر سمنود .

ولد (مصطفى النحاس) من أبوين كريمين عريقين فى الحسب والنسب ، فى يونيه سنة ١٨٧٩ م .

وتربى تربية منزلية قويمة طبعته على الأمانة والاستقامة والنزاهة وأنشأته على الخير والعدل والصلاح والتقوى ، فشب على مكارم الأخلاق من الصغر :

رضَع الأَخلاق من أَلبانِها   إن للأَخلاق وقعاً فى الصغر

وما بلغ السادسة من عمره إلا وهو يزاول مبادى التعليم فى أحد مكاتب البلدة ، وما تجاوز العاشرة من عمره إلا وكان حافظاً لجميع القرآن الكريم حفظًا جيدًا ، ثم ارتحل به والده إلى القاهرة وأدخله مدرسة الناصرية الابتدائية بنظارة أمين سامى فى ذاك الوقت ، فأمر بامتحانه للقبول فاجتازه بتفوق باهر ، وعكف على دروسه حتى كان فى كل امتحاناته أول فرقته ، وبعد إتمام الدراسة الابتدائية التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية بالقسم الداخلى ، وأظهر جدًّا واجتهادًا وتفوقاً ونبوغاً منقطع النظير ، حتى المرحلة الأخيرة التى كللت بنجاح عظيم ، لفت نظر روسائه إليه ، حتى وصل خبره إلى اللورد « كتشنر » الذى رغب فى رؤيته ، ثم التحق بمدرسة الحقوق ، وتخرج منها فى يونيه سنة ١٩٠٠م ، واشتغل بالمحاماة إلى أوائل سنة ١٩٠٤ ، ثم عين قاضياً بالمحاكم الأهلية وظلَّ يخدم العدالة نيفاً وخمسة عشر عاماً ، حتى نادى المغفور له (سعد زغلول) بوجوب المطالبة بحق مصر والاستقلال فانضم إليه ، وانضوى تحت لوائه ، وأخذ يسعى فى تحرير وطنه بكل إخلاص وتضحية عظيمة .

وقد تقلد رياسة الحكومة المصرية ست مرات .

الأُولى عام ١٩٢٨ م ، والثانية عام ١٩٣٠ م ، والثالثة عام ١٩٣٦ م ، والرابعة عام ١٩٣٧ م بعد جهاده الذى نالت فيه مصر استقلالها التام ، وإلغاءِ الامتيازات الأَجنبية .

هذه لمحة وجيزة من تاريخ حياة مصطفى النحاس (محاميًا ، وقاضيا ، وخطيباً ، وخصما سياسيًا ، ووزيرًا ، ورئيساً للوزارة) .

ومن خطبه :

« لاشك أَن من يتولى الدفاع عن حقوق الأَفراد وحريتهم مدفوعاً بواجب مهنته وشعور التقديس لطائفته إنما هو مسوق حتما للاشتراك فى الدفاع عن حقوق المجموع وحريات المجموع ، لأَن حقوق المجموع وحريات المجموع إنما هى مجموع حريات الأَفراد وحقوق الأَفراد » .

ومن قوله :

(١) ليس مثل الصراحة سياسة ناجمة فى وقت الخطر .

(٢) إن القلوب إذا اتصلت لا تقوى على فصلها قوة مهما فتكت أَو بطشت .

(٣) ما كان لقوة فى الوجود أَن تمحق آمال شعب ، ولا أَن تبدد وحدة أُمة .

(٤) إنما الموت فى سبيل الأَوطان حياة .

(٥) ليس مصير الأُمم لعبة فى أَيدى اللاعبين ولا هو تجربة فى أَيدى المجربين .

(٦) إن للحق قوة معنوية هى من روح الله يقذفها على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق .

(٧) مصر أُمة جديرة حقا بأَن تكون مصدر السلطات .

(٨) إن الأَمر فى قضية الأُمة أَمر الأُمة وحدها لا كلمة لسواها ولا معول على غير رضاها .

(٩) الأُمم الحية لا تغلبُ وقد تعود مصر أَن تقهر قاهريها ، ولدهر قُلَّبٌ إن صفا اليوم لشخص فنى غد يتقلبُ .

(١٠) اضطهاد الأَحرار يزيدهم تمسكا بالحرية أَضعافاً مضاعفة .

(١١) إذا كان اعتناق المبدأ القويم فضيلة فإن الثبات على هذا المبدأ هو فضيلة الفضائل .

(١٢) إن الأُمة هى الأَول والآخر ، وهى الأَصل الذى يجب أَن ترجع إليه كل الأُمور .

(٩) الغازى مصطفى كمال

أَشهر حماة الشرق ، وداهية أَقطاب السياسة الغازى (مصطفى كمال) المولود فى سلانيك سنة ١٢٩٨ هـ ـ ١٨٨٠م ، ولما بلغ السنة السادسة من عمره أَدخله والده مدرسة ابتدائية ، وما لبث أَن تركها على أَثر وفاة والده ، ثم انتقل إلى قرية أُخرى مع والدته بها خاله الذى كفله ، وعهد إليه القيام بحراسة الحقول والاشتغال بالزراعة مدة فأَوجست والدته خِيفة من ضياع إِبَّان شبابه بدون جدوى ، وصحت عزيمتها على إرساله إلى دار جدته فى (سلانيك) ودخل فى (المدرسة الملكية الإِعدادية) غير أَنه لم يوفق للتعلم بها ـ وذلك لشغفه بحب (المدرسة الرشدية العسكرية) الابتدائية ، فدخلها وأَخذ يتبحر فى الرياضيات ، ويناقش أُستاذه المدعو (مصطفى بك) القائل له : إن بين اسمى واسمك اشتباها ، فيجدر أَن أُضيف إلى اسمك لفظة (كمال) للتمييز بيننا ، وقد أَتم الدراسة فى هذه المدرسة العسكرية الابتدائية ، وفاق زملاءه فى العلوم الرياضية بحيث لم يصادف أَية صعوبة فى امتحان المدرسة الإِعدادية العسكرية الثانوية فى (مناستر) وتزود بقسط وافر فى اللغة الفرنسية ، وفى خلال ذلك كان يجتمع بالمرحوم الشاعر التركى (المشهور (عمر ناجى بك) فارتشف من مَنهله العذب ، وتأَدب بأَدبه ، ودرس عليه

آداب اللغة التركية ، وضرب بسهم فيها حتى صار الشعر هو المادة التى تنجذِب نفسه إليه وترتاح به ، رغم النصائح التى كان يلقيها عليه بعض معلميه العسكريين بقولهم : « إذا أردت أن تكون جُنديًّا حقيقيًّا فاترك الأَدب وخيال الشعراءِ » وبعد إتمامه الدراسة فى تلك المدرسة سافر إلى الآستانة سنة ١٣١٣ هـ ، والتحق بالمدرسة الحربية ، وكان شغفه عظيم بالعلوم والأَدب ، ومزاولة الخطابة وأَساليبها فتولد من ذلك توقه إلى حُبِّ الاشتغال بالسياسة ، خصوصاً وقد وقعت فى يده كتب الوطنى العظيم (نامق بك كمال) فطالعها مرارا ، ووقف على ما فيها وأَدرك مراميها فرسخت فى عقيدته (الوطنية) وكان ذلك فى عهد المرحوم (السلطان عبد الحميد) الداهية العظيم ، ومع ذلك تخرج من هذه المدرسة برُتْبة (مُلازم ثان) ، ولما انتقل إلى مدرسة أَركان حرب بَدأَ يتعرف مع بعض إخوانه من الطلبة ما يكتنف إدارة البلاد وسياستها من السُّوءِ والفساد ، فكان أَول ما فكر فيه أَن يُفهم زملاءه البالغ عددهم نحو ٥٠٠٠ طالب ، موقف البلاد الإدارى والسياسى .

وقد فكروا جميعا فى تأْسيس جريدة تكون لسان حالهم ، وقد أَخذ على عاتقه تحرير الكثير من مقالاتها وأَبحاثها غير أَن (إسماعيل) مفتش المدارس وقف على حركتهم ثم وَشَى بهم إلى السلطان ، وقال له : إن ناظر المدرسة (رضا) هو المسئول عن حركة الطلبة فاستدعاه السلطان فأَقنعه بعدم وجود حركة سياسية .
واستمر مع رفاقه على إصدار جريدتهم حتى سنى مدرسة أَركان حرب .

وبعد أَن خرج من المدرسة برتبة (يوزباشى) فى أَركان الحرب العامة واستأْجر لنفسه مكاناً خاصًّا فى (بك أوغلى) رغبة فى استئناف العمل وعقد الاجتماعات ، أَصدر القرارات لصالح الوطن ، ولكن لم تمض مدة وجيزة حتى اعتقل بضعة أَشهر ، ثم أُطلق سَرَاحُهُ وأَصرَّ على اشتغاله بالسياسة حتى نَفتْهُ الحكومة إلى ولاية الشام للخدمة فى الجيش ، وقد أَسس هناك (جمعية الحرية) وأَسس لها

فروعًا فى بيروت ويافا والقدس ، وفى كل مدينة حلَّ فيها ونزل بها ، ولما كان انتشار مبادى الجمعية غير ممكن فى تلك المدن عزَم على السفر إلى (مقدونيا) حيث هناك الأَرض صالحة لبذر تلك المبادى ، والعمل على إنمائها وإنباتها نباتاً حسناً ، وأَطلع جمعيته على رأْيه ، وعلى ذلك سَعَى أَفرادها وتمكن من إصدار إذن يسْتَطيعُ به السفر فى بادى الأَمر إلى (أَزمير) وعلى إثر ذلك أَرسل رسالة خاصة إلى (شكرى باشا) المعروف بوطنيته الحارة ، وطلب منه مساعدته ، ولما شد الرحال إلى مقدونيا ، وركب البحر غَيَّرَ وجهته إلى مصر ، ومنها إلى بلاد اليونان ، ثم إلى سلانيك رغبة فى إخفاءِ أَغراضه عن أَعين الجواسيس وقد أَسَّس فى مدينة سلانيك فرعاً عامًّا للجمعية ، وما كانت حكومة الآستانة تتلقى تقرير الجواسيس عن أَعماله حتى سافر إلى (يافا) وعلى أَثر ذلك ظهرت مسأَلة العقبة ، فاستصدرت جميعة الحرية أَمرًا بتعيينه على الحدود المصرية .

وقد مكث فى سوريا ثلاثة أعوام ، ثم طلب من الحكومة نقله إلى مقدونيا ، فقوبل طلبه بالقبول ، وعلم بعد وصوله إلى سلانيك أن جمعية الحرية غيَّرت اسمها باسم جمعية (الاتحاد والترقى) وما وافى إعلان الدستور حتى برز إلى ميادين السياسة بفضل إعلانه جميع الأَسرار .

ولما نشبت الثورة الرجعية فى الآستانة سنة ١٩٠٩ م أَخمدها واستتبَّ الأَمن ، ثم تعين بمهمة الإصلاح على ولاية طرابلس .

وكان كثيرًا ما يكتب لإِصلاح شأْن الجيش ، فكان ذلك من الأَسباب الجوهرية التى بعثت بعض القواد القدماءِ على حقدهم عليه ، وكان جزاؤه تعيينه قائدًا للأَلاى الثلاثين ، فجاءَ هذا التعيين على عكس غرضهم الأَساسى ؛ إذ أَفسح له مجالا واسعا لالقاءِ بعض المحاضرات الفنية وشرح أَساليب الخطط الحربية للضباط والقواد ، ثم بعد ذلك دعته حكومة الآستانة ، وعينته ضمن أَركان الحرب العامة فيها ، وقام بصحبة المرحوم

(شوكت باشا) بالحركات الحربية لإخماد الثورة فى بلاد ألبانيا .

وقد ذهب متنكرا إلى مصر على أثر إعلان الحرب الإيطالية سنة ١٩١١م وسافر منها إلى بنغازى ، ثم عاد إلى الآستانة بعد نشوب الحرب بين الترك والبلغار ، وتعين رئيسا لأركان الحرب ، بعدها عاد إلى الآستانة ، وتعين مُلحقاً عسكريًّا فى سفارة (صوفيا) عاصمة بلغاريا ، ومكث هناك مدة سنة كاملة.

ولما نشبت الحرب العامَّة سنة ١٩١٤ م تعين قائدًا للفرقة السادسة عشرة فى (تكفور طاغ) ثم تعين قائدًا لفيلق ديار بكر ، وبعدهما تولى قيادة الجيوش وعُين بعد ذلك قائدًا للقواتِ الحجازية ، ثم عاد إلى ديار بكر ، ومنها عاد إلى الآستانة وأخذ القيادة على عاتقه ، وحصل بينه وبين كبار القواد الألمانيين مناقشات أدَّت إلى استقالته ، وسافر من الآستانة مع (ولى العهد) إلى ألمانيا ، وفيها تقابل مع القائدين (هند نبورج ، ولوندرف) .

وقد صحت عزيمته على ترك الآستانة والتَّوغل فى داخلية البلاد ، وقد بذل جهده فى العمل على انقاذ الوطن خاصة والشرق عامة ، وبينما كان مشتغلا بتهيئة الأسباب لذلك ؛ إذ تلقى أمرًا بتعيينه قائدًا ومفتشا لجيش (الصاعقة) مع ضرورة ذهابه إلى الأناضول ، فتقبَّل ذلك بالسرور العظيم ، وقام إلى الأناضول ، وهو حاصل على رتبة القائد والمفتش معا لذلك الجيش ، وكان ذلك من أهم العوامل الفعَّالة للوصول إلى تحقيق إنقاذ الوطن ، ولما شعرت الحكومة بخطئها استدعى فى الحال إلى الآستانة ، فرفض واستقال ، وسعى فى جمع نُوَّاب الأُمة فى الأناضول ، وقد افتتح المجلس الوطنى الكبير يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩٢٠ م ، وأخذ فى مباشرة الأعمال والقيام بواجب البلاد ، وكان شغله الشاغل (كيف تمثل إرادة الأُمة أحسن تمثيل؟؟) .

وقد تم له ما أراد ، ففاز بالنصر والسداد ، وفق الله أمثاله إلى ما فيه صلاح العباد ، وقد اجتمع بين يديه إمارة السيف والقلم ، وخطبه أشهر من أن تذكر.

ومن أقواله فى حُبِّ الوطن العزيز : إن وطننا العزيز لايموتُ ولن يموت ، وإذا فرضنا المحال وسلمنا بموته (لا قدر الله) فكاهل الكرة الأرضية لن يستطيع حمل تابوته الجسيم . نعم لا يسقط مُهشما ، مقطع الأوصال ، ما دام فرد منا يتنسم نسيم الحياة .

ومن آرائه فى تعليم المرأة : تعليم المرأة (أُم الوطن) وتثقيف عقلها بالعلوم الدينية والمعارف الأهلية من أهمِّ ما ترمى إليه نهضتُنا العلمية الوطنية .

ومن وصفه للفلاح : سيد تركيا ، بل سيد العالم الحقيقى (الفلاح) لأنه هو العنصر الأول فى تكوين عناصر الأُمة وكيانها ، والوطن بدونه لاشئ ، بل الوطن هو ، فيتعين أن نعتنى به عناية خاصة ، وأن نضع قبل كل شئ سعادته نصب أعيننا .

شعراء العصر الحاضر

(١) محمود سامى باشا البارودى

هو ربُّ السيف والقلم ، أمير الشعراءِ ، وشاعرُ الأمراءِ (محمود سامى باشا ابن حسن حسنى بك البارودى) أحد زعماء الثورة العرابية ، وأشعر الشعراء المتأخرين بالديار المصرية ـ وُلد سنة ١٢٥٥ هـ ، وتأدب وأُدخل المدرسة الحربية ، ومازال يترقى حتى وَلّاهُ الخديوى توفيق نظارتى الحربية والأوقاف ، ثم وُلى رياسة مجلس النظار قُبيل الثورة العرابية ، فلما اضطرمت نيران الثورة أرغمه زعماؤها على اصطلاءِ نارها فخبَّ فيها ووضعَ ، وحُكم عليه بعد انقضائها بالنفى إلى جزيرة (سيلان) حتى عَمِىَ ، وشفع فيه ، فأذِن له بالقدُوم إلى مصر ، بعد مُضى ١٧ سنة من منفاه ، وبقى فى منزله يشتغل بالأدب إلى أن مات سنة ١٣٢٢ هـ ـ ١٩٠٤ م ، ومن قوله :

والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر ... وإنما صفوه بين الورى لُمَعُ

لو كان للمرءِ فكر فى عواقبه ... ما شان أخلاقه حرصٌ ولا طمع

وكيف يُدرِك ما فى الغيب من حدث　　من لم يزَل بغرور العيش ينخدعُ
دَهْرٌ يغرُّ وآمال تسرُّ وأَعْمَارٌ تمرُّ وأيام لها خِدَعُ
يسْعى الفتى لأُمور قد تضرُّ به　　وليس يعلم ما يأْتى وما يدعُ
يا أَيها السَّادِر المزورُّ من صلف　　مهلًا فإنك بالأَيام مُنخدعُ
دع ما يُريب وخُذ فيما خُلقت لهُ　　لعلَّ قلبك بالإيمان ينتفعُ
إنَّ الحياة لثوْبٌ سوف تخلعه　　وكل ثَوبٍ إذا ما رث ينخلعُ

ومن قوله فى الحماسة والفخْر (وهو آخر ما قاله) :

أَنا مَصدرُ الكلِم البوادى　　بين المحاضر والنَّوَادى
أَنا فارسٌ أَنا شاعرٌ　　فى كلِّ مَلحَمة ونادى
فإذا ركبت فَإِنَّنى　　زيْد الفوَارس فى الجلاد
وإذا نطقْت فإنَّنى　　قسٌّ بن ساعدة الإيادى

وقال يصف هرمى الجيزة وأبا الهول :

سل الجيزة الفيحاءَ عن هرمى مصر　　لعلك تدرى عيب ما لم تكن تدرى
بناءَانِ ردَّا صولة الدهر عنهما　　ومن عجب أَن يغلبا صولة الدهر
أَقاما على رغم الخطوب ليشهدا　　لبانيهما بين البرية بالفَخْر
فكم أُمم فى الدهر بادتْ وأَعصرٍ　　خلت وهما أعجوبة العين والفكر
تلوح لآثار العقول عليهما　　أَساطير لا تنفك تتلى إلى الحشر
رُمُوزٌ لو استطلعت مكنون سرها　　لأَبصرتَ مجموعَ الخلائق فى سطر
فما من بناءٍ كان أَو هو كائن　　يُدانيهما عِندَ التَّأَمل والخبر
يُقصرُ حُسناً عنهما صرحُ بابل　　ويعترف الإيوان[١] بالعجز والبهر
كأَنهما ثديان فاضا بدرَّة　　من النيل تروى غلة الأَرض إذ تجرى

(١) هو ايوان كسرى كان بهوا عظيما فى قصره بالمدائن وسقفه ازج معقود وبه سمى قصر الأبيض .

وبينهمَا بلهِيب[1] فى زِىٍّ رابِض أكب على الكفين منه إلى الصدر
يُقلِّب نحو الشرق نظرة وامقٍ كأَنَّ له شوقاً إلى مَطلع الفجْرِ
مصانعُ فيها للعلوم غوامض تَدل على أن ابن آدم ذو قدْرِ
رسا أصلها ، وأمتد فى الجوِّ فرْعُها فأَصبح وكرًا للسُّماكين[2] والنَّسر[3]

(٢) أحمد شوقى المتوفى سنة ١٣٥١ ﻫ ـ ١٩٣٢ م

أَشهر شعراء العربية فى العصر الحاضر ، وأَقدرهم على التصورات البديعية ، هو شاعر النيل المرحوم أَحمد شوقى بك ، ابن أَحمد شوقى بك ، المولود بمصر سنة ١٢٨٥ ﻫ ـ ١٨٦٨ م .

شعره : ينظم بين أَصحابه ، فيكون معهم وليس معهم ، وينظم حين يشاء ، وحيث يشاءُ ، لايجهد فكره ، ولايكده فى معنى أَو فى مبنى . فأَما المعنى فيجيئه على مرامه أَو على أَبعد من مرامه ، ولا ينضب عنده ، لأَنه يستخلصه من عقل فوَّار الذكاء ومعارف جامعة إلى أَفانين الآداب ، فى لغات الإفرنج والأَعراب ، فلسفة الحقوق وحقائق التاريخ ، وغرائب السير التى يحفظ منها غير يسير ، إلى مُشاركات علمية وتنبيهات فنية ، استفادها من مطالعته فى صنوف الكتب واتخذها عن ملاحظاته ومسموعاته فى جولاته بين بلاد الشرق والغرب . وأَما المبنى فله فيه أَذواق متعددة بتعدد مقامات القول ، ترى فيه من نسج (البُحترى) ومن صياغة (أَبى تمام) ومن وثبات (المتنبى) ومن مفاجآت (الشريف) ومن مُسلسلات (مِهيار) . ومن قوله (يصف هَيكل أَنس الوجود) :

أَيها المنْتحِى (بأَسوان) دارًا كالثُّرَيَّا تُرِيدُ أَنْ تَنْقَضَّا

---

(١) اسم لأبى الهول عرف به صدر الاسلام . ولعل أبا الهول محرف عنه .

(٢) السماكان : نجمان نيران فى السماء أحدهما السماك الرامح والثانى السماك الأعزل .

(٣) النسر : كوكبان . الواقع والطائر . وفى النسر تورية .

اخلع النعل واخفض الطرف واخشع لا تحاول من آية الدهر غمضا

قف بتلك (القصور) فى اليمّ غَرْقى مُمسِكًا بعضها من الذعر بعضا

كعذارى أخفين فى الماء بضًّا(١) سابحاتٍ به وأبدينَ بضا

مشرفات على الزّوال وكانت مشرقات على الكواكب نهضا

شاب من حولها الزمان وشابت وشباب الفنون مازال غضًّا

رب (نقشٍ) كأنما نفض الصا نِعُ منه اليدين بالأمس نفضا

و(دهان) كلامع الزيت مَرَّتْ أَعْصرٌ بالسراج والزيت وضا(٢)

و(خُطوطٍ) كأنها هُدُب ريمٍ(٣) حسنت صنعة وطولا وعَرضا

و(ضحايا) تكاد تمشي وترعى لو أَصابت من قدرة الله نَبضا

و(محاريب) كالبُروج بنتها عزماتٌ من عزْمة الجنّ أَمْضى(٤)

شيِّدت بعضها الفراعين زُلفى(٥) وَبنى البعضَ أجنبٌ يترضى(٦)

و(مقاصِيرَ) أُبْدِلتْ بفُتَات المســـك ترباً وباليواقيب قضاً(٧)

حظها اليوم هدَّةٌ وقديماً صرِّفَت فى الحظوظ رَفعًا وخَفضاً

سقت العالمين بالسعد والنحـــس إلى أن تعاطت النَّحس محضا(٨)

صنعة تدهش العقول وفنٌّ كان إتقانه على القوم فرضا

يا قصورا نظرتها وهى تقضى(٩) فسكبتُ الدموع والحق يُقضى

أَنت سطرٌ ومجد مصر كتاب كيف سام البلى كتابك قضا

وأنا المُحتفى بتاريخ مصر من يصن مجد قومه صان عرضا

رُبَّ سِرٍّ بجانبيكِ مزال كان حتى على (الفراعين) غَمضا

(١) بضا: البض، الرخص: الجسد . (٢) وضا: وضاء .
(٣) ريم: غزال . (٤) أمضى: أحد . (٥) زلفى: تقريبا .
(٦) يترضى: يطلب الرضا . (٧) قضا: حصا .
(٨) محضا: خالصا . (٩) تقضى: تفنى .

قل لها فى الدعاء لو كان يجدى ... تاسماء الجلال لا صرتِ أرضا

حار (فيك) المهندسون عقولا ... وتولت عزائم العِلم عرضى

أين ملك حيالها وفريد ... من نظام النعيم أصبح فضّا(١)

أين (فرعون) فى المواكب تترى ... يركض المالكين كالخيل ركضا

ساق للفتح فى الممالك عرضاً ... وجلا للفخار فى السِّلم عرضا

أين (إيزيس) تحتها النيل يجرى ... حكمت فيه شاطئين وعرضا

أسدل الطرف كاهن ومليك ... فى ثراها وأرسل الرأْس خفضا

يعرض المالكون أسرى عليها ... فى قيود الهوان عانين جرضى(٢)

ما لها أصبحت بغير مجير ... تشتكى من نوائب الدهر عضا

هى فى الأَماسر بين صخر وبحر ... ملكة فى السجون فوق حضْوَضى(٣)

أين (هوروس) بين سيف ونطع ... أبهذا فى شرعهم كان يُقضى؟

ليت شعرى قضى شهيد غرام ... أَم رماه الرشاة حقدًا وبغضاً

رب ضرب من سوط فرعون مض(٤) ... دون فعل الفراق بالنفس مضا

وهلاك بسيفه وهو فان ... دون سيف من اللواحظ ينضى(٥)

قتلوه فهل لذاك حديث ... أين راوِى الحديث نثرًا وقرضا؟

يا إمام الشعوب بالأَمس واليو ... م ستعطى من الثناء فترضى

(**مصر**) بالنازلين من ساح معن(٦) ... وحمى الجود حاتم الجود أفضى

كن ظهيراً(٧) لأَهلها ونصيراً ... وابذل النصح بعد ذلك محضا

قل لقوم على (الولايات) أيقا ... ظٍ إذا ذاقت البرية غمضا

شيمة النيل أن يفى وعجيب ... أحرجوه فضيع العهد نقضا

---

(١) فضا : مفضوض . (٢) جرضى : مغمومين .
(٣) حضوضى : جبل فى البحر . (٤) مض : مرجع .
(٥) ينضى : يسل . (٦) معن : هو معن بن زائدة أحد كرماء العرب . (٧) ظهيرا : نصيرا .

حاشه[1] الماءُ فهو صيد كريم ... ليت بالنيل يوم يسقط غيضا[2]
شيدوا المال، والعلوم قليلٌ ... أنقذوه بالمال والعلم نقضا[3]

وقال أيضاً فى استنهاض هِمم العمال من قصيدة :

أيها العمالُ أفنوا العمـ ... ـرَ كدًّا واكتسابا
واغمرُوا الأَرض فلوْلا ... سعيكم أمست يبابا[4]
أتقنوا الصنعة حتّى ... تـأَخذوا الخلد اغتصابا
إن للمتقن عند اللـ ... ـه والناس ثوابا
أتقنوا يحببْكم اللـ ... ـهُ ويرفعكم جنابا
أرضِيتم أن تُرَى مصـ ... ـر من الفن خرابا ؟
بعد ما كانت سماءً ... للصناعات وغابا
أيها الغادون كنـ ... ـحل ارتيادا وطلابا
فى بكور الطير للرز ... ق مجيئًا وذهابا
اطلبوا الحقَّ برفق ... واجعلوا الواجب دابا
واستقيموا يفتح اللـ ... ـه لكم باباً فبابا
اهجروا الخمر تطيعوا اللـ ... ـه أو تُرضوا الكتابا
إنها رجسٌ فطوبى ... لامرىءٍ كفَّ وتابا
تُرْعش الأَيدى ومن ير ... عش من الصناع خابا
إنما العاقل من ... يجعل للدهر حسابا

---

(١) حاشه : من حاش الصيد ، أخرجه فى كل مكان .
(٢) غيضا : من غاض الماء غيضا ، نقص أو غار فذهب فى الأرض .
(٣) نقضا : النقض ما انتقض من البناء ، أى انتكث .
(٤) الأرض اليباب : الخراب .

وقال أيضاً فى وصف الصحافة من قصيدة :

لكل زمان مضى آيةٌ وآية هذا الزمان الصحف
لسانُ البلاد ونبض العبا د وكهف الحقوق وحرب الجنف(١)
تسيرُ مسير الضحى فى البلا دِ ، إذا العلم مزَّق فيها السدف(٢)
وتمشى تعلمُ فى أُمة كثير بها لا يخُط الأَلِف !
فيا فِتية الصحف صبرًا إذا نبا الرزقُ فيها بكم واختلف
فإن السعادة غيرُ الظهو ر ، وغير الثراء ، وغير الترف
ولكنها فى نواحى الضمـــير إذا هو باللؤم لم يُكتنف
خذوا القصد واقنعوا بالكفا ف وخلوا الفضول يغلها السرف(٣)
ورومُوا النبوغَ فمن ناله تلقى من الحظ أَسنى التحف
وما الرزق مجتنِبٌ حرفة إذا الحظ لم يهجر المحترف
إذا آخت الجوهرىَّ الحظو ظُ كفلنَ اليتيمَ له فى الصدف(٤)
وإن أَعرضت عنه لم يحلُ فى عُيونِ الخرائد(٥) غير الخزف

(٣) المرحوم محمد حافظ إبراهيم المتوفى سنة ١٣٥١ هـ ــ ١٩٣٢ م

هو الشاعر الكبير المرحوم محمد حافظ بن إبراهيم أَفندى فهمى المولود سنة ١٢٨٨ هـ . يقول الشعر فى كل مكان يتفق له فيه أَن يخلو بنفسه ، ويتعب فى قرض قريضه تعب النحات الماهر فى استخراج تمثال جميل من حجره .

يؤثر الجَزالة على الرِّقة ، وله فيها آيات ، يطرق الموضوع فى الغالب من جوهره وربما نظم أَكثر الأَبيات قبل المطلع ، شأْن الصانع القدير الذى

(١) الجنف : الحيف . (٢) السدف : الظلام .
(٣) الفضول : فضلات المال الزائدة عن الحاجة ، وغالها السرف يغولها : أبى عليها . (٤) اليتيم : اللؤلؤ المنقطع النظير .
(٥) الخرائد : العذارى .

يبدأ بأصعب ما بين يديه ، آمناً أن تهن عزيمته دون الإجادة بعد ، عالماً أن الكلام لا بد أن يأتيه فى أى مقام طبعاً ولو بعد حين .

حاضر المحفوظ من أفصح أساليب العرب ، ينسج على منوالها ، ويتخير نفائس مفرداتها ، وأعلاق حلالها . له غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى ، وفى أقصى ضميره يؤثر البيت المجاد لفظاً على المجاد معنى . فإذا فاته الابتكار حيناً فى التصور لم يفته الابتكار حيناً فى التصوير ، أولع بالاجتماعيات فقال فيها وأجاد ما شاء .

فهو على الجملة أحد الثلاثة الذين هم نجوم الأدب العربى فى مصر لهذا العصر ولكل من تلك النجوم منزلته ، وإضاءته وأثره الخالد .

أما شعره فشعر البيان ، وإن من البيان لسحرًا ــ ومن شعره الاجتماعى قوله :

كم ذا يُكابد عاشق ويُلاقِ ... فى حُب مصر كثيرة العشاق
إنى لأَحملُ فى هواكِ صبابة ... يامصر ، قد خرجت عن الأَطواق
لهفى عليكِ ، متى أَراكِ طليقة ... يحمى كريم حماكِ شعبٌ راق
كلفٌ بمحمود الخلال مُتيَّمٌ ... بالبذلِ بين يديكِ والإنفاق
إنى لتطربنى الخلالُ كريمة ... طربَ الغريب بأَوبةٍ وتلاق
ويهزُّنى ذكر المروءة والندى ... بين الشمائل هزة المشتاقِ
ما البابلية فى صفاء مزاجها ... والشربُ بين تنافس وسباق
والشمس تبدو فى الكئوس وتختفى ... والبدرُ يشرق من جبين الساق
بألذ من خُلقٍ كريم طاهر ... قد مازجتهُ سلامة الأَذواق
فإذا رُزِقتَ خليقة محمودة ... فقد اصطفاك مقسمُ الأَرزاقِ
فالناسُ هذا حظه مالٌ ، وذا ... علم ، وذاك مكارم الأَخلاق
والمال إن لم تدخرهُ محصنا ... بالعلم كان نهاية الإملاق

والعلمُ إن لم تكتنفه شمائلٌ تُعليه كان مطيَّة الإخفاق
لا تحسبن العلم ينفعُ وحدهُ ما لم يُتوجُ ربه بخلاقِ
مَن لى بتربيةِ النساءِ فإنها فى الشرق علةُ ذلك الإخفاقِ
الأُم مدرسة ، إذا أعْددتها أعددت شعباً طيب الأَعراق
الأُم روضٌ إن تعهدهُ الحيا بالرى ، أَورق أَيَّما إيراق
الأُم أُستاذ الأَساتذة الأُلى شغلت مآثرهم مدى الآفاق
أَنا لاأَقول : دعوا النساءَ سوافرًا بين الرجال يجلنَ فى الأَسواق
يدرجن حيث أَردن ، لا من وازع يحذرن رقبته ولا من واقِ
يفعلن أَفعال الرجال لواهياً عن واجبات نواعس الأَحداق
فى دورهنَّ شؤونهن كثيرة كشئون ربِّ السيف والمزراق
كلا ، ولا أدعُوكمُ أَن تسرفوا فى الحُجب والتضييق والإرهاق
ليست نساؤكُم حلى وجواهرًا خوف الضياع تصان فى الأَحقاق
ليست نساؤكم أَثاثا يُقتنى فى الدور بين مخادع وطباق
تتشكل الأَزمانُ فى أَدوارها دُولا ، وهن على الجهود بواق
فتوسطوا فى الحالتين وأَنصفوا فالشر فى التقييد والإطلاق
رَبوا البنات على الفضيلة ، إنها فى الموقفين لهن خير وثاقِ
وعليكُم أَنْ تستبين بناتكم نور الهدى ، وعلى الحياة البواقى

(٤) المرحوم إسماعيل صبرى المتوفى سنة ١٩٢٣ م

هو أَحد شعراءِ الطبقة الأُولى فى هذا العصر ، ويمتاز بجمال مقطعاته وعذوبة أسلوبه إلى ما لا يُجاريه فيه مُجار .

وأكثر ما ينظم فلخطرة تخطر على باله ، من مثل حادثة يشهدها ، أَو خبر ذى بال يسمعه ، أَو كتاب يطالعه ينظم المعنى الذى يعرض له فى بيتين عادة إلى أَربعة إلى ستة ، وقلما يزيد على هذا القدر إلا حيث يقصد قصيدة .

وهو شديد النقد لشعره ، كثير التبديل والتحويل فيه حتى إذا استقام على ما يريده ذوقه من رقة اللفظ ، وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسبه ؛ ولد بالقاهرة سنة ١٨٥٤م ، وتوفى سنة ١٩٢٣ م .

ومن قوله يصف الأهرام :

لا القوم قومى ولا الأعوان أعوانى … إذا وَنى يوم تحصيل العلى وان
ولست إن لم تُؤيِّدنى فراعنةٌ … منكم بفرعون عالى العرش والشّان
ولست جبارَ ذا الوادى إذا سلمت … جبالهُ تلك من غارات أعوانى
لاتقربوا النيلَ إن لم تعملوا عملًا … فماؤه العذبُ لم يُخلق لكسلان
ردوا المجرَّة كدًّا دون مورِده … أو فاطلبوا غيره ريًّا لظمآن
وابنوا كما بَنتِ الأجيالُ قبلكم … لا تتركوا بعدكم فخرًا لإنسان
أمرتكم ، فأطيعوا أمر ربكُم … لايَثْنِ مُستمعا عن طاعة ثانِ
فالملكُ أَمرٌ وطاعات تسابقه … جنباً إلى جنب إلى غايات إحسان
لاتتركوا مُستحيلًا فى استحالته … حتى يُميط لكم عن وجه إمكان
مقالة قد هوت عن عرشِ قائلها … على مَناكب أبطال وشُجعان
مادت لها الأرض من ذُعر ودان لها … ما فى المقطم من صخر وصوانِ
لو غير فرعون ألقاها ملإ … فى غير مصر لعدَّت حُلم يقظان
لكن فرعون إن نادى بها جبلًا … لبَّت حجارتُهُ فى قبضة البانى
وآزرته جماهيرٌ تسيل بها … بطاحُ واد بماضى العزم ملآنِ
يبنون ما تقفُ الأجيال حائرة … أمامه بين إعجاب وإذعان
من كل ما لم يَلد فكر ولا فتحت … على نظائره فى الكون عينانِ
ويُشبهون إذا طاروا إلى عمل … جنا يطيرُ بأمر من سُليمان
برا بذى الأمر لاخوفاً ولاطمعاً … لكنهم خلقوا طُلاب إتقانِ

أَهرامُهم تلك ، حى الفنَّ متخذًا من الصخور بروجاً فوق كيوانِ

قد مر دهرٌ عليها وهى ساخرة بما يُضعضعُ من صرح وإيوان

لم يأَخذِ الليلُ منها والنهار سوى ما يأْخذُ النمل من أَركان ثهلان

كأَنها والعوادى فى جوانبها صرعى بناءُ شياطين لشيطانِ

جاءت إليها وفود الأَرض قاطبة تسعى اشتياقاً إلى ما خلد الفانى

فصغرت كل موجود ضخامتها وغضَّ بنيانها من كل بنيان

وعاد مُنكرُ فضل القوم معترفاً يُثنى على القوم فى سِر وإعلان

تلك الهياكل فى الأَمصار شاهِدةٌ بأَنهم أَهلُ سبْق ، أَهل إمعان

وأَنَّ فِرعونَ فى حولٍ ومقدرة وقوم فرعون فى الإقدام كفآنِ

إذا أَقامَ عليهم شاهدًا حجرٌ فى هيكل قامت الأُخرى ببرهانِ

كأَنما هى والأَقوامُ خاشعةٌ أَمامها صُحفٌ من عالم ثان

تستقبل العين فى أَثنائها صُورٌ فصيحة الرَّمز دارت حول جدرانِ

لو أَنها أعطيت صوتاً لكان له صدى يُروعُ صمَّ الإنسِ والجان

أَين الأُلى سجلوا فى الصخر سيرتهم وصغروا كل ذى مُلك وسُلطان

بادوا ، وبادَت على آثارهم دولٌ وأَدرجوا طىَّ أَخبار وأَكفانِ

(٥) خليل مطران

هو شاعر الشعور والخيال ، وشاعر بعلبك والأَهرام ، ولد عام ١٨٧١ م ببعلبك وتعلم بها ، ثم قدم مصر عام ١٨٩٣ ، واشتغل بمكاتبة الصحف ، وأَنشأَ باسمه «المجلة المصرية» عام ١٨٩٩ م ، وأَنشأَ أَيضاً «جريدة الجوائب المصرية» ، وله ديوانه المسمى «ديوان الخليل» .

شعره : مجمع الصور ، وملعب الخيال ، ونفسه كالصحيفة الحساسة ،

ينطبع عليها كل ما يمر بها . بل الغصن الرطب يميل به كل نسيم ، بل وجه البحيرة الصافى يحركه كل ريح .

ومن قصيدة له يصف الأسطول الإيطالى لسواحل الشام ويستنهض الهمم :

بلادى لا يزال هواك مِنى كما كان الهوَى قبل الفطَام ِ
أقبِّل منك حيث رَمى الأعادى رَغاماً طاهرا دون الرغام ِ
وأفدِى كلَّ جُلمود فَنيتٍ وهى بقنابل القوم ِ اللئام ِ
لحَى الله المطامعَ حيث حلتْ فتلك أشد آفات السلام ِ
تشوبُ الماء وهو أغرٌّ صافٍ وتمشى فى المشارب بالسقام ِ
أقول : وقد أفاق الشرقُ ذُعرًا من الحال الشبيهة بالمنام
على صخبِ المدافع فى حُماةٍ ورقص الموت بين طَلى وهام ِ
أقول بصوته لِحماة دار رمَاها من بنَاةِ الغرب رام
أُباةَ الضيم من عرب وترْك نسورَ الشمّ آساد الموامى
قروم العصر فرساناً ورَجْلا نجوم الكرّ من خلف اللثام ِ
بنا مرض النعيم فنسّمُونا وَغًى يشفى من الصفو العَقام ِ
بنا بردُ المكوثِ فأدفئونا بحمى الوثْبِ حيث الخطب حام
بنا عطل السماع فشنفونا بقعقعة الحديد لذى الصدَام ِ
على هذا الرجاء ونحن فيه نسير مُوفقينَ إلى الأمام ِ

وقال أيضاً فى « نابليون » وهو يَرْقب السماءَ فى آخر أيامه :

قالوا لنابليون ذات عَشية إذ كان يَرقبُ فى السماءِ الأنجما
هل بعد فتح الأرض من أمِنية فأجاب أنظر كيف أفتتح السما !

أبواب الشعر العربى ـــ الباب الأول فى المديح

قال أُمية بن أبى الصلت المتوفى فى أول ظهور الإسلام حامدًا شاكرًا الإله

لك الحمدُ والنَّعماءُ والملكُ رَبَّنا فلا شيء أعلى منك مجدًا وأمجدُ
مليكٌ على عرش السماءِ مُهيمنٌ لعزَّته تعنو الوُجوه وتَسجدُ
فسبحان من لا يعرف الخلقُ قدره ومن هو فوق العرش فرْد موحدُ
هو الله بارى الخلق والخلق كلهم إماءٌ له طَوعا جميعًا وأعبُدُ
مليكُ السماوات الشِّدَاد وأرضها يدوم ويبقى ، والخليقة تنفَدُ

وقال أيضاً فى الكونيات وذكر الفناءِ وما يلقاه الناس بعد ذلك :

إلٰه العالمين وكل أرض وربُّ الراسيات من الجبالِ
بناها وابتنى سبعًا شدادًا بلا عمدٍ يُرَيْنَ ، ولا رجال
وسوَّاها وزَينها بنور من الشمس المضيئة والهلالِ
ومن شُهب تلألأ فى دُجاها مراميها أشدُّ من النصالِ
وشق الأرض فانْبجَست عيوناً وأنهارًا من العذْب الزلال
وبارك فى نواحيها وزَكى بها ما كان من حرث ومال
فكل مُعمرٍ لابد يوماً وذى دنيا يصير إلى زوَالِ
ويفنى بَعدُ جِدتهِ ويَبلَى سوى الباق المقدس ذى الجلال
وسيق المجرمون وهم عُراة إلى ذات المقامع والنِّكالِ
فنَادوا وَيْلنا ويلا طويلا وعجوا فى سلاسلها الطوالِ
فليسوا ميَّتين فيستريحوا وكلهم بحرٍّ النار صالى
وحل المتقون بدار صِدْق وعيش ناعم تحت الظلال
لهم ما يشتهون وما تمنَّوا من الأفراح فيها والكمالِ

وقال محمود سامى البارودى مادحاً سيد الأُمة ، من قصيدة كشف الغمة :

(محمد) خاتم الرُّسل الذى خَضعت له البرِيةُ من عُرب ومن عجمِ
سميرُ وحى ومجنى حكمة ونَدى سماحةٌ وقرى عاف وريُّ ظَمِ

قد أَبلغ الوحىُ عنه قبل بعثته مسامع الرسل قولا غير منكتم
فذاك دعوة إبراهيم[(١)] خالقهُ وسر ما قاله عيسى[(٢)] من القِدَم
أَكْرِم به ، وبآباءِ مُحجَّلة جاءت به غُرة فى الأَعصر الدُّهم
قد كان فى ملكوت الله مُدَّخرًا لدعوة كان فيها صاحبَ العلم
نور تنقل فى الأَكوان ساطعهُ تنقلَ البدر من صُلْبٍ إلى رحم

وقال شوقى مادحاً أَفضل الخلق على الإطلاق من قصيدة نهج البردة :

(محمدٌ) صفوةُ البارى ورحمتهُ وبُغيةُ الله من خلق ومن نسم
وصاحبُ الحوض يوم الرسل سائلة متى الورود ؟ وجبريل الأَمين ظمى
سناؤه وسناءُ الشمسِ طالعةٌ فالجرمُ فى فلكٍ والضوءُ فى علم
قد أَخطأَ النجم ما نالت أُبوته من سؤدد باذخ فى مظهرٍ سنم
نموا إليه فزادوا فى الورى شرفاً وربَّ أَصْل لفرع فى الفخار نمى
حوَاهُ فى سبحات الطهر قبلهم نوران قاما مقام الصلب والرحمِ
لما رآه بحيرًا قال نعرِفهُ بما حفظنا من الأَسماء والسيم

وقال أَبو تمام مادحا المعتضد بالله :

إلى قطبِ الدنيا الذى لو بفضله مدحت بنى الدنيا كفَتْهم فضائله
من البأْس والمعروف والجود والتقى عيالٌ عليه رزقهن شمائله
هو البحر من أىّ النواحى أَتيتهُ فلجتُهُ المعروف والجودُ ساحله
تعَود بسط الكَفِّ حتى لو انه ثناها لقبض لم تطعه أَنامله
ولو لم يكن فى كفه غير روحه لجادَ بها فليتق الله سائله

(١) يشير الى قوله تعالى : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » .
(٢) يشير الى قوله جل ذكره : « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » .

وقال مادحاً المعتصم بالله أَبا إسحاق محمد بن هارون الرشيد من قصيدة :

السيفُ أَصدق أَنباءً من الكتبِ ... فى حَدِّه الحدُّ بين الجدِّ واللعِب
بيض الصَّفائح لا سود الصحائف فى ... مُتونِهن جلاءُ الشك والرِّيب
فتحٌ تفتح أَبْواب السماءِ له ... وتبرز الأَرض فى أَثوابها القشبِ
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضُحى ... يشله وسطها صبحٌ من اللهبِ
حتى كأَن جلابيب الدجى رغبت ... عن لونِها أَو كأَن الشمس لم تغبِ
أَجبته معلنا بالسيف مُنصلتًا ... ولو أَجبت بغير السيف لم تجبِ
خليفة الله جازى الله سعيك عن ... جرثومة الدين والإِسلام والحسب
إِن كان بين صروف الدهر رحم ... موصاةٍ أَو ذمام غير مُنقضبِ
فبين أَيامِك اللاتى نُصرت بها ... وبين أَيام بدر أَقرب النَّسب

وقال أَبو العلاء المعرى :

إِليك تناهى كل فخرٍ وسؤدَدٍ ... فأَبْلِ الليالى والأَنام وجدِّدِ
لجدك كان المجد ثم حويته ... ولابنك يبنى منه أَشرَفُ مقعد
ثلاثة أَيام هى الدهر كله ... وما هن غير الأَمس واليوم والغدِ
وما البدر إلا واحدٌ غير أَنه ... يغيب ويأْتى بالضِّياء المجددِ
فلا تحسب الأَقمار خلقًا كثيرة ... فجملتها من نَيِّر متردِّدِ
وللحسن الحسنى وإن جاد غَيْرُهُ ... فذلك جودٌ ليس بالمتعمدِ

وقال أَبو الطيب المتنبى مادحاً سيف الدولة :

ضاق الزمان ووجه الأَرض عن ملك ... مِلءِ الزمان ومِلءِ السهل والجبل
فنحن فى جذل والروم فى وجلٍ ... والبرُّ فى شغل والبحر فى خجل
ليت المدائح تستوفى مناقبه ... فما كليبٌ وأَهل الأَعصر الأُول
خُذْ ما تراه ودع شيْئًا سمعت به ... فى طلعة البدر ما يغنيك عن زُحل

وقد وجدت مكان القول ذا سعة ... فإن وجدت لساناً قائِلاً فقُل
إن الإمام الذى فَخرُ الأَنام به ... خير السيوف بكفى خيرَة الدول
تمسى الأَمانىُّ صرعى دون مبلغه ... فما يقولُ لشىءٍ ليتَ ذلك لى

وقال أَيضاً يمدحُ أَبا شجاع :

لا خَيلَ عندك تهديها ولا مالُ ... فليسعد النطق إن لم تسعد الحالُ
واجز الأَميرَ الذى نُعماه فاجئةٌ ... بغير قولٍ ونُعمى الناس أَقوال
فربما جزت الإحسان مُوليه ... خريدةٌ من عذارى الحى مكسالُ
وإن تكن محكمات الشكل تمنعنى ... ظهور جرى فلى فيهن تصهال
وما شكرتُ لأَن المال فرحنى ... سِيان عندى إكثارٌ وإقلال
لكن رأَيتُ قبيحًا أَن يَجادلنا ... وإننى بقضاءِ الحق بخالُ
فكنت مُنبتَ روض الحزن باكره ... غيثٌ بغير سباخ الأَرض هطالُ
غيثٌ يُبينُ للنظار موقعهُ ... إن الغيوث بما تأْتيه جُهال
لا يُدرك المجد إلا سيدٌ فطنٌ ... لما يشق على الساداتِ فعالُ
لا وارثٌ جهلت يمناهُ ما وهبت ... ولا كسوبٌ بغير السيف سئال
قال الزمانٌ له قولا فأَفهمه ... إن الزمان على الإمساك عذالُ
تدرى القناة إذا اهتزَّت براحته ... أَن الشقىَّ بها حيلٌ وأَبطالُ
كفاتك ، ودخول الكاف منقصةٌ ... كالشمس قلت وما للشمس أَمثال
القائدُ الأَسد غذتها براثنه ... بمثلها من عِدَاهُ وهى أَشبال

وقال أَيضاً يمدح سيف الدولة ويذكر بناءه قلعة الحدث عام ٣٤٣ هـ :

على قدرِ أَهل العزم تأْتى العزائمُ ... وتأْتى على قدرِ الكرام المكارمُ
وتعظمُ فى عين الصغير صغارها ... وتصغر فى عينِ العظيمِ العظائم
يكلف سيف الدولة الجيش همه ... وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم

ويطلب عند الناس ما عند نفسه وذلك مالا تدعيه الضراغمُ
يفدى أَتم الطير عمرًا سلاحه نسور الفَلا أَحداثها والقشاعمُ
وما ضرها خلقٌ بغير مخالب وقد خلقت أَسيافه والقوائم
هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أَىُّ الساقيين الغمائم
سقتها الغمائم الغرُّ قبل نزوله فلما دنا منهل سقتها الجماجم
بناها فأَعلى والقنا تقرع القنا وموجُ المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثلُ الجنون فأَصبحت ومن جثث القتلى عليها تمائم
طريدة دَهْر ساقها فرَددتها على الدين بالخطى والدهر راغم
تبيدُ الليالى كل شىء أَخذته وهُنَّ لما يَأْخذن منك غوارم
وكيف ترجى الروم والفرس هدمها وذا الطعنُ آساس لها ودعائم

وقال جرير يمدح عبد الملك بن مروان :

تعزت امَّ حزرة ثم قالت : رأَيت الواردين ذوى امتناح
ثقى بالله ليسَ له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح
سأَشكرُ إن رددت علىّ ريشى وأَنبتَّ القوادم فى جناحى
أَلستم خير من رَكب المطايا وأَنْدَى العالمين بُطون راح

وقال أَيضاً يمدح عمر بن عبد العزيز ويستعطفه :

كم باليمامة من شعثاءِ أَرمَلة ومن يتيم ضعيف الصَّوت والنظر
ممن يعدك تكفى فقد والده كالفرخ فى العشِّ لم ينهض ولم يطر
يدعوك بعدك ملهوف كأَن به خبلا من الجن أَو مَساً من البشر
إنا لنرجو إذا ما الغيثُ أَخلفنا من الخليفة ما نرجو من المطر
أَتى الخلافة أَو كانت له قدرًا كما أَتى ربه مُوسى على قدر
هذى الأَرامِلُ قد قضيت حاجتها فمن لحاجة هذا الأَرمل الذَّكر ؟

وقال أيضاً يمدحه :

يعودُ الفضلُ منك على قريش وتفرجُ عنهم الكُربَ الشدادا
وقد أَمَّنْت وحشهُم برفق ويعيي الناسَ وحشك أن يصادا
وتدعو الله مجتهدًا ليرْضى وتذكر فى رَعيَّتِكَ المعادا
وما كَعْبُ ابن مامة وابن سُعْدى بأَجودَ منك يا عمرُ الجوادا

وقال الثعالبي المتوفى سنة ٤٣٩ هـ مادحا الأمير أبا الفضل الميكالى :

لك فى المفاخر معجزاتٌ جمة أبدًا لغيرك فى الورَى لم تجمع
بحران بحرٌ فى البلاغة شابَهُ شعر الوليد وحُسنُ لفظ الأَصمعى
وترسُّل الصابى تزين عُلوه خط ابن مقةَ ذو المحَل الأَرفع
كالنور أَو كالسحر أَو كالبدر أَو كالوَشى فى برد عليه موشع
شكرًا فكم من فقره لك كالغنى وافى الكريم بُعَيد فَقر مدقع
وإذا تفتقَ نورُ شعرك ناضرا فالحسن بين مرصع ومصرع
أَرجلت فرسان الكلام ورضـ ـت أَفْرَاسَ البديع وأَنت أَمجد مبدع
ونقشت فى فص الزمان بَدائعاً تزرى بآثار الربيع المرع

وقال أَبو محمد اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ هـ يمدح الملك الفائز ووزيره الصالح :

أَقسمت بالفائز المعصوم معقده فوز النجاة وأَجر البر فى القسم
لقد حمَى الدين والدنيا وأَهلهما وزيره الصالح الفُرَّاج للغمم
اللابس المجد لم تنسجِ غلائله إلا يد الصانعينِ السيف والقلم
وقد ملكته العوالى رق مملكة تعير أَنف الثريا عزة الشمم
أَرى مقاماً عظيمَ الشأْن أَوهمنى فى يقظتى أَنه من جملة الحلم
ليت الكواكب تدنو لى فأَنظمها عقود مدح فما أَرضى لكم كلمى
خليفة ووزير مدَّ عدلهما ظلا على مفرقِ الإسلام والأُمم
زيادة النيل نقص عند فيضهما فما عسى يتعاطى هاطلُ الديم

وقال المرحوم حافظ إبراهيم يمدح المرحوم الشيخ محمد عبده ويهنئه :

رأيتكَ والأبصارُ حولك خُشع فقلت أبوحفص ببرديك أم على

وخفضتُ من حزنى على مجد أُمة تداركتها والخطبُ للخطب يعتلى

طلعت بها باليمن من خير مطلع وكنت لها فى الفوزِ قدح ابن مقبل

وجردت للفتيا حسام عزيمة بحديه آياتُ الكتاب المنزل

محوتَ به فى الدين كل ضلالة وأثبت ما أثبتَّ غيرَ مضلل

لئن ظفر الإفتاء بفاضل لقد ظفر الإسلامُ منك بأفضل

الباب الثانى فى الفخر والحماسة

قال السموأل بن عادياء المتوفى سنة ٦٢ قبل الهجرة :

إذا المرءُ لم يدنس من اللوم عرضه فكل رداء يرتديه جميل(١)

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل(٢)

تُعَيِّرنا أَنَّا قليلٌ عديدنا فقلت لها : إن الكرامَ قليل(٣)

وما قل من كانت بقاياه مثلنا شباب تسامى للعلا وكهول(٤)

وما ضرَّنا أَنَّا قليل وجارنا عزيز وجارُ الأكثرينَ ذليل(٥)

لنا جبل يحتله من نجيرُهُ منيع يردُّ الطرف وهو كليل(٦)

---

(١) اللؤم اسم جامع للخصال المذمومة : والمعنى أن الانسان اذا لم يتدنس باكتساب اللؤم واعتياده فأى ملبس يلبسه بعد ذلك كان جميلا .

(٢) وان هو لم يحمل الى آخر البيت : أى من لم يصبر النفس على مكارهها فلا سبيل له الى اكتساب حسن الثناء وليس معنى الضيم ضيم الغير لهم لأنهم يأنفون من ذلك ويعدونه تذللا . (٣) يقال عيرته كذا وعيرته بكذا والأول المختار . (٤) الشباب : جمع شاب كالشبان ، وقوله : أراد تتسامى فحذف احدى التاءين ، والكهول جمع كهل ضد الشبان . (٥) وضرنا يجوز فى أما أن تكون نافية ، والمعنى لم يضرنا ويجوز أن تكون استفهامية على طريق التقرير . (٦) قيل انه أراد يذكر الجبل العز والسمو : وقيل ان هذا الجبل هو حصن السموأل الذى يقال له الأبلق الفرد بناه أبوه ، وقيل بناه سيدنا سليمان عليه السلام .

رَسَا أَصله تحت الثرى وسما به إلى النجوم فرْع لا يُنالُ طويلُ(١)
هو الأَبلق الفردُ الذى شاع ذكره يعز على من رامه ويطولُ(٢)
وإن لقوم لا نرى القتل سُبَّة إذا ما رأته عامر وسلول(٣)
يقربُ حب الموْت آجالنا لنا وتكرههُ آجالهم فتطولُ(٤)
وما مات منا سيد حتف أَنفه ولا ظل منا حيث كان قتيل(٥)
تسيلُ على حد الظبات نفوسنا وليست على حد الظبات تسيلُ(٦)
صفونا فلم نكدرْ وأَخلص سرنا إناث أَطابت حملنا وفحولُ(٧)
علوْنا إلى خير الظهور وحطنا لوقت إلى خير البطون نزولُ(٨)
فنحن كماءِ المزن مافى نصابنا كهام ولا فينا يعد بخيلُ(٩)
وننكرُ إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القوْل حين نقول(١٠)
إذا سيدٌ منا خلا قام سيدٌ قؤولٌ لما قال الكرام فعول(١١)

---

(١) رسا أصله الى آخر البيت يريد به أنه أثبت جبل فى الأرض وأعلى طود عليها . (٢) الأبلق الفرد الذى شاع ذكره هو حصن السموال بناه أبوه وقيل سليمان عليه السلام بأرض تيماء وقصيدته الزباء فعجزت عنه وعن مارد فقالت تمرد مارد وعز الأبلق .

(٣) السبة العار ، وعامر وسلول قبيلتان ، يقول : اذا حسب هؤلاء القتل عارا عدته عشيرتى فخرا . (٤) يقرب الى آخر البيت يشير به الى أنهم يغتبطون لاقتحامهم المنايا وأن عامرا وسلولا يعمرون لمجانبتهم الشر كراهة للموت وحبا للحياة . (٥) يقال مات فلان حتف أنفه اذا مات من غير قتل ولا ضرب ، قيل ان أول من تكلم بقولهم حتف أنفه هو النبى صلى الله عليه وسلم . (٦) الظبات : جمع ظبة وهى حد السيف . قيل أراد بالظبات السيوف كلها فأضاف الحد اليها أى أنهم لشجاعتهم وشرفهم لا يقتلون الا بالسيف ولا يقتلون بالعصى ولا بالحجارة كما يقتل رعاع الناس . (٧) المراد بالسر هنا الأصل الجيد .

(٨) علونا الى آخر البيت يشير به الى صريح نسبهم وخلوصه مما يحط بشرفهم . (٩) كماء المزن يريد بذلك . تشبيه صفاء انسابهم بصفاء المطر والنصاب الأصل ومنه نصاب السكين والكهام الكليل الحد يقول نحن كماء المزن وكل منا نافذ ماض ولا فينا بخيل فيعد .

(١٠) ولا ينكرون الى آخر البيت معناه أنهم لشدة بأسهم وحماستهم يخشاهم الناس فلا ينكرون عليهم . (١١) يعنى أن السيادة مستقرة فينا حتى اذا خلا منا سيد قام سيد يقول ماتقول الكرام ويفعل ماتفعل .

وما أُخمدت نارٌ لنا دون طارق ولا ذَمَّنا فى النازلين نزيل(١)
وأَيامُنا مشهورة فى عَدُونا لها غَررٌ معلومة وحُجُول(٢)
أَسيافنا فى كل شرق ومغربٍ بها من قِرَاع الدَّارِ عين فُلولُ(٣)
مُعوَّدة أَلا تسلَّ نصالها فتغمد حتى يُستباحَ قبيلُ(٤)
سَلى إن جهلت الناس عنا وعنهم فليسوا سواءً عالمٌ وجهول(٥)
فإن بنى الديان قطبٌ لقومهم تدورُ رحاهم حولهم وتجول(٦)

وقال عنترة العبسى المتوفى سنة ٧ قبل الهجرة :

لعمرك إن المجد والفخر والعلا ونيل الأَمانى وارتفاع المراتب
لمن يتلقى أَبطالها وسراتها بقلب صبور عند وقع المضارب
ويبنى بحدِّ السيف مجدًا مشيدًا على فلك العلياء فوق الكواكب
ومن لم يروِّ رُمْحهُ من دم العِدَا إذا اشتبكت سُمْر القنا بالقواضب
ويعطى القنا الخطى فى الحرب حقه ويبرى بحد السيف عرض المناكب
يعيش كما عاش الذليل بغصة وإن مات لا يجرى دموع النوادب
فضائلُ عزم لاتباعُ لضارع أَسرار عزمٍ لا تذاع لعائب
برزْتُ بها دهرًا على كل حادث ولا كحل إلا من غُبار الكتائب

(١) وما أخمدت نار لنا يشير بذلك الى أنهم لكثرة كرمهم يديمون ايقاد نار الضيافة ولا يطفئونها دون طارق ليل وأنهم يثنى عليهم كل نزيل.

(٢) الحجول : جمع حجل وهو الخلخال يقول وقعاتنا مشهورة فى أعدائنا فهى بين الأيام كالأفراس الغر المحجلة بين الخيل .

(٣) القراع بكسر القاف المقارعة والمضاربة والدارعين أصحاب الدروع . (٤) القبيل : الجماعة من آباء شتى وجمعه قبائل يقول عودت أسيافنا أن لا تجرد من أغمادها فترد فيها الا أن يستباح بها قبيل ، وفى رواية قتيل . (٥) عنا وعنهم ويروى عنا فتخبر معناه ان كنت جاهلة بنا فسلى الناس تخبرى بحالنا فالعالم والجاهل مختلفان

(٦) القطب الحديد المغروس فى الطبق الأسفل من الرحى يدور عليه الطبق الأعلى منها ، والمعنى أن أمر قبيلهم لا يستقيم ولا يتم الا بها مثل الرحى لا يتم أمرها الا بالقطب .

إذا كذَب البرق اللموع لشائم | فبرقُ حسامى صادق غير كاذب

سكتُّ فغرَّ أَعدائى السكوتُ | وظنُّونى لأَهلى قد نسيت
وكيف أَنامُ عن سادات قوم | أَنا فى فضل نعمتهم رُبيتُ
وإن دامت بهم خيل الأَعادى | ونادَوْنى ، أَجبت متى دُعيتُ
بسيف حدُّه موْجُ المنايا | ورُمحٌ صدرهُ الحتف المميت
خلقت من الحديد أَشد قلباً | وقد بلى الحديد وما بليت
وإنى قد شربت دم الأَعادى | بأَقْحاف الرؤوس وما رويت
وفى الحرب العَوان ولدت طفلا | ومن لبن المعامع قد سقيت
فما للرمح فى جسمى نصيب | ولا للسيف فى أَعضاى قوت
ولى بيت علا فلك الثريَّا | تخرُّ لعظم هيبته البيوت

وقال أَيضاً فى الحماسة والفخر يوم المصانع :

إذا كشف الزمان لك القناعا | ومد إليك صرف الدهر باعا
فلا تخش المنية والتقيها | ودافع ما استطعت لها دفاعا
ولا تختر فراشاً من حرير | ولا تبكِ المنازل والبقاعا
وحولك نِسوة يندبن حزناً | ويهتكنَ البراقع واللفاعا
يقول لك الطبيب دواك عندى | إذا ما جسَّ كفك والذراعا
ولو عرف الطبيب دواء داءٍ | يرُدُّ الموت ما قاسى النزاعا
وفى يوم المصانع قد تركنا | لنا بفعالنا خبرا مُشاعا
أَقمنا بالذوابل سوق حرب | وصيرنا النفوس لها متاعا
حصانى كان دلال المنايا | فخاض غمارها ، وشرى وباعا
وسيفى كان فى الهيجاء طبيباً | يداوى رأْس من يشكو الصداعا
أَنا العبد الذى خبّرت عنه ، | وقد عاينتنى فدع السماعا

ولو أَرسلتُ رمحى مَع جبان لكانَ بهيبتى يلقى السِّباعا
ملأْتُ الأَرض خوفاً من حسامى وخصمى لم يَجِدْ فيها اتساعا
إذا الأَبطال فَرَّت خوف بأْسى ترى الأَقطارَ باعاً أَو ذراعا

وقال أَيضاً فى الفخر والحماسة :

أُعادى صرف دَهْر لا يُعادَى وأَحتملُ القطيعة والبِعادا
وأَظهرُ نُصْحَ قَوْم ضيعونى وإنْ خانت قلوبهمُ الودادا
أُعلِّل بالمنى قلباً عليلًا وبالصبر الجميل وإن تمادى
تعيرنى العِدا بسوادِ جلدى وبِيضُ خصائلى تمحو السوادا
وردتُ الحربَ والأَبطالُ حَوْ لى تهزُّ أَكفها السُّمْرَ الصعادا
وخضتُ بمهجتى بحر المنايا ونارُ الحرب تتقد اتقادا
وعُدْتُ مُخضباً بدمِ الأَعادى وكربُ الركض قد خضب الجَوادا
وسيفى مُرهَف الحدين ماض تقدُّ شفاره الصَّخْر الجمادا
ورمحى ما طعنتُ به طعيناً فعاد بعينه نظرَ الرشادا
ولوْلَا صارمى وسنان رُمحى لما رفعت بنو عبس عمادا

وقال يتوعَّد النعمان بن المنذر ملك العرب ، ويفتخر بقومه :

لايحملُ الحقدَ مَنْ تعلو به الرتبُ ولا ينال العلى منْ طبعه الغضبُ
للهِ درُّ بنى عبس لقد نسلوا من الأَكارم ما قد تنسلُ العربُ
قد كنت فيما مضى أَرعى جمالَهم واليوم أَحمى حماهم كلما نُكِبُوا
لئن يعيبُوا سوادى فهو لى نَسَبٌ يومَ النزال إذا ما فاتنى النسبُ
إن كنت تعلم يا نُعْمَان أَنَّ يدى قصبرةٌ عَنْك فالأَيامُ تنقلب
إن الأَفاعى وإن لانَتْ ملامسها عند التقلب فى أَنيابها العطب
اليوم تعلم يا نُعْمان أَىَّ فتًى يلقى أَخاك الذى قد غرَّه العصب

فتى يخوض غِمارَ الحرب مُبتَسِماً ... وينْثنى وسنانُ الرُّمْح مختَضِبُ
إن سلَّ صارمه سالتْ مضاربُه ... وأَشرق الجوُّ وانشقت له الحُجب
والخيلُ تشهد لى أَنى أكفكفها ... والطعن مثل شرار النار يلتهب
إذا التقيت الأَعادى يوْمَ معركة ... تركت جمعهم المغْرور ينتَهَب
لىَ النُّفوس وللطير اللحوم وللـ ... وحش العظام وللخيالة السلب
لا أَبعدَ الله عن عَيْنِى غطارِفةً ... إنْسًا إذا نزلوا جنًّا إذا ركبوا
أُسود غاب ولكن لا نيوب لهم ... إلا الأَسنَّة والهندية القضب
تعدو بهم أَعوَجيات مضمرة ... مثل السراحين فى أَعناقها القبب
ما زلْت أَلقى صدور الخيل مندفقاً ... بالطعن حتى يضج السرْج واللبب
فالعمْى لو كان فى أَجفانهم نظروا ... والخرس لو كان فى أفواههم خطبوا
والنقع يوم طرادِ الخيل يشهد لى ... والضرب والطعن والأَقلام والكتب

وقال أَيضاً فى إغارته على بنى حريقة :

حَكم سيوفك فى رقاب العذل ... وإذا نزلت بدار ذل فارحل
وإذا الجبان نهاك يوم كريهة ... خوفاً عليك من ازدحام الجحفل
فاعص مقالته ولا تحفل بها ... واقدم إذا حقَّ اللقا فى الأَول
واختر لنفسك منزلا تعلو به ... أَو مت كريماً تحت ظلّ القسطل
إن كنت فى عدد العبيد فهمتى ... فوق الثريّا والسِّماك الأَعزل
أَو أَنكرت فرسان عبسى نسبتى ... فسنان رمحى والحسام يقر لى
وبذابلى ومهندى نلت العلى ... لا بالقرابة والعديد الأَجزل
ورميت رمحى فى العجاج فخاضه ... والنار تقدح من شفار الأَنصل
خاض العجاج محجلا حتى إذا ... شهد الوقيعة عاد غير محجل
ولقد نكبت بنى حريقة نكبة ... لما طعنت صميم قلب الأَخيل
وقتلت فارسهم ربيعة عنوة ... والهيذبان وجابر بن مهلهل

لا تسقِنِى ماءَ الحياة بذِلة بل فاسقنى بالعزِّ كأْس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنمٌ بالعزِّ أَطيب منزل

وقال هِبَة الله بن سناء الملك المتوفى سنة ٢٣٥ هـ :

سِوَاى يهاب الموت أَو يرهب الردى وغيرىَ يهوى أَن يعيش مُخلَّدا
ولكننى لا أَرهبُ الدهر إن سطا ولا أَحذَر الموت الزُّؤام إذا عدا
ولو مَدَّ نحوى حادث الدهرِ كفه لحدَّثتُ نفسى أَن أَمُد له يدا
توقدُ عزمى يترك الماءَ جَمرة وحلية حلمى تتركُ السيف مبرَدا
وفرط احتقارى للأَنام لأَننى أَرى كل عار من حُلى سؤددى سُدَا
ويأْبى إبائى أَن يرانىَ قاعدًا وإنى أَرى كلَّ البرية مقعدا
وأَظمأُ إن أَبدى لِى الماء مِنَّة ولو كان لى نهرُ المجَرةِ مَورِدا
ولو كان إدراكُ الهدى بتذلل رأَيت الهدى أَلا أَميل إِلَى الهدى
وقد ما بغيرى أَصبح الدهر أَشيباً وبى وبفضلى أَصبح الدهر أَمْرَدا
وإنك عبد يازمانُ وإننى على الرغم مِنى أَن أُرَى لكَ سَيدا
وما أَنا راضٍ أَننى واطِىءُ الثرى ولى هِمةٌ لا ترتضى الأُفق مقعدا
ولو علمت زهرُ النجوم مكانتى لخرَّت جميعًا نحو وجهى سُجَّدا
أَرى الخلقَ دونى إذ أَرانى فوقهُم ذكاءً وعلماً واعتلاءً وسؤدَدا
وبذلُ نوالى زاد حتى لقد غدًا من الغيظ منه ساكن البحرُ مُزبِدا
ولى قلم فى أَنملى إن هَززته فما ضَرَّنى أَلا أَهُز المُهَنَّدا
إذا صال فوق الطرس وقع صريره فإن صليل المَشرفىّ له صدا

وقال حسان بن ثابت الأَنصارى المتوفى سنة ٥٤ هـ :

لعمر أَبيك الخير يا شعث ما نبا على لسانى فى الخطوب ولا يدى
لسانى وسيفى صارمان كلاهما ويبلغُ مالا يبلغُ السيف مذودى
وإن أَكُ ذا مال كثير أَجُدْ به وإن يُهتَصرْ عُودِى على الجهد يحمد

فلا المال يُنْسِينى حيائى وعفتى ولا واقعات الدهر يفللن مبردى
وإنى لمعْطٍ ما وجدت ، وقائلٌ لموقِدِ نارى ليلة الريح أَوقد
وإنى لقوَّالٌ لذى البَث مرحبًا وأَهلا إذا ما جاءَ من غير مرصد
وإنى ليدعونى الندى فأَجيبه وأَضربُ بيض العارضِ المتوقد
وإنى لحلوٌ تعترينى مَرارةٌ وإنى لترَّاكٌ لما لم أُعوَّدِ
وإنى لمزجٍ للمطى على الوَحى وإنى لتراك الفراش الممهد

وللفرزدق :

لنا العزة القعساءُ[١] والعدد الذى عليه إذا عدَّ الحصى يتخلف[٢]
ومنا الذى لا ينطقُ الناس عنده ولكن هو المستأْذن المتصرف[٣]
تراهم قعودًا حوله وعيونهم مكسرة أَبصارُها ما تصرَّف[٤]
ترى الناس إن سرنا يسيرون خلفنا[٥] وإن نحن أَومأْنا إلى الناس وقفوا[٦]
ولا عز إلا عزنا قاهر له ويسأَلنا النصف الذليل فتنصف[٧]
وما قام عنا قائم فى نديِّنا[٨] فينطق إلا بالتى هى أَعرَف[٩]

وقال وقد نزل فى بادية وأَوقد نارًا فرآها ذئب فأَتاه فأَطعمه وأَنشد :

وأَطلس عَسَّالٍ وما كان صاحباً دعوتُ بنارى موهناً فأَتانى[١٠]

(١) العزة القعساء أى القوة والمنعة الشامخة الثابتة .
(٢) يعنى عددنا كثير ، وعدد الحصى أقل منه . (٣) يعنى منا من لا يتكلم فى مجلسه الا باذنه ولا يفعل الا بأمره . (٤) يعنى ما تنظر يمنة ولا يسرة من مهابته وجلالته . (٥) يعنى نحن سادة اشراف نمشى أمام الناس . (٦) يعنى اذا أشرنا الى الناس أن قفوا أوقف بعضهم بعضا طوع اشارتنا . (٧) ويطلب منا الضعيف النصفة والعدل فنمكنه من ذلك . (٨) الندى كغنى والنادى مجتمع القوم .
(٩) يعنى لا ينطق الا حيث يحسن الكلام واذا نطق جاء بالقول الصادق الذى لا يمكن لأحد أن ينكره . (١٠) الأطلس : الذئب الخبيث الذى فى لونه غبرة مائلة السواد ، والعسال الذى يضطرب فى عدوه ويهز رأسه . الموهن : الساعة الأولى بعد نصف الليل أى دعوته بسبب ايقاد النيران فى الساعة الأولى بعد نصف الليل فجاء الى .

فلما دنا قلتُ ادنُ دونك إننى ... وإياك فى زادى لمشتركان(١)
فبتُّ أَقدُّ الزاد بينى وبينه ... على ضَوْءِ نارٍ مرةً ودخان(٢)
وقلت له لما تكَشرَ ضاحكا(٣) ... وقائم سيفى فى يدى بمكان(٤)
تعشَّ فإن عاهدتنى لا تخوننى ... نكن مثل من ياذئب يصطحبان(٥)
وأَنت امرؤٌ ياذئب والغدر كنتما ... أُخَيَّين كانا أُرضِعا بلبان(٦)
ولو غيرَنا نبهت تلتمس القِرَى ... رماك بسهم أَو شباة سنان(٧)

وقال الشريف الرضى(٨) :

لغير العُلى منى القلى والتجنب ... ولولا العلى ماكنت فى الحب أَرغب
إذا الله لم يعذرك فيما ترُومه ... فما الناسُ إلا عاذل ومؤنب
ملكْتُ بحلمى فرصة ما استرقَها ... من الدهر مفتول الذراعين أَغلب
لئن تك كفى ما تطاول باعُها ... فلى من وراءِ المجد قلب مذرّب
فحسبى أَنى فى الأَعادى مبغض ... وأَنى إلى عز المعالى محبب
وللحلم أَوقاتٌ ، وللجهل مثلها ... ولكن أَوقاتى إلى الحلم أَقرب
يصول علىَّ الجاهلونَ وأَعتلى ... ويُعجم فىَّ القائلون وأُعْرِب

(١) أى لما جاء وقف فقلت له اقترب وخذ اشارة الى اعطائه الزاد .
(٢) أقد أى أقطع والزاد الطعام ولعل طعامه كان لحما بدليل القد .
(٣) لما تكشر لما أبدى ضاحكا أى كأنه يضحك . (٤) يعنى ومقبض سيفى ثابت فى يدى . (٥) يعنى اذا لم تظهر عليك علامة الغدر بقيت معك وبقيت معى كالمصطحبين . (٦) يعنى مع أنى أعرف انك والغدر متلازمان لا تفترقان ومعناه أن شيمته الغدر .
(٧) تلتمس القرى تطلب الضيافة وشباة السنان حده .
(٨) هو أبو الحسين محمد بن الحسين بن موسى الأبرش الشريف الملقب بالرضى ذى الحسين نقيب الطالبيين المولود سنة ٣٠٦هـ وتوفى سنة ٤٠٦ هـ ثم نقل الى مشهد سيدنا الحسين عليهما السلام بكربلاء ، ودفن عند أبيه ، ومن غرر شعره ما كتبه الى الامام أبى العباس أحمد المقتدر :

عطفا أمير المؤمنين فاننا ... فى درجة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... أبدا كلانا فى المعالى معرق
الا الخلافة ميزتك فاننى ... أنا عاطل منها وانت مطوق

يرْون احتمالى غصة ويزيدهم لواعِجَ ضغن أَننى لستُ أَغضبُ
وأَعرض عن كأْس النديم كأَنها وميضُ غمام غائر المزنِ خُلَّبُ
وقور فلا الأَلحانُ تأْسرُ عزمتى ولا تمكر الصهباءُ بى حين أَشربُ
ولا أَعرفُ الفحشاءَ إلا بوصفها ولا أَنطق العَوراءَ والقلبُ مغضبُ
لسانى حصاةٌ يقرَع الجهل بالحجا إذا نال منى العاضهُ المتوثب
ولست براض أَن تمسّ عزائمى فضالات مايعطى الزمان ويسلب
عرائبُ آداب حبانى بحفظها زمانى وصرفُ الدهر نعم المؤدبُ
تعلم فإن الجود فى الناس فطنة تقوم بها الأَحرار والطبع أَغلب

وقال العميد مويد الدين الطغرائى المتوفى سنة ٥١٣ هـ :

أَبى الله أَن أَسمو بغير فضائلى إذا ما سما بالمال كلُّ مُسودِ
وإن كرُمت قبلى أَوائل أسرتى فإنى ، بحمد الله ، مبدأُ سُؤدَدِى
وما منصب إلا وقدرى فوقه ولو حط رحلى بين نسر وفرقد
إذا شرُفت نفس الفتى زاد قدره على كل أَسنى منه ذكرًا وأَمجد
كذاك حديد السيف إن يصْف جوهرا فقيمته أَضعافه وَزْنُ عسجدِ
وما المال إلا عارةٌ مستردةٌ فهلا بفضلى كاثرونى ومحتدى؟
إذا لم يكن لى فى الولاية بسطة يطولُ بها باعى وتسطُو بها يدى
ولا كان لى حكم مطاع أَجيزه فأَرغم أَعدائى وأَكبت حُسَّدِى
فأَعذر إن قصرتُ فى حق مجتد وآمن أَن يعتادنى كيدُ معتد
ولولا تكاليف العلى ومغارم ثقال ، وأَعقاب الأَحاديث فى غد
لأَعيت نفسى فى التخلى مرادها فذاك مرادى مذ نشأت ومقصدى

وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أَبى لهب :

مهلا بنى عمنا ، مهلا موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا

لاتطمعوا أَن تهينونا ونكرمكم ... وأَن نكفَّ الأَذى عنكم وتؤذونا

مهلا بنى عمَّنا من تحت أَثلتنا ... سيروا رويدًا كما كنتم تسيرونا

الله يعلم أَنَّا لا نحبُّكم ... ولا نلومكم إن لم تحبونا

كل له نيةٌ فى بغض صاحبه ... بنعمة الله نقليكم وتقلونا

وقال محمد بن عبد الله الأَزدى :

لا أَدفع ابن العم يمشى على شفا ... وإن بلغتنى من أَذاهُ الجنادعُ

ولكن أُواسيه وأَنسى ذنوبهُ ... لترجعه يوماً إلىَّ الرواجعُ

وحسْبُك من ذُلّ وسوء صنيعة ... مناواة ذى القربى وإن قيل قاطع

وقال حطان بن المعلى :

أَنزلنى الدهرُ على حكمه ... من شامخ عال إلى خفض

وغالنى الدهرُ بوفر الغنى ... فليسَ لى مالٌ سوى عِرْضِى

أَبكانىَ الدهر ويا رُبما ... أَضحكنى الدهر بما يُرضِى

لولا بُنَيَّاتٌ كزغب القطا ... رُدِدْنَ من بعض إلى بعض

لكان لى مضطربٌ واسعٌ ... فى الأَرض ذات الطول والعرض

وإنما أَولادُنا بيننا ... أَكبادُنا تمشى على الأَرض

لو هبت الريح على بعضهم ... لامتنعت عينى من الغمض

وقال أَوس بن حبناء :

إذا المرءُ أَولاك الهوان فأَوله ... هواناً وإن كانت قريبا أَواصرهُ

فإن أَنت لم تقدر على أَن تهينه ... فَذَرهُ إلى اليوم الذى أَنت قادره

وقال سعد بن ناشب :

وتفندنى فيما ترى من شراستى ... وشدَّة نفسى أُم سعد وما تدرى

فقلت لها إن الكريم وإن خلَا ليلقى على حال أَمرّ من الصبر
وفى اللين ضعف وفى الشراسة هيبةٌ ومن لم يُهبْ يحمل على مركب وعر
وما بى على من لان لى من فظاظة ولكنى فظٌّ أَبى على القسر

وقال إبراهيم النبهانى :

تعزّ فإن الصبر بالحرّ أَجملُ وليس على ريْب الزمان مُعوّلُ
فلو كان يغنى أَن يُرى المرءُ جازعاً لحادثة ، أَو كان يَغْنى التذلل
لكان التعزِّى عند كل مصيبة ونائبة بالحر أَولى وأَجمل
فكيف وكلٌّ ليس يعدو حمامهُ وما لامرىء عما قضى الله مُزحَل
فإن تكن الأَيام فينا تبدَّلت ببؤسى ونعمى والحوادث تفعل
فما لينت مِنَّا قناة صليبة ولا ذللتنا التى ليس تجمل
وقينا بحسنِ الصبر منا نفوسنا فصَحَّت لنا الأَعراض والناس هزل

وله :

إن يحسدونى فإنى غير لائمهم قبلى من الناس أَهل الفضل قد حسدوا
فدام لى ولهم ما بى وما بهم ومات أَكثرنا غيظاً بما يجد
أَنا الذى يجدونى فى صدورهم لا أَرتقى صدرًا منها ولا أَردُ

وقال سالم بن وابصة :

عليك بالقصد فيما أَنت فاعله إن التخلق يأْتى دونه الخلقُ
وموقف مثل حد السيف قمت به أَحمى الذمار وترمينى به الحَدَقُ
فما زلقتُ ولا أَبديت فاحشة إذا الرجال على أَمثالها زَلقوا

وقال تـأَبط شرًّا :

إذا المرءُ لم يحتل وقد جدَّ جدُّه أَضاع وقاسى أَمره وهو مدبر

ولكن أخو الحزم الذى ليس نازلا　　به الخطب إلا وهو للقصدِ مُبصر

وقال حبيب بن أوس أبو تمام الطائى :

أَنا ابن الذى استرضع الجود فيهم　　وقد ساد فيهم وهو كهلٌ ويافعُ
نجومٌ طواليع جبال فوارع　　غيوث هواميع سيول دوافعُ
مضوا وكأَن المكرمات لديهم　　لكثرة ما أَوصوا بهن شرائع
فأَى يد فى المحل مدت فلم يكن　　لها راحةٌ من جودهم وأَصابع
هم استودعوا المعروف محفوظ مالنا　　فضاع وما ضاعت لدينا الودائع
بها ليل لو عاينت فيضَ أَكفهم　　لأَيقنت أَن الرزق فى الأَرض واسع
إذا خفقت بالبذل أَدواح جودهم　　حداها الندى واستنشقتها المدامع
رياح كريح العنبر الغضِّ فى الندى　　ولكنها يوم اللقاء زعازع
هى السم ما تنفك فى بلدة　　تسيلُ به أَرماحهم وهو ناقع
أَصارت لهم أَرض العدو قطائعًا　　نفوس لحسد المرهفات قطائع
بكل فتى ما صاب من روع وقعة　　ولكنه قد شبن منه الوقائع
إذا ما أَغاروا فاحتووا ما معشر　　أَغارت عليهم فاحتوته الصنائع
فتعطى الذى تعطيهم الخيل والقنا　　أَكف لإرث المكرمات موانع

وقال أَبو فراس الحمدانى(١) المتوفى سنة ٣٥٧ هـ :

ووالله ما قصرت فى طلب العلا　　ولكن كأَن الدهر عنى غافل

---

(١) هو الحارث بن أبى العلاء سعيد بن حمـــدان التغلبى ابن عم سيف الدولة وناصر الدولة توفى سنة ٣٥٧ هجرية عن عمر ٣٧ سنة ، وكان فرد دهره وشمس عصره أدبا وفضــلا وكرما ومجــدا وبلاغة وبراعة وفروسية وشجاعة ، فلله دره شاعرا من قبل ومن بعد ، وأنشــد وهو يحتضر يخاطب ابنته :

ابنتى لا تجــــزعى　　فــكل حى الى ذهــاب
نوحى عــلى بحــرة　　من خلف سترك والحجاب
قـــولى اذا كلمتنى　　فعييت عن رد الجــواب
زين الشـــباب أبو فرا　　س لم يمتــع بالشباب

مواعيد آمال حتى ما انتجعتها ... حلبت بكيات وهن حوافلُ
تدافعنى الأَيام عما أُريده ... كما دفع الدين الغريم المماطلُ
فمثلى من نال الأَعادى بسيفه ... ويا ربما غالته عنها الغوائل
وما لى لا تمسى وتصبح فى يدى ... كرائم أَموالِ الرجال العقائل
أحكم فى الأَعداءِ عنها صوارماً ... أحكمها فيها إذا ضاق نازل
وما زال محمىٍّ الحمائل عنوة ... سوى ما أَفلت فى الجفون الحمائل
ينال اختيار الصفح عن كل مذنب ... له عندنا ما لا تنال الوسائل
لنا عقب الأَمر الذى فى صدوره ... تطاول أَعناق العدى والكواهل
أَصاغرنا فى المكرمات أَكابرٌ ... وآخرنا فى المآثرات أَوائل
إذا صُلت صولا لم أَجد لى مُصاولًا ... وإن قلت قولا لم أَجد من يقاول

وقال : إنا إذا اشتد الزما ... نُ وناب خطبٌ وادلهمْ
أَلفيت حول بيوتنا ... عدد الشجاعة والكرم
للقا العدَا بيض السيو ... ف وللندى حمر النعم
هذا ، وهذا دأْبنا ... يودَى دمٌ ويُراق دَم

وقال :

وإنىَ لنزَّالٌ بكل مخوفة ... كثيرٌ إلى نزالها النظرُ الشزرْ
وإنى لجرارٌ لكل كتيبة ... معودة أَلا يحل بها النصر
ولا رَاحَ يطغينى بأَثوابه الغنى ... ولا بات يثنينى عن الكرم الفقر
وما حاجتى فى المال أَبغى وفوره ... إذا لم أَفر عرضى فلا وفرَ الوفر
أَسرت وما صحبى بعزل لدى الوغى ... ولا فرسى مهر ولا ربَّة غمر
ولكن إذا حُم القضاءُ على امرئٍ ... فليس له برٌّ يقيه ولا بحرُ
وقال أُصيحابى الفرار أَو الرَّدى ... فقلت هما أَمران أَحدهما مرٌّ
ولكننى أَمضى لما لا يعيبنى ... وحسبك من أَمرين خيرهما الأَسر

ومنها: يُمنُّونَ أَن خَلوْا ثيابى وإنما ... علىَّ ثياب من دمائهم حمرُ

وقائم سَيفٍ فيهم دق نصلُهُ ... وأَعقاب رمح حطمَ الصدر

سيذكرنى قومى إذا جدَّ جدَّهم ... وفى الليلة الظلْماءِ يفتقدُ البدر

ولو سد غيرى ماسددت اكتفوا به ... وما كان يغنى التبر ولو نفقَ الصفر

ونحن أُناسٌ لا توسُّط بيننا ... لنا الصدر دون العالمين أَو القبر

أَعزُّ بنى الدنيا وأَعلى ذَوى العلا ... وأَكرم من فوق التراب ولا فخر

وقال: غيرى يغيِّره الفعال الجافى ... ويحول عن شِيم الكريم الوافى

لا أَرتضى ودًّا إذا هو لم يدم ... عند الجفاءِ وقلة الإِنصافِ

إن الغنىَّ هو الغنى بنفسه ... ولو أَنه عارى المناكب حافِ

ما كلُّ فوقَ البسيطة كافياً ... وإذا قنعتَ فبعض شيءٍ كافِ

وتعاف لى طَمع الحَريص فتوَّتى ... ومروءَتى وقناعتى وعَفافى

ومكارمى عدد النجوم ومنزلِى ... مأْوى الكرام ومنزل الأَضيافِ

وقال: أَتدعو كريماً من يجود بمالهِ ... ومن جاد بالنفس النفيسة أَكرم

إذا لم يكن يُنجى الفرار من الردى ... على حالةٍ فالصبر أَرجى وأَحزمُ

لعمرى لقد أَعذرتَ لو أَن مُسعدًا ... وأَقدمت لو أَن الكتائب تُقدِمِ

وما عابك ابن السابقين إلى العلا ... تـأَخر أَقوامٍ وأَنت مُقدم

ومالك لا تَلقى بمهجتكَ القنا ... وأَنت من القوم الذين هُم هُم

وقال أَبو الطيب المتنبى فى سنة ٣٥٤ هـ :

أُطاعن خَيلا من فوارسها الدهر ... وحيدًا وما قولى كذا ومَعى الصبر

وأَشجع منّى كلَّ يوم سَلامتى ... وما ثبتت إلا وفى نفسها أَمر

تمرَّسْت بالآفات حتى تركتها ... تقول أَمات الموت أَم ذعِر الذعر

وأَقدمْت إقدامَ الأَبىّ كأَن لى ... سوى مهجتى أَو كان لى عندها وتر

ذَرِ النفس تأْخذُ وسعُها قبل بينها ... فمُفترق جاران دارُهما العُمْر
ولا تحسبن المجدَ زِقا وقينة ... فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريبُ أَعناق الملوك وأَن ترى ... لك الهبوات السُّود والعسكر المجر
وتركك فى الدنيا دَوِيًّا كأَنما ... تداول سمع المرءِ أَنمله العشْرُ
إذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص ... على هبةٍ فالفضل فيمن له الشكر
ومن يُنفق الساعاتِ فى جميع ماله ... مخافة فقر ، فالذى فعلَ الفقرُ

وقال صفى الدين الحلىّ المتوفى سنة ٨٤٠ هـ :

سَل الرِّماح العوالى عن معالينا ... واستشهد البيض هل خاب الرجا فينا
لقد سعينا فلم تضعُف عزائمنا ... عما نروم ولا خابت مساعينا
قوم إذا استُخصموا كانوا فراعنةً ... يوما وإن حكموا كانوا موازينا
إذا ادعَوْا جاءَت الدنيا مُصدِّقة ... وإن دَعَوْا قالت الأَيام آمينا
إنا لقوم أَبت أَخلاقنا شرفاً ... أَن نبتدى بالأَذى من ليس يوذينا
بيض صنائعنا سودٌ وقائعنا ... خضر مَرابعنا حُمر مواضينا
لا يظهر العجز منا دون نيل منى ... ولو رأَينا المنايا فى أَمانينا

وقال أَبو العلاءِ المعرِّى :

أَلا فى سبيل المجد ما أَنا فاعل ... عفافٌ وإقدام وحزم ونائل(١)
أَعندى وقد مارست كل خَفيةٍ ... يصدق واشٍ أَو يخيب سائل(٢)
تُعد ذُنوبى عند قوم كثيرة ... ولا ذنب لى إلا العلا والفضائل(٣)

---

(١) أى قد جمعت بالعفة والشجاعة والحزم والجود ، وسلوك هذا الطريق هو المجد أى أن أفعالى كلها واقعة فى سبيل المجد ثم فصل أفعاله ، وعدها وكانت كلها من خلال المجد . (٢) أى بعد أن جربت الأمور التى تخفى وعرفتها لا أصدق الساعى بينى وبين اخوانى بالافساد أو أخيب من يرجو معروفى ويطلب نائلى أى أنى لا أفعل ذلك استفهام بمعنى الانكار . (٣) أى ذنوبى كثيرة عندما لا يناسبه حالى وذلك لقصوره ونقصه ولا ذنب لى الا فضائلى وعلو شأنى .

كأَنى إذا طلت الزمان وأَهْله رَجعتُ وعندى للأَنام طوائل(١)
وقد سار ذكرى فى البلاد فمن لهم بإِخفاء شمسٍ ضوْءُها متكامل(٢)
يُهِمُّ الليالى بعض ما أَنا مضمر ويُثْقِل رضوَى دون ما أَنا حامل(٣)
وإِنى وإِن كنتُ الأَخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأَوائل(٤)
وأَغدو ولو أَن الصباح صوارم وأَسْرِى ولو أَن الظلام جحافل(٥)
وإِنى جَواد لم يحلّ لِجامُه ونَصلُ يَمانٍ أَغفلته الصياقل(٦)
فإِن كان فى لبْسِ الفتى شرف له فما السيف إِلَّا غمْده والحمائل(٧)
ولو مَنطِق لم يَرْض لى كنْه منزلى على أَننى بين السماكين نازل(٨)

---

(١) الطوائل : جمع طائل وهو الثروة ، يقول متى فقت أهل العصر بالفضائل أو أبغضونى وعادونى وصرت كأنى وترت الناس وأن عندى لهم ديونا يطالبونى بها . (٢) أى يجهد حسادى فى ستر حالى واخفاء أمرى وكيف يمكنهم ذلك وقد سار صيتى فى البلاد مسير الشمس ومن يضمن للحساد اخفاء شمس قد تكامل ضوءها وشعاعها أى لا يضمن ذلك أحد لأنه غير ممكن فكذلك اخفاء ذكرى غير ممكن .

(٣) الليالى فى موضع نصب لأنه مفعول به ، وسكن لضرورة الشعر أى يهم بعض ما أضمر من الهموم الليالى . (٤) أى انى وان كنت الذى آخر زمانه أفعل من الأمور العجيبة ما عجزت الأولون زمانا عن مثاله أى سبقت الأوائل فى المساعى وان تأخر زمانى .

(٥) لا يصرفنى عن همى أمر من الأمور بل أغدو أول النهار لحاجاتى ولو كان الصباح سيوفا لم يثننى عن قصدى والصبح يشبه بالسيف لبياضه وهيئته وأسرى فى الليل المظلم لما يهمنى ولا تمنعنى ظلمة الليل عن قصدى ولو كان جحافل وهى جمع جحفل وهو الجيش العظيم والظلام يشبه بالجيش وبالعكس . (٦) يصف اعتزاله الأمور وايثاره ملازمة الخمول والتنزه عن الأعمال مع استعداد للانهاض الى معالى الأمور مشبها حاله بحال جواد عطل عن تحلية لجامه وبسيف يمنى قد صدىء لطول عهده بالصقل ، أى كما تعطل الجواد عن تحلية لجامه وطول عهد السيف بالصقل . (٧) أى ليس الشرف فى ملابسة الأعمال ولبس الفاخر من اللباس ولو كان ذلك لكان قيمة السيف بحسب نفاسة غمده وحمائله . وليس كذلك وانما قيمة السيف بجوهره وكذلك شرف ذات الفتى بالتحلى بأوصاف الشرف ومعالى المجد . (٨) أى منطقى لا يرضى لى بغاية منزلتى هذه مع ارتفاعها وعلوها فانها قد بلغت السماكين بل يقتضى أعلى وأشرف منها .

لدى مَوْطن يشتاقه كل سيد ويقصرُ عن إدراكه المتناول(١)
ولما رأيت الجهل فى الناس فاشيًا تجاهلتُ حتى ظُنّ أَنى جاهل(٢)
فواعجباً كم يَدَّعِى الفضل ناقص ووا أَسفاً كم يُظهر النقص فاضل(٣)
وكيف تَنام الطيرُ فى وكناتها وقد نُصِبَتْ للفرْقدين الحبائل(٤)
ينافس يومى فِىَّ أَمسى تشرفاً وتحسُدُ أَسحارى على الأَصائل(٥)
وطال اعترافى بالزمان وصرفهِ فلستُ أُبالى مَن تغول الغوائل(٦)
فلو بَان عُنْقِى ما تـأَسف منكبى ولو مات زندى مابكتْه الأَنامل(٧)
إذا وصف الطائى بالبخل مادر وعَيَّرَ قُسًّا بالفهاهة باقل(٨)
وقال السُّهى للشمس أَنت ضئيلة وقال الدجى يا صبح لونك حائل(٩)

---

(١) أى منزلى عند محل يتمنى كل سيد أن يبلغه ويرقى الى حده . ويتقاصر من يريد تناوله عن الوصول اليه (٢) أى لما كثر الجهل فى الناس وعز العلم والفضل وجهل قدرها تكلفت الجهل وسترات فضلى تشبها بأهل زمانى حتى ظن بى جاهل مثلهم .

(٣) يتعجب من ادعاء الناقص التحلى بالفضل زورا ـ ويتأسف من اظهاره النقص مع فضله تشبها بالجاهلين فى زمانه (٤) الوكنات : جمع وكنة وهى الموضع الذى ينام فيه الطير والحبائل جمع حبالة وهى الشبكة التى ينصبها للصيد ضرب لنفسه مثلا بالفرقدين علوا ولغيره بالطير فى أوكارها . (٥) ينافس يفاخر أى أن الوقت الذى أكون فيه يتشرف بى ، فسائر الاوقات يحسد الوقت الذى أكون فيه فصار أمسى المنقضى يحسد يومى الحاضر لكونى فيه ـ وكذلك نحسد الاصائل الاسحار التى اكون فيها

(٦) طالما عرفت الزمان وأحواله ، ونالت منى حوادثه وصروفه ، وتمرنت نفسى على نوائبه فصرت لا أجزع على المصائب ولا أبالى بمن تنزل نوازل الدهر . (٧) يهون على نفسه خطوب الزمان بعد معرفته بصروفه حتى لو أصيب عضده وبان لم يتأسف أى لم يجزع منكبه عليه ، ولو مات زنده لم تبك أنامله عليه من أن الكف لا تبطش الا بواسطة قوة الزند وما داناه (٨) يعنى بالطائى حاتما الطائى وقد سار به المثل فى الجود ، ومادر لانه سقى ابله من بعض الحياض فلما شربت ابله وصدرت عن الماء ملح فى الحوض ومدر الحوض أى لطخه بالطين لئلا يشرب منه غيره فسمى مادرا ، وقيل أبخل من مادر (٩) السها كوكب خفى تمتحن به الابصار ، أو حين ينعكس الامر بأن يصف السهى الشمس بالخفاء مع بهائها ، ويصف الدجى الصبح بأن حائل اللون أى متغير .

وطاولت الأَرضُ السماءَ سفاهةً   وفاخرت الشهب الحصى والجنادل(١)
فياموت زُر إن الحياة ذميمةٌ   ويانفسُ جدِّى إن دهرَك هازل(٢)

وقال المرحوم محمود سامى باشا البارودى :

ولى شِيمةٌ تأْبى الدنيا وعزمةٌ   ترد لُهام الجيش وهو يمورُ
إذا سرت فالأَرض التى نحن فوقها   مرادٌ لمهرى والمعاقلُ دور
فلا عَجبٌ أَن لم يصرنى منزل   فليس لعقبان الهواء وُكور
همامة نفس ليس ينفى ركابها   رواح على طول المدى وبُكور
معودَةٌ أَلا تكف عُنانها   عن الجدِّ إلا أَن تتم أُمور
لها من وراء الغيب أُذْنٌ سميعة   وعينٌ ترى مالا يراه بصير
وفيت بما ظنَّ الكرام فراسةً   بأَمرى ومثلى بالوفاء جدير
وأَصبحت محسودَ الخِلال كأَننى   على كل نفس فى الزمان أَمير
إذا صُلت كفَّ الدهر من غلوائه   وإن قلت غُصَّت بالقلوب صدور
ملكت مقاليد الكلام وحكمةً   لها كوكبٌ فخم الضياء منير
وإنى امرؤٌ صعب الشكيمة بالغٌ   بنفسىَ شأْوًا ليس فيه نكير

وقال أَيضاً :

سواى بتحنانِ الأَغاريد يطرب   وغيرىَ باللذات يلهو ويلعب
وما أَنا ممن تأْسر الخمر لُبه   ويملك سمعيه اليراع المثقب
ولكن أَخو همٍّ إذا ما ترجَّحت   به سورةٌ نحو العلا راح يدْأَب
نفى النومَ عن عينيه نفسٌ أَبيةٌ   لها بين أَطراف الأَسنةِ مَطلب

(١) أى اذا كانت الارض تباهى السماء من جهلها وتفاخر الحصى والحجارة الكواكب فى العلو . (٢) أى اذا كانت الامور معكوسة على وصف لم تبق رغبة فى الحياة وصارت مذمومة وكان الموت بحيث يتمنى الماه ليقطع الحياة الذميمة التى لا يحمدها صاحبها لما يرى من الامر المحال : يأمر الحازم نفسه بالجد فيما يعنيها غير معرجة على شيمة الدهر فى تلونه وعدم ثباته .

لُبانة نفسٍ أَصغرت كل مأْربِ فكلَّفتِ الأَيامَ ما ليس يوهَبُ
إذا أَنا لم أُعطِ المكارمَ حقها فلا عزَّنى خالٌ ولا ضَمنى أَبُ
ومن تكن العلياءُ همة نفسه فكل الذى يلقاهُ فيها محببُ

وقالت السيدة عائشة هانم التيمورية المتوفاه سنة ١٣٢٠ هـ :

بيدِ العفاف أَصون عِزّ حِجابى وبعصمتى أَسمو على أَترابى
وبفكرة وقَّادةٍ وقريحةٍ نَقَّادة ، قد كملْتُ آدابى
ما ضَرنى أَدنى وحسن تعلمى إلا بكونى زهرةَ الأَلبابِ
ما عاقنى خجلى عن العَليا ، ولا سدْلُ الخمار بلمَّتى ونقابى
عن طىِّ مضمار الرهان إذا اشتكت صعْبَ السباق مطامح الركابِ
بل صَولتى فى راحتى ، وتفرُّسى فى حسنِ ما أَسعى لخيرِ مآبِ

وقال المرحوم الشيخ عثمان الزناتى المتوفى سنة ١٩٣٤ م :

أَرِقتُ وأَصحابى خليُّونَ نُوَّمُ وما أَنا ذو ثأْر ولا أَنا مُغرمُ
ولكن همًّا بين جنبيَّ هاجَهُ علىَّ ذوو القربى ، عفا الله عنهمُ
فإن يكُ حُلمى مدَّ أَعناق جهلهم فلا زلْتُ فيهم يجهلون أَحلمُ
وما أَنا ممن يغلبُ الجهل حِلمه وينزو على الأَعراض أَو يتهجَّمُ
ولكن صفوحٌ حين اظلمُ قادرًا وإن كنت فى بعض الأَحايين أَظلِمُ
فإن كان حُلم القادرين مذلةً فإنى ذليل غير أَنى مُكرَّم
هُموا ثَلموا عِرضى لغير جَريرة سوى أَنهم منى وأَنى منهمُ
أَوَطِّى أَكنافى لهم وأَحوطهم من الدهر لا أَشكو ولا أَتبرمُ
يطولُ علىَّ الليل إن طال ليلهم ومهما يَطل ليلى فهم عنه نُوَّمُ
ويُنكرُ أَدناهم على فضائلى وما ضرنى إنكاره وهو يعلمُ

الباب الثالث فى شكوى الزمان والحال

قال الشَّنْفَرى[١] المتوفى سنة ٥١٠ م :

أَقيموا بنى أُمِّى صدور مَطِيِّكم فإنى لقوم سواكمْ لأَمْيل[٢]

فقد حمت الحاجات والليل مُقْمِرٌ وشدَّتْ لطيات مطايا وأَرحل[٣]

وفى الأَرض منا ى للكريم عن الأَذى وفيها لمن خافَ القِلى مُتعزَّلُ[٤]

لعمرك مافى الأَرض ضيقٌ على امرىءٍ سرَى راغباً أَو راهباً وهو يعقِل[٥]

ولى دُونكم أَهلون سيدٌ عَملَّسٌ وأَرقطُ زُهلولٌ وعرفاءُ جَيأَل[٦]

---

(١) هو ثابت بن أوس الأزدى الشاعر المشهور من أهـل اليمن من شعراء الطبقة الثانية ومن جيد شعره هذه القصيدة المشهورة بلامية العرب مات سنة ٥١٠ م والشنفرى هو العظيم الشفتين وهو شـاعر الأزد من العائدين من لا تلحقه الخيل ، منهم هذا وسليك بن سليكة ، وعمر بن برق ، وأسير بن جابر ، وتأبط شرا ــ وكان الشنفرى حلف ليقتلن من بنى سلامان مائة رجل فقتل منهم تسعة وتسعين وكان اذا وجد الرجل منهم يقـول الشنفرى لطرفك ثم يرميه فيصب عينه ، فاحتالوا عليه فأمسكوه وكان الذى أمسكه أسير بن جابر أحد العدائين وقد رصد له حتى نزل فى مضيق ليشرب الماء فوقف له فأمسكه ليلا ثم قتلوه فمر رجل منهم بجمجمته فضربها برجله فدخلت فيها شظية من الجمجمة فمات منها فتمت القتلى مائة والله أعلم بذلك .

(٢) مطا : جد فى السير ، والمطية الدابة تمطو فى سيرها جمعهـا مطايا ومطى (٣) حم الأمر حما قضى . والطيات جمع طية وهى النيـة

(٤) نأى عنه بعد ، والقلى بكسر القاف شدة الكراهة وتعزل عنه تنحى

(٥) (المعنى) وحياتك أن الأرض لا تضيق على الانسان العـاقل الذى يستعمل عقله فى ادراك المرغوب وترك المرهوب (٦) السيد بالكسر الأسد والذئب والعملس بفتح العين والميم واللام المشددة القوى على السير السريع والذئب الخبيث والأرقط النمر ، والزهلول كعصـفور الاملس والعرفاء الضبع لكثرة شعر رقبتها الذى هو بمنزلة عرف الفرس ، وجيألة ممنوعتان من الصرف وجيل بلا همزة الضبع .

هُم الأَهل لا مُستودعُ السِّرِّ ذائع لديهم ولا الجانى بما جرَّ يخذل (١)

وكل أَبِى باسل غير أَننى إذا عرضت أُولى الطرائد أَبْسل (٢)

وإن مدت الأَيدى إلى الزاد لم أَكن بأَعجلهم إذ أَجشع القوم أَعجل (٣)

وما ذاك إلا بسطة عن تفضل عليهم ، وكان الأَفضل المتفضل (٤)

وإنى كفانى فقد من ليس جازياً بحسنى ولا فى قربه متعلل (٥)

ثلاثة أَصحاب : فؤاد مشيع ، وأَبيض إصليت ، وصفراءُ عيطل

هتوف من الْمُلْسِ المتون يزينها رصائع قد نيطت إليها ومحمل (٦)

إذا زل عنها السهم حنت كأَنها مرزأَة ثكلى ترن وتعول

ولست بمهياف يعشى سوامه مجدعة سقبانها وهى بهل (٧)

(١) جر على نفسه وغيره جريرة أى ذنبا والجريرة الذنب والخيانة .

(٢) الأبى كعلى من يكره الدنايا ولا يحتمل الضيم والباسل الاسد الشجاع والطريدة ما طردته وأبعدته من ناحية وضممته اليك من الصيد والفرسان (٣) الجشع بالتحريك شدة الحرص وأسوؤه أخذ الانسان نصيبه والطمع فى غيره (٤) المعنى : وما دعانى الى ذلك الا توسعى بالفواضل اليها عن أفضل القوم وهو المتفضل عليهم (٥) تعلل بالأمر تشاغل وشيع فلان شجعه ويأتى أيضا بمعنى خرج معه ليودعه . والاصليت السيف الصقيل الماضى والعطل القوس الطويلة العنق الصلبة المتن .

(٦) قوس هتوف ذات صوت حنون ، والملس الناعمات والمتون جمع متن بمعنى الصلب والرصائع جمع رصيعة حلية السيف المستديرة أو كل حلقة مستديرة فى سيف أو سرج او غيره ، ونيطت اليها علقت بها وزل السهم عن القوس خرج منها بسرعة والمرزاة المصابة بالرزايا ، والثكلى الفاقدة أولادها ، وأعول ركع صوته بالبكاء والصياح المعنى : قوس طنانة رنانة من نبات مزينة بالحلى ترن عند خروج السهم منها بحنين كأنها امرأة عاجلها فقد ابنها الغالى فهى تبكى وتعول لفقده .

(٧) المهياف : السريع العطش ، والسوام : الابل الراعية ، وناقة باهل لاصرار عليها ولاخطام ولاسمة لها ، يقال : بهلت الناقة حل صرارها أو مجدعة محبوسة على غير علف وسبقان جمع وهو ولد الناقة .

ولا جُبَّاء أَكْهى مربٌ بِعِرْسه يطالعها فى شأْنهِ كيفَ يفعل(١)

ولا خَرِقٍ هيقٍ كأَنّ فؤاده يظلّ به المكاء يعلو ويَسْفل(٢)

ولا خالفٍ دارِيَّةٍ مُتعزِّلٍ يروح ويغدو داهناً يتكحل(٣)

ولست بعلٍ شَرُّهُ دون خيرهِ أَلف إذا ما رُعته اهتاج أَعزلُ(٤)

ولست بمحياز الظلام إذا انتحت هدى الهوجل العسيف يهماء هوجلُ(٥)

إذا الأَمعزُ الصوَّانُ لاقى مناسمى تطاير منه قادحُ ومُفَلّلُ(٦)

أُديمُ مطال الجوع حتى أُميته وأَضرب عنه الذكر صفحاً فأَذهل(٧)

---

(١) جبأ كنصر : جبن والأكهى الجبان الضعيف ومرب بعرسه أى زوجته لزمها وقعد معها كأرب ، المعنى : ولست بالجبان الضعيف الذى يلازم قرينته ويطالعها على أمره ويأخذ رأيها فيه . (٢) الخرق : ككتف الذى يندهش ويبهت لأقل شيء والهيق الواحد من النعام ويسمى بالظليم ، والمكاء كرمان : نوع من الطير . (٣) يقال فلان خالفه اهل بيته وخالفهم بمعنى أنه غير نجيب لا خير فيه اذ انه يقعد بعدهم ويأتى حالف بمعنى أحمق والدارية الملازم لبيته . (٤) العل الصغير الجسم الضعيف والألف الرجل الثقيل اللسان العيى بالامور والاعزل الخالى من السلاح ، المعنى : ولست من سقط الرجال الذين يخشى شرهم ولا يرجى خيرهم الذين يرتبكون فى الأمور ويرتاعون لكل مروع حيث لا سلاح لهم يقيهم من الخوف

(٥) يقال نحاه وانتحاه بمعنى قصده ، الهوجل المفازة البعيدة لا علم بها ، والناقة بها من هوج من سرعتها والرجل الأهوج والدليل والعسيف صيغة مبالغة من عسف فى السير خبط فيه خبط عشواء ، واليهماء عند أهل البادية السيل والجمل الهائج الصئول ، وعلى ذلك يمكن أن يقال ناقة يهماء .

(٦) المعز : الصلابة ، ومكان أمعز : صلب وارض معزاء : صلبة ، والصوان نوع من الحجارة شديدة الصلابة ، والمنسم كمجلس خف البعير ، والمفلل المكسر والمراد بالقادح هنا الذى يضرب بغيره فيفتته ويخرج منه الشرر .

(٧) صفحا اما مصدر من صفح عنه مفعول له على معنى أصرف عنه التذكرة اعراضا عنه واما ظروف بمعنى الجانب على معنى أنحن التذكر عنه جانبا كما تقول ضعه جانبا .

وأستفُّ تُرْبَ الأَرضِ كى لايرَى له عَلَىَّ من الطوْل من امرؤ متطوِّل(١)

ولولا اجتناب الذَّامُ يُلفَ مَشرَب يُعاش به إلا لدىَّ ومأْكل(٢)

ولكن نفساً حرة لا تُقيمُ بى على الضيمِ إلا ريثما أَتحول(٣)

وطوى على الخمص الحوايا كما انطوت خُيوطة مارىٍّ تُغار وتفتل(٤)

وأَغدو على القوتِ الزهيدِ كما غدا أَزلُّ تهاداه التَّنائف أَطحل(٥)

غدا طاوياً للرِّيح يعرض هاقياً يخوت بأَذناب الشعاب ويعسل(٦)

فلما لواهُ القوت من حيث أُمه دعا ، فأَجابتهُ نظائر نُحَّل(٧)

مُهللةٌ شيبُ الوجوه كأَنها قِدَاحٌ بكفَّىْ ياسِرٍ تتقلقل(٨)

---

(١) الطول : الفضل والانعام وتطول عليه امتن وأنعم (٢) الذام العيب والذم ، المعنى : ولولا أنى أخشى العار والمذمة التى تلحق الباذلين ماء وجوههم لأجل المأكل والمشرب لكان عندى من أشكالها وألوانها كل ما تشتهيه الأنفس

(٣) الضيم : الذل ، وريثما معناها مقدار ما .

(٤) الخمص : الجوع والحوايا جمع حوية كغنيمة ما تحوى وانطوى بعضه على بعض من الأمعاء والخيوطة جمع خيط ، ومارى اسم صانع مشهور يفتل الخيوط وأغار شد الفتل ، المعنى : وأضمر أمعائى بالجوع حتى تصير مثل الخيوط يشد فتلها مارى المشهور بفتل الخيوط : (٥) الزهيد : القليل والأزل السريع والمصوف به هنا الذئب بدليل ما بعده ، التنوفة المفازة والارض الواسعة البعيدة الاطراف أو الفلاة لا ماء بها ولا أنيس ، وان كانت معشبة وجمعها تنائف ، والطحلة لون بين الغبرة والسواد ببياض قليل وذئب أطحل لونه الطحلة (٦) عدا طاويا أى بكر بالضرب فى الأرض جائما ويعارض الريح يسابقه وهافيا مسرعا وخات البازى انقض على الصيد وخات الرجل اختطف ، وأذناب الشعاب أطراف الأراضى التى بين الجبال ، وعسل الذئب يعسل عسولا وعسلا : اشتد اهتزازه فى عدوه .

(٧) لواه القوت فتله وضمره . وأمه قصده . ونظائره نحل يعنى أمثاله

(٨) المهلة الضامرة المنقوشة ، والقداح جمع وقدح وهو السهم قبل أن يراش ويركب عليه نصله .

أَو الخشرمُ المبعوث حثحث دَبْره محابيضاً أَرساهن سامٌ مُعسلُ(١)

مُهرتةٌ فوه كأَن شدوقها شُقوق العصى كالحاتٌ وبُسل(٢)

فضج وضجت بالبراح كأَنها وإياه نوحٌ فوقَ علياءَ ثكل(٣)

وأَغضى وأَغضت واتَّسى واتست به مراميل عزَّاها وعزته مرمل(٤)

شكاوشكت ثم ارعوى بعد وارعوت ولصبرٌ إن لم ينفع الشكو أَجمل(٥)

وقاءَ وفاءَت بادرات وكلها على نكظ مما يكاتم مجمل(٦)

وتسرب أَسآرى القطا الكدر بعدما سَرت قرباً أَحشاؤها تتصلصلُ(٧)

---

(١) الخشرم كجعفر جماعة النحل وامير النحل ومأواها ، وحثحث كحث حض وحرض والدبر بفتح الدال جماعة النحل ، ومحابيض جمع محبض كمنبر عود يشتار به العسل أو يطرد به الدبر ، وهى هنا منصوبة على نزع الخافض والمعنى الى محابيض ، ورأسى وقف وأوقف وسام مرتفع ومعسل : طالب العسل .

(٢) المهرتة الواسعة ، والفوه جمع الأفوه هو والواسع الفم أو الذى يخرج أسنانه من الشفتين ، والشدوق أطراف الفم من باطن الخدين ، وكالحات شديدة العبوس ، وبسل كريهات المنظر .

(٣) البراح كسحاب المتسع من الأرض التى لا زرع بها وشجر .

(٤) أغضى على الشيء سكت ، واتسى اقتدى والمرمل الذى نفد زاده، وعزاها سلاها على مصابها ، المعنى : ثم سكت فسكتت اقتداء به وسلاها على جوعها وسلته على مخمصته .

(٥) الارعواء النزوع عن الجهل وحسن الرجوع منه ، المعنى : شكوا فلما لم تنفع الشكوى رجعوا عنه وصبروا على الرجوع ـ والصبر أحسن من الشكوى التى لا تفيد .

(٦) فاء رجع ، وبادرات مسرعات ، والنكظ محركة الجوع الشديد .

(٧) أسآر : جمع سؤر وهو بقية الماء بعد الشرب . القطا : نوع من الطير صوته قطاقطا وهو ثلاثة اضرب كدرى وجونى وغطاط ـ فالكدر الغبر الألوان الرقش الظهور والبطون الصفر الحلوق وهو الطف من الجونى ، والجونى السود المبطون والاجنحة وهو أكبر من الكدرى ، والغطاط كسحاب الغبر الظهور والبطون والأبدان سود بطون الاجنحة طوال الارجل والاعناق

هممتُ وهمت ، وابتدرنا وأَسدلت وشمر منى فارطٌ مُتمهِّلُ (١)

فوليتُ عنها وهى تكبو لعقره يباشره منها دقونٌ وحوصلُ (٢)

كأَن وغاها حجرتيه وحوله أَضاميمُ من سفر القبائل نزَّل (٣)

توافين من شتى إليه فضمها كما ضم أَذوادَ الأَصاريم منهل (٤)

فعبَّت غشاشاً ثم مرت كأَنها مع الصبح ركبٌ من أَحاظة مجفِل (٥)

وآلِفُ وجه الأَرض عند افتراشها بأَهدأَ تنبيه سناسن قحلُ (٦)

= لطاف لا تجتمع أسرابا بل أكثر ما يكون ثلاث واثنتان الواحدة غطاطة ويقال ان القطا بطلب الماء على مراحل عديدة أبلغها بعضهم الى عشرين .

(١) سدل ثوبه وشعره وأسدله : أرخاه وأرسله ، وفرط القوم يفرطهم فرطا وفراطة فهو فارط تقدمهم الى الورد لاصلاح الحوض والدلاء .

(٢) تكبو تنكب على وجهها . والعقر بضم العين والمراد به هنا الماء فى أقصى الحوض والذقون جمع ذقن وهو مجتمع اللحيين ، والحوصلة للطير كالمعدة للانسان ، المعنى : وقد انصرفت عنهم بعد ما رويت وتركتها تغمس بأذقانها وحواصلها فى الماء لترتوى من شدة العطش الذى أصابها من اجهادها نفسها فى الطيران .

(٣) الوغى كالغنى الصوت والجلبة ، والحجرة الناحية والاضاميم جمع اضامة بكسر الهمزة وهى الجماعة والسفر القوم المسافرون ، والمعنى : كان جلبتها بجانب الماء وحوله ضوضاء الجماعات من القبائل المسافرين عند حطهم من السفر .

(٤) توافين اليه تلاحقن الى الماء وشتى أى من جهات متفرقة والاذواد جمع ذود وهو جماعة الابل والأصاريم جمع صرم بكسر الصاد وهو جماعة الأعراب .

(٥) العب جرع الماء وابتلاعه كتلة واحدة كما تفعل الجماعة فى شربها، وغشاشا أى عبا قليلا عجلا غير مرئى وأحاظة بن سعد بن عوف أبو قبيلة من حمير اليه ينسب مخلاف أحاظة باليمن والمحدثون يقولون وحاظة وأجفل النعام فهو مجفل حركها وطردها .

(٦) الأهدأ المنكب المسترخى اللحم أو تنبيه ترفعه والسناسن حروف فقار الظهر وقحل مجردة من اللحم .

وأَعدلُ منحوضاً كأَن فصوصه   كعابٌ دحاها لاعب فهى مُثلُ(١)
فإن تبتئس بالشنفرى أُمُّ قسطل   لما اغتطبت بالشنفرى قبل أَطْول(٢)
طريدُ جنايات تياسرنَ لحَمَهُ   عقيرته لأَيها حم أول(٣)
تنامُ إذا ما نام يقظى عيونها   حثاثاً إلى مكروههِ تَتغلغل(٤)
وإِلفُ هموم ما تزال تعودُه   عياداً كحمى الربع أَو هىَ أَثقل(٥)
إذا وردتْ أَصدرتها ثم إنها   تؤوب فتأْتى من تحت ومن علُ(٦)

(١) أعدل معناه أسوى وأفرش لراسى وأجعل لها وسادة ومنحوضا يعنى ساعدا قليل اللحم : والفصوص المراد بها هنا الأصابع والكعاب لعب على شكل الاقماع ودحاها بمعنى بسطها . ومثل معناها مائلة وقائمة بين يدى اللاعب .

(٢) تبتئس تحزن وأم قسطل الحرب واغتبطت سرت وقرت عينا .

(٣) كان من عادات العرب غير المحمودة اذا أرادوا أن تحصل لهم ميسرة بدون كبير كد ولا عظيم تعب أن يشتروا ناقة نسيئة وينحروها ويقسموا لحمها جملة أقسام ويجعلوا لها سهاما بعضها ذوات أنصباء وبعضها غفل بلا نصيب ليستوفوا ببيعها بقدر زهيد ثمن الناقة ثم يقترعون السهام فيفوز من تخرج لهم ذوات الأنصباء ويحرم من تخرج لهم الغفل وهذه هى لعبة الميسر (القمار) المشهورة الفساد وحرمها الدين الحنيف والقوم الذين يجتمعون على الميسر يقام لهم : يسر ، والناقة التى تذبح فيه يقال لها جزر . ويقال لها عقيرة لأنها تعقر وتنحر ويقال تياسروا أى أخذ الأنصباء من اللحم ، ويقال حم بمعنى دنا وقرب .

(٤) تنام أى الجنايات والمراد أصحابها وحثاثا سراعا وتتغلغل تدخل بشدة . (٥) الالف والأليف الحليف المعاود ، والعودة الرجوع مرة بعد أخرى وربعت عليه الحمى جاءت ربعا يعنى ترددت عليه فى كل أربعة أيام مرة تتركه فى الثلاثة وتأتيه فى الرابع وتسمى هذه الحمى حمى الربع .

(٦) تؤوب ترجع ، والمعنى : كلما ثارت على جيوش الهموم وأحاطت بى من كل جانب رددتها عنى بعزم ماض وصبر جميل .

فإما ترانى كابنة الرَّمل ضاحياً ‌‌ على رقة أَحفى ولا أَتنعلُ(١)

فإنى لمولى الصبر أَجتاب بزَّه ‌‌ على مثل قلب السمع والحزم أَفعل

وأَعدمُ أَحياناً وأَغنى ، وإنما ‌‌ ينالُ الغنى ذو البعدة المتبذلُ(٢)

فلا جزع من خلة متكشف ‌‌ ولا مرح تحت الغنى أَتخيل(٣)

ولا تزدهى الأَجهال حلمى ولا أَرى ‌‌ سئولا بأَعقاب الأَقاويل أُنمل(٤)

وليلة نحس يصطلى القوس ربها ‌‌ وأَقطعه اللاتى بها يَتنبل(٥)

دغشت على غطش وبغش وصبتى ‌‌ سُعار وإرزيزٌ ووجر وأَفكل

فأَيمتُ نسواناً وأَيتمتُ ولِدَة ‌‌ وعدت كما أَبدأت والليل أَليلُ(٦)

---

(١) فاما ترانى باهمال أن حملا على لو كقراءة فاما ترين بياء ساكنة ونون مفتوحة وابنة الرمل معناها الحية أو البقرة الوحشية ، وضحا بارزا للشمس ، وعلى رقة معناها سوء العيش ، ومولى الصبر أو اليه ، واجتاب القميص لبسه ، والبز الثياب ، والسمع بالكسر ولد الذئب من الضبع يزعمون أنه لا يموت حتف أنفه كالحية وأنه فى عدوه أسرع من الطير ووثبته تزيد على ثلاثين ذراعا .

(٢) أعداما وأعداما بالضم افتقر وذو البعد بالضم أى صاحب الابتعاد فى الأرض ، والمتبذل من لا يصون نفسه .

(٣) الجزع نقيض الصبر ، الخلة الحاجة والفقر والمرح البطر والاختيال المعنى : الفقر لا يظهر على ترحا والغنى لا يبدى منى مرحا .

(٤) تزدهى : تستخف والأجهال جمع جهل شذوذا لأن قياسه أجهل وجهل الى أنه حسنه كون عينه الهاء الشبيهة بحرف اللين ، والباء فى بأعقاب بمعنى عن ، والأنمل : النمام وهو نمل ونامل ومنمل كمجلس ومنبر ونمال كشداد ، ونمام ، وقد نمل كنضر وعلم ، وأنمل نم .

(٥) اصطلى استدفأ والأقطع جمع قطع وهو القضيب تبرى منه السهام وتنبل بالأقطع اتخذها نبلا ، ودغش عليه كمنع هجم وفى الظلام دخل ، والغطش الظلمة والبغش المطر الخفيف والسعار بضم السين شدة الجوع والأرزيز برد صغار كالمنح ، الوجر والحقد والفل والغيظ والأفكل الرعدة :

(٦) أيمت نسوانا يعنى قتلت رجالهن فتركتهن بلا أزواج ، وأيتمت ولدة بكسر الواو جمع ولد يعنى قتلت آباءهم ، وأبدأت بدأت والليل أليل يعنى طويل الظلمة .

وأَصبح عنى بالغميصاءِ جالسا فريقان مسئولٌ وآخر يسأَلُ(١)

فقالوا : لقد هرَّت بليل كلابُنا فقلنا أَذئْب عس ، أَم عس فرعل(٢)

فلم يكُ إلا نبأَةٌ ثم هومت فقلنا قطاة ريعَ ، أَم ريع أَجدل

فإن يكُ من جن لا برح طارقاً وإن يك إنساً ما كها الإنس يفعل

ويوم من الشعرَى يذبُّ لعابه أَفاعيه فى رمضائه تَتململُ(٣)

نصبتُ له وجهى وذا الكنٌّ دونه ولا ستر إلا الأَنحمى المرَعبل

وضاف إذا هَبت الرِّيحُ طيرَت لبائد عن أَعطافه ما ترَجل

بعيدٌ بمسِّ الدهن والفلىُ عهده له عبس عاف من الغسلِ محولُ(٤)

---

(١) الغميصاء موضع أوقع فيه خالد بن الوليد رضى الله عنه ببنى خذيمة .

(٢) هر الكلب هريرا صوت صوتا دون النباح وعس طاف بالليل والفرعل بالضم ولد الضبع والنبأة الصوت الخفى وهوم هز رأسه من النعاس ، والقطا جمع قطاة نوع من الطير صوته قطا قطا والأجدل الصقر وريع أخيف ولا برح معناه لقد أتى بالبرح وهو الشدة وها فى كها ضمير القصة دخلت عليه الكاف شذوذا .

(٣) الشعرى نجم يطلع فى شدة القيظ واللعاب معناه هنا ما تراه فى شدة الحر كأنه منحدر من السماء اذا قام قائم الظهيرة ويكون على هيئة البخار أو على هيئة نسج العنكبوت ويسمى أيضا لعاب الشمس ، والرمضاء الأرض الشديدة الحرارة وتململ تقلب والكن الستر والأنحمى برد معروف والمرعبل الممزق ، وضاف صفة الشعر المحذوف ومعناه طويل ولبائد جمع لبدة وهى الشعر المتراكم وأعطافه جوانبه وترجل تمشط ، المعنى : وكم يوم من أيام الشعرى التى تتصاعد فيها الأبخرة وتتململ فيها الأفاعى من شدة الحر عرضت له وجهى بغير ستر ومشيت فيه ولا شىء على جلدى الا ثوب ممزق وشعر مسترسل اذا هبت عليه الريح لم تطير منه الا لبائد فى كل جانب منه لم تمسه الأمشاط .

(٤) الفلى تفلية الرأس من القمل . والعبس محركة ما تعلق بأذناب الابل من أبوالها وأوبارها يجف عليها ، وعاف من الغسل لم يغسل والمحول الذى أتى عليه الحول .

وخرْق كظهر الترس قفر قطعتهُ بعاملتين ظهرُه ليس يعملُ(١)
فألحقتُ أُولاه بأُخراهُ موفيًا على قنة أَقعى مرارًا وأَمثل(٢)
تَرودُ الأَراوى الصخم حولى كأَنها عذارى عليهن الملاءُ المذيل(٣)
ويركدن بالآصال حولى كأَننى من العصم أَدفى ينتحى الكيح أَعقل(٤)

وقال الطغرائى يواسى معين الملك فى نكبته :

فصبرًا معين الملك إن عنّ حادث فعاقبةُ الصبر الجميلِ جميلُ
لا تيأَسن من صنع ربك إنه ضنينٌ بأَن الله سوف يديل
فإن الليالى إذ يزول نعيمها تبشر أَن النَّائبات تزول
أَلم تر أَن الليل بعد ظلامه عليك لإسفار الصباح دليل
وأَن هِلال النضو يقمر بعد ما بَدا وهو شخْت الجانبين ضئيل
فقد يعطف الدهر العسير قياده فيشفى عليل أَو يبل غليل
ويرتاش مقصوص الجناحين بعد ما تساقط ريش واستطار نسيل
ولا غرو إن أَخنت عليك فإنما يُصادم بالخطب الجليل جليل

---

(١) الخرق الأرض الواسعة تنخرق فيها الرياح وقفر خالية من النبات والسكان والعاملتان الرجلان وظهره ليس يعمل أى ليس يسلك .

(٢) أوفى عليه : أشرف ، والقنة بضم القاف قلة الجبل وأقعى فى جلوسه تساند الى ما وراءه ومثل قام منتصبا .

(٣) الرود الذهاب والمجىء والأراوى جمع روية بالضم والكسر وهى أنثى الوعول والعذارى جمع عذراء وهى البكر ، والملاء بضم الميم نوع من الأردية والمذيل طويل الذيل .

(٤) الركود والسكون والثبات ، والآصال جمع أصيل وهو العشى بضم جمع أعصم هو الوعل الذى فى موضع المعصم منه بياض ، والأدفى الذى يميل قرناه ناحيتى ظهره وينتحى يتعمد : والكيح ناحية الجبل ، وأعقل ممتنع فى الجبل .

ما أَنْت إلا السيفُ يسكنُ غمدُهُ ... ليشقى به يَوْم النزالِ قتيلُ
أَما لك بالصِّدِّيق يوسف أُسْوة ... فتحملَ وطءَ الدَّهْر وهو ثقيلُ

وقال المرحوم محمود باشا سامى البارودى وهو فى منفاه :

محا البينُ ما أَبقتْ عيونُ المهامِنِّى ... فشبتُ ولم أَقض اللبانة من سنّى
عناء ويأْسٌ واشتياقٌ وغُرْبةٌ ... أَلا شدَّ ما أَلقاه فى الدهر من غُبنِ
فإن أَكُ فارقت الديارَ فلى بها ... فوادٌ أَضلتهُ عيونُ المها عنِّى
بعثت به يوْمَ النوى إِثْرَ لحظةٍ ... فأَوقعه المقدار فى شركِ الحُسنِ
فهل من فتى فى الدَّهر يجمع بَيننا ... فليس كلانا عن أَخيه بمُستغنى
ولما وقفنا للوداع وأَسبَلتْ ... مدَامِعنا فوق الترائب كالمزن
أَهبت بصبرى أَن يعودَ فخاننى ... وناديتُ حِلمى أَن يثوبَ فلم يغنِ
وما هى إلا خطوَةٌ ثم أَقلعت ... بنا عن شطوط الحَى أَجنحة السفن
فكم مُهجة من زفرة الوَجد فى لظى ... وكم مُقلةٍ من غزرة الدمع فى دجن
وما كنتُ جرَّبت النوى قبل هذه ... فلما دهتنى كدت أَقضى من الحزن
ولكنَّنى راجعت حلمى ورَدَّنى ... إلى الحزم رأَى لا يحومُ على أَفنِ
ولولا بُنيَّاتٌ وشيبٌ عواطلٌ ... لما قرعت نفسى على فائت سِنى

وقال المرحوم محمد حافظ بك إبراهيم :

لم يبق شىء من الدنيا بأَيدينا ... إلا بَقيةُ دمع فى مآقينا
كنَّا قِلادة جيد الدهر وانفرَقت ... وفى يمين العلا كنَّا رياحينا
كانت منازِلنا فى العزِّ شامخة ... لا تشرقُ الشمس إلا فى مغانينا
وكان أَقصى مُنى نهر المجرة لو ... من مائهِ مزجت أَقداح ساقينا
والشهبُ لو أَنها كانت مُسخَّرة ... لِرجم من كان يبدو من أَعادينا
فلم نزل وصُروف الدهر ترمُقنا ... شررًا وتخدعنا الدنيا وتُلْهينا
حتى غدونا ولا جاهٌ ولا نشبٌ ... ولا صديقٌ ولا خِل يُواسينا

وقال أيضاً فى شكوى الزمان والحال :

سعيت إلى أن كِدتُ أنتعل الدَّما وعُدتُ وما أَعقبت إلا التندُّما
سلامٌ على الدنيا سلامَ مُودِّع رأى فى ظلام القبر أُنساً ومغنما
تبلُغ بالصبر الجميل وبالأَسى زماناً وجادته المنى فتأَدَّما
أَضرَّت به الأُولى فهام بأُختها وإن ساءت الأُخرى فويْلاه منهما
فهُبى رياح الموت نكْباءَ واطفئى سراج حياتى قبل أَن يتحطَّما
فما عصَمتنى من زمانى فضائلى ولكن رأَيت الموت للحرِّ أَعصما
فياقلب لاتجزع إذا عضك الأَسى فإنك بعد اليوم لن تتأَلما
ويا عين قدآن الجمودُ لِمدمعِى فلا سيل دمْع تسكبين ولا دما
ويا يدُ ما كلفتك البسط مرَّةً لذى منة أَولى الجميل وأَنعما
فلله ما أَحلاكِ فى أَنْمل البِلى وإن كنت أَحلى فى الطروس وأَكرما
ويا قدمى ما سرْت بى لِمذلةٍ ولم ترتقِ إلا إلى العز سلما
فلا تبطىء سيرًا إلى الموت واعلمى بأَن كريمَ القوم من مات مكرما

وقال السيد أَحمد الهاشمى يشكوما أَصاب الشرق :

قضيت شبيبتى وبذلت جُهدى فلم تكن الحياةُ كما أُريد
إلى كم أَستحثُّ النفس عزماً وكم أَسعى ، وغيرى يستفيدُ ؟
نَهضتُ ، فقيل : أَى فتى ؟ فلما خبرْت الأَمر أَعجبنى القعُود
وإنى بعد مجهدةٍ وقومى كضاربة وقد برد الحديد
وحيدٌ بينهم ولعلَّ يوماً عصيباً فيه يفتقدُ الوحيدُ
لنا فى الشرق أَوْطانٌ ، ولكن تضيقُ بنا كما ضاقت لُحُود
تنازع أَهلها فلكلِّ حزبٍ حِمًى ، ولكل مملكة عميدُ
نقيم بها على ذُل وفقر ونظماُ لا يسُوغ لنا الورود
أَكاذيب السياسة بَيناتٌ تكِيد بها الحكومة ما تكيد

وعود كلها كَذِبٌ وزور فكم وإلام تخدَعُنا الوعود؟
إذا ما الملك شِيد على خداعٍ فلا يبقى الخداعُ ولا المشيد
ومن لم يتخذْ مُلكاً صحيحاً فلا تُغنى الممالك والحدود
وقالوا دولةٌ نشأَت حديثاً تؤيدها السياسة والعهود
كذبتم ما لنا فى الأَمر شىءٌ فقولوا : إننا شعب عبيد
وقالوا : أُمة نهضت تُدَاعى بحق كاد طالبهُ يَبيد
تفرّق أَهلها ومضى بنوها ، وفى أَرواحهم عزم عتيد
أرى الأَمل الذى نحيا عليه أَضاءَ من الصباح له عمود
خذوا بنفوسكم طُرُق المعالى فدهركمُ عِصامىٌّ عتيد
وجُرْح الشرق يضمده بَنُوه وهل يتلاءم الجُرح القصيد ؟
نيام أَغرقوا فى النوم حتى أشيع بأَنهم شعب بليد !
أَرى الحرية اختضبت دِماءً وقد خفقتْ لطالبها بنود
وأُقْسِمُ أَن عاشقها زعيم بخطبتها ولو قطع الوَريد
رخيصٌ كل ما بذلوه فيها ولا تغلو النفوس ولا النقود
إذا جُعلت لها الأَرواح مهرًا فإن لمجدها كتب الخلود
يسوم المجد طالبه بِغالٍ ولا يطغى به الثمن الزهيد
إذا سهل النزول إلى حضيض يشق إذا إلى القمم الصُّعود

قال أحمد شوقى بك يشكو ما أَصاب دمشق من ظلم فرنسا بعد الحرب الكبرى :

قم ناجِ « جِلّق » وانشد رسم من بانوا مَشت على الرسم أَحداثٌ وأَزمان
هذا الأَديم كتاب لا كِفاءَ له رث الصحائف ، باقٍ منه عنوان
الدين والوَحى والأَخلاق طائفة منه وسائرُهُ دنيا وبُهتان
ما فيه إن قلبتْ يوماً جَوَاهره إلا قرَائح من راد وأَذهان
بنو أُميَّة للأَنباءِ ما فتحوا وللأَحاديث ما سادوا وما دانوا

كانوا ملوكا سريرُ الشرقِ تحتهمُ فهل سأَلت سرير الغرب ما كانوا؟
عالين كالشمس أطراف دولتها فى كل ناحية ملك وسلطان
ياويح قلبي مهما انتاب أَرسمهم سرى به الهم أو عادته أشجان
بالأَمس قمت على الزهراءِ أندبهم واليوم دمعى على الفيْحاءِ هتان
فى الأَرض منهم سماوات وأَلوية ونيراتٌ وأَنواء وعقيان
معادن العز قد مال الرغام بهم لو هان فى تُربه الإبريزُ ما هانوا
لولا دمشق لما كانت طُليطلةُ ولا زهت ببنى العباس بَغْدان(١)
مررت بالمسجد المخزون أَسأَله هل فى المصلى أو المحراب مروان
تغيَّرَ المسجد المحزون واختلفت على المنابر أَحرار وعبدان
فلا الأَذان أَذانٌ فى منارته إذا تعالى ولا الآذان آذان
آمنت بالله واستثنيت جنته دمشق روح وجنات وريحان
قال الرفاق وقد هبَّت خمائلها الأَرض دار لها الفيحاءُ بُستان(٢)
جرَى وصفَّق يَلقانا بها بردَى كما تلقاك دون الخُلد رَضْوان(٣)
دخلْتها وحواشِيها زُمرُّدةٌ والشمس فوق لُجَينِ الماءِ عقيان(٤)

---

(١) احدى لغات كثيرة فى بغداد .

(٢) الفيحاء : من أسماء دمشق والخمائل جمع خميلة وهى الشجر الكثير الملتف .

(٣) يقول : ان مكان « بردى » من دمشق كمكان رضوان خازن الجنان من جنة الخلد ، فهو دليل ضيوفها اليها ، يؤنسهم بما على ضفافه من غياض تأوى اليها السعادة . ومقاصف لا تبلغها الهموم وقوله : جرى وصفق ، من قولهم ، صفق فلان الشراب ، أى حوله من اناء الى اناء ليصفيه وقد وصف حسان بن ثابت نهر بردى بذلك يوم نزل على أمراء غسان فى البريص . وهى غوطة دمشق ، فقال :

لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق فى الزمان الأول
أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

(٤) العقيان : الذهب الخالص .

والحورُ في (دمر) أَوحول (هامتها) حور كواشف عن ساق وولدان(١)

و (رَبْوة) الوادي في جلباب راقصة الساق كاسيةٌ والنحر عريان(٢)

والطير يصْدحُ من خلف العيون بها وللعيون كما للطير ألحان(٣)

وأَقبلت بالنبات الأَرض مختلفاً أفوافه ، فهو أَصْباغٌ وألوان(٤)

وقد صفى (بَردى) للريح فابتردتْ لدى سُتور حواشيهن أَفنان(٥)

شيّدوا لها الملك وابْنوا رُكن دولتها فالملك غرسٌ وتجديد ، وبنيان

وقال الشاعر المطبوع السيد خير الدين الزركلي في سورية الشهيدة من قصيدة :

الأَهل أَهلي والديار دياري وشعار «وادي النَّيِّرَين» شعاري

---

(١) الجور في صدر البيت شجر باسق معتدل القامات يملأ غياض دمشق ، وقد شبهه بحور الجنان كاشفات عن سوقهن ، لأن أعالي هذه الأشجار مكسوة أوراقها وسائرها عريان ، و « دمر » و « الهامة » من متنزهات دمشق في وادي بردى .

(٢) يقول ان ربوة هذا الوادي على خلاف ما فيها من أشجار الحور . فاذا كانت الأشجار كاسية النحور عارية السوق فان جبال الربوة كاسية الساق بما فيها على سفحها من أشجار ومرج وأزهار بينما نحرها عريان لتجرد أعالي تلك الجبال من خضرة النبات وأفواف الزهور و « الربو » هي متنزه دمشق القريب وصفها الله تعالى في القرآن الحكيم بقوله (ربوة ذات قرار ومعين) قال ياقوت في معجم البلدان : هي موضع ليس في الدنيا أنزه منه (٣) العيون عيون الماء يسمع خريرها مع ألحان البلابل والعصافير في الجبال والأودية . (٤) جمع فوف نوع من الثياب والمراد هنا الزهر .

(٥) بردى هو نهر دمشق . وينبع من جبال الزبداني على مسافة أربعين كيلو متراً ونيف من دمشق في شمالها الغربي ، وينحدر في وادي بردى حتى اذا بلغ ينبوع (الفيجة) انضم هذا اليه . ثم ينفصل عنه (نهر يزيد بن معاوية) نحو الشرق في لحف جبل قاسيون وينفصل عنه بعد ذلك نهر ثوراً فيجري في جنوب نهر يزيد ، ثم ينفصل عن بردى نهر (بانياس) والقنوات ويدخل بردى مدينة دمشق من مرجتها الشهيرة ، حتى اذا ارتوت منه بساتينها وضواحيها الشرقية انصب في بحيرة المرج ، وكان الشربانيون يسمون بردى (نهر أبانا) وسماه اليونان (خريستو ورثه) أي مجرى الذهب .

ما كان من أَلم « بجلق » نازل   وارِى الزناد . فزندُه بى وارِى
إن الدَّم المهرَاق فى جنباتها   لدمى ، وإن شِفارَها لشفارى
دمعى لما منيت به جارٍ هنا   ودمى هناك على ثرَاها جارى
يا وامِضَ البرق اطمئن وناجنى   إن كنت مُطَّلعاً على الأَسرار
ماذا هناك ؟ فإن صوتاً راعَنِى   والصوت فيه جفوة الإِذعارِ
النار مُحدِقةٌ « بجلّق » بَعدَما   تركتْ « حُماة » على شفيرٍ هار
تنساب فى الأَحياءِ مُسرِعة الخطى   تأْتى على الأَطمار والأَعمار
والقوم منغمسون فى حمئاتها   فتكا بكل مُبَرَّءٍ صَبَّار
الطفل فى يَدِ أُمه غرض الأَذى   يُرمَى ، وليس بخائِضٍ لِغمارِ
والشيخ متكئاً على عُكازهِ   يُرمَى ، وما للشيخ من أَوزار

وقال أَيضاً سعادة الشاعر الجليل فؤاد الخطيب :

يا ساهر الليل ، ما للبرق يأْتلق   والمُزنُ تُرعِدُ والأَنواءُ تصطفِق
هل بالطبيعة ما بى ؟ أَم أَلمَّ بها   ما بالديار ، فثارت كلها حنق
مُرْبَدَّةً لم يهِمْ فى جوها قمر   ولا تنفَّس فى أَطرافها فلق
قدّت من الليل سِربالا يجللها   وحف الذبول فلم يسفر لها أَفق
مرأَى يمثل هول الحزن مختبطاً   بين الجوانح مُدَّت دونه الطرق
أَبصرت بالعين ما استشعرت من كمد
فى النفس لج به التبريح والأَرقُ
ويح الهموم كم أَرختْ أَعِنتِها   شعثاً تدفق أَرسالا وتستبقُ
هوجاءُ تسمع منها كلما اقتربت   صوت السلاسل فوق الصخر تنزلق
تهوى إلىَّ وأَهوى مُطبقين معاً   حتى نصرَّع ملتفين نعتنق
هاجت وهجت فكانت ثم ملحمة   دارت وسال دمى يجرى به العرقُ

* * *

الباب الرابع فى وصف الشعر

آراءُ الحكماء والشعراء فيه

إن من الشعر لحكمة . قال أَفضل الخلق على الإطلاق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : «سمى الشاعر شاعراً لفطنته» . (الأَخفش)

وُجِدَ الشعر حيث وجد السحر شقيقان ليس يفترقان . (إلياس فياض)

إن المنشىء يولد مطبوعاً على الإنشاء ، كما يولد الشاعر مطبوعا على النظم . والشعراءُ لِسان حال الأُمة ، وتراجمة شعورها ، وعنوان إحساسها ، والشعر العصرى أَضاف إلى معارفنا معانى جديدة يرقى بها الخيال ، وتتسع بها التصورات المبنية على الحقائق . (الهلال)

الشعراءُ زينة المجالس . (الأَمين بن هارون الرشيد)

الشاعر العربى الذى يمكن أَن يترجم أَكثر شعره من غير أَن تفقده الترجمة جَمَاله هو شاعر الحقائق . (الدكتور شبلى شميل)

الشعر عاطفة ذائبة ، أَو فكرة متوقدة ، أَو خاطرة عميقة سبكت فى قالب موزون الكلام والنغمة . (الآنسة مى)

ما الشعر إلا تصوير الخيال ، والشعر النفسى فى شكل الأَشعار التى تدنيه من أَفهام الناس ، فقدر الشعر ورقته وبلاغته يكون على قدر تنبه إحساس الشاعر ورقة عواطفه . (وسيلة محمد)

الشعر إِنَّهُ قديم مات ودفن فى العواطف الراقية ، فجعل شعور النفس كفناً له كلما تحركت العواطف ولمس الكفن استيقظ. ذلك الإِله وملأَ الدنيا أَنيناً مدهشاً . (توفيق مفرح)

ولولا خلالٌ سنها الشعر مادَرى بغاة العلا كيف تبنى المكارم

أَرى الشعر يحيي الجود والبأس بالذى

تبقيه أَرواح له عطرات

وما المجدُ لولا الشعر إلا معاهدٌ وما الناس إلا أَعظمٌ نخرات
(أَبو تمام)

أَجلُّ الشعر ما فى البيت منه غرابة نكتة أَو نوع لطف
وبئسَ الشعر بيت ليس فيه أَماكن غير حيطان وسقف

للشعر فى كل عصر مَركِبٌ خشِنٌ لا يستقلُّ عليه الراكب الواهن
(ناصف اليازجى)

ليس شعرًا إلا الذى كلَّ بَيتٍ فيه معنى يدعو إلى الأَسماع
(خليل اليازجى)

وخيرُ الشعر ما أَوحاه طبعٌ فكان له بأَفئدة دبيب
معانيه قد اتسقت بلفظ. يكاد لفرط رِقتِهِ يذوب
(عيسى المعلوف)

الشعر كالمِرآةِ يُرْ سم فيه عقل الناظم
(إبراهيم الحورانى)

وما الشعر الا الشهدوالسحروالطلى يجلى المنى يرقى العقول ويسكر
وما الشعر لا أَدرى وأَدرى لأَننى تصورَّتُهُ لكنه لا يصوَّر
(فائز السمعانى)

أَنصت فكل لسان شاعر هزج حتى الكواكب والأَقمار والشهب
(المقتطف)

لا يحسنُ الشعر إلا وهو مبتكرٌ وأَى حسن لشعر غير مبتكر
وأَجْوَدُ الشعر ما يكسوه قائله بِوَشْى ذا العصر لاالخالى من العصر

وهو الشعر لا أَعتاضُ عنه بغيره ولا عن قوافيه ، ولا عن فنونه
إذا كان من معنى الشعور اشتقاقه فما بعده للمرءِ غير جنونه
(معروف الرصافى)

انظم الشعرَ ولازم مذهبي　　فى اطِّرَاحِ الرفد لا تبغ النحل
فهوَ عنوانٌ على الفضل وما　　أَحسَنَ الشعر إذا لم يبتذلْ
(ابن الوردى)

الشعرُ دُرٌّ والخيال بحور　　والفكر فُلك فى العباب يَمُورُ
والشعر ما ابتكر الذكاءُ مولدًا　　معنى له يرتاحُ منك شعور
فإذا أتى نظماً فتلك صناعةٌ　　أُخرى جلاها الطبعُ والتحريم
(سليم عنحورى)

وقول دعبل بن على الخزاعى يصف الشعر الخالد :

يقول : إن ذاق الرَدى مات شعره　　وهيهات ! عمر الشعر طالت طوائله
سأَقضى ببيتٍ يحمد الناس أَمرهُ　　ويكثر من أهل الرواية حامله
يموتُ ردىء الشعر من قبل أهله　　وجيده يبقى ، وإن مات قائله

العناية بلغة الشعر لعدى بن الرقاع :

وقصيدة قد بِتُّ أَجمع بينها　　حتى أُقوِّمُ ميلها وسِنادَها
نظر المُثقِّفِ فى كعوب قناتهِ　　حتى يقيم ثقافهُ مُنْآدها

سحر البيان لأَبى تمام :

كشفْتُ قناع الشعر عن حُرِّ وجهه　　وطيرته عن وكره وهو واقعُ
بِغرٍّ يراها منْ يراها بسمعه　　ويدنو إليها ذو الحجا وهو شاسعُ
يود ودادا أَن أَعضاءَ جسمه　　إذا أُنْشِدتْ شوقا إليها مسامع

وصف قصيدة لابن الرومى :

نظم الفكرُ دُرَّها غير مثْقو　　بِ ، إذا الدُّرُّ شين بالتثقيب
لم يعبها سوى قواف تشاغل　　نَ عن المدح فيك بالتشبيب
يطرب السامعين أَيسر ما فيه　　ا وإن أَنشدت فلا تطريب
سودت فيك كل بيضاءَ تسويـ　　دًا تراه العيون كالتذهيب

لو يناغى بيانها العُجْمُ يوماً عرَّب العجم أيما تعريبِ

سير الشعر للمتنبى :

وما الدَّهْرُ إلا مِنْ رُوَاة قصائدى إذا قلت شعرا أَصبح الدهرُ مُنْشدًا

فسار به من لايسيرُ مُشمرًا وغنى به من لا يغنى مغردا

أَجِزْنِى إذا أَنْشدْتُ شعرًا فإنما بشعرى أَتاك المادحُون مرددا

سهولة الشعر لبشار :

عميتُ جنينًا ، والذكاءُ من العمى فجئتُ عجيب الظن للعلم موئلاً

وغاض ضياءُ العين للعلم رافدا لقلب إذا ما ضيَّع الناس حصَّلا

وشعر كزهر الروض لاءمت بينه يقول إذا ما أَحزن الشعر أَسهلا

شعر هوجو لحافظ :

ما ثُغورُ الزهر فى أَكمامها ضاحكاتٍ من بُكاءِ السُّحُبِ

نظمَ الوسمىُّ فيها لؤلؤا كثنايا الغيدِ أَو كالحبب

عند منْ يَقْضى بأَبهى منظر من معانيه التى تلعب بى

وله أَيضاً يصف طيارة :

يجرى بسابحةٍ تشـ ـق سبيلها شقَّ الإزارْ

وتكاد تقدح فى الأَثـ ـير فيستحيل إلى شرارْ

مِثْلَ الشهاب انْقضَّ فى آثار عفريت وطار

فإذا عَلتْ فكدعوة الْـ مُضطرِّ تخترقُ الستار

وإذا هَوتْ فكما هوت أنثى العقاب على الهِزار

وتُسِفُّ آونة وآ وِنةً يحيدُ بها أزورار

فيخالها الراؤون قد قرت وليس بها قرار

لعب الجواد أَقلَّ ليـ ـثاً من ربيعة أَو نزار

أَو كالقلوب من الحما ئم فوق ملعبه استطار
وكأَنها فى الأُفق حـ ين يميل ميزان النهار
والشمس تُلقى فوقها حلل اصفرار واحمرار
ملك تمثله لنا السـ يما فيأخذنا انبهار

وقال أَيضاً المرحوم حافظ إبراهيم يصف زلزال صقلية سنة ١٩٠٩ م :

نبئانى إن كنتما تعلمان ما دَهى الكون أَيها الفرقدان
غضب الله أَم تمردت الأَر ض فانحت على بنى الإِنسان
ليس هذا سبحان ربى ولا ذا ك ولكن طبيعة الأَكوان
غليانٌ فى الأَرض نفس عنه ثورانٌ فى البحر والبركان
وب أَين المفرّ والبحر والبر على الكيد للورى عاملان ؟
كنت أَخشى البحار والموت فيها راصدٌ غفلة من الرُّبان
سابحٌ تحتنا مطلٌّ عليه حائم حَولنا مُناءٍ مدانى(١)
فإِذا الأَرض والبحار سواءٌ فى خلاق كلاهما غادران(٢)

وقال البحترى يصف سيفاً :

يتناول الروح البعيد مناله عفواً ويفتح فى القضاءِ المقفل
يغشى الوغى فالترس ليس بجنة من حده والدِّرع ليس بمعقل
ماض وإن لم تمضه يد فارس بطل ومصقولٌ ، وإن لم يصقل
مصغ إلى حكم الردى فإذا مضى لم يلتفت ، وإذا قضى لم يعدل
متوقدٌ يبرى بأَول ضربة ما أدركت ، ولو أَنها فى يذبل
فإذا أَصابَ فكل شىءٍ مقتلٌ وإذا أُصيب فما له من مقتل

وقال فقيد الأَدب السيد مصطفى لطفى المنفلوطى يصف القلم :

(١) مناء مدان : مقارب . (٢) الخلاق : الحظ أو الدين وانما يكون ذلك فى الخير ولكن الشاعر توسع فى استعمال الكلمة .

كم أثار اليراعُ خطباً كميناً   وأمات اليراع خطباً مُثارا
قطراتٌ من بين شقيه سالت   فأسالت من الدِّما أنهارا
كان غُصناً فصار عودًا ولكن   لم يزل بعد يحمل الأَثمارا
كان يستمطرُ السحاب فحال الأَ   مر فاستمطر العقول الغزارا

وقال المرحوم أحمد شوقى يصف أبا الهول :

أَبا الهول ، طالت عليك العصر   وبُلِّغت فى الأَرض أقصى العمر(١)
فيالِدة الدَّهر لا الدَّهرُ شـ   ـابَ . ولا أَنت جاوزت حدَّ الصغر(٢)
إلامَ ركوبك متن الرما   ل لطىِّ الأَصيل وجوب السحر(٣)
تسافرُ متنقلاً فى القرُو   نِ ، فأَيَّان تُلقِى غُبارَ السفر ؟
أَبينك عهدٌ وبين الجبا   ل ، تزولان فى الموعد المنتظر ؟(٤)
أَبا الهول ، ماذا وراءَ البقا   ءِ ، إذا ما تطاول غير الضجر ؟(٥)
عجبت للقمان فى حرصِه   على لبدٍ والنسورُ الأُخر(٦)

---

(١) العصر : الدهر فالعصر جمع عصر بسكون الصاد ومعنى طول الدهر على أبى الهول أنه عمر أعمارا طوالا ، والعمر بضم العين والميم لغة فى العمر . (٢) فيالدة الدهر : فيا أخا الدهر وقرينه فكأنك والدهر توأمان خلتما معا فى أوان ، ولا أنت جاوزت حد الصغر : أى برغم أنك بلغت فى الأرض أقصى العمر . (٣) الام ركوبك : انه تصوير شعرى بديع لتصوير أبى الهول راكبا متن الرمال يطوى الليل والنهار ويسافر متنقلا فى القرون والأدهار ، وجوب : فى معنى طى . (٤) فى الموعد المنتظر : يوم يزول كل شىء أى اليوم الآخر . (٥) ماذا وراء البقاء : يقول ما وراء البقاء المتطاول غير السأم قال زهير بن أبى سلمى :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش   ثمانين حولا ، لا أبالك ، يسأم

(٦) هو لقمان بن عادياء ، وتزعم العرب أنه هو الذى بعثته عاد فى وفدها الى الحرم ليستقى لها ، فلما أهلكوا خير لقمان بين عمر سبع بقرات سمر من أطيب عفر فى جبل وعر لا يمسها القطر ، أو بقاء عمر سبعة أنسر كلما هلك نسر خلف بعده نسر فاستحقر الأبقار وآثر النسور فلما لم يبق غير السابع قال ابن أخ له يا عم ما بقى من عمرك الا عمر هذا فقال لقمان هذا لبد . ولبد بلسانهم الدهر . قالوا وكان يأخذ فرخ النسر =

وشكوى لبيد لطول الحياة ولو لم تطل لتشكى القصر (١)
فإن الحياة تفل الحديـ ـدَ إذا لبسته ، وتبلى الحجر
ولو وجدت فيك يا ابن الصفا ةِ لحقت بصانعك المقتدر (٢)
أبا الهول ، ما أنت فى المعضلا تِ ! لقد ضلت السبل فيك الفكر (٣)
تحيرت البدو ماذا تكو ن ، وظلت بوادى الظنون الحضر (٤)
فكنت لهم صورة العنفوا ن ، وكنت مثال الحجى والبصر (٥)

= فيجعله فى جوبة الجبل الذى هو أصله كيعيش الفرخ خمسمائة سنة أو أكثر فاذا مات أخذ آخر مكانه حتى هلكت كلها الا السابع فأخذه فوضعه فى ذلك الوضع وسماه لبدأ وكان أطولها عمراً ، فضربت العرب به المثل : فقالوا طال الأبد على لبد فعاش لقمان ، كما زعموا ، ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة ، وقال النابغة :

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذى أخنى على لبد

وهذا ، ولقمان بن عادياء غير لقمان الحكيم وغير اليهودى الذى آتاه الله من الكنوز ما ان مفاتحة لتنوء بالعصبة أولى القوة ، كلا الاثنين مذكور فى القرآن الكريم .

(١) « وشكوى لبيد » أى وعجبت لشكوى لبيد لطول الحياة الخ كان لبيد من المعمرين روى أنه مات وهو ابن مائة وأربعين سنة . وقيل وهو ابن سبع وخمسين ومائة أول خلافة معاوية — أما شكواه التى ألمع اليها فذلك حيث يقول :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد ؟!

يقول اذا لم يكن وراء البقاء المتطاول الا الضجر فانى أعجب للقمان فى حرصه على أن تطول حياته وللبيد الذى وان مل الحياة وسئم من طولها فانه لا محالة كان أكثرها شكاه اذ هى لم تطل لأن حب الحياة جبلة وغريزة مركوزة فى الطباع .

(٢) « وجدت » أى الحياة « يا ابن الصفاة » الصفاة الحجر الصلد الذى لا ينبت شيئا وفى المثل فلان ما تندى صفاته : وفى الحديث لا تقرع صفاة أى لا ينالهم أحد بسوء وأبو الهول ابن الصفاة لأنه الحجر « لحقت الخ » أى لأدركك الموت .

(٣) ما أنت فى المعضلات ، خبرنى أى معضلة أنت فى المعضلات وأى معمى مخفى .

(٤) تحيرت : يقول حار الناس قاطبة فى أمرك حاضرهم والبادى .

(٥) صورة العنفوان لما ينطوى عليه جسمك الذى صور على صورة أسد من معانى القوة ومثال الحجى والبصر لما ينم عنه وجهك ورأسك المصوران على صورة وجه الانسان من معانى الفطنة والبصر بالأمور .

وسِرُّك في حُجبِهِ كلما ... أَطلت عليه الظنونُ استتر[1]

وما راعهم غير رأسِ الرجا ... لِ على هيكلٍ من ذواتِ الظفر

ولو صُوروا من نواحي الطبا ... ع توالوا عليك سِباعُ الصور[2]

فيا رُبَّ وجهٍ كصافي النمير ... تشابه حامِلُه والنَّمر

أَبا الهول ، ويحك لا يُستقل ... مع الدهر شيءٌ ولا يحتقر[3]

تهزَّأت دهرًا بديك الصبا ... حِ فنقرَ عينيك فيما نقر[4]

أَسال البياض وسلَّ السوا ... د وأَوغلَ مِنقارُه في الحُفرْ

قعدت كأَنك ذو المحبِسيـ ... نِ قطيع القيام سليب البصر[5]

كأَن الرمال على جانبيك ... وبين يديك ، ذنوبُ البشر

كأَنك فيها لواءُ القضا ... ء على الأَرض أَو ديدبان القدر[6]

كأَنك صاحبُ رَمل يرَى ... خبايَا الغيوب خلال السطر[7]

---

(١) يقول ومع ذلك لا يزال سرك مكتما ومخفيا في حجبه . والناس من أمرك في ظلام . (٢) ولو صوروا أي ما كان ينبغي أن يروع الناس منك أن كان رأسك على هيكل من ذوات الظفر لأن الناس لو صوروا من نواحي شيمهم وطبائعهم لتولوا عليك كأنهم وحوش ، فيارب وجه كصافي النمير الماء الناجع في الرأى أو النامى أو الكثير والنمر هو ذلك الحيوان المعروف بمكره وخبثه وشراسته . (٣) لا يستقبل لا يعد قليلا وهذا البيت كالتمهيد لما بعده . (٤) بديك الصباح يريد الزمن والعلاقة بين الديكة وبين الصباح من ناحية صياحها فيه معروفة ، ومن حسن التعليل أن جعل سبب عبث الدهر بأبي الهول وتشويهه خلقه حتى أسال بياض عينيه وسل سوادهما هو هزء أبي الهول به وسخره منه وعدم اكتراثه له ثم تعبيره عن الدهر بديك الصباح ، هذا ولمناسبة ذكر ديك الصباح نقول انه ورد في بعض الآثار لا تسبوا الديكة فانها تدعو الى الصلاة (٥) « المحبسين » المحبس الموضع الذي يحبس فيه ، وكان يقال عن أبي العلاء المعري رهين المحبسين أي رهين عماه وبيته : فكأنه من عماه في المحبس وكذلك أبو الهول عده شاعرنا بعد أن نقر ديك الصباح عينيه كأنه من عماه وسكوته في محبسين . (٦) « ديدبان » فارسية معربة أصلها ديده بان ومعنى ديده العين وبان ذو اى الرقيب والعين ومعناها الخاص الجندي المكلف بالحراسة .

(٧) « السطر » السطر الصف من الكتاب والشجر ونحوهما ومعنى البيت ظاهر .

أَبا الهول ، أَنت نديمُ الزما نِ نجيُّ الأَوانِ سميرُ العصر(١)

بَسطت ذراعيك من آدم ووليت وجهكَ شطرَ الزمر(٢)

تُطلُّ على عالمٍ يستهِـل وتوفى على عالمٍ يُحتضر(٣)

فعينٌ إلى من بدَا للوجُو دِ ، وأُخرى مشيعةٌ من عبر(٤)

فحدث فقد يُهتدى بالحديـث وخبر فقد يُوتسى بالخبر

أَلم تبلُ فرعون فى عزهِ إلى الشمس مُعتزياً والقمر(٥)

ظليل الحضارة فى الأَولِـينَ ، رفيع البناءِ ، جليل الأَثر(٦)

---

(١) « نجى الأوان » النجى بوزن فعيل الذى تساره — وفى الحديث « اللهم بمحمد نبيك وبموسى نجيك » هو المناجى المحدث للانسان .

(٢) « من آدم » أى من قديم « الزمر » جمع زمرة الجماعة من الناس والمراد هنا الناس جميعا . (٣) « يستهل » يعنى يقدم على الدنيا من استهل الصبى بالبكاء رفع صوته وصاح عند الولادة « يحتضر » حضر فلان واحتضر اذا نزل به الموت . (٤) وأخرى مشيعة من عبر ممن مضى . (٥) « ألم تبل فرعون » بلاه يبلوه بلوا وابتلاه جربه واختبره وفرعون لقب يطلق على كل من ولى ملك مصر كالنجاشى لملوك الحبشة وقيصر لملوك الرومان وفرعون أصلها فى الهيروغليفية مركبة من بى وهى أداة التعريف كأل ، ورع أى الشمس فتكون كلمة واحدة ورع أو راهوا معبود العتو والجبوت وما فى معناهما من مدلولات كلمة فراعنة عند العرب ، قوى حاكم جبار يقاتل احتفاظا بالحياة ، وابقاء على الكون ومن هنا كان واذن لا يقصد بفرعون فرعونا معينا ولكن جميع فراعنة مصر وقد ابتلاهم أبو الهول « الى الشمس معتزيا » يقول ألم تبل يا أبا الهول فرعون وهو فى عزة حتى لكأنه من العز والمنعة بحيث يناطح الشمس والقمر لأن من اعتزى الى شىء قاربه وشاكله وقد كان أكثر الفراعنة يضعون على تيجانهم صور أوزريس « الشمس » وازيس « القمر » لأنهم من أصنامهم فلعله يشير الى هذا مع ارادة معنى العز والمنعة . (٦) « ظليل الحضارة » مكان ظليل ذو ظل دائم يستظل به يريد أن حضارة فرعون كانت من الكمال بحيث تظل الناس ويرتعون فى ذراها وكنفها والحضارة بكسر الحاء وفتحها الاقامة فى الحضر خلاف البدو والبادية وهى المدن والقرى والريف سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التى يكون لها بها قرار .

يؤسِّس فى الأَرض للغابريـ ن ويغرُسُ للآخرين الثمر[١]
وراعك ما راع من خيل قمبـ يز ترمى سنابكها بالشرر[٢]
جوارف بالنَّار تغزو البلا د ، وآونةً بالقنا المشتجر
وأَبصرت إسكندراً فى الملا فشيب العلا فى الشباب النضر[٣]

(١) « للغابرين » الغابر من الأضداد فيكون بمعنى الباقى ويكون بمعنى الماضى ومن ثم يكون معنى البيت أما ان فرعون يخلو ذكر الماضين باقامة الآثار لهم والتماثيل وبفرس للآتين ما يجنون ثمرة من دور العلم والعرفان وما اليها ، وأما أن فرعون يؤسس للآتين ويفرس لهم كل ما يجدى ويثمر .

(٢) « قمبيز » هو ابن قورش الأكبر الذى أسس دولة الفرس العظيمة ومعلوم أن الفرس من الدول التى غزت مصر واستولت عليها حينا من الدهر قال المؤرخون أخذ الفرس فى غزو مصر أزمان الأسرة السادسة والعشرين وذلك حين تولى الملك « أبسمتيك الثالث » أحد ملوك هذه الأسرة فأعد الفرس لهذه الغزاة المعدات الكبيرة وجاء ملكهم « قمبيز » بجيش جرار لفتح البلاد التى طالما شرهت نفس أبيه قورش العظيم الى اخضاعها وكانت مصر اذ ذاك حصينة غاية فى المنعة ، يقول مؤرخوا الاغريق أن أحد الجنود اليونانية هو الذى خان مصر والمصريين ودل الفرس على أسهل الطرق التى يمكنهم بواسطتها أن يدخلوا البلاد فهوجمت مدينة « بلوز » « الفرما » بحرا وزحفت الجنود الفارسية على مصر برا وبعد مقاومة عنيفة جهتى بلوز ومنف سقطت البلاد وأخذ قمبيز أبسمتيك أسيرا وكان ذلك سنة ٥٢٥ قبل الميلاد ، ثم سار قمبيز أول أيامه سيرة حسنة وعامل المصريين معاملة طيبة يحترم دياناتهم وتقاليدهم ولكنه بعد ذلك لبس لهم جلد النمر وحنق على البلاد ومن فيها فكر على المعابد والهياكل فهدمها وقتل بيده العجل أبيس أثناء أحد الاحتفالات الكبيرة وعند عودته الى فارس مات فى الطريق سنة ٥٢١ ق‌م ، ولما ولى ملك مارس دارا الأول زار مصر وأراد أن يصلح ما أفسده قمبيز فأبدى احتراما كبيرا لديانة المصريين ومعبوداتهم وشيد هيكلا عظيما للمعبود آمون بواحة سيوة الكبرى وعضد التجارة وشيد كثيرا من المدارس وفتح الخليج الموصل بين النيل والبحر الأحمر ، ورأى المصريون آخر أيامه ما لحقه من الخسائر فى واقعة « مرثون » فى حربه مع الاغريق فخرجوا عن طاعته وطردوا الفرس من البلاد بقيادة أحد الأمراء الوطنيين سنة ٤٨٦ ق.م ، ثم غزا الفرس مصر ثانية وما زالوا بها حتى طردهم المصريون سنة ٤٠٥ ق.م (٣) « اسكندر » هو الاسكندر الأكبر المقدونى الفاتح العظيم . قال المؤرخون بعد أن هزم الاسكندر الفرس =

تبلج فِى مصرَ إكليلهُ فلم يَعْدُ فى الملك عُمر الزَّهرْ
شاهدت قيْصَر كيف استبد وكيف أَذلَّ بمصر القصر ؟
وكيف تجبَّرَ أَعوانه ؟ وساقوا الخلائق سوق الحُمُرْ ؟
وكيف ابْتُلُو بقليل العديد من الفاتحين كريم النَّفر
رمَى تاجَ قيصر رَمْىَ الزجاج ، وفل الجُمُوعَ وثلّ السرور(١)
فدعْ كلّ طاغية للزّمان فإنَّ الزمان يُقيم الصَّعِرْ(٢)
رأَيت الدياناتِ فى نظْمها وحين وهى سلكُها وانتثر(٣)

= فى واقعة أفسوس زحف على مدينة صور فأخذهاعنوة وبذلك تم استيلاؤه على الشام ثم قدم الى مصر وقد كان الفرس استدعوا حاميتها منها بسبب حربهم مع الاسكندر فلما وصل ألاسكندر الى « بلوز » « الفرما » سنة ٣٣٢ ق.م رحب به المصريون لما سمعوه من عدالة حكمه ولما لاقوه من الذل والهوان فى حكم الفرس ففتحت أبوابها ودخلها دون عناء حتى ان الوالى الفارسى لم يجرؤ على مقاومته وقابله فى منف بترحاب ، ومن ثم سار الاسكندر الى واحة آمون الكبرى ودخل معبد آمون ولقبه الكهنة بابن آمون ، فاحترم ديانة المصريين وقدم القرابين لمعبوداتهم ولم يهمل مع ذلك التقاليد الاغريقية فأدخل منها فى مصر الموسيقى والألعاب النظامية ، ولما رأى الاسكندر أن قرية « راقودة » وهى قرية صغيرة كانت بقرب الاسكندرية ذات موقع بحرى موفق أنشأ بجوارها حاضرة جديدة له هى الاسكندرية وبعد أن استوثق الأمر للاسكندر فى مصر خرج الى فتوحاته الأخرى فى المشرق ، وكانت وفاته سنة ٣٢٣ ق.م وكان عمره اذ ذاك ٣٢ سنة ونيفا ولم يقم بمصر كما ترى الا قليلا ، فذلك حيث يقول فى البيت التالى « فلم يعد فى الملك عمر الزهر » وخلف الاسكندر على مصر البطالسة وما زالوا بها الى أن استولى الرومان عليها « اكليله » تاجه .

(١) « رمى » يرتد هذا النفر القليل وهم أصحاب عمرو بن العاص وفل الجموع : هزمها وثل السرر كسرها والسرر جمع سرير والمراد بها العروش التى يجلس عليها القياصرة .

(٢) « الصعر » ميل فى العنق وانقلاب الوجه الى احد الشقين ، وقد صعر خده أماله من الكبر ، قال المتلمس .

وكنا اذا الجبار صعر خده أقمنا له من ردئه فتقوما

والزمان يقيم الصعر يعد الطغاة يقال أقمت الشيء فقام أى استقام :

(٣) « فى نظمها ، وحين وهى سلكها » فى حالتى قوتها وضعفها .

تشادُ البيوتُ لها كالْبُرُو ج إذا أخذ الطرفُ فيها انحسر[١]

تلاقَى أساساً وشُمَّ الجبا لِ كما تتلاقى أُصُولُ الشجر[٢]

وإيزيس خلْف مقاصيرها تخطى الملوكُ إليها السُّتر[٣]

تُضيءُ على صفحات السما ءِ وتشرقُ فى الأرض منها الحُجَرْ

وآبيسُ فى نيره العالمو ن ، وبعضُ العقائد نير عسر[٤]

تساسُ به مُعْضلات الأُمُو رِ ويُرْجى النعيمُ وتخشى سَقر

ولا يشعرُ القوْمُ إلَّا به ولو أخذته المدى ما شعر

يظل أبو المسك عبدًا له وإنْ صاغ أحمدُ فيه الدرر[٥]

وآنست موسى وتابوته ونور العصا والوَصايا الغرر[٦]

وعيسى يَلم رداءَ الْحَيا ءِ ومَرْيمُ تجمعُ ذيلَ الخفر[٧]

---

(١) « انحسر » كل والبصر يحصر أقصى عند بلوغ النظر .

(٢) « تلاقى » تتلاقى بحذف احدى التائين أى أنها راسخة رسوخ الجبال .

(٣) « ايزيس » هى من معبودات قدماء المصريين وهى أخت أوزيريس وزوجته فى الوقت نفسه وأم هوربوس وهابوقراط .

(٤) « وآبيس » هو العجل أبيس . رووا أن نيفون اله الشر تغلب أخيرا على أوزيريس اله الخير وقتله فتقمصت روحه جسد عجل ، وكان هذا العجل عندهم يمثل الخصب والتوليد الخلقى وكانوا يعتقدون أن العجل الذى تقمصته روحه هو ابن بقرة حملت بواسطة شعاع من القمر وله علامات ظاهرة فى جسده فانه يكون أسود اللون وفى جبهة سمة بيضاء مربعة مثلثة وصورة نسر على ظهره وصورة خنفساء تحت لسانه .

(٥) « أبو المسك » كافور الاخشيدى ، و « أحمد » أبو الطيب المتنبى .

(٦) تابدته ونور العصا والوصايا الفرر ، التابوت الذى وضع فيه موسى وقذف به فى النيل وعصا موسى وما كان منها من الأيات والوصايا العشر كل أولئك معروف فلا حاجة بنا الى الافاضة فيه .

(٧) وعيسى يلم رداء الحياء . يقول وشاهدت عيسى وهو المثل الأعلى للحياء ومثله فى ذلك العذراء .

وعمرٌو يسوقُ بمصر الصحاب ويُزْجى الكتاب ويحدو السور[١]
فكيف رأيت الهدى والضلا ل ودنيا الملوك وأُخرى عُمرَ
ونبذ المُقوْقس عهد الفُجو ر وأَخذ المُقوْقس عهد الفجر
وتبْديله ظُلمات الضَّلا لِ بِصُبْح الهداية لما سفر
وتأْليفه القبط والمسلمي نَ كما أُلفت بالولاء الأُسر[٢]
أَبا الهول ، لو لم تكن آية لكانَ وفاؤكَ إِحدى العبر[٣]
أَطلت على الهرمين الوقو ف كثاكلةٍ لا تريم الحُفر[٤]
ترجى لبانيها عودة وكيف يعودُ الرَّميم النخِر؟[٥]
تجوس بعين خلال الديا ر وترمى بأُخرى فضاءَ النهر[٦]
ترُومُ بمنفيس بيض الظبا وسمر القنا والخميس الدثر[٧]
ومهد العلوم الخطير الجلا ل وعهد الفنون الجليل الخطر
فلا تستبين سوى قرية أَجد محاسنها ما اندثر[٨]

---

(١) يقول وقد رأيت عمرو بن العاص اذ يسوق المسلمين لفتح مصر ويرجى كتاب الله وآياته .

(٢) وتأليفه أى المقوقس (الأسر) جمع الأسرة وأسرة الرجل عشيرته ورهطه الأدنون . (٣) احدى العبر احدى الآيات . (٤) أطلت الخ بيان لوفاء أبى الهول كثاكلة : يقول انك فى اطالتك الوقوف على الهرمين وفاء منك كثاكلة ولدها لا تبرح قبره ، ولا تزايله فالثاكلة هى التى فقدت ولدها ، ولا تريم أى لا تبرح .

(٥) « لبانيهما » أى لبانى الهرمين . (٦) « تجوس » تطوف وتتخلل و « النهر » النهر واحد الأنهار يعنى النيل . (٧) « وتروم » تنشد وتطلب « بمنفيس » منف ، وموضعها اليوم البدرشين وميت رهينة وهى عاصمة ملك الفراعنة والذى بناها هو مينا مؤسس الأسرة المالكة الأولى وكانت كما قال شاعرنا مهد العلوم الخطير الجلال وعهد الفنون الجليل الخطر .

(٨) « أجد محاسنها ما اندثر » يقول ان طلولها الدوارث ورسومها المندثرة البوالى أجدت محاسنها .

تكاد لإغراقها فى الجمو د إذا الأَرض دارت بها لم تدُر
فهل من يُبلغُ عنا الأُصو ل بأَن الفروع اقتدت بالسير ؟
وأَنا خطبنا حسانَ العلا وسقنا لها الغالى المدخر ؟
وأَنا ركبنا غمار الأُمور وأَنا نزلنا إلى المؤتمر
بكل مبين شديد اللدا د وكلٍّ أَريب بعيد النظر
نطالبُ بالحقِّ فى أُمة جرى دمُها دونه وانتشر
ولم تفتخر بأَساطيلها ولكن بدستورها تفتخر
فلم يبقَ غيرك من يخفـ ف ولم يبق غيرك من لم يطر
تحرك أَبا الهول ، هذا الزَّما نُ تحرك ما فيه ، حتى الحجر

وقال أَيضاً المرحوم أَحمد شوقى بك يصف حياة النحل وحالته ومملكته :

مملكةٌ مُدبَّرَه بامرأَة مُؤَمَّرَهْ
تحمل فى العمال والـ صناع عِبْءَ السيطره
فاعجب لِعمال يول ون عليهم قيصرَه
تحكمهم راهِبةٌ ذكارةٌ مُغيره(١)
عاقدةٌ زنارَنا عن ساقها مُشمره
تلثَّمت بالأَرجُ وانِ وارْتدته مئزره
وارتفعت كأَنها شرارة مُطيَّره
ووقعتْ لم تختلج كأَنها مُسمره(٢)
مخلوقة ضعيفة من خُلقٍ مُصوَّره
ياما أَقل ملكها وما أَجل خطره

(١) التغير : ترديد الصوت بالقراءة .
(٢) الاختلاج : الاضطراب .

قف سائل النحل بأىٍّ عقل دبَّره ؟
يُجبك بالأَخلاق وهى كالعقول جوهره
تغنى قوى الأَخلاق ما تغنى القوى المفكره
ويرفعُ الله بها من شاء حتى الحشره
أليس فى مملكة النحل لقوم تبصره ؟
مُلك بناه أهله بهمَّة ومجدرَه(١)
لو التمست فيه بَطال اليدين لم تره
تقتلُ أَو تنفى الكسالى فيه غير منذره
تحكم فيه قصره فى قومها موقره
من الرجال وقيودِ حكمهم محررَه
لا تورثُ القوم ولو كانوا البنين البرره
الملك للإناثِ فى الدستور لا للذكره(٢)
نيرة تنزل عن هالتها لنيره
فهل ترى تخشى الطماع فى الرجال والشره(٣)
فطالما تلاعبوا بالمهجِ المصيره
وعبرو غفلها إلى الظهور قنطره
وفى الرجال كرم الضعف ولؤم المقدِره
وفتنة الرأْى وما وراءها من أَثره
انثْى ولكن فى جناحيها لباة مخدرَه(٤)

---

(١) يقال هذا الأمر مجدرة ذاك أى جديرا به .
(٢) الذكرة : الذكور .
(٣) الطماع : الطمع .
(٤) اللباة : اللبؤة وهى أنثى الأسد .

زائدة عن حوضِها طاردة من كدَّره
تقلَّدات إبرَتها وادَّرعت بالحبرَه
كأَنها تُركِيةٌ قد رابطت بأَنقرَه
كأَنها (جاندرك) فى كتيبة مُعسكره
تلقى المغيرَ بالجُنو دِ الخُشنِ المنمرة
السابغين شِكةً[1] البالغين جَسره[2]
قد نَثرتهم جُعبة ونفضتها مِئبره[3]
من يبن مُلكا أَو يذُد فبالقنا المجرَّره
إن الأُمور همةٌ ليس الأُمور ثرثره
ما الملك إلا فى ذرى الـ ـأَلوية المنشَّره
عرينُه مُذ كان لا يحميه إلا قسوره[4]
رب النيوب الزرق والـ مخالب المذكره
مالكةٌ عاملةٌ مُصلحةٌ مُعمره
المال فى أَتباعها لا تستبينُ أَثره
لا يعرفون بينهم أَصلا له من ثمره
لو عرفوه عرفوا من البلاءِ أَكثره
واتخذوا نقابة لأَمرهم مُسيره
سُبحان من نزه عنـ ـه ملكهم وطهره
وساسهُ بحرة عاملة مُسخره
صاعدة فى معملٍ من معمل مُنحدره

---

(١) الشكة : السلاح . (٢) الجسرة : الجسارة .
(٣) المئبرة : بيت الابر .
(٤) القسورة : الأسد .

واردة دَسكرة صادرة عن دسكره[١]
باكرة تستنهضُ الـ عصائب المبكرة[٢]
السامعين والطائعيـ ن المحسنين المهرَه
من كل من خط البنا ء أو أَقامَ أَسطره
أَو شد أَصل عقده أَو سدَّه أَو قوَّره[٣]
أَو طاف بالماءِ على جُدراته المجدَّره[٤]
وتذهبُ النحلُ خفا فاً وتجىءُ مُوقره
جوالب الشمع من الـ خمائل المنوَّره
حوالب الماذى[٥] من زهر الرياض الشيره[٦]
مشدوده جيوبها على الجنى مُزرَّرَه
وكلٌّ خرطوم أَدَا ةُ العسل المقطره
وكلٌّ أَنف قانئٌ فيه من الشهدِ بره[٧]
حتى إذا جاءت به جاست خلال الأَدوَرَه[٨]
وغيبتهُ كالسلا ف فى الدِّنان المحضره[٩]
فهل رأَيت النحل عن أَمانة مقصرَه ؟
ما اقترضت من بقلة أَو استعارت زهره
أَدَّت إلى الناس به سكرة بسكره

(١) الدسكرة : القرية . (٢) العصائب : جمع عصابة .
(٣) قور للشىء قطعه من وسطه خرقا مستديرا .
(٤) المجدرة : أى المشيدة . (٥) الماذى : العسل .
(٦) الشميرة : الحسان .
(٧) البرة : الحلقة فى الأنف .
(٨) الأدورة : الديار يراد بها الخلايا هنا .
(٩) السلاف : أفضل الخمر .

وقال أَيضاً أَحمد شوقى يصف مقبرة توت عنخ آمون وما حوته :

قفى يا أُخت (يُوشع) خبِّرينا أَحاديث القُرون الغابرِينا[١]

وقُصِّى من مصارعهم علينا ومن دولاتهم ما تعلمينا[٢]

فمثلك من رَوَى الأَخبار طُرًّا ومن نسب القبائل أَجمعِينا[٣]

نرى لك فى السماءِ خضيبَ قرن ولا نحْصى على الأَرض الطعينا[٤]

شبت على الثياب شواظ نار ودرت على المشيب رحى طحونا[٥]

تعنين الموالد والمنايا وتبنين الحياة وتهدمينا[٦]

فيالكِ هرَّة أَكلَتْ بَنيها وما ولدوا وتنتظر الجنينا[٧]

أَأُم المالكينَ بَنِى (أَمون) ليهنك أَنهم نزعُوا (أَمونا)

---

(١) الخطاب للشمس . وقد أشار الى قصة يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام واستيقافه الشمس ، فقد روى أن يوشع قاتل الجبارين يوم الجمعة فلما أدبرت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل فراغه منهم ويدخل السبت ولا يحل له قتالهم فيه فدعا الله تعالى فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم ، وقد لمح ابن مطروح الى هذه القصة بقوله :

وما أنت الا أنس المليحة اذا بدت دجى فأضاء الأفق من كل موضع
فحدثت نفسى أنها الشمس أشرقت وأنى قد أوتيت آية يوشع

القرون الغابرون الأجيال الماضية .

(٢) قصى : حدثى ، ومنه : « نحن نقص عليك أحسن القصص » مصارعهم : مهالكهم دولاتهم جمع دولة بضم ففتح وهى الداهية يقال : « جاف الدهر بدولاته » أو بدواهيه .

(٣) طرا جميعا دون أن تترك منها شيئا ، نسب القبائل : ذكر أنسابهم .

(٤) الخضاب : الملون بالخضاب ، القرن : حاجب الشمس : الطعين المطعون .

(٥) الشواظ بالضم والكسر : دخان النار .

(٦) المنايا جمع منية وهى الموت .

(٧) الهرة : القطة ، ويقال فى المثل « أعق من الهرة » لأنها تأكل أولادها ، الجنين : الولد ما دام فى الرحم .

ولدت له (المآمين) الدواهى ولم تلد له قط. (الأمينا)[١]

فكانوا الشهبَ حينَ الأَرض ليلٌ وحين الناس جدُّ مضللينا

مشت بمنارهم فى الأَرض (روما) ومن أَنوارهم قبست (أَثينا)[٢]

ملوكُ الدهر بالوادى أقاموب على (وادى الموكُ) محجبينا[٣]

فرُبَّ مصفد منهم وكانت تساق له الملوك مصفدينا[٤]

تقيد فى التراب بغير قيد وحلَّ على جوانبه رهينا

تعالى الله كان السحر فيهم أَليسوا للحجارة منطقينا[٥]

عدَوا يبنون ما يبقى وراحوا وراءَ الآبداتِ مخلدينا

إذا عمدُوا لمأثرة أَعدوا لها الإتقان والخلق المتينا

وليس الخلدُ مرْتبة تلقى وتؤخذ من شفاه الجاهلينا

ولكنْ منتهى همم كبار إذا ذهبتُ مصادرُها بقينا

وسر العبقرية حين يسرى فينتظم الصنائعَ والفنونا

وآثار الرجال إذا تناهت إلى التاريخ خير الحاكمينا

---

(١) أشار للخليفتين ، الأمين والمأمون ، وقد اختار المأمون لأنه كان أفضل بنى العباس حزما وعلما ورأيا ودهاء وهيبة وشجاعة ، أى ولدت له أبناء صاروا ملوكا وكانت صفاتهم فى الملك كالصفات التى عرفناها فى المأمون . (٢) روما عاصمة أيطاليا قبست أخذت ، أثينا عاصمة اليونان ، وفيه اشارة الى ما أخذته الأمم الغابرة عن المصريين من العلوم والحضارة .

(٣) وادى الملوك هو الشاطىء الغربى للنيل بالأقصر على مسيرة نصف ساعة تقريبا وهو هضاب صلبة بها مقابر الملوك فراعنة مصر من الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها وقد كانوا يبالغون فى العناية بها وابقائها الى حد يفوق الوصف . (٤) مصفدين مقيدين : يصف فراعنة مصر فى مقرهم الأخير ، وهو مقام يتساوى فيه الملوك والسوقة . (٥) منطقين اليسوا هم الذين أنطقوا الحجارة ويريد أنهم أنشأوا من الأبنية ما يدل على عظمة نشأتهم دلالة النطق على معناه وأشهر هذه الأبنية الهرمان القائمان بجانب الجيزة وهما عن أعجب ما بنى البناة وفيهما دليل على أن المصريين القدماء كانوا أعلم الأمم القاطبة بفن العمارة وهندستها وقد توالى الدهر عليهما فلم ينل منهما مر الحوادث وعصف الرياح وهطل السحاب .

وأخذك من فم الدنيا ثناءً وتركك فى مَسامعها طنينا(١)
فغالى فى بنيك الصيد غالى فقد حُبَّ العلوُّ إلى بنينا(٢)
شبابٌ قنعٌ لا خيرَ فيهم وبورك فى الشباب الطامحينا(٣)
فناجيهم بعرش كان صنوًا لعرشك فى شبيبته سَنينا(٤)
وكان العز حيلته وكانتْ قوائمهُ الكتائب والسفينا
وتاجٌ من فرائده (ابنُ سيتى) ومن خَرزاته (خُوفو) و(مينا)(٥)
علا خدًّا به صعر وأنفا ترفع فى الحوادث أن يدينا(٦)
ولستُ بقائل ظلموا وجاروا على الأجراءِ أو جلدوا القطينا(٧)
فإنا لم نوقَّ النقص حتى نطالبُ بالكمال الأَولينا(٨)
وما (البستيلُ) إلا بنت أمس وكم أكلَ الحديدُ بها سجينا(٩)

(١) الطنين صوت الذباب والطست والناقوس ونحو ذلك .
(٢) الصيد جمع أصيد وهو الرجل يرفع رأسه كبرا وعجبا ولا يلتفت من زهوه يمينا وشمالا ، فقد حب بضم الحاء أى فقد حبب .
(٣) قنع أى قانعون لا يطلبون شيئا وراء ما بلغوا ، الطامحون المتفانون فى طلب المعالى . (٤) الصنو : الأخ الشقيق والابن ، السنين بفتح السين من يكون فى سنك . (٥) ابن سيتى : هو رمسيس الثانى المعروف بسوزستريس ويلقب بالأعظم لأنه كان أعظم ملوك مصر سلطة وقوة وطالت مدة حكمه وكثرت فيها الآثار المصرية وتزايدت العمارات حتى لا يكاد يوجد بوادى النيل أثر من الآثار القديمة والعمائر المشهورة الا وعليه اسمه ورسمه وولى الملك صغيرا فى حياة والده ، وقد تربى على الشجاعة والحماسة وأراد أبوه أن يعلمه اقتحام الأهوال فأرسله فى جيش الى بلاد الشام وكان عمره عشر سنين فغزاها حتى أدخلها تحت الطاعة وله حروب عظيمة ثم حارب فى جملة فتوح وبخاصة فى آسيا الشمالية وكان فى أيامه (بنتاءور) الشاعر المصرى وله فيه عدة مدائح يصفها بها شجاعته واقدامه
(٦) علا خدا أى ذلك التاج والصعر أن يميل الرجل بخده عن الناس تهاونا أو كبرا . (٧) القطين الخدم أى أنه لا يجارى بعض المؤرخين الذين يزعمون أن الملوك الفراعنة كانوا يظلمون الأجراء ويجلدون الخدم ليسخروهم فى انشاء تلك الأبنية . (٨) لم نوق النقص أى لم نحفظ منه . (٩) البستيل : سجن يرجع تاريخ انشائه الى عهد شارل الخامس ملك فرنسا سنة ١٤٦٩ وفى هذا السجن ذاق رجالات العلم والفضل فى فرنسا أشد أنواع العذاب أيام الاستبداد فكم هلك فيه فيلسوف =

وربُة بيعة عَزَّت وطالتْ بناها الناسُ أَمْس مُسَخَّرينا[١]
مُشيدة لشافىَ العُمْى (عيسى) وكم سملَ القُسُوس بها عُيُونا[٢]
خليلىَّ اهْبطا الوادى ومِيلا إلى غُرَف الشموس الغاربِينا[٣]
وسِيرا فى محاجرهم رُوَيدًا وطُوفا بالمضاجع خاشعينا[٤]
وخُصَّا بالعمار وبالتَّحايا رُفات المجد من (تُوتنخمينا)[٥]
وقبرًا كاد من حُسْنٍ وطيب يضىءُ حجارة ويضوعُ طينا[٦]
يخال لروعة التاريخ قُدّت جنادلهُ العلا من (طور سينا)[٧]
وكان نزيلُه بالمُلك يُدعى فصار يُقلَّب الكنز الثمينا[٨]
وقُوما هاتفين به ، ولكن كما كان الأَوائلُ يهتفونا[٩]
فثَم جلالةٌ قرَّت ورامت على مرِّ القرون الأَربعينا[١٠]
جلال الملك أيامٌ وتمضى ولا يمضى جلال الخالدينا[١١]

= عظيم وفنى بين جدرانه المظلمة مصلح كبير ، وكم من سياسى جنى عليه لخير بلاده فدخله حيـــا وفارقه ميتـا وقد كره الفرنسيون (البستيل) واسم (الباستيل) وعدوه مستقر الظلم ومعهد العسف والقسوة فلـم يكادوا يثورون على حكومتهم حتى كان أول غرضهم (البستيل) فهدموه واقتلعوا أصوله وأخذت أحجاره فجعلها النسوة عقودا يتحلين بها فى أمكنة اللآلىء اشارة الى غلبة الأمة على الظلم وانتقامها من الظالمين .

(١) البيعة بكسر الباء معبد النصارى مسخرين : أى كلفوا عملهم بلا أجرة . (٢) سمل العين فقأها بحديدة محماة وقلعها .

(٣) يريد بالشموس الغاربينا ملوك الفراعنة ، وغرفهم مدافنهم .

(٤) المحاجر ما يحميه الملوك حول منازلهم ومنها محاجر أقيال اليمن وهى أحماؤهم أى ما كان يحميه كل منهم . (٥) العمار التحية وهـو أيضا الريحان يزين به مجلس الشراب . (٦) يضوع يتحرك وينتشر أى كادت حجارته تضىء حسنا وكادت تنتشر رائحته الطيبة الزكية .

(٧) الروعة المسحة من الجمال ، الجنادل جمع جندل وهو الحجارة وطورسينا هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى . (٨) النزيل الضيف .

(٩) هاتفين به أى الملك الذى هو نزيل القبر وليكن هتافكما كما كانوا يهتفون له أيام حياته . (١٠) فثم : فهناك الجلالة من عظم القدر ، ورامت أقامت . (١١) أى أن الجلال الصحيح ما خلـد به فى التاريخ أما جلال الملك فلا بقاء له .

وقُولا للنزيل «قُدوم سعد» ... وحيا الله مقدمك اليمينا[١]

سلامٌ يوم وارتك المنايا ... بواديها ويوم ظهرت فينا[٢]

خوجت من القبور خُروج عيسى ... عليك جلالة فى العالمينا[٣]

يجُوبُ البرق باسمك كل سهل ... ويخترق البخارُ به الحزُونا[٤]

تعَال اليوم خبرنا أكانت ... نواك سناتِ نومٍ أم سنينا ؟[٥]

وماذا جُبت من ظُلمات ليلٍ ... بعيد الصبح يُنضى المدلجينا[٦]

وهل تبقى النفوسُ إذا أقامت ... هياكلها وتبلى إن بلينا ؟

وما تلك القباب وأين كانت ... وكيف أضل حافرها القُرونا ؟[٧]

ممرَّدة البناءِ تختالُ بُرجاً ... ببطن الأرض محطوطاً دفينا[٨]

تغطى بالأَثاث فكان قصرًا ... وبالصور العتاق فكان زونا[٩]

حملتَ العرشَ فيه فهل ترجَى ... وتأمل دولة فى الغابرينا ؟[١٠]

وهل تلقى المهيمن فوق عرش ... ويلقاه الملا مترجلينا ؟[١١]

وما بال الطعام يكاد يقدى ... كما تركته أيدى الصّانعينا[١٢]

---

(١) اليمين المبارك وهو من اليمن . (٢) وارتك أخفتك .

(٣) خروج عيسى أى كما خرج عيسى من القبر على قول النصارى .

(٤) يجوب يقطع والبرق اسم منقول من معناه الأصلى (التلغراف) الحزون جمع حزن وهو ما غلظ من الأرض . (٥) تعالى اليوم الخ الخطاب لتوت عنخ آمون ، نواك قصدك . (٦) ينضى يهزل المدلجون الذين يسيرون من أول الليل . (٧) وما تلك القباب جمع قبة وهى ما ظهر من أبنية المقبرة الفخمة . (٨) ممردة البناء مملسته . (٩) تغطى أى هذا البناء تغطى الخ والأثاث متاع البيت ، والصور جمع صورة يريد بها الرسوم التى تحاكى صور الأشياء ، الزون الموضع تجمع فيه الأصنام . (١٠) فى الغابرين فى الباقين وفى القرآن الكريم « فأنجيناه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين » ويكون أيضا بمعنى الماضين فهو من الكلمات التى تستعمل للأضداد . (١١) المهيمن من أسماء الله تعالى ، والمترجلون الذين ينزلون عن ركائبهم ويمشون على أرجلهم .

(١٢) ما بال الطعام ما حاله ، يقدى من قدى الطعام أى طاب طعمه ورائحته .

لم تكُ أَمس تصبر عنه يوماً فكيف صبرت أَحقابا مِئينا ؟[١]
لقد كان الذى حذر الأَوالى وخاف بنو زمانك أَن يكونا[٢]
يحبُّ المرءُ نبش أَخيه حيا وينبشه ولو فى الهالكينا
سلك من الحفائر قبل يومٍ يسل من التراب الهامدينا[٣]
فإن تكُ عند بعثٍ فيه شك فإن وراءه البعث اليقينا[٤]
ولو لم يعصموك لكان خيرًا كفى بالموت مُعتصما حصينا[٥]
يُضرُّ أَخو الحياةِ وليس شيءُ بضائره إذا صحب المنونا

وقال على بن محمد التنوخى واصفاً مكتوباً :

وصحيفة أَلفاظها فى النظم كالدُّرِّ النثيرْ
جاءت إلَىَّ كأَنها التـ وفيقُ فى كل الأُمور
بـأَرق من شكوى وأَحـ ـسن من حياة فى سرور
لو قابلت أَعمى لأَصبـ ـح وهو ذو طرف بصير
وكأَنها أَملٌ تحقق بعـ ـد يأْس فى الصدور
أَو كالفقيد إذا أَتت بقدومه بُشْرَى البشير
أَو كالمنام لساهر أَو كالغنى عند الفقير
أَو كالشفاءِ لمدنِفٍ أَو كالأَمان لمستجير
وكأَنما هى من وصا ل أَو شباب أَو نشور

---

(١) الأحقاب جمع حقب بضم القاف وهو الدهر ، المئين جمع مائة
(٢) لقد كان أى لقد حصل الذى حذر الأولى ، والأوالى جمل أول .
(٣) سللت أخرجت منها برفق الحفائر جمع حفيرة وهى الحفرة ، واليوم الذى يسل الهامدين من التراب هو يوم القيامة . (٤) فان تك عند بعث الخ أى فان تكن الآن تشك فى هذا البعث الذى خرجت به من قبرك فلا محالة سيأتى البعث الذى لا تشك فيه وهو بعث القيامة .
(٥) يعصموك يمنعونك من المكروه أى لو أنهم تركوك فلم يتخذوا لك هذه العصمة لما أصابك مكروه لأن الموت يمنع الأذى أن يصل وجلاء هذا المعنى فى البيت الثانى .

لفظ كأسر معاند أو مثل إطلاق الأسير
وكأن إذْ لاح من فوق المهارق والسُّطور
ورُد الخُدود إذا انتقلـ ت به على راح الثغور
غررٌ عدَت وكأنها من طلعة الظبي الغرير
من كل معنى كالسلا مة أو كتيسير العسير

وقال أيضاً واصفاً الخط والكتابة والبلاغة :

خط وقرطاس كأنّـ ـما السوالف والشعور
فى كل مغنى كالغنى يحويه مُحتاجٌ فقير
أو كالفكاك ينالهُ من بعد ما يأْس أسير
وكأنها الإقبال جا ءَ به من الشفاءِ أو النشور
وكأنها شرخ الشباب وعيشة الخضل النّضير

وقال البحترى فى الموضوع نفسه :

وإذا دجت أقلامُه ثم انتحت برقب مصابيح الدُّجى فى كتبه
فاللفظ يقربُ فهمهُ فى بعدِه منَّا ويبعد نيلُه فى قرْبِهِ
فكأنها والسمع معقودٌ بها شخصُ الحبيب بَدَا لعين محبِّه

وقال الوزير المهلبى فى وصف كتاب :

ورَدَ الكتاب مبشرًا نفسى بأنواع السُّرُور
وفضضته فوَجَدته ليلا على صفحات نور
مثل السوالف والخُدو د البيض زِينت بالشفور
أنزلتُه منى بمنْـ ـزلة القلوب من الصدور

وقال النجم بن إسرائيل يصف الموز :

أطعمتهُ موزًا شهيَّ المنظر ... مستحكم النضج ، لذيذ المخبر

كأَن تحت جلدِه المزعفر ... لفات زبد ، عجنتْ بسكر

وقال البهاءُ زهير يصف الموز أَيضاً :

فى ريحه ، ولونه ، وطعمه ... كالمسك ، أَو كالتبر أَو كالضربِ

وافت به أَطباقه منضدًا ... كأَنه مكاحلٌ من ذهب

وقال آخر :

يحكى إذا قشَّرتَه ... أَنياب أَفيال صغار

ذو باطن مثل الأَقا ... ح ، وظاهر مثل البهار[1]

الكمثرى :

وكمشراءَ بستان ... شهى الطعم والمنظرْ

له طعمٌ إذا ذيق ... كما الوَرْد والسكرْ

كأَن فى شكله ، ولونه ... وطعمه قوالبُ من سكر

التفاح – قال ابن المعتز :

كأَنما التفاح لما بدَا ... يرفل فى أَثوابه الحمر

شهدٌ بما الورد مستودع ... فى أَكر من جامد الخمر[2]

كأَنما حين نحيا به ... نستنشقُ الند من الجمر[3]

الخوخ :

كأَنما الخوخ على دَوْحه ... وقد بدا أَحمرُه العندمى[4]

بنادق من ذهب أَصفر ... قد خضبت أَنصافها بالدم

---

(١) الأقاح الأقحوان وهو نبت طيب الريح حواليه ورق أبيض ووسطه أصفر والبهار نبت أصفر طيب الريح . (٢) الأكر : جمع كره وهى لفه فى الكرة .
(٣) الندى : طيب . (٤) العندم : صبغ أحمر .

وخوخة بستان ذكى نسيمها من المسك والكافور قد كسبت نشرا (١)
ملبسة ثوباً من التبر نصفه مصوغٌ ، وباقيه كياقوتة حمرا

المشمش :

ومشمش جاءنا من أعجب العجب أشهى إلى من اللذاتِ والطربِ
كأنه وهبوبُ الريح ينثرُهُ بنادقٌ خرطت من خالص الذهب

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر :

حبذا الشمس على الدوح أضحى ذا شعاع يستوقفُ الأبصارا
شجر أخضرُ لنا جعل اللـ ـهُ «تعالى» منهُ كما قال نارا (٢)

الرمان :

رمانة صبغ الزمان أديمها فتبسمت فى ناضر الأغصان
فكأنما هى حُقة من عسجد قد أودعت خرزًا من المرجان
غيره ــ كأنما حقة ، فإن فتحت فصرت من فصوص ياقوت
غيره ــ حقاق كأمثال العقيق تضمنت فصوص بلخش فى غشاء حرير (٣)
غيره ــ إذا فض عنه قشره فكأنه فصوص عقيق فى حقاق من الدر
فدُرٌ ، ولكن لم يدنسه عارض وماء ولكن فى مخازن من جمر

النخيل ، والبلح :

كأن النخيل الباسقات وقد بدت لناظرها حسناً قباب زبرجد (٤)
وقد علقت من حولها زينة لها قناديل ياقوت بأمراس عسجد

وقال السرى الرفاء المتوفى سنة ٣٦٦ هـ :

---

(١) نشر : رائحة طيبة . (٢) يشير الى قوله تعالى : (الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا) (٣) البلخش : حجر معدنه بنواحى بلخشان المتاخمة للتركستان ، احمره يشبه الياقوت . (٤) بسق النخل : طال .

فالنخلُ من باسق فيه وباسقة ... يضاحك الطلعُ فى قِنوَاته الرُّطبا (١)

أَضحت شماريخه فى البحر مُطْلعةً ... إما ثريَّا ، وإما مِعْصما خَضِبا(٢)

تُرِيكَ فى الظلِّ عِقْياناً فإن نظرت ... شمسُ النهار إليها خلتها لهبا(٣)

وقال آخر فى البلح الأَخضر :

أَما ترى النخل قد نثرت بلحاً ... جاءَ بشيرًا بدولةِ الرُّطب

مكاحِلاً من زُمُرُّد خرطت ، ... مُقمَّعات الرءُوسِ بالذهب(٤)

وفى البلح الأَحمر :

انظر إلى البُسْر قَدْ تَبدَّى ... ولونه قد حكى الشقيقا(٥)

كأَنما خوصه عليه ... زَبرْجَدٌ مُثمِرٌ عقِيقا

البطيخ :

رأَيتها فى كف جَلَّابها ... وقد بدت فى غاية الحسن

كسلة خضراء مختومة ... على القصوص الحمر فى القطن

وقال أَبو طالب المأْمونى :

ومُبيَضة فيها طرائق خُضرة ... كما اخضرَّ مَجْرى السَّيل صيب المزن(٦)

كحقة عاج ضُبِّبتْ بزبَرجد ... حوَت قطع الياقوت فى عصب القطن (٧)

---

(١) الطلع ما يطلع من النخلة ثم يصير تمرا أن كانت أنثى ، فان كانت ذكرا لم يصر تمرا بل يؤكل طريا ، أو يترك على النخل أياما حتى يصير فيه شيء أبيض مثل الدقيق فتلقح به الأنثى ، والقنوان : جمع قنو وهو التمر كالعنقود من العنب . (٢) المعصم موضع السوار أو اليد وهو المراد هنا . (٣) العقيان : الذهب الخالص . (٤) مقمعة ذات قمع وهو ما التزق بأعلى التمرة . (٥) البسر : البلح قبل أن يرطب فاذا انتهى نضجه فرطب . والشقيق نبت أحمر فيه بقع سوداء .

(٦) الصيب : المطر ، والمزن السحاب أو أبيضه . (٧) التضبيب : شدة القبض على شيء لئلا ينفلت أى كأنها محاطة بخيوط الزبرجد تمسكها ، والعصب جمع عصبة ، ما يعصب به أى ضرر من القطن .

وقال سبط بن التعاويذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ :

رُبَّ صفراء أتتنا وهى فى أحسن حُلَّهْ
تعتريها صُفرَةٌ فى لونها من غير عِلَّهْ
حُلْوَةُ الريق ، حلال دمها فى كل مِلَّهْ
نصفها بدر ، فإن قَسَّمتها فهى الأَهله

غيره : أَلا فانظروا البطيخ وهو مشقق وقد حاز فى التشقيق كل أَنيق
ترَوْهُ كَبُلورٍ بدا فى زُمُرد مركبة فيه فصوص عقيق

وقال السرى الرفاء فى العنب :

والكرْمُ مشتبك الأَفنان ، توسِعُنا أَجناسه فى تساوى شِرْبِها عجبا (١)
فكرمةٌ قطرت أَغصانها سبجاً وكرمة قطرت أَغصانها ذهبا (٢)
كأَنما الورق المخضر دونهما غيرانُ يكسوهما من سندس حُجُبا

قصب السكر :

تحكيه سُمْرُ القنا ولكن تراه فى جسمه طلاوه (٣)
وكلما زِدْته عذاباً زادك من ريقه حلاوه

النبق :

وسِدْرة كل يوم من حُسْنها فى فنون (٤)
كأَنما النَّبْقُ فيها وقد بدا للعيون
جَلاجِلٌ من نُضَارٍ قد عُلقَت فى الغصون

---

(١) الأفنان : الأغصان ، والشرب : الماء . (٢) السبج : خرز أسود . (٣) الطلاوة مثلثة الطاء : الحسن . (٤) السدرة : شجرة النبق .

الجزر : قال ابن المعتز :

انظر إلى الجزَر الذى يحكى لنا لهب الحريق
كمذبة من سندس ولها نِصابٌ من عقيق

وقال ابن رافع القيروانى :

انظر إلى الجزر البديع كأنه فى حُسْنِه قضُبٌ من المرجان
أوراقه كزبرجد فى لونها وقلوبه صِيغَتْ من العِقيانِ(١)

اللوز الأخضر : قال ظافر الحداد :

كأنما قلوبه من توأم ومُفرَدِ
جَوَاهرٌ لكنما الأصداف من زبرجد

التين : قال ابن المعتز :

أنعم بتين طاب طعماً ، واكتسى حُسْنًا ، وقارب منظرًا من مخبر
فى بَرْدِ ثلج ، فى نقا تبر ، وفى ريح العبير ، وطيبُ طعم السكر(٢)
يحكى إذا ما صُفَّ فِى أَطْباقه خِيا ، ضرِبْنَ من الحرير الأحمر

الفستق :

والقلبُ ما بين قِشرَيه يلوح لنا كألْسُنِ الطيرِ من بين المناقيرِ
غيره : زبرجدة خضراء وسط حريرة بحُقَّةِ عاجٍ فى غِلافِ أديم(٣)
غيره : زبرجدة ملفوفة فى حريرة مضمَّنةً دُرا مغشى بياقوت

النارنج : قال ابن المعتز :

وكأنما النارنج فى أغصانه من خالص الذهب الذى لم يُخلطِ(٤)

(١) العقيان : الذهب الخالص . (٢) العبير اخلاط من الطيب ، ونقا مقصور نقاء . (٣) الأديم الجلد أو أحمره ، وهو المراد هنا .
(٤) النارنج : نوعان أحدهما حامض معروف والأخر حلو وهو « البرتقال » .

كرَة رماها الصولجانُ إلى الهوا فتعلقت فى جَوِّهِ لم تَسقُطِ

غيره : انظر إلى منظر تُلهيك بهجتُه بمثله فى البرايا يُضرَبُ المثَلُ

نادٌ تلوحُ على الأَغصان فى شجر لا النار تطفى ، ولا الأَغصان تشتعل

وقال أَبو الحسن الصقلى :

إذا ميَّلتها الريحُ مالت كأكرة بَدتْ ذهبًا فى صولجان زبرجد

الليمون : قال ابن المعتز :

يا حبّذا ليمونةٌ تحدث للنفس الطرب

كأَنها كافورة لها غشاء من ذهب

القلم ــ قال ابن المعتز يصفه : القلم مجهز لجيوش الكلام ، يخدم الإِرادة ، ولايَمَلُّ استزادة ، يسكت واقفاً ، وينطق سائرا ، على أَرض بياضُها مُظلم وسوادها مضىء ، وكأَنه يُقبِّل بساط سلطان ، أَو يفتح نوَّار[١] بستان .

وقال على بن عبيد : القلم أَصمٌّ يسمع النجوى[٢] ، أَعيا من باقل ، وأَبلغ من سُحبان وائل ، بجهل الشاهد ، ويخْبرُ الغائب ، ويجعل الكتب بين الإِخوان أَلْسُناً ناطقة ، وأَعْيناً لاحظة ، وربما ضمَّنتها من ودائع القلوب ما لا تبوح به الأَلسن المشاهدة .

ومن كلام أَبى حَفص بن بُرد الأَندلسى : ما أَعجب شأْن القلم ! يَشْرَب ظلمة ، ويلفظ نورًا ، وقد يكون قلم الكاتب أَمضى من شباة[٣] المحارب ، وهو سهم ينفذ المقاتل ، وشفرة[٤] تطيح بها المفاصل .

وقال محمود بن أَحمد الأَصبهانى :

أَخرسُ يُنبيك بإِطراقِهِ عن كل ما شئت من الأَمر[٥]

---

(١) نوار : الزهر أو الأبيض منه . (٢) النجوى : السر .
(٣) الشباة : حد كل شىء (٤) شفرة : سكين (٥) أطرق : أرخى عينيه ينظر الى الأرض .

يُذْرِفُ على قِرْطاسِهِ دمعة يُبدِي بها السرَّ وما يدْرِى(١)
كعاشق أَخفى هواهُ ، وقد نمَّت عليهِ عبْرَةٌ تجرى
تُبصرُه فى كل أَحواله عريان يَكسو الناسَ أَو يُعْرِى
يُرَى أَسيرًا فى دواة وقد أَطلق أَقواماً مِنَ الأَسْرِ
أَخرقُ ، لو لم تَبْرِه لم يَكُنْ يرشق أَقْوَاماً وما يَبْرِ(٢)
كالبحر إذ يَجْرى ، وكالليل إذ يَغشَى ، وكالصارم إذ يفرى

وقال أَحمد بن عبد ربه المتوفى سنة ٢٢٨ هـ :

يُخاطِبُ الغائبَ البعيدَ بما يخاطبُ الشَّاهدَ الذى حضرا
شَخْتٌ ضئيل لفعْله خطرٌ أَعظم به فى مُلِمَّةٍ خطرا(٣)
تمجُّ فكاهُ رِيقه صغرتْ وخطبها فى القلوب قد كبرا
بواقع النفسَ منه ما حذرت وربما جنيتْ به الحذرا
مُهَفْهفٌ تزدهى به صُحف كأَنما حليت بهِ دُرَرا

ولابن المعتز فى قلم الوزير القاسم بن عبيد الله :

قلمٌ ما أَراهُ ، أَم فلكٌ يجـ رى بما شاءَ «قاسم» ويسيرُ ؟
خاشع فى يديه يلثم قِرْطا ساً كمن قبل البساط شكور
ولطيف المعنى ، جليل ، نحيفٌ وكبير الأَفعال وهو صغير !
كم منايا ، وكم عطايا ، وكم حَتْـ ـف وعيش تضم السطور
نقشت بالدجى نهارًا ، فما أَد رى أَخط فيهن أَم تصويرُ ؟

وقال أَبو تمام فى قلم محمد بن عبد الملك الزيات :

لك القلم الأَعلى الذى بشباته تُصاب من الأَمر الكلى والمفاصل

---

(١) يذرى : يصب . (٢) أخرق : احمق ويبرى يقطع ، وكذا يفرى . (٣) شخت ضامر دقيق وكذا مهفهف .

لُعَابُ الأَفاعى القاتلاتِ لُعابهُ ... وأَرى الجنى اشتارَتْه أَيدٍ عواسِلُ (١)

له ريقةٌ طلٌّ ، ولكن وقعها ... بآثاره فى الشرق والغرب وابل (٢)

فصيح إذا ما استنطقته وهو راكب ... وأَعجم إن خاطبته وهو راجل (٣)

إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأُفْرِغت ... عليه شعابُ الفكر وهى حوافل (٤)

أَطاعته أَطراف القنا وتقوَّضت ... لنجواهُ تقويضَ الخيام الجحافل

إذا استغزرَ الذهنُ الجلىُّ وأَقبلت ... أَعاليه فى القرطاس وهى أسافل (٥)

رأَيت جليلا شأْنهُ (وهو مُرهف ... ضناً) وسميناً خطبه (وهو ناحل) (٦)

وقال ابن الرومى :

إن يخدمُ القلم السيف الذى خضعت ... له الرقابُ ، ودانت خوفه الأُمم

فالموت - والموتُ لاشىء يُغالبه - ... ما زال يتبعُ ما يجرى به القلم

كذا قضى الله للأَقلام مذْ بريتْ ... أَن السيوف لها مذ أَرْهفت خدم

وقال المتنبى :

نحيفُ الشوى يعدو على أُمِّ رأْسه ... ويحفَى فيقوّى عدوه حين يقطع (٧)

يمجُّ ظلاما فى نهار لسانه ... ويفهم عمن قال ما ليس يسمع

قال ابن نباتة السعدى ، المتوفى سنة ٤٠٥ هـ :

يرنو إلى الأَفكار غيرَ ملاحظ ... ويخاطب القرطاسَ غير محابى

ويعلم الآداب أَفهام الوَرَى ... وفؤاده صفر من الآداب

وقال مهيار الديلمى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ فى وصف الدولة والأَقلام :

---

(١) الأرى : العسل . اشتاره اجتناه ؛ العواسل جمع عاسلة التى تشتار العسل وتجمعه .

(٢) الطل أخف المطر . والوابل المطر الشديد الضخم القطر .

(٣) أعجم : لا يبين كلامه ؛ راجل : واقف : (٤) الشعاب جمع شعبة ؛ وهى ما عظم من سواقى الأودية والميل فى الرمل . وحوافل : ملأى .

(٥) استغزر : طلب ما فيه من مادة غزيرة .

(٦) مرهف دقيق مرقق . ضنى مرض مرضا يلزمه الفراش على الموت . (٧) الشوى : الأطراف وجلدة الرأس .

وأم بنين استبطنتهُمْ فصدرُها غصيصٌ بهم عند الحضان كظيمُ
يعقونها بالضغط ، وهى عليهمُ عطوفٌ بدرات الرضاع رَءُوم (١)
يخالُ الأَفاعى الرقشُ ماضمَّ منهم حشاها ، وهم فيها أَخٌ وحميم (٢)
فمن ذى لسان مفصح وهو أخرس ومن بائح بالسر وهو كتوم

وقال أَبو الفتوح البستى المتوفى سنة ٤٠٠ هـ :

إذا أَقسم الأَبطالُ يوماً بسيفهم وعدُّوهُ مما يكسبُ المجد والكرم
كفى قلمُ الكتاب عزًّا ورفعة مدى الدهر أَن الله أَقسم بالقلم

وقال أَعرابى من بنى الحرث بن كعب ، يصف الشمس :

مخبأَة ، أَما إذا الليلُ جنها فتخفى ، وأَما بالنهار فتظهر (٣)
إذا انشق عنها ساطع الفجر وانجلى دُجى الليل وانجاب الحجاب المستر (٤)
وأَلبسَ عرضُ الارض لوناً كأَنه على الأُفق الشرقى ثوبٌ معصفر
تحلت ، وفيها حين يبدو شعاعها ولم يحل للعين البصيرة منظر
بلون ، كدرع الزعفران يشوبهُ شعاع تلألأَ ، فهو أَبيض أَصفر
إلى أَن علت وابيض منها اصفرارها وجالت كما جال المهيج المسهر (٥)
وجللت الآفاق ضوءًا ينيرها فخرَّ لها صدر الضحى يتَسعَّر
ترى الظلَّ يطوى حين تعلو وتارة تراه إذا مالت إلى الأَرض ينشر
وتدنف حتى ما يكاد شعاعها يبين إذا غابت لمن يتبصر (٦)
كمابدأَت ، إذ أَشرقت ، فى مغيبها تعود كما عاد الكبير المعمر
فأَفنت قروناً ، وهى فى ذاك لم تزل تموت وتحيا كل يوم وتنشر (٧)

---

(١) الدر اللبن ؛ رءوم عطوف . (٢) الرقش جمع رقشاء وهى الحية المنقطة بسواد وبياض والحميم القريب . (٣) جنهـا : سترها . (٤) انجاب : انكشف . (٥) المهيج : المفزع . (٦) دنفت الشمس : دنت الغروب واصفرت . (٧) تنشر : تحيا .

وقال الطغرائى يصف طلوع الشمس وغروب البدر :

وكأنما الشمس المنيرة إذا بدت … والبدر يجنحُ للغروب وما غَرَب
متحاربان لذا مجنٌ صاغه … من فضة ، ولذا مجنٌ من ذهب

وقال ابن خفاجه الأندلسى المتوفى سنة **٥٢٢** يصف غروبها فى نهر :

وقد ولت الشمس محتثة … إلى الغرب ترنو بطرف كحيل(١)
كأن سناها على نهره … بقايا نجيع بسيف صقيل(٢)

وقال ابن طاهر الكرخى أيضاً :

أما ترى الأُفق كيف قد ضرب … الغيْمُ عليه من مزْنه قُببا ؟
وحاجبُ الشمس من رفارفها … يضرم فيها بنوره لهبا(٣)
كأنه فضة مطرقةٌ … أطرافها قد تطوَّسَتْ ذهبا(٤)

وقال ابن مكى أيضاً :

كأن الشمس إذا غرُبت غريق … هوى فى البحر أو وافى مغاصا
فأتبعها لهلال على غروب … بزورقه ، يريد لها خلاصا

وقال عبد العزيز القرطبى أيضاً :

إنى أرى شمس الأَصيل عليلة … ترتادُ من نحو المغارب مغربا
مالتْ لتحجبَ شخصها فكأَنها … مدَّت على الدنيا بساطاً مُذهبا

وقال ابن الرومى أيضاً :

وقد طفلت شمس الأَصيل ونفضت … على الجانب الغربى ورساً مذعذَعا(٥)
ولاحظت النوار وهى مريضةٌ … وقدوضعت خداًّعلى الأَرض أضرعا(٦)

---

(١) محتثة مسرعة : ترنو تديم النظر . (٢) سناها ضوؤها والنجيع دم يضرب الى السواد . (٣) رفارفها : جوانبها . (٤) مطرقة مضروبة بالمطرقة ، وتطرست : تزينت . (٥) طفلت الشمس احمرت عند الغروب ونفضت نثرت . والورس نبات أصفر والمذعذع المبدد والمفرق . (٦) أضرعا : ذليلا .

كما لحظت غُوّاده عين مُدنف توجَّع من أوصابه ما تَوَجعا(١)

وقال ابن أفلج من قصيدة طويلة فى الموضوع نفسه :

والشمس خافضة الجناح مُسِفةٌ فى الغرب تنسابُ انسيابَ الأرقط(٢)

أو كالعروس بدت فأسدل دونها جنبات سبر كالجساد مُخَطط(٣)

وأتى الظلام على الضياءِ كما أتى أجلٌ على أمل ، فلم يَتأبَطِ

وقال أيضاً شاعر العراق الكبير الأستاذ معروف الرصافى :

نزلت تجرى إلى الغروب ذبولا صفراء تشبه عاشقاً متبولا(٤)

تهتز بين المغيبِ كأنها صبٌ تململَ فى الفراش عليلا

ضحكت مشارقها بوجهك بكرة وبكت مغاربها الدماء أصيلا

وغدت بأقصى الأفق مثل عرارة عطشت فأبدت صفرة وذبولا(٥)

غربت فأبقيت كالشواظ عقيبها شفقاً بحاشية السماءِ طويلا(٦)

شفقٌ يروع القلب شاحبُ لونه كالسيف ضَمِّخَ بالدِّماءِ مَسْلولا

رقتْ أعَاليهِ وأسفَله الذى فى الأفق أشبع عُصفرًا محلولا

وقال ابن المعتز يصف الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلتهُ حمولة من عَنبر

غيره : وكأن الهلال نصف سوار والثريَّا أكفٌ تشير إليه

غيره : فخٌ بوَسطِ السماء مُلقى ينتظر الصيْدَ للنجوم

غيره : انظر إلى حُسن هلالٍ بدا يهتك من أنواره الحنْدِسا(٧)

كمنجل قد صيغَ من فضة يحصُدُ من دهر الدجى نرجسا

---

(١) الأوصاب الأمراض . (٢) مسفة من أسف الطائر اذادنا من الأرض فى طيرانه وحية رقطاء وهى التى لونها أسود يشوبه بياض أو عكسه .
(٣) الجساد الزعفران . (٤) متبول : ذاهب العقل .
(٥) العرار نبت طيب الريح . (٦) الشواظ اللهب لا دخان فيه .
(٧) يهتك يمزق ومن فى كلمة (من أنواره) بمعنى الباء ، والحندس الظلمة .

غيره : يتلو الثريَّا كفاغرٍ شرهِ ‍ يفتحُ فاه لأَكل عُنقودِ(١)

غيره : فى ليلة أَكل المحاق هلالها ‍ حتى تبدَّى مثل وقف العاج(٢)

غيره : قلت لما هوت لمغربها الشمـ ‍ ـسُ ولاح الهلال للنظارِ

أَقرض الشرق ضده الغرب دينا ‍ را فأَعطاه الرهن نصف سوار

وقال ابن طَباطِبا :

وكأَن الهلال لما تبدَّى ‍ شطرَ طوق المرآة ذى التذهيب

أَو كقوس قد أُحنيت أَو كنؤى ‍ أَو كنون مُهرق مكتوب(٣)

وقال أَبو عاصم البصرى فى الهلال والثريا والزهرة :

رأَيت الهلالَ وقد خلفت ‍ نجوم الثريا لكى تَلْحَقهْ

فشبَّهه وهو فى إثْرها ‍ وبينهما الزهرة المشرقه

بقوس لرام : رمى طائرا ‍ فأَرسل فى إثْرِه بندقه

وقال : فى اقتران الثريا بالهلال .

فإذا ما تقارنا قلت طوْقٌ ‍ من لُجَيْنٍ قد عُلقَتْ فيه دُرَّه

وقال الطغرائى :

فكأَنه وكأَنها فى جنبه ‍ عُنقودةٌ فى زورق من عَسْجَدِ

وقال أَبو الفضل الميكالى :

كأُكرة من فضة مجلوَّةٍ ‍ أَو عليها صولجان من ذهبْ

غيره : وكأَن الهلال تحت الثريا ‍ ملكٌ فوق رأْسه إكليل(٤)

غيره : كأَنما النجم قرط صيغ من ورق ‍ معلق من هلال الأُفق فى أُذن(٥)

---

(١) فاغر : فاتح فاه .
(٢) المحاق ، مثلثة الميم : آخر الشهر والوقف سوار من عاج .
(٣) النؤى الحفير حول الخيمة يمنع السيل ، المهرق : الصحيفة معرب) .
(٤) اكليل : التاج . (٥) الورق : بكسر الراء ، الفضة .

وقال شرف الدين الحسين :

كأن الهلال نزيل السماء وقد قارن الزهرة النيِّرَه

سوارٌ لحسناء من عَسْجَد على قُفله وُضعتْ جوهره

وقال البدر البشتكى فى وصف الهلال والنجوم حوله :

ذُبالة شمع عوَّج الريح ضوءها فطار لها بالقرْب بعضُ شراره[1]

وقال على بن محمد الكاتب :

بدا مُسْتدق الجانبين كأن على الأُفق الغربى مخلبُ طائر

ولا لمسرى ليلتين كأنما تفرَّق منه الغيم عن إثر حافر

غيره : وشمَّرَ عنه الغيمُ ذيلا كأنما تكشفَ منه عن جناح محلق[2]

وقال : البدر كالملك الأعلى وأنجُمه جنوده ، ومبانى قصره الفلك

ولابن المعتز :

وكأن البدر لما لاح من تحتِ الثريَّا

ملكٌ أقبل فى التَّا ج يُفَدَّى ويُحيَّا

وقال فى البدر مع الشمس :

حتى رأيت الشمس تتـ لو البدر فى أُفق السماء

فكأنها وكأنَّهُ قدحَانِ من خمر وماء

غيره : والبدر فى أُفق السماء كدرهم ملقى على ديباجة زرقاء

وللسلامى :

والبدر فى أُفق السما ء كروضة فيها غدير

وللشريف العقيلى :

والبدر فى كبد السماء كوردة بيضاء تضحك فى رياض بنفسج

(١) الذبالة : الفتيلة . (٢) حلق الطائر : ارتفع فى طيرانه .

غيره : وقد برز البدر المنيرُ ووجهه   كجام ِ لُجين فيه آثار عنبر(١)

وقال سهل بن المرزبان :

شبهتُ بدر سمائها لما دنتْ   منه الثريا فى قميص سندسى
ملكا مهيباً قاعدًا فى روضة   حَيَّاه بعض الزائرين بنرجس

وقال أَبو الوأْواءُ الدمشقى يصف البدر طالعاً من خلال السحاب :

والبدر أَول ما بدا مُتَلثماً   يُبْدِى الضياءَ لنا بخدٍّ مُسفر(٢)
فكأَنما هو خوذة من فضة   قد ركبت فى هامه من عنبر(٣)

وقال الشريف الرضى يصف السماءَ والأَرض والليل والبرق :

سمائى مُذَهَّبةٌ بالبروق   وأَرضى مُفَضَّضةٌ بالحباب
وروْضى مطارِفه غَضَّة   تَطرَّز أَطرافها بالذهب
وليل ترى الفجرَ فى عطفه   كما شاب بعض جناح الغراب
يغار الظلام على شَمْسِهِ   إلى أَن يُوَارِيها بالحجابِ
وتصقل أَنْجُمُهُ العاصفات   إذا صدِئَتْ من عمود السحابِ

وقال البُترى يصف الغيث :

ذاتُ ارتجازٍ بحنين الرَّعد   مجرورة الذيل صدُوق الوعد(٤)
مَسفوحة الدمع لغير وَجْدٍ   لها نسيمٌ كنسيم الورد
ورنةٌ مثل زئير الأَسد   ولمعُ برق كسيوف الهند
جاءَت بها ريح الصبا من نجد   فانتثرت مثلُ انتثار العقد
فراحت الأَرضُ بعيش رغد   مِن وَشى أَنوار الرُّبى فى بُردِ

---

(١) الجام اناء من فضة .   (٢) مضىء : مشرق .
(٣) الخوذة المغفر : زرد ينسج على قدر الرأس ، والهامة الرأس .
(٤) من ارتجز الرعد اذا دمدم .

كأَنما غُدْراتها فى الوَهْدِ يلعبنَ من حبابها بالنردِ[1]

ومن قصيدة لِصَفىِّ الدين الحلى يصف فيها الربيع :

خلع الربيع على غصون البانِ حللا فواضلها على الكثبان
ونمت فروع الدَّوْحِ حتى صافحت كفل الكثيب ذوائب الأَغصان
وتتوجت هام الغصون وضرجت خدَّ الرياض شقائق النعمان
وتنوعت بُسط الرياض فزهْرهَا متباين الأَشكال والأَلوان
مِن أَبيض يقق أَو أَصفر فاقع أَو أَزرق صافٍ وأَحمر قان
والظلُّ يسرع فى الخمائل خطوه والغصنُ يخطر خطرة النشوان
وكأَنما الأَغصان سوق رواقص قد قُيدَت بسلاسل الريحان
والشمس تنظر من خلال فروعها نحو الحدائق نظرة الغيْران
والأَرض تعجب كيف يضحك والحيا يبكى بدمع دائم الهملان
حتى إذا افترَّتْ مباسم زهرها وبكى السحاب بمدمع هتان
طفحَ السرورُ علىَّ حتى أَنه من عظم ما قد سرَّنِى أَبكانى
فاصرف همومك بالربيع وفصله إن الربيع هو الشباب الثانى

وله من قصيدة فى وصف واد :

تعانقت الأَغصان فيه فأَسبلت على الروض أَستارًا من الورق الخضر
إذا ما حبال الشمس منها تخلصت إلى روضه أَلقت سِرَاكاً من التبر

ومن قول أَبى الفتح كشاجم فى وصف الجمر يعلوه الرماد :

كأَنما الجمر والرماد وقد كادَ يُوارى من نارِهِ النورا
وردُ جنىٌّ القطاف أَحمر قد ذرتْ عليه الأَكف كافورا

---

(١) النرد لعبة تعرف عند العامة بلعبة « الطاولة » .

ومن قصيدة لأَبى الفرج عبد الواحد الببغا فى وصف جيش :

قاد الجيادَ إِلى الجيادِ عوابساً شعثاً ، ولولا بأْسه لم تنقدِ(١)
فى جحفل كالسيل أَو كالليل أَو كالقطرِ صافح موجُ بحرٍ مُزبِدِ
ردَّ الظلام على الضحى فاسترجع الـــــإظلام مِن ليل العجاج الأَربدِ
وكأَنما نقشت حوافر خيله للناظرين أَهِلة فى جلمدِ
وكأَن طرف الشمس مطروف وقد جُعِل العبار له مكان الأَثمدِ

وله من قصيدة فى وصف روضة :

مداهن يحملن طل الندى فهاتيك تبرٌ ، وهٰذِى عقيق(٢)
تنظم أَوراقها دُرها وتنثر منها التى لا تطيق
يميل النسيم بأَغصانها فبعضٌ نشاوى وبعضٌ مفِيق
ويوْمٍ ستارته غيمه وقد طرَّزت رَفرفيها البروق
جعلنا البخور دخاناً له ومن شرر الرَّاج فيه حريق
تظلُّ به للشمس محجوبةً كأَن اصطباحك فيه غبوق
على شجراتٍ رافعاتِ الذيو ل لماءِ الجداول منها شهيق

ومن قصيدة للحسن بن على بن وكيع فى وصف روض :

أَسفر عن بهجته الروضُ الأَغرْ وابتسم الدوح لنا عن الزَّهر
أَبدَى لنا فصل الربيع منظرًا بمثلهِ تفتن أَلباب البشر
وشيًّا ولكن حاكه صانعه لا لا بتذال اللبس لكن للنظر
عاينه طرف السماء فانثنى عِشقاً له يبكى بأَجفانِ المطر
فالأَرض فى زىٍّ عروس فوقها من أَدمع القطر نثارٌ مِن دُرَرْ

---

(١) الأشعث : الأسود
(٢) الطل : المطر الضعيف .

وشيٌ طواهُ فى الثرَى صوانه حتى إذا ملّ الطيِّ انتشر[١]

وقوله :

انظر إلى زهر الربيع وما جلت فيه عليك طرائف الأَنوارِ
أَبْدَتْ لنا الأَمطارُ فيهِ بدائعاً شهدتْ بحكمة مُنْزِل الأَمطار
وما شئتَ للأَزهار فى صحرائِهِ من درهم بهج ، ومن دينار
وجواهِرٌ لولا تغير حُسْنها جلت عن الأَثمان والأَخطار[٢]

وله أَيضاً :

أَلست ترَى وشِى الربيع المنمنما وما رَصَّع الربعي فيه ونظما[٣]
فقد حكت الأَرضُ السماءَ بنورها فلم أَدر فى التشبيه أَيهما السما
فخضرتها كالجو فى حسن لونه وأَنوارَها تحكى لعينيكَ أَنجما
فمن نرْجِس لما رأَى حسن نقشه تداخلهُ عجبٌ بِهِ فتبسما
وأَبدى على الورد الجنى تطاولا فـأَظهرَ غيظ. الورد فى خدِّه دما
وزهر شقيقٌ نازعَ الوَرْدَ فضله فزاد عليه الورد فضلا وقدما
وظلَّ لفرط الحزن يلطمُ خَدَّه فـأَظهر فيه اللطمُ جمرًا مضرما
ومن سوسن لما رأَى الصبغ كله على كل أَنوارِ الرياض تقسما
تجلبَبَ من زُرْقِ اليواقيتِ حُلَّةً فـأَغرب فى الملبوس منه وأَحكما[٤]
وأَنوار منثور تخلف شكلها فصار بها شكل الربيع متمما

وللقاضى محمد بن النعمان فى وصف الهلال :

انظر إلى حسن ذا الهلال وقد بدا لست مضينَ من عمره

(١) الصوان الوعاء الذى يصان فيه الشيء . (٢) جمع خطر ، وهو المثل والعديل فى العلو . (٣) الربعى نسبة الى الربيع والمراد به هنا المطر فى الربيع .
(٤) أغرب : أتى بشىء غريب .

وقد أطاقت بِهِ كواكبه حُسْناً فبيته لمعتبره
مثلَ زناد قد صيغ من ذهبٍ يقدح نارًا وهُنَّ من شرره[1]
ثمَّ تولَّى يريدُ مغربه فى شفقِ الشمس وهى فى أثرهْ[2]
فخلتهُ غائصاً ببحر دم يقذفُ بالرائعاتِ من دُرَرِهِ
فلم أزل وليلتى أراجعه لحظى وأبكِى للوقت من قصره
حتى تبدَّى الصَّباحُ منتبهاً قبل انتباهِ المخمُورِ من سكره

ومن قصيدة لسليمان بن حسان الصيبى يصفُ شمعة :

ومَجْدُولة مثلَ صدْرِ القنا ة تعرَّت وباطنها مُكتسى
لها مُقْلة هىَ رَوْحٌ لها وتاجٌ على الرأس كالْبُرْنُس
إذا رَنقت لنعاس عرا وقطعت من الرأْس لم تنعس[3]
إن غازلتها الصّبا حَرَّكت لساناً من الذهب الأَملس
وتنتج فى وقت تلقيحها ضياء يحلى دُجَى الحندس
فنحن من النورِ فى أسعد وتلك من النار فى أنحس
توقدها نزهة العيو ن ، وَرُؤيتها مُنْية الأَنفسِ
تكيد الظلامَ كما كادَها فتفنى ، وتفنيه فى مَجْلِسِ
فيا حامل العود حث العنا ويا حاملَ الكأْس لا تحبس
ويا صالح[4] انعم وعش سالماً على الدهرِ فى عزك الأَقعس[5]

ولأَبى الحسن العقيلى فى وصف الصبح والبرق :

الصبحُ ينشرُ فوق مسـ ـك الليلِ كافور الضياء
والبرقُ يُذْهِبُ ما تفضـ ـضه الغيومُ من السماء

(١) الزناد جمع زند ما تقدح به النار . (٢) الشفق : الحمرة فى الأفق من الغروب الى قريب من العتمة . (٣) كدرت . (٤) أسم الممدوح . (٥) الثابت المنيع

فاشْرَب على ديباج نَبْـــتٍ قد أَحاط بشرب ماءٍ(١)
فالعيشُ فى زمن الرَّبيــــع رقيقُ حاشية الرِّداءِ

وقال أيضاً فى نارنجة :

ونارنجة بين الرِّياض نظَرْتُها على غصن رطب كقامة أَغْيَدِ(٢)
وإِذا مَيَّلتها الريحُ مالت كأُكرة بَدَتْ ذهباً فى صولجان زبرجد

ولابن أَبى عمرو الطرازى وصف نار :

نارٌ جرتْ فى غابةٍ ترْمى العُلَى بالشهب
كأَنها جيشُ وَغًى فرسانهُ من ذهب

ولعلى بن لؤلؤة الكاتب فى الصبح والليل :

رُبَّ صبحٍ كطلعة الوصل جَلَى جُنح ليل كطلعة الهجرانِ
زار فى حُلة البُزَاةِ فولى الليْــــلُ عنه فى حُلة الغِرْبانِ

ولأَبى العباس الكندى فى الندى على البحر :

كأَن الندى فى البحر بحران مائعٌ على مائع هذا على ذاك مطبق
فهذا لُجَيْنٌ سابحٌ مُترَقْرقٌ وذاك لجين فى السماءِ مُعَلقُ(٣)
إِذا أَبصرته الشمسُ بعداحتجابها به ساعَةً أَبصرته يتمزَّقُ

وللسرى بن أَحمد الكندى فى وصف الفجر من قصيدة :

وركائبُ يخرجن من غلس الدُّجى مثل السهام مَرَقن منه مروقا(٤)
والفجر مصقول الرداء كأَنه جلباب خودٍ أَشربته خلوقا(٥)

(١) الشراب المورد . (٢) النارنجة واحدالنارنج وهو شجرة ورقهـا أملس ليس بشديد الخضرة يحمل حملا مدورا فى جوفه حماض كحمـاض الأترج ووردها أبيض فى نهاية من طيب الرائحة . (٣) مترقرق : متلألىء.
(٤) خرجن ونفذن من الجانب الآخر . (٥) الخود المرأة الحسنة الخلق الشابة ، والخلوق ضرب من الطيب مائع .

وله من أُخرى فى سحابة :

وبكرٌ إذا جَنَّبَتها الجنوب حسبت العشار تؤمُّ العشارا(١)

ترى البرق يبسم سِرًّا بها إذا انتحب الرعدُ فيها جهارا

يُعارضها فى الهواءِ النسيم فينثرُ فى الأَرض دُرًّا صغارا

فطورًا يشق جُيوب الحيا وطورا يَسُحُّ الدموع الغزارا

وله من أُخرى :

غيوم تمسك أُفق السما ءِ ، وبرقٌ يكتبه بالذهب

وخضراءُ ينثرُ فيها الندى(٢) فريدًا ندى(٣) مالهُ ثُقبُ

فأَوراقها مثلُ نظم الحلى وأَنهارها مثل بيض القضب

حللتُ بها مع ندامى سلوْا عن الجد واشتهرُوا باللعب

وأَغنتهمُ عن بديع السما ع بدائع ما ضمنته الكتب

وأَحسنُ شيءٍ ربيع الحيا ة أُضيف إليه ربيعُ الأَدب

ولأَبى بكر الخالدى فى وصف الجو وإدبار الليل وإقبال الفجر :

والجوُّ يسحبُ من عليلِ هوائه ثوباً يجودُ بظله المترقرق

حتى رأَينا الليل قوس ظهره هرماً وأَثر فيه شيب المفرق

وكأَن ضوءَ الفجر فى باقى الدجى سيف حلاه من اللجين المحرق

ولسعيد بن هاشم الخالدى يصف المطر والصبح والليل والبرق :

أَما ترى الظل كيف يلمع فى عيون نور تدعو إلى الطرب

فى كل عين للطل لؤلؤة كدمعة فى جفون منتحِب

والصبح قد جردت صوارمه والليل قد همّ منه بالهرب

---

(١) البكر : السحابة الغزيرة ، جنبتها : دفعتها . العشار : النوق .
(٢) الندى : الكلا (٣) الندى : ما سقط آخر الليل . الفريد : الجوهر النفيس والدر .

والجوُّ في حُلة مُمَسَّكة قد كتبتها البروق بالذهب

وللمهلبي الوزير في الربيع :

الورد بين مضمخ ومضرج والزهْر بين مكللٍ ومتوَّج (١)
والثلج يهبط كالنثار ، فقم بنا نلتذ بابنة كَرْمَة لم تمزج
طلعَ النهار ولاح نور شقائق ، وبدت سطور الورد تلوَ بنفسجِ
فكأن يومك في غلالة فضة والنبت من ذهب على فيروزج (٢)

وللقاضي التنوخي في وحشة الليل والنجوم والسماء :

رب ليل قطعته كصدود وفراق ما كان فيه وداعُ
موحِشُ كالثقيل تقذى به العيـ نُ وتأْبى حديثه الأسماع
وكأن النجومَ بين دُجاهُ سنن لاح بينهن ابتداع
وكأن السماءَ خيمة وشيٍ وكأن الجوزاءَ فيها شراع

وله أيضاً في وصف رياض :

رياض حاكت لهن الثريَّا حُللا كان غزلها للرعود
نثر الغيثُ دُرَّ دمع عليها فتحلت بمثل در العقود
أُقْحوان معانق لشقيق كثغور تعضُّ ورْدَ الخدودِ
وعيونٌ من نرجس تتراءى كعيون موْصولة التسهيد
وكأن الشقيق حين تبدى ظلمة الصدغ في خدود العيدِ
وكأن الندى عليها دموعٌ في جفون مفجوعة بفقيد

---

(١) مضمخ : ضمخه بالطيب لطخه به حتى كاد يقطر . ضرجه : صبغه بالحمرة . (٢) الغلالة : شعار يلبس تحت الثوب وتحت الدرع أيضا . الفيروزج : حجر كريم .

وكتب محمد بن عبد الله السامى إلى صديق له يصف النارنج :

أَتنشط للصبوح – أبا على – على حُكم المُنَى ورضا الصديق
بنهر للرياح عليه دِرْعٌ تذهَّب بالغروب وبالشروق
إذا اصفرَّت عليه الشمس صبت على أمواجه ماءُ الخلوق(١)
وجمر شب فى الأغصان حتى أضاع الماءَ فى وَهج الحريق
فدُهمُ الخيل فى ميدان تِبرٍ يُصاغ لها كراتٌ من عقيق

وكتب إليه فى صفة نهر حوله أَشجار الجلنار(٢) :

ونهر تمرحُ الأَمواج فيه مراح الخيل فى رَهَج الغُبار(٣)
إذا اصفرت عليه الشمس خلنا نميرَ الماءَ يُمْزجُ بالعقار(٤)
كأَن الماءَ أَرض من لجين مغشاة صفائح من نضار
وأَشجار مُحَملة كؤوساً تضاحك فى احمرار واخضرار
وإذا أَبصرن فى نهر سماءً وهبن له نجوم الجلنار

وله قصيدة فى وصف الرياض والبرق :

نسب الرياض إلى الغمام شريف ومحلها عند النسيم لطيفٌ
فاشرب وثقل وزن جامِك إنه يوم على قلب الزمان خفيف(٥)
أَو ماترى طرر البروق توسطت أُفقاً كأَن المُزْن فيه شفوف(٦)
اليومُ من خجل الشقيق مضرج خجل ومن مرض النسيم ضعيف
والأَرض طرس والرياض سطوره والزهر شكلٌ بينها وحروف

ولابن أَبى الرجال يصف روضة صنعاء :

رَوْضةٌ قد صبا لها السعد شوقاً وصفا ليلها ، وطاب المقيلُ

(١) الخلوق : ضرب من الطيب مائع فيه صفرة لأن أعظم أجزائه من الزعفران . (٢) الجلنار : زهر الرمان . (٣) الرهج : ما أثير من الغبار . (٤) الخمر . (٥) الجام : اناء من فضة . (٦) الطرر : جمع طرة وهى علم الثوب . المزن : السحاب .

جَوٌّ سَجْسج وفيها نسيم كل غصن إلى اقاه يميل
صح سكانها جمعاً من الدا ء ، وجسم النسيم فيها عايل
إيه! ياماء نهرها العذب صَلصل حبّذا يا زلالُ منك الصليل
إيه ! يا وُرْقها المرنَّةِ غنى فحياة النفوس منك الهديل
روض صنعاء فقت طبعاً ووصفاً فكثير الثناء فيك قليل
نهرٌ دافقٌ ، وَجَوٌّ فتيق ، زهر فائق ، وظلٌّ ظليل
لستُ أَنسى انتعاش شحْرور غصن طرباً ، والقضيب منه يميل
وعلى رأْس دوحة خاطب الورْ ق ، ودمع الغصون طلاًّ يسيل
ولسان الرعود يهتف بالسحا ب فكان الخفيف منها الثقيل
وفمُ السُّحْبِ باسم عن بروق مستطير شعاعها مستطيل

ولابن سكرة الهاشمي وصف روضة :

أما ترى الروضة قد نوَّرَتْ وظاهر الروضة قد أَعشبا
كأَنما الأَرض سماءٌ لنا نقطف منها كوكباً كوكبا

ولابن الراجح الحلي يصف زهرية :

نشرت عقود سمائها الأَنداءُ بيد النسيم ، فللثرَى إثراءُ
وبدت تباشير الربيع كأَنما نشرت مطارفُ وشيها صنعاءُ(١)
والأَرض قد زُهِيتْ بحلى نباتها والجو حلة سحبه دكناءُ(٢)
والروض فى نشوات سكرته وقد طافت عليه الدِّيمة الوطفاءُ
وثنى الحيا عطف الغدير فصفقت أَطْرافه وتغنت الورقاءُ
فكأَن أَعطاف الغصون منابر والورق فى أَوراقها خطباءُ

---

(١) صنعاء : عاصمة بلاد اليمن .
(٢) الدكناء : الضارب لونها الى السواد .

ومن وصف زهرية لبدر الدين الذهبي :

ترنح عطف البان فى الحلل الخضر ... وغنى بألحان على عوده القمرى [١]

وراقت أزاهير الحدائق بالضحى ... نواظر أحداقٍ بنوّارها النضرِ [٢]

وأشرق خد الوردِ يبدى نضاره ... وأشرق جيد الغصن فى لؤلؤ القطر

وبات سقيط الطل فى كل روضة ... ينبه فى أرجائها ناعس الزَّهْر

وما ذهبت شمس الأصيل عشية ... إلى الغرب حتى أذهبت فضة النهر

وغنت قيان الطير فى كلِّ أيكة ... وقد راق كحل الطل فى مقل الغدر

أقامت لها دوح الأراك أرائكا ... وأرخت لها أوراق أستارها الخضر

وأمسى أصيل اليوم ملقى من الضنى ... على فرش الأزهار فى آخر العمر

بكته حمامات الأراك وشققت ... عليه الصبا أثواب روضاتها النضر

فكم من نجيب للحمائم بالضحى ... عليه وللأنواءِ من دمعة تجرى

ولعلى بن أحمد الجوهرى من قصيدة فى وصف الغيث :

رز الصباح علينا شملة السحب ... ومدَّت الريح منها واهى النطب [٣]

صك النسيم فراخ الغيث فانزعجت ... ينفضنَ أجنحة من عنبر الزَّغب [٤]

ولأبى معمر بن أبى سعيد الإسماعيلى من قصيدة فى وصف الثلج :

فرحْنا وقد بات السماءُ مع الثرى ... وغاب أديم الأرض عنا فما يرى

كأن غيوم الجو صُواغ فِضة ... تواصوْا برد الحلى عمدا إلى الوَرى

ولأبى العلاءِ السروى فى وصف روض :

مرزنا على الروض الذى قد تبسَّمت ... ذراه وأوداج السحائب تسفك [٥]

فلم نرَ شيئا كان أحسن منظرًا ... من الروض يجرى دمعه ويضحك

---

(١) القمرى : ضرب من الحمام (٢) أصله بكسر العين وتسكينها للضرورة . (٣) رز : بمعنى نفض والشملة كساء يشتمل به ، وزر شملة السحب كناية عن سقوط المطر . (٤) الزغب : صغار الريش .
(٥) الأوداج : جمع ودج وهو عرق فى العنق .

وله أيضاً فى وصف روض من قصيدة :

أَمَا ترى قضبَ الأَشجار قد لبستْ أَنوارها تَتثنى بين جُلاس
منظرمَة كسموط الدرِّ لابسة حُسناً يُبيح دم العنقودِ للحاسى (١)
وغرّدتْ خطباءُ الطير ساجعة على منابر من وَردٍ ومن آس

وقال أبو الفتح كشاجِم يصف مرآة أهداها :

أُخْت شمس الضحاء فى الحُسن والإشـــراق تنير الإعشاءَ للأَجفانِ
ذات طوق مُشرَّف من لجينٍ أُجريَت فيه صفرة العقيان
فهو كالهالة المحيطة بالبدرِ لستٍّ مَضيْن بعد ثمانِ
وعلى ظَهرها فوَارس تَلهو ببزاةٍ تعدو على غِزْلانِ
عدلت عكسها الشُّعاع فمبْدَا دُ إليها ورَجْعه سِيَّانِ
وهى شمسٌ وإن مِثالك يوماً لاحَ فيها فإنها شمسان
أَينما قابلت مِثالك من أَرْ ضٍ ففيها تقابُل النَّيِّرانِ
فأَلقها منك بالذى ما رآه خائفٌ فانثنَى بغير أَمانِ

ولأَبى القاسم الدَّيْنَورِى فى وصف جواد :

ومطهَّم (٢) طرف العِنان (٣) مُعوَّد خَوض المهالكِ كل يوم براز
وإذا تَوغلَ فى ذُرى مُتمنعٍ صعب بعيد العهد بالمجتاز
تركت سنابكه بصمّ صخورهِ أَثرًا يلوحُ كنقش صَدْر الباز

وله فى وصف سفرجل وتفاح ورمان :

بعثْت إليكَ ضحى المهْرجا ن بمعشوقة العرْف والمنظرِ

---

(١) من حسا الشراب اذا شربه شيئا بعد شىء وفى مهلة .
(٢) شبه حسنه وأظهر بهاءه والموصوف محذوف أى الفرس .
(٣) طرف العنان بمعنى خفيف ، والمطهم البارع الجمال والتام من كل شىء .

معطرَة صانها فى الحِجا ل مطارِفُ منْ سُندُس أَخضر
وبيضاء رَائقة غضَّة مُنقطة الوَجْه بالعصْفر
وحُق عقيق مَلاه الهجيـ رُ من الجوهر الرَّائِق الأَحمر
وأَقداح تبْر حشت قعرها يد الشمس بالمسك والعنبَر
فكنْ ذا قبول لها إنها هداها مُقلٌ إلى مكثرِ

وله فى صفة النارنج :

أَما ترى شجَر النَّارنْج طالعة نجومُها فى غُصون لدنة مِيل(١)
كأَنها بين أَوراق تحفُّ بها زُهرُ المصابيح فى خضر القناديل

ولأَبى الفضل الميكالى فى صفة الشقائق :

تصوغ لنا كفُّ الربيع حدائقاً كعِقد عقيق بين سمِط لآلِى
وفيهنَّ أَنوارُ الشقائق قد حكتْ خدود عذارَى نقطتْ بغوالِى

وله فى اقتران الزهرة والهلال :

أَما ترى الزهرة قد لاحت لنا تحت هلال لونه يحكى اللهبْ
ككرة من فِضة مجلوَّة أَوْفى عليها صَولجانٌ من ذَهبْ (٢)

وله فى الفجر :

أَهْلا بِفجر قد نضا ثوب الدُّجى كالسيف جُرِّد من سواد قرَابِ

وقال فى صفة الندى الساقط على غصون الشجر :

نثر السحاب على الغُصون ذرارةً أَهدَتْ لها نورًا يروقُ ونُورا
شابتْ ذوائبُها فعُدْن كأَنها أَجْفانُ عين تحْملُ الكافورَا

وقال فى الجليد :

رُبَّ جنين من جنِىِّ نميرِ مُهتك الأَستار والضمير

(١) ميل : جمع أمل .
(٢) أوفى : أشرف .

سللته منْ رَحم الغدير كأَنهُ صحائف البلورِ
لو اكرٌ تجَسَّمت من نور أَو قطع من خالص الكافور
لو بَقيتْ سلكا على الدهور لعطلت قَلائِد النُّحور
وأخجلت جَواهر البحور وسُمّيت ضرائر الثغور(١)
يا حُسْنه فى زمن الحدور إذْ فيضه مثل حشا المهجور
يُهدى إلى الأَكباد والصُّدور روحاً تحاكى نفثة المصدور(٢)

ولأَبى طاهر بن الهاشمى فى روضة :

ورَوْضة زارها النِّدَى فغدَت لها من الزهر أَنجمٌ زهر
تَنشر فيها أَيدى الربيع لنا ثوباً من الوَشى حاكه القطر
كأَنما شق من شقائقها على رباها مَطارف خضر
ثم تبدَّت كأَنها حدَقٌ أَجفانها من دمائها حُمر

ولأَبى نصر سهل بن المرزبان فى البدر :

كم ليلة أَحييتها مُؤانِسى طُرف الحديث وطيب حث الأَكؤس
شبهتُ بدرَ سمائها لما دَنت مِنه الثُّريا فى قميص سُندسى
مَلكاً مهيباً قاعدًا فى رَوضة حَياه بعض الزائرين بنرجس

وللحسن بن أَحمد البروجردى فى حوض لبعض الرؤساءِ :

حَوض يَجود بجوهر متسلسلٍ ساد الجواهرَ كلها بنفاسَته
لا زال عذباً جارياً ببقاءِ من هو مثله فى طبعه وسلاسَته

ولابن أَنيس فى حسام عمر بن معد يكرب :

أَخضر المتنِ بَينَ حَدَّيْه نورٌ من فِرْند تحار فيه العيون

---

(١) ضرائر : جمع ضرة وهى احدى زوجتى الرجل وأراد بضرائر الثغور الأسنان .
(٢) النفثة ما ينفثه المصدور من فيه .

أوقِدت فيه للصَّواعِقِ نَارٌ ثم ساطت به الزُّعاف المنونُ(١)
فإذا ما سَللته بَهَر الشَّمْـ ـس ضِياء فلم تكد تستبين
فكأَنَّ الفرِند والرَّونق الجا رى فى صفحتيه ماءٌ معين(٢)
وكأَنَّ المنون نيطت إليه فهو من كل جانبيه منون
ما يُبالى مَن انْتضاهُ لحرب أشمالٌ سطت به أم يمين

وقال ابن عبد ربه فى الرمح والحسام :

بكلِّ رُدَينى كأَنَّ سِنانَه شِهاب بَدَا فى ظُلمة الليل ساطع
تقاصرَت الآجال فى طول مَتْنه وعادت به الآمال وهى فَجَائع
وساءت ظنون الحرب فى حُسن ظنه فهُنَّ لِحِبَّات القلوب قوارع
وذى شطب تقضى المنايا لحكمه وليس لما تقضى المنِيَّة دافع(٣)

وقال أيضاً فى الحرب :

ومُعترك تهزُّ به المنايا ذكورَ الهند فى أَيدى ذُكورِ
لوامعُ يُبصرُ الأعمى سَناها ويعمى دونها طرْفُ البصيرِ
يُحَوِّمُ حولها عِقبانُ موت تخطَّفت القلوب من الصُّدُورِ

ومن قوله فى الحرب وأَبطالها :

سُيوفٌ يقيلُ الموْتَ تحت ظباتِهَا لها فى الكُلى وبين الكلى شِرْبُ
إذا اصْطفتِ الرَّاياتُ حُمراً مُتونها ذَوائبها تهفو فيهفو لها القلب(٤)
ولم تنطق الأَبطال إلا بفعلها فـأَلسنهَا عُجمٌ وأَفعالها عُرْب
إذا ما التقوا فى مأْزق وتعانقوا فلقيَاهُم طعْن وتعنيفهم ضَرْب

---

(١) هطلت . (٢) جـارا . (٣) جمع شطب وهى طـرفة السيف أى الواحدة من الخطوط التى فى نصله . (٤) هفت الراية خفقت وهفا القلب ذهب فى أثر الشىء .

ولابن قلاقس فى وصف السحاب والبرق والغيث :

سرى وجَبينُ الجو بالطلِّ يرشح ... وثوبُ الغوادى بالبروقِ موشحُ
وفى طَىِّ أَبراد النسيم خَمِيلَةٌ ... بأَعطافها نور المنى يَتَفَتَّح(١)
يضاحك فى مثنى المعاطفُ عارضٌ ... مدامعه فى وجنة الرَّوْض تسفَح
وتورى به كفُّ الصِّبا زند بارقٍ ... شرَارتهُ فى فحمَةِ الليلِ تَقدح

ولأَبى القاسم بن بابك فى الصاحب يصف له إضرام النار فى بعض غياض :

وليلة بتُّ أَشكو الهم أَولها ... وعُدت آخرها أَستنجدُ الطرَبا
فى غيضة من غياض الْحُزن دانية ... مدَّ الظَّلام عَلَى أَوراقها طنبا
حتى إذا النارُ طاشت فى ذوائبها ... عاد الزُّمُرُّدُ من عيدانها ذهبا
مرقت منها وثغر الصُّبْح مُبْتسمٌ ... إلى أَغَرّ يرى الْمَذْخُور ما وهبا
يا أَغْزَر الناسِ أَنوَاء ومحتلباً ... وأَشرف الناس أَعراقاً ومُنْتسبا
أَصبحتُ ذا ثقة بالوفر منك وإن ... قال العوَاذِلُ ظَنٌّ ربما كذبا
فحسن ظنى بك استوفى مدى أَملى ... وحُسن رأْيك لى لم يُبق لى أَربا

ومن قصيدة لأَبى سعيد الرُّستمى يصف بها دارًا بناها الصاحب بن عباد :

وساميةِ الأَعلام تلحظ دونها ... سنا النجم فى آفاقها متضائلا
نسخت بها إيوان كسرى بن هرمز ... فأَصبح فى أَرض المدائن عاطلا
تناطح قرى الشمس من شرفاتها ... صفوف ظباءٍ فوقهن موائلا
وأَغنى الورى عن منزل من بنت له ... معاليه فوق الشعريين منازلا
ولا غرو أَن يستحدث الليث بالثرى ... عريناً وأَن يستطرق البحر ساحلا
ولم تعتمد دارًا سوى حومة الوغى ... ولا خدماً إلا القنا والقنابلا

---

(١) الخميلة : الشجر الكثير الملتف والموضع الكثير الشجر .

ووالله ماأرضى لك الدهر خادماً ... ولا البدر مُنْتاباً ولا البحرَ نائلا
ولا الفلك الدَّوَّار داراً ولا الورى ... عبيدًا ولا زُهْر النُّجوم قبائلا
فإن الذى يبنيهِ مثلكَ خالدٌ ... وسائر ما يبنى الأَنامُ إلى بلى

ولشاعر القطرين خليل مطران فى وصف روض :

أَيها الرَّوض كن لقلبى سلاماً ... وملاذًا منَ الشقاءِ الملازم
زهرٌ وابلٌ كأَنى أَراهُ ... ثملا من أَنفاسهِ فى الكمائم
وغديرٌ صافٍ أَقامَ سياجاً ... حولهُ بَاسِقٌ من الدَّوح قائم
تتناغى بيض من الطير فيه ... سابحاتٌ وتحتها النَّجم عائم
كيفما سرن فالطريق عقودٌ ... نظمت من مَحاجِر ومباسم
حَبَّذَا البدرُ مُؤنساً يَتجلى ... كحَبيب بعدَ التغيب قام
حبذا رَسمهُ البرايا كأَبهى ... ما ترى العينُ فى صحيفةِ راسم
حبذا الماءُ والمصابيحُ فيه ... كَبنان يزينها بخواتم
جنة بانت المكاره عنها ... وهى بِكر مِن الأَذى والمحارِم
إنما أَهلها طيور حسان ... إن دعاها الصباح قامت تُنادم
وضياءٌ يموج فى الماءِ حتى ... لتراهُ كأَنه مُتَلاطِم
ومُرُوج مدبجاتَ كوشى ... أَتقنت صنعه حسان المعاصم
وغصون تَهزُّهَا نسمات ... كمهودٍ تهزهُنَّ رَوائم(١)

وقال البحترى واصفاً صناعة الكتابة والإنشاءِ :

تفننت فى الكتابة حَتَّى ... عطل الناس فن عبد الحميد
فى نظام من البلاغة ما شـ ... ـك امرؤٌ أَنه نظام فريد

(١) جمع الرائمة وهى الوالدة العاطفة على ولدها الملازمة له .

وبديع كأنه الزهر الضا حِك فى رونق الربيع الجديد
مُشرق فى جوانب السمع ما يُخْ لقَه عودُه على المستعيد
ما أعيرت منه بطون القراطيس وما حملت ظهور البريد
حججٌ تخرس الألد بألفـ اظ فرادى كالجوهر المعدود
ومعان لو فصلتها القوافى هجنت شعر جرْول ولبيد
حُزْن مستعمل الكلام اختيارا وتجنبن ظلمة التعقيد
وركِبن اللفظ الغريب فأدرك ن به غاية المرادِ البعيد
كالعذارى غدون فى الحلل البيـ ض إذا رحن فى الخطوط السُّود

ووصف أعرابى تزوج امرأتين ما وقع له منهما فقال :

تزوجت اثنتين لفرط جهلى بما يشقى به زوج اثنتين
فقلت : أصير بينهما خرُوفا أنعم بين أكرَم نعجتين
فصرت كنعجة تضحى وتمسى تداول بين أخبث ذئبتين
رِضا هذى يهيِّج سخط هذِى فما أعرى من إحدى السخطتين
وألقى فى المعيشة كل ضر كذاك الضر بين الضرَّتين
لهذى ليلة ولتلك أُخْرى عتاب دائم فى الليلتين
فإن أحببت أن تبقى كريماً من الخيرات مملوء اليدين
فعِشْ عزباً فإن لم تستطعه فضرباً فى عراض الجحفلين(١)

وقال أبو تمام حبيب بن أوس الطائى فى وصف الربيع :

يا صاحِبَيَّ تقصيا نظريكما تريا وُجُوه الأرض كيف تصوَّرُ
تريا نهارا مشمساً قد زانه زهر الرُّبا فكأنما هو مُقْمِرُ
دنيا معاش للورى حتى إذا حلَّ الرَّبيع فإنما هى مَنظرُ

(١) الرواية التى أحفظها فى تمام هذا البيت : فواحدة تكفى عسكرين . اهـ مصححه .

أَضحت تصوغ بطونها لظهورها ... نورًا تكاد له القلوب تنوَّرُ
من كل زاهرة ترقرق بالنَّدى ... فكأَنها عين لديك تحدر

وقال أَبو عبادة البحترى فى قصر المعتز بالله :

لما كملت روية وعزيمة ... أَعملت رأْيك فى ابتناءِ الكامل
وغدَوْت من بين الملوك موفقًا ... منه لأَيمن حلة ومنازل
ذُعر الحمام وقد ترنم فوقه ... من منظر خطر المزلة هائل
رفعت لمخترق الرِّياح سموكه ... وزهت عجائب حسنِه المتخايل
وكأَن حيطان الزجاج بجودِ ... لججٌ يمجن على جنوب ساحل
وكأَن تفويت الرخام إِذا التقى ... تأْليفه بالمنظر المتقابل
حبك الغمام رصفْن بين مُنمَّر ... ومُسيَّر ومقارب ومُشاكِل
لبست بالذهب الصقيل سقوفه ... نورًا يضىءُ على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن فى ذى رونق ... مُتلهب العالى أَنيق السافل
وكأَنما نشرت على بُسْتانِهِ ... سبراء وَشْى اليمنة المتواصل
أَغْنتهُ دجلة إِذ تلاحق فيضها عن ... صوب منسحب الرباب الهاطل
وتنفست فيه الصبا فتعطفت ... أَشجارُه من حول وحوامل

وقال المتنبي فى جواد :

ويوم كلوْن المدنفين كمنته ... أُراقب فيه الشمس أَيان تغرب
وعينى إِلى أَذانى أَغر كأَنه ... من الليل باق بين عينيه كوكب
له فضلة من جسمه فى إِهابه ... تجىءُ على صدر رَحيب وتذهب
شققت به الظلماءَ أُدنى عنانه ... فيطغى وأَرخيه مرارا فيلعب
وأَصرعُ أى وحْش قفيت به له ... وأَنزل عنه مثله حِينَ أَركب

وما الخيل إلا كالصديق قليلة ... وإن كثرَت فى عين مَنْ لا يجرب
إذا لم نشاهد غير حسن شياتها ... وأَعضائها فالحسن عنك مغيب

وقال صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ فى الربيع :

ورد الربيع فمرحباً بِورُوده ... وبنور بهجته ونور وروده
وبحسن منظره وطيب نسيمه ... وأَنيق مبسمه ووشى بروده
فصلٌ إذا افتخر الزمان فإِنه ... إنسان مقلته وبيت قصيده
يغنى المزاج عن العلاج نسيمه ... باللطف عند هبوبه وركوده
يا حبَّذَا أَزهاره وثماره ... ونبات ناجمه وحبٌّ حصيده
والغُصْنُ قد كسى الغلائل بعدما ... أَخذت يدا (كانون) فى تجريده
نال الصبا بعد المشيب وقد جرى ... ماءُ الشبيبة فى منابت عوده
الورد فى أَعلى الغصون كأَنه ... ملكٌ تحفُّ به سراة جنوده
وانظر لنرجسه الجنى كأَنه ... طرف تنبه بعد طول هجوده
وانظر إلى المنثور فى منظومه ... متنوعاً بفصوله وعقوده

وقال أَيضاً فى حديقة :

وأَطلق الطير فيها سجع منطقه ... ما بين مختلف منه ومتفق
والظلُّ يسرق بين الدوح خطوته ... وللمياه دبيبٌ غير مسترق
وقد بدا الورد مفترا مباسمه ... والنرجس الغض فيها شاخص الحدق
والسحب تبكى وثغر البرق مبتسم ... والطير تسجع من تيه ومن أَنق
فالطير فى طرب والسحب فى حرب ... والماءُ فى هرب والغصن فى قلق

وقال المرحوم أَحمد شوقى فى الطبيعة :

تلك الطبيعة قف بنا يا سارى ... حتى أُريك بديع صنع البارى

فالأَرض حولك والسماءُ اهتزتا ... لروائع الآيات والآثار
ولقد تمرُّ على الغدير تخاله ... والنبت مرآةٌ زهت بإِطار
حلوِ التسلسل موجه وخريرُه ... كأَنامل مرت على أَوتار
ينساب فى مخضلة مبتلةٍ ... منسوجة من سندس ونضار
وترى السماءَ ضحى وفى جنح الدجى ... مُنشقة عن أَنهر وبحار
فى كل ناحية سلكت ومذهب ... جبلان من صخر وماء جارى

وقال حافظ إبراهيم يصف النيل :

نظرت للنيل فاهتزت جوانبه ... وفاض بالخير فى سهل ووديان
يجرى على قدر فى كل منحدرٍ ... لم يجف أَرضاً ولم يعمد لطغيان
كأَنه ورجال الرَّى تحرسه ... مملك سارَ فى جند وأَعوان
قد كان يشكو ضياعاً مذجرى طلقاً ... حتى أَقمت له خَزَّان أَسوان

وقال أَيضاً عن لسان حال اللغة العربية واصفاً لها :

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى ... وناديت قومى فاحتسبت حياتى
رمونى بعقم فى الشباب وليتنى ... عقمت فلم أَجزع لقول عداتى
ولدت ، ولما لم أَجد لعرائسى ... رجالا وأَكفاء وأَدت بناتى
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أَضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أَسماء لمخترعات
أَنا البحر فى أَحشائه الدرُّ كامنٌ ... فهل سأَلوا الغوَّاص عن صدفاتى
فيا ويحكم أَبلى وتبلى محاسنى ... ومنكم وإن عز الدواءُ أَساتى
فلا تكلونى للزمان فإِننى ... أَخاف عليكم أَن تحين وفاتى
أَرى لرجال الغرب عزًّا ومنعة ... وكم عز أَقوام بعز لغات
أَتوا أَهلهم بالمعجزات تفَنُّنًا ... فياليتكم تأْتون بالكلمات

أيطربكم من جانب الغرب ناعبٌ ... يُنادى بوأْدى فى ربيع حياتى

ولو تزجرون الطير يوماً علمتمُ ... بما تحته من عثرة وشتات

سقى الله فى بطن الجزيرة أعظماً ... يعزُّ عليها أن تلين قناتى

حفظن ودادى فى البلى وحفظتهُ ... لهُنَّ بقلب دائم الحسرات

وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق ... حياءً بتلك الأعظم النخرات

أرى كل يوم بالجرائد مزلقاً ... من القبر يُدْنينى بغير أناة

وأسمع للكتاب فى مصر ضجةً ... فأعلمُ أن الصائحين نُعاتى

أيهْجُرُنى قومى عفا الله عنهمُ ... إلى لُغة لم تتصل برُواتى

سرت لوثة الأعجام فيها كماسرى ... لعابُ الأفاعى فى مسيل فرات

فجاءت كثوب ضمَّ سبعين رُقعة ... مشكلةَ الألوانِ ، مختلفات

إلى معشر الكُتاب والجمع حافل ... بسطتُ رَجائى بعد بسط. شكاتى

فإما حياةٌ تبعث الميت فى البلَى ... وتُنبِتُ فى تلك الرُّمُوس رُفاتى

وإما مماتٌ لاقيامةَ بعده ... مماتٌ لعمرى لم يُقس بممات

وقال شاعر العراق الكبير المعروف الرصافى واصفاً قطار البخار :

وقاطرة ترمى الفضا بدُخانها ... وتملأُ صدر الأرض فى سيرها رُعبا

تمشت بنا ليلا تجُرُّ وراءها ... قطارًا كصف الدَّوح تسحبهُ سحبا

فطوراً كعصب الريح تجرى شديدة ... وطوراً رُخاءً كالنسيم إذا هبَّا

تساوى لديها السهل والصعب فى السرى ... فما استسهلت سهلا ولا استصعبت صعبا

تَدك مُتُون الحزن دكا وإنها ... لتنهبُ سهل الأرض فى سيرها نهبا

يمرُّ بها العالى فتعلو تسلقاً ... ويعترض الوادى فتجتازه وثباً

طوت بالمسير الأرضَ حتى كأنها ... تسابق قرص الشمس أن تدرك الغربا

هو العلمُ يعلو بالحياة سعادة ... ويجعلها كالعام محمودة العُقْبى

وقال المرحوم محمود سامى البارودى يصف حرب سكان جزيرة كريد :

أَخذَ الكرَى بمعاقد الأَجفان ... وهفا السُّرَى بـأَعنةِ الفرسان
والليلُ منشور الذوائب ضاربٌ ... فوق المتالع والربى بجران
لا تستبينُ العينُ فى ظلمائه ... إلا اشتعال أَسنة المران
تسرى به ما بين لُجَّة فتنةٍ ... تسمو غواربها على الطوفان
فى كل مربـأَةٍ وكل ثنيةٍ ... تهدار سامرةٍ وعزف قيان
تستن عادية ويصهل أَجردٌ ... وتصيح أَجراسٌ ويهتفُ عان
قومٌ أَبى الشيطانُ إلا خسرهم ... فتسللوا من طاعة السلطان
ملئوا الفضاءَ فما يبينُ لناظر ... غيرُ التماع البيض والخرْصان
فالبدرُ أَكدرُ والسماءُ مريضةٌ ... والبحرُ أَشكلُ . والرماحُ دوانِ
والخيل واقفة على أَرْطانها ... لطراد يوم كريهة ورهان
وضعوا السلاح إلى الصباح وأَقبلوا ... يتكلمون بـأَلسن النيران
حتى إذا ما الصبحُ أَسفر وارتمت ... عيناى بين رُبى وبين مَجانِ
فإذا الجبالُ أَسنة ، وإذا الوها ... دُ أَعنةٌ ، والماء أَحمرُ قان
فتوَجَّست فرط الركاب ولم تكن ... لتهابَ ، فامتنعت على الإِرسان
فزَعتْ فرجعتْ الحنين وإنما ... تحنانها شجنٌ من الأَشجان
ذكرت مواردها بمصر وأَين من ... ماءٍ بمصر منازلَ الرُّومان

وقال السيد عبد الله النديم المتوفى سنة ١٣١٤ هـ يصف قطارًا بخاريًّا :

نظر الحكيمُ صفاتِهِ فتحيرا ... شكلا كطود بالبُخار مسيرا
دوماً يحنُّ إلى ديار أُصوله ... بحديد قلب باللهيب تسعرا
ويظلُّ يبكى والدموع تزيده ... وجدًا فيجرى فى الفضاءِ تسترًا
تلقاه حالَ السير أَفعى تَلتوى ... أَو فارس الهيجا أَثار العثيرًا

أَو أَكَرَةً أَرسلتها ترْمى بها غرضاً فجلت أَن ترى حال السرى
أَو سبع غاب قد أَحسَّ بصائِد فى غابه فعدا عليه وزمجرا
فكأَنه المديون جاءَ غريمه فانسلَّ منه وغاب عن تلك القرى
أَو أَنه شهبٌ هوت من أُفقها أَو قبة المنطاد تنبذ بالعرا
لا عجب للنيران إذ يمشى بها فمن اللظى تجرى الورى كى تحشرا

وقال أَحمد شوقى يصف الجسر الواصل بين صفتى البسفور فى الآستانة :

أَمير المؤمنين رأَيت جسرًا أَمرُّ على الصراط ولا عليه !
له خشب يجوع السوس فيه وتمضى الفأْر لا تأْوى إليه
ولا يتكلف المنشار فيه سوى مرِّ الفطيم بساعديه
ويبلى نعل من يمشى عليه وقبل النعل يدمى أَخمصيه
وكم قد جاهد الحيوان فيه وخلف فى الهزيمة حافريه
وأَسمجُ منه فى عينى جُباة تراهم وسطه وبجانبيه
إذا لاقيت واحدُهم تصدَّى كعفريت يُشيرُ براحتيه
ويمشى (الصَّدر) فيه كل يوم بموكبه السنىِّ وحارسيه
ولكن لا يمر عليه إلا كما مرَّت يداه بعارضيْه
ومن عجب هو الجسر المعلى على (البسفور) يجمع شاطِئيه
يفيد حكومة السلطان مالا ويُعطيها الغنى من مَعْدنيه
يجود العالمون عليه ، هذا بعشرَتِه ، وذاك بعشرتيه
وغاية أَمره أَنا سمعنا لسان الحال ينشدنا لديه
(أَليس من العجائب أَن مثلى يرى ماقلَّ ممتنعاً عليه)
(وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شئٌ فى يديه)

وقال المأمون المتوفى سنة ٣٨٣ هـ يصف المقرَاض :

وصاحبين اتفقا على الهوى واعتنقا
وأَقسما بالودِّ والإِ خلاص أَن لا افترقا
ضمهما أَزهرٌ كالنجـــم به قد وثقا
لم يَشك خصرهما مذ ضمناه قلقا
من تحته عينان منــــذ انفتحا ما انطبقا
وفوْقه نابان ما حلا فماً مُذْ خُلِقا
يُفرِّقان بين كـ لِّ ما عليه اتفقا
فأَىُّ شىءٍ لاقيا هُ أَلقياهُ فِرَقا

وقال أَبو بكر الأَرجانى المتوفى سنة ٥٢٤ هـ يصف الشمعة :

نمتْ بـأَسرار ليلٍ كان يخفيها وأَطلعت قلبها للناس من فِيها
غريقة فى دموع وهى تحرقها أَنفاسها بدوامٍ من تلظيها
تنفستْ نفس المهجور إذ ذكرت عهد الخليط. فبات الوَجْدُ يذكيها
يخشى عليها الرَّدى مهما أَلم بها نسيمُ ريح إذا وافى يُحيِّيها
قد أَثمرتْ وَرْدَة حمراءَ طالعة تجنى على الكف إن أَهْويت تجنيها(١)
وَرْدٌ تشاك به الأَيدى إذا قُطفت وما على غُصنها شَوكٌ يوفيها
صفرٌ غلائلها ، حُمرٌ عمائمها ، سودٌ ذَوَائبها بِيضٌ لياليها

وصف قصر المنصور :

قال ابن حَمْديس(٢) الصَّقلى فى صفة قصر شيده المنصور بن أَعلى

(١) تجنى الأول بمعنى تعتدى والثانية بمعنى تقطف .
(٢) هو عبد الجبار بن أبى بكر توفى سنة ٥٢٧هـ وهو من أبرع الشعراء ان لم يكن أبرعهم فى وصف البرك والأنهار والقصور والتماثيل فلقد كان اذا وصف شيئا من ذلك كالحسناء وخيالها فى المرآة .

الناس ببجاية[١] ، وجعل فيه بركة عليها أشجار من ذهب وفضة ، وعلى حافاتها أسود تقذف بالماء :

أَعمر بقصر الملك ناديك الذى   أَضحى بمجدك بيته معمورا
قصرٌ لو انك قد كحلتَ بنوره   أَعمى لعاد من الضِّياءِ بصيرا
واشتق مِن معنى الجنان نسيمهُ   فيكاد يُحدث بالعظامِ نشورا
أَذكرتنا الفردوس حين أَريتنا   غُرْفاً رفعت بناءها وقصورا
فلكٌ من الأَفلاك ، إلا أَنه   حقر البدور فأَطلع «المنصور»
وإذا الوَلائِدُ فتحت أَبوابه   جعلت ترحب بالعفاة صريرا[٢]
عضت على حلقاتهنَّ ضراغِمٌ   فغرت بها أَفواهها تكبيرا[٣]
فكأَنها لبدت لتهصر عندها   من لم يكن بدخولها مأْمورا[٤]
ومصفح الأَبواب تِبرًا نظَّرُوا   بالنقش فوق شكوله تنظيرا[٥]
خلعت عليه غلائل موشيةً   شمسٌ ترد الطرف عنه حسيرا[٦]
وإذا نظرت إلى غرائب سقفه   أَبصرت رَوْضاً فى السماءِ نضيرا
عجبت من أَطيار عَسْجدِهِ   حامت لِتبنى فى ذُرَاهُ وكورا
وضعت به صُنَّاعُها أَقلامها   فارتك كل طَريدة تصويرا[٧]
وكأَنما للشمس فيه ليقةٌ   مشقوا بها التزويق والتشجيرَا[٨]

---

(١) بجاية كحكاية : بلد بالمغرب . (٢) العفاة جمع عاف وهو طالب الحاجة ، والصرير صوت الباب . (٣) فغر فاه : فتحه .
(٤) لبد كنصر : أقام ، والهصر : الدفع . (٥) نظر مثل ، والشكول : جمع شكل . (٦) الغلائل : جمع غلالة وهى شبه القميص يلبس على الجسد والمراد هنا الطلاء ، والموشية المنقوشة .
(٧) الطريدة : ما يطارده الصياد ويتبعه . (٨) اللقة ما يكون فى الدواة لاصقا بصوفة أو نحوها والفعل منها كباع ، ومشق الكتابة مد حروفها ، والتشجير : ان تشكل على هيئة الشجر .

وضراغمٍ سكنت عرين رياسة | تركت خريرَ الماءِ فيه زئيرا
فكأَنما غشى النُّضار جسومها | وأَذاب فى أَفواهها البللورا
أُسْدٌ كأَن سكونها متحرِّك | فى النفس لو وَجدْت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأَنما | أَقعت على أَدبارها لتثورا (١)
وتخالها والشمس تجلو لونها | نارًا ، وأَلسنها اللوَاحس نورا
فكأَنما سلمت سيوف جداول | ذابت بلا نار فعُدْن غديرا
وكأَنما نسج النسيم لمائِه | درعاً ، فقدَّر سردَها تقديرا (٢)
وبديعة الثمراتِ تعبر نحوها | عيناى بحر عجائب مسحورا (٣)
شجريَّةٍ ، ذهبية نزعت إلى | سحر يؤثر فى النهى تأْثيرا (٤)
قد سُرجت أَغصانها فكأَنما | قبضت بهنَّ من الفضاءِ طيورا (٥)
وكأَنما تأْبى لوقع طيرها | أَن تستقلَّ بنهضها وتطيرَا (٦)
من كل واقعة ترى منقارها | ماءً كسلسال اللجين نميرا (٧)
خرسٌ تعد من الفصاح فإِن شدت | جعلت تغرد بالمياه صفيرا (٨)
وكأَنما فى كل غصن فضة | لانت فأُرسل خيطها مجرورا
وتريك فى الصهريج موقع قطرها | فوق الزَّبرْجد لؤلؤًا منثورا
ضحكت محاسنه إليك كأَنما | جعلت لها زهر النجوم ثغورا

---

(١) أفعى الكلب والسبع : جلس على مؤخرته ناصبا يديه .
(٢) السرد : نسج الدرع وتقديره : أن تكون ثقوب الدرع مساميرها .
(٣) المسجور : المملوء . (٤) نزع اليه أشبهه ، ويقال : فلان ينزع الى أبيه أو ينزع أباه أى يشبهه . (٥) سرجه : حسنه وزينه .
(٦) الوقع كركع : جمع واقع . (٧) السلسلة : اتصال الشيء بالشيء ، ومن ذلك الماء السلسال أى السهل الجريان ، واللجين : الفضة ، والنمير : الناجع من الماء . (٨) شدا : ترنم .

وصف زلزال صقلية

قال المرحوم حافظ إبراهيم يصف زلزال صقلية فى سنة ١٩٠٩ م :

نبئانى إن كنتما تَعلمان ... مادهى الكون أيها الفرقَدَان(١)

غضبَ الله أم تمرَّدت الأر ... ض فأنحت على بنى الإنسان(٢)

ليس هذا «سبحان ربى» ولا ذا ... ك ولكنْ طبيعةُ الأكوان

غليانٌ فى الأرض نفس عنه ... ثورانٌ فى البحر والبركانِ(٣)

ربٍّ أين المفر والبحْرُ والبـ ... رُّ على الكيدِ للورى عاملان

كنت أخشى البحارَ والموت فيها ... راصدٌ غفلة من الرُّبان(٤)

سابح تحتنا مُطل علينا ... حائم حولنا مناء مُدانى(٥)

فإذا الأرض والبحار سواءٌ ... فى خلاق ، كلاهما غادران(٦)

ما (لمسِّين) عوجلت فى صباها ... ودعاها من الردى داعيان(٧)

ومَحت تلكم المحاسن منها ... حين تمت آياتُها آيتانِ

خُسفتْ ثم أغرقتْ ثم بادت ... قضىَ الأمر كله فى ثوانى

وأتى أمْرها فأضحت كأن لم ... تكُ بالأمس زينةَ البُلدان

ليتها أُمهلت فتُقضى حقوقا ... من وداع اللدات والجيرانِ(٨)

لمحةٌ يسعد الصَّديقان فيها ... باجتماع ويلتقى العاشقان

---

(١) الفرقدان : نجمان فى السماء لا يغربان وهذا هو السر فى قول المعرى :

فاسأل الفرقدين عمن أحسا ... من قبيل وآنسا من بلاد

وفى أثره جرى شاعرنا . (٢) أنحى عليه ضربا : اقبل .

(٣) نفس عنه : فرج . (٤) الربان كرمان : رئيس الملاحين .

(٥) مناء مدان : مباعد مقارب . (٦) الخلاق : الحظ أو الدين وانما يكون ذلك فى الخير ولكن الشاعر توسع فى استعمال الكلمة .

(٧) مسين : مدينة من مدن صقلية خربها هذا الزلزال وتعرف عند العرب بمسينى ومن شعر ابن قلاقس « يا من يمسينى على مسينى » وداعيا الردى : الاغراق والاحراق . (٨) اللدات : جمع لدة وهو الترب أى النظير فى السن .

بغت الأَرض والجبال عليها وطغى البحر أيما طغيان
تلك تغلى حقدًا عليها فتنشـ قُّ انشقاقاً من كثرة الغليان
فتجيب الجبال رجماً وقذفا بشواظ من مارجٍ ودخان(١)
وتسوق البحار ردًّا عليها جيش موج نائى الجناحى دانى
فهنا الموت أَسود اللون جون وهنا الموت أَحمر اللون قانى(٢)
جَندَ الماءَ والثرى لهلاك الـ خلق ثمَّ استعان بالنيران
ودعا السحب عاتياً فأَمدتـ ـه بجيش من الصواعق ثانى(٣)
فاستحال النجاءَ واستحكم اليأ س وخارت عزائم الشُّجْعان
وشفى الموت غلة من نفوس لا تباليه فى مجال الطعان
أَين (رجيُو) وأَين ما كان فيها من مغانٍ مأهولة وغوانى(٤)
عوجلتْ مثل أُختها ودهاها ما دهاها من ذلك الثوران
رُبّ طفلٍ قد ساخ فى باطن الأَر ض ينادى أُمى ! أَبى ! أَدركانى(٥)
وفتاة هيفاءَ تشوى على الجمـ ـر تُعانى من حرّه ما تعانى
وأَبٌ ذاهلٌ إلى النار يمشى مُستميتاً تمتد منه اليدان
باحثاً عن بناته وبنيه مسرع الخطو مستطير الجنان(٦)
تأْكل النار منه لا هو ناج من لظاها ولا اللظى عنه وانى(٧)
غصَّت الأَرض ، أُتْخِمَ البحر مما طواه من هذه الأَبدان(٨)
وشكا الحوت للنسور شكاة ردَّدتها النسور للحيتان

(١) الشواظ : لهب لا دخان فيه ، والمارج : النار بلا دخان .
(٢) الجون الأسود فهو تأكيد والقانىء « بالهمزة » : الشديدة الحمرة وقد يسهل . (٣) المعانى المجاوز للحد . (٤) رجيو : مدينة بايطاليا ، أما مسينى وتعرف عند العرب بربو ، والمغانى جمع مغنى وهو المقام . (٥) ساخ فى الأرض : دخل فيها وغاب .
(٦) المستطير : المتفرق المشتت . (٧) اللظى : اللهب ، وونى : تراخى . (٨) غص كفرح : اعترض فى حلقه شىء ، والمراد هنا امتلأت وأتخمه الطعام ، أحدث له تخمة وأصل تائه واو فهو من الوخامة.

أسرفا فى الجسوم نقرًا ونهشاً ثم باتا من كظة يشكوان(١)
لا رعى الله ساكن القمم الشـــمِّ ولا حاط ساكن القيعان(٢)
قد أغارا على أكف براها بارئ الكائنات للإتقان
كيف لم يرْحما أناملها الغُـــرِّ ولم يرْفقا بتلك البنان
لهف نفسى وألف لهف عليها من أكُف كانت صناع الزَّمان(٣)
مولعات بصيد كل جميل ناصباتٍ حبائل الألوان
حافراتٍ فى الصخر أو ناقشات شائدات روائع البُنيان
منطقات لسان كل جماد مفحماتٍ سواجع الأفنان(٤)
ملهمات من دقة الصنع مالا يلهم الشعر من دقيق المعانى
من تماثيل كالنجوم الدرارى يهدم الدهر وهى فى عُنفوان
عجبٌ صنعها وأعجب منه صمتها ، تلك قدرة الرحمن
إيه (مَسِّين) آنسى اليوم بُمْبا ى فقد أوحشت بذاك المكان
آيسى الدرة التى كانت الحليـــة فى تاج دولة الرومان
غالها قبلك الزمان اغتيالا وهى تلهو فى غبطة وأمان
جاءها الأمر والسرَاة عكوف فى الملاهى على غناء القيان(٥)
بين صبّ مدله وطرُوب وخليع فى اللهو مرخى العنان(٦)
فانطووا كانطواء أهلك بالأمـــس وزالت بشاشة العمران
أنت (مسينُ) لم تزولى كما زا لت ولكن أمسيت رهن الأوان

(١) الكظة : ما يعترى الانسان من امتلاء الطعام . (٢) القيعان جمع قاع وهو الأرض السهلة المطمئنة انفرجت عنها الجبال ومراد الشاعر بها البحر أو قراره . (٣) يالهفى على كذا : عبارة يتحسر بها على فائت وضمير عليها للأكف ومن أكف بيان للضمير وصناع : حاذقة ماهرة فى العمل اليدوى . (٤) سواجع الأفنان : الحمام يسجع على الغصون . (٥) السراة : الأشراف ، والقيان جمع قينة ، وهى الجارية المغنية . (٦) الخليع : المستهتر بالشراب واللهو .

إن إبطاليا بنوها بناةٌ فاطمئنى ما دام فى الحىِّ بانى

فسلام عليك يوم توليـ ـت بما فيك من مغان حسان

وسلام عليك يوم تعوديـ ـن كما كنت جنة الطليان

وقال أَبو الطيب المتنبي يصف الأَسد :

وردٌ إذا ورد البحيرة شارباً ورد الفرات زئيره والنِّيلا(١)

متخضب بدم الفوارس لابس فى غيله من لبدتيه مغيلا(٢)

ما قوبلت عيناه إلا ظنتا تحت الدجى نار الفريق حلولا(٣)

فى وحدة الرهبان إلا أَنه لا يعرف التحريم والتحليلا

بطأَ الثرى مترفقاً من تيهه فكأَنه آس يجسُ عليلا(٤)

ويرد عفرته إلى يافوخه حتى تصير لرأْسه إكليلا(٥)

وتظنُّه مما يزمجر نفسه عنها بشدة غيظه مشغولا

قصرت مخافته الخطى فكأَنما ركب الكمى جواده مشكولا(٦)

وصف شعب بوَّان(٧) :

قال أَبو العباس المبرد : كنت مع الحسن بن رجاء بفارس ، فخرجت إلى شعب بوان ، فنظرت إلى تربة كأَنها الكافور ، ورياض كأَنها الثوب الموشى وماء يتحدَّر كأَنه سلاسل الفضة ، على حصباء كأَنها حصى الدرِّ ، فجعلت أَطوف فى جنباتها ، فإذا فى بعض جُدرانها مكتوب :

---

(١) الورد : الجرىء والبحيرة : يريد بها بحيرة طبرية .

(٢) الغيل : الأجمة والشجر الكثير المتلف . ولبدتا الأسد ، ما على كتفيه من الشعر . (٣) الفريق الجماعة ، وحلولا : حال من الفريق .

(٤) الآسى : الطبيب . (٥) غفرة الأسد : الشعر المتجمع على قفاه.

(٦) الكمى : الشجاع المستتر فى سلاحه والمشكول : المقيد .

(٧) هو جنان الدنيا الأربع عند أدباء العرب .

إذا أَشرف المكروب من رأس تلعة على شعب بوان أَفاق من الكرب (١)
وأَلهاه مرجٌ كالحرير لطافة ومطرد يجرى من البارد العذب
وطيب رياض فى بلاد مريعة وأَغصان أَشجار جناها على قرب (٢)

وفى شعب بوَّان يقول المتنبى :

مغانى الشعب طيباً فى المغانى بمنزلة الربيع من الزمان (٣)
طبت فرساننا والخيل حتى خشيت وإن كرمن من الحران (٤)
عدونا تنفض الأَغصان فيها على أَعرافها مثل الجمان
فسرت وقد حجبن الشمس عنى وجئن من الضياءِ بما كفانى
وأَلقى الشرق منها فى ثيابى دنانيرا تفرُّ من البنان (٥)
وأَمواهٌ تصلُّ بها حصاها صليل الحلى فى أَيدى الغوانى
إذا غنى الحمامُ الوُرق فيها أَجابته أَغانىُّ القيان
يقول بشعب بوَّانٍ حصانى أَعنْ هذا يسار إلى الطعان

وقال حافظ إبراهيم يصف طيارة :

يجرى بسابحة تشد قُ سبيلها شقَّ الإزار
وتكاد تقدح فى الأَث ير فيستحيل إلى شرار (٦)
مثل الشهاب انقض فى آثار عفريت وطار

(١) التلعة : ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها والمراد الأول .
(٢) المريعة الخصيبة ، والميم أصلية يقال : مرعت الأرض وأمرعت.
(٣) المغانى جمع مغنى اسم مكان من غنى أى أقام .
(٤) طباه وأطباه : استهواه واستماله . (٥) يقول : ان اشتباك الأغصان يجعل ما يسقط من ضوء الشمس دوائر صغيرة كالدنانير الا انها لا يمكن تناولها . (٦) الشرار والشرر : ما يطاير من النسار واحدتهما شرارة .

فإذا علت فكدعوة الـ ... مُضطرَ تخترق الستار
وإذا هوت فكما هوت ... أنثى العِقاب على الهزار[١]

وصف السيف للمرحوم البارودى :

أَمضى به الهول مقداما ويصحبنى ... ماضى الغرار إذا ما استفحل الوهل[٢]
يمرُّ بالهام مرَّ البرق فى عجل ... وقت الضراب ولم يعلق به بلل
ترى الرجال وقوفاً بعد فتكته ... بهم يظنون أَحياءُ وقد قتلوا
كأَنه شعلة فى الكف قائمةٌ ... تهفو بها الريح أَحيانا وتعتدل
لولا الدماءُ التى يُسقى بها نهلا ... لكاد من شدة اللألاءِ يشتعل
يفلّ ما بقيت فى الكف قبضته ... كل الحديد ولم يثأَر به فلل

وقال على بن محمد الأَيادى يصف أَسطول القائم الفاطمى المتوفى سنة ٤٣٣ ﻫ :

أَعجب بأسطول الإمام محمد ... وبحسنه وزمانه المستغرب
لبِست به الأَمواج أَحسن منظر ... يبدو لعين الناظر المستعجب
من كل مشرفة على ما قابلت ... إشراف صدر الأَجدل المتنصب[٣]
دهماءُ قد لبست ثياب تصنع ... تسبي العقول على ثياب ترهب[٤]
من كل أَبيض فى الهواءِ منشرٌ ... منها وأَسحم فى الخليج مُغيَّب
كمُلاءة فى البر يقطع سيرها ... فى البحر أَنفاح الرياح الشذَّبِ[٥]

(١) العقاب : طائر جارح وجمعه عقبان ، ولفظه مؤنث ، والأنثى منه تسمى اللقوة والذكر يسمى الفرن وهو ضعيف وانما اللقوة للأنثى ، ومن هذا يتبين السر فى قول شاعرنا أنثى العقاب . (٢) الغرار : حد السيف ونحوه ، الوهل : الفزع . (٣) الأجدل : الصقر ، جمعه أجادل ، والمتنصب : المنتصب . (٤) يشير الى لون السفن الذى هو السواد الشبيه بلباس الرهبان والى لون أشرعتها الذى هو البياض .
(٥) الشذب : جمع شاذب وهو الذى يطرد ويبعد أى الرياح التى تقذف على وجه الأرض وهذا كناية عن الشدة .

محفوفة بمجادِف مصفوفة | فى الجانبين دُوَينَ صلبٍ صُلب[١]
كقوادم النسر المرفرف عريت | من كاسيات رياشه المتهذب[٢]
وتحثها أَيدى الرجال إذا ونت | بمصعد منه بعيد مصوب[٣]
خرقاءُ تذهب إن يدٌ لم تهدها | فى كل أَوْبٍ للرياح ومذهب[٤]
جوفاءُ تحمل كوكباً فى جوفها | يوم الرهبان وتستقل بموكب
ولها جناحٌ يستعار يُطيرها | طوع الرياح وراحة المتطرب
يعلو بها حدب العباب مطارةً | فى كل لجٍّ زاخر مُغلوْلب[٥]
تسمو بأَجرد فى الهواءِ مُتوج | عريان منسوج الذؤابة شوذَب[٦]
يتركب الملاح منه ذبابة | لو رام يركبها القطا لم يركب[٧]
فكأَنما رام استراقة مقعد | للسمع إلا أَنه لم يشهب
وكأَنما جن ابن داوود هُمُ | ركبوا جوانبها بأَعنف مركب
سجروا جواحم نارهم فتقاذفوا | منها بأَلسن مارج متلهب[٨]
من كل مسجور الحريق إذا انبرى من | سجنه انصلت انصلات الكوكب[٩]
عريان يقدمه الدخان كأَنه | صبح يكر على الظلام الغيهب
ولواحق مثل الأَهلة جنحٌ | لحق المطالب فائتات المهرب[١٠]
يذهبن فيما بينهن لطافة | ويجئن فعل الطائر المتغلب

---

(١) الصلب كسكر مبالغة فى الصلب . (٢) الرياش : اللباس الفاخر والمراد هنا ريش الطائر ، والمتهذب : ذو الأهداب ونسر أهدب ، أى سابغ الريش . (٣) صعد الشيء رفعه ، وصوبه : خفضه .
(٤) الأوب الجهة والطريق والمتطرب الحادى الذى يتغنى فى سوق الابل والمراد هنا الربان . (٥) حدب الماء تراكبه فى جريه والمغلولب : الكثير ، يقال : اغلولب القوم اذا أكثروا . (٦) الشوذب : الطويل والبيت يصف فيه القرية كهدية وهى العود الطويل الذى يشبك القلع .
(٧) ذبابة السيف : طرف حده والمراد طرف القرية .
(٨) سجر : ملأ ، الجاحم : الجمر الشديد الاشتفال .
(٩) انصلت : مضى وسبق . (١٠) اللحق : جمع لاحق ، كخدم: جمع خادم .

كنضانض الحيَّات رُحْنَ لواعبا حتى يقعن ببرك ماءِ الميزَب
شرجوا جوانبها مجادف أتعبت شادى الرياح لها ولما تتعب(١)
تنصاع من كثب كما نفر القطا طورًا وتجتمع اجتماع الربرب(٢)
والبحر يجمع بينها فكأنه ليلٌ يقرب عقرباً من عقرب
وعلى جوانبها أسواد خلافة تختال فى عدد السلاح المرهَب
فكأنما البحر استعار بزيِّهم ثوب الجمال من الربيع المذهَب

وصف القطار الحديدى

وقال المرحوم حافظ بك إبراهيم يصف القطار الحديدى من قصيدة :

صفحة البرق أومضت فى الغمام أم شهاب يشق جوْف الظلام
أَم سليل البخار طار إلى القصد فأعيا سوابق الأَوهام(٣)
مر كاللمح تكد تقف العين على ظل جِرمه المترامى(٤)
أو كشرخ الشباب لم يدر كاسيه تولى فى يقظة أو منام(٥)
لا يبالى السرى إذا اعتكر الليل وخانت مواقع الأقدام(٦)
يقطع البِيدَ والفيافى وحيدًا لم تضعضعه وحشة الإظلام(٧)
ليس يثنيهِ ما يذهب دماغ الضب يوم الهجير بين الموامى(٨)
لا ولا يعتريه ما يخرس النابح فى الزمهرير بين الخيام
هائماً كالظليم أزعجه الصيد وراعته طائشات السهام(٩)

(١) شرج العيبة أدخل بعض عراها فى بعض والمراد هنا شبكوا فى جوانبها المجاذيف والشادى : السائق . (٢) انصاع القوم : ذهبوا سراعا أو انفلتوا والربرب : القطيع من بقر الوحش . (٣) السليل : الولد . (٤) المترامى : المتتابع . (٥) شرخ الشباب أوله .
(٦) السرى سير عامة الليل ، واعتكر الليل : اشتد سواده .
(٧) البيد : جمع بيداء وهى الصحراء والفيافى : جمع فيفاء وهى المفازة لا ماء فيها . (٨) الموامى جمع موماة وهى الفلاة ، والضب : حيوان من أخص صفاته احتمال الحر الشديد . (٩) الظليم : ذكر النعام.

فهو يشتد فى النجاء ويهوى حيث ترمى بجانبيه المرامى[١]
ياحديدًا ينساب فوق حديد كانسياب الرّقطاء فوق الرغام[٢]
قد مسحت البلاد شرقاً وغرباً بذراعى مُشمِّر مقدام

وقال حفنى بك ناصف المتوفى عام ١٩١٩ يهنئ ويصف حريق عابدين :

وافى يقبِّل راحتيك العامُ وحنت إليك رءُوسها الأَيام
الدهر أَقسم لا يجىءُ بغير ما ترضى وكم بَرِت له أَقسام
فاقبل معاذير الزمان فطالما قَبِلَتْ معاذير المنيب كرام
واغفر جنايتَه على القصر الذى لم تَحو مصرُ نظيرَهُ والشام
شَبَّت به النيران فارتاعت لها مُهج الأَنام وهالها استعظام
لولا الدخان أَحاط حول لهيبها ما شكَّ فرد أَنها أَعلام
أَمر به نفذ القضاءُ وليس فى أَحكامه نقض ولا إبرام
بل حِكمةٌ شاءَ الإِله بيانها لعباده ليذيع الاستسلام
حتى يروا أَن الملوك وإن عَلَوْا قدرا تسيرُ عليهم الأَحكام
فإِذا اقتدى بهم الرعية أَحسنوا صبرا وخفت عنهم الآلام
عين السماءِ العابدين تطلعت حسدا عليك والعيون سِهامُ
وتشوق القصر الكريم لأَهله والشوق فى قلب المحب ضرام
لم يستطع صبرًا على طول النوى والصبر فى شرع الغرام حرام
فتصعدت زفرَاته وتأَجَّجت جمراته والصب كيف يلام
لولا الدموع من المطافئ ما انقضى منه الهيام ولم يبل أَوام
خرقت طباق الجو إلا إنها برد قصارى أَمرها وسلام

---

(١) النجاء : السرعة . (٢) الرقطاء : الحية ، والرغام: التراب.

وقال حافظ إبراهيم يصف خزان أسوان ويمدح الحضرة الخديوية :

أَخزانَ مِصرَ أَنت أَم هرما مصر ... أَجلُّ وأَسمى فى المكانة والقدر
أَعدت لنا مجد القرون التى مضت ... وجددت من عهد الفراعنة الغُرِّ
وهيهات ما أَهرامُ مصر وإن سمتْ ... بأَرفع رأساً من حضيضك لو تدرى
وليس سنانُ بن المشلل خالدًا ... بأَنبة من (عبَّاس) عصرك فى الذكر
وما قطراتُ السحب كالدر تنهمى ... بأَلطف وقعاً من عقيقك إذ يجرى
وما أَنت خزان للمياه وطميها ... وإبليزها بل خازن الدر والتِّبر
تدفقت بالخيرات من كل جانب ... وجمعت أَقطار المنافع فى قطر
فقل للغوادى والروائح تنجلى ... وفى غير مصر فلتَسُحَّ على قفر
إذا ما جرت أَمواهُها دون حاجة ... وفاضت جرت منك المياه على قدر
ضَربْتَ على آثار مصر ولم يكن ... ليطمسها لولا جلالك من أَثر
أَلا فلتَسُد مصر على كل بقعة ... به وليطاول قطرها مسقط القطر
بناء من الدهر استعار بقاءه ... وأَقسم أَلا يُستردُّ من الدهر

الباب الخامس

فى الاستعطاف والمعاتبات والاعتذارات

قال النابغة الذبيانى الشاعر الجاهلى المتوفى سنة ٩٠٤ م من قصيدة طويلة :

يا دارَ مَيَّة بالعلياءِ فالسندِ ... أَقوت وطال عليها سَالف الأَمد(١)
وقفت فيها أَصيلا لا أُسائلها ... عيت جواباً وما بالربع من أَحد(٢)

(١) العلياء المكان العالى ، والسند محركة ما قابلك من الجبل وعلا عن السفح ، وأقوت الدار خلت من السكان ، والأمد : الزمان الماضى .

(٢) أصل أصيلا أصيلانا بالنون تصغير أصلان جمع أصيل وهو العشى أبدلت بالنون لاما ، وعيت أى حصرت وعجزت عن الجواب .

إلا الأوارىَّ لأيًا ما أُبينها والنوى كالحوض بالمظلومة الجلد(١)

ردت عليه أقاصيه ولبدُهُ ضرب الوليد بالمسحاةِ فى الثأد(٢)

خلت سبيلَ أَتى كان يحبِسه ورفعته إلى السجفينِ فالنضد(٣)

أَضحت خلاءً وأَضحى أَهلها احتملوا أَخنى عليها الذى أَخنى على لبد(٤)

وقال أُمية بن أَبى الصلت الجاهلى يَعْتِب على ابن له(٥) :

غذوتك مولودًا وعلتك يافعاً تعل بما أُدنى إليك وتنهل(٦)

إذا ليلة نابتك بالشكوِ لم أَبِت لِشكواك إلا ساهرًا أَتململ(٧)

كأَنى أنا المطروق دونك بالذى طرقت به دونى ، وعينى تهمل(٨)

تخافُ الردَّى نفسى عليك ، وإنها لتعلم أَن الموت حَتمٌ مُؤجل(٩)

فلما بلغتَ السن والغاية التى إليها مَدى ما كنت فيك أُومل

---

(١) الأوارى منصوب على أنه مستثنى منقطع وهو جمع آرى بمعنى الآخية ، والآخية كانية الوتد الذى فى رأسه حلقة يدق فى الحائط أو يدفن فى الأرض لتربط فيه الدواب .
والأياما أرى بعد جهد ، ما أنظرها ، والنؤى الحفير حول الخباء أو الخيمة يمنع السيل ، والمظلومة الأرض التى حفر فيها حوض وليست بموضع حفر الحوض فيها من أنها ليست بموضعه ظلم لها ، والجلد الأرض الصلبة المستوية المتن . (٢) ردت بالبناء للمجهول ونبده ألصق بعضه ببعض ، والمسحاة هى آلة يجرف بها الطين والثأد الطين
(٣) الأتى الجدول الذى تؤتيه الى أرضك والسيل الغريب ويحبسه الضمير فيه يعود الى النؤى ، والسجفين الستارتان اللتان تعلقان على الباب أو النافذة . (٤) احتملوا ذهبوا من دار الى أخرى وأخنى عليها أهلكها ، يقال ان لقمان بن عاد عاش بمقدار عمر سبعة نسور كلما هلك نسر خلفه نسر آخر وكان آخرها لبد على وزن صرد .
(٥) هو عبد الله بن أبى ربيعة الثقفى نشأ بالطائف جاهليا يلتمس المعارف الدينية متعبدا راجيا أن يكون نبى العرب ، حتى اذا كانت بعثة النبى صلى الله عليه وسلم أكبرها عليه ، وناضله مع أعدائه حتى مات بالطائف سنة ٩ هـ .
(٦) غذاه قام بمؤنته وعاله : كعلة وقام به ، واليافع : من قارب العشرين ، تعل : من العلل وهو الشرب الثانى والنهل : الشرب الأول ، يريد أنه يسبغ عليه من نعمه الكثير والقليل . (٧) أتململ : أتقلب على الملة وهى الجمر . (٨) تهمل : أى يسيل منها الدمع .
(٩) الردى : الهلاك ، حتم : أى لا مفر منه ، مؤجل : أى له وقت .

جعلت جزائى منك جبهاً وغِلْظة ... كأنك أَنتَ المُنعِمُ المتفضِّل (١)

فليتك إذ لم ترع حق أُبُوَّتى ... فعلت كما الجارُ المجاور يفعل (٢)

وسميتنى باسم المُفَنَّدِ رأيُهُ ... وفى رأيك التفنيد لو كنت تعقل (٣)

تَراهُ مُعِدا للخلاف كأَنه ... بِرَد على أَهل الصَّوَاب مُوَكل (٤)

وقال المغيرة بن حبناء :

خُذ من أَخيك العفو واغفر ذنوبه ... ولا تكُ فى كلِّ الأُمُور تعاتبه

فإنكَ لن تلقى أَخاك مُهذَّباً ... وأَىُّ امرىءٍ ينجو من العيبِ صاحبه

أَخوك الذى لاينقض النأى عهدهُ ... ولا عند صرف الدهر يزْور جانبه

وليس الذى يلقاك فى البشروَالرِّضا ... وإِنْ غِبت عنهُ لسَّعَتْك عقاربه

وقال سعيد بن حميد المتوفى سنة ٨٨٨ هـ :

أَقلِل عِتَابكَ فالبقاءُ قليل ... والدهر يعدلُ مرة ويميل

لم أَبكِ مِن زمن ذممت صروفه ... إلا بكيتُ عليه حين يزول

ولكل نائبةٍ أَلمت فرجةٌ ... ولكل حال أَقبلت تحويل

والمنتمون إِلى الصفاءِ جَمَاعة ... إِن حَصلوا أَفناهم التحصيل

وأَجَلُّ أَسبابِ المنية والردَى ... يَوْمٌ سيقطع بيننا ويحول

فلئن سبقت لتفجعن بصاحب ... حبل الصفاءِ بحبله موصُول

ولعل أَيام البقاءِ قليلة ... فعلام يكثر عتبنا وَيَطول !؟

وقال شاعر الحجاز الحضرمى مَعن بن أَوس المزنى المتوفى سنة ٣٥٩ هـ :

لعمرك ما أَدرى وإِنى لأَوجَلُ ... على أَينا تعدو المنية أَول

---

(١) الجبة : مقابلة الانسان بما يكره . (٢) أى ليتك اذا أبيت أن تعاملنى معاملة الأب عاملتنى كما يعامل الجار جاره . (٣) فنده نسبه الى سوء العقل أى وصمتنى بسوء الرأى والغباوة ولو عقلت لعلمت ان الفند حقيق بأن ينسب اليك لا الى . (٤) معدا : أى محضرا ومهيئا ، أى تهيىء الخلاف ، ويقابل به كل رأى كأنه كلف أن يفند آراء أهـــل الصواب .

وإنى أَخُوك الدائم العهد لم أَخن ... إن ابزاك خصم أَو نبا بك منزل
أَحاربُ من حاربت من ذى عداوة ... وأَحبِسُ مالى إنْ غَرِمت فأَعْقل
وإنى على أَشياء منك تُريبنى ... قديماً لذو صفحٍ على ذاك مجمل
ستقطعُ فى الدنيا إذا ما قطعتنى ... يمينك فانظر أَىَّ كف تبدَّل
إذا أَنتَ لم تُنصف أَخاك وجدته ... على طرَفِ الهجْرَان إن كان يعقل
ويركبُ جدَّ السيف من أَن تضيمه ... إذا لم يكن عن شفرَة السيف مزحل
وكنت إذا ما صاحب رام ظنتى ... وبدَّل سُوءاً بالذى كنت أَفعل
قلبت له ظهر المجن فلم أَدُم ... على ذاك إلا ريثما أَتحوَّل
إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكد ... إليه بوجه آخر الدهر تقبل

وقال بهاءُ الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦ معتذراً لتأَخره عن لقاء بعض أَصحابه:

على الطائر الميمون ياخير قادم ... وأَهلا وسهلا بالعُلَا والمكارم
قدمت بحمد الله أَكرم مَقدم ... مدى الدهر يبقى ذكره فى المواسم
قدوماً به الدنيا أَضاءَت وأَشرقت ... ببشر وُجُوه أَو بضوء مباسم
فياحُسن ركب جئت فيه مسلماً ... وياطيبَ ما أَهدته أَيدى الرواسم
أَمولاى سامحنى فإنك أَهله ... وإن لم تسامحنى فما أَنت ظالمى

وقال محمد بن زُريق البغدادى نادماً على الإفراط فى طلب الدنيا ، وكان قصد الأَندلس فى طلب الغنى ، فلم يرجع لبغداد رحمة الله عليه :

لا تعذليه فإن العذل يولعه ... قد قلت حَقًّا ولكن ليس يسمعه
جاوزت فى لومه حدًّا أَضَرَّ به ... من حيث قدرت أَن اللوم ينفعه
فاستعملى الرفق فى تأنيبه بدلا ... من عنفه فهو مضنى القلب موجعه
قد كان مضلعاً بالخطب يحمله ... فضيقت بخطوب البين أَضلعه
يكفيه من لوعة التفنيد أَن له ... من النوى كل يوم ما تُروعه

ما آت مغترب إلا وأزعجه ... رأى إلى سفر بالعزم يجمعه
كأنما هو من حل ومُرْتحل ... موكلٌ بفضاءِ الأَرض يذْرعه
إذا الزماعُ أَراه فى الرَّحيل غنى ... ولو إلى السند أَضحى وهو يُزْمعه
تأبى المطامعُ إلا أَن تُجشِّمه ... للرزق كدًّا ، وكم ممن يُوَدعه
وما مُجاهدة الإِنسان توصله ... رزقاً ، ولا دعة الإِنسان تقطعه
والله قسم بين الخلق رِزْقهم ... لم يخلق الله مخلوقاً يضيعه
لكنهم مُلئوا حرصاً فلست ترى ... مُسترزقاً ، وسوى الغايات يقنعه
والسعى فى الأَرزاق والأَرزاق قد قسمت ... بغىٌ ، أَلا إن بغى المرءِ يصرعه
والدهر يعطى الفتىَ ما ليس يطلبه ... يوماً ، ويمنعه من حيث يطمعه
أَستودع الله بغداد لى قمرا ... بالكرخ من فلك الأَزرار مَطلعه
ودعته وبودى لو يُودعنى ... صفوُ الحياة وأَنى لا أودعه
وكم تشفع أَنى لا فارقه ... وللضرورات حالٌ لا تشفعه
وكم تشبث بى عند الرحِيل ضحى ... وأَدمعى مُستهلات وأَدمعه
لا أَكذب الله ثوب العذر منخرق ... عنى بفرقته لكن أَرقعه
إنى لأوسع عذرى جنايته ... بالنين عنهُ ، وقلبى لا يوسعه
أعطيتُ ملكاً لم أحسن سياسته ... كذاك من لا يسوس الملك يخلعه
ومن غدا لابسا ثوب النعيم بلا ... شكر الإله ، فعنه الله ينزعه
اعتضت عن وجه خلى بعد فرقته ... كأساً أجرع منها ما أَجرعه
كم قائل لىَ ذنب البين قلت له ... الذنب والله ذنبى لست أَدفعه
هلا أَقمتُ فكان الرُّشد أَجمعه ... لو أَننى يوم بان الرشد أَتبعه
إنى لأَقطع أَيامى وأنفذها ... بحسرة مِنه فى قلبى تقطعه
بمن إذا هجعَ النوام بت له ... بلوعة منه ليلى لست أَهجعه

لا يطمئن لجنبي مضجع ، وكذا — لا يطمئن له مُذْ بنت مضجعه
ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني — به ، ولا أن بي الأيام تفجعه
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيد — عسراء تمنعني حظي وتمنعه
بالله يامنزل القصف الذي درست — آثاره وعفت مذ غبت أربعه
هل الزمان معيد فيك لذتنا ؟ — أم الليالي التي أمضته ترجعه
في ذمة الله من أصبحت منزله — وجاد غيثٌ على مغناك يمرعه
من عنده لي عهدٌ لا يضيعه — كما له عهد صدق لا أضيعه
ومن يصدع قلبي ذكره ، وإذا — جرى على قلبه ذكرى يصدعه
لأصبرنَّ لدهر لا يمتعني — به ، ولابي في حال يمتعه
علماً بأن اصطباري معقب فرجا — وأضيق الأمر إن فكرت أوسعه
عل الليالي التي أضنت بفرقتنا — جسمي ستجمعني يوما وتجمعه
وإن تنل أحدا منا منيته — فما الذي بقضاء الله يصنعه

وقال المرحوم محمد حافظ بك إبراهيم من قصيدة (بين اليقظة والمنام) في استعطاف الزمان :

أشرق فدتك مشارق الإصباح — وأمط لثامك عن نهار ضاح
بوركت يايوم الخلاص ولاونت — عنك السعود بغدوة ورواح
بالله كن يمنا وكن بشرى لنا — في رد مغترب وفك سراح
أقبلت والأيام حولك مثل — صفين تخطر خطرة المياح
وخرجت من حجب الغيوب محجلا — في كل لحظ منك ألف صباح
لو صح في هذا الوجود تناسخٌ — لرأيت فيك تناسخ الأرواح
ولكنت يوم (اللابرنت) بعينه — في عزة ، وجلالة ، وسماح
يوم يريك جلاله ورواؤه — في الحسن قدرة فالق الإصباح

خلعت عليه الشمس حاة عَسْجدٍ وحباه (آزار) أرق وشاح
اللهُ أثبتهُ لنا فى لَوْحِهِ أبدَ الأبيدِ فما له من ماح
حييهِ عنا يا أزاهرُ ، واملئى أرجاءَهُ بأريجكِ الفيَّاح
وانفحْهُ عنا يا ربيع بكل ما أطلعت من رندٍ ونَوْرُ أقاح
للنيل مجدٌ فى الزمان مُؤثلٌ من عهد (آمون) وعهد (فتاح)
فَسلِ العصور بهِ ، وسل آثارهُ فى مصر كم شهدت من السِّيَّاح
قد قال (عمرو) فى ثراها آية مأثورة ، نقشت على الألواح
بينا نراهُ لألئاً وكأنما نثرتْ بتربته عقود مِلاح
وإذا به للناظرين زُمرُّدٌ يشفيك أخضرُهُ من الأتْرَاح
وإذا به مِسْكٌ تشق سواده شق الأديم محارث الفلاح
قم يا ابن مصر فأنت حُرٌّ واستعد مَجْد الجدود ، ولا تُعدْ لمزاح
شمرْ وكافح فى الحياة فهذه دنياك دارُ تناحُر وكفاح
وانهل مع النهالِ من عذب الحيا فإذا رقا فامتحْ مع المُتَّاح
وإذا ألح عليك خطب لاتهنْ واضرب على الإلحاح بالإلحاح
وخض الحياة وإن تلاطَمَ مَوجُها خوض البحار رياضة السباح
واجعل عيانك قبل خطوك رائدا لا تحسبن الغمر كالضحضاح
وإذا احتوتك محلة وتنكرتْ لك فاغْدُها وانزح مع النزاح
فى البحر لا تثنيك نارُ بوارج فى البر لا يلويك غابُ رماح
وانظر إلى الغربىِّ كيف سمت به بين الشعوب طبيعة الكدَّاح
والله ما بلغت بنو الغرب المنى إلا بنيات هناك صحاح
ركبوا البحارَ وقد تجمدَ ماؤها والجوُّ بين تناوُح الأرواح
والبر مصهورُ الحصى متأججاً يرمى بنزَّاع الشَّوى لوَّاح
يلقى فتيهم الزمان بهمة عجب ، ووجه فى الخطوب وقاح

ويشق أَجواز الفقار مغامرا وعر الطريق لديه كالصحصاح
وابن الكنانة فى الكنانة راكِد يرنو بعين غيرَ ذات طماح
لايستغل ـ كما علمت ـ ذكاءه وذكاوه كالخاطف اللمَّاح
أَمسى كماءِ النهر ضاعَ فراتهُ فى البحر بين أجاجه المنداح
فانهض ودع شكوى الزمان ولاتنح فى فادح البؤسى مع الأَنواح
واربح لمصرَ برأس مالك عزة إن الذكاء حبالة الأَرباح
وإذا رزقتَ رياسة فانسج لها بُردَين : من حزم ، ومن إسْجاح
واشرب مِن الماءِ القرَاح منعماً فلكم وَرَدْت الماءَ غيرَ قرَاح

الباب السادس

فى التهانى والتهادى والإغراء

قال أَبو الطيب المتنبى :

المجد عوفى إذ عوفيت والكرَم وزال عنك إلى أَعدائك الأَلم
صحت بصحتك الغارات وابتهجت بها المكارم وانهلتْ بها الدِّيَم
وراَجع الشمس نور كان فارقها كأَنما فقده فى جسمها سَقم
ولاح برقكَ لى من عارضى ملك ما يسقط الغيث إلا حين يبتسم
يسمى (الحسام) وليست ذى مشابها وكيف يشتبه المخدوم والخدم
تفرَّد العرب فى الدنيا بمحتدهِ وشارك العرب فى إحسانه العجم
وأَخلص الله للإسلام نصرته وإن تقلب فى آلائه الأُمم
وما أَخصك فى برءٍ بتهنئة إذا سَلمت فكل الناس قد سلموا

وقال الوزير الصاحب إسماعيل بن عباد :

هذى المكارم والعلياء تفتخر بيوم مأثرة ساعاته غرر
يوم تبسمَ عنه الدَّهر واجتمعت له السعود وأَغضب دونه الغِير

حتى كأنا نرى فى كل ملتفت رَوضاً تفتحَ فى أثنائه الزَّهر

لما تجلى عن الآمال مشرِقة قال العلى : بلى استعلى وأقتدر

وافى على غير ميعاد يبشرنا بأن ستتبعه أمثاله الغرر

أهنى المسرات ما جاءَت مفاجأةً وما تناجى بها الألفاظ والفكر

وما تعنف من يسخر بمهجته فإن يومك هذا وحدَه عمر

فما عدوت وما للعين مُنقلب إلا إلى منظر يبهى ويحتبرُ

ثنت مَهابتك الأبصار حاسرة حتى تبين فى ألحاظها خزر (١)

إذا تأملتهم غضوا ، وإن نظروا خلال ذاك فأدنى لفتة نظروا

فى ملبس ما رَأته عينُ مُعترض فشك فى أنه أخلاقك الزهر

ألبسته منك نورا يستضاءُ به كما أضاءَ ضَوَاحى مزنة القمر (٢)

وقد تقلدت عضبا أنتَ مَضربه وعنك يأخذ ما يأتى وما يذَرُ

مازال يزداد من إشرَاق غرَّته زهرا ويشرق فيه التيه والأَشر (٣)

والشمس تحسد طرفاً أَنْت رَاكِبه حتى تكاد من الأفلاك تنحدر

حتى لقد خِلت أن الشمس أزعجها شوقا وقد ظلت على عطفيه تنتشر

وقال أبو أذينة يغرى الأسود بن المنذر بقتل آل غسان ، وكانوا قد قتلوا أخاً له :

ما كل يوم ينال المرءُ ما طلبا ولا يسوغه المقدر ما وَهبا

وأحزم الناس من إن فرصة عرضت لم يجعل السبب الموصول منقبضا

وأنصف الناس فى كل المواطن من سقى المعادين بالكأس الذى شربا

وليس يظلمهم من راحَ يضربهم بحد سيف به قلبهم ضُربا

---

(١) الخزر ضيق العين وصغرها . (٢) المزن : السحاب الأبيض ويقال للهلال ابن مزنة وهى القطعة من المزن لخروجه منها .

(٣) الأشر بفتح الشين المرح والاختيال .

والعفو إلا عن الأَكفاءِ مكرمة ... من قال غير الذى قد قلته كذبا
قتلت عمرا وتستبقى يزيد لقد ... رأيت رأياً يجرُّ الويل والحربا
لا تقطعنْ ذنب الأَفعى وترسلها ... إن كنت شهماًفأَتبع رأسها الذنبا
هم جَرَّدوا السيف فاجعلهم له جزرا ... وأَوقدوا النار فاجعلهم لها حَطبا
إن تعفُ عنهم يقول الناس كلهم ... لم يَعف حِلما ولكن عفوه رهبا
هم أَهلة غسان ومجدهم ... عال ، فإن حاولوا مُلكا فلا عَجبا
وعرضوا بفداءِ واصِفين لنا ... خيلا وإبلا تفوق العجم والعربا
يحلبون دماً مِنَّا ونحلبهمْ ... رسلا ، لقد شرَّفونا فى الوَرى حلبا

وقال صفى الدين الحلى يحرض السلطان الصالح على الاحتراز من المغول :

لا يمتطى المجدَ من لم يركب الخطرا ... ولا يَنالُ العلا من قدم الحذرَا
ومن أَراد العلا عفوا بلا تعب ... قضى ولم يَقض من إدراكها وطرا
لا بد للشهدِ من نحل يمنعه ... لايجنى النفع من لم يحمل الضررا
لا يُبْلغ السول إلا بَعد مؤلمة ... ولا يتم المنى إلا لمن صَبرَا
وأَحزمُ الناس من لو مات من ظمإٍ ... لايقرب الوِرْد إلا من يعرف الصدر
وأَغزر الناس عقلا من إذا نظرت ... عيناه بالأَمر غدا بالغير مُعْتبرا
فقد يُقال عثار الرِّجْل إن عثرت ... ولا يقال عثار الرأى إن عثرا
من دبَّرَ العيش بالآراءِ دام له ... صفوا وجاءَ إليه الخطب مُعْتذرا
يهون بالرأى ما يجرى القضاءُ به ... من أَخطأَ الرأى لايستذنب القدرا
من فاتهُ العزُّ بالأَقلام أَدركه ... بالبيض يقدح من أَطرافها الشررا
لا يحسن الحلم إلا فى مواطنهِ ... ولا يليق الوَفا إلا لمن شكرا
ولا ينال العلا إلا فتى شرفت ... خِلالهُ فأَطاع الدهر ما أَمرا

كالصالح الملك المرهوب سطوته فلو توعد قلب الدهر لا نفطرا

لما رأى الشرَّ قد أَبدى نواجذه والغدر عن نابه للحرب قد كشرا

رأى القسى إناثاً عن حقيقتها فعافها واستشار الصارم الذكرا

فجرد العزم من قبل الصفاح لها ملكٌ عن البيض يستغنى بما شهرا

يكاد يقرأُ من عنوان همته ما بصحائف ظهر العيب قد سطرا

كالبحر والدهر فى يومى ندى وردى والليث والغيث فى يومى وغى وقرى

ما جاد للناس إلا قبل ما سأَلوا ولا عفا قط إلا بعد ماقدرا

لاموه فى بذله الأَموال قلت لهم هل تقدر السحب أَلا ترْسِل المطرا

وقال السيد أَحمد الهاشمى مولف هذا الكتاب مهنئاً المرحوم على يوسف صاحب جريدة المويد سنة ١٣٢٠ ﻫ بأَوبته من أوربا :

(علىٌّ) القدر ذو الشرف المؤيد شديد العزم (يوسف) قد تفرد

وحيد الفضل والعلياء تشهد رفيع المجد فى عز وسؤدد

شريف النفس محمود السجايا عريق الأَصل فى المعروف أَوحد

همامٌ ما له أَبدا مثيل بليغ النطق فى الكتاب مفرد

مُحب العدل مشكور المساعى عليم بالسياسة ، بل (مُؤيد)

قوى البأس بسام الثنايا سعيد الجد ذو قدْرٍ ممجد

فمن يك راقياً شرف المعالى كمثلك فى الورى لاشك يحمد

وكيف وأَنت أَعظم من تصدى لتأْييد الصحافة (بالمؤيد)

وكيف وأَنت أَفوق كل رامٍ بسهم للكتابةِ قد تجرَّد

وليس الشمس تخفى عن عيون سوى أَن كان صاحبهنّ أَرمد

وإن البدر بالأَنوار زاهٍ ويأْبى الله إلا أَن تؤيد

فسبحان الذى أَسرى (عليًّا) إلى التاميز والسين المنضَّد
يهنِّيك المناصب كلَّ وقْت وتخدُمك السعادة ما تجدد
فدم ياسيِّدى بدرا منيرا وحِصناً للمعالى قد تشيد
وهاكَ منَ المحب قصيد شعر تشير إلى وفائى ، بل وتشهد
تفاخر مصر أهل الشرق فيها تقول الهاشمىُّ شدا وأَنشد

وقال محمد حافظ. إبراهيم مهنئا أَبناءَ وطنه بالعام الهجرى :

أَهلا بنابغة البلاد ومرحباً جدَّدْتم العهد الذى قد أَخْلقا
لا تيأَسوا أَنْ تستردُّوا مَجْدكم فلرب مغلوب هوى ثم ارتقى
مدَّتْ له الآمال فى أَفلاكها خيط الرَّجاءِ إلى العُلا فتسلقا
فتجشموا للمجد كل عظيمة إنى رأَيت المجد صعب المرتقى
من رام وصل الشمس حاك خيوطها سبباً إلى آماله وتعلقا
عارٌ على ابن النيل سباق الورى مهما تقلب دهره أَن يُسبقا
أَو كلما قالوا : تجمع شمله ، لعِب الخلاف بجمعنا فتفرقا
فتدفقوا حججاً وخوضوا نِيلكم فلكم أَفاض عليكم وتدفقا
حملوا علينا بالزَّمان وصرفه فتأَنقوا فى سلبنا وتأَنقا
فتعلموا فالعلم مفتاح العلا لم يُبق باباً للسعادة مُغلقا
ثم استمدُّوا منه كل قواكم إن القوىَّ بكل أَرض متقى
ابنوا حوالى حوضكم من يقظة سورا وخطوا من حذارٍ خندقا
وزنوا الكلام وسددوه فإنهم خبأوا لكم فى كل حرف مزلقا
وامشوا على حذر فإن طريقكم وعر أَطاف به الهلاك وحلقا

نصبوا لكم فيه الفخاخ وأَرصدوا للسالكين بكل فج موبقا
الموتُ فى غشيانه وطروقه والموتُ كل الموت أَلا يطرقا
فتحينوا ، فرَصُ الحياة كثيرةٌ وتعجلوها بالعزائم والرقى
أَو فاخلقوها قادرين فإِنما فرصُ الحياة خليقةٌ أَن تخلقا

* * *

الباب السابع

فى المراثى

قال المهلهل التغلبى يرثى أَخاه كليباً وهو جاهلى توفى سنة ٥٣١ م :

أَهاج قذاه عينى الادِّكار ؟ هُدوءًا فالدُّموع لها انهمار
وصار الليل مشتملا علينا كأَن الليل ليس له نهار
وبتُّ أَراقب الجوزاءَ حتى تقارب من أَوائلها انحدار
أَصرِّف مقلتى فى إِثر قومٍ تباينت البلاد بهم فغاروا
وأَبكى والنجوم مطلعاتٌ كأَن لم تحوها عنى البحار
على من لو نعيت وكان حيًّا لقاد الخيل يحجبها الغبار
دعوتك ياكليب فلم تجبنى وكيف يجيبنى البلد القفار ؟
أَجبنى ياكليب خلاك ذمٌّ لقد فجعت بفارسها نزار
سقاك الغيث إِنك كنت غيثاً ويُسرا حين يلتمس اليسار
أَبت عيناى بعدك أَن تكفا كأَن عصا القتاد لها شفار
وإِنك كنت تحلم عن رجال وتعفو عنهم ولك اقتدار
وتمنعُ أَن يمسهم لسان مخافة من يجير ولا يُجار

وكنت أعدَّ قربى منك ربحاً إذا ما عَدَّت الربح التِّجار
فلا تَبْعُدَ فكل سوف يلقى شعوباً يستدير بها المدار
يعيش المرءُ عند بنى أَبيه ويوشك أَن يصير بحيث صاروا
أَرى طول الحياة وقد تولى كما قد يُسلبُ الشىء المعار
كأَنى إذ نعى الناعى كليباً تطاير بين جنبيَّ الشرار
فَدرت وقد غشى بصرى عليه كما دارتْ بشاربها العقار
سأَلتْ الحى : أَين دفنتموه ؟ فقالوا لى : بأَقصى الحى دار
فسرت إليه من بلدى حثيثاً وطار النوم وامتنع القرار
وحادت ناقتى عن ظل قبر ثوى فيه المكارمُ والفخار
أَتغدو ياكليب معى إذا ما جبان القوم أَنجاه الفرار ؟
خذ العهد الأَكيد على عمرى بتركى كل ما حوت الديار
ولست بخالع دِرْعى وسيفى إلى أَن يخلعَ الليل النهار

* * *

وقال صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٥٠ هـ يرثى غريقاً :

أَصفيحُ ماء أَم أَديم سماء فيه تغور كواكب الجوزاء
ماكنت أَعلم قبل موتك موقنا أَن البدور غُروبها فى الماءِ
ولقد عجبت وقد هويت بلجة فجرى على رسْل بغير حياءِ
لم لا يشقُّ لك العباب وطالما أَشبهت موسى باليد البيضاء
أَنف العلاء عليك من لمس الثرى . وحُلول باطن حُفرة ظلماءِ
وأَجل جسمك أَن يغير لطفه عفن الثرى وتكاثف الأَرجاءِ
فأَحله جدثا طهورا مشبهاً أَخلاقه فى رقة وصفاء

ماذاك بدعا أن يضم صفاؤه نورا يضنُّ به على الغبراءِ
فالبحر أولى فى القياس من الثر ى بجوارِ تلك الدرة الغراءِ

* * *

وقال أيضاً يرثى الملك ناصر الدين عمر :

بكى عليك الحُسام والقلم وانفجع العِلم فيك والعَلَمُ
وضجت الأَرض فالعباد بها لاطمة والبلاد تلتطم
تظهر أَحزانها على ملك جل ملوك الورَى له خدم
أَبلج ، غض الشباب مقتبل الـ عمر ، ولكن مجده هرم
محكمٌ فى الوَرى وآمله يحكم فى الوَرى ويحتكم
يجتمعُ المجدُ والثناءُ له وماله فى الوفود يُقتسم
قد سَئمت جُوده الأَنام ، ولا يلقاه من بذلِهِ الندَى سَأَم
ماعرفت منه «لا» ولا «نعم» بل دونهن الآلاءُ والنعمُ
الواهب الأَلف وهو مبتسم ، والقاتل الأَلف وهو مقتحمُ
مبتسمٌ والكماة عوَابسٌ وعابسٌ والسيوفُ تبتسمُ
لم يعلم العالمون ما فقدوا منه ، ولا الأَقربون ما عَدَمُوا
ما فقد فرد من الأَيام كمن إن مات ماتت لفقدِهِ أُممٌ
يا طالب الجود قضىَ عمر ، فكل جُود وجُوده عدَم
فالناس كالعين إن نقدتهم تفاوتت عند نقدك القيم
مضى الذى كان للأَنام أَبا فاليوم كل الأَنام قد يتموا
حل دارا ضاقت بساكنها ودون أَدنى دياره إرم

قال أَبو الحسن التهامى يرثى صغيرا له ، ويفتخر بفضله ، ويشكو زمانه وحاسديه :

حُكم المنية فى البرية جارِ ... ما هذه الدنيا بدار قرارِ
بينا يُرَى الإِنسان فيها مخبرا ... حتى يرى خبرا من الأَخبار
طبعت على كَدَر وأَنت تريدها ... صفوا من الأَقذار والأَكدار
ومكلفُ الأَيام ضد طباعها ... متطلبٌ فى الماءِ جذوة نار
وإذا رجوت المستحيل فإِنما ... تبنى الرجاءَ على شفير هار
فالعيش نومٌ والمنية يقظة ... والمرءُ بينهما خيالٌ سار
فاقضوا مآربكم عجالا إنما ... أَعماركم سفرٌ من الأَسفار
وتراكضوا خيل الشباب وبادروا ... أَن تسترد فإِنهن عوار
فالدهر يخدع بالمنى ويغص إن ... هَنَّا ويهدمُ ما بُنِى ببوار
ليس الزمان وإن حرصت مسالماً ... خلق الزمانِ عداوةُ الأَحرار
إنى وترت بصارم ذى رونقٍ ... أَعددته لطلابةِ الأَوتار
والنفس إن رضيت بذلك أَوأَبت ... مُنقادةٌ بأَزِمَّة المقدار
أُثنى عليه بإِثرهِ ولو أنه ... لم يغتبط. أَثنيت بالآثار
يا كوكباً ، ما كان أَقصر عمرَه ... وكذاك عمر كواكبِ الأَسحار
وهلال أَيام مضى لم يُستدر ... بدرا ولم يمهل لوقت سِرار
عجِل الخسوف عليه قبل أَوانه ... فمحاه قبل مظنةِ الإِبدار
واستل من أَترابه ولداته ... كالمقلة استُلت من الأَشفار
فكأَن قلبى قبره وكأَنه ... فى طيّه سرٌ من الأَسرار
إن يُعتبط. صغرا فرب مقمم ... يبدو ضئيل الشخص للنظار

إن الكواكب فى عُلُوِّ محلها لترَى صِغارا وهى غير صغار
ولدُ المعزى بعضه فإذا مضى بعضُ الفتى فالكل فى الآثار
أَبكيه ثم أَقولُ معتذرا له وفقت حين تركت أَلأَم دار
جاورْت أَعدائى وجاورَ ربَّه شَتان بين جواره وجوارى
ثوب الرياء يشف عما تحته وإذا التحفت به فإنك عار
قصُرَت جفونى أَم تباعد بينها أَم صُورت عينى بلا أَشفار
جفت الكرى حتى كأَن غراره عند اغتماض العين وخْز غرار
ولو استزارت رقدةَ لطحابها ما بين أَجفانى من التيار
أُحيي الليالى التم وهى تميتنى ويميتهن تبلج الأَسحار
حتى رأَيت الصبح تهتك كفه بالضوءِ رفرف خَيمة كالقار
والصبح قد غمر النجوم كأَنه سيلٌ طغى فطفا النوار
والهونُ فى ظِل الهوينا كامِن وجلالة الأَخطار فى الإِخطار
تندى أَسرة وجهه ويمينه فى حالة الإِعسار والإِيسار
ويمدُّ نحو المكرمات أَناملا للرزق أَثنائهن مجار
يحوى المعالى كاسِباً أَو غالباً أَبدا بدارَى دونها ويدارِى
قد لاح فى ليل الشباب كواكب إن أَمهلت آلت إلى الإِسفار
وتلهب الأَحشاءَ شيب مفرقى هذا الضياءُ شواظ تلك النار
شاب القذال وكل غصن صائر فينانه الأَحوى إلى الإِزهار
والشبه منجذب فلم بيض الدمى عن بيض مفرقه ذوات نفار
وتود لو جعلت سوادَ قلوبها وسواد أَعينها خضاب عذار
لا تنفر الظبيات عنه فقد رأَت كيف اختلاف النبت فى الأَطوار
شيئان ينقشعان أَول وهلة ظِل الشباب ، وخلة الأَشرار

لا حَبَّذا الشيبُ الوفىّ وحبذا ظِلٌّ الشباب الخائن الغدَّار
وطرى من الدُّنيا الشباب وروقه فإِذا انقضى فقد انقضت أَوطارى
قصرتْ مسافته وما حسناته عندى ولا آلاؤه بِقصار
نزداد هَمًّا كلما ازددنا غِنى والفقر كُلُّ الفقر فى الإِكثار
مازاد فوق الزَّاد خُلِّف ضائعاً فى حادث أَو وارث أَو عار
إِنى لأَرحمُ حَاسدىَّ لحرما ضمت صُدُورهم من الأَوغار
نظروا صنيع الله بى فَعيونهم فى جنة وقلوبهم فى نار
لاذنب لى قد رُمْت كتم فضائلى فكأَنما برقعت وجه نهار
وسترتها بتواضُعِى فتطلعت أَعناقها تعلو على الأَستار
ومن الرجال معالِم ومجاهِل ومن النُّجوم غوامض ودرارى
والناس مُشتبهون فى إِيرادهم وتفاضل الأَقوام فى الإِصدار
عمرى لقد أَوطأْتهم طُرُق العلا فعموا فلم يقفوا على آثارى
لو أَبصروا بقلوبهم لاستبصروا وعَمَى البصائر من عمَى الأَبصار
هَلا سَعوْا سَعْى الكرام فأَدركوا أَو سَلموا لمواقِع الأَقدارِ
ولربما اعتَضَدَ الحليم بجاهل لا خير فى يمنى بغير يسار

وقال أَبو البقاءِ صالح بن شريف الرنْدِى ، المتوفى سنة ٧٩٨ ﻫ يرثى الأَندلس :

لكل شئٍ إِذا ماتم نقصانُ فلا يغَرُّ بطيب العيش إِنسان
هى الأُمورُ كما شاهدتها دُوَلٌ من سره زَمَنٌ ساءَتْهُ أَزمان
وهذه الدار لا تُبقى على أَحد ولا يدوم على حال لها شان
يُمَزِّق الدهر حتماً كل سَابغة إِذا نبت مشرفيَّاتٌ وخُرْصان
وينتضى كل سيف للفناءِ ولوْ كان ابن ذى يزن والغَمد غمدان
أَين الملوك ذووا التيجان من يمن وأَين منهم أَكاليل وتيجان ؟

وأَين ما شاده شدادُ فى إِرَم ... وأَين ما ساسه فى الفرس ساسان؟
وأَين ما حازه قارون من ذهب ... وأَين عادٌ وشَدَّاد وقحطان ؟
أَتى على الكُل أَمر لا مَرَد له ... حتى قضوا فكأَن القوم ما كانوا
وصار ما كان من مُلك ومن مَلك ... كما حكى عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على «دارا» وقاتِله ... وأَم كِسرَى فما آواه إِيوان
كأَنما الصْعْبُ لم يَسْهل له سبب ... يوماً ولا ملك الدُّنْيا سليمان
فجائع الدهر أَنواعٌ مُنَوَّعة ... وللزمان مسراتٌ وأَحزان
وللحوادث سُلوان يُسَهلها ... وما لما حل بالإِسلام سُلوان
دهى الجزيرة أَمر لا عزاءَ له ... هوَى له أُحُد وانْهدَّ ثهلان
أَصابها العين فى الإِسلام فارتزأَت ... حتى خَلت منه أَقطار وبلدَان
فاسأَل (بَلنْسِيَة) ما شأْن (مُرْسية) ... وأَين (شاطبة) أَم أَين (جَيَّان)
وأَين (قُرْطبة) دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان ؟
وأَين (حِمصُ) وما تحويه من نُزَه ... ونهرها العَذْبُ فياضٌ ومَلآن
قواعِدٌ كُنَّ أَركان البلاد فما ... عسى البقاءُ إِذا لم تَبقَ أَركان
تبكى الحنيفية البيضاءُ من أَسف ... كما بكى لفراق الإِلفِ هيمان
على ديار من الإِسلام خالية ... قد أَقفرت ولها بالكفر عُمْران
حيث المساجد قد سارت كنائس ما ... فيهن إِلا نواقيسٌ وصُلْبان
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة ... حتى المنابر ترثى وهى عيدان
ياغافلا وله فى الدهر موعظة ... إِن كنت فى سنة فالدَّهْرُ يقظان
وماشِيا مَرحا يُلهيه موطنُهُ ... أَبَعد حِمص تَغرّ المرء أَوطان ؟

تلك المصيبة أنست ماتقدمها وما لها من طوال الدهر نسيان
ياراكبين عِتاق الخيل ضامرة كأنها فى مجال السبق عِقْبان
وحاملين سيوف الهند مُرْهفة كأنها فى ظلام النقع نيران
وراتعين وراءَ البحر فى دعة لهم بأوطانهم عِزٌّ وسلطانُ
أعندكم نبأٌ من أهل أندلسٍ فقد سرى بحديث القوم رُكبانُ؟
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم قلى وأسرى ، فما يهتزُّ إنسان؟
ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم وأنتم – ياعباد الله – إخوان؟
ألا نفوسٌ أبياتٌ لها هِمَمٌ أما على الخير أنصارٌ وأعوانُ؟
يامن لِذِلة قوم بعد عِزِّهم أحال حالهم جورٌ وطغيانُ
بالأمس كانوا ملوكاً فى منازلهم واليوم هم فى بلاد الكفر عُبدَانُ
لمثل هذا يذوبُ القلب من كمد إن كان فى القلب إسلامٌ وإيمان

وقال المتنبي يرثى أبا شجاع فاتكاً :

الحزن يقلق والتجمل يُرْدِعُ والدَّمع بينهما عَصِىٌّ طَيعُ
يتنازعانِ دُموع عين مُسهدٍ هذا يجىءُ بها ، وهذا يرجع
النوم بعد أبى شجاع نافِرٌ والليل معيٍ والكواكب طُلعُ
إنى لأجبن من فراق أحبتى وتحسُّ نفسى بالحمام فأشجع
ويزيدنى غضب الأعادى قسوة ويُلمُّ بى عتب الصديق فأجْزعُ
تصفو الحياة لجاهلٍ أو غافل عما مضى منها وما يتوقَّع
ولن يغالط فى الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع
أين الذى الهرمان من بنيانه ؟ ما قومه ، ما يومه، ما المصرع؟!
تتخلف الآثار عن أصحابها حيناً ويدركها الفناءُ فتتبع

وقال عبد المجيد بن عبدون القهرى المتوفى سنة ٥١٠ ﻫ راثيا ملوك بنى الأَفطس من قصيدة طويلة ممتعة فى التاريخ والأَدب ، ومطلعها :

الدهر يفجع بين العين بالأَثر ... فما البكاءُ على الأَشباح والصور ؟
أَنهاك ، أَنهاك ، لا أَنهاك واحدة ... عن نومة بين نياب الليث والظفر
فالدهر حربٌ وإن أَبدى مُسالمة ... فالبيض والسمر مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأْس تأْخذه ... يد الضرابِ وبين الصارم الذكر
فلا يغرَّنك من دنياك نومتها ... فما صناعة عينيها سوى السمر
فيا لليالى ــ وقاك الله عثرتها ــ ... من الليالى وغالتها يد الغير
فى كل حين لها فى كل جارحة ... منا جراح ، وإن زاغت عن البصر
تسر بالشيء لكن كى تغرُّ به ... كالأَيم ثار إلى الجانى عن الزهر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها ... لم تبق منها وسلْ دنياك عن خبر

وقال أَبو ذؤيب يرثى أَولاده :

أَمن المنون وريبها تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع
قالت أمامة : ما لجسمك شاحبا ... منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع
ولقد حرصت بأَن أَدافع عنهم ... وإذا المنية أَقبلت لا تدفع
وإذا المنية أَنشبت أَظفارها ... أَلفيت كل تميمة لا تنفع
فالعين بعدهم كأَن جفونها ... كحلت بشوك فهى عورٌ تدمع
وتجلدى للشامتين أُريهم ... أَنى لريب الدهر لا أَتضعضع
حتى كأَنى للحوادث مروة ... نصف المشقر كل يوم تقرع
لا بد من تلف مقيم فانتظر ... أَبأَرض قومك أَم بأُخرى المضجع
ولقد أَرَى أَن البكاءَ سفاهة ... ولسوف يولع بالبكا من يفجع

وليأْتين عليك يوماً مَرَّة يبكى عليك معنفاً لا تسمع
فلئن بهم فَجع الزَّمان وريبه إنى بـأَهل مَوَدتى لمفجَّع
والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترَدُّ إلى قليل تقنع

وقال أَبو الحسن الأَنبارى ، المتوفى عام ٢٣٨ هـ يرثى أَبا طاهر بن بقية وزيرعز الدولة لما قتل وصلب[1] ، وهى من أَعظم المراثى ، ولم يسمع بمثلها فى مصلوب حتى أَن عضد الدولة الذى صلبه تمنى أَن لو كان هو المصلوب، وقيلت فيه :

عُلوٌّ فى الحياة وفى الممات لحقٌّ تلك إحدى المعجزات
كأَن الناس حولك حين قامُوا وُفودُ نداك أَيام الصلات
كأَنك قائِم فيهم خطيباً وكلهمُ قيامٌ للصلاة
مددت يَدَيك نَحْوَهُم احْتفاءً كمدِّهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأَرض عن أَن يضمٌّ عُلاك من بعد الوفاة
أَصاروا الجو قبرك واستعاضوا عن الأَكفان ثوب السافيات
لعظمك فى النفوس تبيت ترعى بحرَّاس وحُفاظ ثقات
وتوقدُ حولك النيران ليلا كذلك كنت أيامَ الحياة
ركبت مطية من قبل زيد علاها فى السنين الماضيات
وتلك قضيةٌ فيها تـأَس تباعِد عنك تعيير العدَاة
ولم أَرَ قبل جذعك قط جذعا تمكنَ من عناق المكرمات
أَسأْت إلى النوائبِ فاستثارت فأَنتَ قتيل ثأْرِ النائبات

(١) وذلك لما استمرت الحرب بين عز الدولة وابن عمه عضد الدولة ظفر عضد الدولة بوزير عز الولة أبى طاهر محمد بن بقية فطرحه للفيلة فقتلته ثم صلبه عند داره بباب الطرق ، وعمره نيف وخمسون سنة ، ولما صلبِ رثاه أبو الحسن محمد بن عمران يعقوب الأنبارى أحد العدول ببغداد بهذه القصيدة المذكورة .

وكنت تجيرنا من صرف دهر فعاد مُطالباً لك بالتراب
وصيرَ دهرك الإحسان فيه إلينا من عظيم السيئات
وكنت لمعشرٍ سعدًا فلما مضيت تَفرقوا بالمحسنات
عليل باطن لك فى فوادى يخفف بالدموع الجاريات
ولو أنى قدَرْت على قيام بفرضك والحقوق الواجبات
ملأْت الأَرض من نظم القوافى ونحت بها خِلاف النائحات
ولكنى أُصبر عنك نفسى مخافة أَن أُعد من الجناة
ومالك تربة فأَقولُ تسقَى لأَنك نُصب هطل الهاطلات
عليك تحية الرحمن تترى برحماتٍ غواد رائحات

وقال بهاءُ الدين زهير المتوفى عام ٦٥٦ هـ :

أَراك هجرتنى هجرا طويلا وما عَودتنى من قبل ذاكا
عهدتك لا تطيق الصبر عنى وتعصى فى ودادى من نهاكا
فكيف تغيرت تلك السجايا ومن هذا الذى عنى ثناكا
فلا والله ما حاولت غدرا فكل الناس يَغدر ما خلاكا
فيا من غاب عنى وهو روحى كيف أَطيق من روحى انفكاكا
وما فارقتنى طوعاً ولكن دهاك من المنيةِ ما دهاكا
يعزُّ على حين أُدير عينى أُفتِّش فى مكانك لا أَراكا
ختمت على ودادك فى ضميرى وليس يزال مختوماً هناكا
فوا أَسفى لجسمك كيف يبلى ويذهب بعد بهجته سناكا
فيا قبر الحبيب وددْت أَنى حملت ولو على عينى ثراكا
ولا زال السلام عليك معنى يزفُّ على النسيم إلى ذُراكا

وقالت السيدة تماضر الخنساءُ الشاعرة المخضرمة المتوفاة فى خلافة معاوية قبل سنة ٤٦ هـ ــ راثية أَخاها صخرا :

قذى بعينيك أم بالعين عُوَّار أم أَقفرتْ إذ خلت من أَهلها الدار
كأَن عينى لذكراه إذ خطرت فيضٌ يسيل على الخدين مدرار
تبكى خُناس على صخر وحق لها إذا رابها الدهر إن الدهر ضَرَّار
لا بد من ميتة فى صرفها عبر والدهر فى صرفه حول وأَطوار
يا صخرُ وراد ماء قد تورارده أَهل المواردِ ما فى وِرْدِهِ غار
وإن صخرا لحامينا وسيدنا وإن صخرا إذا نشتوا لنحار
وإن صخرا لتأْتمُّ الهداة به كأَنه علمٌ فى رأْسه نار
لم تُلفهِ جارة يمشى بساحتها لريبة حين يُخلِى بيته الجار
مثل الردينى لم تنفذ شبيبته كأَنه تحت طى البرد أَسوار
طلق اليدين بفعل الخير مُعتمد ضخم الدسيعة بالخيرات أَمَّار
حمال أَلوِية ، هباط أَوْدِيةٍ شهاد أَندية ، للجيش جرار

وقالت أَعرابية ترثى ابنها :

أَيا ولدى قد زاد قلبى تلهباً وقد حرقت منى الشؤون المدامع
وقد أَضرمت نارُ المصيبة شعلة وقد حميت منى الحشاء والأَضالع
واسأَل عنك الركب هل يخبروننى بحالك كيْما تستكن المضاجع
فلا بك فيهم مخبر عنك صادقٌ ولا فيهم من قال إنك راجع
فيا ولدى مذ غبت كدَّرت عيشتى فقلبى مصدوعٌ وطرفى دامع
وفكرىَ مسقوم وعقلىَ ذاهب ودمعى مسفوحٌ ودارى بلاقع

وقالت ليلى الأَخيلية المتوفاة سنة ٨٠ هـ :

لعَمْرُك ما بالموت عار على الفتى ... إذا لم تُصِبه فى الحياة المعاير
وما أَحدٌ حىٌّ وإن عاش سالما ... بأَخلد ممن غيبته المقابر
ومن كان مما يحدث الدهر جازعاً ... فلا بد يوماً يرى وهو صابر
وليس لذى عيش عن الموت مقصر ... وليس على الأَيام والدهر غابر
ولا الحى مما يحدث الدهر مُعتب ... ولا الميت إن لم يصبر الحى ناشر
وكل شباب أَو جديدٍ إلى بلى ... وكل امرىءٍ يوماً إلى الله صائر

وقالت عائشة هانم التيمورية المتوفاة سنة ١٣٠٠ هـ ترثى ابنتها :

إن سالَ من غرب العيون بُحورُ ... فالدهر باغ والزمان غدور
فلكل عين حق مدرار الدما ... ولكل قلب لوعة وثبور
سُتِر السنا وتحجبت شمس الضحى ... وتغيبت بعد الشروق بدور
ومضى الذى أَهوى وجرعنى الأَسى ... وغدت بقلبى جذوة وسعير
ياليته لما نوى عهد النوى ... وافى العيون من الظلام نذير
ناهيك ما فعلت بماءِ حشاشتى ... نار لها بين الضلوع زفير
لو بُثَّ حزنى فى الورَى لم يُلتفت ... لمصاب قيس والمصاب كبير
طافت بشهر الصوم كاسات الردى ... سحرا وأَكواب الدموع تدور
فتناولت منها ابنتى فتغيرت ... وجنات خدٍّ شانها التغيير
فَذوت أَزاهير الحياة بروضها ... وانقَدَّ منها مائس ونضير
لبست ثياب السقم فى صغر وقد ... ذاقت شراب الموت وهو مرير
جاءَ الطبيب ضُحى وبشر بالشفا ... إن الطبيب بطبه مغرور
وصف التجرع وهو يزعم أنه ... بالبرءِ من كل السقام بشير

فتنفست للحزن قائلة له ... عَجل ببرئى حيث أَنت خبير
وارحم شبابي إن والدتى غدت ... ثكلى يشير لها الجوى وتشير
وارأف بعين حرمت طيب الكرى ... تشكو السهاد وفى الجفون فتور
لما رأت يأْس الطبيب وعجزه ... قالت ودمع المقلتين غزير
أُماه قد كل الطبيب وفاتنى ... مما أُؤمل فى الحياة نصير
أُماه قد عز اللقاءُ وفى غدٍ ... سترين نعشى كالعروس يسير
وسينتهى المسعى إلى اللحد الذى ... هو منزلى وله الجموع تصير
قولى لرب اللحد رفقاً بابنتى ... جاءَت عروساً ساقها التقدير
وتجلدى بإزاء لحدى بُرهة ... فتراك روح راعها المقدور
أُماهُ قد سلفت لنا أُمنية ... يا حسنها لو ساقها التيسير
كانت كأَحلام مضت وتخلفت ... مُذ بان يوم البين وهو عسير
عودى إلى ربع خلا ومآثر ... قد خلفت عنى لها تأْثير
صونى جهاز العرس تذكارا فلى ... قد كان منه إلى الزفاف سرور
جرت مصائب فرقتى لك بعد ذا ... لبس السواد ونُفذ المسطور
والقبر صار لغصن قدى روضة ... ريحانها عند المزار زهور
أُماه لا تنسى بحق بُنوتى ... قبرى لئلا يحزن المقبور
فأَجبتها والدمع يحبس مَنْطِقِى ... والدهر من بعد الجوار يجورُ
بنتاه ياكبدِى ولوعة مهجتى ... قد زال صفو شانه التكدير
لاتوص ثكلى قد أَذاب فؤادها ... حُزن عليك وحسرة وزفير
أَبكيك حتى نلتقى فى جنة ... برياض خلد زينتها الحور

إن قيل «عائشة» أَقول لقد فنى ... عيشى وصبرى – والإِلـه خبير

ولهى على «توحيدة» الحسن التى قد غاب بدر جمالها المستور
قلبي وجَفنى واللسان وخالقى راض وباك شاكر وغفور
متعت بالرضوان فى خلد الرضا ما ازينت لك غرفة وقصور

وقالت المرحومة ملك حفنى ناصف ترثى المرحومة عائشة هانم تيمور :

ألا يا موت وَيحك لم تراع حقوقا للطروس ولا اليراع
تركت الكتب باكية بكاءً يشيب الطفل فى عهد الرضاع
ولم تهب الفضائل والمعالى وطول السعى فى خير المساعى
ولم يمنعك مما رُمتَ نثر ولا شِعر ولا حسن ابتداع
نراك تجود بالأَرزاء حتى عددنا البخل من كرم الطباع
فذب يا قلب لاتَك فى جمود وزد يا دمع لاتك فى امتناع
ولا تبخل على وكن جموماً فكنز العلم أمسى فى ضياع
سنبقى بعد (عائشةٍ) حيارى كسرب فى الفلاة بغير راع
لقد فقدت ولم تفقد علاها وهل شمس تغيب بلا شعاع
هى الدر المصون ببطن أَرض وقد كانت كذلك فى قناع
هى البحر الخضم وما سمعنا بأَن البحر يُدفن فى التلاع
وكانت للمكارم خير عون وللخيرات كانت خير داع
لها القدْحُ المعلى فى العوالى وفى نشر المعارف طول باع
فياشمس المحامد غِبتِ عنا وخلفت البكاءَ لكل ناع
ويا خير النساء بلا خلاف وقدوتنا بلا أَدنى نزاع
لقد أَحييت ذكر نساء مصر وجدَّدتِ العلا بعد انقطاع
وشِدْت صروح طهر باذخات محصنة كتَحصين القلاع

وقال المرحوم حفنى ناصف راثياً المرحوم عبد الله فكرى :

ليدّع المدعون العلم والأُدباءُ فقد تغيب (عبد الله) واحتجبا
ولينتسب أدعياءُ الفضل كيف قضت آراءهم إذ قضى من يحفظ النسبا
وليفخر اليوم قومٌ باليراع ، ولا خوف عليهم فمن يخشونه ذهبا
وليرْقَ من شاءَ أَعواد المنابر إذ مات الذى يتقيه كلٌّ من خطبا
لو عاش لم يطرق الأَسماع ذكرهم فى طلعة الشمس من ذا يصرع الشهبا
فليسمُ من شاءَ بالإنشاءِ لاعجب مضى الذى كان من آياته عجبا
طودٌ من الفضل من بعد الرسوخ هوى
وكوكب بعد أَن أَبدى الهدى غربا
أَجل فقد مات (عبد الله) وا أَسفاً وأَوحشت مصر من (فكرى) فواحربا
فكل نفس لعلياه شكت وبكت وكل فكر (بفكرى) ماج واضطربا
قضى الحياة ونصر الحق ديدنه لا ينثنى رهباً عنه ولا رغبا
سارت جنازته والعلم فى جزع والفضل ينْدُبُهُ فى ضمن من ندبا

وقال أَحمد شوقى يرثى المرحوم مصطفى كامل المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ :

المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما فى مأْتم والدّانى
يا خادم الإسلام أَجر مجاهدِ فى الله ، من خلد ومن رضوان
الله يشهد أَن موتك بالحجا والجد ، والإقدار ، فأَنت البانى
إن كان للأَخلاق ركن قائم فى هذه الدنيا ، فأَنت البانى
بالله فتش عن فؤادك فى الثرى هل فيه آمال وفيه أَمانى ؟
وجدانك الحى المقيم على المدى ولربَّ حى ميت الوجدان
الناس : جار فى الحياة لغاية ومضللٌ يجرى بغير عنان

والخلد فى الدنيا وليس بهينٍ ... عليا المراتب لم تتح لجبان
فلو ان رسل الله قد جبنوا لما ... ماتوا على دين ولا إيمان
المجد والشرف الرفيع صحيفة ... جعلت لها الأَخلاق كالعنوان
وأَحب من طول الحياة بذلةٍ ... قِصرٌ يريك تقاصُرَ الأَقران
دقات قلب المرءِ قائلةٌ له : ... إن الحياة دقائقٌ وثوَانى
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها ... فالذكر للإِنسان عمرٌ ثانى
للمرءِ فى الدنيا وجمٍّ شؤونها ... ما شاءَ من ربح ومن خسران
فهى القضاء لراغبٍ متطلع ... وهى المضيق لمؤثر السُّلوان
الناس غادٍ فى الشقاءِ ورائح ... يشقى له الرحماءُ ، وهو الهانى
ومنهم لم يلقَ إلا لذة ... فى طيِّها شجنٌ من الأَشجان
صبر على نعم الحياة وبؤسها ... نعم الحياة وبؤسها سيَّان
يا طاهر الغدوات والروحات والخـــــطرات ، والإِسرار والإِعلان
هل قام قبلك فى المدائن فاتحاً ... غاز بغير مهند وسنان
يدعو إلى العلم الشريف وعنده ... أَن العلوم دعائم العمران
لفوك فى علم البلاد منكساً ... جزع الهلال على فتى الفتيان
ما احمرَّ من خجل ولا من رتبة ... لكنما يبكى بدمع قانى
يرجون نعشك فى السناءِ وفى السنا ... فكأَنما فى نعشك القمران
وكأَنه نعش (الحسين) بكربلا ... يختال بين بكى وبين حنان
فى ذمة اللهِ الكريم وبرِّه ... ما ضم من عرف ومن إحسان
ومشى جلال الموت وهو حقيقة ... وجلالك المصدوق يلتقيان
شقت لمنظرك الجيوب عقائلٌ ... وبكتك بالدمع الهتون غوانى
والخلق حولك خاشعون كعهدهم ... إذ ينصِتون لخطبة وبيان

يتساءلون : بأَى قلب تُرتقى بعدُ المنابر ، أَم بأَى لسان
فلو أن أَوطاناً تصور هيكلا دفنوك بين جوانح الأَوطان
أَو كان يحمل فى الجوارح ميت حملوك فى الأَسماعِ والأَجفان
أَو صيغ من غرِّ الفضائل والعلى كفنٌ لبست أَحاسن الأَكفان
أَو كان للذكر الحكيم بقية لم تأْت بعد رثيت فى القرآن
ياصب مصر وياشهيد غرامها هذا ثرى مصر ، فنم بأَمان
اخلع على مصر شبابك عالياً والبس شباب الحور والولدان
فلعل مصراً من شبابك ترتدى مجدا تتيه به على البلدان
فلو أَن بالهرمين من عزماته بعض المضاء تحرَّك الهرمان
علمت شبان المدائن والقرى كيف الحياة تكون فى الشبان
مصر الأَسيفة ريفها وصعيدها قبرٌ أَبر على عظامك حانى
أَقسمت أَنك فى التراب طهارة ملك يهاب سؤاله الملكان

وقال ابن هانئ الأَندلسى يرثى إبراهيم بن جعفر بن على :

وهب الدهر نفيساً فاسترد ربما جاد بخيلٌ فحسد
خاب من يرجو زماناً دائماً تعرف البأْساء منه والنكد
فلقد أَذكر من كان سها ولقد نبه من كان رقد
قل لمن شاء فقل ما شاءه إن خصمى فى حياتى لأَلد
منتض نصلا إذا شاء مضى رائشٌ سهماً إذا شاء قصد
مات من لو عاش فى سرباله غلب النور عليه فاتقد
إنما كان شهاباً ثاقباً صعق الليل له ثم خمد
لا رجاء فى خلود كلبا وارد الماء الذى كان ورد

* * *

وقال شاعر النيل أَحمد شوقى راثياً :

خلقنا للحياة والممات ومن هذين كل الحادثات
ومن يولد يعش ويمت كأَن لم يمرّ خياله بالكائناتِ
ومهد المرءِ فى أَيدى الرواقى كنعش المرءِ بين النائحات
وما سلم الوليد من اشتكاة فهل يخلو المعمِّر من أَذاة
هى الدنيا قتال نحن فيه مقاصد للحسام وللقناة
وكل الناس مدفوع إِليه كما دفع الجبان إِلى الثباتِ
نُرَوَّع ما نُرَوَّع ثم نرمى بسهم من يد المقدور آت

وقال المرحوم حافظ إِبراهيم راثياً الإِمام الحكيم الشيخ محمد عبده :

سلام على الإِسلام بعد محمد سلامٌ على أَيامه النضرات
على الدين والدنيا على العلم والحجى على البر والتقوى على الحسنات
لقد كنت أَخشى عادى الموت قبله فأَصبحت أَخشى أَن تطول حياتى
فوالهفى والقبر بينى وبينه على نظرة من تلكم النظرات
وقفت عليه حاسر الرأْس خاشعاً كأَنى حيال القبر فى عرفات
أَبنت لنا التنزيل حكما وحكمة وفرَّقت بين النور والظلمات
ووقفت بين الدين والعلم فى الدجى فأَطلعت نورا من ثلاث جهات
وقفت (لهانوتو ، ورينان) وقفة أَمدك فيها الرُّوح بالنفحات
وخفت مقام الله فى كل موقف فخافك أَهل الشك والنزعاتِ
وأَرصدت للباغى على دين أَحمد شباة يراع ساحر النفثات
مشى نعشه يختال عجباً بربه ويخطر بين اللمس والقبلات
بكى الشرق فارتجت له الأَرض رجة وضاقت عيون الكون بالعبرات

بكى عالم الإسلام عالم عصره ... سرَاج الدياجى هادمَ الشبهات
فياوَيْح (للشورى) إذا جدَّجدها ... وطاشت بها الآراءُ مشتجرات
وياويح (للفتيا) إذا قيل مَن لها ... وياويح للخيرات والصدقات
بكينا على فردٍ، وإن بُكاءنا ... على أَنْفُس لِلّهِ مُنْقَطَعَات
تعهدها فضل الإمام وحاطها ... بإحسانه والدهر غير مواتى

وقال جمال الدين بن نباتة، المتوفى عام ٧٦٨ ﻫ، معزياً عن مَلِك، ومهنئاً بملك:

هَناءٌ مَحا ذاك العزاء المُقدَّما ... فما عَبس المحزون حتى تَبسَّما
ثغورُ ابتسام فى ثغور مدامع ... شبيهان لايمتاز ذو السبق منهما
تدِر مجارِى الدمع والبشر واضح ... كوابل غيث فى ضحى الشمس قد همى
سقى الغيث عنا تربة الملك الذى ... عهدنا سجاياه أعزُّ وأكرَما
ودامَت يد النعمى على الملك الذى ... تدانت به الدنيا وعز به الحمى
مليكان: هذا قد هَوى لضريحه ... برغمى، وهذا للأَسرة قد سما
ودوحة فضل شاذوى تكافأَت ... فغصن ذوى منها وآخر قد نما
كأَن ديار الملك غاب إذا انقضى ... به ضيغم أنشأَ الدهر ضيغما
فإن تلك أَوقات المؤيد قد خلت ... فقد جددت علياك وقتاً وموسما
هو الغيث ولى بالثناء مشيعاً ... وأَبقاك بحرا بالمواهب مفعما
إذا الغيث صلى خلف جدواك راكعاً ... ثنت عزمه للإعتراف فسلما
يراعك يوم السلم ينهل ديمة ... وسيفك يوم الحرب ينهل فى الدما
فعش للورى واسلم سعيدا مهنأً ... فحظ الورى فى أَن تعيش وتسلما
أَعدت زمان البشر والجود والثنا ... إلى أَن ملأَت العين والكف والفما

* * *

وقال المرحوم حافظ إبراهيم يرثى الدكتور يعقوب صروف، صاحب مجلة المقتطف، المتوفى عام ١٩٢٧ [1] :

أبكى وعين الشرق تبكى معى ... على الأديب الكاتب الألمعى
جوى عصى الدمع من أجله ... فزاد فى الجود على الطيع
نقص من الشرق ومن زهوه ... فقد اليراع المعجز المبدع
ليس لمصر فى رجالاتها ... حظ، ولا للشام فى أروع
مصاب (صروف) مصاب النهى ... فليبكه كل فؤاد يعى
(صروف) لاتبعد فلست الذى ... يطويه طاوى ذلك المضجع
أسكتك الموت ولكنه ... لم يسكت الآثار فى المجمع
ذكراك لا تنفك موصولة ... فى معهد العلم وفى المصنع

الباب الثامن فى الحكم والنصائح

قال عبيد بن الأبرص الأسدى أحد فحول شعراء الجاهلية :

كفى زاجرا للمرء أيام دهره ... تروح له بالواعظات وتغتدى
إذا أنت طالبت الرجال نوالهم ... فعف ولا تطلب بجهد فتنكد
عسى سائل ذو حاجة إن منعته ... من اليوم سؤلا أن يسرك فى غد
ولا تقعدن عن سعى ما قد ورثته ... وما اسطعت من خير لنفسك فازدد
إذا ما رأيت الشر يبعث أهله ... وقام جناة الشر بالشر فاقعد
وبالعدل فانطق إن نقطت ولاتكن ... لذى الذم فاذمه وذا الحمد فاحمد
عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدى

(١) هو الدكتور يعقوب صروف بن نقولا . ولد فى بلدة الحدث بقرب بيروت وتعلم بها ونبغ فى العلوم والمعارف فنال الاجازات العالية سنة ١٨٧٠ م، ثم نزح الى القاهرة وأسس مع زميله الدكتور فارس نمر باشا مجلة المقتطف وجريدة المقطم، ومات سنة ١٩٢٧ م .

ولا تـأملن ود امرئ قل خيره ... ولا تك عن وصل الصديق بـأحيد
إذا أنت حملت الخؤون أمانة ... فإنك قد أسندتها شر مسند
ولا تظهرن ود امرئ قبل خبره ... وبعد بلاء المرء فاذمم أو احمد

وقال أبو بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدى المتوفى سنة ٣٢١ هـ :

ياظبية أشبه شيء بالمها ... ترعى الخزامى بين أشجار النقا(١)
أما ترى رأسى حاكى لونه ... طرة صبح تحت أذيال الدجى(٢)
واشتعل المبيض فى مسوده ... مثل اشتعال النار فى جزل الغضى(٣)
فكان كالليل البهيم حل فى ... أرجائه ضوءُ صباحٍ فانجلى(٤)
وغاض ماءُ شرتى دهر رمى ... خواطر القلب بتبريح الجوى(٥)
وآض روض اللهو يبساً ذاوياً ... من بعد ما قد كان مجاج الثرى(٦)
وضرم النأىُ المشب جذوة ... ما تـأتل تسفع أثناء الحشى(٧)
واتخذ التشهيد عينى مألفا ... لما جفا أجفانها طيف الكرى(٨)

---

(١) الظبية : الأنثى من الغزلان والمها جمع مهاة ، وهى أنثى البقر الوحشى ، الخزامى نبت معروف طيب الرائحة ، النقا اسم موضع .

(٢) اما اصلها ان ما فان شرطية وما زائدة ، وترى أصلها ترين وترى فعل الشرط وجوابه فيما بعد ، فكل الخ . حاكى أشبه طرة صبح يعنى وجه صبح وطرة كل شيء حافته وجانبه . (٣) اشتعل : فشا وانتشر ، جزل ما غلظ من الحطب ، الغضى جمع غضاة وهى نوع من الشجر يبقى جمره طويلا (٤) فكان كالليل البهيم كناية من المظلم جدا ، والبهيم هو الأسود الذى لا ضوء فيه حل فيه نزل ارجائه جمع رجا بالقصر الطرف فانجلى فانكشف وظهر . (٥) غاض نقص أو ذهب ، الشرة الحدة والنشاط استعيرت هنا للشباب والتبريح البلوغ فى المشقة غايتها .

(٦) آض رجع ، يبسا يابسا ، ذاويا ذابلا ، مجاج من قولهم مج الغصن الماء اذا ألقاه ، الثرى بالقصر التراب الندى . (٧) ضرم أشعل وأوقد النأى ، البعد : المشب المفرق ، جذوة هى الجمرة العظيمة ما تأتلى ما تقصر ، تسفع تحرك وتهلك ، أثناء الحشى يعنى مارق من البطن وأراد به القلب والجوف . (٨) التسهيد والسهاد : السهر وهو عدم النوم ، مألفا صاحبه . والمألوف هو الموضع الذى تقع فيه الألفة أى الاجتماع والصحبة ، جفا هجر ، والأجفان أغطية العيون واحدها جفن ، =

فكل ما لاقيتُهُ مُغتَفرٌ ... فى جنب ما أسأرهُ شحط النوى (١)

لو لابس الصخر الأَصمَّ بعضُ ما ... يلقاه قلبي فضَّ أَصلاد الصفا (٢)

إذا ذوى الغصن الرطيب فاعلمنْ ... أَن قصاراه نفادٌ وتوى (٣)

شجيتُ لابل أَجرضتنى غصة ... عنودُها أَقتل لى من الشجى (٤)

إن يحم عن عينى البُكا تجلدِى ... فالقلب موقوف على سُبل البكا (٥)

لو كانت الأَحلام ناجتنى بما ... أَلقاها يقظان لأَصمانى الردى (٦)

منزلة ما خلتها يرضى بها ... لنفسه ذو أَدب ولا حجا (٧)

ما خلت أَن الدهر يثنينى على ... ضراء لايرضى بها ضب الكدى (٨)

شيم سحاب خلب بارقه ... وموقف بين ارتجاء ومنى

أَرمق العيش على برض فإن ... رمت ارتشافا رمت صعب المنتسى (٩)

أَراجع لى الدهر حولا كاملا ... إلى الذى عود أَن لا يرتجى

يا دهر إن لم تك عتبى فاتئد ... فإن إروادك والعتبى سوى (١٠)

= الطيف ما يراه الانسان من خيال المحبوب . الكرى النوم .

(١) مغتفر : متجاوز عنه ، أسأره أبقاه شحط أبعد ، النوى البعاد .

(٢) لابس خالط ، الأصم الصلب فض كسر ، وأصل الانفضاض المتفرق وأصلاد جمع صلد وهى الحجارة الصلبة الشديدة . (٣) ذوى جف وذبل ، الرطيب الناعم لرطب قصاراه آخر أمره وغايته ، نفاد فناء وذهاب ، وتوى بالتاء الهلاك . (٤) شجيت : حزنت أو غصصت ، والغص الاختناق باللقمة يقال شجيب بالعظم أى اختنقت به وأجرضتنى خنقتنى وغصة الموت والجرض هو الاختناق بالريق وعنودها معارضها . (٥) ان حرف شرط يحم فعل الشرط بمعنى يمنع وتجلدى تصبرى فالقلب الشرط وسبل الطرق واحدها سبيل . (٦) الأحلام : جمع حلم وهو ما يراه الانسان فى منامه وناجتنى أخبرتنى ، لأصمانى لقتلنى مكانى بلا تأخير ، الردى الهلاك . (٧) المنزلة : الدرجة ، ما خلتها : ما حسبتها ، الحجا : العقل . (٨) يثنينى يعطفنى : ضراء : الصخر الصماء ، الكدى بالضم جمع كدية وهو ما ارتفع من الصخور . (٩) أرمق العيش أعطانى منه بقدر ما يسد رمقى ، برض العطاء القليل . (١٠) العتبى : الرضى ، فاتئد : ارفق ، والارواد الرفق .

رفهْ على ، طالما أنصبتنى وأستبق بعض ماء غصن ملتحى (١)
لاتحسبن يا دهر أنى ضارعٌ لنكبة تعرقنى عرق المدَى (٢)
مارست من لو هوت الأفلاك من جوانب الجو عليه ما شكا (٣)
لكنها نفثة مصدور إذا جاش لعامٌ من نواحيها غما (٤)
رضيت قسرا وعلى القسر رضى من كان ذا سخط على صرف القضا (٥)
إن الجديدين إذا ما استوليا على جديد أدنياه للبلى (٦)
ما كنت أدرى والزّمان مولع بشت ملموم وتنكيث قوى (٧)
أن القضاء قاذفى فى هرة لا تستبل نفس من فيها هوى (٨)
فإن عثرت بعدها إن وألت نفسى من هاتا فقولا لا لعا (٩)
وإن تكن مدّتها موصولة بالحتف سلت الأَسى على الأَسى (١٠)
إنّ امرؤ القيس جرى إلى مدى فاعتاقه حمامه دون المدى (١١)

(١) رفه وسع : أنصبتنى أتعبتنى ، استبق أبق ، ملتحى الذاهب لحاه أى قشره الظاهر . (٢) ضارع دليل خاشع ، النكبة : المصيبة والشدة ، تعرقنى تزيل نحمى عن عظمى ، المدى بالضم جمع مدية وهى السكين .
(٣) مارست بتاء الخطاء عالجت هوت سقطت ، الأفلاك جمع فلك وهى التى تجرى فيها الشمس والقمر والنجوم ، جوانب الأعراف ، والجو الفضاء الذى بين السماء والأرض . (٤) لكنها الضمير فيها كناية عن هذه القصيدة التى قالها ، النفثة ما يلقيه الرجل من فيه اذا بصق ، المصدور الذى يشتكى صدره ، جاش علا وارتفع . (٥) القسر القهر ، السخط الغضب . (٦) الجديدين الليل والنهار استوليا غلبا وملكا وأدنياه قرباه . (٧) ما كنت أعلم وجاء بالمعمول فى البيت الذى بعده .
(٨) قاذفى رام بى والهوة الحفرة التى يتسع أسفلها ويضيق أعلاها ، لا تستبل ، أى ولا تبرأ ولا تفيق هوى سقط . (٩) عثرت زلت ، وقوله لالعا أى نجا وهو دعاء للعاثر بعدم السلامة . (١٠) ضمير مدتها عائد على النكبة ، الحتف والموت ، الأسى بضم الهمزة جمع أسوة وهى التعزية . (١١) امرؤ القيس معلوم أنه كان هو طريد أبيه لعدم قوله الشعر وخلاصة قصته أن بنى أسد قتلت أباه وكان ملكا عليهم فبعد عناء توجه الى قيصر ملك الروم واستنجده على قتلة أبيه فوعده وكان قد تعشق ابنة قيصر فحضر أحد أعدائه من بنى أسد وأخبر قيصر بعشقه لها فكره =

وخامرت نفس أَبى الجبر الجوى حتى حواه الحتف فيمن قد حوى(١)
وابن الأَشج القيل ساقته نفسه إلى الردى حذار إشمات العدى(٢)
واخترم الوضاح من دون التى أملها سيف الحمام المنتضى(٣)
فقد سما قبلى يزيد طالباً شأْو العلا فما وهى ولا ونى(٤)
فاعترضت دون الذى رام وقد جد به الجد اللهيم الأَربى(٥)
هل أنا بدع من عرانين علا جار عليهم صرف دهر واعتوى(٦)
فإن أَنالتنى المقادير الذى أكيده لم آل فى رأْب الثأى(٧)
وقد سما عمرو إلى أَوتاره فاحتط منها كل عالى المستمى(٨)

= ذلك وكره أن يقتله أو يخذله بعد ما وعده فأرسل معه عسكرا ثم أردفه بحلة ملوكية مسمومة فلبسها فمات ، المدى الغاية ، فاعتاقه وعاقه بمعنى عوقه ، وحمامه بكسر الحاء موته . (١) خامرت خالجت ، أبو الجبر من ملوك كندة خلاصة قصته أنه تألبت قومه عليه فاستعان بكسرى فأعطاه جيشا من أساورته فرأوا بلاد العرب فاستوحشوها فسموه فمرض وعندها طلبوا الاذن بالرجوع فأذن لهم ثم بعد مدة مات على طريق اليمن بالمرض الذى نشأ من السم . (٢) ابن الأشج هو عبد الرحمن بن الأشعث ، خلاصة قصته أنه قد ولاه الحجاج سجستان فخرج ثم هرب الى « ريتقل » ملك الترك فبذل الحجاج الى ريتقل مالا فسلمه الى أعوان الحجاج وكان فى الطريق مقيداً معه رجل من بنى تميم على سطح برج فرمى بنفسه من أعلى البرج فمات هو والتميمى وحمل رأسه الى الحجاج . (٣) اخترم أى أهلك اقتطع . (٤) سما علا : ويزيد هو ابن المهلب وخلاصة قصته أنه خرج على بنى أمية وخطب له بالبصرة وسلم عليه بالخلافة فدست بنو أمية رجلا من بنى كلب فقتله واستتب الأمر لهم ، والشأو الغاية ، العلا الشرف ، فما وهى ضعف ولا ونى ولا فتر . (٥) فاعترضت عارضت رام طلب، جد بالفتح أسراع الجد وبالكسر العزم : اللهيم بالتصغير والأربى اسمان من أسماء الداهية وهما فاعل اعترضت . (٦) بدع الذى يكون أول مخترع من كل أمر ، عرانين الأشراف واحدها عرنين وهو الأنف . (٧) أنالتنى أعطتنى ، والمقادير جمع مقدار ، وهو القدر ، أكيده أطلبه واحتال عليه ، لم آل لم أقصر ، رأب أصلح ، الثأى الفاسد . (٨) سما علا وأوتار جمع وتر وهو طلب الدم ، فاحتط فأنزل المستمى المكان العالى المرتفع .

فاستنزل الزَّباءَ قسرا وهى من عقاب لوح الجو أعلى منتمى(١)
وسيف استعلت به همته حتى رمى أبعد شأْو المرتمى(٢)
فجرع الأَحبوش سما ناقعاً واحتل من غمدان محراب الدُّمى
ثم ابن هند باشرت نيرانه يوم أوارات تميما بالصلا(٣)
ما اعتن لى يأْس يناجى هِمتى إلا تحدَّاه رجاء فاكتمى(٤)
أَلية باليعملات يرتمى بها النَّجاءُ بين أجواز الفلا(٥)
خوض كأَشباح الحنايا ضمر يرعفن بالأَمشاج من جذب البرى(٦)

(١) الزباء : اسم امرأة ، عقاب طائر معلوم وهو من سباع الطير وجمعه عقبان ولوح الهواء الذى بين السماء والأرض منتمى موضع مرتفع اليه وخلاصة قصة الزباء وعمرا أن الزباء لما قتلت جذيمة الأبرش قعد عمرو بن أخته مكانه وكان قصير وزيره كما كان لخاله وكان وقت قتل خاله نجا على فرس تسمى العصى فطلب قصير أن يجدع له عمرو أنفه وأذنيه دهاء منه لأخذ ثأر خال عمرو فرحل قصير الى الزباء على هذه الحالة فاستأمنت له ثم بعد مدة وعناء أتى بالرجال مدججة بالسلاح فى جوالق على ظهور الجمال فهربت الزباء الى نفق لها لتهرب منه فرأت عمرا على باب النفق فمصت خاتما مسموما كان بيدها وقالت : « بيدى لا بيد عمرو » وماتت مكانها فاستولى على ملكها . (٢) سيف يعنى سيف بن ذى يزن ملك اليمن ، استعلت علت ، والشأو الغاية ، المرتمى موضع وهو الذى يقال له الفرض والهدف والقرطاس ، فجرع فسقى ، الجرع القليل من الماء والأحبوش ملك الحبش ، ونافعا بالفا ، واحتل نزل بالمكان غمدان موضع بصنعاء اليمن ومحراب ههنا بصنعاء . (٣) ابن هند هو عمرو عم النعمان ابن المنذر وكان له أخ مسترضع من بنى تميم فقتل لهم ناقة فقتله صاحبها فنذر عمرو المذكور أن يقتل من بنى تميم مائة فأجج نارا وألقى فيها واحدا منهم الى تسعة وتسعين فبينما هم كذلك يرجون تمام المائة اذ جاء رجل من البراجم يظن هناك وليمة لقتار اللحم فألقى فى النار تماما للمائة، وباشرت خالطت يوم أوارات يوم معروف من أيام العرب أورات اسم موضع ، تميما قبيلة ، الصلا بالفتح وهج النار . (٤) ما اعتن ما اعترض تحداه اعتمده وقصده فاكتمى استتر وتغطى . (٥) الية قسما باليعملات جمع يعملة هى الناقة الصلبة الشديدة ، النجاء السرعة ، أجواز جمع جوز وجوز كل شيء وسطه والفلا جمع فلاة وهى الصحراء . (٦) خوص الابل الغائر العيون من الهزال ، والأشباح الأشخاص جمع شبح ، والحنايا جمع حنية والحنية القوس وضمر جمع ضامر وهو المهزول ، ويرعفن =

يرسبن فى بحر الدجى وبالضحى ... يطفون فى الآل إذا الآلُ طفا (١)

أَخفافهن من حفا ومن وجى ... مرثومةٌ تخضب مبيضً الحصا (٢)

يحلن كل شاحب محقوقف ... من طول تدآب الغدو والسرى (٣)

بارٍّ برى طول الطوى جثمانه ... فهو كقدح النبغ محنى القرا (٤)

ينوى التى فضلها رب العلى ... لما دحا تربتها على البنى (٥)

حتى إذ قابلها استعبر لا ... يملك دمع العين من حيث جرى (٦)

ثمت طاف وانثنى مستلماً ... ثمت جاءَ المروتين فسعى (٧)

وأَوجب الحجَّ وثنى عمرة ... من بعد ما عج ولبى ودعا (٨)

ثمت راح فى الملبين إلى ... حيث تحجى المأْزمان ومنى (٩)

= يسلن مأخوذ من الرعاف وهو سيلان الدم من الأنف والأمشاج الأخلاط جمع مشج وهو ما يسيل من الأنوف ، ومن جذب من سوق والبرى جمع برة وهى الحلقة التى تكون فى أنف البعير .

(١) يرسبن يغبن والرسوب والخوض فى الماء المغيب فيه ، والدجى جمع دجية وهى الظلمة ويطفون يعلون ، والآل سحاب كالماء يرى عندما ترتفع الشمس . (٢) أخفافهن جمع خف للابل بمنزلة الحوافر للخيل وحفا مقصور : وهو رقة أخفاف الابل من كثرة المشى ، ووحى فى الرجل يصيبها من الحفا ومرثومة مشقوقة من الحجارة ، وتخضب تصبغ .

(٣) شاحب متغير اللون من السفر وغيره ، ومحقوقف معرج وتدآب مداومة والسرى سير الليل . (٤) بار مطيع والجمع أبرار . تعبير الشاحب وبرى من برى القلم وهو اضعافه وترقيقه والطوى الجوع وجثمانه جسمه وقدح عود صلب تعمل منه السهام والنبغ شجر يعمل منه القسى واحدها نبغة ومحنى معوج ، والقرا الظهر . (٥) ينوى يقصد والتى فضلها رب العلى يعنى مكة ، ودحا بسط والبنى جمع بنية وهو الشىء المبنى . (٦) استعبر يبكى وهو مأخوذ من العبرة وهى الدمعة .

(٧) ثمت هى ثم زيدت عليها تاء التأنيث وانثنى انعطف ، ومستلما لمس الحجر الأسود بيده أو بفمه والمروتين المراد بهما الصفا والمروة فسعى فمشى . (٨) أوجب الحج ألزمه نفسه وثنى عمرة الزم نفسه مع الحج عمرة ، عج رفع صوته بالدعاء والتلبية . (٩) راح خرج بالروح وهو الخروج بالعشى والملبين جمع ملب وهو المجيب بالتلبية ، تحجى اقام .

ثم أتى التعريف يَقرو مخبتاً ... مواقفاً بين أُلال فالنقا (١)

واستأْنف السبعَ وسبعاً بعدها ... والسعى ما بين العقاب والصوى (٢)

وراح للتوديع فيمن راح قد ... أَحرزَ أَجراً وقلى هُجرَ اللغا (٣)

بذاك أم بالخيل تعدو المرطى ... ناشزة أَكتادُهَا قبٌّ الكلى (٤)

شعثا تعادى كسراحين الغضا ... ميل الحماليق يبارين الشبا (٥)

يحملنَ كل شمرى باسل ... شهم الجنان خائض غمر الوغى (٦)

يغشى صلا الحرْبِ بحديه إذا ... كان لظى الحرب كريه المصطلى (٧)

لو مثل الحتف له قرْناً لما ... صدته عنه هيبة ولا انثنى (٨)

ولو حمى المقدار عنه مهجة ... لرَامها أَوْ يستبيحُ ما حمى (٩)

تغدو المنايا طائعات أَمْره ... ترضى الذى يرضى وتأْبى ما أَبى (١٠)

---

(١) التعريف وعرفات واحد وهو اسم موضـع من مناسك الحج. ويقرو : يتتبع المواضع مخبتا متواضعا لله تعالى ، ألال موضع بعرفات ، النقا الرمل . (٢) استأنف ابتدأ أنسبع رمى الجمار السبع وسبعا أراد الثانية التى تلى الأولى ، والسعى المشى والعقاب جمع عقبة .

(٣) وراح للتوديع ، لتوديع البيت الحرام كما يفعل الحاج بأن يطوف به سبعا ويسعى بين الصفا والمروة ، أحرز أجرا مـلكه وأصـابه ، وقلى أبغض ، وهجر بضم الهاء القبيح من الكلام ، واللغا الباطل من الكلام .

(٤) أقسم بذاك أم بالخيل ، تعدو تجرى ، المرطى ضرب من العدو وهو السهل منه ، وناشزة مرتفعة ومنه قولهم فعدت على نشز من الأرض أى مرتفع ، وأكتادها جمع كتـد وهو العظـم الذى يكون فى رأس الكتف وقب ضامرة . (٥) شعثا مغبرين يعنى مقربين من الله تعالى ، تعادى أصله تتعادى تسابق ، سراحين ذئاب الواحد سرحان الغضا شـجر غليظ يدوم جمره ، ميل الحماليق مائلة العيون : يبارين . يعـارض ، الشـبا جمع شباة : وشباة كل شىء وحده . (٦) يحملن أى الخيل شمرى مأخوذ من التشمير ، باسل شجاع ، شهم الجنـان حـديد القلب ، خائض داخل غمر الماء الكثير ، والحرب . (٧) يغشى يدخل ، صلا حر النار كلظى . (٨) مثل صور ، الحتف الهلاك ، وقرنك الذى يقارنك فى بطش أو قتال أو علم . (٩) حمى منع ، المقدار القدر ، المهجـة النفس ، لرامها لطلبهـا وأو بمعنى حتى ، ويستبيح . يدرك ذلك الشىء نافذا أمره فيه وهو منصوب بأن مضمرة بعد أو . (١٠) تغـدو تأتى بالغدوة وورد تعدو أى تسرع .

بل قسماً بالشمِّ من يعرب هل ... لمقسم من بعد هذا منتهى(١)

هم الألى أَجْروا ينابيع الندى ... هامية لمن عرا أَو اعتفى(٢)

هم الذين دوخوا من انتخى ... وقوَّمُوا من صعر ومن صغا(٣)

هم الذين جرعوا فما حَلوا ... أَفاوق الضيم ممراة الحسا(٤)

أَزال حشو نثرة مَوْضونة ... حتى أَوَارى بين أَثناءِ الحشى(٥)

وصاحبي صارم فى منه ... مثل مدب النمل يعلو فى الربى(٦)

أَبيض كالملح إِذا انتضيته ... لم يلق شيئاً حده إِلا فرى(٧)

كأَن بين عيره وغربه ... مفتـأَداً تـأَكلت فيه الجُذَى(٨)

يرى المنون حين تقفو إِثرَه ... فى ظلم الأَكباد سبلا لا ترَى(٩)

ومشرف الأَقطار خاط نخضه ... حابى القصير جرشع عرد النسى(١٠)

---

(١) قسما يمينا ، بالشم الطوال أو أشرف الناس ، يعرب قبيلة من العرب تنسب الى يعرب بن يشجب بن قحطان ، لمقسم لحالف منتهى الغاية .

(٢) ينابيع جمع ينبوع الندى الجود والكرم وهامية سائلة ، عرا قصد وتعرض للطلب ، أو أعتفى أو طلب من غير تعرض .

(٣) دوخوا أذلوا ، انتخى تكبر ، صعر تكبر أيضا وأصل الصعر الميل وهو أن يميل الانسان خده من التكبير والصغا الميل .

(٤) جرعوا سقوا ما حلوا خاصموا ، أفاوق هو شرب مقطع بنفس بعد نفس : الضيم الذل ممراة مدراة الحسا جمع حسوة وهو أخذك الشيء بفمك متجرعا اه قليلا . (٥) أزال جواب القسم محذوف منه لا حشو ما أدخل فى جوفه فكأنه صار حشوا اذا لبسها ، نثرة درع واسع موضونة محكمة النسج ، أوارى أغطى وأثناء جمع ثنا وهو ما تثنى منها أى تراكب على بعض ، الحشى جمع حشوة وهو الشوب المجتمع . (٦) صاحبى يعنى سيفه وفرسه ، مدب النمل ودبيبه مشيه . (٧) أنضيته جردته من غمده ، وفرى قطع . (٨) العير هنا الموضع الناتيء فى وسط السيف ، الفرب الحد يعنى حد السيف مفتأ موضع النار أكل بعضها بعضا والجذى جمع جذوة وهى الجمرة العظيمة . (٩) المنون المنية وتقفو تتبع ، سبلا طرقا . (١٠) مشرف مرتفع عال ، والأقطار النواحى ، خاط غليظ، والنخض اللحم ، مرتفع ، القصير ضلع فى الجنب وهى الضلع السفلى جرشع غليظ الأضلاع أو الضخم الصدر وهو محمود فى الخيل وعرد الشديد من كل شيء ، النسى عرق مستبطن الفخذ يمر بالساق والعروق حتى ينتهى الى الرسغ .

قريب ما بين القطاةِ والمطا بعيدُ ما بين القذَال والصَّلا (١)

سامى التليل فى دَسِيع مفْعم رحب اللبان فى أَمِينات العجى (٢)

رُكبن فى حواشبِ مكتنة إلى نسور مثل ملفوظ النَّوَى (٣)

يرضح بالبيد الحصى فإن رقى إلى الربى أَوْرَى بها نار الحبا (٤)

يُديرُ إغليطين فى ملمومة إلى لموحين بأَلحاظ اللأَى (٥)

مداخل الحلق رحيبٌ شجره مخلوْلق الصهوة ممسودٌ وأَى (٦)

يجرى فتكبو الريح فى غاياته حَسرى تلوذ بجراثيم السحا (٧)

لو اعتسفت الأَرض فوق متنه يجوبُها ما خفت أَن يشكو الوجى (٨)

تظنه وهو يُرَى محتجباً عن العيون إن دأَى أو إن ردَى (٩)

إذا اجتهدتَ نظراً فى إثْرِه قلت سناً أَوْمَض أَو برقٌ خفا (١٠)

---

(١) القطاة مكان الردف والمطا الظهر كله : سمى بذلك لأنه يمطى أى يركب والقذال من رأس الفرس معقد عذاره أى حيث ينعقد عذاره وهو ما بين الأذنين والعذار هو اللجام ، الصلا العجز وهو آخر الوركين .

(٢) سامى هو العالى المرتفع والتليل هو العنق ودسيع مغرز العنق ودسيع فى الظهر ومفعم ممتلىء ، والرحب : الواسع ، واللبان والصدر وامينات القوت الصحاح السالمات الصلاب والعجى جمع عجاية ، وهى عصب مركب به شىء كفص الخاتم . (٣) ركبن يعنى العجى ، حواشب جمع حوشب ، وهو عظم فى باطن الحافر مكتنة مستورة أو مكتنزة .

(٤) يرجع يكسر ، البيد جمع بيداء وهى القفار ، رقى : ارتفع الربى جمع ربوة وأورى أوقد بها الحبا دابة تضىء بالليل اسمها الحباحب فرخم لضرورة الشعر . (٥) الاغليط وعاء ثمر المرخ شبه أذنى الفرس بذلك وهو شبيه بقشور الباقلا الرطب يشبه آذن الخيل ، وملمومة هى الهامة المجتمعة . (٦) مداخل الحلق ، رحيب واسع ، شجر هو مجتمع .

(٧) فتكبو فتعثر ، غايات جمع غاية وهى منتهى جريه ، حسرى مكفة ، تلوذ تلجأ ، جراثيم جمع جرثومة وهى التراب الذى يجتمع فى أصول الشجر ، والسحا ضرب من الشجر . (٨) اعتسفت الأرض قطعتها باعتساف منك أى على غير هدى ، متنه ظهره يجوبها يقطعها ويخرقها الوجى أن يبلغ الوجع الى باطن الرسغ . (٩) دأى جرى وكذا ردى يقال دأى يدأى دأيا وردى يردى رديا اذا جرى جريا سريعا .

(١٠) سنا الضوء وأومض اضاء أى لمع .

كأنما الجوْزاءُ فى أرساغه ... والنجم فى جبهته إذا بدا (١)

هما عِتادى الكافيان فقد من ... أعددته فليناً عنى من نأى (٢)

فإن سمعت برَحى منصوبة ... للحرب فاعلم أننى قطب الرحى (٣)

وإن رأيت نار حرب تلتظى ... فاعلم بأنى مُسْعرٌ ذاك اللظى (٤)

خير النفوس السائلات جهرة ... على ظباتِ المرهفات والقنا (٥)

إن العراق لم أفارق أهله ... عن شنآن صَدَّنى ولا قلى (٦)

ولا أطْبَى عينى مذ فارقتهم ... شىءٌ يروق العين من هذا الورى (٧)

هم الشناخيب المنيفات الذرا ... والناس أدحالٌ سواهم وهوى (٨)

هم البحور زاخرُ آذيُّها ... والناس ضحضاح ثعاب وأضى (٩)

إن كنت أبصرت لهم من بعدهم ... مثلا فأغضيت على وخز السفا (١٠)

حاشا الأميرين اللذين أوفدا ... علىَّ ظلا من نعيم قد ضفا (١١)

هما اللذان أثبتا لى أملا ... قدْ وقف اليأْسُ به على شفا (١٢)

---

(١) الجوزاء نجم معروف وهو التوأمان ، وأرساغ جمع رسغ وهو مفصل بين الحافر والوظيف من كل دابة ، والنجم هو الثريا يصف غرة الفرس وتحجيله ، وبدا ظهر . (٢) العتاد ما يتخذ عدة للدهر ، فليناً فليبعد من نأى اذا بعد . (٣) برحى منصوبة يريد برحى الحرب وهو موضع استدارة أهلها اذا تعاركوا ، قطب : الحديدة أو الخشبة التى تدور عليها . (٤) تلتظى تشتعل ومسعر موقد اللظى اللهب .

(٥) جهرة عيانا ، وظباة جمع ظبة كثبة : حد السيف والمرهفات السيوف الرقاق . (٦) العراق قطر معروف على شاطىء دجلة والفرات وشنآن بغض وصدنى منعنى وصرفنى والقلى البغض .

(٧) أطبى استمال ، ويروق يعجب . (٨) الشناخيب أطراف الجبال واحدها شنخوب والمنيفات المرتفعات الطوال وهى الشواهق والذرا جمع ذروة وهى أعالى الجبال ، وأدحال جمع دحل وهى الحفير الغامض من الأرض يتسع أسفله ويضيق أعلاه وهوى جمع هوة بمعنى الدحل .

(٩) زاخر : الماء الكثير الفائض الآذى الموج وضحضاح الماء القليل .

(١٠) أغيضت صبرت على المكروه وخز طعن غير نافذ وقيل الوخز الطعن بسرعة . (١١) أوفدا : أرسلا ، وضفا كثره ، من قولهم : ضفا ذيل الفرس اذا كثر وطال . (١٢) شفا الشىء طرفه وحرفه .

تلافيا العيش الذى رنقه … صرف الزمان فاستساغ وصفا (١)

وأجريا ماء الحياة لى غداً … فاهتز غصنى بعد ما كان ذوى (٢)

هما اللذان سموا بناظرى … من بعد إغضائى على لذع القذى (٣)

هما اللذان عمرا لى جانباً … من الرجاء كان قدماً قد عفا (٤)

وقلدانى منه ما لو قرنت … بشكر أهل الأرض عنى ما وفى (٥)

بالعشر من معشارها وكان كالـ … ـحسوة فى آذىٍّ بحر قد طمى (٦)

إن ابن ميكال الأمير انتاشنى … من بعد قد كنت كالشىء اللقا (٧)

ومد صبعى أبو العباس من بعد … القباض الذرع والباع الوزى (٨)

ذاك الذى ما زال يسمو للعلا … بفعله حتى علا فوق العلا (٩)

لو كان يرْقى أحد بجوده … ومجده إلى السماء لارتقى (١٠)

ما إن أتى نداء معتف … على أوارى علم إلا ارتوى (١١)

نفسى الفداء لأميرى ومن … تحت السماء لأميرى الفدا

لا زال شكرى لهما مواصلا … لفظى أو يعتافنى صرف المنى (١٢)

---

(١) تلافيا تداركا ، رنقه كدره المرنق الماء الكدر ، صرف الزمان تقلبه من حال الى حال واستساغ سلس فى الحلق وطاب.

(٢) الحيا مقصور الغيث والخصب ورغدا السعة فى العيش فاهتز غصنى وطال وأصل الهز التحريك ذوى ذبل .

(٣) سموا بناظرى رفعا ناظرى والباء للتعدية ، اغضائى تغافلى ، لذع حرق ، القذى ما يقع فى العين .

(٤) قدما قديما عفا درس .

(٥) وقلدانى منة : أى جعلاها فى عنقى وهو موضع القلادة ، منة . نعمة وجمعها منن ، وقرنت قيست : ما وفى ما قام ولا عدل شكرهم .

(٦) الحسوة الجرعة مما يشرب : الآذى الموج وطمى امتلأ وارتفع .

(٧) ابن ميكال هو عبد الله بن محمد بن ميكال وهو فارسى من أمراء فارس وانتاشنى واللقا الشىء المطروح .

(٨) صبعى عضدى : وأبو العباس هو اسماعيل بن عبد الله المتقدم فمدح الأب والابن والذراع واحد والباع قدر مد اليدين ويطلق على الشرف والكرم . والوزى القصير .

(٩) يسمو يرتفع .

(١٠) يرقى يرتفع .

(١١) الندى الكرم . معتف طالب للرفد . أوارى حرارة الشمس والنار : وعلم جبل صغير : ارتوى اكتفى من الماء وغيره .

(١٢) أو يعتافنى : أو يصرفنى : وأو بمعنى حتى والصرف التقلب .

إن الألى فارقت من غير قلى ... ما زاغ قلبى عنهم وما هفا(١)
لكن لى عزما إذا امتطيته ... لمبهم الخطب فآهُ فانفأى(٢)
ولو أشاء ضم قطريه الصبا ... علىَّ فى ظل نعيم وغنى(٣)
ولاعبتنى غادةٌ وهنانةٌ ... تضنى وفى ترشافها برءُ الضنى(٤)
تفرى بسيف لحظها إن نظرت ... ندرة غضبى منك اثناء الحشا(٥)
فى خدها روضٌ من الورد على النسـ ... ـرين بالألحاظ منها يجتنى(٦)
لو ناجت الأَعصم لانحط لها ... طوع القياد فى شماريخ الذرا(٧)
أَو صابت القانت فى مخلولق ... مستصعب المسلك وعر المرتقى(٨)
أَلهاه عن تسبيحهِ ودينه ... تأنيسها حتى تراه قد صَبا(٩)
كأَنما الصهباءُ مقطوب بها ... ماء جنى ورد إذا الليلُ عسا(١٠)
يمتاحهُ راشفُ برد ريقها ... بين بياض الظلم منها واللمى(١١)
سقى العقيق فالحزيز فالملا ... إلى النحيت فالقريات الذنا(١٢)

---

(١) من غير قلى من غير بغض ، ما زاغ ما مال ، ولاهفا ولا زال .
(٢) عزما عقدا على فعل أمر ، المبهم من الأمور المغلق ، فآه شقه .
(٣) ضم قطريه : جمع ناحيته . (٤) لاعبتنى من اللعب ومعناه مازحتنى غادة الفتاة الناعمة وهنانة ثقيلة القيام والقعود وقيل الطيبة الحديث وتضنى تسقم والضنى الهزال من المرض والترشاف المص فى الثغر أو فوقه ، برء الضنى ذهاب السقم أى هى تضنى وفى تقبيلها البرء من السقم . (٥) تفرى تقطع ، اللحظ النظر ، غضبى مغاضبة . أثناء الحشى ما انثنى منها أى ما انعطف والحشا الكبد وما اتصل بها .
(٦) النسرين النور الأبيض والألحاظ النظرات جمع لحظة ، يجتنى يقتطف . (٧) ناجت كلمت ، الأعصم الوعل الذى باحدى يديه بياض وربما كان البياض فيهما وسائر يديه أسود أو أحمر ، لا نحط لنزل ، القياد التذلل . (٨) صابت صادفت والقانت القائم بالعبادة ومخلولق الجبل الأملس ومستصعب صعب والوعر الصعب والمرتقى المصعد .
(٩) ألهاه شغله ، تأنيسها أنسها وحديثها ، صبا مال ولها .
(١٠) الصهباء الخمرة ومقطب ممزوج ، ماء جنى ورد أو ما أخذ من الورد طريا ، عسا الليل أظلم . (١١) يمتاحه يستقيه . راشفه المتناول الشراب بشفتيه اللمى سمرة الشفتين . (١٢) العقيق والحزيز والملا والنحيت مواضع بالبصرة ونواحيها ،

فالمرْبد الأعلى الذى تلقى به ... مصارع الأسد بألحاظ المها(١)
محلَّ كلِّ مُقْرم سمت به ... مآثرُ الآباءِ فى فرع العُلا(٢)
من الألى جوهرهم إذا اعتزوا ... من جوهر النبيِّ المصطفى(٣)
صلى عليه الله ما جنَّ الدُّجى ... وما جرت فى فلك شمسُ الضحى(٤)
جوْنٌ أغارته الجنوبُ جانباً ... منها وواصت صَوْبهُ يدُ الصبا(٥)
نـأى يمانيًّا فلما انتشرت ... أحضانه وامتد كسراهُ غطا(٦)
فجلل الأُفق فكل جانب ... منها كأن من قطره المزن حبا(٧)
وطبق الأرض فكل بُقعة ... منها تقول الغيث فى هاتا ثوى(٨)
إذا خبت بُروقه عنت لها ... ريح الصبا تُشب منها ماخبا(٩)
وإن ونت رعوده حدا بها ... راعى الجنوب فحدت كما حدا(١٠)

(١) المربد موضع بالبصرة بفتح الميم وكسر الباء . مصارع الأسد مواضع سقوطها عند الموت وأراد بالأسد الرجال وأراد أنهم صرعوا بالحاظ المها أى قتلتهم الحاظ النساء الحسان البيض المشبهة بالمها وهى البقر الوحشى الواحدة مهاة والحاظ نظرات (٢) مقرم السيد الكريم وأصله فحل الابل ومآثره جمع مأثرة الصنيعة الحسنة وفرع كل شىء أعلاه

(٣) من الألى من الدين وجوهرهم أصلهم واذا اعتزوا اذا انتسبوا والمصطفى المختار محمد صلى الله عليه وسلم (٤) جن الدجى أظلم وستر . والدجى الظلمة . (٥) جون فاعل سقى المتقدمة وهى السحاب الأسود وتأتى للابيض ضده وأغارت أنزلت والجنوب الريح القبلية تجىء بالمطر وواصت واصلت والصوب نزول المطر والصبا الريح الشرقية (٦) نأى يمانيا اى طلع من ناحية اليمن وأصل الحضن ما دون الابط الى الكشح وكسراه تثنية كسر وهو طلب الحبا وانما كنى بالكسرين عن أذيال السحاب ويريد أن السحاب جرت على الأرض أذيالها وغطا ارتفع أو انبسط (٧) فجلل فغطى والأفق الناحية وجمعها آفاق ومن قطره بضم القاف من ناحيته وجمعه أقطار والمزن السحاب والواحدة مزنة وحبا امتلأ ودنا يريد السحاب

(٨) طبق الأرض ، فكل بقعة فكل مكان وفى هاتا أى هنا وثوى أقام

(٩) خبت بروقه أى خمدت وسكنت وعنت عرضت وتشب توقد

(١٠) وان ونت ضعفت وفترت ، وحدا بها ساقها بالحداء وهو صوت السائق الذى يسوق الابل بالغناء .

كأَن فى أَحضانهِ وبركِه ... بركا تداعى بين سجر ووحى [(١)]

لم ير كالمزن سواماً بُهلا ... نحسبها مرعية وهى سدى [(٢)]

تقول للأَحراز لما استوسقت ... بسوقه ثقى ببرى وحيا [(٣)]

فأَوسع الأَحداب سيباً محسباً ... وطبق البطنان بالماءِ والروِّى [(٤)]

كأَنما البيداءُ غب صوبه ... بحر طما تياره ثم سجا [(٥)]

ذاك الجدا لا زال مخصوصاً به ... قوم هم للأَرض غيث وجدا [(٦)]

لست إذا ما بهظتنى غمرة ... ممن يقول (بلغ السيل الزبى) [(٧)]

إن ثوت تحت ضلوعى زفرة ... تملأُ ما بين الرجا إلى الرجا [(٨)]

نهنهتها مكظومة حتى يرى ... مخضوضعاً منها الذى طغا [(٩)]

ولا أَقول إن عرتنى نكبة ... فوق القنوط (انقد فى البطن السلا) [(١٠)]

---

(١) كأن فى أجضانه فى نواحى هذا الأفق فالضمير عائد على الأفق أو على السحاب وهو أحسن ، والبرك الأول الصدر والثانى الابل (٢) المزن السحاب وسواما بلا راعية وبهلا هى التى لم تحلب فتركت ضروعها ملأى من البانها لفصائلها . وسدى المهملة التى لاراعى لها (٣) الأحراز جمع حرز وهى الأرض الصلبة التى لم يصبها المطر واستوثقت حملت ما يكفيها من الماء وثقى برى أى يشبع من الماء وحيا خصب (٤) الأحداب جمع حدب وهو ما ارتفع من الأرض وغلظ وسيبا غطاء محسبا كافيا وطبق غطى والبطنان جمع بطن وهو الغامض من الأرض والروى الماء الكثير. (٥) البيداء القفر وغب صوبه عقب مطره وانتصب غب على الظروف والصوب نزول المطر. (٦) الجدا الأول النائل والعطاء والذى فى آخر البيت يحتمل أن يكون أراد به الجداء بالمد وهو العناء ثم قصره لضرورة الشعر ويحتمل أن يكون أراد به المعنى الأول (٧) بهظتنى شقت على وغمرة هى الكربة والشدة واحدة الغمرات والزبى جمع زبية وهى حفرة تحفر للأسد فى المكان العالى من الأرض وليس يبلغها الا سيل عظيم وهو مثل تضربه العرب اذا اشتد بأحدهم الأمر (٨) ثوت اقامت زفرت هى ترجيع الصوت بالبكاء والرجا الجانب (٩) نهنهتها كففتها وزجرتها مكظومة متجزعة ومخضوضعا متذللا وطفا كثر أو تكبر (١٠) عرتنى أصابتنى ، نكبة مصيبة القنوط اليأس انقد انقطع والسلا بفتح السين التى تتعلق بالولد وتسقط معه .

قد مارست منى الخطوب مارساً يُساور الهول إذا الهول علا(١)

لى التواء إن معادى التوى ولى استواء إن موالى استوى(٢)

طعمى شرى للعدو تارة والراح والأَرى لمن وُدى ابتغى(٣)

لدن إذ لوينت سهل معطفى أَلوى إذا خُوشنت مرهوب الشدا(٤)

وصون عرض المرء أن يبذل ما ضن به مما حواه وانتضى(٥)

والحد خير ما اتخذت عُدَّة وأَنفس الأَذخار من بعد التقى(٦)

وكل قرن ناجم فى زمن فهو شبيه زمن فيه بَدَا(٧)

والناس كالنبت فمنهم رائق غض نضير عوده مر الجنى(٨)

ومنه ما تقتحم العين فإن ذقت جناه انساغ عذباً فى الجنى(٩)

يقوِّم الشارخ من زيغانه فيستوى ما انعاج منه وانحنى(١٠)

والشيخ إن قومته من زيغه لم يقم التثقيف منه ما التوى(١١)

كذلك الغصن يسير عطفه لدناً شديد غمزه إذا عسا(١٢)

من ظلم الناس تحاموا ظلمه وعز عنهم جانباه واحتمى(١٣)

---

(١) مارست عاركت وضاربت ، الخطوب الأمور مارسا شديدا ، يساور الهول ويطاوله والحول الشدة ، علا ارتفع (٢) التواء انعواج ، معادى العدو ، الموالى الصديق الذى يوالى ، استوى اعتدل . (٣) شرى حنظل والأرى العسل الأبيض ابتغى طلب (٤) لدن لين ، لوينت أخذت باللين .

(٥) انتضى اختار . (٦) عدة عمدة والأذخار جمع ذخر وهو المخبوء

(٧) وكل قرن أى وكل أمة وناجم مرتفع . (٨) رائع معجب والغض الطرى الأخضر الناعم وكذلك النضير . (٩) تقتحم العين تتركه كرها له وتعدوه الى غيره وجناه ، اجتنى منه وانساغ سهل بلعه وعذبا حلوا واللها جمع لهاة وهى اللحمة المعلقة بأعلى الحنك . (١٠) الشارخ الشاب والحدث المستقبل للشباب وشرخ الشباب أوله (١١) من زيفه من ميله . لم يقم أى يقوم ، التثقيف التقويم ، ما التوى ما انعوج . (١٢) لدنا لينا والغمز التقويم عسا صلب . (١٣) تحاموا ظلمه تباعدوا عنه ، وعز عنهم والعزة والشدة احتمى امتنع .

عبيد ذى المال وإن لم يطمعوا ... من غمره فى جرعة تشفى الصدى(١)

وهم لمن أملق أَعْداءٌ وإن ... شاركهم فيما أَفاد وحوى(٢)

عاجَمتُ أَيامى وما الغرّ كمن ... تـأَزر الدَّهر عليه واعتدى(٣)

لا يرفع اللب بلا جد ولا ... يحطك الجهل إذا الجد علا(٤)

منْ لم يعظه الدهْر لم يَنفعه ما ... راح به الواعظ يوماً أَو غدا(٥)

من لم تفدْهُ عبراً أَيامه ... كان العمى أَولى به من الهدى(٦)

من قاس ما لم يره بما يرى ... أَراه ما يدنو إليه ما نأَى(٧)

من ملك الحرص القياد لم يزل ... يكرع من مَاءٍ من الذل صرى(٨)

من عارض الأَطماع باليأْس رنت ... إليه عين العز من حيث رنا(٩)

من عطف النفس على مكروهها ... كان الغنى قرينه حيث انتوى(١٠)

من لم يقف عند انتهاء قدره ... تقاصرت عنه فسيحات الخُطا(١١)

من ضيع الحزم جنى لنفسه ... ندامة أَلذع من سَفع الذكا(١٢)

من ناط بالعجب عرى أَحلاقه ... نيطت عرى المقت إلى هاتيك العرَى(١٣)

من طال فوق منتهى بسطته ... أَعْجزه نيل الدنى بله القصا(١٤)

---

(١) الغمر الماء الكثير الجرعة القليل من الماء تشفى تبرىء ، والصدى العطش (٢) أملق افتقر (٣) عاجمت أيامى أى امتحنتها واختبرتها الغر الذى لم يجرب الأمور وتأزر من الازار . (٤) لا يرفع اللب من الرفعة أى لا تعلو منزلته واللب العقل وجمعه ألباب . والجد بالفتح الحظ والبخت.

(٥) راح أتى بالعشى . غدا أتى بالغدو (٦) من لم تفده أى تكسبه عبرا جمع عبرة وهى التذكرة (٧) من قاس من مثل وأراه مايدنو أى ما يقرب . ما نأى ما بعد (٨) القيادة الطاعة يكرع أى يشرب بفيه بدون آلة ، وصرى الماء الدائم الذى قد طال مكثه جمع صراة (٩) الأطماع جمع طمع ، واليأس انقطع الرجاء ورنت نظرت (١٠) عطف أمال ورد ، وقرينه صاحبه ، وحيث انتوى أى حيث نوى من النية بمعنى القصد وقيل من النوى وهو البعد .

(١١) تقاصرت قصرت ، فسيحات واسعات والخطا جمع خطـوة .

(١٢) الحزم الاحتراس بالأفعال ندامة حسرة ، ألذع أشد حرقة ، سفع احراق ، الذكا التهاب النار (١٣) ناط علق والصق . نيطت علقت والمقت أشد الغضب (١٤) من طال من ارتفع ، البسطة الفضيلة ، أعجزه أضعفه .

والناس أَلف منهم كوَاحد ... وواحد كالأَلف إن أَمْرٌ عَنى (١)

وللفتى من ماله ما قدَّمَت ... يداه قبل موته لا ما اقتنى (٢)

وإنما المرءُ حديث بعده ... فكنْ حديثاً حسناً لمن وعى (٣)

إنى حلبت الدهر شطرَيْهِ فقد ... أَمرَ لى حيناً وأَحياناً حلا (٤)

وفر عن تجربة نابى فقلْ ... فى بازل راض الخطوب وامتطى (٥)

واللوْم للحرِّ مقيمٌ رادعٌ ... والعبد لايردعه إلا العصا (٦)

وآفة العقل الهوى فمن علا ... على هواه عقله فقد نجا (٧)

كم من أَخ مسخوطة أَخلاقه ... أَصفيتَه الودَّ لخلق مُرتضى (٨)

إذا بلوت السيف محمودا فلا ... تذمُمه يوماً أَن ترَاه قد نبا (٩)

والطرف يجتاز المدى وربما ... عنّ لمغداه عثار فكبا (١٠)

مَن لك بالمهذب الندب الذى ... لا يجد العيب إليه مختطى (١١)

إذا تصفحت أُمور الناس لم ... تلف امرءاً حاز الكمال فاكتفى (١٢)

عَولْ على الصبر الجميل فإنه ... أَمنع ما لاذ به أُولوا الحجا (١٣)

وعطف النفس على سبل الأَسى ... إذا استفز القلب تبريح الجوى (١٤)

---

(١) عنى : قصد أو لزم . (٢) اقتنى اكتسب . (٣) لمن وعى لمن حفظ .

(٤) حلبت الدهر جربته وشطريه نصفيه وأراد بشطريه أول زمانه وآخره ونعيمه وبؤسه (٥) وفر عن تجربة نابى أى كشف عن أمره وهذا مأخوذ من قولهم فرعن الدابة اذا فتح فاها ليعرف سنها ويظهر صفرها من كبرها ، البازل من الابل الذى أتت عليه تسعة أعوام وراض الخطوب : أذلها . (٦) اللوم بالفتح من الملامة وهى العتاب مقيم مصلح ، رادع كاف .

(٧) آفة العقل مضرته ومفسدته والهوى الشهوة . (٨) مسخوطة من السخط وهو ضد الرضا ، أقلاقه طبائعه أصفيته الود أخلصت له الود .

(٩) بلوت اختبرت ، نبا ارتفع عن المضرب ولم يقطع فيه شيئا .

(١٠) الطرف بالكسر الكريم من الخيل يجتاز يجوز ، لمغداه لجريه وعثار مصدر عثر يعثر عثارا . (١١) المهذب العاقل الظريف والندب الرجل الخفيف فى الحاجة . (١٢) تصفحت نظرت واستيقظت . لم تلف : لم تجد ، اكتفى اجتزأ به . (١٣) عول على الصبر أى ارجع اليه واعتمد .

(١٤) الأسى : التصبر .

والدهر يكبو بالفتى وتارة ينهضه من عثرة إذا كبا[١]
لاتعجبن من هالك كيف هوى بل فاعجبن من سالم كيف نجا
إن نجومَ المجد أمست أُفلاً وظله القالِصُ أَضحى قد أزى[٢]
إلا بقايا من أُناس بهم إلى سبيل المكرمات يقتدى[٣]
إذا الأَحاديث انتضت أَنباءهم كانت كنشر الروض غاداه السدى[٤]
لا يسمع السامع فى مجلسهم هجْرا إذا جالسهم ولا خنا[٥]
ما أَنعم العيشة لو أَن الفتى يقبل منه الموت أَسناءَ الرَّشا[٦]
أَو لو تحلى بالشباب عمرُهُ لم يستلبْهُ الشيب هاتيك الحلى[٧]
والليل ملق بالموامى بركه والعيش ينبئنَ أَفاحيص القطا[٨]
بحيث لا تهتدى لسمع نبأَة إلا نئيم البوم أَو صوت الصدى[٩]
شايعتهم على السُّرى حتى إذا مالت أَداة الرحْل بالجبس الدوى[١٠]
قلت لهم : إن الهوَيْنا غبها وهنٌ فجدوا تحمدوا غِب السرى[١١]
وموحش الأَقطار طامٍ ملؤه مدعثر أَعضاد مهزوم الجبا[١٢]

(١) يكبو يعثر (٢) أفلا غائبات ، القالص المرتفع وفرس قالس طويل القوائم أزى قصر ونقص (٣) يقتدى يتبع فعلهم (٤) انتضب أظهرت من نضا الشيء اذا ظهر : الانباء الأخبار ، النشر الرائحة الطيبة (٥) هجرا بضم الهاء القبيح من القول وكذا الخنا أيضا . (٦) العيشة الحياة ، أسناء الرشا أرفعها وأعلاها . (٧) تحلى بالشباب لبسه وتزيانه . لم يجرده الحلى جمع حلية . (٨) الموامى جمع موماة وهى القفر ، البرك الصدر ، العيس الأبيض من الابل ينبئن يخرجن ، أفاحيص القطا أوكارها وواحدها فحوص .

(٩) نبأة الصوت الخفى ونئيم البوم صوته والبوم الهام ، الصدى ذكر الهام (١٠) شايعتم تابعتم على رأيهم فى سير الليل . أداة الرحل حوائج الرحل ، الجبس الرجل الثقيل الجبان ، الدوى الأحمق .

(١١) وهن ضعف فجدوا فاجتهدوا . (١٢) الوحش الأقطار يعنى به بئرا أو حوضا الموحش ضد المؤنس والأقطار النواحى وطام مرتفع ، مدعثر مهدوم الأعضاد ما حواليه من صفائح الحجارة التى تعضده ، والجبا بفتح الجيم ما حول البئر أو الحوض

كأَنَّا الريش على أَرجائه زرق نصال أُرهفت لتمتهى (١)
وردته والذئب يعوى حوله مستك سم السمع من طول الطوى (٢)
ومنتج أُم أَبيه أُمه لم يتخون جسمه مس الضوى (٣)
أَفرشته بنت أَخيه فانثنت عن ولد يورى به ويشتوى (٤)
ومرقب مخلولق أَرجاؤه مستصعب المسلك وعر المرتقى (٥)
والشخص فى الآل يرى لناظر ترمقه حيناً وحيناً لا يرى (٦)
أَوفيت والشمس تمجُّ ريقها والظل من تحت الحذاء مختذى (٧)
وطارق يونسه الذئب إذا تضوَّرَ الذئب عشاء وانضوى (٨)
آوى إلى نارى وهى مألف يدعو العفاة ضوءها إلى القرى (٩)
لله ما طيف خيالها زائر تزفهُ للقلب أَحلام الرؤى (١٠)
يجوب أَجواز الفلا محتقرا هول دجى الليل إذا الليل انبرى (١١)

---

(١) أرجاؤه نواحيه ، زرق نصال بيض نصال ، أرهفت رققت . تمتهى تسقى الماء (٢) وردته يعنى وردت هذا الماء والهاء عائدة على الماء فى قوله طوم ماؤه . (٣) ومنتج يريد رب غصن منتج أى مولود ، أم أبيه أمه ، يريد غصنا قطع من فرع من شجرة فتلك الشجرة أم الفرع والفرع جعله للغصن بمنزلة الأب على استعارة والشجرة أم الفرع وأم الغصن لأنهما منها فصارت أما لأبيه وأما له . (٤) أفرشته بنت أخيه حككت به غصنا آخر . (٥) مرقب الموضع العالى الذى ينظر منه الى بعد ومخلولق أملس (٦) الشخص سواد الانسان وغيره تراه من بعد ، والآل السراب . (٧) أوفيت أتيت ووصلت أى اليه وتمج تلقى ، وريقها لعابها ، ولعاب الشمس انما يكون فى وقت الظهيرة . (٨) وطارق الذى يجىء بالليل وتضور صاح من الجوع .

(٩) أوى الى نارى أى انضم الى نارى ومألف الموضع الذى يجتمع فيه الأحباب والعفا طلاب المعروف . (١٠) لله ما طيف ، اللام فى هذا بمعنى التعجب وما زائدة ، والطيف ما يراه النائم فى صور محبوبة ، خيال الشخص الذى يتخيل ذلك ، وتزفه تحمله (١١) يجوب يقطع أجواز أوساط والفلاجمع فلاة وهى القفر من الأرض ، والداجى الظلمة . وانبرى اعترض .

سائله إن أفصح عن أنبائه أنى تسدَّى الليل أم أنى اهتدى؟ (١)

أَو كان يدرى قبلها ما فارس وما مواميها القفار والقرى (٢)

وسائلى بمزعجى فى وطنى ما ضاق بى جنابه ولا نبا (٣)

قلت : القضاء مالك أَمر الفتى من حيث لايدرى ومن حيث درى

لا تسأَلنى واسأَل المقدار هل يعصم منه وزر ومزدرى

لا غرو إن لح زمان جائر فاعترق العظم المُمخَّ وانتقى (٤)

فقد ترى الناحلَ مخضرا وقد تلقى أَخا الإقتار يوما قد نما (٥)

يا هؤليا هل نشدتْن لنا ناقبة البرقع عن عينى طلا (٦)

ما أَنصفت أم الصبيين التى أَصبت أَخا الحلم ولما يصطبى (٧)

استحى بيضا بين أَفوادك أَن يقتادك البيض اقتياد المهتدى (٨)

هيهات ما أَسفع (هاتا) زلة أَطربا بعد المشيب والجلا (٩)

يا رُبَّ ليل جمعت قطريه لى بنت ثمانين عروساً تجتلى (١٠)

---

(١) سائله يعنى الخيال . وعن أنبائه يعنى عن أخباره وان أفصح أى وان أبان وأنى كيف تسدى قطع الليل بالسير ، وأم أنى اهتدى .

(٢) أو كان يدرى قبلها يريد قبل هذه الذروة . وما فارس يريد بلاد فارس ، والموامى وأحدها موماة وهى الأرض المقفرة (٣) بمزعجى بمزيل ومخرجى والباء بمعنى عن فكأنه قال وسائلى عن مزعجى الجناب بفتح الجيم الناحية (٤) لاغرو لاعجب ، لح عرض فاعترض العظيم أى أزال عنه اللحم ، الممخ الذى فيه المخ ، انتقى استخرج منه البق وهو المخ (٥) القاحل اليابس ، أخا الاقتار المقل من المال وبما زاد واستغنى (٦) يا هؤليا يا هؤلاء ونشدتن طلبتن ناقبة البرقع أى المتقنع به (٧) ما أنصفت أم الصبيين هذا تقوله العرب تمدح به المرأة الكاملة العقل والصبيان ما يتخايل فى بؤبؤ العين . أصبت أخا الحلم أى رددته الى الصبا . (٨) استحى فعل أمر من الاستحياء بمعنى الحياء وبيضا شيبا وبين أفوادك جمع فود ، والفودان جانبا الرأس أى ناحيتاه من يمين وشمال والبيض الثانية النساء والمهتدى الأسير .

(٩) هيهات كلمة تبعيد وها اشارة للمؤنث ، وزلة خطيئة وسقطة ، الجلا بفتح الجيم انحسار الشعر عن مقدم الرأس (١٠) جمعت قطريه أى جانبيه أول الليل وآخره بنت ثمانين هنا الخمر وانما جلوت بنت ثمانين لأنه من شربها أوجبت عليه ثمانين جلدة وتجتلى من جلوت العروس وهو اظهارها .

لم يملك الماء عليها أمرها ... ولم يدنسها الضرام المحتضى (١)
حيناً هى الداءُ ، وأحياناً بها ... من دائها إذا يهيجُ يشتفى
قد صانها الخمار لما اختارها ... ضنا بها على سواها واحتبى (٢)
فهى ترى من طول عهد إن بدت ... فى كأسها لأعين الناس كلاعمى (٣)
كأن قرن الشمس فى ذُرُورها ... بفعلها فى الصحن والكاس اقتدى (٤)
نازعتها أروع لاتسطو على ... نديمه شرتهُ إذا انتشى (٥)
كأن نور الروض نظم لفظه ... مرتجلا أو منشدا أو إن شدا (٦)
من كل ما نال الفتى قد نلته ... والمرءُ يبقى بعده حسن الثنا (٧)
فإن أعش صاحبتُ دهرى عالما ... بما انطوى من صرفه وما انتشى
وإن أمُتْ فقد تناهت لذتى ... وكل شىء بلغ الحد انتهى (٨)

وقال المثقف العبدى الحكيم الجاهلى من قصيدة :

لاتقولن إذا ما لم تردْ ... أن تتم الوعد فى شىء « نعم »
حسن قولُ « نعم » من بعد « لا » ... وقبيح قول « لا » بعد « نعم »
إن « لا » بعد « نعم » فاحشة ... فبلا فابدأ إذا خفت الندم
وإذا قلت « نعم » فاصبر لها ... بنجاز الوعد إن الخلف ذم

---

(١) لم يملك الماء عليها أمرها يريد لم تمزج بالماء فتكسر حدتها وسورتها ولم يغيرها والضرام الحطب الدقيق يوقد به الحطب الغليظ والمحتضى العود تحرك به النار . (٢) صانها حفظها ، ضنا بخلا ، اختبى ستر .

(٣) كلا عمى يعنى أنه يعمى من نظر اليها فكيف من شربها (٤) قرن الشمس شعاعها ، ذرورها طلوعها يقال ذرت الشمس اذا طلعت والصحن القدح الكبير الواسع ، والكأس القدح اذا كان فيه خمر ، اقتدى اتبع أثره

(٥) نازعتها ناولتها ، أروع الحسن المنظر الجميل لا تسطو لا تعدو النديم الصاحب ، الشرة الحدة ، انتشى سكر (٦) نور الروض زهر الروض مرتجلا الذى يأتى بما يخطر على باله على البديهة بغير استعداد ، وشدا غنى ومنه الشادى . (٧) الثنا هنا الثناء وهو فى الأصل علم للخير والشر .

(٨) تناهت لذتى بلغت النهاية .

أكرمِ الجار وراعِ حقه إن عرفان الفتى الحق كرم
لا ترانى راتعاً من مجلس فى لحوم الناس كالسبع الضرم
إن شر الناس من يمدحنى حين يلقانى وإن غبتُ شتم
وكلام سيئ قد وقرت عنه أذناى وما بى من صمم
ولبعض الصفح والإعراض عن ذى الخنا أبقى وإن كان ظلم

وقال الأَفْوَه الأَزْدِى أَحد فحول شعراءِ الجاهلية وحكمائها :

البيت لا يبنى إلا على عمد ولا عماد إذا لم تُرْس أَوتادُ
فإن تجمع أَوتاد وأَعمدة وساكن بلغوا الأَمر الذى كادوا
لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم ولا سُرَاة قوم جُهالهم سادوا
تهدى الأُمور بأَهل الرأى ماصلحت فإن تولت فبالأَشرار تنقاد
إذا تولى سُرَاة الناس أَمرهم نما على ذاك أَمرُ القوم فازدادوا

وقال الإمام على بن أَبى طالب كرم الله وجهه المتوفى سنة ٤٠ هـ :

أَما والله إن الظلم شؤم ولا زال المسئ هو الظلومُ
إلى الديان يوم الدين نمضى وعند الله تجتمع الخصومُ
ستعلم فى الحساب إذا التقينا غدا عند المليك ـ من الملوم ؟
ستنقطع اللذاذة عن أُناس من الدنيا وتنقطع الهموم
لأَمر ما تصرَّمت الليالى لأَمر ما تحركت النجوم
سل الأَيام عن أُمم تقضت ستنبيك المعالم والرسوم
تروم الخلد فى دار الدنايا فكم قد رام غيرك ما تروم
تنام ولم تنم عنك المنايا تنبه للمنية يا نؤوم
لهوت عن الفناءِ وأَنت تفنى فما شئٌ من الدنيا يدوم
تموت غدا وأَنت قرير عين من الشهوات فى لجج تعوم

وقال :

عليك ببر الوالدين كليهما وبرِّ ذوِى القربى وبر الأَباعد
ولا تصحبنْ إلا تقيًّا مُهذباً عفيفاً ، ذكياً ، مُنْجزا للمواعد
وقارن إذا قارنت حرا مؤدباً فتى من بنى الأَحرار زيْنُ المشاهد
وكف الأَذى واحفظ لسانك واتق فدينك فى ودِّ الخليل المساعد
ونافس ببذل المال فى طلب العلى بهمة محمود الخلائقِ ماجِدِ
وكن واثقاً بالله فى كل حادث يصنك مدى الأَيام من شر حاسد
وبالله فاستعصم ، ولا ترج غيرَهُ ولا تكُ فى النعماءِ عنه بجاحد
وغض عن المكروه طرفك واجتنب أذى الجار واستمسك بحبل المحامد
ولا تبن فى الدنيا بناءَ مؤمل خلود فما حىٌ عليها بخالد

وقال :

قدم لنفسك فى الحياة تزوُّدا فلقد تفارقها وأنت مُوَدَّعُ
واهتم للسفر القريبِ فإنه أنـأَى من السفر البعيدِ وأَشنع
واجعل تزودك المخافة والتقى فلعل وقفك فى مسائك أَسرع
واقنع بقوتك فالقناع هو الغنى والفقر مقرونٌ بمن لا يقنع
واحذ مصاحبة اللئام فإنهم منعوك صفو ودادهم وتصنعوا
أَهل المودة ما أَنلتهم الرضا وإذا منعت فسمهم لك منقع
لاتفش سرا ما استطعت إلى امرئ يفشى إليك سرائراً يستودع
فكما تراه بسر غيرك صانعاً فكذا بسرك لا محالة يصنع
لا تبدأن بمنطق فى مجلس قبل السؤال ، فإن ذلك يشنع
فالصمت يحسن كل ظن بالفتى ولعله خرقٌ سفيهٌ أَرقع
ودع المزاح فرُبَّ لفظة مازح جلبت إليك بلابلاً لا تدفع

وحفاظ جار لا تضعه فإنه ... لا يبلغ الشرف الجسيم مضيع
وإذا استقالك ذو الإساءة عثرة ... فأقِلهُ ، إن ثواب ذلك أوسع
وإذا ائتمنت على السرائر فاخفها ... واستر عيوب أخيكَ حين تطلع
وأطع أباك بكل ما أوصى به ... إن المطيع أباه لا يتضعْضعُ

وقال :

صُنِ النفس واحملها على مايُزِينها ... تعش سالماً والقول فيكَ جميلُ
ولا ترين الناس إلا تجمُّلا ... نبا بك دهر أو جفاك خليل
وإن ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غد ... عسى نكباتُ الدهر عنك تزول
يعزُّ غنىُّ النفس إن قلَّ ماله ... ويفنى غنى المال وهو ذليل
ولا خير فى ودّ امرئ مُتلون ... إذا الريح مالت مال حيث تميل
جواد إذا استغنيت عن أخذ ماله ... وعند احتمال الفقر عنك بخيل
فما أكثر الإخوان حين تعدهم ... ولكنهم فى النائبات قليل

وقال عبد الله بن جعفر الطالبى :

إذا كنت فى حاجةٍ مرسلا ... فأرْسلْ حكيما ولا توصِهِ
وإن بابُ أمر عليك التوَى ... فشاوِرْ لبيباً ولا تعصه
وإن ناصح منك يوماً دنا ... فلا تنأَ عنهُ ولا تقصه
وذا الحقّ لاتنتقصْ حقهُ ... فإن القطيعة فى نقصه
ولا تذكر الدهر فى مجلس ... حديثاً إذا أنت لم تحصه
وكم من فتى عازب لبه ... وقد تعجب العين فى شخصه
وآخر تحسبه أنْوَكا ... ويأتيكَ بالأمر من فصه

وقال أبو الأسود الدؤلى التابعى :

حَسَدُوا الفتى إذا لم ينالوا سعيهُ ... فالقومُ أعداء له وخُصومُ

وترى اللبيب محسدًا لم يجترم شتمَ الرجال وعرْضهُ مشتومُ
وكذاك من عظمت عليه نعمةٌ حُسَّاده سيفٌ عليهِ صُرُومُ
فاترك مجَارَاة السفيه فإنها ندمٌ وغِبٌّ بعد ذاك وخيمُ
فإذاجَرَيتَ مع السفيه كماجَرَى فكلاكما في جَرْيهِ مذموم
وإذا عتبت على السفيه ولُمْتَهُ في مثل ما تأتى فأنت ظلوم
يا أيها الرَّجُل المعلِّم غيرَهُ هلا لنفسك كان ذا التعليمُ
تصف الدَّواءَ لذى السقام وذِى الضنىٰ
كيما يصِحُّ بهِ ، وأنت سقيم
وأَرَاك تصلح بالرشاد عقولنا أبداً ، وأنت من الرشادِ عقيم
لا تنْهَ عن خُلقٍ وتأتى مثلهُ عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ
ابدأ بنفسك فانهها عن غيِّهَا فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ
فهناك يُقبَل ما وعظت ويُقتدَى بالعلم منكَ ، وينفع التعليم

* * *

وقال العباس بن مرداس المتوفى سنة ١٦ هـ ، وأُمه الخنساء الشاعرة :

ترى الرجلَ النحيف فتزدَريهِ وفى أثوابهِ أسد مزِيرُ
ويعجبكَ الطرير فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطرير
فما عِظم الرجال لهم بفخر ولكن فخرهم كرمٌ وخير
بغاث الطير أكثرها فرَاخا وأُمُّ الصقر مقْلاةٌ نزور
ضعاف الطير أطولها جُسوماً ولم تطل البزاة ولا الصقور
لقد عظم البعير بغير لبٍّ فلم يَسْتغنِ بالعظم البعير
يصرِّفه الصبي بكل وجه ويحبسه على الخسف الجرير
فإن أَك فى شراركم قليلا فإنى فى خياركم كثير

وقال الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ رضي الله تبارك وتعالى عنه :

دع الأَيام تفعل ما تشاءُ وطب نفساً إذا حكم القضاءُ
ولا تجزع لحادثة الليالي فما لحوادث الدنيا بقاءُ
وكن رجلا على الأَهوال جلدا وشيمتكَ السماحة والسخاءُ
يُغطَّى بالسماحة كل عيب وكم عيب يغطيه السخاءُ
ولا حُزنٌ يدوم ولا سُرُورٌ ولا عسر عليك ولا رَخاء
ولا ترى الأَعادى قط ذلاً فإن شماتة الأَعدا بلاءُ
ولا ترْجُ السماحة منِ بخيلٍ فما فى النارِ للظمآن ماءُ
ورزقك ليس ينقصه التأَنى وليسَ يزيد فى الرزق العناءُ
إذا ما كنت ذا قلب قنوع فأَنت وما لك الدنيا سواءُ
ومن نزلت بساحته المنايا فلا أَرض تقيه ولا سماءُ
وأَرض اللهِ واسعةٌ ولكن إذا نزلَ القضا ضاق الفضاءُ

وقال عبدة بن الطيب المتوفى سنة ٣٩ هـ ، يوصى أَبناءَه :

ابنيَّ ، إنى قد كبرت ورَابنى بصرى ، وفيَّ لمنظر مُسْتمْتعُ
أُوصِيكم بتقى الإلهِ فإنه يُعطى الرغائبَ من يشاءُ ويمنع
وببرِّ والدكم وطاعة أَمرهِ إن الأَبر مِنَ البنينَ الأَطوع
إن الكبيرَ إذا عصاه أَهله ضاقت يداه بأَمره ، ما يصنع ؟
ودعوا الضغائن ، لا تكن من شأْنِكم إنَّ الضغائنَ للقرابةِ توضع
يُزجِى عقارِبَه ليبعث بينكم حرباً كما بعث العروق الأَخْدَعُ
إن الذين ترَوْنَهم إخوانكم يشفى غليل صدورهم أَن تُصْرَعوا
وإذا مضيتُ إلى سبيل فابعثوا رجلا له قُلب حديد أَصمعُ

إن الحوادث تخترِمنَ وإنما عمر الفتى فى أهله مُستودع

يسعى ويجمع جاهدا متهترا جدا ، وليس بآكل ما يجمع!

وقال قيس بن الخطيم المتوفى سنة ٦١١ من قصيدة :

وما بعض الإقامة فى ديارٍ يُهان بها الفتى إلا بَلاءُ

وبعض خلائِقِ الأَقوام دَاءُ كداء البطن ليس له دَوَاءُ

يريد المرءُ أَن يعطى مُناه ويأبَى الله إلا ما يشاءُ

وكل شديدةٍ نزلت بقومٍ سيأتى بعدَ شدتها رَخاءُ

ولا يعطى الحريص غنى لحرص وقد ينمى على الجود الثراء

غنى النفس ما عمرَت غنى وفقر النفس ما عمرت شقاءُ

وليس بنافع ذا البخل مال ولا مُزرٍ بصاحبه السخاءُ

وبعض الداءِ ملتمس شفاءَ وداءُ النوك ليس له شفاءُ

وقال صالح بن عبد القدوس المتوفى سنة ٨٥٥ هـ :

المرءُ يجمع والزمان يُفرِّق ويظل يرقع والخطوب تمزقُ

ولأَن يُعادِى عاقلا خير له من أَن يكون له صديق أَحمقُ

فاربأ بنفسكَ أَن تصادِق أَحمقا إن الصديق على الصديق مُصَدقُ

وزنِ الكلام إذا نطقت فإنما يبدى عقول ذوى العقول المنطق

ومن الرجال إذا استوت أَخلافهم

مَن يُستشارُ ـ إذا اسْتشِيرَ ـ فيُطْرِقُ

حتى يحلَّ بكل واد قلبه فيرى ويعرف مايقولُ فينطقُ

ما الناس إلا عامِلانِ ، فعامل قد مات من عطش ، وآخر يغرقُ

والناس فى طلب المعاش وإنما بالجد يُرزق منهم من يُرزقُ

لو يرزقون الناس حسب عقولهم أَلفيت أَكثر من ثرى يتصدَّق

لكنه فضل المليكِ عليهم هذا عليه مُوَسَّع ومُضيِّق

وقال أيضاً :

صَرمت حبالك بعد وصْلكَ زينب والدهر فيه تصرمٌ وتقلبُ
وكذاك وصل الغانيات فإنه آل ببِلْقعَة وبرق خُلبُ
فدع الصبا فلقد عداك زمانه واجْهد ، فعمرك مر منه الأَطيب
ذهب الشباب فما له من عودة وأَتى المشيب فأَين منه المهرب
دع عنك ما فات فى زمن الصِّبا واذكر ذنوبك وابكها يا مُذنب
واخْش مناقشة الحساب فإنه لابُدَّ يحصى ما جنيت ويكْتب
والليل ، فاعلم ، والنهار كلاهما أَنفاسنا فيه تُعد وتحسب
لم ينسه الملكان حين نسيته بل أَثبتاه ، وأَنت لاه تلعب
والروح فيك وديعة أُودعتها ستردها بالرغم منك وتُسْلب
وغُرور دنياك التى تسعى لها دار حقيقتها متاع يذهب
وجميع ما حصلته وجمعته حقًّا يقيناً بعد موتك يُنهب
تُبًّا لدار لا يدوم نعيمها ومشيدها عما قليل يخرب
لا تأْمن الدهر الخؤون لأَنه ما زال قِدماً للرجال يُهذب
وكذلك الأَيام فى غصاتها مَضضٌ يذِلُّ له الأَعز الأَنجب
ويفوز بالمال الحقيرِ مكانة فتراه يُرجى ما لديه ويرغب
ويُسر بالترحيب عند قدومه ويقام عند سلامه ويُقرب
لا تحرصن فالحرص ليس بزائد فى الرزق بل يشقى الحريص ويتعب
كم عاجز فى الناس يأْتى رزقه رَغْدا ويُحْرَم كيِّس ويخيَّب
فعليك تقوى الله فالزمها تفزْ إن التَّقِىَّ هو البهى الأَهيب
واعمل بطاعته تنل منه الرضا إن المطيع لربه لمقرَّب

أَدِّ الأَمانة ، والخيانة فاجتنب واعدل ولا تظلم يطيب المكسب

واحذر من المظلوم سهماً صائباً واعلم بأَن دعاءَه لا يُحجب

وإذا أَصابك فى زمانك شِدَّة وأَصابك الخطب الكريه الأَصعب

فادع لربك إنه أَدنى لمن يدعوه من حبل الوريد وأَقرب

واحذر مؤاخاة الدَّنِىِّ لأَنه يعدى كما يعدى الصحيح الأَجرب

واختر صديقك واصطفيه تفاخراً إن القرين إلى المُقارنِ ينسب

ودع الكذوب ولا يكن لك صاحباً
إن الكذوب لبئس خلاً يُصحب

وذر الحسود وإن تقادم عهده فالحقد باق فى الصدور مغيب

واحفظ لسانك واحترز من لفظه فالمرْءُ يسلم باللسان ويعْطب

وزن الكلام إذا نطقت ولاتكن ثرثارة فى كل ناد تخطب

والسِّر فاكتمه ولا تنطق به فهو الأَسيرلديك إذ لا ينشب

واحرص على حفظ القلوب من الأَذى
فرجوعها بعد التنافر يصعب

إن القلوب إذا تنافر ودها شبه الزجاجة كسرها لايُشعب

واحذر عدوك إذ تراه باسما فاليث يبدو نابه إذ يغضب

لا خير فى وُدِّ امرئ مُتملق حلو اللسان وقلبه يتلهب

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

يلقاك يحلف أَنه بك واثق وإذا توارى عنك فهو العقرب

وإذا رأَيت الرزق ضاق ببلدة وخشيت فيها أَن يضيق المكسب

فارحل فأَرض الله واسِعة الفضا طولا وعرضاً شرقها والمغرب

وقال أبو الفتح البستى المتوفى ببخارى سنة ٤٠٠ ﻫ :

زيادة المرءِ فى دنياه نقصان ... وربحه غير محض الخير خسرانُ
أحسن إلى الناس تستعبدْ قلوبهم ... فطالما استعبد الأنسان إحسان
ياخادم الجسم كم تسعى لخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران؟
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأَنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وكن على الدهر مِعواناً لذى أَمل ... يرجو ندَاك فإن الحرَّ مِعوان
واشدد يديك بحبل الله معتصما ... فإنه الركن إن خانتك أَركان
من يتق الله يحمد فى عواقبه ... ويكفه شرُّ من عزوا ومن هانوا
من استعان بغير الله فى طلب ... فإن ناصره عجزٌ وخذلان
من كان للخير مناعاً فليس له ... على الحقيقةِ خِلّان وأَخدَانُ
من جاد بالمال جاد الناس قاطبة ... إليه ، والمال للإِنسان فتّان
من سالم الناس يسلم من غوائِلهمْ ... وعاش وهو قرير العين جذلان
من يزرع الشر يحصد فى عواقبه ... ندامة ، ولحصد الزرع إبان
من استنام إلى الأَشرار نام وفى ... رِدائه منهم صلٌّ وثعبان
كن ريِّق البشر إن الحر همته ... صحيفةٌ وعليها البشر عنوان
وارفق الرفق فى كل الأُمور فلم ... يندم رفيق ولم يذممه إنسان
ولا يغرنك حظ جره خرق ... فالخرق هدم ورفق المرءِ بنيان
أَحسن إذا كان إمكان ومقدرة ... فلن يدوم على الإِحسان إمكان
فالروض يزدان بالأَنوار فاغمه ... والحر بالعدل والإِحسان يزدان
صنْ حر وجهك لا تهتك غلالته ... فكل حر لحر الوجه صوان
دع التكاسل فى الخيرات تطلبها ... فليس يسعد بالخيرات كسلان

لاظل للمرء يعرى من نهى وتقى ... وإن أظلته أوراق وأفنان
والناس أعوان من والته دولته ... وهم عليه إذا عادته أعوان
«سُحْبان» من غير مال باقل حصر ... و «باقل» فى ثراء المال سحبان
لاتودع السر وشاء به مذلا ... فما رعى غنماً فى الدّو سرحان
لاتستشر غير ندبٍ حازم يقظ. ... قد استوى فيه إسرار وإعلان
فللتدابير فرسان إذا ركضوا ... فيها أبرَوْا كما للحرب فرسان
وللأُمور مواقيت مقدَّرة ... وكل أَمر له حدٌّ وميزان
فلاتكن عجلا فى الأَمر تطلبه ... فليس يُحمدقبل النضج بحران
كفى من العيش ماقد سد من عوز ... ففيه للحرٍّ قنيان وغنيان
وذو القناعة راض من معيشته ... وصاحب الحرص إن أثرى فغضبان
حسب الفتى عقله خِلاً يعاشره ... إذن تحاماه إخوان وخِلان
إذا نبا بكريم موطن فله ... وراءه فى بسيط. الأَرض أوطان
يا ظالما فرحاً بالعزّ ساعده ... إن كنت فى سنةٍ فالدهر يقظان
يا أَيها العالم المرضى سيرته ... أَبشر فأَنت بغير الماء ريّان
ويا أَخاالجهل لوأَصبحت فى لجج ... فأَنت ما بينها لا شك ظمآن
لا تحسبن سرورا دائماً أَبدا ... من سره زمن ساءته أَزمان
وكل كسر فإن الدين يجبره ... وما لكسر قناة الدين جبران

* * *

وقال ابن أَبى بكر المقرى المتوفى سنة ٧٨٥ ه :

زيادة القول تحكى النقص فى العمل ... ومنطق المرء قد يهديه للزلل
إن اللسان صغير جرمه وله ... جُرمٌ كبير كما قد قيل فى المثل
عقل الفتى ليس يغنى عن مُشاورة ... كحدَّةِ السيف لا تغنى عن البطل

إن المشاور إما صائب غرضاً أو مخطىءٌ غير منسوب إلى الخطل
لاتحقر الرأى يأْتيك الحقير به فالنحل وهو ذباب طائر العسل
ولا يغرنك وُدٌّ من أخى أَمل حتى تجربه فى غيبة الأَمل
لا تجزعن لخطب ما به حيل تغنى وإلا فلا تعجز عن الحيل
وقدر شكر الفتى لله نعمته كقدر صبر الفتى للحادث الجلل
وإن أَخوف نهج ما خشيت به ذهاب حُرِّية أَو مرتضى عمل
لا تفرحن بسقطات الرجال ولا تهزأ بغيرك واحذر صولة الدول
وقيمة المرءِ ما قد كان يُحسنه فاطلب لنفسك ماتعلو به وصل
وكل علم جناه ممكن أَبدا إلا إذا اعتصم الإنسان بالكسل
والمال صُنه وورِّثة العدو ولا تحتج حياتك للإخوان فى الأَكل
فخير مال الفتى مال يصون به عِرضاً وينفقه فى أَشرف السبل
وأَفضل البر ما من لا يتبعه ولا تقدمه شىء من المطل

* * *

وقال الإمام على الرضا المتوفى سنة ٧٧ هـ :

واعجباً للمرءِ فى لذته يجرُّ ذيل التيه فى خطرته
يزجره الوعظ فلا ينتهى كأَنه الميت فى سكرته
يبارز الله بعصيانه جهرا ولا يخشاه فى خلوته
وإن يقع فى شدة يبتهل فإن نجا عاد إلى عادته
إرغب لمولاك وكن راشدا واعلم بأَن العز فى خدمته
واتل كتاب الله تهد به واتبع الشرع على سنته
لاتحرصن فالحرص يزرى بالفتى ويذهب الرونق من بهجته
والحظ لا تجلبه حيلة كيف يخاف المرءُ من فوتته ؟

ما فاتك اليوم سيأتى غدا ما فى الذى قدَّر من حيلته

والرزق مضمونٌ على واحدٍ مفاتح الأشياء فى قبضته

قد يرزق العاجز مع عجزه ويحرمُ الكيسُ من فطنته

لا تنهر المسكين يوماً أتى لقد نهاك الله عن نهرته

إن عضك الدهر فكن صابرا

على الذى نالك من عضته

أو مسَّكَ الضرُّ فلا تشتكى إلا لمن تطمع فى رحمته

لسانك احفظه وصن نطقه واحذر على نفسك من عثرته

فالصمت زينٌ ووقارٌ وقد يؤتى على الإنسان من لفظته

من أطلق القول بلا مُهلة لا شك أن يعثر فى عجلته

من لزم الصمت نجا سالماً لا يندم المرءُ على سكتته

من أظهر الناس على سره يستوجب الكىَّ على مُقلته

من مازح الناسَ استخفوا به وكان مذموماً على مِزْحته

من جعل الخمر شفاءً له فلا شفاهُ الله من علته

من نازع الأقيال فى أمرهم بات بعيد الرأس عن جُثته

من لاعب الثعبان فى كفه هيهات أن يسلم من لسعته

من عاشر الأحمق فى حاله كان هو الأحمق فى عشرته

لاتصحب النذل فتردى به لا خير فى النذل ولا صُحبته

من اعتراك الشكُّ فى جنسه وحاله فانظر إلى شيمته

من غرس الحنظل لا يرتجى أن يَجْتنى السكر من غرسته

من جعل الحق له ناصرا أيده الله على نصرته

وقال أَبو العتاهية المتوفى سنة ٢١١ هـ :

أَنلهو وأَيامنا تذهب ؟ ونلعبُ والموت لا يلعب
عجبتُ لذى لعب قد لها عجبت ومالى لا أَعجب
أَيلهو ويلعب مَن نفسه تموت ومنزله يخرب
نرى كل ما ساءنا دائماً على كل ما سرنا يغلب
نرى الليل يطلبنا والنهـــار ولم ندر أَيهما أطلب
أَحاط الجديدان جميعاً بنا فليس لنا عنهما مهرب
وكلٌّ له مدّةٌ تنقضى وكل له أثر يكتبُ

قال صلاح الدين خليل بن أَيبك الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ :

الجد فى الجد والحرمان فى الكسل فانصب تصب عن قريب غاية الأَمل
واصبر على كل ما يأْتى الزمان به صبر الحسام بكف الدارع البطل
وجانب الحرص والأَطماع تحظ بما ترجو من العزّ والتأْييد فى عجل
ولا تكونن على ما فات ذا حزن ولا تظل بما أوتيت ذا جذل
واستشعر الحلم فى كل الأُمور ولا تسرع ببادرة يوماً إلى رجل
وإن بُليت بشخص لا خلاق له فكن كأَنك لم تسمع ولم يقل
ولا تمار سفيهاً فى محاورة ولا حليما لكى تقضى عن الزّلل
ولا يغرك من يبدى بشاشته إليك خدعا فإنّ السمّ فى العسل
وإن أَردت نجاحاً كل آونة فاكتمْ أُمورك عن حاف ومنتعل
إن الفتى من بماضى الحزم متصفٌ وما تعوَّد نقص القول والعمل
ولا يقيم بأَرض طاب مسكنها حتى يقدَّ أَديم السهل والجبل
ولا يضيّع ساعات الزّمان فلن يعود ما فات من أَيامه الأُول

ولا يُراقب إلا من يراقبه ولا يصاحبُ إلا كل ذى نُبل
ولا يعد عيوناً للوَرَى أبدا بل يعتنى بالذى فيه من الخلل
ولا يظن بهم سوءًا ولا حسناً بل التجاربُ تهديه على مهل
ولا يصد عن التقوَى بصيرته لأَنها للمعالى أَوضحُ السبل
فمن تكن حُلة التقوى ملابسه لم يخش فى دهره يوماً من العطل
من لم تفده صروف الدهر تجربة فيما يُحاول فليسكن مع الهمل
من سالمته الليالى فليثق عجلا منها بحرب عدو جاءَ بالحيل
من ضيع الحزم لم يظفر بحاجته ومن رمى بسهاب العجب لم ينل
من جاد ساد وأَحيا العالمون له بديع حمد بمدح الفعل مُتَّصِلِ

وقال حسام الدين الواعظى المتوفى سنة ٩٩٠ هـ :

من ضيع الحزم فى أَفعاله ندما وظل مكتئباً والقلبُ قد سقما
ما المرءُ إلا الذى طابت فضائلهُ والدين زينٌ يزين العاقل والفهما
والعلم أَنفسُ شىءٍ أَنت ذاخرُه فلا تكن جاهلا تستورث الندما
تعلم العلم واجلس فى مجالسه ما خاب قط لبيبٌ جالس العُلما
والوالدين فأَكرم تنج من ضرر ولا تكن نكدا تستوجب النقما
ولازم الصمت لاتنطق بفاحشة وأَكرم الجار لاتهتك له حُرُماً
واحذر من المزح تنج من خطر كم من صديقين بعدالمزح فاختصما
وصبر النفس وارشدها إذا جهلت
وإن حَضرت طعاماً لاتكن نهما

وقال عمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ مخاطباً ولده :

إعتزِلْ ذِكر الأَغانى والغزلْ وقل الفصلَ وجانِب من هزل
ودع الذكر لأَيام الصبا فلأَيام الصبا نجمٌ أَفلْ

واترك الغادة لاتحفل بها تمس فى عزّ رفيع وتجل

وافتكر فى منتهى حُسن الذى أَنت تهواه تجد أَمرا جلل

واهجر الخمرة إن كنت فتى

كيف يسعى فى جنونٍ من عقل ؟

واتق الله فتقوى الله ما جاورت قلب امرى إلا وصل

ليس مَنْ يقطع طرقا بطلا إنما مَنْ يتَّقى الله البطل

كتب الموتُ على الخلق فكم فلَّ من جيش وأَفنى من دولِ

أَين نمرُودُ وكنعانُ ومن ملك الأَرض وولى وعزل ؟

وأَين من سادوا وشادوا وبنوا هلك الكل ولم تغن القلل!

وأَين أَرباب الحجى أَهل النهى أَين أَهل العلم والقوم الأَول ؟

سيعيدُ الله كلا منهمُ وسيجزى فاعلا ما قد فعل

أَطاب العلم ولا تكسلْ فما أَبعد الخير على أَهل الكلل

واحتفل للفقه فى الدين ولا تشتغل عنه بمالٍ وخول

واهجرِ النوم وحصِّله فمن يعرف المطلوب يحقر ما بذل

لا تقل قد ذهبت أَربابه كلٌّ من سار على الدَّرب وصل

فى ازدياد العلم إرغامُ العدا وجمال العلم إصلاحُ العمل

جمِّـل المنطق بالنحو فمن

يحرمَ الإِعراب بالنطق اختبل

إنظم الشعر ولازِمْ مذهبي فى اطراح الرفد لا تبغ النحل

فهو عنوان على الفضل وما أَحسنَ الشعر إذا لم يُبْتذل

وأَنا لا أَختارُ تقبيلَ يد قطعها أَجملُ من تلك القبل

مُلك كسرى عنه تغنى كسرةٌ وعن البحر اجتزاء بالوشل

إطرح الدنيا فمن عاداتها تخفض العالى وتعلى من سفل
عيشةُ الراغب فى تحصيلها عيشة الجاهل فيها أَو أَقل
كم جهول بات فيها مُكثراً وعليم بات منها فى علل
كم شُجاع لم ينل فيها المنى وجبان نال غايات الأَمل
فاترك الحيلة فيها واتكل إنما الحيلة فى ترك الحيل
لا تقل أَصْلى وفصلى أَبداً إنما أَصل الفتى ما قد حصل
قد يسود المرءُ من دون أَبٍ
وبحسن السبك قد ينفى الدغل
إنما الورد من الشوك وما ينبتُ النرجسُ إلا من بصل
قيمة الإنسان ما يُحْسنُه أَكثر الإنسانُ منه أم أَقل
بين تبذير وبخل رُتبة وكلا هذين إن زاد قتل
ليس يخلو المرءُ من ضِدٍّ ولو حاول العزلة فى رأس الجبل
دار جارَ السوءِ بالصبر وإن لم تجد صبرا فما أَحلى النُّقل
جانب السلطان واحذر بطشهُ لا تعاند من إذا قال فعل
إن نصف الناس أَعداءٌ لمنْ ولى الأَحكام هذا إن عدل
قصِّر الآمال فى الدنيا تفزْ فدليلُ العقل تقصيرُ الأَمل
غب ، وزر غبًّا تزد حباً فمن أَكثر الترداد أَقصاه الملل
لا يضر الفضل إقلالٌ كما لا يضر الشمس أَطباق الطفل
خذ بنصل السيف واترك غمده واعتبر فضل الفتى دون الحُلل
حُبك الأَوطان عجزٌ ظاهر فاغترب تلق عن الأَهل بدل
فبمكث الماءِ يبقى آسناً وسُرى البدر به البدرُ اكتمل

وقال العميد أبو إسماعيل الطغرائى المتوفى سنة ٥١٣ هـ(١) :

أَصالة الرأى صانتني عن الخطل   وحلية الفضل زانتنى لدى العطل(٢)

مجدِى أَخيراً ومجدى أَولا شرع والشـــمس رأْد الضُّحى كالشمس فى الطفل(٣)

فِيمَ الإِقامة بالزوْرَاءِ ، لاسكنى   بها ولا ناقتى فيها ولا جملى(٤)

ناء عن الأَهل صفر الكف منفرد   كالسيف عرِّى متناه عن الخلل

فلا صديقَ إليه مُشتكى حربى   ولا أَنيس إليه منتهى جذلى(٥)

طال اغترابى حتى حن راحلتى   ورحلها وقرا العسالة الذبل(٦)

وضج من لغب نضوى وعج لما   أَلقى ركابى ولجَّ الركبُ فى عذلى(٧)

---

(١) هو العميد أبو اسماعيل الحسين بن على الملقب بمؤيد الدين المشهور بالطغرائى المتوفى سنة ٥١٣ هـ .   (٢) صانتنى : حفظتنى والخطل : الخطأ .   (٣) مجد وشرف وشرع سواء ورأد الوقت الذى بعد العصر وقبل الغروب ، « المعنى » شرفى وقت تجردى من الامارة وشرفى وقت تسربلى بها سواء ان حالى كالشمس فى كون ضوئهـا وقت الضحى مخالفا لضوئها وقت الطفل ولكنه لم ينقص من ذاتها الواحدة شــيئا ، يفتخر بدوام شرفه على اختلاف الأزمان .   (٤) الزوراء : اسم لبغداد وناء بعيد ، وصفر خال ، وعرى جرد ، والخلل كسوة غمد السيف .

(٥) الجذل السرور ، المعنى : اعتزلنى الناس ببغداد فلم يأو الى بها حبيب أبث اليه كدرى من جور الزمان فيفرجه عنى ويساعدنى على صرفه ولا سمير أوصل اليه فرحى فيزيد سرورى ويدفع وحشتى .

(٦) حسن مال ، والراحلة ما يرحل عليه من الابل مذكرا كان أو مؤنثا والرحل العدة التى يركب عليها وقرا ظهره والعسالة الاهتزاز والذبل الجافة .   (٧) ضج صوت ، واللغب التعب ونضوى أى منضوى بمعنى مهزول وعج صوت ولج تمادى : والعذل اللوم « المعنى » امتدى بعدى حتى صوت من أجل تعبه ركوبتى وصوت لمثل ما صادف من تعب السفر ابل أصحابى الذين معى فيه وتمادوا فى لومى على هــذا السفر الذى امتد ولم ينته الا لكى أطلب بامتداد بعدى عن وطنى ثروة أتســاعد بسببها على أداء عادة ثابتة ثبوت مروءة جهتى .

أُريد بسطة كف أَستعين بها ... على قضاءِ حُقوق للعُلى قبَلى
والدهر يعكس آمالى ويُقنعنى ... من الغنيمة بعد الكدّ بالقفل (١)
وذِى شطاط كصدر الرمح معتقل ... بمثله غير هيَّاب ولا وكل (٢)
حُلو الفكاهة مر الجد قد مُزجت ... بشدَّة البأس منه رقة الغزل (٣)
طردت سرح الكرى عن ورد مقلته ... والليل أغرى سوام النَّوم بالمقل (٤)
والركب ميل على الإِكوار من طرب ... صاح وآخر من خمر الكرى ثمل (٥)
فقلت : أَدعوك للجلى لتنصرَنى ... وأَنت تخذُلنِى فى الحادث الجلل (٦)
تنامُ عينى وعينُ النجمِ ساهرةٌ ... وتستحيل وصبغُ الليل لم يحل (٧)
فهل تعينُ على غيٍّ هممتُ به ... والغىُّ يزجر أَحياناً عن الفشل (٨)
إِنى أريد طروق الحى من إِضمٍ ... وقد حماه رُماة من بنى ثعل (٩)

---

(١) يعكس يرد ويقنعنى يرضينى والكد التعب والقفل الرجوع ، « المعنى » : والزمن يرد على ما أرجوه ويجعلنى بعد التعب فى السفر والتغريب راضيا بالرجوع بدل الغنيمة التى هى مطمح نظرى فى تكبد المصاعب . (٢) شطاط اعتدال القامة ومعتقل قابض وهياب خواف ووكل عاجز ، « المعنى » : ورب صاحب اعتدل قامة كاعتدال صدر الرمح معتقل برمح مثله لا يخاف المخاوف ولا يعجز عن شىء من شئونه ، التفت الى وصف صاحب له بهذه الأوصاف وغيرها وهو اقتضاب على عادة البلغاء من الالتفات من فن الى آخر تنشيطا للسامع .

(٣) مزجت خلطت والبأس الشجاعة ، ورقة الغزل لطف الكلام .

(٤) طردت أبعدت وسرح الكرى وثباته والورد الموصول والمقلة شحمة العين الجامعة للسوداء والبيضاء وأغر أولع ، وسوام ثبات .

(٥) ميل منحنى وطرب نشط وثمل سكران ، « المعنى » : وأصحابى منحنون على رحالهم ، فريق منهم نشط يقظ لم يتغلب عليه النوم وفريق آخر خمل متثاقل من تغلبه عليه . (٦) الجلى الأمر العظيم ، وتخذلنى تتركنى والحادث الجلل العظيم . (٧) تستحيل تتحول وصبغ ظلام الأمر ويحل ينتقل . (٨) غى ضلال ، ويزجر يمنع ، « المعنى » : قد غفرت ما حصل من تقصيرك فى شأنى بنومك فهل تساعدنى على ضلال أردته ولا تخش عقباه بالذم على فعله .

(٩) الطروق المجىء ليلا والحى القبيلة ، واضم اسم جبل وحماه منعه ، ورماة كسعاة خفراء ، وثعل قبيلة من طيىء .

يحمون بالبيض والسُّمر اللدان به ... سود الغدائر حمر الحَلْى والحلل[١]

فسِر بنا فى ذمام الليل مُعْتسفاً ... فنفحة الطيب تهدينا إلى الحلل[٢]

فالحبُّ حيثُ العدَا والأسدُ رابضة ... حولَ الكناس لها غاب من الأَسَل[٣]

نؤمُّ ناشئة بالجزع قد سُقيت ... نِصالها بمياه الغنْج والكحل[٤]

قد زاد طيب أَحاديث الكرام بها ... ما بالكرائم من جُبن ومن بخل

تبيتُ نار الهوَى منهنّ فى كبد ... حَرَّى ونار القرى منهم على القلل[٥]

يقتلنَ أَنضاءَ حُب لا حِرَاك بهم ... وينحرون كرَامَ الخيل والإبل[٦]

يُشْفى لديغُ العوالى فى بيوتهم ... بنهلة من غدير الخمر والعَسل[٧]

لعلَّ لى إلمامة بالجزع ثانية ... يدبُّ منها نسيم البُرْءِ فى علل[٨]

لا أَكرَه الطعنة النجْلاءَ قد شفعت ... برشْفة من نبال الأَعين النجل[٩]

---

(١) البيض : السيوف والسمر الرماح واللدان اللينة ، الغدائر الضفائر من الشعر ، والحل ما تتحلى به المرأة ، والحلل الثياب المزركشة.

(٢) ذمام كفالة ، ومعتسفا متكلفا طريقا غير مألوف ، والحلل بيوت القوم التى يحلونها . (٣) الحب : المحبوب ورابضة واقفة ، والكناس بيت الظبى الغاب شجر يسمى بالأسل ملتف على بعضه ويكون مأوى الأسود ، « المعنى » : المحبوب فى مكان به الرقباء ورجال الحى مقيمة حول مكانه مستعدة برماح تصول بها على من يقرب منه .

(٤) نؤم نقصد والجزع منعطف الوادى ، والنصال السيوف والغنج حسن شكل العيون والكحل سواد يعلو جفون العين خلقة « المعنى » نقصد بسيرنا قبيلة تربض فى منعطف الوادى قد أعطيت عيونها حسن الشكل والكحل . (٥) القرى : اكرام الضيف ، والقلل : جمع قلة وهى أعلى الجبل . (٦) ان نساء هذه القبيلة يقتلن ببراعة جمالهن عشاقهن حتى أعدم حركتهم عشقهم لهن ، ورجالها لفرط كرمهم يذبحون جياد الأفراس والجمال لضيافتهم . (٧) أى يبرأ من قتل فى حبهن بأول شربة من ريق ثغرهن . (٨) المامة نزولا ويدب يسرى .

(٩) أكره أبغض ، والطعنة النجلاء الجرح المتسع برمح ، وشفعت قرنت ورشفة ونبال السهام المراد بها هنا اللحاظ والنجل الواسعات ، « المعنى » . لا أبغض الوخذة الواحدة من رماح رجال هذه القبيلة مقرونة برمية من لحاظ الأعين الواسعات لنسائها .

ولا أهاب الصفاح البيض تسعدنى ... باللمح من خلل الأَستار والكلل (١)

ولا أُخلُّ بغزلان تغازلنى ... ولو دهتنى أَسود الغيل بالغيل (٢)

حبُّ السلامة يثنى عزمَ صاحبه ... عن المعالى ويغرى المرء بالكسل (٣)

فإن جنحت إليه فاتخذ نفقا ... فى الأَرض أَو سلماً فى الجو فاعتزل (٤)

ودع غمار العلى للمقدمين على ... ركوبها واقتنع منهن بالبلل (٥)

يرضى الذليل بخفض العيش مسكنة ... والعزُّ عند رسيم الأَينق الذلل (٦)

فادرأْ بها فى نحور البيد جافلة ... معارضات مثانى اللجم بالجدل (٧)

إن العلى حدثتنى وهى صادقةٌ ... فيما تحدِّث أَن العز فى النقل (٨)

لو أَن فى شرف المأْوى بلوغ مُنى ... لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل

أَهبت بالحظ لو ناديت مستمعاً ... والحظ عنى بالجهال فى شغل

لعله إن بدا فضلى ونقصهم ... لعينه نام عنهم أَو تنبه لى

أَعلل النفس بالآمال أَرقبها ... ما أَضيق العيش لولا فسحة الأَمل

لم أَرْتضِ العيش والأَيام مقبلةٌ ... فكيف أَرضى وقد ولت على عجل

غالى بنفسى عرفانى بقيمتها ... فصنتها عن رخيص القدر مبتذل

وعادة السيف أَن يزهى بجوهره ... وليس يعمل إلا فى يدى بطل

---

(١) الصفاح : السيوف ، وخلل النقب الخفيف النافذ فى الشىء والكلل ستر يحاط به شبه الناموسية ، « المعنى » : ولا أخاف ضرب السيوف من رجال هذه القبيلة مسعدة لى بخفيف نظرى لها من ثقوب أستار بيوتهن وحجراتهن . (٢) أى لا أترك النظر من خلل الأستار الى نساء هذه القبيلة التى تحادثنى ولو أصابتنى شجعانها بالهلاك فجأة .

(٣) أى الرغبة فى النجاة من المشاق تصرف عزم ملازمها عن مكاسب الشرف وتولعه بالتثاقل والفتور عنها . (٤) النفق كجبل سرب فى الأرض له منفذ من مكان آخر . (٥) غمار كثير والبلل القليل .

(٦) رسيم سرعة ، والأنيق الذلل أى الابل المروضة التى ليست بجموحة . (٧) أدفع بهذه الأنق فى أوائل الصحارى ، مسرعة مقابلات بأزمتها أعنة الخيل تصحبها فى السير أى غير متأخرة عنها فيه .

(٨) النقل التحول والانتقال .

ما كنت أُوثر أَن يمتد بى زمنى — حتى أَرى دولة الأَوغاد والسفل
تقدمتنى أُناسٌ كان شوطهم — وراءَ خطوى لو أَمشى على مهل
هذا جزاءُ امرىء أَقرانه درجوا — من قبله فتمنى فسحة الأَجل
فإِن علانى من دونى فلا عجبٌ — لى أُسوةٌ بانحطاط الشمس عن زحل
فاصبر لها غير محتال ولا ضجرٍ — فى حادث الدهر مايغنى عن الحيل
أَعدى عدوك أَدنى من وثقت به — فحاذر الناس واصحبهم على دخل
فإنما رجل الدنيا وواحدها — من لايعوِّل فى الدنيا على رجل
وحسن ظنِّك بالأَيام معجزةٌ — فظنَّ شرًّا وكن منها على وجل
غاض الوفاءُ وفاض الغدروانفرجت — مسافة الخلف بين القول والعمل
وشان صدقك عند الناس كذبهم — وهل يطابق معوجٌّ بمعتدل
إن كان ينجع شىءٌ فى ثباتهم — على العهود فسبق السَّيف للعذل
ياوارداً سؤر عيشٍ كله كدرٌ — أَنفقت صفوك فى أَيامك الأَول
فيم اقتحامك لج البحر تركبه ؟ — وأَنت تكفيك منه مصة الوشل
ملك القناعة لا يخشى عليه ولا — يحتاج فيه إِلى الأَنصار والخول
ترجو البقاءَ بدار لا ثبات بها — فهل سمعت بظل غير منتقل؟
ويا خبيراً على الأَسرار مطلعاً — أَصمت ففى الصمت منجاةٌ من الذلل
قد رشحوك لأَمر إن فطنت له — فاربأْ بنفسك أَن ترعى مع الهمل

* * *

وقال المرحوم عبد الله فكرى يخاطب نجله المرحوم أَمين :

إذا نام غرٌّ فى دجى الخطب فاسهر — وقم للمعالى والعوالى وشمر
وخلّ أَحاديث الأَمانى فإِنها — علالةُ نفس العجز المتحير
وسارع إِلى مارُمْت مادمت قادرا — عليه فإِن لم تبصر النجح فاصبر

ولا تأت أمراً لا ترجى تمامه ولا مورداً ما لم تجد حسن مصدر

وأكثر من الشورى فإنك إن تصب تجد مادحاً أو تخطىءِ الرأى تعذر

ولا تستشر فى الأمر غير مجرِّبٍ لأمثاله أو حازم متبصر

ولا تبغ رأياً من خؤون مخادعٍ ولا جاهل عز قليل التدبر

فمن يتبع فى الخطب خدعة خائن يعضُّ بنان النادم المتحسر

ومن يتبع فى أمره رأى جاهل يَقده وإن يعرض لك الشك فاخبر

ولا تصغ فى رد الصديق لكاذب نموم وإن يعرض الك الشك فاخبر

ولا تغترر تندم ولا تك طامعاً تذل ولا تحقر سواك تحقر

وعود مقال الصدق نفسك وارضه تصدق ولا تركن إلى قول مفترى

ودع عنك إسراف العطاء ولا يكن لكفيك فى الإنفاق إمساك مقتر

ولا تقف زلات العباد تعدها فلست على هذا الورى بمسيطر

ولا تتعرض لاعتراض عليهم دع الخلق للخلاق تسلم وتؤجر

* * *

وقال عبد القيس بن خفاف البرجمى المتوفى سنة ٥١ هـ :

ابنىَّ إن أباك كارب يومه فإذا دعيت إلى المكارم فاعجل

أوصيك إيصاءَ امرىءٍ لك ناصح طبن بريب الدهر غير مغفل

الله فاتقه وأوف بنذره وإذا حلفت ممارياً فتحلل

والضيف أكرمْه فإن مبيته حقٌّ ولا تك لعنة للنزل

واعلم بأن الضيف مخبر أهله بمبيت ليلته وإن لم يسأل

وصل المواصل ما صفا لك وده واجذذ حبال الخائن المتبدل

واحذر محل السوءِ لا تحلل به وإذا نبا بك منزل فتحول

واستأن تظفر فى أُمورك كلها وإذا عزمت على الهدى فتوكل

واستغن ما أَغناك ربك بالغنى ... وإذا تصبك خصاصة ، فتحمل

وإذا افتقرت فلا تكن متجشعاً ... ترجو الفواضل عند غير المفضل

وإذا تشاجرَ فى فؤادك مرة ... أَمران فاعمد للأَعف الأَجمل

وإذا هممت بأَمر سوءٍ فاتئد ... وإذا هممت بأَهل خير فاعجل

* * *

وقال فقيد اللغة ناصيف بن عبد الله اليازجى اللبنانى المتوفى سنة ١٢٨٧ هـ :

دع يوم أَمس وخذ فى شأْن يوم غد ... واعدد لنفسك فيه أَفضل العدد

واقنع بما قسم الله الكريم ولا ... تبسط يديك لنيل الرزق من أَحد

والبس لكل زمان بردة حضرت ... حتى تحاك لك الأُخرى من البرد

ودر مع الدهر وانظر فى عواقبه ... حذار أَن تبتلى عيناك بالرمد

متى ترى الكلب فى أَيام دولته ... فاجعل لرجليك أَطواقاً من الزرد

واعلم بأَن عليك العار تلبسه ... من عضة الكلب لا من عضة الأَسد

لاتأمل الخير من ذى نعمة حدثت ... فهو الحريص على أَثوابه الجدد

* * *

وقال مؤلف هذا الكتاب السيد أَحمد الهاشمى معارضاً لامية الطغرائى :

عليك بالصبر والإِخلاص فى العمل ... ولازم الخير فى حِل ومُرْتحل

وجانب الشر واعلم أَن صاحبه ... لابد يجزاه فى سهل وفى جبل

واثبت ثبات الرواسى الشامخات ولا ... تركن إلى فشل فى ساعة الوهل

وكن كرضوى لما يعروك من نوب ... ولا تكن جازعا فى الحادث الجلل

واصبر على مضض الأَيام محتملا ... ففيه قرع لباب النجح والأَمل

تأَن متئداً فيما تروم ولا ... تعجل وإن خلق الإِنسان من عجل

لاتطلب العزَّ فى دار ولدت بها ... فالعزُّ عند رسيم الأَينق الذلل

شمر وجِدَّ لأَمر أنت طالبه ... إذ لا تنال المعالى قط بالكسل
واحذر مساوىءَ أَخلاق تشانُ بها ... وأَسوأ السوء سوءُ الخلق والبخل
واخفض جناحك للمولى وجُد ونل ... ما أَقبحَ الكبرَ والإمساك بالرجل
لا تسأَلِ النذل ، واقصد ما جداً حدباً ... فى طلعة الشمس ما يُغنيك عن زُحَل
ولا تجادل جَهولا ليس يفهمُ ما ... تقول فالشر كل الشر فى الجدل
ولا تكن لنزول الخطب مضطرباً ... فى حادث الدهر ما يُغنى عن الحيل
الجود أَحسن ما أَوليت من خُلقٍ ... والعفو أَنقى لداءِ الضغن والدخل
والحلم ملحُ فساد الأَمر يصلحه ... والبذلُ خير فِعال الماجد البطل
لاتقتحم غمرات البحر مرتكباً ... وأَنت يكفيك منه مصة الوشل
ولا تعاشر سوى حزم أَخا ثقة ... واربأ بنفسك أَن ترعى مع الهمل
لا تنخدع لصديق يدعى مَلَقاً ... بل حاذرِ الناسَ واصحبهم على دخل
لاتأمنن أَحدا واحذر مكائدهم ... وظن شرا وكن منهم على وجل
ولا تغرنك الدنيا بزهرتها ... فهل سمعت بظل غير منتقل
إن الغنى غنى النفس فى كرم ... بالطبع ، لا باقتناء الشاء والإبل
إن الصنيعة للأَنذال تفسدهم ... كما تضر رياح الورد بالجعل
مرارة النصح تحلو لى مضاضتها ... وربما صحت الأَجسام بالعلل
دع التكلف لايُجديك منفعة ... ليس التكحل فى العينين كالكحل
أَرى الرعاء رِعاءَ الشاءِ فى ترَفٍ ... فى أَرفع العيش بين الخيل والخوَلِ
وسادة العصرِ قد أَلقوا مقالِدَهم ... إلى الطغام شرار الناس والسفل
تحكموا فى قضايا الناس واحتكموا ... وحكموا كل ذى جهل أَخى خبل
من كل غر جهول لا يرى رشدا ... كباقل مثلا فى العى والخطل

القبضُ والبَسْطُ فى أَيدى ذوى شططٍ
من كلِّ سكران من خمر الهوى ثَمِل

تَسْطو الكلابُ عَلى أُسْدِ الشرى سَفها
والبازُ الاشهب يخشى صَوْلة الحجل

والقرد يضحك من نمر على هُزُءٍ والكلب يُوعِدُ ليث الغيلِ بالغيل
نال المرامَ عُلوجٌ لاخلاق لهم فوق المؤمِّل من شب ومكتهل
أَمْلى لهم دَهْرَهُم فاستمهلوا أَبدا مرخى لهم من مُرُوع العيش والطول
شرٌّ العصور زمانٌ يستمد به خِبٌّ لئيمٌ غدا فى الشر كالثمل
لا يعلم الرُّشد من غى وليس له سوى الشرارة فى قول وفى عمل

يشكو الطوى كل ذى فضل وذى أَدب
وسُوقةُ الناس فى رغد وفى جَذَلِ

مالى وللبلدةِ الحمقاءِ أَسكنها مساكناً لذوى خرق أولى حيل
وليسَ لى ناقةٌ فيها ولا جملٌ وليس لى ثم من ثور ولا حمل
لا يستقيمُ وفاقٌ لى بمثلهم وهل يطابق مُعْوَجٌ بمعتدل ؟
قد ذقتهم وبَلَوْتُ الحال عندهم فما حصلتُ على صاب ولاعسل
لا يفعلون إذا قالوا فقد بعدت مسافة الخلف من قول ومن عمل
(أَضحت مواعيدَ عرقوب لهم مثلا) وما مواعيدهم إلا على دَخل
أَشكو الزمان وأَهليه وأَمقتهم إذ سوء أَفعالهم أَو فى على القلل
ساءت سريرتهم ، حالت طريقتهم زاغت بصيرتهم عن أَقوم السبل
علم بلا عمل ، حُكم بلا حكم ، ظلم على عجل ، وعدٌ على مهل
الإفك والزُّورُ والبُهْتان عندهم والسعى فى الأَرض بالإِفساد والخلل
الكذب مستحسن والصدق عندهم مستهجن من صفات العاجز الوكل

أهنى الطعام لحوم الناس عندهم ... والنمُّ فيما لديهم شربة العسل
نكث العهود سجاياهم ودأْبهم ... خلف الوعود وذا من أسوأ الثقل
يا دهر مالك والأَحرار تقهرهم ... تذل كل كريم الأَصل مقتبل
حتى متى يازمان السوءِ تفعل ما ... تشيب به النواصى غير محتمل
تؤخر الفاعل المرفوع تحفظه ... مقدماً لمفاعيل على البدل
وساقة الجيش قد أَضحت مقدمة ... مثل التليل غدا فى مؤخر الكفل
فلست أَحفظ فى ذى الدهر من أسف ... أَطال أَيام عمرى أَم دنا أَجلى
واهاً لقلبي بين يوم البين إذ ظعنوا ... فالعين فى لجج والقلب فى شعل
كيف التصبر من نارى نوى وجوى؟ ... وفى الحشا منك جرح غير مندمل
فقد فقدت الألى كانت ببهجتهم ... نور النواظر فى الأَحداق والمقل
لم أكتحل بقرار بعد ما ارتحلوا ... ولا ابتغيت لهم فى الناس من بدل
ولم يبق لى الدهر بعد البين من جلد ... ما أَستطيع به توديع مرتحل
ولا من الغمض ما أقرى الخيال به ... ولا من الدمع ما أَبكى على طلل
قلبى على لهب والجسم فى نصب ... والروح فى وصب واللب فى ذهل
حسبى الغرام حليف والجوى أَبدا ... منادماً، وسمير غير منفصل
خذها محبرة غيداء غالية ... أَتت على عجل كالقابس العجل
جاءت من (الهاشمى) لاتبتغى مهراً ... من خاطب لبنان النظم فى عطل

* * *

وقال محمد اليمنى الملقب بنجم الدين المتوفى سنة ٥٦٩ هـ :

لا تحتقرن كيد الضعيف فربما ... تموت الأَفاعى من سموم العقارب
وقد هد قدماً عرش بقليس هدهد ... وخرب حفر الفأْر سد مأْرب

إذا كان رأْس المال عمرك فاحترز ... عليه من الإنفاق فى غير واجب
فبين اختلاف الليل والصبح معترك ... يكر علينا جيشه بالعجائب
وما راعنى غدر الشباب لأَننى ... أنست بهذا الخلق من كل صاحب
وغدر الفتى فى عهده ووفائه ... وغدر المواضى فى نبوِّ المضارب

وقال الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ :

سامح أَخاك إذا خلط. ... منه الإصابة بالغلط.
وتجاف عن تعنيفه ... إن زاغ يوماً أَو سقط.
واحفظ. صنيعك عنده ... شكر الصنيعة أَو غمط.
وأَطعه إن عاصى ، وهن ... إن عز ، وادن إذا شحط.
واقن الوفاءَ ولو أخـــل بما اشترطت وماااشترط
واعلم بأَنك إن طلبـــت مهذباً رمت الشطط.
من ذا الذى ما ساءَ قط. ... ومن له الحسنى فقط. ؟

وقال أَيضاً :

اسمع أَخى وصية من ناصح ... ما شاب محض النصح منه بغشه
لا تعجلن بقضية مبتوتة ... فى مدح من لم تبله أَو خدشه
وقف القضية فيه حتى تجتلى ... وصفيه فى حالى رضاه وبطشه
فهناك إن تر ما يشين فواره ... كرماً وإن تر ما يزين فأَفشه
واعلم بأَن التبر فى عرق الثرى ... خاف إلى أَن يستثار بنبشه
وفضيلة الدينار يظهر سرها ... من حكه لا من ملاحة نقشه
ومن الغباوة أَن تعظم جاهلا ... لصقال ملبسه ورونق رقشه
أَو أَن تهين مهذبا فى نفسه ... لدروس بزته ورثة فرشه

الباب التاسع فى العلم

قال مؤيد الدين الأَصبهانى المعروف بالطغرائى المتوفى سنة ٥١٣ هـ :

من قاس بالعلم الثراءَ فإنه ... فى حُكمه أَعمى البصيرة كاذبُ
العلم تخدمه بنفسك دائما ... والمال يخدم عنك فيه نائب
والمال يسلب أَو يبيد لحادث ... والعلم لايخشى عليه السالب
والعلم نقش فى فؤادك راسخ ... والمال ظل عن فنائك ذاهب
هذا على الإنفاق يغزر فيضه ... أَبدا وذلك حين تنفق ناضب

العلم أَشرف شىءٍ قاله رجل ... من لم يكن فيه علم لم يكن رجلا
تعلم العلم واعمل يا أُخىَّ به ... فالعلم زين لمن بالعلم قد عملا

العلم مبلغ قوم ذروة الشرفِ ... وصاحب العلم محفوظ من التلف
يا صاحب العلم مهلا لاتدنسه ... بالموبقات ، فما للعلم من خلف
العلم يرفع بيتاً لا عماد له ... والجهل يهدم بيت العز والشرف

لو كان نور العلم يدرك بالمنى ... ما كان يبقى فى البرية جاهل
اجهد ولا تكسل ولاتك غافلا ... فندامة العقبى لمن يتكاسل

وفى الجهل قبل الموت موت لأَهله ... وأَجسادهم دون القبور قبور
وإن امرأً لم يحى بالعلم قلبه ... فليس له حتى النشور نشور

لكل مجد فى الورى نفع فاضل ... وليس يفيد العلم من دون عامل
يسابق بعض الناس بعضاً بجدهم ... وما كل كر بالهوى كر باسل
إذ لم يكن نفع لذى العلم والحجا ... فما هو بين الناس إلا كجاهل

كذاك إذا لم ينفع المرءُ غيرَه يُعدُّ كشوكٍ بين زهر الخمائلِ

يا ساعيا وطلابُ المال همته إنى أراك ضعيف العقل والدين
عليك بالعلم لاتطلب له بدلا واعلم بأنك فيه غير مغبون
العلم يجدى ويبقى للفتى أبدًا والمال يفنى وإن أجدى إلى حين
هذاك عز وذا ذل لصاحبه ما زال بالبعد بين العز والهون

العلم زين وتشريف لصاحبه فاطلب هديت فنون العلم والأدبا
كم سيد بطل آباؤه نجب كانوا الرؤوس فامسى بعدهم ذنباً
ومقرف خامل الآباءَ ذى أدب نال المعالى بالآداب والرتبا
العلم كنز وذخر لا فناءَ له نعم القرين إذا ما صاحب صحبا
قد يجمع المال شخص ثم يحرمه عما قليل فيلقى الذل والحربا
وجامع العلم مغبوط به أبدًا ولا يحاذر منه القوت والسلبا
ياجامع العلم نعم الذخر تجمعه لا تعدلن به درا ولا ذهبا

بالعلم والعقل لابالمال والذهب يزداد رفع الفتى قدرا بلا طلب
فالعلم طوق النهى به شرفاً والجهل قيد له يبليه باللعب
كم يرفع العلم أشخاصاً إلى رتب ويخفض الجهل أشرافاً بلا أدب
العلم كنز فلا تفنى دخائره والمرءُ ما زاد علماً زاد بالرتب
فالعلم فاطلب لكى يجديك جوهره كالقوت للجسم لاتطلب غنى الذهب

العلم زين فكن للعلم مكتسباً وكن له طالباً ما عشت مقتبساً
اركن إليه وثق بالله واغن به وكن حليما رزين العقل محترساً
وكن فتى سالكا محض التقى ورعا للدين مغتنما فى العلم منغمسا

فمن تخلق بالآداب ظلَّ بها رئيس قوم إذا ما فارق الرؤسا

الناس من جهة التمثال أكفاءُ أَبُوهُم آدم والأُمُّ حَوَاءُ
فإن يكن لهم فى أَصلهم شرفٌ يُفاخرون به فالطين والماءُ
ما الفخر إلا لأَهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أَدلاءُ
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأَهل العلم أَعداءُ
وإن أَتيت بجود ذوى نسب فإن نسبتنا جود وعلياءُ
ففُز بعلم تعِش حيا به أَبداً الناس موتى وأَهلُ العلم أَحياءُ

العلم يغرسُ كل فضلٍ فاجتهد أَلا يفوتك فضل ذاك المغْرس
واعلم بأَن العلم ليس يناله من همه فى مطعم أَو ملبسِ
إلا أَخو العلم الذى يزهو به فى حالتيه عارياً أَو مكتسى
فاجعل لنفسك منه حظا وافراً واهْجر له طيب الرّقادِ وعبِّس
فلعل يوماً أَن حضرت بمجلس كنت الرئيس وفخر ذاك المجلس

وقال المرحوم أَحمد شوقى بك فى العلم والمعلم والتعليم :

قُمْ لِلمُعلم وَفِّهِ التبجيلا كاد المعلم أَن يكون رسولا
أَعلمت أَشْرَف أَو أَجل من الذى يبنى ويُنشئ أَنفساً وعقولا ؟
سبحانك اللهم ، خير مُعلم علمت بالقلم القرون الأُولى
أَخرجت هذا العقل من ظُلماته وهديته النور المُبين سبيلا
وطبعته بيد المعلم ، تارة صدأَ الحديد ، وتارة مصقولا
أَرسلت بالتوراة موسى مُرشداً وابن البتُول فعلم الإنجيلا
وفجرت ينبوع البيان محمداً فسقى الحديث وناول التنزيلا

علمت يوناناً ومصر فزالتا عن كُلِّ شمس ما تريد أُفولا
واليوم أَصبحنا بحال طُفولة فى العلم تلتمسانه تطفيلا
من مشرق الأَرض الشموس تظاهرت ما بال مغربها عليه أُديلا
يا أَرض مُذْ فقد المعلم نفسه بين الشموس وبين شرقك حيلا
ذهب الذين حموْا حقيقة علمهم واستعذبوا فيها العذاب وبيلا
فى عالم صحب الحياةَ مُقيداً بالفرد، مخزوماً به، مغلولا
صَرَعته دنيا المستبد كما هوت من ضربة الشمس الرءُوس ذهولا
سُقراط أَعطى الكأْس وهى منية شفتى محب يشتهى التقبيلا
عرضوا الحياة عليه وهى غباوةٌ فأَبى وآثر أَن يموت نبيلا
إن الشجاعة فى القلوب كثيرة ووجدت شجعان العقول قليلا
أَمُعلمى الوادى وساسة نشئه والطابعين شبابه المأْمولا
والحاملين إذا دعوا ليُعلموا عبءَ الأَمانة، فادحاً مسئولا
ونيت خطا التعليم بعد محمد ومشى الهوينا بعد إسماعيلا
حتى رأَينا مصر تخطو إصبعا فى العلم، إن مَشتِ المماليك ميلا
تلك الكفور وحشوها أُميةٌ من عهد (خُوفو) لم تر القنديلا
تجد الذين بنى المسلة جدهم لايُحسنون لإبرة تشكيلا!
ويُدللون إذا أُريد قيادُهم كالبُهْم تأْنس إذ ترى التدليلا
يتلو الرجال عليهمو شهواتهم فالناجحون أَلذهم ترتيلا
الجهل لا تحيا عليه جماعة كيف الحياة على يدى عزريلا؟
ربوا على الإنصاف فتيان الحمى تجدوهم كهف الحقوق كهولا
فهو الذى يبنى الطباع قويمة وهو الذى يبنى النعوس عدولا
وتقيم منطق كل أَعوج منطق ويريد رأْياً فى الأُمور أَصيلا

وإذا المعلمُ لم يكن عدلا مشى — روح العدالة فى الشباب ضئيلا
وإذا المعلم ساد لحظ بصيرة — جاءت على يده البصائرُ حُولا
وإذا أتى الإرشادُ من سبب الهوى — ومن الغرُور فسمه التضليلا
وإذا أُصيب القوْم فى أخلاقهم — فأقم عليهم مأْتماً وعويلا
إنى لأَعذركم وأحسب عِبْئكم — من بين أَعباء الرجال ثقيلا
وجد المساعد غيرهم وحرمْتُمو — فى مصر عون الأمهات جليلا
وإذ النساءُ نشأْن فى أُميةٍ — رضع الرجال جهالة وخمولا
ليس اليتيم من انتهى أَبواه من — هم الحياة ، وخلفاه ذليلا
فأَصاب بالدنيا الحكيمة منهما — وبحسن تربية الزمان بديلا
إن اليتيم هو الذى تلقى له — أُمًّا تخلت أَو أَباً مشغولا

* * *

الباب العاشر فى العقل

لولا العقول لكان أَدنى ضيغم — أَدنى إلى شرفٍ من الإنسان
ولربما طعن الفتى أَقرانه — بالرأْى قبل تطاعن الأَقران

أَلم تر أَن العقل زين لأَهله — ولكن تمام العقل طول التجارب

يقول لك العقل الذى زين الفتى — إذا لم تكن تقدر عدوك داره
ولاقِه بالترحيب والبشر والقِرى — وبارك له مادمت تحت اقتداره
وقبل يد الجانى التى لست قادرا — على قطعها وارقب سقوط جداره

العقلُ حُلة فخر مَن تسربلها — كانت له نسباً تغنى عن النسب
والعقل أَفضل ما فى الناس كلهم — بالعقل ينجو الفتى من حومة الطلب

وأفضل قسم الله للمرءِ عقله فليس من الخيرات شيءٌ يقاربه
يعيش الفتى بالعقل فى الناس إنه على العقل يجرى علمه وتجاربه
يشين الفتى فى الناس قلة عقله وإن كرمت أعراقه ومناسبه
إذا أكمل الرحمن للمرءِ عقله فقد كملت أخلاقه ومآربه

ما وهب الله لامرىءٍ هِبة أشرف من عقله ومن أدبه
هما حياة الفتى فإن عُدما فإن فقد الحياة أجمل بِهْ

يُعدُّ رفيع القوم من كان عاقلا وإن لم يكن فى قومه بحسيب
وإن حل أرضاً عاش فيها بعقله وما عاقل فى بلدة بغريب

من كان ذا مال ولم يك عاقِلا فذاك حمار حملوه من التبر
أرى العقل مرآة الطبيعة إذ به نرى صور الأشياء فى عالم الفكر

ذو العقل فى معترك الأقدار مقتدر لكن ذا الجهل مغلوب ومغلول
وعقل ذى الجزم مرآة الأُمور بها يرى الحقائق ، والمجهول مجهول

وعُقول الأَنام لو تستوى لم يك فرقٌ بين الغبىّ والنبيه
محور الأَرض لو غدا مستقيما لتساوى النهار والليل فيه

* * *

الباب الحادى عشر فى الأدب

قال أبو تمام فى مكارم الأخلاق :

إذا جاريت فى خلق دنيئاً فأَنت ومن تجاريه سواءُ
رأَيت الحُر يجتنب المخازى ويحميه عن الغدر الوفاءُ

وما من شدة إلا سيأْتى لها من بعد شدتها رخاءُ
لقد جربت هذا الدهر حتى أَفادتنى التجارب والعناء
يعيش المرءُ ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقى اللحاءُ
إذا لم تخش عاقبة الليالى ولا تستح فاصنع ما تشاءُ

وقال أَيضاً فى الحرية :

سأَصرف وجهى عن بلاد غدا بها لسانى معْقُولا وقلبى مقفلا
وإن صريح الحزم والرأْى لامرىءٍ إذا بلغته الشمسُ أَن يتحوَّلا

وقال أَبو فراس الحمدانى فى نتيجة الاختبار والتجارب :

لا أَشترى بعد التجارب صاحباً إلا وددت بأَننى لم أَشره
وتركتُ حلو العيش لم أَحفل به لما رأَيت أَعزه فى مرّه
والمرءُ ليس بغانم فى أَرضه كالصقر ليس بصائد فى وكره

قال أَبو العلاء المعرى فى الشيوخ المتظاهرة بالصلاح :

لئن قدرت فلا تفعل سوى حسن بين الأَنام وجانب كل ما قبحا
فكم شيوخ غدوا بيضاً مفارقهم يُسبِّحون وباتوا فى الخنا سبحا
وليس عندهم دينٌ ولا نُسكٌ فلا تغرك أَيد تحملُ السِّبحا
لو تعقل الأَرض ودت أَنها صَفِرت منهم فلم ير فيها ناظر شبحا

وقال الطغرائى فى المقارنة بين العدو والحسود :

جامل عدوك ما استطعت فإنه بالرفق يطمع فى صلاح الفاسد
واحذر حسودك ما استطعت فإنه إن نمت عنه فليس عنك براقد
إن الحسود وإن أَراك تودُّداً منه أَضر من العدوِّ الحاقد
ولربما رضى العدو إذا رأَى منك الجميل فصار غير معاند

ورضا الحسود زوالُ نعمتك التى … أوتيتها من طارف أو تالد
فاصبر على غيظ الحسود فناره … ترمى حشاه بالعذاب الخالد
أَو ما رأَيت النار تأْكل نفسها … حتى تعود إلى الرماد الهامد
تضفو على المحسود نعمة ربه … ويذوب من كمدٍ فؤاد الحاسد

وقال ابن الرومى فى عدم الإكثار من الأَصحاب :

عدوك من صديقك مستفاد … فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداءَ أَكثر ما تراه … يكون من الطعام أَو الشراب
إذا انقلب الصديق غدا عدوًّا … مبيناً والأُمور إلى انقلاب
ولو كان الكثير يطيب كانت … مصاحبة الكثير من الصواب

وقال فى الانفراد والوحدة :

ذُقت الطعوم فما التذذت براحة … من صحبة الأَخيار والأَشرار
أَما الصديق فلا أَحب لقاءَه … حذر القلى وكراهة الإعوار
وأَرى العدو قذًى فأَكره قرنه … فهجرت هذا الخلق عن أعذار
من جور إخوان الزمان سرورهم … يتفاضل الأَحوال والأَخطار
لو أَن إخوان الصفاء تناصفوا … لم يفرحوا بتفاضل الأَعمار
أَأحب قوماً لم يحبوا ربهم … إلا لفردوس لديه ونار ؟ !

وقال المتنبى يلفت نظر العقلاء إلى طلب المعالى :

إذا غامرت فى شرف مرُوم … فلا تقْنع بما دون النجوم
فطعم الموتِ فى أَمر حقير … كطعم الموت فى أَمر عظيم
يرى الجبناءُ أَن العجز عقل … وتلك خديعةُ الطبع اللئيم
وكل شجاعة فى المرءِ تغنى … ولا مثل الشجاعة فى الحكيم
وكم من عائب قولا صحيحاً … وآفته من الفهم السقيم

وقال بشار بن برد فى وصف الأخ الحقيق :

خير إخوانك المشارك فى المـــــر وأين الشريك فى المرّ أينا ؟
الذى إن شهدت سرك فى الحـــــى وإن غبت كان أُذناً وعينا
مثل سر الياقوت إن مسه النا ر جلاه البلاءُ فازداد زينا
أنت فى معشر إذا غبت عنهم بدلوا كل ما يزينك شينا
وإذا ما رأوك قالوا جميعاً أنت من أكرم البرايا علينا
ما أرى للأنام ودًّا صحيحاً عاد كل الورى زورا ومينا

وقال أبو العتاهية فى صنع الجميل مع الناس :

خير أيام الفتى يوم نفعْ واصطناع الخير أبقى ما صنع
ما ينالُ الخير بالشر ولا يحصد الزارع إلا ما زرع
خذ من الدنيا الذى دَرَّت به وسل عما بان منها وانقطع
إنما الدنيا متاع زائل فاقتصد فيه وخذ منه ودع
وارض للناس بما ترضى به واتبع الحق فنعم المتبع

وقال أيضاً :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول هأنذا ليس الفتى من يقول كان أبى
لكل شىءٍ زينة فى الورى وزينة المرء تمام الأدب
قد يشرف المرءُ بآدابه فينا وإن كان وضيع النسب

وأنشد أبو عبد الله نفطويه لنفسه فى كون التعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر :

أرانى أنسى ما تعلمت فى الكبر ولست بناس ماتعلمت فى الصغر
وما العلم إلا بالتعلم فى الصبا لألفى فيه العلم كالنقش فى الحجر
وما العلم بعد الشيب إلا تعسف إذا كلّ قلب المرءِ والسمع والبصر

وما المرءُ إلا اثنان : عقل ومنطق   فمن فاته هذا وهذا فقد دَمَرْ[(١)]

ومما ينشد لخلف الأَحمر[(٢)] فى كون ميراث العلم أَبقى من ميراث المال :

خير ما ورث الرجال بنيهم   أَدب صالح وحسن ثناء
هو خير من الدنانير والأَو   راق[(٣)] فى يوم شدة ورخاء
تلك تفنى ، والدين والأَدب الصا   لح لا يفنيان حتى اللقاء[(٤)]
إن تـأَدبت يابُنَىَّ صغيراً   كنت يوما تُعد فى الكبراءِ
وإذا ما أَضعت نفسك أَلفيـــت[(٥)] كبيراً[(٦)] فى زمرة الغوغاءِ
ليس عطفى للعود إن كان رَطْباً   وإذا كان يابساً بسواءِ

ومن شعر المنصور الفقيه فى كون العلم بلا عمل كشجر بلا ثمر :

أَيها الطالبُ الحريص تعلم   إن للحق مذهباً قد ضللته
ليس يجدى عليك علمكَ إن لم   تكُ مستعملا لما قد علمته
قد لعمْرى اغتربت فى طلب العلم   وحاولت جمعه فجمعته
ولقيت الرجَال فيه وزاحمـ   ـت عليه الجميع حتى سمعته
ثم ضيَّعت أَو نسيت ، وما يَنْـ   ـفعُ علم نسيته أَو أَضعته
وسواءٌ عليك علمك إن لم   يُجد نفعاً عليك أَم ما جهلته
إلى كم تخادع النفس جهلا   ثم تجرِى خلاف ما قد عرفته
تصف الحق والطريق إليه   فإذا ما عَمِلت خالفت سمته

وقال محمود سامى البارودى فى انتهاز الفرصة :

بادر الفرصة واحذر فواتها   فبلوغ العز فى نيل الفرص
واغتنم عُمرك إبَّان الصبا   فهو إن زاد مع الشيب نقص

(١) أى هلك . (٢) كان راوية للشعر والأدب وشيخا من شيوخ النحويين البصريين ، توفى سنة ١٨٠ هـ . (٣) جمع ورق مثلثة وهى الدراهم المضروبة من الفضة . (٤) يوم اللقاء أى لقاء الله وهو يوم القيامة . (٥) أى وجدت . (٦) نصب على الحال .

وابتدر مسْعاك واعلم أن من بادر الصيد مع الفجر قنص
واجتنبْ كل غبي مائق فَهْوَ كالعيْر[١] إذا جدَّ قمصْ
إنما الجاهلُ فى العين قذى حيثما كان ، وفى الصدر غصصْ
واختبرْ من شئت يعرفه . فما يعرفُ الأَخلاق إلا من فحصْ
إن ذا الحاجة إن لم يغتربْ عن حماه مثل طير فى قفصْ

وقال أبو إسحاق إبراهيم الغزى فى كون الحركة بركة (٢) :

بمسيرة نقصَ الهلال ، وزادا فاجعل كراك[٣] إذا اعتزمت سهادا[٤]
لولا انصلات[٥] البيض[٦] من أغمادها[٧] مشحوذة لم تفضل الأَغمادا
وفضيلة الحيوان فى حركاته لولا منافعه لكان جمادا
ما العمر إلا راحلٌ وأظنه اتخـــذ الشبيبة للمسافة زادا
لا تخلعنَّ عن اللسان لجامهُ وتوق فرط جماحِه المعتادا
فالله خصَّ الاسماع بـآلة مثنى ، وجارحة الكلام فرادى

وقال أبو نصر عبد العزيز نباتة السعدىُّ[٨] فى طلب العلا :

حاولْ جسيمات الأُمور ، ولاتقل إن المحامد والعلا أَرزاق
وارغب بنفسك أن تكون مقصرا عن غاية فيها الطلاب سباق

---

(١) الحمار . (٢) هو ابراهيم بن يحيى بن عثمان الـــكلبى شاعر مجيد صاحب مطولات ولد بغزة سنة ٥٢٤هـ ، وتصرفت به الأحوال فذهب الى المشرق ومات بين مرو وبلخ سنة ٤هـ . (٣) الكرى النوم.
(٤) السهاد السهر . (٥) تجرد . (٦) السيوف .
(٧) جمع غمد وهو قراب السيف . (٨) هو أبو نصر عبـــد العزيز بن عمر المشهور بابن نباتة ، وينسب الى سعد تميم وعد فى شعراء سيف الدولة الحمدانى ، وله ديوان حافل ، توفى سنة ٤٠٥ ببغداد ، وهو القائل :

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والموت واحد

لا تشفقنَّ فإن يومك إن أتى ميقاته لم ينفع الإشفاق
وإذا عجزت عن العدو فداره وامزحْ له إن المزاح وفاق
فالنارُ بالماءِ الذى هو ضدها تُعطى النضاج ، وطبعها الإحراق

وقال المعتمد بن عباد فى وجوب التضحية لفدية الوطن :

إن يسْلب القوم العدَى وطنى وتسلِمُنى الجموع
فالقلبُ بينَ ضلوعِه لم تُسلم القلبَ الضلوع
قد رُمت يوم نزالهم ألا تحصننى الدُّرُوع
وبرزتُ ليس سوى القمـ يص على الحشا شىءٌ دفوع
أَجلى تـأَخر لم يكن بهواى ذلِّى والخضوع
ما سِرْتُ قط. إلى القتا ل وكان من أملى الرجوع
شيمُ الأُولى أنا منهمُ والأَصل تتبعه الفروع

وقال موسى بن عبد الله فى وجوب عدم الثقة بالغير :

تَولت بهجة الدنيا فكلٌّ جديدها خلق
وخان الناسُ كلُّهمُ فما أَدْرِى بمن أَثق
رأَيت معالم الخير ات سُدَّتْ دونها الطرق
فلا أَدبٌ ولا كرَمٌ ولا فضلٌ ولا خلق
فلستُ مُصدِّق الأَقوا م فى شىءٍ وإن صَدقوا

وقال الأَبْيَوَرْدى الأَموى المتوفى عام ٥٥٧ هـ بخراسان فى تقلب الزمان :

ملكنا أَقاليمَ البلاد فـأَذعنت لنا رغبة أَو رهبَة عظماؤها
فلما انتهت أَيامنا علقت بنا شدائدُ أَيامٍ قليل رخاؤها
وصِرْنا نلاقى النائباتِ بـأَوجه رقاق الحواشى كاد يقطر ماؤها
إذا ما هممنا أَن نبُوح بما جَنَت علينا الليالى لم يدعْنا حياؤها

وقال القاضى عبد الوهاب فى دوام الخير بين الناس ما داموا درجات ، فإذا تساوَوْا هلكوا :

مَتى تَصلُ العطاشُ إلى ارْتِواءِ إذا استقت البحارُ من الركايا
ومَنْ يَثْنِى الأَصاغِرَ عن مرادٍ وقد جلس الأَكابرُ فى الزَّوايا
وإنَّ ترفُّعَ الوُضعاء يوماً على الرُّفعاء من إحدى البلايا
وإذا استوت الأَسافلُ والأَعالى فقد طابت مُنادمة المنايا

وقال سعيد بن محمد فى كون عمل الإنسان يدل على أَصله :

ملكنا فكان العفو منا سَجيَّة فلما ملكتم سَالَ بالدم أَبطحُ
وحللتم قتل الأَسارى وطالما غدَوْنا على الأَسرى نَمُنُّ ونصفح
فحسبُكم هذا التعاون بيننا وكل إناءٍ بالذى فيه ينضحُ

وقال معْن بن أَوْفى فى لزوم التحفظ بآثار الآباءِ والجدود :

ورثنا المجد عن آباءِ صِدق أَسأنا فى جوارهمُ الصنيعا
إذا المجدُ الرفيع توَارَثَتْه بُناةُ السوءِ أَوشك أَن يضيعا

وقال الإمام الشافعى فى المنِّ والأَذى وتعداد صنائع الإحسان :

يحمِلنَّ لمنْ يَمنُّ نُ مِن الأَنام عليك مِنّه
واخترْ لِنفسكَ حَظها واصبر فإن الصبر جُنَّه
منن الرجال على القلوب أَشَدُّ من وَقْعِ الأَسِنَّه

وقال على بن عبد العزيز الجرجانى فى وصف النفوس الأَبية :

وقالوا تَوَصَّل بالخضوع إلى الغنى وما علموا أَن الخضوع هو الفقر
وبينى وبين المال شيئان حَرَّما عَلَىَّ بالغنى : نفسى الأَبيةُ والدهر
إذا قيل هذا اليسر أَبصرتُ دونه مواقف خيرٌ من وقوفى بها العُسر

وقال الشريف الرضى فى كون المال خادماً للإنسان

اشتَرِ العِزّ بما بيع فما العز بغال

ليس بالمغبونِ عقلا مُشترٍ عِزًّا بمال
إنما يدخرُ الما لُ لحاجاتِ الرجال
والفتى من جعل الأمْ وَال أثمان المعالى

وقال أبو تمام فى كون العز والمجد لاينالان إلا بالتعب والجد :

قد علمنا أن ليس إلا بشقِّ النفس صار الكريمُ يُدعى كريما
طلب المجد يُورث المرءَ خبلا وهموماً تقضقض الحيزوما
فتراه وهو الخليّ شجياً وتراه وهو الصحيحُ سقيما
تيمَّتْه العلا فليس يَعُدُّ البؤس بؤساً ولا النعيم نعيما

وقال مخيس بن أرطاة فى لزوم تجنب الإنسان كل ما يُعاب :

عَرضْت نصحة منى ليحيي فقال غششتنى والنصحُ مُر
وما بى أن أكون أعيب يحيي ويحيي طاهرُ الأخلاق بر
ولكن قد أتانى أن يحيي يُقال عليه بقاءُ شرّ
فقلتُ له تجنَّبْ كل شىءٍ يُعاب عليك إن الحرَّ حُرُّ

وقال ابن هانئ (متنبى الغرب) فى أن ليس للإنسان إلا ما سعى :

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه فمن كان أسعى كان بالمجد أجْدرَا
وبالهمة العلياءِ ترقى إلى العلى فمن كان أعلى هِمَّة كان أظْهرَا
ولم يتأخر مَن أراد تقدما ولم يتقدم من أراد تأخرا

وقال بعضهم فى كون التقليد فى الخير فضيلة :

إذا أعجبتك خلال امرئٍ فكنه تكن مثلَ مَن يعجبك
وليس على المجدِ والمكرماتِ إذا جئتها حاجبٌ يحجبك

وقال أبو روح ظفر بن عبد الله فى الهمة والعزيمة الماضية :

السيف يعلم أن لى فى حَدِّه سِرًّا نهاه الدهر عن إفشائه
والدهر يعلم أن لى فى صدْره ناراً مضرمة على أحشائِه

ولو أن أَطراف السيوفِ وفين لى لأَخذتُ حق الدهر من أَبنائه
همٌ مؤرقةٌ جفوف كلما أَرخى الظلامُ علىَّ ذيل خبائه
همُ النفوس منوطة بعنائها والمرءُ يخدعه لسانُ رجائه

وقال عمارة اليمنى المتوفى سنة ٦٦٩ فى الشجاعة والإِقدام :

العلمُ مذ كان محتاجٌ إلى العلم وشفرة السيف تستغنى عن القلم
وخيرُ خيلك إن غامرت فى شرف عزمٌ يفرق بين الساق والقدم
لايدركُ المجد إلا كلُّ مقتحمٍ فى موج ملتطم أَو فوج مضطرم
ورُبَّ أَمر يهاب الناس غايته والأَمر أَهونُ فيه من يَدٍ لفم
تنمى قوى الشيءِ بالتدريج إن رزقت
لطفاً ويقوى شرارُ النار بالضرم

وقال أَبو الحسن التهامى المتوفى سنة ٤١٦ هـ فى الأَدب العام :

لاتحمد الدهر فى بأْساء يكشفها فلو أَردت دوام البؤس لم يَدُم
فالدهرُ كالطيف بؤساهُ وأَنعمهُ عن غير قصد فلا تحمد ولا تلم
لاتحسبن حسب الآباءِ مكرمَة لمن يُقصرُ عن غايات مجدِهم
حسنُ الرجال بحسناهم وفخرهم بطولهم فى المعالى لا بطولهم
ما اغتابنى حاسِدٌ إلا شرفتُ به فحاسدى منعمٌ فى زى منتقم
فالله يكلأُ حسادى فأنعمهم عندى وإن وقعت عن غير قصدهم

وقال أَبو تمام فى كون المرءِ يجمع والزمان يفرق :

ولكننى لم أَحو وفراً مجمعاً ففزت به إلا بشمل مبدَّدِ
ولم تعطنى الأَيام نوماً مسكنا أَلذُّ به إلا بنوم مُشردِ
وطول مقام المرءِ فى الحىِّ مخلق لديباجتيه فاغترب تتجددِ
فإنى رأَيتُ الشمس زيدت محبة إلى الناس أَن ليست عليهم بسرمدِ
وليس يجلى الكرب رمح مسدد إذا هو لم يؤنس برأى مسدد

وقال أبو تمام فى كون الحركة بركة :

مَنْ أبن(١) البيوت أصبح فى ثو ... بٍ من العيش ليس بالفضفاضِ

والفتى من تعرفته الليالى ... فى الفيافى كالحية النضناضِ

صلتان أعداؤه حيثُ كانوا ... فى حديث من عزمه مستفاضٍ

كلَّ يوم له بصرف الليالى ... فتكةٌ مثل فتكة البراضِ

وقال بعضهم فى أن الأُمور تسهل بالصبر والإطمئنان لا بالذل والهوان :

إذا ضيقت أمراً ضاق جداً ... وإن هونت ما قد عز هانا

فلا تهلك لشىءٍ فات يأْساً ... فكم أمرٌ تصعب ثم لانا

سأَصبر من رفيقى إن جفانى ... على كل الأَذى إلا الهوانا

وقال الحسين بن مطير فى مكارم الأَخلاق :

أُحبُّ مكارم الأَخلاق جَهْدَى ... وأَكره أَن أَعيبَ وأَن أُعابا

وأَصفحْ عن سباب النَّاس حِلماً ... وشرُّ الناس من يهوى السبابا

ومن هاب الرِّجال تهيبوهُ ... ومن حقر الرجال فلن يُهابا

وقال القطامى فى التأَنى السلامة وفى العجلة الندامة :

والناسُ من يلق خيراً قائلون له ... مايشتهى ، ولأُم المخطئ الهبلَ

قد يدرك المتأَنى بعض حاجته ... وقد يكون من المستعجل الزلل

وربما فات قوماً بعض أَمرهم ... من التأَنى وكان الحزمُ لو عجلوا

والعيشَ لاعيشَ إلا ماتقرُّ به ... عين ولا حال إلا سوف تنتقلُ

وقال رجل من بنى أسد فى أَنه لا خير فى ود يجىء تكلفا :

وما أَنا بالنكس الدنىِّ ولا الذى ... إذا صد عنى ذو المودة أَحربُ

ولكنى إن دُمْت وإن يكن ... له مذهبٌ عنى فلى عنه مذهبُ

(١) ابن : لازم وأقام ، والفضفاض بفتح الفاء الشىء الواسع والصلتان الرجل الجاد فى أموره .

أَلا إن خير الودِّ وُدٌّ تطوعت ... له النفس لا ود أتى وهو متعب

وقال القاضى الجرجانى فى كون النفس الأَبية لا تقبل الدنايا وتستقبل المنايا :

يقولون لى : فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أَحجما

إذا قيل هذا منهل قلت قد رأى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظما

ولم أَبتذل فى خدمة العلم مهجتى ... لأَخدم من لاقيتُ لكن لأَخدما

أَأَشقى به غرساً ؟ وأَجنيهِ ذلة ، ... إذن فاتباعُ الجهل قد كان أَحزما

وقال البعيث بن حريث فى كون كرامة الإنسان متوقفة على حفظ الأَوطان :

وإن مسيرى فى البلادِ ومنزلى ... لبالمنزل الأَقصى إذا لم أَقرب

ولستُ وإن قربت يوماً ببائع ... بلادى ولا دينى ابتغاءَ التحبب

ويعتده قوم كثير تجارة ... ويمنعنى من ذاك دينى ومنصبى

وقال عمر بن الأَطنابة فى اقتحام الأَخطار لنيل الفخار :

أَبت لى عفتى وأَبى بلائى ... وأَخذى الحمد بالثمن الربيح

وإقحامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح

وقولى كلما جشأَت وجاشت ... رويدك تحمدى أَو تستريحى

لأَدفع عن مآثر صالحات ... وأَحمى بعدُ عن عِرْض صحيح

وقال أَبو تمام لايستحق الشكر والحمد إلا من تعب وجد :

الحمد شهدٌ لا ترى مشتارهُ ... يجنيه إلا من نقيع الحنظل

غل لحامله ويحسبهُ الذى ... لم يره عاتقهُ خفيفُ المحمل

وقال بعضهم فى الفقير الصابر المتجمل بالعفاف والكفاف :

كم فاقة مستورة بمروءة ... وضرورة قد غطيت بتجمل

ومن ابتسام تحتهُ قلبٌ شج ... قد خامرتهُ لوعة ما تنجلى

وقال أَبو تمام فى صدق اليقين :

قالوا ولكنهم طابوا فأَنجدهم جيشٌ من الصبر لا يُحصى له عدد
إذا رأوا المنايا عارضاً لَبِسُوا من اليقين دُرعاً مالها زَرَدُ

وقال هدية العذرى فى وجوب وضع الشىء فى موضعه :

ولا أَتمنَّى الشرَّ والشرُّ تاركى ولكن متى أَحمل على الشر أَركبِ
ولستُ بمفراحٍ إذا الدهر سرنى ولا جازعٍ من صرفه المتقلب

وقال بعضهم فى وجوب الثبات على المبدأ :

قد عشت فى الدهر أَطواراً على طرق شتى وقاسيتُ فيها اللينَ والفظعا
كلاًّ بلوتُ فلا النعماء تبطرُنى ولا تخشعتْ من لأوائها جزعا
لا يملأُ الهولُ صدرى قبل موقعه ولا أَضيقُ به ذرعاً إذا وقعا

عوِّد بنيك على الآداب فى الصغر كيما تقر بهم عيناك فى الكبر
فإنما مثل الآداب تجمعها فى عُنفوان الصبا كالنقش فى الحجر
هى الكنوز التى تنمو ذخائرها ولا يخاف عليها حادثُ الغير
إن الأَديب إذا زلتْ به قدمٌ يهوى على فرش الديباج والسُّرَر
الناس صنفان : ذو علمٍ ومُستمع واعٍ وسائرهم كاللغو والفكر

من لم يكن عقله مُؤدِّبه لم يغنه واعظ من النسب
كم من وضيع الأصل فى أُمم قد سودوه بالعقل والأَدبِ

لا تيأَسنَّ إذا ما كنت ذا أَدب على خمولك أَن ترقى إلى الفلك
فبينما الذهبُ الإبريز مختلط بالتربِ إذ صار إكليلاً على الملك

السبعُ سبعٌ ولو كلتْ مخالبهُ والكلب كلب ولو بين السباع رُبى
وهكذا الذهب الإبريز خالطهُ صفر النحاس وكان الفضل للذهب

لا يُعجبنك أَثواب على رجل دع عنك أَثوابه وانظر إلى الأَدب
فالعود لو لم تفُح منه روائحه لم يفرق الناس بين العود والحطب
وليس يسودُ المرءُ إلا بنفسه وإن عدَّ آباء كراماً ذوى حسب
إذا العودُ لم يُثمر ولو كان شعبة من المثمرات اعتده الناس من حطب
قد ينفعُ الأَدبُ الأَحداث من صغر وليس ينفعُ بعد الشيبة الأَدب
إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولن يلين إذا قومتهُ الخشب

وقال حاتم الطائى فى الكرم :

أَماوىُّ إن المال غادٍ ورائحٌ ويبقى من المال الأَحاديثُ والذكرُ
أَماوىّ إنى لا أَقول لسائل إذ جاءَ يوماً حلَّ فى مالنا النذرُ
أَماوى إما مانِعٌ فمبيِّنٌ وإما عطاءٌ لا ينهنههُ الزَّجرُ
أَماوىُّ إن يصبح صداى بقفرةٍ من الأَرض لاماءٌ لدىَّ ولا خمرُ
ترى أَن ما أَنفقتُ لم يك ضرَّنى وأَن يدىَّ مما بخلتُ به صفرُ

وقال حاتم الطائى أَيضاً فى الإِيثار :

وما أَنا بالساعى بفضل زمامها لتشرب ماءَ الحوض قبل الركائب
وما أَنا بالطاوى حقيبة رحلها لأَبعثها خفا وأَترك صاحبى
إذا كنت ربا للقلوص فلا تدع رفيقك يمشى خلفها غير راكب
أَنخها فأَردفهُ فإن حملتكما فذاك وإن كان العقابُ فعاقِب

وقال بعض الشعراءِ المتقدمين فى ذم الغيرة :

ما أَحسن الغيرة فى حينها وأَقبح الغيرة فى كلِّ حين
من لم يزل مُتهما عرسه مناصباً فيها لريْب الظنون
أَوشك أَن يغريها بالذى يخاف أَن يبرزها للعيون
حسبك من تحصينها وضعها منك إلى عرض صحيح ودين

لا تطلع منك على ريبةٍ فيتبعُ المقرونُ حبل القرين

وقال بعض الشعراءِ المتقدمين فى كرم الضيافة :

أَضاحك ضيفى قبل إنزال رحله ويخصب عندى والمحلُّ جديبُ
وما الخصب للاضياف أَن يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب

وقالت ليلى الأَخيلية فى العفة :

وذى حاجةٍ قلنا له : لاتبح فليس إليها ما حييتُ سبيل
لنا صاحبٌ لاينبغى أَن نخونه وأَنت لأُخرى صاحبٌ وخليلُ

وقال ابن الرومى فى القناعة :

مرحباً بالكفاف يأْتى هنيئاً وعلى المتعبات ذيل العفاءِ
ضِلة لامرىءٍ يشمِّر فى الجمـــع لعيش مُشمر للفناءِ
دَائباً يكنز القناطير للوا رث والعمر دائباً فى انقضاءِ
يحسب الحظ كله فى يديه وهو منه على مدى الجوزاءِ
ليس فى أَجل النعيم له حـــظ ، وما ذاق عاجل النعماءِ
ذلك الخائبُ الشقىُّ وإن كا ن يرى أَنه من السّعداءِ
حسبُ ذى إربةٍ ورأى جلىٍّ نظرت عينه بِلَا غلواءِ
صحة الدِّين والجوارح والعِرْ ض وإحراز مُسكة الحوباءِ
تلك خيرٌ لعارف المجد مما يجرع الناس من فضول الثراءِ

وقال بعض الشعراءِ المتقدمين فى القناعة :

أَحِبُّ الفتى ينفى الفواحِش سمعه كأَن به عن كلِّ فاحشةٍ وقْرَا
سليم دواعى الصدر لا باسطا أَذى ولا مانعاً خيرًا ولا قائلا هُجْرَا
إذا ما أَتت من صاحب لك زلة فكن أَنت مُحتالا لزلته عُذْرَا
غنى النفس مايكفيك من سد خلة فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرَا

وقال بعض الشعراءِ المتقدمين فى حب البنين :

لولا أُميمة لم أَجزع من العدَم ... ولم أَجُبْ فى الليالى حندس الظلم
وزادنى رغبة فى العيش معرفتى ... أَن اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
أَحاذرُ الفقر يوماً أَن يلم بها ... فيهتك الستر عن لحم وعن ضم
تهوى حياتى وأَهوى موتها شفقاً ... والموت أَكرم نزال عن الحرم

وقال مسكين فى كتمان السر :

وفتيان صِدْق لست مُطلع بعضهم ... على سر بعض غير أَن جماعها
لكل امرىءٍ شعب من القلب فارغ ... وموضع نجوى لا يُرام اطلاعها
يظلون شتى فى البلاد وسِرَّهم ... إلى صخرة أَعيي الرجال انصداعها

وقال أَبو العتاهية فى المغفرة :

إنى شكرت لظالمى ظلمى ... وغفرتُ ذاك له على علمى
ورأَيتُه أَسدَى إلىَّ يدًا ... لما أَبان بجهله حلمى
رجعَت إساءته عليه وإحســـــانى فساد مُضاعف الجُرْم
وغدوتُ ذا أَجْرٍ ومحمدة ... وغدا بكسب الظلم والإِثم
فكأَنما الإِحسان كان له ... وأَنا المسىءُ إليه فى الحكم
ما زال يظلمنى وأَرحمه ... حتى بكيت له من الظلم

وقال ابن مطير فى إكرام النفس :

ومن يتبع ما يُعجب النفس لم يزل ... مُطيعاً لها فى فعل شىءٍ يُضيرها
فنفسك أَكرم من أُمور كثيرة ... فما لك نفسٌ بعدها تستعيرها

وقال بشار فى السعادة :

وما خاب بين الله والناس عاملٌ ... له فى التقى والمحامد سوقُ
ولا ضاق فضل الله عن مُتعفف ... ولكن أَخلاق الرجال تضيقُ

وقال أَبو تمام فى الصداقة الكاذبة :

إن شئت أَن يسود ظنك كله فأَجِلهُ فى هذا السواد الأَعظم

ليس الصديق بمن يعيرك ظاهرًا متبسما عن باطن متجهم

وقال بعض الشعراءِ المحدثين فى الثقة :

فىّ انقباضٌ وحشمة فإِذا صادقتُ أَهل الوفاءِ والكرم

أَرسلتُ نفسى على سجيتها وقلتُ ما قلتُ غير مُحتشم

وقال أَبو تمام فى القناعة :

من زاحف الأَيام ثم عبا لها غير القناعة لم يزل مَقْلولا

من كان مرعى عزمِه وهمومه روض الأَمانى لم يزل مهزولا

لو حاز سلطان القنوع وحُكمه فى الأَرض ما كان القليل قليلا

وقال أَبو العلاءِ المعرى فى الخمر :

أَيأْتى نبىٌّ يجعل الخمر طلقةً فتحمل شيئاً من همومٍ وأَحزانى

وهيهات لو حلَّتْ لما كنت شارباً مخففةً فى الحلم كفة ميزانى

وله أَيضاً فى أَن الملك أَجير الرعية :

مُلَّ المقام فكم أُعاشر أُمةً أَمرَت بغير صلاحها أُمَراؤها

ظلموا الرَّعية واستجازوا كيدها فَعَدوْا مصالحها وهم أَجراؤها

وله أَيضاً فى رياءِ الوعَّاظ :

رُوَيْدك قد غُررت وأَنت حُرٌّ بصاحِب حيلة يعظ النساءَ

يُحرّم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها على عمد مساء

يقول لكم غدوْت بلا كساءٍ وفى لذاتها رهن الكساءِ

إذا فعل الفتى ما عنه يَنهى فمن جهتين ، لا جهة ، أَساءَ

وله أيضاً :

إذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع ، فالخُسر للعلماءِ
قضى الله فينا بالذى هو كائن فتمَّ ، وضاعت حكمة الحكماءِ

وله فى سلطان العقل :

يرتجى الناس أن يقوم إمامٌ ناطق فى الكتيبة الخرساءِ
كذب الظن لا إمامَ سوى العقـ ل مُشيرًا فى صُبحهِ والمساءِ
إنما هذه المذاهبُ أسبا بٌ لجلب الدنيا إلى الرؤساءِ

وله فى رياء العباد :

لعل أُناساً فى المحاريب خُوِّفوا بآى ، كناس فى المشارب أُطْربوا
إذا رام كيدًا بالصلاة مُقيمها فتاركها عمدًا إلى الله أقربُ

وله أيضاً :

أيا جسد المرءِ ماذا دها ك وقد كنت من عنصر طيب
تصيرُ طهورًا إذا ما رجَعْ تَ إلى الأَصل كالمطر الصيِّبِ

وله فى قسمة الارزاق :

لقد جاءَنا هذا الشتاءُ وتحته فقيرٌ معَرَّى ، أو أَميرٌ مُدرج
وقد يرزق المجدود أَقوات أُمةٍ ويُحرم قوتاً واحدًا هو أَحوج

وقال فى ذم البطالة :

ويُعجبنى دأْب الذين ترهبوا سوى أَكلهم كدالنفوس الشحائح
فما حبس النفس المسيحَ تعبدًا ولكن مشى فى الأَرض مشية سائح

وفى الرفق بالحيوان :

قد رابنى مغدى الفقير بجهله على العيْر ضرباً ، ساءَ ما يتقلد
يحمِّله مالا يطيق ، فإن ونى أَجال على ذى فترة يتجلد

وله أيضاً :

نفارق العيش لم نظفر بمعرفة أىُّ المعانى بأهل الأرض مقصود
لم يعطنا العلم أخبارٌ يجىءُ بها نقل ولا كوكب فى الأرض مرصود
وابيضَّ ما اخضر من نبت الزمان بنا وكل زرع إذا ما هاج محصود

وقال فى حقيقة الإيمان :

ما الخير صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صُوفٌ على الجسد
وإذا هو ترك الشرَّ مطَّرحاً ونفْضك الصدر من غل ومن حسد

وقال أيضاً فى خرافات النساء :

سألت منجمها عن الطفل الذى فى المهد : كم عائشٌ من دهره؟
فأجابها مائة ليأخذ درهما وأتى الحمامُ وليدها فى شهره !

وقال أيضاً فى راحة الموت :

قدِم الفتى ومضى بغير تئيَّة كهلال أول ليلة من شهره
لقد استراح من الحياة مُعجَّلٌ لو عاش كابد شِدَّة فى شهره

وفى العفة :

أَحْسِن جِوارا للفتاة وعدَّها أُخت السماك على دُنُوِّ الدار
كتجاور العينين لن تتلاقيا وحجاز بينهما قصير جدار

وله فى بقاء الماء :

مضى الأنام فلولا علم حالهم لقلت قول زهير آية سلكوا
فى الملك لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا منه فكيف اعتقادى أنهم هلكوا

وقال فى الصبر على الأذى :

إذا قال فيك الناس مالا تحبُّه فصبرا يفِئْ ود العدو إليكا
وقد نطقوا ميْناً على الله وافتروا فما لهم لا يفترون عليكا

الدِين المعاملة ، للمعرى أيضاً :

سَبِّحْ وصلِّ وطفْ بمكة زائرًا سبعين لاسبعاً ، فلست بناسكِ
جَهِلَ الديانة مَنْ إذا عرضت له أطماعه لم يُلفَ بالمتماسك

قتل الأَفراد ، وقتل الأُمم ، للمرحوم أديب إسحاق :

قَتلُ امرئ فى غابةٍ جريمة لا تُغتفرْ
وقتلُ شعب آمنٍ مسأَلةٌ فيها نظرْ
والحقُّ للقوَّةِ لَا يُعطاه إلا من ظفر
هٰذى حالة الدنيا فكن من شرِّها على حذَرْ

الوطن لابن الرومى :

وطنٌ به صحِبت الشبيبة والصبا ولبستُ ثوبَ العيش وهو جديد
فإذا تمثل فى الضمير رأيته وعليه أَغصان الشباب تميد

البنات ، لمعن بن أَوْس :

رأَيت رجالا يكرهون بناتهم وفيهِنَّ – لانغلو – نساء صوالح
وفيهن والأَيامُ يعثرن بالفتى عوائد لا يمللنها ونوائح

الكرم ، للبستى :

فسامح ، ولاتستوفِ حقك كله وأَبْقِ ، فلم يستقص قط كريم
ولاتغلُ فى شيءٍ من الأَمر واقتصد كِلَا طرَفَىْ قصد الأُمور ذميمُ

وقال الأَمير شكيب أَرسلان :

باللهِ لاتنْدِبوا قتْلِى ، ولاتهنوا بعدى ولاتغرقوا فى النوح والحزن
إن الشهيد لحىٌّ عند خالقه وإنما الميت حقاً خائن الوطن

الدواة ، للمرحوم إسماعيل صبرى باشا :

يا دوَاة اجعلى مِدادَكِ وِرداً لوفود الأَقلام حيناً فحينا

وليكن كالزمان حالًا وحالا　　تارة آسينا وأُخرى مُعِينا
أَكرمى العلم وامْنَحى خادميه　　ماءَك الغالىَ النفيسَ الثمينا
وابذلى الصافىَ المطهر منه　　لهداة السرائر المرشدينا
وإذا الظلم والظلام استعانا　　يوم نحس بأَجهل الجاهلينا
واستمد من الشرور مِدادا　　فاجعليه فى قسمة الظالمينا
واقذفى النقطة التى بات فيها　　غضبُ القاهر المذل كمينا
ليراع امرىءٍ إذا خط سطرا　　ننذ الحق وارتضى المين دينا
وإذا كان فيك نقطة سوءٍ　　كونت من خباثة تكوينا
فاجعليها قسط الذين استباحوا　　فى السياسات حُرْمة الأَضعفينا
وإذا خفت أَن يكون من الصخ　　ر جلاميدُ ترجمُ السامعينا
فابخلى بالمداد بُخْلا وإن　　أَعطيت فيه المئين ثم المئينا
فإن أَعوز المدادُ طبيباً　　يصف الداءَ دائباً مستعينا
فامنحيه المُراد مَنًّا وعرفا　　واستطيبى معونة المحسنينا
وإذا مهجة الحمائم أَسْدت　　نقطة سِرَّها الذكى المصونا
فاجعليها على المودَّات وقفاً　　وهبيها رسائل الشيقينا
فإذا لم تكن بقلبك إلا　　ما أَعدَّ الإخلاص للمخلصينا
فاجعليه حظى لأَكتب منه　　شرح حالى (لسيد المرسلينا)

القمار ، للشيخ نجيب الحداد ، من قصيدة طويلة :

لكلّ نقيصة فى النار عار　　وشرُّ مصائب المرء القمار
هو الداءُ الذى لا بُرْءَ منه　　وليس لذنب صاحبه اغتفار
تشادُ له المنازل شاهقات　　وفى تشييد ساحتها الدمار
يصيب النازلين بها سُهَادٌ　　وإفلاس فيأْسٌ فانتحار

الوطنية ، للشاعر المطبوع المرحوم مصطفى صادق الرافعى ، المتوفى سنة ١٩٣٧ م :

بلادى هواها فى لسانى وفى دمى يمجدها قلبى ويدعو لها فمى
ولا خير فيمن لايُحِبُّ بلادَه ولا فى حليف الحبِّ إن لم يُتيم

الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل : للمرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى المتوفى سنة ١٣٤٣ هـ :

إذا ما سفيهٌ نالنى منه نائلٌ من الذم لم يُحرَج بموقفه صدرى
أَعودُ إلى نفسى فإن كان صادقاً عتبت على وأَصلحت من أَمرى
وإلا فما ذنبى إلى الناس إن طغى هواها فما ترضى بخير ولا شَرِّ

النفس الأَبية : للشاعر الكبير أَحمد نسيم :

ولم أَدرعْ بالذُّلِّ شيمة حازمٍ عن العز والعلْيَاءِ لا يتنكب
كذا أَنا يا نفسى ، فكونى أَبية وما لك إلا مذهب الفضل مذهب

الجمال : لشاعر النجف بالعراق الشيخ محمد رضا الشبيبى :

لقد عصفت بالمكرمات زعازعٌ وعفت رسومَ الأَكرمين رياحُ
إذا أَظلمت أَخلاقنا وتجهمت فهل نافعٌ أَن الوجوه مِلَاح

الأَدب : للمرحوم محمد إمام :

لم يثبت الخير مال ولا نسب إنما الخير كل الخير فى الأَدبِ
مزيةٌ تملأُ الدنيا محاسنها سلم لكمال الفضل والحسبِ

الحكام : للمرحوم السيد توفيق البكرى المتوفى سنة ١٣٥٣ هـ :

حُكم الأُلى يحكمون الناس يُضحِكنى وسوءُ فعلهم فى الناس يُبْكينى
ما الذئب قد عاث بين الضأن أفتك من هذى الولاة بهاتيك المساكين

نشر العلم : لشاعر العراق الفيلسوف المرحوم جميل الزهاوى :

إذا كان نشر العلم ذنباً معاقباً عليه فإنى أَشهد الله مذنب

الثبات على المبدإ : لشاعر الشام أسعد رستم :

لا بدَّ للمرءِ مما ليس يرضيه إذا تداخلَ فيما ليس يعْنيه
فابدأْ بتحسين مبدأ أَنت صاحبه فالمرءُ يعرف أَصلا من مباديه

طلب المحال : للشاعر الجليل أَحمد محرم :

صرفتُ رجائى عن مطالب جمة وليس الذى يَرْجُو المحال بكيس
أَقول لنفسى والأَسى ليثيرها : مكانك إن النفس بالنفس تأْتسى

وقال محمد بن بشير فى الصبر الجميل :

إن الأُمور إذا انسدت مسالكها فالصبر ينفق منها كل ما ارتتجا
لا تيأَسنَّ وإن طالت مطالبه إذا استعنت بصبر أَن ترى فرجا
أَخلق بذى مصبر أَن يحظى بحاجته ومُدْمِنُ القَرْعِ للأَبواب أَن يلجا
قدِّرْ لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقاً عن غرَّةٍ زلجا
ولا يَغرَّنكَ صفو أَنتَ شاربه فربما كان بالتكدير ممتزجا

وقال الأَضبط بن قريع فى الأَدب العام :

لكلِّ ضيق من الأَمر سعَهْ والصُّبْح والمسا لا فلاح معهْ
قد يجمع المال غيرُ آكله ويأْكل المالَ غيرُ من جمعهْ
ويقطع الثوبَ غيرُ لابسه ويلبس الثوبَ غير من قطعهْ
فاقبل من الدَّهرِ ما أَتاكَ به من قَرَّ عيناً بعيشه نفعه
وصِلْ حبال البعيدِ إنْ وَصَلَ الـ حبل ، وأَقْصِ القريبَ إن قطعه
ولا تُعادِ الفقير علَّك أَنْ تركع يوماً والدهر قد رفعه

وقال عبيد بن الأَبرص الأَسدى أَحد فحول شعراءِ الجاهلية فى الصبر :

صبر النفس عند كل مُلِم إن فى الصبر حِيلة المحتال
لاتضيقنَّ بالأُمور فقد تكـ شفُ غماؤها بغير احتيال

الباب الثانى عشر فى الصبر والتأنى

تصبَّر ففى اللأواءِ قد يحمد الصبر ... ولولا صروف الدهر لم يعرف الحر
وإن الذى أَبلى هو العون فانتدب ... جميل الرضا يبقى لك الذكر والأَجر
وثق بالذى أَعطى ولاتك جازعاً ... فليس بحزم أَن يروعك الضر
فلا نعم تبقى ولا نقم ولا ... يدوم كلا الحالين عُسر ولا يُسر
تقلب هذا الأَمر ليس بدائم ... لديه مع الأَيام حُلوٌ ولا مر

اصبر على مضض الإدلاج فى السحر ... وفى الرواح إلى الطاعات فى البكر
إنى رأَيت فى الأَيام تجربة ... للصبر عاقبة محمودة الأَثر
وقل من جد فى أَمر يؤمِّله ... واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

عليك بإظهار التجلد للعِدَى ... ولا تظهرن منك الذبول فتحقرا
أَما تنظر الريحان يشمم ناضرًا ... ويطرح فى البيدا إذا ما تغيرا

صبرًا على نُوب الزما ... ن وإن أَبى القلب الجريح
فلكلِّ شئ آخر ... إما جميل أَو قبيح

الدهر أَدبنى والصبر ربانى ... والقوت أَقنعنى واليأس أَغنانى
وحنكتنى من الأَيام تجربة ... حتى نهيت الذى كان ينهانى

إنى رأَيت الصبر خير مُعوَّل ... فى النائبات لمن أَراد معوَّلا
ورأَيت أَسباب القناعة أَكدت ... بعرى الغنى فجعلتها لى معقلا
فإذا نبا بى منزل جاوزته ... وجعلت من غيره لى منزلا
وإذا غلا شئٌ علىّ تركته ... فيكون أَرخص ما يكون إذا غلا

إذا ما أَتاك الدهر يوما بنكبة ... فأَفرغ لها صبرًا وأَوسع لها صدرا
فإن تصاريف الزمان عجيبة ... فيوماً ترى يسرًا ويوماً ترى عُسرا

على قدر فضل المرءِ تأتى خطوبه ويحمد منه الصبر فيما يُصيبه
فمن قل فيما يتَّقِيه اصطباره لقد قل فيما يرتجيه نَصيبه

اصبر قليلا فبعد العُسر تيسير وكل وقت له أَمر وتدبير
وللمهيمن فى حالاتنا نظر وفوق تدبيرنا لله تدبير

واصبر ففى الصبر خير لو علمت به لكنت باركت شكرًا صاحب النعم
واعلم بأَنك إن لم تَصطبرَ كرماً صبرت قهرًا على ما خُطَّ بالقلم

كن حليما إذا بُليت بغيظ وصبورًا إذا أَتتك مُصيبه
فالليالى من الزمان حبالى مُثقلات يَلدْنَ كل عجيبه

تصبر أيها العبد اللبيب لعلك بعد صبرك ماتخيب
وكل الحادثات وإن تناهت يكون وراءَها فرج قريب

أَيا صاحبي إن رمت أَن تكسب العُلا وترقى إلى العلياءِ غير مزاحم
عليك بحسن الصبر فى كل حالة فما صابر فيما يَرُوم بنادم

بنى الله للأَخيار بيتاً سماؤه هموم وأَحزان وحيطانه الصبر
وأَدخلهم فيه وأَغلق بابه وقال لهم مفتاح بابكم الصبر

اصبر قليلا وكن بالله مُعتصما لا تعجلنَّ فإن العجز بالعجَلِ
الصبر مثل اسمه فى كل نائبة لكن عواقبه أَحلى من العَسَل

إذا جرحت مساويهم فؤادى صبرت على الإساءة وانطويتُ
وجئت إليهم طَلْق المحيا كأَنى لا سمعتُ ولا رأَيتُ

تأَن ولا تضق للأَمر ذرعاً فكم بالنجح يظفر من تأَنى
تأَن فحيثما المرْءُ تأَنى ينل نجحاً ويُدْرك ما تمنى

تأَن ولا تعجل بلوْمك صاحباً لعَلَّ له عذرًا وأَنت تلوم

الباب الثالث عشر فى الصدق

الصدق عز فلا تعدل عن الصدق واحذر من الكذب المذموم فى الخلق

عليك بالصدق ولو أنه أحرقك الصدق بنار الوعيد

عليك بالصدق فى كل الأُمور ولا تكذب فأَقبح ما يزرى بك الكذبُ

الباب الرابع عشر فى الكذب

لى حيلة فيمن يَنِـ ـمُّ وليس للكذاب حيلة

من كان يحذق ما يقو ل فحيلتى فيه قليله

نعم نعم إنما النمام ذو ضرر لكنما الكاذب الجانى أشد ضرر

أَخو النميمة إن يسمع ينم ومن يكذب يقل مايشاءُ قولا بغير أَثر

لذاك لى حيلة فى من ينم وما لى حيلة فى كذوب ملء فيه شرر

لى حيلة فى من ينم فإننى أطوى حديثى دونه وخطابى

لكنما الكذاب يخلق قوله ما حيلتى فى المفترى الكذاب

لايكذب المرءُ إلا من مهانته أَو فعله السوء ، أَو من قلة الأَدب

لبعض جيفة كلب خير رائحة من كذبة المرءِ فى جد وفى لعب

إياك من كذب الكذوب وإفكه فلرُبما مزج اليقين بشكه

ولربما كذب امرؤ بكلامه وبصمته وبكائه وبضحكه

إذا عرف الإنسان بالكذب لم يزل لدى الناس كذاباً ولو كان صادقاً

فإن قال لم تصغ له جلساؤه ولم يسمعوا منه ولو كان ناطقا

الباب الخامس عشر فى التواضع

إن شئت أَن تبنى بناءً شامخاً يلزم لذا البنيان أُسٌ راسخ

إن البناءَ هو الكمال وأُسه الـ ـصخرى فهو الاتضاع الباذخ

تواضع لرب العرش علك ترفعُ فما خاب عبد للمهيمن يخضع

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر على صفحات الماء وهو رفيع
ولاتك كالدخان يعلو بنفسه إلى طبقات الجو وهو وضيع

إذا شئت أن تزداد قدرًا ورفعة تواضع واترك الكبر والعجبا

تواضع إذا ما نلت فى الناس رفعة فإن رفيع القوم من يتواضع

الباب السادس عشر فى الكرم والكرماء

ونكرم ضيفنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيثُ مالا

فتى كملت خيراته غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم فى المنزل الخشن

أبى الجود فى الدنيا سواك لأنه تفرع من جود وأنت أبو الجود

إن الكريم الذى لا مال فى يده مثل الشجاع الذى فى كفه شلل
والمال مثل الحصى مادام فى يدنا فليس ينفع إلا حين ينتقل

لو أشبهتك بحار الأرض فى كرم لأصبح الدر مطروحا على الطرق
أو أشبه الغيثُ جودًا منك منهملا لم ينج فى الأرض مخلوق من الغرق

من قاس جدواك بالغمام فما أنصف فى الحكم بين شكلين
أنت إذا جدت ضاحك أبدًا وهو إذا جاد دامع العين

ما نوال الغمام وقت ربيع كنوال الأمير وقت سخاء
فنوال الأمير بدرة مال ونوال الغمام قطرة ماء

الباب السابع عشر فى البخل والبخلاء

يفنى البخيل بجمع المال مُدَّته وللحوادث والأيام ما يدعُ

كدودة القز ما يبنيه يهدمها　　وغيرها بالذى تبنيه ينتفع
إن هذا الفتى يصون رغيفاً　　ما إليه من ناظر من سبيل
فى جراب فى جوف تابوت موسـ　　ـى والمفاتيحُ عند ميكائيل

شرابك مختُوم وخُبزُك لايُرَى　　ولحمك بين الفرقدين معلق
نديمك عطشانٌ وضيفك جائعٌ　　وكلبك نبَّاح وبابك مُغلق

نوالك دُونه شوك القتاد　　وخبزك كالثريا فى البعاد
ولو أَبصرْت ضيفاً فى منام　　لحرَّمتَ الرقاد على العباد

وذى حرص تراهُ يلم وفرا　　لوارثه ، ويدفع عن حماه
ككلب الصيد يمسك وهو طاوٍ　　فريسته ليأْكلها سواه

حسبى معلمى إن نفع　　ما الذل إلا فى الطمع
من راقب الله نزع　　عن سوء ما كان صنع
ما طار طير وارتفع　　إلا كما طار وقع

أَصبحت أَجوع خلق الله كلهم　　وأَفزع الناس من خبز إذا وُضِعا
خبز البخيل لمكتوب عليه أَلا　　لا بارك الله فى ضيف إذا شبعا

إياك والحرص إن الحرص مَتعبةٌ　　فإن فعلت فراع القصد فى الطلب
قد يرزق المرءُ لم تتعب رواحله　　ويحرم المرءُ ذو الأَسفار والتعب

إذا كسر الرغيف بكى عليه　　بكا الخنساء إذ فجعَتْ بصخر
ودون رغيفهِ قلع الثنايا　　وضربٌ مثل وقعة يوم بدر

تغير إذ دخلتُ عليه حتى　　فطنتُ فقلت فى عرض المقال
علىّ اليوم نذرٌ من صيام　　فأَشرقَ وجهه مثل الهلال

قد شاب رأسى ورأس الدهر لم يشب ... إن الحريص على الدنيا لفى تعب

وقال أبو محمد إسحاق الموصلى فى ذم البخل :

وآمرة بالبُخل قلتُ لها اقصرى ... فليس إلى ما تأْمرينَ سبيلُ
أرى الناس خلان الجوادولا أرى ... بخيلا له فى العالمين خليلُ
وإنى رأيت البخل يُزْرى بأهله ... فأكرمتُ نفسى أن يقال بخيلُ
ومن خير حالاتِ الفتى لوعلمْته ... إذا نال شيئاً أن يكون يُنيلُ
عطائى عطاءُ المكثرين تجمُّلاً ... ومالى – كما قد تعلمين – قليل
وكيف أخاف الفقرَ أو أحرمُ الغنى ... ورأْىُ أمير المؤمنين جميل

* * *

الباب الثامن عشر

فى وصف الدنيا

يا من عاش فى الدنيا طويلا ... وأفنى العمر فى قيل وقال
وأتعب نفسه فيما سيفنى ... وجمَّع من حرام أو حلال
هب الدنيا تقاد إليك عفوا ... أليس مصيرُ ذاكَ إلى انتقال؟!

إن لله عِبادًا فطنا ... طلقوا الدنيا وعافوا الفتنا
فكروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحى وطنا
جعلوها لجة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنا

عجبتُ للمرءِ فى دنياه تُطْمِعُهُ ... فى العيش والأجل المحتوم يقطعهُ
يمسي ويُصبح فى عشوَاء يخبطها ... أعمى البصيرة ، والآمالُ تخدعه
يغتر بالدهر مسرورًا بصحبته ... وقد تيقن أن الدَّهْرَ يصرعه
ويجمع المالَ حِرْصاً لا يُفارِقُه ... وما درى أنه للغير يجمعه

تراهُ يُشفِق من تضييع دِرْهمه وليس يُشفق من دين يضيعه
وأسوأُ الناس تدبيرا لعاقبة من أنفق العمر فى ماليس ينفعهُ

ومن يذق الدنيا فإنى طعمتها وسيق إلينا عذْبُها وعذابها
فلم أرها إلا غرورا باطلا كما لاح فى ظهر الفلاة سرابُها
وما هى إلا جيفةٌ مستحيلة عليها كِلابٌ همهن اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سِلماً لأهلها وإن تجتذبها نازعتك كلابها
فدع عنك فضلات الأُمور فإنها حرام على نفس التقِّى ارتكابها

ومن يحمد الدنيا لشيء يسُرُّه فسوف لعمرى عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة وإن أقبلتْ كانت كثيراً همومها

هى الدنيا تقول بملء فيها حذارِ ! حذارِ ! من بطشى وفتكى
فلا يغرُركمو منى ابتسامٌ فقولى مضحك والفعل مبكى

ياخاطب الدنيا الدَّنية إنها شرك الرَّدى وقرارة الأَقذار
دار متى ما أَضحكت فى يومها أَبكت غدا ، تبًّا لها من دار

الباب التاسع عشر

فى الأسرار

ولستُ بمبد للرجال سريرتى ولا أَنا عن أَسرارهم بسؤول

لا يكتم السِّرَّ إلا كل ذى ثقة والسر عند خيار الناس مكتوم
فالسر عندى فى بيت له غلق ضاعت مفاتيحه والبابُ مختومُ

صن السر عن مُستخبر وحاذر فما الرأى إلا الحذر

أَسيرُك سرك إن صنته   وأَنت أَسير له إن ظهر

كل علم ليس فى القرطاس ضاع   كل سر جاوز الإثنين شاع

إذا لم يكن فى الورى صاحب   وفيه ثلاث خصال حميده
وفاءٌ ، وسر ، وحفظ الولاء   فصحبته قط ليست مفيده

الباب العشرون

فى اللسان

لا يُعجبنك من خطيب خطبة   حتى يكون معَ الكلام أَصيلا
إن الكلام لفى الفؤاد وإنما   جُعل اللسان على الفؤاد دليلا

يُصاب الفتى من عثرة بلسانه   وليس يصاب المرءُ من عثرة الرِّجلِ
فعثرته فى القول تُذهِبُ رأْسه   وعثرته بالرجل تبرَا على مهل

احفظ لسانك أَيها الإنسان   لا يلدَغنك ، إنه ثعبان
كم فى المقابر من قتيل لسانه   كانت تهابُ لقاءه الشجعان

الصمت زين والسكوت سلامة   فإذا نطقت فلا تكن مكثارا
فإذا ندمت على سكوتك مرة   فلتندمنَّ على الكلام مرارا

عوِّد لسانك قول الخير تنجُ به   من زلة اللفظ أَو من زلة القدم
واحذر لسانك من خِلّ تنادمه   إن النديم لمشتقٌّ من الندم

الباب الحادى والعشرون

فى المعاشرة

إذ المرءُ لا يرعاك إلا تكلفاً   فدعه ولا تُكثِر عليه التأَسفا
فى المرءِ أَبدال وفى الترك راحة   وفى القلب صبر للحبيب ولو جفا

إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة فلا خير فى وِدٍ يجىء تكلفا
ولا خير فى خِلٍّ يخون خليله ويلقاه من بعد المودَّة بالجفا
وينكرُ عيشاً قد تقادم عهده ويظهر سرًّا كان بالأَمس قد خفا
سلامٌ عَلى الدنيا إذا لم يكن بها صديق صدوق الوعد منصفا

صافِ الكرام فخير من صافيتَه مَن كان ذا أدبٍ وكان ظريفا
واحذرْ مواخاة اللئيم فإنه يُبدى القبيح ويُنكر المعروفا
إن الكريم وإن تضعضع حاله فالخلقُ منه لا يزال شريفا
الناس مثل دراهمٍ قلبتْها فأَصبت منها فضة وزيوفا

ولن يصحبَ الإِنسان إلا نظيره وإن لم يكونا من قبيل ولا بلد
وما الغىُّ إلا أن تصاحب غاوياً وما الرشد إلا أن تصاحب ذا رشد

أخو الفسق لايغررك منه تودُّدٌ فكل حبال الفاسقين مهين
وصاحب إذا ما كنت يوما مصاحباً أخا ثقة بالغيب منك أَمين

اجعل قرينك من رضيت فعالهُ واحذرْ مقارنة اللئيم الشائن
كم من قرين شائنٍ لقرينه ومُهجِّنٍ منه لكل محاسن

وعينك إن أبدت إليك مساوياً من الناس قل ياعينُ للناس أعين
وعاشرْ بمعروف وكن متودِّدًا ولا تلقَ إلا بالتى هى أَحسنُ

الباب الثانى والعشرون

فى القناعة

وأَكل كُسيرة فى جنب بيتى أَحبُّ إلىَّ من أَكل الرغيف
ولُبْس عباءة وتقرَّ عينى أَحب إلىَّ من لبس الشفوف

هى القناعة فالزمها تعِش ملكا لو لم يكن منك إلا راحة البدنِ
وانظر لمن ملك الدنيا بأَجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن

قنعت بالقوتِ من زمانى وصُنتُ نفسى عن الهوان
خوْفاً من الناس أن يقولوا فضلُ فلان على فلان
من كنتُ عن ماله غنيًّا فلا أُبالى إذا جفانى
ومن رآنى بعين نقصٍ رأيته بالتى رآنى
ومن رآنى بعين تمٍّ رأيته كامل المعانى

إذا المرءُ عُوفىَ فى جسمه وملكه الله قلباً قنوعاً
وألقى المطامع عن نفسه فذاك الغنىُّ ولو مات جوعا

النفس تجزعُ أن تكون فقيرةً والفقر خيرٌ من غنى يُطغيها
وغنى النفس هو الكفاف فإن أَمت فجميعُ ما فى الأَرض لايكفيها

إن القنوع نفيسُ النفس راشدُها وهو الغنىُّ الذى يحيا بلا نصب
وذو المطامع مغرورٌ ومفتقر ولو حوى ملك سلطان وعلم نَبى

أَفادتنى القناعة كلَّ عزّ وهل عزٌّ أعزُّ من القناعة

ولقد طلبتُ رضا البرية جاهدًا فإذا رضاهُم غايةٌ لا تدْركُ
وأرى القناعة للفتى كنزًا له والبر أفضل ما به يتمسك

الباب الثالث والعشرون

فى الحسد

تخلق الناس بالأَدناس واعتمدوا من الصفات الدها والمكر والحسدا
كرهت منظرهم من سوءِ مخبرِهم قد تعاميتُ حتى لا أَرى أَحدا

اصبرْ على كيد الحسو د فإن صبرك قاتلُه
فالنار تأْكل نفسها إن لم تجد ما تأْكله

دع الحسودَ وما يلقاه من كمدٍ يكفيك منه لهيبُ النار فى كبدِه
إن لُمت ذا حسد نفست كُربته وإن سكتَّ فقد عذبته بيدِه

أيا حاسدًا لى على نعمتى أتدرى على من أسأت الأدب
أسأت على الله فى حكمه لأنك لم ترض لى ما وهب
فأحمد ربى بأن زادنى وسدّ عليك وجوه الطلب

إن شئت قتل الحاسدين تعمدًا من غير مُدْيات عليك ولا قود
وبغير سم قاتل وصوارم وعقاب رب ليس يغفل عن أحد
عظِّم تجاه عيونهم محسودهم فتراهموا موتى النفوس مع الجسد

الباب الرابع والعشرون

فى الحلم

ألا إن حلم المرء أكرم نسبة تسامى بها عند الفخار حليم
فيارب هب لى منك حلماً فإننى أرى الحلم لم يندَم عليه كريم

ولا خيرَ فى حلم إذ لم يكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

إذا كنت محتاجا إلى الحلم إننى إلى الجهل فى بعض الأحايين أحوج
ولى فرس للحلم بالحلم ملجم ولى فرس للجهل بالجهل مسرج
فمن شاء تقويمى فإنى مقوَّم ومن شاء تعويجى فإنى معوج
وما كنت أرضى بالجهل خِدناً وصاحباً
ولكننى أرضى به حين أُحرج

إذا كنت بين الحلم والجهل ناشئا وخيِّرت أنى شئت فالحلم أفضل
ولكن إذا أنصفت من ليس منصفا ولم يرض منك الحلم فالجهل أمثل

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السُّخط. تبدى المساويا
ولست بهياب لمن لا يهابنى ولست أرى للمرء ما لا يرى ليا
فإن تدن منى تدن منك مودتى وإن تنأ عنى تلقنى عنك نائيا
كلانا غنىٌّ عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانيا

الباب الخامس والعشرون

فى الحماقة

لكل داءٍ دواءٌ يستَطب به إلا الحماقة أعيت من يداويها

لا تيأسن من اللبيب وإن جفا واقطع حبالك من حبال الأحمق
فعداوةٌ من عاقل متجمل أولى وأسلم من صداقة أخرق

الباب السادس والعشرون

فى الوطن

قال ابن الرومى :

ولى وطن آليت ألا أبيعه وألا أرى غيرى له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب منعما بصحبة قوم أصبحوا فى ظلالكا
وحبّب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصِّبا فيها فحنوا لِذالكا
وقد ألِفته النفس حتى كأنه لها جسدٌ إن بان غودر هالكا

الباب السابع والعشرون

فى المال

إن الدراهم كالمرا هم تجبر العظم الكسيرا
لو نالهن ثعيلب فى صبحه أضحى أميرا

إن قل مالى فلا خل يصاحبنى وإن زاد مالى فكل الناس خلانى
فكل عدو لأجل المال صاحبنى وكم صديق لفقد المال عادانى

لعمرك إن المال يجعل الفتى سريا وإن الفقر بالمرء قد يزرى
وما رفع النفس الدنية كالغنى ولا وضع النفس النفيسة كالفقر

وإذا رأيت صعوبة فى مطلب فاحمل صعوبته على الدينار
وابعثه فيما تشتهيه فإنه حجر يلين قسوة الأحجار

الناس أتباع من دامت له نِعم والويل للمرءِ إن زلتْ به القدم
المال زَين ، ومنْ قلتْ دراهمه حى كمن مات إلا أنه صنم
لما رأيت أخلائى وخالِصتى والكلُّ مُسْتتِرٌ عنى ومُحْتشِم
أبدوا جفاءً و إعراضاً فقلت لهم : أذنبت ذنباً ؟ قالوا : ذنبك العدم

فصاحة حسَّان وخط. ابن مُقْلة وحِكمة لُقمان وزُهد ابن أدهم
إذا اجتمعت فى المرءِ والمرءُ مُفْلس ونُودِى عليه لا يُبَاعُ بدرهم

إذا كنت فى حاجة مُرْسِلاً وأنت بها كَلِفٌ مُغْرمُ
فأَرسلْ حكِيما ولا تُوصِهِ وذاك الحكيم هوَ الدرهم

أظهرُوا للناس زهْدًا وعلى الدينار داروا
ولهُ صامُوا وصلوا وله حجُّوا وزاروا

المالُ يفرقُ بين الأُمِّ والولد فذاك أدنى نسيب عند كلِّ يد
عهدى به خادماً كالعبد تملكه فما لعيْنِى تراه سيد البلد ؟

مالٌ يميل إلى الإنْسان من صغَر وكلما شبَّ شَبَّ الحب فى الكبد
لو يجمع الله ما فى الأرض قاطبة عند امرىءٍ لم يقُلْ حسْبى فلا تزد
كلٌّ يروح من الدنيا الغرور كما أتى بلا عدد منها ولا عُدد
لو كان يأْخذ شيئاً قبلنا أحد لم يبق شىءٌ لنا من سالف الأمد

إذا المرءُ لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذى هو مالكه
ألا إنما مالى الذى أنا مُنْفِقٌ وليسَ لىَ المال الذى هو أنا تاركه

من كان يملك درهمين تعلمت شفتاهُ أنواعَ الكلام فقالا
وتقدَّم الإخوان فاستمعوا لَهُ ورأيتهُ بين الورَى مُختالا
لولا دراهمه التى يزهو بها لوجدته فى الناس أسوأ حالا
إن الغنِىَّ إذا تكلم بالخطا قالوا صدقتَ وما نطقت محالا

أما الفقير إذا تكلم صادقاً قالوا كذبت وأبطلوا ما قالا
إنّ الدراهم فى المواطن كلها تكسو الرجال مَهابة وجمالا
فهى اللسانُ لمن أراد فصاحة وهى السلاح لمن أراد قتالا

الباب الثامن والعشرون فى السياحة والغربة

وإذا البلاد تغيرت عن حالها فدع المقام وبادرِ التحويلا
ليس المقام عليك فرْضاً واجباً فى بلدة تدع العزيز ذليلا

تنَقَّل فلذات الهوى فى التَّنَقلِ وَرِدْ كل صافٍ ولا تقف عند منهل
ففى الأَرض أَحبابٌ وفيها مَناهل فلا تبك من ذكرى حبيب ومنزل

تغرب عن الأَوطان فى طلب العلا وسافر ففى الأَسفار خمس فوائد
تفرج هم ، واكتساب معيشة ، وعلم ، وآداب ، وصحبة ماجد
وإن قيل فى الأَسفار ذل ومحنة وقطع الفيافى واكتساب الشدائد
فموت الفتى خير له من حياته بدار هوان بين واشٍ وحاسد

ارحل بنفسك من أَرض تضام بها ولا تكن لفراق الأَهل فى حرق
مَنْ ذَلَّ بين أَهاليه ببلدته فالاغتراب له مِنْ أَحْسَنِ الْخُلق
الكحل نوع من الأَحجار مُنطرحا فى أَرضه كالثرى يُرْأَى على الطرق
لما تغرَّب نال العز أَجمعه وصار يُحمل بين الجفن والحدق

مافى المقام لذى عقْل وذى أَدب من راحة فدع الأَوطان واغترب
سافر تجد عِوضاً عمن تصاحبه وانْصَبْ فإن لذيذ العيش فى النصب
إنى رأَيت وقوف الماءِ يُفسِدُهُ إن سَالَ طابَ وإن لم يجْرِ لم يَطب
والأُسد لولا فراق الغاب ماقنصت والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو وقفت فى الفلك دائمة لملها الناس من عجم ومن عرب
والبدر لولا أُفول منه ما نظرت إليه فى كل حين عين مرتقب
والتبر كالترب ملقى فى أَماكنه والعود فى أَرضه نوع من الحطب

فإن تغرَّب هذا عز مطلبهُ ... وإن أقام فلا يَعلو على رتب

إذا ما ضاق صدرك من بلاد ... فارحل طالباً أرضاً سواها
عجبتُ لمن يقيمُ بأرض ذل ... وأرض الله واسعةٌ فضاها
فذاك من الرجال قليل عُقل ... بليدٌ ليس يعلم ما طحاها
فنفسك فُزْ بها إن خفتَ ضيما ... وخلِّ الدار تنعى من بناها
فإنك واجدٌ أرضاً بأرض ... ونفسك لم تجد نفْسا سواها
ومن كانت منيته بارض ... فليس يموت فى أرض سواها

وقال الحريرى فى الحث على السفر من آخر مقامة له :

لا تقعدنَّ على ضر ومَسْغبة ... لكى يقال عزيز النفس مصطبر
وانظر بعينيك هل أرض معطلة ... من النبات كأرض حفها الشجر
وجانبن ما يشيرُ الأغبياء به ... فأىٌّ فضل لعود ماله ثمر
وارحل ركابك عن ربع ظمئت به ... إلى الجناب الذى يهمى به المطر
واستنزل الرى من در السحاب فإن ... بلت يَداك به فلينهك الظفر

بلادُ الله واسعة فضاء ... ورِزْقُ الله فى الدنيا فسيح
فقُلْ للقاعدينَ على هوَان ... إذا ضاقت بكم أرض فسيحوا

إذا رأيت الرزق ضاق ببلدة ... وخشيت فيها أن يضيق المكسب
فارحل فأَرْض الله واسعة الفضا ... طولا وعرضاً ، شرقها والمغرب

إذا ما كنت فى قوم غريباً ... فعاملهم بفعل يستطاب
ولا تحزن إذا فاهُوا بفحش ... غريبٌ الدار تنبحه الكلاب

وما طلبُ المعيشة بالتمنى ... ولكن ألق دلْوَك فى الدلاء
يجىءُ بمائها طورًا وطورًا ... يجىءُ بحمأةٍ وقليل ماء
ولا تقعد على كسل التمنى ... تحيلُ على المقدَّر والقضاء

فإن مقادر الرحمن تجرى بأرزاق الرجال من السماء
مقدرة بقبض أو ببسط وعجز المرء أسباب البلاء

الباب التاسع والعشرون

فى الغدر

لا أشتكى زمنى هذا فأظلمه وإنما أشتكى من أهل ذا الزمن
هم الذئابُ التى تحت الثياب فلا تكن إلى أحد منهم بمؤتمن

وزهدنى فى الناس معرفتى بهم وطول اختبارى صاحباً بعد صاحب
فلم ترنى الأيام خلا تسرنى مباديه إلا ساءنى فى العواقب

إنى بلوتُ الناس أطلبُ منهم أخا ثقة عند اعتراض الشدائد
فلم أرَ فيما ساءنى غير شامت ولم أرَ فيما سرنى غير حاسدِ

وقال على بن الجهم وهو مسجون :

قالوا حبست فقلت ليس بضائرى حبسى وأى مهند لا يغمدُ
فالشمس لولا أنها محجوبة عن ناظريك لما أضاءَ الفرقدُ
والبدر يُدركه السرار فتنجلى أيامه وكأنه مُتَجدّدُ

الباب الثلاثون

فى الدعاء الختام

أرانى الله وجهك كل يوم صبحا للتَّيمُّن والسرور
وأُمتعُ مقلتىَّ بصفْحتَيه لأقرأ الحسن من تلك السطور

بقيت مدى الدنيا وملكك راسخ وطودُك ممدود وبابك عامرُ
يود سناك البدرُ والبدر زاهرٌ ويقفو نداك البحرُ والبحرُ غامرُ
وهنئت أياما تَوَالت سعودها كما تتوالى فى العقود «الجواهرُ»

يقول مؤلفه : فرغت من تأليفه وترتيبه فى ربيع الأول سنة ألف وثلثمائة وخمس عشرة هجرية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية .

فهرست

الجزء الاول من كتاب جواهر الادب

فهرس الجزء الثاني